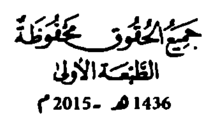
نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء السادس



1436 هـ - 2015 م



ISBN: 978-9938-14-193-1



مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

ســـــورة الأحقاف

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به أن كلمة الأحقاف لم ترد إلا في هذا السورة آية 21 واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف. نزلت على رسول الله ﷺ في مكة. رتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والأربعون. وحسب ترتيب النّزول الخامسة والستون. نزلت بعد سورة الجاثية وقبل سورة الذاريات. وبها ختام الحواميم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أجل مسمى: نهاية مقدرة محددة.

أرأيتم : أخبروني.

ما تدعون من دون الله : أصنامكم.

ائتوني : أحضروا.

أثارة : بقية.

بيان المعنى الإجمالي :

استوت فاتحة سورة الأحقاف مع فاتحة سورة الجاثية، فتفهم كما فهمت. و هي تمام السور السبع المفتتحة بـ "حم" إن الله المنزل للكتاب بعزته وحكمته، هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقا ملتبسا بالحق، لا باطل ولا عبث قدر لوجودهما

أجلا محددا، هو يوم فناء الكون الـذي يعقبـه البعـث. ولكـن الـذين كفـروا معرضـون عما أنذروا به من البعث.

أخبروني عن الأصنام التي تدعون أنهـا آلهـة مـن دون الله، أروتـي أي شـيء خلقـوه في الأرض ؟ وهم جامدون عاجزون؛ أم لهم قدرة علـى التـأثير فـي عـالم السـماوات، والمشركون أنفسهم ينفـون أن يكـون لآلهـتهم أي دخـل فـي العـالم العلـوي. أم هـل استندتم في تأليهها إلى كتاب منزل قبل القـرآن، فـإن جميـع الكتـب تنفـي نفيـا قاطعـا عبادة الأصنام، أم لكم بقية من أقوال العلماء الموثـوق بكلامهـم تثبـت دعـواكم، أجيبـوا إن كنتم صـادقين فـي دعـواكم بإظهـار أي مسـتند مـن المسـتندات المعروضـة، وإذ انتفت كلها، فكلامكم باطل لا دليل عليه ولا سند.

وأثار القرآن العجب من الذين يدعون آلهتهم لغـوثهم، وينصـرفون عـن الله. هـل يوجـد من هو أكثر مـنهم عمـى وضـلالة وبعـدا عـن المعقـول، إن الأصـنام لايسـتجيبون لدعائهم ولو واصلوا اسـتغاثتهم ودعـاءهم طيلـة الحيـاة الـدنيا إلـى يـوم القيامـة، إذ الأوثان غافلون عن دعائهم. والأنكـى أنهـم يكونـون يـوم المحشـر أعـداء لعابـديهم، منكرين وكافرين بعبادتهم.

بيان المعنى العام :

1-2:حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .

يمثل هذه البداية افتتحت سورة الجاثيـة، ويقـال فـي تفسـيرها مـا سـبق أن ذكـر فـي سورة الجاثية. و بهذه السورة يتم تتابع السور السبع المفتتحة بـ "حم"

3- ما خلقنا السماوات...عما أنذروا معرضون.

بعد أن ذكر القرآن بأنه أُنْزِل من العزيز الـذي لا يـرد لـه أمـر، الحكـيم فـي تـدبيره للكون؛ صرح بما يتبع عزتـه وحكمتـه فقـال: **إنـا خلقنـا السـماوات والأرض ومـا بينهما**، طوّعتْهما عزتنا فخرجتا من العدم إلى الوجـود، وسـرتْ فـي خلقهمـا حكمتنـا، فكان الحق ملابسا لهما، لا مكان للعبث، ولا للمصـادفة، إذ كـل جزئيـة مـن جزئياتهمـا مقدرة تقديرا من تاريخ وجودها على الوجه الذي وجـدت عليـه، إلـى علاقتهـا بغيرهـا، إلى المسار الذي تسير فيه. و قدرنا أنهـا مسـيّرة تنتهـي إلـى أجـل مضـبوط بدقـة لا تفنى قبل أجلها ولا تتـأخر عنـه. و العجـب أن الـذين كفـروا فجحـدوا تصـريف الله للكون، لا يلتفتون إلى الأدلـة الشـاهدة علـى تسـييرنا للكـون بحكمـة، التـي منهـا أن الحادث لا يمكن أن يكـون باقيـا بقـاء سـرمديا. و أن النّهايـة سـتكون يـوم القيامـة. فأعرضوا أيضا عن الإيمان بالبعث.

4- قل أرأيتم ما تدعون...إن كنتم صادقين.

تعالوا نبسط القضية بوضوح لنستخرج مباني ما تدعونه، من ألوهية الأصنام واستحقاقها للعبادة. أعرضوا علي شيئا أشاهده، مما خلقته الأصنام من الأرض وما عليها. مع أنها جامدة فاقدة للحياة والحركة، فكيف يستقيم أن تكون خالقة! وإذا انتفى أن تكون خالقة فهي لا تستحق أن تعبد. و إذا نفت المشاهدة أن تكون خالقة لشيء من الأرض، و انتقلنا من الأرض إلى السماوات، فهل لها أي شركة في تسيير العوالم العليا ؟ المشركون لا يدعون أن لها أي تأثير في السماوات.

و إذا انتفى قطعيا أن تكون الأصنام مؤثرة في خلق أي شيء في الأرض، ولا لها أي دخل في عالم السماوات، فهل استندتم في ادعائكم لها الألوهية إلى كتاب منزل من قبل القرآن؟ ولكن جميع الكتب المنزلة من عند الله تبطل عبادة الأصنام. أو هل عندكم بقية من مرويات أهل العلم تثبت للأصنام تصرفا؟ هل عندكم أي مستند استندتم إليه إن كنتم صادقين في ادعائكم أنها آلهة؟ فعلى جميع الاحتمالات لا يجدون أي حجة أو دليل.

5←6، ومن أضل ممن يدعو...بعبادتهم كافرين.

افتتحت الآية بـ[من] الدالة على طلب البحث، هل يوجد في الكون أشد ضلالا وأعجب حالا من الذي ينصرف عن عبادة الله والاستغاثة به في الملمات، ويدعو غيره،مع أن هذا الغير لا يسمع الدعاء، ولا يتصور أن يستجيب لنداء الداعي فيغيثه، ولو واصل نداءه ودعاءه طيلة الحياة الدنيا إلى نهايتها، بل إلى يوم القيامة. و من غباء هؤلاء المتعلقين بالأصنام العابدين لها، أنهم غير مدركين أن تلك الأصنام غافلة عنهم، لأنها لا تسمع ولا تعي خطابا ولا استغاثة. و مع كونها لا تستجيب لنداء المستغيثين بهم إلى يوم القيامة، يكونون يوم القيامة، يوم يحشر النّاس إلى ربهم، أعداء للذين استجاروا بهم ودعوهم لإغاثتهم، ويكفرون بخضوعهم لهم وعبادتهم. قال تعالى: **ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا** [1]– فمن خصائص يوم القيامة بعث الحياة في الأصنام نكالا في عابديها، إذ يتبرأون منهم، وينكرون عليهم ضلالهم بعبادتهم لغير الله.

---

[1] سورة الفرقان آية 18/17

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحق : آيات القرآن.

افتراه : اختلقه من عنده ونسبه إلى الله.

تفيضون فيه : تخوضون فيه طعنا وتكذيبا.

شهيد : المخبر بالواقع. ويعني به في الآية الحاكم بما يعلمه.

بدعا : مخالفا لما كان عليه الرسل من قبلي.

بيان المعنى الإجمالي :

من ضلالات المشركين، أنهم إذا سمعوا آيات الله في القرآن تتلى عليهم، قالوا: ما سمعناه لا يعدو أن يكون سحرا واضحا، لأنه يُغشّي على عقل مستمعه فينسى علاقته بزوجه وبأقاربه وبإخوانه. وأشنع من تلك الضلالات قولهم إن محمدا كذب على الله واختلق القرآن من عنده. قل لهم إني أعلم أن الافتراء على الله ليس بالأمر الهين، وأنه لو تجرأت على الله فافتريت عليه، فإنكم لا تستطيعون أن تنقذوني من عقوبة الافتراء، ولا أن تدفعوا عني شيئا من سخطه، هو سبحانه أعلم منكم بمكنون نفوسكم وبما حملكم على هذه التهمة لي. كفى به حاكما عدلا بيني وبينكم. وهو الغفور الرحيم، فإنه إذا تبتم عفا عنكم ورحمكم بفضله.

أخذ المشركون يقترحون مقترحات ربطوا بها تصديق رسول الله ﷺ. وطلبوا إخبارهم عن مغيبات. فأمره الله أن يقول لهم: إني رسول شأني هو شأن جميع المرسلين من قبلي لا أختلف عنهم. نبلغ ما يوحيه الله إلينا. ولا أدري ما سيجري عليّ في حياتي الدنيا، ولا ما سيجري عليكم. ومهمتي الأولى أن أنذركم ببيان واضح، سوء العاقبة إن لم تستجيبوا لما أوحاه الله إلي.

وقل لهم أيضا أخبروني إن كان هذا القرآن نزل من عند الله وكان موقفكم منه التكذيب والرفض، وقام شاهد من بني إسرائيل الذين تعودون إليهم وتثقون بهم، فشهد أن القرآن والكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل واحدة في أصولها، وأن محمدا رسول الله، وواصلتم استكباركم عن الحق، ألا تكونون ظالمين للحق. وبكل تأكيد إن الله يحرمكم ألطافه بسبب ظلمكم، فلا تتفتح لكم أبواب الهداية.

بيان المعنى العام :

7- وإذا تتلى عليهم...سحر مبين.

تواصل الآية تعداد صور من ضلال المشركين، وتعصبهم ضد الإسلام. إنهم إذا تلا عليهم رسول الله ﷺ آياتنا، آيات القرآن الواضحة البينة التي أنزلناها هدى ورحمة للعالمين، كان موقف الذين كفروا لأجل الحق الدامغ فيها أن قالوا: لا يعدو ما سمعناه أن يكون سحرا، وأكدوا أن كونه سحرا أمر بين لا شبهة فيه. كما قالوا إنه يفرق بين المرء وزوجه، ويمزق بخيالاته العلائق الإنسانية

8-أم يقولون افتراه...وهو الغفور الرحيم.

[أم] إضراب للتنبيه على الانتقال ليكون السامع مستعدا للتحول في الإخبار. أي إنه فوق ضلالاتهم التي كشفناها في الآيات السابقة، قولهم متهمين الرسول ﷺ: أنه اختلق القرآن من عنده، ولم يوح إليه شيء. كأنه قيل: دع هذا واسمع قولهم المستنكر: إن محمدا اختلق القرآن وقدمه للناس على أنه وحي من عند الله. قل لهم ردا لطعنهم وأنت مؤيد مني: إن الافتراء على الله أمر خطير جدا أقدره حق تقديره لأني أعلم موقفي من ربي إن كذبت عليه وأسندت إليه ما لم يقله. إنكم لا تستطيعون أن تردوا عني شيئا من نقمته لو تجرأت؛ ذلك أن الفساد الناشئ عن الكذب على الله ونسبة قول لم يقله، لا يقره الله ولا يهمل قائله ولا يمهله، فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي بالعذاب والتسفيه. وإن ربي يعلم حقيقة ما أنتم تخوضون فيه من التهم الباطلة والظنون الكاذبة.

ولما كان الله أعلم بكم من أنفسكم، فإنه سبحانه كافيني أن يكون حاكما بيني وبينكم فيما خضتم فيه وما اتهمتموني به. فهو الحكم العدل يجزيني عما قمت به، ويجزيكم عما أفضتم فيه، وأكثرتم الحديث. والله هو الغفور الرحيم، إيماء إلى ما يتحقق لهم من العفو عن كل ما ارتكبوه من تعد واتهام، إذا هم تابوا وآمنوا وصدقوا.

9-قل ما كنت بدعا...وما أنا إلا نذير مبين.

أنكر المشركون أن يرسل الله بشرا، ورموا النبي ﷺ بالافتراء. وشغبوا بما يؤثر في الدهماء حتى ينصرفوا عن الإيمان. طلبوا الآيات التي تجعل الله جل جلاله ينتظر

مقترحاتهم ليحقق ما طلبوه، وسألوا عن المغيبات التي ما أعلم الله بها رسوله أو لم يأذنه في تعريفهم بها، كطلب أحدهم ضلت ناقته أين ناقتي؟ وسؤال آخر من أبي؟. و من مقترحاتهم إنزال ملك يصاحبه، وإنزال كتاب من السماء مكتوب، والصعود إلى السماء، و أن يكون له بيت من ذهب. قل لهم قولا يقطع شغبهم: إني رسول كبقية الرسل. وشأن الرسل أنهم يبلغون ما يوحيه الله إليهم وما مكنهم منه. وما وراء ذلك، فالسنة فيه واحدة أن الرسل يعترفون بأنه وراء طوقهم، ولا يعتبر ذلك مطعنا في صدقهم، فموسى عليه السلام لما سأله فرعون ما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب[1]- ثم قطع تطلعهم إلى الغيب عن طريقه، فأضافت الآية: وما أدري ما يجري عليّ في الدنيا، ولا ما يجري عليكم. اعلموا أني متبع لما يصلني من وحي الله، أبلغه إليكم وأبينه. وقد علمت من الوحي أن وراء الحياة الدنيا الحياة الآخرة، وإن كل فرد سيحاسب حسابا دقيقا عما قدم، وأن الجزاء فيها إما أن يكون في الجنة للمتقين، وإما النكال والعذاب في جهنم للكافرين. و أن العاقبة الصالحة للمتقين في الدارين. و أن من أول مهماتي إنذاركم بإعلامكم أن العذاب على من كذب وتولى.

10- قل أرأيتم...لا يهدي القوم الظالمين.

تتابع الآيات والأدلة القاطعة للجاج الكافرين، وتنوعت تبعا لما هو عليه القرآن والرسالة من الحق البين. يؤمر الرسول ﷺ أن يقول لهم: أخبروني إن ثبت أن هذا القرآن من عند الله، وهو ثابت، إلا أنه مأمور بأن يجاريهم ليلزمهم في النهاية ويقطع شغبهم ويرفع عنادهم، إن ثبت ذلك وكان موقفكم منه الكفر به ورفضه، ثم تأيد صدقه أيضا بشهادة شاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، مماثل للقرآن من كتب بني إسرائيل المتفقة مع القرآن في التوحيد و إثبات البعث والحساب والوعد والوعيد، والأصول اليقينية التي لابد منها لانتظام أمر العالم كما جاء في قوله تعالى : وإنه لفي زبر الأولين[2]- وقوله إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى[3]- وأن القرآن والكتب السماوية السابقة نمط واحد في الأصول. ثم إن هذا الشاهد آمن به واستكبرتم أنتم، ورأيتم أنكم أسمى من أن تخضعوا لله، ولما نزل عليكم من الحق. إنه إذا تحقق كل ذلك ألستم ظالمين معاندين. و لا عجب منكم

---

[1] سورة طه آية 52/51

[2] سورة الشعراء 191

[3] سورة الأعلى 19/18

إذ واصلتم كفركم وعنادكم، فإن الله حرمكم هدايته، فلم ييسر لكم ألطافه التي تفتح عقولكم للحق، وقلوبكم للإيمان. إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

فآمن واستكبرتم – من هو هذا الإسرائيلي الذي آمن. ذكر كثير من المفسرين أنه عبد الله بن سلَام، وأنه شهد أن الرسول حق، وهو المبشر به في التوراة والإنجيل، وأن اليهود لما سألهم النبي ﷺ عنه، قبل علمهم بإسلامه، نوّهوا بفضله في العلم والنسب، وأنه لما أعلن إسلامه أمامهم قلبوا موقفهم منه و استنقصوه ما شاء لهم الاستنقاص. وأمر النبي ﷺ أن تلحق بهذه السورة في مكانها هذا. وأنكر بعضهم ربط الآية بعبد الله بن سلام، لأن الآية مكية، وإيمان عبد الله بن سلام كان قبل سنتين من وفاة رسول الله ﷺ. ومن ناحية أخرى، فإن انتظام الآيات لا يساعد على ذلك، فإن الآيات جاءت نسقا لمجادلة مشركي مكة. فتأخير نزولها إلى السنتين الأخيرتين من حياة النبي صلى الله عليه وسلم وإقحامها بينها بعيد.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

إماما : قدوة.

رحمة : سبب في نفع المتبعين له.

مصدق : مخبر يصدق جميع الكتاب السماوية.

الخوف : الهم الحاصل بسبب النظر إلى ما يستقبل.

الحزن : الهم الحاصل بسبب النظر إلى ما مضى.

بيان المعنى الاجمالي :

صورة أخرى من استكبار المشركين الذي حال بينهم وبين الإيمان أنهم قالوا :من أجل الذين احتقروهم واستهزأوا بهم من فقراء المسلمين: لو كان ما جاء به محمد خيرا لكنا السابقين للأخذ به، وما سبقنا هؤلاء المستضعفون الذين ليست لهم قيمة

اجتماعية.إنهم إذا لم تحصل لهم الهداية بالقرآن، فإنهم يصرحون في المستقبل بقولهم : هذا القرآن أساطير الأولين.

إنه من قبل إنزال القرآن على محمد أنزلنا كتابا على موسى هو التوراة، كتاب يصلح قدوة للناس ليسعدوا باتباعه. ويتضمن رحمة الله بعباده بما يرشدهم إليه من خير . وهذا القرآن هو أعظم الكتب المنزلة يصدق ما سبقه منها، ويصحح ما دخلها من تحريف، وينسخ ما شاء الله توقيف العمل به. وينذر الذين ظلموا بالشرك ما يترصدهم من نكال. ومن ناحية أخرى يبشر المحسنين بالسعادة في الدنيا و الآخرة. هذه السعادة التي ينالها الذين تعلقوا بالله ربهم وصرحوا بما يعتقدونه قائلين: ربنا الله، وفوق ذلك راقبوا صلتهم بالله في عبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم فأجروها حسبما بلغهم من الوحي ومن الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ. منْ جمع بين الإيمان والاستقامة لا يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما فات، غمرتهم الطمأنينة والرضا. و تتواصل سعادتهم في الآخرة فهم أصحاب الجنة بينهم وبينها تعلق شديد، خالدون فيها لا يبرحونها ولا يلحقهم فناء. وذلك جزاء بما قدموه من صالح الأعمال.

بيان المعنى العام :

11- وقال الذين كفروا...إفك قديم.

صورة أخرى من استكبار المشركين أنهم قالوا من أجل الذين آمنوا، بسبب أن الذين أسرعوا إلى الإيمان وكان كثير منهم من الفقراء الذين لم تبطرهم الأموال وحب الرئاسة تبعا للمكانة الاجتماعية التي أقر بها لهم الأتباع. قالوا لو كان القرآن خيرا ما سبقنا إلى الإيمان به والعمل بما تضمنه، هؤلاء الفقراء المستضعفون كبلال وآل ياسر، وعبد الله بن مسعود، وزنيرة أمة رومية ممن عذبن في الله إلى أن اشتراها أبوبكر ﷺ وأعتقها. وعن عروة بن الزبير : قال عظماء قريش لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا إليه زنيرة. ظنوا أن مكانتهم الاجتماعية يتبعها أنهم يستأثرون بكل خير، وأنهم المقدمون لتوله.

إنه إذ لم تحصل لهم الهداية بالقرآن فإنهم يواصلون طعنهم فيه بقولهم: هذا اختلاق وكذب استمر منذ القدم، كما قالوا: أساطير الأولين.

12-ومن قبله كتاب موسى...و بشرى للمحسنين.

طعن المشركون في القرآن، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء [1] فنقضت هذه الآية دعواهم، و بينت كذبهم بتحقيق أمر هم يعتمدونه. ذلك أن المشركين كانوا يعودون إلى أهل الكتاب وخاصة اليهود يسألونهم عما عندهم من العلم. فأكد القرآن

---

[1] الانعام آية 91

أن من قبل القرآن أنزل الله كتاب موسى عليه السلام "التوراة" وقدر أن يسمو ذلك الكتاب الذي أوتيه موسى ليكون قدوة يقتدى به ومرجعا يرجع إليه لمعرفة ما يجب عمله في الحياة، وفي العلاقات البشرية. وأن يكون رحمة لبني إسرائيل يحققون باتباعه خيري الدنيا والآخرة.

هذا القرآن الذي خوطبتم به، هو قمة ما أنزله الله على رسله، إذ هو يصدق الكتب السابقة، ويبين الأحكام التي أراد الله نسخها، ويكشف عما وقع فيها من تحريف. قال تعالى وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه[1] ثم نوه بمزية أخرى في القرآن، أن الله أراد أن كانت صياغة معانيه في قوالب عربية، تفهمونها، وتدركون أسرار نظمه المعجز. كتاب يؤدي رسالة الإنذار للذين ظلموا، يوقظهم من فساد التقليد للآباء في عبادة الأصنام، ويكشف لهم سوء عاقبة الشرك. وهذا الكتاب يخاطب المحسنين فيبشرهم بالحياة الآمنة المطمئنة في الدنيا وبالفوز بحسن العاقبة يوم القيامة.

13-إن الذين قالوا...ولا هم يحزنون.

صرحت الآية السابقة بأن القرآن بشرى للمحسنين. فأبانت هذه الآية من هم المحسنون. بكل تأكيد، هم الذين جمعوا بين ركني السعادة الأساسيين.

الركن الأول: الإيمان الواضح النقي الذي عمر قلوبهم ومشاعرهم، وحّدوا ربهم وتعلقوا به، وصدقوا بكل ما جاء به الوحي فأعلنوا بلسانهم قائلين: ربنا الله الذي خلقنا وقدر لنا من الألطاف ما هدانا به للتمسك بالعقيدة الصحيحة.

الركن الثاني: اليقظة إلى ما تقتضيه صلتهم بربهم من التزام الطريقة التي أوضح الوحي الإلهي، والإرشاد النبوي معالمها وأحكامها، في النشاط الفردي والاجتماعي. الاستقامة تتمثل في حسن العبادة، والحرص على الحلال واجتناب الحرام، والتحلي بفاضل الأخلاق التي تجد في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة. وعطفت الاستقامة ب "ثم" لما تنبني عليه من مواصلة المراقبة وتجديد الحضور بين يدي الله، ومقاومة دواعي الشهوة ونزغات الشيطان. إنه وإن كان الإيمان هو الركن الأول، إلا أن الإيمان إذا استقر في العقل والضمير يكون الحاصل مستمرا مصاحبا للإنسان. أما الاستقامة فإنها تتطلب يقظة دائمة ومراعاة لموقف الإنسان يوم القيامة بين يدي ربه.

---

[1] سورة المائدة آية 48

إذا اجتمع الركنان السابقان فلا خوف على من جمعهما من المستقبل، فهو آمن على أن ما سينتقل إليه يكون أفضل وأسمى. ولا حزن على ما مضى، إذ يكون ماضيه نقيا منيرا باستقامته.

14-أولئك أصحاب الجنة....خالدون.

أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على حسب ما أوحت به الآية، يتواصل ما يُحظَون به في الدنيا من طمأنينة راضية، إلى مآلهم يوم القيامة. فهم خالدون في الجنة، هم أصحابها الذين ألفوها وألفتهم. وبَنَوه بما قدموه، فيقع التصريح لهم أن ما ينعمون به في دار الكرامة هو جزاؤهم تقديرا لأعمالهم.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

كرها : مشقة.

فصاله : فطامه.

الأشد : حالة اشتداد القوى الجسمية والعقلية.

أوزعني :ألهمني.

نعمتي : النعم الإيمانية، والعقلية، والدنيوية.

تبت إليك : طهرت نفسي من الشرك. ومن المعاصي.

وعد الصدق : موعودهم الثابت الذي لا يتخلف.

أف : كلمة تدل على التضجر.

أتعدانني أن أخرج : إنكار للبعث، وتعجب منه.

خلت القرون : مضت الأمم.

يستغيثان : يطلبان الغوث من الله.

ويلك : كلمة تفيد التهديد. والويل الشر.

الأساطير : جمع أسطورة القصة المختلقة.

حق عليهم القول : ثبت ووجب.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا ما شرعه الله على لسان رسله ووجه إليه عناية الإنسان، وقد جاء في الشريعة الإسلام وافيا بصفة أبلغ مما سبق، هذه الوصية التي على كل فرد أن يرعاها حق رعايتها، هي البر بالوالدين والإحسان إليهما. فهما سبب وجوده، حملته أمه في بطنها وعانت من حمله تغير المزاج أولا ثم ثقله في اليقظة والنوم. ثم عند ولادته عانت آلام المخاض، ثم غذته من لبنها وقامت على جميع شؤونه راعية حافظة. وتواصلت تربيته، فإذا بلغ كامل قوته في ما بين سن الثلاثين والأربعين عليه أن يدعو ربه أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه، والثناء على فضله لما أنعم به على والديه، وأن يواصل هدايته ليعمل الأعمال التي يرضى عنها، وأن يصلح له في ذريته ليتواصل الصلاح، ومن النّعم الجلّى التي لا يلتفت إليها كثير من النّاس أنه معروف الأبوين ليس لقيطا. ويقدم ختاما لدعائه ما يرجى معه أن يتقبل الله دعاءه فيقول: ربي إني أمنت بك وطهّرت نفسي من التعلق بالآثام والمعاصي، وإني من المسلمين الطائعين.

هؤلاء الذين عرضت الآية استقامتهم وصدقهم يتقبل الله أحسن أعمالهم ويكتبها في صحائفهم ويجزيهم عنها، وينعم عليهم نعمة أخرى هي أنه لا يبقي لسيئاتهم أي أثر يتبعه لوم أو نقص. مآلهم مصاحبة أهل الجنة. إنه وعد ثابت لا يتخلف فيتحقق ما وعدوا به.

وفي المقابل يذكر القرآن نمطا خبيثا فاسدا، هذا الذي يدعوه والداه إلى الإيمان فيكون جوابه: أف لكما. وهي كلمة تدل على تضجر السامع وقلقه. قارن بين هذا النّمط، ونمط المؤمن: **قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك علي وعلى والديّ**. ثم واصل تحديه لهما؛ أتريدان أن أقتنع بالبعث، وقد مضت قرون وقرون مات النّاس ولم يعد أي واحد للحياة. وتوجه الأبوان الصالحان لله مستغيثين به ليهدي ولدهما، بعد أن نبهاه إلى أن مآله، الخسران إن هو تصلب في موقفه، ويلك آمن. فيضاعف

من عقوقه قائلا: كل ما تذكرانه هو القصص المختلقة تكررت على الأسماع منذ أزمان. هذا النمط من البشر نفذ فيهم العذاب الذي أخبر به القرآن في عديد الآيات، وسيجمعون مع من سبقهم من الأمم الضالة من الجن والإنس، ليُلقى بهم في جهنم، وقد خسروا حياتهم و أعمالهم.

بيان المعنى العام :

15-ووصينا الإنسان...وإني من المسلمين.

تتابع من بداية السورة إقامة الحجج على كون الإسلام الدين الحق، وجدال الكافرين وإزاحة شبهم، وذكر في ثناياها الرجل المؤمن من بني إسرائيل الشاهد على أن الإسلام يتفق في أصوله مع ما أنزل على موسى. و يواصل القرآن نسق دعوة المشركين إلى الإيمان فقدّم في هذه الآية صورة لجدل في أسرة بين الوالدين والأولاد في شأن الإيمان. و افتتح الصورة بالتذكير بالمبدأ الذي عُني به القرآن كثيرا وكرره في بناء الأسرة، فقال ووصينا، هي توصيته التي يتحتم الالتزام بها ورعيها. هي وصيته للإنسان في جميع العصور والأزمان على لسان جميع الرسل، فكان من هدايتهم جميعا حسنُ معاملة الأولاد لوالديهم. وأقنع الإنسان بهذا الإلزام بتذكيره بأصول نشأته، فكل فرد حملته أمه حملا صاحبه أتعاب لـلأم وآلام، ففي الأشهر الأولى قلق وتغير في المزاج، يختلف قوة وضعفا من أم إلى أخرى، ثم يثقل بطنها في الشهور التالية ثقلا يصاحبها في يقظتها وفي نومها، وإن كانت عاطفة الأمومة تحبب لها ما تحمله، إلا أنها تكون كارهة لتلك الأتعاب وتتحملها.ثم لمّا يأتي وقت وضعه إلى الدنيا يصحب انفصاله عن بطنها آلام وأوجاع هي كارهة لها.ثم تتوالى العناية به بعد وضعه بإرضاعه، وتنظيفه، وحمايته من تغيرات الطقس، ومن كل الأخطار التي تعصف بوجوده لولا عناية الأم، فيتجمع من الحمل إلى الفطام ثلاثون شهرا. فالأم تستمر في تحمل أتعاب ولدها ثلاثين شهرا على أقل تقدير هو وقت فصاله عنها في تغذيته، فيستغني بالطعام عن لبنها. وفي خلال تلك المدة يتلقى الولد عن الأم مبادئ الحياة الاجتماعية من الحب والحنان والاندماج في الآخرين.

يستمر الولد على صلته بوالديه والبر بهما، هو في ذلك بين المتلقي عن أبويه طريقة البر بهما في بواكير صباه، وبين المجتهد في البر بهما حتى يبلغ أمد اكتمال قواه الجسدية والعقلية " أشده "وقت اكتمال طاقاته الذي يظهر بعد الثلاثين ويتم عند الأربعين. فيقرن البر المادي بهما بالدعاء والابتهال إلى الله، الذي أرشدنا في هذه الآية إلى صيغة شاملة: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى

والدي وأن أعمل صالحا ترضاه إلى بقية الآية. ومما ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان نعمة انتسابه إلى أبوين معلومين.

يفتتح الدعاء بالشكر الخالص عن نفسه وعن أبويه. رب أوزعني: ألهمني أن استحضر نعمك التي أنعمت بها عليّ وعليهما، فأثني عليك كما أنت أهله ومستحقه، من الهداية في الدين، والتوفيق للعمل الصالح والتأدب بآداب الإسلام، ومن النعم الدنيوية كالصحة والعلم والمال، وكل ما يسرته فكانت الحياة به أوفق وأكمل، كصلاح الأسرة وسلامتها. وبهذا لا يشغله الدعاء لنفسه عن الدعاء لهما. وشكره نيابة عنهما، ويصل أجره لهما بعد وفاتهما، لقوله ﷺ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له[1].

ويدعوه أن يواصل توفيقه ليلتزم العمل الصالح الذي يرضي رب العالمين لحسن أدائه، وصدق نيته في كامل حياته. وأصلح لي في ذريتي؛ وهكذا يفعل الإيمان في التفكير الإنساني، ينظر لنفسه، وينظر لجذوره "ولوالدي" وينظر لامتداده في الوجود "وأصلح لي في ذريتي" وهذا الدعاء سيعود له نافلة منه، فمع صلاح الذرية دوام الدعاء للأصول.

ومن أدب الدعاء أن يختم الداعي بما يقوي رجاءه في القبول، فهو يتضرع إلى الله أن يتقبل دعاءه ولا يرده خائبا عن نول فضله، فإني مؤمن بك راجع إليك، ناصيتي بيدك، وإني قد اجتهدت في التحلي بما يجعلني من المسلمين بأداء الفرائض، واجتناب النواهي، والخضوع لك خضوعا يقربني منك.

16- أولئك الذين يتقبل...الذي كانوا يوعدون.

ما بسطته الآية السابقة يشهد لذلك النمط من البشر بالاستقامة والصلاح، فتميزوا بذلك تميزا أهلهم لأن يشار إليهم منفردين، استحقوا أن يتقبل الله أحسن أعمالهم فيكتبها لهم في صحائفهم، ويرتب عليها آثارهم من الثواب الجزيل والرضوان. وقيام الإنسان بما أوجبه الله عليه يسقط الطلب، أما أن يكون الفعل بمحل الرضا والقبول فهي درجة الفضل الإلهي. وشأن الإنسان أن لا يخلو عن تقصير إلا من عصمه الله تعالى كالأنبياء والمرسلين، فارتكابه للسيئات مرتبط بما ركب فيه من غرائز وشهوات، ولم يخلق مبرأ من الإثم متمحضا للخير. قال تعالى: وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة [2]. ولكن فضل الله إذا أخلص العبد لربه واستقام كما

---

[1] أخرجه مسلم وأحمد فيض القدير ج1ص438/439

[2] سورة البلد آية 11/10

صورته الآية السابقة فإن الله يتجاوز بفضله عن سيئاته وتقصيره، فتكون صحيفته بيضاء نقية غير ملوثة بالإثم. وبهذا يكونون ملازمين للجنة خالدين فيها لا يبرحونها. بهذا وعدهم ربهم وعده الذي لا يخلف فينجزه إليهم.

17-والذي قال لوالديه...إلا أساطير الأولين.

في مقابل تلك الصورة الوضيئة تأتي الصورة التي أراد القرآن أن يردع بها الكافرين. كانت الصورة الأولى، كلها سلام ووفاء، وتعلق بالحق، وآمال مفتحة، ثم محققة، هي صورة المؤمن. وعرض القرآن الصورة المقابلة صورة تشمئز منها النّفس الكريمة، صورة الكافر العاق لوالديه، المتطاول عليهما. فهل تتحدث الآية على شخص معين، أو تعطي نمطا للكافر في تعامله مع أصوله ؟ الفرض الثاني هو الراجح عندي، إذ تؤكد التنفير من الكفر باعتبار أنه صورة مشوهة للإنسان. هذا الذي قال لوالديه: أف لكما. أنا أتضجر منكما، ومن إلحاحكما علي أن أومن بالبعث يوم القيامة، وأن أخرج إلى حياة بعد الموت. لقد مضت قرون كثيرة ومات النّاس وتتابعوا إلى الفناء، ولم يرجع أي منهم إلى الحياة. وهي مغالطة، إذ البعث يكون يوم القيامة لا في الدنيا. يطلب الوالدان الحريصان على إنقاذه من الكفر، الغوث من الله ليهديه ويبصره بالحق. ويقولان له: ويلك! الهلاك لك والخسران إن واصلت تصلبك في الكفر، فاطرح عنك أفكارك وآمن بربك، واعلم أن وعد الله في النّقمة من الكافر، والمغفرة لمن آمن أمر حق لا شك فيه. فيزيد في تصلبه ويقول ما تعرضانه علي هو خرافة من خرافات الماضين اختلقوها.

18-أولئك الذين حق عليهم...إنهم كانوا خاسرين.

أولئك، هذا النّمط من البشر الذين عرتّهم الآية السابقة، وكشفت عن مساويهم، هم الذين وجب أن ينطبق عليهم العذاب الذي أوعدهم الله به، وتكرر وعيده لهم في القرآن، ينتقم منهم مع أمم قد سبقت في التاريخ من الكافرين من الإنس والجن. إن تلك الأمم التي ثبتت على الكفر هم الخاسرون حقا. ضاعت أعمارهم وأعمالهم، وتواصلت خسارتهم، فكانت نهايتهم كنهاية التاجر الذي خسر ماله وجهده.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

درجات : مراتب متفاوتة.

ليوفيهم : يعطون حقهم.

الهون : الهوان.

الفسوق :الخروج عن الدين وعن الحدود

بيان المعنى الاجمالي :

عدل الله وحكمته بهما يتحقق الجزاء، فالأخيار من النبيين والشهداء والصالحين، مرتبتهم عند الله أسمى من مرتبة الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وكذلك عذاب الكافرين الذين آذوا المسلمين، وبذلوا كل جهدهم لمنع النّاس من الدخول في الإسلام أو الالتزام بهديه وارتكبوا الموبقات، ليس كعذاب من كفر ولكنه سالم المسلمين ولم يسرق ولم يزن وكان مستقيما في حياته فيما عدى الإسلام.

وذكرهم يا محمد يوم يعرضون على النّار عالمين أنهم صائرون إليها. ويقال لهم : استوفيتم حظكم من الطيبات والنعيم في حياتكم الدنيا، وأشبعتم شهواتكم وغرائزكم فيها. إنه في هذا اليوم تلقون جزاءكم عذاب المهانة والذل، بسبب استكباركم في الأرض عن التوحيد، وتعاظمكم على رسول الله وعلى المؤمنين، وبسبب فسقكم وخروجكم عن طاعة الله إلى الإثم.

بيان المعنى العام :

19- ولكل درجات مما عملوا...وهم لا يظلمون.

سبق القدر الذي لا يُظلم فيه أحد، ويُجزى كل فرد بالجزاء الذي يوافق ما قدم. ولا شك أن مراتب النّاس في الخير متفاوتة، وكذلك مراتبهم في الشر. فهي درجات تذهب صعدا في الخير، وتنزل هاوية في الشر. وكل درجة لها من الجزاء ما يناسبها. وتقدير الثواب أو العقاب هو تابع لعدل الله وحكمته. فلا يُظلم أحد بأن يكون جزاؤه دون ما قدم من صالح الأعمال، ولا يكون جزاء الكافرين إلا بمقدار ما في أعمالهم من شر وفساد. إن مراتب الأنبياء والمرسلين، والصديقين والصالحين، ومراتب المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ليست واحدة. وكذلك عذاب الكافرين الذين قاوموا الإسلام وآذوا المؤمنين بغير ما اكتسبوا، ليس كعذاب الكافرين الذين لم تصدر منهم إذاية.

20- ويوم يعرض الذين كفروا...وبما كنتم تفسقون.

ذكّرهم يا محمد بما سيلقونه في اليوم الذي يعرضون فيه على النّار، اليوم الذي يشاهدون فيه النّار تتوقد ويعلمون أنهم صائرون إليها. ويقال لهم تقريعا ليتعذبوا

أولا بالحسرات: أخذتم كل حظكم من الطيبات في الحياة الدنيا فاستوفيتموه ولم يبق لكم شيء، ولا مطمع لكم بعد في كرامة ولا نعيم، وإنما هو ما تشاهدونه من نار الجحيم. أشبعتم شهواتكم، وتتبعتم الملاذ لا ترقبون في ذلك ما نهى الله عنه من الحرام. ففي هذا اليوم تلقون جزاءكم : عذاب الذل والهوان والخزي والفضيحة، بسبب ما ألفتموه في حياتكم من الاستكبار والتعاظم والاستعلاء، استكبرتم على قبول الدعوة، واستكبرتم على طاعة الله، واستكبرتم على رسول الله، واستكبرتم على المؤمنين. وظننتم أنكم فوق أن يُوقف أحدٌ رغباتكم، أو يمنعكم من تنفيذ بغيكم. بسبب فسوقكم وخروجكم عن حدود الطاعة بالشرك، وارتكاب القبائح والمعاصي.

واعتمد المتقون الذين انحصر مطمحهم في ما عند الله يوم القيامة وفي رضاه، هذه الآية في التعفف عن الطيبات و خفض العيش. روى قتادة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا، ولكن أستبقي طيباتي لآخرتي. ولما قدم عمر الشام صُنع له طعام لم ير قطُّ مثله، قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقتْ عينا عمر بالدموع وقال: لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا في حظهم بالجنة فقد باينونا بونا بعيدا. وقال حفص بن أبي العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت، والخبز والخل، والخبز واللبن، وكان يقول لا تنخلوا الدقيق (تزيلوا نخالته) فإنه طعامٌ كلُّه[1].

وخشيتُهم من دخولهم تحت قوله : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا. هو من شدة الورع، وعدم تعلقهم بمتاع الحياة الدنيا. إذ الآية لا تقتضي من المؤمن أن يمتنع عن الطيبات التي أحلها الله. والذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا هم الذين أقبلوا على الطيبات فاستوفوا حظهم منها، ولم يقرنوا الاستمتاع بما أُتيح لهم، بشكر المنعم على ما يسر وتفضل، ولم يراعوا في جمعه الحلال. ولم يعطوا حق الفقراء في أموالهم. فهؤلاء جمعوا فأكلوا واستمتعوا، ولم ينظروا إلى شيء آخر وراء ما استمتعوا به، فلا يجدون حظا وراء ما رضوا به لأنفسهم.

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج16 ص201

مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأخ: يراد به المشارك في نسب القبيلة.

الأحقاف : جمع حقف الرمل العظيم المستطيل.

خلت النذر : سبقه منذرون.

من بين يديه ومن خلفه : قريبا من زمانه وبعيدا.

عظيم : عظيمة أحداثه.

لتأفكنا : لتصرفنا عن عبادة آلهتنا.

العارض : السحاب العظيم الذي يعرض في أفق السماء.

مستقبلا : سائرا متجها نحو أوديتهم.

الأودية : جمع واد، محلة القوم.

التدمير : الإهلاك.

أصبحوا : صاروا.

مساكنهم : آثار مساكنهم بعد أن خربتها الريح.

مكناهم : أعطيناهم القدرة التامة.

صرفنا الآيات: تنويعها للتوضيح.

يرجعون : يقلعون.

لولا : أصلها للحث،فإذا دخلت على ما فات أفادت التوبيخ.

ضلوا عنهم : غابوا عنهم وقت حلول العذاب.

الإفك : الافتراء، الكذب المختلق.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر في نفسك يا محمد ما جرى لهود ﷺ لتجد فيه ما يسليك من إعراض قومك. دعا هود قومه وهم يسكنون بأرض رملية ممتدة على ساحل البحر لعبادة الله ونبذ عبادة الأصنام، والاجتهاد في تقواه. ولم يكن أول رسول بالتوحيد. ولكن سبقه رسل عن قرب ومنذ أزمان، دعوا لإفراد الله بالعبادة. وحرك صلتهم به بأنه يدعوهم إلى ما يحصنهم من عذاب يوم عظيم آت لا محالة إن هم واصلوا ما هم عليه من الشرك، فهو يحبهم ويخشى عليهم أن يصابوا بما يستأصلهم.

كان ردهم هل أتيت لنا لتصرفنا عن آلهتنا التي واصلنا عبادتها أزمانا ؟ فإن كنت صادقا حقاً فنحن نتحداك ليحل علينا هذا اليوم العظيمُ عذابُهُ سريعا.

كان جواب هود ﷺ: أما العذاب فإنه سيحل بكم لامحالة، وأما وقته فعلمه عند الله، لم يعرفني بتاريخه. وإني مكلف بإبلاغكم ما أرسلني به إليكم. وموقفكم يدل على أنكم قوم مغرقون في الجهل بعظمة الله وقدرته. ومضوا غافلين عما أنذرهم به هود. وذات يوم شاهدوا في الأفق سحابا كثيفا مُرَبِّدًا، ظنوه يحمل لهم الأمطار التي اشتاقوا إليها بعد طول جفاف. استبشروا به وجرت آمالهم إلى تصور الخصب والري. صدمهم القدر المحتوم الذي لا يرد، الذي استعجلوه، فإذا العارض يتحرك بسرعة ويتحول إلى ريح جعل فيها خالقها أنه تدمر كل ما يعترضها من بشر وحيوان ونبات وبنيان. وصاروا أثرا بعد عين، لا ترى أيها الرائي إلا أطلالا مهدمة خربة. وعلى هذا النحو من الاستئصال نجزي القوم المجرمين بالشرك والفساد. اعتبروا بما تشاهدونه حولكم من القرى التي دمرناها على ساكنيها فلم تبق منها إلا أطلال خربة، بعد أن نوعنا لهم الأدلة والبراهين التي تكشف لهم عن الحق، رجاء أن يقلعوا عما هم عليه من الشرك والفساد. فلم ينتفعوا بذلك.

يحق أن يوجه لهم التوبيخ على ضلالهم، لم ينصرهم الذين قدسوهم من دون الله راجين منهم النّصر، بل لم يجدوا لهم أي أثر في الوقت الذي حل فيه عليهم العذاب. إن تلك التصورات التي تعلقوا بها، نا بعة من كذبهم واختلاقهم.

بيان المعنى العام :

21- واذكر أخا عاد...عذاب يوم عظيم.

واصل القرآن من أول السورة إنذار المشركين بطرق متنوعة. وقد كشفت الآية السابقة عما يترصدهم يوم عرضهم على النّار، وعن تقريعهم وتنديمهم ومآلهم

النهائي. وعطف على ذلك أخبار قوم عاد مع نبيهم، وما تم من استئصالهم لما تصلبوا في تكذيب رسولهم؛ لعلهم يتعظون ويقدرون ما هم صائرون إليه بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنه سيكون كمصير قوم عاد.

تفتتح الآية بقوله: واذكر؛ التي تفهم على معنى عرض القصة مُعرِّفة لأطوارها، للاعتبار بأحداثها، وعلى معنى تذكر للنبي ﷺ في نفسه، ليتسلى بها ويجد فيمن تقدمه من المرسلين الأسوة. وأخو عاد هو هود عليه السلام، كان واحدا من أفراد قبيلته، نشأ بينهم وعرفوه في جميع أطوار حياته، شأنه شأن محمد ﷺ في قريش. ثم أرسله الله إلى قومه. وإلى هنا تم الإطار الذي تجري في أحداث القصة. قوم عاد يسكنون بأرض رملية بين عمان وحضرموت مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن [1] أرسل الله إليهم هودا عليه السلام، بعد أن فشا فيهم الشرك، فدعاهم إلى توحيد الله وتقواه، ونبذ عبادة الأصنام. كما فصل القرآن قصتهم في سورة الأعراف آية 72/65. اختل تصورهم للكون و عكفوا على عبادة الأصنام، فجاءهم لينذرهم سوء العاقبة إن لم يقلعوا عن الشرك. وتفيد الآية أنه قد سبق هودا عليه السلام قريبا "بين يديه" وأيضا منذ آماد طويلة "ومن خلفه" من عهد نوح عليه السلام، رسل من الله يدعون إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام. ذكّرهم هود بأنه يخاف عليهم، خوفه من مستتبعات وصفه بأنه أخوهم، عذاب يوم يستأصلهم من الوجود، ويسحق كل ما عمروا فلا ترى لهم من باقية،.

22-قالوا أجئتنا...من الصادقين.

همَّ هود عليه السلام، أن ينقذهم من عذاب الله قبل فوات الأوان، فردوا عليه رد المستكبرين الطغاة، هل جئتنا لتصرفنا عما استمر عليه اباؤنا منذ أزمان من تقديس آلهتنا؟ ولتنذرنا عذاب يوم عظيم، فائت بهذا العذاب المنذر به إن كنت من الموصوفين حقا بالصدق. وما استعجالهم العذاب إلا لأنهم يتهمونه بالكذب.

23- قال إنما العلم...قوما تجهلون.

جعلوا معيار صدقه حلول العذاب الموعود به، وتحدّوه. فكان جوابه إليهم: أما إن العذاب سيحقكم فهذا أمر مؤكد لاشك فيه، وستلقون ما أنذرتكم يقينا، ولكن تحديد وقت ذلك: أيحل بعد أمد قصير أو طويل؟ فإن علم ذلك عند الله وحده. وهو سبحانه لم يطلعني عليه. إن مهمتي لا تتعدى إبلاغكم ما أرسلني به الله إليكم. ولكنكم أظهرتم بتحديكم هذا أنكم مغرقون في الجهل، لا تدركون حقيقة الألوهية الفاعلة

[1] تاج العروس ج 23ص156

المختارة. إن قدرته سبحانه مرتبطة بالعلم والحكمة الأزليين، فتنفّذ القدرة ما تتعلق به الإرادة حسبما تقرر في العلم. الذي ضبط فيه لحظة حلول العذاب وكيفيته.

24-<25 ، فلما رأوه عارضا...نجزي القوم المجرمين.

أنذر هود قومه وبلغهم رسالة ربه إليهم، ولكنهم صمدوا على شركهم، ومضوا غير أبهين بالوعيد. ولما حل الأجل المقدر لإهلاكهم بدا لهم في الأفق سحاب عظيم مُرْبِدٌ، استبشروا به ظانين أنه يحمل لهم الري لأرضهم العطشى، بعد أن طال عليهم أمد الجفاف والقحط. كذب ظنهم، وانكشفت الحقيقة عكس ما أملوا. أضرب القرآن عما تنادوا به فرحين، بل – السائر نحوهم هو العذاب الذي استعجلتم به، وطلبتم حلوله سريعا تكذيبا لهود فيما أوعدكم به .العارض ريح كوّنها ربها، وجعل في طبيعتها أنها تعذب قوم هود عذابا مؤلما يحسون به أشد الإحساس. فهي لا تقضي عليهم بضربة واحدة تتشرب أرواحهم وتنتزعها سريعا. ولكن قدر فيها خالقها أن تعذبهم عذابا شديا.

ثم أخذ القرآن يستعرض خصائصها، ويعرضها على التالين للقرآن. فمن خصائصها أنها تدمر كل شيء يتعلق به أهل عاد تدميرا عجيبا لا تبقي بناء قائما، ولا سدا، ولا نباتا ولا شجرا، ولا حيوانا؛ تدمر عادا وما كسبت.

وتجسيما لفظاعة الصورة، صارت مساكنهم التي علّاها أهلها، وتأنقوا فيها ما يسرته لهم ثرواتهم، صارت إلى وضع، أنك لا ترى أيها الرائي منها إلا أطلالا منهدمة، خاوية من الحياة، ولا تسمع صوت إنسي، ولا رغاء شاة، ولانبياح كلب.

ويتعرض لمثل جزاء قوم عاد الذين ألفوا الإجرام بالشرك والإفساد في الأرض.

وفي التذكير بهذه القصة تهديد لقريش، أنهم سيلقون مآل الذين يكذبون رسل الله.

26-ولقد مكناهم...ما كانوا به يستهزئون.

لم يكن قوم عاد ضعافا ولا مهازيل، و كانوا على حظ من الحضارة، أقدرتهم على تطويع ما بين أيديهم لينتفعوا به أبلغ الانتفاع، وهو معنى التمكين الذي جاء في الآية.**ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه.** فنبهت الآية قريشا على أنهم لم يبلغوا المستوى الحضاري الذي بلغته عاد، لقد تصرفوا في محيطهم التصرف الجيد الذي ما مكناكم أيها القرشيون من المستوى الذي كان عليه قوم عاد.

ما كانوا مُعوّقين، حواسهم سليمة تنقل لهم أسماعهم ما بلّغهم هود، وكانت أبصارهم تلحظ لهم دقائق الصنع الإلهي في الكون، وكانوا على درجة من الذكاء تفتح لهم آفاق المعرفة، وتكشف لهم ما وراء الظواهر من الدلالات.

إذا أردت تقويمهم حسبما جمعوه من وسائل المعرفة للوصول إلى الحقيقة، تجدهم قد توفرت لهم معطيات كثيرة حسية وفكرية. ولكن تلك المعطيات قصرت بهم عن بلوغهم إلى الإيمان. وما أفادتهم أي إفادة تمكنهم من معرفة الحق وقبوله. فاستووا مع من فقد السمع والبصر والعقل، في الوقت الذي كانوا فيه مصممين على إنكار الأدلة الإلهية التي صحبت رسولهم، جعلوا حجابا بينهم وبين الآيات المعرفة بالتوحيد وبصدق رسولهم. فأحاط بهم العذاب إحاطة لم يسلم منها أحد منهم، ولقوا العذاب الذي كانوا يكذبون به ويستهزئون.

إن في تفصيل ما جمعه قوم هود من الأسباب الظاهرة التي كان يمكن أن تنقذهم من العذاب الذي استأصلهم، إن في ذلك ما يهدد قريشا بسوء المصير، وأن يحل بهم ما حل بعاد إن لم ينقذوا أنفسهم بنبذ الشرك، وتصديق محمد ﷺ.

27←28-ولقد أهلكنا ما حولكم...وما كانوا يفترون.

ما آل إليه قوم عاد ليس فريدا في بابه، بل هي سنة الله في الذين يرفضون الاستجابة لرسله، ويصرون على الشرك والعناد. إن حولكم وليس بعيدا عنكم مشاهد ماثلة تعرض لكم في أسفاركم، لو حدثكم عنها من مر عليها، تنطق آثارهم بالمستوى الذي كانوا عليه، ثم خربت ديارهم. سلّطنا عليهم ما أهلكناهم به؛ ولم نباغتهم بالعذاب، ولكن نوعنا الأدلة والبراهين بما يقتلع الشك من نفوسهم، ويكشف لهم الحق جليا واضحا. يسرنا لهم ذلك رجاء أن يتأثروا به فيقلعوا عما هم عليه من الشرك والفساد. فأبوا وأصروا على الكفر، فكانت عاقبتهم ما تشاهدونه من آثارهم.

ثم ذكر مآل الأمم المشركة المكذبة لرسلها، وشنّع بهم في هذه الآية الموبخة لهم على سوء اختياراتهم. كانوا يعبدون الأصنام متقربين إليها، آملين منها النّصر عند الشدة. تجاوزوا القادر الفاعل إلى ما ليس له إدراك ولا قوة. قدموا لهم القرابين، وخضعوا لهم خضوع العابد للمعبود. فلما حل اليأس بهم، وأرسلنا عليهم الريح المدمرة، التفتوا إلى تلك الآلهة فلم يجدوا لها أي أثر يحميهم ويدفع عنهم البلاء، غابت عنهم، وانكشف لهم أن رفع الأصنام إلى مرتبة الألوهية هو كذبة شاعت بينهم، اتحدوا فيها مع من سبقهم. ولدت خيالاتهم قوة لتلك الأصنام تحدثوا بها في مجالسهم، وما هي إلا أحاديث مختلقة لا أصل لها.وهذا أمر شائع في المجتمعات الجاهلة. يختلقون مثلا لبعض الأموات كرامات وتأثيرا في وقائع معينة لا أصل لها ويتناقلونها، ويكررون ذلك حتى تصبح من اليقينيات، ثم تنهال على قبر المنسوب له الخيالات القرابين، وتتكامل عظمته مع الزمن، فيدعونه للعون وكشف الضر، وتيسير زواج العوانس، وشفاء الأسقام.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)

بيان معاني الألفاظ:

صرفنا إليك : وجهنا نحوك.

نفرا:الرهط من الرجال دون العشرة.

أجيبوا: اعملوا بما بينه من الهدى.

داعي : القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكر أنا وجهْنا إليك جماعة من الجن عددهم نحو العشرة ليستمعوا منك القرآن. حضروا عندك وأنت تتلو آياته، فلما طرق سمعهم خشعوا وأوصى بعضهم بعضا أن ينصتوا إليه بمداركهم، وأن لا يحدثوا حركة ولا ما يشوش عليهم سماعهم له. ولما أتممت التلاوة يا محمد انقلبوا إلى قومهم منذرين لهم أن مآلهم العذاب إن هم لم يؤمنوا. قالوا لقومهم: يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزله الله بعد التوراة يتفق معها في أصول العقيدة، يهدي البشر بما شرع فيه إلى الحق ويُبْعدهم عن الباطل والإثم، ويبين لهم الطريق المستقيم الذي يبلّغهم النّجاة والسعادة، لا عوج فيه. ثم كرروا نداء قومهم ناصحين فقالوا: يا قومنا أجيبوا دعاء داعي الله محمدا وآمنوا بربكم تكتب لكم السعادة، فيغفر لكم من ذنوبكم، ويحميكم من العذاب الأليم. واعلموا أن من أعرض عن داعي الله ولم يؤمن فلا ملجأ له، ولا يجد أي مكان يحميه من لحاق العذاب به، ولا يجد وليا من دون الله ينصره. إن الذين أعرضوا عن الإيمان هم مغرقون في الضلال، يتخبطون فيه.

بيان المعنى العام :

29←32-وإذ صرفنا إليك...في ضلال مبين.

واذكر لهم يا محمد الحادثة التالية: إذ وجهنا نحوك جماعة من الجن يستمعون منك القرآن. وقبل أن نشرح المعاني التي نستشفها من الآيات، حري بنا أن نقدم مقدمة تشرح هذه الحادثة، وتقربها إلى المدارك التي من شأنها أنها إذا اتصلت بأمر أنف لم يستند إلى مشاهدة، أو استكشاف عقلي، أن تتوالى الفروض، التي ربما تحكم عليه بأنه من المرفوض. فأقول :

أولا: إننا لا ندرك من الوجود إلا قليلا، وقليلا جدا، كما قال تعالى :(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [1] وما زال الكثير من أسرار الأرض والسماء، محجوبا عنا. كلما وصل العلم إلى فتح مجال جديد من ذلكم الكم المجهول الكبير، انكشف له أن وراءه عوالم تناديه لبذل موصول الجهد للانتفاع بمكنوناتها. خذ لذلك مثلا : لو قيل لك في منتصف القرن الماضي إنك تستطيع أن تسمع وترى مخاطبك في بيته، وتتحدث إليه ويتحدث إليك، ويفصل بينكما مئات الآلاف من الأميال، لعد ذلك ضربا من الخيال المجنح، أقرب إلى الرؤى المنامية. وأنك تتابع وأنت في بيتك المكتشفين وهم يتحركون فوق سطح القمر. وكذلك طرق الكشف لأجهزة الإنسان وهي تقوم بوظائفها داخل الجسم. وأن يجري الجراح العملية الجراحية على المريض الذي يبعد عنه آلاف الأميال. وأن مكتبة تعد آلاف المجلدات تختزن في قرص تحمله في يدك، ونحو ذلك. هذه صور تؤكد أن معرفة الإنسان بعالم الإنسان، وبعالم الكرة الأرضية محدود، فضلا عن عوالم السماء الذي يمثل كوكبنا الأرضي جزءا صغيرا تافها في الكون العظيم .

ثانيا: إن الذي يحيط علما بكل هذه الكائنات، ولا يغيب عنه أي جزئية من جزئياتها، ولا قانون من قوانينها هو الذي أبدعها، ربنا الخلاق العليم. وكما نصل إلى العلم اليقيني بالتجارب حسب قانون المعرفة التجريبية، فكذلك نصل إلى المعرفة اليقينية أيضا بالخبر الصادق الذي يصلنا عن طريق الوحي الحق. فالذي خلق الكون هو الذي أعلمنا أنه خلق الجن والملائكة كما خلق الإنسان. ولا يتوقف الوجود على إدراك الموجود بحواسنا. ففي ذواتنا مثلا نوقن بأن عقولنا تفتح لنا أبواب المعرفة، وتصل بيننا وبين العوالم. ولكنا لا نلمس ولا نرى شيئا هو العقل.

ثالثا: لما أعلمنا الله في كتابه أنه خلق الجن كما خلق البشر، فإنه يجب أن نتيقن أن جنس الجن موجود. أما صورة هذا المخلوق، وإمكاناته، وقدراته، فهو من الغيب

---

[1] سورة الإسراء آية 85

الذي يعتبر تحديده أو تصويره ضربا من القول بغير علم. فالذين ينفون الجن ليس لهم سند إلا حصر المعلوم في المشاهد المحسوس، وهو قصور شنيع.

ولْنعُدْ إلى النص القرآني. يقول الله تعالى : **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن**.

تفيد الآية، والله أعلم، أن الله يأمر نبيه أن يخبر القوم، أن ألطافه وجهت مجموعة من الجن إلى المكان الذي يتلو فيه النبي ﷺ القرآن ليستمعوا إليه. فظاهر الآية لا يدل على أن النبي ﷺ خاطبهم أو شعر بوجودهم، وأنه ما علم بذلك إلا بواسطة هذا الوحي الذي جاءه من الله قرآنا. لم يكن عدد الحاضرين منهم كبيرا، كانوا نفرا حوالي عشرة. هداهم الله إلى الاستماع إلى الوحي المنزل عليه وتأثروا به. كيف فهموا القرآن، وهل إنهم يفهمون العربية أو إن الله أقدرهم على تبين ما نطق به القرآن؟ لم يفصل القرآن شيئا فتكله إلى عالم الغيب والشهادة، ولا يتأثر فهم النص القرآني بهذه التفاصيل. والمهم أن تأثرهم بلغ درجة أنهم تواصوا فيما بينهم بإصاخة أسماعهم، مع حضور وعيهم ليستوعبوا ما نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن. وأنهم واصلوا الاستماع إلى أن أتم القراءة. وأنهم حملوا ما سمعوا وبلغوه لقومهم، منذرين ومخبرين بما يترصدهم من شر وعذاب إن هم لم يسارعوا إلى الإيمان.

ثم سجل القرآن تأثر الجن الحاضرين عند سماعهم لآياته، فكذلك سجل الدور الذي قاموا به بعد أن رجعوا إلى قومهم منذرين. وذكروا لهم أنهم سمعوا كلاما يتضمنه كتاب من خاصياته :

أ-أنه كتاب يتفق في أصوله مع ما أنزل على موسى ﷺ، منهجهما واحد توحيد الله والإيمان بالبعث والحساب والتزام المؤمن العمل بما جاءه من ربه، ويصدق الكتب التي جاءت من عند الله.

ب: أن مهمته هي هداية الخلق إلى الحق عقيدة وسلوكا. بيّن الطريق التي يبلغ بها سالكها غايته من أقرب طريق، لا التواءات ولا متاهات ولا عوج ينحرف به الملتزم به عن قصده وعن الحق.

يا قومنا : أعادوا نداء قومهم لأن ما سيرد بعد ندائهم هذا هو الأهم،لأن ما قبله سرد لما شاهدوا، وهذا دعوة إلى اتباع الحق. حرّضوا قومهم على إجابة داعي الله: القرآن باعتبار أنه الجامع للهداية الربانية. كما يصح حمله على محمد باعتبار أنه الذي يدعو إلى الله بالقرآن. وعطفوا على الإجابة العامة الإيمان بالله لما له من مزيد عناية إذ هو أصل السعادة، وعرفوهم بما يترتب على ما دعَوْهُمْ إليه من خير وسعادة، أن استجابتكم يا إخواننا يتبعها مغفرة الله لبعض ذنوبكم، وهذا من دقة

فهمهم للدين، فإن الله يغفر الذنوب لمن يشاء ويحاسب من يشاء على ما قدم. وهو يغفر الذنوب لمن تاب وأناب، ومن لم يتب من ذنوبه، فإن الإيمان يغفر ما تقدم من الشرك ومن المعاصي، وما اقترفه المؤمن ولم يتب منه فأمره موكّل لربه. ويبعدكم عن العذاب الأليم الذي يختص به المشركون.

ثم واصلوا الدعوة إلى الإيمان بتحذيرهم من عاقبة الإصرار على الكفر. فقالوا لهم إن من لا يستجيب لداعي الله يقع في قبضة الموكلين بعذاب المتمردين، ولا يجد مكانا ينجيه يلجأ إليه. ولا يجد نصيرا يحميه وينصره من بأس الله.

إن الذين تمردوا ولم يستجيبوا لداعي الله وواصلوا ماهم عليه أولئك قد غمهم من جميع جهاتهم الضلال الواضح، فهم في ظلام الشرك تائهون.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

أولم يروا : أولم يعلموا.

العزم : النية التي لا تتردد في تنفيذها.

بيان المعنى الاجمالي :

تكرر في السورة التنبيه على صدق البعث، وهذه الآية تدخل في ذلك المقصد. ما بال المكذبين بأمر البعث المحيلين له؟ ألم يعلموا أن الله الذي أحكم خلق السماوات والأرض، وأنشأهما من عدم على غير مثال، ولم يلحقه إعياء، إذ لم يعاند قدرته أي شيء بل كل ما أراده يأتيه طائعا. من حقق ذلك ألا يكون قادرا على إحياء الموتى، فالله قادر على كل شيء وما إحياء الموتى إلا أمر تافه بالنسبة لخلق السماوات والأرض.

واذكر لهم يوم يعرض الذين كفروا وكذبوا على النّار فيشاهدونها وهي على أشد ما يكون توقدا وحرا، ويقال لهم كذبتم بالقيامة فما تقولون فيما ترون أليس حقا ؟ وليس لهم بعد العيان والمشاهدة إلا أن يقولوا، بلى ! وربّنا إنه حق. ويقال لهم

عندها: حلّ عليكم الجزاء الموعود به، فذوقوا العذاب بسبب إصراركم على الكفر في ماضي حياتكم.

لا تستعجل حلول العذاب بهم، واصبر على أذاهم فأنت من أولي العزم من الرسل الذين اتصفوا بالصبر على الأذى في سبيل نشر الحق. إنهم يوم يرون العذاب الموعود يوم القيامة، يشعرون أن بقاءهم في الدنيا لا يتجاوز لقصره ساعة من نهار.

بلاغ – ما أوحينا إليك من القرآن والهدى هو بلاغ إلى النّاس جميعا، للمؤمن ليزداد مضيا في طريق الخير والهدى، وللكافر ليرتدع ويعود إلى طريق الإيمان والرشد. إنه لا يحل الهلاك بالإبادة، وبسوء المصير يوم القيامة، إلا بالذين فسقوا فخرجوا عن الإيمان إلى الكفر، وعن الطريق المستقيم إلى طريق الغواية.

بيان المعنى العام :

33- أولم يروا أن الله...على كل شيء قدير.

تنكر الآية على منكري البعث عدم علمهم، أن الله الذي خلق السماوات والأرض على عظم أجرامهما ودقائق تركيبهما، أنشأهما بيسر، ولم يلحقه إعياء، فكان أمر إيجادهما سهلا عليه تمام السهولة. هذه الظاهرة المركبة من خلق السماوات والأرض، ومن تيسر ذلك عليه فلم يحصل منهما عناد ولا مقاومة، بل انقادا للإرادة الإلهية فنفذتهما على النّحو البديع الذي راعى كل جزئية في ذاتها وفي انتظامها مع غيرها، وما يحصل لها في مراحل تطورها التي لا يعلمها مقدما ولا يحصيها إلا خالقها. ألا يدل ما تحقق بقدرة الخلاق العليم على قدرته على إحياء الموتى. ويأتي الجواب بقوله: بلى – مثبتا أنه قادر على إحياء الموتى الذي هو حسب تقديرات البشر أهون وأيسر، وأقل تعقيدا من إنشاء السماوات والأرض على غير مثال. إن قدرته سبحانه لا تحدها حدود، ولا يعجزه شيء.تنفّذ قدرته كل شيء تعلقت إرادته بتنفيذه مما هو في دائرة الإمكان.

34- ويوم يعرض الذين...بما كنتم تكفرون.

واذكر لهم يوم يعرض الذين كفروا برسالتك، وعادوا الذين الذي دعوتهم به إلى الإيمان والعمل الصالح، والسلوك الرضي الملتزم بالقيم الخلقية، يوم يعرضون على النّار فيشاهدونها تتوقد كأشد ما يكون التوقد، ترمي بشرر كالقصر، ويقال لهم: هل تنكرون ما تشاهدون أو تشكون فيه ؟ ويكون جوابهم : بلى – وربنا. فيقسمون بربنا: إنه الحق، لما لم يكن لهم سبيل إلى الإنكار. واختاروا القسم بكلمة "ربنا"

استجلابا للرحمة، وتحننا، عله يلطف بهم. وأنى لهم ذلك فقد فات الأوان. ويقال لهم: ذوقوا العذاب بسبب ما سبق من كفركم. ليكن إحساسكم بالعذاب أشد إحساس وأكثره إيلاما. وبذلك تنعطف هذه الآية على الآية 20 السابقة: **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا**. وهو مشهد واحد اختصت كل آية بتسجيل جزء منه.

35-فاصبر كما صبر...فهل يهلك إلا القوم الفاسقون.

تتابع عناد قريش وتكذيبهم، وإيذاء النّبي ﷺ والمؤمنين. وقد وعد الله رسوله النّصر والتأييد، وأن العاقبة للمتقين. فكان النبي ﷺ يتطلع ذلكم التأييد الموعود به، ويستبطئ تأخره، فذكره ربه بهذه الآية : ليكون صبره كصبر أولي العزم من الرسل، الذين قويت عزماتهم، ومحمد منهم، وصرح بأن صبره ينبغي أن لا يستعجل حلول العذاب بهم. ثم أو ضحت الآية مبنى عدم استعجال العذاب الذي أوعدهم به، هو أن تأخيره عنهم، وهو سيحل بهم لامحالة، ليس في حقيقته تأخيرا، لأن تقضي الزمن في الحياة الدنيا سريع لا يطول أمده. ولذلك فإنهم يوم يرون مصيرهم يتبخر إحساسهم بالزمن الذي مر عليهم قبل ذلك. كأنهم لم يؤخروا إلا ساعة من نهار مرت سريعا، شأن ساعات النّهار يكون شعور الإنسان بها: أنها أقصر من ساعات الليل.

<u>بلاغ –</u>ما أنزل عليك من الوحي، وما بيناه من أمر العقيدة، ومن الطريق المستقيم، هو بلاغ للناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم. فيه هزة لكل فرد. فمن آمن واتقى يزداد ثقة بما هو عليه من الهدى، يحثه على الاجتهاد أكثر في تطبيق ما أمر به عبادة وسلوكا. وليسرع للتوبة مما فرط. ومن كفر عليه أن يراجع موقفه من حقائق الوحي، وأن يسرع إلى حضن الإيمان والالتزام بما ضبطه الوحي.

فهل يهلك إلا القوم الفاسقون –هذا الاستفهام أشرب معنى النّفي. أي لا يهلك إلا القوم الفاسقون. لا يحل الهلاك بمعنى الاستئصال، وكذلك الإهلاك بمعنى سوء الحال والخزي يوم القيامة، فالإهلاك بمعنييه قاصر على القوم الفاسقين الخارجين عن الإيمان، والمُدْبرين عن الاتعاظ بالقرآن والعمل بما تضمنه.

ســورة محمّـد

هذا هو أشهر الأسماء التي عرفت به في المصاحف، وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به أنه ذكر اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد) والسور التي ذكر فيها اسم محمد صلى الله عليه وسلم أربع. سورة آل عمران الآية 144- وسورة الأحزاب الآية40- وهذه السورة - وسورة الفتح آية 29. وهذه السورة متقدمة عليها في النّزول وكلها نزلت على رسول الله صلى عليه وسلم في المدينة. كما تسمى سورة القتال وقدم القرطبي هذه التسمية في تفسيره.

هذه السورة مدنية رتبتها حسب ترتيب المصحف السابعة والأربعون. وحسب ترتيب النّزول السادسة والتسعون. نزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قَٰتَلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصد عن سبيل الله : صرف النّاس عن اتباع الإسلام.

أضل أعمالهم : أبطلها، وأحبطها.

تكفير السيئات : غفرانها.

بالهم : فكرهم، وجميع شؤونهم. فوفقهم فيما يعود إلى الدين، ويسر لهم النّصر والتأييد في أمور الدنيا.

الباطل : ما خلا من النّفع وتمحض للضر.

لقيتم : قابلتموهم في ساحة القتال.

ضرب الرقاب : انهاء حياتهم بقطع الرقبة أو الإجهاز في المقاتل.

الإثخان : الغلبة، والتوهين بالقتل والجراح.

الشد : الربط القوي.

الوثاق : ما يربط به الأسير.

المن : الإنعام بإبقاء الحياة.

فداء : العوض لفكاك الأسير بمال أو بمعاوضة.

الأوزار : الأثقال

انتصر منكم : انتقم منكم.

ليبلو: ليختبر.

بيان المعنى الإجمالي :

نمطان من البشر، ملامح النّمط الأول أنهم صمموا على الشرك،وعلى مقاومة المؤمنين يحاولون منعهم من اتباع الدين الذي ارتضوه لأنفسهم، ويحولون بينهم وبين عبادة الله، ويعملون على إرجاعهم للشرك.إن كل ما عملوه من عمل ظاهره نافع للناس لا يجدون له جزاء يضيع عنهم، ولا أثر له في ميزانهم.

والنمط الثاني الذين آمنوا بالله واحدا أحدا، واجتهدوا للقيام بالأعمال المطابقة لشرع الله، والتي تفيد القائم بها والمجتمع، وآمنوا بالقرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وبالشريعة التي بينها. وذلك هو الحقّ الذي تفضل عليهم ربهم بالهداية إليه. فجزاؤهم أن الله محا عنهم سيئاتهم التي تلوثوا بها قبل الإسلام، وأصلح لهم فكرهم فوفقهم للطاعة، ويسر لهم حياتهم الدنيوية.

ذلك الجزاء المتقابل، سببه أن المشركين التزموا الباطل من العقيدة والعمل. وأن المؤمنين الترموا مطبقين ما جاءهم من نور الهداية الربانية. وعلى هذا النّحو من التبيين يتبين للناس أمثالهم فيقيسوا أنفسهم على ذلك المقياس ليعلموا أي مصير هُمْ صائرون إليه.

عليكم إذا لقيتم المشركين، الذين حددت ملامحهم في الآية السابقة، في ساحة القتال، أن تنقضُّوا على أعدائكم بشجاعة وبأس، اضربوا أعناقهم لتطير رؤوسهم، وواصلوا

زحفكم عليهم بثبات حتى تخضعوهم وتنهكوهم ويستسلمون لكم.فإذا بلغتم هذه الغاية فكفوا عن القتل وأسروهم، وشدوا وثاقهم حتى لا يتمكنوا من الفرار.ثم بعد ذلك يكون لرئيس الجيش الخيار تبعا لما يراه أصلح بالمسلمين، فإما أن يعفو عن الأسرى ويطلق لهم حريتهم ويلزمون بدفع الجزية إن كانوا مقيمين في دار الإسلام، وإما أن يمسكهم ليفدي بهم أسرى المسلين لدى الأعداء. إنه مع اقدامكم واتباع هذا المنهج ينهزم المشركون وينقطع طمعهم في الحرب. إنّه لوشاء الله أن يدمرهم بكفرهم لفعل، ولكن جرت حكمته،أن يختبر بعضكم ببعض، يختبر المشركين ليذلهم ويقطع أطماعهم في هزيمة الدين الإسلامي، ويختبركم ليجزيكم عن الجهاد، فتجدون جميع أعمالكم الصالحة حاضرة لا تغيب عنكم في هدايتكم للاختيار الأفضل، ولتأييدكم، ولتنالوا الجنة يوم القيامة، الجنة التي عرفها لكم في القرآن ووصفها بما يلهب شوقكم إليها.

بيان المعنى العام :

1--2- الذين كفروا وصدوا...وأصلح بالهم.

تفتتح السورة بتحديد ملامح نمطين من النّاس في موقفهم من الدعوة الإسلامية:

النمط الأول : الذين أشركوا وكفروا بما أنزله الله على رسوله من الهدى، وقادهم كفرهم إلى أن يمحّضوا مكرهم وتدبيرهم لمنع غيرهم من اتباع الطريق الموصل إلى مرضاة الله، وإلى إقامة العراقيل ليحرموهم من الاهتداء إلى الإيمان، أو أن يصرفوهم عن الإسلام بعد أن دخلوا فيه. وأن يحولوا بين المؤمنين وبين إقامة شعائرهم، ومن ذلك صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام، والتضييق عليهم حتى اضطروهم إلى الهجرة. فهذا نمط من البشر جمعوا بين الخبث والاعتداء، والحرب لخنق حرية النّاس في عقيدتهم والتضييق عليهم تضييقا قاسيا. هذا النّمط يقومون ببعض الأعمال التي تدل على أن شخصياتهم متناقضة. إنهم مع عدائهم للمسلمين والتضييق عليهم وإذايتهم، يطعمون الجياع، ويقومون بخدمات تساعد حجاج البيت الحرام، ويقرون الضيف، ويحفظون الجوار. ما فعلوا ذلك إلا للفخر ولتعلو مقاماتهم في المجتمع. و لما لم تبن صنائعهم على قاعدة الإيمان، وتلوثت بالشرور، فقدت أصل وجودها فلا يجد أصحابها أي أثر لها.ومن بديع التعبير القرآني: أضل أعمالهم، كمن له مال جمعه وكد فيه، ولكنه ضاع منه عند حاجته إليه وذهب فلا أثر له، فيزيده ضياعه حسرة.

والنمط الثاني: بدأه بالإيمان الذي ملأ عقولهم وأرواحهم، فهم على نقيض النّمط الأول المشرك بالله. ثم إن الإيمان نفذ إلى مداركهم ومشاعرهم فيسر لهم التوجه

إلى صالح الأعمال والقيام بها، فعقدوا بينهم وبين الطاعة والخير سببا موصولا. ثم قرنوا ذلك بإيمانهم بالقرآن الذي نزل على محمد وبالوحي الذي جاءه من ربه.وقبل أن يواصل القرآن حديثه عن المؤمنين، توقف مدّ البيان ليلفت الأنظار إلى أن ما نزل على محمد هو الحق الكامل الذي جاءهم من ربهم الذي عني بهم أتم العناية، وهم أولياؤه المقربون منه، "ربهم " وتتوالى التفصيلات في إطار الإيمان، فيثبت القرآن أنه محا عنهم ما ارتكبوه من سيئات قبل الإيمان، فأصبحت صحائفهم نقية بعد أن كانت ملوثة بالشرك وما صحبه قبل الإيمان. ومحا صغائرهم، وما شاء الله بفضله أن يزيل آثاره السيئة من صحائفهم بعد إسلامهم. وضمن لهم صلاح تفكيرهم، فلا تختلط عليهم القيم، ولا تتغلب دواعي الشهوة على ما استقر في قلوبهم وعقولهم من استقامة، وحب للخير ونفرة من الشر.

3-ذلك بأن الذين كفروا...أمثالهم.

ما عرف به المشركون، وما عرف به المؤمنون، وجزاء هؤلاء وأولئك، تستحضر الآية منعطفة على ما سبق فتُعْرِب عن السبب الذي تحققت به تلكم النّهايات المتقابلة. السبب في ضلال أعمال المشركين، أنهم اتبعوا الباطل الذي يدعوهم إليه أئمة الشرك. أما المؤمنون فإنهم قد لزموا مطبقين الحق الذي جاءهم من ربهم الذي اعتنى بهم وبعث فيهم رسولا منهم.

وعلى هذا النّحو من البيان الذي صحبه التوضيح الكامل يبين الله للناس أمثالهم في الطريقة التي يتبعونها، وفي المآل الذي يصيرون إليه. فهما نمطان يقيس النّاس عليهما حالتّهما الحاضرة ليتبين لهم حقيقة أنفسهم والمصير الذي هم آئلون إليه.

4-6- فإذا لقيتم الذين كفروا...عرفها لهم.

تحرض الآية المؤمنين على الاستبسال في الجهاد، وتحركهم لينقضّوا على أعدائهم واثقين من أنفسهم غير مترددين ولا خائفين. اضربوا فوق أعناقهم ضربا تطير معه الرؤوس وهي أبلغ صورة في القتل، وأعظم نكاية في العدو، وأدخل للرعب في قلوبهم. فلذلك اختار "فاضربوا فوق الأعناق" وإن كانت الإصابة في المقاتل لا تختلف عن إزالة الرؤوس. إنهم ذلك النمط من الأعداء الخبثاء الذين فصلت الآية الأولى ملامحهم.

حتى إذا أثخنتموهم... واصلوا الهجوم عليهم حتى ينخذلوا ويكثر فيهم الموت والجراح، وتتكسر شوكتهم ويعلوهم الوهن، وعندها كفوا عن القتل وخذوهم أسرى عندكم، وشدّوا وثاقهم شدا لا يستطيعون معه الانفلات من الأسر. فلا تتراخوا

اطمئنانا بما حققتم من النّصر. خذوا كل الاحتياطات في المكان الذي يحجزون فيه، وفي الرقابة، وفي شل قدرتهم على الفرار.

فإما منا بعد وإما فداء... إذا تمكنتم من الأسرى وأوثقتموهم تحت سلطتكم، فإن أمير الجيش أو ولي الأمر أو وزير الدفاع، السلطة العليا التي تتحكم في القرارات الكبرى قبل الحرب وبعدها، تتخذ في الأسرى القرار المناسب لمصلحة المسلمين. وتلتزم بالمعاهدات التي وقعت عليها ما دام ضمان احترامها متحققا. القرار إذن:

الحل الأول: المن على الأسير بإطلاق سراحه بدون مقابل. وفي الأزمان التي كان الأعداء يسترقون أسرى المسلمين الذين وقعوا في أيديهم، فإن صاحب القرار يمكنه أن يجري عليهم حكم الأرقاء العبيد. أما اليوم بعد أن انتهى الرق، والتزمت كل الدول بعدم الاسترقاق، فإنه ليس لولي الأمر أن يجري على أسراه أحكام الرقيق. ويمكن أن يمن على الأسير بالفكاك من الأسر ويبقى في بلده الذي غلب عليه الجيش الإسلامي ويدفع غرامة مالية سنوية(الجزية) مقابل حمايته وحماية أمواله، لأنه لا يشارك في الجيش الحامي للدولة.

الحل الثاني: الفداء بأن يتم تبادل الأسرى، مع المماثلة في العدد أو مع التفاوت حسب المصلحة الراجحة. وقد جرى العمل في العهود الإسلامية أن يتم الافتداء بالمال، يدفع أولياء الأسير القيمة المتفق عليها، ويأخذون أسيرهم. ويمكن أن يتم اعتبار ذلك في الغرامات المفروضة على العدو المغلوب.

حتى تضع الحرب أوزارها... ما فصلناه لكم من الشدة في قتال المشركين المحاربين لكم، وما عقبه من أحكام، كل ذلك يرمي إلى أن يتوقف المشركون عن الهجوم عليكم ومحاربتكم. فالتعبير بوضع الحرب أوزارها، يقصد منه تجسيم انتهاء الحرب والاستعداد لها، كحال المسافر يحمل أمتعته وأثقاله ويتكلف حملها والعناية بها إلى أن يعود إلى مكان إقامته فيضع عنه تلك الأثقال ويستريح. فالغاية من شحذ الهمم والاستبسال ليس نشر الحرب، وإنما هو لردع من شرقوا بالإسلام فلا يرفع عنهم صمود المسلمين إلا بعد أن ينهزموا هزيمة لا عودة بعدها لنقض الاستقرار والأمن، فإن عاودوا عدنا بنفس الحزم والعزم.

ذلك ولو... ذلك الترتيب المحكم في لقائكم أعداءكم الذي أمرتم بمراعاته، والحال أنه لو شاء الله أن يكفيكم أمرهم، ويقضي عليهم لفعل، فإنه لا يعجزه شيء. ولكنه سبحانه أجرى أمر الكون على ربط المسببات بأسبابها. من آثار هذا الربط أنه يختبر بعضكم ببعض، فلا يمنع المشركين من الهجوم عليكم لينتهوا إلى الهزيمة

والذل، ويبعث فيكم الحمية لدفعهم والنكال بهم لتنالوا شرف الجهاد وما يترتب عليه من عظيم الثواب، وإحساس المؤمنين بالعزة التي تيسرت لهم بالإسلام.

والذين قاتلوا... يمثل هذا المقطع ثواب الامتثال لما بسطته الآية. إن الذين شرفوا بالامتثال فقاتلوا المهاجمين أعداء الدين بكل ما لديهم من قوة وعزيمة واستبسال، يحملهم على ذلك بقاء الطريق الذي شرعه الله وأبان حدوده ثابتا فاعلا في النفوس، إن كل ما فعلوه من خير يكون حاضرا معهم، يجدون آثاره في الدنيا والآخرة.

ثم إن جزاءهم يتركب من أمرين:

الأمر الأول : أنه تصحبهم هداية الله للاختيار الأوفق والأصلح، في دينهم وفي دنياهم، فهم مؤيدون بتأييد من الله بما يستبين لهم من الصواب والخير.

الأمر الثاني: أن عاقبتهم في الآخرة ستكون الجنة بما أعده الله لهم فيها من نعيم وتكريم. التي قال الله فيها: (فمن زحزح عن النّار وأدخل الجنة فقد فاز [1]) ووصفت الجنة بأن الله عرفها لهم. وهو يحتمل أن الجنة قد وصفها لهم في القرآن فاشتاقوا إليها وصورتها البديعة حاضرة في نفوسهم. ويحتمل أنه طيبها لهم من العرْف وهو طيب الرائحة، أو إن كل فرد يعرف منزلته وما هو معد له بما يلقيه من نفسه من المعرفة من قبل أن يدخل الجنة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝

---

[1] سورة آل عمران اية185

بيان معاني الألفاظ :

يثبت أقدامكم: النّصر بالتحصين من الخوف

التعس : الشقاء.

كرهوا : أبغضوا.

ما أنزل الله : القرآن.

احباط الأعمال : إبطال آثارها فلا يرجون منها نفعا.

التدمير : الإهلاك.

الكافرين : مشركو مكة.

مولى الذين آمنوا : ناصرهم.

يتمتعون : ينتفعون انتفاعا قليلا محدودا.

مثوى : مستقر.

بيّنة : برهان وحجة.

بيان المعنى الإجمالي :

وعد كريم من رب العزة سيحققه للمؤمنين المجاهدين في سبيله: أنهم إن جاهدوا لنصر دينه ورسوله أنه تكفل بنصرهم، وثباتهم. وأوعد في المقابل الكافرين ودعا عليهم بالخيبة والشقاء، أنه يمحو كل أثر لما قدموه من أعمال يظنونها صالحة، فلا يجدون لها أثرا. وذلك لأنهم أبغضوا القرآن المنزل والوحي المبين لصراط الله، فجازاهم بإحباط أعمالهم ونسفها.

ما بالهم متصلبون في كفرهم، أفلم يشاهدوا في أسفارهم العاقبة التي آل إليها الذين كفروا من الأمم الماضية ؟ دمرهم الله بأنواع من التدمير، وسيدمر الكافرين بأمثال ما دمر به من سبقهم من المشركين.

إن ما تحقق للمؤمنين من الهداية والاستقامة في الدنيا، والتكريم يوم القيامة كان ذلك بسبب أن الله مولى المؤمنين وناصرهم ومراعي أمورهم، وفي المقابل فإن الكافرين لا مولى لهم ينصرهم. اعتمدوا على ذواتهم الضعيفة فخابوا.

إن الله مولى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قد أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، تفتح لهم أبوابها فيدخلونها دخول إقامة لا يبرحونها أبدا. وأما الذين كفروا فإنهم يتمتعون في الحياة بما يرزقهم الله، وهو متاع قليل. ويستوون مع الأنعام يأكلون كما تأكل الأنعام دون تفكير في المآل، فالأنعام ينتهي بها ذلك إلى الذبح أو النّحر، والذين كفروا ينتهي بهم ذلك إلى النّار التي تكون محل إقامتهم خالدين فيها.

قرى عديدة استكبر أهلها، وكانوا أعظم قوة من أهل مكة التي غادرتها لسوء

معاملتهم لك، ووقوفهم في وجه الدعوة محاصرين لها، أولئك الكفرة سكان تلك القرى أهلكناهم ودمرناهم، ولم يجدوا ناصرا ينصرهم. فإهلاك قريش إن لم ترتدع سيكون على سنة الله في أهل القرى الذين مضوا في التاريخ.

لا مقارنة بين المؤمن الذي كانت الطريق واضحة عنده، متيقن صلاحها بما قام عليها من دليل العقل، ومن تزكية إلهية لها. وبين الكافر الذي انغمس في الرذيلة والشرك، وانقلب لديه سلم القيم، فرأى عمله السيء حسنا. وانقاد لشهواته وهواه.

بيان المعنى العام :

7- يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله...أقدامكم.

دعاء للمؤمنين بوصف الإيمان ليلهب حماسهم إلى القيام بالقتال ابتغاء نصر دين الله، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. والله عزيز ينصر البشر ولا يحتاج لمن ينصره. فحرضهم على الجهاد في سبيل الله، ووعدهم أنهم إن أقدموا على الجهاد يدفعهم لشرفه نصرة دين الله، فإنه سبحانه تكفل لكم بالنصر على أعدائكم، ويثبتكم عند اللقاء. فلا يلحق قلوبكم وهن ولا خوف. جسّم هذا التثبيت بثبات الأقدام عند السير فلا يفقد السائر توازنه ولا تنزلق رجله.

8- والذين كفروا...فأحبط أعمالهم.

في مقابل الذين قاتلوا في سبيل المنوه بهم والموعود لهم بضروب الكرامة، يتوعد الذين كفروا "المشركين" ويدعو عليهم بالشقاء والتعاسة في حاضرهم وآجلهم. ومع شقائهم قدر الله أن يبطل أعمالهم فيجعلها كأن لم تكن ولا يجدون لها أثرا نافعا في الوقت الذي يكونون في حاجة إليها لتخفف عنهم ما هم فيه من كروب، كما سبق في أول السورة.

ذلك -ما حكم به عليهم من الخيبة واحتقارهم والدعاء عليهم بالتعاسة والخذلان، لم يكن ظلما لهم، ولكنه بسبب كُرْههمْ لما أنزل الله من القرآن والهدى وبغضهم لما يدعو إليه، ولما يذكره من حقائق وبخاصة البعث. فجعل ما قدموه من أعمال نفع محبطة باطلة لا يجدون منها نفعا.

10- أفلم يسيروا في الأرض...وللكافرين أمثالها.

استفهام تقريري وتوبيخي، يثبت بصيغة الاستفهام أنهم مروا في أسفارهم على ديار الذين أهلكهم الله، وشاهدوا الآثار النّاطقة بالعاقبة التي انتهى إليها أمرهم، هلاكهم وهلاك ذرياتهم، وخراب منازلهم وتدمير ما شيدوا. وستكون عاقبة الكافرين من

مشركي مكة أمثال ما حاق بالذين سبقوهم. استووا معهم في الكفر والعناد فيجري عليهم في عاقبتهم أمثال ما وقع لمن سبقهم من المشركين.

11-ذلك بأن الله...لا مولى لهم.

ذلك إشارة إلى ما تقدم من جزاء المؤمنين، وتدمير الكافرين، تم بسبب أن الله ناصر المؤمنين، ومعينهم على السبق في درجات الفوز. وأن الكافرين فقدوا النّصير، وتُركوا لأنفسهم العاجزة فلا يجدون سندا يعتمدون عليه لينقذهم. ولا مولى لهم. وأما قوله تعالى: (وردوا إلى الله مولاهم الحق) [1] فالمولى في هذه الآية بمعنى أنه مالك أمرهم.

12-إن الله يدخل الذين آمنوا...والنار مثوى لهم.

من مستتبعات ولاية الله للمؤمنين الذين استقاموا في حياتهم، وكانت أعمالهم أعمالا صالحة بميزان الشرع، أنه يكرمهم يوم القيامة بما أعد لهم من جنات تتخللها الأنهار الجارية. ولما كان الكافرون لا مولى ولا ناصر لهم، يتالون من حظوظ الدنيا، فيستمتعون بذلك متاعا قليلا، كما قال تعالى: (قل متاع الدنيا قليل [2]) وصورهم القرآن في إقبالهم بشراهة على الأكل أن شأنهم شأن الأنعام، المقبلة على ما تأكل دون تفكير فيما وراءه، وليس وراءه إلا الذبح والنحر. وتكون النّار هي المستقر الذي لا يبرحونه يوم القيامة.

13-وكأين من قرية...فلا ناصر لهم.

تهديد ووعيد للمشركين المغرورين بمكانة قريتهم "مكة" في نفوس العرب، وظنهم أنهم منصورون بالعصبية للبيت وللقائمين على المناسك. فافتتح التهديد بتذكيرهم أن عددا غير قليل من القرى "وكأين" من أهل قرية، كان لهم قوة أشد من قوتكم، ومناصرين أكثر من مناصريكم، وعددا وعدة يرهب جانبها، هم أشد قوة وأبلغ منعة من قريتك " مكة" التي كان إيذاؤهم لك وللمؤمنين، و مقاومة الدعوة والحيلولة بين النّاس وبين أن يدخلوا في الإسلام، كان سببا لخروجك منها. فقريش لم تخرج النّبي ﷺ من مكة، ولكنها كانت حريصة على بقائه محصورا تحت الضغط المسلط عليه، حتى تكون أعينهم متابعة لنشر الدين ويتخذوا لكل موقف الحل المناسب. فأطلق القرآن،على الخروج الذي دبره النّبي ﷺ ونفذه، لفظ الإخراج. أصحاب القرى العتيدة الذين كانوا أقوى من أهل قريتك أهلكناهم، إهلاكا انتفى معه النّاصر لهم.

---

[1] سورة يونس آية 30

[2] سورة النّساء آية 77

14-أفمن كان على بينة...واتبعوا أهواءهم.

تصور مشركو مكة، أن ما هم عليه في الدنيا من الجاه والمنزلة بين النّاس، وهم يقودون الحجيج، ويفرضون تصوراتهم عليهم، و تشق تجارتهم الصحاري آمنة دون أن يعترضها أحد، ظنوا تبعا لذلك أنهم أفضل من أتباع الدين الإسلامي، وسخروا منهم قال تعالى : (فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون [1]) فسألهم سؤالا إنكاريا يظهر فساد تفكيرهم، وغرورهم، وأنهم فاقدون لكل مقوم من مقومات السمو الإنساني، وأنهم مع وضعهم الذي هم عليه أبعد ما يكون من أن يستووا مع المؤمنين.

ملامح المؤمن: أنه متمكن من المنهج الواضح البين الذي أتاه من ربه هو منهج يقوم عليه شاهد العقل وزاده يقينا بصلاحه تأييد الله له وتزكيته. وملامح الكافر أنه مغرور، أبعد ما يكون عن النقد الذاتي الذي يسمو به الإنسان ويتزكى. وهم من ناحية أخرى يتبعون عن غير وعي وبدون نقد ما يزين لهم من الأعمال فيتمسكون بها، كعبادة الأصنام، والتعلق بمجالس الخمر والغناء والميسر. والتسلط على الضعفاء معتقدين أن ذلك عزة وشهامة. تتحكم فيهم أهواؤهم وغرائزهم، نامت عقولهم واستيقظت شهواتهم فقادتهم واتبعوها. وبهذا التفصيل والمقابلة بين الفريقين سطعت الحقيقة :لا شبه بينهم ولا يبلغ الكفرة المرتبة الإنسانية التي بلغها المؤمنون.

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

---

[1] سورة المؤمنون آية 110

بيان معاني الألفاظ :

مثل الجنة : صفة الجنة العجيبة.

آسن : متغير الطعم والريح.

لذة : لذيذ طعمه.

يستمع : سمع مع حرص على وعي المسموع.

آنفا : فيما مضى قريبا.

الطبع على القلب : لا ينفذ نور المعرفة ولا الإيمان إلى عقولهم.

آتاهم تقواهم : يسر لهم أسباب التقوى حتى ملكوها.

ينظرون : ينتظرون.

بغتة : فجأة غير متوقعة.

أشراطها : علاماتها.

أنى لهم : كيف يتأتى لهم التذكر.

متقلبكم : أعمالكم التي تتنقلون فيها من شيء إلى شيء.

المثوى : المرجع والمآل.

بيان المعنى الإجمالي :

لا مجال للتسوية بين المؤمنين والكافرين. وكما كان البون بينهما شاسعا في الدنيا، فإنهم يوم القيامة أشد افتراقا. إن الجنة التي وعدها الله للمؤمنين المتقين، هيأ الله لهم فيها من النّعيم ما يقربه إلى التصور : أن فيها أنهارا تتدفق بالماء الزلال ريحه طيب ولونه طيب وطعمه كذلك. وفيها أنهار من لبن لا يتخمر ولا يفسد ولا يقبل الحموضة. وأنهار من خمر لذيذ طعمها تغري شاربها بمواصلة النّيل منها. وأنهار من عسل صفاؤه كامل لا تحمل شمعا ولا أجساما غريبة عنه. وملّكهم ما يشاؤون من الثمرات التي تخطر على بالهم والتي لا تخطر. وفوق كل ذلك حالة نفسية مستقرة مطمئنة إذ تحققوا أن الله غفر لهم جميع ما فرطوا فيه. يقابل هذه الحالة حالة الكافرين الذين ضربهم اليأس فهم لا يأملون الخروج من النّار، ولا يتصور أن يخرجوا. وتلهبهم النّار فيشتاقون إلى الماء، فيسقون من ماء حميم شديد الحرارة يقطع أمعاءهم فيتألمون شديد الألم، ثم تعاد أمعاؤهم لتقطع من جديد كلما سقوا ماء الحميم.

واجه النّبي ﷺ في المدينة خطر المنافقين الذين اندسوا في المجتمع الإسلامي. ومن خبثهم أنهم يحضرون مجالس التوجيه النّبوي، ويبدو عليهم أنهم يستمعون بانتباه لما يقوله النّبي ﷺ. حتى إذا غادروا مجلسك، طلبوا من فقهاء المسلمين المعروفين

بحسن التلقي عنك قائلين: إنا لم نفهم ما كان يقوله في مجلسه، فعرفونا بما جاء فيه. يقصدون رمي النبي ﷺ بالغموض، وعدم قدرته على الإبانة. لأنهم كانوا حاضرين، يبدو عليهم الاهتمام بما يسمعون، ولكنهم رغم ذلك لم يفهموا منه شيئا. إنهم صمموا على رفض الإسلام حتى انغلقت عقولهم فلا ينفذ إليها نور الهداية، وما ذاك إلا لأنهم اتبعوا ما يمليه عليهم هوى النفس. وفي المقابل فإن الذين قبلوا الهداية واطمأنوا إليها، يسر الله لهم، أنه كلما تتابع الوحي، زادوا قربا من ربهم والتزاما بالاستقامة، ومكنهم من أسباب التقوى، حتى ملكوها.

أي شيء ينتظره الكفرة،؟ كل متاع الدنيا منزل منزلة العدم، ولم يبق لهم إلا شيء واحد ينتظرونه وهو حلول الساعة. الساعة التي لا تأتيهم إلا بغتة دون سابق إعلام. تفجؤهم لشدة غفلتهم عنها، مع أنه قد ظهرت علاماتها مؤذنة بقربها. إنهم يوم تأتيهم الساعة، لا ينفعهم وقتها الذكرى، إذ تكون قد تحققت بما يتبعها من حساب وجزاء. ليكن من أهم ما توجه إليه العناية الثبات على العلم اليقيني بالوحدانية، أنه لا إله إلا الله، المتفرد بالخلق والتدبير وإليه وحده المصير. وتوجه إلى ربك طالبا منه المغفرة لك ولكل مؤمن ومؤمنة. إن الله لا يغيب عنه أي وضع من أوضاعكم، كما هو عالم مقدما بالوضع والمآل الذي تصيرون إليه

بيان المعنى العام :

15- مثل الجنة التي وعد...فقطع أمعاءهم.

يتواصل التأكيد على الفوارق بين المؤمنين والكافرين وأنه لا تسوية بينهما. فبعد أن بينت الآية السابقة سمو المؤمنين عن دركات انحطاط الكافرين في الدنيا، انتقل القرآن لبيان الاختلاف البين، والبون الشاسع بينهما يوم القيامة، فيما يلقاه كل فريق من الجزاء المعد له.

عرضت الآية أولا صفة الجنة التي وعدها الله عباده المتقين الصالحين. وافتتح هذا العرض بقوله: مثل الجنة. الذي فهمته من هذا التعبير الدقيق أن القرآن أراد أن يقرب الجنة من تصور البشر، فأفاد من البدء أنه يعطي صورة تقرب الجنة وتعطي للخيال مثلا. أما حقيقة الجنة فهي من أحوال الآخرة التي تتجاوز التصور المنتزع مما شاهده الإنسان في حياته ونقلته حواسه إلى مداركه. وبناء على ذلك يكون كل ما ذكر راسما لصورة في ذهن التالي، حقيقتها أعلى وأسمى مما انطبع في التصور. فيها أنهار من ماء لا يلحقه تغير في ريح ولا طعم كما تتغير مياه الأرض بالأيدي والآلات التي ينتزع بها الماء، وبما تسفيه الرياح فوقها مما تحمله. ولا شك أن تناول الماء فيه لذة للشارب وري. ومع انهار المياه أنهار من لبن، فلا تتصوروا

اللبن أنه كلبن الدنيا، ولكنه لبن آخر يليق بالنعيم الفائق يبقى على حاله، متجدد لا يتغير طعمه بطول المكث. وأنهار من خمر يبلغ مذاقها أعلى مذاق وأجوده، هو عين اللذة للشاربين لا تعطل العقول عن وميضها، كما وصفها القرآن في آية أخرى: **لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون**[1] وأنهار من عسل مصفى غير مختلط بشمع النحل ولا ببقايا النحل.والذي أفهمه من الأنهار هو الكثرة العظيمة التي لا تنفد. وليس جريانه على الأرض والتراب، وأقرب ما يرتسم في ذهني أنها تجري في قنوات شفافة تغري بالنول منها، مع يسر ذلك على ساكني الجنة.

وملكهم الله مع ذلك كل أنواع الثمرات مما لا يجتمع في الدنيا لاختصاص كل صقع من الأصقاع بأنواع.

وفوق كل ذلك أنهم لا يشعرون بالإثم ولا بالخطيئة، ولا يعكر صفوهم، يقظة للوم أنفسهم عما فرطوا. فجميع ذنوبهم سترت فلا تمر لهم على بال. جعلني الله وإياكم من سكان جناته المفوزين بمغفرته ومرضاته .

في مقابلة ما أعد لأهل الجنة يعرض القرآن ما أعد للكفرة الفسقة.أولا صفة الخلود في النار، يحل اليأس في نفوسهم فلا يطمعون في تخفيف ولا خروج ولا تحول. ويسقون بماء يغلي في بطونهم فيمزق أمعاءهم. وكلما مزقت عادت كما كانت ليذوقوا العذاب.

16←17-ومنهم من يستمع إليك...وآتاهم تقواهم.

واجه النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة نمطا آخر من الكفر، فإذا كان مشركو مكة مستكبرين غلاظا، فإن هذا النمط من الكفر " المنافقين " يظهرون بمظهر الطاعة ويندمجون في المسلمين على أنهم منهم، ويحضرون مجالس التذكير، وفي كل صلة لهم بالمسلمين يعدون من المكر ما يؤذون به النبي صلى الله عليه وسلم. ويصورون إذا يتهم في صورة مقبولة لا يؤاخذون بها. فريق من الكفرة المنافقين يلقون سمعهم إليك وأنت تتلو آيات الله، أو تبلغ ما أوحي إليك، أو ترشد المؤمنين لما هو خير لهم في الدنيا والآخرة. إنهم لا يجتهدون في استماع كل كلمة تقولها بدافع الإيمان ولكن يحملهم على ذلك أن يلتقطوا ما يحرفونه كيدا للدين وطعنا فيه. ومن صور خبثهم أنهم بعد أن يحضروا مجلسك ويخرجون، يطلبون من صحابتك المعروفين بالفقه وحسن التلقي عنك قائلين لهم: ما ذا كان يقول في المجلس السابق لخروجنا، فنحن لم نفهم ما يريد؟ يقصدون بذلك أن يطعنوا في بيان النبي ﷺ، وأنهم مع حرصهم لم يفهموا منه شيئا.

---

[1] الصافات 47

وإذا سألت عن السبب الذي جعلهم يكيدون للحق، ويعملون على إذاية رسول الهدى فاعلم : أن أولئك الذين وصفوا في الجزء الأول من الآية،صمموا على رفض الإسلام، حتى تكوّن من مواصلة تصميمهم أن انغلقت عقولهم وحجبت بحجاب صفيق من العناد فلا يدخلها أي شعاع من نور الحق. بمثابة الرسالة التي ختمت وطبع عليها، فلا ينفذ البصر إلى داخلها ليتأتى معرفة ما تحويه. ورفضهم للحق ناشئ عن اتباعهم لأهوائهم،لا وليد نظر وتدبر فيما جاءهم من الوحي.

وفي المقابل فإن الذين سمعوا ما أنزل على الرسول وتأملوا فيه فاهتدوا به، وانفتحت لعقولهم منافذ الصراط المستقيم فسلكوه، فإن موقفهم هذا سيزيدهم تمكنا من الهداية والتزاما بها، ويعينهم على الاستقامة، فتيسرت لهم مسالك التقوى حتى أصبحت التقوى كأنها ملك لهم يختصون بها.

18- فهل ينظرون إلا الساعة....إذا جاءتهم ذكراهم.

ما ذا ينتظر الكافرون ؟ إنهم تبعا لكفرهم وصدهم عن سبيل الله باعتمادهم صنوفا من المكر والتضليل، إنهم لا ينتظرون إلا شيئا واحدا، أن تأتيهم الساعة فجأة، دون سابق إعلام ولا توقع. فقد نزلت آمالهم في متع الحياة الدنيا كالعدم، فلذا هم لا يترقبون إلا قدوم الساعة. والساعة قريب مجيئها، دليل ذلك أن علاماتها قد ظهرت.

والساعة يحتمل أن يكون المراد بها انتهاء الكون. يؤكد ذلك أن ما مضى من عمر الكون هو أكثره، وأن ما بقي لاستمرار الحياة يعد قليلا بالنسبة لما مضى. ومن هذه العلامات بعثته صلى الله عليه وسلم، فقد تتابع إرسال الله الرسل إلى البشر يفصل ما بينهم قرون كثيرة قال تعالى : (وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا) [1] وعدد الرسل لا يعلمه إلا الله.قال تعالى (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) [2] فختم الرسالة موح بقرب انتهاء العالم.وذكروا من أشراطها،كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقلة الكرام وكثرة اللئام وإسناد الأمر إلى غير أهله. واعتنى بها بعضهم فألف فيها تأليفا جامعا لما روي في ذلك.

وحملها بعضهم على قرب انتهاء أجل كل فرد، بناء على أنه إثر موته يرى مقعده الأتل إليه، وتكون الأشراط هي ما يسبق الموت من المرض أو الهرم.

---

[1] سورة الفرقان آية 38

[2] سورة النساء آية 164

يخوفهم بأنه إذا جاءتهم الساعة يكونون أبعد ما يكون عن الانتفاع بالذكرى، والعمل بها، إذا جاءتهم الساعة، فيلاقون مصيرهم.

19-فاعلم أنه...متقلبكم ومثواكم.

هذه الآية تفيد الأمر بالعلم والعمل. وقدم فيها العلم على العمل تبعا لمرتبته. أمر النبي صلى الله عليه وسلم وكل من آمن به، أن يثبت على الإيمان اليقيني بأن الله واحد لا شريك له. يذكر بذلك نفسه، ويكررها بلسانه لتكون حاضرة حضورا يؤثر في التصور والسلوك. وبعد العلم بالوحدانية واصل الاستغفار وطلب المغفرة من ربك. أما المؤمن فهو لا يستغني عن طلب المغفرة من ربه تبعا لضعفه مع ما ركب فيه من الشهوات والغرائز وما يتسلط عليه من المؤثرات، فيقع في الخطيئة، ولا مخلص له إلا بعفو ربه بالتوبة و الاستغفار. وأما بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم فالأمر على ما بيناه سابقا: أن النبي صلى الله عليه وسلم ينتقل بصفة مستمرة من مرتبة إلى مرتبة أعلى في القرب، فهو حينما ينظر يجد أن وضعه السابق دون وضعه الحالي، وهكذا، فهو يستغفر ربه، حتى يجعل حياته كلها على مرتبة سواء من الكمال.

وترشد الآية النبي ﷺ وكل مؤمن أن يستغفر لكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية للمؤمنين والمؤمنات، وفاء لوحدة العقيدة الجامعة التي تجعل كل مؤمن يشعر بالغبن إذا لحق أخاه المؤمن نقص.

والله يعلم متقلبكم، أي أحوالكم الكثيرة، النفسية والعملية،التي تتنقلون فيها من حال إلى حال، لا يغيب عنه أي حال من أحوالكم. كما يعلم سبحانه نهاياتكم التي تستقرون معها في مرتبتكم التي حكم لكم بها ربكم بعدله ورحمته.إنه حقيق بأن يخشى ويتقى، وأن يستغفر ويسترحم.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ

محكمة : واضحة الدلالة غير قابلة للتأويل.

في قلوبهم مرض : المنافقون.

نظر المغشي : شاخص البصر كالمحتضر.

عزم الأمر : تحقق تحققا لا محيص عنه.

صدقوا : صدقوا الله في قولهم إنا مؤمنون.

التدبر : تفهم الموضوع وما يؤول إليه .

بيان المعنى الإجمالي:

اشتاق المؤمنون، وقد تأسست الدولة الإسلامية في المدينة، أن يقوموا بجهاد المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم، واستولوا على أموالهم. وعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أمنيتهم أن ينزل الله عليهم سورة بينة واضحة لا تقبل التأويل، تتضمن الإذن في القتال. فلما نزلت، كشفت المنافقين، ونزلت عليهم نزول الصاعقة، فشخصت أبصارهم كحالة المحتضر في آخر لحظات حياته. ألم يكن الأولى بهم أن يجيبوا دعوة القتال بالطاعة، وبالكلام المعروف قوله في مثل هذه الأحوال. ثم إنه إذا حضر وقت القتال، يكون الموقف الأولى بهم أن يصدقوا الله، ويكون باطنهم كظاهرهم. وبذلك يحققون لأنفسهم الاختيار الأسلم والأفضل.

هل يتوقع منكم إن توليتم ولم تنصروا المهاجرين والأنصار الذين تعيشون معهم، إلا أن تعودوا إلى سيادة الكفر فتقطعوا أرحامكم بوأد البنات، وتفسدوا في الأرض بالغارات السالبة للأموال والنساء، والأطفال. واستباحة المنكرات وشيوع الخوف. أولئك الذين في قلوبهم مرض حلت عليهم لعنة الله فلا يرحمهم، وحيل بينهم وبين الهدى فلا فرق بينهم وبين الأصم الذي لا يسمع، وحجبوا عن التأمل في الكون وفي آيات الله فاستووا مع العمي.

ما بالهم لا يتأملون وينفذون إلى ما يرمي إليه القرآن من الإصلاح ليجدوا فيه مسالك الهداية والرشاد؟ بل الواقع أنهم صمموا على رفضه وعدم النظر حتى أصبحت عقولهم كالصناديق المقفل عليها بالأغلاق المحكمة. ولذا استمروا على ضلالهم.

بيان المعنى العام :

20←21-ويقول الذين آمنوا...لكان خيرا لهم.

استقر المؤمنون بقيادة رسول الله ﷺ في المدينة، وأحسوا بتأييد الله لهم، واشتاقوا لقتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم، ثم تصرفوا في أملاكهم غصبا وظلما.

واستبطأوا نزول قرآن يأذن لهم في الجهاد في سبيل الله. وهم يفتحون صدورهم إلى رسول الله، ويجدون منه الحل لمشاكلهم، والطمأنينة لقلوبهم. فعرضوا ما يجدونه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، متمنين أن تنزل سورة في هذا الشأن. لبّى الله تطلعهم، وأنزل سورة بينة واضحة لا تحتمل التأويل، وذكر فيها القتال والجهاد، وكان الموقف مختلفا بين المؤمنين وبين المنافقين.

طوى القرآن موقف الصحابة من السورة التي أذنت بالجهاد لوضوحه، لأنهم كانوا يتحرقون أن يأتي إذن من الله يسمح لهم بالتنفيس عما في قلوبهم من كسر شوكة الكفر، الذي لا يرضخ إلا للقوة المادية. لقد استبشروا واستعدوا.

واعتنى بموقف المنافقين المندسين في المجتمع، والذين يظهرون خلاف ما يبطنون، فكان إنزال السورة التي ذكر فيها القتال فاضحا لهم. إنهم لم يستطيعوا أن يكتموا انفعالاتهم لسماعهم الإذن في القتال فلوبهم مريضة انطوت على مركبات من التناقض بين الباطن والظاهر، ومن البغض، والكذب، والدس، والمكر، والخبث. وقد واجهوا أمرا حيرهم، إنهم لا يرضون أن يكونوا مع المؤمنين في قتال أعدائهم، ويُعرّضون أنفسهم للموت والجراح في سبيل أمر لا يؤمنون به. كما أنهم لا يستطيعون إظهار اعتراضهم على الأمر القرآني فتنكشف حقيقتهم. فصورهم القرآن صورة مجسمة لهذا التناقض والحيرة فقال رأيت يا محمد المنافقين، وقد شخصت أبصارهم إليك، نظرهم كنظر المحتضر وهو ينفث آخر أنفاسه. استولت عليهم الحيرة،، وخرست ألسنتهم لقوة الصدمة، والخوف من المستقبل.

فأولى لهم، يمكن أن يفهم المعنى: الأفضل لهم والأنفع لهم من ذلك الخوف وتلك الحيرة في هذا المقام أن يقولوا سمعنا وأطعنا. كما جاء في قوله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا[1]) كما يمكن أن يفهم على أن المقصود بقوله : أولى لهم، التهديد، أولاهم الله ما يكرهون.

طاعة وقول معروف- تفهم على أنها متعلقة بقوله أولى لهم على الوجه الأول. وأما على الوجه الثاني فهي جملة مستأنفة غير متعلقة بقوله فأولى لهم منفصلة عنها، أي: طاعة وقول معروف خير لهم.

فإذا عزم الأمر –تابع القرآن عرض موقف المنافقين بعد نزول سورة القتال، إلى اليوم الذي حضر فيه القتال فعلا؛ ودعا النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة

---

[1] سورة النّور آية 51

للاستعداد للجهاد. في هذا اليوم ينخزلون ويختلقون المعاذير كما جاء في قوله تعالى: (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني [1]) أو ينسلخون من الجيش كما فعل عبد الله بن أبي لما خرج يوم أحد يقود المنافقين لما قال لأتباعه : ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا يا أيها النّاس، ورجع مع أتباعه وكانوا ثلث الجيش. ينبههم القرآن إلى أنهم اختاروا أسوأ الاحتمالين، اختاروا القعود عن القتال. وإنهم لو صدقوا في إيمانهم ولم يكذبوا وشاركوا المؤمنين شرف الجهاد لكان خيرا لهم في الدنيا والآخرة.

22←23-فهل عسيتم إن توليتم...وأعمى أبصارهم.

ما هو المتوقع حصوله إن لم تصدقوا الله، وتوليتم عن مساندة المؤمنين لما خرجوا للقتال، كما تم في وقعة أحد، وحاولتم الاعتذار عن تقاعسكم بأنكم لا تقررون قتالا يقطع الأرحام، ويصحبه فساد في الأرض بالخروج عن قوانين العمران؟ إنكم بتقديم ما ستقدمونه من الاعتذارات يكشف ما دأبتم عليه من الخداع والمكر، ذلك أنه باتباعكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم تتمكن الصلات بين البشر، و يتم الإجهاز على الشر ويأمن النّاس. وبإعراضكم تعودون إلى ما كان يسود مجتمعكم من سحق الضعيف، ووأد الإناث، وشيوع الفساد. وتجدد الحروب للتسلط على الآخرين، والاستيلاء على أموالهم ونسائهم. فمعاذيركم غير صادقة وإنما حاولتم أن تتنصلوا من الصورة المقيتة التي لصقت بكم لما قعدتم عن مساعدة الأنصار والمهاجرين لما غزاهم المشركون، وأنتم تعيشون معهم.

أولئك الذين في قلوبهم مرض تأهلوا للعنة الله، ولإبعادهم من رحمته، لكذبهم، وخذلانهم لقومهم، وتربصهم انتصار الشرك على الإيمان. وجرّ عليهم مرض قلوبهم أن اختلت مداركهم، فكان حالهم وهم يستمعون الهدى لا يختلف عن الأصم الذي لا يسمع، فهم لا ينتفعون بشيء منه. ولازمتهم الحيرة كالأعمى الذي يقذف به في مكان لا يعرفه،هو متحير لا يدري الجهة التي يتبعها لتبلغه قصده.

24- أفلا يتدبرون القرآن...أقفالها.

أولئك الذين أعرضوا عن القرآن فأصمهم وأعمى أبصارهم، أمرهم عجيب. القرآن يتلى عليهم، وقريب منهم، لماذا لا يتدبرون في مضامينه، وينظرون نظرة متأنية غير عجلى فيما يدعوهم إليه، مع وضوحه، وقربه من الفطرة فيهتدوا به؟

---

[1] سورة التوبة آية 49

أم على قلوب أقفالها- انتقال من السؤال الانكاري إلى بيان الواقع كما هو. بل قلوبهم، كأنها صناديق مغلقة، لا ينفذ إليها الهدى، أوصدوها بتصميمهم على رفضه، فكانت بمثابة ما أحكم غلقه بأغلاق ومفاتيح، فلا ينفذ إليه شيء.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

التسويل : التسهيل، والتزيين.

الإملاء : مد لهم في الآمال.

اتبعوا ما أسخط الله : اتبعوا الشرك الذي لا يرضاه الله.

الإحباط : أذهب انتفاعهم بعملهم.

يخرج : يظهر.

أضغانهم : جمع ضغن وهو الحقد.

السيما : العلامة المعرفة.

لحن القول : دلالة ثانوية تنبئ السامع بما لم يصرح به المتكلم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذين اندمجوا مع المؤمنين لينطلقوا في مسيرة الإيمان الواضحة، ثم ارتدوا إلى الكفر، إلى الخلف، إلى ما كانوا عليه، بعد أن وضح لهم الدين في أصوله ومبانيه ومنهجه، ارتدوا لأنهم أطاعوا الشيطان الذي سهل لهم هذا الارتداد، أدخل في عقولهم أن الزمان طويل يمكنهم العودة إلى منهج الإسلام إن رأوا جديدا. انزلقوا إلى الكفر لما رضوا بأن يطيعوا المشركين المبغضين لما أنزل الله على رسوله

وقالوا لهم: سنطيعكم في بعض الأمور التي نستطيع أن نخفيها فلا ينكشف أمرنا. والله يعلم ما يجري في سرهم وما يدبرونه في الخفاء، فيتولى كشفهم لرسوله.
كيف يكون حالهم عند الموت، وقد وكل ملائكة العذاب بضربهم من جميع الجهات لا تسلم وجوهم ولا ظهورهم.
ما ظلمهم الله إذا سلط عليهم ملائكة العذاب بمجرد موتهم. لأنهم التزموا في حياتهم كل ما يسخط الله من الإثم والشر. وفسدت طباعهم فكرهوا ما يرضي الله من الخير، فأذهب كل ما عملوه من عمل يترتب عليه صلاح لأنهم يكرهون الخير. بل أظنّ الذين تأصل في تفكيرهم الفساد والنفاق، أن ما انطووا عليه من بغض الإسلام والكيد له أن لا يظهر ويفتضحوا؟ هذا ظن كاذب. إني لو شئت أن أجعل على كل منافق علامة تعرف به لفعلت. ولكن جرت سنتي في الخليقة أن ما انطوت عليه القلوب لا يعلمه الآخرون. ولكن لما لك يا محمد من الفطنة فسأساعدك على معرفتهم بما يجري في ثنايا كلامهم، مما هو رشح خبثهم فينكشف إليك أسرهم. والله يعلم حقيقة أعمالكم فيجزي الصالحين على فعل الخير وحسن قصدهم، ثوابه. ويحاسب المنافقين على تلونهم ومخالفة ظاهر أفعالهم لما يقصدون فيعاقبهم.

بيان المعنى العام.

25- إن الذين ارتدوا...وأملى لهم.

صورة مجسمة لسوء اختيار فريق، تساعد على التنفير منها، صورة من رأى وأدرك الطريق الهادي إلى الخير، وبلوغ المقاصد، وعوض أن يدخل في ذلك الطريق رجع القهقرى، وولى ظهره إليه، واتخذ اتجاها معاكسا له. تنسحب هذه الصورة على اليهود الذين عرفوا صدق رسول الله ﷺ، وهددوا أعداءهم بأنهم سينتصرون به عليهم، ثم إنهم بعد أن ظهرت أنوار رسالته تنكروا له واغتموا أن لم يكن من بني إسرائيل، عادَوْه ورجعوا إلى ما كانوا عليه من اتباع أحبارهم. كما تنطبق هذه الصورة على المنافقين الذين جلسوا مع المؤمنين وشاركوهم في استماع الذكر والعبادة، ثم إنهم بمجرد ما ينقلبون إلى إخوانهم المنافقين يصرحون بما ذكره الله في سورة البقرة **(وإذا خلوا إلى شيطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون[1])** كما تنطبق الآية على المنافقين الذين خرجوا مع جيش المسلمين في غزوة أحد، ثم انخزلوا ورجعوا إلى المدينة، وشككوا في أن تكون هذه المعركة لها ما يبررها.

---

[1] سورة البقرة اية13

إن الرجوع من الإيمان إلى الكفر، ومن نور الهدى إلى ظلام النفاق والشك، مخالف لطبيعة الأمور، ولما تقتضيه الفطرة السليمة، ولكن الشياطين سهلوا لهم هذا الارتداد، وأقنعوهم بأنهم إذا عادوا لما كانوا عليه فإن في العمر فسحة، يستطيعون العودة إلى الإيمان متى أرادوا.

26- ذلك بأنهم قالوا...والله يعلم أسرارهم.

هذه الآية تصور كيف سهل على المنافقين الرجوع إلى الضلال، بعد أن هز القرآن ببيانه وحججه عقائدهم السابقة. لم ينغمسوا في الكفر انغماسا كاملا بمجرد ما وقع تشكيكهم، ولكنهم انزلقوا إلى خطوات الضلال الأولى. فقالوا للمشركين من أهل مكة الذين امتلأوا بغضا وحقدا لما أنزله الله على رسوله من الحق، قالوا لهم سنطيعكم في بعض ما تطلبوه منا. تراخوا في اتباعهم في بعض الأمر حتى لا ينكشفوا للمهاجرين والأنصار في المدينة، فمن ذلك أنهم يخرجون مع الجيش الإسلامي، ثم يوقعون الاضطراب في المجاهدين، بتوليهم قبل حضور القتال. والله عليم بما يسرونه، وما يدبرونه في الخفاء من الكيد، فيطلع الله رسوله ويدمر كيدهم.

27-فكيف إذا توفتهم...وأدبارهم.

سبق في الآية 25 أن الشياطين يمدون في آمال المتبعين لهم، وحياتهم في الدنيا قصيرة، سيتوفاهم ملائكة الموت، وكيف يكون حالهم ؟ وما أشد فظاعة ما يلقون بمجرد ما تنتزع أرواحهم ! سيجدون ملائكة العذاب يضربونهم من جميع الجهات، صورة أفظع من تعذيب الدنيا، إذ المعهود فيمن يسلط عليه العذاب أن يتلقاه من جهة واحدة، وأنه يحاول أن يتقي شدته بالانحراف إلى جهة معاكسة لموقع ضاربه. أما ملائكة العذاب الموكلون بهم في أول منزلة بعد الموت، فإنهم يتولون ضربهم من جميع الجهات.

28- ذلك بأنهم اتبعوا...فأحبط أعمالهم.

ذلك النكال ليس ظلما لهم، ولكنه جزاء عادل لما اختاروه لأنفسهم، وساروا فيه فعلا. كانوا في حياتهم لا يألفون إلا ما يسخط الله، ما نهى عنه من الشرور، ويبتعدون عما أمر به من الخير. وهذا الارتباط بالشر والبعد عن الخير كون في نفوسهم منهجا، أنهم يكرهون كل ما يؤدي إلى رضوان الله، يكرهون التوحيد، ويكرهون الرسول ﷺ، ويكرهون المؤمنين، ويكرهون الضعفاء والمحاويج والأيتام، ويكرهون البنات. فكل الأسباب المؤدية إلى رضوان الله يبتعدون عنها كراهية لها. ولذا أبطل الله كل ما عملوه من خير قليل، فيأتون يوم موتهم وليس في صحائفهم

أي عمل صالح لأنهم إن قاموا به قاموا بـــه لا عـــن حـــب فـــي الخيـــر. أطبقـــت علـــيهم أفعالهم الشريرة من كل جانب، فأطبق عليهم العذاب كذلك.

29-أم حسب...أن لن يخرج الله أضغانهم.

تفتح الآية بكلمة "أم" مفيدة الانتقال من غرض إلـــى غـــرض آخـــر، انتقـــل الحـــديث مـــن جزائهم المقدر لهم وأحقيتهم له، إلى إبطـــال مـــا يجـــري فـــي ظنـــونهم. ومفيـــدة الإنكـــار عليهم ظنهم وأنه ظن خاطئ منفـــي لا حقيقـــة لـــه. ظـــن الـــذين فســـدت أفكـــارهم ونفـــذ المرض إلى عقولهم، أن ما انطـــوت علـــيهم نفوســـهم مـــن المكـــر والـــبغض، والعـــداوة والحقد يبقى كامنا لا يطلع عليـــه الرســـول، وبـــذلك يســـتطيعون مغالطتـــه فـــيظن أنهـــم مؤمنون من أوليائه. إن الله سيطلع نبيه على ما يحدثون به أنفسهم من مكر حاقد.

30-ولو نشاء...والله يعلم أعمالكم.

يؤكد ما جاء في الآية السابقة : أن ظنهم بقاء مـــا فـــي صـــدورهم مـــن مكـــر مخفيـــا لا يعلمه الرسول، هو ظـــن كـــاذب. إن الله قـــادر علـــى أن يجعـــل لهـــم علامـــات ظـــاهرة تُعرّف بأنهم منافقون، فيـــتم افتضـــاحهم للنـــاس جميعـــا، ولكـــن ســـبقت حكمـــة الله أن لا يطلع النّاس على ما يجري في صدور الآخرين.

ولكن بما آتيناك من ذكاء وفطنة، وبما قـــدرناه أن تنفلـــت ألســـنتهم بمـــا يـــدلك علـــى مـــا يخفون، فستعرفهم مما يجري فـــي كلامهـــم مـــن وراء الظـــاهر المـــتمكن مـــن عقـــولهم، فتجد في أسلوبهم وثنايا كلامهم، ما ينبئك بهم.

والله سبحانه العليم بكل شيء يعلم حقيقة أعمـــالكم، فيجـــزيكم حســـبما قـــدمتم، ويحاســـبكم على ما وراء الفعل الظـــاهري، إلـــى القصـــد الـــذي بـــه تـــم الفعـــل.فيجـــزي المـــؤمنين الصادقين الذين أخلصوا لله فـــي فعـــالهم بـــالثواب والقبـــول، ويجـــزي المنـــافقين حســـب مقاصدهم السيئة، وإن حاولوا إظهار أفعالهم مصبوغة بصبغة الطاعة والخير.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الابتلاء : الاختبار بالتكليف.

حتى نعلم : لنعلم.

شاقوا : خالفوا مخالفة تامة.

تبين الهدى : ظهور ما في الإسلام من الحق

الإحباط : الإبطال.

الأعلون : الغالبون.

لن يتركم : لن ينقص من جزاء أعمالكم شيئا.

بيان المعنى الإجمالي :

نكلفكم بما يبلغكم إياه الرسول، ليظهر ظهورا تطبيقيا الذين يسارعون للاستجابة لما كلفوا به من الجهاد، فيستحقون الأجر وكذلك يتبين الذين يصبرون على ما في الجهاد من مشقة، فيستلذونها ابتغاء مرضاة ربهم. وكذلك نختبركم بتكاليفنا ليتم تسجيل الأعمال التي تقومون بها، ويتم التحدث بها.

إن الذين جمعوا بين أنواع الفساد الثلاثة العظمى: الكفر، والعمل على منع الناس من الإيمان بالإسلام، وعاكسوا كل ما بيّن لهم الرسول ﷺ من الحق عقيدة وعبادة وسلوكا، لن يستطيعوا أن يضرُّوا الله، ولو شيئا قليلا. هم في قبضته، نافذ فيهم حكمه، وسيبطل مخططاتهم التي حبكوها للكيد للإسلام، كما سيقلب ما عملوه مما ظاهره الخير إلى هباء لا نفع لهم منه.

بكل تأكيد إن الكافرين الصادين للناس عن اتباع دين الإسلام، والثابتين على كفرهم إلى الموت، لن يغفر الله لهم ما عملوا ولا مطمع لهم في رحمة الله.

إياكم أن يدخل في قلوبكم الوهن، وأن تترددوا أو تفقدوا شجاعتكم. ولا تعرضوا على أعدائكم السلام، وهم يستعدون للقضاء عليكم. فإنكم أنتم الغالبون. والله مؤيدكم لا يسلمكم لأعدائكم. ومع ذلك يوفيكم أجوركم كاملة غير منقوصة.

بيان المعنى العام :

31-ولنبلونكم...ونبلو أخباركم.

أثبتت الآية السابقة أن الله يعلم أعمالنا. وهذا العلم مرتبط بالتكليف، فإنه يتم بواسطة التكليف كون الفعل طيبا مأجورٌ صاحبه، أو سيئا آثمٌ مرتكبه. يتبع التكليف مسؤولية العبد هل قام بما أمر به على الوجه الذي أمر به، وهل ترك ما نهاه عنه؟ وبهذا التكليف الذي تعلق بكم بواسطة رسولنا، يظهر في الوجود المجاهدون الذين فضلوا

مخاطر الجهاد على القعود، والشجاعة على الخوف. ويظهر مستوى صبر الصابرين في ساحة القتال، كما يظهر الجبناء الذين لم يستجيبوا لما أمروا به من الجهاد. وبالجد في القيام بالتكليف وسرعة الاستجابة يتميز المؤمنون من المنافقين. ولا يقتصر الأمر على الجهاد، فإن التكليف من ناحية أخرى يبرز أخياركم في التقوى والصلاح، كما يبرز فسق الفسقة. فإن الله بواسطة ما كلفنا به من التكاليف المتنوعة يظهر وضع كل فرد من الإقبال على الطاعة والإسراع إليها، وحب الخير. والصبر على مقاومة دواعي الشهوة والغريزة الهابطة. أو التراخي عما أمر به، والانقياد للشهوة. فالأخبار في الآية بمعنى ما يسجل به فعل الإنسان من الأحدوثة به. فعلم الله سبحانه علم قديم أزلي، ولا يقع شيء في الوجود على خلاف العلم الأزلي، ومع العلم الأزلي فإنه يعلم عبده في الوقت الذي يقوم فيه بما كلفه،أو يهمله ولا يقوم به، فهو ظهور العلم في الواقع حسبما هو ثابت في الأزل.

32- إن الذين كفروا وصدوا...وسيحبط أعمالهم.

اعتنت السورة من بدايتها بكشف المشركين فحقّرتهم وهددتهم، ثم أضافت هذه الآية طمأنة المؤمنين بتوهين مكرهم، وإفشال مخططاتهم فلا يصلون بها إلى أغراضهم.
فافتتحت بتعريفهم بالكفر المقرون بالعمل على منع النّاس من الدخول في دين الله. أضافوا إلى كفرهم وفساد عقيدتهم تصميمهم على الوقوف في وجه الإصلاح ومنعه من الانتشار، ثم إنهم بعد أن بين لهم الرسول وجه الحق في العقيدة والطريق المرضي في العبادة، والمنهج الذي يمكن من انتظام أمر الجماعة ويساعدها على الرقي والأمن. صمموا أن يسيروا في طريق آخر، شاقوه، فكان هو ﷺ في جهة، وهم في جهة أخرى معاكسة.
لا تأبة بهم فإنهم عاجزون على أن يبلغوا بفسادهم هذا ما يؤثر في الذات الإلهية أقل ضرر. وهم تحت سيطرته، وسيبطل كل مخططاتهم التي حبكوها لكيد الأمة.

33-يا أيها الذين آمنوا أطيعوا...أعمالكم.

نداء للمؤمنين بوصف الإيمان ليعلموا أن ما سيرد عليهم هو من مقتضيات الإيمان، فعليهم أن يحرصوا على هذا المضمون ولا يتهاونوا فيه.
أولا: أمروا بأن يطيعوا الله، ومظهر طاعة الله في الخضوع الكامل لعلي مقامه، والتصميم على تنفيذ أمره واجتناب ما نهى عنه.
ثانيا: أن يعزموا على طاعة رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وفي بيانه للوحي، وفي اعتباره القدوة الحسنة التي بها يقتدون، وأن سلوكه هو المثال للسلوك الذي يطمئن المؤمن أنه باتباعه يحقق رضوان الله.

ثالثا: أن لا يبطلوا أعمالهم. وإبطال العمل ساحة واسعة، تشمل الثبات على الإيمان ثباتا ينفي كل ريبة وشك. كما تشمل ترك الكبائر المنافية لطاعة الله وطاعة رسوله. روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا حتى نزل: ولا تبطلوا أعمالكم، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء [1] فكففنا عن القول في ذلك. وكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها. ومن يتتبع الوعيد بالإحباط في القرآن يجده مرتبطا بالكفر، إلا ما جاء في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون[2]) وسيأتي تأويلها وبيان ما جاء فيها قريبا عند تفسير سورة الحجرات. وقد نص القرآن على أن السيئة تكتب بوزنها وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها قال تعالى:(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون[3]) ومما يحصل للمتتبع للقرآن اليقين بأن الله واسع الرحمة عظيم الغفران، يجمع ذلك قوله تعالى:(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم[4]) فالذي ترجح عندي أن آخر الآية مؤكد لأولها. أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، ونهي عن القصد إلى عصيان الله وعصيان رسوله. والمستخف بما جاء عن الله وبما بينه رسوله معرض لإحباط الأعمال. وأما من غلبته شهوته في بعض الأحوال، وتراخت عزيمته فارتكب بعض المعاصي غير مُستخفٍ بتحتم الطاعة فهو غير مبطل لأعماله.

34-إن الذين كفروا...فلن يغفر الله لهم.

تتفق هذه الآية في مضمونها مع الآية السابقة32 فاجتماع الكفر والصد عن سبيل موجب لإحباط الأعمال، مع هوانهم على الله في الآية32 واجتماعهما موجب لليأس من مغفرة الله في هذه الآية.

---

[1] سورة النساء آية 48

[2] سورة الحجرات آية 2

[3] سورة الأنعام 160

[4] سورة الزمر آية53

35- فلا تهنوا وتدعوا...ولن يتركم أعمالكم.

تُثبِّت هذه الآية قلوب المؤمنين، أمرتهم أن يحرصوا على مصاحبة ما عرفوا به من الشجاعة، وطرد مسارب الخوف. فإياكم أن يدخلكم الوهن والضعف. وقد تكون هذه الآية مشيرة لما كان يجهد فيه المنافقون أنفسهم من بث الأراجيف، وتضخيم قوى الأعداء المتربصين بالإسلام، واختلاق أخبار تزعزع الثقة بالنفس، فليكونوا مستعدين لهذه الحرب النفسية صامدين.

وإياكم أن تدعوا أعداءكم إلى السلام. وهذه الآية تبين قوله تعالى: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله[1]) فآية سورة الأنفال تفيد وهن الأعداء وغلبة الجيش الإسلامي، وعلو كلمة التوحيد علوا لا يعوقه الكافرون عن التبشير به ونشر نوره في العالم. فوضع المسلمين وضع المنتصرين، وتبين أن العدو مستسلم حقا، فالإسلام ما جاء لبث الرعب، وإنما جاء لتتم الخلافة في الأرض على العدل والكرامة البشرية. نزلت هذه الآية، والإسلام ما يزال في بداية معاركه مع الكفر الباغي، لم تخضد شوكته. والمنافقون يخيفون المسلمين، ويبثون: أن الخير للمسلمين أن يعرضوا على المشركين السلم، فهي حملة توهينية. ويؤكد القرآن للمسلمين أنهم هم الغالبون. ويقوي عزيمتهم لنفي كل محاولة للنيل منه بقوله تعالى: (والله معكم). ومن كان الله معه انتصر بلا شك. ومع أن الله مؤيدهم، فإنه سبحانه لا ينقص من أجورهم في القتال شيئا، فسيجدون أجرهم وافيا عند ربهم. فضمنت الآية للمسلين النصر والتأييد في معاركهم مع الشرك، والثواب الأتم عما قدموا.

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللعب: هو ما يفعله الإنسان لا لتحقيق منفعة معتبرة.

اللهو: ما يفعله الإنسان منصرفا عن المهمات.

---

[1] سورة الأنفال آية 61

يحفكم : يواصل مطالبتكم ويلح عليكم في ذلك.

الأضغان : جمع ضغن الحقد الشديد.

بيان المعنى الإجمالي :

الحياة الدنيا فاتنة للبشر، مغرية لهم للعبث من متاعها. نبه القرآن أن المتأمل فيها الذي يزنها بميزان العقل ويبعد العواطف والشهوات، ينتهي إلى اليقين أن قصر الاهتمام بها يحوّل النشاط فيها إلى لعب لا يكسب خيرا. وإلى لهو ليس وراءه غاية. وأن ما يعطي للحياة قيمة، هو الجمع بين صلاح العقيدة بالتصور الصحيح للإنسان والكون وعلاقته بذلك كله، وأن يراقب سلوكه بالالتزام بالعمل الصالح المستجيب لشرع الله. وبذلك يحصل الإنسان على ثواب حسن عقيدته، وجميل سلوكه. ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم. ذلك أنه إذا ألح عليكم في التنازل عن جميع أموالكم يكون رد فعلكم ظهور البخل بالمال على ما تقتضيه العقيدة من الطاعة. ويحدث ما يمزق النسيج الاجتماعي وتظهر الضغائن.

انتبهوا، انتبهوا. إنكم مدعوون لتنفقوا في سبيل الجهاد ما يحمي الدين والدولة والأمة من الأعداء المصممين على غزوكم. وبعضكم يضغط عليه حبه للمال، فيبخل عن الإنفاق في سبيل الله. حُجبت عنهم الحقيقة وغفلوا عن المآل. فإن من يبخل ببذل ماله للجهاد، فإنما ضرر بخله يعود على نفسه، فإن الأعداء عازمون على استئصالكم، وسبي أموالكم. فاستعدوا لهم أقوى استعداد، والمال أحد مقومات الاستعداد. واعلموا أنكم إن توليتم إلى الكفر، فالله قادر أن يعوضكم بقوم آخرين، يثبتون على الإيمان، ويجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولا يكونون مترددين يوازنون بين المال، ومصلحة الدين والأمة.

بيان المعنى العام :

36- إنما الحياة الدنيا...ولا يسألكم أموالكم.

في الحياة الدنيا طريقان: أحدهما سالك إلى السهولة والهبوط، لا يقتضي من صاحبه بذل مجهود: يحصل فائدة من ورائه، كما يلعب الصبيان ليعمروا أوقاتهم، يجرون ويلهثون ويصيحون ويصفقون، وليس لهم غرض إلا اللعب. أو كما يتعب الإنسان من بذل جهد فكري أو عضلي إلى أن يبلغه الإعياء فيستجم بتلهيه بما يذهب تعبه، دون أن يحقق فائدة عقلية أو مادية. ومن خصائص اللعب واللهو أن زمنهما يمر سريعا، وأن اللاعب واللاهي لا هدف له. فالحياة الدنيا إن انحصر هم

الانسان فيها على ما تقدمه من متاع يستجيب لشهواته، فإنه باعتبار كونه إنسانا مستخلفا في الكون ليعمره يكون قد أفنى عمره كما يفنيه اللاعبون اللاهون.

والطريق الثاني الذي تهدف الآية لدعوة البشر إليه: أن يرسم الإنسان لنفسه هدفا في نشاطه، يحقق به لنفسه شيئا من الخير الذي يجده بعد فراغه من كل نشاط، أو يسهم به لخدمة الجماعة التي هو مندمج فيها. كمتنوع ضروب الطاعة لله، والعمل الذي يضيف خيرات تحقق معنى الخلافة، والعلم النافع والتعليم.

وبما أن من طبيعة الحياة أن عمر الإنسان فيها قصير، وأن ما تقضّى منها يذهب بما صحبه من مسرات أو آلام، وأن الذي يعكس طبيعتها الفانية هو فعل الخير الذي يبقى أثره، فالآية تدعو البشر إلى أن لا يجعلوا حياتهم لعبا ولهوا، بل جدا وصلاحا. ولذا صرحت الآية إثر ذلك بالمنهج الذي يحول الحياة من اللعب واللهو الممثّلين للضياع، إلى ما ينفع الإنسان فيكون للحياة قيمتها، وذلك بأن يجمع الإنسان بين الإيمان والتقوى، فبالإيمان يصلح فكره وروحه، وبالتقوى يصلح عمله ويجد آثاره محققة: الأجر الذي يفضي به إلى الجنة ونعيمها في الأخرة، والشعور بالحياة المطمئنة الراضية في الدنيا.

إذا محضتم حياتكم للإيمان والتقوى تنالون رضوان ربكم، ولا يطلب منكم أن تبذلوا جميع أموالكم للصالح العام.لا يسألكم أن تنفقوا في الجهاد جميع اموالكم.

37- إن يسألكموها...أضغانكم.

من رأفة الله بكم أنه يشرع لكم ما لا يشق عليكم، ولا يحمّلكم على ما لا يُقبل عليه إلا الذين تعمق إيمانهم، وكانت الحياة الدنيا وما فيها لا تساوي شيئا عندهم، إذ أن كل همهم الفوز برضوان الله. فهو يكلفكم ما تطيقون، و يؤتيكم أجوركم بالإيمان والتقوى. وهو رؤوف بكم فلا يسألكم بذل كل ما تملكون في الدفاع عن الدين وعن الأمة. لأنه يعلم ما جبلت عليه النفوس من حب المال والتعلق به. فلو كلفكم التنازل عن جميع أموالكم، ووالى كلما أنفقتم مطالبتكم بالمزيد، لقام في نفوس بعضكم حب المال، ودفعهم إلى العصيان والشح بما يملكونه. ولترتب على ذلك تمزق المجتمع بحقد الباذلين على من يشح ويبخل بماله، ورد فعل الباخلين بما يسيء للمؤمنين، فيؤول المجتمع إلى نزاع وبغض. وهذا من الحكم السياسية في الجباية التي أرشدت إليها الآية، وهي أن يراعي ولي الأمر فيها ما لا يثقل على أصحاب المال ثقلا يتبعه الانتقاض والبغض.

38-ها أنتم هؤلاء...ثم لا يكونوا أمثالكم.

افتتحت الآية بأداة التنبيه " ها" مقترنة بخطاب الحاضرين المنبّهين، ثم أعيد التنبيه ثانية مع اسم الإشارة للمخاطبين " هؤلاء " وذلك ليقتلع ما في النفوس من حب مفرط للمال، يدعو إلى الشح به وعدم بذله. وبين لهم أن الإنفاق الذي دعوا إلى التقدم لبذل المال فيه هو إنفاق في الجهاد للدفاع عن الدين وعن الجماعة الإسلامية، فانتبهوا ولا يحجبكم حب المال عن النظر إلى الخطر الداهم : الأعداء المصممين على الانتقام منكم، وعلى سحق الدين.

اعلموا أن بعضكم يسهم في البذل من أجل الجهاد عن طواعية، وبعضكم يبخل بماله ويمسك يده عن الإنفاق. لا يغرنكم حب المال فيطمس عنكم الحقيقة الكامنة والتي ستظهر في المستقبل، فإن الباخلين إنما يمسكون أموالهم مقدمين لها عن سلامة أنفسهم.والمال عكس ذلك. إن أعداءكم مصممون على القضاء عليكم وسلب أموالكم، لا يبقون لا على حياتكم،ولا على مكاسبكم. أفيقوا فإن الله هو الغني الغنى المطلق، ليس له حاجة إلى أموالكم، فهو الذي مكنكم منها، الغنى الكامل له، تعالى أن يحتاج لعونكم. وإنكم أنتم الفقراء، حاجتكم إلى ما يعطيكم حاجة مستقرة مستمرة.

ثم أكدت الآية مفهوم غنى الله عن بذلهم، فأضافت إليه أنه غني حتى عن ذواتهم، وتخيّلهم أن الدين يقوى بهم. فإنهم لو لم يثبتوا على الإيمان لما ضر الدين شيء، فصرح بأنهم إن تولوا عن الإيمان ورجعوا إلى الكفر، فلا يضير ذلك الإسلام، فإن الله قادر أن يستبدلهم بقوم آخرين يثبتون على الإيمان ولا تتزعزع عقيدتهم. ثم لا يكونون أمثالكم تحدثهم نفوسهم بالشح بالمال.

08 صفر 1435-13/12/11.

سورة الفتح

هذا الاسم هو هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به ما استهلت به من قوله تعالى "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" وهي سورة مدنية حسب الاصطلاح، أن كل ما نزل بعد الهجرة مدني، نزلت على رسول الله ﷺ ليلا، في موضع يقال له كراع الغميم، على ثلاثة أميال من عُسْفان في أرض مكة. ورتبتها الثامنة والأربعون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول الثالثة عشرة بعد المائة نزلت بعد سورة الصف، وقبل سورة التوبة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفتح: النصر المقترن بدخول أرض المغلوب أو بلده.

أنزل : أحلها.

السكينة : الطمأنينة.

الجنود : جمع جند، جماعة المقاتلين.

الفوز : الظفر بالمأمول.

بيان المعنى الإجمالي :

قصد النبي ﷺ مع ألف وأربعمائة من أصحابه مكة ليؤدوا مناسك العمرة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة. يتقدمهم ما أعدوه من الهدي تقربا لله بنحره

بعد إتمام نسكهم. ولما تفطن لهم المكيون عزموا على منعهم، ثم توالى ممثلوهم على النبي ﷺ لمنعه من دخول مكة عليهم وهم غير راضين. وانتهى الأمر بتوقيع هدنة بين النبي ﷺ وبينهم، تتحول فيها العلاقة من الحرب إلى السلم، وأن يعود المسلمون إلى المدينة، ويمكنوا من الاعتمار في العام القادم. ووفى النبي ﷺ بما أمضى عليه، وانطلق راجعا إلى المدينة. وأنزل الله عليه ليلا هذه السورة التي تلاها على الصحابة. كان الصحابة يشعرون بالمرارة لحرمانهم من البيت الذي اشتاقوا إلى الطواف به، وإقامة مناسكهم حوله. فلما سمعوا قوله تعالى: (إنا فتحنا لك فتحا مبينا)، استشكلوا الأمر. كيف يكون خضوعهم لإرادة المكيين فتحا. وسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم، فأجابهم: نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح. اقتنعوا لأن الرسول ما ينطق عن الهوى. أكدت الآية أن ما تم هو فتح مبين، كما ثبت في علمه سبحانه، وأن ما يأتي بعده من خير مرتبط به، ولذلك هو جدير أن يعد أعظم الفتوح وأكثرها بركة على الرسول وعلى الأمة.وأن الله قدر جزاء لرسوله على توفقه في اجتهاده، أن يبشره بأن غفر له ذنوبه ما تقدمت الصلح وما تكون بعده. على معنى أن كل حياته ستكتب له على المستوى الرفيع الذي يبلغه في آخر لحظة من حياته الشريفة. معلوم أن وضع النبي ﷺ يوم تلقيه الوحي الأول : (إنا أنزلناه في ليلة.) ووضعه يوم جاهد فحقق انتصار الإسلام وانطلاقه إلى العالم كله، بين اليوم الأول واليوم الأخير مراتب عرج فيها النبي ﷺ حتى بلغ القمة في نهايتها، فكان كل ما سبق يعد نقصا لما تم بعد، فأكرمه الله بأن جعل كل أيام حياته على الدرجة العليا. فهذا ما أقتنع بأنه المراد من مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولا يفهم على أنه عصى ربه وسيعصيه، ويغفر له ذنوبه. فالله عصمه من الذنوب إذ هو مقتدى به كل عمل يعمله يعتبر تشريعا لما يرضى الله عنه.

وقدر سبحانه أن يكون الصلح سببا لإتمام نعمة الله عليك فترى في حياتك ما كنت تتشوق إليه من إسلام قومك، وتطهير الكعبة من الأوثان، واستقامة أمر أمتك ووحدتها بعد أن كانوا قبائل متناحرين. وأن يكون سببا لموالاة هدايتك للصراط المستقيم بما ينزل عليك من تشريع يوضح الطريق السليم في الحياة، ويفتح لك مسالك النظر الصحيح فيما يعرض عليك من قضايا.

وينصرك الله على أعدائك نصرا لا يكلفك خسارة كبرى، ويذلهم به فلا يبقى لهم أمل في الانتقاض عليك.

إن الله بلطيف فضله أحل السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين، فكانت هادئة غير مضطربة، كلما توالى الوحي الذي تلقته الأمة بالقبول، ومن ذلك ما أخبرهم به من

أن الصلح فتح مبين فآمنوا به. وانضم إلى ما آمنوا به من قبل فازداد إيمانهم. والفتح الذي كتبه لكم وآمنتم به يقربه أن الله هو مالك جنود السماوات من الملائكة الذين يرسلهم تأييدا للمؤمنين المخلصين، وهو المالك لجنود الأرض فيلقي في جيش الكفر الخوف من المجاهدين فتسرع إليهم الهزيمة. والله هو الموصوف بالعلم الكامل، يعلم غيب المستقبل، وهو الحكيم ينفذ علمه حسب حكمته في الزمان والمكان.

يزداد الإيمان بما يتجمع من وحداته، لتعظم قيمته عند ربهم فيدخل المؤمنين والمومنات بسبب ذلك جنات تتخللها الأنهار. هم فيها خالدون لا يبرحونها، وقد محيت جميع سيئاتهم. وذلك الجزاء هو عند الله الفوز العظيم، قمة النجح الذي ليس بعده مقام أرفع.

بيان المعنى العام :

1-إنا فتحنا لك فتحا مبينا.

تستهل السورة مصرحة ومبرزة أن الذي يتكلم و يخاطب هو الله العظيم الأعظم [إنا] وأن مضمون الخطاب فتح ينسحب على الحاضر والمستقبل، ويشمل كل الأحداث التي تتلوه. انتشر بها الإسلام في الآفاق، ودخل به النّاس في دين الله أفواجا. السورة نزلت في السنة السادسة للهجرة. أعلن النّبي ﷺ في مجتمع المدينة أنه عازم على أداء مناسك العمرة. فانضم إلى موكبه ألف وأربعمائة من المؤمنين الذين اشتاقت أرواحهم للكعبة بيت الله الحرام. وقد حرموا من العيش في جوارها ومن الطواف حولها ست سنوات متتابعة.

أحرموا في شهر ذي القعدة من ذي الحليفة قرب المدينة، وساروا يتقدمهم ما أعدوه من الهدي وقد أشعروها فسال على جوانب أسنمتها خيط من الدم معلن لمن يراها أن محلها البيت العتيق. وأن الوفد وفد الله من عمّار بيته. قطع الموكب المسافة الفاصلة بين مكة والمدينة، ونزلوا بالحديبية على بعد مرحلتين من مكة. بلغت الأخبار للقرشيين: أن محمدا وأتباعه قاصدون مكة، وهم على مسافة غير بعيدة منها. فأحرجهم الخبر أيما إحراج.

ذلك أن احترام القبائل العربية لقريش، تحقق لها لأنها تقوم على بيت الله الحرام المعظمة من جميعهم. تسقي الوافدين وتعد لهم الطعام في الحج، ولا يطوف أحدهم بالبيت إلا في ثياب المكيين وإلا طاف عريانا. ولا تمنع أحدا من أداء مناسكه. والشهر شهر حرام لا قتال فيه، وتغمد فيه السيوف. والعلاقات بينهم وبين الإسلام قد بلغت من العداء والقتال ما هو معروف. وتمكين المسلمين من أداء مناسكهم

يعتبرونه كسرا لشوكتهم، و انتزاعا لمهابتهم. فالأمر خطير جدا إذ بظهورهم بمظهر الضعف ستعرض تجارتهم التي هي عصب حياتهم إلى الأخطار. فقد كانت قوافلهم تذرع الصحراء لا يفكر أحد في النّيل منها.

أخذت قريش تبعث من أحلافها ومن وجوه رجالها من يعمل على ثني النّبي ﷺ عن قصده، وكلما فاوضه أحدهم ورجع إلى قريش، إلا وأنبأهم بأن محمدا ما جاء لقتال ولا لكسر شوكة، وأنه مصمم على أداء مناسك العمرة، وأضاف مفصلا ما شاهده من الطاعة، ومن الحب والتقدير للرسول. وأخيرا بعثوا سهيل بن عمرو مفاوضا لرسول الله ﷺ على أن يوثق هدنة سلام بينه وبين قريش، تدوم عشر سنوات، وأن يُمكّن الرسول صلى الله عليه في السنة القادمة من الاعتمار، وأن يرجع في هذا العام. وحررت وثيقة الهدنة، ونحر النّبي ﷺ بدنه وحلق شعره وتبعه الصحابة. وتوقف عدد غير قليل من الصحابة الذين كانوا معه في قبول الهدنة التي ظاهرها أن قريشا شرطت شروطا مجحفة بالمسلمين وقبلها الرسول ﷺ. وكان من شأن النّبي ﷺ أن يشاور صحابته قبل أن يعزم على أي أمر، وخاصة في كل ما يتعلق بالحرب أو السلم، ولكنه في صلح الحديبية مضى لما عزم عليه من مهادنة قريش دون أن يستشير أحدا. رأى النّبي القائد الملهم أن الإسلام سيكسب كسبا عظيما بالتزام قريش الكف عن مهاجمة الإسلام، وأن الإسلام يستطيع بمقوماته الذاتية أن ينتشر. وهو ما تم فعلا. يقول الزهري ما فتح في الإسلام فتحٌ كان أعظم من صلح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى النّاس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن النّاس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، لم يكلّم أحد يعقل شيئا إلا دخل فيه. ولقد دخل في تلك السنتين، بعد الحديبية، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. ويعلق ابن هشام على كلام الزهري بقوله : والدليل على ذلك أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

بعد أن تحلل رسول الله من عمرته، وتبعه الصاحبة، وقفل العمار راجعين إلى المدينة، نزل على رسول ﷺ: (إنا فتحنا لك فتحا مبينا). وحسب ما تقدم من عرض، فإن النّبي ﷺ رجع إلى المدينة عقب صلح، هو فقط وثيقة سلام ملزمة للطرفين. فتفهم الآية أن الله وعد رسوله وعدا محققا أن الفتح آت غير بعيد وأنه لاريب فيه، فعبر عنه بالماضي " فتحنا" ولم يقل "سنفتح " نظرا إلى تحققه، فتحدث عنه القرآن على أنه وقع وتم. وجعله فتحا مبينا مؤكّدا، فيقتنع الذين لم تتبين لهم الحكمة في هذا الصلح. فعن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال، لما نزلت "إنا فتحنا ":أو

فتح هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ: والذي نفسي بيده إنه لفتح. وروايات أخرى عن بعض الصحابة تتفق مع توقف عمر. نعم إن فتح مكة من بعد، وقدوم الوفود من أطراف الجزيرة العربية للمبايعة على الإسلام، وانتشار الإسلام إثر ذلك في الأفاق، كل ذلك كان مستندا إلى صلح الحديبية. تحول به المشركون من الحرب إلى المسالمة، واستل ما دأبوا عليه منذ البعثة من المقاومة الشرسة إلى الاعتراف بالإسلام. وتمكن الدعاة أن يبشروا بدين الله، فأخذ عدد المسلمين يزداد كل يوم، وعدد المشركين يتناقص ويضعف، ونظرا إلى أن تربيتهم لا تساعدهم على الوفاء بالمعاهدات، فإنهم فعلا لم يُوفّوا بما في جاء في بعض فصولها،مما جعل النبي ﷺ في حل منها.فتم فتح مكة، ودخلها النّبي ﷺ مع صحابته فاتحا، ناقضا للشرك هادما للأصنام قاضيًا عليه قضاء نهائيا أبديًا. وخاطب النّبي ﷺ رؤساء الدول الذين هم حوله يدعوهم إلى الإسلام، وسن بعده إلى خلفائه أن يواصلوا هداية النّاس جميعا إلى الدين الخاتم.

انا فتحنا لك فتحا مبينا - يطلق الفتح على الظفر بالعدو، ودخول أرضه، وإنهاء حكمه. ولا يعتبر الانتصار في معركة بانهزام العدو والظفر بغنائم منه وأسر، فتحا. فلا يقال فتح بدر ولا حنين ولا أحد. فلا تفهم الأية إلا على أن ما تم من الصلح هو نقطة التحول التي بسببها ستتم جميع الفتوح من فتح مكة إلى فتح الأندلس. ولذا وصف بأنه مبين ظاهر ظهورا لا خفاء بعده. وهذا الفتح يسره الله لأجل رسوله [لك] فكان هو المصمم له، المتولي لكل جزئية من جزئياته، يصحبه إلهام رباني يقود فكره ويسدده. فإنه كما ذكر سابقا لم يستشر فيه أحدا من الصحابة.

2- ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر...مستقيما.

لما كان هذا الفتح المحقق لأجل محمد ﷺ، أعقبه بما قدر له عليه من تكريم وحسن جزاء. بهذا الخير الذي لا تحد سعة آفاقه، الممتد مع الزمن إلى أبد الأبدين، تولى الله جزاءك بمغفرة ذنوبك ما تقدم منها قبل الصلح وما تأخر عنه. والرسول ﷺ معصوم من الذنوب، فكيف تحصل المغفرة للذنوب وهي غير موجودة؟ والذي أفهمه: أن هذا وعد الله، ووعد الله لا يمكن أن يبنى على شيء غير موجود، فالوجه عندي: أن النّبي ﷺ جاءه الوحي من ربه في غار حراء. ولم يؤمن برسالته في أول الأمر إلا خديجة وعلي وأبو بكر ﷺ. ثم تتابع الوحي و جهر بالدعوة، وتوسعت العائلة الإيمانية، وأوذي في الله فصبر وصابر. وخرج مهاجرا إلى المدينة وجاهد في الله حقّ جهاده. وعبد ربه كأرقى وأتم ما تكون العبادة. فكان النّبي ﷺ يرتقي في رتب الكمال كل يوم درجات، فهو في وضعه مثلا وهو سائر إلى الحديبية أعظم

وأكمل مما قبله من الأيام، وهو بعد أن أتم الصلح أرقى منه قبل توقيعه، وهكذا فهو في كل يوم يرتقي إلى مقام أرفع، فتجد البون واسعا بين يوم وفاته ويوم بداية نزول الوحي إليه.فبناء على ما ترتب على صلح الحديبية من خير لا يحد للبشرية جمعاء، جعل الله كل لحظات حياته على أعلى مستوى من الفضل والكمال.وكل درجة بالنسبة إليه تعد أحط من الدرجة التي كان فيها. فليست الذنوب المغفورة ذنوب انتهاك لحدود الله، ولكنها رتب الكمال التي تعد كل مرتبة سابقة نقصا بالنسبة لرفيع مقامه بالنسبة للمرتبة التالية.

ويتم نعمته عليك – نعم الله على رسوله نعم روحية أولا، فابتهاجه ﷺ بإيمان الناس،واهتدائهم إلى الصراط المستقيم، وتمكن الألفة بين أعضاء أمته، هي نعم أخذت بعد صلح الحديبية تنمو وقرت عينه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بسيادة الإسلام في جزيرة العرب.

ويهديك صراطا مستقيما – ثبت الله رسوله وهو يواجه مشاكل توحيد الأمة وفض ما يعرض بين أفرادها من نزاع واختلاف، ومقاومة ما يدبره المنافقون من مكايد برعوا فيها. كل تلك المشاكل المتطورة بسعة الداخلين في الإسلام، رتب على صلح الحديبية تأييده في جميعها بما يهديه إلى حلها أفضل حل قاطع لدابر الخلاف، رافع لآثاره السيئة.ومع هذا فإن التشريع يتوالى ليكمل به الدين الصراط المستقيم.

3-وينصرك الله نصرا عزيزا

هو النصر الذي حقق الله له به وعده، فقد كان جهاده مع الكفر يتم بنصر يعود به الإسلام ظافرا وبأقل الخسائر، ويخذل به الكفر وأهله. فأعز الله محمدا وجيوشه في ساحات القتال، وبما يتبعه من ذل الأعداء.

4- هو الذي أنزل السكينة...عليما حكيما.

إنه سبحانه هو الذي بتفرده بالتصرف فيما ظهر وفيما خفي، أحل السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين.فجعل منافذ الشيطان إلى قلوبهم منسدة لا يستطيع أن يؤثر فيها بما يشككهم، في أن ما تم بالصلح ليس فتحا مبينا. رجع الصحابة إلى المدينة ولم يعتمروا كما عزموا، والمنافقون بالمدينة يتربصون مثل هذه الأحداث لينفذوا منها إلى إدخال الريبة في القلوب، ولتضخيم الأسى على حرمانهم، فحصنهم الله من ذلك الكيد، بل إنه أضاف إلى إيمانهم بما سبق أن ما تلقوه عن النبي ﷺ من العقيدة والتشريع، أضاف إلى ذلك إيمانهم بأن الفتح آت قريبا. فازدياد الإيمان ليس في حقيقته، لأن حقيقة الإيمان انتفاء كل ريب مهما كان ضعيفا. وهو

مرتبة لا تقبل الزيادة، وإذا نزل عنها ولو قليلا ذهب الإيمان وانقلب إلى ظن أو دونه من المراتب حسب النّاقص للإيمان قوة وضعفا. ولكن المراد زيادة في أفراد ما يؤمنون به، فتيقنهم أن الله سيفتح لهم فتحا مبينا عنصر جديد انضاف إلى جملة ما كانوا آمنوا به. وكما أن كل فرد منهم مأجور على ما سبق له من الإيمان بالوحدانية، وبصدق الرسول، وباليوم الآخر، وبكل آية في القرآن على أنها حق نزلت من عند الله، وكل تشريع كذلك وهكذا، فأفراد الإيمان قابلة للزيادة، فالسكينة والطمأنينة التي حلت في قلوبهم باعتقاد أن الفتح لا شك فيه رغم أنه لم يحصل، زيادة في الإيمان لهم ثوابها من عند الله.

إن ميزان القوى يوم صلح الحديبية كفّة الكفر راجحة فيه، فإن الشرك هو التصور العقدي المنتشر في الجزيرة العربية، وتأثير القرشيين في جزيرة العرب تأثير كبير. بل إن الضلالات هي السائدة في عقائد البشر. ومحمد وأتباعه في المدينة لا يتجاوزون بضعة آلاف، ولكن القوة الحقيقية هي بين يدي خالق الكون سبحانه، فهو المالك للملائكة يرسلهم بالتأييد لدينه، وهو المالك للجيوش التي يعتز بها الكفر، فيلقي في قلوبهم الرعب فتسرع إليهم الهزيمة، عكس السكينة والقوة في قلوب المؤمنين. قال تعالى : **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب**[1]– وقال: **سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**[2]– **وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا**[3]. وقال تعالى: **وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم**[4] –والله هو الموصوف دائما بالعلم الشامل والحكمة البالغة، فنصر المؤمنين مقدر سبق به علمه ويعلم أسباب النّصر والهزيمة، فيوفق المؤمنين ويخذل الكافرين. وهو الذي يجري الأمور بحكمته فينفذها في الوقت المحدد.

5-ليدخل المؤمنين...فوزا عظيما.

ما الذي يجنونه من زيادة الإيمان ؟ جاء الجواب عاما شاملا للمؤمنين والمؤمنات، أنه سيدخلهم بفضل هذا الإيمان المتوالي جنات دار الكرامة والنعيم يوم القيامة، تتخللها الأنهار، لا يكدر نعيمها خوف انقضائها، فهم خالدون فيها لا يبرحونها إلى أبد الآبدين، ويذهب عنهم، أي يمحو من صحائفهم ومن ذاكرتهم جميع ما اقترفوه

---

[1] سورة آل عمران 151

[2] سورة الأنفال آية 12

[3] سورة الأحزاب آية 126

[4] سورة الحشر آية2

من سيئات، فلا يشعرون بالندم المنغص. وما تجمع لهم من فضل من عند الله هو النّجح العظيم الذي لا مطمح بعده لشيء آخر. ونص في الآية على المؤمنات مع أنه من المعلوم أن صيغة الذكور تتناول الإناث، وذلك لأن هذا الثواب المتحدث عنه هو نتيجة الإيمان بما أخبر به النّبي ﷺ من الفتح المبين، وليس على الجهاد الفعلي الذي لا يشارك فيه من النّساء إلا العدد القليل.

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

التعذيب : إيصال العذاب إليهم في الدنيا والآخرة.

السوء : المكروه، والهلاك والدمار.

الشاهد : المخبر بصدق أو كذب غيره فيما ادعاه.

تعزروه : تنصروه وتؤيدوه.

توقروه : تعظموه.

وتسبحوه : تنزهوه عن كل النّقائص.

البكرة : أول النّهار.

الأصيل: آخر النّهار.

يبايعونك : يعاهدونك.

النكث : النّقض، نقض البيعة والعهد.

بيان المعنى الإجمالي :

تقبل المؤمنون الوعد بالفتح، بالإيمان به، فاستحقوا نزول السكينة في قلوبهم وما عطف عليها. وقابلها المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات بالظن السيء

في الله، وأنه لا ينصر محمدا ولا يحقق له فتحا. فاستحقوا العذاب، وأن ظنهم السيء سيدور عليهم فيهلكهم وينصر الله رسوله ويفتح عليه. وحل عليهم غضب الله فلا يسعفهم بألطافه، وهيأ لهم مكانهم في جهنم في الدار الآخرة. وما أسوأه من مصير. إن الله يتصرف وحده في جنود السماوات والأرض فينصر من يشاء ويهزم من يشاء، وله سبحانه العزة بإطلاق.

ثم توجه الخطاب إلى رسول الله مظهرا كمالاته، إنا أرسلناك وحملناك إبلاغ هدايتنا إلى البشرية قاطبة، رفعنا مقامك فتشهد على أمتك بأنك بلغتها ما أوحي إليك، وليس وراء شهادتك مثبت أقوى، وتشهد للرسل أنهم بلغوا. وتبشر المؤمنين الصالحين بالخير، وتنجز ما تُبشّر به. وتنذر المكذبين الكفرة ما يترصدهم من خزي وعذاب، وسيحل بهم ما تنذرهم به. لتؤمنوا أيها النّاس بالله حسب التصور النّافي للشرك، المنزه لعلي ذاته عن كل نقص، الموجب له كل الكمالات. ولتؤمنوا برسوله محمد فتصدقوه في كل ما يخبركم به من تشريع وآداب. ولتقوموا بواجب نصرة دين الله، ولتعظموا ربكم توقروه، وتلزموا تنزيهه تعالى كامل أوقاتكم.

لما شاع الخبر أن قريشا اعتدت على سيدنا عثمان بن عفان ﷺ، وكان قد أرسله النّبي ﷺ إلى مكة ليفاوض القرشيين ليسمحوا لرسول الله وصحابته أن يؤدوا عمرتهم مسالمين، بعد أن صدهم المشركون. دعا النّبي الصحابة للبيعة على قتال قريش وأن يصمدوا في القتال صمودا لا هزيمة معه. وتمت المبايعة، وأكدها رب العزة بأن المبايعة تمت بين الله وبين المؤمنين. فهي قد بلغت أقصى درجات التأكيد والسمو. وأن من ينقضها ولا يوفي بها سيكون ضر نقضه على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليه الله من الصبر في القتال، وعدم الالتفات إلى أي شيء سوى الصمود فيه، فإن الله سيحقق له الأجر العظيم الذي يتجاوز كل تصور.

بيان المعنى العام :

6- ويعذب المنافقين...وساءت مصيرا.

كان للوعد بالفتح المبين الذي بشر الله به رسوله ﷺ أثران مختلفان:

أثر في المؤمنين، والمؤمنات، الذين آمنوا به وأيقنوا تحققه، وذكرت الآية السابقة ما جنوه من ذلك الإيمان.

وأثر في المنافقين والمنافقات، والمشركين، الذين ظنوا أن الله لا يفتح على رسوله، فاعتمدوه لإدخال الريبة، منكرين أن يكون الله أخبر رسوله بذلك. وأتصور أن حزب النّفاق في المدينة أخذ ينشر الشكوك فيما أيقن به المؤمنون، وأن السعي الرامي إلى اقتلاع ذلكم الأمل شارك فيه الرجال والنساء، ولذلك عطف القرآن

المنافقات على المنافقين لاستوائهما في الاجتهاد لإدخال البلبلة. وكذلك المشركون لما بلغهم ما أنزل على الرسول أخذوا في السخرية منه، وفي الاستهزاء بالمؤمنين والمؤمنات الذين منعوهم من الالتحاق بالمدينة.

كان موقفهم مما أخبر الله به نبيه من الفتح، التكذيب على أنه نزل عليه شيء من ربه، وأنه اختلاق. وقدموا تصورهم أن النبي رجع خائبا إلى المدينة فأراد أن يقلب الحقيقة ويجعل ذلك فتحا ليغرر أتباعه، ويجعلهم يتعلقون بالأوهام. وروّجوا أن قوة القرشيين لا يتصور معها أن يهزموا سريعا فيفتح على محمد وأتباعه فتحا مبينا قاضيا على من اتخذهم أعداء له.

إن هذه الحركة استحق بها المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات العذاب المتواصل الذي افتتحت به الآية. ثم أتبع ذلك بالتصريح بأسوأ وصف فيهم، أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمدا ومن معه ولا يرجعهم إلى مكة فاتحين ظافرين. على أن قوة قريش أعتى من أن يكسرها الله ويهزمها. إن السوء الذي استبعدوا أن يحيق بهم، سيدور فيقع عليهم ويهلكهم وينصر الله رسوله والمؤمنين. وحق عليهم غضب الله بما يتبعه من حرمانهم من ألطافه، ووجبت عليهم لعنة الله وإبعادهم من فسيح رحمته فلا ينالهم منها شيء، وهيأ لهم مقامهم في جهنم. وما أسوأ تلك العاقبة وما أقبح ذلك المصير !

7- ولله جنود السماوات....عزيزا حكيما.

هذه الآية هي نظير الآية الرابعة، إلا أن هذه ختمت بقوله تعالى: **وكان الله عزيزا حكيما**، وختمت السابقة بقوله تعالى: وكان الله عليما حكيما. وموقع هذه الآية يناسبه العزة التي بمعنى أنه غالب بإطلاق، وأن من شكك في قدرته مهزوم.

8-،9-إنا أرسلناك...وأصيلا.

هذه أخت الآية الأولى: (**إنا فتحنا لك فتحا مبينا**) فيها يتجلى الله في عظمته وكبريائه، فيخاطب نبيه مقربا له ومنوها به، إنا تخيرناك من بين عبادنا، فأرسلناك شاهدا عليهم جميعا، والحق معك، تشهد على كل فرد من أفراد أمة الدعوة، تشهد وأنت المصدّق عندنا، بأنك بلغت كل ما أمرناك بتبليغه. كما تشهد على الأمم التي طواها التاريخ بما قابلت به رسلها حسبما أوحينا إليك.فأنت تشهد لهم أو عليهم. وهي مرتبة ما بلغها أحد من خلق الله، خُصَّ بها محمد ﷺ. وهو شاهد على ما بشر به المطيعين من ثواب وتكريم، وشاهد على من كذب بما أنذره به من عذاب أليم، بما ينفي أعذارهم، ويكشف عن العدالة في رفض اعتذارهم أو طلبهم الإمهال.

هذا الرسول الكريم الشاهد على أمة الدعوة بالتبليغ وهو المصدق، المبشر بالخير لمن أطاع، والمنذر بسوء المصير لمن لم يؤمن. يتحقق برسالته أنكم مطالبون جميعا بأن تؤمنوا بالله، وبرسوله. ومحمد أحدكم فهو مطالب بأن يؤمن بالله وبرسوله، فإنه ﷺ كان يقول في تشهده : وأن محمدا عبده ورسوله، وهذا الإيمان موجب للثواب الذي ينال منه رسول الله كما يناله بقية النّاس. وليكون موقفكم الموقف الإيجابي مما جاء به فلا تقصروا في نصر الله ورسوله وذلك بنصر دينه، والحق الذي جاءكم من عنده، وهو معنى وتعزروه. وتوقروا ربكم بتعظيمه التعظيم اللائق به. وتنزهوه عن كل نقص، تستحضرون هذا التنزيه المعبر عن كماله المطلق سبحانه ونفي التشبيه عنه في جميع أوقات حياتكم. فالضمائر كلها تجري في نسق واحد معبرة عن الذات العلية. وفهم بعض المفسرين تفريق معادات الضمائر، فجعلوا تؤمنوا، وتسبحوا عائدين على الذات العلية، وتعزروه وتوقروه عائدين إلى النّبي ﷺ.

10-إن الذين يبايعونك...أجرا عظيما.

تسجل هذه الآية مشهدا من مشاهد صلح الحديبية، ذلك أن النّبي ﷺ أرسل سيدنا عثمان بن عفان ﷺ إلى مكة مفاوضا، ليمكنوه وصحابته من أداء مناسك العمرة. واختياره لعثمان لأن له في مكة من الأهل والعشيرة من يحمونه من التعدي عليه. فراج الخبر أن قريشا قتلت عثمان. فعزم النّبي ﷺ على قتالهم، واستعد له بدعوة جميع الحاضرين إلى البيعة على القتال، وأن يصمدوا صمودا ينتهي بالثبات على القتال ولو انتهى بكل واحد إلى الموت. ولما لم يكن عثمان حاضرا وضع النّبي ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: هذه عن عثمان ثم جاء عثمان فبايع. ونوه الله بهم فقال: إن الذين مدوا أيديهم لمبايعتك على الصمود وعدم الفرار مهما كانت الظروف والأحوال، هم في الحقيقة قد سموا فاعتبرت مبايعتهم مبايعة لله، وهو عهد بين رب العزة وبينهم. وزاد هذا التنويه قوة بتجسيمه في التصور، يد الله فوق أيديهم. إن التوثق كأنه وقع بين الله وبين المبايعين بدون واسطة. والله منزه أن تكون له يد، فالمعنى أنه راع وحافظ لهذه البيعة، ولذلك سميت ببيعة الرضوان، لم يحضرها منافق ولا مرتاب في دينه.

لما شددت الآية في توثيق بيعة الرضوان، وأن العهد في قوة وقوعه بين المعاهد وبين الله، أضاف إلى ذلك التوثيق في التصور، التصريحُ بعظمة هذه المبايعة، وأن الله يرقبها.وأن من لم يف بها ونقضها فإن ضرّ نكثه يعود على ذاته مباشرة. ومن حفظ عهده وأوفى بما عاهد عليه الله من الصمود صمودا لا يثنيه عن الجهاد أي

داع من الدواعي الذاتية، أو الأسرية، أو المالية. فإن الله تكفل له بالأجر العظيم الذي لا تحده حدود، ويتجاوز ما يُتصور.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

المخلفون : الذين آثروا البقاء في أهليهم، ولم يصحبوه إلى العمرة.

الأعراب : سكان البادية في جزيرة العرب.

الأموال : الإبل.

يملك : يقدر ويستطيع.

التزيين : التحسين.

بورا : هلكى.

سعيرا : النار الشديدة الإيقاد.

يملك : يقدر ويستطيع.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم النبي صلى الله عليه وسلم القبائل التي كانت تسكن الصحراء حول المدينة، أنه قاصد العمرة، وحثهم على مصاحبة الركب الإسلامي، وليكونوا قوة يكثر بها عدد المعتمرين، فلا تمنعهم قريش من زيارة البيت وأداء المناسك. ولم يستجب لدعوته إلا القليل منهم. وكانوا يضمرون في قلوبهم أن السلامة تملي عليهم أن يتخلفوا عنه، إذ قوة قريش ترهبهم. واجتمعت كلمتهم على أنه إن رجع النبي إلى المدينة فإنهم يعتذرون إليه بأن القيام على إبلهم وعلى أسرهم شغلهم عن مصاحبته وأنهم يطلبون منه أن يستغفر لهم حتى يغفر الله لهم تقصيرهم. أوحى الله لرسوله ما

تمالأوا عليه، ولما رجع إلى المدينة بصلح الحديبية، والانتصار على خيبر، وفوز أصحابه بغنائم كبيرة، جاؤوا حسب ما تقدم من الوحي يعتذرون. فكانوا وهم يتقدمون بمعاذيرهم يعلم الرسول مقدما بكذبهم .

قل لهم قولا يكشف لهم غباءهم وفساد تصورهم. ظنوا أنهم إن حصنوا أنفسهم وقعدوا ثم استغفروا الرسول أن تقصيرهم يصبح كأن لم يكن. وأن الحقيقة خافية عن الله. قل لهم: إن الله عادل يجزيكم عما قدمتم، ولن يستطيع أحد أن يحول حكمه سواء أكان بالضر، أم بالنفع. فإنه تعالى عليم بحقيقة ما أنتم عليه وما جرى في بواطنكم. الحقيقة أنكم ظننتم أن قريشا وحلفاءها سيستأصلون محمدا والعُمّار معه، وأنه لن يعود منهم أحد إلى المدينة، وأنهم بعد ذلك سيجهزون على المدينة فلا يبقى أثر للإسلام. وهذا التفكير جريتم معه محبوبا لنفوسكم. وبذلك كنتم هالكين في الدنيا. فقد انتصر محمد بصلح الحديبية، ثم بفتح خيبر وبما غنمه من صحبه وحرمتم من ذلك. وكذلك في الأخرى فخسرتم آخرتكم خسرانا لا منقذ لكم منه.

وهكذا فإن كل من لم يؤمن بالله ورسوله، واستمر على كفره فإنه سيلقى النّار الموقدة تنتظره ليأخذ مكانه فيها.

واعلموا أن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض، أوجدها وأعطاها قوانينها، والإنسان جزء ضئيل من هذا الكون. لا يخفى على الله منه شيء. يتصرف فيه حسب حكمته فيغفر ذنوب من يشاء ويمحوها كأن لم تكن. ويلقى المغفور له جزاءه الطيب كاملاً غير منقوص. ويجزي من غلب شره وساء ضميره فيعذبه. والله هو الغفور الذي يغفر الذنوب وإن عظمت، وهو الرحيم بعباده فيسعدهم بألطافه ليسيروا على الطريق المستقيم، ويتعلقوا، بالفضيلة فيسعدوا في دنياهم وآخرتهم.

بيان المعنى العام:

11- سيقول لك المخلفون...بما تعملون خبيرا.

أعلم الله رسوله بما سيسمعه من الأعراب المقيمين حول المدينة، الذين تثاقلوا عن الخروج معه وآثروا البقاء في منازلهم وعدم مصاحبته، بعد أن دعاهم إلى أداء العمرة معه وللتقوّي بهم لو اعترضته قريش وصدته عن البيت. وهؤلاء الأعراب هم القبائل المقيمة في صحرائها : غفار، ومزينة، و جهينة ، وأشجع وأسلم، والديل. وهؤلاء المتخلفون لم يكونوا منافقين، ولكن الإيمان مازال لم يرسخ في قلوبهم، فرغبوا بأنفسهم عن نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوروا في أنفسهم أنه إذا انقلب الرسول من عمرته اعتذروا إليه، بأنهم كانوا مشغولين عن أداء مناسك العمرة بإبلهم (أموالنا) وبأسرهم(أهلونا) وطلبوا منه أن يدعو الله ليغفر

لهم تثاقلهم هذا. هذا ما تمالأوا عليه ودبروه فيما بينهم، في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ سائرا محرما نحو مكة. وأطلع الله رسوله على ما سيسمعه منهم. وهو ما تم فعلا فإنه ﷺ بمجرد ما قفل راجعا من الحديبية، ودخل المدينة بعد انتصاره على خيبر وفوز أصحابه بالغنائم الوافرة منها، أتاه من تخلف من الأعراب يقدمون له المعاذير التي أعلمه الله بها، فكان ذلك معجزة من معجزاته ﷺ. وأجابهم عن طلبهم أن يتقدم إلى الله بالاستغفار لهم بما أمره الله أن يقول لهم: قل لهم قولا يخرجهم من الاعتقاد الخاطئ الذي قادهم إلى ما وقعوا فيه: أنهم يتراخون عن القيام بالواجب، ثم يطلبون من الرسول الاستغفار فيخرجون وكأنهم ما قصّروا. أعلمهم أن لا يقدر أحد مهما كان أن يحولهم من المحاسبة على ما فعلوا، إن أراد الله أن يصيبكم بما يترتب على سوء أعمالكم. كما أنه لا يقدر أحد أن يحول ما أراده الله من خير للبشر. والله في ترتيب الخير لمن شاء، وترتيب الشر لمن شاء، لا يفعل ذلك اعتباطا بدون موجبات ترجح ما أراده حسب حكمته، ولكنه سبحانه خبير عالم بما تضمرونه، وما تنطوي عليه نفوسكم من مقاصد خيرة أو خبيثة. وبهذا الجواب تركهم في حالة خوف مما قدره الله لهم جزاء تخلفهم، وجزاء كذبهم.

12-بل ظننتم أن لن ينقلب...قوما بورا.

إبراز لما دار في نفوسهم، وما جرى في تفكيرهم، مما أقعدهم عن الالتحاق بركب المؤمنين. افتتح بكلمة " بل" لإعلان أن الكلام انتقل إلى بيان حقيقة، على السامع أن يستيقظ لما يأتي بعد "بل". غلب في تفكيركم أن قوة قريش وقوة حلفائها ستضرب المعتمرين ضربة قاضية تستأصلهم، وتقضي على الدين وعلى الرسول وعلى من معه، فلا يعود منهم أحد إلى المدينة. فكرتم فكانت هذه الفكرة هي التي سبقت لكم، فاستحسنتموها، ولم تفرضوا أي تصور آخر. وظننتم بذلك الظن الأسوأ، فرتبتم أن المشركين سينقضون على المدينة فيهلكون من بقي فيها، وبذلك يقضى على الإسلام قضاء أبديا. والذي تحقق أنكم قوم هلكى. تلبستم بالهلاك حتى صار الهلاك مقوما لكم، فخسرتم الدنيا بانتصار المؤمنين والآخرة بما ستلقونه من العذاب.

13- ومن لم يؤمن...سعيرا.

هذه قاعدة عامة لا تتخلف، أن كل من كفر بالله ورسوله، ولم يدخل الإيمان قلبه، ليكن على علم أن الله قد هيأ له نارا موقدة هي عاقبته التي لا مفر له منها.

14-ولله ملك السماوات...غفورا رحيما.

إن الملك الحق لله، فهو المالك للسماوات يدبر أمرها ويجريها على القوانين التي أبدعها عليها، وهو المالك للأرض ومن عليها. والبشر جزء ضئيل من المخلوقات

التي عمرت بها الأرض. يعلم حقيقة كل فرد، وأعماله، ودوافعه، وغاياته، ومقاصده. لا يخفى على الله شيء ولو قل، ويرتب سبحانه ما تقتضيه حكمته، فيتبع بعض الذنوب التي لم تصل إلى الشرك بمغفرته، ويمحو آثارها من صحائف المذنب، فيلقى ثوابه خالصا من لوث الإثم، فينعم في جنات النّعيم. ويُلقي في قلبه السكينة والاطمئنان في الدنيا فيعيش عيشة راضية. ويعذب من يشاء ممن كان لوث الإثم متمكنا فيه غلب شره خيره. وهو سبحانه لفضله وكماله كان عظيم المغفرة، واسع الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء. وهذا شأن القرآن أن يتبع التخويف بما يوجب الرجاء، حتى يكون الرجاء حاثا على الفضيلة والخير.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

انطلقتم : عزمتم على السير.

مغانم : غنائم.

يبدلوا كلام الله : يغيروا حكمه في منعهم.

يفقهون : لا ينفذون إلى فهم الغايات.

حرج : إثم ومؤاخذة.

الأعرج : المصاب في رجله إصابة تعوقه عن الجري.

يتول : يدبر.

بيان المعنى الإجمالي :

أذن الله لنبيه أن يغزو خيبر. وأعلمه قبل توجهه أن المخلفين من الأعراب سيطلبون منه المشاركة في الغزو قائلين : اتركونا نسير وراءكم، طلبوا ذلك لا دفاعا عن الإسلام ولكن لينالوا من غنائم خيبر، فلا تأذن لهم. وهذا ما تم فعلا. فكان جوابهم لما رغبوا في مسيرهم مع الجيوش الإسلامية لغزو خيبر: لا آذن لكم باتباعنا. هذا ما حكم الله به من قبل عرضكم، فأنا على علم من ربي من اقتراحكم هذا. كما أعلمه أنهم سيجادلونكم في منعهم قائلين: إن الحامل على منعنا حسدكم أن ننال شيئا من المغانم. وفعلا جادلوا حسب ما أعلمه الله. وأن جدالهم هذا هو نتيجة ضعف عقولهم، وتعلقهم بالظواهر القريبة، وانصرافهم عن النفاذ لما وراء الظواهر؛ ففهمهم ضعيف ومحدود. لا تجعل اليأس يحل في قلوبهم فقل لهم إنكم ستختبرون في المستقبل، وستدعون لمجاهدة قوم شديدي المراس متصلبين في كفرهم، تُدْعَوْنَ لقتالهم حتى يسلموا. إنكم إن تطيعوا الله في صمودكم على قتالهم إلى أن يذعنوا للإسلام يوف الله لكم أجوركم الحسنة. وإن لم تتوبوا وواصلتم التشبث بموقفكم الذي سبق منكم في العمرة يعذبكم عذابا أليما.

رفع الله المؤاخذة عن أصحاب الأعذار الذين لا يستطيعون أداء ما كلفوا به بسبب ما هم عليه من نقص. كالأعمى والأعرج والمريض. وإن كان النص واردا في رفع المؤاخذة عن عدم القيام بالجهاد، فإنه يشمل كل التكاليف الشرعية. فهي قاعدة عامة في التكليف. والمعتبر في التكليف تلقيه بالعزم على الطاعة لله ولرسوله. ويتولى الله بفضله جزاء الطائعين في جنات تتخللها الأنهار. وفي المقابل فإن من يقرر الانصراف عما أمره به الله يعذبه عذابا أليما.

بيان المعنى العام:

15-سيقول المخلفون...لا يفقهون إلا قليلا.

أقام النبي ﷺ بالمدينة بعد أن رجع من الحديبية شهر ذي الحجة من السنة السادسة، وشهر المحرم من السنة السابعة. وفي هذا الشهر عزم على غزوة خيبر. وأراد المخلفون من الأعراب أن يصحبوه في غزوته تلك، لأنه ترجح عندهم أن الجيش الإسلامي سينتصر في خيبر، ويغنم غنائم وافرة.ولكن النبي صلى الله عليه وسلم منعهم. ذلك أن الله أعلم نبيه مقدما أن المخلفين سيطلبون منه الخروج معه في غزاته لخيبر.

كان عرضهم، حسبما بسطته الآية، الانضمام إلى الجيش الإسلامي ليس دفاعا عن الدين، ولكن لينالوا حظا من الغنائم. وتعبيرهم (ذرونا نتبعكم) اتركونا نسير وراءكم صريح في الدلالة على أن عرضهم: أن يكونوا تابعين للجيش لا في

المقدمة،وذلك لشدة تعلقهم بالمال، إذ أن الإيمان لم يسم بهم بعد إلى مستوى العزة، وعدم الرضا بالدون. يريدون بعرضهم تغيير ما قرره الله وأعلم به رسوله، أن خيبر لن يشارك فيها من تخلف عن الحديبية، استبطنوا توهين أمر المسلمين، ورجحوا أنه سيتم القضاء على المؤمنين وعلى الإسلام معا. ومن بديع التعبير القرآني أن لقبهم بالمخلفين، وجعل الحديث عنهم بهذا الوصف الدال على الانخذال لعدم الثقة في نصر الله.

كذلكم قال الله من قبل – إن عرضكم هذا قد أعلمني الله به مقدما ،كما أطلعني مقدما بما زوّرتموه في نفوسكم لما انخذلتم عن موكب المعتمرين، متربصين أن يقضى على الإسلام وتسلمون. فعرضكم مردود عليكم، ولن يتغير ما قاله الله فيكم أنكم ممنوعون من الانضمام إلى جيش المسلمين.

فسيقولون بل تحسدوننا – أعلم الله رسوله أيضا أنهم حين يصدهم ويحرمهم من الانضمام للغزاة، أنهم لا يستسلمون مع الحياء من مواقفهم، بل يواصلون قلب الحقائق فيقولون : إن الذي حملكم على دفعنا عن اتباعكم هو ما تضمرونه من الحسد لنا، أن ننال من الغنائم شيئا. افتضح ما يُكنّون، وانكشف أمرهم، وعلْتهم هي رشح غبائهم، فهم لا ينفذون إلى المستوى الرفيع البعيد، بل هم لا يتجاوزون القريب المادي قليل الفائدة.

16- قل للمخلفين...يعذبكم عذابا أليما.

يتواصل التوجه بالخطاب إلى النّبي صلى الله عليه وسلم ليصلح أمر الأعراب، ويحولهم من ضعف الإيمان إلى مستوى قوي منه. قل يا محمد لهؤلاء المخلفين الذين ما يزال إيمانهم ضعيفا، ولوثة التخلف عن العمرة متواصلة معهم، قل لهم قولا يسكب في نفوسهم الرجاء أن يبلغوا الدرجات العالية من اليقين والعمل الصالح: إن الله لم يغضب عليكم، ولم يفصلكم عن الأمة، وأنكم ستدعون إلى الإسهام في نشر الإسلام مع الجيوش الإسلامية، ستدعون لقتال أقوام أصحاب بأس وعناد، تقاتلونهم وتصمدون في النّزال إلى أن يسلموا. ويكون هذا اختبارا لكم، إنكم إن تطيعوا بالصدق في الجهاد، تنالوا الجزاء الصالح الحسن من الله، رضا عنكم في الدنيا، وتيسيرا لأموركم، وكرامة في آخرتكم، وإن تتولوا كما سبق أن صدر منكم لما دعاكم الرسول لتأييده والعمرة معه فآثرتم القعود عن نصرته وانتظرتم انكشاف الأمر بغلبة الجيش الإسلامي أو انهزامه حتى تكونوا مع الفريق المنتصر، إنكم إن واصلتم صدودكم عن الصدق في المواقف الإيمانية، يسلط الله عليكم

العذاب الأليم. فهذه الآية فاتحة لأمل المخلفين من الأعراب، مُعرِّفة أن موقفهم السابق لا يقضي على مستقبلهم، ولكنهم مدعوون إلى نقد ذواتهم وتغليب الخير.

17- ليس على الأعمى...نعذبه عذابا أليما.

هذه الآية محققة لمضمون الآية السابقة، فقد حرج الله على الممتنعين من القيام بواجبهم في الجهاد، وحققت هذه الآية أن المتخلفين ما كان تخلفهم عن عذر، و أن ما اعتذروا به عن التخلف كان معاذير كاذبة علم الله ما حدثوا به أنفسهم، وفضحهم بكشف حقيقتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فهم ليسوا كأصحاب الأعذار الحقيقية الذين شملهم الله سبحانه بعفوه ورحمته ولا يؤاخذهم عن القيام بعمومات الأوامر. يتناولهم الأمر ليفوزوا بالأجر على نياتهم وأسفهم على وضعهم الذي حرمهم من الطاعة ؛ ويعذرهم ربهم لأن إمكاناتهم لا تساعدهم على عمل الخير المأمورون به. وصرحت الآية بعذر العمى النافي للإثم مطلقا في الجهاد وفي غيره من التكاليف التي يعوق القصور عن الإتيان بالمأمور. ولا يتناول رفع الحرج ما لا دخل للعمى فيه من التكاليف الأخرى. والصورة الثانية الأعرج وهو الذي يعوقه وضع رجله عن الجهاد والكر والفر. وكذلك المريض. فنفت الآية الإثم عن الأعمى وعن نظائره مما كانت العاهة معطلة للحاسة عن القيام بوظيفتها في جميع المجالات. وكذلك عن الأعرج وهو عيب ساحة تأثيره محدودة بما يقتضي التنقل. وكلاهما من النقص المستمر. وكذلك عن المريض في جميع الميادين التي تُقعِدُ المريض عن القيام بما كلف به. فيشترك العمى مع المرض في التأثير في عدد غير قليل من التكاليف، إلا أن التنصيص على كل منهما يفيد أن التأثير يشمل ما كان المعوق محدودا بزمن وما كان مستمرا.

ثم عقبت الآية هذا الفضل الإلهي الرافع للحرج والإثم عن أصحاب الأعذار، بلفت الأنظار إلى قاعدة مهمة حتى يكون البشر على ذكر منها. وهي أن من يصرف قلبه ومشاعره إلى طاعة الله وطاعة رسوله، يحقق له رب العزة دخول جنات تتخللها الأنهار يوم القيامة، وأن من يولي ظهره فينطلق في الحياة لا يلتفت إلى ما حدده له ربه في سلوكه وعقيدته يسلط الله عليه يوم القيامة عذابا أليما.

• لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ

وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الشجرة : هي الشجرة التي بايع تحتها الصحابة على الثبات.

السكينة : الطمأنينة بأن ما وعدهم الله سيتحقق لا محالة.

أثابهم : أعطاهم ثوابا، عوضا هو الفتح..

فتحا : فتح خيبر .

كف : صرف.

الولي : الصديق الموالي.

السنة : الطريقة و العادة.

خلت : مضت.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد تحقق للمؤمنين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، في صلح الحديبية على الثبات مهما كانت مقاومة الأعداء، أنهم فازوا برضوان الله. وأنه سبحانه مطلع على صفاء قلوبهم، وصدقهم. إن هذا المستوى الذي هم عليه قد تبعه من فضل ربهم عليهم مع رضوانه، أنه أنزل في قلوبهم طمأنينة طردت كل نوازع الخوف. وجعل جزاءهم فتحا قريبا بتمكينهم من يهود خيبر. بعد أمد قليل من عودتهم من الحديبية. ومكنهم بذلك من مغانم كثيرة يحصلون عليها. إنكم محل تأييد من ربكم العزيز الذي تتحقق إرادته ولا يقدر أحد على معاكسته وفي نصركم نصر للحق. فهو بحكمته أجرى النّصر على أيديكم لكونكم أخلصتم وتعلق همكم بنشر الحق في الكون. وعد ثابت من الله لكم أنه سيمكنكم من مغانم كثيرة متنوعة تحصلون عليها فعلا. عجل لكم مغانم خيبر. و أحاطكم بألطافه فحماكم من أعدائكم يوم تركتم النّساء والصبيان في المدينة، فصرف فكر أعدائكم عن غزو المدينة وقت مغيبكم. وبالتأمل في هذه الألطاف تستيقنون من أن الله معكم، فيكون ذلك اية أخرى دالة على صدق الرسول ﷺ ، وأن الله معه ينصر دينه ولا يُسْلِمُه. وفوق ذلك سيوفق عقولكم وميولكم إلى الطريق الموصل إلى الغاية دون انحراف. ومغانم

أخرى حسب المعطيات لا تقدرون على نولها، ولكن الله الذي تحيط قدرته بالأشياء أحاط بها فطوّعها لكم تأخذونها بفضله. وقدرة الله لا يغلبها شيء.

إنه بعد تلكم العزمة التي بايعتم بها تحت الشجرة غنمتم رضوان ربكم ونصره لكم. فأحلاف قريش أو أحلاف يهود لو حاولوا الانقضاض عليكم لانهزموا شر هزيمة ولفروا منكم. يصحبهم اليأس من العودة إلى القتال، لأنهم لا يجدون وليا ولا صديقا ولا ناصرا. إن هذ ما عوّد الله به رسله، وستمضي هذه السنّة مع الزمن لا يلحقها تغير ولا تبديل.

بيان المعنى العام :

19/18- لقد رضي الله... عزيزا حكيما.

رضي الله...تثبت الآية مؤكدة تحقق رضوان الله على المؤمنين. ليس هناك غاية أسمى من نيل المؤمن رضوان ربه، قال تعالى **ورضوان من الله أكبر**[1] -ثم عرضت الآية المشهد الذي ترتب عليه هذا الفوز العظيم [الرضوان]المشهد برسم صورة النّبي ﷺ في ظل شجرة، والصحابة يتتابعون يمد كل واحد منهم يده ليبايع النّبي ﷺ على الثبات وعدم الفرار مهما اشتد القتال.هي البيعة التي عقبت شيوع الخبر المفيد : أن عثمان رضي الله عنه رسول النّبي ﷺ لقريش ليفاوضهم في تمكين العمّار بقيادة رسولهم من أداء مناسك العمرة. لا يرغبون في الإقامة بمكة ولا محاربة المكيين، وقد أبطأ في عودته، مما أعطى للإشاعة إمكانا للتصديق بها. فقال رسول الله لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا النّاس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة على أن يثبتوا ولا يفروا. وكان عددهم نحوا من ألف وخمسمائة مبايع. ثم قدم عثمان سالما. كان الذين بايعوا تحت الشجرة صادقين، عزموا على الجهاد مهما اشتد القتال. ويشهد الله المطلع على ما يجري في الضمائر بصدقهم. فجازاهم من فضله أن أنزل السكينة والطمأنينة في قلوبهم، لا تحدثهم نفوسهم إلا بالثبات وينتفي من عقولهم احتمال الهزيمة أو الفرار، ومع ذلك تيسير فتح خيبر الذي سيتم عن قريب، هذا الفتح الذي يجمع إلى عزة النّصر تمكنهم من مغانم كثيرة متنوعة غنموا المال والمتاع والأنعام والأرض. إن الذي يسر لهم ذلك هو الله ربهم العزيز الذي لا يستعصي عليه شيء، يهدي بحكمته من رضي عنهم إلى الطرق النّاجحة.

20- وعدكم الله مغانم...ويهديكم صراطا مستقيما.

تخاطب الآية جميع المؤمنين تعدهم بأن الله سيقوي شوكتهم، ويرعب أعداءهم، وأنهم سينتصرون ويجمعون من الغنائم الشيء الكثير. وفي ذلك حث للأعراب

---

[1] سورة التوبة اية72

الذين وبّخوا لعدم مصاحبتهم وتخلفهم، أن صدق الإيمان يصحبه رضوان الله والأجر في الآخرة، و الغنائم الوافرة بما يتبعها من سعة العيش. عجل الله للمؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة مغانم خيبر.

ومنة أخرى غفلتم عنها، ذلك أنه أحاطكم بألطافه، فمنع أعداءكم من التسلط عليكم يوم كنتم في الحديبية. ذلك أن الشجعان رافقوا النّبي صلى الله عيه إلى الحديبية، وبقي في المدينة النّساء والصبيان والعجزة. ولو هاجم المدينة الأعراب واليهود يوم كنتم في الحديبية لحصلت لكم خسارة كبرى. وكذلك المشركون من بني أسد وغطفان الذين كانوا أحلافا ليهود خيبر، صرفهم الله وألقى في قلوبهم الرعب، فتم لكم الانتصار على خيبر دون خسارة.

ولتكون آية...هذه الكفة التي حصلت وانخذال الأعراب الأحلاف عن نصرة يهود خيبر، إنكم بتأملكم فيها تجدون أن ذلك ما كان ليحصل لولا تأييد عزيز من الله لكم، فكانت بذلك آية علامة بينة أن ما وعدكم ربكم من النّصر يتوالى مدده، وأنكم بمنزلة من ربكم تثقون بأنه لا يهملكم ويدافع عنكم.إن الله يدافع عن الذين آمنوا[1].

ويهديكم صراطا مستقيما...فتكون عقولكم متوجهة إلى الوجهة التي هي خير، وفيها النّجح الدنيوي والأخروي. فلا يكلكم إلى قدراتكم ولكن يسكب في عقولكم وفي ميولكم ما يوصلكم إلى مقاصدكم الحسنة دون التواء.

21 - وأخرى لم تقدروا...على كل شيء قديرا.

ومغانم أخرى منيعة بكيفية لا تصل قدراتكم حسب المعطيات الظاهرة من الاستيلاء عليها، ولكن الله بقدرته قد أحاط بها من جميع المنافذ التي يمكن أن تمتنع بها عنكم. فبهذه القدرة الإلهية تم تطويعها لكم فتم لكم الاستيلاء عليها. هل تشير الآية إلى مغانم يوم حنين، أو ما سيتحقق للمؤمنين من انتصارات في بلاد الروم وفارس؟ الآية صالحة لحملها على كل ذلك، وهو ما تم فعلا في فتوحات المسلمين، وثبت لله دوما أنه القادر على كل شيء.

23/22-ولوقاتلكم الذين كفروا...لسنّة الله تبديلا.

تمثل بيعة الرضوان تحولا عظيما في انتصار الإسلام. ذلك أن الله أحل الهزيمة في قلوب المشركين وبشر الله الصحابة بذلك. إنه لو قاتلكم الذين كفروا من حلفاء قريش بعد بيعة الرضوان، فإنهم سينهزمون شر هزيمة، سيفرون منكم ويولونكم ظهورهم، وستكون هزيمتهم ساحقة قاطعة لأملهم في الانتصار عليكم، لأنهم لا

[1] سورة الحج آية 38

يجدون وليا صديقا يعطف عليهم ويقـدم لهـم العـون، ولا يجـدون نصـيرا يسـتطيعون الاحتماء به ليعيدوا معه الكرّة. تلك هي سنة الله وطريقتـه والعـادة التـي أجـرى عليهـا نهاية الكافرين في التاريخ. إنه إذا صـدق المسـلمون العـزم واسـتقاموا علـى الطريقـة التي شرعها لهم محمد صلى الله عليه وسلم، فـإن النّصـر يكـون حلـيفهم لتكـون كلمـة الله هي العليا. وهذه السنة والطريقة ماضـية مسـتمرة لا يلحقهـا تغييـر ولا تبـديل. ولا يسلم الله المؤمنين للكافرين. فإذا انهزم المسـلمون فـي معركـة، فليعـودوا علـى أنفسـهم بالنقد الذي يبرز لهم الانحرافات التي ابتعدوا بها عن المنهج.

وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

بطن المكان : يطلق على المنخفض، وعلى وسطه.

صدوكم : منعوكم.

الهدي: ما يهديه القائم بالنسك من الأنعام ليذكيه تقربا لله.

معكوفا: محبوسا.

محله : المكان الذي يحل فيه نحر الهدي.

تطئوهم : الوطء أصله الدوس بالرجل. ويستعمل للدلالة على الإبادة.

معرة : مضرة ومكروه يتبعه سبة واستنقاص.

تزيلوا : تميز بعضهم عن بعض.

الحمية : الأنفة النّاشئة عن الاستكبار.

ألزمهم : قدر لهم الثبات على كلمة التقوى.

أهْلَ الشيء : مستحقه.

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بالتقدير المحكم، فنزع من نفوسكم إرادة قتال المشركين. ومن نفوس المشركين إرادة قتالكم. فمنع كل فريق من بأس الآخر وتم السلم الذي كان بالنسبة لكم ظفرا لما ترتب عليه من الآثار العظيمة، وانخذل بعده الشرك انخذالا انتهى بالقضاء عليه بعد سنتين. والله سبحانه يرعاكم فيجزيكم عن أعمالكم الحسنة ومنها البيعة خير جزاء.

أعداؤكم هم الذين جمعوا إلى كفرهم منعكم من دخول المسجد الحرام، رغم أنهم ملتزمون بالتخلية بينه وبين قصاده للعبادة. ومنظر شنيع التصرف بهم إذ كانت الهدايا واقفة ممنوعة من أن تبلغ المحل الذي تذكى فيه في المروة، لينال من لحومها المحاويج. وإنه لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات مندمجون في أوساط الكفار، لم تكونوا تعرفونهم لمنع المشركين لهم من الالتحاق بالمدينة، وخوفهم على حياتهم إن أعلنوا إسلامهم و ليس لهم نصير، لولا اندماجهم اندماجا غير مميز لهم، مما يترتب على قتلهم مضرة كبيرة لكم، بقتل مسلمين مثلكم مسالمين وإن كنتم لا تعلمونهم، تقتلونهم بغير علم منكم أنكم قتلتم إخوانكم في الدين، لولا هذا لسلطناكم على الكفار. وأمر آخر له حظ في تقديرنا أننا قدرنا إدخال من نشاء في رحمتنا. رحمناكم بتحقيق أهدافكم دون تحمل رزايا القتال، ورحمنا المؤمنين والمؤمنات المندمجين فعصمنا أرواحهم وأموالهم، ورحمنا من كتب له الإيمان ليدخل في دين الله، وينقلب إلى مدافع عن الدين. فهذا الملحظ أيضا هو مما حمى الكافرين من سيوفكم ومن العذاب الأليم الناتج عن تسلطكم عليهم.

جعل الله قلوب الكافرين مستجيبة للعواطف منحرفة عن العقل والحق، فثارت حميتهم مستكبرة أن يدخل المؤمنون مكة ويؤدوا مناسكهم، وهي حمية لا تستند إلا لتفكير جاهلي يثور ضد الحق. وفي المقابل أنزل الله سكينته في قلب الرسول فأصبح ينظر إلى الأمور بواقعية بعيدة عن العواطف، وكذلك أنزل في قلوب المؤمنين السكينة الراضية بما يقرره رسول الله ﷺ . وثبّت المؤمنين على كلمة التقوى : شهادة أن لا إله إلا الله. وكانوا مؤهلين للثبات عليها يستحقون ما يترتب عليها بما سبق لهم من استقامة. وكل ما وقع في الحديبية أحاط به علم الله قبل حدوثه، وجرى على وفق العلم القديم.

بيان المعنى العام :

24- وهو الذي كف...بما تعملون بصيرا.

هو الله وحده الذي بتقديره الشامل للكون كله، المجري للأمور حسب ما هو ثابت في علمه، وحسب حكمته العالية. منع أيديكم من قتال المشركين، وما كان يفصل بينكم مسافات بعيدة، وكف بالمثل أيدي المشركين عنكم فلم يقاتلوكم. إن من يتابع الأحداث والمعطيات يحكم بأن ما ترسخ في قلوب الفريقين من العداء يجعل القتال بينهم أمرا محتوما. المسلمون نازلون بالحديبية بينهم وبين مكة بعض الأميال، تتأجج صدورهم نقمة على قريش لكفرهم، ولمنعهم من أداء مناسك العمرة، والحرم حرم الله وقريش جمعت رجالها ومقاتليها أكثر من مرة للانتقام من المسلمين وهاجمت المدينة في أحُد وبالأحزاب. فكيف يكون المسلمون معسكرين قريبا منهم، ولا يخرجون لقتالهم ؟ الجواب ما بسطته الآية. هو الله سبحانه المتحكم في القلوب يصرفها إلى الوجهة التي يريد أن تتحقق في الوجود. صرفكم عن مبادرتهم بالحرب، وصرفهم عن قتالكم، إلى أن تم عقد الصلح. فكان للتقدير العجيب غير المدرك من أعدائكم، فيه فوز لكم بالنتيجة البعيدة أظفركم به عليهم. فكان هذا الصلح في باطن أمره "الفتح المبين " تمكنتم به من العودة إلى الحرم الذي طال اشتياقكم إليه، فقمتم بالعمرة في السنة القادمة تسْعوْن في سكك مكة آمنين، لا يقدر أحد من أعدائكم أن يمسكم بسوء. وبعد سنتين تم فتح مكة وهزيمة الشرك هزيمة لا قيام له بعدها في البلد الحرام. وكانت شروط الهدنة ثقيلة على المشركين فلم يستطيعوا الوفاء بها، ويسر الله لكم الوفاء بشروط الهدنة، وحولها الله بتقديره لتكون خيرا لكم. فالظفر ليس الانتصار بالسلاح، ولكنه الظفر بالمرغوب المتحقق في هذا المكان المنخفض قرب مكة: الحديبية، وهو مركز " الشميسي" الذي تقوم فيه الرقابة اليوم على الوافدين على مكة حتى لا يدخلها غير المسلمين. تم ذلك والقوى غير متكافئة، وعدَدُ المسلمين وعُددُهم دون ما للمشركين. فظهرت المنة وكمال التقدير. وقد رويت روايات بينها اختلاف كثير في تفاصيلها اعتمدها معظم المفسرين لشرح الآية. والذي ظهر لي أن الآية بينة متناسقة على النحو الذي بيناه. والله أعلم.

25-هم الذين كفروا وصدوكم...عذابا أليما.

افتتحت الآية بالضمير "هم" لتمييزهم بما سيرد بعد من تعديدهم وما يتبعه من التشنيع بهم على ذلك. هم الذين جمعوا بين الشرك، وبين منعكم من بلوغ المسجد الحرام.

فشناعة ما فعلوه مخزية. ذلك أن ما ثبت في قلوب العرب من تقديرهم للقرشيين، ناشئ عن قيامهم بأمر البيت وتيسير قصاده من مختلف النّواحي ليقيموا شعائرهم هناك. فصدُّهم المؤمنين الذين جاؤوا لأداء مناسك العمرة نقض للعقد المتعارف عليه في كامل الجزيرة العربية. وعُطِفَ على صدهم صورة مجسمة لتجاوز الحدود والاعتداء، فالهدايا التي صحبها المعتمرون منادية بأن القادمين ما قصدوا إلا العبادة، وهداياهم تنتظر أن تذكى في المروة لينتفع النّاس من لحومها، فمنعها من بلوغ مكان تذكيتها بالمروة " محلها" صورة قبيحة من فعل المشركين.

ولولا رجال مؤمنون...كان من بين الساكنين بمكة رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، منعهم المشركون من الالتحاق بالمدينة، وكان بعضهم يخفي إيمانهم خوفا من بطش قريش بهم؛ إنكم لو تلاحمتم مع أهل مكة لقتل بعضهم في المعركة، فيكون قتلهم موجبا لحصول ضرر لكم في الحاضر والمستقبل؛ بقتلكم مؤمنين مغلوب على أمرهم، وباتخاذ المشركين ذلك وسيلة للتشنيع عليكم بقتلكم مؤمنين مثلكم،يشيعون أن بكم شراهة لسفك الدماء لا يسلم منكم حتى المؤمنين والمؤمنات.وبقاء حرج لا يبرح نفوس القاتلين لهم، فإنه وإن كان قتلهم بغير علم،فإنه لا يكون نفي العلم بإسلامهم رافعا للحرج كليا. فلولا هؤلاء المؤمنون والمؤمنات لما كففنا أيديكم عنهم. والتصريح بالمؤمنات مع المؤمنين ليبرز بصفة أجلى ما يترتب على قتلهن من المضرة.

ومن أسرار تقديرنا كف أيدكم عنهم وكف أيديهم عنكم، وصرفكم جميعا عن القتال، ليدخل الله في رحمته من يشاء من عباده: يدخلكم في رحمته بامتناعكم عن القتال فتسلم لكم نفوسكم وقواكم، وتدخرونها لمواقف أخرى لا بد فيها من القتال. ورحم المؤمنين والمؤمنات المندمجين في مجتمع الكفار فسلموا وسلمن، ورحم من شاء من الكفار الذين قدر لهم أن يُسلموا بعد ذلك ويكونوا جندا لله.

لو لم يكونوا على هذا الوضع، وتميز المسلمون عن الكافرين تميزا يحصنهم من شر القتال لسلطناكم على الكافرين، فعذبنا الكافرين بأيديكم عذابا أليما.

26- إذ جعل الذين كفروا...بكل شيء عليما.

هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى" صدوكم " في الآية السابقة صدوكم عن المسجد الحرام، إذ جعل سبحانه في قلوبهم الحمية والأنفة ولم يحل بينهم وبين هجومها عليهم، وهي أنفة مذمومة لأنها ما استندت إلى دفاع عن كرامة أو عن شرف أو عن عرض، وإنما كانت حمية جاهلية يدفعهم الاستكبار والتعالي عن الحق والتعلق

بأصنامهم، فحميت في نفوسهم ذكريات نزاعهم مع المسلمين، وبغضهم لهم ولدينهم، فثاروا مانعين المسلمين من إتمام ما قصدوا إليه من سنة العمرة.

فمن لطف الله بالمسلمين أن أنزل السكينة في قلوبهم وجعل مداركهم غير مهتزة مندفعة اندفاعا متأثرا بالعواطف، فاطمأنوا إلى ما يأمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزالت الثورة من نفوسهم، وإن كان صد المشركين لهم عن البيت الذي لا ملك عليه لأحد إلا لله، مما يدفع النفوس الأبية لتوقيفهم عند حدهم ولو بقتالهم. وبذلك يظهر جليا إنزال السكينة في قلوبهم.

وألزمهم كلمة التقوى... وجعل كلمة التقوى لازمة لهم مستحضرين لها دوما، وكلمة التقوى روي أنها كلمة " لا إله إلا الله " إذ أن مفهوم التوحيد يسمو بالإنسان فيجعله راضيا غير قلق مرتبطا بالله ارتباطا يدعوه إلى استحضار ما يجب أن يوصف به، وما يجب له من العبادة والامتثال، فتتحقق السكينة التي أنزلها في قلوبهم. ويمكن أن يجعل لفظ" كلمة " مفيدا حقيقة الشيء، أي ألزمهم حقيقة التقوى ففسرت بالإخلاص، وبالوفاء بالعهد وهي تفاسير تتكامل ولا تتناقض.

وكانوا أحق...ألزمهم حقيقة التقوى في الوقت الذي كانوا مؤهلين لها وكانت راسخة فيهم. ألزموا بما يتناسب مع المستوى الذي بلغوه بإسلامهم، وما هو موافق لضمائرهم.

اعلموا أنه لم يحصل في الحديبية حدث إلا وعلم الله سابق لما تم حدوثه، فهم عالم بالماضي والحاضر والمستقبل علما مستويا.

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ

ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحق : الغرض الصحيح والحكمة.

محلقين : تحلقون رؤوسكم للتحلل من العمرة.

مقصرين : يأخذ بعضكم من شعر رؤوسهم للتحلل أيضا.

ليظهره : ليعليه. ويشرفه على الأديان كلها.

أشداء : جمع شديد، الصلب الذي لا يتراخى في الحق.

السيما : العلامة.

شطأه: الفراخ المتفرعة عن أصل الساق.

آزره : قواه.

استغلظ : عظم فصار غليظا.

ساق الزرع : الأصل الذي تخرج منه السنبلة، وتتفرع الفروع.

بيان المعنى الإجمالي :

رأى النبي ﷺ وهو في الحديبية أو قبل خروجه إليها. وهي رؤيا حق لا تأويل فيها، ستتحقق في الواقع كما رأى. أنكم ستدخلون المسجد الحرام، في المستقبل إن شاء الله، وأنتم آمنون تُتمُّون مناسككم وتحلقون رؤوسكم أو تقصرون من أطراف شعرها. رفع الخوف عنكم بما أحله في قلوب القرشيين من احترامكم ومهابتكم. وأيضا فإن الله علم ما لم تعلموا وأوحاه إلى عبده.هي رؤيا صدق مطابقة لعلم الله. وقبل تحقق دخولكم المسجد الحرام وإتمام مناسك عمرتكم آمنين، قد جعل في تقديره فتحا قريبا لكم تستولون به على خيبر فتخضعونها، وتغنمون أموالها.

تفرد رب العزة الذي أرسل رسوله محمدا، قرّبه وحمله الهدى الذي به تبلغ البشرية كمالها، وكلفه بتبليغ الدين الحق وبيانه للناس. وبتمام تبليغ الإسلام وبيانه يبلغ الإسلام بالبشرية مرتبة لم تصل إليها مع الأديان السابقة. فهو الحكم عليها ما يصلح منها للبقاء، وما ينسخه ويبطله. هذه شهادة الله في دين الإسلام. ولا أبلغ ولا أكمل شهادة من شهادة الله العليم علما شاملا بالحاضر والمستقبل.

تصريح بهذا المنوه به الموعود بالنصر والتأييد الحامل للرسالة الخاتمة، هو محمد المنوه به ببيان أنه رسول الله. وجعل هدايته تنفذ إلى البشر الذين صحبوه فحولتهم إلى قوة ضاربة تهزم الكفر والشر، تُقوّي قلوبهم على الأعداء فلا تعرف فرارا ولا

خوفا، وتلين مع إخوانهم المؤمنين حتى يرتفع حب الأثرة منها وتغمرها الرحمة والحب. التزموا صادق العبادة فتراهم راكعين ساجدين، غايتهم أن ينالهم فضل الله ورضوانه. برزت آثار تقواهم على وجوههم نورا في الدنيا، وعلامة وضاءة تعرّف بهم يوم القيامة.مذكورون في التوراة بصفاتهم تلك. ومذكورون في الإنجيل على طريقته في التمثيل، بأنهم كزرع صادف تربة ثرية وظروفا مساعدة فنما نموا متتابعا، وأحاط بالساق فروع كثيرة زادته قوة.فلم تمل بما تحمله من الحب.ينظر إليه الزراع فيعجبون به. ويحدث غيظا في قلوب الأعداء من الكفار.

الصحابة بمنزلة القرب من الله ؛ وعدهم عفوا عن ذنوبهم، وصفحا عن تقصيرهم، وهيأهم لينالوا منه أجرا عظيما لا يعلم كنهه إلا الله.

بيان المعنى العام :

27- لقد صدق الله رسوله...فتحا قريبا.

رأى النبي ﷺ في منامه وهو في الحديبية أو قبل خروجه إليها، أنه سيدخل مكة مع أصحابه محرمين، للقيام بمناسك العمرة، هي رؤيا ملتبسة بالحق لا تأويل فيها،بينة محكمة. ولما كانت الرؤيا من الله صادقة فإن الذي سيتحقق بعدها :أنكم ستدخلون المسجد الحرام محرمين بدليل ما سيأتي بعد محلقين ومقصرين. وفي ذكر الحلق والتقصير ما يفيد أيضا أنهم يكملون عمرتهم إلى نهايتها بالتحلل منها.

إن شاء الله. تقرير أن الدخول للمسجد الحرام لم يكن بعد، وإنما هو وعد صدق من رب العزة. وفهم منه الزمخشري أن الآية فيها إرشاد للمؤمنين أن يقرنوا وعودهم المستقبلة بقولهم : إن شاء الله. متأدبين بأدب الله.

محلقين ومقصرين... تتمكنون من أداء عمرتكم غير معجلين فمن شاء منكم الحلاق حلق، ولا يوجد من يستحثه للخروج من مكة. والتقصير أن يقص المعتمر من شعره شيئا للتحلل من النسك.وأكد المفهوم بقوله: لا تخافون، فأنتم في أمن كامل غير منزعجين. أنزل الله المهابة منكم في قلوب القرشيين فأنتم مطمئنون إلى أن نفوسهم لا تحدثهم بإذايتكم. وبعد ذلك فقد جعل الله لكم فتحا قريبا قبل دخولكم المسجد الحرام معتمرين، وهو ما يسره من فتح خيبر وفوز الصحابة الذين كانوا مع رسول الله في الحديبية بمغانم كثيرة، وهو فتح، إذ أخضع المسلمون يهود خيبر، وغنموا أموالهم.إذ لم يكن بين فتح خيبر وصلح الحديبية إلا زمن قليل وقريب.

28-هو الذي أرسل رسوله...بالله شهيدا.

هو المتفرد بالوجود الكامل: الله رب العالمين، هو الذي أرسل رسوله محمدا، قرّبه وأوكل إليه أن يكون مبلغا لوحيه، وللطريقة التي يريد بيانها للناس ليكونوا أقدر

على الخلافة في الأرض التي خلق البشر من أجلها. فصحبه من عنده الهدى الذي تنكشف به الحقيقة ولا تختلط بالباطل، وهو الذي حمله إبلاغ دين الإسلام وتبيينه للناس.وهو الدين الحق الذي بلغ في التصور العقدي أبلغ درجة من النقاء، ومن طرق العبادة أعظمها إخلاصا، وأبعدها عن الشرك. ومن الأخلاق ما يجمع البشر على التعاون ويقوي عرى التآخي بينهم ونظافة السلوك. جمع ذلك في الدين الإسلامي الذي بعثه به، ليكون هو وحده الذي بلغ القمة، ولم يبلغ أي واحد من الأديان السابقة منزلته. يحكم عليها فينسخ منها ما المصلحة في نسخه، ويقوم أفهام أصحابها فيبعد الانحرافات التي ألصقت بها. وشرف الإسلام بكمال الهداية وختمها. بهذا شهد رب العزة العليم أن الحقيقة تدرجت على ألسنة الرسل حتى بلغت كمالها على لسانك يا محمد. وهل توجد شهادة أحق وأتم من شهادة رب العزة الذي لا تخفاه خافية.

29-محمد رسول الله...مغفرة وأجرا عظيما.

في الأيتين السابقتين تسجيل لعناية الله برسوله، وأنه وعده وعدا صادقا، فيه بشارة بدخول المسجد الحرام مع صحابته، وإلقاء المهابة في قلوب المشركين. ثم نوه به تنويها أفصح عن سمو مقامه ﷺ وأن رسالته حاكمة في كل ما تقدمها من الشرائع، وإذ اكتملت صورة رفيعة وضيئة تعددت مزاياها، واختصت بخصائص لا يشاركها فيها غيرها، أذن الكلام بالإفصاح باسم هذا المنوه به : هو محمد رسول الله. جعلني الله وإياكم من المشمولين بشفاعته المحبين الخالصين له وللدين الإسلامي الذي رسخه في الإنسانية. لقد قيض الله له صحابة أخيارا أبرارا رضوان الله عليهم أجمعين. من صفاتهم :

أ: أنهم معه ملازمون له، تأدبوا بأدبه وأخذوا نور الوحي منه بدون واسطة، وأثر في عقولهم وسلوكهم، فكان سَمْتُهُمْ أقرب ما يكون لسمته. وحول نفوسهم من النفسية المتغطرسة الأنانية الجاهلية المعتزة بذاتها وأمجادها، إلى النفسية المصقولة بأدب الله، تحب الحق وتخضع له، وتبغض الباطل وتقاومه، لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولا يزهدون فيها زهد المعرضين.

ب:ترى من شجاعتهم، وقوة بأسهم، واندفاعهم لهزم الكفر، ونصر التوحيد، وهم يجاهدون في سبيل الله في ساحات الوغى، تراهم وكأنهم لمضاء عزيمتهم قد انسلخوا من جنس البشر، وتحولوا إلى قوة ضارية لا تقوم أمامها مقاومة.

جـ: بجانب تلكم الشدة،نفوس رحيمة أندى ما تكون الرحمة في علاقتهم بإخوانهم المؤمنين، كما وصفهم الرسول ﷺ وقد خبرهمْ : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم

وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد حديث 8155 فتح القدير أخرجه مسلم والبخاري وأحمد.انكسرت دواعي الأنانية ليحل محلها اندماج اجتماعي رفيع.

د: إن الذي حول تلكم النفوس بسرعة فائقة، فامحى ما لصق بها في عصر الطفولة والشباب والكهولة من لوث الجاهلية،هوما طبع به النبي صلى الله عليه وسلم أرواحهم من التعلق بالله، والآن به قلوبهم لذكر الله. ترى أولئك الأقوياء الأشداء خاشعين لله كأفضل ما يكون الخشوع، بين ركوع وسجود، يطلبون شيئا واحدا أن يكرمهم ربهم بفضله، من التوفيق والتسديد والسكينة،وأن يبلغهم مرتبة رضوانه بما يصحبها من التقريب، وحسن الجزاء، والفوز يوم القيامة.

هـ: جمعوا بين نقاء الباطن، وحسن السمت،وجمال المظهر.برزت على وجوههم علامة مسجلة وناطقة بما هم عليه من العبادة الخاشعة. ماهي هذه العلامة؟ يرى بعضهم أنها ما يلصق بجباههم من التراب. ويحملها بعضهم على ما يتأثر به جبين البعض من كثرة التصاقه بالأرض، تثبت في بعض الجباه تبعا لاختلاف تأثر الجلود. ويحملها اخرون على النور الذي تشرق به وجوه العباد المخلصين بالليل. عن عطاء رضي الله عنه استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل. ومن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه في النهار. ويراه بعضهم هوما يكسو الوجوه من صفرة هي من آثار خشية الله و قيام الليل وطول التهجد. وحمله بعضهم على النور يوم القيامة. وهي محامل تتكامل ولا تتناقض.

ذلك مثلهم في التوراة- ذلك، ما ذكر من صفاتهم هي تلكم الحالة العجيبة التي بسطت لكم مثبتة في التوراة. فقد بشر بها موسى ﷺ قومه ليكون أخلاقهم مستعدين للانضمام إلى الحق الذي جاء به محمد ﷺ.

ومثلهم في الإنجيل... كما ذكرت صورتهم في التوراة فكذلك ذكرت صورتهم العجيبة في الإنجيل على لسان عيسى. ذكر عيسى ﷺ للحواريين : أن الله سيبعث قوما يؤيدون الرسول الخاتم، وأمرهم عجب، إذ مثلهم كمثل زرع توفرت له أسباب النماء والتطور إلى أن بلغ منتهى كماله. رمت الحبة بعروقها في الأرض الصالحة فارتفع رأسها فوق الأرض، ثم أحاط بها فروع قوت الأصل وثبتته، فإذا هي حول الساق تمسكها وتقويها. وما تزال تنمو وتشتد حتى غلظت الساق الأولى، وقام الزرع مستويا غير مائل لصلابة الساق بما حف بها. إنه مظهر بهيج، ينظر إليه الزراع فيعجبون بصورة الخصب التي تمت في هذا الزرع. وهذا شأن كل أصحاب اختصاص يقفون وقفة الإعجاب على الصورة الكاملة في نوع اختصاصهم

ليغيظ بهم الكفار – وإذا كان ما تم للذين معه مثيرا للإعجاب والتنويه، فتزيد السورة كمالا إذا وقع التصريح بتأثير ذلك في قلوب أعدائهم. إن كمالاتهم أفضت إلى إغاظة أعدائهم، فهم يتحرقون للمستوى الذي بلغوه حسدا من بعد ما تبين لهم الحق. ذكر القرطبي عن عروة الزبيري قال : كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك محمد رسول الله،إلى أن بلغ ليغيظ منهم الكفار .فقال مالك :من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

وعد الله الله... تختم السورة بهذا المقطع من الآية لتفصح عن الغاية من هذا التنويه والثناء عليهم، إنهم محل وعد كريم لا يخلف، مبناه أن الذين آمنوا إيمانا نقيا صادقا، وعملوا الصالحات فألفوا الصلاح والخير فيما يصدر عنهم، وتطهروا من الفساد والشر ؛ من هذا النوع المتميز من البشر. وعدهم مغفرة لما يمكن أن وقعوا فيه من التقصير، فضمن نقاء صحائفهم بواسطة المغفرة من كل ما يوجب المؤاخذة، ووعدهم أيضا أجرا عظيما، يذهب التصور في عظمه كل مذهب دون أن يدرك غاية مداه، إذ وصف العظمة من العظيم الكامل، تقصر المدارك عن تحديده.

سورة الحجرات

هذا الاسم هو الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به ورود لفظ الحجرات في الآية الرابعة. ولم يذكر في القرآن في أي موقع آخر. وهي سورة مدنية باتفاق. ورتبتها التاسعة والأربعون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول الثامنة بعد المائة. نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم. وكان نزولها سنة تسع من الهجرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تقدموا: اتبعوا ولا تسبقوا.

رفع الصوت :الجهر به جهرا يتجاوز المعتاد.

الحبط : فساد العمل بعد تقرره.

بيان المعنى الإجمالي :

حركت الآية المخاطبين بدعوتهم بوصف الإيمان حتى لا يتجرأوا على تقديم آرائهم على ما يقرره الله ورسوله لما في ذلك من تنكر للعبودية ولما يفرضه مقام الخالقية. وإن ما يساعد المكلف على الامتثال، ملازمة التقوى، وتذكره أن الله يسمع منه كل حركة بلسان أو بعضو، وأنه عليم بما يجري في الصدور من نوايا.

ثم دعا المؤمنين ثانية بوصف الإيمان ليتأدبوا في خطابهم لرسول الله، فإذا كانوا في مجلسه، فلا يرفع أحدهم صوته فوق صوت النبي فيؤذيه بسوء أدبه.ويشوش على الحاضرين فتختلط الأصوات ولا يبلغ الهدي النبوي للحاضرين بصفة واضحة. وإذا توجه أحدهم إليه بالخطاب فليلتزم أدب الخطاب بعدم الجهر بالصوت جهرا يدل على الفظاظة، وليتأمل في منطقه فلا يستعمل الكلمات التي لا تدل على كمال التوقير. إن من يتهاون بهذا الأمر يعرض ما قدمه من صالح الأعمال للإحباط فتكثر سيئاته وتقل حسناته ويقدم على ربه بميزان مختل غلب فيه الشر على الخير، فيخسر خسرانا مبينا، دون أن يشعر بما انحدر إليه من الابتعاد عن الفضيلة.

إن الذين ذُكروا فطبقوا ما ذكروا به وغضوا أصواتهم عند رسول الله، وتخيروا من الكلام أحسنه وأنبله، أولئك الذين اختبر الله قلوبهم لتجري على التقوى فنجحوا في الامتحان، جزاؤهم مغفرة من ربهم لما صدر عنهم من تقصير، واستحقوا الأجر العظيم.

سجل القرآن صورة من جلافة الأعراب مع سيدنا رسول الله ﷺ. ذلك أن وفدا من بني تميم قدم المدينة، فوصلها عند الظهيرة ودخل المسجد وكان النبي ﷺ نائما في بيته، فأخذ بعضهم يصيح: يا محمد اخرج لنا. إن نداءهم من وراء حجرات أزواج الرسول يدل على أن الرافعين أصواتهم لم يمرنوا عقولهم بما تقتضيه الآداب الاجتماعية، وأن مستوى تفكير أكثرهم ضعيف. فإنهم لو كانوا أصحاب عقول ذكية لانتظروا رسول الله في المسجد حتى يخرج إليهم ليخاطبوه في الغرض الذي جاؤوا من أجله. وكان هذا خيرا لهم من العجلة.وبسط الله لهم الأمل في فضله حتى لا ييأسوا من جريرة تجاوزهم حدود الأدب مع رسوله، فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة.

بيان المعنى العام :

1←3-يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا....وأجر عظيم.

افتتحت السورة بقوله : **يا أيها الذين آمنوا**، وتكرر هذا النداء خمس مرات في السورة، هذه أولاها.وفي النداء بوصف الإيمان ما يرشد إلى أن ما سيرد بعد النداء هو من مقتضيات الإيمان، مما يحتم الاستجابة والتنبه وعدم الغفلة.والنداءات الخمس تمثل نظاما خلقيا يحول المؤمنين عما ألفوه قبل الإسلام إلى طريقة تسمو بهم إلى المستوى الديني والحضاري المرضي.

- **النداء الأول في الأدب مع الله**

لا تقدموا الداخل في دائرة النهي، يحتمل أن يكون المراد منه لا تقدموا أي شيء مما يقع في النفس بين يدي الله ورسوله فيكون سابقا ومقدما عليه. على معنى أن المخاطبين كانوا قبل الإسلام يتبعون شهواتهم، وما تدفعهم إليه غرائزهم، وما استقر عليه أمرهم من عادات جاهلية، ويعتمدون سلم قيم هو من نتاج ما تقدم، يحكمونه في اختياراتهم و يتبعونه. فدعتهم الآية بنهي واحد أن يتركوا تلك المنهج، ويلتزموا أن يكون المرعي في كل قول أو فعل في حياتهم، ما يصل إليهم من الله بواسطة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. وفي الجمع بين الله ورسوله تحديد أن اتباعهم لله لا يكون حسب ما تمليه عليه عقولهم، وما يقتضيه تدبيرهم ونظرهم، ولكن حسب ما يبينه رسوله. فطاعة الرسول هنا هي المحددة لطاعة الله. فهذا أدب مع الله، صور القرآن المنهي بصورة فيها قلب شنيع لمقتضى الإيمان. إن الإيمان عقيدة راسخة تثبت أن الله هو الخالق، والإنسان مخلوق له، وكل ما في الكون هو من خلقه. فجعل الخالق مؤخرا يسبقه الإنسان ليقرر ما يشاء صورة مرفوضة وقبيحة. والمعنى أن لا تقطعوا أمرا إلا بعد أن يحكم به الله ويبلغكم إياه رسوله ويصدر الإذن به، فتكونوا بذلك عاملين بالوحي المنزل و مقتدين برسول الله ﷺ.

ولما كان المقام مقام تأديب أتبع القرآن النهي بالأمر المساعد للمكلف على التوقي من المنهي عنه. فأمر بالتقوى لأنها الحصن الواقي من الوقوع في التقدم على الله ورسوله. ذلك أن التقوى عبارة عن استحضار المكلف دائما صلته بخالقه، وأنه عبد له، وأنه مطلع عليه، فشعوره بهذا الارتباط يساعده على تنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه. قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) [1] وختمت الآية بالتنصيص على أن الله سميع عليم.وفي ذلك ضرب من التأكيد على التوقي من التقدم على الله ورسوله سواء أكان ذلك معلنا أو كان خفيا، فإن الله يرقب ثم يجازي كل من تقدم.

إن بعض المتجرئين على الفتوى في زماننا تقدموا على الله ورسوله ملبسين بأن المصلحة العامة تقتضي ما ذهبوا إليه، دون أن يعرفوا الحكم السابق لله في القضية. وهم بذلك يفتاتون على شرع الله.فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون. ولو كان الحكم الشرعي ما يتراءى للناظر من المصلحة ويحكمها، لما وجد أي فرق بين الإسلام وبين غيره من النحل والمذاهب والأديان. لأنهم جميعا يصدرون عن المصلحة في دعواهم، واختلفت آراؤهم وأحكامهم وتقديراتهم.

---

[1] سورة الأعراف آية201

- **النّداء الثاني في الأدب مع رسول الله**

تكرر النّداء بـ"يا أيها الذين آمنوا لما ذكر في الآية السابقة. وفي هذه الآية تأديب لهم في طريقة كلامهم بحضرة النّبي ﷺ. من شأن الشعوب غير المتحضرة أن تختلط أصواتهم في مجالسهم، ويحاول من يرغب في الاستيلاء على المجلس أن يجهر بكلامه فوق الآخرين. وكان الصحابة يحضرون مجالس رسول الله ﷺ، وبعضهم يحدث بعضا وترتفع أصواتهم. ومجلس يرأسه الرسول حقيق بأن يكون على أكمل مظهر، وأتم أدب.هو قائدهم ومعلمهم وداعيهم إلى رياض التقوى وإلى المنهج العقلي الرصين الذي يخمد لهب العواطف. فحقيق بهم أن يعرفوا لرسولهم قدره عمليا كما عرفوه نظريا، وأن يكون من توقيرهم له أن لا يرفع أحد صوته فوق صوت النّبي ﷺ كما يكون الحديث في حضرة المهيب المعظم.وإنه مع ما في ذلك من سوء الأدب، فإن الصوت الجهير يحرم الآخرين من أن يبلغ كلامه ﷺ للحاضرين واضحا متميزا، فيفوت على الجالسين حوله خير كثير.

ولا تجهروا له.... من تمام أدب الخطاب نهيتهم الآية عن الجهر بالصوت عند خطابه بما اعتادوه عندما يكلم بعضهم بعضا، الخطاب الخالي من مراعاة جلالة المخاطب وعظم مكانته عند ربه، وانحطاط سائر الرتب عن مقامه الرفيع. وعمل هذا الأدب عمله في القوم فتأدبوا به. فكان أبو بكر ﷺ يخاطب النّبي صلى الله عليه كأنه يسارُّه كما روي ذلك في البخاري. وكان عمر ﷺ يخفض من صوته حتى إن النّبي يستفهمه ليتبين ما خاطبه به.وأن ثابت بن شماس ﷺ كان بأذنه وقْرٌ وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته، فافتقده النّبي ﷺ من مجلسه فدعاه وسأله فقال: يا رسول الله أنزلت إليك هذه الآية وأنا رجل جهير فأخاف أن يحبط عملي.فقال له رسول الله ﷺ : لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة. وليس الغرض برفع الصوت ما يقصد به الاستخفاف لأن ذلك كفر. والمخاطبون على أعلى درجات الإيمان والتقوى.

أن تحبط... نهيتكم رفقا بكم خشية أن تفسد أعمالكم الخيرة التي قمتم بها فتذهب أجوركم عليها. فإن بعض الآثام تفسد القلب حتى يرسخ فيه التهاون بما يرضي الله، ويستخف الإقدام على معصيته، فتقل مبراته وتكثر سيئاته ويهوى شيئا فشيئا في الشر والرذيلة والإثم حتى يغلب عليه الشر.فيقدم يوم القيامة على ربه وقد أصبح ميزان سيئاته راجحا. فليحذر المؤمنون من التهاون بتوقير النّبي ﷺ وبكل ما يتصل به من صحابته وأسرته. فإن المآل لمن لم يوقره حق التوقير، ويقدر فضله على البشرية حق التقدير، المآل الخاسر حسب ما ذكر في هذه الآية. وإذا كان الجهر

بالصوت في خطابه بهذه المنزلة فما بالك بما سواه مما هو أشد في عرف الخطاب. وكثير من النّاس في زماننا يتحدثون عن العرب حديث الاستخفاف، ويعللون انخفاض وضعهم السياسي والعلمي بأنهم عرب. ورسول الله ﷺ عربي فمحقر الجنس العربي بمعرض انطباق الآية عليه.

3 وهذا شأن القرآن في القضايا التي يوليها مزيدا من العناية، فيهيئ بالنهي النفوس بطرد الصورة الفاسدة، ثم يثني بالأمر بالصورة الحسنة الممدوحة. إن الذين استجابوا للأدب الإلهي في مخاطبة الرسول، ولم يرفعوا أصواتهم وتخيروا من الكلام ما يليق بعلي مقامه أولئك الذين اختبر الله قلوبهم لامتحان التقوى، فنجحوا وظهرت تقواهم. وبثباتهم على التقوى تأهلوا للجزاء الذي طمح إليه المتقون، محو آثار التقصير، والثواب العظيم الذي لا يعلم مقداره إلا مسديه.

4-5، إن الذين ينادونك...والله غفور رحيم.

هؤلاء جماعة من الأعراب من بني تميم قدموا إلى المدينة سنة تسع من الهجرة. تروي كتب السيرة قصتهم ونزول الآيتين فيهم. بعث رسول الله ﷺ بشر بن سفيان لقبض زكاة بني كعب، فمنعهم بنو العنبر، فبعث عيينة بن حصن في خمسين من العرب ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلا، وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا. فقدم وفد منهم لفداء أسراهم.

دخلوا المسجد عند الظهيرة وكان النّبي ﷺ نائما في إحدى الحجرات التسع لنسائه، وكانت في منتهى مسجده على يسار المحراب. وبجلافة الأعراب وقفوا وراء الحجرات ونادوا بصوت مرتفع : يا محمد اخرج لنا. كانت طريقتهم في نداء النّبي ﷺ طريقة جافية فيها تجاوز مرفوض على مقام النّبوة، دعوه كما يقف البدوي وراء الخيمة وينادي مخاطبه بصوت جهير. سجّل القرآن ما صدر عنهم لينبه المؤمنين على ما في ذلك من قلة الأدب، ولتكون متممة لما شرع لهم من توقير لسيدنا رسول الله. نهاهم عن رفع أصواتهم في مجلسه وعن مخاطبته بجهير الصوت، ونوه بالذين غضوا أصواتهم عنده توقيرا وحبا. فكانت هذه النّاحية الرابعة التي شنع فيها على الذين تجاوزوا حدود الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ. ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون، إما على معنى أن أكثرهم تمكنت فيهم البداوة فبقيت عقولهم ساذجة ضعيفة لم تسم بالمران الاجتماعي. فهم لبقائهم على أصل الخلقة كأنهم لا عقول لهم. أو لأن الفاقد للأدب كأنه لاعقل له. ونسب ذلك إلى الأكثر لأن من الوفد من كان حظه من العقل غير منقوص. ومن شأن القرآن أن يتبع الصورة المرفوضة بالصورة الحسنة حتى تستقر في أذهان السامعين. كان عليهم أن ينتظروا رسول الله

ﷺ حتى يخرج لهم فيعرضوا عليه ما جاؤوا من أجله. وهذا خير لهم من العجلة والوقوع في المكروه. وأشار إلى أن عدم تحليهم بالصبر الذي يدل على كمال العقل لضبط النفس حتى لا تنطلق مع ما تشتهيه، وهو الذي وقعوا به في التجاوز المرفوض. وختمت الآية بالتذكير بأن الله غفور يعفو عن سيئات التائبين يعذر عباده رحمة بهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

التبين : التأمل للتثبت.

الجهالة : ضد العلم. أو ضد الحلم.

فتصبحوا : فتصيروا.

نادمين : آسفين عما تورطتم فيه.

العنت : المشقة.

زين : جعل الشيء زينا حسنا.

الراشدون : المستقيمون على طريق الحق المتصلبون فيه.

بغت : طلبت العلو بغير الحق وظلمت.

تفيء : ترجع.

العدل:ما وقع عليه التصالح بالتراضي.

بيان المعنى الإجمالي :

شأن المجتمع غير المحصن خلقيا أن يقتحمه الفسقة، فيروجوا بين عناصره الأخبار الزائفة، وبذلك يسارع إلى اتخاذ قرارات سيئة العواقب أساسها تلك الأخبار. فنبه

الله المؤمنين أن يتبينوا، قبل اتخاذ أي قرار، صدق الأخبار من كذبها، فإن كان مروّجها غير ثقة ولا أمين فلا يعجلوا باتخاذ موقف مضر، مبني على جهلهم للحقيقة فيندموا على تسرعهم.

واعلموا أن الله قد من عليكم بمنة عظمى أن كنتم تعيشون ورسوله بين أظهركم، فلا تلحوا عليه أن يقبل تصوراتكم في الحكم والتشريع. فإن رغباتكم تؤدي بكم إلى صعوبات في الحياة. ولكن الله لطف بكثير من المؤمنين فحبب إليهم الإيمان، فكان ما يأتيهم من رسول الله تأنسُ به قلوبهم ويرون فيه الزين الذي ترتاح له النفس. وكره لهم ضد ذلك فجعلهم يشمئزون من الكفر والفسوق والعصيان. أولئك الذين لطف الله بهم هم الراشدون، تولاهم الله بفضله ومكنهم من نعمته. والله عليم بما تنطوي عليه صدوركم وبما يصلحكم في دنياكم ومعادكم. وهو الحكيم، الخبير في تشريعه لا فيما تميلون إليه.

وإن حصل خلاف بين جماعتين من المؤمنين ينذر بالقتال فبادروا بالإصلاح بينهما. فإن أرادت إحداهما فرض رأيها بالقوة فقاتلوها حتى تخضع للحق، وكذلك إذا ركبت كل منهما رأسها ورجحت اختيار القتال. يتواصل الضغط عليها بالقوة القتالية إلى أن ترضخ للحق. فإذا انكفت عن القتال فابحثوا عن أسباب الخلاف، وأنصفوا المظلوم، وليكن حكمكم ملتبسا بالعدل الكامل، في كل المناسبات التي تتولون فيها الحكم، فإن الله يحب المقسطين العادلين ويبغض الظلمة.

إن ما قررته الآيات السابقة يدخل تحت مظلة ما قرره الإسلام من أن رابطة الإيمان رابطة أخوة تجعل كل فرد ينظر إلى المؤمن أنه أخوه يهمه أمره.ولذا فإذا رأيتم خلافا بين إخوتكم المؤمنين فبادروا ساعين لإزالته، واستعينوا على النّجح بتقوى الله. وإنكم ترجون بواسطة التقوى أن يعمكم الله برحمته.

بيان المعنى العام :

- **النّداء الثالث تربية المؤمنين على ما يحصنهم مما يهري قوتهم.**

6-يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم...نادمين.

يوقظ هذا النّداء المؤمنين حتى يكون الإيمان عاملاً على التنبه من خطر ما تعرضت له الأيات. 1)التنبه لأخبار الفسقة-2) وجعل هواهم مع ما يشرعه الرسول -3) والإصلاح لمواجهة الخلاف.

يتناقل النّاس الأخبار، وبعضهم ثقة مستقيم في دينه وخلقه، وأمانته، يقظ الضمير، مستحضر دوما أنه مسؤول عن كلامه وأفعاله. له من ذاته حصن من الكذب

وتعميق الأخبار والتزيد فيها. وهذا هو الصنف الغالب في المجتمع النّظيف. وهؤلاء مصدّقون فيما يخبرون به يعتمدهم القضاء كما يعتمدهم الشعب.

وقسم فسقة يرتكبون الآثام من الكذب وغيره،مما يدل على أن ضميرهم مغلف بالإثم، لا يجدون من ذواتهم رادعا عن الكذب والتزيد، وتضليل الآخرين.وشأن هؤلاء أنهم يسعون لترويج الباطل والمختلق من الأخبار. إن خطر هؤلاء على المجتمع كبير، وضررهم ممزق للوحدة الاجتماعية، وإن كان عددهم قليلا. فدعت الآية المؤمنين بوصف إيمانهم أن لا يكونوا كالإسفنجة تتشرب كل ما يقع عليها من صالح أو خبيث، ونقي أو ملوث.

كوّن الإسلام من المؤمنين أمة حصنها من شر التفرق. وحصّن عقولهم من خفة التأثر بالكاذب من المؤثرات. فناداهم أن عليهم، إن ورد عليهم خبر من فاسق، أن يتثبتوا فلا يغفلوا ما سمعوه، إذ لعله أن يكون حقا، ولا يصدقوه فيتخذوا القرارات العجلى التي توقعهم في ضرر. تثبتوا حتى يتبين لكم صدقه أو كذبه، وفي ذلك ما يحميكم من التسرع في إصابة المخبر عنهم بضرر على غير علم محقق منكم. وينفلت الأمر منكم بسبب عجلتكم، فتصيروا نادمين على ما قمتم به.

وكما نهى المخبرين من تلقف الخبر من الفاسق بالتصديق، فإن الآية تدل أيضا على نهي المؤمنين المخبرين من نقل الأخبار وترويجها قبل التثبت فيها. روى مسلم في مقدمة الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع)[1]

إن الإسراع بتصديق الأخبار دون تبين، ساعد قوى الشر، على صياغة عقول البشر، ووجههم إلى ما يحقق أغراضهم من التسلط، وقلب الحقائق، فاختل ميزان القيم.

هذا وقد رويت روايات كثيرة في سبب نزول الآية أكثرها مدخول معنى، وضعيف سندا. والآية تربية عامة للمؤمنين لا تتأثر بالظروف التي يظن أن الآية نزلت بسببها. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

7-8- واعلموا أن فيكم رسول الله...عليم حكيم.

كون رسول الله بين أظهرهم أمر معروف وضروري، ولكن المراد منه التنبيه إلى كونه، بصفته التي هي أنه رسول من عند الله مؤيد معصوم من الزلل، فيهم،يحتم عليهم أن يقدروا هذه النّعمة، وأن يراعوا في سلوكهم مقتضياتها، التي منها أن يطوعوا تفكيرهم لما يأمرهم به، وأن لا يتقدموا ملحين أن يتبع آراءهم وما يعنّ

[1] فيض القدير ج4ص2 ح 6241

لهم. فكونه رسول الله يقتضي أن يكون رأيكم تابعا لما يشرعه، وإن خالف تشريعه ما سبق إلى رأيكم وخالف رغباتكم.

تكشف الآية عن مآل ما يرغب بعضهم فيه من موافقة التشريع في النوازل لما يهواه ويرى فيه المصلحة؛ إنه لو أطاعكم فيما رغب فيه هذا البعض، أو أشار به عليه، فإن النتيجة أنكم تلقون من ذلك العنت والمشقة.إن تفكيركم تفكير تختلط به العواطف الحاجبة عن وضوح الرؤية،مما يترتب عنه اختلال الميزان، وحصول الضر من حيث يظن حصول الخير.والضر يشمل المقترحين، ويشمل الآخرين إذ المجتمع متماسك يتأثر البعض بما يحصل، وإن كان لم يشترك فيه كسبب. مع التأكيد أن هذا العيب ليس عاما في الصحابة ولكن البعض فقط هو الذي يتراءى له الرأي ويسارع بتقديمه حلا للنوازل. فنهوا جميعا، المقترحون ببيان الأثر السيء لمقترحاتهم، والآخرون حتى لا يمالئوا المقترحين.

ولكن الله حبب... أتى التعبير في صورة الاستدراك، إذ المعنى ولكن البعض منكم لم يكن على ذلك النحو، إذ طوع إيمانُه تفكيره ورغباته لقبول ما يصدر عن رسول الله ولا يسبقه بالاقتراح وعرْض رأيه. وذلك من أثر لطف الله بهذا البعض فحبب إليه الإيمان بما يصدر عن رسول الله ﷺ، فهو ينتظره ويتلقاه بالقبول،يجد فيه متعة وجمالا تأنس به النفس، فتنقاد إليه انقياد المحب.ويتبع ذلك نفي ضد هذه الحال، فالله لطف بهؤلاء فجعل نفوسهم تشمئز من الكفر وتكرهه، ومن الآثام الموجبة للفسق، وبصفة عامة كل ما يعد معصية.فأصبح حبهم وانقيادهم ملكة راسخة فاستحقوا من رب العزة مدحهم والثناء عليهم. فقال تعالى: أولئك الذين ذُكروا بخصالهم الذين حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم، عكس ذلك، هم المستقيمون على طريق الحق استقامة لا عوج فيها ولا انفصال.

فضلا من الله ونعمة: ما هم عليه من الكمالات المنوه بها، وعدم متابعتهم للمعترضين لرسول الله، يقدمون آراءهم ويودون أن يكون التشريع تابعا لآرائهم ؛ فحبب وزين وكره سبحانه تفضلاً منه عليهم ونعمة مسداة منه إليهم.

والله عليم حكيم: إن ما حققه صادر عن علم بحقائق الأشياء، وهو بحكمته نبه الغافلين عما يؤذيه الاسترسال مع رغباتهم من عنت، ونوه بالمستقيمين ليؤكد داعية الاستقامة والتوبة في نفوس الجميع.

9- وإن طائفتان..يحب المقسين

الأولى أن تحمل الآية على أحد معنيين : اقتتلوا تهيأوا للقتال، أو اقتتلوا فعلا. فمسؤولية الجماعة على الوجه الأول، أن يبادروا بمجرد ما يظنون أن الخلاف

سيؤدي إلى القتال بالعمل على الإصلاح. وعلى الوجه الثاني أنه إذا ثارت ثائرة القتال بينهما أن يسارعوا بالعمل على الإصلاح وإن بقتال الفئة الباغية.

هذا ما يمكن أن تواجهه الأمة من الأوضاع بين شقين منها، وما يقترن بها من المعطيات المؤججة للخلاف، وثوران العواطف وإرادة الاحتكام إلى القوة للتغلب. فيكون الواجب على المؤمنين أن يسعوا بكل ما أوتوا من حكمة وصبر على إخماد نار الفتنة، وتقريب الطائفتين من بعضهما، حتى يتم التصالح وعودة الروابط إلى الوجه الذي كان قبل الخلاف وتفرضه وحدة الأمة.

وقد تخرج الفتنة من الإعداد والإنذارات والتراشق بالأقوال، إلى المواجهة الفعلية بالقوة والسلاح. وفي هذه الحالة إما أن تبدأ إحدى الفئتين بالهجوم، وتريد فرض إرادتها بقوة السلاح وإخضاع الفئة الأخرى، فالواجب والحالة هذه إن لم تفد الدعوة للمصالحة، وواصلت بغيها، أن تنصر الأمة ممثلة في جيشها تحت قيادة ولي الأمر، أو في علمائها وأهل الكفاية والرأي فيها، للفئة المظلومة، وتقاتل إلى جانبها الفئة الباغية إلى أن تخضع وتكف عن القتال.

وكذلك الأمر لو ركبت كل فئة رأسها، ورفضتا وساطة المؤمنين والرجوع إلى الحق وقبول الصلح، فعلى الأمة واجبا كفائيا بمقدار ما يردع وينهي الفتنة، أن يقاتلوا الفريقين إلى أن يقبل كل من أبى منهما الصلح، ويكفا عن استعمال السلاح.

إنه بمجرد سكون الفتنة، على الأمة الإسلامية أن تقف بين الفريقين اللذين كانا متنازعين موقفا يتعمق في دراسة الخلاف الذي نشبت منه الفتنة، ويكشف عما لكل من الحق، فيحكم به على الطرف الآخر حكما يُسَيِّره من بداية البحث عنه إلى صدوره رغبة ملحة في إقامة العدل بينهما ورفع أي ظلم عن كل واحد منهما. وإياكم والبحث عن العقوبة، بل الزموا العدل في حكمكم التزاما يكون هو منهج الأمة الإسلامية في الحكم بين القوى المتنازعة، وفي كل الأمور الأخرى. وتذكروا أن الله يحب المقسطين العادلين، ويفهم منه أنه يبغض الظالمين في الحكومة.

10- إنما المؤمنون إخوة...لعلكم ترحمون.

أحدث الإيمان في قلوب معتنقيه أصرة قوية جامعة.ذلك أن قيمة الإنسان تكمن في عقله وتصوراته ومشاعره. والإسلام وحد بين أتباعه في تفكيرهم، وفي تصوراتهم للكون، ولخالقه، ولعلاقاتهم بهذا الكون ومبدعه، وللسلوك والقيم التي تحكم نشاطهم في الحياة. ولتصورهم لمآلهم في الحياة الآخرة. وبهذا بلغت أصرة الدين من القوة مستوى يكاد يكون أعلى من رابطة أخوة النَّسب والرحم،فتمت صياغة الآية على أن المؤمنين إخوة بدون تشبيه فلم يقل : كإخوة.

إن شعور كل مؤمن أنه أخ لبقية المـؤمنين فـي الـدنيا، يفـرض عليـه أن يسـارع إلـى الإصلاح بين إخوته كلما أدى الاحتكاك بيـنهم إلـى خـلاف.ووقـوف الإنسـان موقـف المصلح الحكم بين المختلفين، يقربه مـن النّجـاح استحضـاره لتقـوى الله.التقـوى التـي تجعل شعوره بأن الله مطلع عليه، هل طوّع ميولـه للحـق وخلصـت رغبتـه فـي إزالـة النّزاع أولا ؟ إنه بفضل التقوى تكونون على رجاء أن يسعدكم ربكم برحمته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يسخر : لا يستهزئ.

القوم : جماعة الرجال في الأصل.

اللمز: ذكر ما يعده الذاكر عيبا لأحد.

اجتنبوا : ابتعدوا.

التجسس : البحث بوسيلة خفية.

الشعوب : جمع شعب وهم القبائل المنتسبون إلى جد واحد.

القبائل :الجماعة من النّاس المنتسبة إلى جد واحد، ومن مجموع القبائل يتكون الشعب.

الأكرم : الأنفس والأشرف.

أتقاكم : أفضلكم في التقوى

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للمؤمنين يـوقظهم إلـى أن شـرفهم بالإيمـان يقتضـي مـنهم أن يكونـوا وحـدة لا يتنقص أحد منهم غيره. محرم على الرجال منكم الاسـتهزاء، وكـذلك علـى النّسـاء. قـد تَغُرُّ المظاهر، وربما كان المسـخور منـه أفضـل مـن السـاخر عنـد الله، فـي القيمـة

الإنسانية. ومحرم عليكم أن يواجه أحدكم أخاه بما يكرهه سواء أكان ما آذاه به موجودا فيكون فعله هذا وقاحة واعتداء. وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب. إنكم بتعذيكم هذا تكونون قد اعتديتم على أنفسكم فتقضتم رابطة الإيمان التي تكون لكم سندا، ولأن علاقة المؤمن بأخيه تجعلهما كشيء واحد. ومحرم عليكم أن يدعو أحدكم أخاه بلقب فيه نقيصة لإيذائه.

اعلموا أن من يرتكب تلكم المنهيات يوصف بأنه فاسق. وما أعظم خسارته، إذ تحول بتعذيه من الموصوفين بالإيمان الشريف، إلى الموصوفين بالفسق القبيح "فاسق". وإذا لم يطهر نفسه بالتوبة فإنه معدود عند الله من الظلمة.

ثم دعت الآية المؤمنين إلى الابتعاد عن متابعة ما يحصل في النفس من الخواطر غير المبنية على موجب، فيحصل ظن يتبعه كراهية وبغض. إن الظنون التي يتبعها أفعال مضرة بالآخرين حرام. فليبعد المؤمن عن نفسه الخواطر السيئة غير المبنية على أسباب حقيقية. ونهت الآية بعد ذلك عن التجسس والاعتناء بكشف أسرار الآخرين،إلا إذا كان التجسس يحقق مصلحة للأمة كالتجسس على العدو، وعلى المجرمين. ونهت الآية أن يغتاب المؤمن أخاه المؤمن، وينشر عيوبه في غيبته. إنه خلق ذميم وعمل كريه، فالمغتاب أشبه ما يكون بمن ينهش لحم أخيه وهو ميت. وهي صورة بشعة يتقزز منها الإنسان. فتمزيق عرض المغتاب أشبه ما يكون بنهش لحمه وهو ميت، إذ لا يتمكن المغتاب من الدفاع عن نفسه، كما لا يتمكن الميت من طرد من يحاول أكل لحمه. وتحصنوا للابتعاد عن تلكم الآثام بتقوى الله. واعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم إذا عادوا إليه. فمن وقع في خطيئة فليسارع إلى التوبة وتطهير نفسه من الإثم. و يجد الله توابا رحيما.

ثم ينادي القرآن الناس جميعا ليذكرهم بحقيقة أنهم متساوون في أصل الإنسانية. الكل خلقه. خرجوا إلى الدنيا من أب وأم بقانون واحد. وأن الله قد جعل التعارف والتعاون مكونا من مكونات فطرتهم، فتكونت الأسر وانتسب كل منهم إلى بلده الذي ولد فيه، وإلى الشعب الذي هو منه. إن هذا الجعل يجب أن يفضي إلى التعارف والتعاون، لا إلى الاختلاف والحرب.

إن الميزان الذي توزن به قيم البشر أولا، هو التقوى التي تجعل الفرد يسعى دوما نحو الخير والفضيلة، وينأى عن الشر والرذيلة.

والله أعلم بمن اتقى فهو يعلم المتقي حقا من الدعي الكاذب، وهو خبير بما يجري في النفوس فلا يروج عليه الزيف الظاهري.

بيان المعنى العام :

- **النّداء الرابع يحتم حسن المعاملة والبعد عما يفضي إلى القطيعة**

11- يا أيها الذين آمنوا لا يسخر...فأولئك هم الظالمون..

توجهت عناية القرآن لتطهير المؤمنين من كثير من العادات الجاهلية. من ذلك:
1) السخرية بما يشمل سخرية أحدهم بغيره، وسخرية المجموع بالمجموع. وكان الشعراء الجاهليون يتفننون في الفخر بأنسابهم والسخرية بالقبائل التي يعمدون إلى هجائها. فنهت الآيةَ عن السخرية المعبرة عن استنقاص للطرف الآخر، وهو ينافي الأخوة التي حصرت فيها الآية السابقة معنى الإيمان. قد يسخر بعضهم من بعض لعيب خلقي، كالعمى والعمش والحول،والقصر والعرج، والبدانة والفهاهة، والغباء والثقل. وقد يعمد بعض من هو مريض بعقدة نقص إلى تغطيتها بالسخرية من غيره، وكل ذلك يؤثر في نفس من اتخذ سخرية، ويحطم معنوياته ويؤذيه، فهو اعتداء على الآخرين مناقض للصورة التي أراد الله أن يكون منها المجتمع الراقي بهذا الدين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن القيم الحق ليست في السلامة من نقص خلقي، فقد يكون المسخور منه يحمل نفسا زكية أطيب من نفس الساخر، وقد يكون أعلم وأتقى، ومنزلته عند الله أحظى من منزلة الساخر. وهذه جوانب خفية يجهلها الساخرون، أفلا يستحي الساخر من سخريته ممن هو خير منه ؟
وعطفت الآيةَ نهي النساء عن السخرية، وإن كان نهي القوم يفيد نهي النّساء، إلا أن الآيةَ آثرت تنبيههن لكثرة تعرضهن للسخرية من غيرهن. خاصة وإن الأنثى تعتد كثيرا بجمالها، وحب الظهور كثيرا ما يدفع من لم تتحصن بالتربية الإسلامية بتناول غيرها بالاستهزاء من نقص بها. والإسلام يؤكد أن القيمة في النّساء كالقيمة في الرجال ليست في الوسامة ولا في بعض الكمالات الخلْقيّة، بل القيمة الحقيقة فيما تنطوي عليه النّفس من نبل وسمو وخُلق ونباهة.

ولا تلمزوا أنفسكم... عطف القرآن على النّهي عن السخرية، النّهي عن اللمز. وهو الطعن في الآخر بما يكره. وقد يكون بحركة الشفاه دون إسماع صوت يفهم الموجه إليه قصد اللامز من الذم أو التوعد. فإذا كان في فاضل فهو حرام باتفاق، وأما إن كان في فاسق فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ليس لفاجر حرمة. ويذكر عن الحسن البصري في حديثه عن الحجاج قال: أخرج لنا بنانا قصيرة قلّما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله، ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول : يا أبا سعيد، يا أبا سعيد. وقال فيه لما مات : اللهم أنت أمته فاقطع سنته،

فإنه أتانا أخيفش أعيمش، يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة. لا من الله يتقي، ولا من الناس يستحي.فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون.لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل. هيهات دون ذلك السيف والسوط (الكشاف ج 2 ص397) ومن بديع التعبير القرآني تعقيبه اللمز بقوله أنفسكم، لأن رابطة الإيمان التي جعلت المؤمن أخا، يكون العامل على إذايته مع هذه الرابطة قد اذى نفسه.ولما كان اللمز يتبعه النفرة والكراهية، وقد كان كل مؤمن يجد من المؤمن نصيرا ودرعا واقيا، فإذا لمزه قطع ما بينه وبينه، فيضر نفسه ويفقد نصيرا مساعدا.

ولا تنابزوا بالألقاب... عندما تُفقد الآداب الاجتماعية يكثر في المجتمع تلقيب بعضهم بعضا بألقاب فيها حطة وشين، وإذا كان الملقّبُ يكره أن يدعى بذلك اللقب،و الإذاية تؤثر في النفس نقمة وحقدا، فيكون التنابز عامل انحلال للروابط الاجتماعية. فنهى القرآن عنه نهيا يفيد التحريم. وأما لو كان في اللقب شرف وتكريم فالدعاء باللقب ممدوح. فقد كان أبو بكر رضي الله عنه ملقبا بالصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله. ثم إن الألقاب إذا تقادم عهدها وتنوسي المعنى المذموم المشتقة منه فلا مانع من الدعاء بها. من ذلك ذكر المحدث عنه في سلسلة الرواية مثلا، الأعرج لعبد الرحمن بن هرمز، والأعمش لسليمان بن مهران.

بئس الاسم الفسوق... تنفير من ضروب التعدي التي ذكرت في الآية، إن المتناول لغيره بالإذاية يصبح بتعديه ذاك فاسقا، فبعد أن كان اسمه إثر مبايعته على الإيمان: مؤمنا، يدعى بتعديه: فاسقا. وما أسوأ ما انقلب إليه إذ انحدر من مستوى جماعة الإيمان الذين أثنى الله عليهم في كتابه، وعرف بأنهم شهداء على الأمم يوم القيامة؛ انحدر إلى مهواة دخل بها في زمرة الفسقة المؤهلين للعقاب، والذين لا تقبل لهم شهادة. إنهم ارتكبوا إثما لا غنى لهم عن التوبة منه، لتتطهر صحائفهم مما تلوثت به من الإثم. ومن واصل حياته أليفا للتعدي بلسانه وغمزاته عد عند الله ظالما.

- النداء الخامس لتطهير الباطن مما يوجب الفرقة.

12-يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا...إن الله تواب رحيم.

هذا هو النداء الخامس بوصف الإيمان. وتتنزل جميعها فيما يقوي أصرة الانتساب للأمة الإسلامية. وطرد ما يوهنها ويضعفها. فنهت الآية:

1) عن كثير من الظن. ويتنزل هذا النهي في معالجة الإنسان لحديث النفس. يحل المؤثر في النفس فتتابعه إلى أن يحصل لها ما يرجحه، أو يضعفه وبالتالي ينفيه.

والغالب أنه إذا أطلق لتصوراته التوالد، فإنه ينتهي إلى درجات قد تقارب اليقين. وهذا من طبيعة التفكير الإنساني، فما المراد من اجتنابه والحالة تلك ؟

أ- نص الآية كثيرا، ولم تقل: الكثير. وقد دقق الزمخشري فقال إن التعبير بكثير منكرا في قوة قولك بعض. ولو عرفته فقلت : الكثير من الظن لكان المعنى : الغالب.

ب- من الظنون ما هو خير، والظن الحسن محمود، فإذا قامت القرائن الدالة على صلاح المظنون فيه فليكن الظن به حسنا. والظن الحسن الذي لا مستند له يوقع صاحبه في الغلط، ويبعد به عن الحزم. وفي المقابل فإن الظنون بالصالحين على خلاف ما هو ظاهر منهم، واتهامهم بما ليس عليه أمارة قريبة هو المنهي عنه، فعليه أن يتثبت في الأمر ويزن الخاطرة التي تولدت في الذهن بميزان الترجيح إيجابا أو سلبا، فإذا كان لا سند عليها، وجب عليه أن يطردها ولا يتابعها. وإن ترجحت واصل التثبت فيجري في علاقاته مع ما ترجح عنده.

وإذا ترجح عنده جانب الشر فليحذر، ولكن لا يتابع ذلك بالعمل بالخاطرة الذهنية السيئة. فإن الفعل السيء المبني على الخواطر الظنية السيئة من الإثم.وإذا ترجح عنده جانب الخير فليثق في المظنون فيه ويبني على ذلك مثلا مصاهرته أو مشاركته أو أخذ العلم عنه. ومن الظن الذي يعمل به، الحكم الذي يحصل عند الفقيه بعد تتبع الأدلة. فيثق بالحاصل الذهني ويخبر بظنه على أنه حكم إسلامي.

2) عن التجسس. والتجسس السعي بطرق خفية تمكن المتتبع من الاطلاع على عورات المتجسس عليه، ما كان منها مرتبطا بالسبب الباعث على التجسس، وما كان غير مرتبط. ومبعثه ظن سيء يريد الظان تحققه.فهو من توابع النّهي عن الظن. والمتجسس قد يطلع بتجسسه على ما ينقم به على من تجسس عليه، وقد يتفطن له الآخر فيحقد عليه. وقد تتضخم غريزة حب الاطلاع فيكون صاحبها مولعا بتتبع أخبار الآخرين، يحاول في دأب معرفة ما خفي من أحوالهم، وكثيرا ما يدفعه هذا المخزون إلى إشاعته. والنتيجة واحدة في الجميع تفرق الكلمة والحقد والخصام. وهو بذلك حرام. أما إذا دعت المصلحة للتجسس كالتعرف على العدو، أو تتبع المجرمين للكشف عنهم فهو محمود مجزي عنه خيرا.

3) عن الغيبة. والغيبة ذكر الآخر في غيبته بما يكره أن يتحدث به عنه، مما لا يتناول عرضه، فإن تحدث عن المغتاب بما يفيد عدم عفته في النّواحي الجنسية، فهذا قذف. وهو أعظم إثما من الغيبة بغير ذلك. وقد روعي في صياغة هذا النّهي ما يجعل المتأمل فيه ينفر من هذا الإثم.

فذكر أولا: أن العلاقة بين المغتاب وبين من تكلم في عرضه، هي علاقة الجزء بالكل، فكل واحد بعض من الآخر.
وثانيا: تمثيل المغتاب بأنه يأكل لحم أخيه حالة كونه ميتا. فكونه يأكل لحم أخيه صورة مُنَفِّرة، ثم كون أخيه ميتا وهو ينهش لحمه موجب للتقزز. والسؤال التقريري بصيغة الحب" أيحب أحدكم" دون الإرادة "أيريد أو يبغي " وجه آخر من التفظيع. ثم تم التصريح بقوله فكرهتموه إعلان عن الفطرة. و قياس الجانب المعنوي على الجانب الحسي محرك للوازع.
ولنعلم أن الحديث بالعيوب إذا كان لمصلحة ولا يريد المغتاب بتصريحه بالعيوب تشهيرا، أو تحقيرا، ليس حراما. كمن استشير في زواج، أو في شركة، أو عن ثقة المسؤول عنه لأخذ العلم والدين عنه، أو لترشيحه للإمامة ونحو ذلك، فذكر المعايب في حدود التعريف، مع عدم التعرض للنواحي الجنسية لا حرمة فيه.
واتقوا الله... تشير هذه الخاتمة إلى أن من زل فاغتاب، أن عليه أن يتحصن بالتقوى التي تفصله عن هذا الإثم .وأن عليه أن يتوب من إثمه ويقلع عن الغيبة. والله رحيم بعباده يتوب على التائبين و يصفح عنهم ويثيبهم.

13- يا أيها الناس....عليم خبير.

تحوّل في النّداء، من نداء المؤمنين لدعوتهم إلى ما يقتضيه الإيمان من كمالات توجب حرصهم على التحلي بها والابتعاد عن أضدادها. إلى نداء النّاس لما يقتضيه وصف الإنسانية فيهم من وحدة وتعاون.
تثبت الآية أولا أنهم جميعا مخلوقون لله. لا يستطيع أي واحد منهم أن ينكر القدرة التي أوجدته. يدرك من نفسه أنه لم يجمع الكمالات التي يودُّ أن يحوزها في ذاته وفي مواهبه، ويدرك أيضا أنه، عاجز عن تغيير مستوى ذكائه أو طوله أو لون بشرته أو سعة عينيه أو لونهما ونحو ذلك، مما ينادي بأن الله هو الذي تولى خلقه كما أراد وقدر .وصدورهم عن القدرة الواحدة موجبٌ لوحدتهم.
ثم نبههم إلى قانون خلقهم وهومن النّواحي التي يتساوون فيها، ولا يختلف أحد عن الآخر؛ كلهم خلقوا من أب وأم، ذكر وأنثى. وهذا عامل آخر ينادي بالوحدة ونبذ التنازع.
وجعلناكم شعوبا وقبائل... الذي خلق الإنسان وأحسن خلقه، أودع في فطرته عاملا قويا يدعوه إلى الانضمام إلى غيره، فتكوّن من هذا العامل وحدات كبرى تجمع المنتسبين إلى جد واحد ، وصهرهُمْ في القبيلة التي كانت في العهد النّبوي المعرف

للإنسان، وقامت بين رؤساء القبائل وبين المنتسبين لها أصول من الاحترام والتعاون، والنجدة والحماية. وتجتمع القبائل تحت مظلة الشعب.

ويهتف هذا النّداء للناس المفتتح به ليوقظ البشر جميعا، إلى أن الذي جعلكم شعوبا وقبائل، رتب خلقكم وميولكم لتتعارفوا فيما بينكم، ليعمل كل منكم على معرفة غيره. إنه يجد بهذا التعارف ما يدعو إلى التعاون. يعتبر القرآن سر رقي العالم وأداء الإنسان لوظيفته من الخلافة في الأرض، معرفة البشر بعضهم لبعض. إن الوحدات التي جعلها الله مترقيةً من الأسرة، إلى الحي، ثم إلى الوحدة السكنية، ثم إلى الجهة، ثم إلى الوطن، ثم إلى الشعب، ثم إلى الأمة، ثم إلى الإنسانية. رتبها في عقولكم لتكون كل رابطة متفتحة على ما فوقها مندمجة فيها دون أن تذوب. وبالتعارف بين الأمم والشعوب استطاعت الإنسانية أن ترتقي في مدارج الحضارة. تنبهوا إلى أنكم انحرفتم بناموس الخلق " التعارف "وقلبتموه إلى إرادة للتغلب والقهر والاستيلاء على خيرات الآخرين.

إن تلكم الوحدات التي تمايزت بخصائصها مما كون لكل واحدة منها كيان، لا يقبل أن يكون ما تميزت به كل واحدة من خصائص موجبا لاعتبارها أسمى من غيرها. إن ميزان التفوق ورفعة المنزلة لا يكْمُنُ في الثراء، ولا في لون الجلد، ولا في المواهب والاستعدادات، ولا يقاس بما في كل وحدة من نوابغ في العلم ونبهاء في الاختراع الآلي. ولكن القيمة الحق هي في تقوى الله، التي تجعل كل فرد يشعر في ذاته أنه مخلوق لله عليه أن يطوّع حياته لما يرضيه عقيدة وسلوكا. فالتقوى هي الميزان الذي يزن البشر حسبما استقر في قلوبهم من الخير.

بهذه الوحدة الإنسانية المتعاونة لا المتقاتلة، المتواضعة لا المستكبرة نادى رسول الله في خطبته في حجة الوداع : يا أيها النّاس: (ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ولا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)

إن الله عليم خبير. التقوى محلها القلب، فالذي يعلم التقيّ الحق من الدعيّ الزائف هو الله ؛ وهو سبحانه لا ينطلي عليه تمويهات المسوهين ولا تخدعه المظاهر. فهو الخبير بما تنطوي عليه كل نفس ومقاصد البشر من أعمالهم.

ملاحظة- لا ينبغي أن يظن أن الإسلام يعتبر النّاس لا يتفاضلون فيما بينهم، وأنهم صور مكررة متساوية، كما تخرجه المعامل من قطع اللباس أو الآلات. إن الإسلام لم يلغ ما يتميز به البشر بعضهم عن بعض. فليس الذكي كالغبي، ولا العالم كالجاهل، ولا من انتسب إلى أسرة نبيلة فتربى على سمو الأخلاق وحسن المعاملة

فانطبعت نفسه بها، كمن ربي في وسط منحل مع جفاء في الأخلاق وسوء معاملة. لكن الذي يلح عليه القرآن: أن الاعتبار الأول هو للتقوى. وأن الفاسق قيمته الإنسانية منحطة وإن كان منحدرا من أسرة نبيلة وبين يديه حظ من الثراء غير قليل.

• قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأعراب : سكان البادية من العرب.

لايلتكم : لا ينقصكم.

التعليم : المبالغة في إيصال العلم للمعلم. أتعرفون الله.

المن : التذكير بالمعروف ليراعيه المحسن إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

قدم على المدينة أعراب بني أسد، وهم يعلنون بأقوالهم أنهم مؤمنون. وما صدقوا في دعواهم الإيمان، إذ لم يستقر الإيمان بعد في قلوبهم. فأطلع الله رسوله على كذبهم وأمره أن يواجههم بالحقيقة التي أطلعه عليها. وأن الإيمان لم يستقر في عقولهم. ثم فتح لهم باب الرجاء ليصدقوا في إيمانهم، وأنهم إن فعلوا فإن الله لا ينقص من أجورهم شيئا، لكونه سبحانه غفورًا لذنوب عباده رحيما بهم. يحقق أنكم لم تؤمنوا بعدُ الإيمان المقبول، هو أن المؤمنين حقا هم الذين جمعوا بين اليقين الأيقن بالله إلها متصفا بصفات الكمال، وبأن محمدا رسوله، وصمموا على ذلك تصميما لا يداخله شك. وهانت عليهم أموالهم وأنفسهم في تركيز الدين والدفاع

عنه. أولئك الجامعون بين تلكم الخصال هم المؤمنون حقا لا أنتم الذين لم يتجاوز الإيمان حناجركم.

ولما افتضحوا جاؤوا لرسول الله يحاولون إقناعه بصدق إيمانهم. قل لهم يا محمد: هل أردتم بما رتبتم من كلام أن تعرفوا الله بحقيقة دينكم، ما اشد غباءكم : إن الله يعلم ما في السماوات والأرض، وعلمه هو العلم الدقيق بكل شيء.

ومن جلافة الأعراب أنهم أخذوا يعيدون ذكر مزيتهم على رسول الله إذ أسلموا دون قتال. قل لهم: لا تمُنّوا علي إذ أسلمتم بدون قتال، ليست لكم مزية في ذلك، ولكن المنة لله وحده إذ هداكم إلى الإيمان الذي عرفتكم به إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان. إن الله يعلم علما دقيقا كل غائبة في السماوات والأرض. والله لا تخفى عليه أي جزئية مما تعملونه.

بيان المعنى العام :

14- قالت الأعراب آمنا...إن الله غفور رحيم.

كانت سنة تسع سنة الوفود. قدم المدينة على رسول الله ﷺ وفود القبائل التي جاءت تبايعه على الإسلام. وكان من بين الوفود وفد بني أسد الذين كانوا نازلين في صحراء المدينة. وكانت ظروفهم المعيشية في تلك السنة قاسية، إذ كانت سنة جدب. وكانوا يدلون بإسلامهم على رسول الله، ونفوسهم معلقة بنيل الصدقات. كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: جئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلتك قبائل عديدة. ويمنون على رسول الله إسلامهم. وكان في إسلامهم دخلٌ، ولما استُنْفِرُوا إلى الحديبية تخلفوا، وآثروا البقاء في منازلهم. وكانوا يرددون دوما: آمنا بك. سجل الله مقالهم: آمنّا. ولما كانت دعواهم الإيمان دعوى غير صادقة رد القرآن عليهم، وحقق أن الإيمان لم يستقر بعد في قلوبهم وعقولهم. ولكن غاية ما هم عليه أنهم أسلموا بالأقوال التي لا تتصل بالضمائر. ذلك أن المراتب ثلاثة: المرتبة الرفيعة المقبولة التي يعتبر صاحبها مؤمنا حقا، التي يتطابق لدى صاحبها القول والقلب والفعل. يصرح المؤمن بأنه مؤمن ويعلن بلسانه كلمة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويؤمن بالبعث وباليوم الآخر والحساب وبالقضاء خيره وشره. ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويعزم على الحج ويؤديه عندما يستطيع. ويعترف بأن كل ما شرعه الله من أحكام واجب التطبيق. ويجتهد في التطبيق. فمن جمع كل ذلك فهو مؤمن ومسلم. والمرتبة الثانية أن يعتقد بقلبه بأصول الدين وينطق بكلمة التوحيد، ولكنه لا يقوم بجميع ما فرض عليه مقرا بكونه من الدين، وهذا مؤمن أو مسلم فاسق. والثالث من يعلن بلسانه أنه مؤمن،

ولكن قلبه غير معتقد بما يقوله، وهذا منافق في الباطن، ومسلم في الظاهر، تجري عليه أحكام الإسلام، ولكنه غير ناج يوم القيامة. وهؤلاء الأعراب لم يستقر الإيمان في قلوبهم، وإن ادعوه بلسانهم. والله عليم بما يبطنونه فعرفهم أن الله أطلع رسوله على حقيقتهم. قل لهم : لم تؤمنوا بعد. والدقة أن تقولوا أسلمنا ظاهرا، لأن الإيمان لم ينفذ بعد إلى قلوبكم وعقولكم مستقرا فيها استقرار الرسوخ والثبات. والنفي بـ"لما" فيه إشارة إلى أن المتوقع منهم أن يثبت الإيمان في عقولهم قريبا. وكذلك كان.فإنهم قد حسن إسلامهم بعد ذلك واستناروا بنور الإيمان.

وإن تطيعوا الله ورسوله... بعد أن كشف القرآن عدم مطابقة أقوالهم لما يضمرونه، رغبهم في استكمال إيمانهم، وأرشدهم إلى اغتنام وجودهم بالمدينة قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعلموا منه ويتأسوا به فتصلح عقيدتهم، وسلوكهم. وحرضهم بأمرين: أن الله لا ينقص من أجور أعمالهم الصالحة شيئا، ويسقط من الاعتبار ما فعلوه قبل إسلامهم. وبالتأكيد على أن الله غفور يمحو السيئات بفضله. وهو رحيم بعباده، ورحمته بتبديل سيئاتهم حسنات، كما جاء في قوله تعالى: (**إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما**[1]).

15- إنما المؤمنون الذين آمنوا...هم الصادقون.

لما طلب من رسوله في الآية السابقة أن يقول لأعراب بني أسد: قل لم تؤمنوا، أتبعه بحصر مفهوم الإيمان حصرا يتميز به عما عداه. المؤمنون المعتبر إيمانهم عند الله هم الذين جمعوا:

1) بين الإيمان بالله إلها للكون، وبصفاته القديمة. وبين الإيمان برسوله مبلغا عنه شرعه صادقا في أقواله أسوة في عمله.

2) وفوق ذلك استقر هذا الإيمان في قلوبهم دون أن يخالطه شك. فإذا تعرض لحديث النفس ووسوسة الشيطان أو لتزييف المضللين، تيقظ عن قرب وطرد الوافد على الذهن بتذكر أدلة وجوده سبحانه، وتأثيره في الكون. فترفع الغشاوة عن قريب ويعود الصفاء إلى وضعه الأصلي.

3) وهم الذين يدافعون عن الدين بأموالهم، فلا يبخلون عن الإنفاق في كل ما يدفع عن الدين كل عادية، ويحمي أرض الإسلام من الأعداء. ويضحون بأنفسهم مستعدين بالمران على حمل السلاح واستعماله بدقة ليشاركوا في شرف الجهاد في

---

[1] سورة الفرقان آية 70

سبيل الله. ويتناول الجهاد العبادات جميعا والمجاهدة بالمال: الزكوات وكل ما ينفقه المؤمن فيما يقوي الأمة ويحميها.

أولئك الذين تحققت فيهم تلكم الأوصاف هم المؤهلون بأن يوصفوا بأنهم مؤمنون حقا صادقون في إيمانهم.

16-قل أتعلمون الله...بكل شيء عليم.

إن من شأن الذين تواجههم الحقيقة، وينكشف ما أضمروه وحاولوا إخفاءه، أنهم يعملون بكل إمكاناتهم ليستعيدوا الثقة بهم.فالأعراب بعد أن كشف القرآن دخيلة نفوسهم، جاؤوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاولوا أن يقنعوه بأنهم صادقون. فأمر الله رسوله أن يوبخهم ويقول لهم: أتعلّمون الله بدينكم؟ أتريدون بباطل كلامكم وتزويره أن تعلموا الله حقيقة دينكم الذي تضمرونه في نفوسكم. إنه سبحانه يعلم دخائلكم بصفة أتم مما تعرفون أنفسكم، فالله يسع علمه كل شيء في الأرض و في السماء. وما تضمرونه تافه جدا بالنسبة لما وسعه علمه سبحانه. إن الله عليم العلم الدقيق بكل صغيرة وكبيرة، بكل واجب وجائز ومستحيل.

17-يمنون عليك أن أسلموا...إن كنتم صادقين.

من جلافة الأعراب من بني أسد أنهم أخذوا يذكرون ويعيدون مزيتهم على رسول الله إذ أسلموا، دون حرب ولا قتال. وقارنوا أنفسهم بقبائل أخرى ما أسلمت إلا بعد أن شنّوها حروبا على المسلمين. فأمر الله نبيه أن يرد عليهم بما يبطل ما ظنوه مزية لهم، قل لهم ليست لكم أي مزية إذ أسلمتم، بل المنة والفضل لله إذ هداكم لطريق الإيمان، إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان الذي كررتموه.

18- إن الله يعلم...بصير بما تعملون.

بكل تأكيد الله يعلم كل غائبة في السماوات والأرض فضلا عما ظهر وبان. فتذكيركم بأنكم اسلمتم هو عبث، لأنكم إن كنتم أسلمتم حقا فالله لا يخفى عليه إسلامكم، وإن كنتم أعلنتم ما أنتم على خلافه فالله يعلم سركم. وما تنطوي عليه نفوسكم هو قليل وتافه بالنسبة لما يعلمه الله من الأمور المغيبة في السماوات والأرض. وكذلك أعمالكم التي تقومون بها، الله بصير بها يعلم الصورة الظاهرة لها وما انبعثت عنه وما صحبها من صدق أو زيف.

ســــورة ق

هذا هو الاسم التي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. سميت باسم الحرف المبتدأة به مثل ص. وطه.وق، ويس. وروي أنها تسمى سورة "الباسقات" أخذا من قوله تعالى " والنخل باسقات" آية 10- ولم يرد هذا اللفظ إلا مرة واحدة في القرآن. نزلت على رسول الله في مكة. رتبتها حسب ترتيب المصحف الخمسون. وحسب ترتيب النّزول الرابعة والثلاثون. نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة لا أقسم بهذا البلد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (2) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ (4) بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ (5) أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ (9) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ (11)

بيان معاني الألفاظ :

المجيد : عظيم الشرف.

المنذر : المخبر بشر آت.

بعيد : مستنكر.

حفيظ : لا يفلت منه شيء.

مريج : مضطرب.

زيناها : جعلناها جميلة للناظرين.

فروج : ج فرج وهو الخرق.

رواسي : جبالا ثابتة مستقرة.

تبصرة : تبصيرا للإنسان ليلاحظ ما لم يتنبه له.

ذكرى : تذكر لما علم فنسي.

منيب : الراجع للحق يستحضره كلما غفل عنه.

مباركا : فيه الخير والنفع.

الجنات : الأرض التي غرس فيها منوع الأشجار .

حب الحصيد : حب الزرع المحصود كالقمح والشعير.

باسقات : طويلات جذوعها.

الطلع: ما يوجد من نوْر ثمر التمر في غلافه قبل أن ينشق.

النضيد : المصفف بانتظام.

رزقا : قوتا.

البلدة : القطعة من الأرض.

الخروج : خروج النّاس للبعث.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بحرف يكتب مفردا ويقرأ" قاف" ويقال فيه ما قيل في "ص" وعطف عليه قسما بالكتاب البالغ في رفعة شأنه أعلى مقام معنى ومبنى لا يدانيه في سموه أي كلام آخر. والمقسم عليه مقدر يفهم مما أثبته القرآن في الآيات التالية: ويقدر إنك رسول صادق وإنكم ستبعثون، وإنكم ستحاسبون وتجزون.

قابل المشركون إنذار محمد لهم بالعجب، والرفض، وقالوا: هل يمكن أن يقبل عقلا أن أجسامنا تعود إلى ما كانت عليه بعد أن نموت وتأكلنا الأرض وتتحول أجسامنا إلى ذرات تختلط بالتراب وتسفوها الرياح لا يجمعها مكان؟

بكل تأكيد تقرر في علمنا ما يجري على الأجسام بعد موتها، وهو موثَق في علمنا توثيقا لا يقبل الضياع ولا التحريف والنقص، بما يشمل التطورات التي تحدث في الجسد بعد الموت، ومكان كل جزء من الأجزاء. وما يبقى من ذلك وما يتحلل أو يدخل في غيره. وزادوا فوق إنكارهم للرسالة والبعث أن قابلوا الحق الواضح بمجرد ما جاءهم بالتكذيب، دون تأمل ولا تفكير. فاضطربوا في توجيه إنكارهم. فهم متحيرون في توجيه تكذيبهم ولم يصدر عنهم ماله وجه من المعقولية. كيف يستبعدون البعث، وأمام أنظارهم السماء بما تحويه من كواكب وتنظيم عجيب.

وعلى سعة أبعادها و ضخامتها واتساع أبعادها، روعي فيها الجمال فكانت صفحة السماء ليلاً أو نهارا تبدو للناظرين أجمل ما يكون، ومع ذلك لا تجد فيها خللا.

وكذلك الأرض التي يعيشون عليها، بسطها رب العالمين، فالعيش فيها و عمارتها ميسورة. و ثبت فيها الجبال، فكتلها الضخمة تحدث التوازن في قشرة الأرض وفي الكوكب كله. وأعطى للأرض قوانين الإنبات فاكتست صفحتها بكل زوج من أنواع الأشجار والنباتات والزروع التي تبهج النفس. كل ذلك أقمناه أمام أنظاركم ليكون إدراككم واضحا للصنع العجيب، وليتذكر بتلكم القوانين والإتقان كل عبد ينيب إلى ربه فينسب الخلق والتدبير إليه وحده.

وآية أخرى هي ربطه سبحانه بين السماء والأرض، فأنزل من السماء مياه الأمطار، فيها الكثير من البركة والخير.وفعلت فعلها في التربة، فكانت الجنات المتنوعة الأشجار والثمار، ونما بها الزرع إلى أن بلغ حد الحصاد ليكون أقواتا للناس.ولفت الأنظار بصفة أخص للنخل الممتد طولها مرتفعا إلى السماء، العجيب طلعها كيف يخرج غلاف سميك منضد بعضه فوق بعض، ثم يجري عليه التحولات إلى أن يصير تمرا لذيذ المذاق. محتويا على العناصر التي يحتاج إليها البشر في غذائهم. كل ما بسطناه يسرنا به رزق العباد وغذاءهم.

وكما حييت الأرض بماء السماء الذي تفاعل مع الأرض. فكذلك يخرج النّاس يوم القيامة بعد موتهم للنشور والحساب بما يقدره الله من الأسباب التي تعيدهم للحياة.

بيان المعنى العام :

1- ق والقرآن المجيد

افتتحت السورة بحرف واحد نظير سورة ص. ويقرأ هكذا "قاف "الأشهر تسكين الفاء. والقول فيه نظير ما ذكر في سورة ص وفي فاتحة سورة البقر.

والقرآن المجيد- أقسم الله بالقرآن تنويها به ,لأنه معظّم عند المقسم به. ثم حقق أنه بالغ غاية الشرف فوصفه بالمجيد. والمجيد ذو المجد والشرف إذا قورن بغيره من الكتب المنزلة. لتفرده بأن كلماته، وتركيبه، وأسلوبه، ومضامينه، من الله بدون واسطة.وجعله معجزا متحدى به.كماله سائر مع الزمن، كلما تطورت البشرية وجدت فيه هداية للخير.

والقسم يستدعي مقسما عليه. ولكن الآية عقبت القسم بما يفيد الإضراب عن القسم والانتقال إلى غرض آخر. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم..ويمكن أن يقدر جواب القسم ما ورد في نظائره من القرآن،كقوله تعالى: يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين.فيقدر في هذه الآية والقرآن المجيد إنك لمن المرسلين. أو يقدر إنا جعلناه

قرآنا عربيا كما جاء في فاتحة سورة الزخرف آية 3/2- وعلى هذا النحو من التقدير ذهب كثير من المفسرين.

والذي ترجح عندي أن القرآن يرُدُ بأبلغ صورة على ما ينكره الكافرون عند نزول السورة. وسجل عقب القسم ما أنكروه، فيقدر عقبه إثبات ما أنكروه ويكون الكلام: إن محمدا رسول،وإنكم ستبعثون،وإنكم ستحاسبون وتجزون.

2-بل عجبوا أن جاءهم...شيء عجيب.

بل عجبوا... ينكر القرآن على المشركين موقفهم موقف العجب، والعجب عبارة عن إنكار الشيء واستبعاد حصوله. عجبهم من أن يرسل الله لهم بشرا واحدا منهم لا يختلف عنهم في شيء، يقول: إنه جاء لينذرهم ما يترصدهم من عذاب وخسران إن هم واصلوا الثبات على ما هم عليه من الشرك. وأن هذا العذاب لا يجدون منه مفرا يوم القيامة عندما يقومون من قبورهم ويحاسبون على شركهم وسيء أعمالهم. فهم ينكرون أن يكون محمد رسولا، و ينكرون أيضا أنهم سيبعثون من قبورهم، وينكرون أن يجدوا جزاء أعمالهم بعد البعث.

امتلأت نفوسهم برفض الرسالة وما تضمنته، فعبروا عن ذلك بقولهم : إن هذا الذي تدعيه هو أمر عجيب مستبعد جدا. فقال الكافرون: هذا الذي تدعيه من أنك رسول من عند الله، مع أنك مثلنا لا مزية لك علينا، وما تضمنته دعوتك أنا نعود إلى الحياة بعد الموت، وأنا سنحاسب على ما قدمناه، وأنك تنذرنا بتحقق ذلك، كل ذلك نرفضه لأنه مستحيل.

3-أإذا متنا وكنا ترابا...رجع بعيد.

ثم واصلوا رفضهم بقولهم: نبسط ما تنذر به ليتبين استحالته. تدعي أنه إذا فارقت أرواحنا أجسادنا،ثم تهرت أجسامنا شيئا فشيئا إلى أن تفتتت وتحولت إلى ذرات من التراب واختلطت به،وانتشرت ذرات هذا التراب بعد أن سفتها الرياح، واختلطت بعناصر أخرى من الأرض. بعد كل ذلك نرجع أحياء كما كنا ! إن هذا أمر مستبعد مستنكر.

4- قد علمنا ما تنقص...حفيظ.

تولى القرآن الرد عليهم، والتشهير ببساطة تفكيرهم، وسذاجة عقولهم، ومحدودية معارفهم.الأمر ليس فقط في تحول الأجسام إلى تراب، إنه فوق ذلك، إن الأرض تحول أجسادكم، وتأكل منها ما تأكل، وتذيبها وتتداخل تلك الأجزاء في كائنات أخرى.وهي في تحولاتها ورحلتها في الوجود وفنائها، لا تخرج عن علم الله. هو

يعلم خصائص كل جزء وما أودعه الأرض، ويعلـم مـا سـيجري عليـه مـن أحـداث. وهذا هو السر العجيب الذي انتظم به الوجود، هو العلـم الشـامل العميـق. يعلـم سـبحانه طبيعة التآكل والمسارات التـي سـارت وتسـير فيهـا كـل ذرة. وإعـادة الخلـق تكـون مستنكرة مع الجهل أما مع العلم الدقيق فـلا عجـب. إن تقـدم المعرفـة البشـرية فـي أي ميدان هو نتيجة العلم الذي يكشف عما كان لغزا مجهـولا، فـإذا انكشـف اقتـدر الإنسـان على تطويع ما اكتشف قانونه. فإعـادة البشـر ليسـت مرتبطـة بـالأجزاء التالفـة التـي كان يتكون منها الجسـم الإنسـاني كمـا يتصـوره المعترضـون الجهلـة وإنمـا بـالعلم الدقيق الذي لا يبقى معه أي غموض. فالله يعلم ما يتلف مـن تلـك الأجـزاء ومـا يبقـى منها. ولا يضيع عن علمه شيء منها. كل ذلك موثق في كتـاب يحفـظ مـا يحويـه، هـو عند الله لا يصل إليه أحد ولا يضمحل منه شـيء. وإيـاك أيهـا التـالي أن تتصـور أنـه كتاب من قرطاس كتب فيه بمداد، فهذا تصـور سـاذج مخـالف للحقيقـة تمامـا. تعـالى الله وتقدس أن ترتبط المادة بذاته العلية وبصـفاته القديمـة. وممـا يقـرب لـك التصـور: أننا أصبحنا اليوم نحـتفظ بخزانـة علميـة تحتـوي علـى آلاف المجلـدات فـي قطعـة صغيرة لا تتجاوز ظفر الإنسان. والتطـور السـريع الحاصـل فـي نصـف قـرن يفـتح آفاقا أوسع وأرحب تتجاوز الخيال العلمي.

ومن ناحية أخرى فقد تقـدمت الكشـوف العلميـة وتبـين أن البصـمة الوراثيـة المميـزة لكل إنسان مخزونة في الحامض النّـووي الـذي لا ينعـدم بمـوت صـاحبه، وأي جـزء من أجزائه يكشف عن كامل الـذات وخصائصـها حتـى الشـعرة. فـأي ذرة مـن ذرات الكائن البشري تحمل ما يُعرف بصاحبها مميزة له تمييزا كاملا لا يختلط بغيره.

وقد نظر علماء الأمة في قضية البعث، فذهب بعضهم إلـى أنهـا تكـون بـالأرواح التـي تكسى أجسادا تماثل الأجساد التي كانت تسكنها فـي الحيـاة الـدنيا. اعتمـادا مـنهم علـى أدلة منها قوله تعالى: (كما بدأنا أول خلق نعيده[1])

وذهب قليل إلى أن الأجزاء المتفرقة تجمع وتعاد إلـى مـا كانـت عليـه. وصـاحب هـذا القول لا بد له أن يعترف أن بعض الأجزاء يعاد خلقهـا مـن جديـد، إذ يمكـن أن تكـون قد دخلت في تركيب إنسان آخر.

5- بل كذبوا بالحق...في أمر مريج.

إضراب آخر يهز السامع للتأمل فيما يعرض عليـه، علـى طريقـة الترقـي. بـل أشـنع من ذلك أن المشركين قابلوا الحق الذي دلائـل صـدقه لائحـة عليـه، ولوضـوحه يتقبلـه

---

[1] سورة الأنبياء آية 104

العقل بيسر وسهولة، قابلوه بمجرد ما وصل إليهم، بالرفض والتكذيب. وتحيروا تبعا لذلك، فاضطربوا في توجيه رفضهم. فقالوا في الرسول مرة: هو شاعر، وأخرى هو ساحر، وأخرى هو كاهن ومختلق. وزعموا مرة أن المضمون لا يعدو أساطير الأولين، والسحر المبين، وقالوا: لو شئنا لقلنا مثل هذا، فلما وقع تحديهم عجزوا. اضطربوا ولم يثبتوا على أي توجيه إذ كلها متهاوية ساقطة.

5-11- أو لم ينظروا إلى السماء...كذلك الخروج.

منشأ تكذيبهم ورفضهم أنهم لم يدركوا عظمة الخالق وقدرته على كل شيء. فسألهم مبرزا شدة غفلتهم. هذه السماء التي تحيط بالأرض وتدرك برفع البصر إليها، ألم يتفكروا فيها فتنبئهم عظمتها على أن إعادة النّاس بعد الموت أمر تافه بالنسبة لذلكم النّظام العجيب في السماء وما تحويه؟ ويمكن أن تفهم الآية على النّظر البصري، ألم يشاهدوها بأبصارهم فيروا بناء محكما ؟

يختلف النّاس في إدراك طريقة بنائها حسب مستوياتهم المعرفية. يراها الجاهل بعلوم السماء فيبهره المشهد قبة متلاحمة الأجزاء. وينظر فيها العالم فيجد فيها بناء محكما بالجاذبية المودعة في كل كوكب، بناء لا يختل ولا يبعد أي كوكب عن مساره. ولا يصطدم أي منها ببقية الكواكب التي تعمر المجموعة الشمسية. ليس المراد بناء بالحجارة والإسمنت، ولكن هو التجاذب المقدر تقديرا دقيقا تبعا لكتلة كل كوكب وموقعه الذي خلق فيه. وكلا التقديرين فيه دلالة على القدرة على الإحياء والبعث. فمن خلق السماء وما حوته، بعث البشر بعد الموت وحسابهم أمر هين عليه. فمن نظر في ذلك كيف يستبعد البعث؟

ومع ذلك، هذا الخلق العظيم الذي تقاس أبعاده بالسنوات الضوئية، ترى فيه مسحة الجمال لائحة ومقصودة. فإذا نظرت في قبة السماء مع طلوع الشمس أو غروبها أو ارتفاعها ترى مشهدا، أو نظرت إليها في الليل والنجوم تلمع فوق صفحتها، والقمر في أطواره من الولادة إلى المحاق تجد منظرا أخاذا، بالغا أعلى حدود الجمال والروعة. إن قصد الجمال فيها مع عظمها وسعتها آية على القدرة التي لا يعجزها شيء.

كما لفت القرآن الأنظار إلى السماء، نبههم إلى ما في الأرض التي يسيرون عليها من دلالة على القدرة والحكمة أيضا. فصل ذلك بما يسّره لعيش الإنسان على ظهرها بدون مشقة.

مدّ الأرض، بسطها بما ييسر الانتقال على ظهرها، ونشر فيها الجبال ثابتة مستقرة متداخلة مع الأرض، راعى توازن كتلها في بناء الأرض. كما راعى في تركيبة

المواد المكونة لقشرتها ما تحتاج إليه أنواع النباتات الكثيرة لتنمو وتزهر وتثمر، وتكون في مختلف أحوالها بهجة للناظر، تدخل على نفسه السرور والارتياح. وتم الابتهاج بمواءمة بين طبيعة النباتات وبين التركيب النفسي للناظر. وفي كل ذلك آيات على دقة الصنع الإلهي الذي لا يعزب عنه شيء في الخلق والتقدير.

تلك الآيات المتتابعة التي جاءت في نسق التنبيه إلى دلائل القدرة والحكمة، عرضها القرآن لتكون مبصرة للبشر بقدرة الله وحكمته، وسريانها في كل ما خلقه وقدره. وينتفع من هذا التذكير بصفة أخص كل عبد من عباد الله ارتبط بربه ارتباطا، كان من آثاره أنه يعود إليه سريعا كلما غفل عن ذكره. فتكون مشاهد الكون المذكورة في الآيات السابقة محيية لتلك الصلة. ولنضرب لذلك مثلا : تجد من وُلد وعاش في قصر جمع ضروبا من الفن والأناقة والجمال، هي نتاج مجهود رجال برعوا في فنونهم، وأبدعوا ما شاء لهم الإبداع.تجده لا يُقدِّر ما في مسكنه من آيات الدقة والجمال، حتى إذا جاءه من يلفت نظره إلى دقائق الصنع يفيق من غفلته فيستمتع بما هو بين يديه ولكنه غير منتبه إليه.وكذلك الأمر في بديع صنع الله في السماء والأرض. فهز التذكير بذلك التالي لقدرة الله وجمال صنعه، وكانت دليلا على الرسالة والبعث.

ومن بديع التنسيق القرآني، أنه بعد أن لفت الأنظار إلى السماء والأرض كل على حدة بما يقوم دليلا على البعث. لفت الأنظار إلى الارتباط بينهما وما يتولد عنه مما يقوم منه دليل على البعث أيضا.

نتابع عرض هذا الدليل الذي يلفت الأنظار إلى أن الله نزل بتقديره من السحب في السماء ماء، فيه الخير والبركة. فتداخل في التربة وتخلل أجزاءها، فأنبت به جنات. روى الأرض فنمت الأشجار واختزنت من الماء ومن عناصر التراب ما أورقت به وأزهرت وأثمرت متنوع الثمار. وسرت الرطوبة في الأرض فامتصت الزروع منها ما تكامل به نماؤها حتى أخرجت سنابلها مملوءة بالحب، ثم نضجت فتم حصادها.

وأنبت بذلك النّخل الممتدة عالية باسقات. وفي قرن النّخل الطويلة جذوعها بالزروع القريبة من سطح الأرض ما يبهر من قدرة الخلاق العليم المقدر لكل شيء قدره؛ أرض واحدة وماء واحد من السماء، ونبات سامق في السماء، وآخر قريب من سطحها. وتخصيص النّخل بالذكر لأنه أهم الأشجار عند المخاطبين الأولين بالنص. وذكرت الآيات بخاصية النّخل في إثماره كيف يظهر الطلع حاويا لما سيكون رطبا،

كما تحوي الأم في بطنها جنينها. ويكون ما يحويه منضدا مصففا بعضه فوق بعض.

كل تلكم النباتات والأشجار والتفاعلات التي تمت بعد نزول المطر من السماء، رتبناه ليكون منه قوت العباد وقوام حياتهم.

وبصفة عامة قدرنا أن الماء النازل من السماء تتشربه الأرض فتحيى به بعد أن كانت ميتة قاحلة لا حياة على ظهرها. بعد نزول الغيث تصبح مسارح للحيوانات تضطرب بالحياة في ذاتها، وبما يتحرك فوق أديمها.

على ذلك النحو من التقدير النافذ والمبني على الحكمة في إحياء الأرض بعد موتها، نخرج الناس من قبورهم ليحاسبوا ويتم جزاؤهم عما قدموا.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

بيان معاني الألفاظ :

حق : صدق وحلّ.

وعيد : الإنذار الذي أخبروا له

عيينا : عجزنا.

توسوس : ما يجري فيها من كلام خفي.

حبل الوريد : أحد العرقين اللذين يكتنفان العنق.

المتلقيان : الملكان اللذان أوكل الله لهما تسجيل كل ما يصدر عن المكلف من خير أو شر.

القعيد : قاعد ملازم.

عتيد : حاضر مهيأ.

بيان المعنى الاجمالي:

ثمانية أقوام سلط الله عليهم نقمته مع ما كانوا عليه من قوة وشدة، قوم نوح وأصحاب الرس،وثمود، وعاد، وقوم فرعون،وقوم لوط، وأصحاب الأيكة من قوم

شعيب، وقوم تبع. هذه الأقوام الثمانية كذبوا رسل الله فحل عليهم الوعيد الذي أوعدهم الله به.
وينكر المشركون البعث، فهل عجزنا عن خلق البشر من أول الأمر لما أنشأناهم على غير مثال ؟ لقد انغمسوا في الحيرة لما أنكروا الإعادة ولم يجدوا جوابا.
لقد خلقنا الإنسان ولم نهمله، فكل ما يجري في نفسه وما يتحدث به ضميره مكشوف عندنا. ونحن أقرب إليه من الشريان الذي بجانب العنق الذي يغذي الدماغ ليقوم بوظيفة الإدراك وليحكم في جميع القوى والأجهزة.
ثم صور القرآن النّظام الذي خلق الله عليه الإنسان، فبين أنه وكل به ملكين يتلقيان ما يصدر عنه من حسنات فيكتبها ملك اليمين، وما يصدر عنه من سيئات فيكتبها ملك الشمال.والملكان يرقبانه رقابة دقيقة،تهيأ لهذه الوظيفة، مؤتمنان عليها، فلا يضيع شيء مما صدر عنه.

بيان المعنى العام :

12 –14- كذبت قبلهم...فحق وعيد.

الآيات الثلاث جمعت ثمانية أقوام، فُصّلت بعض أخبارهم في مواطن من القرآن.
-1فقوم نوح : الذين أغرقوا جميعا بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة؛ 2- وأصحاب الرس الذين تقدم ذكرهم في سورة الفرقان، ولم يرد تفصيلا عنهم إلا ما ذكره المفسرون مما لا يطمأن إليه. وثمود 3- الذين أهلكهم الله لما قتلوا النّاقة وعتوا عن أمر ربهم وتحدوا رسولهم، فاستأصلهم الله بعذابه كما هو مفصل في عديد السور. 4- وعاد التي أهلكت بريح صرصر.5- وفرعون بالغرق في البحر.6- وقوم لوط رجموا من السماء وانقلبت الأرض عليهم. 7-وقوم شعيب أصحاب الأيكة أهلكوا بالصحية كصيحة ثمود.8- وقوم تبع وقد بسط القول عنهم في سورة الدخان.
ذكر القرآن قريشا بعاقبة هذه الأمم، وقصص هلاكهم مروية عندهم، ومشاهد آثار بعضها يمرون عليها في رحلاتهم إلى الشام وإلى اليمن. المذكورون الثمانية كذبوا رسلهم وتحدّوا الحقيقة التي عرضوها عليهم،رغم أنهم أنذروهم ما يترصدهم من عذاب. فصمموا على التكذيب فحل بهم ما أُنذروا به وصدق الله في وعيده.

15-أفعيينا بالخلق الأول....من خلق جديد.

يسألهم ليدفع إنكارهم للبعث، ويكشف عن قصر نظرهم. إنهم لا يستطيعون أن ينكروا أن الله هو الذي فطر السماوات والأرض وخلق البشر.يسألهم كيف يُقرُّون

بذلك وينفون قدرته على البعث.أعجزنا عن الخلق الأول، حتى نعجز عن الإعادة؟ ثم يضرب القرآن عن محاجتهم ويثبت أنهم غارقون في الحيرة، متعلقون بالشبه المنفية بالقياس الواضح: إن من قدر على الخلق الأول قادر على أن يخلق من جديد ما خلقه من قبل.

16—18-ولقد خلقنا الإنسان.رقيب عتيد.

بكل تأكيد خلقنا الإنسان، ولم نهمل رعايته، فنحن نعلم ما تتحدث به نفسه في سره، وما يجري في عقله من خير أو شر، وعزم على الطاعة أو على المعصية. وهذه القدرة العظيمة، والعلم الواسع الذي لا يفلت منه شيء، يقوي ما ذكر في الآية السابقة: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم. وفي إنباء البشر والمشركين بصفة خاصة بانكشاف كل أحوال الإنسان عند الله إنذار للمشركين، أن كل أعمالهم الظاهرة والخفية يعلمها الله ويجازي عليها. ثم جسم القرآن وضع البشر من الرقابة والعلم الإلهيين، بأن الله أقرب لكل فرد منهم من شرياني الدم اللذين يكتنفان رقبته. وحبل الوريد الذي ينقل الدم من القلب إلى مركز التحكم: الدماغ فيغذيه، والإنسان لا يشعر رغم قربه منه، والله أقرب للعبد من ذلك. وليس القرب مكانيا تعالى الله عن ذلك، ولكن المقصود بالقرب ما يترتب عليه من العلم العميق. وهذا التقريب بلغ من الدقة أعلى مقام. فمدد الشريان لو توقف توقفت حياة الانسان. والإنسان لا يحس ولا يشعر بالنظام الذي يرتبط بذلك الوريد. فكذلك لو توقف المدد الإلهي لتوقفت حياة الإنسان.

ويواصل القرآن موضحا كلمة "أقرب" في الوقت الذي يتلقى الملكان ما يصدر عن الإنسان لتسجيله. فصلت الآية أن كل مكلف يصحبه ملكان، أوكل الله إليهما تسجيل ما يصدر عنه. فكل لفظة ينطق بها، وكل عمل ينجزه بإرادته يُسجِّل تسجيلا يلقاه صاحبه يوم القيامة، وإن لم يذكر الفعل في الآية إلا أن العموم مفهوم من طريق الأولى،ذلك أن شأن الناس أن يستهينوا بالأقوال، ولما نصت الآية على تسجيل الأقوال، فتسجيل الأفعال من باب أولى. وقوله تعالى: (عن اليمين وعن الشمال قعيد): إن الله أوكل بالإنسان ملكين : ملكا قاعدا عن يمينه، ملازما له، لا يبرح مكانه،يسجل ما يصدر عنه من حسنات، وملكا قاعدا عن شماله أيضا، يسجل ما يصدر عنه من سيئات. وروي أن الحسنات تكتب فور صدورها، وأن السيئات يُستأنى بها رجاء أن يتوب ويستغفر.

رقيب عتيد . يرقبه لا يفلت من رقابته لا فعل ولا قول، عتيد مهيأ للتسجيل أمين على ذلك، غير مشغول عنه.

وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

جاءت : حصلت.

سكرة : ما يعتري الإنسان من شدة عند موته.

تحيد : تفر.

الغفلة : الذهول عما شأنه أن يعلم.

كشفنا عنك غطاءك : أزلنا ما كان يحجب عنك الحقيقة.

حديد : ثاقب نافذ.

سائق : يحثه من ورائه على السير.

قرينه : ملازمه.

الكفار : الشديد الكفر.

العنيد : القوي العناد.

المناع : كثير المنع.

معتد : ظالم.

المريب : المجتهد لبث الشكوك في النّاس.

الطغيان : تجاوز الحد في التعاظم.

بعيد : أمعن في الضلال.

بيان المعنى الإجمالي:

تذكير بمآل كل مشرك مما هو غافل عنه. حضرت سكرة الموت وما يصحب النّزع من شدة مذهلة. ذلك النّزع وهوله هو ما كنت تحاول أن يكون بعيدا عنك، فقد جاءك وليس لك عنه محيد.ويتبع الموت النّفخ في الصور للبعث وذلك اليوم يوم

تحقق الوعيد. لا تنفلت أي نفس من تلك المصير، تأتي ومعها ملكان أحدهما يسوقها إلى الموقف، والآخر يشهد عليها بما عملت. ويسمع صوتا مؤنبا، بكل تأكيد لقد كنت في حياتك مغرقا في غفلتك، لا تقيم لهذا اليوم حسابا. ذهبت غفلتك التي كانت تحجب عنك هذا اليوم، فأنت تبصرها وبصرك نافذ لا يغيب عنه شيء.

يقول الملك الموكل به وقد بلغ به المكان المحدد له، هذا الذي بين يدي هو مهيأ لينال جزاءه. يأذن الله للملكين بأن يلقياه في جهنم، مصيره مصير كل من كان كفره شديدا، قوي العناد متصلبا في كفره، شحيحا بالمال عن وجوه الخير، يصرف النّاس عن الإيمان،كثير الظلم والتعدي على النّاس يؤذي الرسول والمؤمنين، يبذل كل جهده في صرف النّاس من اليقين إلى الريب والشك. الذي بلغ من فساده أنه جعل مع الله شريكا، فاقذفا به في العذاب الشديد.

ثم حاول أن يلقي التبعة على من كان ملازما له وأغواه، وقال قرينه هذا ربنا ما أضللته، ولكنه كان شريرا تأصل فيه الضلال، ذاهبا في طريق الغواية إلى أبعد حد تبعا لشهواته وعناده. وانقلبت رابطة الحب التي كانت تجمعهما في الدنيا إلى عداء مستحكم، كل واحد منهما يريد أن يحمل الآخر المسؤولية. ويأتيهما الخطاب المذل: اسكتوا ولا تختصموا لدي، فإني أعلم حقيقتكم فحكمت عليكم بما أنتم أهل له. قدمت لكم وعيدي على الشرك والفساد على لسان رسلي.وما حكمت به عدل لا يبدل، وكل نوع من أنواع الظلم لعبيدي بعيد عني.

بيان المعنى العام :

19- وجاءت سكرة الموت...ما كنت منه تحيد.

استحضار للأوضاع الذي ينتقل فيها الإنسان حتى يبلغ منتهاها. ذكر فيما تقدم أن الإنسان مراقب رقابة حازمة، وتستمر هذه الرقابة إلى الوقت الذي تحصل فيه سكرة الموت ؛ الشدة التي تعتري الإنسان في آخر حياته فتختل مداركه، الوقت الذي تجيء هذه السكرة بالحق أي حقيقة واقعة، كما أنطق الله بها كتبه،وحذر منها رسله ليستعد الإنسان لهولها. ولا طمع في امتداد الحياة بعدها.

ذلك ما كنت منه تحيد. ذكر الإنسان بهذا الظرف الآتي لا محالة، إنك كنت تخشاه، وتتهرب. وكراهية الموت وحب الحياة أمر مفطور عليه الإنسان، والمشركون أشد كراهية للموت. قال تعالى: (ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة [1])
وأما المؤمنون فلما يرجونه من عفو الله ورحمته لا يجزعون منه عند النّزع.

[1] سورة البقرة اية 96

20- ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد.

النفخ في الصور هو مبدأ البعث، وتقدم في الآية 73 من سورة الأنعام ما يوضحه. ذلك النفخ هو يوم حلول الوعيد الذي أخبر به المرسلون. وحذروا أقوامهم من أهواله. واكتفي بذكر الوعيد لأن المساق هو في مخاطبة المشركين.ولذلك اكتفى به عن ذكر يوم الوعد بالنسبة للمؤمنين.

21←22-وجاءت كل نفس....شهيد.

تستجيب للنفخة جميع النفوس، فتأتي كل نفس يصحبها ملكان: ملك سائق من ورائها يزجرها كي لا تحيد عما يراد لها، وملك شاهد عليها، جامع ودقيق، بما قدمت. والتوصيف هو للمشركين. ويمكن أن تفهم الآية على أنه ملك واحد سائق وشهيد في نفس الوقت.

ينفذ إلى سمعه ومداركه خطاب تهكمي توبيخي حاصله : تذكر وضعك في الدنيا وأنت مشغول عن يوم البعث، منكر له ومستبعد،لا تدخله في حسابك. شأنك شأن الغافلين، فأنت ترى اليوم ببصرك السليم الذي لا يفلت من حدة إدراكه شيء يوم البعث حقيقة ماثلة.

23←26-وقال قرينه هذا ما لدي...في العذاب الشديد.

يقول الملك الموكل بسوقه: هذا المسوق الذي وكلت به حاضر مهيأ لينال جزاءه. على معنى أني أتممت ما كلفت به من إيصاله إلى حيث ينفذ فيه الحكم العادل في هذا اليوم. وسمي الملك قرينا باعتبار أنه كان ملازما له من وقت إحيائه وبعثه إلى المكان والزمان الذي سيعلن فيه عن جزائه.

-يخاطب الله الملكين السائق والشهيد، وقد قاما بمهمتهما، فأوصلا الموكلين به إلى مصيره، فيصدر الإذن: ألقيا في جهنم كل من كان كفره عميقا، قوي المكابرة والتصلب في الشرك، ممعنا في التمسك بضلاله، يقف سدا مانعا من التأثر بالإيمان، شحيح بالمال يمنعه عن مستحقيه،آلف الظلم والتعدي على المؤمنين بالإذاية والتكذيب، يجتهد في إدخال الشك في حقيقة الإسلام، مغالطا للناس قصد إضلالهم وإبعادهم عن الحق. ومن صحائفه ينبأ الملك الشاهد بمنزلة من كان يصحبه،فينفذ الأمر الذي لا مثنوية فيه.

- أعلنت الآية أصل الفساد الكبير الذي كان مستحوذا عليه، أنه جعل مع الله إلها آخر فسوى بين الله وبين الأصنام التي كان يعبدها ويتقرب إليها. والله لا يغفر أن

يشرك به. يلقى اليوم جزاءه بإنكاره التوحيد، فيؤمر الملكان أن يرميا به في أشد العذاب لما جمع من الشر.

28-29- قال قرينه ربنا...وما أنا بظلام للعبيد.

طوي الكلام طيا لكون المطوي كان كذبا لا حقيقة له. إنه حين يؤمر بإلقائه في العذاب الشديد يقدّم آخر محاولة منه للتخفيف عنه: إن ما كان عليه في حياته من الشرك وسيء الفعال، كان تحت تأثير الشيطان الملازم له. يعرض أن يتقاسم العذاب مع هذا المضل الذي أفسد عليه حياته وحرمه من الإيمان. فيتبرأ منه قرينه قائلا : إني لم أؤثر عليه بما يجعله طاغيا يرى نفسه أعظم من أن ينقاد للإيمان وللرسالة المحمدية. بل الحقيقة أنه كان منغمسا في الضلال يهوى الكفر ويسير في الفساد إلى أبعد مدى، تتحكم فيه شهواته، وأنانيته المفرطة. فهو يتحمل وحده مسؤولية شركه وفساده.

- قال الله رافعا للجاجهم : كفوا عن الخصام، ولا تختصموا لدي، بمعنى إني أعلم الحقيقة ولا يزيدني تدافعكم علما، وقد علمت سرائركم وما صنعتموه في حياتكم، وحكمت عليكم حكمي بناء على واقعكم،وقدمت إليكم وعيدي على الشرك في حياتكم فلم ترتدعوا. فإذ حكمت بإلقائكم في النار فإنه حكم عدل. وما يبدل حكمي لأنه العدل، والعدل واحد لأنه الحق والحق واحد لا يتعدد. وما أنا بظلام للعبيد. فكل نوع من أنواع الظلم ولو كان ضعيفا بعيد عني. ذلك أن الظلم نقص والله هو الكامل تعالى أن يلحقه نقص. وقرر نفي الظلم بوصفهم بالعبيد، فهو الذي خلقهم وأجرى عليهم أرزاقه، وأنعم عليهم بما أنعم، فلا يتصور مع ذلك أن يظلمهم.

يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿30﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿31﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿32﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿33﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿34﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿35﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿36﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿37﴾

بيان معاني الألفاظ :

مزيد : زيادة.

أزلفت : قربت.

أوّاب : كثير الرجوع إلى الله بالذكر والتوبة.
الحفيظ : الشديد المحافظة على الطاعات.
الخشية : الخوف.
البطش : التسلط بالقوة والقهر.
نقّبوا في البلاد: ساروا باحثين، وتصرفوا في الأرض لاستخراج خيراتها.
قلب : عقل يدرك.
إلقاء السمع : شدة الإصغاء.
شهيد : مشاهد.

بيان المعنى الاجمالي :

واذكر يوم يقول الله لجهنم : هل مازال فيك سعة أو امتلأت من المجرمين ؟فتجيب هل من مزيد ؟ هي مشوقة لالتهام أفواج آخرين من الكفرة. وفي المقابل أعدت الجنة للمتقين وقربها الله منهم. ويقال لهم تكريما: هذا ما كنتم توعدون، مما وعدنا به كل من يرجع إلى ربه دوما، خيط اتصاله بربه لا ينقطع، شديد الحفظ للوفاء بما أمره والتنزه عما نهاه عنه.هذا الأواب لربه لزمه الخوف من الله وهو بعيد عن الأنظار فيبتعد عن المعاصي وإن كان لا يرقبه أحد من البشر. وصحبته هذه الخشية إلى اليوم الذي فارق فيه الحياة وأقبل على ربه. يقال لهم تأنيسا لهم : ادخلوا الجنة يصحبكم السلام من كل مكروه، والملائكة يسلمون عليهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار [1]- ذلك اليوم الذي يحصل فيه جزاؤهم هو يوم الخلود الذي لا انقطاع له ولا موت بعده. ينالون كل ما تتعلق به رغباتهم من أنواع النّعيم، وفوق ذلك نعيمٌ لا يخطر لهم على بال، هو من نعيم الآخرة الذي خص الله به أصحاب الجنة.

وقد أهلك الله أمما كثيرة قبل قريش، كانوا أقوى منهم وأشد تعديا، فاعتزوا بقوتهم وظنوا أن قدراتهم التي مكنتهم من تعمير الأرض والتحكم فيها تنجيهم من الهلاك، ولكن ليس لهم مخلص مما قدر لهم من العذاب فتم استئصالهم.

إن فيما عرض من الآيات، ما يقوم ذكرى، ينتفع بها من كان له عقل واع يتدبر فيما عرض عليه بفكره، ويستنتج النّتائج من مقدماتها. أو من كان اعتماده على استيعابه لما أنزل على الرسول من القرآن ومن البيان، فحصر سمعه في التلقي بإمعان للوحي، شاهدا لمجالس الرسول واعيا للمنزل وما صحبه من بيان بالقول أو

---

[1] سورة الرعد آية 23

بالفعل والإشارة. ولكن الذين كفروا أعرضوا عن التدبر فيها، وعن الاستماع للوحي، فلم ينتفعوا وضلوا، وستكون عاقبتهم كعاقبة الذين سبقوهم من القرون الهالكة.

بيان المعنى العام :

30-يوم يقول لجهنم...هل من مزيد.

واذكر إذ يقترن بقوله : **وما أنا بظلام للعبيد**، قوله تعالى لجهنم : **هل امتلأت** ؟ ولما كان الغرض الأساس مما تقدم من الآيات التأثير في المشركين كي يقلعوا عن شركهم، ويؤمنوا بربهم وبرسوله؛ فإن ذكر هذا الخطاب لجهنم يزيد في تصوير ما يفزعهم من أهوال يوم القيامة. فلا تزال الجماعات الكثيرة تلقى في جهنم حتى يخيل لمن يدخلها أن جهنم قد امتلأت، فييأسوا عندما يحسون بخطاب الله لجهنم، وجوابها هل من مزيد، فهي تتطلب مزيدا من المشركين حطبها. فقد خلق الله فيها تغيظا على المغضوب عليهم.

31-35 : وأزلفت الجنة...ولدينا مزيد.

يجمع القرآن للتأثير الإصلاحي بين الترهيب والتبشير، فبعد أن أشبع الكلام على مآل المشركين، حول طريقة التأثير إلى ذكر ما يرغب في الإيمان والطاعة، فذكر اولا أن الله قرب الجنة من المتقين، فهي في مكان غير بعيد عنهم.وهل معنى ذلك أن الله يجعلها قريبة المسافة من مكان حشرهم، أو إن بلوغها بما ييسره الله لهم من وسائل بلوغها بيسر تبعا لما يمن به عليهم من الكرامة ؟ الكل محتمل وقريب.

-خطاب فيه إعلان بالتكريم والرضا من الله على المتقين الذين أعدت لهم الجنة، هذا المقام هو ما توعدون به يوم القيامة.أزلفت الجنة قريبا للمتقين لكل من كانت صلته بربه قوية يعود إليه بالعبادة والذكر، ويحافظ أتم المحافظة على الطاعات وعن اقتحام حدوده.

- ومواصلة للتنويه بالمتقين، نوه بكل أواب حفيظ الذي جمع لذلك، أنه يخاف ربه في الوضع الذي لا يطلع عليه بشر، في الوقت الذي يكون غائبا عن الأعين لا يتأثر بحمد الحامدين ولا بثناء المثنين، ولا يخاف عقوبة من أحد. هو الذي يكون حضور الله ورقابته في ضميره وعقله مؤثرا في سلوكه وأعماله-من خشي الرحمن بالغيب - وأنه صحب تلكم الرقابة إلى آخر لحظة من حياته فجاء ربه بقلب منيب راجع إليه لم تنقطع صلته به.

- يسمعون وهم يدخلون الجنة هذا القول المؤنس: ادخلوا الجنة يصحبكم السلام، والأمن والرضا، ويحتمل أنهم يسمعون الملائكة الموكلين بالجنة يسلمون عليهم.
ذلكم الذي جوزيتم به هو جزاء لا ينقطع، فكما كنتم تخشون ربكم بالغيب، فإن الجنة دار قراركم ينتفي فيها الخوف من انقطاع ثوابكم. ذلك يوم الخلود.
- تو ج ما وعده الله للمتقين، أن أمانيهم تنطلق راغبة في كل نوع مما يجري في أذهانهم من النّعيم والخيرات وتعجّل لهم رغباتهم، وفوق ذلك مزيد من الله، ويعني به والله أعلم مالا يخطر ببالهم. إذا رغباتهم تنطلق فيما تعودوا أن يتمنوا الحصول عليه في الدنيا. ولكن فوق ذلك صنوف من النّعيم غير متخيلة عندهم يكرمهم ربهم بها، ولدينا مزيد.

36-وكم أهلكنا...هل من محيص.

ينتقل القرآن من الترغيب إلى التهديد للمعاندين فيقول: إن أمما كثيرة أهلكناهم، مضوا في التاريخ قبلهم. كانوا أشد عنفا منهم، واعتزازا بقوتهم، نقبوا في البلاد، حمل على أن المراد منه،أنهم ساروا في الأرض معمرين لها بضروب الإعصار، حتى ظنوا أنهم تحكموا في خيرات الكون.وما أغنى عنهم ذلك فلم يجدوا مهربا من الموت ولا منجى من الإهلاك. وحمله في تاج العروس على أنهم ساروا في البلاد طلبا للمهرب فهل كان لهم محيص من الموت ج 4 ص298-ولا مهرب لهم ولا منجى من نفاذ الحكم الذي هو استئصالهم.

37- إن في ذلك لذكرى...وهو شهيد.

إن في ذلك الذي عرضه القرآن في الآيات ما يقوم منه ذكرى يتذكر بها من كان فيه استعداد، فيتفكر متدبرا في الأسباب التي قضت عليهم بالإهلاك. وهو الذي رزق قلبا واعيا فلا يغيب عن فطنته موجبات النّهاية التي انتهى إليه أمر الأمم المستأصلة، فعقله يحسن التأمل والاستنتاج. أو كان مقبلا على القرآن وما ينطق به الرسول في مجالسه، إقبالا شديدا كأنه ألقى حسه السمعي كله في ذلك، فلا يشغله أي شيء عن استيعابه. فهذا المستمع بعناية تامة وهو حاضر شاهد، يتأثر بالذكرى التي يبينها التنزيل والرسول. فهو شهيد مشاهد لكل ما يصدر عن الرسول من لفظ، وعمل وإشارة. فهو يتلقى أنوار النّبوة مباشرة فيمتلئ حسه وعقله بما يذكره فتنكشف عنه حجب الغفلة. ويفهم من الكلام أن الكافرين بإعراضهم وصرف عقولهم عن التدبر غاب عنهم الاستنتاج الذي يكشف لهم سوء مآلهم، وكذلك هم انصرفوا أيضا عن الاستماع للوحي فبعدوا عن الذكرى.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللغوب : الإعياء من العمل الشديد.

الإدبار : الانصراف.

المنادي :الملك المكلف بالنداء فتنبعث الأجساد حية عند ندائه.

يوم الخروج : يوم الحشر.

المصير : صائر إلى ما قدرناه له.

جبار : مكره.

بيان المعنى الإجمالي:

يؤكد الله أنه بحكمته قرر أن يتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، هي أيام عند الله، وليست قطعًا أيام الأسبوع. وأنه أتم خلقها على أكمل نظام دون أن يلحقه من ذلك تعب ولا إعياء. فقول اليهود إن الله استراح يوم السبت اليوم السابع من ابتداء الخلق غير صحيح. وسلّى رسوله وقوى من عزيمته في مقابل ما يشغب به المشركون، فأمره بالصبر وأن يستعين على ذلك بالصلاة الصلوات الخمس، والنوافل عقب الصلوات في الأوقات الصالحة لذلك. وصلاة الفجر والتهجد.

تهيأ لاستماع النّداء يوم ينادي المنادي بصوت يؤثر في كل إنسان عاش على وجه الأرض ثم مات، يسمع صوته كأنه رفعه بجانبه. هي صيحة يشعر كل مستمع لها أنها صيحة حق لا مرية فيها، ذلك هو يوم الخروج من القبور إلى المحشر.

إن الحياة والموت بيدنا، نحيي الإنسان ثم نميته، ثم نحييه، فيكون المصير إلينا لينال كل جزاءه العادل. وذلك أمر يسير علينا.

لا تبتئس مما يقولونه، ولا بما يروّجونه من أكاذيب، فكل قول منهم محفوظ لدينا، لا ينفلت شيء عن علمنا نحصيه عليهم ثم نعاقبهم. إنك لست بمجبر لهم على

اتباعك، إن عليك إلا البلاغ. وواصل التذكير بالقرآن للمؤمنين الذين يخافون وعيد ربهم ويرجون ثوابه. وتجد في هذه القلوب التي اهتدت رضا لك.

بيان المعنى العام:

38-ولقد خلقنا السماوات....وما مسنا من لغوب.

تكرر في القرآن إثبات هذه القضية التي تتضمن عبرًا كثيرة. منها أن الله لم يخلق السماوات والأرض دفعة واحدة. ولكن رتب خلقها في ستة أيام. وقد يدل ذلك على أن الله أودع فيها من القوانين المترابطة ما يعطي كل واحد منها ما يولد أمورا تؤثر بدورها في غيرها، حتى تم النّظام الذي قدره لمسيرة الكون.وهذا يعطي منهجا علميا في البحث. ومن ناحية أخرى فإنه ليس المراد بالأيام أيام الأسبوع. إذ أن هذا التقسيم إنما حدث بعد خلق السماوات والأرض لا قبل خلقها. فاختلاف النّاس في ضبط أول يوم بدأ الخلق، وآخر يوم، فروض لا معنى لها قبل انتهاء تكوين المجموعة الشمسية.

والمهم في الآية هو التنصيص على أن الله لما أحدث السماوات والأرض، وضبط نظامها وسيرها، وأجراها فعلا حسب علمه وحكمته، أتم ذلك دون أن يلحقه إعياء. وفي هذا رد على ما روجه اليهود من أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وأتمه يوم الجمعة واستراح يوم السبت من التعب. وتعالى الله أن يلحقه إعياء. لأن الإعياء نتيجة عناد الموضوع. وكل الكائنات تطيعه بطبيعة خلقها.

وإذا كان الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام من غير شيء سابق، فإن بعث البشر يوم القيامة، أشد إمكانا، وأقرب للتصور.

39—40-فاصبر على ما يقولون...وإدبار السجود.

قابل مشركو مكة الوحي الذي ينزله الله على رسوله بالتكذيب أولا، ثم بالسخرية والاستهزاء.ومكانة الرسول عند الله المكانة الرفيعة، فهو سبحانه يسليه، ويقويه على احتمال سفههم ليواصل الدعوة بثبات. فأمره بالصبر على ما يصدر من أقوالهم العابثة. ومما يقوي نفسه على الاحتمال ويزيد عزمه مضاء، الإقبال على ربه والتقرب إليه بالصلاة. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله: وسبح، وصل ومما يرجح ذلك إتباع "سبح " ب: "حمد ربك" والصلاة مفتتحة بسورة الحمد لله رب العالمين. وأرشد إلى أوقات الصلاة فقال: قبل طلوع الشمس: صلاة المغرب والعشاء وصلاة الصبح. وقبل الغروب: صلاة الظهر وصلاة العصر.

ومن الليل فسبحه...هي صلاة التهجد إن جرينا على أن المراد بسبح: الصلاة لتجري الآية على نسق واحد. وحمله بعضهم سبح على قول " سبحان الله "

وإدبار السجود. منصرف المسلم من الصلاة،عقب السجود وهي النوافل التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حكمها الندب، وبين أنها لا تقع بعد العصر. وخصصها بعضهم بصلاة ركعتين بعد الغروب، وآخرون بصلاة الفجر.

41-واستمع يوم ينادي....وإلينا المصير.

صيغة تثير اهتمام المخاطب ليصيخ سمعه للاستماع، والاستماع ليوم ينادي المنادي، على معنى استمع لنداء المنادي، لأن اليوم لا يسمع. وفي ذلك تهويل هذا اليوم، إذ صيحة المنادي من القوة بحيث تؤثر في كل إنسان عاش في الأرض ثم مات. وعبر عن انتشار الصيحة وبلوغها لكل مستمع بقول من مكان قريب. صوت المنادي ينطلق على مرتبة سواء بين كل المستمعين، فلا يكون قويا عند بعضهم وعند آخرين ضعيفا. وما ذكر من أنه من صخرة بيت المقدس لم يقم عليه دليل يقيني.

- يوم يسمعون الصحية التي يدرك كل سامع أنها صيحة حق، لا تلتبس على السامع ؛ ذلك اليوم،هو يوم الخروج من القبور إلى أرض المحشر.

- النتيجة الحتمية مما فصّل سابقا: إن الحياة والموت بيد الله وحده يتصرف فيهما إيجادا وتحولا، بقدرته وإرادته وحكمته. وكل شيء صائر إلى ما سبق له في القدر المحتوم. فمصير البشر إلى الله ليحاسبهم عما قدموا ويجزيهم بالعدل.

44- يوم تشقق الأرض عنهم...علينا يسير.

صورة تذكر بإحياء الأرض بعد نزول الغيث، فكما تشقق الأرض عن البذور الكامنة فيها، فكذلك تشقق فيخرج من أي ذرة من ذرات الإنسان إنسانا كاملا كما تبين لنا قريبا. فيخرجون مسرعين إلى الموقف الذي تبين لنا أن كل نفس معها سائق وشهيد. ويُعقّب المشهد بالتذكير بالقدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء. ذلك الإحياء ثم الخروج مسرعين إلى أرض المحشر، أمر يسير علينا لا يقتضي منا سوى الأمر في اللحظة التي قدرناها للبعث. فانتفى بذلك استبعاد المشركين إحياء الأموات.

45- نحن أعلم بما يقولون...من يخاف وعيد.

يسلي القرآن محمدا ﷺ، معرّضا بوعيد الكافرين المشاغبين بالباطل. يقول الله لنبيه: لا تحزن ! فإني مقيد عليهم كل إذاية يؤذونك بها، سأحاسبهم وأجزيهم. وقد بعثتك مبلغا لرسالتي ليؤمن من اختار اتباع الحق، ويستمر على كفره من اختار الإعراض عن هدايتك، وما أنت بمجبر ولا قاهر أحدا على اتباعك. أنزلت عليك كتابي لتذكر به الذين يخافون وعيدي، الذين آمنوا بك وصدقوك، وأيقنوا أن ناصيتهم بيد ربهم، فهم يخافون عذابه، ويرجون ثوابه، فذكرهم فإن تذكيرك لهم سيعمق إيمانهم، وتجد فيهم رضا لنفسك ونجاحا في مهمتك.

سورة الذّاريات

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير. باعتبار أن كلمة "الذاريات " لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة في هذه السورة. وعنونها البخاري بسورة "والذاريات" بحكاية مفتتحها. نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة. رتبتها حسب ترتيب المصحف الحادية والخمسون. وحسب ترتيب النّزول السادسة والستون. نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا (١) فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا (٢) فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا (٣) فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ (٦) وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ (٧) إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ (٨) يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ (٩) قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ (١١) يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ (١٣) ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ (١٤)

بيان معاني الألفاظ :

الوقر : الشيء الثقيل.

الحبك : من الحبك إجادة النّسج وإتقان الصنع.

قول مختلف : متناقض.

يؤفك : يصرف.

عنه : بسببه.

قتل : أهلك.

الخرص : الظن الذي لا سند له.

غمرة : يحيط بهم ما يذهلهم.

ساهون : غافلون.

أيان : متى يحل.

الفتن : التّحريق والتعذيب.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم الله بالرياح وقد أودع الله فيها ما تؤثر به، فهي تذرو الجزيئات المنبثة من الماء في الأجواء العليا ثم تحملها وهي مجمعة ثقيلة، فتجري الرياح بالسحب المملوءة بالماء إلى المواضع المقدر لها أن تنزل فيها بيسر، ثم توزع تلك الرياح السحب بين مواضع تنزل فيها مطرا، وتصرفها عن أخرى فيتوالى عليها الجدب. والمقسم عليه: إن الذي وعدناكم من البعث لصادق لا يُخلف. وإن الجزاء عن الأعمال لواقع قطعا.

ثم أقسم قسما ثانيا: بالسماء المحكم هندستها وبناؤها، وما قدر فيها من جمال. والمقسم عليه، إنكم أيها المشركون متناقضون فيما ترمون به القرآن ومحمدا. وبأقوالكم المتناقضة يُصرف عن الإيمان من صُرف عنه. فتفسدون أنفسكم وتفسدون أتباعكم. أسرع الله بإهلاك وتدمير هؤلاء الخراصين الذين تسرح خيالاتهم وأوهامهم فتصور لهم صورا من العقيدة خيالية وباطلة. أحاطت بهم خيالاتهم تلك، فأعرضوا عن الإيمان، فهم غافلون غفلة الساهي المنصرف عن إدراك ما حوله وما هو فيه.

من اتباعهم لخيالاتهم، أنهم يتهكمون بالمؤمنين، ويسألونهم : أخبرونا عن التاريخ الذي يحل فيه يوم الجزاء الذي تتوعدونا به.كان الجواب من عند الله قرآنا : يوم الجزاء هو اليوم الذي تُحرقون فيه بالنار التي تفوق شدة حرارتها ما تتصورون. ويُنكّل بكم فتسمعون: ذوقوا جزاء ما كنتم تفتنون به المؤمنين المستضعفين قاسية قلوبكم. وهذا اليوم هو اليوم الذي كنتم تطلبون أن يعجل لكم استبعادا لوقوعه.

بيان المعنى العام :

1 -6- والذاريات ذروا...وإن الدين لواقع.

افتتحت الآية بالقسم المركب، من صفات أربع. الذاريات -الحاملات - الجاريات- المقسمات- ولما كانت صفاتا فإن الموصوف يصح أن يقدر بكل ما يمكن أن ترتبط به الصفة.

الذاريات : تحتمل أن تكون صفة للرياح . وحمله اخرون أن تكون صفة للنساء يذرين الأولاد.

الحاملات وقرا: السحب محملة بالماء. الرياح تحمل ذرات الماء.

الجاريات: الرياح تجري بالسحاب وقد تجمعت أجزاؤه فأصبح ثقيلا. السفن تجري

المقسمات أمرا : الرياح التي تسوق السحب فتنزل منها الأمطار على مواضع مختلفة. الملائكة التي تقسم الأرزاق بين الخلائق تنفيذا لما أمرت به.

والمقسم عليه : إن الذي توعدونه لحق واقع قطعا. فالبعث حق صادق، والجزاء عن أفعالكم من الكفر والشرك والتكذيب والإذاية واقع عليكم لا تجدون منه مخلصا.
والذي ترجح عندي؛ أن الله أقسم بالرياح في مختلف تأثيراتها،مراعي المقسم عليه أقسم الله بالرياح وهي تثير الجزيئات الأولى التي يتكون منها السحاب "والذاريات ذروا" كما تتجمع ذرات الإنسان إثر النفخ استعدادا للبعث.ثم بالرياح وهي تجمع تلك الذرات فتتكون منها السحب، كوضع البشر بعد نفخ الروح فيهم للبعث، وكل يحمل ثقل ما قدم.ثم تُجري الرياح السحب بيسر إلى المواقع المقدر لها أن تبلغها. ويقابله من مراحل المقسم عليه سوق الملائكة المبعوثين إلى الموقف يوم الحشر. ثم إن الرياح تؤثر في السحب فتنزل منها الماء المسعد لأصحاب الأرض بالخير والبركات،و تبعد السحب عن مواقع أخرى فيستمر فيها الجدب. وكذلك في المقسم عليه فإن النّاس ينقسمون إلى سعيد وشقي. وقد بسطت هذا بأوفى في كتابي القسم في اللغة وفي القرآن ص118/115-

7←9-والسماء ذات الحبك...يؤفك عنه من أفك.

بعد أن استوفى القسم الأول ما ورد له من إثبات البعث والجزاء. أعقبه بقسم آخر. فأقسم الله بالسماء. والقسم بالسماء تكرر في القرآن مقترنا كل مرة بوصف يهدي التالي إلى موضع الاعتبار. ووصف في هذه الآية ب " الحبك " ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا مرة واحدة في هذه السورة. والحبك مشتق من الحبك، الذي هو إتقان الصنع، وفي النّسج إجادته بقوة التحام خيوطه. والسماء محكمة البناء كل كوكب يجري في مساره، ويجذب إليه وينجذب لغيره بمقدار انتفى معه اختلال أوضاع النجوم والكواكب والمجرات.وهي تسير في طرائق محددة ومضبوطة ومحكمة، ولذلك فُسّر الحبك بالطرائق.وبما أن الثوب المحكم النّسج يُوشّى بما يزيده جمالا، فسر الحبك أيضا بالزينة التي تبدو في قبة السماء من النّجوم والقمر في الليل ، والشمس في النّهار على ما في مختلف أوضاعها من الشروق إلى الغروب من صور بالغة قدرا كبيرا من التناسق والجمال.
ولما كانت الكواكب وهي تسير لا يتسبب عن اختلاف مساراتها اضطراب في الكون ولا اختلال. كان هذا القسم موحيا باضطراب أقوال الكفرة، واختلافهم ليس له أي تأثير على الحقيقة. لقد اضطربت أقوالهم، فقالوا في الرسول ﷺ ما هو رشح عنادهم وبغضهم. ووصفوا القرآن بصفات تقطعه من مصدره رب العالمين وتنفي أن يكون وحيا. فأدى اضطراب أقوالهم إلى هدمها جميعا باعتبار أن التناقض لا يؤلف منهجا.إنهم منغمسون في قول متناقض.فمثلا معنى قولهم إنه شاعر، أي إن

كلامه صادق وهو من نوع الشعر، وقولهم مفتر معناه أنه غير صادق، ورميه صلى الله عليه وسلم مرة بأنه صادق، ومرة أنه كاذب يهدم أقوالهم بعضها بعضا. وهو معنى قوله تعالى: إنكم لفي قول مختلف.

يؤفك عنه...عن هنا بمعنى بسبب. أي يصرف بسبب قولهم المتناقض من هو مؤهل لأن يصرف، يعني إن المشركين يصرف بعضهم بعضا عن الهدى إلى الضلال.

10--11-قتل الخراصون...في غمرة ساهون.

دعاء بالهلاك على الذين يتبعون ظنونهم غير المستندة إلى دليل ولا حجة. ولكن يتبعون الفروض النّاشئة عن الأوهام وعن الشهوات، وهو ما أشير إليه في الآية السابقة من القول المتناقض الصارف للآخرين عن الهدى. فتقودهم إلى التمسك بالباطل والزيف. فهم بسبب إغراقهم في تلك الفروض واتباعهم لما نسجته في عقولهم معرضون إعراض الغافلين.

12--14-يسألون أيان...كنتم به تستعجلون.

تسجيل لما كانوا يتهكمون به استبعادا ليوم البعث والجزاء. فكانوا يقولون متى يقع يوم الجزاء هذا الذي تخوفوننا به. وهو متضمن إنكارهم له.

- تصرح الآية بجوابهم عن سؤالهم وتهكمهم، لا بتعيين يوم حصوله، ولكن بالتأكيد على ما يلقونه في هذا اليوم، وما أعده الله لهم. يوم الجزاء هو اليوم الذي يسلط عليهم العذاب بالتحريق في نار جهنم. وفي كلمة يفتنون إشارة للنار التي بها يتم تخليص الذهب مما خالطه، بتسليط نار عليه حرها شديد.

- يصحب عذابهم بالنار المستعرة، خطابهم خطابا يدل على التنكيل بهم، إذ يسمعون صوتا حاصله : (1) ذوقوا فتنتكم. ليكن إحساسكم بالإحراق إحساسا بليغا كأشد ما يكون، ذلك أن حاسة اللسان هي أشد الحواس تأثرا بما يلاقيها. فذوقوا جزاء الفتنة التي كنتم تفتنون بها ضعفاء المؤمنين، وقلوبكم قاسية خالية من الرحمة.(2) هذا العذاب الذي تذوقونه، هو العذاب الذي كنتم تطلبون تعجيله في الدنيا استبعادا له. وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب. [1]

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ

---

[1] سورة ص آية 16

أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

آخذين : راضين به.

الهجوع : النوم الخفيف.

الأسحار : جمع سحر، السدس الأخير من الليل.

السائل : الفقير المظهر خصاصته، ويسأل النّاس.

المحروم : الفقير الذي لا يسأل النّاس.

بيان المعنى الإجمالي :

بشر الله المتقين بأن الله أعد لهم يوم القيامة في دار الجزاء جنات صفة الخصب وسلامتها من الآفات بينة. هم راضون عما أنالهم الله من فضله. كرمهم الله لأنهم كانوا يسهرون الليالي في عبادة ربهم، ولا ينامون إلا قليلا، ونومهم نوم المتعلق بالعبادة نوم خفيف قليل. وفي السدس الأخير من الليل يستغفرون ربهم راجين أن يمحو ذنوبهم، ويتجاوز عن تقصيرهم وقصورهم. وخصصوا جانبا من أموالهم يسعفون به الفقير السائل، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل. ويعتبرون أن ما يقدمونه للمحاويج حق لهم،فلا يمنون عليهم.

ليكن في التحولات التي تبدو على سطح الأرض، وما يكمن في باطنها، وما في كل ناحية من تلكم النّواحي، ما يثير فكركم لتتبينوا، أنها أدلة على حكمة الصانع العظيم وقدرته وإرادته،الذي أوجدها على تلكم القوانين.

وكذلك في أنفسكم، ينكشف لكم بالتأمل فيها أدلة على العلم والتقدير الحكيم. ما لكم لا تبصرون بصرا لا تحجبه الرتابة عن النّفاذ إلى قوانين الخلق.

واعلموا أن الله جعل رزقكم يأتيكم أولا وبالذات من السماء في الأمطار النّازلة منها وفي الشمس ودورها في النّماء والإصلاح للجو عامة. وفي السماء ما وعد الله به الصالحين، وما أوعد به الكافرين والعصاة.

ثم أقسم تعالى بذاته العلية وهو رب السماوات والأرض، أن ما جاءكم من الوحي هو الصدق الكامل الذي لا يقبل الشك، كما لا يقبل أحدكم الشك في أن ما ينطق به هو حق.

بيان المعنى العام :

15-19: إن المتقين في جنات...حق للسائل والمحروم.

بعد أن كشف القرآن عما يلقاه المشركون المكذبون،إنذارا لهم من التمادي على الكفر، ثنى بتبشير المتقين بما أعد لهم من نعيم، ليكون ذلك حافزا لهم على مواصلة ماهم عليه من ربط قلوبهم ورغباتهم بما يرضي الله، مستحضرين دوما أنهم على صلة به، فهؤلاء المتقون أعد الله لهم جنات كثيرة، فيها نضارة الخصب. وجرى هذا المقطع على الطريقة القرآنية التي تجمع بين الترهيب والتبشير.

-**آخذين ما آتاهم ربهم...** تعبير لطيف عن رضاهم بما أعطاهم من فضل. وهو أكمل ما يتم به التكريم، أن يكون المعطى لا يتصور وضعا أفضل من الوضع الذي هو فيه، ولا جزاء أحسن مما أوتيه.وفي التعبير بربهم، ما يشير إلى نوعية الصلة الرابطة بينهم وبينه، هي صلة الربوبية والعناية المتواصلة، هو ربهم في الدنيا بهدايتهم، وتحصينهم من الكفر والعصيان، وربهم في الآخرة بما مكنهم منه في جنات النعيم.

إنهم كانوا قبل ذلك محسنين- تعليل لما نالوه من تكريم، هو جزاء إحسانهم في الدنيا بفعل الطاعات، والامتثال لما جاءهم من ربهم.وأكدت الآية الارتباط بقوله : إنهم كانوا قبل ذلك مما آتاهم فأرضاهم به في الجنة،كانوا قبل ذلك محسنين . هذه هي الصفة الأولى من الصفات الأربع التي نوه الله بها وقدرها لتكون سببا للجزاء.

-الصفة الثانية: **كانوا قليلا....** من صفاتهم اللازمة أنهم كانوا ينامون نوما قليلا في الليل. وهذا التركيب يحتمل أن يفهم على أن قيامهم للصلاة والذكر هو الغالب عليهم في الليل فزمن نومهم قليل. كما يحتمل أن يفهم على أنهم لا يستغرقون في النوم بل إن نومهم يكون نوم المتعلق بالعبادة. وقيام الليل مع الرغبة فيه،وإيثاره على الراحة في الوقت الذي يكون لذيذا محبوبا ينبئ عن تأصل حب العبادة والتقرب إلى ربهم في نفوسهم. ألم يقل الله لرسوله : يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا. فكان لهم في رسول الله أسوة حسنة.

ذكر ابن عطية أنه قيل لبعض التابعين: مدح الله قوما كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، ونحن قليل من الليل ما نقوم، فقال رحم الله تعالى امرأ رقد إذا نعس، وأطاع ربه إذا استيقظ. يؤيده أنه إذا غلبه النعاس داعي الطبيعة الخلقية، فالنوم خير من قسر نفسه على العبادة و هو لا يتحكم تحكما كاملا في منطقه، فلعله كما قيل يحرف في قراءته أو في دعائه.

-الصفة الثالثة انهم يستغفرون في السدس الأخير من الليل، أي إنهم بعد طول تهجدهم لا يرون أنفسهم قد عبدوا الله حق عبادته، فتنطلق ألسنتهم بطلب المغفرة التي لا ينالها مغضوب عنه. وحمل الاستغفار بعضهم على الصلاة.

-الصفة الرابعة: أنهم يجعلون للمحاويج حقا في أموالهم، يسعفونهم ولا يرون في عونهم تفضلا عليهم، بل يعتبرونه حقا، باعتبار أن الأخوة توجب في نظرهم أن لا يستأثروا بكل ما رزقهم الله، ولذا لا يخالط إعانتهم الشعورُ بالتفضل، إذ ما نال المحتاج إلا حقه. والسائل هو الذي يُعرِّف بحاجته، ويسأل العون من ذوي اليسار. وأما المحروم فكما يدل عليه اشتقاق الكلمة يشمل كل من حرم من الرزق أصلا أو أصابه ما ذهب برزقه، وهو مع ذلك عزيز النفس لا يعرف باحتياجه، ولا يسأل النّاس أن يعينوه فهو محروم من سعة الرزق، ومحروم من نول فضل الأغنياء، لتعففه عن المسألة فهم لا يعرفونه.

20- وفي الأرض آيات للموقنين.

إن ما يساعد النّاس على بلوغ التقوى ونيل حسن الجزاء، ما بثه الله في الأرض من الأدلة الدالة على الصانع الحكيم، فسواء أنظرت إلى ما يعمر به ظهرها من مختلف الأقوات، وما روعي في الزروع والأشجار وضروب النّبات من نفع وجمال، وما أجرى فيها من أنهار، وشلالات نزهة للأنظار، وما أرسى فيها من جبال، وما بسط فيها من سهول، والبحار التي تمد الأرض اليابسة بالسحب وما خلق فيها من حيوانات، ومخلوقات عجيبة، وتيسيرها للتواصل بالسفن. وما في باطن الأرض من معادن تمكن بها الإنسان من تسخيرها إلى ما ينفعه حتى استخرج غازها ونفطها، واستمد منهما قوة وسعت عليه الحياة وكانت أساس القوة الصناعية والفنية،وتولد منهما الطاقة التي دخلت في كل مرفق من مرافق الحياة حتى في البطارية المنظمة لدقات القلب. هي دلائل ينتفع بها في عقيدته الموقنون بالمبدع الأحد، فيزداد إيمانهم، ويستحثهم التأمل فيها إلى كشوف لا تحد. فإن الذي ما يزال مجهولا من هذه الأيات هو أكثر مما اكتشف لحد الآن. وحقيق بالمؤمنين أن يكونوا في مقدمة المجموعة البشرية التي تنظر في ملكوت الله، وتتعمق في تلكم الذخائر المبثة في كل وحدة.الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن بتأمله في الأرض يكتشف القوانين التي بنى الله عليها الخلق، فيزداد إيمانا بحكمة الصانع الواحد، ويدفعه إيمانه إلى مواصلة النّظر ومتابعة تسلسل الارتباط الذي بني عليه الكون. وغير المؤمن يقف عند حدود النّفع الموضوعي.

21- وفي أنفسكم أفلا تبصرون.

معطوف على قوله وفي الأرض آيات، أي وفي أنفسكم أيضا آيات.وبهذا تم الكلام.وفي ذلك انتقال من النظر في الأرض إلى نظر الإنسان في ذاته.وإنه لعالم كبير، يقوم كل وحدة من وحدات موضوع النظر على قوانين ونظام عجيب جدا، فسواء نظرت إلى الجانب النفسي من الإنسان أو الجانب المادي، أو الجانب الروحي، فإنك تجد كل جانب مركبا من وحدات، وكل وحدة تستغرق عمر الإنسان دون أن يصل إلى غاية أبعادها أو يطمئن إلى أنه اكتشف كل ما يتعلق بها. فالعين مثلا وأجهزتها، وما يعرض له كل جانب من استقامة أو اختلال، وطرق علاج الاختلالات، مما تفرع إلى اختصاصات عديدة، ويقر كل عالم مختص أنه يجهل الكثير، وكلما فتح العلماء بابا جديدا نفذوا به إلى مجهول فتح لهم نجاحهم أبوابا أخرى، وكلها سائرة على قوانين مضبوطة راعاها الخلاق العظيم.ومثل ذلك في الجلد أو في القلب أو في الرئتين، أو في العظام، وفي كل جزء من أجزاء التركيب المادي.هي آيات وأدلة تمكن الإنسان من العروج في اليقين. وإذا كان العلم حقق نجاحات في الجوانب المادية، فإن الجانب النفسي يبدو أشد تعقيدا، وأكثر غموضا، وما يزال الغموض يكتنف معظم قوانينه. والجانب الروحي أبعد من الجانب النفسي. وكلها تنادي بأنها محكمة الخلق، لاحظ للمصادفة فيها.

أفلا تبصرون. أنكر القرآن على البشر عدم رؤيتهم للآيات الموجودة في أنفسهم. كيف لا تستوقف الإنسان كل ظاهرة ووحدة، ليتعمق فيها فتجلى له أن ما روعي في خلقه من نظام بديع، ومن قوانين تقتضي من الفكر الإنساني مواصلة الجهود الفردية والجماعية لاكتشافها مما يقوم شاهدا على أن خالقها هو المبدع الحكيم، هو الذي لم يخلقها كما اتفق، ولكن في كل دقيقة وصغيرة وكبيرة نظام وحكمة.

22-وفي السماء رزقكم وما توعدون.

دعوات متواصلة ليخرق الفكر الإنساني حجاب الرتابة وتوالي الظاهرة، لينفذ إلى ما وراءها، فيكتشف نظامها وقوانينها، وما تدل عليه من قدرة وإرادة وحكمة.
يكاد المفسرون يجمعون على أن المراد بالرزق هو السحب التي تسقي الأرض فتخرج الأقوات والمراعي. وأرى أن الأرزاق تشمل الشمس التي ما كان للنبات أن ينبت ويتطور ويخضر لولا أشعتها، و الشمس تمثل عنصرا أساسيا في حياة الإنسان، وتعطي الطاقة النظيفة غير الملوثة. وإن كانت الأبحاث ما تزال في بواكير كشوفها فإن المؤمل أن يجد فيها الإنسان رزقه حتى في تحلية مياه البحار. وغيرها من الكواكب التي تؤثر في الأرض تأثيرا إيجابيا قد يستطيع العلم أن يعرف بها في يوم من الأيام، فسبحان الله أحسن الخالقين.

وفي السماء من الغيب يتحقق ما توعدون من الثواب أو العقاب.إذا فسرنا ما توعدون بأنه الجنة أو النار.وتوعدون صالح أن يكون مضارعا لوعد وأوعد. وحمله بعضهم على معنى أن علم ما توعدون عند أهل السماء الملائكة، الذين وكلوا بتحقيق ما وُعِدوا وأُوعدوا.

23- فورب السماء...مثل ما أنكم تنطقون.

هذا هو القسم الثالث في السورة.أقسمَ أولا بالرياح التي تثير السحب بين السماء والأرض، ثم أقسم بالسماء المتقنة الصنع، وهذا هو القسم الثالث؛ جمع فيه بين السماء والأرض باسميهما بعد أن لفت النظر إلى الترابط بينهما في الرزق الموهوب منه إلى الخلق(وفي السماء رزقكم و ما توعدون) مع إضافتهما إضافة لطيفة إلى اسم الرب لتلقي تلك الإضافة بظلالها مثيرة للعناية الموصولة من رب العزة بهما.وشأن القسم أن يثير الانتباه، ويحرك العقل للتأمل في المقسم به والمقسم عليه.ففي المقسم به استحضار للكون كله، والمقسم عليه أن ما عرضه القرآن من عقيدة وتشريع وأدب وإرشاد حق لا باطل فيه. ثم أكد صدقه بتشبيهه بإحساسنا بأنفسنا عندما ننطق. فالإنسان يمكنه أن يشك في كل شيء إلا في نفسه وهو يفكر ويقدر على التعبير عما يجري فيها فيتحول التفكير الباطن إلى أصوات وحروف في الخارج يحس بكامل مطابقتها لما هو يجري فيه. وهذا المستوى من الإدراك لا يقبل الشك بحال.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

منكرون : غير معروفين.

راغ : مال.

أوجس : أحس في نفسه ولم يظهر.

صرة : صيحة.

صكت : ضربت.

بيان المعنى الإجمالي :

يسلي القرآن النبي ﷺ، وقد ألح عليه قومه بالتكذيب والإذاية فيقول له: هل سمعت بحديث ضيوف إبراهيم عليه السلام. هي حادثة عجيبة، وشأن القصص العجيب أنه يسلي النفس.

دخل على إبراهيم ضيوف وسلموا عليه، ورد عليهم السلام، وفي باطنه سؤال محير، هو لا يعرفهم وهيئتهم وصورتهم لا تدل على أنهم من أهل ذلك المكان. وإبراهيم كريم ورث عنه ذريته العرب صفة الكرم. فتحول سريعا إلى أهله يطلب منهم إكرام ضيوفه، فأعدوا له عن عجل عجلا سمينا مشويا. قرب العجل لضيوفه مبالغة في تكريمهم وعرض عليهم أن يأكلوا منه. ولكنهم أمسكوا أيديهم عن تناول شيء منه. حدثته نفسه بمتنوع الاحتمالات, بدا على وجهه أمارات الخوف. طمأنوه قائلين: لا تخف وسارعوا بتبشيره أنه سيولد له من زوجه سارة غلام يبلغ من العلم درجة كبيرة. سمعت زوجه فأطلقتها صيحة تعجب وضربت خديها قائلة: إني عجوز جاوزت الأمد الذي في مثله تحمل النّساء، ومع هذا فإني عقيم. قالت الملائكة: كمثل القول الذي بلغناك قال ربك، وحملنا بإيصاله إليك. إن الله هو الحكيم الذي يجري الأمور في الوقت الذي يريد لحكمة يعلمها، وقد تخفى علينا، وهو العليم فلا يخفى عليه سنك ولا كونك عقيما.

بيان المعنى العام :

24←27: هل أتاك حديث...فقال ألا تأكلون.

افتتحت الآية بقوله تعالى: وهل أتاك. يقول ابن عطية تقرير لتجميع نفس المخاطب. يعني أن السؤال بهل. فيه إثارة لانتباه المخاطب فتستعد النفس لتلقي ما تخاطب به.وهو تأنيس لرسول الله ﷺ بعرض قصة إبراهيم عليه السلام. وقد شق عليه عناد قومه، وإذايتهم له ولأصحابه ؛ فتأتي القصة من رب العالمين لتنفس عليه بعض ما وجد وتسليه بما سيرد في أثناء القصة من رحمة الله برسله ونقمته بأعدائهم. ولذا كان من أغراض تكرار القصة في القرآن هذا الملحظ. هل أتاك يا محمد قصة ضيف إبراهيم؟ والضيف اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد. وكانوا مكرمين من ناحيتين، ما سيرد في القصة من إكرام إبراهيم لهم وعنايته مع زوجه بهم، ولأنهم ملائكة، وهم عباد مكرمون عند الله.

- حديثهم في الوقت الذي دخلوا عليه: وافتتحوا خطابهم بالسلام، ورد عليهم إبراهيم بما هو أحسن. وهذا من كمال أدبه عليه السلام، مع أنه كان يتساءل في نفسه من

عساهم يكونون هؤلاء القادمين. هو لا يذكر أنه رآهم من قبل. (قوم منكرون) غير معروفين) والأقرب أنه لم ينطق بهذا السؤال.

-فمال إلى أهله ليُعدّوا لهم القرى، وصور القرآن أنه لقوة أدبه، أتم مهمة التكليف بإعداد ما يقدم لهم من الطعام تكريما، كان في لفتة سريعة دون أن يشعروا بما يكلف نفسه. فقدم إليهم عجلا سمينا مشويا، كما جاء في سورة هود آية 69 فجاء بعجل حنيذ. واللحم المشوي يتم إعداده بسرعة.

- من كمال أدبه، أنه أخذ العجل فقربه إليهم، ولم يكلفهم الانتقال من مجلسهم. ثم عرض عليهم أن يتناولوا منه ما يشاء ضيوفه ،هي طريقة أخرى تدل على حسن تكريمه لضيوفه، بدعوتهم إلى الأكل زيادة على تقديمه، كما يقول أحدنا لضيوفه وهم على المائدة تفضلوا! ويمكن أن تفهم الآية على أن إبراهيم استغرب عدم تناولهم لطعامه فسألهم عن سبب إمساك أيديهم عنه، لما ذا لا تأكلون ؟

28- فأوجس منهم خيفة...بغلام عليم.

المشهد :الطعام حاضر ،عجل سمين مشوي، يقطر إدامه، وصاحب البيت مسرور بضيوفه، ظهر منه الحرص على إكرامهم، ومع هذا لم يمدوا أيديهم ولا تحركت شهية الأكل فيهم. إنه موقف يبعث على الريبة، من يكون هؤلاء الضيوف غير المعروفين الذين امتنعوا من الأكل. وجرى في نفس إبراهيم عديد الاحتمالات. فبعد سروره بهم وهو الذي كان الكرم له طبعا، انقلب خائفا منهم مستعدا لما يمكن أن يفاجأ به. وأدرك الضيوف ما أنبأت به قسمات وجهه من الخوف، فبادروه بقولهم: لا تخف، كن مطمئنا، وعرفوه بأنهم ملائكة الله، وأنهم جاءوا ليبشروه أنه سيولد له من زوجه غلام ذكر مفتوح عليه بقوة العلم.

29- فأقبلت امرأته...عجوز عقيم.

لم تكن زوجه بعيدة عنهم، فبمجرد ما طرق سمعها أنها ستحمل ولدا، أقبلت عليهم ترفع صوتها بالعجب، وما يزال من عادة كثير من النساء أنهن إذا سمعن ما يثير العجب والاستبعاد، ضربن بأيديهن على خدودهن. وواصلت : إني عجوز بلغت سن اليأس،ولم ألد في زمن شبابي ومقتبل عمري فأنا عقيم، فكيف أحمل مع عقمي وتقدم سني إلى المشيب.

ويرفع الملائكة استبعادها، ويؤكدون أن ما أخبروا به ليس كلاما قابلا للتأويل، بل هو الحقيقة التي ستكشفها الأيام.ثم خاطبوها مباشرة فقالوا : إن الأمر سيتحقق كما أخبرناك، إنه قول ربنا كلفنا بتبليغه.إن ربنا حكيم يصنع ما يشاء في الوقت الذي

يشاء، وما يصدر عنه هو الحكمة، وهو العليم الذي لا يخفى عنه شيء فهو العالم بكونك عجوزا عقيما. فاسعدي بالبشرى، وترقبي تحققها. فتحققها غير بعيد.

• قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخطب : الحدث العظيم

لنرسل عليهم : لنرميهم.

المسومة : تحمل علامات.

عند ربك: بخلقه وتكوينه.

المسرفون :المفْرِطون في العصيان.

بيان المعنى الإجمالي :

تبين لإبراهيم على ما يعلمه من سنة الله في إرسال الملائكة أنهم لا يرسلون إلا لأمر عظيم. فسألهم عن المهمة العظيمة التي كلفوا بها. فأجابوه قائلين : إنا ارسلنا إلى قوم وحد بينهم الإجرام. أرسلنا لنمطرهم بحجارة من طين، بلغ من القساوة واليبس حدا كبيرا. وقد ميزه خالقه بعلامات من ربك لتمزق المسرفين في اقتراف المعاصي والمنكرات. وتم تنفيذ ما أمروا به بعد أن نجى الله من كان في القرية من المؤمنين فأخرجهم منها قبل نزول العذاب. وما كان يوجد فيها إلا بيت واحد هو بيت لوط، بيت اجتمع أهله، إلا امرأة لوط،على تطبيق شرع الله. فاستحقوا النّجاة، لجمعهم بين صلاح العقيدة وصلاح العمل.

دمرنا القرية بمن فيها، وتركناها آية تدل على ما يحل بالعصاة المجرمين، ليخشى الذين يخافون العذاب الأليم من مصير مثل مصيرهم.

بيان المعنى العام :

31- قال فما خطبكم...للمسرفين.

تبين من جوابهم أنهم ملائكة الله أرسلهم لأمر مهم، لإنجاز أمر عظيم.لأن مجرد البشارة بغلام عليم لا يتم حسب سننه سبحانه بإرسال جمع من الملائكة، فسألهم عن المهمة التي قدموا من أجلها،وأفصح عن فهمه بدعائهم :أيها المرسلون.

- كشفوا له عن المهمة فقالوا : إن الله أرسلنا إلى قوم تأصل فيهم الإجرام، حتى أصبح لفظ " المجرمين هو المعرف لهم. وتمالؤوا على الفساد وفعل المنكرات فهم قوم على طريقة واحدة يجمعهم الفساد والمنكر.

-مهمتنا أن نقذفهم من فوقهم بحجارة من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر وصلب حتى تحجر؛ لتمطرهم السماء بإرسال منها، وكانت تحمل علامات تميزها، فهي وإن كانت من طين مطبوخ، إلا أنها مختلفة عما هو معروف،مما يشير إلى أن العذاب بها هو عذاب استئصال لا يبقي من المسلط عليهم أحدا. طبعها الله بتلك العلامات لتصيب المسرفين الذين تجاوزوا الحدود في العصيان وفعل المنكر.

35←37-فأخرجنا من كان...يخافون العذاب الأليم.

ومن سكان القرية من كان ثابت الإيمان، منكرا على قومه فسادهم. أنقذهم الله من العذاب، ويسر لهم أسباب الخروج سالمين قبل استئصال المجرمين الفسقة. وذلك بفضل إيمانهم. وفي ذلك إشارة إلى أن سنة الله أنه ينجي المؤمنين وأن مآل المشركين الفاسقين الاستئصال، وفي ذلك إنذار للمعاندين من المكيين بأنهم لا يفلتون من العذاب.

- فكان جملة المؤمنين لا يتجاوزون أسرة واحدة أسرة لوط ﷺ إلا امرأته. فكانوا مسلمين منقادين للأحكام الإلهية وللتشريع الذي جاء به لوط.

والإيمان عبارة عن الاعتقاد الجازم المصدق لأركان العقيدة. والإسلام عبارة عن الانقياد لما يأمر به الدين. ولا يفوز برضا الله إلا من جمع بينهما. فكان بيت لوط البيت الوحيد الذي جمع أعضاؤه بين الإيمان والإسلام. وهذه سنة الله أنه لا يضيع عباده الذين أخلصوا عقيدتهم لله، وطبقوا شرعه في حياتهم.

- ثم إن الله استأصلهم ومحاهم من الوجود، وترك آثارهم تدل عليهم لتكون عبرة للذين يخافون عذاب الله الشديد الإيلام.فإنهم لما استؤصلوا قاسوا من الحجارة التي أمطرتهم عذابا تألموا منه أشد ما يكون الألم.

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ

يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

تولى : أعرض

ركنه : ما يتقوى به من الجند والسلطان.

نبذناهم : طرحناهم.

مليم : مستحق للوم.

الريح العقيم : الريح التي لا خير فيها.

الرميم : العظم البالي.

العتو : الكبر.

بيان المعنى الإجمالي :

تتابعت قصص القرآن تسلي النبي ﷺ ، وتنذر المشركين بأن الله قادر على معاقبتهم كما عاقب الأمم المعرضة عن الهداية قبلهم. لفت الأنظار إلى قصة موسى مع فرعون. أرسله الله إلى فرعون مؤيدا بحجة بينة. فاستكبر ورجع إلى سلطانه وجنوده يستظهر بهم على موسى، ورماه بأن دعوته لتوحيد الله وما جاء به من الحجة البينة لا يخلو حاله إما أن يكون ساحرا، أو مجنونا. فرماه الله مع جنوده في البحر يصحبهم الصغار، والملام. وأتبع قصة موسى بقصة عاد إذ سلط الله عليهم الريح التي لا تحمل إلا العذاب، أرسلها عليهم فلم تُبْق بشرا ولا حيوانا ولا نباتا ولا سكنا. كل شيء حولته إلى صورة العظام البالية. وآية أخرى في ثمود قوم صالح. قال لهم صالح تمتعوا بما رزقكم الله واشكروه على نعمه،فضله يصحبكم كامل حياتكم. فاستكبروا عن طاعة الله فسلط عليهم صاعقة أهلكتهم وهم ينظرون إليها، لم يستطيعوا دفعها بأنفسهم ولا الانتصار بمسعف. وكذلك قوم نوح فقد أغرقهم الله لاتفاقهم على الفسق والخروج عن حدود الله. تتابعت تلكم الأمم.ولم يحمها ما كان لها من قوة، زادتها كبرا وعتوا. فليحذر المخاطبون أن يسلط عليهم ما سلط على الأمم الماضية، ولتكن تلك الأحداث آيات يتأملون فيها، فيدركون أن أخذ الله شديد للظالمين والمستكبرين والرافضين لهداية الرسل.

بيان المعنى العام :

38←40-وفي موسى إذ أرسلناه...فنبذناهم في اليم وهو مليم.

وتركنا في قصة موسى آية باقية، تسير مع الزمن دالة على فعل الله بالظالمين المستكبرين، وذلك في الوقت الذي أرسلناه إلى فرعون مؤيدا بحجة قوية واضحة تقتضي ممن عرضت عليه أن يسرع إلى الإيمان بها. وبدون تفكير فيها، أعقب عرضها بعودته إلى سلطانه وقوته وجنده، فتعاظم ظانا أنه أعلى من يؤمن فيطيع. وإمعانا في الرفض رمى موسى عليه السلام بأنه ساحر، أو بأنه مجنون فاقد لمداركه.فأخذناه أخذ المتاع الذي لا يقاوم، فنبذناه،ألقيناه في البحر مهانا كما يلقى النوى.يتبعه اللوم على ذنوبه والتشهير بفساد رأيه، وسوء تدبيره.

41-42- وفي عاد إذ أرسلنا عليهم...جعلته كالرميم.

وآية ينطق بها ما حل بعاد، التي جمعت من القوة ما اندفعت به في طريق الكبرياء، ورفضت هداية الله التي جاء بها هود عليه السلام وظنوا أنهم محصنون وفوق أن تلحقهم إذاية. فأرسل الله عليهم الريح العقيم التي لا خير فيها، بل هي متمحضة للتدمير. أهلك الله عادا بالريح، وما الريح إلا حركة في الهواء، والهواء من ألطف العناصر. فالإنسان يتنفس الهواء، ولا يحس به لا عند استنشاقه، ولا عند خروجه. فلما أراد الله إذلال عاد لاستكبارها واستعلائها، سلط عليها الهواء اللطيف ليدمرها. فيقوم ذلك شاهدا يستمد الناظرون منه العبرة.

- ما تبقي الريح العقيم شيئا مما مرت عليه من البشر والحيوان والنبات والمباني إلا جعلته مفتتا كالعظام البالية. وفي التذكير بعاد زجر، لقريش أنهم مُعرّضون لعذاب يستأصلهم كما استأصل الله قوم عاد لما استكبروا وقالوا: من أشد منا قوة.

43-45 وفي ثمود إذ قيل...وما كانوا منتصرين

عرْضُ قصة ثمود : أن رسولهم قال لهم : تمتعوا بما آتاكم الله من خيرات، إلى أن تبلغوا غاية أجلكم، ذكرهم بأن نعم الله عليهم تتواصل وقد تنوعت، فليشكروا الله على ما أفاض عليهم من خيرات، وشكرها بالاستقامة والاعتراف بفضل الله عليهم. وقد بلغوا من الحضارة مبلغا عظيما.وتحولت منازلهم من الخيام إلى المباني القوية الثابتة، المزدانة بالرخام وغيره. فما كان منهم إلا أن استكبروا معرضين عن دعوة رسولهم صالح، وأولعوا بخلافه ومعاكسته.أمرهم الله أن لا يتعرضوا للناقة بسوء، فعقروها. فأخذتهم من معاقلهم صاعقة نزلت عليهم من السماء. لم تأتهم وهم لاهون أو نائمون، بل أهلكتهم، وهم ينظرون إلى نزولها، شلتهم فعجزوا أن يقوموا لها بما يحميهم. ولم يجدوا نصيرا يؤيدهم بما يوقف العذاب.

46-وقوم نوح...قوما فاسقين.

تحمل فاتحة الآية إما على معنى وفي قوم نوح آية ؛ أو واذكر قوم نوح، أو وأهلكنا قوم نوح.وكان قوم نوح أول أمة عجل الله لها العذاب الدنيوي، فأبادها. وأبرزت الآية سبب ما انتهوا إليه من الغرق الذي أتى عليهم وعلى كل ما يملكون، سبب ذلك أنهم كانوا قوما تمالأوا على الفسق. والخروج عن طاعة الله، والاستهزاء بنوح.

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأيد : القوة.

تواصوا به : أوصى بعضهم بعضا.

ظلموا : أشركوا بالله.

ذنوبا : الدلو العظيمة الملأى.

بيان المعنى الإجمالي :

أعرفكم أنا بنينا السماء بقوة هي القدرة الكاملة. والوصف القديم. وإن قدرتنا لتسع خلق السماوات وما فيها من إحكام. وسعت رحمتي وقدرتي كل شيء. وكذلك فرشنا الأرض فسهلنا التنقل على ظهرها. مما أتم وأكمل التمهيد الذي مكنكم من عمارتها. و سيرنا قانون الخلق على التزاوج بين عنصرين في كل كائن. فعساكم أن تتأملوا ويحصل لكم بالتأمل التذكر و حسن الفهم. إنه لا يحصل لكم الأمن ولا تقتربون من السعادة إلا إذا سعيتم جادين نحو ربكم، فروا إليه. إني مبعوث من

عنده لأنذركم، ولأبين لكم بيانا لا يبقى غموضا. إياكم أن تجعلوا لله شريكا فالشرك هو أصل الشر. احذروا الشرك فإني أنذركم عواقبه، وأبين لكم آثاره المدمرة.

على هذا النحو يثبت الحق، ويتعرى الباطل، إن عناد هؤلاء المشركين وجراءتهم هي سنة الذين خلوا من قبلهم. إذ كلما بعثت رسولا إلا قابلوه بالإعراض، ورموه بأن ما أتى به ينبئ عن كونه ساحرا أو مجنونا. عجيب أمر الكافرين، فهل اتفقوا على هذا الموقف وأوصى بعضهم بعضا به ؟ لا! بل إنهم يشتركون في الاستكبار والطغيان. وهو ما جعلهم يبحثون عما ينقض هداية الرسل، فلم يجدوا إلا رميهم بالسحر والجنون.

أعْرِضْ عنهم ولا تبتئس ولا تحزن بتصلبهم في الكفر، فإنك مكلف بإبلاغ وحيي وبيانه، وقد فعلت.ولست مكلفا بحملهم على الإيمان قسرا.فلا عتب عليك ولا لوم وأنت بعيد عن أن توصف بالتقصير. وداوم على التذكير بما نوحيه إليك، فإن اجتهادك في التذكير ينفع المؤمنين فيرسخ في قلوبهم وعقولهم الإسلام.

إني ما خلقت الجن والإنس إلا ليقوموا بوظيفة عبادتي على أكمل وجه، ويخضعوا لتشريعي، وما أنزلت إليهم بواسطة رسلي. عبادتي حق واجب عليهم جميعا. عليهم أن يأخذوا عن رسلي طريقة الحياة ليكون نشاطهم سلسلة من العبادة لجلالي. هذا كل ما أريده منهم.وما أريد منهم أن يرزقوني أي رزق مما تتعلق به همهم وأطماعهم في الدنيا.وهم جميعا محتاجون حاجة متجددة للطعام، وأنا الغني عنهم أُطْعِمُهُم ولا يطعموني. ذلك بين واضح: إن كل نوع من أنواع الرزق مما ناله الإنسان من فضلي، ومما خلقته من الأرزاق. إن الله هو المتفرد بالقوة الكاملة الشديدة والقدرة التامة أوجد بها العوالم، وسيبعث بها البشر إلى الحشر والجزاء.

إن الذين ظلموا الظلم الشديد بالشرك وكفروا برسولي، لهم نصيبهم من العذاب نظير نصيب الذين خلوا من قبلهم ، فلا يستعجلوني بتسليط ما أوعدتهم في الحال. فإن ما قدرته ينفذ في أجله لا يُعجّل بطلبهم.

ويل لهم، وشر عظيم يرصدهم، ولعنة تتبعهم بسبب كفرهم بالله وبرسوله وبيوم القيامة. ويل من اليوم الموعود الذي تحطمهم فيه نار جهنم بعد أن يفضحوا بحسابهم

بيان المعنى العام :

47-49: والسماء بنيناها بأييد...لعلكم تذكرون.

السماء التي ننظر إليها قبة زرقاء في النهار،أحكم خلقها وصلة مكوناتها فيما بينها، إنها أشد إحكاما واتصالا من البيوت المشيدة من الإسمنت المسلح، إن كل بناء مهما طال عمره لا يصمد على عوامل الفناء، أما السماء فما تزال على إحكامها ودقة

صنعها، وتماسك ما بين مركباتها منذ خلقها الله، منذ ملايين السنين. بنيناها بقوتنا التي يخضع لها كل شيء، وإنها لا تقف عند حد، وإنا لموسعون. وإذا ما قاس العاقل بناء السماء بما تحويه من مجموعات، وما تزخر به السماء الدنيا من نجوم وكواكب إذا قاس ذلك بإحياء الموتى بعد الموت يدرك أن البعث أمر تافه بالنسبة لبناء السماء.

ثم انتقل القرآن من لفت الأنظار إلى السماء، فحولها إلى التأمل في ظاهرة من ظواهر الأرض، إنه فرشها ومهدها لمن عليها. إنك تنظر في الفضاءات الفسيحة سواء منها ما كان بساطا أخضر بالنباتات، أو مشكل الألوان بمتنوع زهورها، أو تنظر في الصحراء الممتدة مساحاتها إلى غاية ما يدركه البصر،و مع أن كتلتها كروية، فبتقدير عجيب تسير عليها كما تسير على بساط ممهد. هذه الظاهرة تنبه العقل إلى قدرة خالقها الذي قدرها على هذا النحو الذي خلقها عليه،وإلى بديع صنعته وما أودع فيها من جمال. فيوقظك القرآن لتقف معترفا بأن تمهيد هذه الأرض للحياة على ذلك النحو هو أفضل تمهيد وأكمله، هو حقيق بأن يثنى على كماله.فنحن نعم الماهدون.

-ثم صرح القران بقانون الخلق، الذي ينسحب على الكل، هو النقص في كل مكوّن حتى يتصل بغيره، ويندمج فيه ليتم الخلق.فالزوجية هي قانون الوجود الفاني. الإنسان مكون من نطفة أساسها الخلية الأولى التي هي عبارة عن اندماج الحيوان المنوي الذكري، ببييضة الأنثى.وهذه الخلية الأولى تحتوي على الجينوم البشري، الذي سلمه مركب من زوجين زوجين متعاشقين، وأن كل خلل في هذا الاندماج يتبعه خلل في الإنسان ذاته، وأن هذا السلم يحوي كل خصائص الكائن. وهذا قانون الحياة. وكذلك من الزوجين يتم تكون الحبوب والثمار، و الماء مركب من عنصرين من الهواء، وكل ما تتصوره من شؤون الخلق والحياة، هو مركب من زوجين، الحياة والموت، والبر والبحر، والليل والنهار، والسماء والأرض، وكل فضيلة هي وسط بين طرفين. بكشفكم لقوانين التركيب الثنائي يرجى منكم أن تتفكروا تفكرا صحيحا. وبه تعلمون أن إعادتكم للحياة أمر معقول. ومن ناحية أخرى يقوم ذلك دليلا على أن الله واحد أحد لا ثنائية فيه. وهو ما تميز به الدين الإسلامي ونبه القرآن لهذه المزية بقوله : (**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**)[1]

---

[1] سورة يوسف آية 106

50–51+ : ففروا إلى الله... إني لكم منه نذير مبين

ما عرض من مكونات الكون والحياة، ولفت الأنظار إلى ما أودع فيهما من أسرار، هو أكبر من أن يعيه الإنسان وعيا مفصلا، ولا يجد ما يمكنه من التأليف بينها، إلا بالفرار إلى الله. وإن ما في تركيبه النفسي من غرائز وميول وشهوات، وما يتنازع في باطنه من قوى العقل والروح، ومن نزغات الشياطين، هذا التنازع يبعد الإنسان بتلك التناقضات عن السكينة، فلا يسعد بالخير والطمأنينة إلا بالفرار إلى الله. فروا إلى الله بحسن عبادته، وإخلاص طاعته. تقربوا منه قربا يجعلكم تعيشون معه، تستحضرون جلاله في كل لحظة من لحظات حياتكم،فتجتمع لديكم الخيوط المتباعدة في تناسق يرضي تطلعاتكم، ويحبب إليكم الخير .تنبهوا إلى أن وراء كم عقابا ونكالا؛ عليكم أن تفروا منه بإقبالكم على الإيمان والطاعة.قال صلى الله عليه وسلم: سبحانك لا منجى منك إلا إليك.

قل لهم يا محمد : فروا إلى الله إنه قد بعثني إليكم لأنذركم ما يترصدكم من عذاب دنيوي وأخروي إن أنتم ابتعدتم عن الصراط المستقيم،ومكنني من حسن الإبانة عما تضمنته رسالته إليكم من مضامين في العقيدة والسلوك، فلا غموض.

- وليكون المنهج واضحا جمع بين الأمر في الآية الأولى، وبين النّهي في هذه الآية. فأوجب الفرار إليه بما يتضمنه من التوحيد الذي هو أساس كل خير وحقيقة. ونهى النّهي المؤكد عن الشرك فإنه أساس كل بلية وفساد. إني أنذركم وأحذركم من اتخاذ إله آخر، أبين لكم فساد الشرك بيانا وافيا.

52-كذلك ما أتى الذين...أو مجنون.

كذلك...يحتمل أنه تأكيد لما تضمنته الآيات السابقة، كما يحتمل أنه إيذان بانتقال الكلام إلى مضمون جديد. والمفهوم الجديد هو التنظير بين ما واجه به مشركو مكة محمدا ﷺ، وبين ما ووجه به المرسلون السابقون. لم يجد أحد من الرسل العقول ممهدة لقبول الحق الذي جاؤوا به من عند الله. بل قابلوا دعوتهم بالتكذيب، ثم رموهم تارة بالسحر وتارة بالجنون، وتارة بهما معا.

53-أتواصوا به بل هم قوم طاغون.

عجب كيف اتفقت كلمتهم على معارضة الرسل برميهم بالجنون أو السحر، هل أوصى المشركون بعضهم بعضا بذلك، كيف يكون هذا مع أن بين كل أمة وأخرى القرون المتطاولة؟ السبب الكامن وراء اتفاق كلمتهم على ذلك البهتان، هو أنه

تأصل فيهم الطغيان والاستكبار عن الحق، اجتمعوا في ظنهم أنفسهم أرفع من الإذعان للرسل، فصدهم ذلك عن الإيمان، وسوّل لهم وصمهمْ الرسل في مختلف الأحقاب بالسحر أو الجنون.

54—55، فتول عنهم فما أنت بملوم...تنفع المؤمنين.

أعرض عنهم وخفف عن نفسك من شدة الحرص عليهم والضيق من عنادهم. اعلم أنك مكلف بالإبلاغ وقد بلغت وأحسنت القيام بما كلفت به. إنه لا تبعة عليك ولا لوم إذ صمموا على الكفر ولم يؤمنوا. واصلْ تذكير المؤمنين بما يتواصل من وحينا إليك. هم الذين تنفعهم الذكرى، فيرسخ في عقولهم وقلوبهم بتجدد الذكرى الإسلام وأصوله وهداه.

56—58، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون...ذو القوة المتين.

هذه الآية تمثل الإجابة النِّهائية عن تساؤلات الإنسان في تاريخه الطويل، والتي تميز فيها المؤمنون عن الماديين والمشركين. فاتخذ كل منهم منهجا وطريقا في تفسير الكون ومنزلة الإنسان فيه. ولنتبع في تفسير الآية، لعمق معانيها، الخطوات التالية، مبتهلين إلى الله أن يلهمنا ما يرضيه في كشف معانيها.

أولا: بداية خلق الإنسان تمت إثر إعلام الله الملائكة بما تعلقت به إرادته من خلق خليفة في الأرض. يدل هذا أن الله خلق الكون سماواته وأرضه، وأراد أن يكلف الإنسان بتعمير الأرض، فخلقه بطريقة تهيئه لتلك الخلافة. من حبه للمعرفة وقدراته العقلية التي تجيبه لتطلعاته المعرفية، وبما ركب فيه من غرائز وعواطف وشهوات. فكان هذا التركيب العجيب هو الذي خفي على الملائكة، وظهر لهم بعد اختباره أن حكمة الله تحققت في النّوع الإنساني بما أودع فيه من مؤهلات.

ثانيا: غرائزه تدفعه لاستجابات ينساق إليها، وتطغى تارة فتحجب عنه النّتائج البعيدة التي تكون سببا في شقائه. وتجعله يفسد في الأرض.

ثالثا: يتصارع في كيانه شهواته، وعقله، تجلبه الشهوات إلى ما يرضيها، وهي دوما أنانية قصيرة المدى. كلما أوغل في اتباع داعيتها أفسد في الأرض، وقد يكشف له عقله تارة الطريق المستقيم في بعض الأحوال، وقد يقع في حيرة فلا يجد مسلك الهدى الذي يعطيه توازنه الروحي والعاطفي.

رابعا : إنه إذا حكّم في حياته عقله، وطوّع عواطفه وغرائزه، زهد في دنيا تعقب لذائذها آلام، أقلها الخوف من فنائها.يقول ابو العلاء المعري

هذا جناه أبي علـــــــي وما جنيت على أحد

وعلى هذا سار قساوسة الكنيسة المسيحية.

خامسا : إنه مع هذا التركيب تتوقف حياته الفردية أيضا على تعاونه مع غيره من ناحية، ولا يستطيع أن يعمر الكون إلا بهذا التعاون مع أفراد الجنس من ناحية أخرى.وما أودع فيه من أنانية وحب للذات، وما غرس في طبعه من الأثرة يحول دون انتظام أمرهم الاجتماعي.

سادسا: إن الغاية من خلق الإنسان لعمارة الكون، لا تتم إلا إذا تآلفت القوى الفردية والاجتماعية وسارت في منهج التكامل بينها، وكان مراعاة الصلاح الفردي والاجتماعي قانون النّشاط البشري. ولا يحصل ذلك إلا إذا طوع الأفراد والمجتمعات نشاطهم حسب قوانين وضوابط تنفذ إلى تركيبهم العقلي والروحي، فتربطهم بمنهج تلزمهم به، وبه وحده يجدون سعادتهم.

سابعا: ما هو هذا المنهج ؟ هذا المنهج لا يتحقق إذا ما ترك الإنسان وحده يضبط واجباته، ويضبط ما هو ممنوع منه.فكانت الحاجة إلى تشريع سماوي من الخالق الذي وحده له القدرة على الإلزام من الباطن.ذلك أن القوانين غير الإلهية،.كما هو مشاهد بالضرورة.تُحترمُ من الظاهر، ويستدعي تطبيقها مراقبة شديدة، لا تبلغ أبدا أن تجعل الالتزام بصفة عامة نا بعا من الذات البشرية، لا في جانب الفعل ولا في جانب الترك. هذا الإلزام الإلهي الذي جاء تفصيله والإقناع به بواسطة رسل الله. فالبشر جميعا بعد أن أتم الله الهداية بمحمد ﷺ ملزمون بأن يتبعوا ذلك الهدى، الذي هو رقابة ذاتية على كل فرد من باطنه : إنه في كل فعل يفعله أو ترك يمتنع منه، مقتنع بأنه يعبد الله بطاعته لما أمر، وانتهائه عما نهى. وشرع ما يجعل هذه الرقابة فاعلة بضروب من العبادات الخالصة. فأي نوع من أنواع النّشاط الإنساني عبادة ما دام الإنسان يراعي أوامر ربه ونواهيه، حتى الأمور الفطرية هي عبادة ما دام المكلف مستحضرا أن يفعل ما يفعله من أكل وشرب، وزواج ورعاية للأبناء، مثلا،إنه يفعل ذلك استجابة للنظام الإلهي الذي أبلغه رسله. وإذا الحياة كلها سلسلة من العبادة من تاريخ التكليف إلى القبر.

وعلى هذا خلق الله الإنسان ليعبده في جميع تصرفاته،وأرسل رسله للبشر لتحقيق هذه العبادة المستدامة.

وفي إدماج الجن في الآية إبراز إلى أن كل ما خلقه الله يجري عليه قانون كونه عابدا لله. وفيه رد على المشركين الذين كان بعضهم يعبد الجن.

- إني أنا الله الغني عن البشر، وهم محتاجون لعوني، ما أريد من البشر أن يقدموا لي رزقا يستجيب لما عرف عندهم من حاجات، يتطلع البشر إلى أنواع من الرزق

بما يُحصّل السكن، واللباس، والأثاث، والرياش، والغذاء،ونحو ذلك ، ثم خص الطعام لأن الطعام يمثل الحاجة الأولى المتجددة التي يرغب النّاس في تأمينها. والله غني عن ذلك والبشر محتاجون لفضله.

- تفرد الله سبحانه بأنه الرزاق، المانح للأرزاق المتنوعة والكثيرة التي تفوق الحصر. ورزقه لا يكلفه عناء ولا يلحقه من تمكين البشر بتلبية حاجاتهم إعياء، فهو سبحانه القوي القوة الشديدة والعظيمة، الفاعل لكل ما يشاء.

59- فإن للذين ظلموا...فلا يستعجلون.

إذا كان الله خلق الخلق لعبادته، وهو ما ينبغي أن يكون عليه الأمر في الواقع. فإن الذين أشركوا بالله وتمردوا على عبادته، قد استحقوا ما يملأ دلاءهم بالعذاب كما ملئت دلاء الذين من قبلهم من الأمم المشركة المكذبة. هذا قضائي وهو محقق لا ريب فيه، فلا يستعجلوا حدوثه، إذ تسليطه عليهم تابع لما قدرته زمانا ومكانا، إنهم يستعجلون ما فيه دمارهم.

60- فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون.

النتيجة المستخلصة مما سبق، أن الشر وسوء الحال والخزي، مختص بالذين كفروا، الويل لهم من اليوم الذي أوعدهم الله، وهو يوم خاص بهم، يلقون فيه جزاء تمردهم وكفرهم وعصيانهم.ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلى ما يلقونه يوم القيامة، كما تحتمل أن تكون وعيدا بما سلط عليهم من خزي وتقتيل يوم بدر.

ســــورة الطّـور

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف. وفي كتب السنة، وفي كتب التفسير. والطور أول آية في السورة، فجعل الطور اسما لها بدون واو. نزلت على رسول ﷺ بمكة. رتبتها حسب ترتيب المصحف الثانية والخمسون. وحسب ترتيب النزول الخامسة والسبعون. نزلت بعد سورة نوح وقبل سورة المؤمنين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ (1) وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ (2) فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ (3) وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ (4) وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ (5) وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ (6) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ (7) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ (8) يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا (9) وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا (10) فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (11) ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ (12) يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ (15) ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (16)

بيان معاني الألفاظ:

الطور : طور سينا، أو ما يصلح أن يطلق عليه كلمة جبل.

مسطور: منظمة سطوره.

رق : صحيفة من جلد مرقق يكتب عليها.

منشور: مفتوح للقراءة.

المسجور: المملوء.

واقع : محقق.

دافع : مانع، واق.

المور : تحرك باضطراب.

سيرت : تحركت من مواقعها.

الويل : سوء الحال.

الخوض : الاندفاع في باطل الكلام وكذبه.

يلعبون: يستهزئون.

يدعون : يدفعون.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بالطور، وأقرب المحامل أنه جبل الطور الـذي تلقـى فيـه موسـى شـريعة الله، ودوّنها. وهو يتناسب مع المقسم به التالي، وكتاب مسـطور.وهـو التـوراة التـي كتبـت في سطور طويلة، في رقٍّ، جلد رقق وأعـد للكتابـة عليـه. ثـم عطـف القـرآن بقسـم ثالث، بالبيت المعمور، المعمور بالعُبّـاد مـن الحجـاج والمعتمـرين والمتقـربين، الكعبـة زادها الله تشريفا. والمقسم به الرابع والسقف المرفـوع إشـارة إلـى السـماء التـي رفـع سمكها فسواها. والمقسم به الخامس البحر المملـوء الـذي ضـبطه التقـدير الإلهـي فـلا يغمر اليابسة. هذه الأقسـام الخمسـة تثبـت مؤكـدة أن عـذاب ربـك يـا محمـد واقـع بالكافرين، لا يجدون ما يدفعونه به يوم نزوله. سـينزل علـيهم فـي اليـوم الـذي يختـل النّظام الذي بنـى عليـه الله الأكـوان. فالسـماء تتحـرك كواكبهـا مضـطربة، والأرض تهتز. ولا تبقى الجبال الراسيات مستقرة، بل تتحرك سـائرة إلـى حيـث قـدر لهـا. إنـه يوم مهول، فالعذاب وسوء الحـال والحيـرة لازمـة للمكـذبين، الـذين تمسـكوا بـرفض الحق الذي جاءهم، ومحضوا حيـاتهم لاخـتلاق الأكاذيـب وترويجهـا. يسـتهزئون بجـد القرآن وبما يبلغه الرسـول مـن حـق، شـأنهم شـأن الأغـرار الـذين يخلطـون الجـد بالهزل. إن اليوم الذي يدفعون فيـه إلـى جهـنم دفعـا عنيفـا، يصـحب إهـانتهم وهـم مسوقون بقسوة إلى مصيرهم، قول الملائكة لهـم إمعانـا فـي إهـانتهم واحتقـارهم : مـا هو أمامكم حاضر هو جهنم التي كنتم بها تكـذبون. ويضـيفون تثبتـوا هـل هـذا سـحر كما كنتم تروجون للحق الذي جاءكم هو سـحر، أم فقـدتم قـوة الإبصـار فـلا ترونهـا. يدفعونهم وقد وصلوا بهم إلى مستقرهم جهنم فيقذفونهم فيهـا قـائلين :اصـلوا نـار جهـنم لتحترقوا بها. لا يخفف عنكم من العذاب شيء سـواء تجلـدتم أو جـزعتم، فعـذابها دائـم لا يرفع. ولم تُظلموا في مصيركم هذا الذي هـو أسـوأ مصـير، إن مقـامكم فـي جهـنم واحتراق أجسامكم بلهيبها، والمهانات المتواصلة، هـو جـزاء عـادل لمـا اختـرتم عملـه في دنياكم.

بيان المعنى العام :

1←8: والطور...ما له من دافع.

افتتحت الآية بقسم [والطور] وكلمة الطور تطلق فـي العربيـة ويـراد بهـا الجبـل، فهـو اسم جنس يطلق على أي جبل. ورأى الحذاق أن المـراد بـه جبـل الطـور الـذي نـاجى

فيه موسى ربه، وتلقى الألــواح. فهـو مكـــان ميـزه الله بتلقـــي موســـى عليـــه الســلام الرسالة، وإنزال شريعته عليه.

- وكتاب مسطور - أصل كلمة كتاب تطلــق علـــى أي كتـــاب. والــراجح أن المــراد بـــه كتاب التوراة،إذ أنه هو كتاب الشريعة الســماوية البـــاقي فـــي عهـــد نــزول هـــذه الأيـــة. وهو يتصل بالمقسم به أولا: الطور. ومما يزيـــد هـــذا الاحتمـــال قربـــا، وصـــفه الكتـــاب بكونه مسطورا. وتقاليد كتابة التوراة المحتفظ بها أنهـــم يكتبـــون التـــوراة علـــى صـــحائف طويلة يشدون أولاها إلى لولـــب، ونهايتهـــا إلـــى لولـــب آخـــر فيطـــول الســـطر كثيـــرا. ويتابعون القراءة بإدراة اللولب للجهة التي يرغبـــون فـــي القـــراءة منهـــا. وقـــد شـــاهدت في كنيسة جزيرة " جربة" في الجنـــوب التونســـي نســـخا مـــن التـــوراة قديمـــة محفوظـــة على هذا الشكل.

-الرق بفتح الراء، جلد يعالج ليبســـط ويرقـــق ويســـوى؟ فتتيســـر بـــذلك الكتابـــة عليـــه. وكان القسم به في وضع كونه منشورا. ومـــن دقـــة التعبيـــر القرآنـــي أن أقســـم بـــه فـــي هذا الوضع " منشورا" وهو الوضع الـــذي ينتفـــع عليـــه القـــارئ؛ لمـــا كانـــت الســـطور طويلة، والتالي لا غنى له عن مساحة كبيـــرة أفقيـــا ينشـــر فيهـــا الـــنّص ليقـــرأه، لـــيس كالورقة من الكتاب العادي تتوالى السطور عموديا.

- البيت المعمور - حسبما تدل عليه اللغة، البيـــت الـــذي العمـــران صـــفة أساســـية فيـــه. ثم إن المفسرين اختلفوا في تعيين المراد.

المحمل الأول أن المراد به الكعبة باعتبار أنها البيـــت الـــذي يطـــوف بـــه الطـــائفون فـــي أعداد تتضاعف مـــع الـــزمن علـــى مـــدار الســـاعة وعلـــى مـــدار الـــزمن،من الحجـــاج والمعتمرين، والمتقربين. وهـــو مناســـب لمـــا عطـــف عليـــه " الطـــور " فكلاهمـــا مـــن الأمكنة التي قدسها رب العالمين. والطـــور نزلـــت بـــه الشـــريعة علـــى موســـى ومكـــة مكان البيت هي التي تتابع فيها الوحي عند نزول الآية.

المحمل الثاني أن البيت المعمور البيت المـــذكور وصـــفه فـــي حـــديث الإســـراء اســـتنادا إلى ما رواه مسلم بسنده إلى أنس بن مالك: ثم عرج بنـــا إلـــى الســـماء الســـابعة فاســـتفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومـــن معـــك ؟قـــال: محمـــد. قيـــل وقـــد بعـــث إليه؟ قال : قد بعث إليه، ففـــتح لنـــا. فـــإذا أنـــا بـــإبراهيم مســـندا ظهـــره إلـــى البيـــت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملـــك لا يعـــودون إليـــه. ذكـــر الأبـــي نقـــلا عن الخطيب البغدادي من طريق عبد الله بن أبي الهـــذيل، قـــال :البيـــت المعمـــور يدخلـــه

كل يوم سبعون ألف دحية، أي رئيس، مع كل دحية سبعون ألــف ملــك[1] ولكــن لــم يــرد عن رسول الله ﷺ أن هذا هو المقصود من البيت المعمــور فــي الآيــة. ولــو ورد لتحــتم قصر المعنى عليه. والوجه الأول أرجح في نظري.

- السقف المرفوع هو السماء، يقول تعالى:(وجعلنــا الســماء ســقفا محفوظــا[2]) ويقــول تعالى: (والسماء رفعها)[3] -والمناســبة بــين المتعاطفــات : أن الــوحي يتلقــاه الرسـل من السماء.

-البحر هو ما يقابل اليابسة في الكرة الأرضــية. والمســجور وصــف يحتمــل أن يكــون معناه : المملوء. ذكر هذا الوصف للفت الأنظار إلى القــدرة التــي مــلأت البحــار مــاء. وقيل المسجور يعني البحر الأحمر الذي ملأه الله فأطبق علــى فرعــون بعــد أن مــر بــه موسى يبسا. وقيل المسجور هو الملتهب، وهو ما يتم يــوم القيامــة عنــدما تشــتعل ميــاه البحار وتتحول إلــى وقــود. وقيــل المســجور : المحبــوس ومنــه ســاجور الكلــب أي القلادة التي تمســكه، والله أمســك البحــر عــن غمــر الأرض. فــرغم عظــم انفســاحه وامتلائه وقوة تدفق أمواجــه، وقــع إمســاكه عــن غمــر الأرض ممــا ينــادي بالقــدرة والحكمة للخلاق العظيم.والوجه الأول أولى في نظري.

-توالت الأقسام الستة كلها تدخل فــي الــنفس الرهبــة، بواســطة مــدلولاتها، وبواســطة جرسها اللفظي، وبواسطة الفواصل أيضا. روى الإمــام أحمــد عــن جبيــر بــن مطعــم رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ أكلمــه فــي أســرى بــدر، فألفيتــه فــي صــلاة المغرب يقرأ سورة الطور فلما بلــغ إن عــذاب ربــك لواقــع أســلمت خوفــا أن ينــزل العذاب. فهذه الأقسام هزت حس جبيــر وهيــأت قلبــه فنفــذ إليــه المقســم بــه، فكانــت اللحظة التي ملأ الإيمان فيها قلبه.

وعذاب ربك، في إضافة العذاب إلــى "ربــك" مــا يــوحي بــأن العــذاب سيســلط علــى الكافرين، كما يسلط بصفة خاصة على المكذبين بــك الــذين آذوك وصــدوا النــاس عــن الإيمان.

ثم حقق نزول العذاب بقوله "لواقع" مفتتحــة بــلام جــواب القســم وبقوله " مــا لــه مــن دافع" عذاب محقق لا يبعده ولا يحصن منــه أي قــوة ولا تحصــن منــه أيضــا شــفاعة الشافعين.

---

[1] إكمال الإكمال ج 1 ص308

[2] سورة الأنبياء 32

[3]

9-16 : يوم تمور السماء...إنما تجزون ما كنتم تعملون.

يوم تمور السماء... حددت الآية زمان نزول العذاب بالكافرين المكذبين، هو نازل في اليوم الذي تضطرب فيه السماء اضطرابا حقيقيا، فتخرج الكواكب عن مساراتها، ويرفع مفعول القوانين التي كانت تحكمها. ولا يقتصر الخلل على السماء، فكذلك الأرض التي استقرت بالجبال الراسيات، في ذلك اليوم تسير الجبال منتقلة من أماكنها سيرا حقيقيا لا مجازيا. ومعنى ذلك انقلاب أوضاع الكون كله، وقيام القيامة.

- لا تسل عن المكذبين فهذا يوم شؤم عليهم، تسوء حالهم إلى أبعد غايات السوء. يختصون بهذا المصير المكذبون الذين صرفوا حياتهم في مجالس يندفعون فيها إلى التلبيس على أنفسهم وعلى النّاس، هم أبعد ما يكون عن البحث الهادئ، وإنما هي اندفاعات غوغائية، وأبعد ما يكون عن الجد. فهم في تفكيرهم واهتماماتهم، والفروض التي يقدمونها بدون تمحيص ولا عمق، يعرفونك بأنهم لاعبون مستهزئون شأنهم شأن الأطفال، مع فارق أن الأطفال يصدر ما يصدر عنهم مصحوبا بالبراءة، وهؤلاء المكذبين خلفيتهم، خلفية خبث وفساد.

-اليوم الذي تضطرب فيه كواكب السماء، وترجف الأرض وتسير الجبال، هو اليوم الذي يدفع فيه المكذبون دفعا قويا مذلا إلى نار جهنم.يُحملون قسرا على السير نحو مصيرهم، إلى جهنم، يرونها فيحاولون الوقوف أو التأخر عن منازلهم التي هم فيها، فيتولى الملائكة الذين يسوقونهم دفعهم دفعا قويا عنيفا، فتصوّرْ ما شئت من الخوف والذل، والعذاب، والإهانة.

- ومع الإذلال المادي يقول لهم الملائكة: ما تشاهدونه هي النّار التي تصليتم في التكذيب بها في الدنيا. كونُها النار، مما لا يشك فيه، ولكن هذه المقالة من الملائكة تعذيب نفسي، وتذكير لهم بما فرطوا في دنياهم.

- ثم يقولون لهم إمعانا في التهكم بهم.هل إن ما أمامكم،هي النّار التي تتلظى؟ هل هذا المشهد حق أو هو من السحر الذي يخدع الأبصار؟ أم تقولون إن أبصاركم تعطلت عن الرؤية.

- ثم يسمعونهم ما يفيد المستوى الأعلى من النّكال والشماتة والاحتقار. الذي أفهمه من الاية أنه بعد أن تعرضت الآيات السابقة لسوقهم إلى مصيرهم، وما يحدث فيه،ها هم قد وصلوا إلى جهنم، فيقول لهم الملائكة: اصلوا نارها، واحترقوا بحرها.لا مفر لكم ولا يفيدكم اليوم شيء، حُمَّ القضاء. إنه لا فرق بين أن تصبروا وتتجلدوا للعذاب، أو تصيحوا وتظهروا ما تحسون به من شديد الآلام؛ لا ينفعكم

صبركم وتجلدكم ولا جزعكم وصياحكم. إن ما تلقونــه اليــوم هــو الجــزاء العــادل لمــا كنتم تختارون عمله في الدنيا. فما ظلمكم الله، ولكنكم ظلمتم أنفسكم.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (20) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)

بيان معاني الألفاظ :

فاكهين : فرحين مسرورين.

هنيئا : لا يتبعه أي تنغيص.

سرر: جمع سرير .

ألتناهم : نقصناهم.

كسبت : حصلت من العمل.

رهين : محبوس.

أمددناهم : زدناهم.

يتنازعون : يتداولون فيما بينهم.

لغو: سقط الكلام.

تأثيم : ما يؤثم به فاعله.

بيان المعنى الإجمالي :

عقب القرآن ما يلقاه الكافرون من عذاب ومهانــة، بالتنويــه بــالمتقين الصــالحين مفصــلا شيئا من جزائهم. فنصت الآية على أنهم ينعمــون فــي جنــات، لكــل مــنهم جنتــه علــى مستوى ما قدم، دون أن يشعر أي منهم بالنقص أو الحرمــان. هــم جميعــا فــي ســرور، يغمرهم الفرح بما مكنهم منه ربهم، ويعظــم شــعورهم بالنعمــة عنــدما يتــذكرون أن الله حصنهم من عذاب الجحيم. وتقــول لهــم الملائكــة تمتعــوا بمــا شــئتم بــأنواع المآكــل والمشارب، هنيئا لكم، فقد نلتم جزاء ما قدمتم من صالح الأعمال.

ذهب التعب والكد، فكل ما يرغب فيه المُنعّمْ من فــتح فكــري ومعرفــة ينالــه، وكــل مــا تتعلق به شهوته يجده بين يديه. هم فــي راحــة كاملــة متكئــين علــى ســرر مرفوعــة،

مجالسهم مجالس ود وحديث يتناسب مع مستوى الطـهر الـذي بلغـوه. ولكـل داخـل في الجنة زوجه التي كانت معه في الدنيا، فإن كانـت أرقـى منـه منزلـة ارتقـى معهـا، وإن كانت أخفض منه منزلة،ارتفعت لتكون معـه. ومـع ذلـك الحـور العـين متآلفـات، وقد ذهبت الغيرة والأنانية.

ونوع آخر من التكريم يتفضل به الله على المـؤمنين فـي الجنـة، أنـه يلحـق بمـراتبهم العلية في الجنة من كان من ذرياتهم مؤمنـا لـم يبلـغ مـن التقـوى والصـلاح مـبلغهم. فيدخل الله البهجة والسرور على المفوزين بالرتب العاليـة، بإلحـاق أولادهـم بهـم. ومـع رفع درجات الذرية لا يـنقص مـن أجـور الأصـول شـيء. إن كـل نفـس محصـور جزاؤها فيما قدمته من خير أو شر، إلا ذرية المؤمنين الصـالحين فـي الجنـة فمـن كـان من ذريتهم لم ينحرف انحرافا بعيدا عن منهجهم، يلحق بالأصول.

وزدناهم فوق ما وصف أن يسـرنا لهـم مجـالس تغمرهـا البهجـة والسـرور والنعـيم، يقدم لهم فيها متنوع الفواكـه، واللحـوم الطريـة اللذيـذة المثيـرة لشـهوة الأكـل منهـا. ويتبادلون كؤوس الخمر التي تضاعف إحساسهم بـالنعيم، ولا تنـزل بهـم إلـى العربـدة، وسقط الكلام، والصياح، والسباب، وذهاب الحياء.

بيان المعنى العام :

17—20 : إن المتقين في جنات بحور عين.

منهج القرآن أنه يعقب الإنـذار بالتبشـير، والعكـس تحقيقـا لإصـلاح النـاس. فبعـد أن عرض وضع المشركين يوم القيامة، ثنى بوضع المتقـين فصـرح مؤكـدا أنهـم ينعمـون في جنات، وجمعت "جنات" لتفيد أنها كثيـرة متنوعـة،ومع اتحادهـا فـي أن كـل نـازل بجنته يشعر بالرضا وكامل السرور بوضعه إلا إنهـا علـى رتـب متفاوتـة فـي النعـيم تبعا لتفاوت الداخلين في الفضل.

- يغمرهم جميعا الإحساس بالفرح، والشـعور بالسـرور بمـا نـالهم مـن ربهـم الـذي رعاهم في الدنيا بتيسرهم للخير، وفي الآخرة بحسن الثـواب.مـع أنهـم يلحظـون كبيـر فضله عليهم، إذ حصنهم من عذاب الجحـيم " جهـنم " وهـل الجحـيم جهـنم، أو طبقـة منها يعذب فيها الكفرة والمشركون ؟ رأيان للمفسرين.

- يتقدم إليهم الملائكة وهم يتنـاولون مـن نعـيم الجنـة أكـلا وشـربا بقـولهم : كلـوا واشربوا ما شئتم هنيئا لكم.النعيم الغامر حصلتم عليـه بسـبب مـا قـدمتموه مـن صـالح الأعمال. فهو جزاؤكم. كما يثنى على المتفوق في الامتحـان بقـول اللجنـة: هـذا جـزاء اجتهادكم كامل السنة. ولا شك أنه لولا الألطاف الإلهية التـي أحاطـت بالعبـد فـي دنيـاه

فسار في طريق الهدى ما كان يصـل الـى درجـة المتقـين المكـرمين. لله الفضـل أولا بالهداية وله الفضل آخرا بما أنعم.

- ما بقي من ذكريات الحياة الدنيا أنهـا كانـت تعبـا موصـولا وإن اختلفـت درجاتـه، وتنوع إلى جهد عضلي، وجهد فكري ومعاناة أسقام. ومـن فضـل الله علـى أهـل الجنـة أنهم يشعرون بصفة دائمة بالأمن والسعادة، وعـدم الحاجـة لبـذل الجهـد، ينـالون مـن المعارف ما أرادوا، ومن الشهوات البدنية أكلا وشربا مـا شـاؤوا. هـم متكئـون علـى سُرُر في جلسات تجمعهم بمن يحبون متقابلين، ينظـر بعضـهم إلـى بعـض نظـر الـود الخالص. وجمع الله كل رجل بامرأته التي كانت صالحة فـي الـدنيا، وأسـبغ عليهـا مـن الوسامة الشيء الكثير، فالعيون واسعة فـي صـفاء وطـول أهـداب وقـس علـى ذلـك. وينشئ الله خلقا من خلق الجنة يكون لهن من الجمال ما تقـر بـه العـين وتـأنس الـنفس، ومن الفطنة والذكاء ما يرضي العقـل والمشـاعر. وقـد ذهبـت الغيـرة مـن المشـاعر، والأنانية من العقول.

21 – 23 : والذين آمنوا واتبعتهم...لا لغو فيها ولا تأثيم.

هذا تكريم آخر للمنعم عليهم، ربطه القرآن بالإيمـان.وفيـه تنويـه بهـذا الصـفاء الـذي يحصل في الفكر والروح. فإن الـذين واصـلوا حيـاتهم متمسـكين بالإيمـان، واجتهـدوا فأثروا في ذرياتهم بما غرسوا في عقـولهم مـن الإيمـان وهُـداه، يكـرمهم ربهـم بـأن يلحق بهم ذرياتهم في رتبتهم في الجنـة، وإن كـانوا لـم يبلغـوا صـلاح آبـائهم. وكمـا يجمع الله بفضله بين الزوج وزوجه، وبين الخلان فـي مجـالس الرفاهيـة التامـة، كـذلك يتفضل فيرفع الذرية المؤمنة وإن قصرت في الفضل عن الآباء ويجمعهم بآبائهم.

وخاتمة هذه الآية فيها احتراس بديع، يجمع بين أمور:

أ- إن ما يكرم الله به الذرية لا ينقص من ثواب الآبـاء شـيئا، فـإن جـزاء مـا عملـه الإنسان محبوس عليه فلا يذهب من أجورهم شيئا ليُلْحق بصحائف ذرياتهم.

ب- إن ما يكرم به الذرية مراعى فيه ما عملته الذريـة، فمـن كـان بعيـدا عـن مـنهج الأباء لا يرتقي لنيل كرامة الإلحاق.

ج- أن الكافرين محبوسون بجزاء ما كسبوه في دنياهم.

- أمددناهم - وزدناهم على ما وصـف مـن النّعـيم مجـالس أنـس، تطـو صـورتها على ما كان يحدث في الدنيا ممـا يبتهجـون بـه. تُقـدّم لهـم فيهـا الفواكـه المتنوعـة، واللحم الطري المثير للشهوة لطيبه وحسـن إعـداده. ويتعـاطون كـؤوس الخمـر، فتجـد متناولا للكأس يقدمها لقرينه تكرمة وتعبيرا عن إعجابـه بلـذة المـذاق. ويتبـادلون علـى هذا النحو في مجلس سرور، بين شـرب ومناولـة لغيـره. ونفـت الآيـة مـا يصـحب

مجالس الخمر في الدنيا، التي يعربد فيها الشَّربُ، ويكثر لغطهم، وتنفلت ألسنتهم وأيديهم من رقابة العقل، بالصياح والتعدي. ويسرع إلى فعالهم الإثم من ضرب وشتم واعتداء، لمّا يحجب العقل بقوة تأثير فعل الخمر، وتستوي أرجاع المخمور مع أرجاع المجانين. فخمر الآخرة تحصل بها النَّشوة التي تقوي الإحساس بالمتعة، ولا تنزل إلى المستوى الهابط الذي يصحب شرب خمر الدنيا.

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطواف : مشي متكرر.
الغلمان : جمع غلام، خدمة.
اللؤلؤ المكنون : الدر المختزن لنفاسته فيحتفظ بلمعانه وصفائه.
الإشفاق : توقع المكروه.
السموم : أصلها ريح جافة شديدة الحرارة. وهي ريح جهنم.
البر : المحسن الرفيق.
الكاهن : المدعي معرفة الغيب، الذي يتحدث عنه في كلام مسجع.
تربصوا : انتظروا.

بيان المعنى الإجمالي :

ومن نعيم أهل الجنة أنهم في مجالسهم الدائرية يطوف عليهم لخدمتهم غلمان أكمل الله حسنهم. فهم في رونق بهاء بواكير الشباب، متمتعين بصفاء البشرة ولمعانها. ويجري بينهم الحديث بذكرياتهم من حياتهم الدنيا، يقبل بعضهم على بعض في أدب جم،فقارنوا ما هم فيه من استقرار وسعادة، وما كانوا عليه في دنياهم وقالوا: إنا كنا رغم أننا في أهلنا، كنا مشفقين خائفين من العاقبة.لقد تفضل علينا ربنا وحمانا من لفح نار جهنم.تحققت آمالنا فإنا كنا نبتهل إليه بأنه هو المحسن الرفيق بعباده عظيم الرحمة بهم. وواصل التذكير يا محمد ينتفع بك المؤمنون تأصيلا للخير فيهم، وقد ينتفع بعض الكافرين فيؤمنوا.أنت مغمور بنعمة ربك الذي يرعاك، فأنت أبعد ما يكون عما رموك به من الكهانة أو الجنون.

بيان المعنى العام :

24- ويطوف عليهم غلمان...مكنون.

يتواصل وصف القرآن لنعيم أهل الجنة في مجالسهم، فيضيف لما تقدم أن الله أنشأ لهم في الجنة غلمانا يطوفون عليهم جيئة وذهابا يناولونهم ما يطلبون، وعبر بالطواف الذي هو الدوران رعاية لقوله في الآية السابقة على سرر متقابلين. فطريقة جلوسهم ليست صفوفا، وإنما يزداد أنسهم بنظر بعضهم إلى بعض في شكل دائري. وهؤلاء الغلمان الذين يخدمونهم سكب الله عليهم من الحسن ما يزيد المجالس رونقا. عبر عن ذلك بأنهم لبياض بشرتهم، وصفاء لونهم، كأنهم اللؤلؤ المكنون الذي لم يذهب ببهائه تعرُّضُه لتقلبات الطقس. والملاحظ أن الحكومات تنتخب لحرس الشرف، أصحاب الوسامة من الجيش.

25—28، وأقبل بعضهم على بعض...هو البر الرحيم.

يتواصل وصف مجالس المتقين في الجنة، فتعرض هذه الآية الصفة التي عليها يتجاذبون أطراف الأحاديث، وما يجري بينهم منها.كل فرد يستمع لأخيه في أدب واهتمام، ومع الراحة والهناء تتسابق الذكريات. فمما يجري بينهم أنهم يتذكرون أوضاعهم في الحياة الدنيا.

- يقول بعضهم لبعض وقد استقر بهم المقام : إنه يوم كنا في الحياة الدنيا، ونحن مع أهلنا، كنا وجلين من العاقبة. قال تعالى مسجلا لخشية رسوله ﷺ : (**وما أدري ما يفعل بي ولا بكم**)[1] - فتفضل الله علينا بمنه وكرمه فأبعد عنا عذاب السموم، وأصل لفظ السموم الريح اللاهبة التي تحرق الأخضر، وتنفذ إلى مسام الجلود، والمراد بها هنا ريح جهنم الحارقة.

- إن ما أكرمنا به هو ما استقر في يقيننا في الدنيا. فقد كنا نخصه بالعبادة ندعوه ونبتهل إليه، مقتنعين بأنه وحده المتصف بصفات الكمال، فهو البر المحسن الرفيق بعباده، الذي شملت رحمته كل شيء.وإذا عُبِدَ أثاب، وإذا سُئل أجاب.

29- فذكر فما أنت...ولا مجنون.

واصل التذكير، ذكر المؤمنين ليتعمقوا في الخير وطريق الصلاح، ويرتقوا في مقامات القرب. وذكر الكافرين عسى أن يهتدي بعضهم إلى الإيمان. ولا يهمك ما يفتريه عليك أهل الضلال، وما يرمونك به مما أنت مبرأ منه.أنت مقرب مني، أنعمت عليك بالنعمة الكبرى إذ انتخبتك من بين الخلائق خاتما لرسالاتي.فأنت

---

[1] سورة الأحقاف آية 9

مرعيٌّ بعنايتي أنا ربك أوالي عليك ما يعلي مقامك،وأتولى إيصال ما ينفعك " بنعمة ربك" وهذا ما يسفه قول من يقول : ما تدعو إليه ضرب من الكهانة، وما أبعد القرآن، مع وضوحه وبيانه واهتمامه بما يصلح النّظام الاجتماعي، ويقيم التصور السليم للكون،ما أبعده عن الكهانة.فالكاهن يخبر عن جزئيات من الغيب يدعي معرفتها، ويصوغها في جمل قصيرة مسجعة، مع تعميمات قابلة للتأويل. ومع قوة قدراتك العقلية، ونظرتك المحللة الكاشفة عن الخفايا التي تدركها بفكرك الملهم، يقولون: إنك مجنون. فما أنت بنعمة ربك عليك بمجنون، وقد تبوأت من الفطنة والذكاء أعلى مقام.

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

ريب : الحوادث والمصائب.

المنون : الموت،أو صروف الدهر.

تأمرهم : تبعثهم.

أحلامهم :عقولهم.

حديث : كلام.

الخزائن : جمع خزينة، الظرف الذي يخزن فيه الرزق.

المصيطرون : المتسلطون.

بيان المعنى الإجمالي :

امتلأ المشركون غيظا، فاجتمعوا في دار النّدوة ليتدبروا أمرهم في مقاومة الرسول ﷺ، فقال أحدهم هو شاعر ننتظر أن يهلك كما هلك قبله شعراء كثيرون. ورد القرآن عليهم آمرا الرسول أن يتحداهم بقوله: انتظروا، وما تنتظرونه أمل ضائع، وإني منتظر أن يحل بكم عقاب الله، وهو آت لامحالة.

يدعون أنهم ذوو عقول راجحة،فهل هدتهم عقولهم إلى تلك السخافات والتناقضات؟ بل إن استكبارهم وطغيانهم حجبهم عن الإذعان للحق.
أنكر عليهم أقوالهم أن القرآن من كلام الرسول الذي نسبه إلى الله، إنهم كاذبون في تهمتهم هذه، ومحمد عربي مثلهم أتاهم بالقرآن فليأتوا بكلام مثله، وهم مثله عرب، وعجزهم يقوم شاهدا على كذبهم، وأنه ليس من طوق البشر .
ينكرون البعث.أفلم ينظروا إلى أنفسهم فهل خلقوا من غير شيء، أم هم الذين خلقوا أنفسهم ؟ لا يستطيعون أن يقروا بأي واحد من الاحتمالين، فالله الذي خلقهم قادر على أن يبعثهم يوم القيامة للحساب. وهل خلقوا السماوات والأرض وما تعمر به من كائنات. ولكن الشواهد تقوم منادية بالقدرة العظمى لله، وإعادة خلقهم ليُبْعثوا ويجازى كل بما قدم، أيسرُ. ولكنهم يفرون من كل ما يهدي إلى اليقين.
واعترضوا منكرين أن يكون محمد رسولا، وأن الرسول لابد أن يكون رجلا متميزا بجاهه وماله. ما أجهلهم ! إن إسناد مهمة الرسالة من فضل الله، وهو المتصرف وحده في خزائن فضله المادية والمعنوية،فهل يملكون شيئا من تلك الخزائن حقيقة أم سلطهم الله عليها بتوكيلهم حتى يستبعدوا محمدا. وليس لهم شيء من ذلك.
ونفوا أن يكون رسولا، فهل صعدوا إلى السماء بسلم فاستمعوا إلى الملأ الأعلى ينفي الرسالة عن محمد. فليأتوا بخبر من أخبار الغيب سمعوها ليكون حجة لهم على بلوغهم منازل الاستماع. إنهم أحقر وأشد عجزا من ذلك

بيان المعنى العام :

30- أم يقولن شاعر نتربص به...من المتربصين.

تحير المشركون وقد استولى عليهم اليأس من وجود مطعن معقول يردون به قوة الحق الصادع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، تآمروا مجتمعين وفرادى لرميه بافتراءات، علهم يستطيعون بذلك توقيف المد الإسلامي، الذي تيقنوا أنه لاستجابته إلى الفطرة، ولما يتميز به رسول الله من أخلاق عالية،سينتهي إلى هزيمتهم فيزول الشرك، وتتحطم الأصنام، ويرتفع الظلم والاستبداد والتسلط على الضعفاء والمحرومين.رد القرآن عليهم في الآية السابقة.فما هو كاهن ولا مجنون. ثم انتقل ليهدم قولهم: إنه شاعر، يُجنِّح به خياله في تصورات خادعة. وأمره هين تبعا لذلك فنحن نتربص به، أي ننتظر أن يموت فتموت معه خيالاته، كما ذهب الشعراء الذين سبقوه.وهذه مقالة قالوها فعلا لما اجتمعوا في دار النّدوة ليدبروا أمرهم في شأن الدعوة الإسلامية فقال أحدهم :تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر

سيهلك كما هلك زهير والنابغــة والأعشــى وغيــرهم، فــاعجبوا بهــذه المقالــة وتفرقــوا يرددونها في المجامع.كما يمكن أن يفهم: أنا ننتظــر بــه ضــربات الــدهر، مــن المــوت إلى العجز، إلى تحوله عن مكة، إلى تراجعه عن دعوته. وعن قريب نستريح منه.

- هو وعيد في صيغة أمر : أوعــدهم أن مــا ستتكشــف عنــه الأحــداث هــو هلاكهــم. فأنتم تتربصون بي ما أنا سالم منه، وأنــا أتــربص أن أشــاهد مــا سيســلط علــيكم مــن عذاب وخزي، وهو واقع لا محالة.

32-أم تأمرهم أحلامهم...طاغون.

انتقال من تهديدهم بأنه سيحيق بهم عذاب الله، وأن الرســول ينتظــر حلــول تلــك قريبــا بهم. ثم أضرب عن تلك المعاني ليتحول نظرُ الســامع إلــى شــيء جديــد فــي تبكيــتهم. إن أمرهم لعجب، فهم يدعون أنهم أصــحاب العقــول الراجحــة، والقــدرة علــى التــدبير في تؤدة، وكانت قــريش يُــدْعوْن أهــل الأحــلام والنهــى. ومــا دار النّــدوة إلا مظهــر لذلك. عجب كيف تأمرهم عقولهم التي يعتزون بهــا وتبعــثهم ليقعــوا فــي هــذه الأقــوال المتناقضة والكاذبــة: شــاعر، كــاهن، كــاذب، مجنــون، مختلــق. وأصــحاب العقــول الراجحة لا يقعون في مثل هذا التناقض، ولا في مثل هذه السخافات.

أم هم قوم طاغون - إضراب مع استفهام، انتقال مــع ســؤال، دع عنــك ادعــاءهم أنهــم أهل الأحلام والنهى.فهم في الحقيقــة قــد تمكــن الطغيــان مــنهم ،والاســتكبار والتجبــر. فكوّن ذلك حجابا على بصائرهم، كأنهم لا عقول لهم.

33-أم يقولن تقوله بل لا يؤمنون.

ينتقل القرآن بهم من مقام إلــى مقــام ليكشــف ســقط مــا اســتندوا إليــه مــن أوهــام. أيروّجون لدى الدهماء أن محمدا نســب إلــى الله كلامــا هــو مــن عنــده. كــذبوا فيمــا يروجونه. بل إن الواقع أن كفرهم هو الذي بعثهم على الافتراء والكذب.

34- فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين.

يتحداهم القرآن أن يقدموا كلاما مساويا للقــرآن فــي انتظامــه لصــلاح البشــر صــلاحا عاما، ويبلغ درجته في البلاغة. محمد إنسان عربــي وقــد أتــى بــالقرآن الــذي تــدعون أنه من نسجه، وأنتم عرب مثله، فقــدموا كلامــا يســاويه بــأي طريقــة شــئتم إن كنــتم صادقين في ادعائكم أنه من عند غير الله.فعجزكم يكذبكم فيما تقولون.

35- أم خلقوا...أم هم الخالقون.

معارضات المشركين لما جاء به الإسلام عديدة. منهــا إنكــارهم للبعــث إنكــارا شــديدا. فكشف القرآن عن قصر نظرهم، وأثارهم للإجابــة بإلقــاء الإنكــار علــيهم فــي صــيغة

سؤال. ليعودوا إلى أنفسهم فهل خلقوا من عدم، ولا يستطيعون إلا الإقرار بذلك، وإذا كان الله أوجدهم من عدم فهو قادر على بعثهم إذا تحللت أجسامهم واختلطوا بالتراب. والإعادة حسب مقاييسهم أيسر من البدء. وكذلك يمكن أن يفهم السؤال أخلقهم الله لغير غاية خلقا عبثيا الأمر الذي تنفيه الحكمة الظاهرة من الخلق. فما أوجد الحكيم الخلق ليستوي الصالحون والخبثاء، والخير والشر. بل لا بد أن يكون الخير مجزيا حسبما قدم، والشر كذلك. وهذا لا يتحقق إلا بالبعث. أم يدعون أنهم خلقوا أنفسهم، وقدم هذا الاحتمال استهزاء بهم.ذلك أنهم لا يمكن أن يدعوا ذلك، وإذ سقطت الاحتمالات تعين أن إنكارهم للبعث خارج عن المعقول.

36-أم خلقوا السماوت...بل لا يوقنون.

سؤال يرتقي بهم من إظهار أنهم لم يخلقوا أنفسهم إلى سؤال اخر لو تأملوا فيه،على ظهوره،لأقروا بأن الله قادر على البعث. فهم يشاهدون السماوات على عظيم خلقها وواسع أبعادها، وما يعمرها من كواكب، ويمشون على الأرض بجبالها ووهادها وأوديتها وسهولهاويشاهدون ما يسير على ظهرها من حيوانات وما تنبته، فهل خلقوا ذلك ؟ هم يعترفون أنهم أبعد من أن يتصور منهم خلق السماوات والأرض، ولكنهم لا يبحثون بعقولهم، وإذا دمغتهم الحجج البينة يفرون من الإذعان لها، ومن أن يحصل لهم اليقين عنادا وإن قامت الأدلة.

37- أم عندهم خزائن...المصيطرون.

سلّم القيم عند المشركين يقوم على قوة المال والجاه. ومن أكثر مالا وأعظم جاها تأهل للسؤدد ونفاذ أقواله في المجتمع. ولم يكن محمد من أصحاب الثراء، ولا الجاه المكتسب بالعصبية، ولذلك استبعدوا أن ينال الرسالة، فرد ليس من ذوي الشوكة في مجتمعهم.فقرعهم القرآن، ما هذا التطاول ؟ إن النبوة من رزق الله. ومن خزائن فضله، يصطفي من يشاء لتحمل رسالاته،وقد نص القرآن على ذلك بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالاته)[1]-فاختار محمدا وهيأه لتحمل شرف الرسالة. ومن الوقاحة اعتراضكم على هذا الاختيار، فليس لكم من الأمر شيء. أم هل مكنكم الله من السيطرة على خزائنه، فتقدمون من تشاؤون وتؤخرون من تشاؤون.

38- أم لهم سلم يستمعون فيه...بسلطان مبين.

سندهم في نفي رسالة محمد مع أنها رزق من الله يتصرف فيه وحده، وليس لهم أي تسلط على خزائن رحمته في قليل ولا كثير، لا في المعنويات ولا في

---

[1] سورة الأنعام 124

الماديات، أسقط اعتراضهم علـى اختصـاص محمـد صـلى الله عليـه وسـلم بـالنبوة. وآخر ما يتصور أن يستندوا إليه في نفيهم الرسالة عنـه، أن يقولـوا : إنـا اسـتمعنا إلـى ما يجري في الملأ الأعلى، ومحمد لـيس رسـولا، وهـي دعـوى تسـتدعي السـخرية، فهل لهم سلم يصعدون درجاته، حتى بلغوا السماء، فجلـس عليـه سـفيرهم يسـتمع إلـى ما يتحدث به في الملأ الأعلى، وتبين له من هو الرسول ثـم أخبـرهم بـه.ومـن البـديهي أنه لم يقتصر سمعه على كون محمد رسـولا، بـل لا بـد أنـه اسـتمع إلـى كثيـر مـن الغيب، والحالة تلك، فليأت هذا المستمع بشيء من الغيـب الـذي اسـتمعه، حتـى يعتبـر ذلك حجة له على صدقه. وأنى لأي فرد أن يبلغ ذلك المستوى.

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

المغرم : ما يفرض من إتاوة بدون حق.

الغيب : ما غاب عن علم الناس.

الكيد : التدبير للإضرار خفية.

الكسف : قطعة من السماء.

المركوم : المجموع بعضه على بعض.

يلاقوا : يحلون فيه.

الصعق : الإغماء بسبب الخوف.

لا يغني : لا يفيدهم.

بأعيننا : بمحل العناية منا، في حفظنا ورعايتنا.

بيان المعنى الإجمالي :

يسألهم القرآن ليفضــح خلطهــم، أتنســبون لله البنــات، وهــي فــي مقــام أحــط حســب أعرافكم؟ وتجعلون الذكران لكم. فتفضلون أنفســكم علــى الله العلــي الأعلــى. واحتمــال آخر أنهم نفروا من قبول الإسلام لئلا يدفعوا لك يــا محمــد مــالا مقابــل هــدايتهم، فهــل طلبت منهم شيئا ؟وقد سبق قولــه تعــالى: **قــل لا أســألكم عليــه أجــرا**. أم إنكــم تفيــتم رسالة محمد لأنكم اطلعتم على الغيب، ووثقتمْ ما وجــدتموه فيــه و لــم يــذكر أن محمــدا رسول. وما أبعدكم عن هذا المستوى، مع إنكاركم للغيب، وعبادتكم للأصنام.

هل إن الكافرين يُعدُّون المخططات للإضرار بمحمد ومــن معــه فــي خفــاء. إن كيــدهم سيكون في نحرهم وسينفذ فيهم ما أعده الله لهم من نكال.

سؤال انكاري مع توبيخ وتهديد، أيعتقــدون أن لهــم إلهــا غيــر الله يبــين لهــم الطريــق، مطالبون باتباعه.تنزه الله عما يقوله المشركون هو واحد لا شريك له.

قويَ عنادهم وقلبهم للحقائق، فلو شاهدوا قطعا نازلــة مــن الســماء لقــالوا هــذا ســحاب متراكم سيمطرنا. فلا تأسف لمواقفهم تلك واتركهم حتــى يطبــق علــيهم عــذاب الله يــوم الحشر فتراهم صرعى وما هم بصرعى ولكــن عــذاب الله شــديد. إنــه اليــوم الــذي لا ينفعهم كيدهم ولا يجدون نصيرا ينصرهم.

وهدد القران الذين ظلموا وهم المشــركون أن الله أعــد لهــم عــذابا قبــل عــذاب يــوم القيامة كما تم فــي وقعــة بــدر، و القحــط الــذي ســلط علــيهم ســبع ســنين متواليــة. واستدرك بما يفيد أنهم غافلون عن تحقق ما أوعــدهم الله بــه لأن كثيــرا مــنهم مغرقــون في الجهل. ثم أرشد القــرآن النبــي ﷺ ليواصــل صــبره و لا يحــزن ولا ييــأس رغــم تصلبهم في الكفر. وما يعدون لك من مكــر، فإنــك يــا محمــد فــي حفظنــا ورعايتنــا. وداوم على تسبيح ربك بتنزيهه، وحمــده فــي الوقــت الــذي تقــوم فيــه مــن الليــل أو عندما تتحول من مجلسك. وكذلك سبح ربــك واحمــده بعــض أوقــات الليــل، وخاصــة وقت السحر عندما تأخذ النّجوم في الاختفاء.

بيان المعنى العام :

39ـ43 : أم تسألهم أجرا....عما يشركون.

تتابع الأسئلة الكاشفة عن افتراءاتهم، وعــن تصــوراتهم الباطلــة.فيســألهم القــرآن إنكــم تروّجون أن الملائكة بنات الله.لقد جمعتم بــين أمــرين تنــزه الله عنهمــا. أحــدهما أنكــم جعلتم لله ذرية، وتعــالى الله أن يكــون لــه ولــد، وثانيهمــا أنكــم جعلــتم أولاده إناثــا. وحسب أعرافكم الاجتماعية فــإن الــذكور هــي التــي يعتــز بهــا الوالــد، ويغــتم الأب بالإناث. فكيف تنسبون لله العظيم ما تكرهون.

-توجه السؤال للرسول، هل طلبت منهم أجرا على الهداية التي تبينها لهم، فثقل عليهم أداؤها فنفروا حفاظا على أموالهم؟ والجواب عن هذا السؤال بين واضح، ولكن الغاية منه نفي كل ما يمكن أن يتعللوا به في صدودهم عن الإسلام. وفيه تلميح لشدة حبهم للمال، وتقديمه على كل شيء.

- وسؤال آخر حاصله: إنكم تنفون أن يكون محمد رسولا، فهل اطلعتم على الغيب، فسجلتم ما فيه، وثبت عندكم بذلك ما ينفي كونه رسولا؟ إنهم أميون الجهل بالكتابة ظاهرة فيهم. ومع ذلك فإشراكهم بالله وعبادة الأصنام تجعلهم في موقف مقابل للغيب فضلا عن إمكان الاطلاع عليه.

- ما ذا يقصدون بكل ما ذكر، مع تبين أنه لا يقوم على أساس؟ أهم يدبرون للرسول وللإسلام خفية مخططات تمكنهم من الإضرار بهما، وهم على قدر كبير من الخبث، واجتمعوا في دار الندوة مثلا، وخططوا ما يحبطون به الدعوة، وما يؤذون به رسول الله ﷺ، وما يفككون به وحدة أتباعه. يسخر القرآن منهم، مثبتا أن الذين كفروا هم الذين سينفذ فيهم ما أعده الله لهم من النكال، وهم جاهلون به.وسمي كيدا وهم مكيدون ليشاكل ما خططوا له.

- وتختم الأسئلة بسؤال، يمثل خلاصة دعاويهم التي أبطلها القرآن فيما توالى من الأسئلة السابقة،بإبراز منبع الهلاك الذي وقعوا به فيما وقعوا فيه من الشرك وتوابعه. فقال: ألهم إله يهديهم إلى ما التزموه، فيكون استنادهم إلى ما يأمرهم به لهم به وجه من العذر؟ فافتتح الجواب عن هذا الاحتمال بقوله تعالى : سبحان الله.تنزيه كامل لله أن يكون في الوجود إله غيره يأمر. أو أن يكون له شريك.

44-وإن يروا كسفا...سحاب مركوم.

تدربوا على المكابرة حتى أصبحت لهم ملكة. فلو رأوا السماء تنزل عليهم قطعا،كما طلبوا ذلك.قال تعالى : (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا[1])- لكابروا وقالوا ما هو إلا سحاب تراكمت طبقاته.

45-فذرهم حتى يلاقوا...ولا هم ينصرون.

مع هذا التصميم على العناد الذي بلغ بهم إنكار المحسوس، اتركهم ولا يهمك أمرهم،وواصل ما أنت عليه من تبليغ وحي الله إليك،فإنهم صائرون إلى اليوم الذي تشتد أهواله يوم القيامة والحشر، فتراهم صرعى وما هم بصرعى ولكن عذاب الله في هذا اليوم يوم القيامة شديد.

---

[1] سورة الإسراء آية 92

- في هذا اليوم لا يفيدهم شيئا ما أعدوه من مكـر، ومـا تـآمروا بـه، ومـا عقـدوا لـه الاجتماعات لتقليب أوجه النّظر في المخلص مما جـا ء بـه محمـد. فـلا مخلـص لهـم من العذاب، ولا يجدون نصيرا ينصرهم. يطبق عليهم العذاب لا محالة.

47-وإن للذين ظلموا عذابا...ولكن أكثرهم لا يعلمون.

هذه الآية تهدد المشركين، بأن الله سيسلط عليهم عذابا فـي الـدنيا قبـل عـذاب الأخـرة، وهو أقل منه وقريب. فعلا قد نفذ الله فيهم وعيده يوم بـدر، وبـالقحط الـذي نـزل بهـم. واستدرك أنهـم يسـمعون تهديـدك ولا يرتـدعون، لأن أكثـرهم قـد انغلقـت عقـولهم فأصبحت لا تتمكن من العلم، إذ العلم محجوب عن المعاندين.

48-←49- واصبر لحكم ربك...وإدبار النّجوم.

اصبر وليكن عزمك على مواصلة الدعوة قويا رغم ما يعترضك من صعاب من تصميمهم على العناد، واختلاق الأكاذيب، وفتنة متبعيك، وتدبيرهم أنواعا من المكر بك مع شدة خبثهم. ولحكم ربك معناه على ما حكم به ربك من تخليتهم وعدم تعجيل استئصالهم، وعلى ما كلفك به من تبليغ هداه، ولأن ما تلاقيه هو ما حكم به ربك. واعلم أنك في رعايتنا وحفظنا، فمكرهم لا يصل إليك، وإنهم سيهزمون، وسينتشر دينك في الآفاق.

وسبح... أمر بالمداومة على تسبيح الله وتنزيهه عـن كـل نقـص، واستحضـار كمالاتـه وذكره باللسان : سبحان الله، سبحانك اللهـم وبحمـدك. سـبحانك اللهـم ربنـا وبحمـدك ولا إله غيرك. بحمد ربك مصاحبا التسبيح بالحمد.

وقوله **حين تقوم**. يحتمل أن يقصد به وقت قيامـه مـن الليـل، أو وقـت قيامـه للعمـل، أو عند قيامه من مجلس. روى الترمـذي عـن أبـي هريـرة أن النّبـي ﷺ قـال : (مـن جلس مجلسا كثر فيه لغطه فقـال قبـل أن يقـوم مـن مجلسـه ذلـك : سـبحانك اللهـم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أسـتغفرك وأتـوب إليـك، إلا غفـر لـه مـا كـان فـي مجلسه ذلك) ولم يذكر أنه مرتبط بهذه الآية.

كما يحتمل أن يكون المراد بالتسـبيح الصـلاة، بمـا يشـمل صـلاة الفـرض كالصـبح، وصلاة النّافلة كالتهجد وصلاة الفجر. والاحتمالان لا يتنافيان فتحمل الآية عليهما.

-كما أرشدت الآية السابقة إلى التسبيح حـين القيـام، وذكرنـا الاحتمـالات التـي ينطبـق عليها نص الآية، فإن هذه الآيـة أكملتهـا بالإرشـاد إلـى التسـبيح، أي والتحميـد، فـي الليل، مثلا عندما يريد النّوم وإذا أفاق من نومـه، وخـص وقـت إدبـار النّجـوم، وهـو وقت احتجاب النّجوم، وهو وقت السحر. وهو وقت يكون الإنسـان قـد أخـذ حظـه مـن النّوم ونشط ذهنه، فالتسبيح والتحميد في هذا الظـرف يغـذي روحـه، وهـو مقْـدمٌ علـى نهار جديد.

سورة النّجم

هذا هو الاسم الذي عرفت بـه فـي المصـاحف، وفـي كتـب السـنة، وفـي بعـض الروايات: والنجم باسم القسم المفتتحة به: بحـذف حـرف القسـم، وبإثباتـه. أجمـع أهـل العلم على أنها نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. وهـي الثالثـة والخمسـون حسـب ترتيـب المصحف؛ والثالثة والعشرون حسـب ترتيـب النّـزول نزلـت بعـد سـورة الإخـلاص، وقبل سورة عبس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

هوى: ميله إلى الغروب.

الضلال : سلوك ما ينافي الحق.

الهوى : تقديم النفس ما تحبه على ما يرجحه العقل والحق.

شديد القوى: قدراته تمكنه من تنفيذ ما يؤمر بتنفيذه

ذو مرة: صاحب عقل راسخ.

الأفق: الناحية.

دنى : قرب.

تدلى: هذا القرب ليس قرب التحام، ولكن بقيت مسافة مرتفعة.

القاب :المقدار، وما بين مقبض القوس وطرفه الذي هو السية.

أو أدنى : أي أقل.

ما كذب : ما تخيل.

أفتمارونه: أتجادلونه لإبطال ما شاهد بعينيه.

الفؤاد : العقل.

بيان المعنى الإجمالي :

قسم بجنس النّجوم اللامعة في السماء بالليل، والتي يهتدي بها السائرون في الليل برا وبحرا. ويتواصل الاهتداء بها إلى أن تغيب. وهو قسم بمخلوقات عظيمة، وبتأثيرها في الإنسان هداية. والمقسم عليه أن محمدا الذي صحبكم فعرفتم كمالاته وصدقه وأمانته، سائر على طريق الهدى الصريح، ما وقع في حيرة ،ولا انحرف إلى الفساد. فهو المهتدي الراشد، وكل ما يحدثكم به هو الحق المستند إلى ما يأتيه من ربه وحيا عن طريق الملك الموكل بذلك. تولى الملك جبريل عليه السلام تعليم النّبي صلى الله عليه القرآن والحقائق التي يكلف بإبلاغها إليه. وجبريل قوي جدا يستطيع تنفيذ ما يأمره الله به، وهو مع ذلك مفتوح عليه يدرك الحقائق على ما هي عليه. وهو عند تلقيه الوحي من الله يتهيأ لذلك أفضل التهيؤ.

يتلقى جبريل عليه السلام ما يأمره الله بتبليغه وهو في المقام الأرفع والأعلى حسا ومعنى. ثم إنه بعد أن يتلقى المهمة ينزل إلى محمد فيكون مرتفعا على الأرض بينه وبين رسول الله مقدار قاب قوسين، وذلك نحو أربعة أذرع أو أقل من ذلك. وعند هذا المستوى من القرب أوحى الله إلى عبده محمد بواسطة جبريل الوحي العظيم الأفخم. إن محمدا لقي جبريل وكان عقله واعيا ليس في المنام، بل في الواقع المرئي. ومن لجاجكم أنكم تجادلونه فيما رآه حقا، فتنكرون عليه حتى ما شاهده ببصره؟

بيان المعنى العام :

1 –10، والنجم إذا هوى...فأوحى لعبده ما أوحى.

افتتحت السورة بقسم " والنجم" فما المراد من النّجم؟ للمفسرين آراء في ضبط المراد منه.

فذهب بعضهم إلى أنه يدل على جنس النّجم، الكواكب اللامعة في السماء ما عدا الشمس والقمر. ويحتمل أن يراد به نجم الثريا الذي كان يضبط للعرب تغيرات فصول السنة. ويحتمل أن يراد به الشعرى وكانت معظمة عند بعض العرب. ويحتمل أن يراد به الشهب الراجمة للشياطين التي يلاحظ سرعة تحركها في السماء. وكل هذه الاحتمالات لم تخرج عن ربط المفهوم بما يظهر على صفحة السماء في الليل. وذهب بعضهم إلى أن المراد بالنجوم مقادير من القرآن التي تنزل

مفرقة على رسول الله ﷺ، فكل وحدة نزلت عليه تسمى نجما. وفي هذا خروج عن المعنى الأصلي للنجم إلى معنى مجازي.

المحامل كلها يقبلها النص، والأظهر القول الأول. أقسم به لأن كواكب السماء التي تبدو لامعة في السماء بالليل، وهي أجرام عظيمة، يحكمها تقدير عجيب في مساراتها. وملاحظتها تهدي السائرين ليلا لمعرفة موقعهم والاتجاه الذي يبلغهم ما يقصدون. إن المُقسم به أمر عظيم سواء راعى النّاظر أجرامها وأعدادها التي لا تحصر، ونظام سيرها، أو راعى استفادة الإنسان منها لتبين طريقه الهادي إلى الغاية التي يقصدها. وذلك شأن الأقسام القرانية فيها لفت للقدرة الإلهية وللحكم الربانية.

وأقسم بالنجم في حال بلوغه غاية ظهوره إذا هوى فمال للغروب.

والمقسم عليه : **ما ضل صاحبكم وما غوى**. وهي ثلاث كلمات تستوقفنا كل واحدة منها.

أما الضلال، فهي الحالة التي يكون عليها الانسان حائرا لا يفرق بين الجهة التي فيها سلامته، و بين الجهة التي فيها عطبه.

وأما الغواية، فهي اتباع طريق الشر لفساد في عقل الغاوي. فالضال حائر، والغاوي ممعن في الفساد. فهو ﷺ مهتد و راشد.

والصاحب هو محمد ﷺ، وأطلق عليه لفظ الصاحب إيقاظا للمشركين، إلى أنه نشأ بينهم، عرفوه صبيا وشابا وكهلا، ما استرابوا يوما في خلقه وصدقه وعقله، وقد كانت العرب إذا تمرد أحد أفراد القبيلة، يخلعونه ويسقطون عنه الجنسية حسب تعبيرنا اليوم. كيف وقد لقبوه بالأمين قبل أن يوحى إليه.

ووجه المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، يستدعي تأملا وتعمقا، والمحاولات التي اطلعت عليها لم ينشرح لها صدري. لأنها كلها تعبر عن الإشكال وتتأول الجواب عنه بما لا يثلج الصدر. والذي انقدح في نفسي: أن الله أقسم بالنجوم وهي منيرة هادية، كما قال تعالى: (**وبالنجم هم يهتدون**[1]) وهي هداية من السماء. والمهتدون بها يرقبونها من تاريخ طلوعها إلى وقت هويها. وكذلك الأمر بالنسبة لهداية الله للبشر كانت بواسطة ما ينزل على رسله من السماء كالنور الواصل من النجوم. ابتدأت مع ظهور أول رسول وتتابعت إلى محمد خاتمهم. وبه بلغ الوحي السماوي غاية مساره. فتآلف القسم والمقسم عليه.

---

[1] النحل آية 16

-ومع نفي الضلال والغواية عنه، نفى القرآن أمرا ثالثا أن يكون ما ينطق به صادرا عن هوى تزينه النفس ولا ينطلق من الحق الأيقن. فما ينطق به من القرآن، أو ما يخبر به عن ربه ليس مستندا إلى هواه، ولكنه نابع من معين الحق الأبلج.

-ما الذي يخبركم وينطق به، إلا وحي من عند الله. فهو لا يأتيكم بشيء من عنده. فأسقطت الآيات كل ما نسبوه إليه باطلا، من الجنون، السحر، والشعر، والكهانة، والافتراء، وتعلمه من بشر. وانفرد بجمعه لصفات الكمال الإنساني فهو المهتدي، الراشد، منطقه الحق الذي لا ريب فيه، مستند إلى وحي الله.

- علم ملك قوي كأشد ما تكون القوة، علم محمدا الوحي. والمراد به عند المفسرين جبريل ﷺ. وشدة قوته تدل على تمكنه من تنفيذ ما يأمره الله به من المهام والأعمال العظيمة.

ذو مرة – المرة رجاحة العقل وأصالة الرأي، وذو تفيد قوة ما أوتيه من ذلك. ولذلك فمع أنه كان يتحمل القرآن ويبلغه، الذي وصفه الله : (**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**[1]) كانت فتوحاته الإدراكية تساعد الرسل والأنبياء.

فاستوى- بعد أن وصفه بالقوة الكاملة، والعقل السليم الصحيح، رتب على ذلك أنه مع تلكم المؤهلات، تهيأ التهيؤ الكامل، عندما تلقى الوحي من الله ليبلغه.وأي شيء أعظم من كلام الله يتلقاه الملك من رب العزة، ويؤتمن على تبليغه وتوضيحه. وقد كان النبي ﷺ يسأل جبريل. وظهر بصفة جلية في حديث الإسراء والمعراج.

- **وهو بالأفق الأعلى** – الأفق يطلق ويراد به الناحية، كقوله تعالى **سنريهم آياتنا في الآفاق**[2] ويطلق ويراد به ملتقى الأرض بالسماء في نهاية مد البصر. والمعنى الأول هو الذي ينبغي حمل الآية عليه. والأعلى بمعنى الأرفع من غيره. والضمير يعود إلى جبريل ﷺ، أن منزلته أرفع منزلة وأعلى مقام. ثم اقترب من رسول الله ﷺ فكان متدليا لم يستقر على الأرض فيتحد مجلسه ومجلس رسول الله ﷺ ، ولكنه كان فوق الأرض وغير متصل بها.

- **فكان قاب قوسين** – القاب يطلق ويراد منه المقدار، ويطلق على ما بين مقبض القوس، وطرفه الذي يشد فيه الوتر. وله طرفان، كل واحد منهما يطلق عليه لفظ القاب. وهو من عود نبع يقوس ويشد بين طرفيه بوتر من جلد، يجذبه الرامي بعد أن يثبت النبل من المقبض، ثم يرسله فيبلغ السهم مسافة طويلة وينفذ في الهدف.

[1] سورة المزمل آية 5

[2] سورة فصلت آية 53

ولما كان لكل قوس قابان، والنص :قاب قوسين، فحمله قابي قوسين، ولاستثقال تتابع التثنية وحد القاب وأبقى القوسين على التثنية أي قابي قوسين، ويرى بعض علماء اللغة، أن في الكلام قلبا، وأن المراد قابي قوس. وهذه المسافة تكون مقدار ذراعين أو أربعة أذرع. إذ طول كل قاب ذراع. ثم دقق القرآن بقوله أو أدنى أي أقل مسافة من ذلك. والمقصود إثبات القرب بين الرسول وبين جبريل، فهو يعي منه كل ما يقوله ويُبلّغهُ من الوحي.

-عندما يبلغ جبريل المستوى الذي يكون فيه قريبا من رسول الله ليس بينهما إلا مقدار قاب قوسين أو أدنى، يتهيأ جبريل لبث ما يحمله من الوحي ويتهيأ الرسول لقبول الوحي العظيم الأفخم. الذي هو الحق الخالص. ولم يعرّف ما أوحى وأبقاه منكرا إيماء إلى فخامة محتوى الوحي.

11—13، ما كذب الفؤاد...أفتمارونه على ما يرى.

لم يكن المشهد الموصوف، والذي أخبر به النبي ﷺ قومه عندما دعاهم إلى الإسلام، من تلقيه الوحي مباشرة عن جبريل، وأنه لقيه فعلا، لم يكن ذلك خيالا ولا تخييلا. بل إن عقله المتحكم في حواسه كان في حالة وعي كامل وصفاء. ثم ينكر عليهم أن يجادلوه فيما رآه بعيني رأسه رؤية محققة. أبلغ بكم الجدال أن تجادلوه فيما رآه وأحس به كما تجادلونه فيما يخبركم به عن الله؟

وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

نزلة: مكان من نزوله.

السدرة: واحدة السدر وهي شجرة النَبق.

المنتهى: المقام الذي يقف عنده، ولا يتعداه أحد.

بيان المعنى الاجمالي :

بكل تأكيد رأى محمد جبريل مرة أخرى، وذلك عند سدرة المنتهى، السدرة التي ينتهي إليها علم الخلائق جميعا ولا يجاوزونها، وما وراءها مما اختص الله بعلمه. عند هذه الشجرة الجنة التي أعدها الله لعباده المتقين يأوون إليها بعد البعث. رآه في الوقت الذي كان ينزل على السدرة ما خصها الله به من التشريف والتكريم مما لا

تبلغ العبارة وصفه. رأى كل ذلك رؤية حقيقية ما مال البصر فخلط، ولا انضاف إليه ما حوّله عن حقيقته. بكل تأكيد لقد رأى محمد شيئا من آيات ربه وأدلته الكبرى على عظمته وجلاله.

بيان المعنى العام :

13–15، ولقد رآه نزلة...جنة المأوى.

بالتأكيد الكامل رأى محمد جبريل، مرة أخرى في نزوله وحلوله بالمكان الذي حل فيه. فمماراة ومجادلة قريش لمحمد تدل على العناد، فمحمد لم ير جبريل مرة واحدة بل رآه مرتين.

والمرة الثانية كانت عند سدرة المنتهى. والسدرة نوع من الشجر معروف عند الفلاحين. وسميت الشجرة التي رأى محمد عندها جبريل بالسدرة، وليس بينها سدر الدنيا أي تطابق، بل السدرة من شؤون العالم الماورائي. وحددها القرآن بأن عند تلك السدرة جنة المأوى. الجنة التي يأوي إليها المؤمنون يوم القيامة، أو الجنة التي تأوي إليها أرواح الشهداء

تنبيه : قرب القرآن حقائق من الماورائيات، أي التي تختلف اختلافا كليا عن قوانين الإدراك التي نشأ عليها الفكر البشري. قربها لفظيا بما تلقيه العبارات من صور في الذهن، تؤكد وجودها، ولكن حقيقتها ليس ما يعطيه الخيال لها. فإن خيال الإنسان منتزع من الوجود المادي في الحياة، وتلك مفاهيم أخرى وحقائق بعيدة كل البعد عما ألفناه في الحياة.

16-إذ يغشى السدرة ما يغشى.

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم جبريل ورآه عند سدرة المنتهى، في الوقت الذي كان يتنزل عليها، ويغشاها من الجلال والجمال الشيء الذي يتجاوز الوصف. هذا النوع من التعبير : (يغشى السدرة ما يغشى، أوحى لعبده ما أوحى) يدل على أنه مما يتجاوز الوصف اللغوي، ولتذهب النفس في تصور كماله ما تشاء. روي أنه غشاها نور ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وفي حديث الإسراء أنه غشتها ألوان لا أدري ما هي.

17-لقد رأى من آيات ربه الكبرى.

رأى محمد جبريل وسدرة المنتهى رؤية حقيقة ، لا خطأ فيها تثبّت منها، ولم يمل بصره عما رآه، ولا طغى البصر بتدخل الخيال بالزيادة أو التغيير.

18- بكل تأكيد لقد رأى محمد شيئا من ايات ربه، ودلائل عظمته، ومظاهر تصرفه وتكريمه، دلائل كبيرة عظيمة. تعبر عن تقريبه لمحمد وتشريفه، وأنه

مختار من بين الخلائق. صلى الله عليه وسلم ولقّانا به يوم البعث وأدخلنا وإياكم في شفاعته.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللات: صنم لثقيف عبدته قريش وكثير من العرب.

العزى :صنم: حجر أبيض عليه بناء كان ببطن نخلة عبده كثير من العرب.

مناة : صنم حجر بمكان اسمه المشلل بين مكة والمدينة عبده كثير من العرب.

ضيزى: قسمة جائرة.

يتبعون الظن :يتبعون الباطل.

ما تهوى الأنفس : ما تميل إليه نفوسهم تبعا لشهواتهم.

بيان المعنى الإجمالي:

عجب من أمركم ومن عبادتكم لهذه الأصنام الثلاثة التي عظمتموها، اللات، والعزى، ومناة ثالثة ضلالاتكم. وعجب لكم أيضا أنكم حسب أعرافكم الاجتماعية أن حظ من رزق الإناث، الحظ الساقط، ثم إنكم نسبتم لله الأولاد تعالى عن ذلك، ثم جعلتم هذه الأولاد إناثا. ما أوقحكم! فقد قسمتم قسمة جائرة لله البنات ولكم الذكور.

هذه الآلهة التي تعلقتم بها هي آلهة زائفة لا تعدو أن تكون أسماء بدون مسميات. سماها آباؤكم آلهة، وسرتم على ضلالهم، لا سند لكم من عقل ولا حجة من عند الله.

هي ظنون نابعة من أوهام اتبعوها وبنوها على شهواتهم النفسية. والعجب من تصلبهم في الضلال، فإن ربهم قد اعتنى بهم وبلغهم هداه.

بيان المعنى العام :

19←20- أفرأيتم اللات...الثالثة الأخرى.

كيف ترون هذه الأصنام الثلاثة اللات والعزى ومناة : إذا قارنتموها بما وصف من عظمة الله، ومقام رسوله ﷺ، ومقام جبريل عليه السلام. هذه الأصنام الثلاثة:

1) اللات :صنم من حجارة كان منصوبا بمكان المنارة في الطائف. وكانت ثقيف تعبده وتعتني به، وتبعهم في تقديسه أهل مكة وكثير من العرب. يقدمون لها

القرابين. ولما فتح الله قلوب ثقيف للإيمان أرسل رسول الله ﷺ من هدمها. وقد يكون اسمها تأنيثا لاسم إله إلهة. أو أنها مأخوذة من لات بمعنى إله وأدخلت عليها الألف واللام. كما يروى أن بعض العرب كان يلت عندها السويق ويقدمه قربانا للحاج. فسميت بعمله.

2) العزى : كان هذا الصنم ببطن نخلة بين مكة والطائف. واسمها مؤنث مشتق من العز. وكان جمهور العرب وقريش يعبدونها. وكانوا إذا شرعوا في عمل استعانوا باسميهما، فيقولون :باسم اللات باسم العزى.

3-مناة: صنم كان بالمشلل حذو قديد بين مكة والمدينة، وقد عبدها كثير من العرب، وتعلقت بها الأوس والخزرج فكانوا يطوفون حولها في الحج. وأتبعت بوصفين : "الثالثة" الأخرى" ويرى بعضهم أنها كانت أعظم الأوثان قدرا وأكثرها عابدا. فأتبعت بالوصفين لذلك. ويرى الزمخشري أن الأخرى صفة ذم، المتأخرة الوضيعة المقدار. ويمكن أن يفهم وصفها بالثالثة الأخرى إيماء إلى إبطال ألوهيتها وتهكما بها.

21-22- ألكم الذكر...قسمة ضيزى.

كانوا يعتقدون أن الملائكة إناث، في الوقت الذي كانت فيه أعرافهم الاجتماعية أن الأنثى أقل شأنا من الذكر، بل كانوا يتشاءمون بها، ويستحيون من الظهور عند ولادتها، ويعمد بعضهم إلى وأدها قال تعالى: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم *يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب[1]) (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم [2]) ووصف أعرابي الأنثى فقال : والله ماهي بنعم الولد، نصرها بكاء وبرها سرقة. أي بئس ما يرزق به المرء من الذرية، فهي لا تنصر قومها إذا أغاروا عليهم إلا بالبكاء والعويل. وإذا رغبت في البر بأهلها، فغاية أمرها أنها تسرق من مال زوجها لتبرهم. ومع هذه العقلية الساذجة السخيفة، هم يعتقدون في الله، ويجعلون معه الأصنام شركاء. ولكنهم لسفاهة آرائهم يجعلون الملائكة إناثا. ويقولون : هن بنات الله من سروات الجن. فهم قد جمعوا بين عقيدتين فاسدتين، أن نسبوا لله أولادا، وأن جعلوا أولاده إناثا. ثم أعقب ذلك بالتهكم عليهم أن قسمتهم : استأثروا بالذكور لأنفسهم، الجنس الأفضل والأكرم، وأن جعلوا لله الجنس الأقل والأدون. وهذه قسمة جائرة عوجاء.

---

[1] سورة النحل آية 58

[2] الزخرف آية 17

23- إن هي إلا أسماء...من ربهم الهدى.

أفيقوا من جهلكم، وتبينوا الحقيقة الواضحة أمام أعينكم، تأملوا في حقيقة الآلهة التي نصبتم حولها سدنة تقربتم إليها، وعبدتموها، اسألوا أنفسكم ما هي؟ إن الجواب واحد : إنها أسماء أنتم أطلقتم عليها اسم الآلهة، ولكنها في الحقيقة ليست بشيء. ضل آباؤكم من قبلكم، فاتبعتموهم على ضلالهم. وهي أمامكم عاجزة لا تبدي ولا تعيد. والعقل ينكر وينفي ألوهيتها، والله العلي لم ينزل عليكم حجة تثبت ألوهيتها، فلأي شيء تستندون في عبادتها ؟

إن يتبعون إلا الظن... وإذ كانت هذه الأصنام لا حقيقة لها، وهي أسماء بدون مسميات، فكيف انحرفوا لعبادتها وتعلقوا بها. كشفت الآية عن العلة في ذلك. أنهم لا يتبعون الحقائق، ولا يبنون تفكيرهم على ما هو صادق موثوق به، وإنما ينطلقون من أوهام، ولا يزالون يبنون عليها قصورا من الخيالات، ويرددونها في عقولهم حتى ينتهي بهم الأمر إلى قبولها والتصديق بها. فهذا هو الظن الكاذب المتطابق مع منشئه. وأما الظن المبني على الحقائق ومتابعة الخطوة الأولى بخطوات أخرى مع أخذ الحيطة في الترابط والبعد عن الخيال، فهو الظن المعتبر في التشريع وفي علاقة الإنسان بربه. وهذا ما يقوم به الفقهاء مثلا في مسيرتهم الاجتهادية، فهم بعد التأمل في النص، وفي القواعد التشريعية، وفي الواقع والمآلات، يعبرون عن حكم المسألة، ويصرحون بأن ذلك هو ما يظنون أنه حكم الله، وهو غاية ما كلفوا به، إذ لا يتمكنون من أكثر من ذلك.

ولقد جاءهم... والعجب من أمرهم أنهم يتبعون ظنهم المبني على الخيالات والأوهام، ويعتمدون هواهمْ فيما حصل لهم من الظنون. فهم قد انطلقوا من شهواتهم لا من الواقع، ولا من العقل، ولا من دليل مستند إلى الوحي. مع أنه قد بلغهم الهدى من ربهم الذي لم يهملهم، بل أسعفهم بهداه الذي بينه على لسان رسول كريم.

رد افتراء :

هذه الآية التي سخرتْ من آلهة الشرك المعظمة عندهم اللات والعزى ومناة، ونفت أن يكون لها سند من عقل أو حجة من وحي، وإنما هي أوهام استبدت بعقول المشركين، روج الطبري في تاريخه وفي تفسيره. أن رسول الله ﷺ لما بلغ هذه الآية ألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم...فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم....وأتى جبريل رسول الله صلى الله

عليه وسلم، فقال: يا محمد ماذا صنعت ؟ لقد تلوت على النّاس ما لم آتك به عن الله عز وجل وقلت ما لم يقل. فأنزل الله عليه يعزيه: (وما أرسلنا قبلك من رسول.....)[1].ثم شفعها برواية تشبهها بسند آخر - تاريخ الطبري ج 2ص341/337. وفي التفسير سورة الحج ج 17ص 192/186وجميع الروايات ضعيفة الإسناد. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور :هي قصة يجدها السامع ضغثا على إبالة، ولا يلقي إليها النّحرير باله. وما رويت إلا بأسانيد واهية، ومنتهاها إلى ذكر قصة. وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء من مجلس النّبي ﷺ. وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين، لأنها تخالف عصمة الرسول ﷺ. فلو رواها الثقاة لوجب رفضها أو تأويلها. فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى : أفرأيتم اللات والعزى إلى قوله ما أنزل الله بها من سلطان[2] فيقع في خلالها مدحها بأنها الغرانيق العلى، وهل ذلك إلا كلام يلعن بعضه بعضا والمتن مكذوب قطعا لما فيه من التناقض. ولمنافاته للمقطوع.

1) في الروايتين أن النّبي ﷺ قرأ إلى أن ختم السورة، وسجد. وبعد الآية: إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. مما هو تنصيص على أن الآلهة التي اتخذوها لا سند لها لا من العقل ولا من الوحي. فكيف مع هذا التنصيص يقبل المشركون آية يتبعها ما ينقضها ؟ ومعلوم أن العرب كانوا على حظ وافر من الدقة في التعبير، ومن البلاغة التي بسببها امن من آمن منهم بكتاب الله، وتحداهم فعجزوا. فمن السخف أن يقبلوا كلاما ينفي آخره أوله.

2)أن الشيطان لو كان له تسلط على رسول الله ﷺ لعاود التخليط عليه. إذ أن ما يهم الشيطان نزع الثقة منه.

3) قال تعالى : (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون)[3] وقال تعالى : هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم)[4] وبعد هذين النّصين اليقينيين نصا ومعنى، فإن كل رواية تناقضهما تكون رواية كاذبة.

---

[1] سورة الحج آية52

[2] التحرير والتنوير ج17ص304

[3] سورة الشعراء آية 210

[4] سورة الشعراء آية 221

ولكن المستشرق " رجس بلاشير" في ترجمته للقرآن أدخل في النص القرآني : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى. وأعطى لكل جملة رقما 20مكرر و20 مثلث، ولم يعلق عليهما بأي كلمة. الأمر الذي يكشف عن عدم أمانته العلمية، وعن حقده على الإسلام. وهو مستشرق فرنسي كان على اتصال وثيق بوزارة الخارجية الفرنسية،في المدة البغيضة التي كانت تونس فيها تحت الاستعمار الفرنسي. وقد أثر في بعض تلاميذه الذين كانوا يدرسون عليه العربية في جامعة الصربون.

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تغني : لا تفيد.

أعرض : لا تهتم.

تولى : لم يهتم ولم يستمع.

بيان المعنى الإجمالي:

تتسابق الأماني البشرية ليكون لها الحظ الذي تتصوره، والملك لله، فتعلق الإنسان بالأماني لا ينال به الإنسان ما تمناه، ولكنها تجعله يجري لا هثا وراء الخيال. إذ الأمر بيد الله يقسم لكل حظه، فهو سبحانه المالك لكل ما سيحدث في الدنيا، وكذلك حظ كل إنسان في الآخرة.

غصت السماوات بالملائكة فلا يحصي عددهم إلا الله، ومع هذا فإنه لا يتقدم أحد منهم ليشفع في أحد إلا أحس أن الله يأذن له في ذلك ويرضى عن تدخله. وإذا كان هذا أمر الملائكة المقربين، فمن السخف ظن المشركين أن آلهتهم الصماء تشفع لهم عند الله. إن الذين أطلقوا على الملائكة تسمية الأنثى، كان ذلك رشح عدم إيمانهم بالآخرة، فاقترن التخليط بتصوراتهم. إنهم أبعد ما يكون عن اليقين، يطلقون الكلام جزافا حسبما يصوره لهم الخيال، ثم يبنون على خيالهم الأول صورا تلائمه، فيكون

البناء كله خيالا في خيال.و الخيالات لا تفيد شيئا من الحق، بل هي ركام من الباطل. لا تهتم بمن صمم على عدم الاستماع لما تبينه من القرآن والذكر والهدى؛ وقصر اهتمامه على ما ينفعه في الحياة الدنيا لكفره بالحياة الآخرة. إن علمه لا يتجاوز المحسوسات الحاضرة، ولم يرقَ إلى إدراك ما يستنبطه العقل من الأدلة. التي هي أعظم ثباتا من المحسوس.

تأكد يا محمد: أن ربك هو العليم العلم الكامل بمن انحرف عن الطريق الموصل لما يرضي الله، وهو كذلك العليم العلم الكامل بمن تفتح على الحق واتبع ما يرضي الله. ويجزي ربنا بعدله الضالين بعذابه، ويجزي المؤمنين خير الجزاء باهتدائهم.

بيان المعنى العام :

24-25، أم للإنسان...الآخرة والأولى.

انتقال افتتح بكلمة "أم" ليستيقظ السامع لذلك. والمعنى هل يظن الإنسان أنه قادر على تحصيل أمانيه. وأن الحياة تنتظم لو كان ما يتمناه كل أحد يحصل له؟ إن الإنسان ليشقى باتباع أمانيه، التي تجعله شاعرا بالخيبات المتتالية والحرمان. الملك لله وحده يقسم بين عباده قسمة قدّرها بحكمته، فلا ينال أحد غير ما قُدّر له. ولا يبلغ الإنسان الهدى بأمانيه، فهؤلاء المشركون تمنوا أن تشفع لهم آلهتهم، وتمنوا أن ينزل القرآن على رجل آخر غير محمد. وتمنوا أن لو أنزل القرآن جملة واحدة. ونحو ذلك من الأماني التي عددها القرآن. ألا يتبصر الإنسان أنه لو حقق أمانيه، وقد يكون ما يتمناه هو عين ما يتمناه غيره، فإلى أي شي تفضي هذه الأماني المتعارضة ؟ هذا لا يكون لأن الذي نظم الكون، وهو مالكه، له كل شيء في الدنيا، وله كل شيء في الآخرة ؛ هو الله سبحانه. فانطلاق الأماني لا تقلب شيئا مما قدر في الأزل. وعلى الإنسان أن يعمل ويتوكل، أما النتائج فبيد الله. قد يتحقق للساعي ما أمله بعون من الله والطاقه التي تسعد بالتوفيق، وقد يخيب فيحرم لأن الله بحكمته حرمه من الطاقه المساعدة. وللإنسان نصيبه من المسؤولية.

26-وكم من ملك في السماوات...لمن يشاء ويرضى.

الملائكة هم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وهم على كثرتهم وتفاوت منازلهم من القرب، وحلولهم في ملأ النقاء الملأ الأعلى، وطهارتهم من الآثام، واستغراقهم في عبادة الخالق سبحانه، فإنهم مع ذلك لو اجتمعوا على الشفاعة لفرد واحد ما استجيبت شفاعتهم، ولا انتفع بها المشفوع فيه ولو بشيء قليل. وهذا الفرض يدل على أنهم لا يتقدمون للشفاعة دون سابق إذن لهم.

وقد مكنهم الله من الإحساس بمن يستحق الشفاعة فيه، ممن هو غير مؤهل لذلك. إنه بهذا الإحساس يتقدمون للشفاعة. لعلمهم برضى الله عن المشفوع فيه.

ويحتمل أنه لا يتقدم أحد الملائكة للشفاعة إلا إذا أحس أن الله قد أذن له في الشفاعة، ورضي منه قيامه بها. والآية نقض لما توهمه المشركون أن آلهتهم تشفع لهم، قال تعالى : (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله[1])

27 ← 28-إن الذين لا يؤمنون...لا يغني من الحق شيئا.

افتتح الآية بقوله "إن الذين لا يؤمنون بالآخرة " ليكون ما يرتبه على ذلك موحيا بأن سبب ما يأتي هو عدم إيمانهم بالآخرة. ترتب على عدم إيمانهم بالآخرة خلطهم، وبعدهم عن إدراك الحق. فمن خلطهم أنهم يصفون الملائكة بصفة الإناث. واعتقدوا أنهم إناث. وسموهم إناثا. والشأن أن التسمية تتبع تَعيُّن المسمى وتصوره تصورا متميزا. وبذلك كانت الأعلام معارف، وإن اتحدت. فمثلا " محمد " سمي به ملايين المسلمين، ومع ذلك فهو معرفة، جاء تعيُّنه من تعين الذات عند تسميتها، فالأب الذي سمى ابنه محمدا أطلق هذا الاسم اطلاقا خاصا بابنه، دون أن يخطر له على بال من سموا أبناءهم بهذا الاسم. والذين لا يؤمنون بالآخرة سموا الملائكة بتسمية الأنثى، وهم أبعد ما يكون عن إدراك حقيقتهم. فما لهم علم بهم، وإنما هي أوهام عششت في عقولهم، ثم بنوا على الأوهام الأولى أوهاما أخرى. وهذا شأنهم أنهم يتصورون التصور من الخيال، ثم يتابعون تصورهم، ويضيفون إليه إضافات. وما بني على الباطل لا يكون إلا باطلا، ولا يمكن أن يبلغ درجة القبول. وهو معنى قوله تعالى: (إن الظن لا يغني من الحق شيئا). فالحق لا يدرك إلا بالتيقن، لا بالأوهام والخيال.

29 ← 30- فأعرض عمن تولى...بمن اهتدى.

استبان لك تصلبهم في الكفر، فلا تحزن على من صمم على عدم الاستماع والانصراف عما تبينه وتتلوه من آيات الكتاب، ولما ينزل عليك من الذكر، الذي أوحينا به إليك. ومحّض كل اهتمامه إلى ما يتعلق بالحياة الدنيا. والحياة الآخرة لا مدخل لها في حسابه، وليست لها حظ من اهتماماته، لأنه لا يؤمن بها. فقد اقتصر علمه على المحسوس، ولم يخرج من تلك الدائرة لاتباع ما يثبته العقل من الأدلة. لا تأسف عليهم، ولا تتهالك على إسلامهم. فإعراضه صلى الله عليه وسلم لا يعني

[1] سورة يونس اية 18

قطع متابعة الدعوة والإنذار، ولكن المراد أن لا يبلغ اهتمامه بهم ،وأسفه لعدم إيمانهم مبلغا يؤثر في نفسه الكريمة حزنا وأسى.

إن ربك يا محمد هو العليم العلم الكامل بصنوف البشر. يعلم الذين انحرفوا عن سبيله، واتبعوا سبلا أخرى تبعدهم عن هداه، فضاعوا في متاهات الباطل. وهو العليم العلم الكامل بالذين اهتدوا فتفتحت عقولهم وأرواحهم مشتاقين لما ينزل عليك من ربهم. وفي ذلك وعيد للكافرين بأن فسادهم وتجاوزاتهم محصية عند الله سيجازيهم عنها. ووعد للمؤمنين بأن ما يقدمونه من صالح الأعمال لا يضيع منه شيء.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالحسنى: بالمثوبة الأحسن والأفضل.

كبائر الإثم: المنهيات التي يترتب على اقتحامها فساد كبير.

الفواحش :ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال.

اللمم: هو ما دون الكبائر من الآثام.

واسع المغفرة :لا تحدها حدود.

أجنة : الحمل في الرحم.

لا تزكوا : لا تتحدثوا بما يدل على نقائها وكمالها.

أنفسكم : تحتمل ذواتكم، وتحتمل بعضكم بعضا.

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله الذي خلق السماوات والأرض، وهو المالك لها ولما فيها. ولم يخلقها عبثا، وإنما مكن الإنسان من الاستخلاف ليعمرها ويجري في حياته في الحدود التي حددها. فيرتب على صلاح الإنسان واستقامته، الحسنى التكريم والجنة، ويرتب على من أساؤوا خسران العاقبة جزاء ما قدموا. والمحسنون هم الذين لم يسودوا صحائفهم بالكبائر التي نهى الله عنها نهيا مؤكدا مرتبا عليها العقوبة والغضب أو

الحدود. واجتنبوا بصفة دائمة الفواحش الآثام الممقوتة جدا التي لا يقبلها دين، وتشمئز منها النفوس لفظاعتها وقبحها. كالزنا بحليلة الجار، وعون الأعداء على بلاد الإسلام. ولكن ارتكاب صغائر الذنوب مع عدم الإصرار والتوبة لا تخرج صاحبها عن درجة الإحسان. إن ربك يا محمد رحيم بعباده، لا يعاجلهم بالعقوبة لضعف بدر منهم ثم استيقظوا منه فيغفر لهم ما استغفروه. تذكروا أن الله أعلم بكم من علمكم بأنفسكم. كيف لا وهو الذي أنشأكم من عناصر من الأرض دخلت في تركيب أصولكم، حتى تحولت إلى الخلية الأولى، ثم تطورت إلى أطوار حتى تم لكم القرار في أرحام أمهاتكم، فهل تعلمون عن هذه المراحل شيئا علما خاصا بكم ؟ والله أحاطكم بألطافه في كل لحظة حتى بلغتم سن الرشد. ثم ما قمتم به من أعمال، مما هو خير ومما هو شر، ومما يحط من قيمته التقصير، كل ذلك محجوب عن ذاكرتكم. فإياكم أن تشهدوا لأنفسكم بأنها طاهرة زكية تقية. فأنتم جاهلون بالحقيقة، وحتى لا يدخلكم العجب ويحملكم على التقصير. فإن ما قمتم به من خير هو بفضل هداية الله وتيسيره للأسباب. فالله وحده هو العليم بالمتقي حقا، وبالزائف.

بيان المعنى العام :

31- ولله ما في السماوات...بالحسنى.

أثبتت الآية السابقة أن علم الله الدقيق يشمل، واقع الذين ضلوا عن طريق الله، والذين اهتدوا. فأكملت هذه الآية ذلك المفهوم بإبراز أنه سبحانه متفرد بملك السماوات والأرض. ملكهما لأنه خلقهما، وإذ خلقهما وقدر كل شيء فيهما، فلا يغيب عن علمه طبعا لا صغيرة ولا كبيرة فيهما. وقدر أن يكون الإنسان مؤهلا للتأثير في هذا الكون الفسيح، ومكنه من القدرات العقلية والخيالية، والجسمية، ما يستطيع به النشاط والفعل. ولم يخلقه عبثا لمجرد الخلق، بل خلقه ليكون مسؤولا مجزيا عما قدم في حياته. ولا يستوي الخير والشر، والمحسن والمسيء. قال تعالى: (**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون**[1] - **قل لا يستوي الخبيث والطيب**[2]) فكانت الحكمة مقرونة بالخلق التي تظهر في جزاء الذين أحسنوا فعالهم وعقائدهم بما يناسب ما قدموه. فيجزي الذين أحسنوا في سلوكهم بالعاقبة الأحسن والأفضل، ويتجاوز ثوابهم قيمة ما قدموه تفضلا منه وكرما، وهو معنى قوله

---

[1] سورة السجدة آية 18

[2] سورة المائدة آية 100

تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة [1]) كمـا تظهـر فـي جـزاء الـذين أسـاؤوا بمـا يناسب ما قدموه أيضا عدلا منه سبحانه ولا يظلم ربك أحدا. [2]

32-الذين يجتنبون كبائر... هو أعلم بمن اتقى.

اهتم بالمحسنين ففصل ما بلـغهم تلكم المرتبـة ليتميـزوا بمـا جمعـوه مـن خصـائص الفضل. عرفهم بأنهم كانوا يقظين يقظة، جنبتهم السـيئات ونقـت صـحائفهم مـن الآثـام. ثم زادت الآية تفصيلا لصلاحهم، أنهم تباعدوا عن:

أ-كبائر الإثم، والكبائر عرفها إمام الحرمين: كل جريمـة تـؤذن بقلـة اكتـراث مرتكبهـا بالدين، وبرقة ديانته. أي إن تحريمها والنهـي عنهـا مـن الظهـور، بحيـث لا يقترفهـا إلا المتهاون بالنواهي الإلهية، تغلبه شـهواته وتطمـس إحساسـه برقابـة الله عليـه. وقـد يدل على كون الفعـل كبيـرة تعقيـب النهـي بالوعيـد، أو ترتيـب الحـد عليـه. وقـد خصصها الهيتمي بتأليف سماه: الزواجر عن ارتكاب الكبائر.

ب-الفواحش. والفواحش كبائر إلا أن شناعتها عظيمة، وفسـادها كبيـر أشـد مـن بقيـة الكبائر. لما يترتب عليها من نقض للبنـاء الاجتمـاعي، ولمـا تـدل عليـه مـن انحطـاط نفسي كبير وقذارة، كقتل الإنسان لأخـذ مالـه، والزنـى بحليلـة الجـار، والعمـل علـى نشر التحلل من القيم الخلقية مما يـؤدي بـالمجتمع إلـى الانقـراض. وإعانـة الأعـداء. والكذب على الله، وتشويه الدين لتنفير الناس منه.

واستثنى القرآن آثاما، هي معـاص، ولكـن لا تخـرج المـؤمن مـن دائـرة المحسـنين. وعبر عنها باللمم. وفسرت على أن ما يترتب عليهـا مـن فسـاد لا يهـدم المجتمـع، ولا ينقض البناء النفسي. ويعبر عنهـا الفقهـاء بالصـغائر، ومثلـوا لـذلك بالقبلـة، وبسـرقة الشيء التافه الذي لا يبلغ نصابا كعنقـود عنـب، وبالاسـتمتاع بمـا دون الجمـاع. ومنـه ما وقع لنبهان التمار. جاءته امرأة لشراء تمر، فقـال لهـا: عنـدي فـي داخـل الـدكان تمر جيد، فلما اختلى بها استمتع بها مـا عـدى الـوطء، فنـدم وجـاء إلـى النبـي ﷺ، فقص عليه قصته. فـأنزل الله هـذه الآيـة. فـاللمم معـاص، يسـتيقظ المـؤمن بعـد أن يرتكبها، ويتوب منها ولا يعاودهـا. ولا صـغيرة مـع الإصـرار عليهـا. إن ربـك يـا محمد، وهـو رب الصـالحين، يـوالي رعايتـه لهـم، ويسـعدهم بعفـوه، ولا يعـاجلهم بالعقوبة متى تابوا إليه. إن تقصير البشـر كثيـر وكثيـر جـدا، ولكـن الغفـار رحمتـه أوسع، مما يثبت الأمـل فـي قلـوب المـؤمنين الـذين لا تهـن رقـابتهم لأعمـالهم. ولا

[1] سورة يونس اية 26

[2] سورة الكهف آية 49

ييأسوا إن حصل منهم في حالة ضعف ارتكاب ما نهى الله عنـه. فهـم بـذلك يبقـون مـع المكرمين من المحسنين.

هو أعلم بكم – تثبت الجملة أن الله يعلم حقيقة ذواتكـم، أكثـر مـن معـرفتكم بأنفسـكم، ويعلم حقيقة إخـوانكم وأصـدقائكم أكثـر مـن معـرفتكم بهـم. إن الظـواهر والبـواطن بينهما فوارق تتسع أو تضـيق. وذاكـرة الإنسـان تضـعف بالفواصـل الزمنيـة فينسـى الإنسان ما اقترفه وما قصر. هذا العلم الإلهي تواصـل مـن اللحظـة التـي أنشـأكم فيهـا من عناصر مـن الأرض، تمثلهـا الإنسـان فـي أجهزتـه حتـى تكونـت منهـا الخليـة الأولى. ثم استقراركم في أرحام أمهـاتكم، ومـا دخـل علـيكم مـن أطـوار لا تعلمـون شيئا منها، والله يعلمها ويحيطها بألطافه. ثـم مـا قمـتم بـه مـن أعمـال قبـل التكليـف وبعده، ما وفّيتم فيه حق المعبودية، وما قصرتم فيـه. علْـمُ الله يشـمل كـل ذلـك دون أن يضيع شيء مما فعله الإنسان أو تكلم به. فـلا يـتملككم الغـرور، وتحسـبوا أنكـم علـى حظ كامل من الصلاح والخير. إياكم والتبجح بما قمتم به مـن أعمـال، فـإن ذلـك يبـرر لكم التقصير في المستقبل اعتمادا على ما تقدم. ومـن ناحيـة أخـرى فـإن كـون الـنّفس زكية طاهرة، علمه عند الله وحده، فمثلا كم مـن صـلاة أداهـا المكلـف وهـو لاه عـن العبادة يفكر في دنياه، وكـم مـرة أتبـع النّـاظر النّظـرة الأولـى بمـا يشـبع فضـوله واستمتاعه. وكم وكم... وهذه المراجعة التي جـرت بـين شـقيق البلخـي وإبـراهيم بـن أدهم. قال شقيق : قال لي إبراهيم :أخبرني عمـا أنـت عليـه؟ فقلـت: إذا رزقـت أكلـت وإذا منعت صبرت. قال إبراهيم :هكـذا تعمـل كـلاب بلـخ عنـدنا. قلـت لـه : فكيـف تعمل أنت ؟قال : إذا رزقت آثرت، وإذا منعت شكرت [1].

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

تولى : نقض الخطوات الأولى ورجع إلى ما كان عليه.

أكدى : انقطع كحافر البئر الذي صادف صعوبة لا يمكنه تجاوزها.

[1] ابن خلكان ج 1 ص32

وفّى : كان حريصا على الوفاء بالتزاماته
تزر: مضارع وزر، فعل وزرا وذنبا.
سعى : اكتسبه من جزاء عمله.

بيان المعنى الإجمالي :

هل رأيت يا محمد هذا النموذج العجيب أمره الذي جمع من المذام ما يأتي ؟ أنه بمجرد ما خالطت أنوار الحقيقة قلبه وعقله، لم يتابع التلقي عنك ورجع إلى شركه. وصدق أن أحدا يستطيع أن يتحمل عنه ذنوبه، وبذل قليلا من المال في مقابل ذلك على أنه سيواصل دفع بقية الأقساط. ثم تراجع وامتنع من الوفاء بما التزم به. وأنه مع جهله بالغيب قام بكل ما تقدم كأنه يعلم الغيب علم المشاهدة. وإلا من تولى وصدق من ادعى أنه يتحمل عنه أوزاره، وبذل له المال. ما أجهله ! ألم يعلم أن موسى عليه السلام ثبت في صحفه أن المسؤولية لا تتعلق إلا بصاحبها. وكذلك إبراهيم الذي يدعي العرب أنهم على ملته. وأنه لا يتحمل أحد آثام غيره.
ومن الحقائق الثابتة أن الإنسان لا ينتفع إلا بما اجتهد في فعله من صالح الأعمال. فالمسؤولية كما تثبت في نفي الإثم عن غير فاعله، فكذلك تثبت أن الانسان لا يذهب عمله الصالح باطلا بل يثبته الله له في صحائفه. ثم يجده يوم القيامة إما حاضرا مشاهدا مجسما يراه، وإما أن يرى ثوابه وتكريم ربه له بما قدمه. وأن الجزاء لا ينقص منه شيء. يجزى عليه جزاء وافيا غير منقوص.

بيان المعنى العام :

33-35أفرأيت...فهو يرى-

تعجيب من سذاجة المشركين فيما يتعلق بالغيب. وهذه الحادثة المسجلة في القرآن تعطي صورة واقعية لذلك. أرأيت، تعبير عن فظاعة ما سيرد، كأنه لغرابته مما يلفت الأنظار، فلا يبقى أحد لم يشاهده، ثم يتعجب من حدوثه. ما هو هذا الأمر العجب ؟ الرجل الذي كان سائرا على منهج، ثم تولى عنه فجأة، وأعطى قليلا من المال ثم صد عن المتابعة والوفاء بما التزم به.
يتفق المفسرون على أن ما ورد في الآية ليس من ضرب المثل، وأنه صورة واقعية شهر بها القرآن. تتحدث عن رجل من المشركين. فمن هو هذا الرجل ؟ اختلفت الروايات. قيل هو الوليد بن المغيرة - وقيل العاصي بن وائل السهمي- وقيل هو أبو جهل - وقيل هو النضر بن الحرث. هو أحد هؤلاء الأربعة من رؤوس الشرك. روى الطبري أن الوليد بن المغيرة كان يجلس إلى النبي ﷺ يستمع

قراءته؛ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعظه. وكاد يسلم. فعاتبه رجل من المشركين: كيف تترك دين آبائك وترضى أن تدخل في دين يجعلهم وقود النار؟ فقال له: أخشى عذاب الله. فقال له: اعطني شيئا وأنا أتحمل عنك كل عذاب. فأعطاه قليلا من المال، ولما سأله الزيادة بخل وتعاسر، شأنه شأن حافر البئر يلاقي وضعا صلبا يعسر عليه تجاوزه، فينزع عن مواصلة العمل. فيقال : أكدى. صرح القرآن بسخافاته وبمذامه :

1- بعد أن تشرب عقله شيئا من الحق،وفتح له رسول الله ﷺ نافذة على الهدى رجع إلى ما كان عليه من الشرك.

2-أنه بخيل، تعلقه بالمال شديد، لا ينزع عنه هذه المذمة شيء ولو كانت العهود.

3- أنه صدّق من قال له أتحمل عنك آثامك. فقد توهم أن من يدعي أنه قادر على تحمل آثامه صادق في دعواه. فهل اطلع على الغيب فعلم أن هذا المتحمّل عنه مقبول عند الله، وأنه بلغ الوثوق بذلك كأنه يراه. الأمر الذي طوعه رغم شحه لإعطائه مقابلا مقدما.

36-38- أم لم ينبأ بما في صحف موسى...ألا تزر وزر أخرى.

إنكار على الشحيح، المتولي، كيف يصدق أن يقوم غيره مقامه ويتحمل أوزاره. هذا أمر مخالف لسنة الله التي سنها على لسان جميع رسله. ففي صحف موسى ﷺ،أي التوراة تأكيد على أن كل إنسان مسؤول عما قدم، ولا يسأل عما صنعه غيره. وقد كان أهل مكة يتصلون باليهود ويسمعون منهم أصول دينهم، وهذه القاعدة من ضروريات دينهم، علمها المشركون قطعا. وكذلك فإن العرب يعدون أنفسهم على ملة إبراهيم، ومناسك الحج يتبعون فيها تعاليم إبراهيم، وإن كانوا قد بدلوا فيها وحرفوا ما يقتضيه تطاول الأمد، وانقطاع السند. فكان من تعاليم إبراهيم أن لا يُسأل أحد عن أحد، ولا يتحمل وزره وآثامه. ووصفُ إبراهيم [الذي وفى] ناظر إلى التنويه بإبراهيم في قوله تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن)[1] هذا من ناحية، ومن نا حية أخرى فهمت من هذا الوصف تورككا على هذا الذي تولى، أنه يدعي أنه على ملة إبراهيم كبقية القرشيين، وإبراهيم كان وفيا. وأما هو فقد أخلف وعده وأكدى.

39-وأن ليس...إلا ما سعى.

نفت الآية السابقة أن يتحمل أي فرد آثام غيره وأوزاره، ونفت هذه أن ينتفع أحد بثواب عمل عمله غيره، ولا ينتفع الإنسان إلا بما قام به بنفسه من خير.

[1] سورة البقرة آية124

وظاهر هذه الآية ورد في الصحيح ما يثبت أن بعض الأعمال يعود ثوابها على غير فاعلها. من ذلك قوله ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم بثه في صدور الرجال وولد صالح يدعو له رواه مسلم وأحمد والبخاري في الأدب المفرد فيض القدير ج 1 ص438/437.رقم الحديث 850) وقوله تعالى: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء [1]) ونصوص أخرى تساعد على انتفاع المؤمن بعمل غيره إذا قصد إهداء ثوابه إليه. واختلف في هذا الأمر الفقهاء والنظار. فأما ما لا يتعدى نفعه فاعله فلا يستفيد منه إلا فاعله. كالإيمان. وحب رسول الله ﷺ، فهذا لا ينتفع منه إلا فاعله. ومن الأعمال ما يكون وجودها محققا لانتشار العمل الصالح كقراءة القرآن والصلاة والصدقة والصوم، فهذه لا نستطيع أن نجزم بأن ثوابها يتعدى لغير فاعلها، ولا أن نجزم بأنه لا ينتفع به. فهو أمر مغيب، واحتمال الانتفاع به أقرب بناء على سعة فضل الله. وهو يتوقف قطعا على أن يكون العمل في ذاته بالغا درجة القبول بجمعه لشروط القبول الظاهرية، والباطنية.

40 - 41-وأن سعيه سوف...الجزاء الأوفى.

تثبت هذه الآية أن سعي الإنسان سوف يشاهد. على معنى أنه يجده حاضرا، مثبتا عند الله، أو على معنى أن الله يجسمه تجسيما هو من أمور الآخرة، فيشاهده فاعله، ويشاهده غيره، ليكون ذلك تكريما إضافيا لمن عمل صالحا، وتشريفا له. ومع ذلكم التشريف يجد جزاءه جزاء وافيا غير منقوص. بل إنه يُضاعفُ كما جاء في قوله تعالى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[2] والله ذو الفضل العظيم. وقال تعالى : (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله)[3]

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

النطفة : الماء القليل.

---

[1] سورة الطور آية 21

[2] سورة الأنعام آية 160

[3] سورة النساء آية 173

تمنى : تدفع من مبيض الأنثى ومن ماء الذكر.
النشأة : المرة من الإنشاء أي الإيجاد والخلق.
أغنى : جعل من يشاء غنيا وافر المال.
أقنى : أرضى.

بيان المعنى الإجمالي :

كما أن الإنسان مسؤول عن جميع أعماله، فإن النّهاية ستكون لحكم الله وحده لا يشاركه في ذلك أحد ولو ظاهريا. ليتأمل الإنسان في ذاته، فإنه سيجد أن عواطفه تذهب من حالة السرور البالغ حتى يبتسم أو يضحك، وإلى البؤس البالغ حتى يبكي. وتلكم المؤثرات بيد الله وحده. وأنه سبحانه هو وحده الذي يتصرف في حياتكم فيقضي عليكم بالموت حسبما قدره في الأزل، كما أنه هو وحده الذي أوجدكم أحياء على وجه الأرض. وأنه سبحانه خلقكم زوجين ذكورا وإناثا دون أن يكون لإرادة الأبوين دخل في نوع المولود. وبين ما أنتم عليه وقت التكليف وبين بدايتكم مراحل لا دخل لكم فيها، من البداية نطفة مركبة مما تدفعه الأم من مبيضها والأب من منيه. وكما تصرفت إرادته وقدرته بالخلق المنظم، فكذلك هو يُحيي منشئنا كل فرد نشأة أخرى يوم القيامة ليلقى جزاءه. وكما نفى القرآن ألوهية الأصنام من اللات والعزى، ومناة. وألوهية الملائكة. نفى ألوهية الشعرى النّجم الشديد الضياء. فحقق أن الشعرى مخلوقة لله، هو ربها الذي يسر لها الوضع التي عليه.

بيان المعنى العام :

42 ← 46-وأن إلى ربك المنتهى... من نطفة إذا تمنى.

تفيد الآية أن كل كائن سينتهي إلى حكم ربه وحده، وليس في هذه النّهاية حكم لغيره ولو ظاهريا، وهي تؤكد ما قررته الآيات السابقة من مسؤولية الإنسان عن أعماله السيئة والخيرة. وصياغة الآية بتوجه الخطاب إلى النّبي ﷺ فيها تقريب للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيها من ناحية أخرى دعوة ليكون هذا المفهوم من أصول الدين الإسلامي أيضا.

-انفعالان باطنان يغطيان حياة الإنسان. كل فرد يتقلب بين أحوال الرضى، وبين حالات السخط. وهذه الحالات على رتب متفاوتة، فقد يُسرُّ الإنسان حتى يضحك بملء شدقيه أو يبتسم تعبيرا عن رضاه. وقد يسخط وضعه ويتألم مما يأتيه حتى يبلغ به الأمر إلى البكاء. إن تلكم المؤثرات المتضادة هي من مالك الأمر وحده.

فهو سبحانه الذي يوالي ألطافه، ويجلب للإنسان ما يسره حتى يضحك، وهو الذي يحجب ألطافه وتتابع المنغصات حتى يبكي.

- عطف القرآن على التحكم في العواطف، وتيسير الأسباب، قضية كثيرا ما يغفل عنها الإنسان، و تذكرها يصلح الفرد ويعرفه بحقيقته ونهايته، ومن إعجاز القرآن افتتاحه بالموت ليسير جو الآيات على نسق واحد، من الآية 42 إلى هذه الآية .النظر دائما إلى النهاية. وفي الجمع بين طرفي النهاية والبداية ما يجعل الإنسان ذاكرا أنه تحت سلطان ربه.

- تواصل الانتقال من العلم الإلهي الدقيق و قوانين الجزاء فأتم ذلك بانتهاء الإنسان إلى حكم ربه، ثم انتقل إلى لفت النظر أن عواطف الإنسان المختلفة ناشئة عن الأسباب التي يقدرها الله، وأنه وهو حي بقاؤه خاضع لله كما كانت بدايته. وتأتي هذه الآية مفصلة ما تضمنته الآيات السابقة. سبحانه هو الذي تفرد بخلق الذكر والأنثى " الزوجين " لافتا النظر أولا إلى البداية، كما لفت النظر في الآية السابقة أولا إلى النهاية. فمن عجيب صنع الله أنه نظم العالم فلم يقدر أن يغلب أحد النوعين النوع الثاني غلبة ظاهرة. بل تجد من الذكور والإناث ما يتم به التزاوج، والائتلاف لبقاء النوع. وكون المولود ذكرا أو أنثى ليس تابعا لإرادة الأبوين أو أحدهما. فنوعية الولد لا دخل لصاحب النطفة فيها. ثم عمق نظر التالين للقرآن، أن الخلق كان من نطفة ماء قليل تدفعه المرأة كل شهر من بييضاتها، ومن ماء الرجل يدفعه عند كل لقاء جنسي. ومنهما تتكون الخلية الأولى التي تنقسم وتتكاثر إلى أن تبلغ صورة إنسان سوي.

47- وأن عليه النشأة الأخرى.

جرت الآية على المنهج القرآني في الاستدلال، وتقريب أمر الحياة بعد الموت بالخلق الأول في الدنيا. فقال تعالى: إن النشأة الأخرى أي إيجاد الإنسان مرة أخرى بعد ذهاب حياته الأولى، هو أمر واجب مؤكد. أي إنه لما تعلقت إرادته أن يخلق البشر خلقا بعيدا عن العبث، ولكنه خلق يتحمل فيه المخلوق المسؤولية ، مما لا يتحقق إلا بالبعث بعد الموت، قدر أن كل مخلوق لابد أن يبعث للحساب. وكل ما قدره الله واجب الحصول من ذات الله لا من أمر خارج يفرض عليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

48- وأنه هو أغنى وأقنى.

تفرد الله سبحانه بأنه هو الذي يوسع على البعض في الرزق، حتى تكون مكتسباتهم تفوق حاجاتهم. وعطف على أغنى أقنى. ولما كان الأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة، كان مراعاة هذا الأصل ذهب ببعضهم إلى أن أقنى بمعنى أفقر ليتم

التقابل.وذهب ابن عباس إلى أن معنى أقنى أرضى، فيكون العطف أفاد معنى زائدا.وذهب بعضهم إلى أن أقنى مكن من القنية أي الأصول غير السائلة. وما نقل عن ابن عباس ﷺ هو الوجه الأولى للحمل عليه. إذ أن الغنى يصحبه تارة الشراهة على حب جمع المال، فلا ينعم الإنسان بما وصل إليه منه، وما تزال لهفته تستبد به فتفسد عليه حياته وتحرمه الاستمتاع بما كسب. فإذا أفرغ الله في النفس القناعة والرضى بما كسبت تحققت للجامع السعادة، والتزم شكر النعمة. فجمع بين خيري الدنيا والآخرة، وهذه المرتبة السامية لا تتحقق إلا بفضل الله وهدايته

49-وأنه هو رب الشعرى.

تتميم لما حققته الآيات السابقة، من نفي ألوهية الأصنام اللات والعزى ومناة، وإبطال عقيدتهم في إلهية الملائكة وكونهم إناثا، وأثبتت أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فأكمل القرآن التنصيص على التوحيد بنفي ما عداه سبحانه أن يكون له ما يوجب عبادته، فأبرزت هذه الآية نفي ألوهية الشعرى. وهو اسم نجم من نجوم برج الجوزاء، شديد الضياء.عبدته قبيلة خزاعة. فحقق القرآن أن الشعرى مملوكة لله هو الذي خلقها، و يتصرف فيها، شأنها شأن بقية المخلوقات.

وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝

بيان معاني الألفاظ :

المؤتفكة: المخسوف بها،بجعل عاليها سافلها.

أهوى : أسقطها من علو.

غشاها : غطاها.

آلاء : جمع إلى، وإلي، نعمة

التماري : التشكك.

أزفت : قربت.

تعجبون : يتملككم العجب، فتستبعدونه.

تبكون : تتضرعون من شدة الخوف.

سامدون :معجبون بأنفسكم.

بيان المعنى الإجمالي :

ونفذت قدرته في عاد قوم هود لما استكبروا عن عبادة الله وطغوا، فأهلكهم هلاكا لم ينج منهم أحد. وفي التذكير بذلك تهديد لقريش. وكذلك ثمود بعث الله لهم أخاهم صالحا، فاستهزأوا به وعقروا النّاقة، فاستأصلهم ولم يُبْقِ لهم أثرا. وقوم نوح من قبل هذين عمهم الطوفان. والثلاثة كانوا أظلم من قومك وأشد طغيانا يا محمد، فلا تحزن لما تلاقيه من عنادهم.

والقرى التي بعث فيها لوط ﷺ، التي أصبح فيها الفساد مقبولا قبولا عاما، أهلكها الله بانقلاب أعلاها إلى أسفلها، ورفعها ثم إسقاطها إسقاطا هشم كل شيء فيها، ثم سلط عليها رواجم من الحجارة المحماة فغطتها ولم تبق لها أثرا.

شريط التصرف الإلهي في الآيات السابقة ما كان منها في تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرا، وما كان منها فيه إهلاك للظالمين، تتساوى كلها في أنها تأييد لرسول الله ونعمٌ عليه. ويسأل القرآن سؤال إنكار المشركين أي نعمة من نعم الله على محمد تعملون على التشكيك فيها. فكلها نعم ظاهرة، أو بما تفيده من العبرة، والتطمين أن العاقبة لمن اتبع هداية الرسل.

قدروا هذا القرآن حق قدره، فقد جاءكم لينذركم حتى لا تقعوا في الهلكة. وهو يتفق مع كتب الله السابقة في إيقاظ المرسل إليهم إلى العاقبة.

قربت الحادثة القريبة التي أنذرتم بها. إنه لشدتها لا يصرّفها إلا الله وحده، وهي مغيبة فلا يعلم تاريخ حلولها إلا هو. أعدوا أنفسكم بالإيمان واتباع الرسول، لتسلموا منها. عجب من أمركم كيف بلغ غلظ نفوسكم هذا الحد. تسمعون هذا القرآن فتعجبون مما جاء فيه منكرين له ومكذبين، وتسخرون منه فتضحكون، ولا تلين قلوبكم ولا تخشع ولا يسرع الدمع إلى عيونكم. ترفعون رؤوسكم كبرا كوضع البعير النّشيط في مشيته. فأنتم مأمورون بالتقرب إلى الله بالسجود فاسجدوا وأفردوه بالعبادة.

بيان المعنى العام :

50 -54- وأنه أهلك عادا...ما غشى.

اعتنت الآيات السابقة بالتذكير بالتصرفات الإلهية في الكون والكائنات. وكما تصرف فيها بالإيجاد والتقدير؛ فكذلك جرت سنته أنه يمهل ولا يهمل، وفي كتاب التاريخ عبرة لمن يعتبر. فقد بعث الله لعاد هودا دعاهم كما دعوت قومك للإيمان

بالله، وتقواه. وقد بسط القرآن قصة عاد في سورتي الأعراف وهود. وأنهم استكبروا فأهلكهم الله بذنوبهم وقطع دابرهم. وقوم عاد أول أمة أهلكت بعد قوم نوح ﷺ. وهي من العرب البائدة. وفي قراءة الأولى طرق كثيرة.

- تكرر ذكر عاقبة ثمود ستا وعشرين مرة في القرآن من سورة الأعراف إلى سورة الشمس. وكانت أخبارها تتردد بين العرب. وكانت تالية في الهلاك لعاد.

-وقوم نوح الذين كانوا أول امة بعث لها رسول من عند الله، وصبر على عنادهم إلى أن يئس من اهتدائهم، فأغرقوا بالطوفان.

وقوله تعالى إنهم كانوا هم أظلم وأطغى، أشد ظلما، وأعظم طغيانا من قومك، يحتمل أن يعود إلى قوم نوح، كما يحتمل أن يعود إلى الثلاثة عاد وثمود وقوم نوح. وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بإظهار ما قاساه إخوته الأنبياء الذين سبقوه من أقوامهم. وبوصفهم أنهم كانوا أشد ظلما وطغيانا ما ينبئ أن الله سوف لا يهلك قريشا كما أهلك من قبلهم، وأنه سيُبقي على بعضهم ليكونوا قوة للإسلام.

-المؤتفكة هي القرى المقلوبة، التي أصبح عاليها سافلها، وهي قرى قوم لوط. رفعها الله إلى فوق ثم قلبها وأسقطها فتهشم كل ما تحويه من بشر ومبان وحيوان وأشجار، ثم تابع عليها رواجم رجمتها بصواعق، تتجاوز الوصف. وقوم لوط انتشر فيهم الفساد، واستساغوه، حتى أصبحت الفضيلة غريبة فيهم لا تجد من يتمسك بها، وألفوا الرذيلة حتى أصبحت لا تنكر. فكان عذابهم أشد عذاب سلط على أمة من الأمم. واليوم بتحريف مفهوم الحرية قبلت مجتمعات الشواذ جنسيا، ومكنتهم من الحماية ومن إعلان شذوذهم. وقرأت في كتاب صفوة الاعتبار للشيخ بيرم الخامس، أن عقوبة من يثبت عليه الشذوذ الجنسي في إنكلترا في القرن التاسع عشر، أنه يغمس في برميل مملوء بالرجيع، ويسد أعلاه حتى يموت.

55- فبأي آلاء ربك تتمارى.

تفتتح الآية بسؤال يفيد التسوية بين ما ذكر في الآيات السابقة من النّعم.

وكل ما ذكر فيها نعم بالنسبة لرسول الله ﷺ ، فما كان منها واضحا في كونه نعمة لا يحتاج إلى تفصيل. وأما ما كان منها نقمة على الضالين، فهو نعمة بالنسبة له ﷺ ، إذ تؤيده في مسيرته الإصلاحية، وتعطي لأتباعه صورا من الاعتبار بسنة الله في الخليقة أنه يؤيد الصالحين ويهلك المنحرفين. فهي كلها نعم متساوية، ويسأل سؤالا إنكاريا المشركين أي نعمة من تلكم النّعم تعملون على التشكيك فيها.

56- هذا نذير من النذر الأولى.

هذا القرآن شأنه أنه ينذركم منبها إلى ما ستتعرضون إليه من عقاب الله ومقته إن لم تتحولوا عن ضلالاتكم. وهو يتفق مع ما جاء على لسان المرسلين السابقين، كما جاء في قوله تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل)[1]

57←58-أزفت الآزفة...كاشفة.

قربت القريبة. فما هي القريبة التي قربت. هي ما يفهم من الإنذار الذي يدل على إيقاظ المخاطبين من غفلتهم عما سيحل بهم من سوء. فتكون الآية متممة للإنذار، بأنه قريب حلوله. فالبدار البدار إلى التوبة والإقلاع عما أنتم عليه من فساد في العقيدة والسلوك. وهذه الصياغة توقع في نفس السامع ما يهوله، ذلك أنه مع الغموض، والبساط في التخويف، تذهب النفس كل مذهب في تصور القادم الشديد. وهي تحتمل أن يكون المراد منها قيام الساعة، كما يحتمل ما سينصر الله به نبيه كما تم في بدر.

- إنها في نفاذها وقوتها لا يوجد من يرد تسلطها إلا الله، إذ هو القادر على صرفها. كما تفهم على أنها مغيبة لا يصل أحد لعلمها، فلا يكشف عن وقتها إلا العليم بها وهو الله، لا يجليها لوقتها إلا هو.

59←61-أفمن هذا الحديث...وأنتم سامدون.

سؤال إنكار على المشركين من موقفهم غير المكترث. يقول أتقابلون ما أنزل عليكم من الآيات القرآنية التي توقظكم من غفلاتكم أبلغ الإيقاظ، وتكشف لكم عن الحق بأتم بيان، وعما ينتظركم من سوء المصير إن واصلتم الثبات على مواقفكم ؟ أتقابلون ذلك بالعجب الدال على الاستبعاد والإنكار؛ وتضحكون مستهزئين كأن الأمر ليس بجد، ولا تهتزون لوقعه اهتزازا يدخل الخشية في قلوبكم فتخافون حلول ما ينذركم به من العذاب. وتواصلون استكباركم "سامدون" تجسيم لكبرهم. ذلك أن البعير إذا كان في حالة نشاط يرفع رأسه في مشيته، فشبههم في استكبارهم بأنهم يمشون مشية المتكبر الذي لا ينظر لمن حوله.

62-فاسجدوا لله واعبدوا.

بلغ البيان غايته، والإنذار أوضح صوره، والتوبيخ والتقريع ما يهز النفس التي فيها بقية من خير لتقلع، فرتب على ذلك، الأمر الجازم من رب العالمين لجميع البشر، وللمشركين بصفة أخص، أن يقبلوا على الخضوع لله رب العالمين، وأن يخشوه، باعتبار إطلاق السجود على الخشية. يمكن أن يراد بالسجود الصلاة، وهي

---

[1] سورة الأحقاف اية9

مخ العبادة وشارة الإسلام، فيكون الأمر بها أمرا بالإسلام وقبول جميع مبادئه العقدية، وشرائعه العبادية والسلوكية.

واعبدوا ربكم حق عبادته، مفردين له و لا تشركوا به أحدا.

<u>سجود التلاوة</u> :اختلف العلماء في السجود عند تلاوة هذه الآية على الخلاف بينهم في وجوب السجود .فالمنقول عن أبي حنيفة والشافعي وأحمد أن التالي لها يسجد. والمعتمد في مذهب مالك عدم السجود، لأنه عمل أهل المدينة ؛ وللحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، وأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، وابن خزيمة، عن عطاء بن يسار عن زيد بن ثابت ﷺ أنه قرأ على النبي ﷺ "النجم" فلم يسجد فيها[1].

---

[1] تحفة الأشراف ح3733 ج3 ص175

سورة القمر

هذا أحد الاسمين اللذين سميت بهما هذه السورة: سورة القمر، وسورة اقتربت الساعة. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. وهي السورة الرابعة والخمسون حسب ترتيب المصحف، والسابعة والثلاثون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اقتربت : قربت قربا شديدا.

الساعة : يوم القيامة.

انشق : الانشقاق صدع يبدو على ظاهر الجسم مع بقاء الكتلة.

مستمر: مطرد.

مزدجر : ما فيه ردع عن مخالفته.

حكمة : كلام يفيد تاليه بلوغ الصواب في تفكيره.

نكر : شيء بالغ غاية السوء.

خاشعة أبصارهم : ينظرون إلى أسفل من الذل.

المهطع : المسرع في المشي مع امتداد عنقه إلى الأمام.

عسر : صعب جداً.

بيان المعنى الإجمالي :

تأكيد لما لفت إليه القرآن انتباه البشر، أنهم غير بعيدين من الساعة الوقت الذي يفنى فيه الكون، والذي لا يأتيهم إلا فجأة، فليصلحوا عقيدتهم وسلوكهم. وإثبات إلى أن القمر سينشق عند اختلال نظام الكون. تصلب المشركون في رفض كل ما يأتيهم من رسول الله ﷺ، حتى إنهم إذا نقلت لهم حواسهم أمرا خارقا للعادة يقابلون ما شاهدوا بالإعراض عنه . ثم يرمونه بأنه تخييل وضرب من السحر.

كذّب المشركون بما أنزل على محمد. وحسب سنن الله في الخليقة أن كل أمر سيثبت حسبما تقتضيه أسبابه ومقدماته. والشرك مبني على الهوى فهو إلى انهزام. والإسلام مبني على الحق فلا بد أن يثبت ويهزم الشرك.

بكل تأكيد قد بلغت المشركين الأنباءُ المنبئة في القرآن عن مصائر المكذبين، ومن الآيات التي تنذرهم سوء المصير إن لم يرتدعوا، جاءهم ما يكفي ليزدجروا عما هم فيه ويدخلوا في دين الله. وتضمنت الآيات القرآنية الحكمة التي تفتح العقول على الحق، وتدربها على المنهج الصحيح في التفكير. لكن النُذُر لا تفيد من أصرّ على الكفر وأغلق عقله عن التدبر. أعرضْ عنهم ولا تهتم بتصلبهم، فقد بلغتَ، وسوف يلقون جزاءهم، يوم يدعوهم الداعي للخروج من قبورهم فيستجيبون له، شاعرين أنهم مقدمون على الشر الذي ينتظرهم. تخشع أبصارهم من الذل فلا يستطيعون رفعها إلى أعلى، يتزاحمون يدفع بعضهم بعضا كأرجال الجراد تندفع سائرة إلى الأمام يركب بعضها بعضا. تمتد أعناقهم ويسرعون خطاهم نحو صوت الداعي الذي دعاهم، وقد عرفوا أن يومهم الذي يستقبلونه يوم صعب جدا.

بيان المعنى العام:

1-اقتربت الساعة وانشق القمر.

تتركب هذه الآية من شقين: قرب يوم القيامة، وانشقاق القمر.

أما الأول، فإن عمر الكون لا يعلم إلا الله متى ابتدأ، وقد مضى عليه ملايين السنين، و دراسة بعض الظواهر تؤكد أن ابتداء خلق الكون مضى عليه أزمنة متطاولة. وأنه حدث من عدم، وأن كل ما حدث من عدم سينتهي قطعا إلى العدم.وهوما يؤكده القرآن من انتهاء نظام الكون وقيام القيامة. وتؤكد هذه الآية بصيغة المضي فيها أن ساعة انتهائه قريبة بالنظر إلى ما مضى. والزمن الباقي من عمر الكون قليل. قال تعالى : وما يدريك لعل الساعة قريب [1].

---

[1] سورة الشورى آية17

و أما الثاني، وهو انشقاق القمر فقد اختلف النّظار في بيان المراد منه:
أولا-ذهب جمهور المفسرين إلــى أن هــذه ظــاهرة تحققــت فــي عهــد رســول الله ﷺ. وأن هذه الظاهرة أنجزها رب العزة تأييدا لرســوله. وقــد أخــرج البخــاري بسنده إلــى سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ: انشق القمر علــى عهــد النّبــي ﷺ شــقتين فقــال النّبــي ﷺ: اشهدوا[1]. وروى مسلم بسنده إلى أبــي معمــر عــن عبــد الله بــن مســعود ﷺ قــال: بينما نحن مع رســول الله ﷺ بمنــى إذ انفلــق القمــر فلقتــين فكانــت فلقــة وراء الجبــل وفلقة دونه فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا. وفي رواية أخــرى عــن ابــن مســعود قــال: قال انشق القمر على عهد النّبي ﷺ فلقتين فستر الجبل فلقــة وكانــت فلقــة فــوق الجبــل فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد[2]. كما روي عــن ابــن عبــاس وعــن أنــس بــن مالــك وابن عمر. ولم يشهد أحد منهم انشقاق القمر، فــابن عبــاس لــم يولــد بعــد، وأنــس بــن مالك لم يكن بمكة، وابن عمر كان صغيرا لــم يبلــغ ســن التحمــل. وهــذا الحــديث وإن كثر رواته، فإن العمدة هو رواية عبد الله بــن مســعود رضــي الله عنــه. ولــم يــذكر أن ذلك كان تفسيرا لقوله تعالى: وانشق القمر.
ولذا فإن من ذكر أن انشقاق القمر من المتواتر الــذي يطعــن فــي ديــن مــن أنكــره، لا يستقيم، وهو خبر آحاد قد لا يبلغ حد المشهور. وقد شدد عيــاض النّكيــر علــى مــن لــم يقل به. نقل كلامه الأبي ص199-
كما روى الترمذي بسنده إلى علي بــن حجــر، قــال: أخبرنــا علــي بــن مســهر، عــن الأعمش، عن إبراهيم،عن أبي معمر، عن ابن مســعود قــال : بينمــا نحــن مــع رســول الله ﷺ بمنى فانشق القمر فلقتين، فلقة من وراء الجبــل، وفلقــة دونــه فقــال لنــا رســول الله ﷺ :اشهدوا، يعني اقتربت الساعة. الظاهر أن قولــه: يعنــي اقتربــت الســاعة مــدرج من علي بن مسهر. و علق عليه الترمــذي : حســن صــحيح. الجــامع الكبيــر ج 5 ص 319 ح 3285 فالملاحظة الأولى أن ربط الأحاديث بالآية غير موثوق به.
وقد وجهوا حصوله بتوجيهات عديــدة وردوا علــى مــن نفــاه. ولا شــك أن قــدرة الله لا يعجزها شيء، والذي خلق القمر ملتئما لا يعجزه أن يحدث فيــه شــقا يــراه مــن اســتعد للرؤية، ثم حصل التئام بعد ذلك. والله على كل شيء قدير.
ثانيا: ذهب بعض المفسرين إلى أن الانشقاق سيحصل يــوم القيامــة لا فــي الــدنيا. وإلــى هذا ذهب الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح.

[1] فتح الباري ج7ص444
[2] إكمال الإكمال ج 7 ص200

ثالثا: إن هذه المادة "الانشــقاق" وردت خمــس مــرات فــي القــرآن.-1-هــذه-2-فــإذا انشقت السماء فكانــت وردة كالــدهان ســورة الرحمــان آيــة37 -3- وانشــقت السـماء فهي يومئذ واهية سورة الحاقة آيــة16 -4 -إذا الســماء انشــقت ســورة الانشــقاق آيــة 1- 5- تكاد السماوات يتفطرن منــه وتنشــق الأرض آيــة 90 والانشــقاق فــي الآيــات 4/3/2- هو أمر يحدث يوم القيامة حســب مفهــوم تلكــم النّصــوص. والآيــة الخامســة تدل على فساد الكون على سبيل الفرض. وبهذا يظهــر أن الانشــقاق الــذي يحــدث فــي الكون حسب الاستعمال القرآني يقترن بفساد الكون الذي يعقبه البعث.

كما أن جملة انشق القمر فهمها بعــض الحــذاق علــى أن المــراد بهــا وضــوح الأمــر يقول الراغب الأصفهاني : وقيل انشقاقه في زمن النّبــي ﷺ وقيــل هــو انشــقاق يعــرض فيه حين تقرب القيامة، وقيل معناه وضــح الأمــر المفــردات ص 264- وهــذا المحمــل الأخير ذكر به الزبيدي قال: وقوله تعالى: " وانشــق القمــر" قيــل فــي تفســيره : وضــح الأمر.

ومن ناحية أخرى فإن الآية التاليــة: وإن يــروا آيــة يعرضــوا ربطهــا ب "إن" التــى لا تدل على تحقق الشرط، و يؤتى بها للاحتمال. ولــو كــان انشــقاق القمــر قــد تــم فعــلا لكان التشهير بعناد المشركين يقتضي أن تصاغ، ولما رأوا آية أعرضوا.

ومن ناحية ثالثة، فإن المشركين اقترحوا علــى رســول الله آيــات ســجلها القــرآن فقــال تعالى: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا مــن الأرض ينبوعــا90 أو تكــون لــك جنــة من نخيل وعنب فتفجر الأنهــار خلالهــا تفجيــرا 91 أو تســقط الســماء كمــا زعمــت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا 92 أو يكون لــك بيــت مــن زخــرف أو ترقــى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قــل ســبحان ربــي هــل كنــت إلا بشرا رســولا 93) فكلمــا اقترحــوا أن ينــزل بالآيــات إلــى الماديــات رد علــيهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن طبيعة رســالته يتأكــد صــدقها مــن نــاحيتين : القــرآن الذي تحدى به، (قل لئن اجتمعت الإنس و الجن علــى أن يــأتوا بمثــل هــذا القــرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[1] وثانيا بالتشــريع الــذي يصــلح البشــر فــي الحاضر والمآل، ويســاعدهم علــى مهمــة الاســتخلاف فــي الأرض مهمــا تقلبــوا فــي مراتب الحضارة وفي جميع الأزمنة.

ولما كان الإسلام دينا خاتما وجب أن تكــون آيــة صــدقه آيــة باقيــة مــا بقــي الــدهر، تفارق آيات الرسل السابقين، التــي لا يتــأثر بهــا إلا مــن شــاهدها. وبهــذا فــإن الــذي

[1] سورة الإسراء آية 88

ترجح عندي أن هذه الآية لا تدل على انشقاق القمر في الدنيا. وأن ذلك من أمارات الساعة التي سيحدثها رب العزة في الوقت الذي قدره لفساد الكون. ويبقى الحديث دليلا ظنيا على وقوع الحدث، ينضم إلى ما ظهر على يد رسول الله ﷺ من الآيات التي حضر بعضها الكفار، واقتصر بعضها على المؤمنين الذين شاهدوها. فتكون تلك الآيات حسب نظري تزيد المشاهدين لها قوة في إيمانهم، دون أن يكون به تخلخل قبل مشاهدتها، كنبع الماء من بين أصابعه وحنين الجذع، وانشقاق القمر مما بسطه القاضي عياض في الشفاء بسطا وافيا.

2←3-وإن يروا آية...وكل أمر مستقر.

تثبت هذه الآية تصلب المشركين في العناد؛ وأنهم حتى إذا نقلت لهم حواسهم آية من آيات الله على صدق رسوله، لا تتفتح قلوبهم للإيمان، ولا يلتفتون إليها، ويخرجونها على أنها سحر. وأنها سلسلة من أسحار سيدنا محمد المتواصلة.

-شأن المشركين أنهم ثابتون على العناد والرفض، وعدم الالتفات والتأمل فيما هو مقنع. سواء وضعهم فيما يستقبل من الأزمان" وإن يروا آية يعرضوا" أو فيما مضى، فقد تواصل تكذيبهم في الماضي، وما كذّبوا لموجب، ولكن كذّبوا اتباعا لما تهواه نفوسهم. تحكمت فيهم عاداتهم، وإلفهم، وما ورثوه من شرك آبائهم. فكانت لهم ملكات. والملكات إذا استحكمت وهي مبنية على باطل تحجب العقل والتفكير.

وكل أمر مستقر. هذه قاعدة من قواعد النّظام العام الذي سيّر به الله سبحانه هذا الكون. تسير الأمور حسب الطبيعة التي أنشأ الله عليها الكون، وتترتب النّتائج على مقدماتها، وقد يأتي ما يعطل حدوث تلك النّتائج ملاصقة لأسبابها. ولكنها في النّهاية ستصرف المعوقات، ويظهر المسبب نافذا ثابتا.

إن الحق الذي عليه دين الإسلام يتبعه، لوضوحه وصدقه، حتما قبول البشر له، ودخولهم في دين الله. وطبيعته تقضي بانتشاره. ووقوف المعوقات من تصلب المشركين، واتباع الهوى، ووساوس إبليس، عوارض ستنهزم أمام الحق، ويظهر دين الله ويكثر أتباعه، ويستقيم أمر الأمة المتمسكة به. ويثبت مآل الإسلام إلى الظهور، كما أن أمر المشركين سائر إلى الزوال والخذلان.

4←5- ولقد جاءهم من الأنباء...فما تغن النّذر.

مع أبلغ تحقيق وصل إليهم القرآن ينبئهم بما عوقب به المكذبون من الأمم الخالية، وفيه من وصف ما يترصد المكذبين به من خسران في الدنيا والآخرة، وفيه من الحجج الباهرة التي تقنع العقل والضمير، ليزجر عما يخالف منهجه. وهو مشبع

بالحكمة التي تفيد العقل إدراكا للأشياء علــى مــا هــي عليــه، وهاديــة إلــى المقصــود. توالت النّذر موقظة إلى سوء مآل من لــم يرتــدع. ولكــن لتصــلبهم، ولجمــود إحساســهم لا تفيدهم النّذر.

6–8: فتول عنهم...هذا يوم عسر.

لما كانوا على هذا الوصف من التصلب في الكفــر، وعــدم المبــالاة بمــا ينــذرون بــه، فإنك قد بلغت يا محمد، ولا تهتم بهم، وواصــل مــا أنــت مكلــف بــه ولا لــوم عليــك. وسيلقون جزاءهم المفصل فيما يلي :

1) يوم يدعوهم الداعي الذي يستجيبون له ولا يملكون التصامم عن ندائه.
2) يدعوهم إلــى شــيء عظــيم منكــر، يــدركون بمجــرد ســماعه أنــه الشــر الــذي يترصدهم.
3) خاشعة أبصارهم، منتكسة عيونهم يرتعدون من الذل والخوف.
4) أمواج من البشر تقذف بهم القبور متراصّون لا يلوي أحــدهم علــى مــن أمامــه، هــم مدفوعون إلى السير دفعا، كما تسير أرجال الجراد، يركب بعضها بعضا.
5) مسرعون، وقد مدوا أعناقهم مذعورين، لا يلتفتون من الخوف.
6) قد وضح لمداركهم أنهم مقبلون على أمر عسير جدا بالغ الشدة.

• كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (9) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (10) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (14) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (17)

بيان معاني الألفاظ:

ازدجر: زجروه عن ادعاء النّبوة مع شديد الإذاية.

منهمر: مصبوب بقوة.

التقى : اجتمع ماء الأمطار مع ماء العيون.

على أمر قدر : تم تنفيذه حسبما قدرناه.

دسر : جمع دسار وهو المسمار.

بأعيننا: برعايتنا وعنايتنا.

تركنا: أبقينا على السفينة.

الآية : الحجة

مدكر : من يتفكر في آيات الله وعجيب صنعه.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا هو شأن المشركين مع رسلهم، لقي نوح قبلك من قومه ما لقي، مع أننا اخترناه وقربناه، فهو عبدنا وكفى بذلك شرفا. كذبوه وقالوا عنه إنه مجنون، وزجروه ليكف عن دعوتهم.

يئس نوح من اهتداء قومه، بذل كل جهوده فلم يتحلحلوا عن العناد، فتوجه إلى ربه مستنصرا بعونه عليهم. مقرا بأنه مغلوب تكسّر صبره وبيانه على صخرة تصلبهم. عاجله ربه بالإجابة، فأذن للسماء أن تفتح المياه على الأرض لتنصب بقوة، وأذن للعيون في الأرض أن تتدفق بقوة فاجتمع ماء السماء وماء الأرض حسبما قدره رب العالمين. أغرقهم ونجى نوحا ومن معه في السفينة التي هداه لتصميمها مؤلفة من ألواح ومسامير. كانت السفينة تجري بركابها محوطة بعناية من الله المقتدر تحوطها هذه العناية من جهاتها الست. وتم إغراق قوم نوح جزاء لكفرهم بنوح.

وبكل تأكيد أبقينا على هذه السفينة ليشهدها البشر فتكون آية من آيات الله الدالة على تدبيره للكون، وأنه لا راد لقضائه. ثم حرض البشر على التفكر وفتح عقولهم وقلوبهم لآيات الله في الكون.

بيان المعنى العام :

9- كذبت قبلهم قوم نوح..وازدُجر.

لما ذكر في الآية السابقة : ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، جدد تذكيرهم ببعض الأنباء. فذكر أن قوم نوح كذبوا نوحا عليه السلام، وقد سبقوا في التاريخ قومك "قبلهم" فلا تبتئس بتكذيبهم فهذه سنة الرسل لا ينجحون في مهمتهم بمجرد ما يدعون قومهم إلى الهدى. ثم أكد تكذيبهم وفصل ما اتصل به، فكذبوا عبدنا على عزته وسمو مقامه، فهو مختار منا على سائر قومه ليتحمل شرف الرسالة. وقرنوا تكذيبهم بتهديده،(لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين)[1]، والتطاول عليه فرموه بالجنون وبقولهم: (إنا لنراك في ضلالة وإنا لنظنك من الكاذبين)[2]

---

[1] سورة الشعراء 116

[2] سورة الأعراف آية 66

10-11-12-ففتحنا أبواب...على أمر قد قدر.

يئس نوح من قومه فدعا ربه دعوة المضطر الذي أعيته السبل وضاق به الأمر معترفا أنه مغلوب لم يبلغ من قومه ما أراد. دعا ربه أن ينتصر له بعون منه.
- أسرع الله بإجابته، فعقّب دعاءه بتنفيذ ما قدره لنصرته. انصبت المياه من السماء متدفقة بقوة كأنها انفتحت على الماء. وفجر الله عيون الأرض فسالت منها المياه، فاجتمعت مياه الأمطار ومياه العيون حسبما قدرناه من قبل بحكمة وإتقان ليبلغ ذلك ما رتبناه استجابة لعبدنا. والأمر الذي قُدّر هو إغراق المكذبين، وإنجاء نوح ومن كان معه في السفينة.

13-14- وحملناه على ذات...لمن كان كفر.

ثم أتم الإنباء، بما يطمئن رسوله ﷺ، و يهدد المشركين. بأن الخاتمة كانت إنجاء نوح. وصرح بطريقة الإنجاء : أنها كانت بمجوعة من الألواح والمسامير، التي كل منهما كان معروفا عند قومه، ولكن الله هداه إلى طريقة التأليف بينهما حسب ضوابط دقيقة، قبل أن يحل الطوفان، فكانت حاضرة في الإبان.
وحمله ربه في السفينة مع القليل الذين آمنوا به. وجسم السفينة بأنها كانت تركيبا مبتدأ في الكون، هو مجموع ألواح خشب مسوى، مسامير تجمعها حتى استوت على الهيئة التي تستطيع خوض الماء براكبيها سالمين من المياه. ولما كانت المياه قوية عمت وجه الأرض، صرح القرآن بأنه في مساره في البحر كانت العناية الإلهية تحوطه، عبر عن ذلك بقوله " بأعيننا " كأنه ينظر إليه من جميع جوانبه الست.
جزاء لمن كان كفر... فتحنا أبواب السماء، وفجرنا الأرض عيونا، لأجل مجازاة الذين كفروا بنوح وكذبوا رسالته، وقابلوا صبره عليهم بكفر نصحه وحرصه.

15-ولقد تركناها...فهل من مدكر.

قدر الله أن تبقى سفينة نوح في المكان الذي نزلت فيه على الجودي، لم يبلها الزمن الطويل، حتى شهدتها كل الأمم إلى العهد الأول للأمة الإسلامية. ونقل الشيخ ابن عاشور رحمه الله : أن الجودي من جزيرة ابن عمر قرب الموصل شرقي دجلة. إن ما أيّد الله به نوحا عليه السلام، وبقاء السفينة حتى شهدت آثارها الأمم المتتالية، كل ذلك يقوم آية ودليلا على كمال التقدير، ليُعمل البشر فيه عقولهم، فينفتحوا على الإيمان، ويسندوا تنظيم الكون وتدبيره لله رب العالمين. ويحرض في خاتمة الآية

النّاس جميعا على التفكر في آيات الله. كأنّـــه يقـــول أقبلـــوا إلـــى مائـــدة التـــذكر فتنـــاولوا منها ما شئتم من الخير، فإنها لا تنفد.

16-فكيف كان عذابي ونذر.

تلحظ هذه الآية ما جاء في الآيات الســـابقة مـــن النّـــذر التـــي وجهـــت إلـــى قـــوم نـــوح، وتصلبهم في الكفر، والعـــذاب المـــاحق والألـــيم بواســـطة الغـــرق، إذ الغـــرق لا يقضـــي على الهالك دفعة واحدة. تـــأملوا فـــي حكمتـــي ســـواء فـــي الـــدعوة والتحـــذير، أو فـــي الانتقام ممن أعمى بصيرته عن الحق.

17- ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر.

وإذ تم الغرض فيما يتعلق بجميع مراحل قوم نوح فبلغ الاعتبـــار بمـــا حـــل بهـــم، تحـــول الغرض للفت الأنظار إلى أن القرآن أفضل الكـــلام ممـــا يـــدعو للتأمـــل فيـــه، فقـــد بلـــغ بعناية الله أن جعله حسب الضوابط التي يقوم بها الكـــلام : خاصـــية البيـــان واليســـر فـــي أعلى مقام. فسلاسة تعبيره ووضوح المراد مـــن آياتـــه وخاصـــة فيمـــا يتعلـــق بالحـــديث عن الأمم السالفة التي سجل ما تم لهم تسجيلا واضحا بينـــا باللســـان العربـــي الـــذي هـــو بعيد عن لسانهم. تيسر للفهم والانطبـــاع فـــي عقـــل ســـامعيه مـــع ارتقـــاع مســـتواه فـــي البلاغة عن طوق البشر. هو مفتوح لكـــل مـــن يرغـــب فـــي التـــذكر، فحـــرّضَ وحُـــثّ النّاس على التذكر في بيناته، ليبلغوا ما قصده سبحانه من هداياته.

وقد فهم بعض الحذاق من هـــذا التنويـــه خاصـــية أخـــرى، هـــي خاصـــية يســـر تعلقـــه بالحافظة، أمر لا يشاركه فيه غيره من الكتـــب الســـماوية الســـابقة. إذ تجـــدهم مـــرتبطين بالنص المكتوب، أما القرآن ففي جميع الأمـــم مـــن العـــرب والعجـــم والبـــيض والســـود والصفر والحمر، أعداد غير قليل يســـر الله لهـــم حفـــظ القـــرآن كلـــه، مـــع حســـن الأداء وجمال الصوت.

(18) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (19) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (20) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (21) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (22) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (23) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ (24) فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ (25) أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (26) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ (27) إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ (28) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصرصر: الريح التي يصحبها صوت لشدتها.

نحس : سوء الحال.

النزع : الإزالة بعنف.

الأعجاز : أسفل الشيء

منقعر : خاوية.

لفي ضلال : متمكن من عدم الاهتداء إلى الحق.

سعر: الجنون.

ألقي : أأنزل عليه الذكر من السماء؟

أشر: معجب بنفسه مدع ما ليس فيه.

غدا : مستقبل قريب.

ارتقبهم : انتظر ما سيحل بهم.

اصطبر : اصبر عليهم ولا تضجر.

كل شرب محتضر: كل نوبة للشرب خاصة بصاحب النّوبة لا يحضرها غيره.

صاحبهم : الراضون بفعلته. فاجترأ وأقدم على الأمر العظيم المنكر.

صيحة : صوت قطع أوصالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

القصة الثانية المُذكّر بها، هي قصة عاد، أول ما سجله فيها أنهم كذبوا، فانظروا مآلهم بذلك التكذيب لرسولهم، وعدم الالتفات لمتنوع نذره. المآل أننا سلطنا عليهم ريحا تدوي قوية محزنة، توالت عليهم سبع ليال وثمانية أيام، كانت نحسا وسوءا عليهم، استمرت فاقتلعتهم ورمت بأشلائهم على الأرض، وفرغتهم من أحشائهم كأنهم أعجاز نخل مر عليها من الزمن ما نخر داخلها. فانظروا واتعظوا، وتدبروا في قدرتي، كيف عذبتهم، وكيف أنهم أوقعوا أنفسهم في ذلك المآل، لتكذيبهم بنذري. وبكل تأكيد تجدون في القرآن الظاهرة الخاصة به، أنه ميسر للتدبر والفهم.

والقصة الثالثة: قصة ثمود. هي نظير قصة عاد كذبوا بالنذر العديدة التي خوفهم من وقوعها رسولهم صالح. واجهوه أولا بشبهتهم التي يشاركهم فيها مشركو مكة. كيف يكون الرسول بشرا؟ يتساوى معنا في العرق والنوع، ثم يريد أن يتقدم علينا لنتبعه. إننا لو اتبعناه لكنا ألقينا أنفسنا في متاهة الضلال. بل الحقيقة أنه شديد الكذب، معجب بنفسه يدعي ما ليس فيه.

رد عليهم وقاحتهم: سيعلمون عن قريب من هو الكذاب المدعي ما ليس فيه. وفصل ما سيفتنهم به. إنا سنرسل عليه آية تصدقك وتفتنهم ليحق عليهم القول. هذه الآية ناقة تخرج من الصخرة، تختص بشرب ماء البئر يوما، وتكون لهم نوبة يوم، لا يتسلط أحدهما على الآخر في يوم نوبته. ومضى الأمر على ذلك أياما. ألهمت الناقة أن لا تأتيهم يوم نوبتهم، ويوم نوبتها تشرب كل ماء البئر. ضجروا من الناقة، وقرروا فيما بينهم أن يقضوا عليها. و لم يتجرأ على التنفيذ إلا أحد طغاتهم فأخذ الأمر على عاتقه، وقصد الناقة فرماها بسهم قتلها به، وهم راضون عن فعلته. فتصور ما شئت فيما أنذرتهم به، وتصور عذابي المسلط عليهم إذ لم يأخذوا نذري مأخذ الجد والحذر. أرسلنا عليهم صيحة واحدة خلخلت كيانهم ومزقته تمزيقا، فصاروا كالحظيرة التي مر عليها زمن فتفتت تدوسها الأقدام.

بيان المعنى العام :

18-21، كذبت عاد....عذابي ونذر.

كما ذكرنا في فاتحة قصة نوح، أن القرآن جدد تذكيرهم ببعض الأنبياء، فبعد أن استوفى قصة نوح انتقل إلى التذكير بقصة عاد. وتفنن في عرضها فافتتحها بذكر موقفهم إجمالا الذي هو التكذيب، وما ترتب عليه بلفت النظر إلى عاقبة أمرهم. وأجمل فيه لتذهب النفس في تصوره كل مذهب يتناسب مع الموقف ولتكون مشوقة لبيانه. وابتدأ التفصيل ببيان عذابهم على طريقة اللف والنشر المرتب.

سلطنا عليهم ريحا تهب بسرعة كأشد ما تكون السرعة، تدوي بصوت مرعب محزن، استمرت هذه الريح سبع ليال وثمانية أيام، كانت أيام نحس، ساءت فيها أحوالهم، وتوالت عليهم آثارها المدمرة فلم تبق منهم أحدا. كانت تقتلعهم كما تقلع النخل من منابتها، ثم ترمي بأحشائهم على الأرض فتفرغ دواخلهم، كما تشاهد أعجاز النخيل المنقلعة وقد مر عليها من الزمن ما نخر داخلها وفرغها من أليافها الداخلية.

-وإذ تمت الصورة فتأملوا كيف كان عذابي، وتعجبوا مما آل إليهم أمرهم. وعاقبة نذري لمن رفضها.

22- إنّا أرسلنا عليهم ..... كهشيم المحتظر.

وهذه صورة أخرى تكشف تيسير القـرآن لفهمـه والاتعـاظ بـه، وسـؤال يحـث النّـاس على الاستفادة من تذكيره.

23←26، ولقد يسرنا القرآن...مَنْ هو الكذاب الأشر.

افتتحت القصة على النّحو الذي افتتحت به قصة عاد. بتسـجيل تكـذيبهم مـا أنـذرهم بـه صالح عليه السلام من عقوبات. ثم فصل ردهـم وكشـف شـبهتهم. لـم يقبلـوا أن يكـون الرسول بشرا، وأنكروا الاتصال بـين البشـر وبـين الـوحي الإلهـي. ثـم أكـدوا هـذا المفهوم بأنه واحد منهم، ليست له مزية ترفعـه ليكـون قائـدا متّبعًـا. ثـم رجعـوا إلـى أنفسهم يقوونها على الرفض، فقالوا: إنا لو اتبعنـاه وتنازلنـا للسـير فـي طريقـه الـذي يدعونا إليه، لكنا بذلك قد تمكن منا الضـلال والبعـد عـن طريـق الهـدى، ونكـون قـد فقدنا عقولنا، وأصبنا بالجنون. عجب لهذه الدعوة التـي جـاء بهـا ونسـب لنفسـه تلقّـي الذكر الذي ينشره، أنه أتاه من عند الله. لمـا ذا اختـاره الله مـن بيننـا؟ بـل، ثـم حققـوا أنه لا يعدو أن يكون كذابا تمكن منه الكذب، معجب بنفسه مدع ما ليس فيه.

رد الله عليهم بتلقينه رسوله أن يقول لهم: ستعلمون عـن قريـب مـن منـا المـدعي مـا ليس فيه. و بتهديدهم تهديدا مباشرا. منه أنهم سـيعلمون علـم اليقـين مـن هـو الكـذاب الأشر، لا بالتهم الباطلة والدعاوي الفارغة.

27←28، إنا مرسلوا النّاقة...كل شرب محتضر.

فصلّت الآية مضمون التهديد في الآيـة السـابقة. إنـا بعظمتنـا وقـدرتنا سنرسـل النّاقـة لتكون آية لك، وفتنة لهم تفتنهم. فهي معجزة لـك بإخراجهـا مـن صـخرة ومـا تميـزت به من خصائص. فارتقبهم ولا تضجر من مواصلتهم تكـذيبك وترقـب مـا سـيحل بهـم وتبصر ما هم صانعون، واصبر عليهم صبرا لا يداخله ملل، فإن الوعيد سيتحقق.

– أخبرهم أن الله أرسل النّاقة ليختبـرهم، وأن المـاء الـذي يشـرب منـه أهـل القريـة أصبح من اليوم الذي تظهر فيه النّاقة مقسوما، فلهـم نوبـة يشـربون فـي يـومهم المـاء من البئر، ولا تأتيهم فيه النّاقة. وللناقة يوم خـاص بهـا تشـرب فيـه مـاء البئـر. وقـد كانت النّاقة إذا حضر يومها تأتي إلى البئر فتشرب كل مائه.

29←30- فنادوا صاحبهم...عذابي ونذر.

ضجروا من النّاقة، التي اصبحت تقاسمهم ماءهم، مـع أنهـم علمـوا مـن رسـولهم أنهـا آية، وأنهم يُعرّضون أنفسـهم لنكـال لا يعلمـه إلا الله إن هـم آذوهـا، أو حرموهـا مـن الماء. ولذا أخذوا يدبّرون طريقة للقضاء عليهـا، وكـل واحـد يهـاب العاقبـة ويـود أن

ينجز غيره أمر القضاء عليها. وأخيــرا تقــدم أحــد كبــرائهم المعتــز بنفســه (الأشــر) وقالوا إن اسمه قُدار. وأخذ المســؤولية علــى عاتقــه، ورمــى النّاقــة فعقرهــا. اخــتص قدار بمباشرة التنفيذ، وكلهم راضون عما قام به بل راغبون فيه.

- فلا تسأل عن تنفيذ الوعيد، وعن العذاب الــذي ســلط علــيهم، وتصــور كــل متصــور في العذاب الذي سلط عليهم، ومن النّذر التي توالت عليهم، فلم يؤخذوا بدون تنبيه.

31-إنا أرسلنا عليهم صيحة...كهشيم المحتضر.

تجرأوا وأقدموا غير مكترثين بما أنذروا به، فحــق علــيهم الوعيــد. عبــر عــن الوعيــد بأنه صيحة واحدة بلغت من قوتهــا أنهــا تتجــاوز الطاقــة البشــرية فتقطعــت أوصــالهم منها، وعبر عنها في سورة الحاقة بالطاغيــة، أنهــا متجــاوزة كــل الحــدود المعروفــة، وفي سورة الأعراف بالرجفة، اهتــزت الأرض تحــت أقــدامهم ونفــذت إلــى بــواطنهم فمزقتها. فهي أمر واحد عبر عنه في كل مقام بجانب مــن جوانــب تــأثيره المــدمّر. ثــم صورهم القرآن بعد أن مزقتهم الصــيحة أنهــم صــاروا كهشــيم الحظيــرة. التــي تتخــذ لحفظ الأغنام، فبعد مدة لا تتجــاوز الســنوات الــثلاث عــادة، تتفتــت وبعــد أن كانــت مانعة للأغنام من الخروج، تنقلب فتاتا تدوسها الأقدام.

32- يقال فيه ما قيل فيما ختمت به القصتان السابقتان.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحاصب : الريح التي ترفع الحصباء بقوتها الشديدة ثم تسقطها.

تماروا: شكوا، وحرض بعضهم بعضا على الشك.

راودوه : المراودة محاولة إرضاء الكاره بقبول ما يكره.

الآل : القرابة.

كلها : على كثرتها.

أخذناهم : انتقمنا منهم.

العزيز : الذي لا يغلب.

المقتدر: الذي لا يعجز

بيان المعنى الإجمالي :

بعث الله لوطا إلى قومه، فأنذرهم ما سيحل بهم من عذاب إن لم يُحوّلوا سلوكهم وعقيدتهم عن الطريق القبيح الذي كانوا يسيرون عليه. لم يأبهُوا بما أنذرهم وواصلوا حياتهم على ما كانوا عليه، فأرسل الله عليهم ريحا عنيفة، بلغ من قوتها أنها تقلع الحصباء فترفعها إلى أعالي الجو ثم تسقطها عليهم فهشمتهم. وأنجى الله لوطا فخرج مع أسرته المؤمنة عند السحر، قبل الصباح. أنعمنا عليهم وأنجيناهم جزاء لشكرهم نعمتنا واعترافهم بفضل الله عليهم والتزامهم بطاعته. وهي سنتنا في إحاطة من يشكر نعمتنا بألطافنا وحسن مثوبتنا. بلغ من وقاحة قوم لوط أنهم تفطنوا إلى استقبال لوط لضيوف، فتسوروا عليه بيته، وحاولوه أن يُخلّي بينهم وبين ضيوفه ليشبعوا منهم نهمهم الجنسي الآثم، فطمس عيونهم. وأحسوا بنداء الشماتة والتوبيخ من باطنهم : ليكن إحساسكم بالعذاب على أشده جزاء ما عملتم. وبكل تأكيد فإن هذا العرض القرآني ينفذ بيسر إلى عقولكم ومشاعركم لتهتدوا.

وبكل تأكيد جاء موسى وأخوه إلى فرعون وملئه مؤيدين منا، فأنذراهم بما يترصدهم من عذاب الله، إن هم استكبروا ولم ينفذوا ما يطلب منهم، وخاصة التخلية بينهم وبين بني إسرائيل. كانت الآيات متتابعة وكثيرة، فكذبوا بها كلها، فانتقمنا منهم انتقاما استأصلهم.

بيان المعنى العام :

32-35- كذبت قوم لوط...نجزي من شكر.

هذه هي القصة الرابعة من الأنباء التي ذكر بها القرآن مشركي مكة أولا، ليعتبروا بسنن الله في إمهال المكذبين، ثم تسليط ما يوعدهم به من العذاب، الذي ينوعه حسب ما سبق في علمه وجرت عليه حكمته.

هي قصة قوم لوط الذين ما كانت قبيلتهم معروفة باسمها عند العرب، وكانت بعثته في الوقت الذي كان إبراهيم عليه السلام يدعو قومه لعبادة الله وحده ونبذ الأصنام.

أجمل القرآن النُذر التي حاول بها لوط إيقاظ قومه، محذرا لهم منها. وأنهم لم يُلقوا لها بالا، ولم يرتدعوا وواصلوا ماهم عليه. فسلط الله عليهم ريحا قوية كأشد ما تكون القوة تقلع الحصباء وترفعها بقوتها إلى أعالي الجو، ثم تسقطها عليهم فمزقتهم شر ممزق في وقت الصباح. ونجى الله لوطا وآل بيته الذين آمنوا به واتبعوه فخرجوا من القرية قبل ذلك عند السحر، إلا امرأته التي ذكر في آيات أخرى من القرآن أنه أصابها ما أصابهم.

أنجينا لوطا وأهله المؤمنين، إنعاما منا عليهم. وهو يدل على عناية الله بالصالحين. فما كانت نجاتهم بتدبيرهم، ولكن نجوا بسبب النعمة الواردة من عندنا. وعلى هذا النحو جرت سنتنا في جزاء من شكر نعمتنا، فآمن معترفا بفضل الله عليه، مطبقا لما جاءه من هداية. ويدل ذلك بالمقابل أن من لم يشكر يحرم من نعمتنا.

36- ولقد أنذرهم بطشتنا...بالنذر.

لم يعاجلهم بالعذاب بمجرد ما لم يستجيبوا لهدايته. ولكنهم قابلوا نذره وتخويفاته لهم: أن الله سيأخذهم بقوة وعنف لا يستطيعون له صردا، قابلوا ذلك بالشك فيه، وحرض بعضهم بعضا على عدم الوثوق بما يخبر به.

37- ولقد راودوه...عذابي ونذر.

صرح القرآن بوقاحتهم التي تجاوزت كل الحدود. إذ نزل ببيته ضيوف، فلما سمعوا بهم تسوروا عليه بيته، وحاولوه بكل الطرق أن يخلي بينهم وبين هؤلاء الضيوف ليقضوا منهم شهوتهم الآثمة. فكان العذاب الأول أن اعمى الله أبصارهم، عمى مذهلا، ذهبت الأجفان والأهداب، وتحولت إلى جلدة ساترة لا يرى أصحابها شيئا. وأحسوا في بواطنهم نداء التوبيخ والتنكيل: ليكن إحساسكم بالعذاب على أشده، العذاب الذي يذكركم بما أنذركم به رسولكم.

40- ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر.

بكل تأكيد يسرنا القرآن ليتذكر به البشر ويأخذوا من عاقبة من يؤمن ويستجيب وعاقبة من يتحدى ويكذب، ما يساعدهم على الاستقامة في حياتهم، ويبتعدوا عما يوجب غضب الله ونكاله.

41- 42- ولقد جا ءال فرعون... أخذ عزيز مقتدر.

بلغت النّذر لفرعون وآله، الذين كانوا أعوانه على الحكم، عن طريق موسى وهارون عليهما السلام. وتوالت الآيات المؤيدة لهما مؤكدة أنهما أُرسلا من عند الله، وأن تنفيذ ما يطلبانه واجب لا محيد عنه. كذبوا أن تلك الآيات من عند الله، من

انقلاب العصا، إلى غرقهم في البحر، إذ اقتحموه معتقدين أنها ظاهرة كونية وليس ماتم حجة لموسى وأخيه. فانتقمنا منهم لمواصلتهم التحدي وتكذيب رسلنا. وكان انتقامنا منهم انتقام العزيز الذي لا يغلب، المقتدر الذي لا يعجزه شيء فيحول بينه وبين تنفيذ مراده. وذلك يفيد أن الانتقام كان انتقاما لم يبق على العدو، إلا جثة فرعون. فكانت قصة فرعون المستكبر، آخر قصة في التذكير المفصل لقوله تعالى: ولقد جاءهم من الأنباء.

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (46) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (49) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (53) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (55)

بيان معاني الألفاظ :

البراءة : السلامة.

الزبر : في كتب الله السابقة.

جميع :الجماعة المتفقون الذين أمرهم واحد.

الساعة : يوم القيامة.

أدهى : فيها داهية أعظم. والداهية الرزية العظمى.

أمر: يبلغ الإحساس السيء بها حدا أشد مما هو في الدنيا.

في ضلال : تمكن منهم الخسران.

سعر : جمع سعير النار.

السحب : الجر.

المس : الإصابة.

سقر : جهنم.

قدر: مقدّر و مضبوط.

اللمح: ما يخطفه البصر فيدركه سريعا.

أشياعكم : المتشابهون في مذهب أو دين.

الزبر: جمع زبور. الكتاب صحائف الأعمال.

مقعد صدق : مكان مرضي تثبت الإقامة فيه.

مليك مقتدر : مالك قادر

بيان المعنى الاجمالي :

عجبٌ لهم كيف لم يتعظوا بما تكرر عليهم من أنباء الأمم الماضية ! أتظنون أن كفاركم خير من كفار قوم نوح، وقوم هود وقوم صالح، وقوم لوط، وآل فرعون، أم اطمأننتم بنص من عند الله ورد في الكتب السابقة يحميكم من الجزاء. أم تقولون نحن قوة لا تغلب، ونحن منتصرون بلا شك. إن جمعهم سيهزم هزيمة منكرة، يفرون من ساحة القتال يولون ظهورهم إلى من هزمهم. وأكبر من ذلك ما يترصدهم من عذاب يوم القيامة. فدواهي عذابها أشد وأنكى، وأبلغ إيلاما من كل عذاب متصور في الدنيا. إن يوم القيامة هو موعدهم الذي أوعدناهم به وهو آت لا محالة. إن الذين أجرموا بكفرهم، والاعتداء على الحق وأتباعه، قد اختاروا لأنفسهم أن تكون الخسارة مآلهم في جهنم وهي تستعر. سيلقون جزاءهم في ذلك اليوم الشديد الذي يُجرُّون جرا على وجوههم في جهنم، ويقال لهم : شماتة بهم وإهانة أحسوا بعذاب نار جهنم التي تجدون آلامها بمجرد ما يمسُّكم لظاها.

سلطنا على قوم لوط باكر الصباح عذابا استقر فيهم فلم ينفصل عنهم حتى سحقهم وأبادهم. ويحسون مع آلام العذاب أصواتا تقرعهم تقول لهم : ليكن إحساسكم قويا بعذابي، ولتكن ندامتكم شديدة على تكذيبكم بنذري و تحديكم لها. ولقد يسرنا القرآن ليتذكر به من يفتح بصيرته.

وأكمل سرد الأنباء بما تم لفرعون وآله، الذين جاءتهم نذر موسى وهارون، الآيات التسعة فكذبوا بها جميعا. واعتزوا بقوتهم وسلطانهم، فأخذناهم كما يؤخذ الضعيف التافه، أخذناهم أخذ العزيز الذي لا يغلب القادر الذي لا يعجزه شيء.

عجبٌ لكم كيف لم تستفيدوا مما سلطناه على الأمم التي ذكرناكم بأنبائها، فهل تظنون أن كفاركم خير من الكفار الماضين فأنتم في منعةٍ من العذاب، أوجدتم نصا إلهيا يستثنيكم من تحمل تبعات كفركم، أم تقولون إنكم تمثلون قوة متضامنة لا تقهر وأنكم منتصرون دائما ؟ إن جمعكم هذا وقوتكم التي غرتكم هي قوة مهزومة، ستتحققون من ذلك، وستهزمون، وتفرون من القوة الضاربة التي تحطمكم. بل أكثر من ذلك فإن من انفلت من عذاب الدنيا، فإنه مع المعذبين سيكون لهم جميعا موعد

يوم القيامة، ساعة الحساب والجزاء. والساعة جامعة لعظيم الرزايا. وآلامها أبلغ مرارة من آلام الدنيا.

بكل تأكيد إن الذين اتصفوا بالإجرام فآذوا المؤمنين والمؤمنات، واستكبروا في الأرض بغير الحق، وأفسدوا فيها، ستُطبِقُ عليهم المهالك، ونيران جهنم تجرهم ملائكة العذاب على وجوههم ويقال لهم : ذوقوا ما تمسكم به جهنم.

إن تصرفنا في الكون هو التصرف المحكم، فكل دقيق مما خلقناه في الكون مادة أو عملاً مقدر تقديرا كاملا، لم تغب عنا صغيرة ولا كبيرة من قوانين الخلق. وبناء على ذلك إننا إذا أردنا إنجاز ما تعلق به علمُنا القديم تنجزه ضربة واحدة. كما تدركون لمح البرق، بل هو أسرع من ذلك.

إن الذين تتفقون معهم على مبادئ الكفر والشرك والفساد، قد أهلكناهم. أفلا تتذكرون. وكل فعل صدر عنهم مما كان تافها، آثاره ضعيفة، وما كان كبيرا آثاره قوية وممتدة، الكل سواء مسجل عندنا لا يغيب منه شيء، كالصحيفة التي توالى فيها التسجيل سطورا لا تضيع منها كلمة ولا سطر.

إن الذين اتقوا ربهم فاستحضروا دوما صلتهم به، وراقبوا بذلك ما يصدر عنهم من فعال. وحصنوا أنفسهم من ارتكاب ما نهى الله عنه، مآلهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ثبتت إقامتهم عند المالك لكل شيء القدير القدرة الكاملة.

بيان المعنى العام :

43—46: أكفاركم خير..أدهى وأمر.

تعداد الأنباء الواردة في الآيات السابقة، كان من حقه أن يحركهم للاعتبار، ويحذروا المآل الذي حاق بالأمم السابقة. ولكنهم مروا بتلكم النذر ولم يقلعوا عن ضلالهم. يسألهم سؤال من يعتبر الجواب غير معلوم، فيقول لهم أتظنون أن كفاركم خير من الكفار الماضين، فلا يصيبكم ما أصاب الماضين، أم إنكم اطمأننتم إلى أن سلامتكم من العذاب محققة بنص نازل من عند الله، فواصلتم ما أنتم عليه آمنين ؟

-انتقال إلى احتمال خيالي آخر منهم، والقصد نفي أن يكون لهم وجه يبرر توالي إعراضهم. لم يبق لهم من وجه إلا أن يقولوا نحن قوة أمرنا جميع، ونحن متفقون، وهذه الوحدة قوة لا تنهزم ولا يمكن كسرها، فنحن ماضون في سبيلنا لا نشعر بالخوف. نقض القرآن تصورهم، مصرحا: أن الجمع الذي يستندون إليه، ويعتقدون في قوته وصلابته، أنه جمع سيهزم، ويتبين لهم أنه ضعف لا قوة، وتكون هزيمتهم شر هزيمة، يفرون فلا ترى إلا ظهورهم. وعبر عن ظهورهم بأدبارهم احتقارا

لهم. وتعبيرا عن تفاهتهم. وتحقق الوعيد يوم بدر، لما فروا منهزمين لا يلوون على شيء، وكذلك في معارك تلته، كما تم في غزوة الخندق.

- انتقال من التهديد بعذاب الدنيا وخزيها، إلى تنبيههم إلى العذاب الذي يترصدهم يوم القيامة. إن وعيدهم الذي لا مناص منه سيكون يوم يبعثون يوم القيامة. فهو موعد ثابت، ويلقوّن فيه من العذاب ومن النكال ما هو أشد من مصائب الدنيا جميعها، إذ يُرْمون بدواهي يخلدون فيها ولا يتحولون عنها ويكون إحساسهم بعذابها أشد من جميع ما أحسوا به من أنواع عذاب الدنيا.

47--48- إن المجرمين في ضلال...مس سقر.

بكل تأكيد نفيا لما يتوهم المجرمون من سلامتهم، إن الذين اتصفوا بالإجرام فتجاوزوا حدود الله، وكذبوا رسوله، واعتدوا على الحق وأتباعه، أعدوا أنفسهم ليحيط بهم الخسران من كل جانب، وليجدوا مكانهم في جهنم المستعرة نارها. يوم يحلون بدار إقامتهم سينزل عليهم الإذلال المعنوي والحسي، ويجرون على وجوهم في جهنم لدركاتها التي تتناسب ومقدار إجرامهم. ويقال له تنكيلا بهم وإهانة: أحسوا الإحساس الشديد بعذاب جهنم.

49-إنا كل شيء خلقناه بقدر.

تتابع الصراع بين الحق والباطل، بين الرسل المبعوثين من الله لهداية البشر، وبين أقوامهم المعترضين عليهم المنكرين لما جاؤوا به. وتتابع أيضا إمهال المكذبين وعدم التعجيل بعقوبتهم. وأن بعضهم تنتهي حياته وهو كافر بما أنزل الله. ووردت صور انتهى الصراع فيها بتسليط الجزاء الحاسم، وإنجاء الصالحين، وإهلاك الكافرين. عرضت الآيات السابقة عرضا سريعا شريطا لحياة البشر في عصور متلاحقة بعيدة في التاريخ، ويثبت القرآن في جميعها أنها انتهت بانتصار الحق على الباطل، ولكن مع ذلك فإن الباطل كان له صولات. ومن شأن الفكر البشري أن يقف متسائلا كلما كان المشهد الذي أمامه فيه غموض، اذا كان الواقع فيه ضبابية في الربط بين الأسباب ومسبباتها.

جاءت هذه الآية تجيب الإنسان عن تساؤلاته. فتهديه إلى النظر في كتاب الكون ليأخذ منه ما يساعده على الخروج من حيرته. انظروا إلى ما تركب منه الكون من مواد، ومن أفعال في هذا الكون يقوم بها العاقل المختار، ويقوم بها البعض الآخر بالفطرة، وتجري الكائنات كلها المخلوقة لله على قوانين محكمة كأبلغ ما تكون الحكمة. تستوي في ذلك المجرات العظيمة التي تقاس أبعادها بالسنوات الضوئية،

وإلكترونات النّواة. كلها تسير على نظام مترابط دقيق. تستطيع أيها الإنسان أن تدرس في حدود إمكاناتك العقلية، وفي عمرك المحدود فتتعمق في جزئية من تلك الجزئيات، فتلحظ قطعا أن كل صغيرة وكبيرة روعي فيها أنها تسير على قوانين الضبط والدقة. وأنها ما كانت لتوجد أو تستمر لو وقعت الغفلة عن أي جزئية من الجزئيات. وأن بينها وبين بقية أجزاء الكون ترابط قد يبيح لك بسره، وقد يبقى سره محجوبا عنك. ولا تعجب من قدراتك المحدودة، فهذا هو أنت. وخذ لذلك مثلا بسيطا يتكرر في كل لحظة من لحظات حياتك، تأكل الطعام تمضغه فتبتلعه، ويأخذ مساره في جسمك، وسلسلة من التحولات تحدث فيه، مما يغذي الجانب المادي فيك، وما يغذي قوى الأعصاب والدماغ. يتم ذلك وأنت لا تشعر بما جرى في باطنك وبما يسري في كيانك. فهو مادي من ناحية، و يتحول إلى غذاء للعقل وللمشاعر من ناحية أخرى. ولا يتعطل إلا إذا أراد المتصرف الحقيقي توقيفه. فهذا هو التقدير الذي يجري عليه الخلاق العليم الكون(وكل شيء خلقناه بقدر) يستوي في ذلك المادي والعقلي والروحي. وهو الذي يرسل الرسل بالحكمة والهداية للحق، وتشريع ما تكون به حياة الإنسان أقرب للخير وأبعد عن الشر. ثم يهتدي بهم من اختار طريقهم، ويعاديهم من لم يبْقَ فيما جاؤوا به. وينتهي الأمر بالمؤمنين إلى الجنة وينتهي العناد بالكافرين إلى النّار. وقد أيد القسم الأول بألطافه دون جبر، وحرم الآخرين من ألطافه بدون جبر أيضا.

وعلى هذا الاختيار بنى الثواب والعقاب. ولا يسأل عما يفعل، فإن الحكمة التي ظهرت في خلقه تفيدنا أن الحكمة فيما قدره وقضاه، ومحدودية قدراتنا العقلية لا تبلغ بنا الإحاطة بسر القدر.

50-وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر.

كيف يتحقق تصرف ربنا في هذا الكون، ما تعلق بالماديات، وما تعلق بالمعاني والمعقولات ؟ هذا ما يفترق فيه الأمر بين الخالق والمخلوق، فالمخلوق يرتب الأسباب، ويوازن بين الموجب والسالب، وما يترتب على كل منهما، وكيف يحصن عمله مما ينقضه. وقد تتطلب الدراسة وقتا يطول أو يقصر. أما بالنسبة للخالق فعلمه سبحانه وإرادته وقدرته، تنفذ الأمر الذي حان وقت إيجاده، أو يعدمه إذا حان وقت إعدامه، في لحظة واحدة لا تقبل القسمة، يعسر التعبير عنها بما يدل عليه اللفظ، فشبهها بالحدث الذي يرتسم على البصر بسرعة فائقة كإدراك البرق ، ثم

دقق حتى لا يتوهم أن هذا التمثيل هــو الحقيقــة فقــال تعــالى : **ومــا أمــر الســاعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب** [1].

51-ولقد أهلكنا...من مدكر.

تأكيد على تهديد المشركين الذين لم تفـد فـيهم النّـذر، ومصــارع الأمــم الســابقة التــي عتت عن أمر ربها وكذبت برسله، بكـل تأكيـد أهلكنــا الــذين كــانوا علــى طــريقتكم، وكانت مواقفهم مشابهة لمواقفكم. "الأشياع الفــرق المتشــابهة فــي مــذهب أوديــن" كــل فرقة شيعة للأخرى. ولما كان مآلهم الهلاك والتــدمير، وذكرنــاكم بعاقبــة أســرهم، فهــل تتذكرون وتعتبرون ؟

52-53-وكل شيء فعلوه...مستطر.

واصل تهديد المشركين معرضا عن التوجه لهم بالخطاب، وهــو أبلــغ فــي التهديــد. كــل ما فعلوه من ضــروب الإذايــات والتحــدي للحــق، والإفســاد فــي الأرض موثّــق فــي الكتب التي سجلتها الملائكة لا يضيع منه شيء، يحاسبون عليه، ويلقون جزاءهم.

-ثم عمم تأكيد توثيق ما يحصل في الكــون، وأنّــه لا يضــيع منــه شــيء، يســتوي فــي ذلك ما كان آثاره تافهة "كل صغير"، وما كانــت آثــاره قويــة مســتمرة "كبيــر" مكتــوب في سطور بينة. ومعنى ذلك أنه مثبت بنظام لا يغيــب منــه شــيء، ينشــر عنــدما يــأذن الله بنشره للحساب، فلا يستطيع فاعله إنكاره.

54-55- إن المتقين...عند مليك مقتدر.

جرت هذه الآية على سنة التذكير القرآني، فــي اتبــاع النّــذارة بالبشــارة، فبعــد أن هــدد المشركين، وعرض عليهم صنوف العذاب التي سلطت علــى مــن قــبلهم، عطــف القــول ليبشر المؤمنين الصالحين فقــال تعــالى : إن المتقــين لــربهم المتصــلون بــه اتصــال الطاعة والإخلاص، مآلهم اســتقرار فــي جنــات تتخللهــا الأنهــار. تجمــع بــين النّعــيم الجسمي والنعيم المعنوي. إنهم مقيمون في الجنة إقامــة لا تنقطــع، والإقامــة فــي الجنــة هي أرفع ما يتصور، بتوفر كــل كمــال ومناســبة فــي الإقامــة. وتثبــت ذلــك التصــور الكريم بأنهم عند المالك للملك كلــه، الــذي لا يضــيق ملكــه بشــيء، وقــدير لا يعجــزه قليل ولا كثير. ومع سعة الملك وكمال القدرة للنفس أن تتصــور كــل فضــل. ومــا عنــد الله خير وأبقى.

[1] سورة النّحل آية 77

ســــورة الرّحمان

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة.

استمد اسمها من فاتحتها " الرحمن "وهي من السور المكية. اختلف كثيرا في تاريخ نزولها وحسب ما رواه ابن النديم هي السورة الخامسة والثلاثون نزلت قبل سورة الجن، وبعد سورة البلد. ورتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ (1) عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ (2) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ (3) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (4) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ (9) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (11) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ (12) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)

بيان معاني الألفاظ :

حسبان : حساب دقيق.

النجم : يطلق على نجوم السماء. وعلى النّبات الذي لا يرتفع على سطح الأرض.

الطغيان : تجاوز الحق اعتمادا على القوة.

أقيموا : أنجزوه على الصفة الكاملة التي لا جور فيها.

القسط : العدل.

الأنام : حمله بعضهم على بني آدم، وقيل الإنس والجن، وقيل كل ما يدب على وجه الأرض.

الآلاء: النّعم.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت هذه السورة بآية "الرحمن" الدالة على أن ما سيرد فيها تفصيلات للرحمة الإلهية التي تعم البشر والكون.

الرحمة الأولى: أنه علّم محمدا وعلّم الأمة القرآن، الكتاب الذي لا تحد خيراته؛ وبه هدي الإنسان ليجمع في حياته بين ما يسعده في الدنيا وما يسعده في الآخرة.

الرحمة الثانية: بنعمته خرج الإنسان من العدم إلى الوجود. هو في خير ما دام شاعرا بنعمة الإيجاد قائما بما تقتضيه من العبادة والاستقامة.

الرحمة الثالثة: أودع في الجنس البشري ما يستطيع به التواصل مع غيره بالكلام، تعلما لأصول اللغة، وتأنقا فيها إثر ذلك.

الرحمة الرابعة: أنه جعل الكون كله مبنيا على النظام. ومن انتظام مسيرة الشمس والقمر، ضبط حياته الحاضرة والماضية والمستقبلة. ومن تعلمه للحساب وتطويره تم للإنسان ما لا حد له من المخترعات التي بها تقدمت الحضارة.

الرحمة الخامسة: أن جعل الكائنات كلها خاضعة لجلاله. سواء في ذلك نجوم السماء، أو النبات النامي على وجه الأرض، أو الأشجار التي تقوم على ساق وترتفع في السماء. وهو ما يجعل المؤمن الشاعر بهذه النعمة منسجما مع الكون كله، مع أخيه الإنسان، ومع الأرض باطنها وظاهرها، ومع السماء وما تعمر به من كائنات. لا يهدف من سعيه إلى قهر الطبيعة، ولكن ليطورها وينتفع بخيراتها وليس بينه وبين أي قوة من قوى الكون عداوة.

الرحمة السادسة: رفعه للسماوات، وأمّن الإنسان من أن يسقط عليه جزء منها. وبناها على نظام دقيق لا يتسلط فيها كوكب على آخر فيسحقه، صورة لما ينبغي أن يكون عليه التعايش البشري من التكامل و التناسق. وهذا البناء المراعى فيه العدل والدقة، ينبهكم إلى أن تبتعدوا عن الطغيان والتسلط بالقوة والعنف. فاختلال العلاقات البشرية بتطويعها للعنف، والطغيان مؤذن بفساد المجتمع وانهياره اقتصاديا واجتماعيا. وبإقامة الميزان بالحرص على أن يتسلم كل ذي حق حقه وزنا وكيلا وعددا ونوعا، فأنتم مأمورون بالقسط العدل الكامل في التعامل. وإياكم أن تنقصوا حق غيركم. فليكن كل فرد حريصا على أن يوفي لمن يتعامل معه كامل حقه.

وفي مقابل السماء خلق الله الأرض ميسّرة ليسكنها البشر والدواب. يتناسب ثقلها وجاذبية الأرض.فلا يجد ساكنوها ثقلا أشد يحرجهم في تنقلاتهم، ولا خفة تحول بينهم وبين الثبات.ثم امتن بما أخرج من الأرض من الفواكه المختلفة الأشكال والألوان، والمذاق، والنكهة. وأنشأ النّخل تجري فيه تحولات عجيبة من خروج الطلع مكنونا في أكمامه إلى تحوله إلى رطب وتمر، غذاء وفاكهة معا. وأخرج من الأرض مختلف الحبوب كالقمح والشعير والأرز والقطاني؛ ينتفع الإنسان بحبها،

وينتفع الحيوان بورقها وسوقها التي كانت تقوم عليها. وأنشأ الرياحين يتطيب بها الإنسان. كل ذلك بحسن تقديره، وجميل فضله.

أيها المخلوقات التي تعي نعم الله وتدرك تصرفه، أتستطيعون أن تجحدوا أي نعمة من نعمه، أو تقولوا إنها ليست من حسن تقديره وخلقه، أو تدّعون أنها ليست نعمة منه، بل تقوم كلها منادية بأنه لا شريك له سبحانه.

بيان المعنى العام:

1-الرحمن.

هذه الكلمة الحبيبة للقلب، الموحية بالأمن والعون، إنها بعمق ما تدل عليه، وبحروفها اللينة، تنفذ إلى شعاب النّفس فتسكب فيها الأمل، والسكينة، ومسحة الرضا. ولذلك فإني أوثرُ رأي الكوفيين الذين جعلوها اية تامة. وأن قوله تعالى: "علم القرآن" اية تالية لها. و تتلألأ هذه الآية في فاتحة السورة لتعانق المقدر في الذهن الذي تتم به الجملة، فقدروه : هو الرحمن. وتّوالى في السورة تعداد النّعم التي تفضل بها رب العالمين، فكان في البداية باسم الرحمن براعة استهلال تجعل القارئ متهيئا لمتابعة نعم الله وفضله على الثقلين، في الدنيا وفي الآخرة.

2-علم القران.

هذه هي الرحمة الأولى، وهي أعظم الرحمات وأبلغها فائدة، وأوسعها تأثيرا، وأعمها فضلا. إذ توجه سبحانه فعلم محمدا القران، فتلقاه واضحا كأتم ما يكون الوضوح، لا لبس فيه ولا احتمال. وهذه الآية تثبت أن الله تولى تعليم رسوله لكتابه. و تنقض ما زعمه المشركون من أن الذي تولى تعليمه القرآن بشر: يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)[1]

وبذلك سلم النّص القرآني من كل تحريف أو شك. وأكد ذلك بقوله : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [2]– وأن الله تولى بفضله تعليم المؤمنين القرآن بتيسير حفظه، وبما يفتحه على قلوب علماء الأمة بصفة متتابعة ما يجعلهم مرتبطين بهداه على مر الأعصار. فكلما تحولت أنماط الحياة، وتطور العمران البشري، فتح على قلوب علماء الأمة ما يستطيعون به فهم القرآن فهما يعرفهم بمراد الله منهم في ظروفهم الجديدة. فهو تعليم متواصل ، ومنن إلهية على هذه الأمة لا ينقطع مدها.

[1] سورة النّحل آية 103

[2] سورة الحجر آية 9

وقد خص حفاظه وفهمته بالفضل العظيم، أخرج البخاري بسنده إلى عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

3-خلق الإنسان علّمه البيان.

-النعمة التالية لتعليم القرآن من نعم الرحمن. نعمة إيجاد النّوع الإنساني، وخروج الإنسان من العدم، وما أفاض عليه مما يتبع الإيجاد من المعرفة بالحواس، وبقواه العقلية، واقتداره تبعا لذلك على التأثير فيما حوله.

- النّعمة الثالثة، ما يسره للإنسان ليقوم بوظائفه في الحياة قياما يسمو بما بين يديه إلى مراتب أعلى. يتم ذلك بقدرة الإنسان على المعرفة وإفهام غيره ما عنده، وفهمه عن غيره ما عنده، وبتبادل التجارب والخبرات مع الآخرين، ليفيد ويستفيد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن من طبيعة البشر أنه لا يتمكن أي فرد من البقاء في الحياة إذا لم يتعاون مع غيره، ولم يستفد مما يقدمه له الآخرون في طعامه، ومسكنه، ولباسه، وفي حاجاته الضرورية والكمالية. وطريقة التواصل هي ما ركبه الله في الكائن البشري من قدرات سمحت له بالإبانة عما في نفسه، وبفهم ما عند الآخرين الذين يتعاون معهم. فهذه الملكة هي البيان المنوه به الآية. نعم إن البيان له مراتب من الحد الأدنى من الإفهام، ويرتقي في تجويد الإبانة إلى أن يبلغ مستويات تذهب صعدا كما نجده في الشعر الجيد والنثر البياني، والقمة تبرز في البيان القرآني. ولكن الذي تشير له الآية هو الحد الأدنى الذي يتم به التواصل من ربط الحاصل الذهني بالنطق الكاشف عنه.

5—7-الشمس والقمر...ووضع الميزان.

رحمة رابعة إجراؤه الشمس والقمر في مسارتهما، بتقدير عجيب لا يختل. بسيرهما المنتظم، يتبين الإنسان الزمن من ليل ونهار، ويوم و شهر وسنة. وتتأثر الكائنات الأرضية كلها بمساريهما. الثمار والحبوب والنباتات، والمد والجزر. إنه المتصرف فيهما، وهما مخلوقان له، وهو الرحمن الحقيق بالعبادة والشكر، فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر.

- جمع بين النّجم والشجر ليحكم عليهما بأنهما يسجدان لله. والنجم يطلق ويراد به ما عمرت به السماء من أجسام مضيئة ليلا، تتخلل قبتها, وتزينها بجمال بديع، يكون إدراكه أتم في فصل الصيف، وفي الأجواء النّقية من التلوث الحاجب. كما يطلق النّجم على النباتات التي تنمو مرتبطة بسطح الأرض. منها ما هو غذاء للحيوان، ومنها ما يدخل في قوت الإنسان. والشجر هو ما كان من النّباتات له ساق

يقوم عليها ويرتفع بأغصانه وثماره، من الكروم التي تعرش، إلى النّخيل الباسقة. الحكم على النّجم والشّجر أنهما يسجدان. وسجودهما هو خضوعهما للقوانين التي خلق الله عليها كل صنف منهما. والأقرب للتناسق أن يحمل النّجم على النّبات الجاري على سطح الأرض. ولا يمنع حمل الآية على ما يشمل النّجم العالي في السماء على معنى أن سجوده بخضوعه إلى القوانين التي أحكمت خلقه، أو على معنى أنه يميل إلى الغروب صورة تقرب من السجود الإنساني.

- مقابلة بين تقديرين من التقديرات الحكيمة التي بنى الله عليهما الكون.

التقدير الأول هو رفع السماء، بما يرمز إليه من الصنع العجيب، والإحكام، كيف تم رفعها حسيا قائمة بالقوانين التي جعلتها ثابتة بذاتها غير مستندة إلى أركان تشدها. وتم رفعها معنويا بالنسبة للعالم الأرضي، فقدّرها مقاما للملائكة، وطهّرها من رجس الشياطين.

التقدير الثّاني أن الله هو الذي جعل الميزان. وكلمة الميزان، الأصل فيها أن تطلق على ما يُعرّف التساوي بين الشيئين أو عدم تساويهما في الثقل، وقد يراد به ما يشمل الكيل والمساحة، والعد. والمماثلة النّوعية أو التفاوت. كما يطلق ويراد به المساواة في الحكم والسلوك المبني عليه. فيكون مراعاة التساوي في حقوق الخصمين عدلا وميزانا، وتفضيل أحد الطرفين جورا وعدم قسط في الميزان. وشاع إطلاق الميزان على العدل إطلاقا مجازيا. وفي قرن الميزان برفع السماوات ما يُقدّمُ في الفهم حمل كلمة الميزان، على مراعاة التناسب بين مكونات الكون تناسبا لا يقوى فيه جانب على بقية الجوانب، فلا الشمس بعظم حجمها في المجموعة، وبالطاقات الكبرى فيها تفوت جاذبيتها بقية الكواكب التي هي أصغر منها كتلة، ولا بقية الأجرام السماوية تخرج ولو لحظة عن التوازن بينها في المجموعة الكبرى، كل قدر له مكانه ومساره، وما يحفظ بقاءه دون أن يذوب فيما هو أعظم منه...

8←9-ألا تطغوا في الميزان..ولا تخسروا الميزان.

إذا تأملتم في بناء الكون فعلمتم أن بقاءه واستفادتكم من الطاقات المنبثة فيه، ما كانت لتتحقق لولا قيامها على ميزان مضبوط لا اختلال فيه، فإنكم مطالبون في حياتكم وعلاقاتكم ببعضكم وبالكون أن تلتزموا بالميزان. فلا تطغوا معتمدين على ما يتراءى لكم من القوة، فتحدثون الاختلال في الميزان. سواء في ذلك انتفاعكم بما في الكون من خيرات، فلا تفسدوا في الأرض بتحكيم شراهتكم فتقضون على

التوازن البيئي الذي به عمران الكون. قال تعالى: ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الذّي عملوا لعلهم يرجعون[1] وفي علاقاتكم فيما بينكم بالظلم والاعتداء على حقوق الآخرين. مما يولد الحقد ويعطل النّمو، ويهيئ للفتن والحروب.

- وأقيموا الوزن بالقسط -الميدان الثالث: الميزان بمعنى العدل في التعامل في المبادلات بين النّاس. واجب محتّم عليكم أن تراعوا العدل في المبادلات سواء استند المعيار إلى الميزان فأعطوا الوزن حقه كنتم بائعين أو مشترين، بالقسط مراعين العدل. وإذا اعتمدتم الكيل فليكن كيلكم مساويا للحقيقة لا تستولون على حقّ الطرف الآخر بالتنقيص منه فيما تسلمونه له، أو بالزيادة فيما تتسلمونه منه.

ولا تخسروا الميزان: لا تنقصوا حق الطرف المقابل فيما تسلمونه له. سواء اعتمدتم معيار الوزن أو الكيل أو العد. هي الثقة التي يتحتّم أن تسود معاملاتكم، فيأمن كل فرد من الأمة غيره، حقه محترم غير منقوص، وحقّ غيره كذلك.

10←12-والأرض وضعها..ذو العصف والريحان.

كما رفع السماء تظلنا ونتقبل منها الماء والأشعة المصفاة المُصْلحة للإنسان والحيوان والنبات، لفتت الآية أنظارنا إلى نعمة الأرض التي قدرها سبحانه على أوضاع جامعة لألطاف، بحيث يعيش على ظهرها الإنسان والكائنات الحية دون مشقة. تلاؤم بين كتلة هذه الكائنات وجاذبية الأرض تناسب دقيق. وقوله تعالى للأنام : جاء في تاج العروس :الأنام الخلق، أوكل ما يعتريه النّوم، أو الجن والإنس، أو جميع ما على وجه الأرض من جميع الخلق ج31ص 253- وأرجح الوجه الأخير.

ومع تيسير الحياة والنشاط على ظهرها، تكونت من عناصر التربة، ومن الماء، ومن أشعة الشمس، وحركات الرياح خيرات وافرة عديدة. أخرج سبحانه لنا فواكه متنوعة الألوان والأشكال والمذاقات، وأنشأ النّخيل بما تخرجه من أنواع الرطب والتمور والبسر، ما يقتات وما يدخر. وخص النّخل بالتنبيه عليه مفردا، إشارة إلى حكمة الخالق فيه، وللشبه القوي بين الإنسان والنخل، فكما أن جنين البشر يحتضنه رحم الأم إلى أن يخرج للوجود، فكذلك النّخل تحتضن ثمارها في مراحله الأولى في كن يحفظه، ثم يخرج للوجود. وجمع رسول الله ﷺ في كلامه بين الإنسان والنخل في أكثر من حديث. وعطف النّخل على الفاكهة من عطف الخاص على

[1] سورة الروم آية41

العام، فالفاكهة تشمل النّخل وغيره، ونص على النّخل لما اختّص به من جمعه بين كونه فاكهة وطعاما، وبهذه الخاصية توسط في النّص القرآني بين الفاكهة، وبين الحب الشامل لأنواع الحبوب التي عليها مُعوّل البشر في أقواتهم كالقمح والشعير والذرة والأرز، ذوات العصف أي الأوراق والقصب التي تعصفها الرياح وتتحول إلى تبن لعلف الدواب. ومما تنبته الأرض الريحان، والريحان يطلق ويراد منه الأنواع التي ميزها الله بطيب ريحها، وكذلك الأنواع التي يستخرج منها الأدوية والعقاقير.

13-فبأي آلاء ربكما تكذبان.

فرع القرآن على الخيرات التي أوصل فضلها برحمته للناس، أن وجه لهم سؤالا ليقروا بإدراكهم لتلكم النّعم، وأن كل واحدة منها تقوم دليلا على سعة الرحمة التي افتتحت بها السورة " الرحمن" وأن كل واحدة مما عدّدته الآيات السابقة نعمة جليلة، وأن تلك النّعمة هي من خلق الله وفضله، وأنه لم يشاركه أحد في خلقها ولا في إبلاغها للمنعمين بها.

ولكن صياغة الآية لا تخلو عن توقف. إذ تسأل الآية سؤال تقرير عن أي نعمة من تلك النّعم تكذبان، فمن المخاطب بقوله : تكذبان؟

الذي ذهب إليه معظم المفسرين أن المخاطب الإنس والجن، وهما الثقلان، فالقرآن يقررهما ليفصحا عن الحق: أن ما تقدم هو نعمة، وأنه من خلق الله وأنه هو الذي أوصل النّعمة للثقلين.

واستبعد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أن يكون القرآن نزل لخطاب الجن ووعظهم. وأن ما جاء في القرآن خطابا للجن ليس لتوجيه العمل بالشريعة. وأن الخطاب بالتثنية هو خطاب للمؤمنين والكافرين. وجرى رحمه الله في شرح هذه الآية على منهجه، في إخضاع تلقي معاني القرآن إلى ما يدركه الإنسان من الخطاب حسب مقتضيات الواقع. ثم فسر التكذيب بمعنى الجحد والإنكار.

نعم، إنه يمكن أن يستقيم المعنى على ما رجحه، لو كان المعنى منفصلا عن النّص، أما والخطاب موجه لنفي جحد وإنكار النّعم المذكورة في السورة، وبقوله تعالى :فبأي آلاء ربكما تكذبان، تجحدان؛ فتوجه الاستفهام الإنكاري التقريري للمؤمنين لا يستقيم. إذ لا وجه للجمع بين الإيمان والجحد لخلق الله للنعم ولإيصالها للخلق حتى يسأل عنه. فالراجح عندي أنه خطاب للثقلين: الإنس والجن. وليس فيما تتابع من الآيات من أول السورة إلى هذه الآية تشريع، ولكن تفصيل لعقيدة دليلها مأخوذ من قدرة الله على الخلق، وتمكين المخلوقين من الانتفاع به. وفي

الآيات امتن الله بالنخيل، وفي بعض الأقطار قد لا يرى الواحد منهم نخلة ولا تمرا. ولكن المهم أن يعترف بأن هذا النوع من الشجر من خلق الله وأنه هو الذي مكن منه من شاء بالتنعم به. ولذا يتوجه السؤال ليقر كل واحد من الثقلين أن الله هو وحده الذي نوع تلكم النعم، وأن ما اتخذوه من الأصنام لا يملك شيئا. وهذا القدر المخاطب به كل من أراد الله تكليفه.

ومن ناحية أخرى فإن النظير التالي لهذه الآية (16) مخاطب به الإنس والجان، لامحالة لقوله تعالى: وخلق الجان من مارج من نار فبأي آلاء ربكما تكذبان. وكذلك الآيتان31-33-39-

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصلصال : الطين اليابس.

الفخار: الطين المطبوخ بالنار.

المارج : المختلط.

مرج : أرسل جاريا.

البحر: الماء الغامر جزءا واسعا من الأرض.

يلتقيان : يصب أحدهما في الآخر.

برزخ : حاجز.

الجواري : السفن الجارية في البحر.

المنشآت : المصنوعات.

الأعلام : الجبال.

بيان المعنى الإجمالي :

يسأل الإنسان وقد عمي عليه أصل نشأته. يتساءل كيف كان ويجيبه الخلاق العليم في قرآنه أنه خلق الإنسان من طين متحجر يصلصل كالفخار إذا نقرته. وأنه

يختلف في نشأته عن الجان الذي خلقه من لهيب ناري صاف. وأحاطه بألطافه إلى أن بلغ الوضع الذي هو عليه، فبأي نعمة من نعمه تجحدان ؟

يحرك الأرض حركة تبدو بها الشمس كل يوم في سمت يختلف عن مطلعها ومغربها في اليوم السابق فتبلغ أقصى مسارها جنوبا وأقصى مسارها شمالا. فهو الذي سيرها في مساراتها بكامل الألطاف، بين الطرفين المشرق والمغرب. وهي نعم وألطاف، يتحتم أن لا تنكر.

وهو سبحانه الذي أرسل البحر المالح والبحر العذب، فسار كل منهما في مساره، وجعل بينهما حاجزا بقدرته لا يبغي البحر المالح على البحر العذب فيحوله إلى ملح ولا العكس. وكل منهما يؤدي وظيفته في الحياة على سطح الأرض. فبأي نعم الله تجحدان. يخرج من البحر المالح اللؤلؤ والمرجان، زينة للحياة فتتخذون منهما حليا يضاعف وسامة الأنثى. فبأي نعم الله تجحدان.

وهو سبحانه المتفرد بملك السفن الجارية في البحر بما أودع في الماء من خاصية الدفع إلى الأعلى، وبما ألهم الإنسان من قوانين لصنع السفن. التي ما زال التمكين الإلهي يسعف الإنسان بتجويد صنعها حتى بلغت من العظم مستوى الجبال. فبأي نعم الله تجحدان.

بيان المعنى العام :

14 –15- خلق الإنسان من صلصال...من نار.

هذه آية من دلائل القدرة الإلهية، والحكمة، وحسن التقدير، تجيب عن تساؤل البشر لمعرفة كيف نشأوا. يعلمهم القرآن أن البشر في أصل خلقتهم قبل أن يكونوا على الوضع الذي هم عليه الآن، نشأوا من طين توالى عليه من الزمن ما جففه حتى أصبح يصلصل إذا نقرته، كما يصلصل الفخار " الخزف " مر على هذا الطين أطوار، طور هو تراب ومن آياته أن خلقكم من تراب[1] وطور هو طين تخمر فأصبح يلتصق بغيره ولا يتناثر كحاله عندما كان ترابا قال تعالى : إنا خلقناهم من طين لازب[2] وطور هو حمأ مسنون طين تغير بعد تخمره.(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون)[3] وطور يبس الطين وتبخر ما كان يتخلله من الماء، صلصال كالفخار. ولم يُذكر وجه أرتضيه لتشبيهه بالفخار. والذي يظهر لي أن

---

[1] سورة الروم آية 20

[2] سورة الصافات آية 11

[3] سورة الحجر آية 26

القرآن يحقق أن النّار لم تدخل في التركيب الأولي للإنسان، جف الطين حتّى أصبح يصلصل دون أن تمسه النّار كوضع الخزف إذ يتم تجفيفه بالنار. فوجه الشبه بينهما هو في قوة الجفاف.

- خالف الله بين خلق الإنسان وخلق الجان في العنصر الأصلي الذي تكون منه الخلق، وانبنى على ذلك اختلافهما في طبيعة كل منهما وتميزه عن الآخر. فالعنصر الذي تكون منه الجان مزيج من النّار، أو من لهب صاف على الاختلاف في توضيح معنى المارج، هل هو من المرج بمعنى الاختلاط كقوله تعالى فهم في أمر مريج. أو هو من اللهب غير المختلط بالدخان. والجن قسم من المخلوقات أبوهم إبليس الذي عصى وغوى وأطرد من الجنة. ولا يتحتم أن يكون النّسل كله غاويا فاسدا، يعمل على نشر الشر كالأصل، فكل فرد مسؤول عن عمله وقد يأتي الصالح من الطالح.

- نعم الإيجاد، والألطاف التي توالت على الخلق الأول حتى وصل إلى المستوى الذي هو عليه مما لا دخل للمخاطبين في تحقيقه، ولا شعور لهم به، هي نعم كثيرة توجب الاعتراف بها، والانصراف كليا عن الشرك، والإنكار لها.

17←18- رب المشرقين...تكذبان.

رب المشرقين..هذا الكون المرتبط بالشمس التي يتحول مطلعها بين طرفين، ويتحول أيضا مغربها بين طرفين، تبلغ حدا من جهة الجنوب في الشتاء، ثم تتراجع ليكون مطلعها منحرفا أكثر إلى جهة الشمال في الصيف. والعكس في الغروب. وبين منزلتيها منازل تنتقل فيها كل يوم. فإن اعتبرت بأقصى الطرفين، كان لها مرتبتان بين المشرقين وبين المغربين، وإن اعتبرت بموقعها كل يوم كان لها مشارق ومغارب وقد عبر القرآن عن الأوضاع المختلفة بالتعبيرين. ليتأسل الإنسان كيف يسير الكون في لطف لا يزعج الإنسان ولا يهزه، ويترتب على تحولات مطالع الشمس وغروبها آثار صالحة لحياة الإنسان وما على الأرض من أشجار ومزارع وحيوان. آثار معروفة، وآثار حقيقية ولكنها ما تزال مجهولة.

- في التصرف الإلهي في مسار الشمس ووضع الأرض منها، والألطاف التي حفت بمسارتها آيات دالة على نعم الله فهل يستطيع أحد إنكارها.

19←21، مرج البحرين...تكذبان.

مرج البحرين.. أرسل سبحانه البحرين المختلفين عذوبة وملوحة، الأنهار العظيمة التي تصب في البحر المالح، فلا تتحول الأنهار مالحة ولا البحار حلوة. أرسلتهما

قدرة حكيمة بلغت بكل واحد مركز تلاق مع الآخر. وأقامت بينهما قوة من التدافع ليحتفظ كل منهما بخصائصه.

- تعيشون مع هاتين الظاهرتين، ويتم انتفاعكم بهما، وهي نعم لاحد لها، فبأي نعم الله تجحدون.

23--24- يخرج منهما..تكذبان.

كما عددت الآيات السابقة ضروريات الحياة، وانتظام أمرها بحسن التقدير، والتقابل بين المكونات؛ ذكر في هذه الآية ما يعد زينة وجمالا، منوها بما يخرج من البحر من اللؤلؤ والمرجان. وهما زينة للنحور والمعاصم والآذان. أسورة وقلائد، وأقراط. ويؤخذ اللؤلؤ من أصداف يستخرجها الغواصون من قاع البحر وبمقدار ما تكون أضخم وأصفى وأشد بريقا تزداد قيمتها. ويتنافس فيها أصحاب الثراء. ولا تتكون إلا في البحر المالح. وأما المرجان فهو حيوان بحري ينمو في قاع البحر في أماكن خاصة، ويحمر لونه ويتصلب بمقدار ما تطول حياته في البحر. وله ألوان متفاوتة في الجمال. ومن أجملها ما يخرج من البحر الأبيض المتوسط شمال تونس. ولما كان اللؤلؤ والمرجان لا يوجدان إلا في البحر المالح، وجاء الضمير مثنى " يخرج منهما" فقد أوله الزجاج أن نسبة الخروج إليهما هي كنسبة القمر إلى السماوات السبع في قوله تعالى : (**ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا**)[1] مع أن القمر في السماء الدنيا. وحمله الفارسي على حذف مضاف كقوله تعالى: (**وقالوا لو نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**)[2] أي على رجل من إحدى القريتين.

- تكرير للفت الأنظار لنعمه التي اختص بها سبحانه.

24- وله الجواري...تكذبان.

السفن التي تجري في البحر فتنقل البشر والسلع، مملوكة لله وحده. هو الذي ألهم الإنسان قوانين صنعها، وأودع في البحر قوة دافعة إلى الأعلى بها تم سير الفلك بحمولاتها في البحر .كما ألهم البشر صنع الشراع الذي باندفاع الريح فيه تنتقل السفن بسرعة. ثم ألهم البشر صنع المحركات إلى أن بلغت في عصرنا المحركات النووية. وتحقق فيها قوله تعالى: **كالأعلام**، كأنها جبال تجري على سطح البحر.

- فبأي نعم الله لا تعتبرون فتنكرونها. فهذه نعم دامغة للانكار.

---

[1] سورة نوح آية 16/15

[2] سورة الزخرف آية 31

(25) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(32) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)
فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38)
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40)
يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (42) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ
آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)

بيان معاني الألفاظ :

وجه ربك : ذاته سبحانه المنزهة عن كل تشبيه لا يلحقه تغير ولا فناء.

ذو الجلال : صاحب العظمة.

معشر : الجمع العظيم الذي يعد عشرة عشرة.

الأقطار: جمع قطر. وهي النّاحية الواسعة من مكان أوسع.

شواظ : لهب لا يخالطه دخان.

النحاس : يطلق ويراد منه إما المعدن المذاب، وإما الدخان الغالب على اللهب.

السيما : العلامة.

النواصي : شعر مقدم الرأس.

الطواف : ترداد المشي.

الحميم :الماء المغلي.

آن: شديد الحرارة.

بيان المعنى الاجمالي :

القانون الذي تخضع له الكائنات جميعها. هو قانون الفناء. واختص ربنا سبحانه بالكمال والبقاء فلا يلحقه تغير ولا فناء. إنه الجامع لصفات العظمة يخضع كل شيء لسلطانه، الكريم الذي يمنح فضله لخلقه تكرما.

كما تفرد سبحانه بأن كل موجود في السماء أو في الأرض يسأله بلسان مقاله أو بلسان حاله، حاجاته المتجددة في كل لحظة. وهو يصرف شؤون خلقه تبعا لعلمه وحكمته، دون أن يشغله أمر عن أمر.

ستعودون إليّ وقد انتهى سؤالكم ليتم ما هو موكول لكم مما تشعرون به وما لا تشعرون. ولا يبقى إلا أمر واحد، هو ما أعتني به يوم القيامة، هو جزاؤكم عما قدمتم. سنفرغ لكم أيها الثقلان. فبأي نعم ربكما تكذبان.

أيتها الجماعات من الجن الإنس، إن حوصرتم، وتحققتم قرب تسلط العذاب عليكم، فإن فتحتُ لكم مداركم أنكم تستطيعون الانفلات من قبضتي بالفرار في النّواحي الفسيحة من السماوات والأرض، انفذوا فيها إن استطعتم، ولكنكم لا تستطيعون. إن النّفاذ منها متوقف على قدرات لا تملكون منها شيئا. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

من أسباب عجزهم عن الانفلات مما هم فيه في أقطار السماوات والأرض، أنهم معرضون للهب أشد ما يكون حرارة، وإلى لهب مغموم بالدخان يخنق الأنفاس. فلا تجدون منهما نصيرا يحميكم أو يدفع عنكم.

إنه اليوم الذي ينشق فيه أديم السماء، تذهب زرقتها وتنقلب إلى لون الورد الكدر كدردي الزيت. في هذا اليوم لا يسأل عن ذنبه سؤال تقرير أي أحد لا من الإنس ولا من الجان. إن إيقاظكم لما سيحل بكم نعمة من الله، فأي نعم الله تنكرون ؟

في هذا اليوم تظهر علامات واضحة على المجرمين تعرف بهم، لتأخذهم ملائكة العذاب إلى مصيرهم، يمسكون بهم من نواصيهم ويجمعونها إلى أرجلهم بارزة صدورهم. أخذ إذلال وتمكن، لا يستطيعون الانفلات منه. أيقظناكم لما يترصدكم فأي نعم الله تنكرون.

ويسمعون صوت ملائكة العذاب تقرعهم وتوبخهم قائلين: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها أيها المجرمون، وتزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا عقاب. ذوقوا حرها. وهم في جهنم في جري لاهث بين حر النّار، وبين ماء أشد ما يكون حراة يزداد لهيبهم إذا شربوا منه. تنبّهُكُمْ نعمة منا، فأي آيات الله ونعمه تنكرون. توبيخا لهم لإنكارهم نعمة الرسل، ونعمة ما كشفوا لهم من العاقبة.

بيان المعنى العام :

26-+28-كل من عليها..تكذبان.

كل من على الأرض من البشر والحيوانات، والشجر والنبات، وكل عناصر الأرض، الكل كتب عليه الفناء. فلا بقاء لأي شيء مما تعمر به الأرض. وفناء الكائنات بفعل ربك يا محمد، فهو الذي لا يلحقه فناء وهو الباقي بقاء أبديا. والمراد بوجهه تعالى ذاته العلية المنزهة عن كل تشبيه وتصور. ووُصف وصفا يدل على كماله المطلق، فهو المتصف بالجلال، العظمة التي تناسب تنزهه عن كل نقص، واتصافه بصفات الكمال المطلق. وهو الكريم الذي تفضل على الخلق بما يسديه إليهم تكرما ونعمة. يقول سيد قطب رحمه الله: وإنها لنعمة بل هي أساس النِّعم كلها جميعا. فمن حقيقة الوجود الباقي ينبثق كل هذا الخلق؛ وناموسه ونظامه وخصائصه. كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزاؤه. والحي الباقي هو الذي يخلق ويبدع، وهو الذي يحفظ ويكلأ، وهو الذي يحاسب ويجزي. وهو الذي يشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء. فمن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء. وما يبزغ هذا العالم وما يستقيم أمره إلا ووراءه هذه الحقيقة، حقيقة البقاء وراء الفناء. في ظلال القرآن ج27 ص 122. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

29-+30-يسأله من في السماوات..تكذبان.

سؤال من في السماوات والأرض لله بلسان الحال أو بلسان المقال. أنه هو الباقي المتصرف في كل جزء من أجزاء الكون الفسيح. إذ كل كائن محتاج احتياجا أساسيا، في كل شأن من شؤونه، أن يستمده من الخالق الباقي في كل لحظة من اللحظات. وعندما يحجب هذا الامداد يذوب الكائن من الوجود. فتطور كل خلية في الإنسان، والتحولات التي تجري على ذاته من الهدم والبناء، وما يحصل في ذهنه من المعارف، وما يفلت من خزائنه، وما يعقده من صفقات، وما يبنيه من علاقات، وصحته وسقمه، وكسبه وحرمانه....... كل ذلك يسأله الإنسان ربه ليمكنه منه سواء أكان سؤاله ناشئا عن شعوره بالاحتياج، أو كان غافلا عنه فيصرف سبحانه قوانين الخلق حسبما سطره. وهذا التصور ينفي ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من أن الله سبحانه خلق الكون وأعطاه قوانينه وتركه وشأنه واستغرق متأملا في كمالاته. ففي كل لحظة هو في شأن تتجمع فيها جميع شؤون الخلق فيصرفها حسب علمه وحكمته وإرادته، دون أن يشغله أمر عن أمر. ويختم ذلك بتهديد الثقلين: من لم يقر بهذه الحقيقة التي أقام عليها الخلق.

31-32- سنفرغ لكم...تكذبان.

هذا تعبير يفيد أن المخاطب غافل عن مراقبة المتكلم له، مشغول عنه، فينبهه إلى أنه مخطئ في هذا التصور، وأنه سيخصص له عنايته. وقد يكون ذلك في الخير كما تقول سأفرغ في هذا العام لتعليم ولدي. وقد يكون ذلك تهديدا بالانتقام بسبب تهاون المخاطب بما هو مطالب به. والذي فهمه معظم المفسرين أنه تهديد للثقلين. وليس المعنى الحقيقي مرادا قطعا. فالله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. فخرج الكلام على أن المراد به، أنكم ستبعثون يوم القيامة، وتنتهي يومها طلباتكم، وحاجاتكم، فينتهي مصداق قوله : كل يوم هو في شأن. فلا يبقى إلا شأن واحد، وهو الحكم على الخلق بما قدموا. والثقلان هما الإنس والجان.

-إن هذه العناية الربانية بالثقلين تستدعي من المخاطبين أن يتذكروها دائما، وأن لا ينكروها. فيسألهم أي نعمة من نعمه تنكرونها.

33-34 ، يا معشر الجن والإنس...تكذبان.

يخاطب القرآن جماعات الإنس والجان، يخاطبهم جماعات عشرة فجماعات عشرة، مما ينبئ أنهم عاجزون عن تحقيق التحدي ولو اجتمعوا، فضلا عن كونهم فرادى. ما هو خطاب التحدي ؟ إن سمحت لكم قدراتكم، أن تفروا من قبضتنا، فتنفذون من أي ناحية من نواحي الأرض، أو في أي ناحية من نواحي السماء، فافعلوا. وبما أن التصرف في السماوات والأرض هو في قبضتنا، وهي ملكنا. فأنتم لا تملكون السلطان والقدرة على الخروج من تصرفنا. فأنتم عاجزون قطعا. وهذا التفسير ذاهب إلى أن التحدي هو في الدنيا. ويمكن أن يحمل على أنه تحد في الآخرة. فبعد أن هددهم بأنهم سيحشرون إليه، وينفذ فيهم ما قدره لهم يوم القيامة (سنفرغ لكم أيها الثقلان) يدور بخلدهم أن يفروا من الموقف، فيقول لهم هذه نواحي السماء والأرض مفتوحة أمامكم ففروا إن استطعتم، ولكن الفرار لابد أن يستند إلى قوة وقدرة، وأنتم لا تملكون في ذلك اليوم شيئا.

34- يقال ما قيل في سابقه.

35-36-يرسل عليكما شواظ...تكذبان.

لما تحداهم لينفلتوا من أقطار السماوات والأرض. عقب ذلك بأن الله رتب أن يرسل عليهم عند محاولتهم النّفاذ من أقطار السموات والأرض، لهبا خالصا من الدخان تبلغ حرارته أشد الدرجات. وهو ما يلاحظ عند السباكين أنهم يرسلون على المعدن لهبا قويا صافيا يميل إلى الزرقة يذيبه ويطوعه للشكل الذي يرغبون فيه. كما

تلاقون نوعا آخر غطى فيه الدخان النّار فيدخل في أنفاسكم ويخنقكم. ولا تجدون مخلصا منهما ولا ناصرا يحول بينكم وبين عذابهما.

36- يقال ما قيل في سابقه.

37--40- فإذا انشقت السماء..تكذبان

تفصيل لأهوال يوم القيامة. أول تصوير هو للسماء وقد تشققت فذهبت تلك الصفحة الزرقاء التي تلف الأرض بجمالها ليلا ونهارا. وكل ملتئم إذا تشقق ذهب بهاؤه. فيحمر أديمها. ويُقرّبُ ذلك ما يحدث قرب حدوث الأعاصير أن يحمر وجه السماء بما يغشى الطبقات الدنيا من الجو مما سفته الرياح من الرمال، فيكون الجو ثقيلا يبعث في النَفس الحزن والوحشة. إن لونها ليس لون الورد الجميل المنعش، ولكنه لون كدر كلون دردي الزيت. وقبل أن يأتي بجواب الشرط فإذا انشقت السماء. فصلَ بالسؤال: فبأي آلاء ربكما تكذبان.

فإذا انشقت السماء.... في هذا الظرف الذي تنشق فيه السماء، لا يسأل عن ذنبه أي أحد من الثقلين الإنس والجن، بل يجزى بما صنع، ويعاقب على ما قدم. والآية تتحدث عن موقف من مواقف يوم القيامة. ومواقفها متنوعة. موقف يسأل فيه المجرمون عما قدموا ليقروا ويوبخوا، ويفضحوا بشهادة أيديهم وأرجلهم. وموقف يزج بهم في العقاب الذي هم أهل له بدون سؤال. وقد يكون الموقف الأول هو المتقدم زمنا، ويتلوه الموقف الثاني. ويعاد السؤال مكررا في السورة يقررهم هل يجحدون ؟

41--42- يعرف المجرمون..تكذبان.

تتميم للآية السابقة تفيد أن المجرمين لا يسألون عن ذنوبهم في الموقف الخاص من مواقف يوم القيامة. وذلك لتميزهم بعلامة تُعرفُ بهم ملائكة العذاب، فيأخذونهم أخذ تمكن وإذلال. يربط مقدم رؤوسهم إلى أرجلهم فتنعكس هامتهم إلى الوراء وتبرز صدورهم. ويجرّون إلى جهنم جرا على هذه الصورة. كيف تتكررون نعمة الله عليكم إذ نبهتكم مقدما إلى ما ستؤولون إليه.

43--45، هذه جهنم التي..تكذبان.

بعد أن رُبط مقدم رؤوسهم إلى أعقابهم وألقوا في جهنم، يسمعون من الموكلين بتعذيبهم :هذه جهنم التي كان المجرمون يكذبون بها، وقد ألقيتم فيها، توبيخا لهم على مواقفهم السابقة، وإظهارا للنكال بهم. ووصفت الآية شيئا من ألوان النّكال في جهنم، فكلما أحرقتهم نارها الموقدة، حميت بواطنهم والتهبت، فيفزعون إلى مسيل

يظلونه يطفئ لهيبهم. فيسقون من حميم بالغ الحرارة. فيفرون منه إلى حر جهنم، ويعاودون الكرة نحو الماء الحميم، وهكذا هو وضعهم بين قعر جهنم وبين الحميم. نبهناكم فبأي آلاء ربكما تكذبان.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقام: عظمة ربه.

الأفنان : جمع فنن، الغصن الجديد المتميز بجماله وحمله للأزهار والثمار.

متكئين : جالسين في وضع يجمع بين اليقظة والراحة.

الفرش : سرر.

بطائن : الوجه الأسفل.

الاستبرق :رفيع الديباج الغليظ المنسوج من الحرير المنقوش.

دان : قريب تناوله.

بيان المعنى الإجمالي :

يُملّك الله من كان مستشعرا في حياته جلال ربه، ويسعى لتنفيذ ما أمره به، ويبتعد عما نهاه عنه. يخاف أن يكون في أي لحظة في موقف لا يرضى عنه ربه فيه. يُملّكه في الآخرة جنتين، تجمع كل واحدة منهما من أنواع النّعيم ما يتجاوز التصور. تكسو أشجارهما بصفة دائمة، أغصان جديدة تجمع بين تكاثف الأوراق، والزهور والثمار. يتواصل رواء كل منهما بعين جارية لا ينقطع مددها. ويتنوع الثمر تنوعا كل نوع له نظيره الذي يختلف عنه مذاقا ونكهة وطيب رائحة. فأي آيات الله تجحدان. يغمرهم الهناء فهم جالسون جلسة المطمئن على سرر، أسفل ما

غلفت به من الحرير المزخرف. وإذا كان الأسفل من الحرير القوي المزخرف، فلا تسل عن الظواهر التي تكون العناية بها أكبر. وهم في وضعهم ذاك تقترب منهم أفنان الشجر فيقطفون منها ما شاؤوا.

يسر الله لمن خاف مقام ربه، أزواجا على حظ كبير من الجمال، تنكسر أهدابهن الطويلة لتسكب عليهن أنوثة وإغراء. لم يستمتع بهن قبل أزواجهم أحد لا إنس ولا جان. فما عرفن قبل أزواجهم أيا كان. لبياض بشرتهن وصفائها ولمعانها، ولحمرة شفاههن وتورد خدودهن تقول قد جمع في خلقتهن بين الياقوت بصفائه ولمعانه، وبين المرجان بحمرته. فأخذ منهما كل جزء من أبدانهن ما يليق به. فبأي الاء ربكما تكذبان.

إنه لا جزاء للإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب. وهذا شأن الكريم المتفضل سبحانه. فبأي الاء ربكما تكذبان.

بيان المعنى العام :

46—61 -ولمن خاف مقام ربه...تكذبان.

بعد أن بسط مآل الكافرين المجرمين يوم القيامة، وما ينتظرهم من صنوف العذاب الحسي والمعنوي، أتبعه ببسط ما أعده للمنعمين. فصرح بأخص وصف كان يلازمهم في حياتهم، الذي هو سبب ما يكرمهم به من صنوف النّعيم. هو الخوف من جلال ربهم، ومعنى خوف مقام ربهم خوفهم من موقفهم يوم القيامة. فهم يستحضرون دائما أنهم موقوفون بين يدي ربهم للحساب، مما يحرضهم على أداء الواجبات، والبعد عما نهاهم عنه. كما يمكن أن يفهم مقام ربه: أنه يستحضر جلال الله وعظمته فهو يسرع إلى أداء ما أمره به، ويخشى أن يطلع عليه ربه في المواقف التي نهاه عنها فيحميه الخوف من انتهاك حرماته. وحسب الظاهر أن لكل مكرم من هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم جنتان. يجد في كل جنة من ضروب النّعيم والراحة، والسرور ما لا يعلمه إلا الله. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

- **ذواتا أفنان :** الوصف التالي للجنتين هو أن نضارتهما بما اكتسته أشجارهما من فروع متجددة، بنضيد أوراقها الخضر وبالزهور وبالثمار. ذلك أن الحامل للأوراق اليانعة والزهور والثمار مقصور على الفروع الجديدة. فبأي الاء ربكما تكذبان.

- تلكم الأشجار المكسوة بأفنان كثيفة الورق، تحقق لها ذلك بالري المستمر من العين المتدفقة بالماء الصافي في كل جنة منهما، عين بكل جنة تجري ماء لا تنضب. ولا يركد الماء فيأسن. بما توفر لأشجار الجنتين من الأفنان المتجددة،

والماء الجاري، فهي تحمل من أنواع الفاكهة زوجان. وهل إن معنى الزوجين، أن إحداهما تشاكل فاكهة الدنيا، والأخرى لها مذاق وشكل مشابه ولكنه مما لم يعرف في الحياة الدنيا؟ وحمله بعضهم على أن التثنية مراد بها الجمع، من كل فاكهة أنواع، روعيت التثنية عوض الجمع للتناسق بين الآي التي جاءت بصيغة التثنية.

تكذبان، زوجان، جنتان، عينان، تجريان.

- وصفت الآية صورا من نعيم أهل الجنة تدل على ما وراءها. نشاطهم موفور لا يلحقهم الإعياء فيرغبون في النوم، ولا يشمرون عن سواعدهم للعمل، فهم على أتم ما يكون من الراحة، هم متكئون على فرش، الوجه الخفي منها حرير منقوش، وظاهرها أنفس من ذلك شأن تميز الظاهر على الباطن. وهم في إقامتهم تدنو منهم الأفنان فيقطفون من ثمارها ما لذ وطاب.. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

- ثم تحدث القرآن عن زوجات الذين خافوا مقام ربهم فوصفتهن أولا: أنهن قاصرات الطرف، وقصر الطرف يطلق ويراد منه انكسار في الأهداب، مع طولها، يسبغ على صاحبته جمالا وأنوثة، مما يحار معه النّاظر هل هي أشد وسامة عندما تفتح عينيها، أو عندما تنظر تلكم النّظرة المملوءة بالرقة والإغراء. كما يطلق ويراد منه إعجاب المرأة بزوجها إعجابا يجعلها لا تنظر لغيره من الرجال، لأنه قد ملأ عليها حياتها من جميع النّواحي. لقد بلغ حبها لزوجها أقصى مداه.

الوصف الثاني: أنهن لم يستمتع بهن أحد قبل أزواجهم. الطمث دم افتضاض البكارة. وعطف الجان على الإنس لتأكيد عدم المس من المعروف والمتخيل. أو على معنى أن المنعمين من الجن يهيء الله لهن زوجات كزيجات المنعمين من النّاس. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

ثم وصفهن بصفاء البشرة وبريقها. جمعن بين بياض الياقوت في الأعناق والنحور، والأيدي والسواعد، وبين الحمرة في الشفاه والخدود. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

61/60-استفهام في معنى النّفي مع السؤال. لا جزاء لمن أحسن في عمله، فأداه على خير ما ينبغي أن ينجز، لا جزاء له في عدلنا وكرمنا، إلا أن يجازى بالإحسان في الثواب، ونول أفضل الجزاء. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ

حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

مدهامتان: خضرتهما قوية تميل إلى السواد.

نضاختان : فوارتان بالماء.

الرفرف : ما تدلى من الأسرة. أو ضرب من البسط.

عبقري: منسوب إلى عبقر، أكمل الصناع مهارة.

تبارك : عظمت بركاته، وكثرت خيراته، وعم نفعه.

الجلال : العظمة.

بيان المعنى الإجمالي :

وأقل رتبة من تلك الجنتين جنتان، أعدت الجنتان الأوليان للسابقين الأولين، وأعدت الجنتان في هذه الآية لأصحاب اليمين. من صفاتهما أن أشجارهما شديدة الخضرة كثيفة الأغصان والأوراق. خلق الله في كل واحدة منهما عين دافقة بالماء، يجد سكانهما أنواع الفواكه، والنخل الحامل للتمور والرطب، والرمان. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

يسكن الجنات زيجات للخائفين مقام ربهم جمعن بين طيب النّفس وحسن الخلق، فهن خيرات، حور، صفا بياض عيونهن ،واسود إنسانها. يجدن راحتهن في ملازمة خيامهن من الدر. لم يتصل بهن قبل أزواجهن أي كان، لا من الإنس ولا من الجان. تلك نعم لاشك فيها، **فبأي آلاء الله تكذبان.**

أصحاب الجنتين من الطبقة الخائفين مقام ربهم، هم على أتم ما يكون من الطمأنينة وراحة البال، متكئون على أسرتهم المغطاة ببسط خضراء اللون، بلغت غاية ما يتصور من الإتقان وجمال المظهر.

كثرت خيرات ربك يا محمد وعظمت عطاياه، وفاق كرمه كل تصور. ربك العظيم الجامع لصفات الكمال اللائقة به، الذي ليس لكرمه حد.

بيان المعنى العام:

62-69- ومن دونهما جنتان...تكذبان.

يفهم التركيب : من دونهما، أن هاتين الجنتين للمنعمين برضوان الله، تنضم هاتان الجنتان للجنتين الموصوفتين سابقا فيكون لمن خاف ربه أربع جنات. كما يمكن أن يفهم أن القرآن تحدث عما أعد للسابقين الأولين، ثم تحدث عما أعد لأصحاب اليمين، وهم دونهم في الفضل، ودونهم في الجزاء. وصفت خضرة الجنتين أنها تميل إلى السواد. والراجح هو التأويل الثاني، إذ نص في الجنتين في الآيات السابقة بأنهما ذواتا أفنان، والأفنان تغطي الشجر عندما يكون نماؤها متواصلا، وخضرتهما عند الأطراف خضرة الشباب الذي يزداد قوة عندما يكسو تلك الأفنان أفنان جدد. وفي هذا المشهد الخضرة قوية مما يدل على الخصب، ولكن دون أن يكون النّماء متواصلا بالأغصان اللدنة.

تفور كل عين في الجنتين بالماء. والماء في المشهد الأول ينساب رقراقا جاريا يروي كل جزء من أجزاء الجنتين، أما هنا فلم يوصف إلا بانه يخرج فوارا. ثم نصت الآية على ما تحمله الأشجار فذكر أنها تحمل مختلف أنواع الفاكهة، والرطب والتمر، والرمان. وكلمة الفاكهة تشمل التمر والرمان، فيكون التنصيص عليه بذلك لمزيد الاعتناء به. وإن كان المشهد الأول أبلغ في النّعيم، لقوله تعالى فيه، من كل فاكهة زوجان. وتخلل الآيات التذكير بقوله: فبأي آلاء ربكما تكذبان.

70 ــ78 ، فيهن خيرات...الجلال والإكرام.

وإذ أتم وصف الجنتين، وما تجمع فيهما من خصائص، تغري بالعمل لبلوغ التنعم فيهما. عقب بالتنويه بالنساء اللاتي يقمن بالجنتين. فعرف أولا بتركيبهن النّفسي، إنهن خيرات. والياء في خيرات تشدد وتسكن والمعنى واحد. أي نفوسهن طاهرة رفيعة، يتسمن بأخلاق رفيعة، ولطف يسمو بقيمتهن. ومع ذلك فقد وهبهن الله من الجمال والحسن والوسامة الشيء الكثير المغري، وخص الحديث عن عيونهن واصفا لها بالحور وهو سعة الحدقة مع شدة بياض البياض، وسواد السواد. لا تتعلق نفوسهن بالتطواف والخروج من أساكن إقامتهن.وهذا شأن الرفيعات المقدار في الدنيا يقول أبو قيس بن الأسلت الأنصاري :

ويكرمها جاراتها فيزرنها ***وتعتلّ عن إتيانهن فتعذرْ

فهن في خيامهن مقيمات راضيات سعيدات بذلك. وقد يفهم من النّص أن كل حوراء لها خيمتها في فسيح الجنة. نقل عن عمر رضي الله عنه أن خيمة كل منهن من در مجوف، مما لا عين رأت مثله. تعلقهن بأزواجهن في الجنة تعلق العذراء التي لم

تتصل قبله ولا بعده بغيره، ولا تفكر إلا فيه. فهن طاهرات عفيفات لم يتصل بهن قبل أزواجهن في الجنة أي كان. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

-متكئين على فرش بطائنها من استبرق. والرفرف ضرب من الفرش يبسط على الفراش. فوصفت فرشهم بأنها قد جمعت من اتقان الصنع وجمال المنظر الحد البالغ. جرت عادة العرب أنهم ينسبون كل شيء فائق في إتقانه إلى عبقر. كأنه لكمال صنعه وجماله وإتقانه مما لا ينجز مثله إلا الجن. بناء على وهم أن الجن أقدر من الإنس. راعى فيها صانعها أصول الفن الجمالي." حسان " فبأي آلاء ربكما تكذبان.

- تتابع من أول السورة ما لله من نعم ابتداء من تعليمه القرآن إلى ما أعده للخائفين، من أنواع التكريم في الجنة. وقد استلأت النّفس من إدراك لجلاله وكماله، ورعايته للبشر، فعبر عن هذا الحاصل النّفسي بقوله، تبارك اسم ربك. عظم فضله، وكثرت خيراته، وجلت نعمه. وأسند فعل تبارك " إلى اسم الله، مع أن الذي تبارك هو الله، لتحقيق المبالغة في وصفه بالبركة، فإذا تبارك اسمه، فذاته العلية أجدر بالبركة. وأُسند إلى كلمة " ربك "بما توحي به كلمة الرب من العناية والرعاية والفضل. وأضيف إلى الضمير المعبر عن محمد ﷺ ، إذ بفضله صح يقيننا وتصوُّرنا للحقائق، وكل الخيرات إنما بلغناها بسببه ﷺ.

وتختم السورة بالتصريح بوصفين من صفاته القديمة، فهو المختص بالجلال الكامل والعظمة. وبأنه هو صاحب الكرم الذي لا يحد. وما ذكر في الجنات من خيرات تقدم خير تقديم لهذا الوصف: والإكرام.

تكرر ختم المقاطع في هذه السورة بقوله تعالى: فبأي آلاء ربكما تكذبان. إن الآلاء المنوه بها المتكررة منها ما كان حاصلا في الدنيا. ومنها ما كان ذكره يؤكد على السامعين الاعتراف به ويسأل البشر أينكرون شيئا مما تلي عليهم؟.

سورة الواقعة

هذا هو الاسم المجمع عليه في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. أخذ اسمها من الآية الأولى فيها. قال ابن عطية:(أجمع من يعتد به من المفسرين على أنها سورة مكية ج14 ص226) رتبتها حسب ترتيب المصحف :السادسة والخمسون. وحسب ترتيب النزول :السادسة والأربعون. نزلت بعد سورة طه، وقبل سورة الشعراء.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الواقعة : يوم القيامة

الرج : الهز والاضطراب العنيف.

بست : تفتتت إلى أجزاء صغيرة.

الهباء : ما يتطاير من الأجزاء الدقيقة.

المنبث : الشائع في الهواء

أزواجا : أصنافا.

ثلة : الجماعة من النّاس.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا حدثت الحادثة العظمى، يزول إنكار من كان ينكرها. وينقلب كل شيء فمن كان فاسدا رفيعا متعاليا يخفضه الله ويذله، ومن كان تقيا مغلوبا على أمره محتقرا يعزه الله ويرفعه. قمم الجبال وأعالي المباني تنخفض إلى القاع، وما كان في باطن

الأرض يطفو على السطح. ترتج الأرض فتزلـزل كأشـد مـا يكـون الزلـزال، وتتفتت الجبال الصم والصخور فتتحول إلى هبـاء لا يثبـت لخفتـه فـي أي مكـان. وتصـنفون إلى أصناف ثلاثة.

الصنف الأول: أصحاب الميمنة وهم أصحاب اليمين، عبـر بنسـبتهم إلـى الـيمن للدلالـة على أنهم مكرمون، ولا تسأل عن حالهم فاسمهم يدل على مقامهم.

الصنف الثاني: أصحاب المشأمة وهم أصـحاب الشـمال. عبـر بنسـبتهم إلـى الشـؤم والنكارة للدلالة على أنه أطلق عليهم كل متصوَّر مـن الخسـران. ولا تسـل عـن حـالهم فاسمهم يدلك على ماهم فيه من شر.

الصنف الثالث: السابقون ولا تجد وصـفا يعـرفهم أبلـغ مـن وصـفهم بالسـابقين، فهـم الخِيَرةُ من البشر في جنات النّعيم. وشـأن الخيـار أن يكـون قلـيلا. هـم جماعـة مـن أتباع الرسل السابقين، وجمع قليل مـن أتبـاع محمـد ﷺ . ولكـن السـابقين مـن أتبـاع محمد صلى الله عليه وسلم، أكثر من أتباع السابقين لكل رسول على انفراد.

بيان المعنى العام :

1—6: إذا وقعت الواقعة...منبثا.

افتتاح يثير النّفس لتتلقى ما سيعرض عليهـا بعـد شـوق لمعرفتـه. إذا وقعـت الواقعـة، ماذا سيحدث ؟ سيأتي الجواب في قوله تعـالى: فأصـحاب الميمنـة.... والواقعـة، علـم على القيامة، كالصـاخة، والطامة والآزفة. وأطلـق عليهـا الواقعـة، باعتبـار أن نزولهـا وحدوثها أمر لا شك فيه. كأنه قيل إذا حدثت الحادثة التي لا بد من وقوعها.

-ليس لوقعتها كاذبة. إذا وقعت لا تبقى نفس تنفيها، فتكـون بنفيهـا كاذبـة. وقـد وقعـت مشاهدة. فكل من أنكرها في الدنيا سيصدق بها عند وقوعها.

-خافضة.. هي خافضة لأقوام كـانوا أعـزاء، فينقلبـون تـافهين لا وزن لهـم كالحكـام الظلمة، والجبابرة المستقوين على النّاس، وترفع أقواما صـالحين مـا كـان لهـم اعتبـار في الدنيا، فتحلهم المقام الرفيع اللائق بهم. وهـذ المفهـوم المعنـوي. كمـا أنهـا لشـدتها تخفض ما كان عاليـا علـى وجـه الأرض كالجبـال وطوابـق المبـاني، وترفـع إلـى السطح ما كان خافيا، بعد حدوث الزلازل العظمى والعامة.

- وتتتابع الأوصاف للواقعة تزيد في الكشـف عـن أهوالهـا. وتعـد النّفـوس للاسـتعداد لها. فالأرض الثابتة تحت أقدامنا ترتج وتزلـزل زلـزالا عامـا يهـدم وحـدتها. هـو رج عظيم لكيانها يشمل جميع أجزائها، فتتفتـت إلـى قطـع صـغيرة كأنهـا طحنـت طحنـا ناعما، وتتحول صلابتها إلى ذرات متناثرة، كما يلحظـه النّـاظر فـي الحزمـة الضـوئية من دقيق الذرات السابحة في الهواء، المنبثة في فضاء الغرفة.

كما تفتت الأرض بجبالها وصخورها، فكذلك وضعكم يوم القيامة ستكونون أصنافا ثلاثة متميزين.

8←12 ، فأصحاب الميمنة... في جنات النعيم.

إذا وقعت الواقعة، إذا رجت الأرض رجا، وانقسمتم إلى أنواع ثلاثة، جاءت هذه الآيات لتجيب عن هذا الفرض المحقق ولتفصل إجمال الأصناف الثلاثة.

الأصناف الثلاثة الذين هم محل الاهتمام مما سبق، هم أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة والسابقون. هم يمثلون البشر جميعا يوم القيامة فكل فرد داخل في أحدها.

1) **أصحاب الميمنة** :الميمنة مشتقة من اليمين، وأصلها من اليمن البركة والخير. وأطلق عليه في مواطن أخرى بأصحاب اليمين. وعرفتهم الآية ب" ما أصحاب الميمنة" وما استفهام وأصحاب الميمنة التالية لما خبر عن ما. تدل الآية على أنه إذا أريد تعريفهم فلا أفضل أن يخبر عنهم بذاتهم. كما تقول : محمد ما محمد. والعلم ما العلم. ومكة ما مكة. والروضة ما الروضة. وإطلاق لفظ اليمين عليهم مبناه العرف الاجتماعي، أن المكرم يجعل في الجانب الأيمن، حتى أصبح إطلاق لفظ اليمين دالا على التكريم والعناية. و قال: **وأصحاب الميمنة، ما أصحاب الميمنة،** دون تفصيل لتذهب النفس في تصور تفاصيل التكريم ما شاءت دون تحديد.وذلك أبلغ من التفصيل. إذ التفصيل تحديد يقف على ما ورد بالنص. وبعد هذه الصورة التي تترك أثرها في النفس سابحة طليقة، سوف يأتينا في السورة حديث مفصل عنهم في قوله تعالى: **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود.**

2) **أصحاب المشأمة**، وهو اسم مشتق من الشؤم، بما يجمعه من ضر وقبح ومهانة وحيرة. وأطلق عليهم في مواطن أخرى بأصحاب الشمال. وفي العرف الاجتماعي يتشاءمون بالشمال. وعُرّف على النحو الذي عرف به أصحاب الميمنة لتذهب النّفس في تصور شؤمهم طليقة، ثم سيتعرض لهم بقوله تعالى : **وأصحاب الشمال**

3) **السابقون**، أعيد لفظ "**السابقون**" مرة أخرى. فأخبر عن قوله السابقون، بقوله: **السابقون**. على الملحظ البلاغي سابقا : **وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة**. أي إن وصفهم بالسابقين لمزايا تجمعت فيهم؛ أبلغ تعبير عنها هو لفظ السابقين. تصوّرْ المتقدم في الخير والفضل في كل ميدان تجدْ لفظ السابقين متناولا له.

ثم تناول القرآن تقريب هذا المفهوم للمخاطبين، فوصفهم بأنهم مقربون. اصطفاهم الله، وأسبغ عليهم فيوض رحمته، وأعلى مقاماتهم عنده فعاملهم معاملة المقرب المحبوب. تتوالى عليهم الألطاف الإلهية، والتوفيق حتى تكون الطاعة أحب شيء لنفوسهم، واستحضارهم لجلال الله يبلغ مستوى الحب الخالص لذاته العلية لا طمعا

في ثواب، ولا خوفا من عقاب. وميزهم بالإشارة إليهم الإشارة الحاصرة لهم والمستحضرة [أولئك] منازلهم في جنات النعيم. وقد كرم الله كل رسول بجماعة آمنت به وبلغت من الإخلاص أعلى المراتب، وفازوا عند ربهم بدرجة السبق. فما تجمّع من أتباع الرسل الذين بلغوا درجة السبق يمثلون ثلة، أي جماعة، وإذا قسمتهم على تعداد الرسل والأنبياء فقد يكون حظ كل رسول أو نبي واحدا أو قريبا من ذلك، وأما بالنسبة للأمة الإسلامية فإنهم يمثلون جمعا أقل من مجموع ما سبقهم من الأمم، ولكنهم أكثر مما وصل إلى هذه المرتبة من كل أمة على انفراد. وهذا الاعتراض ببيان العدد هو مؤكد لنفاسة السابقين وعزتهم.

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

موضونة: مخرمة مشبكة بالذهب و الياقوت.

أكواب : جمع كوب نوع من الكؤوس التي يشرب فيها الخمر.

أباريق : جمع إبريق ما يصب منه الخمر في الأكواب.

كأس من معين : كؤوس من خمر جارية.

يصدعون : الإصابة بالصداع.

النزف : اختلاط العقل.

اللغو من الكلام :الهذيان وما لا يعتد به.

التأثيم : الكلام الذي يتبعه لوم وإنكار.

بيان المعنى الإجمالي:

اطمأنوا لما هم فيه من النعيم، ولا يكدر حياتهم في الجنة أي مكدر. فهم متكئون على سرر مخرمة بالذهب والحجارة الكريمة. تجمعهم مجالس الأنس بمن يحبون. سخر الله لهم ولدان باقون على نضارة الصبا، يحملون أواني مختلفة من خمر الجنة التي لا ينقطع مددها. يشربونها فتحدث فيهم نشوة تضاعف شعورهم بالسعادة دون

أن يصيبهم صداع أو تختل مداركهم أو ألسنتهم. ويحمل لهم الولدان ما شاؤوا من فواكه الجنة، وما يشتهونه من لحوم الطير. وفوق ذلك يتم أنسهم بزيجات بلغن من الجمال أتمه، عيونهن كأجمل ما تكون العيون صفاء، وأهداب كالسهام، وصفاء في بشرتهن كأنها في إشراقها درة ما تزال في صدفتها. يبالغ في تكريمهم فيقال لهم إن ربكم رضي منكم ما قدمتموه في الدنيا، وهذا جزاؤكم. وكما تنزهت أسماعهم في الدنيا عن لغو الكلام وما ينكر فكذلك أنتم في الجنة لا تسمعون إلا ما ترتاحون لسمعه، يتكرر التسليم عليهم من كل وارد.

بيان المعنى العام :

16 –17- على سرر موضونة...متقابلين.

إنه إذا وصف النّعيم الذي تفضل به رب العزة على المكرمين عنده يوم القيامة، فإنه ينبغي أن يفهم على أنه تقريب بما يقدر البشر أنه أعلى ما يتصور من الفضل والنعيم. وما عند الله خير للأبرار.

فالسابقون، يتفضل عليهم ربهم بالتقريب وهذا أعلى ما يطمحون إليه. وثانيا بأنهم في جنات النّعيم. ثم فصل نعيمهم في الجنات بأنهم متكئون على سرر موضونة، تفوق ما يعرفونه من سرر الملوك، فهي مخرمة بالذهب والياقوت والحجارة الكريمة. هنأ عيشهم، واطمأنوا لما هم عليه من الحياة الآمنة فهم متكئون على سررهم في مجالس تجمعهم بأحبائهم متقابلون، يتشاركون في الحديث في وضع ينظر بعضهم إلى بعض مما يدل على مستواهم الرفيع خلقا وأدبا.

17 –21- يطوف عليهم ولدان....مما يشتهون

يقوم على خدمتهم ولدان مخلدون باقون على ماهم عليه من نضارة الصبا، لا يملون من الخدمة ولا يقصرون، كلما رغبوا في خدمة يجدونهم قريبين منهم فهم يطوفون عليهم. يسقونهم مما يحملونه من الأواني المختلفة الأشكال من خمر الجنة الجاري الذي لا ينضب ولا ينقص.

يتناولون من الخمر ما يشاؤون دون أن يجدوا منه صداعا ووجعا في رؤوسهم، ولا يؤثر على مداركهم فتختلط عقولهم، وألسنتهم. تحدث فيهم النّشوة التي تزيدهم قدرة على استيعاب النّعيم.

- شأن الخمر في الدنيا أنه يتناولها شاربوها في أوقات الدعة، والتفكه. وأما الأكل فيقبل عليه النّاس عند الشعور بالحاجة إليه، فلذلك عطف على ما يقوم به الولدان أنهم يقدمون لهم الفاكهة التي يتخيرونها. والفاكهة في الدنيا تشمل اللوز والفستق،

وما شابههما وهي أنواع كثيرة. ويقدمون لهم من لحم الطيور ما يشتهون تناوله. ولحم الطيور يختلف بعضها عن بعض في مذاقها وهي من أجود أنواع اللحوم. فكل ما يرغبون فيه مبذول لهم، نص على ما نص عليه لتصور الكرامة.

22←24- وحور عين...بما كانوا يعملون.

مما أكرم الله به السابقين أن هيأ لهم الإناث الحور العين، بلغت عيونهن أقصى ما يمكن أن يتصور من الصفاء والجمال والأنوثة. هن في صفاء بشرتهن ولمعانها كالدرة التي ما تزال في صدفتها إشراقا وصفاء.

- من أفضل ما يكرم به الإنسان أن ينوه بخصاله، وأن يربط وضعه الحسن، بما قدم من صالح العمل. كما يقال للتلميذ النجيب عندما يكرم يوم تفوقه في الامتحان: هذا جزاء اجتهادك واستقامتك، وهكذا بالنسبة للسابقين أنهم يجدون تقدير أعمالهم من ربهم الذي كان كل جهدهم في الدنيا أن يبلغوا مبلغ الرضا منه، مع شعورهم بالتقصير، فيرفع عنهم ما كانوا يخشونه من التقصير بالتصريح لهم : أن ما قدم لهم هو جزاء لصالح عملهم، وإن كان هو في الحقيقة من فضل الله.

25←26-لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما...سلاما.

وقد تحول الوصف من التكريم المادي إلى التكريم المعنوي في قوله جزاء بما كانوا يعملون، أتبعه بذكر أنهم تبعا لمستواهم العالي مكانتهم الرفيعة في التعلق بالمكارم واستمتاعهم بطيب الكلام وفضل القول، لا يسمعون في الجنة أي هذيان من الكلام المنحط أو الذي لا فائدة فيه فضلا عن الكلام الذي ينزل إلى دركات اللوم والإنكار. وهم يتلقون من الملائكة ومن بعضهم ومن الداخلين عليهم قولا جميلا هو تكرار السلام، ليكون شعورهم بنعمة السلام الموسيقى التي تتحرك نغماتها في الجنة.

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

السدر : نوع من الشجر ينبت في جزيرة العرب.

مخضود : منزوع الشوك.

طلح : نوع آخر من الشجر قيل هو شجر الموز.

منضود : نضد بما يحمله من ساقه إلى أعلاه.

مسكوب : مصبوب.

بيان المعنى الإجمالي :

أصحاب اليمين كفاك بهم أنهم أصحاب اليمين وهم أصحاب الميمنة المذكورون من قبل، قدر لهم أنواع من النّعيم، منها أن السدر الذي كان يختص به السلطان لطيب طعمه وحسن رائحته، ينبت في جناتهم ويجنون منه ما يشاؤون. وكذلك شجر الطلح الكثيف أوراقه. وتمتد ظلال الأشجار فلا تزول. وشلالات الماء التي تبهج النّفس وتروي. ينالون ما يشاؤون من مختلف أنواع الفواكه التي لا تنتهي بانتهاء فصولها ولا يحول بينهم وبينها أي حائل. ويتمكنون من الراحة على فرش رفعت على الأسرة. ومما يسره الله لأهل اليمين أنه أنشأ لهم زوجاتهم اللاتي كن معهم في الدنيا إنشاء جديدا جمع بين سماتهن وأضاف عليها مسحة من الشباب والجمال الفائق، ومعهن ما أنشأه من نساء الجنة الحور. يجمعن بين البكارة الدائمة، وبين التودد والتحبب والذكاء، وهن على سن واحدة مفضلة. ذلك كله لأصحاب اليمين. جماعة وافرة من أتباع الرسل السابقين، وجماعة وافرة من أتباع محمد ﷺ.

بيان المعنى العام:

27-وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين.

تحول من الحديث عن السابقين في القسم الأول إلى الحديث عن القسم الثاني، وهم أصحاب اليمين الذين ذكروا في الآية السابقة بقوله تعالى: أصحاب الميمنة. وأعيد التنويه بهم بنفس الطريقة بالسؤال عنهم تثبيتا لرفيع مقامهم أيضاكما ذكر سابقا.

28—34: في سدر مخضود...وفرش مرفوعة.

في سدر مخضود : نزع شوكه. يقول أبو حنيفة [هو الدينوري صاحب كتاب النبات]السدر من العضاه." نوع من شجر البادية، وهو لونان فمنه عُبْريّ، ومنه ضال، فأما العُبري فما لا شوك فيه إلا ما لا يضير، وأما الضال فذو شوك. وللسدر ورق مدورة. قال: ونبق الضال صغار. قال: وأجود نبق يعلم بأرض العرب نبق هجر، في بقعة واحدة، يحمى للسلطان. وهو أشد نبق يعلم حلاوة، وأطيبه رائحة، يفوح فم أكله وثياب ملابسه كما يفوح بالعطر[1]. فحسب ما ذكره الدينوري هو نبت

[1] تاج العروس ج11 ص526

عزيز يحميه السلطان لنفسه ومن يكرمه. وهو مبذول لأصحاب اليمين في الجنة وقد كانوا يسمعون باسمه ولا يصلون إليه في الدنيا. والطلح: يقول ابو حنيفة : (الطلح أعظم العضاه، وأكثره ورقا، وأشده خضرة، وله شوك ضخام طوال، وشوكه من أقل الشوك أذى. وله برمة [وبرمة السلم أطيب البرم ريحا، وهي صفراء تؤكل طيبة] وليس في العضاه أكثر صمغا منه ولا أضخم، ولا ينبت إلا في أرض غليظة شديدة خصبة وفسر بأنه شجر الموز.

وظل ممدود، ظل متصل فسيح روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة ﷺ يبلغ به النبي ﷺ قال: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرأوا إن شئتم وظل ممدود فتح الباري ج 10ص251

وماء مسكوب : يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا. يجري بدون انقطاع. بهذا فسروه، والذي يظهر لي أن القرآن يصف شلالات الماء التي تجمع بين ري الجنات و بهجة المنظر.

وتبذل لهم أنواع الفواكه التي لا تنقطع بانتهاء فصولها كما هو الشأن في الدنيا. لا مقطوعة، ولا ممنوعة. ولا يحول بينهم وبينها أي حائل.

وفرش مرفوعة على أسرة مرتفعة على الأرض مما يجمع بين الإشراف، والراحة.

35—38-إنا أنشأناهن...لأصحاب اليمين.

كما عقب النعيم المادي للسابقين بما أعد لهم من إناث حور عين زيجات لهم، فإنه يفهم من المقام هنا أن معنى أنشأناهن تعبير عن نساء أصحاب اليمين، فذكرت أن الله أوجدهن على صفات من الكمال، أنشأهن أبكارا بما يشمل نساء أصحاب اليمين في الدنيا ، وما أضافه من نساء خلقن أنفا. عربا جمع عروب وهي المرأة المتحببة لزوجها، التي تعنى بإغرائه بدلالها وغنجها ودلها. وهن أتراب على سن واحدة من نضارة الشباب المستوي السن التي تكون فيه الأنثى في قمة جمالها، لا تفضل إحداهن على غيرها. ما ذكر في الآيات هو ملك لأصحاب اليمين بكل تأكيد. وهو تعداد للنعم لا تحديد لها. فكثير من جنس نعيم السابقين مخول لأصحاب اليمين، ولكن السابقين أعلى منهم درجة.

39—40- ثلة من الأولين...من الآخرين.

أصحاب اليمين منهم جماعة وافرة من أتباع الرسل السابقين، وجماعة وافرة ايضا من أتباع محمد ﷺ .

وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

سموم: ريح شديدة الحرارة منزوعة الرطوبة.

الحميم : الماء الشديد الحرارة.

اليحموم : الدخان الأسود.

المترف : المنعم في سرف.

ميقات : مكان موقت حلوله.

مجموعون : مسوقون.

شجر من زقوم : شجر العذاب.

الهيم : جمع أهيم وصف للبعير الذي أصيب بالهيام، يجعله لا يرتوي كلما شرب.

نزلهم : الطعام الذي يكرم به الضيف، القرى.

يوم الدين: يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي :

اصحاب الشمال، أصحاب المشأمة، لا تسل عن خزيهم وكربهم فإن عذابهم يفوق كل وصف. يحيط بهم من كل مكان ريح شديدة الحر تنفذ نفاذ السم إلى الباطن وماء حار يقطع الأمعاء، وظل دخان كثيف يخنق الأنفاس، لا يجد المستظل به بردا والمقام فيه أسوأ مقام. جازيناهم حسب ما قدموا : إنهم كانوا متعلقين بالترف معرضين عن الإيمان بالحساب، وألفوا الكبائر من الشرك والجرائم، وكانوا إذا نبهوا يجادلون قائلين : أنعود إلى الحياة بعد الموت وتحولنا إلى تراب وعظام ؟ أنبعث مع آبائنا الذين ماتوا منذ أزمان؟ قل لهم يا محمد قولا يسفههم : إن الأولين

الذين سبقوا في الوجود وإن الذين جاؤوا بعدهم سيبعثون مجموعين في لحظة واحدة في زمن محدد ومكان معلوم عندنا ضبطناه مقدما. ثم إنكم بسبب ضلالكم وتكذيبكم سنخلق فيكم شهية للأكل لا تستطيعون مقاومتها تدفعكم دفعا إلى الأكل من شجر الزقوم، فتملؤون منه بطونكم رغم بشاعته، ويلهب بواطنكم فتندفعون إلى شراب من حميم يقطع أمعاءكم، تشربون منه وتعاودون، كحال الإبل التي أصيبت بالهيام فهي تشرب وتشرب بدون انقطاع. هذا الموصوف الذي كأنه حاضر أمامكم تشاهدونه هو ما أعد لهم من طعام ضيافتهم في هذا اليوم، فبئس القرى وبئست الضيافة.

بيان المعنى العام :

41—44-وأصحاب الشمال...لا بارد ولا كريم.

أصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال، القسم الثالث من البشر يوم القيامة. وتصور ما شئت من الكرب والهم والنكال والعذاب، فهؤلاء هم أصحاب الشمال، ورغم ذلك فتصورك يقصر عن بلوغ حقيقة أوضاعهم. وبعد هذا التهويل، يتعرض القرآن لوصف بعض ما هم عليه. أطبق عليهم السموم الريح الشديدة الحر جفت من الرطوبة، تنفذ كالإبر في البدن. وماء شديد الحرارة يتلهفون للشرب منه فيقطع أمعاءهم. ويميلون إلى ما يخالون ظلا، فيجدونه ظل دخان كثيف من لهب جهنم يخنق أنفاسهم، شديد الحرارة، مركب من الغازات الخبيثة، يخيب ظنهم فيه، لا يجدون فيه بردا وليس فيه أي شيء مما يوجد في الظلال عادة من النظافة والترتيب الذي يجعل الجلوس فيه متعة. فلا يجدون فيه إلا النقمة البالغة.

45—48-إنهم كانوا قبل ذلك...أو آباؤنا الأولون.

ما سلط عليهم هو جزاء لما قدموا في الدنيا. إنهم كانوا في الدنيا قبل أن يحضروا إلى الحشر مترفين. والمترف أصله الذي يغرق في النعيم، ويسرف في الإنفاق على ملذاته. وقد استشكل كيف يكون الترف سببا لكل ذلك النكال. والذي أفهمه أن الترف مرتبتان: مرتبة الفعل ومرتبة الملكة. أما مرتبة الفعل فتحصل من المؤمن ومن الكافر. وأما مرتبة الملكة فإنها تجعل صاحبها متعلقا بالترف وجد سبيله أو لم يجده، معرضا عن كل سلوك يخالف سبيل الترف، يهزأ من النهي عنه وممن يجعل عدم الاستجابة لداعيته قيمة في حياته، وبالتالي هو يكذب بأنه سيحاسب على تمتعه المفرط.ولا يكون هذا إلا ممن يكذب بالبعث. ويصر على مواصلة ارتكابه لأعظم الآثام، ومن أعظمها الشرك بالله، وإنه مع إصراره على عظيم الذنوب فإصراره

على ما هو دونها أشد، فهو المتمرد على الضوابط، بينه بين الشر سبب موصول، مات ضميره فلا ينهاه عن جريمة. وقد نصبوا أنفسهم للجدال في البعث، وإنكاره إنكارا شديدا. مجادلين بأنهم إذا تحولوا بعد الموت إلى تراب وعظام متناثرة، فإنه مما لا يقبله العقل أن يبعثوا أحياء وأنهم سيلقون آباءهم الذين ماتوا منذ أمد طويل ويشيرون بهذا إلى أنهم رغم طول زمن موتهم لم يبعثوا، وقد جرى عليهم من البلى أكثر مما سيجري عليهم تبعا لتقادم الزمن.

49←50- قل إن الأولين...يوم معلوم.

اهتمام بالرد عليهم وتسفيه عقولهم، فلذلك افتتحت الآية أمرا رسوله بقوله: قل. إن الأولين الذين مضوا في الأزمان السابقة، والذين التحقوا بهم متأخرين عنهم في الزمان ؛ سيبعثون ويحشرون جميعا. لا على ترتيب موتهم ولكن في يوم واحد وفي مكان محدد. يساقون إلى المحشر الذي حدد زمنه ومكانه. وسيلقون في هذا اليوم ما توعدهم به رسلهم.

51←56- ثم إنكم أيها...يوم الدين.

ثم قل لهم :إنكم أيها الضالون الذين اختلطت عليكم السبل وتَهْتُم عن طريق الهدى، المكذبون للبعث، لتخلقن فيكم شهية للأكل لا تقاوم، تندفعون من تأثيرها إلى الأكل من شجر من نوع الزقوم الذي سبق وصفه في سورة الدخان في قوله تعالى : (إن شجرة الزقوم *طعام الأثيم* كالمهل تغلي في البطون *كغلي الحميم46/43) رغم بشاعة طعمها وشدة حرها تواصلون الأكل منها إلى أن تمتلئ بطونكم، فيلتهب داخلكم، فتقبلون على الشرب من ماء شديد الحرارة يقطع أمعاءكم، ولا تنقطعون رغم ذلك عن الشرب منه، كالإبل التي أصابها الهيام وهو داء يجعلها تواصل الشرب ولا تروى.

-هذا الذي وصف من شجر الزقوم وماء الحميم، هو قراهم وتكريم استضافتهم، وفي ذلك من التهكم بهم والسخرية منهم ما هو واضح. ويوم الدين هو يوم الجزاء يوم القيامة فيكون جزاؤهم جزاء وفاقا لما قدموه في الدنيا من كفر واستهزاء.

نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝﴾

بيان معاني الألفاظ:

وما نحن بمسبوقين : ولا يغلبنا.

أمثالكم : ذواتا مماثلة لكم.

ننشئكم : نجمع ذراتكم ونبعثها بعثا جديدا.

تحرثون : حرث الأرض شقها للزرع.

حطام : مكسر، محطوم.

ظلتم : صرتم.

تفكهون : مغمومون. معرضون عن الفكاهة.

مغرمون : معذبون.

بيان المعنى الإجمالي :

لا يستطيعون إنكار أن الله هو الذي خلقهم أول مرة، فمن غفلتهم إنكار أن يعيدهم. وهو أهون عليه. ثم حرضهم على التصديق بالبعث لوضوحه. ثم لفت أنظارهم إلى حقائق من أنفسهم تثبت البعث. يتبع الاتصال الجنسي ودفق المني في رحم المرأة أن يتكون الجنين، ويمر بمراحل وتطورات كثيرة، فهل كان لكم أي دور في تحقق تلك التطورات، وهل خلقتم بقدرتكم المولود المكتمل؟ وكما لفت نظرهم إلى البداية لفت نظرهم إلى النهاية. قدر سبحانه أن يكون الموت قائما بين النّاس يأخذ من شاء في الوقت المقدر، ولا تستطيعون الفرار منه أو تأخيره رغم كراهتكم الشديدة له. ولا يعجزنا أن نبدل منكم ما يماثلكم ونحل فيه أرواحكم، لتحاسبوا. أو نأخذ بعض أجزائكم فننشئها كما أنشأناكم أول مرة في أرحام أمهاتكم بطريقة لا تعلمونها. إنه بكل تأكيد تعلمون كيف أنشأناكم أول مرة فهلا تتذكرون وتتدبرون فتقرون بالبعث.

انظروا متأملين فيما تقومون به من حرث للأرض، ونثر للزريعة، آملين في الفوز بمحاصيل من الحبوب، هل إن بلوغ ما تزرعونه ما يحقق آمالكم هو بأيديكم، أم إنه حاصل بقدرتنا نحن فقط. إنّه لو أردنا أن نجعله فتاتا لفعلنا. وعندها تزول الفكاهة من حديثكم، ويحيط بكم البؤس، وتعبرون عن غمكم بقولكم : إنا هالكون بل نحن محرومون. ليس لكم في هذا الموقف إلا الأسى والحزن. فكما تصرفنا في الحب

فأنبتناه إلى أن بلغ غاية مداه وتحولت الحبة إلى سنبلة كأصلها، فإن ذلك يقوم دليلا على إمكان البعث.

بيان المعنى العام :

57- نحن خلقناكم فلولا تصدقون.

أثبتت هذه الآية أن الله قادر على أن يبعثهم بعد موتهم، استدلالا بأنه هو الذي خلقهم وأخرجهم إلى الوجود في الدنيا بعد أن كانوا معدومين. فإنكارهم للبعث الوارد في قوله تعالى **وكانوا يقولون أئذا متنا....** مع أنهم لا يستطيعون نفي أن يكون الله هو الذي خلقهم أول مرة، يدل على شدة غفلتهم، فذكروا بتلك الحقيقة، مع تحريضهم على التصديق بالبعث.

58←59-أفرأيتم ما تمنون...نحن الخالقون.

سؤال للمنكرين للبعث: أنتم تقرون أن خلق نسلكم هو تحولات تجري على الماء (المني) الذي تزرعونه في الرحم، فهل تمت التحولات التي جرت على المني بين اليوم الأول و اليوم الذي يولد فيه إنسانا كاملا بفعلكم أو خلقكم، ولا تستطيعون نسبتها إليكم، لجهلكم بتلكم التحولات؛ أم تمت بخلقنا نحن المتصرفون في الكون. وهو ما يقرر ويقرب خلق الإنسان بعد موته.

60←61-نحن قدرنا بينكم...في ما لا تعلمون.

يتابع القرآن تقريب البعث بصورة أخرى من التصرف المشاهد، والذي لا يمكن أن يسند إلا لله. هذه الصورة مقابلة للصورة السابقة من خلق كل إنسان من حيوان منوي تطور إلى أن بلغ الصورة الكاملة للإنسان العاقل دون أن يحس بأي طور فضلا عن أن يكون له تأثير فيه. نحن بعظمتنا وعلمنا وإرادتنا وتفردنا بالتصرف، قدرنا أن نجعل الموت قائما فيكم، يأخذ كل واحد منكم حظه منه في الوقت الذي رتبناه في سابق علمنا، ولا يستطيع أي منكم أن يؤخره أو أن يفر منه مع قوة كراهتكم له. فإذا كان الإنسان بين البداية والنهاية محل تصرف لله وحده، فإعادتكم بعد الموت الذي هو من تقديرنا مما يشهد به العقل، ويقتضيه منطق الأشياء.

إنه لا يعجزنا، حسبما بيناه من تصرفنا في خلقكم من عدم، ثم إماتتكم حسب تقديرنا لا حسب إرادتكم، لا يعجزنا أن نبدل من ذواتكم ذواتا أخرى لها نفس خصائصكم نُحل فيها أرواحكم. كما لا يعجزنا أن ننشئكم إنشاء جديدا فنأخذ ما بقي منكم وننميه كما نميناكم بعد كونكم منيا. فإخراجكم إلى البعث هو خاضع لإرادتنا، إما

بخلقكم خلقا جديدا، وإما بتطوير ما بقي منكم فتصوره تصويرا بكيفية لا تعلمون تفاصيلها.

62-ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون.

بكل تأكيد إنكم تعلمون يقينا أنا أنشأناكم من عدم، وأنا أوجدناكم بعد أن لم تكونوا من عالم الأحياء، وإن القياس القريب يقتضي أن تعترفوا أن إنشاءكم مرة أخرى هو على مستوى إنشائكم المرة الأولى. هلا تذكرتم بذلك، وأقلعتم عن إنكار البعث! فجمعت الآية بين التحريض والتوبيخ.

63—67- أفرأيتم ما تحرثون...بل نحن محرومون.

استفهام تقريري ملجئ، لا يستطيعون إنكار مضمونه. المستفهم عنه هو المجهود الذي يقومون به لشق الأرض، وبث الحب فيها لينمو ما تزرعونه، ويحمل السنابل. تفكروا في هذا. فهل إن تحقق الغاية من عملكم يتم بقدراتكم وباختياركم ؟

- ليس ذلك لكم، ولا هو من فعلكم. يقوم شاهدا على ذلك أنه لو تعلقت مشيئتنا أن نجعله فتاتا مدقوقا بما نسلطه عليه من البرد، أو الريح العاصفة، أو الحشرات كالجراد، لفعلنا دون أن يكون لكم أي قدرة على حمايته.

ثم صورت الآية حالتهم بعد هلاك الزرع وذهاب الأمال، بعد أن كانوا مبتهجين ينقلبون إلى حالة من الأسى، ينقلب سرورهم إلى غم ولا يجدون سبيلا للتفكه والترويح عن النفس. فتفكه يراد منه زوال الفكاهة، كقولهم قشر العود أزال قشره. وتواصلون التحسر على ما فات، تتحسرون وأنتم ترون مزارعكم حطاما فتعبرون عن ذلك بقولكم :إنا مهلكون، بل إن الحرمان محيط بنا. بلغ إحساسهم بالتعاسة هذا المستوى، لأنه لا أمل لهم إلا ما يحصلون عليه من متاع الحياة الدنيا. فإذا حرموا منه لم يبق لهم متعلق آخر. والآية تفيد أن الله سيحيي الأموات للبعث كما يحيي النبات في باطن الأرض.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

المزن : السحاب.

أجاج : أشد المياه ملوحة.

أورى الزند : حكه بمثله ليخرج منه شرارة يوقد بها.

تذكرة : تذكركم بنار جهنم.

المتاع : ما ينتفع به.

المقوين : النازلون بالقواء الأرض القفر.

بيان المعنى الإجمالي :

تأملوا في الماء الذي تشربونه وارتبطت به حياتكم، الماء الذي ينبت لكم ما تزرعون، أ كان لكم أي دور في إنزاله من السحب، أم نحن الذي أنزلناه. ولو تعلقت إرادتنا بأن نجعله مالحا كأشد ما تكون الملوحة لفعلنا. أليس الواجب عليكم أن تشكروني على ما أنعمت، وأن تعترفوا بالبعث فإن دور الماء في الحياة وإنبات الزرع، يقوم دليلا على قدرة الله في إحيائكم بعد موتكم.

وتأملوا أيضا في انقداح الشرارة من حك عودين فتحصل النّار، هل إن إنشاء الشجر الخاص الذي يقدح النّار من خلقكم أو من خلقنا ولا دور لكم في ذلك؟.النار التي توقظكم لتحصين أنفسكم منها يوم القيامة. والنار التي تجيب حاجة سكان الصحراء فيتدفأوا بها، ويراها السائر على بعد فيؤمها طلبا للقرى. فتحويل الشجر الأخضر نارا فيه ما يدلكم على قدرة الله في تحويل الأشياء، وكذلك بعثكم.

فليكن تأثرك بما لفتنا إليه نظرك من دلائل قدرتنا، ومن نعمنا التي ربما يغفل عنها تبعا لرتابتها، فجدد التأمل فيها ونزه ربك عن كل نقص، واذكره في قلبك بما هو أهل له من التنزيه والشكر وبقولك: سبحان ربي العظيم.

بيان المعنى العام :

68-70- أفرأيتم الماء...فلولا تشكرون.

صلتها بسابقتها بينة، إذ لولا إنزال الماء من السماء ما نبت الزرع. بعد أن اثبتت الآية السابقة نحن خلقناكم...- 57 بأصرح بيان تصرف الله بالخلق، أتبعه بستة مظاهر تؤكد ذلك المفهوم :1-خلق الإنسان من المني المدفوق في الرحم. 2-تقدير الموت حاضرا بين الخلق، يتخطف ما شاء في الوقت المقدر -3النشأة الأولى -4إنبات الزرع إلى أن يبلغ تحوله ما كان عليه أصل الزريعة-5إنزال الماء من السماء- 6 تكوين النّار من الشجر الأخضر.

ألم تنظروا إلى الماء الذي تشربون. الذي هو أحد مقومات استمرار حياتكم، والذي منه كل شيء حي. هل أنتم أنزلتموه من السحب ماء صافيا صالحا للحياة؟ لو تعلقت مشيئتنا بأن نجعله مالحا شديد الملوحة لفعلنا، ولما استمرت حياتكم ولا نبت زرع ولا شجر. فهل كان لكم دخل في ذلكم التقدير العجيب ؟ كان عليكم أن تتأملوا في نعمتي تلك فتقابلونها بالشكر. ومن شكرها أن توقنوا بأن الذي أنزل الماء شرابا وإحياء للأرض بعد موتها قادر على إحيائكم بعد الموت كما أحيى الكائنات بالماء.

71–74- أفرأيتم النار..باسم ربك العظيم.

المظهر السادس الذي لفت القرآن إليه الأنظار، ألم تتأملوا في التقدير العجيب، النّار التي تشعلونها بقدح عود من شجر خاص على عود آخر فتطير منه شرارة توقد لكم النّار. فهل أنشأتم بقدرتكم هذا النّوع من الشجر الذي له هذه الخاصية، أم ذلك من تصرفنا وخلقنا ؟وهل تأملتم في هذه الشرارة كيف تتكون منها النّار المتأججة. ويعرف هذا الشجر بشجر النّار، كالمرخ، والعفار، والعُشَر، والكلّخ يقول ابو العلاء المعري :

وإن شرارة وقعت بواد *** لتحرق وحدها سمُرا بشرج.

وإذا كانت الشجرة تقتبس من الشجر الأخضر ثم تحرق الشجر العظيم. فهلا نظرتم إلى التقدير العجيب كيف تتولد النّار من الأخضر فتحرق الأخضر. فذلك دليل على قدرتنا في بعثكم بعد موتكم.

- تدبروا فقد جعلنا في النّار التي تقتبسونها من شرارة احتكاك شجر أخضر، جعلناها تذكرة لكم لتتذكروا ما أوعد الله به المعرضين عن هديه من نار جهنم. وجعلناها من ناحية ثانية ينتفع بها الضاربون في القفر المقيمون في القواء أي الصحراء.وكذلك أصحاب البطون الخاوية بما يطبخونه من الطعام، من قويت بطونهم إذا فرغت. وكذلك بما يهتدي به السائرون ليلا للقرى إذا رأوا ضوءها.

- تعمق يا محمد فيما تلوته عليك من مظاهر فضلي، وقدرتي، وتدبيري. ليكون قلبك مفتوحا دائما على تلكم النّعم، ذاكرا لها، شاكرا لربك عليها. وقد اقترن عرضها بلفت النّظر إلى أنها من نعمه التي تفرد سبحانه بتمكين البشر منها، وليس لأحد فضل فيها. ولذا فليكن قلبك شاكرا لتلك النّعم، مستشعرا دائما ما تقتضيه من التسبيح والتمجيد لذاته العلية. وليكن لسانك رطبا بالتسبيح لربك العظيم.

۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ،

الكريم : النّفيس المختص بالمنزلة العالية بين أمثاله من الكتب السماوية.

مكنون :مصون.

المدهن : المظهر خلاف ما يبطن.

بيان المعنى الاجمالي ،

وإن افتتحت الآية بكلمة "لا" فهي دالة على إرادة التوكيد بالقسم. والمقسم به هو التنظيم الحكيم لموقع كل نجم من نجوم السماء ومساره إلى خفائه. وإن هذا القسم باعتبار مضمونه قسم عظيم لا حدود لأبعاد المعرفة فيه. لو كنتم على المستوى الذي تتجاوزون الظواهر إلى ما وراءها من الحقائق لتبحثوا عنها وتعلموها. والمقسم عليه هو أن القرآن كتاب مضبوط، مصون عند الله،لا يصل إليه إلا الملائكة المقربون المطهرون من جميع الأدناس. منزل من رب العالمين الذي خلقكم ويسر لكم بهذا الكتاب سبيل الهدية والفوز.

عجبا لكم ما أشد انحرافكم عن الحق! أبهذا الحديث القرآني أنتم تمالئون أتباعكم ليستمروا على الضلال فتظهرون لهم عدم تصديقكم به إبقاء على رئاستكم. وأوبخكم إذ تجعلون شكر رزقنا لكم بالهداية القرآنية وبما يسرناه لكم من إنزال الماء من السماء، تجعلون شكر رزقنا التكذيب لمحمد وللبعث.

بيان المعنى العام ،

75—76-فلا أقسم بمواقع...لو تعلمون عظيم.

افتتحت الآية بحرف نفي "لا" وهذه النّافية تحتمل احتمالات عدة:

1) فمن المفسرين من جعلها زائدة لتوكيد القسم، أي أقسم بكل تأكيد أني مقسم. وإني أقدر عاقبة عدم احترام القسم.

2) ومنهم من حملها على أن مدخولها فعل أقسم، على معنى أن المقسم عليه من الثبوت والوضوح لا يتطلب قسما عليه. كقول الواثق من نفسه عندما يخبر: بدون أن أحلف إن الأمر الفلاني حصل على الصفة التي حدثتكم بها.

3) ومنهم من اعتبر أن الكلام ينتهي عند "لا" كل ما رميتم به القرآن باطل ومنفي. ثم استأنف الكلام مؤكدا بقوله أقسم بمواقع النّجوم.

وقرأها الحسن البصري، فلأقسم، بدون ألف. أي لأنا أقسم الآن.

وكلها تخريجات لفظية، والمعنى على جميعها متقارب، وهو التأكيد بالقسم.

أما المقسم به، فهو مواقع النّجوم. ويفهم هذا التركيب على أن المقصود منازل النّجوم والمحل الخاص بكل نجم ومساره في آفاق السماء. ويمكن أن يفهم على معنى غروبها. وكلا الاحتمالين يلفت النّظر إلى النّظام البديع الذي سير عليه سبحانه نجوم السماء، مما يدل على كمال التقدير والحكمة في الخلق. كما يمكن فهم مواقع النّجوم على آيات القرآن التي تلقاها رسول الله ﷺ في فترات، كل فترة تدعى نجما.

ثم ضاعف ما يدل عليه القسم من التأكيد، بقوله: وإنه لقسم.. فقبل أن يأتي بالمقسم عليه أضاف تأكيدا بإظهار قيمة هذا القسم، مثبتا ومذكرا بأنه قسم عظيم بما تضمنه من دلالة على نظام الكون وتسييره. وأومأ في أثناء ذلك إلى جهل المخاطبين بقيمته، فقوله: لو تعلمون أي عظمته، ولكنكم في غفلة عن التدبر الذي يترتب عنه معرفة النّظام الذي خلق الله عليه نجوم السماء، المفضي إلى قبولكم للمقسم عليه بمجرد الإخبار به دون تأكيد.

77-إنه لقرآن كريم.

هذا هو المقسم عليه : أي إن القرآن تفرد من بين الكتب السماوية بأنه كريم، أكرم من جميع الكتب التي سبقته، من ناحية المضمون، إذ ما بلغ أي كتاب قبله ما تحقق فيه من تفصيل للعقيدة، ولأحكام العبادة والتعامل، وللآداب الاجتماعية والفردية، وبما قصه من قصص الاعتبار. ومن النّاحية اللفظية، فهو مميز بالصيغة التي صاغه الله بها، إذ بلغت القمة في الفصاحة والبيان، وطوعه ليفهمه النّاس في متعاقب مستوياتهم الحضارية على نحو لا يخل بالحقيقة.

78- في كتاب مكنون.

هذا هو الوصف الثاني والثالث للقرآن، روعي في التنويه به أنه كتاب، وأنه محفوظ مصون لا يقبل التغيير. وهذه الصيانة يحتمل أن يراد بها أنه مصون عند الله، عرف به جبريل لينقله إلى رسول الله ﷺ. فكل لفظ من ألفاظه محل عناية وحفظ من الله مطابق المطابقة الكاملة لأصله الذي عند الله، وهو الذي أذن في إبلاغه ألفاظا وتركيبا خاصا كلاما معجزا. كما تحتمل الصيانة أن يراد بها أن القرآن محفوظ بحفظ الله بعد إنزاله فلا يسقط منه شيء، ولا يدخله تحوير أو

نسيان. مستمر على الصفة التي نزل عليها. وهو أمر حقيق بأن يلفت إليه الأنظار باعتبار أن المجتمع الذي نزل فيه تغلب عليه الأمية.

79-لا يمسه إلا المطهرون.

لا يمسه إلا المطهرون...يمكن أن تفهم الآية على أنها وصف ثالث للقرآن الذي عند الله. أي إنه لكرامته وصيانته عند الله، لا يمسه إلا المطهرون، وهم الملائكة، الذين زكت نفوسهم وسمت سموا لا تخالطه شهوة ولا غفلة عن استحضار صلتهم بربهم. فالطهارة على هذا هي الطهارة النفسية. والقرآن هو القرآن الثابت في اللوح المحفوظ في السماء. فالآية على هذا لم تقصد بيان حكم مس القرآن من النّاس.

كما يمكن أن تفهم على أنها ترتيب حكم على ما سبق من التنويه بالقرآن، أي إنه لما كان القرآن على هذا المستوى فلا تمسوه إلا متطهرين حتى تكونوا أقرب من مستوى الملائكة الذين أذن لهم بالاطلاع عليه والقرب منه.

فهم جمهور الفقهاء أنه يجب أن على من يريد مس القرآن أن يكون على طهارة صغرى وكبرى وهو مذهب مالك والشافعي. وروي عن أبي حنيفة في أحد قوليه أنه يندب فقط وليس واجبا، وهذا هو قول الإمام أحمد بن حنبل ومذهب الظاهرية. و رخص للمتعلم وللمعلم أن يمس المصحف على غير وضوء، وذلك لما يلحق هؤلاء من المشقة بالبقاء على وضوء طيلة اشتغالهم بتعليمه. وقد يضيق الالتزام بالوضوء للمعلمين أمر تعليمه.

ومما يلتحق بهذا قضية قراءة القرآن عن ظهر قلب. فأما الطهارة الصغرى فليست شرطا بإجماع. يقرأ المسلم القرآن من حفظه إن كان غير جنب ولوكان على غير وضوء. وأما الطهارة الكبرى فالذي عليه الأئمة الثلاثة مالك وأبو حنيفة والشافعي أن المجنب لا يتلو القرآن من حفظه. وقال أحمد بن حنبل له ذلك. وأما الحائض والنفساء فلها تلاوة القرآن من حفظها عن الإمام أحمد واختلف النقل عن مالك.

80- تنزيل من رب العالمين.

الوصف الرابع للقرآن أنه منزل من عند الله. وفي وصفه بتنزيل عوض منزل تأكيد لهذا المعنى، ورد لمزاعم الطاعنين فيه. ولذلك استند إلى هذه الآية فقالوا جاء في التنزيل بالنظر إلى اختصاصه بهذا لفظا ومعنى.

81—82- أفبهذا الحديث...أنكم تكذبون.

الإشارة تحتمل ان تكون إلى القرآن، ويحتمل أن يراد بها ما ورد في هذه السورة. والسؤال سؤال إنكار عليهم وتوبيخ لهم من اتخاذهم القرآن بعد ما وصف من كونه

منزلا من عند الله العزيز، اتخاذهم له وصلة للمداهنة، وإظهار أنكم تكذبونه خوفا على حظوظكم الدنيوية ، واستبقاء لرئاستكم.

وتجعلون رزقكم....هذه الآية تتبع الإنكار السابق عليهم في اتخاذ القرآن وصلة للمداهنة بإنكار آخر عليهم في مقابلة ما يرزقهم الله به من فضله . أن تجعلوا شكره على نعمه تكذيبكم بقدرته على الرزق وعلى إعادة الحياة بعد الموت. وتكذيبكم أيضا بمنه في إنزال الغيث بأن إنزاله مرتبط بالأنواء الفاعلة.

كما يمكن فهمها على أنها مرتبطة بالآية السابقة أنكم مدهنون بالقرآن، وتجعلون رزقكم الذي هو معاشكم بسبب تكذيبكم للقرآن، مع أنكم في داخلكم موقنون بأنه من عند الله

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

روح : راحة ونعيم.

ريحان : شجر ذكي الرائحة تطيب به المجالس.

سلام : سلامة من كل مكروه.

المكذبون الضالون : أصحاب الشمال.

نزل : ما يقدم للضيف من القرى.

تصلية : إحراق وشواء.

الجحيم : النار المؤججة.

حق اليقين : أبلغ ما يتصور من الحق.

سبح : أمر بتعظيمه وتنزيهه.

بيان المعنى الإجمالي :

يحقق هذا المقطع أمرين :

الأمر الأول : عجز المنكرين للبعث عن التأثير في كل ما يتعلق بالروح.
الأمر الثاني : إثبات البعث.
يخاطب القرآن المنكرين للبعث فيحضهم متحديا لإظهار عجزهم. إذا بلغت الروح حلقوم العزيز عليكم وماتت أجزاؤه السفلى، وأنتم متحلقون حوله تنظرون إليه مستسلمين، ونحن في هذا الظرف أقرب إليه منكم بتأثيرنا ولكن لا تبصرون ما تقوم به ملائكتنا وهي تسل روحه من بدنه شيئا فشيئا، و لا تأثير لكم في هذا الظرف. فلو كنتم غير مجزيين عن أعمالكم لأبقيتم على حياته. إذ لا فائدة من خلقه ونفخ الروح فيه إذا كانت حياته تنتهي بموته. وحينئذ وروحه لم تفارقه تماما فأرجعوها إليه.
ينفذ في كل إنسان بعد خروج الروح منه ما هو أهل له. فإن كان من السابقين الأولين فإنه يجد جزاءه الراحة والفضل وجنة النّعيم. وأما إذا كان من الأخيار من أصحاب اليمين فهو من الفائزين مما يرضيك يا محمد فيمن كان من أمتك لشدة حرصه ﷺ على نجاة أمته. وأما إن كان من أصحاب الشمال وهم المكذبون بالبعث، الضالون عن معرفة الحق، فإنه يهيأ لهم الحميم الذي يشربون منه فيقطع أمعاءهم، وتشوي نار جهنم أجسامهم من كل جانب.
تختم السورة بتأكيد ما جاء فيها بأنه الحق الذي لا شك فيه. فتوجه لربك بتسبيحه وحمده وتنزيهه وتمجيده.

بيان المعنى العام :

83 -←85: فلولا إذا بلغت...ولكن لا تبصرون.

افتتحت الآية بكلمة " لولا" وهي حرف تحضيض . دفع للمخاطب لينجز مدخولها، على معنى أن المتكلم لا يمنع المخاطب من الإنجاز . ولكن يتحداه ليكشف عجزه. ولم يعقب لفظ "لولا" في الآية بما حض عليه ودفع إليه. ولكن قدم مشهدا تابع مراحله ورسمها بدقة، ليكون التحدي أوضح وأتم. فماهي تلكم المراحل؟
1) إذا بلغت الروح الحلقوم. المحتضر يعاني حشرجة الموت، وقد سلت روحه من عروقه وأجزاء بدنه شيئا فشيئا، فبردت، حتى وصلت إلى حلقومه.
2) أنتم أهله وأقرباؤه محلقون حوله، تنظرون إلى الموت يهدم كيانه شيئا فشيئا. اللوعة والأسى، والدموع والحسرة، والشعور بالعجز سيد الموقف. نظر بدون فعل.
3) في وقت عجزكم وأساكم وقربكم غير المؤثر، في ذلك الوقت نحن بإرادتنا وقدرتنا، وبما نرسله من ملائكة الموت نفعل ما نريد، ونحن أقرب إليه منكم قربا

تأثيريا لا قربا ماديا. ولكن حضورنا لا يمكن لكم أن تتشخصوه، وتعالينا أن تدركونا بأبصاركم.

86←87، فلولا إن كنتم...إن كنتم صادقين.

"لولا" كررت تأكيدا للأولى، وهذا التأكيد يجعل سياق الآية كلها التحضيض البالغ، إبرازا لعجزهم، وترتيب البعث على ذلك. فإذا فرضنا كما تعتقدون أنكم غير مدينين، أي مجزيين عما قمتم به في الدنيا، فالنتيجة أنه لا فائدة من نزع الروح من الجسد. فنزع الروح إنما هو مظهر لحكمتنا في الخلق، وأنه ليس خلق عبث: نخلقكم وننشئكم، وننفخ الروح فيكم، ثم ننزعها وانتهى الأمر. يكون هذا التصور تصورا ساذجا بعيدا عن الحكمة. فالحكمة التي هي صفتنا تأبى أن نخلق لمجرد الخلق، ولكن تظهر حكمتنا في البعث، ليكون الجزاء على ما قدمه الإنسان في حياته.

وجملة ترجعونها أي الروح. وبإرجاعها وقع التحدي المكرر، في الوقت الذي لم تفارق بعد الجسد نهائيا. فدل الكلام على أن عجزهم على إرجاع الروح للأجزاء التي تخلصت منها وبقيت ملتصقة بالبعض يدل على أنهم ليس لهم من أمر الروح أي شيء. فالروح في قبضتنا، نبعثها في الأجسام في الوقت الذي نريد فتحدث الحياة، وننزعها في الوقت الذي نشاء. وهذا التصرف يقوم دليلا على قدرتنا أن نبعثها في الأجسام من جديد. وإن كنتم صادقين تورك عليهم بعد أن وضح عجزهم.

88←94، -فأما إن كان من المقربين...وتصلية جحيم..

بعد الموت سيكون الجزاء، وقد اهتمت خاتمة السورة بتفصيله. وقسم المحتضرون إلى ما تقدم تقسيمه في السورة فائزون : سابقون، أصحاب اليمين. وهالكون أصحاب الشمال.

القسم الأول المقربون: السابقون الذين قربهم الله من أعلى منازل الكرامة، ولم يُقْصِهِمْ عن أي مرتبة من مراتب الكمال في الجزاء. زيادة على ما تقدم في السورة فجزاؤهم روح : الرحمة والسعة والفرح والفرج. وهذا تصريح بالجانب المعنوي، وأما الجانب المادي فقربه بأن العناية تبلغ إلى العناية حتى بالطيب، وأحسن ابن عطية فجعله علما على ما تنبسط له النفوس.

القسم الثاني : هم أصحاب اليمين، أصحاب الميمنة. اكتفى في التنويه بهم إلى الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ الحريص أشد الحرص على نجاة أمته، يقول الله له : سلام وطمأنينة لك منهم، فهم في منزلة ترضاها لهم. كما يمكن أن تفهم الآية على أن السلامة الحاصلة لأصحاب اليمين يُسرُّ بها من يطلع على كرامة أصحابها.

القسم الثالث : الهالكون أصحاب الشمال، فمن كان منهم فقد ألقى به في هذه الجماعة تكذيبه للبعث وللرسول وللقرآن، وضلاله عن الحق تبعا لذلك، إنه لما كذب الرسول والقرآن فقد اختار لنفسه الضلال والضياع. سيقدم ضيافة له يوم القيامة حميم يقطع أمعاءه ونار جهنم تشوي جسامه.

95- إن هذا لهو حق اليقين..فسبح باسم ربك العظيم.

كل ما سبق لك في هذه السورة هو اليقين الحق الذي لا يدخله شك، ولا يقبله. بسطناه لكم ليبلغ الوثوق بما نزل على محمد غاية ما يمكن أن يصل إليه اليقين. وبهذا يسرنا لكم الخروج من حيرة الشك وظلامه إلى الطمأنينة المستقرة.

- إنه أهل أن يحمد حق حمده، بما يسره لنا سبحانه، ويثنى على فضله أجمل الثناء، وينزه عن كل نقص أكمل التنزيه. فسبح أيها المؤمن منزها ربك وقل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

يوم الجمعة 14/03/07

سورة الحديد

عرفت بهذا الاسم في المصاحف وفي كتـب السـنة. لوقـوع لفـظ الحديـد فيهـا.وجـاء لفظ الحديد أيضا في سورة الكهف قـال تعـالى :آتـوني زبـر الحديـد، ولـم تسـم بـه للاعتناء بقصة أهل الكهف فيها. كمـا أن هدايـة الله للبشـر فـي هـذه السـورة ربطـت صناعة الحديد بالدفاع عـن الـدين مـن ناحيـة ولينتفعـوا بمـا أودع فيـه مـن متنـوع الإمكانات من ناحية أخرى. وقـد اختلـف فـي عـدها سـورة مكيـة أو مدنيـة اختلافـا كثيرا. ولا شك أن بعض آياتها مدني كقوله تعالى: لا يستوي مـنكم مـن أنفـق مـن قبـل الفتح وقاتل، وكذلك الآيات التي تتحدث عن المنـافقين. وعلـى القـول أنهـا مدنيـة فقـد نقلوا أنها السورة الخامسة التسعون نزلـت بعـد سـورة الزلـزال وقبـل سـورة القتـال. وهي السورة السابعة والخمسون حسب ترتيب المصحف.

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

بيان معاني الفاظ

سبح : نزه الله تنزيها عن كل ما لا يليق به وأولها الشريك.

الأمور:جميع الذوات، وأفعالها، وأقوالها.

بيان المعنى الإجمالي :

يذكر القرآن بهذه الحقيقة التي مضمونها أن كل الكائنات في السماوات وفي الأرض تسبح لله ممجدة له، خاضعة للتنظيم الذي أراده منها، ما كان تسبيحه بلسان الحال، وما كان تسبيحه بلسان المقال. وحق لها أن تسبحه وتنزهه فهو العزيز الذي تخضع كلها لسلطانه، ولا يحول دون تنفيذ أمره أي حائل. وهو الذي يتصرف فيها بحكمته. مُلك السماوات والأرض له وحده، يدلكم لذلك أنه هو الذي يمنح الحياة متى أراد لمن أراد، ويسلبها كذلك. هو الأول بإطلاق لا بالنسبة لشيء آخر، فهو الأزلي، و الآخر الذي ليس بعده شيء باعتبار أن الوجود له وصف ذاتي فهو الباقي الذي لا يلحقه فناء. وهو الظاهر بما نطقت به شواهد خلقه من وجوده وعلمه وحكمته وجميع صفاته الذاتية. وهو الباطن الذي قصرت مدارك البشر عن الإحاطة به علما. وهو العليم بكل شيء دق أوجل. فهو سبحانه يعلم علما تفصيليا دقيقا كل ما يدخل في باطن الأرض من أجسام أو أشعة، ويعلم ما يخرج من الأرض من نبات وشجر وثمر، وبخار، وما يعرج من الأرض إلى السماء من مواد وأعمال العباد. ولا تغيبون عن بصره في أي لحظة من اللحظات.

تفرد بتدبير ملك السماوات والأرض، وبعلمه بما يصنعه العباد ويحفظه عنده للجزاء. النّهار والليل بتدبيره فهو الذي أنشأهما، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية مما دبره الإنسان في عقله، وإن لم يصرح به.

بيان المعنى العام:

1—6-سبح لله ما في السماوات...وهو عليم بذات الصدور.

افتحت السورة بتقرير الحقيقة الكبرى التي يتبعها كل صلاح في الدنيا والآخرة. هي أن الكائنات جميعها معترفة بلسان حالها أو بلسان مقالها أن الله هو مبدعها ومسيرها ومنظم جميع شؤونها من بدايتها إلى أن ينتهي وجودها الدنيوي، ويتبعه بعث المكلفين للحساب. وأنه منزه عن كل نقص، وأهم ما يجب نفيه عن ذاته سبحانه، أن يكون له شريك. هذا التسبيح منبثق من الاعتراف بأنه العزيز الذي لا يعجزه شيء، المتصرف في كل جزئية من جزئيات الكون، وفي علاقة الكائنات ببعضها بالحكمة، فهو المتصف بالحكمة البالغة. إنها تسبيحة تنطلق بها الكائنات في مسارها إلى الغاية المحددة لها.

-اختص متفردا بملك السماوات والأرض، وهذه حقيقة لا يستطيع أن يماري فيها أحد. فغاية ما ادعاه المستكبرون من الجبابرة أنهم تفردوا بملك قطعة صغيرة من

الأرض وتسلطوا على سكانها وخيراتها. وهذا التسلط هو لأجل محدود. ولا يستطيع في الحقيقة إجراء ما يشاء مما يدعي أنه ملكه، فجريان الرياح، ونزول الأمطار، وما يحل بتلك الأرض من كائنات هي خارجة عن سلطانه قطعا. ثم أضاف ما يثبت هذا التفرد، بأن الحياة والموت بيده سبحانه فلا الإيجاد بالإحياء ولا الإعدام بالموت بيد أحد سواه. يعجز كل جبار من أن يحيي أي عزيز عليه تخطفه الموت، ولا يستطيع أن يطيل عمره ولو لحظة. وليست الحياة وحدها، فكل ما يحدث من الإيجاد أو الإعدام هو بقدرته سبحانه.

-تواصل السورة تعريف الخلائق بخالقها سبحانه، فذكرت أنه -1-العزيز -2-الحكيم -3-مالك السماوات والأرض -4-المحيي -5- المميت -6-القدير الذي لا يعجزه شيء. ثم بينت أنه -7- الأول -8 -الآخر. والمقصود بوصفه بالأولية الأولية المطلقة، فهو الأول بإطلاق لا بالنسبة لأي كائن كان، فأثبت هذا الوصف لله معنى حاصله أن وجوده لم يتقدمه عدم فهو الموجود الأزلي، لأن وجوده كان وجودا ذاتيا، أي ذاته توجب تصور وجوده، فلا يحتاج لمن يؤثر فيه الوجود. وكما وصف بالأول فهو أيضا الآخر الموجود الذي يبقى موجودا بدون نهاية تبعا لكون وجوده وجودا ذاتيا. وهو ما يعبر عنه بالبقاء الأبدي.

-9-وهو الظاهر الذي ظهرت دلائل وجوده وقدرته وحكمته فيما خلقه وأنجزه وأعدمه، فكلها شواهد ناطقة باستنادها إلى العزيز الحكيم. وهو الباطن -10- الذي لا تصل العقول ولا المدارك لإدراك كنهه ولا الحواس لتحديده.-11-العليم، وسع علمه الكبير والصغير، والموجود والمعدوم. فلا يخفى عليه شيء من ملكه.

- فصلت هذه الآية ما ورد في الآية الأولى "له ملك السماوات والأرض" مالكها لأنه هو الذي أوجدها من عدم وأعطاها نظامها. والستة أيام هي تقريب للحقيقة بما تسمح به اللغة. وإلا فإن خلق السماوات والأرض سابق على التحديد بالأيام، إذ الأيام لم تتحقق إلا بعد أن نظم سبحانه سير الأرض في المجموعة الشمسية. واستوى على العرش فنفذت إرادته وحكمته فيما خلق، وانقاد له العالم كله. وهو سبحانه العليم بكل شيء جلّه ودقّه. فكان نظام الكون تابعا لعلمه العميق فالقوانين التي تم بها الخلق والتسيير لا شيء للمصادفة فيها.

ثم كشف عن بعض جوانب هذه العلم الشامل، فهو سبحانه يعلم ما يدخل في باطن الأرض من مياه وأشعة ومن مناقذ يحدثها البشر وغير ذلك. كما يعلم سبحانه ما يخرج من الأرض من نبات وأشجار وبخار ونحو ذلك، ويعلم ما ينزل من السماء من ماء، ومن نيازك، ومن أشعة ، ومن هداية تحملها الملائكة لرسله ولأنبيائه.

وهو معكم...خصص التصريح بهذا المفهوم وإن كان مشمولا بالعلم، قصد أن ينبه البشر ليستحضروا أنهم في كل لحظة من لحظات حياتهم، وفي كل عمل يقومون به لا يغيبون عن الرقابة الإلهية. بصر دقيق بما ظهر من أعمالهم وبما تنطوي عليه نفوسهم من نوايا. فهو البصير وهو الاسم الثاني عشر.

-له ملك السماوات... تأكيد لفاتحة السورة وليبني على مفهومها وإلى الله ترجع الأمور. فهي تثبت أن ملك الله للسماوات و الأرض ملك يتبعه أن المخلوقات التي خلقها تعود إليه ليجزيها. وبهذه الغاية نرجح أن المراد بالأمور أفعال العباد العملية والقلبية. وتتضمن إثبات الخالقية لله فهو الخالق "13"والوحدانية "14"

- يولج الليل... يذكر الله بهذه الآية أن الإفناء ليس بتعاقب الليل والنهار على الأشياء باعتبارها فاعلة في هدم الكيانات، كما يعتقده الدهرية، والنافون للوجود الإلهي. إذ أن تعاقب الليل والنهار بفعله سبحانه. فهو المدبر لشؤون خلقه فدل هذا المقطع على اسمه الجليل " المدبر"15"-والاسم العلم أعرف المعارف " الله "16" المفتتح به قوله: سبح لله ما في السماوات والأرض.

وهو سبحانه المتفرد بعلم ما يجري في صدور عباده من خير أو شر.

ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُولَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الرؤوف : مشتقة من الرأفة التي أصلها التأثر بما يلحق الغير من ضر.

الرحيم: الرحمة محبة إيصال الخير للغير.

سبيل الله: الجهاد.

درجة : مستوى أرفع في الفضل.

الحسنى: خيرات الآخرة.

بيان المعنى الإجمالي:

اثبتوا على الإيمان، ولتسمح نفوسكم بالإنفاق مما يسر الله لكم جمعه من الأموال، إن ما بين أيديكم منها ملكها الحقيقي لله، قد استخلفكم للتصرف فيها لتنالوا من فضله الثواب على حسن تصرفكم، ويجزيكم عما قدمتم. وتفوزوا بالأجر الكبير إذا جمعتم بين الإيمان والبذل السخي فيما يرضي الله.

إنه ليس لكم ما يبرر عدم تقدمكم للإيمان، بعد ما بيناه لكم في الآيات السابقة، ومع أن الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم، ويذكركم بنعمه ويعرفكم بالإيمان وبما يترتب عليه من سعادة ومع أن الله غرس الإيمان في فطرتكم. اثبتوا على الإيمان لتفوزوا بتلكم الرتب إن كنتم مؤمنين. إنه سبحانه هو الذي تكفل بإنزال القرآن على عبده محمد، أدلة ظاهرة على صدقه، ومناهج للخير بينة. إنه بالقرآن يخرجكم من ظلمات الحيرة، والشك والضياع. ويفتح لكم الطرق الواضحة، ويسكب في قلوبكم النور الذي به تهتدون في عقيدتكم وفي سلوككم. اعتنى ربكم بكم لأنه المتصف بالرأفة على عباده فلا يرضى لهم الكفر والخسران، وهو رحيم بهم وينشر ألطافه. وحرضهم على الإنفاق في سبيل الله، وأنه لا عذر لمن يشح بإسهامه المالي في تأييد الإسلام. فإن الأموال التي بين أيديكم هي جزء من هذا الكون العظيم الذي سينتهي التصرف فيه لله وحده. ولا يكون لكم منه شيء. واعلموا أن الذين سبقوا إلى نصرة الدين بأموالهم وأنفسهم قبل فتح مكة، يوم كان المسلمون مستضعفين، هم أعظم منزلة عند الله من الذين التحقوا بهم من بعد الفتح وأنفقوا وجاهدوا. ولكل ممن بذل ماله وجاهد في سبيل الله قبل الفتح، وبعد الفتح إلى يوم القيامة، كلهم مؤهلون لنيل الوعد الكريم من الله، للفوز بمنازل الحسنى يوم القيامة. والله يعلم ما تنطوي عليه الأنفس، وما هو غائب في نيات البشر، فأخلصوا لله تفوزوا برضوانه.

بيان المعنى العام :

7- آمنوا بالله....لهم أجر كبير.

يمكن أن تفهم الآية على أنها خطاب لمن كان حول النّبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فالآية تأمرهم بالثبات على الإيمان الذي هم عليه. وذكرهم بذلك ليرتب عليه الأمر بالإنفاق الذي هو مقتضى الإيمان، ولأنه المناسب للوقت الذي نزلت فيه، وهو تجهيز الجيش في غزوة العسرة، غزوة تبوك.

و ذهب بعضهم إلى أن الآية مكية، فتحمل على أنها خطاب للناس جميعا وخاصة من لم يؤمن ليقبل على الإيمان وقد أقنعت السورة في آياتها الأولى صدق الإيمان بالله. وبناء على كونها مكية، يكون الأمر بالإنفاق مقصودا به المحاويج بما أسسه الإسلام من التعاون العام في نفوس متبعيه. تحويلا لهم عما كان عليه أهل الجاهلية من تخصيص الإنفاق في الشهوات والمفاخرة والقمار. وتحريضا على الإنفاق جاءت صياغة الآية بلفت أنظارهم إلى أن هذا الإنفاق حق عليهم، منبهة أن المال مال الله إذ هو خالقه، وهو الذي يسر أسباب الوصول إليه، على أنه قد استخلفهم في التصرف فيه. وشأن الخازن أن ينفذ أوامر صاحب المال فيما استأمنه عليه. ثم حرضهم من ناحية أخرى ببيان أنه وإن كان مال مال الله، فإنه رتب للذين جمعوا بين الإيمان والإنفاق الأجر الكبير؛ تفضلا منه. أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن مطرف عن أبيه، أنه انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ألهاكم التكاثر. قال يقول ابن آدم:مالي مالي. وهل لك من مالك إلاّ ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت[1].

8-وما لكم لا تؤمنون....إن كنتم مؤمنين.

افتتحت الآية بسؤال اجتمع فيه التوبيخ والتعجيب. لقد اجتمع من البيان السابق في الآيات التي افتتحت بها السورة، ومن عامل الفطرة ما يقتضي الإقبال على الإيمان. ومع ذلك فما لكم لا تؤمنون. ليس لكم والحالة هذه أي مبرر لعدم الإسراع بالإيمان، خاصة والرسول يدعوكم ويبين لكم، ويرفع الشبه، ويقيم البراهين العقلية. وكل ما يدعو إليه فيه الخير الفردي والاجتماعي. إن كفركم مع كل ذلك ليس له مبرر إلا العناد والمكابرة. ومن ناحية أخرى فإن ما يدعوكم إليه محمد هو ما أخذه الله عليكم من عهود، المتمثلة في الفطرة السوية، التي تنادي باطنيا إلى الإيمان الذي يكسبكم الطمأنينة، وإنه كلما ابتعدتم عن الإيمان تعمقت الحيرة.

إن ما يرفع من مقاماتكم ويسمو بكم إلى منازل القرب، ويحقق لكم حياة أسعد، ويصل بينكم وبين محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤلف بينكم وبين البشرية قاطبة، ويكشف لكم عن طريق الهدى فتسلكوه، فتكونون محل الرضا من الله لا يتسلط عليكم الإنكار ولا التوبيخ اللذين افتتحت بهما الآية . وتكونون أهلا لمنازل السعادة. إنكم تبلغون ذلك إن كنتم مؤمنين.

---

[1] الجامع الكبير ج4ص165 ح 2342

9- هو الذي ينزل...لرؤوف رحيم.

إن القرآن المنزل من عندنا على عبدنا محمد، أنزلناه ليكون أدلة وحججا واضحة، ليؤثر في عقولكم وفي قلوبكم، فيخرجكم من ظلام الحيرة، ويسير بكم في طريق النّور الواضح. تعرفون بما أنزل عليه مبدأكم ومعادكم، ورابطتكم بالكون. ورابطتكم بمبدع الكون. أتت تلكم العناية من الله لأنه رؤوف بكم لا يرضى لكم الكفر والضلال، ورحيم بكم يحب لكم الخير والهدى. ولذلك بعث لكم رسوله.

10-وما لكم ألا تنفقوا...بما تعملون خبير.

توبخ هذه الآية الذين أمسكوا أموالهم، ولم يبذلوا شيئا منها لمساعدة الجيش الإسلامي. تقول لهم أي عذر لكم في ذلك. إذا كنتم أمسكتم ولم تنفقوا حذرا من خروج شيء من أموالكم عنكم، فاعلموا أنكم مخطئون في تقديراتكم. إنكم أنتم وأموالكم والسماوات والأرض، الكل يعود ملكه لله وحده، وستفنون وتبقى أموالكم بعدكم.

لا يستوي منكم... هذه الآية تتضمن أمرين هامين :

أ:تفضيل بعض الخير على بعض، فقد فضلت الآية في الثواب الذين بذلوا أموالهم، قبل فتح مكة، يوم كان المسلمون مستضعفين؛ والشرك غالب على الجزيرة العربية، على الذين سمحوا بها بعد أن انتصر الإسلام وقوي أتباعه.

ب: فيها تحريض من ناحية أخرى ليلحق من لم يحصل له شرف السبق بمساعدة الدعوة الإسلامية في أول أمرها ليلحق بركب الخيرين.

تفتتح الآية بمفهوم أن الإنفاق في سبيل الله وإن كان معبرا عن قوة إيمان صاحبه، إذ هو يقدم ثواب الله على جمع المال، وحب المال فطري في النفس، إلا أن هذا الفضل على درجات. فمن أنفق قبل فتح مكة في سبيل الله وأيد الدعوة في ابتداء أمرها، وجهز من استطاع القتال وضعف عن مباشرته لعدم تمكنه من شراء السلاح، فجهزه بما هو في حاجة إليه منه. وقاتل لنصرة الدين ولتكون كلمة الله هي العليا، ولم يجبن خوفا من الموت. إنه مع هذه الظروف يكون الذين أنفقوا وجاهدوا، السابقين الأولين الذين فعلوا ما فعلوا نصرا للدين وحبا في الإسلام، بما يكشف أنهم اختاروا مالا يجلب لهم أي نفع دنيوي، هؤلاء هم أرفع درجة من الذي أنفقوا وجاهدوا في سبيل الله بعد أن انتصر الإسلام وعلت رايته وتم فتح مكة. وليس تفضيل السابقين عليهم برافع عنهم الفضل.

وصرحت الآية بهذا المفهوم بقوله: " وكلا وعد الله الحسنى " إن الله وعد السابقين بالإسهام قبل فتح مكة، الحسنى المنزلة الرفيعة عنده في الآخرة. كما وعد الذين

أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا الحسنى أيضا. وفي ذلك تحريض على ولوج باب الخير، وأنه من فاته الخير في زمان، فعليه أن يحرص على فعله بعد ذلك. والله يعلم ما تنطوي عليه النّوايا، وما يحمل المنفق على الإنفاق، وما يحمل المجاهد للإسهام في الدفاع عن الدين. فيجزي سبحانه كل فرد تبعا لخلوص النّية.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

القرض الحسن: القرض المبرأ من النّقائص.

كريم : النّفيس في جنسه.

البشرى: الإخبار بما يسر المخبر.

انظرونا: لا تعجلوا حتى نلتحق بكم.

نقتبس : ننتفع من نوركم.

ضرب السور: وضعه، بمعنى حجز.

قبله : الجهة المقابلة.

التربص : الانتظار.

غركم : التغرير إظهار الضار بصورة النّافع تمويها.

الغرور : الشيطان.

الفدية : ما يدفعه الأسير ليفك نفسه من الأسر.

المأوى : المكان الذي يرجع إليه.

المولى : السيد الذي يدافع عن تابعه.

بيان المعنى الإجمالي :

من هذا الذي تطهرت نفسه من الشح، وأقبل على مواطن البر التي دعا إليها الله؟ ينفق فيها عن نفس سمحة بالإنفاق. هذا الذي سيجد جزاء ما أنفقه جزاء مضاعفا، ويتفضل عليه رب العزة بأجر كريم. ينال أجره يوم تشاهد المؤمنين والمؤمنات وقد ميزهم ربهم في عرصات القيامة، بنور يتحرك بحركتهم من أمامهم وعن جوانبهم. ويسمعون هاتفا يسرع إليهم بالبشارة ويقول لهم: كتب الله لكم جنات تجري من تحتها الأنهار تقيمون فيها إقامة دائمة لا تنقطع. ذلك الثواب هو الفوز العظيم، الذي يتنافس فيه المتنافسون.

اليوم الذي ترى فيه المؤمنين يحيط بهم النّور ويسير معهم، هو اليوم الذي ترى فيه المنافقين على أسوأ حال. يقول رجالهم ونساؤهم للذين آمنوا تمهلوا قليلاً حتى نلحق بكم نقتبس من الأنوار التي تصحبكم، فإنه قد اشتد علينا وقع الظلام وتملكتنا الحيرة. ويسمعون صوتا يرشدهم متهكما بهم يقول لهم : ارجعوا إلى الوراء تطلبا لمثل النّور الذي رزقناه. وبمجرد ما يلتفتون يتم الفصل بين المؤمنين والمنافقين، بسور له باب باطن السور الذي هو باطن الباب فيه طريق الجنة، وظاهره الذي هو من جهة المنافقين فيه العذاب. ويضغط عليهم الشقاء فينادون المؤمنين بأعلى صوتهم قائلين : ألم نكن معكم في مسيرتنا عند خروجنا من القبور، ألم نكن معكم في الدنيا نصلي معكم، ونحضر مجالسكم، ونتعامل معكم في مختلف أوجه النّشاط الاجتماعي والاقتصادي ؟ اجابهم المؤمنون، بلى فعلا كنتم معنا في الظاهر، ولكن قلوبكم وعواطفكم كانت على خلافنا. اجتمع فيكم أربعة أمور مهلكة :

1) فتنتم أنفسكم، فكلما جاءكم ما يقي إيمانكم ويهديكم قابلتموه بالرفض، ووازنتم بين الإيمان وحظوظكم من الرئاسة في الدنيا فغلبتم العاجلة على الباقية.

2) واصلتم انتظار حلول الشر والهزيمة والاختلاف في صفوف المؤمنين، وعملتم على تحقيق ذلك بترويج الأكاذيب والأراجيف.

3) وأحييتم الشك في عقولكم، فكلما جاءت الآيات البينة لتزيل ما علق بكم من الريب، عملتم على طرد الحق، وافتراض الفروض التي تثبت الشك.

4) تبع بغضكم للإسلام وأهله، أن عمرت قلوبكم بالأماني: أن ينهزم المسلمون، وتكون السيادة لكم، وأن يظهر النّفاق والكفر كقوة قائدة.

وواصلتم حياتكم على هذه المخازي إلى اليوم الأخير من حياتكم، فغركم الشيطان بتسويله لكم أن تنتظروا. وأن في العمر فسحة.

إنه في هذا اليوم الذي يظهر فيه الحق والحــق وحــده. لــيس لكــم أي منقــذ، فــلا تقبــل منكم فدية تفدون بها أنفسكم، لو كان ذلك فــي الإمكــان، ولكــنكم لا تملكــون شــيئا مــن الخير السابق تقدمونه فديــة لكــم مــن النّــار، لا أنــتم ولا إخــوانكم الكفــرة. المرجــع الوحيد الذي هيء لكم هو النّار. والنار تتــولى الــدفاع عــنكم و تقــول دومــا: هــل مــن مزيد من سكاني لأحطمهم حطما. ولا مصير أسوأ من المصير إلى جهنم.

بيان المعنى العام :

11-من ذا الذي...وله أجر كريم.

افتتحت الآية باستفهام "من" والمقصود به التحــريض علــى مــدخولها؛ مــن هــذا الــذي يتقدم فيقرض الله، فيقدم قرضا يدخره عنــد الله ؟ووصــف القــرض بالحســن، أي الــذي كان عن طيب نفس و لا تتعلــق بــه نفســه، ولا يبحــث عــن تــاريخ إرجاعــه، و لــم يصحبه أذى للمنفق عليه، لأن المقصود بالقرض الحســن مــا أنفــق فــي المبــرات التــي شرعها الله ودعا إليها. ويتأكد التحريض بمــا ذكــره فــي جزائــه: أن الله يضــاعفه لــه، وأقل مضاعفة عشر مرات وأكثرها ســبعمائة ضــعف وأكثــر. لقولــه تعــالى: (مــن ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيــرة)[1] وهــذا الجــزاء المضــاعف مقدر عند الله. ويستحق أجرا كريما يصحب الجزاء بالرضا والإقبال.

12-يوم ترى المؤمنين...هو الفوز العظيم.

افتتحت الآية بلفظ " يوم" وهو متعلق بقوله تعالى في الآيــة الســابقة "ولــه أجــر كــريم " أي إن إكرامه بأجره يوم ترى....والمخاطب بقوله "ترى" كــل مــن يصــح منــه الرؤيــة البصرية. ينالون أجرهم الكريم، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم.

يبدأ التمييز بين السعداء والأشقياء فــي عرصــات القيامــة قبــل الحســاب وقبــل الحكــم بالجزاء. تشاهد المؤمنين والمؤمنات، يصحبهم نور يتحــرك بتحــركهم، يحــيط بهــم مــن أمامهم، وعن أيمانهم، والظاهر أن المقصــود مــن الأيمــان مــا حــولهم مــن الجهــات. وخصت الأيمان تشريفا لها، ولأنهم عرفوا بأنهم أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة.

بشراكم اليوم... يهتف بهم صوت يطمئنهم ويــزف لهــم الخبــر الســار يفتتحــه بقولــه: بشراكم. لكم البشرى. وتصوروا ما يتركه هــذا الخبــر فــي نفــوس ســامعيه فــي ذلكــم الموقف. ويواصل تفصيل البشرى: 1) جنــات تجــري مــن تحتهــا الأنهــار.2) إقــامتكم فيها إقامة دائمة لا تنقطع ولا تبرحــون منــازل كــرامتكم.3) ويحتمــل أن يكــون قــولهم "ذلك الفوز" العظيم من تمام الهاتف الذي يهتف بهم. علــى أنــه تنويــه بــأن مــا يلقونــه

---

[1] سورة البقرة آية 245

فوز ونجاح عظيم ليس له حد. كما يحتمل أن تكون هذه الجملة ذلك الفوز العظيم من تعليق القرآن على جزائهم. جعلني الله وإياكم ممن يخاطبون بهذه البشارة.

13-14- يوم يقول المنافقون...وغركم بالله الغرور.

بعد الصورة المشرقة المكرمة للمؤمنين، يسجل القرآن الوضع الذي يكون عليه المنافقون. يبدأ المشهد مظهرا أن المؤمنين واصلوا سيرهم يهديهم النور من بين أيديهم ومن جوانبهم. ويجد المنافقون أنفسهم، وقد انفصل عنهم المؤمنون وسبقوهم فتركوهم وراءهم. فينادون المؤمنين قائلين: لا تسرعوا وانتظرونا حتى نستطيع أن نقتبس من نوركم لنعرف ما تحت أقدامنا وما هو أمامنا. فالظلمة التي نحن فيها ألقت بنا في الحيرة.

يسمع المنافقون صوتا يقول لهم مستهزئا بهم : ارجعوا إلى الوراء فاطلبوا النور هناك. ويطمعون فيشتد الفصل بينهم وبين المؤمنين. ويحدث الله سورا حاجزا بين الفريقين، لهذا السور باب، من يلج منه يجد الرحمة والتكريم، ومن يبقى وراءه يجد مقدمات العذاب من ظاهره الذي يشاهدونه، يجدون في قبله الجهة المقابلة لهم العذاب، عذاب جهنم.

تتضاعف حيرة المنافقين، كيف كانوا قريبين من المؤمنين يشاهدون النور يسير بين أيديهم وبأيمانهم، فإذا بهم ينفصلون عنهم انفصالا شديدا بسور يقابلهم العذاب منه. فينادون المؤمنين يطلبون منهم ما يزيل حيرتهم، قائلين لهم : ألم نكن معكم خرجنا جميعا إلى المحشر، وكنا مختلطين بكم في الدنيا؟ ألم نكن نصلي كما تصلون، ونقيم أركان الإسلام معكم، ولم يكن أي فارق بيننا وبينكم في الحياة الاجتماعية ؟

يجيبهم المؤمنون، بلى ! كنتم معنا. ثم دققوا أن الجزاء الأخروي لا يرتبط بالصور الظاهرة ولكن بالمقاصد والنيات. وذكروا لهم أربعة أصول تفرق بينهم وتبعدهم عن منهج المؤمنين. هي فتنة أنفسهم، والتربص بالمؤمنين وانتظار أن تدور عليهم الدائرة، والشك في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، والاغترار بما استقر في عواطفهم من بغض.

1) **ولكنكم فتنتم أنفسكم**: أدخلتم الفتنة على أنفسكم. تسمعون حديث الرسول وآيات القرآن تزلزل تعصبكم، وتصلبكم، فتمحون آثارها بالتصميم على التكذيب، وترجيح حظوظ الدنيا، وخوفكم من ذهاب رئاستكم. واعتمدتم معيارا واحدا حكمتموه في أعمالكم، بغض الإسلام.

2) تربصتم. انتظرتم أن تدور الدائرة على المسلمين، وكنتم على استعداد لمساعدة من ينقض على الأمة، لتكون القاضية على الدين وأهله. كما كنتم تروجون الأكاذيب لبث الفتنة وتقسيم الوحدة، منتظرين آثار تصديق ما تروجون.

3) كلما تأيد الرسول ﷺ بالوحي، وكلما ظهرت معجزات تطمئن المؤمنين وتثبتهم، كانت كراهيتكم و أراجيفكم تزعزع ثقتكم في الحق المشاهد، فتأصل الشك في قلوبكم. وكذبتم أبصاركم.

4) كانت خيالاتكم تعطيكم صورا، ترددونها في بواطنكم، حتى تنقلب إلى سلسلة من الأماني: أن ينهزم الإسلام، وأن ينفض النّاس من حوله، وأن تكون لكم السيادة في المستقبل دون الرسول والمؤمنين. كقولهم: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)[1]

حتى جاء أمر الله... واصلتم مسيرتكم على الضلال والكفر والترصد لما يهلك المسلمين ويمزق وحدتهم حتى الموت. وكلما نسج خيالكم أمنية فخابت، تجددت لكم أمنية أخرى إلى أن وافتكم المنية، دون أن تعتبروا وتعودوا للإيمان الذي فتح ذراعيه لكم لينقذكم مما يغلي في بواطنكم من الحقد وما تتعذبون به من التناقض بين ظواهركم وبواطنكم. وهذه الآية توقظ المؤمنين عند كثير من النّظار ليعتبروا بما جاء فيها، ليسرعوا بالتوبة ولا يبطئوا ويسوفوا، شأن المنافقين الذين باغتهم الموت وهم على أسوأ حال.

وغركم بالله... غركم الشيطان وأظهر لكم ما فيه شقاؤكم بمظهر الخير، وخيل لكم أن ما جمعتموه من مباهج الحياة الدنيا أمارة رضا من الله.

15-فاليوم لا يؤخذ منكم...وبئس المصير.

خاتمة جواب المؤمنين، في الظاهر، لنداء المنافقين. في هذا اليوم الذي كنتم به تكذبون، قد نفذ الحكم المقرر فيكم الذي لا يقبل نقضا ولا مثنوية. تتفقون أنتم والكافرين، باعتبار أن الجامع بينكم هو الكفر الذي تخفونه، والكفر الذي يظهره إخوانكم الكفرة في الدنيا، لا يمكنكم أن تقدموا أي فدية تفديكم من العذاب، لا صلتكم بنا أيام الحياة الدنيا، ولا أي شيء مما قدمتموه مما ظاهره أنه معروف، ولكنه هباء منثور لا قيمة له لصدوره عن طواياكم الفاسدة. المصير الذي أنتم صائرون إليه مصير واحد هو النّار، فهي الدار التي أعدها الله لكم. وهي التي تضمكم ولا نصير لكم إلا النّار والنار وحدها. وما أسوأه من مصير هيأتم أنفسكم له.

---

[1] سورة المنافقون آية 8

۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

ألم يأن : ألم يحضر الوقت. ألم يحن.

تخشع : الخشوع السكون والتذلل.

الأمد : الغاية من زمان أو مكان.

فاسقون: كافرون.

الآيات :الدلائل.

الصديق: مبالغة في المصدق. لتصديقهم بالحق في كل زمان ومكان.

بيان المعنى الإجمالي :

ألم يحن الوقت الذي يسرع فيه بعض المؤمنين الذين خفت في قلوبهم نور الإيمان والعمل بما جاء به الرسول ﷺ، إلى اليقظة وتوهج نور الإيمان فيهم والعمل بأحكامه؟ حتى لا يكون حالهم كحال كثير من أهل الكتاب تراخوا عن دينهم شيئا فشيئا، إلى أن ألفوا مخالفته، فأصبحت قلوبهم قاسية لا تتأثر بالعاقبة ولا تقرأ لها حسابا. وانتهى الأمر بهم إلى أن كثيرا منهم صاروا كافرين. وكما يحيي الله الأرض بعد موتها إذا انقطع عنها ماء السماء فكذلك الأرواح تموت إذا انقطعت عن الهدى الإلهي. فافهموا فقد بينا لكم بالدلائل الواضحة اليقينية مسلك الفوز إن كانت لكم عقول تتدبرون بها. وعقب ذلك بمظهر ينبئ عن عمق التأثر بالدين هذا المظهر يتمثل في الإسهام السمح بالصدقة وما أعد لهم من ثواب مضاعف متميز بأن الله يتقبله، ويلغي ما تحمله نفس المتصدق عليه من اعتراف وتقدير للمعطي، ويعتبر مقدما لذاته العلية للمتصدق أجر كريم في بابه.

ثم نوه القرآن بالذين آمنوا بالله وجميع رسله، وهذا الوصف لا يتحقق بعد بعثة محمد صلى الله عليه إلا في أمته، جعلهم الله وحدهم المتصفين بكمال التصديق للحق. وهم شهداء عند ربهم لهم مرتبة الشهادة على النّاس، أو لهم جزاء الذين ماتوا في سبيل الله. وحقق أن لهم أجرهم الخاص بهم الذي لا يساوي أجور غيرهم ولهم نور خاص أيضا يُعرف بهم.

وفي المقابل فإن الذين كفروا بالله ورسله يستحقون جزاء كفرهم أن الله ألف بينهم وبين الجحيم ألفة لا تنقطع، فلا يخرجون منها.

بيان المعنى العام :

16- ألم يأن للذين آمنوا...وكثير منهم فاسقون.

هذا وضع عالجه القرآن حسب طريقته في الهداية والإرشاد. وضع قصر فيه بعضهم عن المستوى الذي كان يعمل النّبي ﷺ أن يكونوا عليه، من خشية الله واستحضار جلاله، وأن لا يحجبهم نشاطهم الدنيوي عن مراقبة الله عز وجل والحذر من الغفلة عن المصير.

والآية حسب ما رجحه كثير من المفسرين نزلت في مكة. وأمر النّبي ﷺ كتبة الوحي أن يضعوها في هذا المكان من السورة بعد زمن من نزولها. وذلك لما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ ، وكان من السابقين للدخول في الإسلام، قال : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق إلى قوله : وكثير منهم فاسقون إلا أربع سنين**) فالمراد بالذين آمنوا الذين وقع تذكيرهم ولومهم واستبطاء أن يلازم قلوبهم الخشوع، بعض المؤمنين وليس جميعهم. يخاطب الله هؤلاء دون تعيين تبعا لقصد القرآن الإصلاح لا التشهير، ليستيقظوا وليعلموا أنهم بمنزلة من يريد الله لهم أن يكونوا على مستوى من الكمال الذي يعطي المثل الصالح لمن يأتي بعدهم. فقد اختارهم الله ليكونوا حملة الدين قولا وعملا، و تلقوا أنوار النّبوة مباشرة. وأثنى الله عليهم فقال: (**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**)[1].

ألم يحن الوقت الذي يستيقظ فيه هؤلاء فتخشع قلوبهم وتطمئن مداركهم، بسبب ذكر الله. وهو ما يذكرهم به النّبي ﷺ مما يرقق القلوب، ويجدد ربطها بخالقها، وبسبب ما يتنزل على رسوله من القرآن. وهذه الخشية والخضوع يفضيان بهم إلى الطاعة والامتثال. ألم يحن الوقت ليخالفوا ما كان عليه الذين أوتوا الكتاب من قبلهم، اليهود

---

[1] سورة الفتح آية 29

والنصارى، الذين بعد ما بينهم وما بين نزول الوحي، فأقبلوا على الدنيا بشغف كبير، وواصلوا الابتعاد عن المنهج والأحكام التي قررتها رسلهم حتى تراكم عليهم آثار العصيان، وألفوا البعد عن استحضار رقابة الله عليهم، فأصبحت قلوبهم قاسية، تغير أحكام الله وتستهين بتطبيقها دون أن تشعر بالخوف من سخط الله. غيروا نصوص الوحي الذي عهد إليهم بحفظه واشتروا به ثمنا قليلا؛ وانتهى بهم الأمر إلى أن كثيرا منهم خرجوا من الإيمان إلى الكفر. فالآية تحذر الذين حصل منهم بعض التهاون إلى اليقظة، والعودة بأفكارهم وأرواحهم إلى القرآن.

17- اعلموا أن الله...لعلكم تعقلون.

افتتحت الآية بهذا التنبيه القوي "اعلموا" يشير به إلى الحصانة مما وقع فيه أهل الكتاب من الانحراف حتى قست قلوبهم، وكفر كثير منهم. وضرب لهم مثلا بحال الأرض التي طال أمد الجفاف عليها فماتت، ثم يحييها الله بالمطر. وكذلك القلوب إذا لم يتعاهدها الوحي، أو غفلت عن اتصالها بهدي الله، فإنها تقسو إلى أن تموت، ولا تعود لها نضارتها وحياتها إلا بالنهل من معين الوحي الإلهي الذي ختم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. ولما كان المقصود التنظير بين أثر الوحي في القلوب، وبين أثر ماء السماء في الأرض، ختمت الآية بقوله تعالى : قد بينا لكم الآيات... إذ ليس المراد قطعا بينات إحياء الأرض بماء المطر، ولكن تقريبُ المعقول " إحياء النفوس " بالمحسوس "إحياء الأرض " يؤكد ذلك تحريك العقل للاعتبار لعلكم تعقلون، رجاء أن تدركوا بعقولكم ما يجب عليكم من عدم قطع الصلة بكتاب ربكم الذي يحييكم.

18-إن المصدقين...ولهم أجر كريم.

من المقاصد الأساسية في هذه السورة الدعوة إلى الإنفاق. فقد ذكر في طالعتها تفرد الله بملك السماوات والأرض في 5/2- ثم دعا إلى الإنفاق في سبيل الله والتخلص من داء الشح في الآيات 11/10/7- فجاءت هذه الآية مؤكدة لهذه القيمة داعية إليها منوهة بها واعدة عليها مضاعفة الأجر.

أكدت الآية أن المتصدقين من الرجال، والمتصدقات من النساء، والمقرضين لله قرضا حسنا يضاعف لهم.....فتم التأكيد بالتصريح بالمتصدقات مع المتصدقين، مع أن المعلوم في العربية أن صيغة جمع المذكر تشمل الإناث في كل ما ليس للجنس فيه تأثير. وذلك لإبراز دور المرأة في الإسلام وإسهامها في البذل وفي كل ما يهم المواساة في المجتمع. بعد ما كانت لا تتحكم في أموالها، ولا تنال نصيبها من

الميراث إلا قليلا. ثم إن بقية الآية وما أشارت إليه من رفع قيمة التصدق إلى مستوى قرض الله قرضا حسنا : أن يتصدق من الطيب الذي يحبه، وأن تطوع به نفسه رغبة فيما عند الله من القبول والثواب،على ما تبين في الآية11-

19- والذين آمنوا بالله...أولئك أصحاب الجحيم.

لما نوه القرآن بشأن المصدقين، ومن المؤمنين من لا يملك ما يتصدق به، ويود أن لو رزقه الله ما يتصدق به تبعا لنور الإيمان الذي يشع في عقله وروحه، نوه القرآن أيضا بالذين آمنوا بالله ورسله، وهم أتباع محمد عليه الصلاة والسلام لأنهم هم الذين آمنوا بالحق في كل زمان ومن أي كان. فالمسلمون يؤمنون بمحمد وبمن سبقه من رسل الله تفصيلا فيما فصل فيه القرآن وإجمالا فيما أجمله. وأما أهل الكتاب فقد أعماهم التعصب، فاليهود قصروا الرسالة على موسى وكفروا بمن جاء بعده، والنصارى كفروا بمحمد، والصابئة كفروا بعيسى وبمحمد. فالذين رسخ في عقولهم الإيمان مرتبطا بالحق لا بزمن ولا إنسان، واحترموا كل من جاء بالحق من عند الله، فسموا إلى هذه المرتبة التي أراد الله أن تبلغها البشرية برسالة الإسلام. عرف الله قيمتهم بأنهم هم الموسومون بأكمل أنواع التصديق.

والشهداء....يحتمل العطف ثلاثة محامل :

1) أن يكون عطفا على الصديقين، على معنى أن الله جمع لهم بين وصفين كونهم صديقين وكونهم شهداء على الأمم السابقة. أو على معنى أن مرتبتهم هي كمرتبة شهداء من مضى من الأمم.

2) أن يكون لفظ الشهداء لا تعلق له بالذين آمنوا... بل هو كلام مستأنف جديد، أخبر عن الشهاء، بأن لهم أجرهم...فهو إخبار عن ثواب الشهداء. ويكون الوقف عند قوله: الصديقون.

على أي احتمال حملت الآية فالخبر تم بقوله: **لهم أجرهم ونورهم**، ومعنى عند ربهم أنه مستقر ثابت عند من لا تضيع الأجور عنده، الكريم الذي يضاعف الأجور. وفي إضافة الأجر والنور إليهم ما يدل على أن ما يلقونه من الجزاء وما يمكنهم ربهم من النّور، هو شيء خاص بهم، فوق ما يتصوره المتصورون، إذ لا مثل له.

والذين كفروا.... تصريح بالفرق بين المؤمنين بالله ورسله... وبين من كفر بما آمن به المؤمنون. يظهر هذا الفرق في خاتمة كل فريق. فهؤلاء الكفرة استحقوا بسبب كفرهم أنهم عقدوا ملازمة بينهم وبين الجحيم، فلا يخرجون من النّار .

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الغرور: الخديعة.

العرض : السعة.

مصيبة : حدث.

نبرأها : خلقها.

لكيلا تأسوا : لتسلموا ولا تكترثوا.

بيان المعنى الإجمالي :

اعلموا ما هو حق وأعرضوا عما هو زائف. الحياة الدنيا بما فيها من مباهج تدغدغ الشهوات والعواطف، من اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر برجحان ما عند الإنسان من خيرات، وحب الجمع لأكثر ما يمكن من الأموال والأولاد. كل ذلك أمور زائفة والتعلق بها وحدها مُرْدٍ للإنسان. فما أي نعيم من أنواع نعيمها بباق مستمر، وكل تجاوز في نيله بطرق غير مشروعة يعد صاحبه لعذاب يتجاوز أضعاف ما استمتع به.

متاع الحياة الدنيا مثله : مثل غيث حييت به الأرض واخضر أديمها، وينظر إليه الزراع فيعظم إعجابهم به، ثم ينمو فيكتمل، ثم يجري اليبس والصفرة في أجزائه، إلى أن ييبس فيتحطم. وكذلك تذهب أعمال الكفرة المعرضين عن ذكر الآخرة

هباء، ولا يجدون يوم القيامة إلا أشد العذاب. وفي المقابل فإن المؤمنين يجدون يوم القيامة تطهيرا لهم من ذنوبهم يغفرها الله لهم، ثم يحل عليهم رضوانه، وهي السعادة العظمى. ومن تعمق في معرفة الدنيا فإنه ينتهي إلى الاقتناع بأنها متعة خادعة ارتبط بها الفناء.

أسرعوا لنيل مغفرة ربكم التي تنقيكم من الآثام، وللفوز بجنة لا يعلم سعتها إلا الله أبعادها كالسماوات والأرض مجتمعة. هيأها الله للذين جمعوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله. فكل أمة آمنت بالله وبرسولها تدخل في هذا الوعد. وتتميز أمة محمد بأنها الأمة الوحيدة التي جمعت إلى الإيمان بالله واحدا لا شريك له متصفا بصفات الكمال، الإيمان بجميع الرسل الذين بعثهم الله إلى سكان الأرض وخاتمتهم محمد ﷺ. ما ذكر من المغفرة، ومن الجنة، هو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. والله صاحب الفضل العظيم الذي لا يحد.

اعلموا أن كل ما يحدث في الكون وكل ما يتأثر به الإنسان من خير أو نقمة، هو مثبت من الأزل في علم الله من قبل أن تخلق الكائنات التي يجري عليها ما علمه الله أزلا. إن إحاطة علمه سبحانه بكل ما يحدث في الكون أمر يسير، لأنه هو الذي خلق الأسباب والمسببات. وبهذا يكون موقفكم مما حصلتم عليه من الرغبات، وما فاتكم منها، أنكم تشكرون الله على ما يسره لكم من خير، وتصبرون على ما أصابكم من ضر. ولا يضغط عليكم ما حرمتم منه، ولا يبلغ بكم الزهو بما رزقتم مبلغ نسيان فضل الله عليكم.

إن من لا يسند الفضل لله في كل ما رزقه من خير وأنعم به عليه، وينسبه لمواهبه، يصاب بداء الكبر والخيلاء، والافتخار بما أوتي ناسبا له لنفسه، ويقترن بهذا الإحساس أن الله يبغضه، فيحرمه من ألطافه.

إن المنافقين الذين يبخلون بأموالهم عن مساعدة فقراء المؤمنين، وتجهيز الجيوش، ويضمون إلى فسادهم هذا خبث نابع من بغضهم للدين، فيحاولون منع النّاس من الخيرين من النّاس أن يسهموا بأموالهم من أجل مصلحة الجماعة الإسلامية، الله غني عنهم وعن إعانتهم وسينصر دينه، ويكبت المنافقين. فهو الغني عن النّاس، وهو الحميد الذي يحمد ما يقدمه النّاس من خير ويجزيهم، وهو الحقيق بالحمد.

بيان المعنى العام :

20-اعلموا أنما الحياة...متاع الغرور.

افتتحت هذه الآية كما افتتحت الآية السابقة 17 بقوله: اعلموا – وهذه الصيغة تحرك المخاطب للتأمل وتنبهه من أول الأمر إلى أمر خفي عليه هو محط ما سيرد بعد الأمر ب " اعلموا "

تدعو الآية المؤمنين إلى أن يرفعوا ما يحجب عن بصائرهم التصور الصحيح، الذي غشته الشهوات، وميل النفس إلى السهولة. حتى يعدلوا تقييمهم للأشياء وسلوكهم تعديلا ينفعهم في الدنيا والآخرة.

أنما الحياة الدنيا لعب ولهو-

1)اللعب :جبلت النفس على حب السهولة، هذه السهولة التي تقعد بصاحبها عن الكمالات، وبالمجتمع عن الرقي، ومنازل العزة. يُغلِبُ حياة اللعب على حياة الجد. واللعب تراخ عن تحمل المسؤولية وبعد عن العمل. والجد استحضار المرء لمسؤوليته، فهو يعمل ويدرك أنه في جميع ما يقوم به من أعمال مسؤول. وتبعا لاتخاذ الجد أساسا في الحياة تتفاوت مقامات الشعوب، وما يحصل لهم من خيرات. كل إنسان لا بد أن يؤدي بعضا من حياته في الجد، وإلا لما استطاع أن يوفر ما يقيم حياته هو ومن هم تحت رعايته. ولكن المهم هو الصفة الغالبة على الحياة ؛ من تقديم الراحة والعبث، أو تقديم جودة الإنتاج، ومراعاة الفرد أنه مستخلف في هذا الكون ليسأل، ولا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن عمره فيم أفناه. واللعب هو الغالب على توجهات الأطفال لضعف مداركهم عن النظر البعيد، ولأنهم باللعب يتعلمون ما تزخر به الحياة من موجودات ومن طرق للانتفاع بها. فمن الطفولة يكون لهم زادا مما أخذوه من اللعب. وليس اللعب بالنسبة للراشدين مظهر نقص، فإن النفس إذا كلت من الجد، يكون اللعب ضروريا لها بمقدار ما تستجم به نشاطها. فاللعب الذي هونت الآية من قيمته هو اللعب الغالب.

2)اللهو : ما يقوم به الإنسان ليدخل على ذاته، اللذة البدنية أو الجمالية والذوقية. فيكون اللهو باستماع الصوت الحسن، وآلات الموسيقى، وما يصحب صلة الذكر بالأنثى، ويغلب اللهو على الشباب في طور التحول من الصبا إلى طور النضج. ولا يجتمع اللهو والجد، والمحذر منه هو ما غلب على الإنسان في نشاطه.

3)الزينة: هي السعي ليكون المظهر جميلا في اللباس أو في السكن أو في المركوب. والاقتصاد في ذلك محبوب وغير منهي عنه. وهو يدل على أن التركيب النفسي لصاحبه معتدل. ولكن إذا توجه القصد إليه بإفراط فإنه يصحبه دائما التبذير، و صرف الثروة فيما لا يعود على المجتمع بالخير والنماء. كما يجعل

صاحبه أو صاحبته تقدم المظهر الجمالي الجسمي على الجمال النفسي والسمو العقلي.

4) التفاخر: حديث الإنسان عن ذاته مظهرا لما يظن أنه يفوق به غيره من النّاس. ويكون التفاخر بالمال وبالوسامة، وبالنسب، وبالعلم، و بالذكاء، وأمثال ذلك من الخصائص التي يعدها النّاس من الكمالات. والشأن أن لا يفاخر الإنسان إلا من يرغب في إظهار مزيته عليه من مشاكليه. فلا يفاخر عالم النّحو مثلا البقال وسائق السيارة. وسائق السيارة قد يفاخر أمثاله من السائقين مظهرا تفوقه عليهم.

5) التكاثر: حرص الإنسان على جمع أكثر ما يمكن، مظهرا أنه غلب غيره في الجمع، من الأموال والأولاد. وإذا كان الإكثار من المكاسب المالية سار مع البشرية ملتصقا بها، فإن التكاثر بالأولاد لم يعد ميدانا للتفاخر ولا تتعلق به الرغبة العامة تبعا لطغيان الأنانية في عصرنا، ولفرار الأبوين من تحمل متاعب الرعاية للنسل.

عرضت الآية ما يتعلق النّاس به من متاع الحياة الدنيا، وما يتسابقون في التحصيل عليه، وما يخيل لهم أنه قوام سعادتهم. والقرآن لا ينفي أن ما ذكر مغروس في فطرة البشر حبه؛ كيف لا وقد استخلف الإنسان في الأرض ليعمرها، ولا يمكن أن يعمرها إذا لم يحبها، ويتعلق بمباهجها. وما جاء الدين ليعكس الفطرة ويقمعها. فالذي ينبغي أن تفهم النّصوص التي تحقر شأن الدنيا، وتبرز تفاهتها، لا تفهم بإطلاق ولكن عند التعارض بين الحياة الدنيا، والحياة الآخرة في ظرف من الظروف. والقاعدة التي تسير عليها الحياة أنه لا تعارض بينهما في الأعم الأغلب. والتوفيق بين مطالب الحياة الدنيا ومطالب الحياة الآخرة، هو منهج الإسلام الذي توسط بين طرفي نسيان الآخرة، وإهمال الدنيا. قال تعالى: **ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار *أولئك لهم نصيب مما كسبوا**[1] إن الغلو في هذا الجانب أو ذاك لا يقره الإسلام لا إثباتا ولا نفيا. فقد هدى النّبي صلى الله عليه وسلم جماعة من خيرة الصحابة اشتد تعلقهم بالآخرة، وحقروا الدنيا في الحديث المشهور الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النّبي ﷺ يسألون عن عبادة النّبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النّبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النّساء فلا أتزوج أبدا. فجاء إليهم رسول

---

[1] سورة البقرة 202/201

الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني)[1] ونصوص التوسط كثيرة يبلغ المستخلص منها مرتبة اليقين. وسنزيد هذا المفهوم بيانا في الآية 27 من هذه السورة إن شاء الله

كمثل غيث - هي الدنيا كمثل غيث. شبهت الدنيا بغرض تجسيم تأثيرها وآثارها، أنها تشبه نبات غيث نما وكسا وجه الأرض يزهو بخضرته، تملك إعجاب الكفار. وكلمة الكفار يمكن أن تفهم بمعنى الزراع، كما جاء في قوله تعالى (**يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار**)[2] وسمي الزارع كافرا، لأنه يستر الزريعة في الأرض. والزرّاع لاتصالهم بالحرث والنبات يكون إعجابهم بأوضاع الخصب أقوى من غيرهم. كما يمكن أن تفهم بمعنى الكفار بالله. لأنهم لإعراضهم عن الآخرة يكون تعلقهم محصورا في خيرات الدنيا دون الآخرة. وتابع القرآن صورة هذا النبات الجميل، إنه تطور حسب سنة الله فيشتد ويصلب عوده، ويصفر، ثم يتكسر بمختلف العوامل المؤثرة فيتحطم. وهكذا شأن متع الحياة الدنيا تبهج النفس لمن قصر اهتمامه بها، ثم تأخذ بهجتها في التناقص إلى أن تذهب غير تاركة أي أثر لها عند صاحبها. هذه طبيعة ما يتعلق به الناس في الحياة، يلاحقه الفناء شيئا فشيئا حتى لا يبقى منه أي أثر في الدنيا. ولكن في الآخرة يحضر الجزاء على نسيان الله في الدنيا والإعراض عما ضبط به تصرف الناس فيها فيلقون العذاب الشديد.

وبالمقابل فإن من لم يجعل الدنيا كل همه، فإن ماله مغفرة لذنوبه، أي إنه يتطهر من دنس الآثام التي لصقت به في الدنيا، ويستعد بذلك للسعادة العظمى برضوان كريم من الله، وهو أفضل ما يؤمله المؤمن. وبصفة عامة فإن ما يستمتع به الإنسان من مباهج الحياة هو متعة تتصف بالخداع. يتعلق بها صاحبها فتغره ليجد في النهاية نقيض ما كان يؤمل، فتشتد كربته، ويعظم عذابه. فإياكم أن تغتروا بإقبال الدنيا، فما السعادة الحق إلا سعادة الآخرة.

21- سارعوا إلى مغفرة من ربكم...ذو الفضل العظيم.

سارعوا : ليكن جدكم نشيطا في نيل ما يضمن لكم مغفرة ربكم لتقصيركم، فإن الحسنات يذهبن السيئات، فوفروا حظكم من الطاعات حتى يكون ذلك تحصينا لكم مما فلت منكم من غفلات. وما يدعوكم للإسراع هو الجنة، وما أدراك ما الجنة،

---

[1] فتح الباري ج 11ص5/4

[2] سورة الفتح آية 29

هي في سعتها كسعة السماوات والأرض جميعا، والمسافة بين مجرات السماء تقاس بالسنين الضوئية، ولا يعلم حدودها إلا خالقها. قد هيأها الله للذين آمنوا بالله فلم يشركوا به أحدا، وآمنوا برسله فاستجابوا لدعوتهم ونصروهم. ويشمل ذلك جميع الأمم التي أرسل الله لها رسله.

ذلك ما ذكر من المغفرة ، والجنة الفسيحة الأبعاد، هو فضل الله، وخيراته التي هي من جوده وعطائه، يمكن منها من يشاء من عباده، وليس لأحد عليه حق. وليكن تصوركم: أن الله هو صاحب الفضل العظيم الذي لا تحد حدوده، ولا يضيق بالخلائق. فلكل حظه دون أن ينقص من ملكه شيء.

22←23 ما أصاب من مصيبة....لا يحب كل مختار فخور..

هذه الآية تذكر النّاس بارتباطهم بالله في كل كبيرة وصغيرة. يعلمهم أن كل ما وقع في الكون مما يرغب فيه، ومما يؤذي، من نعمة أو نقمة، هو مقدر تقديرا أزليا عند الله. ما أصاب من مصيبة في الأرض، من الغيث والنبات والمحاصيل الوفيرة، أو من المحل والبرد والكساد، والزلازل والعواصف، والرياح اللواقح، والريح العقيم. وكل ما حصل لكم في أنفسكم من عافية وصواب في التفكير وتألق، أو من تسلط بالظلم، ومن مرض وسقام، وذهاب بعض الأعضاء، وموت. كل ذلك مثبت في كتاب. والكتاب هو العلم الأزلي الثابت الذي لا يتغير. ثبت ذلك في علمه ثبوتا أزليا قبل أن يُبْرِز الكائنات إلى الوجود الفعلي. إن ثبوت العلم بجميع الآثار والمؤثرات ثابت في علمه بالنسبة للأرض وبالنسبة للبشر.

لكيلا تأسوا.. أعلمناكم بالنظام الذي بنينا عليه الكون، وأنه لا مصادفة فيه، بل الكل مثبت في علمنا في كيفيته وساعة حدوثه، وما يترتب عليه. وبهذا التنبيه على أن كل ما حدث في الكون لا يخرج عن علمنا، تكون أرجاعكم :

1) لما يصيبكم من مكروه، أرجاع من يعود لربه يسأله لطفه، وتقوى نفسه على الصبر لعلمها أنه مقدر لها في الأزل. قال تعالى: (**وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**)[1]

2) ولما يأتيكم من توفيق ونعم، فلا يبلغ بكم الفرح أن تنسوا ربكم وتغفلوا عن شكره على نعمه. لعلمكم أنه من فضل الله قدّرهُ في الأزل. إن الفرح المنهي عنه هو الفرح الذي يستولي على النّفس فيحدث فيها زهوا بما حصل، واطمئنانا إلى أنه

[1] سورة البقرة 157/155

دائم لا ينقضي، وأنه نتيجة ذكاء صاحبه وفطنته قال تعالى: (ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون)[1]

والله لا يحب كل مختال... هذه خاتمة تؤكد ما جاء في الأدب المذكور في ثنايا الآية. تعلن الآية أن الله يبغض كل من استولت عليه النعمة فَرْهِيَ بها، وتكبر على غيره ممن حرم منها، وعظمت في نفسه فجمد علاقته بالله. ومعنى بغض الله له حرمانه من ألطافه في الدنيا من غفرانه ورحمته في الآخرة.

24- الذين يبخلون...فإن الله الغني الحميد.

يصح أن تكون هذه الآية إتباعا لمن يبغضهم الله المختالين الفخورين، إتباعا بذمهم لأنهم جمعوا لمرض الكبر مرض الشح. كما يصح أن يكون الكلام استئنافا، افتتحت الجملة بمبتدأ: **الذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل**. ويكون خبر هذه الجملة مقدرا، يفهم من الجملة الشرطية بعده، الذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل الله غني عنهم وعن إسهاماتهم حامد للمتقين.

والذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل، الذين استولى عليهم الشح من ناحية، وأبغضوا الدين فهم يمسكون أيديهم عن كل عون، ويسعون لمنع النّاس من السماحة المساعدة للدعوة في مراحلها الأولى وهي محتاجة إلى الدعم. قال تعالى :(**هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا**)[2] والله هو الغني عن البشر جميعا، وهو الحقيق بالحمد والثناء المحمود على جميع الأحوال، وهو يحمد الخيرين على ما يبذلونه من خير.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ

[1] سورة الزمر آية49

[2] المنافقون آية 8

رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

البينات: الحجج الدالة على أن ما أتوا به حق من عند الله.

الميزان : العدل.

القسط : العدل في جميع الأمور.

أنزلنا الحديد: خلقنا الحديد.

البأس : قوة تضر وتقي من الضر.

قفينا : أتبعناهم. جاؤوا بعدهم.

آثارهم : بدون فاصل زمني طويل.

الإنجيل : الوحي المنزل على عيسى عليه السلام.

الرهبانية: صيغة مشتقة من الراهب، وهو المسيحي المنقطع للعبادة.

حق رعايتها : حفظها الحفظ السليم.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد أيدنا رسلنا بالحجج البينة والمعجزات القائمة، وأنزلنا معهم الوحي موثقا مكتوبا مجموعا في كتب أو صحف، وأنزلنا معهم أصول العدل التي بها يقوم التعاون الاجتماعي محميا من الاعتداء" الميزان". ويرسخ العدل حتى يصبح ملكة في النفوس. وأنزلنا ما يؤيد الحق والعدل من قوة الحديد التي بها يردع المفسدون والمبطلون لما أودعنا فيه من صلابة تمكن من صنع آلات الحرب هجوما ودفاعا ووقاية. وليعلم الله حسب ما يكشف عنه الواقع، مما سبق في علمه القديم، من يتقدم مخلصا لنصر دينه ونصر رسله ونصر شريعته والقائمين بها؛ ومن يبطن حظوظ نفسه.

من الرسل الذين حملوا أمانة الرسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام. ثم إن كل الأنبياء الذين جاؤوا بعدهم هم من ذريتهم، وقد آتاهم الله الشريعة والنص الموثق. ولكن المبعوث إليهم انقسموا إلى فرقتين : فرقة اهتدت بهدى الله، والقسم الكثير الغالب كان من الفسقة.

ثم أرسلنا إثر نوح وإبراهيم رسلا كثيرين إلى أن بعثنا عيسى ﷺ رسولا، وأيدناه بكتاب من عندنا، الإنجيل الموحى به. وقد عمل عيسى ﷺ على تليين قساوة قلوب بني إسرائيل الذين انحرفوا أشد الانحراف بعد أن بدلوا التوراة، وحرفوا نصوصها

بالدعوة إلى القسوة والعنف، والإبادة الجماعية، وتقسيم البشر إلى قسم مختار رفيع، خلق ليحكم ويستبد بحظوظ العالم هم بنو إسرائيل، وقسم ليكون محكوما مستنزفا بجميع الوسائل التي تعتبر مشروعة ما دام فيها حظ لهم. وهم الآخرون" الجوئيم "

أثرت هداية عيسى عليه السلام فحولت بعض الذين اتبعوا منهجه من قساة بني إسرائيل، إلى شخصيات امتلأت بالرأفة والرحمة.

ثم إن أتباعه غالوا في العبادة والانقطاع عن الدنيا وتمسكوا بالرهبانية التي ابتدعوها، وضبطوا طريقتها اعتمادا على اجتهادهم لا على عن وحي منا لعيسى. إننا لم نلزمهم بها، ولكنهم ضبطوا طرقها والتزموا بها في حياتهم، يقصدون رضوان الله. فالمنطلق كان اجتهادا طيبا، ولكنهم في التطبيق انحرف أكثرهم عما يرضي الله وانغمسوا في الفساد. فما حفظوها الحفظ السليم، وكانوا فساقا بين الفسق في العقيدة بخروجهم من التوحيد إلى التثليث، وبين الفسق في السلوك بإقبالهم على الدنيا متسترين بثياب الرهبنة، من العمل على الانفراد بالسلطة، والانحلال الخلقي، ومساندة الظلم، والعلاقات الجنسية المحرمة مع التظاهر بالعزوبة. وقتل نتائج السفاح بمجرد الولادة.

بيان المعنى العام :

25- لقد أرسلنا رسلنا...قوي عزيز.

بكل تأكيد أيدنا رسلنا بالمعجزات والحجج الواضحة الدالة على أن ما يدعون إليه ويبسطونه للناس هو ما كلفهم الله بدعوتهم إليه. وأنزلنا الكتاب الجامع لهدايتي بصاحب رسلي، فتم تسجيل الوحي الموحى به بواسطة ما بلغه الرسل، وبواسطة ما جمعته كتب الله. وأنزلنا الميزان، أي قيم العدل بين النّاس مما ينفي الاشتباه، ويتبين به الحق من الباطل، والعدل من الظلم. لرفع التعدي على حقوق الآخرين. إن تلك القيم والمفاهيم المميزة للحق أنزلها الله، لا لتحفظ فقط في الصدور، ولكن ليجري عليها ضبط أمور النّاس، والفصل في خصوماتهم. هذا العدل الذي لا يتحقق إلا إذا صحبه عزم على تقريره في النفوس، وعلى تطبيقه في جميع شؤون الحياة. وفي تعميم قوله تعالى **ليقوم النّاس بالقسط**، ما يشير إلى أن العدل ليس خاصا بالحكام، ولكنه قيمة تغرسها الرسل في ضمائر جميع النّاس، فتظهر في سائر معاملاتهم فيما بينهم، وفي علاقتهم بالكون كله. وتصبح ملكة.

وأنزلنا الحديد... خلقنا هذا المعدن، وألهمنا البشر طرق استخراجه، وإعداده ليؤدوا به المنافع التي خلقناه من أجلها. إنه المعدن الذي يدخل في كثير من شؤون الحياة العملية.

ثم نبه على خصائصه التي أودعها فيه امتنانا على العباد. فجعل في طبيعته الصلابة التي تخرج منها أنواع الأسلحة التي تقمع الغزاة الظلمة، وتحمي للإنسان عرضه وماله من الفسقة والمنحرفين والمعتدين. ورغم التطور الذي حدث في الأسلحة من صواريخ، وطائرات ومدافع، فإن الحديد ما يزال يشكل عنصرا أساسيا فيها. كما يصنع منه ما لا يحصى من الآلات التي يستعين بها الإنسان في حياته المدنية، من السكين إلى السيارة.

وليعلم الله من ينصره...علم الله له مفهومان: علم أزلي قبل حدوث الأشياء شامل لكل ما يوجد. وعلم بالشيء عند وقوعه على حسب ما سبق في علمه القديم. فإذا قام المجاهدون بالدفاع عن حوزة الدين ورد المعتدين، ونصرة الحق، فإن الله يعلمهم في تلك الحالة علما يميز من خرج للجهاد استجابة لأمره بالجهاد في سبيله، لا يهمه إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، متعلقا بما أعده الله للمجاهدين من أجر ؛ ومن خرج طمعا في الغنيمة، أو ليظهر بأسه وشجاعته، أو لينال ما يطمح إليه من مراكز القيادة. هذا الغيب الكامن في النفوس يعلمه الله.

ونصرة الله هي نصرة دينه، ونصرة المستضعفين من عبيده. ونصرة رسله بتقوية جانبهم في الدعوة إلى الدين في حياتهم، وتصر القائمين بشرع الله بعد موت رسله من العلماء والمصلحين وولاة أمورهم.

إن الله قوي عزيز... غني بعزته وقوته عن العون. فهو الفعال لما يريد. ولكنه أراد التفضل على عبيده لينال المجاهدون شرف الجهاد وثوابه الذي لا يعلم مقداره إلا هو.

26-لقد أرسلنا نوحا... فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون.

فصلت الآية بعض ما يشمله قوله تعالى في الآية السابقة: لقد أرسلنا رسلنا. فذكرت من رسله نوحا، وإبراهيم. باعتبار أن نوحا أول رسول، ولأن إبراهيم هو أبو الأنبياء الباقي شيء من شريعتهم. وحقق أنه جعل في ذريتهما النبوءة والكتاب فكل الأنبياء بعد نوح هم من ذريته. وكل الأنبياء بعد إبراهيم هم من ذريته. ومكن من أرسله من ذريتهما من الكتاب الموحى به. ثم إن المرسل إليهم منهم من لزم الهداية التي جاءته، والكثير منهم غلبوا شهواتهم على اتباع الحق الذي جاوزهم به، فحق عليهم الفسق وما ينتظره الفسقة من الجزاء.

27- ثم قفينا على آثارهم...منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون.

تصريح بعناية الله بالبشرية، وأنه بعث لها رسلا بعد نوح وإبراهيم ليساعدها على إدراك الحق، وإدراك المنهج الذي يساعدها على النجاح في الحياة الدنيا والحياة

الأخرة. وكان آخر رسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم هو عيسى عليه السلام. وآتاه الله الكتاب الموحى به إليه وهو الإنجيل. والفترة بين عيسى ومن جاء قبله من الرسل فترة طويلة.

وجعلنا في قلوب... كان عيسى ﷺ شديد العناية بتربية المبعوث إليهم، الذين كانوا من بني إسرائيل، وكان الإسرائيليون قد تعودوا على القسوة بما أدخلوه في نص التوراة من العنف، فكان عيسى يأخذ تلك القلوب القاسية فيوالي عليها من ضروب التأديب والتمرين على اللين ما يقلع ما استقر من الأنانية والعنف. وحقق صياغة القلوب على الرأفة والرحمة. والرأفة هي رحمة خاصة بدفع الضر عن الغير، والرحمة تشمل اللين والعطف والرأفة، فهي أعم من الرأفة.

ورهبانية ابتدعوها... الذي عليه حذاق المفسرين أن الرهبانية طريقة يلتزمها النصراني في حياته ليكون منصرفا للعبادة، وعن مشاغل الحياة الدنيا. وأن "رهبانية " ليست معطوفة على رأفة ورحمة، ولكنه كلام مستأنف. فرهبانية منصوبة بفعل مقدر مساو - ل - "ابتدعوها " أي ابتدعوا رهبانية ابتدعوها.

ويكون المعنى : أن النصارى ابتدعوا رهبانية، من اجتهاداتهم ما كتبها الله عليهم ولا ألزمهم بها على نحو محدد. فهي طريقة محدثة تصور أصحابها كيف يمكنهم أن يكونوا عابدين لله بصفة أكمل، وأفضل. وجاهدوا شهواتهم وحاولوا التخلص من دواعيها، فلم يتزوجوا خشية أن تلهيهم الحياة الأسرية عن العبادة، وابتعدوا عن الناس في أماكن منقطعة عن التجمعات البشرية لئلا تشغلهم العلاقات البشرية بالاختلاط عن التفرغ للعبادة والذكر والتأمل. وحاولوا أن يقتبسوا من حياة عيسى طريقة في الحياة تقترب من طريقته في ظنهم، ولا تخلو من مغالاة.

ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله... ما ألزمناهم بالرهبانية، ولكنهم ابتدعوها قصد أن يصلوا بها إلى رضوان الله. فهي حسب منطلقها، وما يصحبها من قصد وإن كان طيبا لم تكن مشروعة من قبلنا، ولا مأمورا بها، ولكنها تؤدي إلى مرضاتنا حسب تصور أصحابها. وفي نظري أن هذا التدقيق في توضيح الرهبانية، يعود إلى أن المنهج الرهباني ليس منهج الحياة والاستخلاف الذي أراده من خلق آدم وإنزاله إلى الأرض. وفي تعميمه توقيف لتطور العالم والمعرفة.

فما رعوها حق رعايتها... بعد أن سجل حقيقة الرهبانية ومنطلقها، حول الاهتمام إلى ما آل إليه أمر الرهبانية في الواقع. فنصت الآية على أن الرهبان لم يحافظوا على ما التزموا به، وأصبحت الرهبانية حسب دعوى المنتسبين إليها شيئا، وواقعهم شيئا آخر. فمنهم من التزم بالقيم التي تدعو إليها بإخلاص وتجرد. وبعزمات قوية لمقاومة كل ما يلهي عن ذكر الله

وعبادته بضروب القربات التي ترضيه من صلاة وصوم وذكر وعمل الصالحات. وبعقيدة نقية موحدة لا تدعي بنوة لله، ولا تعطي لعيسى مرتبة فوق كونه عبدا لله ورسولا. وهؤلاء استحقوا أجرهم وافيا غير منقوص. ومنهم من لبس لباس الرهبنة ولم يرعها حق رعايتها، فعاش حياة فيها كثير من النّفاق. فقد كانت الحروب والنزاعات بين الرهبان وبين السلطة الدنيوية شديدة للانفراد بالسلطة. وتقدموا ليكونوا وسطاء بين الله وبين العباد. ومالأوا المستبدين ليتسلطوا على المستضعفين. زيادة على العلاقات الجنسية المحرمة بين الرهبان والراهبات، ووأد الأطفال من العلاقات المحرمة إثر الولادة ليستروا فضائحهم. فجمعت الكثرة الكاثرة منهم بين الفسق بالكفر بالتثليث، وبين الفسق بارتكاب الموبقات تحت عباءة التقوى الزائفة. قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال النّاس بالباطل ويصدون عن سبيل الله)[1]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكفل : النّصيب

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للمؤمنين يوقظهم ليجعلوا التقوى أليفة قلوبهم، وموجهة أعمالهم، واقرنوها بمواصلة الإيمان برسوله. إنكم إذا جمعتم بين هذين الخيرين يجزيكم بإيتائكم حظين ونصيبين مضاعفين من رحمته؛ حظ إيمانكم بمن سبق من المرسلين وحظ جزاء إيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم. ويجعل لكم نورا يرافقكم في نشاطكم في الحياة فتهتدون للاختيارت الموفقة. ويغفر لكم أيضا ما قصرتم فيه. والله هو الغفور الكثير المغفرة لذنوب عباده، الرحيم بهم فيعاملهم معاملة الرحمة لا القسوة.

وبهذا يكبت أهل الكتاب ليعلموا أنهم لا يقدرون على منع أي شيء من فضل الله. فالفضل بيد الله، يمكن منه من يشاء من عباده حسب حكمته، وتقديره الأزلي.

[1] سورة التوبة آية 34

فيضاعف كفلين من رحمته للمؤمنين برسوله محمد ﷺ. والله هو صاحب الفضل العظيم الذي لا تحد حدوده، وليس لأحد دخل فيه.

بيان المعنى العام :

28- يا أيها الذين آمنوا اتقوا...والله غفور رحيم.

غلب إطلاق الذين آمنوا في القرآن على المؤمنين بالدين الإسلامي. فتكون الآية موجهة الخطاب للمسلمين، تأمرهم بتقوى الله أولا، والتقوى هنا تدل على خشية الله واستحضار جلاله استحضارا يعصم من المعاصي، ويحث على الطاعة وفعل الخير. وآمنوا برسوله وواصلوا الإيمان برسوله ثانيا. ورتب على ذلك أنه يؤتيهم أجرهم مرتين. يوضحه ما أخرجه البخاري بسنده إلى سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما بقاؤكم فيما سلف من قبلكم من الأمم ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النّهار عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا. ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأعطوا قيراطا قيراطا.ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين. فقال أهل الكتابين : أي ربنا، أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطا قيراطا، ونحن كنا أكثر عملا. قال الله عز وجل: هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟قالوا :لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء.)[1]

كما يمكن حمل الذين آمنوا على الذين تحقق منهم الإيمان الصادق المقبول عند الله من المسلمين ومن أهل الكتاب، وتكون الآية دعوة بصفة خاصة إلى النّصارى الذين عنيت بهم الآية السابقة، دعوتهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم. فحرضهم على الاستجابة لما أمرهم به بأنه يؤتيهم من فضله نصيبين من الأجر: ثواب إيمانهم بعيسى عليه السلام وثواب إيمانهم بمحمد عليه الصلاة والسلام.

وهذا الإيتاء كما جاء في الحديث هو من أثر رحمة الله. ويجعل لكم نورا تمشون به. وييسر لكم نورا يهديكم في اختياراتكم إلى ما هو أفضل عائدة عليكم في الدنيا والآخرة. ويتأكد هذا الفضل بأن من صفات الله وأسمائه الأزلية أنه غفور لصالحي عباده تقصيرهم، رحيم تسع رحمته كل شيء.

---

[1] فتح الباري ج2 ص177/179

29-لئلا يعلم أهل الكتاب...والله ذو الفضل العظيم.

الذي عليه جمهور المفسرين أن " لا" في قوله لئلا يعلم هي زائدة لا تنفي شيئا. والكلام على الإثبات أي لكي يعلم. وتكون الآية متصلة بسابقتها التي دلت على أن الله يعطى المؤمنين كفلين من رحمته ويجعل لهم نورا و يغفر لهم. وأن أهل الكتاب وخاصة اليهود لما نزلت الآية السابقة جادلوا فيها لما يثبتونه لأنفسهم من أنهم أبناء الله وأحباؤه. فنفى القرآن مبطلا ما توهموه من المنزلة الخاصة، ليعلم أهل الكتب الحاسدين للمؤمنين، أنهم لا يملكون التصرف في فضل الله، فهو بيده وحده سبحانه يؤتيه من يشاء من عباده، وذلك تبعا لحكمته التي يقصر العقل البشري عن إدراك جميع أسرارها. وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم........ والذي يراه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله أن "لا" أصيلة وليست زائدة وأن اللام في قوله " ليعلموا هي لام العاقبة. كقوله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا)[1] كانت عاقبة التقاطه أن كبر عندهم حتى أصبح عدوا لهم، وأدخل عليه الحزن. وكقول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب *** فكلكم يصير إلى تباب

عاقبة الولادة الموت، ونهاية البناء وعاقبته الخراب.

فيكون معنى الآية: أن ما تفضل به عليكم ربكم من إيتائكم كفلين من رحمته، وجعله لكم نورا تمشون به، وغفرانه، انتهى إلى مضاعفة البغض والحسد عند أهل الكتاب، وحرمانهم من العلم بأنهم لا يقدرون على منع فضل الله لكم. فلا تكترثوا بهم وبخيالاتهم الكاذبة بأن لهم منزلة عند الله تعالى.

يوم الجمعة 2014/3/14

---

[1] سورة القصص آية 8

سورة المجادلة

عرفت بهذا الاسم في المصاحف وفي كتب السنة، وفي كتب التفسير. وسميت سورة الظهار في مصحف أبي بن كعب. ووجه تسميتها بذلك الاسم افتتاحها بواقعة مجادلة خولة بنت ثعلبة زوج أوس بن الصامت رضي الله عنهما، لما ظاهر منها زوجها، وأتت رسول الله ﷺ تستفتيه في أمرها. فهي على هذا بكسر الدال.

وهي سورة مدنية. وهذا هو الراجح، وإن ذهب بعضهم إلى استثناء بعض الآيات، فعدها مكية. وهي الثامنة والخمسون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النّزول المائة وثلاث. نزلت بعد سورة المنافقين، وقبل سورة التحريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

سمع: استجاب للمطلوب.

المجادلة : الاحتجاج والاستدلال.

في زوجها : في شأن زوجها.

التحاور : مراجعة من الجانبين.

الوعظ : التذكير بالخير بترغيب أو التحذير من الشر بترهيب.

بيان المعنى الإجمالي:

جاءت خولة زوج أوس بن الصامت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه، عارضة عليه مشكلتها المتمثلة في أن زوجها خاطبها بقوله: أنت علي كظهر أمي ؛ الكلام الذي كان يدل عرفا على التحريم الأبدي. ولما لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه ما يرفع هذا العرف أفتاها بقوله : ما أراك إلا حرمت عليه. أخذت تقدم وجهة نظرها التي ترمي من ورائها أن عقد الزوجية لم ينقطع. لأن أوسا لم يصرح بلفظ الطلاق، ولأنه والحالة هذه ستنهدم الأسرة، وتكون المصيبة على أولادهما، الذين إن أخذتهم معها لا تستطيع أن تعولهم وإن أبقتهم عند أبيهم فقدوا حنان الأم الراعية. وهي تقول في كل مرة: أشكو إلى ربي وضعي الحرج. فنزل على رسول الله ﷺ : أن الكلام لن يحول الزوجة إلى أم. وتبقى الأمومة علاقة تابعة للولادة. وأن قول الزوج لزوجه: أنت علي كظهر أمي، كلام محرم، ومنكر، وزور مخالف للواقع. وأن الله يعفو عن التائبين، ويغفر لهم.

إذا أراد الزوج الخروج من آثار الظهار فعليه أن يتوب، ويكفر على الترتيب التالي:1- بعتق رقبة، ولما تحرر العبيد ولم يبق في عصرنا رقيق فانطباق هذا الخيار الأول أصبح مستحيلا. فلينتقل المظاهر إلى صيام شهرين متتابعين، وبإكمالهما يمكنه العود إلى حياته الزوجية، وإن تعذر عليه لوهن في جسمه فعليه أن يطعم ستين مسكينا ما يشبع كل فرد منهم يومه. وبالتأكيد فإنه لا يتحلل من ظهاره إلا بعد القيام بالكفارة كاملة. ما قررناه لكم يتأكد عليكم الإيمان بأنه من عند ربكم، وتصدقوا رسوله فيما بينه لكم. واحذروا التهاون به فإنا هيأنا للكافرين بما أنزلنا العذاب الأليم.

بيان المعنى العام :

1-قد سمع الله قول...إن الله سميع بصير.

تسجل فاتحة هذه السورة واقعة تشير إلى تفاصيلها إشارة موحية. تفتتحها بأن الله العلي العظيم يسمع استغاثة المستغيث به لا يشغله أمر جريان نظام الكون كله عن قضية امرأة فقيرة مع زوجها الشيخ الذي في خلقه حدة. وهاكم بعض تفاصيل الحادثة :جاءت خولة بنت ثعلبة إلى بيت رسول الله ﷺ، وكان في غرفة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، تعرض عليه قضيتها. خولة امرأة نصف عاقلة، وكان زوجها أوس بن الصامت لا يتحكم في أرجاعه عند غضبه. فأسرع في حالة من حالات انفعاله إلى مخاطبتها بقوله: أنت علي كظهر أمي.[وهو المعبر عنه بالظهار]

يتبعه أنه يمنع الزوج من الاستمتاع بزوجه، فتنقطع بينهما العلاقة الجنسية، وليس طلاقا، فلا تحل لغيره. هكذا كان العرف في العلاقة الأسرية قبل الإسلام، ولم يرد ما يثبت هذا العرف أو ينقضه. وكل الأعراف التي لم يرفعها حكم شرعي تبقى مُحكَمَةً في العلاقات.

اهتز استقرار العائلة بما نطق به أوس. وتمثل لخولة ما سيؤول إليه الأمر، فتوجهت إلى رسول الله ﷺ عله يحل لها مشكلتها فقالت : يا رسول الله إن أوسا أكل شبابي، ونثرت له بطني [تشير إلى ما أنجبت له من أولاد] فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني. فكان جوابه ﷺ : ما أراك إلا حرمت عليه.

كانت خولة عاقلة فقيهة، وكان الرسول ﷺ يحترم المؤمنين والمؤمنات ويمكنهم من عرض وجهات نظرهم، وأن يعرضوا عليه ما يستشكلونه حتى يكون الاقتناع والاحترام هو قاعدة العلاقة .

وجدت خولة أنه لم ينزل على رسول قبل هذه الحادثة نصا يفصل في الظهار، وكسرُ العلاقة الزوجية لايكون إلا بالطلاق، وأوس لم يطلقها. فراجعته قائلة يا رسول الله: لا تفعل. فإني وحيدة ليس لي أهل سواه، وأخذت تراجع النبي ﷺ وتختم كل مرة بقولها اللهم إليك أشكو حالي وانفرادي وفقري إليه. اللهم إن لي منه صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا. اللهم إليك أشكو حالي. كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها، وكان بعض كلام خولة يخفى علي، وسمع الله جدالها. هذه قصة خولة اختتم العرض الأول بقوله تعالى: والله سميع بصير، لا يغيب عن سمعه شيء ولا عن بصره بدون حاسة ولا بعد مكاني.

2-الذين يظاهرون.....وإن الله لعفو غفور.

تحدثت عن الذين يصدر منهم هذا التشبيه المقيت، فعرفهم بما صدر عنهم؛ الذين يظاهرون منكم من نسائهم- ولما كان ذلك لا يخرج قائله عن الإيمان قال: منكم - فبينت الآية أن قولهم هذا لا يقلب الحقائق، وأن الأمومة لا تثبت بالقول ولا تنفى به. بل هي رابطة نشأت من الحمل والولادة. فتشبيههم زوجاتهم بظهور أمهاتهم كلام مناف للواقع ولا يحول حقائق العلاقات. وبعد أن حقق، أن كلامهم لا يحول الزوجة إلى أم، أتبعه بإظهار فساد هذا الكلام وخروجه عن الآداب. فوصفه أولا بأنه منكر. بمعنى أنه لا يمكن أن يقبل بحال، وهو كلام مرفوض أدبا وخلقا،

لمناقضته لما يجب للأم من احترام. إن تشبيه الرجل استمتاعه بزوجه، واستحضار ذلك حتى يرسم صلة بينه وبين الاستمتاع بالأم في التصور، وفي صورة شنيعة حتى بين الرجل وزوجه: هي الاستمتاع بالأم من الخلف. هي صورة بلغت من الفظاعة حدا لا يمكن أن تدخل في تصور من له أدنى قدر من المروءة. فهو كلام منكر بجميع المقاييس. وقد كنت عند قيامي بمهام الإفتاء أقرع من يأتيني مستفتيا في الظهار تقريعا كبيرا، وما وجدت واحدا منهم إلا ويبدو على قسمات وجهه من الأسى والخزي ما أظن أنه لا يعود لمثل قبيح قوله.

وإنه زور :أي ميل عن الحق وكذب. وبهذا فإن الظهار حرام كما يدل على ذلك تعقيب الآية بقوله تعالى: وإن الله لعفو لغفور. فهو لفضله يعفو عن السيئات ويغفر الذنوب للتائبين الذين يستشعرون ألم الإثم، ويتوجهون لربهم تائبين.

3-والذين يظاهرون من نسائهم...بما تعملون خبير.

تتابع الوحي مفصلا ما يجب على المظاهر إذا أراد التحلل من كلامه والعود إلى علاقته بزوجه. فمعنى يعودون لما قالوا، أي إنهم يعزمون العودة إلى العلاقة الجنسية التي حرموها على أنفسهم بصيغة الظهار. ذكر الإمام مالك في الموطأ في قول الله عز وجل والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا: (قال : سمعت: أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته، ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها، فلا كفارة عليه) فمعنى يعودون : أرادوا العودة كقوله تعالى إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا، أردتم القيام إلى الصلاة.

وينبني على هذا أنه إذا ظاهر، ولم يبق له تعلق بالعودة إلى الحياة الزوجية، فإن عليه أن يطلق، وإن أراد أن يمسكها دون أن يطلقها أو أن يقوم بالكفارة فهو مضار بها، يجري عليه حكم الإيلاء، أن الحاكم يضرب له أجلا، فإما أن يطلق أو يكفر، أو يطلق الحاكم عليه طلاقا يقطع العلاقة الزوجية.

ويكون العود المُحِلّ لاستئناف العلاقة الزوجية، بعتق رقبة، عتق عبد أو أمة، قبل أن يمسها مس الاستمتاع الذي يتم بين الزوج وزوجه كالتقبيل ونحوه والجماع. فبعد أن يعتق يحل له ما حرمه على نفسه بالظهار.

ذلكم توعظون به... ما فرض عليكم من تحرير رقبة قصد منه وعظكم، وتحريك خوفكم من سخط الله. فاجتنبوا مس المرأة قبل التكفير. والله عليم بحقائق ما يصدر منكم، من ظهار، ومن تكفير، ومن كون ما تقومون به تقصدون منه العود إلى الحياة الزوجية الطبيعية أو غير ذلك. وفي كل ما يصدر عنكم.

4- فمن لم يجد فصيام...وللكافرين عذاب أليم.

من لم يجد رقبة يعتقها كوضعنا اليوم بعد تحرير العبيد، فإنه ينتقل إلى صيام شهرين متتابعين بالأهلة، أو بالعد ستين يوما. ولا يقرب زوجته حتى يتم الصوم. فإذا تعذر عليه الصيام لضعف في بدنه من هرم أو مرض، فإنه يطعم ستين مسكينا. وقدر الفقهاء السابقون أن الإطعام يكون بتمكين كل مسكين من مد أو مدين على خلاف بينهم في ذلك. ويكون من غالب قوت أهل بلد المكفر. والذي يترجح عندي أن الإطعام يكون بتمكين كل مسكين مما يشبعه من خبز وإدام (زيت أو سمن أو جبن مثلا) على أقل تقدير، وإذا تفضل بطعام من لحم فهو خير. إذ المدان لا ينتفع بهما في عصرنا انتفاعا يرفع عن المسكين الجوع.

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله... الإشارة تعود إلى أنواع الكفارات المذكورة في الآية على الترتيب الوارد فيها. وإلى التيسير في الانتقال من نوع إلى نوع تفضلا من الله عليكم في رفع الحرج. ليتمكن من قلوبكم الإيمان بأن ما شرعه حق، مما يتبعه الانتهاء عن الظهار المنكر والقبيح. وأن تقوموا بالتكفير، ولا تقربوا المظاهَرْ منها إلا بعد الكفارة. فإيمانكم بالله يقتضي اعتقاد أن ما حكم به حق وفيه صلاحكم واستقرار العائلة، وتنقية ألسنتكم من البذاءة. وإيمانكم برسوله يوجب التطبيقَ لما أخبركم به عن ربكم والتزامكم بتوجيهاته في الظهار وفي غيره.

وتلك حدود الله... ما ذكر على نحو الإشارة بقوله : ذلك لتؤمنوا. تحريم الظهار، وكفارته على النّحو المضبوط في الآية حدود الله عليكم ان لا تتجاوزوا تلكم الحدود ولا تتساهلوا فيها، فاقلعوا عن مخاطبة نسائكم بالظهار الكلام الجاهلي الوقح، ومن زل منكم فليكفر عن طواعية مع رجاء أن يغفر الله له ذنبه. واعلموا أن الذين يكفرون بتشريع الله ويرفضونه أعد الله لهم عذابا أليما.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

المحادة : المشاقة والمعاداة.

الكبت : الخزي والإذلال.

أحصاه الله : أحاط به علما.

الشهيد : العالم بالأمور المشاهدة.

النجوى : ناجاه ساره بالحديث.

بيان المعنى الإجمالي:

إن الذين عرفوا بأنهم قد جعلوا معاداة الله ومعاداة رسوله شعارهم الذي به يتميزون. سيذلهم الله كما أذل الذين من قبلهم من المنافقين. وقد أعد الله للكافرين بسبب كفرهم عذابا يهينهم ويذل كبرياءهم. سيتم هذا يوم يبعثهم الله من سبق ومن لحق، فيوقفهم على كل صغيرة وكبيرة من الآثام التي ارتكبوها. التي أحصاها الله عليهم وكتبها ملائكته في سجل كل واحدمنهم. وكان التسجيل أدق مما بقي في أذهانهم فقد نسوا كثيرا مما اقترفوا. إن الله يعلم علما دقيقا كل ما يصدر عن البشر، فهو شهيد عليهم.

ألم تعلم أيها الإنسان أن الله سبحانه هو خالق السماوات والأرض، ومسيرها يعلم كل دقيقة تجري فيهما. يستوي في علمه الحوادث العظمى، وما يتناجى به اثنان أو أكثر من حديث يبالغون في إخفائه، فإنه لا يخفى على الله شيء، لأنه مطلع اطلاعا ينكشف له في كل لحظة ما يحدث في الموجودات ويحصي في كتاب كل فرد ما صدر عنه، ثم ينبئه به يوم القيامة ليجزى به.

بيان المعنى العام :

5-إن الذين يحادون الله...عذاب مهين.

تهديد للذين حملهم الحقد على الإسلام، أن استبطنوا العداء لله ولرسوله لما جاءهم بدين الله وهددهم على كفرهم. إن الله سيذلهم ويخزيهم كما أخزى الذين نافقوا من قبلهم. وهم قد علموا عاقبة إخوانهم المنافقين. والكبت أصله أن يستولي الحزن على المكبوت يبصر ما يكره، ويعجز عن دفعه.

والعجب من المنافقين في استمرارهم على النّفاق والكيد للإسلام، رغم أن الله أنزل الأدلة البينة الواضحة على صدق الرسول، وصلاح شريعته للبناء الاجتماعي، وتزكية النّفوس. إنهم استحقوا بعنادهم وتصلبهم في الكفر بغضا للإيمان، أن الله أعد لهم بسبب كفرهم عذابا يهينهم جزاء استكبارهم بغير الحق.

6- يوم يبعثهم الله....والله على كل شيء شهيد.

سيحل العذاب المهين بالكافرين يوم يبعثهم الله جميعا السابقين من المنافقين واللاحقين بهم للحساب والجزاء. تتمثل محاسبتهم في فضحهم بما كانوا يسرون من الكفر، ويعلنون كذبا من الإيمان. وما ترتب على ذلك من فساد أعمالهم وسوء سيرتهم وسلوكهم. كل ما ارتكبوه من آثام أحاط الله بها علما ووثقتها ملائكته عليهم. هو حاضر في سجلهم. سيندهشون عندما يشاهدون كل سيئة اقترفوها موثقة زمانا ومكانا وكيفية. وهم الذين فعلوا ما فعلوا من الموبقات نسوا ما اقترفوه. قال تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما ل هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)[1] والله سبحانه لا يغيب عنه أي أمر يحدث في الكون.

7- ألم تر أن الله يعلم...إن الله بكل شيء عليم.

لاقى المؤمنون في المدينة من كيد اليهود والمشركين أذى من نوع آخر. فإذا كان مشركو مكة قد واجهوا الدعوة بالعداء السافر، والأذى البدني، فإن المنافقين في المدينة كان خطرهم أشد، إذ هم يظهرون الطاعة لرسول الله ﷺ ، ويبطنون الكفر والعمل على ما ينقض الإسلام بتدبير خفي جمع من الخبث الشيء الكثير. فمما دبروه وساروا عليه أنهم يقومون بصور من الأعمال تلقي الخوف والريبة في قلوب المسلمين. خططوا أن يتجمعوا في وحدات صغرى يتبادلون بينهم الحديث في خفاء، ويشيرون إشارات يفهم منها أن شرا قريب الحدوث أو حدث فعلا، فيظن النّاظر إليهم أن خطرا داهما يتحدث به هؤلاء. يفعلون ذلك حتى يقتلعوا ما ثبته رسول الله ﷺ من الثقة والطمأنينة في المجتمع المدني. وقد كان المسلمون يتوقعون كل يوم أن تندلع حرب بينهم وبين مشركي مكة فجاءت هذه الآية تجمع بين طمأنة المسلمين، وبين الإعلان للمنافقين أن الله يعلم مكرهم، وأنه سيفضحهم، ويطلع رسوله على ما يجري بينهم.

افتتحت الآية بقوله: ألم تر. أي ألم تعلم أن الله يعلم العلم الدقيق بكل ما يحدث في السماوات والأرض. وجسم هذا العلم بأنه ما من ثلاثة يجتمعون ليتحدثوا فيما بينهم حديثا يخفون فيه أصواتهم حتى لا يسمعهم إلا من كان منحنيا يصيخ بأذنيه لكلام جلسائه، إلا كان كل ما يجري بينهم مكشوفا عند الله يعلم ظاهره وباطنه. وليس الأمر محصورا في الثلاثة ولكنه ينسحب على أي تجمع صغير يجري بين أفراده

---

[1] سورة الكهف آية 49

الحديث حديث السرار، سواء أكانوا خمسة، أو أكثر منها أو أقل اثنان أو أربعة أو أكثر من ذلك. إن الله مطلع على ما يتناجون به كأنه في اطلاعه أحدهم. إن أمرهم مكشوف عند الله سواء أكان تجمعهم ظاهرا أم في ستر بعيد عن الأنظار.

ثم ينبئهم... يهددهم بأن ما يجري بينهم سيثبته الله في صحائفهم، ثم يلقونه يوم القيامة ويظهر لهم ما كان يجري بينهم، وما كانوا يرمون إليه من النّجوى.

إن علم الله هو العلم الشامل الذي لا يغيب فيه شيء من حوادث الكون عن علمه سبحانه، سواء صدر من المنافقين أو من غيرهم، في أي مكان وفي أي زمان.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإثم : ما في كلامهم من الكفر وذم المسلمين والتحرق على إيذائهم.

العدوان : الظلم وما يدبرونه من كيد.

حسبهم جهنم : تكفيهم جهنم عذابا.

يصلونها : يتسلط عليهم لهيبها من جميع الجوانب.

بيان المعنى الإجمالي:

عجب من أمر المنافقين، نهاهم الرسول عن النّجوى، التي في شكلها تجعل المؤمنين يؤولون تناجيهم بتصورات ترفع الطمأنينة من نفوسهم. ثم إنهم عادوا للتناجي بنفس الطريقة. وفضحهم بأن نجواهم تحوم حول الطعن في الإسلام والمسلمين، وفي التخطيط لما يضر بالجماعة الإسلامية، والكيد لتوقيف العمل بما يأمر به الرسول. تأصل الخبث في نفوسهم، تتبينه من أنهم إذا دخلوا عليك حيوك بتحية على غير العرف الإسلامي، فلا يسلمون عليك ب "السلام عليكم "ويختارون

تحيتك مثلا، بأنعم صباحا، تمسكا بتقاليد الجاهلية. ويقول بعضهم لبعض لو كان محمد رسولا لسلط الله علينا عذابه، وما مسنا سوء، فمحمد ليس بينه وبين الله صلة. وما دروا أن سنة الله في الخليقة أنه لا يعجل بالمؤاخذة، وأن هؤلاء المنافقين قد أعد الله لهم مكانهم في جهنم، وما أسوأها عاقبة.

أرشد الله المؤمنين أن تكون المواضيع التي يتناجون فيها فيما بينهم، نقية من الإثم والظلم، والوقوع فيما خالف ما شرعه رسول الله ﷺ. وأن يحصروا مواضيع مناجاتهم في كل ما هو خير حسب معايير الإسلام، وأن يلتزموا تقوى الله في كلامهم ومخططاتهم. واتقوا الله التقوى الذي تعلمون معها أنكم ستحشرون إلى الله ليحاسبكم.

لا تحزنوا من نجوى المنافقين، فإن ذلك من تهاويل الشيطان الذي يعمل على حزنكم. وكونوا واثقين بأنه هو وحزبه لا يستطيعون ضركم إلا إذا قدر الله لكم شيئا من ذلك. واعتصموا بحسن التوكل على الله الذي أمر المؤمنين بأن يتوكلوا عليه.

بيان المعنى العام :

8-ألم تر إلى الذين...فبئس المصير.

تفتح الآية بالتعجيب من استمرار المنافقين على خبثهم والكيد للمسلمين بالطرق الخفية. فقد نهى النبي ﷺ المنافقين من التحلق واتخاذ أشكال في الحديث تلقي في قلوب المؤمنين ما تلقي من التأويلات لما يتحدثون به. إنهم بعد نهيهم النّهي البات من رسول الله ﷺ، واصلوا وعادوا إلى التناجي على نفس الطريقة التي نهوا عنها. وكشف القرآن للرسول وللمؤمنين أن تناجيهم وإن كان يجري في سر لا يسمعه أحد من غير المنافقين، فهو معلوم عند الله. هو تناج بالإثم بما تشمله كلمة الإثم من الكفر وتبادل الرأي حول ما يؤذي المؤمنين ويهون شأنهم. والعدوان من الإعداد للتواصل مع المشركين ليتهيؤوا لغزو المسلمين في مدينتهم. وليخططوا ما يمكنهم من ظلم المسلمين والتعدي على حقوقهم بطرق ملتوية. وفضحهم القرآن من ناحية أخرى : أنهم إذا حضروا مجلس سول الله ﷺ أو خاطبوه، افتتحوا كلامهم بطريقة تخالف ما أكرم الله به نبيه من حسن الخطاب، وحيوه بتحية تختلف عن التحية التي حيى الله بها رسوله، وشرعها للمؤمنين. فإن التحية التي حياه بها وأرشد إليها المسلمين عند التواصل بينهم هي: السلام عليكم. فكان المنافقون يحيونه بقولهم مثلا: عم صباحا. لبغضهم لكل أدب أدّب به الله هذه الأمة. والقرآن يتوجه إلى النّبي ﷺ بقوله: يا أيها النّبي – يا أيها الرسول. وهم لا يخاطبونه بمثل ذلك.

وهم غير مطمئنين لخبثهم، ويتساءلون في أنفسهم وفيما بينهم فيقولون: لولا. يخشون أن يعذبهم الله بأقوالهم. أوهم يقولون لو كان محمد رسولا لعجل ربه عذابنا على ما نطعن فيه، ونهون من شأنه في خطابنا.

إن تصورهم هذا هو تصور الجاهلين بسنة الله في خلقه. ذلك أن الله بنى أسر الكون على عدم الربط السريع بين الفعل وجزائه. إذ لو جرى على هذا الأمر لانتهى التكليف، والاختيار. إذ ظهور العقاب سريعا يمنع النّاس قهرا من ارتكاب المعصية، ولم يُبْنَ وضع الحياة الدنيا على هذا. ولكن على الإيمان بأن جهنم هي جزاء الكافرين. يكفيهم جهنم يصلون نارها. ولا أسوأ مصيرا من المصير إلى جهنم.

9- يا أيها الذين آمنوا...واتقوا الله الذي إليه تحشرون..

هذه الآية ترسم منهجا للمؤمنين في عهد الرسول وفيما يأتي بعده، عند اجتماع بعضهم ببعض. فقد يكون اجتماعهم على صورة ظاهرة يُسْمِعُ المتكلم كلامه، بما يمكن أن يتجاوز المجلس فلا يتحفظ. وقد يجتمعون فيتم الحديث بينهم في خفاء، وفي صورة جلوس تجعل كل واحد يقترب من الآخر ويميل إليه ليعي كلامه. ولما كان الشأن أنهم لا يتحفظون فيما يتحدثون به في هذا الوضع، أرشدهم القرآن إلى ما يجب أن تكون عليه موضوعات أحاديثهم. علما أن الله معهم مطلع على ما يقولون. فاعتنت الآية بنهيهم عن موضوعات فيها إثم، أو ظلم للآخرين، أو خروج عما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأرشدهم إلى ما يرضاه الله منهم، ولا يسخطه. كالبر، والبر هو جماع الخير يشمل كل حسن من القول ,و ما فيه صلاح للمتكلم وغيره، وحرضهم أن تكون تقوى الله، باستحضار ما يرضاه، ومراقبة المتكلم لسانه في حدود ذلك، هي الدائرة التي يجري فيها كلامهم.

ولتكن التقوى أليف حياتكم في جميع الأمور، فإنكم ستحشرون إلى ربكم ليحاسبكم عما عملتم وعما قلتم.

10- إنما النجوى...ليتوكل المؤمنون.

النجوى التي يتأذى منها المؤمنون والتي تمسك بها المنافقون، هي من مكر الشيطان، يوسوس لحزبه من المنافقين ليدخل الحزن والأسى في قلوب المؤمنين، ويجعلهم يتوجسون خيفة من المستقبل، و يخشون أن يكون قد وقع لهم ضر لم يسمعوا به بعد.

وليس بضارهم... يقوي الله ثقة المؤمنين، ويبث الطمأنينة في نفوسهم، بتأكيد أن الشيطان وحزبه، هم أضعف من أن يدخلوا على المؤمنين أي ضرر، إلا بإذن الله.

أي إلا إذا قدر الله ونفذ ضررا بقدرته وإرادته. فكونوا واثقين أنهم لا يضرونكم، ولتكن عزائمكم قوية مطمئنة، وتوكلوا على الله حق التوكل باليقظة لكيد الشيطان وحزبه، والاستعانة بالله على إحباط ما يصرفون فيه خبثهم. فليكن التوكل على الله حليف المؤمنين باعتباره من مقتضيات إيمانهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾

بيان معاني الألفاظ :

التفسح : التوسع. تمكين غيره من فسحة يجلس فيها.

نشز : نهض من مكانه.

الدرجات : في الكرامة والفضل.

إذا ناجيتم : أردتم محادثة الرسول سرا.

بين يدي نجواكم : قبل نجواكم

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة للمؤمنين ليكون داعي الإيمان فيهم يطوعهم للإرفاق بإخوانهم في العقيدة. فإذا دعوا ليفسحوا في المجلس فليفعلوا، وإن تضايقوا قليلا. وإذا طلب منهم أن يرتفعوا من المكان لداعي خير فليسرعوا إليه، فالنشاط للمصالح من رشح الإيمان. إن من يفعل ذلك من المؤمنين استجابة لأمر الله واصطحابا لأدب الإسلام، يجزيه الله أفضل الجزاء فيرفع مقامه في الجنة. والله مطلع على ظواهر أعمالكم وعلى نياتكم فأصلحوا أعمالكم وأخلصوا لله.

ودعا القرآن المؤمنين إذا أرادوا محادثة الرسول حديثا خاصا، يسرونه ولا يجهرون به أن يقدموا قبل مناجاتهم صدقة توسع على الفقراء من بين سكان المدينة، وقد كان مجتمع المدينة يشمل عددا كثيرا من المحاويج. وعلل هذا الأمر بأن التصدق فيه خير كبير، ويزكي نفوسهم ساميا بها عن الشح، ويطهرهم بالاستعداد لمناجاة

الرسول. وأن الفقراء غير مطالبين بتقديم هذه الصدقة عند إرادة المناجاة، وأنه يغفر للمؤمنين تقصيرهم، هو رحيم بهم فلا يكلفهم ما يعسر عليهم.
لم يطل الزمن الذي طبق فيه هذا الأمر، ذلك أن بعض المؤمنين حسبوا أن الربط بين المناجاة وبين الصدقة سيكلفهم نفقات تشق عليهم. وظهر ذلك في أن كثيرا من المتعودين على مناجاة الرسول ﷺ ، تأخروا عن ذلك. راعى الله ذلك فخفف عنهم بإبطال الأمر بالصدقة عند المناجاة، وذكرهم بأن عليهم أن يواصلوا القيام بثوابت الدين من الصلاة والزكاة والطاعة لله ولرسوله، فإنه سبحانه تكفل بأن يجعل لهم بذلك زكاة لنفوسهم. والله لا يخفى عليه ما يجري في خواطركم، وحقائق أعمالكم، فأخلصوا له تنالوا رضوانه.

بيان المعنى العام :

11-يا أيها الذين آمنوا إذا قيل...بما تعملون خبير.

تواصل السورة توجيه المؤمنين إلى بعض الآداب الاجتماعية التي تمتن علاقاتهم وتمكن روابطهم. وهي تخاطب الصحابة الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فتوصيهم أن يمكنوا الوارد الجديد على مجلس رسول الله ﷺ من مكان يجلس فيه، إذا ازدحم المجلس بكثرة الحاضرين ويوسعوا له. وتم التحريض على هذا المظهر من مظاهر التآخي بأن الله يفسح لمن ييسر لأخيه مجلسا اجتهد راغبا في الفوز به. ولم تُحصرْ توسعة الفضل الإلهي بتقييدها زمانا ومكانا ونوعا لتعم. فتكون التوسعة الموعود بها تتناول ميادينها في الدنيا والآخرة بما يرغب المؤمن أن يجد فيه توسعة. فيوسع له في رزقه، و في علمه وفي ألطافه، وفي الآخرة في جنة عرضها السماوات والأرض. والظاهر أن الفاعل المقدر" إذا قيل " هو رسول الله اعتمادا على ما جاء في أسباب النّزول كما روي عن مقاتل : كان النّبي في الصفة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء شيوخ من أهل بدر قد سبقوا في المجلس، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم. وكان النّبي ﷺ يكرم أهل بدر فقال لمن حوله : قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر. فشق ذلك على الذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء، وقد أحبوا القرب من نبيئهم فسبقوا إلى مجلسه، فأنزل الله هذه الآية تطبيبا لخاطر الذين أقيموا، وتعظيما لواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها وواجب الاعتراف بمزية أهل المزايا. قال الله تعالى : (**ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض** - وقال : **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى**).ومعلوم أن السبب لا يخصص النّص، فيفهم

على أن الخطاب لجميع المؤمنين. ويكون حكما لجميع المسلمين كلما ضاق المجلس، وأمكن أن يسع المكان من قدم بتضييق السابق على نفسه، فليفعل. وأن هذا من مكارم الإرفاق بين المؤمنين الذي شرعه النبي صلى الله عليه في أكثر من مناسبة، وهو من أدب المواساة التي بُنيت عليها أحكام كثيرة.

وإذا قيل انشزوا فانشزوا... والنشوز معناه الارتفاع من المكان فالتفسح يكون مع بقاء المفسح جالسا، والنشوز يكون مع قيامه من مجلسه. ويفهم هذا إما على أنهم إذا دعوا إلى الخير فليقوموا له كما إذا أقيمت الصلاة أو دعوا إلى القتال أو إلى العون المتأكد. وحمله بعضهم على تأديب الذين يجلسون في بيت النبي ﷺ ويطيلون الجلوس رغبة منهم أن يكونوا آخر المتصلين برسول الله ﷺ، وكان هذا مما يثقل على رسول الله ﷺ، فنبهتهم الآية إلى أنهم إن لا حظوا إشارة بالارتفاع من المكان والخروج فليبادروا ولا يتباطؤوا. وأحكام المجالس في المسجد وفي غيره وحق السابق، وطرق ذلك مفصلة أحكامه في كتب الفقه.

يرفع الذين... هذا جواب يبين أجر من امتثل فأفسح المكان لغيره من جلوس أو قيام والذين بادروا إلى السبق لما دعوا إليه من خير. إن الله يرفع درجات ومقامات المفسحين والناشزين من المؤمنين لمعنى من دواعي ذلك. ثم عطف عليهم أهل العلم الذين اشتغلوا بمعرفة كتاب الله وأحكام دينه، وتعليمها للناس. فهم أهل لأن يكرموا، ويفسح لهم في مجالس العلم. فالدرجات المذكورة في الآية مفادها الكرامة عند الله والأجر، والثواب الذي يرتقي به المرضيُ عنه في رتب الكرامة والنعيم الأبدي. والله يعلم ظواهر أعمالكم وما تستبطنوه، فعلمه بظواهر أعمالكم كعلمه بنياتكم وقصودكم.

12- يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم...فإن الله غفور رحيم.

كان الرسول ﷺ يُسألُ فيجيب السائل في ملأ من النّاس. ويعرض بعضهم عليه مشاكله في مجلسه فيبين للعارض الوجه الأفضل، ويستفيد كما يستفيد السامعون. وكان بعضهم يرغب أن يشرف بقربه من رسول الله ﷺ، وأن يسأله حاجته سرا، فيستمع إليه ويهديه. وكان بعضهم يحصل عنده خبر يهم الجماعةَ، ولا يريد أن يفشيه قبل أن يطلع عليه النّبي ﷺ وحده فيحدثه به حديث السرار. وكان بعضهم يجد في القرب من رسول الله ومناجاته أنسا بالغا، فيعمد لمسارته وإن كان عرضه جهرا قضيته أفضل من وجوه ؛ ونحو ذلك من الصور. فنزل على رسول الله هذه الآية التي توجب على من يرغب في مناجاته منفردا أن يقدم قبل مناجاته صدقة ينتفع بها الفقراء الذين كانوا في وقت نزول الآية كثيرين. إذ أن مجتمع المدينة كان

يأوي المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء فضل الله ورضوانه، وكان بعض الوافدين المبايعين على الدين الإسلامي فقراء، وهم أصحاب الصفة. والزكاة كانت مواعيد توزيعها رأس السنة، أو حصاد الزرع وجني الثمار. والفترات بين ذلك قد تطول، والجائع في حاجة للقوت اليومي، فنزلت هذه الآية توجب على المناجي أن يتصدق بصدقة، لم يحدد مقدارها قبل المناجاة، والمناجاة أمر متجدد. فكان هذا الحكم يحقق أغراضا عدة، منها تكثير فرص الصدقة، ومنها تقليل المناجاة إذا كانت غير ضرورية، لينتفع المؤمنون أكثر ما يمكن من هديه، ولا ينفرد به المناجون زمنا طويلا. وليزكي المناجي نفسه ويطهرها بالصدقة. وإقدام المتصدق على اقتطاع جزء من ماله قبل مناجاة الرسول ﷺ تدل على أنه عكس داعية الاستئثار وسما بها إلى الإيثار، فيتطهر من الشح بالمال. وبما أن الفقر كان غالبا على مجتمع المدينة عجلت الآية بأن هذا التشريع لا يحرم الفقراء من مناجاة الرسول، فصرحت بأن غير الواجد لا يؤاخذه الله بعدم التصدق لأنه سبحانه يغفر القصور رحمة بالفقراء، وفهم كثير من المفسرين أن ما يرجح أن الأمر بالتصدق عند إرادة المناجاة للوجوب بهذه الخاتمة، إذ المغفرة تشير إلى تأكد التصدق. ويجمع المفسرون أن العمل بهذه الآية لم يطل، وأن هذا الحكم نسخ بعد أن عمل به بعض الصحابة كما تظهره الآية التالية.

13-ءأشفقتم أن تقدموا...والله خبير بما تعملون.

تبع تشريع التصدق شفقة عند بعضهم وخوف، إما من التصدق إذا تكرر موجبه وإما من العجز عنه؛ والسؤال سؤال إنكاري. وجمع صدقات تشير إلى أن حاجتهم لمناجاة الرسول ﷺ متجددة وكثيرة، وهو ما بعث في نفوس البعض ما بعثه. والله عليم بذات الصدور، ولذا فإنه بعد تشريع التصدق مدة لم تطل، أعقبه بنسخه وإبطال العمل به، مع التأكيد على أن الثوابت لا تخفف لشعور بعض النّاس بثقلها. فأشار قوله : فأقيموا الصلاة....إلى أن تزكية نفوسكم تحصل بما فرضناه عليكم من الصلاة وإيتاء الزكاة، وتوطين القلب على طاعة الله ورسوله في كل ما أمرتم به. فحافظوا عليها وداوموا القيام بها.

• أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (15) ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (16) لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ

أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الجنة : السترة.

لا تغني : لا تدفع عنهم.

استحوذ : استولى عليهم وصرفهم كيف يريد.

أنساهم : أضاعوه وتركوه.

حزب الشيطان : أنصاره وجنده.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب لأمر هؤلاء المنافقين الذين والوا اليهود، وتقربوا منهم، وكانوا عيونا لهم على المسلمين، اليهود الذين غضب الله عليهم، والحال أنه لا صلة تجمعهم بهم، إذ اليهود عنصريون يرفضون من لا يجري في عروقه الدم اليهودي، فهم غير مقبولين من اليهود، وخسروا أيضا صلتهم بكم. ويحلفون كاذبين كي يخفوا ما يبطنون، وما يعملون له من تثبيطكم. لقد هيأ الله لهم عذابا أشد ما يكون من العذاب لسوء فعالهم. عملوا على أن تكون أيمانهم وقاية تقيهم ما هم حقيقون به جزاء مكرهم وخبثهم. ومنعوا من رأوا فيه ميلا إلى الدخول في الإسلام، جزاؤهم عذاب يهينهم نفسيا كما يؤلمهم جسديا.

حسبوا أن ما جمعوه من أموال، وما رزقوا من أولاد، سيجدون فيه غناء يوم القيامة، وهم واهمون فلن ينتفعوا بشيء من ذلك ولو كان قليلا. هم سيلازمون النّار لا يخرجون منها أبدا، جزاء ما فعلوه.

يصحبهم خبثهم يوم القيامة وأيمانهم الفاجرة فيفضحهم الله يوم يحلفون له بالأيمان الكاذبة أنهم مسلمون، كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا. وهو يظنون أنهم بكذبهم وأيمانهم الفاجرة قد تمكنوا من شيء ينفعهم. يفضحهم الله ويشنع بهم بأنه قد انحصر فيهم الكذب المفضوح.

استولى عليهم الشيطان وقادهم إلى ما يريد، فأطاعوه، وحجبهم بذلك عن ذكر الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم فانقطعت صلتهم بالله. وتحولوا أنصارا وجندا للشيطان.

اعلموا أن حزب الشيطان قد انحصر فيه الخسران فلا أعظم خسارة وخيبة من الذين اتبعوه وساروا في طريقه الضال.

بيان المعنى العام :

14- ألم تر إلى الذين تولوا قوما...وهم يعلمون.

تفيد هذه الصيغة إثارة العجب من هؤلاء الذين سنتحدث عنهم الآية، عجبا لكل راء إذا لم ير تناقض المنافقين وسوء اختياراتهم. مع التشنيع عليهم ببغضهم للإسلام الذي دفعهم إلى موالاة اليهود، والتقرب إليهم، والتجسس على المسلمين وإبلاغ اليهود ما علموه وحرفوه عنهم حتى يتصلب اليهود في عداتهم للإسلام. إنهم بصنيعهم هذا كانوا ضالين أشد الضلال. تقربوا إلى اليهود الذين غضب الله عليهم، دون أن يحصلوا على أي فائدة من هذا التولي. ذلك أن اليهود منغلقون على أنفسهم لا يقبلون أي فرد لا يحمل الدم اليهودي ليكون من جماعتهم أو يستحق نصرتهم. فليس المنافقون من اليهود لا في الحال ولا في المستقبل. وبصنيعهم ذاك لم يكونوا منكم أيضا إذ تصلبوا في الإقامة على شركهم، فضاعوا بنفاقهم؛ وتعروا في مجتمع المدينة من كل ناصر.

ويضاف إلى سوء اختيارهم تركيبهم النفسي الفاسد، فهم يكذبون على المؤمنين، ويشيعون الشائعات المربكة للمجتمع، ويحضرون مجالس الرسول على أنهم من المؤمنين، ثم عندما يوقفهم الرسول ﷺ على نفاقهم بما يطلعه الله عليه، ينكرون ويحلفون الأيمان المغلظة نافين ما اتهموا به، وهم يعلمون أنها ليست تهمة ولكنها حقيقة.

15- أعد الله لهم...ساء ما كانوا يعملون.

إن تلونهم وحلفهم الأيمان الفاجرة، وعملهم الدائب على الإضرار بالمسلمين، مسجل عليهم تسجيلا لا تذهب منه صغيرة ولا كبيرة، فسيلقون جزاءه بما أعده الله وهيأه لهم من العذاب الذي تذهب النفس في تصور شدته كل مذهب. وهو جزاء عدل كفاء ما كانوا يعملون من سوء، بقصد خبيث عداء للحق بعد ما تبين.

16- اتخذوا أيمانهم....هم فيها خالدون.

شأن اليمين أن يكون الحالف مستشعرا عظمة من حلف به، فلا يحلف كذبا إلا من مرضت نفسه، وتدنس خلقه. فما بال المنافقين يحلفون كاذبين ولا يبالون ؟ عراهم القرآن بأنهم ارتكبوا ما ارتكبوه، لتكون أيمانهم ساترة لخداعهم، ونفاقهم. ذلك أنهم يعلمون علم اليقين أن المحلوف لهم، المسلمين، تربيتهم تلزمهم أن لا يحلفوا إلا وهم

صادقون. قصدوا المسلمين عن معاملتهم المعاملة التي يقتضيها سبيل الله الذي التزموا به. ومن ناحية أخرى كان قصدهم أن يمنعوا من حلفوا لهم بجملة من الطعون في الإسلام أنها طعون حقيقية، فمنعوا من رأوا فيه ميلا إلى الدخول في الإسلام عن اتباع الحق الطريق المبلغ لرضوان الله. وبقيامهم سدا يحول بين النّاس وبين الدخول في الإسلام، وإغوائهم وإغرائهم بالتمادي في الكفر استحقوا العذاب الذي يلقون فيه مع الآم الجسمية المهانة والذل.

- كان المنافقون يعتزون بما توفر لهم من أموال وأولاد. ولم يكن معظم الصحابة رضوان الله عليهم، وخاصة بعد الهجرة وقد تركوا ديارهم وأموالهم بمكة، لم يكونوا ميسوري الحال. تعاظم المنافقون باليسار الذي هم عليه من أن ينتسبوا لجماعة ليست في مستواهم من الثراء وما يتبع الثراء من مظاهر الحياة. فهددتهم الآية بأن كل ما تجمع لديهم لن يفيدهم شيئا يدفع عنهم عذاب الله. إن استكبارهم عن الدخول في الإسلام، وصدهم عنه، عقد بينهم وبين النّار صلة هي تلازمهم وهم يلازمونها، صحبة تامة بينهم، وخلود فيها لا يخرجون منها أبدا.

18- يوم يبعثهم الله جميعا...إنهم هم الكاذبون.

اذكر يا محمد يوم يبعث الله المنافقين يوم القيامة فيشهر بهم، ويفضحهم جميعا لا يستثني منهم أحدا. إنه يبعثهم على ما كانوا عليه من أخلاق النّفاق ومن سيرتهم في الدنيا، يحلفون بالأيمان المغلظة على النّحو الذي كانوا يحلفون به لكم ليأمنوا محاسبتكم لهم ومعاملتهم المعاملة التي تتناسب مع حقيقتهم. ويظنون أن أيمانهم تنفعهم بين يدي الله. يحسبون أنهم متمكنون مما ينفعهم. والله لا يخفى عليه شيء فيظهر قوة كذبهم، كأن الكذب انحصر فيهم. وكذب غيرهم لا يبلغ من الرقاعة والفساد مبلغ كذبهم.

19-استحوذ عليهم الشيطان...هم الخاسرون.

إظهار للسبب الذي بلغوا به هذا الخسران والفضائح. أنهم أطاعوا الشيطان وما يلبسه لهم وما يدعوهم إليه، واصلوا ذلك حتى استولى عليهم وصرف إراداتهم وأفعالهم إلى ما يرضى عنه، وقادهم قيادة المستسلم المغلوب على أمره. وبذلك تمكن من أن يبعدهم عن ذكر الله بعدا أضاعوا به الذكر القلبي والذكر اللساني. فحجب قلوبهم عن النّور الذي يضيء للسالك في الدنيا مناهج الحق والسعادة وييسر عليه العبادة والقربات. فحولهم إلى جنده وقوته التي بها ينشر الشر ويحول بين النّاس وبين الخير، ويثبت الكفر ويمنع من الإيمان كما قال تعالى مسجلا لخبث

الشيطان: (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين)[1] .
انتبهوا لخطر إبليس : إن حزبه المطيع له المتحكم في اختياراته انفردوا بالخسران وانحصر فيهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ

لأغلبن : الغلبة بالقوة والقهر.
العشيرة: قرابة الرجل في جد غير بعيد.
التأييد : التقوية والنصر.
روح منه : عنايته وألطافه.

بيان المعنى الإجمالي:

إن الذين أطبقت الغفلة على عقولهم ومواهبهم، فصمموا على معاداة ما يأمر الله به ويشرعه على لسان رسوله، قد قرر الله فيهم أنهم يكونون أذل النّاس منغمسين في المهانة. وثّق في علمه الذي لا تبديل فيه أنه سيهزم كل من استكبر عن شرعه، والله غالب وكل من ناوأ رسله مغلوب. إن الله متصف بالقوة القاهرة، العزيز الذي طوع كل الكائنات لأمره.

الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر، وتمتلئ عقولهم وأرواحهم بذلك، يقوم بينهم وبين الذين يعادون الله ورسوله انفصام كامل، فلا يحملون أي بذرة من الود لهم. ولو كانت الصلات النّسبية والاجتماعية موفورة، فإن إخلاصهم لدينهم يقطعهم عن علاقات البنوة والأبوة والأخوة والعشيرة إذا كانت ممن يحمل العداء للإسلام.

---

[1] سورة الحجر آية 39

إنهم بإخلاصهم هذا قد تحقق في قلوبهم الإيمان ، وثبت ثبوتا لا يمحى، فنصرهم ربهم على دواعي النفس ونزغات الشيطان. واستمرت نصاعة الإيمان تشع في عقولهم وأرواحهم.

وجزاؤهم في الآخرة جنات تتخللها الأنهار يقيمون فيها إقامة الخالدين لا يخرجون منها أبدا. وينعمون بإحساسهم أن الله قد رضي عنهم. وذلك قمة السعادة. كما أنهم راضون عن وضعهم أتم الرضا فلا يتعلقون بشيء وراء ما هو بين أيديهم.

سعدوا لأنهم حزب الله وأنصار دينه وشرعه. انتبهوا واعلموا أن حزب الله قد تفردوا بجمعهم لمقومات الفلاح والنجاح.

بيان المعنى العام :

20- إن الذين يحادون...في الأذلين.

إن الذين فسدوا فسادا بلغ أن الصفة المعرفة بهم، أنهم جعلوا كل همهم معاداة الله ورسوله، والوقوف موقفا مناقضا لما يأتيهم من بيان للشريعة والعقيدة والسلوك، مظهرين للطاعة والانقياد مبطنين خلاف ذلك ؛ إنهم في أسوأ درجات الذل، ومنغمسون في المهانة. وهؤلاء هم المنافقون، فسوّتْهمْ هذه الآية مع الكافرين الذين تحدثت عنهم الآية الخامسة : إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا.وصرحت بالحكم النافذ فيهم: أنهم في أشد وأسوأ حالات الذل.

21- كتب الله لأغلبن...قوي عزيز.

إن الذل والمهانة والهزيمة لا مفر لهم من ذلك، ذلك أن الله قدر تقديرا لا يقبل النقض، ووثق في علمه أنه سيهزم المنافقين، وينصر رسوله عليهم. وما قضاه محقق الوقوع في الأجل المحدد عنده، وهذه هي سنته مع رسله جميعا. وأنى للذين حادوه أن يفلتوا من قبضته وهو المتصف بالقوة الحق، التي لا يعاكسها ولا يقوم أمامها أي قوة، فكل قوة تناقض إرادته مهزومة متلاشية. وهو العزيز الذي جعل كل ما يجري في الكون مُطوعًا لما يقضي به ويريده.

22- لا تجد قوما يؤمنون...إن حزب الله هم المفلحون.

كتب الله الذل على المنافقين، وقدر هزيمتهم ماديا ونفسيا، فلا صلة بينهم وبين المؤمنين الصالحين، كل فريق له وجهة وغاية، مناقضة لوجهة الفريق الآخر ووجهته.

لو بحثت في الحياة الواقعية عن علاقة تربط بين الذين يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئا، ويُقوّمون أعمالهم على أساس أنهم محاسبون عليها وموقوفون بين يدي الله،

والبعث حاضر في تفكيرهم يضيء لهم طريقهم، ويحميهم من المعصية والإثم ؛ لو بحثت عن صلة ود بينهم وبين من اتخذ طريقا معاكسا لهدي الله ومعارضا لمنهجه الذي يرضاه، ومخالفا لرسوله، فإنك لا تجد فردا واحدا يحمل في نفسه صلة ود لهؤلاء. إنهم ملوثون فلا يتصور أن تجد المتطهرين يقتربون منهم. وفي هذه الصيغة مبالغة في النّهي عن موادة من عقد عزمه على العصيان والمكر بالدين. إذ الآية تنبه من لم ينتبه، فظن أنه إن أحب المحادين لله ورسوله أن ذلك لا يضره مع خلوص إيمانه. وتحليل ذلك أن الود يقتضي حب الآخر وتمني الخير له، والأنس به والقرب منه. تنسحب هذه العواطف على الدنيا والآخرة. فالمودة تقتضي أنه لا ينكر عليه، وأنه يرجو له السلامة والفوز. وأن يكون قريبا منه في الدنيا و الآخرة. والود يصحبه التسامح في الحقوق، بل تفضيل الودود على النفس في بعض الأحوال. هذا المستوى من التقارب لا يمكن أن يحصل مع الاختلاف في التصور للوجود وفي منزلة الإنسان فيه. وفرق بين الود وبين النّصفة وعدم التعدي، واحترام الجانب الإنساني، واحترام الحقوق في النفس والمال وعدم التعدي عليها، وحسن الخلق في التعامل. فالمسلم مأمور بالعدل في التعامل وإن كان الطرف الثاني محادا لله ورسوله، ما دام لم يشهر العداء بالتعدي. قال تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)[1] وبناء على هذا فمن أعلن عداءه للمسلمين، ومثله من يؤذي المؤمنين لكونهم مؤمنين، فإن الواجب على المسلم أن يقطع معه كل صلة، وأن يعزم على عداوته، ولا يبدو منه أي مظهر من مظاهر التقرب والود.

ثم أكد القرآن النّهي عن موادة من حاد الله ورسوله، بأن صلة القرابة والدم والنسب التي قويت بالتربية، والمخالطة الطويلة، والإحساس الاجتماعي، من علاقة الولد بوالديه، أو علاقة الوالد بالولد، أو علاقة الأخوة في الأسرة ببعضهم، أو علاقة الرابطة النّسبية بين الفرد وعشيرته الذين يجتمع معهم في أب واحد؛ كل تلكم الروابط تذوب ولا يبقى لها أي تأثير بين المسلم وبين من يناصب الدين العداء.

أولئك كتب... تفتتح الجملة باسم إشارة يستحضر ويحصر الذين أخلصوا دينهم لله وقطعوا صلاتهم بكل من يحاد الله ورسوله، قطيعة تعلو على أواصر الأبوة والبنوة والأخوة، والأهل والعشيرة، لما امتلأت قلوبهم من حب الله وحب رسوله وحب الحق وحب المؤمنين ؛ أولئك أعددت جزاءهم، أني وثقت الإيمان في قلوبهم بصفة

---

[1] سورة الممتحنة اية 8

لا تقبل المحو ولا التغيير، فهم يعيشـون فـي أنسـه سـعداء بـأنواره، ونصـرتْهُم علـى نوازع النفس، ووساوس الشيطان، بما أحطـتْهم بـه مـن ألطـافي. فهـذا مـا يقتضـيه قوله: بروح منه.

ومع ما قرره في نفوسهم من الإيمان ومـا يفيضـه علـيهم مـن عنايتـه وألطافـه، فقـد وعدهم ووعده لا يخلف، أنه سينتهي بهم يوم القيامـة إلـى الجـزاء الكـريم، فـي جنـات تتخللها الأنهار فيها مالا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر علـى قلـب بشـر، ومـع النّعيم المادي يؤمنهم من الخوف فما مكنهم منه يشعرون أنـه بـاق بقـاء لا ينقطـع، هـم خالدون فيه. وتبلغ السعادة أقصـاها بشـعورهم واطمئنـانهم إلـى أن ربهـم قـد رضـي عنهم. ويمتلئون رضى بما أوتوا فـلا يطمحـون إلـى شـيء وراء مـا حصـلوا عليـه. شارتهم : أنهم حزب الله فلا انقطاع بينهم وبين ربهـم. ومـن بلـغ هـذه المرتبـة ومـن ضمهم هذا الرباط، فأحسن ما يوصفون به أنهم الذين تحقق لهم النّجاح الكامل.

أكملت بحمد الله وعونه تفسير هذه السـورة صـبيحة يـوم الأربعـاء 2 جمـادى الثانيـة 2014/4/2-1435

سورة الحشر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف لقول الله تعالى فيها :هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول **الحشر** آية 2 وسماها ابن عباس رضي الله عنه بسورة بني النّضير لذكر قصة بني النّضير فيها. وهي سورة مدنية. وحسب ترتيب المصحف هي السورة التاسعة والخمسون وحسب ترتيب النّزول عدت الثامنة والتسعين، نزلت بعد سورة البينة، وقبل سورة النّصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4)

بيان معاني الألفاظ :

سبح : نزه الله عن كل ما لا يليق بكماله.

الحشر : جمع اليهود ليخرجوا من جزيرة العرب.

الاحتساب : الظن البليغ.

قذف : رمي بقوة. ومعناه الحصول العاجل.

الرعب : الفزع وشدة الخوف.

يخربون : يهدمون، ويفسدون

الاعتبار: النّظر في دلالة الأمور على لوازمها.

كتب : قدر تقديرا ثابتا حتما.

الجلاء : الخروج من منازلهم خروجا أبديا.

بيان المعنى الإجمالي :

نزه الكون كله رب العزة من كل نقص، نزهه المؤمنون بلسانهم، ونزهته بقية الكائنات بلسان حالها تبعا لما أجراها عليه من الحكمة والدقة والتناسق بينها. وهو سبحانه المتصف بالعزة فالكل طوع أمره. وهو المجري لها حسب حكمته البالغة. من شواهد ذلك أنه هو وحده الذي أخرج الذين كفروا من اليهود من ديارهم وحصونهم. فكان إخراجهم أول جمع لهم خارج الجزيرة العربية، ثم تتابع إلى أن تم إجلاؤهم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. كانت الظروف المادية تمكنهم من الصمود، فكنتم ايها المؤمنون تقدرون صعوبة التغلب عليهم، وكانوا هم كذلك مطمئنين إلى حصونهم وقوتهم لتحميهم مدة طويلة من الاستسلام. وغاب عنهم أن تدبير الكون بتقديره سبحانه. وفي لحظة ارتجفت قلوبهم، وامتلأت خوفا ورعبا، فاستسلموا على أن يحمل كل ثلاثة منهم حمل بعير من أمتعتهم ويخرجوا من ديارهم. وأخذوا يخربون بيوتهم طمعا في أسكفة باب أو مصراع. وخرجوا يعلوهم الذل والهزيمة والصغار. ليكن في هذه الحادثة وتصرف القدرة الإلهية فيها عبرة لكم تقيسون عليها ما تواجهونه في نصرة دين الله. انظروا في ذلك ببصائركم.
تم القضاء على وكر الفساد والمكر بالمسلمين على النحو الذي تم جلاؤهم حسبما قدره الله في سابق علمه. ولولا ذلك التقدير لسلطكم عليهم فعُذبوا في الدنيا بالقتل والأسر. وعلى جميع التقادير لهم عذاب النّار يوم القيامة.
إخراجهم من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم، واستيلاء المسلمين على أرزاقهم واستسلامهم وكفاية الله المؤمنين القتال، لأنهم أعلنوا العداء لله ولرسوله. ومن يناصب العداء للحق الوارد منه تعالى فإنه يعذب العذاب الشديد. إن قدرة الله على إنزال أشد العذاب بمن يعادي هداه أمر لا مرد له.

بيان المعنى العام :

1-سبح لله ما في السماوات...وهو العزيز الحكيم.

فاتحة هذه السورة قريبة من فاتحة سورة الحديد، سجل فيها القرآن أن السماوات وما حوته، وأن الأرضين وما أقلته، كلها ناطقة بلسان حالها، أو بلسان مقالها بأن الله تعالى وتقدس عن كل نقص، وتعالى عن كل شبه، وأنه أحسن خلق الكائنات، وأعطاها قوانينها الدقيقة التي تسير عليها. (وإن من شيء إلا يسبح بحمده)[1] وهو

[1] الإسراء 44

المتصرف فيها وهو الذي أخضع الخائنين لسلطان الإسلام وأجلاهم. فبعزته انقادت له الكائنات، وبحكمته جرى التصرف فيها.

2-هو الذي أخرج الذين كفروا...فاعتبروا يا أولي الأبصار.

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وجد قبائل يهودية مقيمة حول المدينة: النضير، وقريظة، وخيبر. بنوا الحصون وخططوا قرية سموها الزهرة. وجمعوا كثيرا من المال، وملكوا المزارع. وعقدوا بينهم وبين الأوس والخزرج حلفا ومعاملة. وهم من نسل هارون عليه السلام. استوطنوا منازلهم إثر موت موسى عليه السلام. وبعد أن استقر النبي ﷺ حرر وثيقة تؤمنهم، وتؤمن المؤمنين من خيانتهم، فكانت عقدا واجب الاحترام من الطرفين. بقي هذا العهد محترما إلى السنة الثالثة من الهجرة التي غزت فيها قريش المدينة، في وقعة أحد واستشهد فيها كثير من الصحابة. فرحت قريظة لما أصاب المسلمين من خسائر، ورأت أن الفرصة مناسبة لينقضوا ما عقدوه مع رسول الله ﷺ، وليدبروا المؤامرات الخبيثة، وتتابع مكرهم بحلفهم مع قريش ليكونوا معهم يدا واحدة في الإجهاز على الإسلام. ومن إعداد خطة لقتل الرسول إذا جاءهم إلى منازلهم. أطلع الله رسوله على ما خططوه، وتبين أن بقاءهم بجواره في المدينة خطر على الأمة والدين. فاتخذ القرار لحسم هذا الشر، وبعث إليهم محمد بن مسلمة يعلمهم أنه بعد ما توالى من خياناتهم وإضمارهم الشر للمسلمين، أن عليهم أن يرحلوا عن منازلهم وحصونهم. قبلوا في أول الأمر، ولكن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الثبات، وأنهم سيؤيدونهم بصناديد المقاتلين. فدخلوا حصونهم وأعلنوا استعدادهم للقتال. فخرج إليهم الرسول ﷺ وحاصرهم، ورأوا أن ما وعدهم به المنافقون وعد خلّب، وقذف الله في قلوبهم الرعب. فطلبوا الصلح من النبي ﷺ. وانعقد على جلائهم، ويحمل كل ثلاثة أبيات حمل بعير مما شاؤوا من متاعهم، فجعلوا يخربون بيوتهم ليقتلعوا الأسكفة والباب. وتوزعوا بين خيبر ومدن من أرض الشام.

هو الذي أخرج. تفرد الله المتحكم في الأرض والسماء بتنفيذ تقديره فأخرج الذين كفروا من أهل الكتاب، النضير الذين كفروا بمحمد ﷺ مع أن كتابهم، وآيات صدق الرسول واضحة بينة، تدعوهم إلى الإيمان والدخول في دين الله. فتصميمهم على الكفر غشى على بصائرهم.

لأول الحشر.. للحشر الأول، جمعهم للخروج من الجزيرة العربية وجلائهم منها. وهو أول جلاء تتابع بعده إخراج بقية الخلايا اليهودية حتى تطهرت الجزيرة منهم.

كما تم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنفيذا لوصيته ﷺ : لا يبقينّ دينان في جزيرة العرب.

ما ظننتم أن يخرجوا... سجل القرآن ما يفيد تصويرا للأوضاع التي كان عليها بنو النضير. كانوا في منعة جمعوا في حصونهم من الطعام ما يجعلهم يصمدون للحصار مدة طويلة، ومن السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، ومن متانة الحصون ما يجعل اقتحامها أمرا عسيرا. كان المؤمنون يعرفون ذلك في حصونهم الستة، وأمرُ رسول الله بالخروج إليهم لا يقبل المراجعة بعد أن تهيأ ﷺ لقتالهم. فما كان المسلمون يظنون أنهم يخرجونهم ويستسلمون لهم بسهولة.

وظنوا انهم مانعتهم. وكذلك كان بنو النضير واثقين من قوتهم ومن مناعة حصونهم وأنهم سيصمدون إلى أمد طويل حتى يأتيهم المدد.

فأتاهم الله...هذا تعبير عن إظهار المسلمين عليهم بتقدير عجيب، فاستسلموا بعد أن كانوا صمموا على المقاومة وأعدوا لها. ذلك أنهم حسبوا كل الفروض المادية واحتاطوا لها، فجمعوا لها ما اطمأنوا إليه، وبقي أمر خارج عن طاقتهم، وعن تقديراتهم، هو التقدير الإلهي في تصريف الأمور، وتصرفه سبحانه في بنائهم النفسي.

حصل الرعب في نفوسهم دفعة واحدة، تحول الصمود، إلى استسلام وخوف، وتحولت الشجاعة والاعتزاز بالقوة إلى خوف ورعب. أصبح كل همهم النجاة بأرواحهم، والإبقاء على حياتهم. أخذوا يخربون بيوتهم ليقتلعوا أسكفة باب لعلهم يحتاجون إليها في مقامهم القابل. وحتى لا يبقوا بعد استسلامهم ما يمكن أن ينتفع منه المسلمون. وكان عدم استسلامهم من أول الأمر سببا في تخريب المؤمنين لبيوتهم. فهم فشلوا في الدفاع، كما فشلوا في تقدير الأمور.

فاعتبروا... يلفت القرآن نظر المؤمنين إلى التأمل في هذه الحادثة، وما تم فيها من ألطاف أحاطت بالمسلمين، ومن تضليل لأعدائهم، ليعلموا أن وراء الظواهر أسرارا يعلمها الله، ويجري عليها أمره وهو المتحكم فيما في السماوات وما في الأرض. وأن القوة لله، وأن قوة الإيمان الواثق بالله فوق قوة الحصون، فليعتمدوا على ربهم في المضي بهذا الدين الذي استحفظوا عليه لينشروا هدايته في الآفاق. وليتعظوا بما تم لهم من نصر في يسر.

3-ولولا أن كتب الله...عذاب النار.

ما تم هو خروجهم يحملون شيئا من أمتعتهم وترك الباقي من أموالهم ومزارعهم للمسلمين. خرجوا ناجين بحياتهم على ذل. ولولا أن الله كتب في سابق تقديره هذا

المصير لهم، فحولهم عن المقاومة إلى الاستسلام، لولا القدر السابق لسلط عليهم عذابه في الدنيا بالقتل والأسر. ولكن حكمته قدرت أن ينتصر المسلمون عليهم ويرثوا أرضهم وديارهم دون أن يقتل أو يجرح منهم أحد. فاجتث وكر من أوكار الفساد والكيد للمسلمين. والحمد لله رب العالمين.

ومن جانب آخر فإن عذاب النّار على كفرهم ليس لهم عنه محيد.

4-ذلك بأنهم شاقوا...شديد العقاب.

ذلك كل ما حصل في غزوة بني النّضير مما فصلته الآيتان السابقتان، كان بسبب أن يهود بني النّضير صمموا على معادة الله ومعاداة رسوله. عادوا الرسول لأنه بلغهم عن ربهم ما هم مأمورون باتباعه.

وقاعدة عامة يجري عليها عاقبة أمر البشر، أن كل من يعادي الله وينتصب خصما له ولهدايته، فإنه سيعاقبه عقابا شديدا. وهو شديد العقاب لا يحول بينه وبين جزاء كل مفسد بما صنع أي حائل.

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝

بيان معاني الألفاظ:

بإذن الله : برضاه.

اللينة : النّخلة ذات الثمر الطيب.

ليخزي : ليهين.

الفاسقين : الكفرة من يهود بني النّضير

الفيء : الغنيمة التي تحصل بدون قتال.

أوجف : أصله الركض للإغارة.

ما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب : ما تحقق لكم بقتال على الخيل أو على الإبل.

دولة : تداول الأموال.

بيان المعنى الإجمالي:

قطع بعض المجاهدين نخلتين أو أكثر قليلا من نخيل بني النّضير توسعة لمعسكر الجيش، أو تخويفا للمحاصرين. فنادوا من حصونهم أن هذا فساد في الأرض يناقض ما تدعيه يا محمد أنك تريد الإصلاح. أجابهم القرآن بأن الله رضي على الجيش الإسلامي ما يتخذه من قرارات بقصد الإسراع بالنصر، لا بقصد الإفساد. وأن ما فعلوه هو إذلال للكافرين. وما آل إليكم من مال بني قريظة بعد الصلح معهم، إنه مال ما ركبتم لأجل الاستيلاء عليه خيلاً ولا إبلا، ولم تقع معركة تعرضتم فيها لقتل أو جرح. بل إن الله قذف الرعب في قلوب بني النّضير فتركوا أموالهم وخرجوا بما خف حسب عقد الصلح. فلا يحق لكم منه شيء. وقسمه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين الذين كانوا فقراء بعد أن تركوا أموالهم في مكة وحال بينهم وبينها كفار قريش. وأخذ منه نفقة عياله.

ثم بين القرآن ما يحصل عليه المؤمنون بدون قتال من أموال الأعداء أنه يقسم بين الأنواع التالية : قسم لله ولرسوله، وقسم لقرابة رسول الله، وقسم لليتامى الذين فقدوا آباءهم ولم يتركوا لهم ثروة تكفيهم حاجاتهم. وقسم للمساكين، وقسم للمسافر الذي لا مال معه في رحلته وإن كان غنيا في بلده.

إن هذا التوزيع يخرج بكم عما كان عليه العرف الجاهلي من تكديس الأموال عند بعض الأفراد، وحرمان الآخرين منه، فبهذا التوزيع يتداول المسلمون المال بينهم، وينشط الاقتصاد وتقل البطالة

بيان المعنى العام :

5- ما قطعتم من لينة...وليخزي الفاسقين.

واصل القرآن تسجيل غزوة بني النّضير، ودفع عن المجاهدين اللائمة فيما فعلوه. تقوم حول قرية بني النّضير المحاصرة من الجيش الإسلامي، مزارعهم وحقولهم. وعمد بعض أفراد الجيش الإسلامي إلى قطع نخلتين أو نحو من ذلك، إما لتوسيع المعسكر، وإما لتخويف المحاصرين وتهديدهم بأن حوائطهم تحت سلطان الجيش الإسلامي يفعل فيها ما يشاء. نادى اليهود من حصونهم : يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النّخيل؟

أجابهم القرآن بهذه الآية :رفع الله الحرج عن الذين عمدوا لقطع بعض نخيل المحاصرين، وأن ما فعلوه ما كان بقصد الإفساد في الأرض، ولكن لتعجيل حسم المعركة. وأنه رضي من المؤمنين اجتهادهم فيما يرونه من مصلحة في حربهم.

فمن قطع نخيلهم لا حرج عليه، ومن أبقاها ولم يقطعها لا لوم عليه. وكلا الفريقين واقع موقع الرضا من رب العالمين. فما قطعتم من لينة (نخلة) وما تركتم من النخيل قائمة فروعها من الجريد والشماريخ على أصولها المرتفعة، فإن ذلك حال محل الرضا من رب العالمين. أذن لكم فيما ترونه الأصلح ليعجل لكم بالنصر، وليخزي الكفرة ويذلهم. ومن هذه الحادثة ورضا الله عن الفريقين استنبط المجتهدون أنه إذا كان الانتصار على الأعداء يقتضي قطع أشجار العدو أو تخريب معالمه ليستسلم لا بقصد الفساد في الأرض، فإنه لا مانع منه.

6- وما أفاء الله على رسوله...والله على كل شيء قدير.

انهزم بنو النضير شر هزيمة، وخرجوا مجللين بالذل، وتركوا كل ما يملكون إلا ما خف حسب بنود الصلح، أن كل ثلاثة يحملون على بعير واحد ما يختارونه من أموالهم. ولم يتم الاستيلاء على ما بقي من أموالهم بالنزال الحربي، والكر والفر على ظهور الخيل، أو على أقتاب الإبل. ألقى الله في قلوبهم الرعب ففروا صاغرين، ولا يدعي أحد أن ذلك قد تحقق بفضل قتاله وشجاعته وخبرته الحربية. **ولكن الله يسلط...** إن الأموال التي تركوها لا يدعي أحد أنه حقيق بتملكها، وذلك لأن الله سلط رسوله على بني النضير، وقذف في قلوبهم الرعب بتقديره، لا بقتالكم. والله يمكن رسله من التسلط على من يشاء. يثبط عزائمهم ويحرمهم الطاقة، فيتضخم الشعور باليأس في نفوسهم، فيستسلمون لرسل الله. كما أنبأ به موسى عليه السلام قومه أنهم سيفتحون الأرض المقدسة بمجرد دخولهم: (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون)[1]

ويفهم من ذلك أنه لا حق لأحد في الأموال التي تركها بنو النضير. وهو ما قام به النبي ﷺ ، فإنه لم يخمس الفيء كما فعل في بدر، وإنما قسمه بين المهاجرين الذين كانوا في ضيق بعد أن تركوا أموالهم التي استولى عليها مشركو مكة وأضاف إليهم ثلاثة من الأنصار. وكان الأنصار ﷺ وسعوا على المهاجرين، وشاركوهم في أموالهم. فكفاهم الحاجة، وكفى الأنصار ما كانوا يتحملونه. وخصص صلى عليه وسلم لنفقته قسطا منه. كما جعل قسما من ذلك الفيء في السلاح.

7-ما أفاء الله على رسوله...كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم..

ثلاث آيات وردت في القرآن تبين حكم ما حصل عليه المسلمون من أموال أعدائهم.

---

[1] سورة المائدة آية 23

الآية السابقة أفادت أن أموال بني النّضير لم يستول عليها الجيش الإسلامي بجهاده، ولكن الله قذف الرعب في قلوب بني النّضير، فاستسلموا وتركوا أموالهم. ليس لأحد فيها حق وهي لرسول الله يضعها حيث شاء. فما جاء فيها هو خاص ببني النّضير لا يتجاوزه إلى غيرهم.

الآية الثانية: هي هذه وقد فهمها معظم العلماء على أن ما تمكن منه المسلمون من غير حرب بعد غزوة بني النّضير، ولكن العدو استسلم وترك أمواله، ولم يتكلف الجيش الإسلامي عناء الجهاد. فإن الأموال المستولى عليها، هي لله ولرسوله، ولذي القربى، واليتامى والمساكين، وابن السبيل. يتصرف فيها ولي الأمر: الرسول ﷺ في حياته، وأئمة المسلمين بعد ذلك فيما سماه الله. فتكون هذه الآية فيما يستقبل والآية السابقة في أموال بني النّضير.

ومن العلماء من فهم من هذه الآية أنها تكملة للآية السابقة وتوضيح لما أجمل في قوله فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، أي إن حكم تلك الأموال أن توزع بين المصارف الخمسة المذكورة فيها. لا يستحق منها المقاتلون شيئا. وتصرف رسول الله فيها في المصارف الخمسة.

واستند إليها مالك في قوله إن ما تم فتحه بدون قتال في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك بعد انتقاله للرفيق الأعلى، يجري أمره على ما جاء في الآية الثانية هذه من صرفه في الأوجه الخمسة: 1لله ولرسوله -2 ولذي القربى -3 ولليتامى -4 والمساكين -5 وابن السبيل. ومصرف الله ورسوله يستحق منه رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة عياله، وكذلك ولي الأمر من بعده، ثم يصرف ما فضل في المصالح العامة للمسلمين، ومنها دور العلم والعلماء. وذوو القربى هم قرابة رسول الله ﷺ يعطى فقراؤهم من الفيء بإجماع. واختلف في إعطاء أغنيائهم، وأكثر المجتهدين على إعطائهم لأنه حق لهم بنص الآية وغير مقيد بالفقر. وهم بنو هاشم وبنو المطلب. واليتيم من مات أبوه وكان فقيرا، وصرح به لئلا يحرم من الفيء بتوهم أنه لا يسهم في الجهاد.

الآية الثالثة: آية سورة الأنفال محملها على ما غنمه المسلمون بجهادهم، فإنه يقسم على خمسة أسهم. الأخماس الأربعة للمجاهدين على ما تقدم بيانه في سورة الأنفال. والخمس لله ولرسوله، ولذي القربى، واليتامى والمساكين، وابن السبيل.

كيلا يكون دولة...إن ذلك التوزيع لما ينتقل من أموال الأعداء بدون قتال (الفيء) هو توزيع يحقق حكمة ومقصدا شرعيا راعاه الله في الأموال، أن لا تتكدس عند فريق ويحرم منها الآخرون. فكان من المقاصد الشرعية تهيئة الظروف التي تجعل

المال موزعا بين أكثر عدد ممكن. ذلك أن المال إذا استقل بمعظمه أفراد قليلون بما يفوق احتياجاتهم وقدراتهم على تنميته، تكون نتائجه سيئة على المجتمع، وعلى التنمية. وبالعكس فإنه بمقدار ما يكون المال متداولا بين أعضاء الأمة يتحرك الاقتصاد بما يولده توزع المال بين أكثر عدد، من توسع الحاجات، ونفاق السلع، وازدهار الصناعات، وبالتالي نفاق سوق الشغل والقضاء على البطالة.

سجل عبد الله بن غنمة الضبي العرف الجاري عليه توزيع المغانم في الجاهلية، لما قال مخاطبا بسطام سيد بني شيبان :

لك المرباع منها والصفايا *** وحكمك والنشيطة والفضول

يقول له إنه برئاستك تستحق ربع المغانم. ولك وحدك الصفايا النفيس من المغانم الذي لا نظير له. وكذلك ما صالحت عليه عدوك من المال فإنك تستأثر به لأنك القائد. ولك النشيطة وهو ما أصابه الجيش في طريقه من مال قبل القتال. وكذلك الفضول وهو ما يبقى من القسمة فريدا لا يقبل القسمة، كفرس أو درع.

وبذلك ينتظم توزيع الفيء مع بقية التشريعات الإلهية التي راعت ذلك كتوزيع التركات، ومشاركة العامل لرب المال في نتائج المضاربة، والمزارعة والمغارسة، والمساقاة. وتوزيع الزكاة بين المصارف المذكورة. والأموال غير المملوكة لمعين كالأرض الموات واللقطات، مما قام منه مقصد شرعي يقيني يراعيه الفقيه في استنباط الأحكام.

وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝

بيان معاني الألفاظ:

التبوء: اتخاذ مكان يعود إليه صاحبه بعد أن ينتهي من أعماله.

حاجة: رغبة في شيء من الفيء.

الإيثار : يقدمون على أنفسهم غيرهم.

الخصاصة : شدة الاحتياج.

شح : فقد السماحة من النفس، وعمق الطمع في المال والحرص على عدم بذله.

المفلحون : الظافرون بالخير.

الغل : الحقد والبغض. والاعتقاد الرديء.

بيان المعنى الإجمالي :

من مقتضيات الإيمان أن تقبلوا وتطبقوا كل ما أمركم به رسول الله ﷺ، وأن تنتهوا عن كل ما نهاكم عنه. وتحصنوا بالتقوى واستحضار أن الله مطلع عليكم. واعلموا أن عقاب الله شديد لمن أعرض عنه.

ثم أتم القرآن مقيدا استحقاق، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، حظهم من الفيء بالفقر. وقد كان أكبر عامل في خصاصتهم إخراج المشركين لهم من ديارهم وأموالهم واستيلائهم عليها. وما خرجوا إلا ابتغاء نيلهم فضل الله ورضوانه، ولنصرة دين الله ورسوله. تميزوا بأنهم الصادقون في إخلاصهم أتم الإخلاص.

إن الأنصار الذين اتخذوا المدينة دار قرارهم، دار الهجرة ودار الإيمان من قبل أن يهاجر إليها المهاجرون قد سمت نفوسهم وتطهرت أخلاقهم، فهم يحبون المهاجرين حبا جعلهم يقاسمونهم دورهم وأموالهم، فلم تتعلق نفوسهم بشيء مما ناله المهاجرون من فيء بني النضير. بل إنهم يؤثرون المهاجرين على أنفسهم، ويقدمونهم عليها، ولو كانوا في وضع غير مرفه. إنهم تطهروا من الشح ونقوا بواطنهم منه. ومن يحم نفسه من داء الشح فقد فاز في امتحان الدنيا وتهيأت له السعادة من الله.

ثم تعرض القرآن لمن انتسب للأمة الإسلامية بعد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أسلم في عهد رسول ﷺ، وفي العهود التي تلته إلى يومنا هذا. فللفقراء منهم حظهم من الفيء. إذا صفت ضمائرهم فأحبوا الصحابة رضوان الله عليهم وتقربوا لربهم بدعائهم لأنفسهم بالمغفرة كدعائهم بذلك لمن سبقهم إلى الإيمان. ويدعون ربهم أن يطهر قلوبهم من كل حسد وبغض لمن اتصف بالإيمان من السابقين أو المعاصرين لهم.

بيان المعنى العام :

7- وما آتاكم الرسول...إن الله شديد العقاب.

هذه قاعدة عامة وهامة من قواعد التدين. أن ما بلغه لكم الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر عن الله، فاقبلوه عاملين به، فتضمن قوله " فخذوه"1- قبول الأوامر وعدم الاعتراض عليها، واعتقاد أن الخير فيما أمر به 2- العمل بها والاجتهاد في تطبيقها على النحو الذي أمر به. وكذلك الانتهاء عما نهى عنه. واجعلوا تقوى الله حاضرة في عقولكم وضمائركم. التقوى كالبوصلة التي تحدد للإنسان اتجاهه، وتنبهه إن هو حاد حتى لا يضيع في متاهات. واحذروا من التهاون بما أمر به أو نهى عنه، فإن عقاب الله شديد لمن أعرض عنه.

8- للفقراء المهاجرين...هم الصادقون.

هذه الآية مرتبطة بما جاء في الآية السابقة: ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ارتبطت بالأصناف الأربعة، وقيدت استحقاقهم للفيء بالفقر. وتأكد إعطاؤهم بعامل آخر مع الفقر : الهجرة، التي كشفت عن خصاصتهم بأن الكفار تسلطوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم واستولوا عليها، فيكون إعطاؤهم من الفيء جبرا لنكبتهم في ديارهم وأموالهم . ثم نوه بهم أن رحمة الله بهم منحتهم هذا الجزء من الفيء، وإن كان داعي خروجهم من مكة الرغبة في فضل الله ورضوانه، ونصر دين الله ونصر رسوله. لا طمعا في مغنم أو شيء من متاع الدنيا. رجح ميزانهم ما عند الله على كل ما تتعلق به النفوس من مرابع الصبا، والإلف للموطن، والصلات الإنسانية في مكان إقامتهم مكة. فحقت لهم شهادة العليم الخبير فيهم: أنهم الصادقون في إيمانهم المخلصون للدين إخلاصا بلغ أكمل المستويات.

9-والذين تبوؤوا الدار...هم المفلحون.

ابتدأت الآية بقوله تعالى: والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم. وهذا المقطع يقتضي التروي في أجزاء ما تركب منه، وفي الجمع بينها.

فقوله والذين تبوؤوا الدار : المقصود بهم الأنصار. عرفهم بأنهم اتخذوا الدار "المدينة "مباءة لهم يعودون إليها كلما انتهوا من أشغالهم. فهي محل إقامتهم مع أسرهم، أي موطنهم. وجمع إلى المحل الإيمان، والإيمان لا يصح أن يكون معمولا لتبوؤوا، فلا يقال تبوأ الإيمان. وتخريجه إما على أنه معمول لفعل مقدر يناسب المعنى: وأخلصوا الإيمان أو اعتقدوا الإيمان. وإما أن تكون الواو واو المعية

تبوؤوا الدار مع الإيمان اتحقق الإيمان فيهم تحققا حتى أصبح مصاحبا لحلولهم في مدينتهم. كقول القائل :استوى الماء والخشبة، فالخشبة ليست متعلقة باستوى. كما يصح تأويله على أن ال في الدار عوض من المضاف إليه، أي تبوؤوا دار الهجرة. وأن [ال] في الإيمان عوض عن المضاف، أي تبوؤوا دار الإيمان. وقوله من قبلهم أي من قبل المهاجرين.

يحبون من هاجر إليهم - ثناء عليهم بما استقر في نفوسهم من حب للمهاجرين. إذ شأن أصحاب الدار أن يتبرموا بالواردين عليهم إذا عزموا على الإقامة بمنازلهم، وأن يقاسموهم خيرات بلدهم. أثر الإسلام في الأنصار فاعتبروا المهاجرين أخوة لهم لا يمكنونهم من الحياة معهم بداعي النبل والكرم، ولكن عواطفهم كانت سعيدة بقدومهم، يحبونهم كما يحب الفرد ما يولد له في أسرته. وقد ثبت في السنة صور فريدة في تاريخ الإنسانية تمثل تلكم المحبة و الأخوة.

ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - انتفى أي تعلق لنفوس الأنصار لما أوتيه المهاجرون من الفيء. فعدم وجدانهم ذلك لعدم وجوده. فهم لحبهم لإخوانهم المهاجرين ما رغبوا في شيء مما قسمه الرسول ﷺ على المهاجرين من فيء بني النضير. ومما يمثل الإيثار الذي استقر في نفوس الأنصار ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال :(أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد (شدة الجوع) فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال النبي ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله. فقام رجل من الأنصار(هو أبو طلحة) فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته :هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا. فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي أطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة؛ فإذا دخل الضيف فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج تري أنك تصلحينه، فأطفئيه وأريه أنا نأكل فقعدوا وأكل الضيف. فلما غدا على رسول الله ﷺ قال له : عجب الله من فعلك البارحة، ونزلت الآية. فتح الباري ج10 ص256) وعجب كناية عن الرضى.

ولو كان بهم خصاصة... ما تدخل عليه "لو" هذه تفيد أن ما بعدها حالة لا يظن حصولها. أي لو كانت بهم شدة احتياج لآثروا. فيعلم من ذلك أن إيثارهم في الحالات العادية أحق بالحصول.

ومن يوق شح نفسه.. ختمت الآية بما يفيد رفعة منزلة المؤثرين، المحبين الخير لإخوانهم دون أن يتعلقوا بنيل شيء مما أوتوه. فأدخل القرآن هذا المستوى الخلقي تحت قاعدة، وهي أن من سلمت نفسه من الشح، وهي حالة نفسية تجعل صاحبها لا

يتيسر للعطاء والبذل. فإذا جرب فسار على شحه ولم يعط فذلك هو البخل. فالشح حالة نفسية مصاحبة، والبخل هو الموقف الذي يقفه الشحيح فعلا. فمن سلمت نفسه من داء الشح وتغلب على ما تأمره به نفسه من المسك لخوف الفقر، ولشدة التعلق بالمال، فأولئك هم النّاجحون الفائزون في العاقبة، وكذلك في الدنيا.

10- والذين جاؤوا من بعدهم...إنك رؤوف رحيم.

هم الذين لم يكونوا من السابقين لقبول الإسلام، فهم غير المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وهم غير الأنصار الذين قبلوا المهاجرين في مدينتهم ويسروا لهم الحياة في أمن على عقيدتهم وعلى حياتهم. هم الذين التحقوا بجماعة الإيمان بعد أن استقر أمر الإسلام في عهد الرسول وفي مستقبل الأزمان. فهؤلاء يشارك فقراؤهم من النيل من الفيء. وهم الذين تأصل في قلوبهم الإيمان، وتأصل أيضا اعتزاهم بالانتساب إلى الأمة الإسلامية. يشهد لذلك أمران نصت عليهما الآية.

أولهما: أنهم يدعون ربهم أن يغفر لهم ما فرط منهم حتى يلقوا ربهم يوم الحساب بصحائف نقية من الإثم، وأن يغفر لإخوانهم المؤمنين الذين سبقوهم بالإيمان فمكنوا لهذا الدين حتى بلغهم هداه. فهذه علاقتهم بالسابقين من هذه الأمة، علاقة الاعتراف بالفضل والوفاء.

ثانيهما: يدعون ربهم أن يجعل قلوبهم صافية لا يدنسها البغض والحسد للذين يشاركونهم عقيدة الإيمان من السابقين والحاضرين. فهم يدعون أن يمكن الله في قلوبهم حب المؤمنين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب من جاء بعدهم. ولذا فإن كل من تعرض لأحد الصحابة بالاستنقاص هو خارج عن هذا التنويه الذي اقتضته الآية. وألحقوا بدعائهم ما يقوي آمالهم في القبول، بأن الله ربهم الذي يدعونه رؤوف بعباده، رحيم بهم. فرجاؤهم في القبول بذلك وثيق.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا

فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

فيكم : في ضركم.

لننصرنكم : بإعانتكم على القتال.

رهبة : خوفا.

الفقه : فهم المعاني الخفية.

شتى : متفرقة.

قلوبهم : عقولهم.

بيان المعنى الإجمالي :

فضح للمنافقين، وتعجيب من انحلالهم الخلقي. يقولون للكافرين أمثالهم من بني النضير وهم محاصرون : اثبتوا فنحن معكم، ولا بقاء لنا في المدينة إذا أخرجكم محمد من معاقلكم، ونعصي محمدا فيما يأمرنا به مما يضركم. وإن هجم عليكم بالقتال فتأكدوا أنا ننصركم. وهم كاذبون فيما قالوه بشهادة الله. فلئن أخرجوا من معاقلهم ثبت المنافقون على الإقامة في ديارهم ولم يبرحوها. وإن قوتل بنو النضير لا يجدون من المنافقين نصيرا، ولو فرض أنهم حاولوا نصرهم فاستيلاء الخوف عليهم يجعلهم يفرون مولين ظهورهم للمقاتلين. وفوق ذلك فإن بني النضير لا ينصرون إذ كتب عليهم الهزيمة.

بلغت بهم الغباوة أنهم يهابونكم ويخافون منكم أكثر من مهابتهم لله ومن خوفهم منه. وسر ذلك أنهم قوم أغبياء لا يدركون خفايا الأمور. وإلا فكيف يقدرون أنكم أشد بطشا من الله القدير.

إنهم جبناء فلا يقدمون على قتالكم إلا إذا تحصنوا في قراهم وراء أسوارهم، ودخلوا في حصونهم. وما يظهر منهم من البأس، هو واقع من بعضهم على البعض الآخر. تظن أن كلمتهم واحدة، والواقع خلاف ذلك، فقلوبهم متفرقة متعلقة بالأحقاد وحب التشفي، فسدوا فسادا تعطلت به عقولهم عن إدراك ما ينفعهم في الحاضر والمآل.

بيان المعنى العام :

11- ألم تر إلى الذين نافقوا...والله يشهد إنهم لكاذبون.

هذا مما أنبأ الله به رسوله ﷺ، مما جرى بين المنافقين في المدينة من الخزرج، وبين يهود بني النّضير في وقت حصار الجيش الإسلامي لهم. ألم تر يا محمد !ألم تعلم بهذا الخبر العجيب، فإني مطلعك عليه وأعرض عليك المستوى الخلقي الهابط الذي عليه المنافقون، هم يعملون على إغراء أعدائك بالصمود لقتالك، يقولون لإخوانهم الذين يجمعهم بهم فساد الكفر، كفر النفاق بالنسبة للقائلين، والكفر بك بالنسبة لليهود. يقولون لهم: اصمدوا وواصلوا القتال فنحن معكم ولا مقام لنا في المدينة إن أُخْرِجْتُمْ. وهو تطمين لليهود على أبلغ وجه، يقول لهم المنافقون نحن عازمون على نصركم بكل ما لدينا، وهزيمتكم هي هزيمتنا، وإن قدر أن فرض عليكم الخروج من معاقلكم فلا بقاء لنا في المدينة. فنحن معكم أينما توجهتم. ونحن لا نطيع أمر أي أحد فيكم. أي لا نطيع محمدا فيما يأمرنا به مما يضر بكم.

والله يشهد إنهم لكاذبون. شأن الشهادة أن تكون تابعة لما علمه الشاهد. وكل الشهادات تحتمل أن تكون على خلاف الواقع إما لتزوير الشاهد، وإما لأن علمه لم يكن صحيحا. والشهادة على كذب المنافقين شهادة رب العزة الذي لا تخفى عليه خافية، هو الذي يعلم بواطنهم وظواهرهم. فتحقق أنهم كاذبون على أبلغ صورة وأشنع حالة. فالشهادة في الآية بمعنى الإخبار الصادق الكاشف عن حقيقة المنافقين.

12-لئن أخرجوا...ليولن الأدبار ثم لا ينصرون.

بكل تأكيد أؤكد لك يا محمد ما يحقق الشهادة بكذبهم فيما قالوه لبني النّضير. وعدوهم بأنهم لا يبقون في المدينة إذا خرج بنو النّضير من ديارهم، وهم كاذبون فإن أخرجوا لا يتحركون من ديارهم ولا يظهرون غضبهم لهم. وما وعدوهم به من النّصر إذا نشب القتال كذب أيضا، فهم لا يقاتلون معهم. وبكل تأكيد إن المنافقين لو أرادوا نصر اليهود استولى عليهم ما تأصل فيهم من الجبن والخوف، فلا يثبتون ويفرون مولين ظهورهم للمقاتلين. وفوق ذلك ليبأس الكافرون من النّصر. فقد كتبت عليهم الهزيمة وحل الخوف في قلوبهم.

13- لأنتم أشد رهبة...لا يفقهون.

تتابع الآيات كاشفة عن خفايا المنافقين اليهود، فكما شهد فيما سبق بكذبهم وجبنهم. كشفت هذه الآية عما يجري في ضمائرهم، وعن تصورهم للمؤمنين. بكل تأكيد أنتم جماعة الإيمان بقيادة رسولكم انطبع قلوب المنافقين واليهود بالرهبة منكم رهبة

تعلو رهبتهم من الله. هم لا يتوقعون إلا أنهم مهزومون في أي مواجهة معكم فلا يستطيعون الصمود. وما أشد غباءهم وما أبعدهم عن الغوص عن الحق وعن إدراكه. إذ رهبوكم أكثر من رهبة الله الذي بيده وحده مقاليد جميع الأمور.

14-لا يقاتلونكم جميعا...قوم لا يعقلون.

لما تمكنت في صدور المنافقين واليهود الرهبة منكم، فإنهم لايقاتلونكم إلا متحصنين في قراهم لاقتال الجيش الظاهر بترتيباته من جناحين وقلب، وتخطيط للكر والفر. هم لجبنهم يحتمون بحصونهم. أو يحتمون وراء الجدران والأسوار المحصنة التي تخفي أشباحهم. ويحتمل أنهم لرهبتهم منكم لا يتفقون على قتالكم، فلا يقاتلونكم مجتمعين عليكم. ولكن يقاتل كل فريق منهم في قريته أو وراء أسواره.

بأسهم بينهم... إن هذه الحالة العجيبة من الوهن تدعو للتساؤل لماذا انهزموا نفسيا إلى هذا الحد مع ما يظهر عليهم من التحدي، ومع ما يأتي في كلامهم وأشعارهم من التنويه بالشجاعة والقتال. فكان البيان من الله المطلع على خفايا الصدور، فأثبت سبحانه أن شدتهم لا تتجاوز الانتقام من بعضهم بسبب الخلافات المستحكمة بينهم. تظن أنهم على قلب رجل واحد، ولكن عقولهم متشددة في اعتماد الأحقاد والإحن متعلقة بالتشفي ممن خالفها، لا ينظرون إلى عواقب التشتت والفرقة. إنهم قوم فقدوا عقولهم التي تنير للمؤمن ما يؤول إليه أمر الأمة التي تحكم عواطف الأحقاد في علاقاتها. وقوله تعالى: قوم لا يعقلون يفيد أن تشددهم فيما بينهم تأصل فيهم وأصبح مقوما من مقوماتهم الذاتية.

حكمة : في كشف فساد عقولهم، وتعرضهم بسبب تعلقهم بالتشفي، وتحكيم الحقد في علاقاتهم ما تبعه انهزامهم، وفقدهم لما يفتحه العقل من نور يعرف بالمخاطر الماحقة للأمة، حتى يصبح العقل معطلا لا يفيد صاحبه. في ذلك تحذير للأمة الإسلامية أفرادا وجماعات من اتباع ما يدعو إليه الحقد وحب التشفي من انهزام، ومن ضعف اجتماعي واقتصادي، وبالتالي التعرض لجميع المخاطر وفقدان المناعة الحافظة لمقومات الأمة.

﴿15﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿16﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿17﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿18﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

الوبيل : ما ظاهره طيب ومآله هلاك.

أمرهم : ما دبروه.

بيان المعنى الإجمالي :

اليهود الذين خانوا العهد وقهرتهم جيوش المسلمين وأجلوهم، لهم نظير سبق في التاريخ القريب، في غزوة بدر، لما جمعت قريش صناديدها وقصدت محاربة رسول الله ﷺ فانهزمت شر هزيمة، ومن تلك الغزوة تحول ميزان القوى لفائدة المسلمين. ولهم مع الذل الدنيوي، عذاب أليم في الآخرة. ومثل اشتراكهم في العذاب الأليم، كمثل العلاقة التي بين الشيطان المغوي للإنسان إغواء حبب إليه الكفر، والإنسان المتبع لغوايته، عندما يصيران يوم القيامة للحساب، فيتبرأ الشيطان ممن كفر ويقول له : إنك كفرت باختيارك فتحمل مسؤوليتك وإني أخاف الله رب العالمين. فكانت عاقبتهما الخسران المبين في النّار. شأن اليهود مع المنافقين.

نداء من الله للمؤمنين أن يتيقظوا ويلازموا التقوى، وأن يكون المصير حاضرا في عقولهم لا يغفلون عن الأخرة، يقدرون ما قدموا ليوم الحساب. واصلوا التقوى فإن الله يعلم ما تنطوي عليه الصدور، وحقيقة ما تعملون هل هو رياء أو نقي بالإخلاص. وإياكم أن تتعلقوا بالدنيا وتحصروا اهتمامكم فيها، فتكونوا بذلك كالذين نسوا الله، ولم يقيموا له حسابا في ضمائرهم، فجازاهم أن أذهلهم عما يفيد أنفسهم. وقد انحصر الفسق فيهم.

بيان المعنى العام :

15-كمثل الذين من قبلهم....عذاب أليم.

مثل اليهود الذين وعدوا بنصر المنافقين، وقذف الرعب في قلوبهم، وشدة رهبتهم من المؤمنين فلا يقاتلونهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر؛ هو كمثل، وكوضع الذين من قبلهم. ومن هم المعنيون بقوله: من قبلهم؟ تحتمل الآية أن يكون المقصود المهزومين من القرشيين في بدر. وغزوة بدر وقعت في السنة الثانية وغزوة بني النَّضير وقعت في السنة الثالثة. ويرى الشيخ ابن عاشور رحمه الله أن

الذين من قبلهم هم بني النضير، وأن المتحدث عنهم هم بنو قريظة الذين غزاهم النبي ﷺ إثر غزوة الخندق.

إن مآل بني قريظة كمآل بني النضير، سولت لهم أنفسهم الغدر وحملهم بغضهم للمؤمنين على تحريض قريش وغطفان من قيس عيلان، على حرب رسول الله ﷺ، فتجمعت جموع كثيرة حاصروا المدينة، وكان النبي ﷺ وسلم حفر الخندق الذي منع الغزاة من دخول المدينة ؛ ورد الله كيدهم فتفرقوا دون أن يحققوا ما عزموا عليه. وبمجرد عودتهم إلى ديارهم، أذن للنبي ﷺ بغزو بني قريظة، الذين نقضوا العهد وحرضوا المشركين على الهجوم على المدينة، ووعدوهم أنهم سيكونون معهم ويطعنون الجيش الإسلامي من الخلف. فحكم فيهم سعد بن معاذ ﷺ، ومثل ذلك وقع مع بني قينقاع الذين نزلوا على حكم عبد الله بن أبي بن سلول[1].

ذاقوا وبال أمرهم... أصل الوبال يطلق على نوع من مراعي الإبل يستهويها لخضرته، فإذا أكلت منها أضرها ضررا يبلغ حد الموت. وقع عليهم الهلاك الذي تسببوا فيه دون أن يحسبوا له حسابا. وذلك في الدنيا واختصوا يوم القيامة بعذاب يشعرون بقوة آلامه

16←17- كمثل الشيطان...جزاء الظالمين.

إن مثل اليهود في تسببهم في هلاكهم بإغراء من اليهود، يشبه علاقة الشيطان بالجنس البشري. فالشيطان يشكك الإنسان في الحق، وينتهي به إلى تحبيب الكفر له. وعبر عن مغالطة الشيطان لمن يستولي عليه حتى يجعله يمقت الحق ويميل إلى الكفر بقوله: اكفر. وعندما يستجيب الإنسان لتضليل الشيطان، ويكفر بالدين الحق، ويوقف يوم القيامة بين يدي الله يتبرأ منه، ويقول له :إنك كفرت باختيارك، وما أجبرتك على الكفر، فتحمل تبعة ما اخترته. وإني أخاف عذاب الله. وقد حضرا يوم القيامة وارتفعت الحجب. وتكون العاقبة خسارتهما معا، خسارة الشيطان الغاوي على إغوائه وإضلاله، وخسارة الإنسان المغوي لاتباعه للشيطان. فيكون جزاؤهما النار خالدين فيها، وتلكم الخسارة العظمى جزاء عدل للظالمين الذين تنكبوا الحق. وهكذا كان شأن يهود مع الذين ضللوهم من المنافقين.

18- يا أيها الذين آمنوا...إن الله خبير بما تعملون.

بعد أن خوف الله من عاقبة الغاوين والمغويين، انتقل إلى دعوة المؤمنين بوصف الإيمان ليحرضهم على مدخول النداء الذي هو مقتضى الإيمان فأمرهم بأن يلتزموا

[1] ملخص من سيرة ابن هشام ج 3ص 274/229

تقوى الله. أن تكون صلتهم بربهم مشعة في عقولهم متحكمة في عواطفهم وميولهم. وتظهر التقوى بالإعداد ليوم القيامة، الذي عبر عنه بقوله "لغد" فهو قريب قرب الغد من اليوم. هو المستقبل الحق الذي ينبغي أن يكون حاضرا فيُعِدُّ الإنسان ما ينفعه في ذلك اليوم. وهذه النّصيحة من الله لعباده كررها ليثبتها في النفوس ليداوموا عليها ؛وحتى يبني عليها القاعدة المظهرة للحكمة في الأمر بالتقوى والتأكيد عليها، إن الله خبير بحقيقة ما تعملون يتميز بعلمه الصدق من الكذب، والرياء من الإخلاص. فلتكن تقواكم التقوى الحقيقية، وهي التي تنفعكم يوم القيامة.

19- ولا تكونوا كالذين...أولئك هم الفاسقون.

ومن عنايته سبحانه بالتزام المؤمنين التقوى، توجه إليهم بالتحذير من أن تلهيهم الحياة الدنيا فيتعلقوا بها، وينسون ما شرعه الله لهم، وما يقتضيه الإيمان منهم من تطبيق الأوامر واجتناب المنهيات، ومن ذكره دائما. وذلك الإعراض على مراتب، قد تصل إلى الكفر كما وقع فيه المنافقون الذين أعرضوا عن الهدى المحمدي، ووقع فيه اليهود بكفرهم بعيسى وبمحمد. فنسوا ما أخذ عليهم موسى من الميثاق بان يؤمنوا بمحمد وينصروه. وقد يكون هذا النّسيان على مراتب أقل من هذا كالإقبال الشديد على الدنيا، والتهاون بالواجبات. والأثر المترتب عن نسيان الله أنه يفقد النّاسي الشعور بما يقيد نفسه، فيعمى عن تذكر المصير، ويعطل قواه التأملية في الكون وما يحويه، وما يدل عليه من القدرة المبدعة المنظمة له. فيفقد الشعور بالهدف الأسمى الذي يرفعه عن الحيوان. ويحبس ذاته في الإشباع الحسي والجنسي. إنهم كانوا على أعلى مستوى من الفسق، كأن الفسق انحصر فيهم.

﴿20﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿20﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿21﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿22﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿23﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿24﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخشية : خوف وقد يصحبه تعظيم.

التصدع : التشقق

بيان المعنى الإجمالي :

إن البون بين الذين نسوا الله، وبين الذين اتقوا بون شديد. فمكان النّاسين يوم القيامة في النّار يلازمونها وتلازمهم خالدين فيها. ومكان المتقين الجنة يصحبونها وتصحبهم لا يغادرونها أبدا. إن المتقين بذلك هم وحدهم الفائزون. تدبروا في القرآن فهو الهدى. إنا لو أنزلناه على الجبل الصلد القوي ومكنّاه من إدراك محتواه لركع خاضعا وتشقق. إنه مثل ينضم إلى الأمثال التي عرضناها على النّاس تقرب لهم الحقائق والمواعظ.

اعرفوا ربكم فهو الله المتميز في ذاته وصفاته عما سواه. الواحد الأحد، يعلم ما ظهر وما خفي، وهو الرحيم بعباده، وسعت رحمته كل شيء. الواحد الأحد ملك كل الكائنات ما كان عاقلا وما لا يعقل. منزه في علاه عن كل نقص. بيده وحده السلام، يسعف به من يرضى عنه. أنزل الأمن في مخلوقاته فهي تسير حسب القانون المسطر لها إلى أجلها. المهيمن الرقيب الذي لا يخفى عليه شيء من أطوار الكائنات. العزيز النّافذ حكمه وإرادته كل شيء طوع إرادته. الجبار، يجبر الكسير ويقهر كل متمرد ويلزم الكائنات على السير في الطريق الذي سطره لها. المتكبر صفة ذاتية تدل على أن كل ما يمر ببالك هو ناقص محتاج إليه سبحانه فيخضعه لقدرته. تعالى الله أن يكون له شريك. هو الله المتفرد بالخلق من عدم، وتكوين المخلوق على المقادير التي ضبطها، وهو الذي يميز كل مخلوق فيعطيه شكله وخصائصه، وهو الذي يعطيه صورته الظاهرية المميزة. وكل ما تصورته من الفعل الكامل فهو لله وحده، فلا تقتصر أسماؤه الحسنى على ما ذكر في الآية. وهو العزيز الذي تنفذ إرادته على النّحو الذي قدره. وكل ما خلق ودبر وأنجز جار على الحكمة البالغة.

بيان المعنى العام:

20-لا يستوي أصحاب النّار...هم الفائزون.

بينت الآية عاقبة الذين اتقوا، وعاقبة الذين نسوا الله. فحققت أن منزلتهما يوم القيامة مختلفة تماما، وأنه لا رابطة تجمع بينهما، ولا يقترب أحدهما من الآخر. فالذين نسوا الله هم الذين ألفوا النّار، وألفتهم فاصطحبا صحبة لا يفارق أحدهما الآخر معا

يؤكد خلودهم فيها. وأن المتقين هم الذين ألفوا الجنة وألفتهم، هم خالدون فيها. فهم بذلك أحقاء بأن ينحصر الفوز فيهم، وفوز غيرهم عرضي زائل.

21-لو أنزلنا هذا القرآن...يتفكرون.

هذا مثل ضربه الله ليعرف البشر بقوة ما تضمنه القرآن فيحركهم بذلك للتأمل فيه. إنا لو أنزلنا القرآن على الجبل الصلد الذي لا يتأثر بالتقلبات مهما عنفت، لو أنزلنا عليه هذا القرآن ليتفهمه ويتدبر بيناته، ويستحضر ما حذر منه، لارتجف خوفا وتصدع وتشقق، وكانت شروخه ظاهرة مشاهدة مرئية. تسوق الأمثال للناس رجاء أن يتفكروا فيها فيقلعوا عن الإعراض عن هدي القرآن، ويوحدوا الله ويفردوه بالعبادة التي هو حقيق بها.

22--24 هو الله الذي لا إله إلا هو...وهو العزيز الحكيم.

ذُكر اسم الجلالة "الله" في هذه السورة تسعا وعشرين مرة. فافتتحت به الآية ليجري عليه من الصفات ما يمكن من حبه ومهابته.

أول ما سجلته الآية التوحيد المطلق، هو المتفرد بالألوهية الواحد الأحد. وهي الصفة التي يتبعها بقية صفات الكمال والجلال التي لا يشاركه فيها أحد وهو مقتضى التوحيد.

عالم الغيب والشهادة – جمع بين ما هو مغيب عن إدراك البشر، مما هو موجود ولكن تقصر القدرات البشرية عن إدراكه كإدراك الذات الإلهية. وكالعقل والروح، وفعل أجهزتنا، وما حجبه البعد المكاني أو الزماني. وما هو من المغيبات التي أخبرنا الله عنها كيوم القيامة والجنة والنار، والميزان والصراط. ومن باب أولى وأحرى هو عالم بما هو حاضر، وفيه رد على ما يظنه المشركون من أن ما تحويه ضمائرهم مغيب عن الله، ورد عن الذين يعتقدون أن الله يعلم الحقائق الكلية، أما الجزئيات التي يجري عليها أمر العالم فهي خارجة عن علمه.

هو الرحمن الرحيم: عظيم الرحمة. فمن رحمته أنه لا يسرع بالعقوبة لمن تجاوز الحدود، ويمهله ليتوب فيقبل توبته. ولو قدرنا عظم الذنب، وجراءة العاصي عند ارتكابه للمعصية، وجميع قدراته من ربه، وهو مطلع عليه فإنه يكون حقيقا بمراتب الهلاك ومع ذلك يرحمه بالهداية، ورحمه بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم، ورحمه بالقرآن نورا يفتح بصيرته ليتذكر ويهتدي. ورزقه مؤمنا كان أو كافرا بخيرات لا تحصى من متاع الدنيا. كل ذلك من رحمته، ورحمته يوم القيامة أوسع من رحمة الدنيا.

- تأكيد لصفة الوحدانية أولا، ليثبت له بعد ذلك أنه هو الملك الحق، وكل ما وصف بالمُلك هو ملك ناقص محصور بزمن، ومحصور في طائفة من النّاس. أما وصف الله بأنه الملك فهو الذي تخضع لسلطانه كل الكائنات الإنسان والملائكة والجان، والحيوان والنبات ما على ظهر الأرض وما تحويه السماوات.

القدوس : المتقدس عن الشبيه والنظير، وعن نقائص الملوك، وعن الظلم والغرور، لا يلحقه في تصرفه أي نقص ناشئ عن شهوة.

السلام :هو مالك السلام يعطيه لمن يشاء ويحرم منه من يشاء. وصلة الإنسان به تدخل دائرة المحبة والتقديس، فيكتسب بها العابد الطمأنينة والسلام الباطني. وهو سليم من كل نقص في المستقبل، كسلامته من ذلك فيما مضى لأنه قدوس.

المؤمن :أي أنزل الأمن في مخلوقاته. بما أودع في تركيب كل نوع من محكم التنظيم الذي به تسير حياة الكائن إلى الأجل المقدر له دون عسر. أمن لكل كائن ما يبقي على حياته إلى أجله المحدد. أمن الإنسان من ضياع ما عمله من صالح الأعمال، فوثقها له وكتب جزاءه عنها. فأمن مفتوح البصيرة، من ذهاب عمله الصالح سدى.

المهيمن : معنى المهيمن بلغة قريش الرقيب. وعند بقية العرب الحافظ. وكلاهما صفتان من صفاته تعالى على ما يقتضيه الكمال. فالله رقيب على الخلائق كلها في فعلها الجزئي، وعلى نظام الكون وتتابعه حسبما أعطاه له عند خلقه.(إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا)[1]

العزيز :هو الذي طوع كل شيء لتنفيذ مراده، فلا يستعصي عليه. وبذلك لا يلحقه ذل العجز والغلبة إذ الكل خاضع لقدرته.

الجبار :صفة كمال في الله، يجبر الكائنات على السير حسب النّظام الذي قدره لها، فلا تخرج عما قدره فلا الإنسان يطير ولا الطائر يسقط، ولا النّار تولد البرد، ولا الثلج يبعث الدفء. بينما هي في الإنسان صفة ذم إذ الجبار هو الذي يخضع غيره لهواه، ولا ينضبط بالإصلاح. كما خاطب القبطي موسى لما أن أراد أن يبطش للمرة الثانية :(إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين)[2] كما يمكن فهم الجبار على أن جابر الكسير ومغيث العاني ومصلح ما لحقه الفساد.

---

[1] سورة فاطر اية 41

[2] القصص اية 19

المتكبر : وصف لله بالعظمة الكاملة، فتكبره بالنظر إلى النّقص الذي عليه غيره، ويكون التكبر وصفا ذميما إذا عامل أحد غيره باحتقار مع أن المتكبر ناقص. فتكبره سبحانه لكماله لا لاستنقاص البشر واحتقارهم.

سبحان الله عما يشركون : تنزه ربنا عن الشريك في ذاته، وعن الشريك في صفاته حسبما تبين لنا من تحليل تلكم الصفات العلية. فليكن هذا التقديس حاضرا في فكر عبيده وفي مشاعرهم دائما.

- تفرد بالخالقية، فكل ما عبد من دونه زائف لا يخلق فليس إلها. فهو المتفرد بإيجاد ما تعلقت إرادته بإيجاده على تقدير سابق وحسب ما تقتضيه الحكمة.

البارئ: ومع قدرته على الخلق فهو يميز كل مخلوق بخصائصه فهو خالق لكل فرد من أفراد البشر، وهو يعطي لكل فرد مقومات تفرده وتميزه عن غيره في جينومه وفي شكله وفي خصائصه.

المصور: تفرد الله بإعطاء كل مخلوق صورته الظاهرة التي قدر أن يكون عليها ففي الإنسان مثلا يصوره في طوله ووسامته، وفي لون بشرته وشعره وعينيه وحباله الصوتيه الخ ولا فرق بين آثار صفاته بالزمن، ولكن بالاعتبار.

له الأسماء الحسنى :إن ما ذكر من الصفات التي أجراها على الله المتفرد بالكمال، لا تنحصر فيما ذكر، فكل الكمالات هي ثابتة له ثبوتا أزليا سرمديا. وهي صفات تدل على الذات فصارت كالأعلام والأسماء لذاته العلية سبحانه.

يسبح له ما في... التسبيح هو التنزيه عن النّقص. ومن عقل من الكائنات حينما يتأمل قوانين خلقه سبحانه، وما يجري من ألطافه عليها، يلهج قلبه ولسانه بتنزيه الله وتمجيده. فهذا تسبيح بلسان المقال. وكل كائن تأملت فيه وجدت فيه من الحكمة ومن حسن التقدير، ومن ارتباطه بغيره من الكائنات ما ينادي بتنزيهه سبحانه. فهو يسبح بلسان الحال.

وهو العزيز :إن تطويع الكائنات لتكون على الوضع الذي أراده لها، في ذاتها، وفي ارتباطها ببقية أجزاء الكون، تجده موكبا متناسقا سائرا إلى المصير الذي قدره له، إنه ليقوم مناديا بما يدل عليه من عزة الخالق المتصرف التصرف العام والشامل في الماضي والحاضر والمصير.

الحكيم : كل ذرة من ذرات الكون مقدرة التقدير العجيب في تركيبها وفي التحامها بغيرها، وفيما تصور من ذلك، تجد من ذلك أن الصانع المبدع حكيمٌ بأسمى درجات الحكمة لا اختلال في صنعه.

روى الترمذي بسنده إلى معقل بن يسار ﷺ عن النبي ﷺ قال : (**من قال حين يصبح ثلاث مرات، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ((هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب،إلى آخر السورة وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة))**

وروى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال قرأت على خلف [راوي حمزة أحد القراء السبعة]فلما بلغت هذه الآية : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل إلى آخر السورة قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على الأعمش، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على راسك، فإني قرأت على يحيى بن وثاب، فلما بلغت هذه الآية، قال :ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على علقمة والأسود فلما بلغت هذه الآية قالا : ضع يدك على رأسك فإنا قرأنا على عبد الله [أي ابن مسعود] ﷺ، فلما بلغنا هذه الآية قال :ضعا أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأت على النبي ﷺفلما بلغت هذه الآية قال لي : ضع يدك على رأسك ؛ فإن جبريل لما نزل بها إلي قال : ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السام، وهو الموت. هو حديث أغر مسلسل إلى جبريل ﷺ.

وذكر الديلمي عن علي وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: في قوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن.إلى آخر السورة هي رقية الصداع.

وقد كنت في صباي الباكر كثيرا ما أتعرض لصداع يؤلمني، وكان مؤدبي رحمة الله عليه الشيخ محمود المهيري يأخذني إلى جانبه ويقرأ علي هذه الآيات، فما يتمها حتى يذهب ما كنت أجده.

أكملت تفسير سورة الحشر يوم الأحد 13 جمادى الثانية1435-2014/4/13-يسر الله لي إكماله.

سورة الممتحنة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في كتب التفسير وكتب السنة. وتقرأ بكسر الحاء عند الجمهور. ووجه التسمية ما ختمت به السورة من امتحان النّساء اللاتي يأتين من مكة مهاجرات : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الآية 10) ورويت بفتح الحاء، أي المرأة الممتحنة، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط زوج عبد الرحمن بن عوف. وذكر في الاتقان أنها تسمى سورة الامتحان. وهي سورة مدنية باتفاق. وهي السورة الستون حسب ترتيب المصحف، وعدت الثانية والتسعين حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة العقود وقبل سورة النّساء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

تلقون: تصلون إليهم.

الإسرار : الإخبار سرا.

سواء السبيل : أعمال الصلاح والهدى.

يثقفوكم : يتمكنوا منكم.

يبسطوا إليكم أيديهم : تعمل أيديهم فيكم كل عمل من قتل وتقييد وضرب وإهانة.

يفصل : يفرق بينكم.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر المسلمون أن يعاملوا من كان على غير دينهم معاملة إنسانية لا يتعدون على حقوقهم المادية والأدبية كما يأتينا في الآية الثامنة من هذه السورة. لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. ولكن توجه الله للمؤمنين بوصف الإيمان يمنعهم من تقريب الذين آذوا المسلمين حتى أخرجوهم من ديارهم وأن يظهروا لهم المودة التي تجعلهم يسعون إلى ما يجلب لهم الخير. كيف تفعلون هذا وهم قد كفروا بالرسول وكذبوه، وبالغوا في إذايتكم حتى اضطروا رسول الله ﷺ إلى الهجرة، وأخرجوكم من دياركم التي نشأتم فيها. فعلوا بكم ما فعلوا لأمر واحد : أنكم آمنتم واخترتم دين الإسلام، ولم تضروهم بتوحيدكم لله وقبول الإسلام دينا. فإن كنتم خرجتم من دياركم إخلاصا لله وجهادا في سبيله، وطلبا لمرضاته فلا توادوهم واقطعوا معهم كل صلة يمكن أن تنفعهم. عجب لمن يسر لهم بالمودة، والله لا تخفى عليه خافية فهو يعلم ما يجري في سركم كعلمه لعلانيتكم. احذروا فإن من يربط بهم علاقة ود يضل عن سبيلي وبتيه في متاهات تفصل به وبين طريق النّجاة.

اعلموا أن المشركين لو يثقفوكم ويتمكنوا منكم يظهر منهم ما تغلي به قلوبهم من الغل والكراهية لكم، وتظهر عداوتهم كأبشع ما يتصور، تمتد أيديهم لكم بالأسر والطعن والضرب، وتنهال عليكم ألسنتهم بالسب والشتم. كل ما يودون الآن أن تعودوا إلى الكفر، وتنخلعوا من الإيمان. لقد تبين لكم أن موالاتهم لا تفيدكم في الدنيا لشدة بغضهم لكم وعداوتهم. ولأن هدفهم أن تكفروا. وموالاتهم هي موجبة الخسران يوم القيامة، فإنه لا ينفعكم يوم القيامة لا أرحامكم ولا أولادكم. يفرق بينكم ولا جامع بينكم. والله مطلع عليكم لا يخفى عليه شيء مما تضمرونه في نفوسكم.

بيان المعنى العام

1-يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا...فقد ضل سواء السبيل.

تنبه الآية المؤمنين إلى ما يقتضيه الإيمان منهم في علاقاتهم الاجتماعية، وأن يقدروا روابطهم على أساس الوحدة الدينية. إنهم بدخولهم في الإسلام زادت رابطتهم بأقاربهم المؤمنين قوة ومتانة، وفرض عليهم الدين البر بتلكم العلاقات، وكذلك بأصدقائهم ومن يتعاملون معه، تبعا لوحدة نظرتهم إلى الوجود وإلى القيم الخلقية التي يقومون بها ما يصدر عن الإنسان. وفي المقابل فإن علاقتهم بمن كفر وكذب محمدا فيما جاء به، ورجح مفاهيم الكفر وقيمه، يتحتم أن لا تكون علاقة

مودة وسعي في تحصيل الخير له. فنهتهم الآية عن اتخاذ الكافرين أولياء بتقريبهم تقريبا يجعلهم أعزاء عندهم يدفعون عنهم الشر، ويسعون ليحققوا لهم ما ينفعهم في دنياهم. ويضمرون لهم الحب والخير والود. وشنع التقرب منهم وذلك.

أولا: بكشف حقيقهم، إنهم مضمرون لعداوة الله، لعداوة دينه ورسوله. وهم الذين ابتدأوا بقطع الصلات بكم وقاوموا الحق الذي جاء به محمد أعنف مقاومة، فكانوا أعداء لدينه، وكانوا أعداء لكم تنطوي نفوسهم على بغضكم، وتربص الدوائر بكم (عدوي وعدوكم)

وثانيا: أنهم كفروا رافضين لما جاءكم من القرآن والهدى، يعملون على إبطاله، وعلى تحريفه، وعلى الحيلولة بين النّاس وبين الإيمان به.

ثالثا: أنهم استساغوا ظلمكم، فألجأوكم إلى الخروج من دياركم. هم أبعد ما يكون عن الإنصاف. إنكم لما آمنتم بما جاءكم من الحق لم تضروهم، ولكن بغضهم لكم ولقبولكم للدين حملهم على إخراجكم بإيذائكم بمختلف ضروب الإيذاء حتى تعذر عليكم الإقامة في البلد الذي هو موطنكم. وكان الإيذاء يصدر من بعضهم مباشرة، ومن بعضهم بإغراء سفهائهم، ومن بعضهم بإظهار الرضا والتأييد للمؤذين. فقد اشتركوا في العمل على إيذائكم حتى خرجتم مكرهين، فنسب الإخراج إليهم جميعا. وأكد إظهار الحامل لهم على مقاومتكم، وإيذائكم، أنكم آمنتم وثبتم على الإيمان بالله ربكم.

إن كنتم خرجتم... متعلق بقوله لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. أتى به في صورة الشرط ليفيد مزيد تأكيد لما تضمنته الآية من عدم اتخاذ الكافرين أعدائهم وأعداء دينه أولياء. فكونهم خرجوا جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله أمر محقق كأكمل ما يكون التحقق. وقريب من هذا أن تقول: عليكم بمضاعفة العمل، واختيار الادخار على الإنفاق. إن كنتم تريدون أن تخرجوا من أزمتكم المالية.

تسرون إليهم بالمودة... تخبرونهم سرا بسبب ما تعملون له من ربط المودة بينكم وبينهم محاولين ذلك في خفاء. وأمركم عجب ! أو تظنون أن أي شأن من شؤونكم يخفى على الله؟ فإني أعلم ما يجري في بواطنكم وما تعلنونه، هما في مرتبة سواء، وأُطلعُ على ذلك رسولي.

ومن يفعله منكم... توعد صريح من الوقوع في مخالفة ما اقتضته الآية. فمن يتودد إلى الكافرين الذين أخرجوكم، فقد انحرف عن الطريق السالك المبلغ للمقصود ووضع نفسه في متاهات الضياع والخسران وابتعد عن الإسلام المؤمن لصاحبه نجح الحياة والمعاد.

يكاد يتفق المفسرون استنادا إلى ما ثبت في الصحيح أن هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي بعث به المهاجر البدري حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى من قريش. وحاصل ذلك :

أن النبي ﷺ تجهز ليخرج مع الصحابة رضوان الله عليهم قاصدا مكة لأجل العمرة على الأرجح عام الحديبية. وقبيل خروجه قدمت امرأة من مكة اسمها سارة مولاة لأبي عمرو بن صيفي، وكانت مشركة فخاطبت الرسول ﷺ قائلة: اشتدت بي الحاجة بعد أن قتلتم موالي، أي في بدر، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني. فحث رسول الله بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها. فاستجابوا. وأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وحملها كتابا لتبلغه إلى من كتب إليهم من أهل مكة، نسخته من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة. اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم. فخرجت ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ عليا وعمارا وعمر و طلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد، وكانوا فرسانا وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإذا هم بالمرأة. فقالوا: أخرجي الكتاب ! فأنكرت أن يكون معها كتاب. فقالوا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب. أي نجردك من ثيابك فأخرجته من عقاصها.

فأتوا به النبي ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا ؟ قال : لا تعجل علي، ما كفرت بعد أن أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش [أي ليس منهم صليبة] ولم أكن من أنفسها. وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي [أمه وإخوته] وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا. ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن الإسلام. فقال النبي ﷺ: صدق. فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ : (إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وقال لا تقولوا لحاطب إلا خيرا. فأنزل الله هذه الآية.

وقد أفهم من الآية أن على المؤمن أن يكون يقظا لحديث النفس، فإن حركاتها وما تصوره وتحبيبها لما جرى فيها من صور أولية، يزداد عمقا وتأصلا كلما واصل المرء متابعة الخواطر الأولية ولم يطرها بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى تنتهي به إلى تنفيذها غير مقدر للعواقب السيئة. إن حاطبا لو طرد عن نفسه ما حدثته به من اتخاذ يد عند قريش تحمي أهله ما أقدم على ما أقدم عليه. هو قد هاجر وترك أهله وماله وأبلى البلاء الحسن في بدر. وقد بالغوا في إذايته، وهو

يعلم يقينا بتجربته في الحياة معهم بعد أن أسلم، أن بغضهم لكل ما يتصل بالإسلام أشد بغض. ولكن ما زال حديث النفس يطوعه ويفكك عزمه حتى قام بما قام به. فليحذر المؤمن مواصلة حديث النفس وصورها المهلكة.

2-إن يثقفوكم...وودوا لو تكفرون.

تنبهوا لكامن عداوتهم، ولا يذهب بكم الخيال أن من الحزم والدهاء موالاتهم لتأمنوا شرهم،إن هذا خطأ كبير في التقدير والتصور. فإنهم إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم يعاملونكم معاملة العدو، وكأشد ما تكون العداوة. تغلي صدروهم بالحقد والبغض فلو تمكنوا منكم لسبقت أيديهم للتنكيل بكم بمختلف أنواع التنكيل من ضرب وطعن وخنق، وتنطلق ألسنتهم بالشتائم والإهانات. وكل ما يودونه اليوم أن تكفروا بالدين الإسلامي. هذا ما يودون أن يتم ولا يخطر ببالهم أن يرتبطوا بكم ما دمتم متمسكين بالإسلام.

3-لن تنفعكم...بما تعملون بصير.

ذكر في قصة حاطب أنه أراد أن يجعل لنفسه يدا عند قريش يحصن بها أمه وإخوته من بأسهم. فرفعت الآية السابقة هذا الوهم، وأنه حساب غالط، فالمشركون لا يقطع عداوتهم إلا كفركم بما أنزل على محمد. وما يودونه لكم من الكفر هو الخسران المبين، إن أرحامكم وأولادكم لا يغنون عنكم من الله شيئا يوم القيامة. وفي هذا اليوم يوم الحق يفرق بينكم. فلا صلة بين الكافرين والمؤمنين، ولا ينتفع أحد منهم بالآخر. - فريق في الجنة وفريق في السعير - ولما كان الحاضر يوجب عدم ودهم وموالاتهم، ولما كان المصير يفرق بينكم. فإنه لا مبرر لودهم والتقرب منهم. ولا تجنون منه فائدة لا لأنفسكم ولا لأهليكم. واعلموا أن الله مطلع على ما يجري في ضمائركم لا يخفى عليه شيء سبحانه. وهذه الخاتمة تتضمن وعيدا وتحذيرا.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ

إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

إسوة : قدوة.

برآء : جمع بريء من برئ من الشيء إذا خلا منه.

وبدا : وظهر.

وما أملك : وما أقدر على تحقيق شيء ينفعك.

أنبنا : تبنا، وعدنا للطريقة التي ترضاها.

الفتنة : اضطراب الحال وفساده.

يتول : يعرض.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد تجدون في أبيكم إبراهيم والذين آمنوا معه قدوة حسنة، فسيروا على منوالهم. تدبروا في موقفهم من قومهم الذي تصلبوا في الكفر، لم يصانعوهم وأعلنوا لهم بكامل الشجاعة قائلين :نحن نتبرأ منكم. فكل صلة بيننا وبينكم مقطوعة، وكذلك نتبرأ من الأوثان التي تعبدونها من دون الله فأنتم في ضلال مبين. ونحن نظهر لكم الوجه الحقيقي لنا : نحن أعداؤكم نحمل في نفوسنا نحوكم البغض والكراهية كراهة مقيمة في أنفسنا أبد الآبدين لا نتحول عنها حتى تذعنوا للإيمان وتؤمنوا بالله وحده وتقرون بأن ما عداه باطل. ولكن إبراهيم قال لأبيه لما رأى تصميمه على الكفر: إني لأطلب من الله أن يهديك للإيمان، وأن يغفر لك ما كنت عليه قبل الإيمان. ولتعلم أني لا أستطيع أن أدفع عنك عقاب الله الذي أنت مؤهل له.

قولوا وتعمقوا في هذه الابتهالات: ربنا عليك وحدك توكلنا واعتمادنا لتثبتنا على الطريق المستقيم، وتلطف بنا في حياتنا الدنيا. ربنا إننا نعلن توبتنا مما قصرنا فيه، وعودتنا إلى الصراط المستقيم الذي يرضيك. إليك وحدك مصيرنا في الدنيا وعاقبتنا في الآخرة، لا حول لنا ولا قوة إلا بك ربنا. إنك أنت العزيز النافذة إرادتك فلا يعجزك شيء. الحكيم ترعى الحق وتنفذه.

بكل تأكيد قد كان لكم في إبراهيم ومن معه إسوة حسنة تدعو للاقتداء بها، تدعو من آمن بالله واليوم الآخر إيمانا نقيا صادقا ، وانشرح صدره إلى أنه على الحق، وتتبع ذلك أن رجاءه في عفو ربه وتكريمه له يوم القيامة راجح عنده. ومن أعرض عن

الانتساء بإبراهيم وقومه فإن الله هو المختص بالغنى المطلق لا ينقص من ملكه شيء إعراض من أعرض، وهو سبحانه الحقيق بالثناء.

بيان المعنى العام:

4-قد كانت لكم أسوة حسنة...وإليك المصير.

بكل تأكيد تجدون في ما صدر من إبراهيم عليه السلام، وفي الطريقة التي سار عليها، وفي المنهج الذي لزمه هو والذين آمنوا معه، على قلتهم، إذ لم يؤمن به في ذلك الظرف إلا زوجه سارة، ولوط عليه السلام. فالتنصيص على الذين آمنوا معه تحريض للمسلمين وقت نزول الآية أن يتخذوا منهم قدوة يقتدون بها، قدوة جمعت الحسن والرشاد، فكانت المنهج المرضي. تلكم الإسوة تتمثل فيما سجلوه من تمسكهم بالحق، وتصميمهم عليه، وعبروا عنه بمكاشفتهم لقومهم دون مواربة مظهرين العداوة لهم، وأبانوا لهم أن بغضهم لهم متسبب عن كفرهم. وأعلنوا لهم تبرأهم منهم ورفضهم لدينهم وتصوراتهم عن الحياة والمعاد.

وبدا بيننا وبينكم....إن ما نحمله لكم من العداوة والبغض والكراهية ليس أمرا كامنا في نفوسنا، بل نواجهكم به ونظهره لكم، وسوف نستمر على ذلك لا نلين معكم ولا نرعى قرابتكم، حتى تقلعوا عن الكفر وتؤمنوا بالله وحده. وفي هذه الصورة النقية لإبراهيم عليه السلام ومن آمن معه من عدم مصانعة الكافرين تقريع بالغ لمن أراد أن يتخذ عند قريش يدا تحفظ عائلته التي بقيت في مكة.

إلا قول إبراهيم..... هو استدراك لتكون الصورة موثقة بكمالها. فإن إبراهيم، وهو الذي تأصل فيه الأدب الإلهي، من البر بصلة الأبوة، واصل كلامه دون عنف مع أبيه الذي كان كافرا، ولم ينف تبرأه منه ومن دينه، ولكنه عبر له بما يومئ أنه غير راض عن دينه، وأنه يدعو الله أن يفتح بصيرته ليقلع عن كفره، ويعلن إيمانه، ويغفر له ما سبق من الضلالة التي هو عليها قبل إيمانه. وتبرأ من أن يعتقد أبوه أنه ينجو باستغفار إبراهيم له، فإني لا أقدر على رفع ما أنت مؤهل له بكفرك.

ربنا عليك توكلنا....يحتمل أن يكون هذا الكلام صدر من إبراهيم بعد دعوة أبيه إلى الإيمان، وأنه مما ينبغي للمؤمنين أن يقتدوا به فيقولون مثل مقالته ويستوعبوا معانيها في نفوسهم.

كما يحتمل أن يكون كلاما مستأنفا، فيه تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا الكلام، ويذكروا به أنفسهم لتنكشف عنهم الغفلة عن مضامين هذا القول.

ربنا توكلنا عليك، فأمرنا كله بيد، وأنت وحدك المعين لنا على تحقيق الخير ودرء الشر، والظفر بالنجح في الدنيا، و الفوز يوم القيامة. وإليك وحدك نعبر عن توبتنا

وعن الرجوع إلى السير في الطريق الذي يرضيك. ونحن نعترف بأن مصيرنا إليك وحدك، فمن تتقبله برضوانك فهو السعيد، ومن لم يحصل على رضاك فهو المسخوط الخاسر.

5-ربنا لا تجعلنا فتنة..إنك أنت العزيز الحكيم.

توالت الابتهالات: يا ربنا اسعدنا بقوة منك حتى لا تتغلب علينا الكفرة ولا تسلطهم علينا فيفتنوننا عن ديننا، فإنه بما يحملونه من بغض للإسلام لا يردعهم شيء عن فتنة المؤمنين في دينهم. ونتوسل إليك أن تغفر لنا ما قصرنا فيه حتى نكون بمحل الرضا.

إنك أنت العزيز الحكيم – إكمال للابتهالات بالتعبير عن الثقة في الإجابة. ذلك أن دعواتهم بأنهم متوكلون عليه حق التوكل، وأن يحميهم من تسلط الكافرين عليهم بما يفتنهم عن دينهم، وأن يغفر لهم، يطمعهم في القبول بما أنه سبحانه العزيز الذي تنفذ إرادته، ولا يستعصي عليه أي شيء. وكل ابتهالاتهم خير فيتأكد الرجاء في القبول بأنه الحكيم.

6-لقد كان لكم فيهم أسوة...وهو الغني الحميد.

أكد دعوتهم للاقتداء بإبراهيم ومن معه من المؤمنين بالتنويه بهم، وسبحانه هو الخبير بمقامات البشر. إن إبراهيم ومن معه إسوة حسنة متميزة تدعو للاقتداء بأصحابها، من يقتدي بهم مطمئن بأنه على صراط القيامة. لا يُقدر ذلك حق قدره إلا من كان مطمئنا إلى أنه على الحق دون تردد، راجيا أن الله يكرمه يوم القيامة. ومن يتول ويعرض عن اتخاذ إبراهيم ومن معه إسوة فإن الله تفرد بالغنى المطلق، فلا ينقص من ملكه شيء بكفر من كفر، وهو الحميد المستحق للثناء الدائم.

۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

البر : حسن المعاملة والإكرام.

تقسطوا : تعدلوا في معاملتهم.

ظاهروا : عاونوا.

بيان المعنى الاجمالي :

كونوا راجين أن يحول الله قلوب أعدائكم من الكفر إلى الإيمان فينقلبون محبين لكم وللإسلام. إن قدرة الله لا يعجزها التأثير في قلوب الكافرين ليقلعوا عن كفرهم. وبعد ذلك فإن الله يغفر لهم ما فرطوا قبل ذلك، وهو الرحيم سبحانه بعباده.

ما نهيناكم عن موالاة المشركين إلا لأنهم أشهروا عليكم الحرب، و آذوكم إذاية أخرجتكم من دياركم. فمن لم يكن من المشركين على هذا الوصف فإن الله لم ينهكم عن موالاتهم والاحسان إليهم ومعاملتهم معاملة عادلة. إن الله يحب من التزم العدل. وبالجملة فإن الله إنما نهاكم فقط عن الذين قاتلوكم بسبب إيمانكم ، آذوكم إلى أن أخرجوكم من مكة، وعاونوا على إخراجكم بمختلف ضروب المكر، أنتم منهيون عن توليهم والتعاون معهم، وأولئك الكفرة المصممون على معاداة الدين وعلى التنكيل بكم ؛ هم الظالمون حقا.

بيان المعنى العام :

7- عسى الله أن يجعل بينكم...والله غفور رحيم.

القطيعة التي أمر بها المؤمنون مع الكافرين من أهل مكة والتذكير بما اعتدوا به على الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته. وشدة التحذير من ملا ينتهم رغم وشائج النسب والصهر التي كانت بينهم، ليست قطيعة إلا مرتبطة بالكفر وعداوة الإسلام. وأملوا أن يقلب الله قلوبهم فيهديهم إلى الإيمان، ويحول عواطفهم من العداء والبغضاء إلى المودة والحب. أملوا هذا ولا تيأسوا من أن يتقوى ساعدكم في يوم من الأيام بإيمان أعدائكم الألداء. فإن قدرة الله لا يعجزها شيء. وإنه سبحانه غفور رحيم فما إن يدخلوا في دين الله حتى يعفو عما سلف منهم ويرحمهم ويصلهم بكم، فتحيى روابط القرابة التي كانت بينكم.

8←9-لاينهاكم الله...فأولئك هم الظالمون.

حددت هذه الآية ما قصده القرآن من الآيات السابقة الناهية عن موالاة الذين كفروا، فبينت أن ما ذكر في الآيات السابقة هو موقف يجب اتخاذه بسبب الحرب التي شنها المشركون على المسلمين ليقضوا على الدين، وللإذايات المتتابعة لرسول الله وللمؤمنين، وللعداوة للدين الإسلامي عداوة يتبعها تشويهه ومنع من يظهر منه ميل لاتباعه. وأما الذين سالموكم ولم يقاتلوكم كما كانت خزاعة المحالفة لرسول الله

صلى الله عليه وسلم رغم إقامتها على الشرك وبني الحرث بن كعب من كنانة، ومزينة، الذين والوا النبي ﷺ وكانوا يحبون أن يهزم قريشا. ومثلهم النساء اللاتي ما أعن على حرب الإسلام، وكذلك الصبيان، ومن لم يحمل حقدا على المسلمين. هؤلاء لم يؤذوا الرسول ولا المؤمنين. ولم يشنوا عليه حربا ولم يعينوا على قتاله، ولم يؤذوكم الإذاية التي ألجأتكم للخروج من دياركم فموالاتهم ومعاملتهم بالمثل غير منهي عنها. أنتم غير منهيين عن معاملتهم معاملة إنسانية حسنة، بل إن من أخلاق الإيمان أن تبروهم، وتعدلوا في معاملتكم لهم. جاءت قتيلة بنت عبد العزى أم أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهي مشركة إلى المدينة فسألت أسماء النبي ﷺ : أتصل أمها ؟فقال لها رسول الله ﷺ : صلي أمك.

فلا تعتدوا عليهم. إنه العدل المأمور به أمرا عاما. ومن التزم العدل فاز بحب الله له. ومعنى حبه سبحانه أنه يرأف به ويحسن إليه. وهل يتطلع المؤمن إلى منزلة أعلى من حب الله له. وإذا كان لم يرض من المؤمن أن يظلم كافرا لم يظلمه، فإن ظلمه لأخيه المؤمن اشد شناعة وأعظم إثما.

9- بسطت الآيات السابقة العلاقة التي يجب أن يكون عليها الاتصال بين المؤمنين ومن خالفهم في الدين، مقسما موقفهم إلى قسمين :

قسم مع الذين قاتلوهم وآذوهم وتعصبوا للكفر، وقسم مع الذين تحالفوا معه رغم كفرهم.

وختم الله بهذه الآية الحديث عن تلكم العلاقة ببيان جامع يؤكد ما سبق. إن الله ينهاكم نهيا مؤكدا عن موالاة الذين قاتلوكم بسبب ما أنتم عليه من الدين الحق، وآذوكم فأخرجوكم من مكة قهرا، وعاونوا على إخراجكم بمختلف صور الإذايات. أنتم منهيون عن موالاتهم، والتعاون معهم، ومن لم يمتثل فأولئك الذين تحقق فيهم أنهم ظالمون بتعديهم باستهانتهم بما نهى الله عنه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ

أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الامتحان : الاختبار بما يكشف الباطن ظنا.

عصم : جمع عصمة وهي موجبات البقاء على صلة الزوجية.

فاتكم : فرت بعض أزواجكم.

عاقبتم : جاء دوركم.

بيان المعنى الاجمالي :

طلب الله من المؤمنين أن لا يطردوا المهاجرات من مكة إليهم، وأن يتثبتوا من صدقهن :لأنهن ما خرجن من مكة إلا رغبة في الإسلام وإيمانا بما جاء به محمد، وأنه لم يدفعهن إلى الخروج رغبة في زوج أو في مال أو فرارا من حق وجب عليهن. فإذا ظننتم صدقهن، فإنه لا يحل لكم أن ترجعوهن إلى الكفار، ذلك أن المسلمة لا تحل للكافر سواء في بلد الكفر أو في بلد الإسلام. وليدفع ولي الأمر للزوج الكافر مثل الصداق الذي كان بذله لزوجه المهاجرة.

ولا مانع من تزوجكم بالمهاجرة بعد استبرائها بثلاث حيض أو وضع الحمل إن كانت حاملا، بعد إعطائها الصداق الذي يرضيها.

ولا يحل لكم أن تواصلوا الحياة الزوجية مع الزوجة المشركة. طبقوا ما شرعته لكم، فإنّه حكم الله العليم الحكيم.

وإن فرت زوج مؤمن من المدينة إلى المشركين بمكة، فعلى المشركين أن يدفعوا لزوجها الصداق الذي كان سلمه لها عند عقد الزواج. وإذا امتنع المشركون من تطبيق هذا الحكم العادل فادفعوا لمن فرت امرأته إلى مكة مثل الصداق الذي كان دفعه لها. واتقوا الله في السر والعلن، التقوى التي هي مقتضيات الإيمان. والتقوى توجب الإذعان لما جاءكم من تشريع.

بيان المعنى العام :

10- يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات...والله عليم حكيم.

يتوالى في السورة ضبط العلاقات بين المسلمين، وبين الكفار، وقد نهت السورة عن موالاة من عادى الإسلام، وأمرت بالمعاملة العادلة مع من والى المسلمين وإن كان كافرا على ما فصل.

وتعرضت هذه الآية إلى حكم المؤمنة التي تهاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية الذي كان من بنوده أن من جاء من المشركين إلى محمد بغير إذن وليه يرده إلى قريش، ومن جاء من المؤمنين إلى المشركين لا يرد له. ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هاربة من زوجها عمرو بن العاص؛ وجاءت سبيعة الأسلمية هاربة من زوجها صيفي بن الراهب، وجاءت أميمة بنت بشر هاربة من زوجها ثابت بن الشمراخ. وطلبهن أزواجهن، تطبيقا لبنود الهدنة. والظاهر أن عقد الصلح وقع بلفظ المذكر، ولم يفصل حكم الإناث. فبهذا الإجمال لم يرُدَّ النبي ﷺ النساء المهاجرات إلى قريش. ونزلت هذه الآية مفصلة للتشريع الذي ينبغي أن يطبق في ذلك.

فامتحنوهن...أمر المؤمنون أن يتثبتوا من صدق من هاجر إليهم من النساء بواسطة من يتولى أمرهم، وهو رسول الله ثم صاحب السلطة التي تخوله النظر فيهن من بعده. وأن لا ينخدعوا بما ظهر منهن، فيسارعوا بتصديقهن، وليأخذوا الحيطة والحذر حتى يكشف الامتحان عن الخلفية التي دفعتهن إلى الهجرة. ويتم التثبت بامتحانهن بسؤالهن أسئلة تكشف عن الأسباب الحقيقية لهجرتهن. روي أن المهاجرة كانت تستحلف أنها ما خرجت بغضا لزوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل من المسلمين، ولا بجريرة تؤاخذ بها. وأنها ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله والدار الآخرة. وقد كان النبي ﷺ يأمر عمر بن الخطاب ﵁ أن يتولى اختبارهن.

وهذا منهج في تحصين المجتمع المسلم ممن يندسون فيه للتجسس عليه، أو بث الفتنة بين أعضائه. رأيت في شبابي أن بعضا ممن كان نصرانيا يندس في المجتمع معلنا إسلامه، ويلتف حوله بعض المغفلين، ويكرمونه أبلغ الإكرام مما لا يحلم به أفضل العباد الفقراء من المسلمين الصادقين. يدخلونه بيوتهم ويقيمون له المآدب ولا يتحصنون منه. ثم يذوب، وتنتهي أخباره بعد أن يكون قد اكتشف ما خفي من عورات المسلمين.

الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن... يدقق القرآن أنه إذا حصل لكم العلم بمعنى الظن الراجح أنهن صادقات في دعواهن الإيمان، فالحكم أنه لا يحل لكم إرجاعهن إلى الكفار، لقد انقطعت الروابط بهم، وارتبطن بالمجتمع المسلم.

ويفرق بينهن وبين أزواجهن الكفرة. سواء التحق زوجها بها وهو باق على كفره، أو طلب عودتها إليه في بلاد الكفر، وذلك ما كان يرغب فيه المشركون. لاهم

يحلون لهم فيرجعهن أزواجهن قهرا بما لهم من عصمة النكاح السابقة، ولاهم يحلون لهن ولو انتقل أزواجهن إلى بلاد الإسلام. فالكفر قاطع للعصمة.

وآتوهم ما أنفقوا..وعلى ولي الأمر أن يدفع للزوج السابق للمرأة المهاجرة قرارا بدينها، ما أخذته منه صداقا لها. يدفعون ذلك من بيت مال المسلمين.

ولا جناح عليكم... إنه بعد انحلال عقدة الزوجية بين المهاجرة وزوجها الكافر، لا إثم عليكم إذا تزوجتم بإحداهن على أن يتم ذلك حسب الأركان والشروط الشرعية، التي منها أن تبذلوا للمتزوج بها صداقها، ولا يبرر ما دفع لزوجها الكافر من تعويض عن صداقها، حرمانها من الصداق بالنسبة للزوج المسلم الجديد، كما أنها لا تتزوج إلا بعد أن تُستبرأ بثلاثة أقراء .أو بوضع الحمل إن كانت حاملا.

ولا تمسكوا بعصم الكوافر.. فكُوا الارتباط الذي كان بالزواج بينكم وبين النساء المشركات. فالشرك يمنع المؤمن من الزواج. وقد ذكر أنه لما نزلت الآية طلق الصحابة أزواجهم اللائي بقين بمكة مشركات.

واسألوا ما أنفقتم...لما أنصف الإسلام الكفار أزواج المؤمنات اللاتي هاجرن، بتمكينهم من الصداق الذي بذلوه لما عقدوا الزواج بهن، وحرم الإسلام رجوعهن إلى أزواجهن السابقين، فكذلك من الإنصاف أن يلتزم المشركون بإرجاع صداق أي امرأة زوجها مسلم وفرت إلى المشركين(وليسألوا ما أنفقوا) فإن لم يوفوا بذلك كنتم في حل مما وجب عليكم بالمقطع السابق.

ذلكم حكم الله..ما قررناه من الحكم في التراد بين المسلمين والمشركين فيما تم قبضه من صداق الفارات هو حكم الله الذي يجب عليكم الإذعان له، وقبوله طائعين. فيه الإنصاف ونفي الظلم. وذلك تابع لما اتصف به سبحانه من العلم بالأمور على حقائقها، ومن اتصافه بالحكمة التي ترعى الحق وتقرره.

11- وإن فاتكم شيء...الذي أنتم به مؤمنون.

هذه الآية تكمل ما جاء في الآية السابقة التي أوجبت على ولي أمر المؤمنين أن يدفع لأزواج المهجرات من المشركين تعويضا مساويا عن الصداق الذي بذلوه لزوجاتهم عند العقد عليهن. وتفيد هذه الآية: أن من فرت من نساء المؤمنين إلى المشركين، فإن ولي الأمر يعطي زوجها الصداق الذي بذله لها، إذا امتنع المشركون من دفع صداقها. ويلحظ في التعبير تحقير الفارة إلى المشركين، فعبر عنها بشيء(وإن فاتكم شيء)

وتحليل معنى فعاقبتم: فجاءت عقبتكم، وأصله أن المسافرين إذا كانا يملكان دابة واحدة، فإنهما يتعاقبان الركوب على الدابة، فيركب هذا ويسير الآخر راجلا، ثم

بالعكس. فعبرت الآية عن التزام كل فريق: المؤمنون عند هجرة المؤمنات إليهم، والمشركون عند فرار نساء المؤمنين إليهم، بأنهم يتعاقبون، فيأخذ كل واحد منهم حظه من مهور النّسوة المتحولات عن أزواجهن.

و روي أن المشركين امتنعوا من دفع صدقات النّسوة اللاتي فررن إليهم. وتوقف تعويضهم. وأما أزواج الفارات من أزواجهم إلى المسلمين فالحكومة الإسلامية تعوض لهم من بيت المال، مهرا مساويا لما كانوا بذلوه.

وأكد القران على الوفاء بهذا التشريع، وإن كان فيه نفع للمشركين، وعلى تعويض المسلمين عن صدقات الزوجات الفارة، بقوله: واتقوا الله فإن تقوى الله تلزم بالوفاء بالعقود. والإيمان يبعث على التقوى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣

بيان معاني الألفاظ:

يقتلن أولادهن : يشمل الوأد، والإجهاض.

البهتان : الخبر المكذوب الذي لا شبهة للكاذب فيه.

الافتراء : اختلاق ما لم يقع.

تتولوا : خذوا حذركم، ولا تطمئنوا لهم.

يئسوا :غير متوقعين لوجودها.

بيان المعنى الإجمالي :

تشرع هذه الآية لطريقة أخذ العهد عن النّساء المهاجرات إلى المدينة في عهد الرسول ﷺ . فإذا قدمت نسوة من دار الكفر إلى المدينة، فكونوا متيقظين لتتبينوا الحامل لهن على الهجرة، فإن اطمأننتم أنهن هاجرن حبا في الله وفي الدين الإسلامي وعقيدته وشرعه، فخذ منهن العهد على التزامهن :

1) أن يوحدن الله ولا يتخذن أي شيء من دون الله يجعلن له حظا من الألوهية.

2)أن لا يسرقن مال الغير.

3) أن يكن عفيفات لا يحدث منهن الزنا.

4) أن يحترمن الحياة وخاصة أولادهن بالوأد في الصبا الباكر بسبب الفقر أو خوفا منه أو الاجهاض .

5) أن لا يرتبن صورا لا أصل لها منافية للحقيقة ويعمدن إلى الإقناع بها، ملصقات التهمة بالبريء .

6) أن يطعنك في كل ما تأمرهن به من المعروف، ولا يعصينك. فإذا عاهدنك على ذلك فاقبل إسلامهن، واستغفر لهن الله فإن الله غفور يتجاوز عما كن عليه، وهو رحيم بعباده لا يرفض من أقبل عليه.

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا أصدقاء مخلصين للقوم الذين فسدوا حتى كان غضب الله عليهم مقوما من مقوماتهم، وهم اليهود، لا تتخذوهم أولياء تفضون إليهم بأخباركم، وتعاملونهم معاملة المقرب غير المحذور منه. إنهم قد انفصلوا عنكم ولا رابطة بينكم، أنتم ترجون الآخرة، وهم قد يئسوا منها يأسا بالغا، كيأس الذين كفروا من عودة أصحاب القبور، أو من نوالهم ثواب الله.

بيان المعنى العام :

12-يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات...إن الله غفور رحيم.

هذه الآية متصلة بقوله تعالى : **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن**. بينت ما يقع بعد الامتحان، إذا تبين لولي الأمر صدق المهاجرة. وولي الأمر هو الرسول ﷺ. ولذا كان الخطاب في هذه الآية موجها إليه مباشرة.

وإذ تبين صدقهن ورغبتهن في الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ، فعرفهن بأصول الإسلام وأحكامه حتى يكن على بينة من أمرهن، ويصح مطالبتهن بتطبيق ما التزمن به بعد ذلك. وقد تضمنت فصول المعاهدة على الإسلام الأصول الآتية :

1) أن لا يشركن بالله شيئا. أن يرفضن كل الآلهة التي عبدت من دون الله، وأن يعترفن بأن الله هو الخالق الواحد المتصف بصفات الكمال الذي بعث محمدا بدين الحق. إذ ما عرف التوحيد المقبول إلا من طريقه ﷺ.

2) ان لا يسرقن. وكانت السرقة فاشية نظرا لكونهن ربين على أن الحق هو ما وقع في اليد لا ما أحله الشارع إذ لا شرع. وقد ذم أعرابي جنس الإناث، فقال والله ما هي بنعم الولد، نصرهن بكاء وبرّهن سرقة. أي إنهن يساعدن الأبطال بالبكاء عليهم، أو البكاء من فراقهم إذا خرجوا للغزو. وإذا أردن مساعدة آبائهم سرقن من مال أزواجهن ما يبذلنه لأوليائهن. إذ قلة قليلة من نساء الجاهلية كن أصحاب مال،

لحرمانهن من الميراث، والتضييق عليهن في الخروج ومباشرة التجارة التي تعتمد على الأسفار واختراق الصحاري.

3) المنع من الزنا، ليكون النسل نقيا، وحتى لا تتخذ المرأة وسيلة استمتاع، الأمر الذي يحط من كرامتها الإنسانية. و يلحق العار بأسرتها. وحتى يكون البناء الأسري قويا منيعا، والزنا يزعزعه. والأسرة التي هي الوحدة الاجتماعية الأولى جديرة بكل العناية، فإنها إذا تصدعت تبع ذلك تصدع البناء الاجتماعي كله.

4)لا يقتلن أولادهن: هذا من فظاعات الشرك. كان بعض العرب يقتلون أولادهم الصغار ذكورا وإناثا من الفقر، أو خوف الفقر، وكانوا يقتلون الإناث خوف أن يلحق القبيلة منهن عار الزنا، والأسر. كما يسقطن الجنين قبل أوانه. وكل ذلك اعتداء على الحياة. وإن كان هذا التعدي قد لا تستقل به النساء أو يتولى الرجل فعله لأن النساء يرضينه.

5) ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن. البهتان كما حققه الزبيدي : الباطل الذي يتحير من بطلانه وهو من البهت بمعنى التحير[1] وذكر الراغب في المفردات : (كل فعل مستبشع يتعاطينه باليد والرجل من تناول ما لا يجوز والمشي إلى ما يقبح ص148) كلام الراغب بعيد عن الآية لأن الآية لم تأت صياغتها : بأيديهن وأرجلهن. فتكون البيْنِيةُ هادية لنا في ضبط المقصود من هذا التوثق في البيعة. فالبهتان كذب لا شبهة فيه ولا أصل له يحير المواجه به. وأكد فيه إرادة الاختلاق ومخالفة الحقية بقوله : يفترينه. والفرية الكذب، أكدت المفهوم الأصلي للبهتان. فتكون محامل هذا التوثق متعددة :

البهتان بادعاء الحمل ومعالجة البطن بشربها عقارا ينفخه، وتلتقط مولودا جديدا، وترتب بالطلق الكاذب وبالقابلة التي تساعدها على تغطية الحقية، ما يوهم الزوج أنها وضعت لتوها ولدا له.

كما يحتمل البهتان: ترتيب الأنثى لصورة مختلقة لا أساس لها، وتظهر من الجدية ما يخيل به صدق ما نسجته، وترمي به غيرها. و النساء غير العفيفات تسعدهن دموعهن، ومظاهر الانفعال التمثيلية على حبك البهتان، فبين يديها ورجليها أي مواجهة صريحة للمبهوت منها. قد تكون بالزنا أو السرقة وما يمكن أن يحير.

وذهب بعضهم إلى جعل ما صدق ذلك: خيانة زوجها بتمكين الأجنبي من رشف الفم والاستمتاع بالصدر بين أيديهن. والزنى بها، بين أرجلهن.

---

[1] تاج العروس ج4ص452

وهذه محامل لا تتنافى، فتكون مقصودة كلها من هذا التوثّق. وكانت مفهومة للنساء في ذلك العهد.

6)ختمت البيعة بأمر جامع يؤكد ما سبق ويشمل ما يعترضهن في مستقبل حياتهن، أن يطعن الرسول ﷺ فيما يأمر به، وأكد الاستجابة بقوله: من معروف، يسّر لنفوسهن الطاعة بأن كل ما يأمر به مقبول فطريا، لا ترفضه الطبيعة البشرية. ولا يحمل النّفس عنتا. وما ذكره بعض المفسرين من أن المقصود به نهيهن عن العويل والنياحة والوشم ونحو ذلك هي أمثلة صالحة لتطبيق النّص.

فبايعهن....جواب لقوله يبايعن وما عطف عليه. إذن من الله لرسوله أن يقبل بيعتهن، وإرشاد أن يطلب لهن من الله المغفرة عما فرط منهن قبل ذلك. ووعد كريم بالعفو عنهن، بأن الله هو الغفور، عظيم المغفرة، رحيم واسع الرحمة.

وقد ذكر أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن وثيقة ما يكتب عند المبايعة على الإسلام في الأندلس:

بسم الله الرحمن الرحيم.الحمد لله أسلم فلان بن فلان من أهل أرض كذا، وآمن به وبرسوله محمد ﷺ ، وشهد بشهادة الصدق، وأقر بدعوة الحق : لا إله إلا الله محمد رسول الله، والتزم الصلوات الخمس بأركانها وأوصافها، وأدى الزكاة بشروطها، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام، إذا استطاع إليه سبيلا ويغتسل من الجنابة، ويتوضأ من الحدث، وخلع الأنداد من دون الله، وتحقق أن الله واحد لا شريك له.

وإن كان نصرانيا قلت : وإن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وإن كان يهوديا قلت: وإن العزير عبد الله. وإن كان صابئا قلت: وإن الملائكة عبيد الله. ورسله الكرام وكتابه البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وإن كان هنديا قلت : وإن مانى باطل محض. وبهتان صرف، وكذب مختلق مزور. وكذلك كل من كان على مذهب من الكفر اعتمدته بالبراءة منه بالذكر.

وتقول بعده : سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. لو كان فيهما آلهة لفسدتا. تعالى الله وتقدس عن ذلك كله، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا. والتزم أن لا يقتل النّفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يسرق ولا يزني، ولا يشرب الخمر، ولا يتكلم

بالزور، ويكون مع إخوانه المؤمنين كأحدهم، لا يسلمهم ولا يسلمونه، ولا يظلمهم ولا يظلمونه، وعلم أن للدين فرائض وشرائع وسننا، فعاهد الله على أن يلتزم كل خصلة منها على نعتها بقلب سليم وسنن قويم. والله يهدي من يشاء إلى ما شاء إلى صراط مستقيم. وشهد أن من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. شهد على فلان بن فلان من أشهد عليه وهو صحيح العقل في شهر كذا.[1]

وكنت لما تقلدت خطة إفتاء الجمهورية بتونس، وكان من مشمولاتي قبول العهد من الداخلين في دين الله، حررت الوثيقة التالية : وترجمتها إلى اللغات الإنكليزية والفرنسية، والإيطالية والإسبانية، ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين

شهادة في المبايعة على الإسلام

حضر لدى فضيلة الشيخ محمد المختار السلامي مفتي الجمهورية التونسية

المكرم فلان بن فلان واختار أن يدعى بعد اسلامه بكذا.....

وأعلن أنه آمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق وأنه آمن بالملائكة والكتب والنبيين واليوم الآخر.

وأقر نطقا بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) والتزم بإقامة الصلوات الخمس، وأداء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إذا استطاع إليه سبيلا.

والتزم المحافظة على النفس البشرية، فلا يتعدى على حياة أحد، ولا على عضو منه. واحترام مال غيره، فلا يسرق، ولا ينهب، ولا يغتصب. واحترام عرضه وأعراض غيره فلا يزني، ولا يقذف. واحترام العقل البشري، فلا يشرب الخمر ولا يتناول المفسدات، ولا يخدع عقل غيره، ولا يضلله.

وأن يكون مع إخوانه المؤمنين يحب لهم ما يحب لنفسه. وأن لا يقدم على عمل حتى يعلم حكم الله فيه، مع عزم على تطبيق شرعه، والوقوف عند حد أمره ونهيه. والله على ما يقوله شهيد.

تم هذا منه، وهو في صحة عقل وسلامة مدارك، مع شكر الله على ما هداه إليه.

وحرر بتونس في.......

---

[1] أحكام القرآن ج 4 ص1784/1785

تصديق فضيلة الشيخ مفتي الجمهورية
الإمضاء والختم

وكنت أوقف المبايع أو المبايعة على كل لفظة وجملة، وأشرح مؤداها، وأطلب الإقرار بالتزامها والمحافظة عليها إذا قبلها. كما كنت أقوم ببسط مقارنة بين ما كان يعتقده، وبين عقيدة الدين الإسلامي. وتصور مركز الإنسان في الكون وعلاقته به. وأطلب منه أن يقوم بأداء الصلاة أمامي. ولم أمكن من شهادة المبايعة أي مبايع أو مبايعة إذا كان لا يحسن أداء الصلاة على الوجه الصحيح شرعا.

13- ختمت السورة ببيان علاقة المسلمين باليهود، ذلك أن يهود خيبر كانت مساكنهم قريبة من المدينة، وكان فقراء المسلمين يعملون عندهم، وكان بعضهم لا يتحفظ في حديثه معهم، وبما ربي عليه من الصدق كان يعاملهم معاملة المسلمين، وكان من مكر اليهود أنهم يستدرجون أولئك الطيبين ليستطلعوا أخبار الرسول والمؤمنين، ويفضوا بها إلى قريش. ويخططون لما يمكرون به أيضا. فنبه الله المؤمنين أن لا يتخذوهم أولياء يعاملونهم معاملة الأخوة الصادقة. ويكشفون لهم الأسرار، وليكونوا منهم على حذر. إنهم قوم أصبح غضب الله عليهم مقوما من مقوماتهم لتنكرهم للإسلام الذي عهد موسى عليه السلام لهم أن ينصروه، فكذبوا كما حاولوا الاعتداء على عيسى عليه السلام. غضب الله عليه فهم بما قدموا يائسون من أن يتقبلهم الله برحمته أو يدخلهم جنته، يأسهم كيأس الذين كفروا من الأموات من أن يبعثوا للحياة.

تم بحمد الله تفسير سورة الممتحنة يوم الجمعة 18جمادى الثانية 1435- 2014/4/18.

سورة الصف

هذا هو الاسم الذي سميت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. ووجه التسمية ما ذكر في الآية الرابعة : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) وهي سورة مدنية باتفاق رتبتها حسب ترتيب المصحف الحادية والستون، وحسب ترتيب النّزول الثامنة والمائة. نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (4) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5)

بيان معاني الألفاظ:

كبر: عظم، واشتد.

المقت: البغض من أجل ذنب.

صفا : منتظمين.

الزيغ : الميل عن الحق.

بيان المعنى الإجمالي :

ثبت يقينا أن موكب الكون كله مما تشمله السماوات والأرض، كله سائر بتسبيحة واحدة، هي أن الخالق قد أحكم الخلق وأعطى لكل مخلوق القانون الذي يسير عليه وينسجم مع الكون في حركته نحو النّهاية التي ضبطها سبحانه. فعل ذلك تبعا لعزته التي تجعل كل شيء طائعا له. وتم الخلق على الحكمة التي قدرت كل احتمال، ونفت التضاد المعطل للإيجاد.

يا أيها الذين آمنوا، بوصف إيمانكم، كيف تقولون وتعدون ولا توفون بما التزمتم به بأقوالكم. إن ذلكم المستوى ممقوت عند الله مغضوب على صاحبه. فإياكم أن تعودوا لمثل هذا التراخي. وفي المقابل فإن الله يحب الذين وعدوا بنصرة الدين، ثم وقفوا في الجهاد منتظمين لا يتركون ثغرة للعدو ينال منها جند الله.

ثم أمر الله نبيه أن يذكرهم بموقف بني إسرائيل من موسى الذين يعرفون صدقه، ومع هذا آذوه بتعنتهم، وتراخي عزائمهم. وإن مواصلتهم الانحراف عن الهدى، انتهى بهم إلى أن طبع الله قلوبهم على الزيغ والميل عن الصراط المستقيم، وكانوا من الفاسقين.

بيان المعنى العام :

1-سبح لله...وهو العزيز الحكيم.

ذكّر القرآن المؤمنين بالحقيقة التي يرددها لسان الكون، واستقرت في قلوب المؤمنين. هي تنزيهه سبحانه عن كل نقص. ففي كل ما خلق، وفي النّظام الذي أعطاه لكل كائن ليسير عليه، وفي التناسق بين الكائنات جميعا، نداء بأن الخالق منزه عن النّقص، أعطى لكل شيء خلقه، ثم هداه ليسير إلى الفناء نهايته المحتومة، وينفرد سبحانه بالبقاء الأبدي. وهو العزيز الذي تنفذ إرادته، وهو الذي تصرف حسب الحكمة. ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت.

2-يا أيها الذين آمنوا...ما لا تفعلون.

نداء للمؤمنين بوصف الإيمان مشعر بالتنبيه إلى أن ما يرد بعد النّداء، من مقتضيات الإيمان.

لم تقولون مالا تفعلون-سؤال يدل على أن ما يتلوه منكر، مشعر باللوم والتحذير منه. والمسؤول عنه غير المرضي عند الله : أن يقولوا بألسنتهم واعدين ما سيقومون به مما يرضي الله، ثم تتقاصر عزائمهم عن تنفيذه.

ورويت روايات كثيرة في تعيين ما تم لومهم عليه. روى ابن عطية في تفسيره عن ابن عباس وأبي صالح نزلت بسبب: أن جماعة قالوا: لوددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا نعتني به، ففرض الله تعالى الجهاد، وأعلمهم بفضله لديه، وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص. وكان إذ فُرض قد تكرّهه قوم منهم، وفرمن فر يوم أحد، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية. وقال ابن زيد نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أفعالهم

خلاف ذلك، فنزلت الآية عتابا لهم[1]. وهو بعيد لأن الآية افتتحت بخاطب المؤمنين.

والآية كما تدل على لوم من لم يلتزم بما وعده، فإن حكمها باق منسحب على المستقبل. وهي تُعرّضُ بلوم بعضهم على موقفهم يوم أحد، ممن فر ولم يثبت. وقد روي عن بعض السلف أنه قيل له حدثنا، فسكت ثم قيل له حدثنا، فقال تأمرونني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مقت الله.

وقوله تعالى " لِمَ "مركب من كلمتين اللام "لـ" الدالة على التعليل أي ما هو سبب إقدامكم على قول ما لا تنفذونه ؟ و: "ما " هي ما الاستفهامية حذفت ألفها واتصلت باللام. كقولهم: بم و فيم ومم وعم وعلام

3-كبر مقتا عند الله... ما لا تفعلون.

عظم عظما شديدا بغض الله، المكنى به عن عدم رضاه، وعن حرمان صاحبه من رحمته. فما هو هذا المحذّر منه بهذه القوة والشدة ؟ فصل بعد ذلك بقوله: أن تقولوا: سنفعل وننجز بكل تأكيد، ثم تتراخى عزائمكم عن الوفاء بما أعلنتموه بقولكم. وكونه ممقوتا عند الله مما يوجب الحذر منه والخشية من العودة إلى مثله في المستقبل.

4-إن الله يحب...كأنهم بنيان مرصوص.

عقب القرآن التنفير من القول والتراخي عن التنفيذ. الدال على خور العزيمة، وبأن هذا المستوى ممقوت عند الله، بذكر الصفة التي يحبها الله ويكرم أصحابها، ويقرّبهم منه، وهم الذين يتقدمون للدفاع عن دين الله منتظمين، لا خلل في ترتيبهم والمكان المعين لكل منهم. فالصفوف في القتال مع الالتحام، لا يقصد بها أن يتراصوا تراصا يمنع من الحركة، ومن الكر والفر، ومن حرية المجاهد من التحول إلى المركز المناسب حسبما نظمته القيادة. وإنما يقصد من ذلك أن لا يترك أي مجاهد المركز المؤتمن عليه حتى تسد كل ثغرة قد يغتنمها العدو للإيقاع بالجيش الإسلامي كما وقع في غزوة أحد.

5-وإذ قال موسى...لا يهدي القوم الفاسقين.

واذكر موقف موسى من قومه في ذلك الظرف الذي آذوه فيه، فقال لهم: يا قومي مؤكدا لشدة الرابطة التي تجمعهم به. ومشيرا لهم بما لقي من المتاعب لإخراجهم من تحت سلطة فرعون المتعسفة، قال لهم : لماذا تؤذونني ؟ إنه يوبخهم بعملهم

[1] المحرر الوجيز ج14ص424

على إيذائه. ولم يبين الإيذاء الذي يشتكي منه، والظاهر أنه كان متركا لديهم يعرفونه. ويحتمل أن إيذاءه لأنهم كانوا يتسخطون عليه وهو في عنفوان مقاومته لفرعون ليخرجهم من الذل المسلط عليهم بالاستبداد والتسخير للمهن الحقيرة.(قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا)[1] وكذلك بمعاكسته فيما يأمرهم به. فقد قال لهم: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم -فلم يستجيبوا وعاكسوه قائلين: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.)[2] وبين لهم التوحيد بيانا واضحا وأخذ منهم العهود عليه، فلما تركهم لأخيه هارون وذهب لملاقاة ربه في الموعد، عبدوا العجل. ولما حكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة، ولطف بهم بما أظلهم من الغمام وبتسخير المن والسلوى طعاما لهم يحصلون عليه بدون تعب، قالوا مللنا من هذا الطعام، نحب البصل والثوم والبقول. فكلما رتب لهم أمورهم انتقضوا عليه بالشكوى. وكل همه بصفته رسولا أن يُكوّنَ منهم أمة مطيعة لله تحمل الرسالة التي وثقتها التوراة، وكلما ظن أنه حقق إصلاحهم، كشفوا عن عناد، وتأصل فيهم الفسق.

إنهم قابلوه، بقلوب قد انحرفت عن الامتثال لله وقبول الحق، وتعلقت بالمادة ومتاع الحياة الدنيا. وإظهار التبرم والشكوى، وعدم الرضا بما نالوه من الخيرات بسبب موسى عليه السلام. زاغوا عن الهدى زيغا جعلهم كلما مكنهم ربهم من خير أنكروا فضل الله عليهم، وتصوروا أن لهم مزية على موسى، فلما وصلوا إلى هذا الحد، مكن الله للزيغ في قلوبهم، وأصبح بينهم وبين الحق حجاب. والله عادل فيما يقدره، هم فسقوا وخرجوا من الطريق المستقيم، فلم يمكنهم الله من الطاقة، وتركهم لنفوسهم المريضة تسير بهم في طرق الضلال.

هذا ما فهمته من الآية، وبقي السؤال الذي أثاره كثير من المفسرين، ما هي الصلة بين الآية السابقة التي حذر فيها القرآن المؤمنين أشد التحذير من التناقض بين القول والعمل وهذه الآية التي تتحدث عن موقف عناد اليهود لموسى؟

والذي فهمته أن موقف بعض المؤمنين الذين ضعفت عزائمهم عن الوفاء بما قالوه، موقف منكر جدا، ممقوت من الله أشد المقت، وبّخهم الله عليه بما تمت عليه صياغة الآية من شدة. ثم ضرب لهم المثل بموقف بني إسرائيل الذين لم يرْعَوا حق نبيهم مع تيقنهم بنبوته وآذوه بتعنتهم. فطبع الله على قلوبهم بالزيغ وكانوا من الفاسقين،

---

[1] سورة الأعراف آية 129

[2] المائدة آية 21

فليحذر المؤمنون وليقلعوا عن الانسياب مع الأقوال، والتراخي في الفعال، فمآل بني إسرائيل فيه تنبيه قوي لهم.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

مصدقا : مثبتا ومقررا.

التبشير : الإخبار بحادث يسر.

يظهره : يعليه.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر يا محمد خبر عيسى ابن مريم، في ذلك الظرف الذي توجه فيه إلى بني إسرائيل داعيا لهم بصلتهم بيعقوب : إسرائيل، معلنا لهم : أن الله بعثه ليقرر ما جاء في التوراة من أصول العقيدة، ومن الثوابت في التشريع. وليبشرهم بأسعد خبر: أن الله سيبعث لهم رسولا يأتي في مستقبل الأيام، اسمه أحمد. يكون خاتم رسل الله إلى البشرية، ويكون ما يُوحَى إليه الكفيل بإسعاد النّاس في الدنيا والآخرة، رغم تقلب الظروف والأحوال والعادات. والعجب أنه لما جاءهم عيسى بالحجج البينة الواضحة، قابلوها بقولهم : ما قدمته لنا لا يعدو أن يكون سحرا بينا.

إنهم ظلموا الحقيقة أشد الظلم. كذبوا على الله لما قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، وكذبوا على الله إذ زعموا أن أحكام التوراة لا يلحقها نسخ، وظلموا البشر بإخفائهم الحقيقة على أتباعهم، وإخفائهم ما أخذ عليهم رسلهم من تصديق الرسول محمد ﷺ . وظلموا رسول الله ﷺ بنسبته إلى الافتراء، مع أنه ما دعاهم إلا ليسلموا عقولهم وأرواحهم لخالقهم الهادي. فاستحقوا أن الله حرمهم ألطافه التي تهديهم للحق بسبب ظلمهم. فكانوا من الفاسقين الخاسرين

كذبوا على الله إذ جعلوا ما جاءهم به عيسى اختلاقا وافتراء، كذبوا على الله إذ أنكروا أن يكون بعث محمدا ليبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه، مع أنه ما جاءهم إلا ليدعوهم إلى إسلام الروح والعقل لله. إنهم بظلمهم وتصميمهم على الكفر به حرمهم الله هدايته، لأن هدايته لا ينالها من صمم على الظلم حتى أصبح الظلم مقوّما له.

همهم أن يوقفوا مد الإسلام، نور الله الذي يضيء للسالكين في الحياة طريق نجاتهم في الدنيا وفي الآخرة. لقوة كفرهم ظنوا أن نور الله العظيم الذي يعم الآفاق يستطيعون إطفاءه بأفواههم كما يطفئون شمعة تتراقص ذبالتها بالأنفاس إذا تسلطت عليها وتنطفئ. ويتحداهم القرآن بأن الله سيكمل لهذا الدين قوة انتشاره ولو كره الكافرون.

أنكروا أن يكون محمد مرسلا من ربه، فرد القرآن عليهم، أن الله وحده هو الذي أرسل محمدا، وحمله الهدى الكامل عقيدة وشريعة. وجعل دينه الدين الحق الذي سيعلو على جميع الأديان. فلم يبق بعد ظهور الإسلام أي دين على صفائه الذي أنزله عليه رب العالمين. سينتصر هذا الدين ويعلو على جميع الأديان، ولو كانت عواطف المشركين تكن له البغض والكراهية.

بيان المعنى العام :

6- وإذ قال عيسى..هذا سحر مبين.

أتبع القرآن التذكير بما تم لموسى عليه السلام بالتذكير بما تم لعيسى عليه السلام. اذكر للبشر جميعا ذلك الظرف الذي قال فيه عيسى ابن مريم عليه السلام، وجاء التذكير بأنه عيسى ابن مريم لا ابن الله، ولا روح الله، وإنما هو بشر منسوب إلى أمه مريم العذراء. ونادى المبعوث إليهم ببني إسرائيل لأن بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام تمت لهم قوميّتُهم بانتسابهم إلى يعقوب (إسرائيل) وفي ذلك رمز إلى أن عيسى لم يكن ابنا لأي إسرائيلي، إذ أن شأن الانتساب إلى القوم أن يكون للذكور فقط.

يا بني إسرائيل إني رسول الله الله إليكم. خاطب شعب إسرائيل مذكرا لهم أنهم منحدرون من يعقوب الذي أوصاهم بملازمة التوحيد إلى الموت. (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[1] إني رسول الله إليكم. مؤكدا عليهم:

1–أن رسالته ليست عامة للبشرية. بل هي لأتباع موسى عليه السلام.

---

[1] سورة البقرة آية 132

2) حدد مهمته أنها مبنية على تصديق ما جاء به موسى من ثوابت التوراة كالعقيدة، وأصول الأحكام، وأنه موحى إليه بأن يخفف عنهم بعض الأحكام التي شرعت حسبما يقتضيه وضع الإسرائيليين النفسي والتربوي، وقساوة قلوبهم تبعا للظروف التي عاشوا عليها في مصر(ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم)[1].

3) أن تصورهم أن أحكام التوراة شريعة الله الأبدية تصور باطل.وأن الله بعثه ليعدل بعض أحكامها، كما أن الله سيبعث رسولا بعدي يأتي في المستقبل. أخذ عليّ العهد وعلى من سبقني من الرسل أن نبشر به ليكون هو الخاتم لهداية الله.

4) أن اسمه مشتق من الحمد والثناء، إذ هو لكمالاته حقيق بالثناء الأكمل من بين البشر.ولا توقف في كون الاسم المشهور به :(محمد) استنادا إلى آخر حديث في الموطأ: بسند مالك إلى جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال :لي خمسة أسماء: (أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب – ح رقم 2861 ج 2ص603/604) هو في هذه الرواية مرسل، و وصله غير واحد عن جبير بن مطعم عن أبيه.

وفي شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه :

مفجّعة قد شفها فقد أحمد *** فظلت لألاء الرسول تعدد

ومما نسب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

سأسعى لوجه الله في نصر أحمد*** نبي الهدى المحمود طفلا ويافعا

فلما جاءهم بالبينات- يحتمل أن يكون الضمير في " جاءهم " يعود على عيسى. أي إن اليهود لتصلبهم في رفض كل هداية غير التوراة، أن عيسى لما عرض عليهم الآيات التي أيده الله بها قالوا : هذا سحر واضح لا شك فيه. ورفضوا الإنجيل وما أخبرهم به عن ربهم.

كما يحتمل أن محمدا الذي أوصى عيسى المؤمنين به أن يتبعوا النور الذي أنزل معه، قابلوه محمدا بالإعراض واتهامه بأن آياته سحر واضح لا حقيقة لها.

7- ومن أظلم ممن افترى...القوم الظالمين.

سجل عليهم تكذيبهم بما جاء به محمد ﷺ رغم أنه اجتمع على تصديقه وصاية رسلهم باتباعه، وما صحب دعوته من الآيات البينات على صدقه.

ولذلك افتتحت الآية بسؤال إنكاري، ينكر عليهم موقفهم، ويشنع عليه بأنهم بلغوا من الظلم حدا كبيرا. افتروا على الله الكذب زاعمين أن الله لم يأمرهم باتباع الرسول

[1] اية 50 سورة ال عمران

النّبي الأمي، والغريب في رفضهم أنه ما دعاهم إلا ليسلموا عقولهم وأرواحهم لله رب العالمين. وظلموا رسول الله وخيرته من خلقه بنسبته إلى الافتراء على الله، وتدبير المؤامرات لصده عن أداء مهمته. وظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الحق المنقذ لهم من خسران الدنيا وعذاب الآخرة. وظلموا النّاس بعملهم على بقائهم في الضلالة، إذ كتموا ما عرفوه من أنه الرسول المبشر به، وزينوا لهم ما هم عليه. وإذ تنوع ظلمهم تعرضوا لحرمانهم من الهداية الإلهية، صمموا على الكفر، وعقدوا عليه عزمهم، وأصموا آذانهم وعقولهم عن التدبر في آياته، حتى تمكن الكفر من عقولهم وترسّخ. والله لا يزيل ما أفسدوا به أنفسهم اختيارا للباطل على الحق المبين.

8-يريدون ليطفئوا نور...ولو كره الكافرون.

شهر القرآن بغباوتهم، ومحاولاتهم اليائسة لتعطيل انتشار دين الله في الآفاق. فمثّلهم بمن يتخيل أنه يستطيع أن يطفئ النّور القوي المشع المنتشر بفمه. متصورا أنه لا يختلف عن المصباح الذي يستطيع إطفاءه بالنفخ عليه. هذا الإسلام نور الله الذي قدر بحكمته أن يعم العالم. وما قدّره الله ينفذ ولا راد لما رتبه وقدره ويسره. وإتمام نوره يتحقق بما جعل في الإسلام من مساوقة للفطرة، ومن انسجام مع المنطق والعقل فمن دخل فيه وفهم نظامه ومقاصده يصبح داعيا إليه، يجود بنفسه في سبيل بقائه. وانتشاره يتوقف فقط على الحرية وعدم مقاومته بالقوة الحربية أو القوة المالية والاقتصادية لتوقيف مدّه. وبلوغ الإسلام لكافة الأقطار سيتم متحديا الكافرين وعواطفهم محبطا خططهم الخبيثة

9- هو الذي أرسل رسوله...ولو كره المشركون.

إعلان يتحدى أعداء الإسلام، ويرد عليهم مفترياتهم، وإنكارهم أن يكون محمدا رسول الله. فحققت الآية أن الله هو الذي أرسل رسوله، وأنه ما جاء بشيء من عنده. فهو رسوله الذي أرسله محملا بالهدى ودين الحق. وإن كانت الأديان كلها حق إلا أن تمام الحق جعله الله في الإسلام الذي ختم به رسالاته. أن يجعله عاليا على جميع الأديان. ويتأتى علوه من ناحيتين :

النّاحية الأولى: أن جميع الأديان ما عدا الإسلام دخلها التحريف والتبديل، وضاع شيء كثير منها، وأصبحت تأويلات رجال الدين فيها مساوية لأحكام الله، وبمرور الزمن أصبح التمييز بين أصل ما جاء به الدين، وما أضيف إليه، يكاد يكون مستحيلا، فعبد الله بأفكار النّاس لا بشرعه. وبقي الإسلام ظاهرا عليها عاليا، لأن

مرجعه الأصلي القرآن الكريم بقي محفوظا، في الصدور، وفي نسخ القرآن مرويا رواية متواترة على مر القرون.

الناحية الثانية: ظهور حملته على أتباع الديانات الأخرى. وقد تم هذا في التاريخ، فقد كانت راية المسلمين أعلى من جميع الرايات. ثم تهاونوا في مقومات السيادة التي بها ينتصر النّاس حسب سننه في الكون. بأن ضيعوها فضاعوا.

ولو كره المشركون.

وختمت الآية. بأن هذا يتم ولو كره المشركون، سيتم رغم أنوفهم. والمشركون هم أكثر النّاس. قال تعالى : (وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين)[1] وقال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[2]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ.

الدلالة : العون على معرفة ما لا يهتدى إليه.

التجارة : العمل الصالح.

الأنصار : الناصر القوي النّصر.

الحواري : الصاحب الصفي.

أيد : التأييد النّصر والتقوية.

الظاهر : الغالب.

[1] سورة يوسف آية 103

[2] سورة يوسف آية 106

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للمؤمنين ليعرض عليهم ما يبحثون عنه. إذ كانوا يتساءلون عما يقربهم من رضوان الله، ويضاعف حسناتهم. كان العرض واضحا، تجارة رابحة تتمثل في ركنين أساسيين: الإيمان بالله، والثبات في الجهاد قصد نصر دينه بالمال والنفس. فذلك هو الخير الخالص لكم. يتمثل هذا الخير أنه يغفر لكم ذنوبكم فيمحوها من صحائفكم، ثم يتفضل عليكم بإدخالكم جنات تتخللها الأنهار، وتقوم فيها قصور حوت من الأناقة وطيب الإقامة فيها ما يتجاوز الوصف. ودخول الجنة هو النجاح العظيم. ونعمة أخرى تحبونها وترجونها، يحققها لكم بجمعكم بين الإيمان والجهاد، أن الله ينزل عليكم نصره، ويمكنكم من فتح قريب إشارة إلى فتح مكة. وقم يا محمد بتبشير المؤمنين بما وعدتهم.

ثم دعاهم أن يطوعوا أنفسهم ليكونوا أنصارا لدين الله. وذلك على النحو الذي دعا عليه عيسى لما بالغ اليهود في تكذيبه. نادى في الحواريين من منكم يبايعني على نصرة دين الله ؟ استجاب الحواريون لندائه، وبايعوه. وانشق بنو إسرائيل الذين دعاهم إلى الإيمان به إلى فرقتين. فرقة آمنت به، وفرقة كفرت. وبعد جولات لم تطل تغلب المؤمنون به على اليهود أعدائهم، وظفروا بهم. فعلى المؤمنين أن ينتظروا من نصر الله ما يعز به دينه، ويدحر الكفر وأهله.

بيان المعنى العام :

10—11-يا أيها الذين آمنوا...إن كنتم تعلمون.

أعيد النداء المذكور في أول السورة : يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. وكان قولهم نلتزم بأن نقوم بإخلاص بالفعل الذي يقربنا من ربنا. فعرضت هذه الآية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا لهم : هل أدلكم على ما خفي عليكم وترغبون في القيام به، هل تريدون أن تعلموا التجارة الرابحة التي تنجيكم من عذاب أليم، وتحجزكم عن نقمة الله وعذابه الشديد إيلامه ! إنه عرض مشوق يحرك السامع لمعرفته وقبوله : تجمعون بين أمرين، تؤمنون بالله إيمانا يتجدد في عقولكم وأرواحكم فلا تغفلون عن مضامينه، وتجاهدون أعداء الدين بكل ما أوتيتم من قوة ثابتين لا تفرون من ساحة القتال، جهادا لا تبغون من ورائه إلا أمرا واحدا أن يكون جهادكم في مرضاة الله وطريقه الذي سطره. لا تدخرون مالا ولا تخشون الشهادة. إذا صممتم على ذلكم الموقف ونفذتموه، حصلتم على الخير الكبير. خير

الدنيا بالعز والسؤدد وخير الآخرة الذي بينته الآية التالية. إن كنتم تعلمون، ما تفيده إن من الاحتمال المتساوي ناظر إلى موقفهم يوم أحد، فأشار إليه ليحذروا مثله.

12- يغفر لكم ذنوبكم...ذلك الفوز العظيم.

الجزاء الأول هو مغفرة ذنوبكم والتجاوز عن تقصيركم فتلقون ربكم بصفحة نقية من الإثم. ثم يدخلكم جنات تتخللها الأنهار والخصب في كل مكان. وتقوم فيها قصور على أتم ما يكون من الجمال، والزخرف، والراحة. تكتب لكم الإقامة الدائمة الأبدية فيها، لا ينغص نعيمكم خوف زوال نعيمها. ذلك، ما ذكرناه من المقامات العلية هو الفوز العظيم، والنجاح الذي ليس وراءه نجاح.

13- وأخرى تحبونها...وبشر المؤمنين.

ونعمة أخرى تنتظرونها من فضل الله ورعايته لكم. نعمة أنتم متعلقون بها وتحبونها، وسيمُنُّ الله بها عليكم بجمعكم بين الإيمان والجهاد في سبيله، تتمثل في نصر عزيز يحققه لكم، وتومئ هذه البشارة بالنصر، والفتح القريب، إلى فتح مكةَ. وهو أعظم فتح غطت به راية الإسلام الجزيرة العربية كلها. وانطلقت منها إلى الآفاق تهدي البشرية للإسلام. وتوالت إثره الوفود تبايع على الإخلاص لدين الله.

وبشر المؤمنين...بعد أن دلهم على التجارة الرابحة، عطف أمره لنبيه الكريم أن يعلن البشارة للمؤمنين. ليزدادوا ثقة في منزلتهم المرضية من ربهم. وأنهم محل عنايته يُجْري أقداره على ما يمكن لدينهم الذي ارتضوه وتعلقوا به أشد تعلق.

14- يا أيها الذين آمنوا...فأصبحوا ظاهرين.

أعيد النّداء للمؤمنين مما يدل على العناية بهم، وتشريفهم بوصف الإيمان، وحثهم على الاستجابة لما يتلو النّداء.

كونوا أنصارا لله - يقصد به توجيه عزائمهم، وأفعالهم، حتى يكون ما سيرد بعد الأمر "كونوا" ملكة لهم تظهر آثارها في جميع ما يصدر عنهم. طوّعوا أنفسكم لتكون حياتكم وقفا على نصر الله، أي نصر دينه. وعقبت هذه الدعوة بما يبينها ويجسمها. ذلك أن نصر دين الله الذي يصبح ملكة قد تخفى طريقة تحققه على الوجه المقصود للأمر الحكيم.

كونوا أنصار لله كما قال عيسى ابن مريم...أراد منهم أن يكونوا أنصارا لله على النّحو الذي كان عليه أتباع عيسى ﷺ عندما دعا الحواريين بقوله : من أنصاري إلى الله ؟ أي من أنصاري منَ الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله بنصرة دعوتي ؟

والحواريون جمع حواري، وهو الصاحب الصفيُّ المخلص. وهي كلمة دخيلة في العربية. كانت إجابة الحواريين جازمة جزما، حصر النّصر فيهم، بقولهم : نحن أنصار الله لا يوجد غيرنا مخلصا إلى هذا الحد. ونحن ثابتون على هذا العهد لا نحيد عنه ونبذل أرواحنا وكل شيء في سبيله.

وعلى هذا النّحو من الإخلاص للدين دعا القرآن المؤمنين ليكونوا ثابتين على الإيمان ناشرين له قولا وعملا. وما لاقاه الحواريون من اليهود وثباتهم رغم كل أنواع العذاب والتحديات تحدث به الأخبار وعلمه المؤمنون، واستقر في نفوسهم صورة للثبات على الدين، وبذل النّفس في سبيل إبلاغه للناس.

فآمنت طائفة.. لم يستجب لدعوة عيسى عليه السلام كل الذين طلب منهم أن يؤمنوا برسالته. وافترقوا فرقتين: فرقة أخلصت في تأييدها لعيسى الإخلاص كله، ولم يرهبها لا التقتيل ولا التعذيب. وفرقت كفرت به وعملت على إجهاض دعوته.

فأيدنا الذين آمنوا... للكفر جولات قصيرة المدى، لا تثبت أمام قوة الإيمان. فبعد أن نجح اليهود في إغراء السلطة بتشريد الحواريين وتعذيبهم، جاء نصر الله مؤيدا ومساعدا للمؤمنين. فنجحوا في نشر المسيحية، وتمكنوا من الحكم في اليهود الكافرين بعيسى. وغلبوهم غلبة توالت قرونا.

وفي هذا المقطع من قصة عيسى عليه السلام، وانتصار الحواريين، وانهزام أعدائهم شر هزيمة، ما يفتح للصحابة الذين كانوا حول رسول الله ﷺ الآمال في نصر دين الله. والتقى هذا المقطع مع قوله تعالى :وبشر المؤمنين.

يوم الاثنين 21 جمادى الثانية 1435 الموافق لـ21 أفريل 2014

سورة الجمعة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة. ووجه تسميتها وقوع لفظ الجمعة فيها. وهو نهاية الأسبوع في الإسلام. والظاهر أنها نزلت دفعة واحدة في المدينة المنورة. وهي السورة الثانية والستون حسب ترتيب المصحف. والسادسة بعد المائة حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة التحريم، وقبل سورة التغابن.

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأمي : الذي لا يكتب.

بيان المعنى الإجمالي:

كل الكائنات التي تحويها السماوات و الأرض تسير في موكب واحد مسبحة لله بلسان حالها أو لسان مقالها، هو مالك كل كبيرة وصغيرة في الكون، وهو المنزه عن كل نقص، ثبت له الكمال المطلق. تنفذ إرادته وتحقق قدرته ما يشاء تحقيقه. وقد طوع الكون لذلك بعزته. وكل ما ينجزه ينادي بحكمته سبحانه.

هو الله الذي بعث محمدا رسولا، وكذب الكافرون في دعواهم أن ما أتى به هو من عند غير الله. اختار أن يكون رسوله أميا لا يقرأ من الصحف ولا يكتب في قوم أميين. يعرفون مولده وصباه وسلوكه شابا وكهلا. علمه ربه، وتولى هو تعليم الأميين، فسموا حسن تفكير، واقتدارا على تسيير شؤون الحياة إلى أرفع مستوى. يتلو عليهم آيات الله، ويسمو بملكاتهم الإنسانية ويطهرها من لوث الشرك، وعرامة الشهوة، وضيق الأنانية. ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيحولهم من الأمية إلى يفاع

العلم ودقة النظر. ولقد كانوا قبل أن يأتيهم هدى الله منغمسين في الضلال البين، أطبق الشرك على عقولهم وعلى أرواحهم. وسيجري على نهجهم آخرون فيدخلون في الإسلام ويكونون من حملته، والمدافعين عنه، والحاملين لرايته من مختلف أقطار الأرض. وسيتم ذلك قريبا. لأن الذي قدر انتشار الإسلام في العالم هو العزيز الذي لا يغلبه شيء، الحكيم الذي يرتب الأمور ترتيبا يتبعه النجاح.

ذلك الذي أفضناه على محمد من التكريم بالرسالة، وانتشاله الأميين من أميتهم ليكونوا قادة للعالم وهداة للبشرية. وجعل رسالته الرسالة الأخيرة من الله إلى الناس فيتبعهم آخرون يتبعون طريقتهم ويواصلون نشر دين الله في الآفاق. والله هو العزيز الذي تنفذ إرادته ولا يعترضها شيء. الحكيم في كل ما يقدره.

ما ذكر من الآية الثانية إلى الآية الرابعة هو من سحائب فضل الله، وفضله بيده وهو أعلم حيث يجعله. وإن فضل الله لا تحد حدوده.

بيان المعنى العام :

1يسبح لله ما في السماوات....الحكيم.

يذكر الله المؤمنين بأن ما تحويه السماوات وما تحويه الأرض من كائنات، كلها تواصل تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص. وتعترف له بظهور كماله المطلق في خلقه، وفي تدبيره. الله المتفرد بأنه الملك الحق النافذ أمره في ملكوت السماوات والأرض. المتقدس والمنزه عن صفات ملوك الدنيا من الغرور والبطش، والظلم، تنفيذا للهوى. العزيز الذي طوع كل لشيء لقدرته وإرادته. وظهرت حكمته في كل ما يدركه الإنسان، فكلما تعمق الناظر في التأمل، ازداد يقينا بالحكمة البالغة في كل كبيرة وصغيرة، وفي الترابط بين أجزاء العالم.

إن من شأن البشر أنهم يحبون الكمال، فمن يقرأ نصا متميزا في صياغته ومعانيه، يتعلق به، ومن ينظر إلى الجمال الفائق في الطبيعة أو في الإنسان يتعلق بما رآه، وهكذا تجد الإنسان مفطورا على حب الكمال حيثما وجد. ولما كان الله جل جلاله المتفرد بالكمال، فملاحظة هذا الكمال تقتضي أن يتعلق الإنسان بربه ويحبه.

2- هو الذي بعث...من قبل لفي ضلال مبين.

هذه هي العقيدة الإسلامية المثبتة لعناية الله بخلقه، خلافا لما يقوله بعض الفلاسفة أن الله خلق الخلق، وصرف القوانين التي يسير عليها العالم، ثم انعزل عن هذا العالم وتركه يسير وفق تلكم القوانين.

من فضله العظيم على البشرية عامة وعلى العرب خاصة، أنه بعث في الأميين رسولا منهم. ولتكون المعجزة أظهر، وقبول هدايته ألزم، بعث نبيا أميا في الأميين. لا يتهم أن ما جاء به حاصل دراسة، ووضع اجتماعي ومستوى تعليمي متقدم. كما يسّر قبول رسالته بأنه منهم. رُبّي بينهم يعرفون خلقه، والظروف التي عاش فيها، ولا يخفى عليهم شيء من أمره يبعثهم على الشك في المستوى الذي بلغه، فيتهمونه بأنه ينقل كلام غيره، أو يضيف إليه شيئا من خبرته وذكائه.

ثم المعجزة الأخرى المساعدة على تحقيق عالمية رسالته أن القوم الذين بعثه فيهم ونشر بينهم الإسلام، وكلفهم بتبليغه، أمة أمية؛ بعيدة كل البعد عن تسيير الممالك وتنظيم الدول. فأثر الدين فيهم تأثيرا كون منهم قادة، ورجال سياسة، غيروا وجه العالم، ورتبوا الأنظمة المحكمة أينما انتشروا. ينادي بأن السر هو في الدين الذي رحم الله به البشر. ولو لم يكونوا أميين لنسب ما حققوه إلى الأنظمة التي ربوا عليها. فكانت الأمية صفة كمال فيهم، وأمرا مظهرا لحكمته تعالى. خلافا لما كان ينتقص به اليهود المسلين بأنهم أمة أمية.(ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل)[1]

لقد ظهرت الحكمة في كون الرسول أميا، وكون المبعوث فيهم أميين. ولتبع ذلك بخصائص هذه المنة العظمى التي ارتقى بها هذا البعث إلى مقام الرسالة الإلهية للعالمين. فأثبتت له الآية :

1-أنه يتلو عليهم آياته- هذا ما توجهت إليه عناية الله من أول أمر اتصال محمد ﷺ بالوحي. أول ما خوطب به: اقرأ. ليبلغ ما يتلى عليه، ويثبته في العقول والقلوب. ويتواصل الأمر على هذا النسق، فكلما تلقى من ربه وحيا قرأه على الناس ودعا كتبة الوحي ليثبتوه خطا، كما ثبت تلاوة. وفي ذلك إشارة أيضا إلى أن ما يتلوه هو معجزته العظمى، فنصوص الوحي المتلوة آيات وأدلة تقوم شاهدة أنه كلام منزل من عند الله تحدى به ﷺ العالمين.

2- ويزكيهم- زكاء النفس وطهارتها، يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر، والمثوبة. تنسب التزكية للنبي لكونه الواسطة في وصول ذلك إليهم [2]- كانت هذه الأمة الأمية تعيش على الفطرة، لم تتهذب غرائزها بالحضارة، والطاعة للدولة. لم يختص بعض أفرادها متعمقين في العلوم والفلسفة. ولا كانت لهم صناعات دقيقة تعتمد التجربة، والتجويد والفن. فجاء

---

[1] سورة آل عمران آية 75

[2] الراغب الأصفهاني ص310

الوحي الإلهي على لسان رسوله، فأخذ تلك النفوس فنمّى الجوانب الإنسانية فيها حتى أصبحت وكأنها نشأت في حجر الحضارة. وحولها من الفردية الضيقة إلى الحياة الاجتماعية الرفيعة، فكان لها من خلق الإيثار، والنظام، والحرص على الفضيلة ومقاومة الرذيلة، ما سمت به على الحضارات الأخرى، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ويعلمهم الكتاب والحكمة - نزل الكتاب على رسوله، فبلغه وفتح به عقولا كانت لصيقة المادة والشهوة، والقرآن له مفاهيمه الرفيعة ومقاصده القريبة والبعيدة. شرح النبي ﷺ محتوياته ومقاصده، وأقنعهم بها، ووضّح لهم سبل تطبيقها. فجمع تعليمه ﷺ بين الناحيتين النظرية، والتطبيقية.(**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**)[1] وعندما تتأصل المعرفة بجودة التعليم الذي يعنى بالمعلم من جميع جوانبه المادية والنفسية والروحية والخلقية، تسمو مداركه فيعرف المواضيع التي ينظر فيها معرفة بعيدة عن الضلال. وهي الحكمة.

وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين - يثبت القرآن مؤكدا أن العرب الأميين كانوا قبل نزول القرآن عليهم منغمسين في الضلال. ضلال الشرك الذي يعمق ضياع المشرك، حينما يعبد آلهة متعددة، وليس في واحد منها ما يؤهله للألوهية، وحينما يقدس حجرا منحوتا أو خشبة، أو حيوانا، وكلها أحط منه وأقل قيمة. وتنسج الخيالات حول تلك المعبودات صورا من التقرب إليها تتسفل بالإنسان إلى أحط الأوضاع. يتقرب إليها بالقرابين، ويخشى بطشها، ويرجو منها الفرج عند الشدة.

3- وآخرين منهم....وهو العزيز الحكيم.

يتلو على الأميين آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة - ويتلو على آخرين غير الأميين، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فهذا القسم الآخر ليس أميا، وهو ينتفع من هذا الرسول بتعلمه منه الكتاب والحكمة.

ثم إنه يحتمل أن يكون المقصود أمما من غير العرب، والرسول مبعوث للعالم كله. وذهب بعضهم إلى أن المراد بذلك التابعون وذرياتهم إلى يوم القيامة.

وقوله لما يلحقوا.. جمع لهؤلاء الذين لم يكونوا عند نزول الآية داخلين في جماعة الإيمان وصفين، أنهم منهم. وأنهم لم يلحقوا بهم، مما أفاد أنهم سيكونون جزءا منهم ويصيرون مثلهم في الوفاء للدين، وفي حمل كتابه، والاقتدار على فهم معانيه

---

[1] سورة الأحزاب آية 21

ومقاصده، وأنهم سيدخلون في الإسلام قريبا لما تفيده كلمة " لمّا " من أن النفي يقف عند الزمن الحاضر. فيشير ذلك إلى قرب التحاقهم بهم.

وهو العزيز الحكيم – فبعزته سبحانه سيتم انتشار الإسلام بين الأمم التي كانت على مستوى حضاري رفيع، على أيدي الأميين. ومن حكمته أن الذين تحملوا نشره قد ساعدهم بألطافه ليقوموا بالمهمة أحسن قيام. فقاموا بها فعلا.

4- ذلك فضل...ذو الفضل العظيم.

ذلك، يحوي ما تقدم من إرسال محمد بالآيات وما جمع له من مظاهر العناية، وما لطف بأمته التي شرفها الله بتلقيها عنه مباشرة الكتاب والحكمة وما قدره لمن يلحق بهم من مراتب الكمال ؛ كل ذلك فضل الله. وفضل الله لا ينال بشريف نسب، ولا بمنزلة اجتماعية رفيعة، ولكن الله يؤتي فضله من يشاء، فيرفعه من مقامه الذي هو فيه إلى المقامات العليا التي يتبعها الفوز في الدنيا والآخرة. وقد تحقق ذلك لمحمد ﷺ ولصحابته.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

حملوا التوراة : كلفوا بالعمل بها.
أسفارا : كتبا كبارا من كتب العلم.
قدمت أيديهم : ما فعلوه من المعاصي.
تفرون منه : تحذرونه.
ينبئكم : يحاسبكم.

بيان المعنى الإجمالي:

نبه الله المؤمنين ليحذروا مآل اليهود الذين حملهم الله التوراة، فلم يعملوا بها، وهم مع ذلك يفتخرون بأنهم الحفظة عليها. فإذ لم ينتفعوا بها كان مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل أسفار العلم وتثقل ظهره ، ولكن لا ينتفع مما يحمل إلا بالكد والتعب.

وما أسوأه من مثل يكشف عن ضلالهم. لقد حرموا الألطاف الإلهية بسبب ما هم عليه من الظلم للحقيقة، ولرسول الله، وللناس الذين أضلوهم.

قل يا محمد لليهود: إنكم تزعمون أن صلتكم بالله على أقوى ما يمكن أن يكون، وأن الله يحبكم ويفضلكم على العالمين، وأنه لا يعذبكم، وقد هيأ لكم خير المقامات في الجنة ؛ فإذا كان ما تقولونه حقا فتمنوا الموت لتفوزوا بما هيأه لكم. وقد أرجعهم لباطنهم لينكشف لهم من ذاتهم كذبهم، فإنهم بمجرد ما يدور بخلدهم الموت يرتعشون منه. فبان بهذا التحدي أنهم يُرَوّجُون لخلاف ما يعتقدون.

قل لليهود أيضا، إن خوفكم من الموت وحذركم منه لا يفيدكم شيئا، فإن الموت الذي تحذرونه، سيقتلع حياتكم، وتتلاقون معه ملاقاة لا تنفصم، إلى يوم القيامة؛ وتعرضون على الله الذي يعلم علما دقيقا ما قمتم به من أعمال ظاهرة، وما جرى في بواطنكم من مكر وخبث وفساد. وسيكشف عن ذلك ويحاسبكم عنه

بيان المعنى العام :

5-: مثل الذين حملوا...لا يهدي القوم الظالمين.

هذه الآية تتمة لما جاء في الآيات السابقة4/2- من التنويه والمنة، فأكمل ذلك بالتنبيه إلى الحفاظ على المنهج الذي نالوا به تلكم المنن. وجاء هذا التنبيه بعرض ما آل إليه اليهود. فإن الله امتن عليهم ببعثة موسى وإيتائهم التوراة: (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور)[1] فكانوا يفتخرون بها، ولم يحفظوها من التبديل والتغيير، وأدخلوا فيها من أهواء الأحبار ما أدخلوا، وعملوا على تأويلها بالباطل، وكتمان ما لا يوافق هواهم. ومن ذلك جحدهم لما حتّمه عليهم موسى ﷺ من اتباع محمد ﷺ ونصره. فضرب لهم مثلا يصورهم في حمل التوراة مع عدم الانتفاع بما جاء فيها، وعدم التدبر في مقاصدها، يصورهم بصورة الحمار الذي يحمل أسفار العلم، يكد من ثقلها ولا ينتفع منها بشيء. وإذ تم تصويرهم تصويرا دقيقا يترك صورته مجسمة في ذهن التالي، شنع عليهم مصرحا بأن صورتهم المرتسمة، هي صورة سيئة تزري بصاحبها، وتكشف عن حطته. ثم أدخلهم تحت قاعدة عامة تفيد أن خسرانهم كان بسبب ظلمهم للحق، وظلمهم لمحمد ﷺ، بتكذيبه، وتفضيل الشرك على ما جاء به. ولما أصبح الظلم مقوما لهم انسحب عليهم جزاء الظالمين: أن الله لا يسعفهم بألطافه الهادية من الضلال، وبحرمانهم من تلك الألطاف يطبق عليه الضلال فلا مخرج لهم منه.

---

[1] سورة المائدة 44

6-قل يا أيها الذين هادوا...إن كنتم صادقين.

قل – صيغة قرآنية في كل أمر هام، يفتتح بقل ليكون السامع مستعدا لما سيتلى عليه. خاطبْ اليهود، وهم الذين هادوا، وقل لهم، لقد زعمتم زعما باطلا، لا ينبغي أن يتحدث عنه إلا على سبيل الفرض، لا التحقيق." إن زعمتم " مضمون زعمهم هذا: أنهم أولياء الله، المقربون منه، المكرمون عنده. منزلتهم عنده لا يسمو إليها أحد. وهو الأمر الذي ما زالوا ينشرونه – شعب الله المختار – إن كان ما تزعمونه حقيقة واقعة، وتؤمنون بها، فإني أتحداكم أن تتمنوا الموت ليتعجل لكم ما تزعمونه، إن كنتم صادقين فيما تدعون. والمعروف عن اليهود أنهم أشد الناس خوفا من الموت وجزعا منه.

سجل القرآن على اليهود ما روجوه، وما زالوا يروجونه، حتى اقتنعوا به، شأن الكذابين الذين يكررون كذبهم إلى أن يقتنعوا بأن كذبهم صدق. قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقالوا: لن يدخل الجنة إلا اليهود. ونسجوا نسيجا جعلهم يعادون البشرية جميعا، ولا يرضون إلا بأن يكون الناس تبعا لهم دون أن يصلوا إلى مستواهم. أرجعهم القرآن إلى نفوسهم ليتحرك منها ما يوقظهم إلى كذبهم، وباطلهم. قال لهم: تمنوا الموت، فهل تطاوعكم نفوسكم على تمني الموت ؟ ستجدون من ذواتكم شاهدا على كذبكم، فارجعوا عن مغالطة البشرية بأكاذيبكم. فالقرآن بهذا التوجه يرمي إلى أن يزعزع ما اقتنعوا به بعامل نقدي ذاتي من نفوسهم. ولم يطلب منهم أن يعلنوا هذا التمني للناس. إذ الغاية الأولى من بعثة الرسول هي مساعدة الناس على رفض الضلال، والوثوق بالحق، ولا يقصد قصدا أوليا إلى فضح الناس وإظهار تناقضهم.

7-ولا يتمنونه أبدا...بالظالمين.

ثم إن القرآن كشف عن هذا الاختبار النفسي، فصرح بأنهم لا يتمنون الموت أبدا، فسقط أنهم أبناء الله وأحباؤه، والمختارون من خلقه، وفرارهم من تمني الموت يدل على أنهم استعرضوا في باطنهم ما قاموا به من آثام وظلم، وكذب وفساد، وبهذا فهم لن يتمنوا الموت إذ أن ما سيقدمون عليه من الجزاء عن سوء فعالهم يجعلهم يفرون من تصور الموت والبعث الذي يتلوه. والله لا يغيب عنه شيء من ظلمهم وتعديهم لحدوده. وفي هذه الخاتمة تهديد ووعيد.

8-قل إن الموت...بما كنتم تعملون.

قل لليهود: أعيد الأمر بالقول لتأكيد التنبيه ليكون وعيهم على أتمه. إن الموت الذي عرضتُ عليكم أن تتمنوه في بواطنكم، فانزعجتم من تصوره، وخفتم وحذرتم من

أن يلحقكم، سيقصفكم قطعا، وسيقتلع حياتكم قلعا لا عودة بعده في الدنيا ويصاحبكم إلى يوم البعث. "ملاقيكم "ملاقاة ارتباط لا تنفك. والموت مرحلة بعدها مرحلة أخرى ،وهي أنكم ستبعثون بعد الموت، وترجعون إلى الله الذي أوجدكم، وهو العالم بما قدمتموه في الدنيا، يعلمُ أعمالكم ويعلم ما انطوت عليه ضمائركم وما جرى في نواياكم، وأنه سيحاسبكم على كل ذلك.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

النداء :الأذان.

السعي : المشي بحرص توقيا من التأخر، مع السكينة.

ذروا البيع : اتركوا البيع والشراء.

ذكر الله: الصلاة والخطبة.

فضل الله : اكتساب الرزق.

الانفضاض : التفرق.

بيان المعنى الإجمالي :

تنبيه للمؤمنين إلى قيمة أدائهم لصلاة الجمعة. أوجب عليهم أنه بمجرد ما يسمعون الأذان الداعي إلى إقامتها، أن يتوجهوا إلى الجامع غير ملتفتين إلى شيء غير الاستجابة للنداء الذي يدعوهم للصلاة وذكر الله، وان يقلعوا عن البيع والشراء، وكل ما يلهي عنها. إن إقبالكم على صلاة الجمعة وذكر الله أعظم قيمة وأرجح وزنا وخير لكم مما سواه.

فإذا أتممتم صلاتكم، فلا حرج عليكم أن يتوجه كل فرد منكم إلى نشاطه السابق في أي ناحية من نواحي أرض الله. واجمعوا بين سعيكم في الأرض قصد تحصيل الرزق، وبين ذكره، فلا تستولي عليكم الحياة الدنيا، فتنسون ذكر الله بقلوبكم وألسنتكم. فبهذا ترجون النجاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ثم سجل القرآن حادثة، حاصلها : أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فقدمت تجارة من الشام اقتبلها جمع بالصخب، واللهو. فانفلت بعض الحاضرين، منصرفين عن استماع الوعظ النبوي، وخرجوا لمعرفة حظهم من تلكم التجارة، أو لشراء بعض ما أتت به، أو لسماع اللهو، وتركوا رسول الله ﷺ يواصل خطبته مع الذين بقوا معه من عقلاء الصحابة رضوان الله عليهم. فوبخ الله هؤلاء المنصرفين، وكشف عن فظاعة ما أقدموا عليه. وشنع بغفلتهم، مصرحا بأن ما عند الله من الفضل في الدنيا والأخرة، خير من اللهو الذي استفزهم، ومن التجارة القادمة من الشام. والله خير الرازقين فرزقه واسع، وألطافه تجعل المرزوق ينتفع بما حصل عليه.

بيان المعنى العام:

9- يا أيها الذين آمنوا...إن كنتم تعلمون.

هذا نداء للمؤمنين بعد أن ذكرهم بتسبيح الكون كله لله، وأنه بعث فيهم محمدا ﷺ فهداهم الله به وكذلك ما يأتون بعده. وأن عليهم أن يطبقوا عمليا ما أتاهم به ولا يكونوا كاليهود. ناداهم ليستجيبوا لداعي الصلاة يوم الجمعة، فيكون تجمعهم هذا تمييزا لهم عن بقية الأمم، وإبرازا لنعمة الله عليهم، وإظهارا لتوحدهم في الأصل الذي قام عليه الإسلام عمليا " الصلاة "باجتماعهم على إمام واحد يذكرهم، ويعرض عليهم المنهج الذي يُرضي الله في المشاكل القريبة التي تهمهم.

إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة. إذا حصل النداء، ويعم الخطاب من سمعه ومن لم يسمعه، وهو في المدينة بإجماع. وأما من كان خارج المدينة، فالذي يراه مالك أن من كان بعيدا عن المسجد بنحو خمسة الاف متر، فإن فرضه أن يستجيب لنداء الداعي ويحضر الصلاة مع الجماعة. ومن كان وراء ذلك بقي فرضه إقامة صلاة الظهر. ومن سعى إلى الجمعة فقد أحسن.

ويوم الجمعة هو سابع أيام الأسبوع. ذكر القلقشندي في المدرك الثالث: وابتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت. قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال[1].

وروى مسلم بسنده إلى عبد الرحمن بن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة.... [2]

[1] صبح الأعشى ج3ص100

[2] إكمال الإكمال ج 3 ص11

وأول جمعة جمعها النبي ﷺ ، فيما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل كانت في اليوم الخامس من مقدمه ﷺ ، في مسجد بني سالم بن عوف [1].ثم صلى الجمعة الثانية بمسجده بالمدينة.

وأول جمعة جمعت في مسجد من مساجد الإسلام كانت بمسجد جوثاء بالبحرين.

فاسعوا إلى ذكر الله...أمروا بالتوجه إلى الصلاة، مع استحضار القصد إليها، فلا يلتفت في توجهه إليها إلى أي أمر آخر. وذكر الله يشمل الإنصات إلى الخطبة، والصلاة، ومعقبات الصلاة. ولما اشتمل الذكر على الخطبة، كان من المحتم على المسلم أن يحضر الخطبة من أولها. وذكر الزمخشري : (ما كان في الخطبة من ذكر رسول الله ﷺوالثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين، والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله. فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم، وهم أحقاء بعكس ذلك، فمن ذكر الشيطان. وهو من ذكر الله على مراحل. وإذا قال المُنْصِتُ للخطبة لصاحبه " صه - فقد لغا، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغيا! نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام.[2])

وذروا البيع... هو تأكيد لقوله فاسعوا إلى ذكر الله. وبما أن البيع أغلب العقود التي يحتاج إليها الإنسان نهوا عن البيع بعد النداء. ومع كونه منهيا عنه فهل يفسخ البيع الذي تم وقت النداء ؟ خلاف. ومذهب مالك أنه يفسخ. وأما بقية العقود فالمشهور أن عقدها بعد النداء محرم لا يوجب الفسخ.

ذلكم خير لكم...ما ضبطته الآية من السعي إلى ذكر الله، وعدم الاشتغال بالبيع أصلا، وكذلك ببقية العقود، وكل ما يشغل عن التوجه إلى الصلاة بالجامع، هو خير لكم من التلهي عن السعي للجمعة بالكسب بالبيع ومما تكسبونه من البيع والشراء من منافع. وحرضهم على الالتزام بما هداهم إليه، بأن يمحضوا عقولهم وأرواحهم إلى العبادة، بالإيماء إلى أن التهاون أمارة جهل بما هو خير في الحقيقة.

10-فإذا قضيت الصلاة.... لعلكم تفلحون.

إذا أكملتم صلاة الجمعة إثر سلام الإمام، فإن الله أباح لكم أن تنتشروا في الأرض، كل واحد يذهب حيث يريد لينشط في الحياة، وينتج ما يعود عليه وعلى المجموعة بالخير. واطلبوا من فضل الله أن يسعدكم بالتوفيق فييسر لكم الكسب الحلال. وترشد الآية المؤمن أن يكون دوما على صلة بربه يذكره بقلبه ولسانه، فلا يستولي

---

[1] صبح الأعشى ج3ص 96

[2] ج 2ص459

عليه ما يبغيه من الربح، وينسى ذكر ربه. فانقطاع تلكم الصلة هو انقطاع النور الهادي الواصل لروح الإنسان بالله، فيكون في سعيه كالربّان الذي فقد البوصلة في عُظم المحيط. وذهب بعضهم إلى أن عشية يوم الجمعة يقوم فيها المؤمن بصلة الأرحام، وبزيارة المرضى، وطلب العلم.

11- وإذا رأوا تجارة...والله خير الرازقين.

كان النبي ﷺ متوجها للمؤمنين بخطبته في يوم الجمعة، وإذا بصوت لهْو وصخب خارج المسجد النبوي، تبين للحاضرين أن دحية الكلبي قدم بتجارة من الشام. وشأن رئيس القافلة التجارية أن يجمع الأموال من التجار ليكون وكيلا عنهم في بيع ما يحمله، ثم شراء ما يبدو له أن فيه ربحا. ويأتي بما يكون المجتمع المدني في حاجة إليه. وأيضا فإن اقتبال قافلة التجارة يصحبها لهو تعبيرا عن الفرحة برجوعها سالمة فتنوعت العوامل التي تأثر بها بعض الحاضرين. خرج بعضهم ليتسلم حظه من التجارة، والبعض ليشتري ما هو في حاجة إليه مما جاءت به القافلة، وخرج بعضهم وقد هيّجه صوت اللهو ليستمتع بالمشهد. وتركوا رسول الله قائما على المنبر يواصل وعظه. وبقي معه ما بين اثني عشر رجلا أو أربعين منهم العشرة المبشرون بالجنة.

سجل القرآن ما وقع من هؤلاء المنصرفين عن الانصات لرسول الله، وإسراعهم إلى حظ قليل من الدنيا، انفضوا إلى التجارة وما صحبها من اللهو، فوبخهم على ما صدر منهم، ولم يخاطبهم مباشرة فيقول: وإذا رأيتم تجارة أو لهوا. مبالغة في تأنيبهم وإبرازا لفظاعة ما أقدموا عليه، فهم تبعا لما صدر منهم غير مؤهلين لأن يواجههم الله بخطابه.

قل لهؤلاء المنصرفين المتعلقين بالمال أو اللهو، حركْهم ليتأملوا وليقدروا خطر ما فعلوه: إنكم فرطتم في الخير الكثير: رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى يعظكم، ويصرفكم عنه تجارة أو لهو. قل لهم :ما عند الله من الهداية، ومن الثواب، ومن المباركة في الرزق، لا يوزن بما صحب القافلة من أموال، ومن لهو. والله خير الرازقين، فرزقه لا يحد، ويلطف بالمرزوق فيحميه من أكدار رزقه، وييسر له الانتفاع به. وكم من كسب يكون شرا على صاحبه وكدر، ويحرم منه وهو ينظر إليه، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

27 جمادى الآخرة 1435 الموافق لـ 214/4/27

سورة المنافقون

سميت بهذا الاسم في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. على حكاية اللفظ. وفي بعضها سورة المنافقين على الإضافة. ووجه تسميتها بذلك: أنها فضحت المنافقين وصرحت بكذبهم وكشفت شيئا من مؤامراتهم. وهي سورة مدنية بالإجماع. وهي السورة الثالثة والستون حسب ترتيب المصحف. وعدت الثانية بعد المائة حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة. كما اتفق عليه البقاعي وابن النديم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4)

بيان معاني الألفاظ:

تشهد : خبر مؤكد تحققه.

المنافق : من يظهر الإيمان ويسر الكفر.

الجنة : ما يستتر به ويتقى.

الفقه : فهم الحقائق الخفية.

يؤفكون : يصرفون.

بيان المعنى الإجمالي:

اعلم يا محمد أنه إذا جاءك المنافقون يؤكدون لك، أنهم معترفون بأنك رسول الله، والله يعلم أنك رسوله لا ريب في رسالتك، ولكن المنافقين كاذبون في ادعائهم أن

خبرهم شهادة تعبر عن واقعهم. إن الأيمان التي قدموها لتثق بهم استعملوها وقاية من تكذيبك لهم، ومقاطعة المؤمنين لهم. فكانوا بأيمانهم الكاذبة تلك قد استخفوا بها، وواصلوا كفرهم الباطن. ما أسوأ أعمالهم!

إنهم آمنوا قليلا، ثم لامهم رؤساؤهم وأغروهم بالكفر، فأسرعوا العودة إلى الضلال الذي كانوا عليه، دون أن يعلنوا ارتدادهم. وبعضهم أظهر الإيمان وهو كاره له أشد ما تكون الكراهة، فصورته الأولى وهو مع الناس يبايع على الإسلام ظاهره أنه من المؤمنين، وباطنه أنه ثابت على الكفر. وبهذا التلون والتصميم على الثبات على الكفر، ختم الله على قلوبهم فلم يسعفهم بألطافه لينفذ نور الإيمان إليها.

لا تغتر بمظاهرهم، فإنهم وإن جمع بعض رؤسائهم بين بسطة الجسم، وذلاقة اللسان، فمستواهم الفكري سخيف، إذا أصخت سمعك لحديثهم لا تسمع منهم إلا كلاما تافها، كأنهم لتفاهتهم خشب مسندة إلى ما يمنعها من السقوط، لا نفع منها.

ومع ذلك فإن الخوف استولى عليهم، فكلما سمعوا صوتا عاليا ارتعدوا من الخوف، توقعا منهم أن أمرهم افتضح وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم من يستأصلهم.

بيان المعنى العام :

1-إذا جاءك المنافقون... لكاذبون.

يقول الله لرسوله : إذا أتاك المنافقون يرومون خداعك، وتلك بقولهم : نشهد شهادة يقينية تطابق فيها ما نقوله، والواقع الذي نحن عليه، إذ كلمة نشهد تدل على أن المخبر يخبر بخبر يقيني ؛ حتى تطمئن لهم ولا تتوقى منهم. مضمون شهادتهم قولهم : إنك لرسول الله. نؤكد ذلك تأكيدا لا يدخله ريب. والله يعلم إنك لرسوله، فكونك رسولا من عندي أمر حق. ثم عاجلهم الله بإعلان كذبهم في تزويرهم : أن ما يقولونه هو الواقع الذي يؤمنون به. فمضمون كلامهم أنه هو الواقع الذي يؤمنون به كذب بشهادة الله. إذ الواقع أنهم لا يتيقنون ذلك وينفونه نفيا قاطعا. وتسمية قولهم شهادة كذب، إذ مؤدى الشهادة الخبر المؤكد تحققه، وهو ما لم يحصل.

2-اتخذوا أيمانهم...ساء ما كانوا يعملون.

أرادوا أن يخدعوك ويخدعوا المؤمنين، وأمرهم مكشوف عندك، كما قال تعالى : **ولتعرفنهم في لحن القول**[1] فمن خبثهم وفساد طويتهم ودناءتهم أنهم اتخذوا الأيمان

[1] سورة محمد آية 30

المغلظة وقاية تقيهم من تكذيبك لهم، ومن مقاطعة المؤمنين لهم عقابا على نفاقهم. فأعرضوا عن سبيل الله بأيمانهم. إذ أن سبيل الله أن يحترم الحالف الأيمان التي وثق بها كلامه. فكانت أيمانهم زيادة في كفرهم. حقّرهم القرآن أشد تحقير، ونظر إليهم بازدراء، ودعا التالين لاتخاذ نفس الموقف: إن عملهم بلغ من السوء حدا كبيرا، وكفى بالمرء دناءة أن يوصف ما يصدر عنه بالسوء الكبير.

3-ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا...فهم لا يفقهون.

ما تقدم من التشهير بهم، وتكذيبهم وفضحهم بكشف ما يسرون، وتهاونهم بالأيمان. تسلط عليهم بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا.

كان المنافقون على أقسام :

قسم لما سمع ما أنزل على الرسول لان قلبه للإيمان، ووجد في القرآن ما يدعو إلى الوثوق بحقائقه، ولكنهم لم يثبتوا على الإيمان بما تسلط عليهم من ضغط، ومن تشكيك من رؤوس الكفر. ولم يعلنوا ردتهم.

وقسم كان متصلبا في كفره، مراوغا في مظهره، لمّا سمعوا ما أنزل على الرسول أظهروا الإيمان به والتمسك بما جاء به، ويحضرون مجالس الذكر، ويتحدثون إلى جماعة الإيمان حديث الحريص على نجاح الدين، وأنه واحد من المدافعين عنه. وقلوبهم تغلي غيظا، وكفرهم متأصل لم يتحولوا عنه ولو لحظة، فهؤلاء آمنوا ظاهرا وصلّوا مع رسول الله، ولم يتزحزحوا عن كفرهم لحظة. فثم ليست للتراخي الزمني، ولكن لإفادة مستوى من الكفر فوق الفريق الأول. وكل المنافقين أغبياء بعيدون عن إدراك بواطن الأمور، وعواقبها.

4-وإذا رأيتهم تعجبك...أنى يؤفكون.

انتقلت هذه الآية إلى تزييف ما يظهر منهم من مزايا وخصائص ربما تغر. إنك أيها الرائي إذا رأيت قاماتهم الطويلة الفارعة، وأجسامهم الريانة، وما لهم من مسحة وسامة، ربما تعجب بهم، فإن المظاهر كثيرا ما تغُرُّ الرائي. هم كما قال حسان:

لابأس بالقوم من طول ومن غلظ *** جسم البغال وأحلام العصافير

وكما قال آخر:

جمال الوجه مع قبح النفوس *** كقنديل على قبر المجوسي

والظاهر أن هذه الصفات هي لبعض زعماء المنافقين. كما ذكر ابن عباس أن ابن أبي كان جسيما صحيحا صبيحا ذَلق اللسان.

وتلكم المظاهر تؤثر في السامع، فإذا أحس بأنهم يتكلمون يصغي إليهم مغترا بمظهرهم، متوقعا أن يسمع منهم كلام العقلاء المجربين. فيُصدَمُ بأنهم كالخشب الغليظة الطويلة المسندة على الحائط، لا هي في سقف يظل، ولا في باب يحمي، ولافي أثاث يرتفق به. فلا تسمع منهم إلا كلاما ساقطا لا قيمة له.

وبعد أن عراهم القرآن من كل مزية، وأن مظاهرهم مناقضة لحقائقهم، وأنهم تافهون لا قيمة لهم ولا وزن، أضاف ما يكشف عن بأسهم وشجاعتهم، فإنهم بتلك الهياكل الضخمة يظن معها أنهم ذوو بأس وشدة. ولكن قلوبهم بسبب نفاقهم كانت ترتعش خوفا، فكلما سمعوا صيحة، أو صوتا مرتفعا ظنوا ذلك غارة عليهم، وأن جيش المسلمين متوجه نحوهم. هم في خوف دائم حذرين من أن يطلع المسلمون على مكائدهم فيجهزوا عليهم.

هم العدو : كمال العداوة تحققت في المنافقين. ذلك أن العدو الواضح العداوة تأخذ الحيطة منه، وتستطيع أن تتحصن منه، وأن تستطلع أخباره، وتَرْصُد العيون عليه لتكشف لك مخططاته. بينما المنافقون يعيشون وسط المجتمع الإسلامي، يندسون في مجالسهم، يظهرون لهم النصيحة والحب، وقلوبهم تكاد تتفطر غيظا، عورات المسلمين مكشوفة لهم. إنهم بهذا الوضع الغادر خطيرون جدا، عليك أن تكون منهم على حذر، وأن لا تأمنهم على سر، ولا تطمئن لمعسول كلامهم.

قاتلهم الله أنى يؤفكون. قاتلهم الله دعاء بتسليط الله نقمته وإهلاكه عليهم. وقد كثر استعمال قاتله الله في التعجب من سوء الحال الذي جره صاحبه لنفسه. تأصل الخبث في نفوسهم، وتمكن النفاق من قلوبهم فكيف يصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من الضلال والعداوة والتلون.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

تعالوا : احضروا.

لي الرؤوس : أصله، صرفها إلى غير جهة المتكلم.

الانفضاض : التفرق والابتعاد.

خزائن : جمع خزانة.

الأعز : القوي العزة الذي لا يقهر

بيان المعنى الإجمالي:

إذا نصح المنافقين ناصح فقال لهم: اسمعوا إليّ، خير لكم أن تذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلنون عنده توبتكم، تطلبون منه أن يستغفر لكم. حملهم تمسكهم الشديد بالكفر، واستكبارهم، عن مواصلة الاستماع للناصح، فصرفوا وجوههم إلى غير جهته، وظهر منه التصلب في الامتناع، ومظاهر الاستكبار. لتصلبهم في الكفر والنفاق، فاستغفارك لهم وعدم استغفارك سواء عندهم بمرتبة واحدة، والله لن يغفر لهم، ولن يشملهم برحمته. وهم داخلون تحت القاعدة العامة التي انبنى عليها تصرف الله الحكيم، أنه لا يهدي القوم الذين استحكم منهم الفسق.

تحدث المنافقون فيما بينهم، بما ظنوه كيدا للإسلام يمنع انتشاره، فأطلع الله نبيه، وكبتهم بأن كيدهم ساقط غير مؤثر. قال بعضهم لبعض: لا تسهموا بالإنفاق على فقراء المسلمين، واتركوهم تأكلهم الحاجة حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه. وما أشد غباءهم ! فإن الذي يملك حقيقةً خزائن الرزق في السماوات وفي الأرض هو الله، وأنه يمكّن من رزقه من شاء متى شاء بمقدار ما يشاء. يوسع ويضيق ويرزق من حيث لا يحتسب الإنسان. ولكن المنافقين لسطحية تفكيرهم لا يدركون هذه الحقيقة. ومن مقالاتهم الوقحة ما سجله القرآن : أن خصومة وقعت بين أحد أتباع المهاجرين، وبين أحد أتباع الأنصار، فتناديا : يا للمهاجرين. يا للأنصار. وسمعها رسول الله ﷺ فأنكرها، وقال دعوها " أي دعوى العصبية بعد أن آخى الإسلام بين المؤمنين "فإنها منتنة. وقد أهان المهاجريُّ غلامُ عمر بن الخطاب، تابعَ عبد الله بن أبي. صرح عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين بقوله: لئن رجعنا إلى المدينة لنخرجن المهاجرين منها فنحن الأعز، وهم الأذل. وكذب عدو الله فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولكنه ضعيف الفهم، لا يسعفه عقله بالتعمق، لا يفقه. وقد حاول بعد نطقه بها أن يكذب نفسه، وأنه ما قال تلك الكلمة الوقحة. ولكن تسجيل القرآن عليه فضحه.

بيان المعنى العام :

5-وإذا قيل لهم تعالوا....مستكبرون.

الذي يفهم من الآية أن بعض المنافقين قد تيقظ لفساد ما عليه جماعة المنافقين، ونصحهم أن يذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليعترفوا بذنوبهم، ويعلنوا توبتهم، ويرجوه أن يطلب من الله أن يغفر لهم ذنوبهم ؛ فينقذوا أنفسهم من خزي النفاق في الدنيا، ومن عذابه في الآخرة. ولكن الاستكبار والتعالي الكاذب طمس على عقولهم، فبمجرد ما قرع أسماعهم هذا النصح، أعرضوا عن الناصح وصرفوا وجوههم عنه تكبرا واحتقارا لكلامه.

6-سواء عليهم أستغفرت...لا يهدي القوم الفاسقين.

تمكن منهم العناد والانصراف عن الحق الذي معك، فإن نُصْحَ الناصح لهم بأن يطلبوا المغفرة، لا يفيدهم. ولا يختلف الأمر بين أن تطلب لهم المغفرة، وبين عدم طلبك لها. فإن الله قد كتب عليهم الشقاء، ولن يغفر لهم ذنوبهم، ولن يعفو عنهم مع أنه واسع الرحمة عظيم الفضل. لكراهتهم أن يكونوا محل العفو. وهي القاعدة العامة في التصرف الإلهي الحكيم: أنه لا يمد الفاسقين بألطافه، ويحرمون تبعا لذلك من هدايته.

7-هم الذين يقولون...ولكن المنافقين لا يفقهون.

التهب غيض المنافقين لما رأوا أن عدد المسلمين يتسع ويكثر الداخلون فيه كل يوم. ومما ضاعف حسرتهم أن الداخلين في الإسلام لا يرغبون عنه ويقوى إيمانهم مع الزمن. ولاحظوا أن بعض المسلمين يملك كفاية حياته، وبعضهم معدم، يعتمد الأخوة الإسلامية ليقوم بأوده. زين لهم تفكيرهم القاصر أن يكيدوا للجماعة الإسلامية من هذه الناحية التي حسبوها ثغرة تفرق الفقراء عن محمد صلى الله عليه وسلم. فقال بعضهم لبعض: تظاهروا بالإسلام ولكن لا تساهموا في الإنفاق على فقرائهم، حتى تعضهم الحاجة الشديدة وينصرفوا عن الإسلام. كان هذا الكلام يجري بينهم في خلواتهم، فأطلع الله نبيه عليه وفضحهم.

ولله خزائن السماوات - ثم رد عليهم تصورهم، وما ظنوا أنه ثغرة يمكنهم استغلالها تفريق المسلمين. صرحت الآية بأن مالك ثروات الكون حقيقة، في السماوات أو في الأرض هو الله. فالغيث بيده، والرياح اللواقح بيده، والأشعة التي بها تتجدد قوى الأرض بيده، وكذلك ما في الأرض من مياه ومن تربة، ومن عناصر الخصب، والتصرف حتى يبلغ ما تنتجه الأرض كماله، هي لله يعطيها

لمن يشاء بالمقدار الذي يشاء. ولكن الذي سوّل لهم هذا المقترح، وظنوا أن له تأثيرا على الجماعة الإسلامية، هو غباؤهم وسطحية تفكريهم، فيهذون بما يزين لهم الشيطان أنه مؤثر. ولا مانع لمن أعطاه الله ولا معطي لمن منعه الله.

8- يقولون لئن رجعنا...المنافقين لا يعلمون.

هذه مقالة صدرت من عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين ، حسب ما ثبت من روايات عديدة. وإن كانت صدرت منه وحده، إلا أن سكوت المنافقين عليه في هذه المقالة الشنيعة معبر عن رضاهم به، فيشتركون فيها، ويجعل القائل والراضي سواء في الوقاحة والإثم. وقد جمع الزمخشري في الكشاف ما بلغه عن هذه الواقعة، فقال: روي أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع " وهو ماء لهم" وهزمهم وقتل منهم. وازدحم على الماء جهجاه بن سعيد، أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقود فرس عمر. وسنان الجُهني حليف لعبد الله بن أبي واقتتلا، فصرخ جهجاه يا للمهاجرين !وسنان : يا للأنصار !وأعان جهجاها جملة من فقراء المهاجرين، ولطم سنانا، فقال عبد الله بن أبي: ما صحبنا محمدا إلا لنُلطَم. والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. عنى بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.ثم قال لقومه : ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عن جُعل وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم، وهو حدثٌ، فقال : أنت والله الذليل القليل المبغض من قومك، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين. فقال عبد الله : اسكت، فإنما كنتُ ألعب. فأخبر زيد رسول الله ﷺ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله. فقال : إذن تُرْعَدَ أنفٌ كثيرة بيثرب، "أي يغضب له كثير من صناديد المدينة" قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجري فأمر به أنصاريا فقال : كيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي بلغني؟ قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك، وإن زيدا لكاذب. فهو قوله تعالى: اتخذوا أيمانهم جنة. قال الحاضرون يا رسول الله ! شيخنا وكبيرنا، لا تصدق عليه كلام غلام، عسى أن يكون قد وهم. ثم أضاف الزمخشري، وروي أن رسول الله ﷺ قال له : لعلك غضبت عليه، قال: لا. قال: فلعله أخطأ سمعك. قال: لا. قال: لعله قد شُبّه عليك، قال: لا. فلما نزلت لحق رسول الله زيدا من خلفه، فعرك أذنه وقال: وَفتْ أذنك يا غلام. إن الله قد صدقك، وكذب المنافقين. ولما أراد

عبد الله أن يدخل المدينة اعترضه ابنه " حباب" وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي – غير رسول الله ﷺ اسمه، وقال : إن حبّابا اسم شيطان. وكان مؤمنا مخلصا وقال لأبيه: وراءك !والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله الأعز، وأنا الأذل. فلم يزل حبيسا في يده حتى أمره رسول الله بتخليته. وروي أنه قال له لئن لم تقر لله ولرسوله بالعز لأضربن عنقك. فقال: ويحك أفاعل أنت !قال : نعم. فلما رأى منه الجد قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. فقال رسول الله ﷺ لابنه: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا. فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آيٌ شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى رأسه، ثم قال : أمرتموني أن أومن فآمنت، وأمرتموني أن أزكي مالي فزكيت. فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزلت : وإذا قيل لهم تعالوا... ولم يلبث أياما حتى مات.[1]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ

الإلهاء : الاشتغال بشهوة ولذة.

نفس:الروح.

أجلها : الوقت المحدد لبقائها.

خبير : عليم بما ظهر وما خفي من الأعمال.

بيان المعنى الإجمالي ،

يا أيها الذين آمنوا لا تشغلكم أموالكم بالسعي في تنميتها، والتهالك على توفير أكبر نصيب منها، والفرح بالربح التجاري، والثمار الوافرة، والمحاصيل الكبيرة من الزروع، والإنتاج الصناعي المرغوب فيه. وكذلك لا تلهكم أولادكم بالسعي لما يوفر لهم أسباب الرفاه. لا تجعلوا كل همكم الأموال والأولاد، وتنسوا ما يجب عليكم من الصلة بخالقكم وذكره بالقلب واللسان والعمل بما يرضيه. ومن يصرف كل همه في ماله وأولاده هو خاسر في النهاية،

[1] الكشاف ج2ص462/461-

لأنه سيترك يوما ماله وأولاده خلفه، ويلقى الله في الآخرة بما قدم من خير، لا ينفعه مال ولا بنون.

أنفقوا من المال الذي رزقناكم، فإنكم ما نلتم ما حصل لكم من رزق إلا من فضلنا. اغتنموا صحتكم وحياتكم، من قبل أن يفجأ أحدكم الموت، ويستيقظ عندها ويسأل ربه أن يؤخره زمنا قليلا يصرفه في الإنفاق الصالح وفعل الخيرات، ويسلك سبيل الصالحين المرضي عنهم.

وهيهات، هيهات، فإن الله مع عظـيم رحمتــه، لــن يســتجيب لســؤال الــداعي بتأجيلــه. لأن الله ينفذ ما قدره، ولن يؤخر قدرهُ لحظــةً. وكــل حــي كتــب الله لــه أجلــه، فــإذا انتهت أنفاسه المقدرة فلا مطمع في زيادة نفــس فــوق مــا قــدره. واعلمــوا أن الله يعلــم ظواهر أعمالكم، وما جرى في ضمائركم. فطهروا أعمالكم وبواطنكم.

بيان المعنى العام :

9-يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم...فأولئك هم الخاسرون.

شأن القرآن أنه كلما واصل بسط قضية من القضايا، أنــه يعــود لتــذكير المــؤمنين، بمــا يكونون معه على هدى من ربهم، وأقرب إلى السعادة فــي الحيــاتين. فنــاداهم فــي هــذه الآية ناهيا لهم أن تشغلهم أمــوالهم وأولادهــم شــغلا يســتولي علــى قلــوبهم، وينســيهم صلتهم بربهم. إن تعلق الإنســان بتــوفير مكاســبه أمــر فطــري فــي الإنســان، ونحــن مدعوون إلى السعي في الأرض وتنمية أموالنــا. وقــد يتعلــق الفــرد بتحصــيل الــرزق، ويصرف كل همه في ذلك، وينسى صلته بربه، وهذا المســتوى انــزلاق إلــى مــا يعــود عليه بالوبال. إذ أن الاهتمام بتوفير المكاسب إذا بلغ هــذا الحــد تجــد صــاحبه، يتهــاون بواجباته الدينية. ويبعد عن تحــري الحــلال. وهكــذا كلمــا زاد الإنســان شــراهة وحبــا للمال قويت الحجب التي تفصله عن الله. فدعاهم القرآن إلــى المــزج بــين الإقبــال علــى ما ينمّي أموالهم، وأن يكون ذكر الله حاضــرا فــي نفوســهم، ذكــرا باللســان، وإســراعا لتلبية نداء الداعي للصلاة، وحرصــا علــى أداء الزكــاة، وتوقيــا مــن الآثــام، ونصــحا للمؤمنين في عمله الذي يقوم به. وكــذلك الأولاد فَتــنِيُهُم إلــى أن لا تبلــغ الشــفقة بهــم والحنو عليهم، وجمع ما يضمن لهم الحياة الناعمة الرخيــة، حــدا ينســيهم ذكــر الله كمــا قدمناه في المال. وصرح بعاقبة مــن يتعلــق بــالأموال والأولاد تعلقــا مبالغــا فيــه، أنــه ستكون عاقبته الخسران المبين، يوم لا ينفعه مال ولا بنون.

10- وانفقوا مما رزقناكم...وأكن من الصالحين.

أمر بالإكثار من الانفاق، مذكرا أن مــا تنفقونــه هــو رزق مــن الله يســره لكــم، ولــولا فضله سبحانه، لما حصل لكم منــه إلا القليــل الــذي لا يتجــاوز حاجــاتكم. أنفقــوا مــا

أوجبتهُ عليكم الزكاة التي هي حق الفقراء وصدقة الفطر، وفي الحج، وفي الجهاد، وعلى العيال، والإسهام في المصالح الضرورية للأمة، وتلك نفقات واجبة. وأنفقوا ما هو خير لكم وتجدون ثوابه من النفقات المرغب فيها كالصدقات، وإكرام الضيف، وما تجاوز الحد الضروري في النفقات الواجبة.

من قبل أن يأتي... تحريض على الإنفاق بالتذكير بأن عمر الإنسان محدود، ولا يعلم أحد متى تختم أنفاسه، فإن الموت يترصده وينفصل عن كل ما ملك. فلينفق ما دام متصرفا فيما ملك.

فيقول رب لولا... تنبهوا إلى اليوم الذي يأتي على كل واحد منكم، ولا مفر منه، اليوم الذي يقول الإنسان فيه بلسان حاله أو مقاله، سائلا ربه سؤالا حثيثا :أن يؤخره إلى أجل قريب غير بعيد، بمقدار ما يقضي ما فاته في وقت السعة من الإنفاق الواجب المستحق لأن يحاسب عليه. قامت أمام ناظره الحقيقة، وتوقفت الآمال، وعلم أن كل ما كسبه لا ينفعه. ويصرح بما يرجى معه قبول سؤاله أنه ما سأل التأخير إلا لتدارك ما فات لاحبا في طول الحياة، أخرني ربي لأتصدق وأفعل الخير، وأكون من الصالحين السابقين لتطبيق أوامرك.

11-ولن يؤخر الله...بما تعملون.

توسلات المحتضر، ودعاؤه أن يؤخر إلى أجل قريب لا يطول أمده، وأن قصده هو أن يعمره بفعل الخير، توسلات وأماني لا تستجاب، لأن الله وإن كان كريما يجيب دعوة الداعي المخلص إذا دعاه، ولكن من الثوابت التي لا يدخل عليها تغيير ولا تبديل، ما كتبه الله في الأزل من عدد الأنفاس التي كتبها لكل حي. لا يزيد فيها ولا ينقص منها، تنفذ حسبما سبق في علمه وقدره بحكمته. فآخر نفس مقدر هو الأجل الذي لا يؤخر لحظة، هو وقت انفصال الروح عن الجسد. فتنقطع الحياة. فليكن المؤمن مستعدا لذلك، لا يؤخر ما يمكنه فعله من الخير في لحظة إلى اللحظة القادمة، فإنه لا يدري أحد متى ينتهي أجله المقدر له.

والله خبير بما تعملون. هذا المقطع صالح لأن يحمل على الوعد، وعلى الوعيد، يوزع لكل إنسان حسب ما يستحق في علم الله. وتنسحب الخاتمة على كل ما تقدم من تذكير في السورة. فيقرر أن الله يعلم علما واحدا ظواهر الأفعال وخفاياها، يعلم ما جرى في القلوب من صالح النوايا، ولا يخفى عليه شيء من سيئها. ويعلم ما أنجزه كل فرد إنجازا على الوجه الذي يرضيه، وما أخل من إخلالات فيما أنجز عن قصد أو عن غير قصد. فليتيقظ الإنسان إلى أنه مجزي بما قدم في حياته.

سورة التغابن

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير والسنة. ووجه تسميتها ورود لفظ التغابن فيها وحدها. والصحيح أنها نزلت في المدينة المنورة. ورتبتها حسب ترتيب المصحف الرابعة والستون. وحسب ترتيب النزول السابعة بعد المائة نزلت بعد سورة الجمعة وقبل سورة الصف.

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

المصير : مصيركم مرجعكم.

ذات الصدور:النوايا والخواطر المتعلقة بذات الصدور.

بيان المعنى الإجمالي :

كل من في السماوات والأرض من العقلاء المؤمنين، يسبح الله وينزهه عن كل نقص ويعترف له بالكمال المطلق. وكل ما فيهما من غير العقلاء ينزه الله بلسان حاله بالكمال الإلهي في التقدير، بما أعطاه من قوانين الخلق والتطور. وهو المتفرد بالملك الحقيقي، وهو المستحق للثناء والحمد على كماله، ونعمه. والله قادر على كل شيء، قدرته سبحانه لا تحدها حدود. تفرد بخلقكم فليس لأحد غيره تدخل في خلقكم. وانقسمتم بعد خلقكم إلى كافر ومؤمن. وكل من الفريقين مسؤول سؤال العقاب عن كفره،أو سؤال التكريم عن إيمانه. والله عليم العلم الدقيق بكل ما تعملونه، قبل إنجازكم، وبعد إنجازكم على حد سواء.

إن خلق السماوات والأرض يشهد بأنه خلق مبني على الحكمة والدقة وفق قوانين ثابتة، لا مدخل فيه للعبث، مما يثبت أن الكون يسير إلى غاية مقدرة منذ الأزل. وكذلك الصورة التي بني عليها خلق الإنسان، وما جمعه من جمال وحسن هو فوق كل ما للحيوانات من جمال صورة، يشهد أيضا، أنه ما خلق مصادفة ولكن الخلق روعي فيه انسجام كل جزء مع بقية الأجزاء. مما يدل على أن الإتقان البالغ هذا الحد قد تم لغاية تظهر آثارها يوم البعث.

وفي يوم البعث ينكشف ما علمه الله من الحوادث التي تمت في الكون، يعلم ما في السماوات والأرض، وما جرى فيهما من تحولات، وعمل الإنسان فيما استخلفه. ويعلم ما هو أخفى من ذلك، وهو ما فعله الإنسان متخفيا كعلمه بما أعلنه وأظهره، وفوق ذلك يعلم خطرات العقول والضمائر. والله عليم بما تكنه العقول والضمائر.

بيان المعنى العام :

1-يسبح لله ما في السماوات...على كل شيء قدير.

يذكر القران في آيات عديدة بهذه الحقيقة المتجددة آثارها في الكون، حاصلها أن العقلاء الذين لم يحجب عقولهم ظلام الكفر، يوالون تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص. يعبرون عن ذلك بألسنتهم، وبقلوبهم، ويتجدد ذلك في عقولهم كلما تأملوا في مخلوقاته كما سجله القرآن منوها بهم : (**ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار**)[1] وكذلك جميع الكائنات تسبح ربها بلسان حالها، إذ أن ما أعطاه إياها من قوانين في الخلق ينادي بأنه سبحانه منزه عن النقص، إذ راعى سبحانه كل كبيرة وصغيرة وتحول وتطور يجري على الكائن جمادا كان أو نباتا أو حيوانا.

وتجري قوانين الخلق المحكم في الأرض، وفي السماء، وفي كل كوكب، وفي ارتباط كل كوكب ببقية الكواكب، وفي النظام الكوني بصفة عامة. قال تعالى : (**وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال**)[2]

استحق التسبيح والتنزيه، لأنه هو المتفرد بالملك الحق، لا يشاركه أحد في ملكه، إذ كل من يدعي ملكا، فإنما هي منفعة وقتية، ثم يذهب ويبقى الملك لله. ولأنه هو وحده الحقيق بالحمد والثناء على كماله، و فضله، وألطافه. وكل خير منه. وهو

---

[1] سورة آل عمران آية 191

[2] سورة الرعد آية 8

الذي يمكن المتفضلين مما يتفضلون به قال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله)[1] وهو سبحانه القادر الذي ليس لقدرته حدود، إذ قدرة غيره لا تعدو النواميس التي ضبطها الله، والله تنفذ قدرته حسب النواميس التي أجراها، ويخرق تلكم النواميس ويخلقها بما يشاء.

2-هو الذي خلقكم...بما تعملون بصير.

تتركب الآية من جزأين الأول يتعلق بالله جل جلاله، والثاني ينسحب على البشر.
أما الجزء الأول: فيثبت أن الله وحده هو الذي خلق البشر، ضبط قوانين الخلق، ثم أجراها على كل مخلوق. ولا يخرج أي إنسان عن كونه مخلوقا لله. لم يشارك الله أحدٌ في خلقه، وأن الأسباب الظاهرية هي من خلقه ومن كمال تقديره، فالأبوان مثلا، هما من منظومة القانون الإلهي في الخلق، وليس لهما أي اشتراك فيه. إذ لوكان لهما أثر في التكوين لكانا مختارين للصورة التي يكون عليها ولدهما من ذكورة أو أنوثة، ومن وسامة أو قبح، ومن ذكاء أو غباء، ومن طول أوقصر، ومن لون العينين إلى آخر الخصائص المميزة للذات.
وأما الجزء الثاني: فيثبت أن البشر المخلوقين لله قد انقسموا إلى قسمين كبيرين:
القسم المذكور أولا: من كفر بالله. وقدم في الآية فمنكم كافر، لأن الكفر هو الأغلب في البشر. قال تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[2] ويفهم هذا على أن من الناس من اختار بكامل حريته الكفر .أعطاه الله العقل، وبعث رسله تساعد كل فرد على تبين الحقيقة، وأقام من مشاهد الكون التي يدركها بحواسه، أنه مخلوق معها لله رب العالمين. ومع ذلك اختار الكفر على الإيمان دون اضطرار لذلك. قامت الدواعي التي تدعوه إلى الإيمان والاستقامة، وتبعده عن الفساد والإثم والرذيلة. ولم يقسره سبحانه على اتباع طريق الخير، بل هداه النجدين، و لكنه انتهى إلى تقديم الكفر على الإيمان، والشر على الخير. وهذه هي الحكمة الإلهية : أنه لما خلق الإنسان بتلكم القدرات أن لا يعطلها بل يجعل الإنسان يختار طريقه، وفي النهاية يكون مسؤولا عن اختياراته. وبعد هذا فإذا سأل سائل لماذا حرم الله الطاقة المساعدة لينقذ نفسه من الكفر والفساد، فالجواب : أن الله لا يسأل عن

---

[1] سورة النحل آية 53
[2] سورة يوسف آية 103

أفعاله، وكل ما قدره حكمة، وإن خفيت علينا قال تعالى: لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[1]

كما يمكن أن يفهم على أن الله خلق من البشر من كتب عليه الكفر من أول يوم خلقه فيه، وذهب إلى هذا المذهب عبد الله بن مسعود، وأبو ذر رضي الله عنهما. ويجري مع هذا المعنى قول الرسول ﷺ: (إن أحدكم يكون في بطن أمه نطفة أربعين يوما، ثم مضغة أربعين يوما، ثم يجيء ملك فيقول : يا رب أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق ؟فما الأجل ؟ فيكتب ذلك في بطن أمه.)[2] وتختم الآية بقوله: والله بما تعملون بصير، هو عليم بحقيقة عملكم قبل أن تنجزوا ما أنجزتم، وبعد ما أنجزتم. كل ما علمتم مكشوف عند الله لا تتوقف معرفة الله به على حدوثه. و تتضمن الآية وعدا بالجزاء الصالح لمن آمن واتقى، ووعيدا بالعقاب لمن كفر وبغى.

3- خلق السماوات...إليه المصير.

خلق السماوات والأرض بالحق. قانون الخلق واحد، ضبطه سبحانه وقدر الغاية التي ينتهي إليها المخلوق، فجميع تحولاته مضبوطة مقدما، لا مجال للعبث في الخلق. والحق يقابله الباطل، فإذا كان الخلق فوضويا لا يسير إلى غاية فهو باطل، وإذا كان قد ضبط له كل مرحلة من مراحل وجوده، والغاية مسطرة مقدما، ولا مناص لها من أن تبلغ تلكم الغاية، فهو خلق ملتبس بالحق. فهذا معنى قوله: بالحق. وصوركم فأحسن صوركم...خلق السماوات والأرض بما هي عليه من تقدير محكم مقدما، يقوم شاهدا على أن الكون كله له أمد محدود ينتهي إليه. ومن كمال تقديره الصورة التي جاء عليها خلقكم جامعة لعناصر الجمال والحسن. لا يوجد من بين المخلوقات المشاهدة من هو أجمل صورة من الإنسان. قس فم الإنسان بفم ما يظن أنه أجمل الحيوات، كالعندليب، والفرس، والطاوس، والظبي، يتبين لك قبح صورة الإنسان لو كانت الصورة واحدة في هذه الجزئية. وعلى هذا النحو لو تتبعت كل جزء من أجزاء الصورة الإنسانية، وقارنتها بما هو عليه بقية الحيوانات لبان لك ما تميز به الإنسان من جمال، حتى بمن هو عديم الجمال بمقاييس الوسامة البشرية. إنك إذا ما تتبعت كل جزء من أجزاء الإنسان، وكيف تألفت منها تلكم الصورة، في قوامه وفي توزيع حواسه، وفي جلده، وحتى في طريقة مشيه يتبين لك معنى قوله

---

[1] سورة الأنبياء 23

[2] المحرر الوجيز ج14ص473

تعالى: فأحسن صوركم. وإليه المصير. ولكن الحسن مراتب يقول الحكماء: شيآن لا غاية لهما الجمال والبيان.

ويعود النص القرآني فيثبت أن هذا الخلق المحكم ليس عبثا، فليس من المنطق في شيء أن يولد جامعا لتلكم المحاسن، ثم ينتهي من الوجود عبثا بلا غاية. هذا التصور مما لا يقبله المنطق السليم. فنظام الكون، كجمال الصورة الإنسانية التي أبدعها الباري سبحانه، تثبت بما لا مجال للشك فيه، أن وراء مرحلة الحياة الدنيا مرحلة أخرى يظهر فيها الفرق بين الصلاح والفساد، والفضيلة والرذيلة، والخير والشر. فلا يستوي الخبيث والطيب.

4- يعلم ما في السماوات...بذات الصدور.

تتابع الآيات في هذه السورة مقدمات لإثبات البعث، هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير - وإليه المصير. ولا يكون للبعث معنى إذا كان الإنسان يتحكم في فعاله، ونواياه، فيخفي منها ما يشاء خفاءً لا يظهر له أي أثر. ولا يتأتى إنهاء الكون إذا كانت تحولاته خافية على الخالق، لا يعلم ما يهيء كل تحول إلى ما سيحدث إثره إلى أن يحل الفساد العام للكون. فهو سبحانه يعلم ما في السماوات والأرض علما يرتب عليه الإبقاء أو الإزالة، قال تعالى : (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده [1])

ويعلم سبحانه على نفس المستوى ما تسره الضمائر، و ما يصدر عن الإنسان من فعل يعبر عما استقر في الضمير، أو يختلف عنه. فعلمه ينفذ إلى الخطرات والعقائد الجارية في القلوب والعقول. وستنكشف يوم البعث إن لم يتفضل سبحانه بالستر. فتدرّج في توضيح شمول علمه سبحانه، من أعظم المخلوقات، إلى ما هو أخفى من ذلك، وهو جميع ما يقوله الإنسان أو يفعله في السر والعلن. ثم إلى ما هو أخفى من ذلك وهو ما يهجس في الخواطر.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ

[1] سورة فاطر آية 41

أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ذاقوا : أحسوا إحساسا قويا.

الوبال : السوء، وما يكره.

امرهم : شأنهم ووضعهم.

تولوا : أعرضوا.

استغنى الله :الله غني عن إيمانهم.

زعم: صيغة يطلقها المتكلم عن شخص آخر، الثقة في كلامه مهتزة.

الإنباء : الإخبار.

الغبن : أن يبخس أحد المتعاملين في العوض.

نكفّر : نعفو عما فرط منهم من سيئات.

بيان المعنى الإجمالي :

يسألهم القرآن سؤال إنكار، وتوبيخ بسبب إصرارهم على الكفر، يسألهم ألم يسمعوا بما حل بالذين كفروا برسلهم من الأمم السابقة. ألم يسمعوا بأنواع العذاب المؤلم الذي أحسوا به كأشد ما يكون الإحساس دون أن يجدوا منه مهربا. وسيسلط عليهم يوم القيامة العذاب الأليم. وذلك لأنهم قابلوا رسلهم لما جاؤوهم بالأدلة البينة الواضحة النافية لكل شبهة، قابلوهم بالرفض متعللين أنه لا يقبل أن يتولى هداية الناس بشر مثلهم. فأعرضوا عن هدايتهم، وكفروا بالحق لما جاءهم. والله غني عن إيمانهم. فإنه سبحانه الموصوف بالغنى المطلق، المستحق للحمد والشكر على فضله العظيم. زعم الذين كفروا تبعا لكفرهم برسل الله، أنهم لا يقومون من قبورهم للبعث والحساب. قل لهم: قسما بربي لتبعثن، وفوق ذلك أن الله يعرض عليكم ما قدمتم في حياتكم الدنيا ويحاسبكم عليه ويجزيكم. والله الذي تنفذ إرادته وقدرته ولا يقاومهما مقاوم. يسيرٌ عليه بعثكم وحسابكم.

إنه بناء على ما كشفناه لكم في الآيات السابقة، فأنتم مأمورون بأن تؤمنوا بالله ورسوله، وأن تؤمنوا بالقرآن النور الذي أنزلناه يفتح لكم المسلك الواضح الذي

يصل بكم إلى السعادة في الدنيا والآخرة، بقيامه بالحق ,ولوضوحه. واعلموا أن الله يعلم علما دقيقا ما يصدر عنكم من أعمال ونوايا.

إن الله يعرفكم بما عملتم في اليوم الذي يجمعكم فيه، فيحضر الناس كلهم لا يتخلف منهم أحد. يجمعكم ليوم الحشر. اليوم الذي يشعر فيه الكافرون بالغبن والخسارة التي ليس فوقها خسارة. أنقذوا أنفسكم قبل حلوله، فإنه من يؤمن منكم بالله ويعمل العمل الصالح ملتزما بتطبيق ما شرعه الله، فإن الله بعظيم رحمته يعفو عنه ما فرط منه من كفر ، ويمحو آثامه السابقة ويدخله جناته التي أعدها للمتقين، التي فيها من الخير ما يتجاوز الوصف. تتخللها الأنهار الجارية. وداخلها مطمئن إلى أن ما رزقه الله إياه من النعيم لا يحجب عنه أبدا. وذلك العفو والجزاء الكريم هو النجاح العظيم. أما الذين واصلوا ثباتهم على الكفر، واستمروا على التكذيب بالأدلة البينة من القرآن ومن حجج الرسول ومعجزاته، فإن أولئك هم الذين لزمتهم النار ولزموها، خالدين فيها لا مطمع لهم في الخروج منها. وما أسوأ مصيرهم مصيرا.

بيان المعنى العام :

5-ألم يأتكم نبأ...ولهم عذاب أليم.

الخطاب لكفار قريش، جاء على طريقة الاستفهام التقريري، يقررهم منكرا عليهم، ليرتب على اعترافهم الذي ليس لهم عنه محيص، ما يشنع بموقفهم من رسالة محمد ﷺ. ويلجئهم إلى الاعتراف بأنه قد حملت لهم الأخبار أنباء عاقبة الذين كفروا مثلهم في الأزمنة الماضية. أن الله سلط عليهم عذابهوقدر أن يحسوا بألم عذابه أشد ما يكون الإحساس، إذ الذوق أكمل أنواع الإحساس. أحسوا بآلام عاقبة أعمالهم على أسوء الوجوه وأكرهها للنفس.وما سلط عليهم في الدنيا هو المهيء لهم ليذوقوا عذابا أشد قساوة وألما يوم القيامة.

6- ذلك بأنه كانت تأتيهم...والله غني حميد.

ذلك تشمل الإشارة ما ذكر في الآية السابقة: ذوقهم الوبال، وما أعد لهم من العذاب الأليم. لم يكن في ذلك أي ظلم لهم. وذلك بسبب أن رسلهم الذين توجهوا إليهم مرسلين من عند الله، تصحبهم الدلائل البينة الواضحة على صدقهم، وبلغوهم هدى ربهم وشرحوه لهم، وأقاموا عليه الحجج، بما يقنع من يتفتح عقله للمعرفة ولا يصر على العناد. لم ينظروا في مضمون ما جاؤوهم به، ولكن تعلقوا بما أقاموه مبررا للرفض، وهو أنه لا يمكن أن يتفوق بشر يساويهم في خصائص البشرية، فيتولى هدايتهم.وما كانت الشبهة التي قدموها إلا شبهة واهية، فإنهم يدركون فطريا، أن

مراتب الناس في الذكاء والمعرفة، والاستفادة من الخبرات، والبصيرة النافذة للمستقبل، مراتب متفاوتة جدا.ولم يبلغ أي نابغة المستوى الذي هو عليه، بعامل من ذاته وحدها، ولكن الذي خلق فميز بين البشر في الوسامة الخلقية، هو الذي ميز بينهم في مستوى النباهة أيضا. فشبهة أن البشر لا يسمو إلى مرتبة هداية الناس شبهة مكنها في نفوسهم عنادهم. وانتهى بهم العناد إلى الكفر بالله وبرسله والإعراض عن هداه. والله لا يضره ولا ينقص من كماله كفر الكافرين، وعناد المعاندين. هو غني عن البشر جميعا لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية. وظهر استغناء الله عن إيمانهم، إذ لو كان في حاجة إلى ذلك لأجبرهم عليه، وهو القادر على ذلك. وهو الحقيق بأن يحمد ويشكر على ما يسره بواسطة رسله، وبما وهب للإنسان من ملكات التفكير وقوى العقل الهادية إلى الصلاح والخير.

7-زعم الذين كفروا...على الله يسير.

سجل القرآن ما صدر عن المشركين، زيادة على إحالتهم أن يرسل الله رسولا من البشر، سجل عليهم زعمهم الباطل أن الله لا يبعث الناس بعد موتهم. وافتتاح الخطاب بزعموا مشير إلى أن ما قالوه لا أساس له، وهو من المرفوض غير المقبول. فنفوا البعث نفيا مؤكدا بكلمة " لن " المفيدة قوة النفي في المستقبل. وهو تعبير عن تصميمهم على رفض هذه العقيدة. فرد الله عليهم بأمره رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن إبطال قولهم، فكلمة "بلى" تفيد نفي ما نفوه. ويؤكد القرآن فساده بأوثق توكيد، مفتتحا رده عليه بالقسم بربه الذي تولى هداه وبلام القسم لتبعثن. فالبعث واقع لا محالة وإنكارهم باطل لا قيمة له في نفي الواقع. وفوق ذلك أن الله يخبرهم ويطلعهم بما تقدم منهم من كفر ومن تضليل للناس، ومن مقاومة للحق. وبعثهم ثم إنباؤهم عن كل ما قدموا أمر يسير على الله، إذ إرادته وقدرته لا يقاومان.

8- فآمنوا بالله...تعملون خبير.

إذ تبينت لكم الحجج، وعلمتم ما حل بالكافرين المنكرين قبلكم، وأنكم ستجزون عن أعمالكم، فآمنوا بالله ورسوله لتحصنوا أنفسكم من سوء المصير.وآمنوا بكتابه النور الذي يرفع من عقولكم كل الشبه، ويملأها باليقين الواضح، ويرشدكم إلى ما يبلغكم السلامة في الحاضر والمآل.هو نور أنزلناه من السماء ما اختلط به قول بشر. والله خبير بما تعملون، يعلم ظواهر أعمالكم كعلمه بخفايا صدوركم ونواياكم.

9- يوم يجمعكم ليوم الجمع...ذلك الفوز العظيم.

متعلق بقوله تعالى : لَتُنبَّؤُن بما عملتم الآية 7- في هذا اليوم لتنبؤن بما عملتم،وهو اليوم الذي يجمع فيه الأولين والآخرين، يستجيبون للداعي في لحظة واحدة، ويقومون مسرعين لنداء الداعي، لا فرق بين من كان موته قريبا من يوم البعث، وبين من مات منذ مئات القرون. كما يمكن أن يفهم قوله " يجمعكم" على جمعه الأجزاء المتناثرة التي أبلاها تطاول الأزمان. يجمع الله البشر أو أجزاءهم المتفرقة، يجمعهم في الوقت الذي هو يوم الجمع أي الحشر.

ذلك يوم التغابن...زاد القرآن بيانا ليوم الجمع بذكر خاصية من خاصياته التي تنتشر وتعم في ذلك اليوم كل المعذبين، فما منهم من أحد إلا وهو يشعر بأنه مغبون يندب حظه التعس. ولما كان أصل هذا الوزن التغابن أن يقع من طرفين، كالتقاتل، والتقاول. فقد خرجه كثير من المفسرين، على أن أهل الجنة يشعرون بأنهم غبَنوا أهل النار واستأثروا بمقاعدهم في الجنة، وأن أهل النار يشعرون بغبنهم إذا أخذوا مكان المؤمنين في جهنم وخسروا مقاعدهم في الجنة. وفي الكشاف عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما من عبد يدخل الجنة إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا. وما من عبد يدخل النار إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة)[1] ويرى الراغب أنه سمي يوم التغابن لصفقة نص عليها القرآن في قوله تعالى : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم [2]-فعلموا أنهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة وغبنوا فيما تعاطوه(الذين يشترون بآيات الله وأيمانهم ثمنا قليلا)[3] والكلام يدل على أن المشركين ستستولي عليهم الحسرات على فرطوا؛ وأن ذلك اليوم هو يوم الغبن الشديد والخسران الكبير، لا يقاس أثره بما يقع في صفقاتكم في الدنيا.

ومن يؤمن بالله ويعمل... حذرهم الله في صدر الآية من عاقبة الكفر يوم الجمع، وهو يوم الشعور بالخسران الكبير والأسف الشديد. ثم عرفهم بأن تحذيرهم ذلك ليس حكما عليهم لا منجى منه بحال، بل إن الذي يؤمن بالله منهم، ولا يُعرِّفه بالإيمان المقبول إلا رسوله ﷺ ، ويقرن بالإيمان العمل الصالح المطابق لما شرعه الله، فإن الله يمحو سيئاته، فيتجاوز عن إثم الأزمان التي قضاها في الكفر .ويجعل عاقبته الدخول إلى الجنة التي فيها من النعيم ما يتجاوز الوصف، تتخللها الأنهار، ويسعد داخلها بأن ما أعطيه من نعيم لا يحجب عنه بل هو دائم دواما أبديا. وإذ

[1] ج2ص464

[2] سورة التوبة 111

[3] سورة ال عمران آية77

اكتملت صورة الوعد الكريم وجُسِّمتْ، أعقبها القرآن بالتنويه بها، وأن ذلك المستوى الرفيع هو الفوز والنجاح العظيم.

10- والذين كفروا وكذبوا...وبئس المصير.

وفي المقابل فإن الذين استمروا على الكفر، وتصلبوا في تكذيبهم بالأدلة البينة التي أقامها الله في كتابه، وأيد بها رسوله، فأولئك الذين عقدوا بينهم وبين النار صحبة ملازمة، لا هي تنفك عنهم، ولاهم يبعدون عنها. و يتحقق خلودهم في النار. وإذ اكتملت صورة ملازمتهم للعذب ؛عقب وضعهم معلقا عليه أنه أسوأ مصير يصير إليه الإنسان.

مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ،

المصيبة : اختصت استعمالا فيما يلحق الإنسان من شر وضر.

بإذن الله : بما رتبه من قوانين يسير عليها الكون. وبشمول إرادته وقدرته.

التولي : العصيان، ورفض الدعوة.

البلاغ المبين : البلاغ الواضح.

العفو : ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها.

الصفح: الإعراض عن المذنب.

الفتنة : اضطراب النفس وحيرتها.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الكون كله بيدي، ولا يتصرف أحد غيري. فكل ما يصيبكم من المصائب فإنه لا فاعل له إلا أنا الله. وإذا شع الإيمان واضحا في روح المؤمن وعقله، فإن أنوار الإيمان تهديه في حياته فتخرجه من الحيرة والهلع إلى الرضا والأمل. والله سبحانه لا يغيب عن علمه شيء. وأطيعوا الله ورسوله بالعمل بكل ما أمرتم به وبالانتهاء عما نهيتم عنه. واعلموا أن من رفض الدعوة وعصى، فإنه لا يهلك إلا نفسه. وأن محمدا لم يُكلَّفْ بحملكم على الإيمان والعمل الصالح قسرا. والمهمة التي أوكلتها إليه: أن يبلغكم ما أوحيت به إليكم، وأن يبينه بيانا يرفع كل شبهة أو غموض.

الله العلم الفرد المختص بهذا الاسم واحد لا شريك له، وكل إله سواه زيف وباطل. وإذ تفرد بالألوهية والتأثير والخلق، فالواجب على المؤمنين أن يتوكلوا عليه وحده، ويستندوا إلى قدرته التي لا تقهر، وأن يثقوا في نصره.

وعني القرآن بإرشاد المؤمنين في علاقاتهم العائلية أن لا يتراخوا للعواطف، وخاصة في صلتهم بأزواجهم وأولادهم. فإن بعض الأزواج والأولاد قد يخفي عداوة، أو يقدم مصالحه وإن كان فيها ضرر بالوالد أو الزوج. فأرشدهم إلى الحذر والتوقي بوزن محاولاتهم التأثير بميزان العقل والمصلحة، وأن يكون الحذر لا تصديق الظنون هو الهادي له في علاقته بهم. ثم إذا تبين له غش منهم، فإن الأليق والأفضل، أن يقابل غشهم بعد تقريرهم عليه، بلومهم وتوبيخهم ثم العفو عنهم، أو بالصفح عن ذنوبهم بدون توبيخ، وتعتبروا أن ما وقع كأنه لم يقع بعد توقيفهم على خبثهم وتغفروا، فإن ذلك خير لكم في بقاء التماسك العائلي، يرجح موقف التسامح: أن الله غفور لذنوب عباده رحيم بهم، فاقتبسوا من كمالات ربكم.

تذكروا أن قوة غريزة حب المال والأولاد غرائز قوية فاعلة في توجيه عمل الإنسان، تجعله في حيرة بين الطاعة لله والإخلاص له وبين داوعي المحبة للأولاد والأزواج والأموال. هي بذلك فتنة لكم تزعزع استقراركم الروحي وتدخلكم في تجاذبات تهز النفس وتقر الحيرة. فوطنوا أنفسكم على التذكر بأن الله هو المتفرد يملك الأجر العظيم لمن قدم مرضاته على دواعي نفسه وغرائزه.

أنتم مأمورون بتقوى الله في السر والعلن، أنتم مطالبون بتقوى الله وبذل كل طاقاتكم لترضوا ربكم بالتقوى. فما دامت التقوى في متسع طوقكم فأنتم مطالبون بها، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ومع المشقة الكبرى يحضر عفو الله ورحمته. واسمعوا سماع القبول لما يأتيكم عن ربكم بلسان رسوله في حياته، وعلى لسان العلماء بعد انتقاله للرفيق الأعلى. فالعلماء ورثة الأنبياء. ووطنوا أنفسكم على طاعة ربكم.

ولْتَكُنْ نفوسكم سمحة بالمال تنفقونه فيما وجب عليكم وفيما ندبه، وفي توثيق الروابط الاجتماعية. فالإنفاق يترتب عنه الخير الكثير في الدنيا والآخرة.
والقاعدة العامة أن من استطاع أن يحصن نفسه من داء الشح، ومن جرثومة البخل بماله، هو المتحصل على مراتب الفوز والنجاح في دنياه وأخراه.
إن سمحتم بأموالكم فأنفقتموها فيما أمرتكم به وأرشدتكم إليه فإني أنا الله أعتبر نفقاتكم قرضا لي أوفيه لكم مضاعفا، وأغفر ذنوبكم. إن الله هو المتصف بشكره لعباده على ما يقدمونه من صلاح، مع أن الهداية منه. وهو الحليم المتجاوز عن التقصير. فسارعوا لمرضاة رب كريم. واعلموا أن الله يعلم ما خفي من أعمالكم وما ظهر منها، وما انطوت عليه صدوركم من مقاصد، ولا يخفى عنه ما قمتم به من أعمال وأنجزتموه. وهو يجازي الصالحين ثوابا وتكرمة. ويجزي الكافرين العصاة عذابا ومهانة. هو العزيز الذي تنفذ إرادته ولا يقف دون تحققها شيء. وهو الحكيم فكل ما يصدر عنه سبحانه هو على أبلغ ما يكون من الحكمة.

بيان المعنى العام :

11- ما أصاب من مصيبة...بكل شيء عليم.

أثبت القرآن فيما تقدم من هذه السورة وفي غيرها أن الله هو المتفرد بالخلق، ولا يتصور أن يشاركه أحد في ذلك. وبجانب الخلق العام فإن تسيير أمر العوالم، في جزئياتها وكلياتها مستند إلى الله، يشمل ذلك علمه بالكليات والجزئيات، وتقديره لها. فإذا أصيب المؤمن بمصيبة في بدنه أو في ولده وأهله أو في ماله، فليتذكر أن الله وحده هو المتصرف، وأن القانون الذي أجرى عليه أمر الكون في الحياة هو الارتباط بين الأسباب والمسببات. وهو الموجد للأسباب فصدور المسببات بلصق أسبابها هو قانونه وفعله بقدرته وإرادته. ثم إن ما يترتب على الواقع لا يعلمه إلا الله. فما أصاب الإنسان من نفع أو ضر هو داخل في التصرف الإلهي، ما وقع إلا بعلمه وإرادته وقدرته. فتذكير المؤمنين بالنظام الكوني الإلهي يربيهم على الصبر، إذا ما أصيبوا، وأن يكون لهم بفضل إيمانهم من قوة العزيمة ما يُبقي على ثباتهم، فلا ينهار المؤمن لما يصيبه، ولا تنهار الجماعة الإسلامية للكوارث.
إنه إذا حصل الإيمان بمفهومه الذي بيناه: أن الأمر كله بيد الله، فإن المؤمن بهذا التصور اليقيني، ينفتح قلبه بنور من الله يسكب الأمل ويطرد اليأس، لا ينهار مهما عظمت المصيبة قال تعالى : **{وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم**

المهتدون)[1] يهدي قلبه حتى يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. فيذهب عنه الهلع ويقرن ما أصابه بسنة الكون: أن كل حادث زائل، وأن مع العسر يسرا. وبكل تأكيد فإن علم الله شامل لكل حادث لا يغيب عنه أي شيء صغيرا كان أو كبيرا.

12- وأطيعوا الله...البلاغ المبين.

هداية القلب الموعود بها، تتمثل في طاعة الله ورسوله. فلتتقوا من أن قلوبكم قد اهتدت، فعليكم أن تقبلوا كل ما جاءكم عن الله بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم، تقبّلوه بالطاعة الراضية الحريصة على الوفاء بما أمرتم به، والانتهاء عما نهيتم عنه. واعلموا أنكم إن رفضتم ما أعلمكم به من شرع الله وتمردتم بالعصيان. فإن الرسول لم يكلف بجبركم على قبول رسالته. ونوه برسوله وعظم قدره بإسناده إلى ذاته العلية " رسولنا" كلفته ووفى بما كلف به، كلفته أن يبلغكم وحيي ويبينه لكم بيانا ينفي كل شبهة وغموض، ويقيم من نفسه مثالا تطبيقيا لما أوحيت إليه.

13- الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

حقيقة يذكر بها القرآن دوما، وهي القاعدة التي يبنى عليها جميع الحقائق الهادية الأخرى. وبذلك فهو الحقيق بالطاعة.

وعلى الله فليتوكل المؤمنون – وإذ تفرد بالألوهية تفردا لا يشاركه فيها أحد، وأن ما سواه عاجز لا يستقل بما يصلحه فضلا عن تمكين غيره من الخير.فإن على المؤمنين أن يخصوا الله بالتوكل عليه، والاعتماد على حسن عونه، وأن يتقوّوا بتأييده لينشروا دين الله في الآفاق.

14- يا أيها الذين آمنوا...فإن الله غفور رحيم.

روى الترمذي بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما وقد سأله رجل عن هذه الآية قال :هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ﷺرأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) علق عليه : هذا حديث حسن صحيح.[2]

عني القرآن بتربية المؤمن في تعامله مع نفسه، ومع أسرته، ومع جماعة الإيمان، ومع الناس، ومع الكون. حتى يبلغ المستوى الذي أراده الله لهذه الأمة: (كنتم خير

---

[1] سورة البقرة آية 155/157

[2] ج5ص344

أمة أخرجت للناس)[1] فنبهت المؤمن في المحيط الذي تكون فيه العواطف قوية مشبوبة، بصفة ربما تغطي على الكوامن فيغتر. ولا ينتبه إلى أن الظواهر قد تكون على عكس ما يضمره له غيره من أعضاء الأسرة القريبين. تؤكد الآية أن بعض الأزواج وبعض الذرية من البنين والبنات، قد يكونون يحملون في بواطنهم عداء للزوج أو الأب، فتكون مداخلاتهم وما يقدمونه من رأي يقدم مصالحهم، وإن كان فيها الهلاك، منحرفين عن الأزواج والآباء. فكانت التربية بأن يكون المؤمن يقظا لا ينام للعواطف، ولا يقتل حذره، ويُقَوِّمُ ما يرد عليه منهم بمعايير التعمق في المآلات. وهذا التأمل الحذر لا يصل إلى قطع العلاقة، ولكن الموصى به هو الحذر. دون أن يبلغ الحَذَرُ اعتقاد المظنون حقيقة. قال تعالى:(إن بعض الظن إثم[2])

ثم عقب بالإرشاد إلى الموقف الأفضل إذا تبين غش المتداخل منهم أو الناصح، وأن الموقف الأفضل أن لا يؤاخذ المذنب بذنبه، بل يعفو بعد أن يقرره بإثمه وعداوته ويوبخه على خبثه. ويرتفع التوجيه إلى الأمر بالصفح، فيعرض عن المذنب دون توبيخ. وأن يستر عليه فلا يشيع ما صدر منه، حفاظا على تماسك العائلة. وفوق ذلك فإن الله متصف بالغفران لذنوب المذنبين، رحيم بهم يدخلهم في فضله. فاقتدوا بكمالات ربكم.

15- إنما أموالكم وأولادكم...أجر عظيم.

بعد أن نبه المؤمنين إلى ما يمكن أن ينطوي عليه بعض الأزواج والأولاد من العداوة وقصد الضر، وأن على المؤمن أن يكون حذرا. عطف عليه ما يمكن أن يؤثر على الإنسان من العواطف الجبلية في علاقته بماله وبأولاده، وكذلك بزوجه، هذه العواطف وذلك الحب للمال والأولاد والزوج، قد يطغى على الإنسان فإذا هو من ذاته ينحرف دون أن يكون ذلك بتداخل منهم. فنبه المؤمنين إلى أن المال يغري صاحبه بحبسه .و بالتساهل في جمعه، وبالشح في إنفاقه، وكذلك الأولاد لضعفهم، واتصالهم بغريزة حب البقاء التي لا يمكن تحققها في ذات الإنسان، فيرى الواحد أنه سيستمر في الوجود بواسطة ذريته، وتأثير حب البقاء قوي في النفس وفي التأثير على القرارات التي يتخذها الفرد. إن هذه العواطف والغرائز تفتن الإنسان، وتوقعه في حيرة يتجاذبه ما فطر عليه، وماجاءه من ربه لينقذ نفسه من الخسران.

---

[1] سورة آل عمران آية 110

[2] سورة الحجرات آية 12

فتنة حقا. واعلموا أن الله عنده أجر عظيم لمن لم يفتنه ماله ولا زوجه ولا أولاده عن الالتزام بما شرعه الله له. وروي عن بعض السلف أنه قال العيال سوس الطاعات.

16- فاتقوا الله...هم المفلحون.

الفاء تربط هذه الآية بالآيات التي تقدمتها من الآية8 إلى الآية 15- إذا علمتم ما سبق ونفذ الهدى إلى عقولكم وأرواحكم، فاعزموا على تقوى الله، واحرصوا على ملازمتها، وأن تكون أليفة مشاعركم. اتقوا الله تقوى عامة شاملة، بالإقبال على فعل ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه،واستحضار صلتكم بربكم في جميع الأوقات والظروف الزمانية والمكانية. وقرنه بالاستطاعة لا تخفيفا للتقوى، ولكن لتعميم المطالبة بها كلما كان للمرء استطاعة. فإنه إذا تحول الأمر إلى الحرج والمشقة، فإن المشقة مرفوعة عن المؤمنين. قال تعالى: (وما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم[1]) روى البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقنني: فيما استطعت، والنصح لكل مسلم .ومثله عن ابن عمر رضي الله عنهما.)[2]

واسمعوا واطيعوا: وأكد الأمر بالتقوى بالتصريح بالأمر بالسمع القابل لما يلقى إليه. إذ أن تحقق التقوى تكون بحب الاستماع للهدى، والتأنس به. والسمع من رسول الله ﷺ، ثم من العلماء، به ينفذ النور إلى القلوب فيهديها . وييسر عليها التقوى. قال تعالى: (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب سورة الزمر اية 18/17)

وأطيعوا.. تأكيد ثان بواسطة التصريح بالطاعة، وإن كانت مفهومة من المقام. وعلى هذا النحو من العناية يبدو أسلوب القرآن في التأثير على المؤمنين لتلقي أسس الفلاح في الدنيا والآخرة. فكأن القرآن يأتي المؤمن من كل جانب ليؤثر فيه.

وأنفقوا خيرا... يواصل القرآن تفصيل التقوى، فيأمر المؤمنين أن ينفقوا، ولا يخص الإنفاق بالواجب أو المندوب، أو ما هو من حسن المعاشرة. يرغب المؤمن أن يكون سمحا بماله غير مغلول بالشح في غير إسراف.

وقوله خيرا: يعني إنفاقا خيرا لأنفسكم، هو أفضل لكم من الشح والإمساك. فالشح استجابة للأنانية وحب الاستئثار، والفردية الضيقة. والإنفاق والبذل هو رشح شعور الإنسان بالرابطة

---

[1] سورة المائدة اية 6

[2] فتح الباري ج 16 ص318

الاجتماعية. وتقدير المال على أنه وسيلة لا غاية. ويعجبني تفريق ابن خلدون بين الرزق والكسب، إذا قال الرزق هو ما أ نفقته، والكسب ما تركته خلفك. ثم أكدت الآية الخيرية في الإنفاق بقاعدة عامة صيغت صياغة على أتم ما يكون من الإحكام. فقال تعالى: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) إذ أبرزت الشح في صورة المرض والفساد المؤثر خرابا للنفس. فمن وقى نفسه من داء الشح والبخل بالمال، وسمحت نفسه بالبذل والعطاء الواجب والمستحب، والمقوّي للعلاقات الاجتماعية فهو الذي أفلح في حياته الدنيا، بما يترتب على البذل من حب الناس له وتكريمه، وبما يترتب على الشح من حسد الناس له وبغضه، ونجح بما أعده للحياة الآخرة (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم)[1]

17-إن تقرضوا الله...شكور حليم.

سبحانه ما أعظم فضله، وما أوسع كرمه. هو الذي يرزقنا وما بكم من نعمة فمن الله. ما من مولود إلا ويولد عريانا لا يملك شيئا، فيسوق له ربه من الرزق، ويوسع عليه، ويحمي رزقه من الضياع، ويسكبُ في قلبه الإيمان وحب الآخرين، ثم يأمره بأن ينفق شيئا مما أعطاه، ويصوره أنه قرض لرب العالمين الغني الغني المطلق. يعده وعدا مؤكدا بالجزاء عما أنفق كأن ما أنفقه وديعةً عند الله التزم رب العزة بمضاعفتها من عشرة إلى سبع مائة ضعف. وإرجاعها لصاحبها وافية في الوقت الذي يكون فيه في أشد الحاجة لما يسعفه به ربه من فضله. ويعده فوق عودة ما أنفق له مضاعفا، أنه يجعل الإنفاق سببا لمحو الذنوب، وتطهير صحيفته من دنس الآثام. ما وُعدتمْ هو من توابع صفات الله القديمة: إنه شديد الشكر لعباده على ما يصدر منهم من خير هو من فضل هدايته وتيسيره. وهو الحليم الذي يتجاوز عن التقصير لمن فعل الجميل. اللهم ارزقنا فضلك ورحمتك وغفرانك وحلمك. فالخير كله بيدك.

18- عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

ختمت السورة بالتذكير بما اتصف به الباري سبحانه من العلم الدقيق بالخفايا والظواهر. ليرهب المفرطون من عقابه العادل لأنه مطلع على ما أظهروه وما أخفوه، وليرغب الصالحون في المزيد من الخير، لأنه لا يضيع عنده عامل للصالحات. وجزاء كل بما قدم، من مقتضيات عزته، فلا يعاند أمره شيء، وينفذ ما يريد نفاذا طوّع له كل الكائنات. وهو يتصرف بحكمته التي تعطي لكل شيء حقه.

6رجب 1435- 2014/5/5

---

[1] سورة البقرة اية 272

سورة الطلاق

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. وجه تسميتها بذلك افتتاحها ببعض أحكام الطلاق. وهي مدنية باتفاق. وعدت السورة الخامسة والستين حسب ترتيب المصحف، والسادسة والتسعين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاحشة : الفعلة المنكرة لشدة سوئها.

مبينة : واضحة.

الحدود : جمع حد وهو ما يمنع تجاوزه.

أمسكوهن : راجعوهن.

بمعروف : ما هو مقبول عادة في الفراق أو المعاشرة.

الوعظ : التذكير الملين للقلوب، والتحذير مما يضر في المستقبل.

حسبه : كافيه.

بيان المعنى الإجمالي :

ينادي الله نبيه ﷺ ليخاطب عن طريقه المؤمنين عامة، إبرازا لشرفه ولعلي مقامه عند ربه، فيقول له : إذا أردتم أن تطلقوا زوجاتكم فلا تطلقوهن إلا وهن في حالة طهر فبذلك يستقبلن عدتهن من تاريخ الطلاق ولا يطول عليهن أمد الانتظار. واضبطوا العدة فلا تختاروا نهايتها قبل أوان ختامها، ولا تضيقوا إليها ما ليس منها. وليكن تقوى الله الرقيب عليكم في تطبيقكم لشرعه. واعلموا أن من حق المطلقة أن تقضي عدتها في بيت الزوجية فلا تخرجوهن من بيوتهن، وكذلك لا يحل لهن أن يخرجن منها. ولا استثناء من هذا الحكم إلا أن تأتي المطلقة بأمر مستنكر شديد النكارة، كالزنى والبذاءة وسلاطة اللسان مما يجعل المقام معها جحيما على ساكني البيت ونحو ذلك، فتخرج إلى بيت آخر. وما شرعته لكم في هذه الآية له حرمته، وهو حد من حدود الله فيجب أن يراعى. وأحذركم فإن من يتهاون بحدود الله فخسارته تقع على نفسه، وسيجني سوءا بذلك. ومن ناحية أخرى فاتباع تلكم الحدود قد يترتب عليه خير لا تعلمونه. إن الله المتصرف تصرفا حكيما قد يحدث أثناء العدة ما يحول القلوب من البغضاء إلى الحب، ومن ترجيح الانفصال إلى الشوق في الامتزاج.

ثم إن المطلقة إذا قاربت الخروج من العدة، فإن الواجب على الزوج أن يتخذ قراره: إما أن يراجعها ليعيش معها حياة زوجية كريمة بجميع حقوقها، ولا يتعسف، وإما أن يسرحها فتنفصل عنه على الوجه المعروف الذي ليس فيه ظلم من أحدهما إلى الآخر. وعلى الزوج المطلق أن يشهد على أحد اختياريه،فيشهد إذا هو راجعها، ويشهد إذا اختار طلاقها نفيا للتداعي والخصام الذي يمكن أن يحصل في المستقبل. وليختر للشهادة رجلين من أهل العدالة المقبولة شهادتهما لدى القضاء. ولتكن الشهادة مستوفية لما تكون بها مقبولة، وأن يستحضر كل من الشهود والمشهود لهم والمشهود عليه، في الفراق، وفي الرجعة، وفي بقية الحقوق، ليستحضروا أن الله هو الذي أمر بالشهادة، وأنه يحاسب كل طرف عن وفائه بحقها.

إن الأحكام التي بينتها لكم في هذه السورة تهدف إلى وعظكم، فترقق قلوبكم لتتسابقوا إلى تطبيقها رجاء فيما عند الله، وحذرا من عقابه، ومما يجلب لكم الشر. ينتفع بها الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر. واعلموا أن من يتقي الله فيعمل بما جاءه من ربه، وتصحبه خشية الله، وتعلقه به في جميع الظروف والأحوال، فإن الله بفضله يجعل له من كل كرب فرجا ومن كل ضيق مخرجا، في الدنيا والآخرة.

والتقوى سبب لسعة الرزق، فيفتح الله من خزائن رزقه للمتقين، فيصلهم ما لم يكونوا قد تهيأوا لنواله من وجوه لم تخطر لهم على بال.
ثم إن من يتوكل على الله حق توكله، فيستعين به على بلوغ مراده، وإنجاح عمله، ويصحب سعيه بالاقتناع الكامل أن النُّجح بيده، وأن ما يساعده على ذلك تقوى الله، واستحضار صلته بربه في كل ظرف من ظروف حياته. فإن الله سيكفيه ما يعترض سبيله من معوقات. إن ما قدره الله في سابق علمه سيتحقق لا محالة. وهذا التقدير الثابت في علمه الأزلي القديم قد ضبط فيه كيفية كل ما يحدث، وزمنه، وآثاره. وإنه لا يحدث في الكون أي شيء فُجاءة بالنسبة لله سبحانه.

بيان المعنى العام :

1-يا أيها النبي...لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

خُص النبي ﷺ بالنداء "يا أيها النبي " وعُقب بالتشريع العام المخاطب به الجماعة الإسلامية " طلقتم " وتلك طريقة من طرق إظهار العناية بالمنادى، لأنه هو قائد الأمة والمبلغ عن الله، الحقيق بكل تقدير. والمقصود التشريعي واحد. وهو من النكت البلاغية التي يراعيها القرآن في إبراز مقام النبي ﷺ عند ربه.
إذا طلقتم... على معنى إذا تعلقت إرادتكم بطلاق النساء المعقود عليهن، كقوله تعالى إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا، أي أردتم إقامة الصلاة. فإن إقدامكم على الطلاق منظم بالضوابط التي شرعتها الآية :
أ-فطلقوهن لعدتهن. فطلقوهن طلاقا يستطعن معه أن يحسبن عدتهن بمجرد الطلاق، وفك العصمة. وظاهر الآية يؤيد ما ذهب إليه مالك رحمه الله أن المطلقة تخرج من عدتها بعد ثلاثة أطهار. فتحسب زمن الطلاق وهي في الطهر الذي لم يمسها فيه زوجها القرء الأول، ثم تحيض فإذا طهرت من حيضها دخلت في الطهر الثاني، فإذا حاضت بعده وطهرت فبتمام طهرها تكون عدتها قد انقضت. وحصلت لها ثلاثة أطهار. وعند الحنفية لا تخرج من العدة إلا بتمام الحيضة الثالثة.
تنبيه-1- يفهم من تحديد زمن إيقاع الطلاق، أن العلاقة الزوجية ليست لعبة في يد الزوج يوقعه متى شاء بسبب وبغير سبب، كما يفعله كثير من السفهاء: أن يتخاصم مثلا مع بائع الخضر فيقسم بطلاق زوجته، أو يختلف معها على أمر بسيط فيطلقها في الحين. والطلاق الذي أذنت فيه السنة، هو ما كان[1]في طهر[2] لم يمسها فيه، لأنها إذا كانت في حال حيض فإن بعض النساء يفسد مزاجهن زمن الحيض، فوضعها النفسي قد يترتب عنه توتر في علاقاتها يتبعه غضب الزوج وخروجه عن الاعتدال. واشتراط أن لا يمسها في الطهر لأنها إذا كانت طاهرا

وهو ممكن من الاتصال بها ولم يفعل فهو دليل على أنه أبغض البقاء معها [3] وأن يكون الطلاق واحدة [4] وأن لا يتبع الطلقة الأولى بطلقة ثانية في العدة. فالطلاق الذي أذنت فيه السنة هو الطلاق الذي يتروى فيه الزوج فيقدر العلاقة التي تجمعه بزوجه، ويقدر وضع الأولاد، إن كانوا، بعد فراق أمهم، ولا يصحبه أي مظهر من مظاهر الحقد والإضرار، فإيقاع أكثر من طلقة واحدة مثلا كاشف عن قصد الإضرار، وعن تشنج المطلق. وأن تبقى ساكنة في بيت الزوجية إلى انقضاء عدتها.

تنبيه-2 روى الثعلبي من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ :إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق. وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ: لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات. وأخرج الدارقطني بسنده إلى معاذ بن جبل ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا معاذ ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحب إليه من العتاق (أي تحرير العبيد) ولا خلق شيئا على وجه الأرض أبغض من الطلاق.[1]

ب - وأحصوا العدة- أنتم مطالبون بضبط أيام العدة ضبطا يحقق الوفاء بما حددته الشريعة، فلا يتعجل الراغب في التعجل، ولا يمططها الراغب في التمطيط. وهو أمر مخاطب به الزوج المطلق، و المطلقة، والقائمون على تطبيق الشريعة من القضاة والحكام الموكل إليهم أمر الأسرة. وأصل الإحصاء أن من يرغب في تعداد ما بين يديه يأخذ حصيات يجعل لكل معدود حصاة، مما ينفي الخطأ في التعداد.

جـ - واتقوا الله ربكم. ربط تطبيق التشريع بأنه من تقوى الله، على معنى أن الله يرقبه، ويحاسب عليه من يتساهل بأحكامه. وأن المرأة رفعها الإسلام من الوضع التي كانت عليه في المجتمع الجاهلي الذي يظلمها، ويتسعف في حقوقها. وأن ما أعطاها الله من الحقوق المعاكسة لما ترسخ من أعراف اجتماعية هي بمحل العناية من الله، ولذلك فإن الوفاء بها من التقوى.

د- لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. ظاهر الآية أن المطلقة تواصل سكناها في بيت الزوجية إلى انقضاء عدتها. ونهت الآية المطلق من إخراج مطلقته من البيت الذي كانت تقيم فيه. وكذلك على المطلقة أن تبقى ساكنة في بيت الزوجية إلى انقضاء عدتها ولا تخرج. ثم إنه يحرم عليها أن تخرج من بيتها ليلا، فلا تبيت إلا تحت سقف بيت الزوجية. وأما في النهار فلها أن تخرج

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 18ص149

في حوائجها. ويسأل كثير من الناس، بعد أن تيسر أمر الحج والعمرة، هل للمعتدة أن تحج أو أن تعتمر وهي في العدة ؟ فأقول: إن الآية صريحة من منعها من ذلك، فإن حجت أو اعتمرت وهي في العدة فإنها آثمة.

إلا أن يأتين بفاحشة مبينة.

يحتمل هذا الاستثناء أن يكون متصلا بقوله: لا تخرجوهن من بيوتهن، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة؛ فليس عليكم حرج في إخراجهن في هذه الحالة. والفاحشة أصلها الفعلة القبيحة المنكرة جدا، ولذلك حملها بعضهم على الزنا، أي تخرج لإقامة الحد عليها . وحملها بعض على البذاءة والخصام، فيكون سوء خلقها ومشاكساتها المتواصلة مما يذهب عن البيت الذي تسكن فيه الراحة، فتخرج من بيت الزوجية. وحملها آخرون على لين في دينها وارتكابها للمعاصي كالسرقة و الغيبة والنميمة.

كما يحتمل أن يكون مستثنى من قوله : ولا يخرجن من بيوتهن إلا إذا قمن بمخالفة هذا التشريع فالتعبير فيه تفظيع لخروجهن، لأن خروجهن بإرادتهن فيه كسر وإهدار لحكمة بقائهن في بيت الزوجية المطمئنة على عدم اتصالها جنسيا بأجنبي في أمد العدة، ولأن بقاءها قد يغير رأي الزوج،فيعيدها لعش الزوجية كما سيأتينا في قوله تعالى : لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

تلك حدود الله..حددت الجملة في مراعاة ما تقدم من التشريع في السورة، وأن ما ضبط فيها لا خيرة لأحد الزوجين فيه، بل هو واجب التطبيق. شأن الحدود التي يمنع تجاوزها إلى ما وراءها. وإضافة الحدود لله مشعر بقيمة هذا التشريع والتحذير من تجاوزه.

ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه...أدخل القرآن التهاون بأحكام الطلاق المبينة فيما سبق تحت القاعدة العامة مصرحا بما يترتب على التجاوز. فكل من يتجاوز حدود الله التي حددها لعباده، ولا يلقي لها بالا، ولا يحترمها، بما يشمل أحكام الطلاق وتوابعه، وغير ذلك من التشريعات التي شرعها للناس، ويحكّمُ شهواته وميوله، فليعلم و ليتيقظ إلى العاقبة التي تنتظره لا محالة. فإن العاقبة عاقبة سوء يتحملها وحده، ويكون بذلك قد ظلم نفسه، إذ أخرجها من سلامة العقبى وعدم المؤاخذة إلى مقت الله وعقابه. قال تعالى : أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين* أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين *أو

تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين[1] - فيكون هذا كاشفا عن العناية الشديدة للقرآن باحترام أحكام الطلاق.

لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا... تنويع في الحث على قبول تشريع أحكام الطلاق السابقة، فبعد أن هدد بأنه من حدود الله وأن من يتجاوزها يظلم نفسه، فتحت الآية باب الترغيب بلفت النظر إلى أن الله قد يفتح في المستقبل ما يعيد العلاقة الزوجية إلى الوئام، بعد تجربة الانفصال في أيام العدة. إذ يقدر الزوج ما في مطلقته من كمالات تغطي ما أوجب قراره بفراقها، أو يقدر إذا ما كان له أولاد المشاكل التي سيعانونها من الانفصال بين الأبوين، ونحو ذلك. وكذلك المطلقة تقدر مرجحات بقائها في عش الزوجية على الانفصال وتحمل فقد الزوج، البعد عن البيئة التي كانت فيها. أن تحمل بعض النقائص أفضل لها، فتلين من حدتها ووقوفها عند تصوراتها لطريقة العيش.

وأنت أيها الناظر في هذا التشريع لا تعلم ما سيحدثه الله في المستقبل من تقليب القلوب، من الكراهية إلى الود، ومن الأثرة إلى الإيثار. ومن البغض إلى الشوق.

2-فإذا بلغن أجلهن...ومن يتق الله يجعل له مخرجا.

لما حدد القرآن للعدة حدا وضبط أحكامها، فإذا قاربت المطلقة ما يقارب انتهاء أمدها، الذي ببلوغه ينحل عقد الزوجية انحلالا تاما، خير الزوج بين أحد الحلين:

الحل الأول: أن يراجعها قبل خروجها من عدتها. وتعود العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه، مع احتساب أنه طلقها وراجعها. ولكن لا يحل له أن يراجعها إلا إذا عزم على أن تجديد الحياة الزوجية، سيكون على المعاملة بالحسنى والاحترام المتبادل، وتمكينها من حقوقها.وهو معنى قوله تعالى: فأمسكوهن بمعروف. وقدم هذا الحل لأنه الحل الذي يرجحه الشارع الحكيم متى كان استئناف الحياة الزوجية لا يقصد به الإضرار، كما كان يفعله الجاهليون :أنهم يطلقون زوجاتهم فإذا بلغن قرب نهاية العدة راجعوهن ثم يعيدون طلاقهن لتبقى تحت سلطانهم، لا هي زوجة تستمتع بحقوق الزوجية،ولا هي مطلقة في حل من الرابطة.

الحل الثاني: أن ينفذ عزمه على فراقها، لما ترجح عنده من أن الفراق هو الحل الأفضل. وليكن الفراق حسبما يقره العرف من أن كل واحد منهما يمضي في سبيله ممكنا من بناء حياة أسرية جديدة. ولا يغتابها ولا تغتابه، ولا يكذب عليها ولا تكذب عليه.وإن كان لهما ذرية راعى كل واحد منهما حقوق الآخر حسبما قررته الشريعة

---

[1] سورة الزمر آية 58/56

وأشهدوا ذوي عدل منكم...هذا أمر بالإشهاد جاء تاليا لما خير به الزوج من عودة إلى الحياة الزوجية، أو الفراق. وحمل بعضهم الأمر على وجوبه في الرجعة دون التسريح، وحمله بعضهم على الندب والإرشاد. وحمله بعضهم على الوجوب في كليهما. ولما كان قطع دابر الخصومات، والاحتياط لظهور الحق عند التناكر والتجاحد، يتحقق بصرف الأمر للوجوب ؛ فالراجح أن على الزوج أن يشهد بعد تلفظه بالطلاق بما استقر عليه عزمه بقرب انتهاء أمد العدة من إمساك أو فراق. إذ لعل أحدهما يموت بقرب ذلك فيكون الطرف الآخر وارثا مع الارتجاع. ولما كان الغرض المهم في الإشهاد هو قيام دليل يقطع دابر الخصومة بتعيين المحق،أرشدت الآية إلى أن يكون الشهود من أهل العدالة من المسلمين الذين يعمل القضاة بشهادتهم

وأقيموا الشهادة لله..يجب عليكم أن تكون الشهادة في الطلاق والرجعة وفي غيرهما قائمة على الحق مستوفية ما يجعلها مؤدية لدورها عند الحاجة إليها. فيتم الاحتياط عند التحمل، وكذلك عند الأداء. فلا يحابي الشاهد أحد الطرفين، ولا يعمل المشهود له على إغراء الشاهد إغراء يدفعه إلى تحريفها، ولا يعمل المشهود له على صرف الشاهد عن نقل الواقع كما هو. وليعلم الشاهد والمشهود له والمشهود عليه أنهم جميعا تحت الرقابة الإلهية، وأن الله يحاسب كل من حرّف الشهادة، وليستحضروا أنها قامت امتثالا لأمر الله

ذلكم يوعظ به.. ما قدمناه من الأحكام والإرشاد، نهدف منه إلى أن تتعظوا به، **فتحذروا مخالفته**، وتميل قلوبكم إليه راغبة في الخير ورضوان الله.

ومن يتق الله يجعل له مخرجا...أوامر تلاحقت : الطلاق في الطهر – مراقبة قضاء العدة بدون نقص في مدتها ولا زيادة– وحق المطلقة في السكنى – والالتزام بما حدده الله وعدم تجاوزه – وعدم التعسف والتسلط على المرأة إضرارا بها عند قرب نهاية أمد العدة– ومراعاة المعروف في الإمساك أو الفراق–والشهادة على الرجعة أو على تنفيذ الفراق – ومراعاة حق الشهادة فلا يتجاوز الحقيقة أي من الأطراف الثلاثة الشاهد والمشهود له والمشهود عليه. عقّب القرآن كل ذلك بما يحرض على تطبيقه، ويرفع الممتثلون له إلى مرتبة المتقين،وأن الله سبحانه وهو ذو الفضل العظيم،يفتح لمن يستقيم ممتثلا مستحضرا علاقته بالله، أنه يجعل له من المضايق، منفذا يخلصه مما هو فيه من ضيق وكرب.روي عن ابن عباس في معنى يجعل له مخرجا: يخلصه من كُرب الدنيا والآخرة. فهي ألطاف يكتبها الله لمن يتقي الله في الدنيا، كلما ضاق عليه أمره فتح له الله بسبب تقواه أبواب الفرج،

وكذلك يجد المتقون في الآخرة الألطاف التي تخلصهم من هول يوم الحساب فيخرجون من ضيق المحشر إلى فسيح الجنان.

3-ويرزقه من حيث لا يحتسب...لكل شيء قدرا.

تحريض على التقوى بأن الله ييسر له رزقا من وجهٍ ما كان ليخطر بباله. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم في ضيق شديد، ترك المهاجرون أموالهم واستحوذ عليها كفار قريش. وقاسمهم الأنصار أرزاقهم، وفتحوا مدينتهم لكل الوافدين الجدد الذين أخذوا يتدفقون ملتحقين بالمؤمنين المهاجرين. ولكن ما وقر في أرواحهم من التقوى فتح الله لهم به أبواب الرزق. ولم يمض أمد طويل حتى اتسعت ثرواتهم. فليكن كل مؤمن أليف التقوى يحسن ارتباطه بالله، واثقا من أن الله سيوسع عليه في رزقه، إذا كانت التقوى صادقة حبا في الله، لا انتظارا لسعة في الرزق. ذكر الواحدي في أسباب النزول أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أسر ولده، وقدر عليه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأمره بالتقوى، فقيل: لم يلبث أن تفلّت ولده، وأخذ قطيع غنم للقوم الذين أسروه، وجاء أباه، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم أتطيب له تلك الغنم ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ! ونزلت الآية في ذلك.[1]

ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره...كونوا واثقين أن الله هو المتصرف وحده في الكون، وأن ما يعلمه الإنسان من الأسباب هو ضئيل جدا. والأسباب والمسببات كلها بيد الله، فعلى المؤمن بموجب إيمانه أن يتوكل على الله توكلا يجعله يقتنع أن عليه أن يسعى في الحياة السعي الصالح، وأن يعلم أن النتائج هي بيد الله، فليتوكل على ربه ليجعل سعيه رابحا وليطرد وساوس الشيطان الذي يسعى كما جاء في الآية : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم)[2]

فالله كاف عبده إذا أحسن التوكل عليه، وحسن التوكل باتخاذ الأسباب التي أقام سبحانه عليها سنن النجاح في الكون. والله يبلغ ما يريد ويحقق ما تعلقت به إرادته. ووعد سبحانه :أنه يكفي المتوكل عليه ما أهمه، وأن يسكب في روحه الطمأنينة، وأن يوالي عليه من النجاحات ما يعمق إيمانه.

---

[1] المحرر الوجيز ج14 ص459

[2] سورة البقرة آية268

قد جعل الله لكل شيء قدرا... كل ما يحدث في الكون ليس أمرا فجائيا، يحدث دون أن يكون قد هُيِئ له من قبل، وعُلِم كيفية حصوله، ومقدار حصوله، ووقت حصوله. بكل تأكيد هو أمر معلوم مضبوط ضبطا دقيقا في وجوده وفي كل ملابساته التي تقارن وجوده. وهو مقتضى صفة العلم القديم الشامل.

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

اليأس : فقد الأمل.

يسرا : انتفاء الصعوبة, والمكروه.

من وجدكم : من مالكم.

تضاروهن : الإضرار الشديد.

لتضيقوا : لتحرجوهن بالأذى.

تعاسرتم : اختلفتم اختلافا شديدا.

قدر عليه رزقه : جعل رزقه محدودا، ضيقا

الرزق : ما ينتفع به الإنسان في حاجاته من طعام ولباس ومتاع ومنزل.

بيان المعنى الإجمالي:

اعتنى القرآن بأحكام الطلاق وشرع ما يحفظ نقاء النسب، وما يحمي المطلقة من التعسف، وأرشد إلى المراجعة إذا كانت تحقق الحياة الزوجية المطمئنة. ومن الأحكام التي شرعها أن المطلقة إذا بلغت سن اليأس من المحيض، وارتفع عنها الحيض فإن العدة التي تستطيع بعدها أن تتزوج هي ثلاثة أشهر قمرية من يوم

طلاقها. وأن المطلقة إذا لم تتحقق أنه قد ارتفع عنها الحيض، وهي تشك في نفسها أهي يائسة من المحيض، أو إن الحيض سيعاودها فالحكم أنها تقضي تسعة أشهر لتتبين هل بها حمل أو لا ؟ فإذا انتهت الأشهر التسعة أضافت لها ثلاثة أشهر، وبتمام العام تخرج من عدتها. والصغيرة التي لا تحيض أمد عدتها ثلاثة أشهر. وإذا كانت المطلقة حاملا فلا تخرج من عدتها إلا بعد وضع الحمل. سواء وضعت حملها قبل ثلاثة أشهر، أو بقيت أكثر من ذلك.

وحرض القرآن على التقوى بتطبيق ما شرعه الله، ومن يتقي الله فإن الله يعده أنه ييسر له أمره، ويسعده بعونه في الشدائد فتفتح له المسالك المغلقة.

ما تقدم من أحكام وضبط من تشريع، هو حكم الله الذي حكم به وأنزله على رسوله فبلغه إليكم لتعملوا به وتتقوا ربكم فإن من يتقي الله يكفر الله عنه سيئاته ويسقطها كأن لم تكن، ويضاعف له أجره مضاعفة من الكريم الذي لا يحد فضله.

يجب على المطلق أن يسكن مطلقته في بيت الزوجية الذي كانت تسكنه قبل طلاقها، وإن ضاق عنهما خرج وتركه لها. ويحرم عليه أن يُضِرّ بها في المدة التي تقضيها هناك ليضيق عليها حتى ترضى بإسقاط حقها والخروج من سكناها التي هي حقها. والتسلط عليها بالباطل حرام.

ومن ناحية أخرى فإن المطلقة الحامل يجب على زوجها أن ينفق عليها إلى أن تضع حملها، ومثلها النفقة على المطلقة رجعيا.

وبعد أن تضع حملها فإذا رضيت الأم بأن ترضع ولدها بمقابل كان على الأب أن يعطيها أجر الإرضاع الذي هو من النفقة على المولود الواجبة على الأب. ولتتشاوروا فيما بينكم ليتم ذلك بالتراضي بينكم حسب العرف الساري في المجتمع. وإن لم تصلوا إلى وفاق وشح الأب فلم يُرِدْ أن يبذل إلا ما هو دون المعروف، وشططتْ الأم فطلبت ما هو أرفع من المعروف، فإن على الأب أن يرضع ابنه ظئرا.أو من اللبن المجفّف الصالح

وعلى المنفق، سواء على المطلقة، أو فيما أوجب الله فيه الإنفاق أن ينفق ما يكفي المنفق عليه طعاما وكسوة وسكنا وحاجياته، نفقة لا سرف فيها ولا تقتير. ومن ضُيِّق عليه رزقه، فالواجب عليه أن ينفق مما آتاه الله حسب قدرته وهو غير مطالب أن يكون إنفاقه كإنفاق ذوي اليسار. ذلك أن الله لا يكلف أحدا إلا ما هو في إمكانه. ولا تيأسوا أيها الفقراء، ولا تغتموا فإن الله بيده الخير، وهو قادر على أن يحول أوضاعكم إلى ما فيه سعة وفضل .

بيان المعنى العام :

4-واللائي يئسن من المحيض من نسائكم...يجعل له من أمره يسرا.

أمرت الآية السابقة: فطلقوهن لعدتهن، أن من عزم على طلاق زوجه أن يوقع الطلاق في طهر. وأن عدتها ثلاثة أطهار. وأكملت هذه الآية حكم المطلقة التي يئست من المحيض، لكبر سنها، أو التي لا تحيض لصغرها. وسن اليأس من المحيض يختلف باختلاف النساء، وباختلاف الأقطار، فما ذكر من أنه خمس وخمسون سنة أو ستون سنة، كله أمر تقريبي، والحكم خاص بكل امرأة فإذا بلغت سن اليأس من المحيض تقدم أو تأخر فلتعتمده. كما يختلف سن ابتداء المحيض أيضا. وهذه الآية مخصصة لآية سورة البقرة التي عممت : أن كل مطلقة تتربص بنفسها ثلاثة قروء وهي قوله تعالى :(والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء)[1] فكان هذا التخصيص بيانا لقوله تعالى: والمطلقات - فخصصت هذه الآية اليائسات من المحيض لكبر ؛ ومثلهن الصغيرات اللاتي لم يبلغن سن المحيض، وأنهن يتربصن بأنفسهن ثلاثة أشهر من يوم الطلاق.

إن ارتبتم - إن حصل لكم شك وريبة وهو مرتبط بما تقدمه مباشرة. وتخريجه ما روي : أن الله تعالى لما بين عدة ذوات الأقراء وعدة الحوامل في سورة البقرة، بقيت اليائسات من المحيض محل تساؤل ؛ فنزلت هذه الآية مبينة. فيكون معنى إن ارتبتم : إذ ارتبتم. فالارتياب وقع للصحابة في ضبط الحكم. فالمعنى واللائي يئسن من المحيض، إذ حصل لكم ريبة في أمد عدتهن، ولم يتبين لكم كيف تحسب، فاعلموا أن عدتهن ثلاثة أشهر. اعتمادا على أن ثلاثة أشهر يتبين بها أمر الحمل، ويكون للزوج فسحة للمراجعة. فبتمام الثلاثة أشهر تنتهي عدتها، وبالتالي يتم الانفصال بينها وبين زوجها.

وفهم الآية كثير من الفقهاء على أن اللاتي يئسن من المحيض، إن حصل لهن شك في إمكان عود الحيض لهن، فالحكم أنهن يعتددن بثلاثة أشهر. وهذا إذا لم يصل الأمر بهن إلى الشك في علوق حمل بهن، فإذا شكت في الحمل فإنها لا تخرج من العدة إلا بعد زوال الريبة، أو بلوغها من يوم طلاقها خمسا أو أربع سنوات.

وفهم الآية آخرون وهم الأكثر أن المرتاب في يأسها، التي هي غير واثقة من أن دم الحيض لا يعود إليها، تبقى منتظرة تسعة أشهر للريبة، ثم تعتد بثلاثة أشهر. فلا

[1] سورة البقرة آية228

تحل للأزواج ولا تنفصل عن زوجها إلا بتمام العام. وهذا ما قضى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمحضر من الصحابة ولم يخالفه في ذلك أحد.

والأولى بعد التقدم العلمي أن يعتمد ما يبرزه الكشف الطبي بالأجهزة المحققة للواقع.

هذا وإن أمد عدة اليائسة قد اختلف فيه الفقهاء اختلافا كثيرا. ينظر ذلك في كتب الخلاف. وتتبعه وترجيح ما ينبغي ترجيحه بأدلته يخرج بنا عن تفسير الآية.

وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن. من طلق زوجه وهي حامل، فإنها تخرج من عدتها بمجرد وضع حملها، ومثلها المتوفى عنها زوجها. ولو لم يمض على الطلاق أو الوفاة إلا زمن قليل.

4- ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا....

الأحكام التي جاءت في الطلاق والعدة وما اتصل بهما، هي أحكام أسسها الإسلام، وما كانت مرعية في الحياة الجاهلية. ولذلك حرض على الاعتناء بها، ولفت الأنظار إلى أن الاجتهاد في تطبيقها استحضارا بأنها نزلت من عند الله هو من التقوى. وينسحب ذلك على كل ما ذكر في الآيات السابقة على نحو ما بسطناه في قوله تعالى: ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب. وجاء التحريض على العمل بها في هذه الآية بواسطة وعد كريم أن الذي يتقي الله، وتكون التقوى أليفة قلبه، ومظهر عمله، أن الله ييسر عليه ما صعب، ويزيل المعوقات التي تعترضه.

5-ذلك أمر الله أنزله إليكم...ويعظم له أجرا.

كل ما سبق تشريعه هو الحكم الذي حكم به الله، أنزله إليكم، ما كان لكم أن تدركوه لولا فضله بتيسير بلوغه إليكم بواسطة رسوله. ولا يخفى ما في التعبير بأنه منزل من عند الله ما يشير إلى شرف المنزل، ورفعة مقامه، وتحتم العمل به. ثم أكد التحريض على تطبيقه والعمل به، بأن من يتقي الله فيعمل بما جاءه من ربه ويستحضر دوما أن الله معه يرقبه يجد جزاءه تكفيرا لذنوبه، ومحوا لسيئاته، فيلقى ربه بصحائف نقية من الإثم. يكفر عنه ما ارتكبه من آثام، يكفر عنه سيئاته. ثم يضاعف له ثوابه فيلقى جزاءه جزاء الصالحين، ويعظم له أجرا.

6-اسكنوهن من حيث سكنتم...فسترضع له أخرى.

تُتابع السورة تفصيل أحكام الطلاق وما يتبعه؛ فأمرت هذه الآية الأزواج الذين طلقوا أن يمكنوا مطلقاتهم من السكنى في المسكن الذي كن يقمن فيه. ولا يكلف

المطلق أن يهيء لها مسكنا آخر، ولكن إذا ضاق فكان لا يسع مبيتين منفصلين، فإن المطلقة مقدمة، وعلى الزوج أن يترك لها المسكن ويخرج إلى مكان آخر يأويه، وقوله من وجدكم هو مساو لقوله من حيث سكنتم، لأن مسكن الإنسان هو من وجده أي من ماله.

ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن.. كما أمر بسكنى المطلقات عطف عليه حقهن في عدم الإضرار بهن، قصد الانتقام منهن في أمد العدة، وإلجائهن إلى الخروج من المسكن وإسقاط حقهن الذي فرضه الله. والمضارة هي الإضرار القوي، والمقصود به النهي المؤكد عن الإضرار مطلقا لا بقيد كونه قويا. بما يشمل إسكان من يتولى التضييق على المعتدة، أو تهييج الأتباع على معاملتها بما يسيئها ونحو ذلك.

وإن كن أولات حمل....شرّعت هذه الآية للمطلقات الحوامل النفقة إلى أن يضعن حملهن فيخرجن من العدة. والنفقة كذلك واجبة للمطلقة طلاقا رجعيا، لأنها كالزوجة إلا في الاستمتاع. وأوجب مالك النفقة للبائن أيضا.

فإن أرضعن لكم....لما كانت العدة تنتهي بالوضع، وتنحل العلاقة انحلالا تاما؛ فالسؤال يثور لمعرفة من يجب عليه إرضاع هذا المولود. والذي يفهم من الآية أن الإنفاق على المولود بعد ولادته بما يشمل إرضاعه واجب على الأب. فإن رضيت المطلقة بإرضاعه فهي أحق بذلك، وعلى الأب أن يمكنها من أجرة الإرضاع حسب العرف الجاري. وإن أبت وجب على الأب أن يبحث عن ظئر ترضعه، أو يهيئ له الحليب الخاص بالرضّع. وإن امتنعت الأم من إرضاعه ولم يقبل المولود غير أمه وجب عليها أن ترضعه بأجر حسب العرف.

وائتمروا بينكم بمعروف...أمر الله المطلقين والمطلقات بعد الوضع أن يتشاوروا فيما بينهم تشاورا يستجيب للمقبول عرفا بالمسامحة، والترفع عن المماكسة. فلا يشح الأب بإصراره على أن تكون الأجرة زهيدة دون ما هو متعارف، ولا تتعنت المطلقة بطلب أجرة أكثر مما هو معروف.

وإن تعاسرتم...فرض القرآن هذه الصورة وإن كانت غير مرضية، فصورها على أن الأبوين قد اشتد بينهما الخلاف في تقدير الأجرة فأبى المطلق أن يبذل لها ما اقترحت، وأبت هي أن ترضع بدون ما طلبت، فالحل أن يبحث الأب عمن يرضع له ولده. وليس له أن يجبر مطلقته على إرضاع ولده بدون ما طلبت، وإن كان ما طلبته مشطا. وفي قوله فسترضع له أخرى إيماء لمعاتبة الأم المتشددة في ترك ولدها إذا لم يبذل لها الأب ما اقترحته. وهذا من توابع الإنفاق، ومن نسبة الولد لأبيه.

7-لينفق ذو سعة...بعد عسر يسرا.

لينفق ذو سعة من سعته....من وسع الله عليه في الرزق، فإن عليه أن ينفق ما يكفي المنفق عليه من طعام وكسوة وسكن ومتاع مما يحتاج إليه دون سرف. ولا يشح بقصر النفقة على أقل ما يقيم الحياة. وأما من كان رزقه قليلا، ضيقا (قدر عليه رزقه) فالواجب عليه أن ينفق بقدر ما آتاه الله، ولا يكلف فوق طاقته، فمثلا لو كان المنفق عليه من علية القوم كالزوجة إذا كانت من بيت واسع الثراء، وكان الزوج غير ثري فلا يطالب إلا بما هو في حدود رزقه الذي مكنه الله منه. وإن كان قادرا على الاكتساب فعليه أن يعمل ويوفر للمنفق عليه ما هو مطالب به. وإن كان عاجزا عن الاكتساب كانت النفقة واجبة في بيت المال إن وجدت، وعلى الدولة أن توفر للفقراء من رعاياها ما تستقيم به حياتهم.

لا يكلف نفسا إلا ما آتاها... من كان فقيرا معدما لا يجد ما ينفق منه على زوجه فإن الله قد رفع عنه الإثم. ثم إن المرأة بالخيار بين أن تصبر على المقام معه على وضعه الذي هو عليه، وإما أن تطلب طلاقها. وهذا رأي مالك رضي الله عنه.

سيجعل الله بعد عسر يسرا... هذا من الثوابت التي عني بها الإسلام ليقرها في نفوس المؤمنين. هي طرد اليأس، حتى في أشد حالات الحرج والضيق. فعلى المؤمن أن يكون آملا في فضل الله، فمن كان معسرا فلا ييأس وليفتح رجاءه فيما عند الله، فقد قدر أن الحياة لا تدوم على حال، وأن الرزق بيده، ييسّره حسب تقديره لمن يشاء في الوقت الذي يشاء.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

كأين : اسم لعدد كثير غير معين، يفسره الاسم المجرور بمن بعده.

قرية : أهلها.

العتو : تجاوز الحد استكبار وعنادا.

فحاسبناها : عذبناها بكل صغيرة وكبيرة.

عذابا نكرا : عذابا فظيعا يتجاوز ما هو معروف.

فذاقت : أحست أشد الإحساس.

وبال: سوء عاقبة أمرها.

عاقبة الأمر : أخره ومآثره.

بيان المعنى الإجمالي :

انظروا في كتاب التاريخ، يخبركم أن كثيرا من القرى تمرد سكانها، واستكبروا وأعرضوا عما دعاهم إليه أنبياؤهم، رغم ما بذلوه من جهد لإقناعهم باتباع طريق الهدى، فحاسبناهم عن كل كبيرة وصغيرة ؛ الحساب الذي تبعه ما سلطناه عليهم من العذاب الشديد. وكانت نهاية أمرها نكالا فوق ما يتصور. كأنه بلغ من فظاعته أنه ينكر تسلطه. فأحست بالعذاب أبلغ الإحساس بما آل إليه أمرها. وما كان عاقبة أمرها إلا الخسارة الكبرى. فقد أعد الله لهم عذابا شديدا مقدرا تقديرا محكما يتناسب مع ما قدموا.

إنه بعد أن حذرناكم وصورنا لكم عاقبة تلك القرى، فلازموا التقوى يا أصحاب العقول الراشدة. ومن هم أصحاب العقول المستقيمة؟ هم الذين امنوا بالله ورسوله وبما جاءهم من ربهم. إنه قد أنزل الله إليكم القرآن ذكرا يخرجكم من غفلاتكم، هذا القرآن. بعثنا فيكم رسولا، يبلغكم كتابنا كما أنزل. كله أدلة واضحة بينة. يحقق الغاية التي من أجلها أنزل ؛فيخرج الذين نفذ الإيمان إلى أرواحهم وعقولهم، وحرصوا على تطبيق ما أنزل إليهم فالتزموا القيام بصالح الأعمال، والابتعاد عن المناهي، يخرجهم من ظلمات الحيرة والكفر. وينير لهم طريق السلامة والأمن في دنياهم، ويبلغ بهم السعادة الأخروية.

إن كل من يؤمن بالله ويلتزم في حياته الأعمال الصالحة، يدخله ربه في الآخرة جنات تتخللها الأنهار، يتمتعون فيها نعيما أبديا ليس له حد ينتهي إليه. هو الخلود الذي يذهب معه خوف الانقطاع. وما أكرمه وأحسنه من رزق من عند الله

كتاب الكون يشهد أن الله هو الذي خلق السماوات السبع بقوانينها التي تسير عليها، والتي تظهر الحكمة في تركيبها وتسييرها. وكذلك هو الذي خلق الأرض مثل خلقه

للسماوات بنظام محكم دقيق، يعطي كل ذلك للعقل حجة على التدبير المحكم لخالقها سبحانه. ولم يهملها تسير على تلكم القوانين، بل إن رعايته لها تتم في كل لحظة، يتنزل عليها من ربها ما ينتظم به وجودها، وما يحدثه من التأثير والتأثر بين أجزائها. تَأَمُّلُكُمْ في ذلك يفضي بكم إلى العلم والتيقن من أن الله قدير على كل شيء، وأنه نظم الكون تبعا لعلمه الدقيق بكل جزئية في ذاتها وفي صلتها بغيرها وما يترتب على ذلك.

بيان المعنى العام :

8-وكأين من قرية عتت...عذابا نكرا.

قرى كثيرة تتابعت في التاريخ تجبر ساكنوها، واستكبروا، معرضين عن الهدى الذي جاءهم، مصممين على رفض الحق الذي شرعه لهم ربهم.ساخرين من رسل الله الذين اختارهم الله ليبلغوهم رسالاته. فلم يمهلهم الله طويلا وحاسبهم على أعمالهم دقيقها وعظيمها. حرموا من رحمة الله وتجاوزه وكريم عفوه، كان حسابهم حسابا شديدا، يصحب إظهار ما عملوه تقريعُهم وفضحُهم، وسلَّطْنا عليهم عذابا يتجاوز ما هو معروف لعظيم فظاعته.

9-فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا.

لم يكن عذابهم عذابا ظاهريا بل كان عذابا بلغ من قسوته أن إحساسهم به كان أشد ما يكون عليه الإحساس. وذلك لاستعمال ذوق العذاب في أشد أنواع الإحساس بالإيلام. وتحول أمرهم وشأنهم إلى خسران مبين. شبهوا بالتاجر الذي يسعى لتحقيق الربح فيذهب كل تجرِه سدى ولا يجد ما يحسب إلا الخسارة التي أتت على كل ما يملك فغدا صفر اليدين. كانوا يظنون أنهم تغلبوا على الرسل وأن أتباعهم مخلصون لهم. فذهب ما يملكون وهلك معهم الأتباع. والخسارة في الآية تشمل خسران الدنيا بما سلطه الله على تلكم القرى من عذاب كالغرق، والخسف، والرجم، والبلايا التي ما لها من دافع

10- أعد الله لهم...قد أنزل إليكم ذكرا.

هيأ الله لهم عذابا شديدا يلتهمهم جميعا، ولا يضيق بهم (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)[1] لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون سورة الزخرف آية 75 لا يخفف عنهم وهم فيه آيسون. كشفنا عما هيأناه للعتاة المتجبرين الرافضين لهدى الله، كشفنا ذلك لننبهكم ولنرشدكم إلى ما فيه خيركم. فأقبلوا على تقوى الله الجامعة

---

[1] سورة ق اية 30

لكل خير، بتطبيق ما أمرتكم به، واستحضاركم للقرب منه، ومراقبة أعمالكم حتى تكون على وفق الشرع، وخصهم بندائهم بيا أولي الألباب، يا أصحاب العقول الراشدة الذين انتفعوا بما رزقهم الله من قوى الإدراك. فإيمانهم أمارة رجحان عقولهم.

قد أنزل الله إليكم ذكرا... مما يدفعهم إلى التقوى ويحببها إلى نفوسهم ليطمئنوا إليها، أن الله قد أنزل إليكم ذكرا" القرآن " جاءكم من منازل رفيعة، جامعة للشرف. يذكركم ويرفع عنكم الغفلات التي تطوح بكم عن سبيل التقوى، أو تنسيكم العقيدة وما تقتضيه من الاستقامة وحسن السلوك، ويذكركم بما شرعه فيه من الأحكام لتقوموا بأداء ما أمرتم والانتهاء عما نهيتم عنه. والقرآن وإن كان قد أنزل إلى جميع البشر، إلا أن تخصيص المؤمنين أولي الألباب به، لأنهم الذين انتفعوا به. فغيرهم كأنه مهمل غير ملتفت إليه.

11- رسولا يتلو...قد أحسن الله له رزقا.

رسولا بدل مبين لما اشتمل عليه الذكر فالرسالة المنزلة بالقرآن تحققت بمحمد الرسول، والذكر هو الرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذ صرح بما اشتمل عليه الذكر، وهو الرسول كشف عن خاصيته التي يتميز بها وهو أنه يتلو عليكم آيات القرآن التي بلغت من البيان والتأثير المبلغ العالي. ولم يكن ذلكم البيان للاستمتاع ببيانه فقط، ولكن هو مع ذلك المؤثر في العقول والقلوب، يحول المتأملين فيه إلى وضع يرسّخ الإيمان به في أرواحهم وعقولهم، ويحبب إليهم القيام بالأعمال الصالحة فيألفونها. فيتحولون من ظلام التردد والشك والأنانية، والأسئلة المحيرة التي لم يكن ليجد لها الناس لها إجابة، ما هو المبدأ ؟وما هو المصير؟ وإذا هو النور الذي يبدد تلكم الظلمات فيعيش المؤمن مع البشر ومع إخوانه المؤمنين، ومع الكون كله، يتفق معهم في المبدأ والنهاية التي ليست عبثية، موت وعدم. ولكنها حياة يسمو فيها الإنسان ويتنعم بمقدار ما استقام في الحياة، أو ينزل إلى منازل المقت والعذاب.

ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا... ثم التصريح بالعاقبة الرضية لمن آمن وعمل صالحا. فكانت قاعدة عامة مستندة إلى العدالة الإلهية والفضل الرباني :كل من يؤمن بالله فيتطهر من الشرك، ويطبق ما جاءه من ربه فيؤدي ما أمر به على الوجه الذي يرضاه رب العالمين، ويبتعد عما نهي عنه. يدخل كل فرد من هؤلاء جنات تتخللها الأنهار، مع الاطمئنان إلى أن إقامته فيها إقامة دائمة لا تنقطع، فلا يخاف الفناء الذي اتصل بكل نعيم في الدنيا.

وإذ صورت الآية ما ينتظر المؤمن العامل عملا صالحا من تكرمة وفضل، خصته بهذا التعليق : أوضح ما يوصف به أنه رزقٌ لا نقص فيه، ونعيم لا ينغصه شيء، إن الله رزق فأحسن الرزق للمؤمن الصالح.

12-الله الذي خلق...بكل شيء علما.

تكرر الأمر بتقوى الله والتذكير بها من أول السورة، وقد حققنا أن التقوى تتمثل في استحضار الإنسان صلته بالله استحضارا يدفعه إلى الامتثال بفعل الطاعات والابتعاد عن المنهيات. فخيوط الإمداد حاضرة دوما عند المتقي. فجاءت هذه الآية مظهرة لهذه الصلة بإبراز أن الله المُتّقى هو الذي خلق سبع سماوات. هذه السماوات التي نتحد في مشاهدتها، ولكن تفصيل هذا العلم يختلف فيه الناس كثيرا بين من لا تتجاوز معرفته ما تنقله له حاسة البصر. وبين المتخصصين في علم الفلك، والفيزيا، الذين تقرب لهم المناظير ما يخفى على من لا يملك تلكم الآلات، وهي أجهزة تتطور باستمرار وتدقق بصفة متتابعة. وما يزال المجهول أكثر بكثير من المعلوم. كما أن الضوابط الفيزيائية تهدي الناظرين إلى ما خفي عن البصر وعن الآلات. فالسبع سماوات حقيقة أخبر عنها خالق الكون. وذلك يخرج الإنسان من الحيرة عمن خلق هذا الكون، فالله خلقه، وهو العالم العلم الكامل بما خلق. وما تزال المجرات التي ثبتت بواسطة الأجهزة المتطورة، أو ثبتت حسابيا حسب قوانين الكون، تتحدى الإنسان ليواصل البحث ليكتشف بعضا من أسرارها. فالسماوات السبع حقيقة ما تزال غامضة.

ومن الأرض مثلهن...الظاهر أنه خلق من الأرض مثل السماوات. والمماثلة تحتمل مفاهيم من التماثل :

أ -أن الله خلق الأرض مثل خلقه للسماوات، وأجراها على قوانين محكمة تنادي بقدرة الخلاق وعلمه، وحكمته. وأنها لم تخلق عبثا، فهي سائرة سير السماوات إلى أجلها المحدد. قال تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات.)[1] فالمثلية تتنزل على الخلق، وعلى الحكمة في الخلق، وعلى المصير الواحد، وعلى ما يسكب في روح المؤمن بالنظر فيه مزيدا من الإيمان.

ب- أن شكل الكواكب التي تسبح في السماوات شكل كروي أو ما يقرب منه، بينها تجاذب على مقدار مضبوط يحفظها في مساراتها، ويحميها في تلك المسارات من التصادم.

---

[1] سورة إبراهيم آية 46

جـ - أن المماثلة في العدد، فالأرضون سبع. وهذا الاحتمال بعيد في نظري، لمّا كان المقصود بسبع سماوات ما يزال غامضا كما بيناه.

يتنزل الأمر بينهن...يتنزل أمره، وحكمته في تسييرها، وفي ما يترتب على وضع كل منها بالنسبة لغيره وما يترتب على ذلكم الوضع من التطورات التي تحدث في كيانها، وما يترتب على ذلك أيضا من الآثار في غيرها. فلا يحدث شيء في السماوات ولا في الأرض إلا حسب ما قدره الله ونفذه.

لتعلموا أن الله على كل شيء قدير....كتاب الكون ينطق كل حرف من حروفه بما يفيد الإنسان علما بالقدرة التي تنفذ في كل جزء من أجزاء هذا الكون، وأن المسيّر للعوالم هو الله، يسيرها لا على حسب المصادفة، ولكن حسب العلم الدقيق الذي لا يخفى عليه الأثر القريب ولا الأثر البعيد.

سورة التحريم

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. لما تضمنته من التحريم الذي سئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم سؤال عتاب. وروي تسميتها أيضا " ألم تحرم " أخذا من نص الآية الأولى. وهي سورة مدنية باتفاق.ورتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والستون. وحسب ترتيب النزول الخامسة بعد المائة. نزلت قبل سورة الجمعة، وبعد سورة الحجرات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

فرض: بين وعين.

مولاكم : الناصر، والرؤوف الميسر.

تحلة : التحلل من اليمين.

أسر : جعل المخاطب ذا سر له يخبره بما لا يريد إفشاءه.

صغت : مالت إلى الرشد.

التوبة : الإقلاع عن الذنب والندم عليه، والعزم على عدم العودة.

تظاهرا : تتعاونا عليه.

صالح : الفريق الصالح. المطهرون من النفاق.

بعد ذلك : مع ذلك.

ظهير : مؤيد ومعاون.

سائحات: يسرعن للتوبة لقوة يقظة أرواحهن.

بيان المعنى الاجمالي :

نداء يجلب المنادى النبي محمدا ﷺ للإقبال على ما سيرد عليه. هو سؤال يتضمن عتابا، لماذا تحرم على نفسك شيئا أحله الله لك. فإن الله إذا وسّع على عبده يكون من واجب العبد شكر المنعم على نعمته لا رفضها رفضا قاطعا. ولا يبطئ القرآن بإبراز السبب الدافع لهذا التحريم، وهو أنه ﷺ يبتغي من ذلك أن يرضي بعض أزواجه، ليكون هدوء البيت أعون له على القيام بمهمته. ثم رفع كل أثر لهذا العتاب بالتذكير بأن الله متصف بالمغفرة الماحية للتقصير، وأنه يرحم عباده فلا ينزل بهم عن مقامهم الذي كانوا عليه قبل مغفرته.

واذكر مصرحا بما أومأنا إليه في الآيتين السابقتين : تلك الظرف الذي خص فيه حفصة بحديث: أنه حرم مارية القبطية أم ولده إبراهيم. وأمرها أن لا تخبر بذلك أحدا. أسرعت حفصة إلى عائشة تخبرها بالسر الذي أودعته.ويأتي الوحي من الله يطلع النبي ﷺ على إفشاء السر. فدعا حفصة ولا مها على ما أعلمت به صديقتها عائشة.وصرح لها بشيء من دقائق ما أخبرت به.تحيرت كيف اطلع خاصة وأنها لا تشك أن الحديث دار بينها وبين عائشة، وأن عائشة لا يُتصوّرُ أن تخبره به.فسألت مدهوشة :من أنبأك بذلك ؟ كان الجواب حازما : نبأني العليم بكل شيء الذي لا يخفى عليه سر ولا جهر. الذي تستوي عنده الظواهر والبواطن.

بعد هذا اللوم دعاهما [حفصة وعائشة]القرآنُ للتوبة الخالصة لله من سلوكهما مع الرسول، وأنهما إن تابتا توبة نصوحا قبلت توبتهما، وتكون قلوبهما قد مالت إلى الطريق الراشد. ثم حذرهما بأنهما إن واصلتا التألب عليه وتقديم غيرتهما وتحزبهما، فإنهما لا تضُرّان رسوله شيئا، وكيدهما محبط لأن الله ناصر رسوله، وجبريل عليه السلام يبلغه ما يحيك خلفه. والمؤمنون الصالحون ملتفون حوله يؤيدونه. وملائكة السماء معه يقوونه.ثم حذرهن من أنهن إن واصلن ما هن عليه من التحزب، أن يضيق صدره بهن، فيأذن الله له في طلاقكن، وأن ييسر له التزوج من نساء خير منكن، يجمعن بين صفات الكمال التالية : يكن مسلمات لله ولرسوله، عقيدتهن على أنقى ما يمكن من الصلاح، مطيعات لله ولرسوله، يسرعن إلى التوبة

لشدة يقظتهن، يتعلقن بالعبادة أشد التعلق، لهن شرف الهجرة، من الأبكار ومن الثيبات.

بيان المعنى العام :

مقـــــدمة

روى البخاري بسنده في سورة التحريم وفي باب الطلاق عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلا، فتواصيت أنا وحفصة : أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له: إني لأجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال : لا بأس، شربت عسلا عند زينب ابنة جحش ولن أعود له. فنزلت - يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك- إلى إن تتوبا إلى الله - لعائشة وحفصة. وذكر ابن حجر أن في رواية هشام، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا. كما ذكر عن عائشة : أن نساء النبي كن حزبين : أنا وسودة وحفصة وصفية في حزب، وزينب ابنة جحش وأم سلمة والباقيات في حزب. وهو ما يرجح أن زينب هي صاحبة العسل.- وذكر ابن قتيبة أن المغافير جمع مُغْفور. والمغفور صمغ حلو، له رائحة كريهة. [1]- كما روي بسند ضعيف أن النبي ﷺ اختلى بسُرِّيّته مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها وكانت حفصة غائبة إلى بيت أبيها فقالت : ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فقال لها : لا تذكري هذا لعائشة فهي علي حرام إن قربتها.قيل : فقالت حفصة : كيف تُحَرِّمُ عليك وهي جاريتك ؟فحلف لها ألا يقربها فذكرَتْهُ حفصة لعائشة فآلى (حلف على عدم قربان نسائه)شهرا فأنزل الله تعالى : يا أيها النبي لم تحرم...

1-يا أيها النبي لم تحرم...غفور رحيم.

افتتحت الآية بتوجه النداء إلى النبي ﷺ ، الذي يدل على أن ما سيعقب النداء يتعلق به أولا. وكان مضمون النداء سؤالا فيه عتاب تلطف القرآن في توجيه العتاب لرسوله، كما تلطف في عتابه لمّا أذن للمستأذنين بالتخلف في قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم[2]) يقول الله لنبيه لم؟ لمّا كان لا يوجد مبرر لتحريم ما حرمت على نفسك فلماذا حرمت ؟ وما روي في أسباب النزول يفسر ما حدث. فحسبما رواه البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت ذكية جدا، ولها من

---

[1] فتح الباري ج 11ص293/297

[2] سورة التوبة آية 43

قلب رسول الله ﷺ مكانة لا يدانيها فيها أي من أزواجه، وكانت زعيمة الشق المناوئ لزينب ابنة جحش، التي كانت تدانيها في الجمال. وعلمت عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشرب عند زينب عسلا، فحملتها الغيرة منها أن تتآمر مع الشق الذي هو من حزبها لتبغض إلى النبي ﷺ معاودة تناول ما كان يشربه في بيت زينب، وهي تعلم أن النبي ﷺ حريص على أن يكون طيب الرائحة، فأمرت نساء النبي اللاتي كن من حزبها، أن ينكرن رائحته إذا دنا منهن، وأنه عندما يجيبهن أنه ما شرب إلا عسلا، يقلن له : لعل النحل رعت العرفط وهو صمغ حلو ثقيل الريح يتأثر عسل النحل التي ترعى منه برائحته. فحرم النبي ﷺ تناوله في المستقبل. ولما دخل بيت زينب رضي الله عنها قالت له: ألا نسقيك من العسل ؟ فقال: لا حاجة لي به. قالت سودة لما بلغها امتناعه : والله لقد حرمناه. فقالت لها عائشة : اسكتي !

الحادثة التي سجلها القرآن تفيد أن نساء النبي ﷺ كن حسب الطبيعة البشرية يغرن عليه، وتود كل منهن أن تستأثر به دون صويحباتها. وبلغت الغيرة إلى المؤامرة التي رويت تفاصيلها على صورتين. كان النبي ﷺ بشرا سما به رب العزة إلى أن يكون رسولا دون أن يحوله إلى جنس آخر غير البشر. ومما يساعده على القيام بمهمته في الهداية الطمأنينة العائلية. فبمجرد ما وجد أن شربه العسل ببيت زينب قد أحدث مشكلة، رغم أنه أراد أن يهدئ الجو بتحريمه العسل. وأن الحزبين قد تأجج الخلاف بينهما، فآلى منهن جميعا عقابا لهن حتى يقمن بدورهن في مساعدته على نشر الإسلام، ولا يصرف وقته وجهده في خصوماتهن الناشئة عن الغيرة.

هذا الاجتهاد منه في تحريم الانتفاع بما أحله الله له، وليس تحريما لحلال تغييرا لحكم الله، ولكنه امتناع مؤكد بيمين، هو ما عاتبه الله عليه عتابا لطيفا، وقرن بالعتاب تسجيل العذر الحامل عليه "تبتغي مرضاة أزواجك" وثلث بالتذكير بأن الله غفور يمحو ما وقع فيه المكلف من تجاوز، رحيم بعباده فلا يخرجهم من دائرة القرب لاجتهاد يقصر عن مرتبة الكمال.

2- قد فرض الله لكم...وهو العليم الحكيم.

لما كان النبي ﷺ التزم الامتناع عما حلف عليه تعظيما لليمين وبرا بقسمه، أو للعهد الذي صرح به،فقد ذكره ربه بأنه قد أثبت وبين : أن المؤمن إذا حلف ووجد نفسه في حرج من اليمين، فإنه يمكنه التحلل من يمينه بالكفارة. إذ الكفارة مظهرة أن الحالف مقدر لليمين ملتزم بالوفاء، وأن الذي حرج اليمين هو الذي شرع الكفارة التي بإخراجها يكون الحالف في حل من الالتزام، كما شرع سبحانه الاستثناء من

اليمين، بقول الحالف عقب يمينه " إن شاء الله "وبالاستثناء يكون الحالف كأنه لم يحلف. فأعلمه ربه أن التكفير رخصة محققة لتعظيم القسم، وفيها تيسير على المؤمنين. ذلك أن الله هو المتولي تدبير أموركم وناصركم، وهو الذي يفسح لكم من سعة فضله ما يخرجكم من المضائق موفري التقوى والورع. وهو سبحانه العليم الذي يعلم ما يصلحكم فيشرع لكم ويسلك بكم بحكمته ما هو خير لكم في الحاضر والمآل، مراعيا الحق لا الأوهام والخيالات.

3- وإذ أسر النبي...نبأني العليم الخبير.

هذه الآية تفصل مصرحة بما أشارت إليه الآية السابقة، لم تحرم ما أحل الله لك، فلنتابع هذا التفصيل كما جاء في هذه الآية كلمة كلمة.

وإذ أسر النبي : واذكر ما حدث عندما أخبر النبي ﷺ ، موصيا المخبر بالكتمان لما حدثه به. ومَنْ حدّث آخر مع إعلامه بأنه سر، لا يكشف ما سمعه، فلا يحل له أن يكشف عنه، إذا كان السر لا يترتب عن كتمانه ضرر بالمجتمع كبير. وقد يفهم من طريقة الإخبار أنه سر، كأن يتحدث بصوت خافت، ويغلق الباب، أو يلتفت يمنة ويسرة عند الإخبار.

إلى بعض أزواجه : هذا البعض كما ثبت بالسنة هي زوجه حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵂ ، وكانت من حزب عائشة كما ذكر سابقا. ولم يصرح باسمها لأن مغزى القصة لا يتوقف على معرفة عين المفشية. وأبرزت في القصة في موقع الملام لإفشائها سر زوجها. وفي ذلك تأديب لنساء المؤمنين ليحافظْن على سر أزواجهن، إذ هن موضع سرهم، ويطلعن على ما لا يطلع عليه غيرهن.

حديثًا: المراد بالحديث: كلاما : وهو أنه حرم على نفسه قربان سُرّيّته وأم ولده إبراهيم، مارية القبطية.

فلما نبأت به وأظهره الله عليه – لم تحفظ حفصة سر النبي ﷺ فأخبرت به عائشة، على ما كان بينهما من التناصر والتحزب. وأخبر الله رسوله تبعا لعنايته الموصولة، فكشف له أن السر المكتتم قد أفضت به حفصة إلى عائشة.

عرف بعضه وأعرض عن بعض : كان موقف النبي ﷺ بعد أن كشفت حفصة سره، أن أوقف حفصة على ما بعض ما عرفه الله به مما دار بينها وبين عائشة. إذ تواصل التآمر في بيته وبين نسائه، مما يذهب براحة الملجأ الذي يلجأ إليه رسول الله ﷺ ، ويحوله إلى مشاكل ونزاعات ويوقد نار الفتنة. عرفها ببعض دقائق ما قالت، وأعرض عن تعريفها بكل ما دار بينهما تكرُّما منه ﷺ، حتى لا يجعل تأديبها

تقريعا، وهو ما يجري على سمو خلقه ﷺ . قال سفيان الثوري : ما زال التغافل من فعل الكرام. وقال الحسن البصري : ما استقصى كريم قط.

قالت من أنبأك هذا - انزعجت حفصة وقد فهمت من بعض دقائق الخبر أن ما دار من حديث بينهما علم به النبي ﷺ مفصّلا، واستغربت أن يعلم به إذ ما دار بينهما وبين عائشة لا يتصور أن تفضي به عائشة إلى النبي ﷺ ، وبمواجهتها بإفشاء السر بطريقة لا يمكنها أن تعتذر عنه بشيء، وتيقظت إلى أن ما أقدمت عليه فيه تقديم لعواطفها وإخلاصها لصديقتها على واجب حفظ أسرار رسول الله ﷺ ، خاصة وقد أوصاها بالكتمان. فلم تجد إلا أن قالت له: من أنبأك بذلك؟

قال نبأني العليم الخبير - أتى الجواب قاطعا، ومفضيا إلى ما عمل رسول الله على الوصول إليه. وهو أن يعلمها ويعلم كافة نسائه، أنه بمنزلة من ربه يطلعه على ما يجري في السر بين نسائه، فليَهِنَّ ذلك وينكففن عن متابعة غيرتهن وعواطفهن؛ فإن حياتهن تحت رعايته ﷺ هي أفضل رعاية. وفي تذكيرهن بأن الذي أعلمه هو العليم الخبير دون أن يقول: الله ، إيماء إلى أن الذي يُعلمُه هو العليم بكل شيء الذي وسع علمه السر والجهر. والخبير الذي يعلم البواطن والظواهر معرفة سواء. وإنه كما جاء في قوله تعالى: (**عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول**)[1]

4- إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما...بعد ذلك ظهير.

أعقب القرآن تسجيل تجاوزهما لواجب مساعدة الرسول على محض نشاطه للدعوة، وتقديم غيرتهن وما يقتضيه التحزب على المهمة النبيلة التي تيسرت لحفصة وعائشة أن كانتا تعيشان زوجين لنبي الرحمة، فدعتهما الآية من طرف خفي أن تقلعا على ما كانتا عليه، وأن تبادرا إلى التوبة بالندم على ما كانتا عليه، والعزم على سلوك جديد يوفر للنبي ﷺ السكن والراحة في بيت النبوة.وأن الله يقبل توبتهما لأن قلوبهما قد مالت إلى الخير، ورعَي حق النبي صلى الله عليه من حسن المعاشرة.

وإن تظاهرا عليه - وفي المقابل إن تصرّا على العود إلى التألب عليه، والجري على ما يقتضيه التحزب، وتقديم عواطفكما على حسن المعاشرة، فاعلما أن الله ناصر عبده محبط ما تتآمران به، كاشفه لرسوله. وأن نصرته عزيمة من عزائمه تعالى يسعى كل الصالحين لتنفيذها. جبريل أمين الوحي ينقل له عن رب العزة ما

---

[1] سورة الجن آية 27

يجري خلفه في السر. والصالحون من المؤمنين الذين يعرفون مقام رسولهم، يؤيدونه ويقفون معه، ويؤانسونه ويعينونه على أداء مهمته الشريفة. وملائكة الله مع ذلك يد واحدة على من يعاديه، أو يشوش عليه حياته. وفي هذا السرد المتتابع ما يدل على مقام النبي ﷺ عند ربه، وإدراك أفضل المخلوقات لهذه المنزلة، فهم لا يُسلمونه لمن يريد أن ينغص عليه حياته التي أقسم بها رب العزة لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون وتوجه له الخطاب من الله بقوله : (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)[1] فإنك بمحل العناية منا ترقب أحوالك صغيرها وكبيرها، كما يوحي به لفظ أعين جمعا.

5- عسى ربه إن طلقكن...ثيبات وأبكارا.

تحذير شديد لحفصة وعائشة ولبقية أزواجه ﷺ من أن يضيق صدره صلى الله عليه وسلم من مؤامراتهن فنأذن له في طلاقكن فيطلقكن.

عسى ربه إن طلقكن... زجر قوي لهن أنه من الاحتمال القريب، أن يأذن له ربه في طلاقكن، وأن يهيء له بعد فراقكن أزواجا تستقر حياته معهن. ليستيقظن من التهاون بالطمأنينة التي يتحتم أن يجدها النبي ﷺ في بيته، فإنها أمر مرعي من الله. وليُتفطَّنَ إلى أنه من الممكن أن يأذنه الله في طلاقكن، وأن يبدله منكن نساء يبلغن قمة الفضل إذا تزوجهن يكنّ خيرا منكن. إن ميزتكن على بقية نساء المؤمنين هو بما يسره الله لكن أن كنتن نساء له مقامكن مقام أمهات المؤمنين. والله ييسر لمحمد رسوله أزواجا خيرا منكن يجمعن بين الصفات التالية:

1) مسلمات، الإسلام والطاعة لما يشرعه رب العالمين.

2) مؤمنات، والإيمان فتكون عقولهن قد صفت من كل شك، وأنست باليقين في العقيدة الحق.

3) قانتات، قائمات بالطاعة على أكمل وجه وأحسنه وأتمه، لا يشغلهن شيء عن الإخلاص في الطاعة .

4) تائبات، يقظتهن لحساب أنفسهن قوية يسرعن بالتوبة إذا ما بدا لهن تقصير في جنب الله .

5)عابدات، تحلين بعمق الإحساس بالعبودية لله .

6) سائحات، يمكن أن يراد بها مهاجرات، لأن للمهاجرات الفضل في الإسلام على غيرهن ممن لم يهاجرن، وكل أزواجه ﷺ مهاجرات. فلو أبدله ربه بعد طلاقهن

[1] سورة الطور آية 48

فسييسر له أزواجا مهاجرات. ويمكن أن يفهم سائحات على معنى صائمات، يتقربن إلى ربهن بكثرة الصيام.

7) ثيبات وأبكارا. الثيب هي التي تزوجت وذهبت بكارتها، والبكر التي ما تزال بكارتها لم تفتض. وكانت عائشة الوحيدة التي تزوجها بكرا، وبقية نسائه ﷺ تزوجهن ثيبات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

غلاظ: قساة.

شداد : الشدة القوة على تنفيذ ما أمروا به في عذاب أهل النار.

لا تعتذروا : لا تتكلفوا تقديم الأعذار.

نصوحا : توبة مخلصة لا تردد فيها، مع العزم على عدم العودة.

الخزي : المكروه الذي يدع الإنسان خجلا وأشده دخول جهنم.

واغلظ عليهم : عاملهم بالشدة.

المأوى : المسكن.

بيان المعنى الإجمالي :

النداء الأول في الآيات المفتتحة بيا أيها، هو نداء موجه للمؤمنين ينبههم إلى وقاية أنفسهم وأهليهم من عذاب نار عظيمة. وقودها الناس فيعذبون بها وتحمى بهم، كما تحمى بالحجارة التي تتفجر فيحدث انفجارها نارا حرها فوق ما يتصور. أوكل الله

بها ملائكة قساة، أشداء في تنفيذ ما أوكل إليهم، لا يعصون الله في تنفيذ أمره، ويسارعون إلى تطبيقه.

وينادى الكفرة وهم يتقلبون في النار فيقول لهم ملائكة العذاب : لا تتكلفوا البحث عن عذر يخفف عنكم ما فعلتم في دنياكم، هو مكشوف ظاهره وباطنه عند الله، يجزيكم عما كنتم تفعلون في الدنيا.

والنداء الثالث موجه للمؤمنين، يخاطبهم الله داعيا لهم أن يسرعوا بالتوبة عما ارتكبوه من المعاصي، وأن يعودوا إلى طريق الاستقامة تصحبهم الندامة عما قدموا من آثام، عازمين على عدم التلوث بها من جديد، مطهرين أنفسهم من التعلق بما زينته لهم شهواتهم. إن الله كريم، ترجون بتوبتكم أن يمحو عنكم سيئاتكم، ويدخلكم جنات تتخللها الأنهار. في اليوم الذي يكرم فيه الله النبي والذين ثبتوا على الإيمان معه. يخصهم ربهم في ذلك اليوم بنور يسعى أمامهم وعن أيمانهم. يبلغ إحساسهم بالسعادة حدا يبتهلون معه إلى الله أن يتم عليه التنعم بهذا النور. وأن يستر عليهم ما ارتكبوه من تقصير في الدنيا حتى تكون صحائفهم نقية من أثر أي إثم. إنك الله سبحانك وحدك القادر على تحقيق دعائنا.

ونداء رابع موجه إلى النبي ﷺ يعرفه الله أنه مأمور بجهاد الكافرين والمنافقين جهادا شديدا. وفي هذا الإعلان ما يرعب الكافرين، يعلمهم أن النبي ﷺ سيعاملهم بما يقطع مؤامراتهم وإيذاءهم للمسلمين، كما يرعب المنافقين حتى يقلعوا عن الجوسسة ونقل أخبار المدينة إليهم. وأن الله سيفضحهم لرسوله إن واصلوا خبثهم. وأوعد الفريقين أن جهنم مسكنهم المعد لهم يوم القيامة ؛ وما أسوأه مسكنا.

بيان المعنى العام :

6-يا أيها الذين آمنوا قوا...ويفعلون ما يؤمرون.

نداءات أربعة تتابعت في الآيات التالية :

النداء الأول توجه إلى الذين آمنوا يعظهم ويذكرهم بأن يعملوا على وقاية أنفسهم، ووقاية أهليهم من عذاب النار. فلا يتراخوا في طاعة الله بترك الواجبات أو اقتحام ما نهى عنه. وأن يحسنوا القيام على تربية أولادهم ومن يتبعهم على الطاعة لله ولرسوله، ليكون الامتثال وقاية لهم من النار. وهو ما يرد ردا صريحا على من ذهب إلى أنه لا يضر مع الإيمان معصية.

وقودها الناس والحجارة... تذكير بطبيعة النار العظيمة التي حذرهم منها، أن وقودها الناس والحجارة، الناس يتعذبون بإحراقها لهم، والحجارة تبعث بنار أشد ما يكون حرارة، وفيما وصلت إليه الاكتشافات الحديثة من انبعاث نار شديدة من

انفجار نواة حجارة الأورانيوم، ما يقوم شاهدا على أن القرآن من عند الله وهو من الإعجاز العلمي في القرآن. فما كان الناس يتصورون وقت نزول الآية أن الحجارة تنبعث من انفجار نواة الأورانيوم نارا مهولة في حرارتها تفوق كل تصور.

عليها ملائكة غلاظ شداد – مع كون النار شديدة الحرارة يعذب بها البشر الذين لم يقوا أنفسهم وأهليهم حر نارها، فإن من يدخلها لا مفر له ولا يستطيع الخروج منها. إذ وكل الله بسكانها ملائكة قساة كأشد ما تكون القسوة، لا يلينون لاستغاثة أصحاب النار. وأعطاهم الله القوة الشديدة التي يستطيعون بها معاملة أهل النار أسوأ معاملة.

لا يعصون الله... أوكل الله لملائكة النار تعذيب داخليها، فلا يدور بخلدهم أن يتراخوا فيما أمروا به، وهم كأحرص ما يكون على تنفيذ ما أوكل إليهم. والجملة المنفية " لا يعصون الله ما أمرهم " والجملة المثبتة " ويفعلون ما يؤمرون " مفهومهما واحد، فأفادتا تأكيد مضمونيهما، مع الإفصاح عن الطاعة وعدم العصيان.

7-يا أيها الذين كفروا...ما كنتم تعملون.

النداء الثاني نداء من الملائكة الموكلين بجهنم الغلاظ الشداد، للمعذبين فيها يقولون لهم ما يدخل في قلوبهم اليأس من أي حيلة للخروج من النار: لا تحاولوا الاعتذار اليوم، لأن كل ما قدمتم مسجل بصفة مضبوطة في اللحظة التي عصيتم فيها، مكشوف ظاهره وباطنه. وجزاؤكم على وزان ما كنتم تعملون في الدنيا. لم يظلمكم الله شيئا.

8-يا أيها الذين آمنوا توبوا...على كل شيء قدير.

النداء الثالث نداء يلتقي مع النداء الأول، فإذا كان النداء الأول يدعوهم إلى وقاية أنفسهم مما يفضي بها إلى دخول النار، فيحمون أنفسهم من الكفر ومن ارتكاب المعاصي، فإن هذا النداء يعالج أوضاعهم بعد تجاوزهم لحدود الله وارتكابهم للمعاصي. يدعوهم إلى الإسراع بالتوبة النصوح، وهي التوبة التي يكون التائب فيها جامعا لشروط التوبة التي يرجى معها التجاوز عن ذنوبه. روي عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه سمع أعرابيا يقول: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك فقال: يا هذا، إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين. قال: وما التوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء:

1)على الماضي من الذنوب الندامة.

2) وللفرائض الإعادة.

3) ورد المظالم.

4) واستحلال الخصوم.

5) وأن تعزم على أن لا تعود.

6) وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي.

ويقوم مقام رد المظالم استحلال المظلوم حتى يعفو. ويُجْمِع العلماء على أن التوبة من الكفر مقبولة عند الله. وأما التوبة من المعاصي، فالذي عليه جمهور أهل السنة أن قبول التوبة مرجو رجاء مؤكدا. وعن الإمام الأشعري أن قبول التوبة الصادقة مقطوع به سمعا. وعن المعتزلة أنه مقطوع به عقلا.

عسى الله أن يعفو عنهم... إن التائب على باب الرجاء في قبول توبته، ومحو السيئات التي تاب منها، وهدايته إلى الاستقامة فيما يستقبل من أمره. وبقاؤه على هذا المستوى من زكاء النفس ومراقبة الله في أعماله تدعو تيقظا ومواصلة. فعفو الله عنه مرجو الحصول، فليحذر من العودة إلى الإثم الذي تاب منه. والتوبة لا ترفع الواقع، فالتائب قد حصل منه التجاوز بلا شك، فإذا استيقظ وطهّر نفسه بالندم، فإن الله بفضله يمحو عنه ما فعله من الإثم.وبتطهيره من الآثام التي تاب منها، وحرصه على الاستقامة فيما يستقبل من أمره، ينضم إلى المرضيِّ عنهم من الرب الكريم، فيدخل التائبين مع الصالحين جنات تتخللها الأنهار.

يوم لا يخزي الله النبي... إن دخول الجنات الجارية الأنهار من تحتها سيتم في اليوم الذي يكرم الله رسوله بالجزاء العظيم، ويكون موقفه موقف الشرف والتقديم، فيبعد عن الرسول وعن المؤمنين الذين ثبتوا معه على التوحيد والتقوى، يبعد عنهم مواقف الذل والمهانة وما يتبعها من الزج في جهنم.

نورهم يسعى... ثم أردفت الآية نوعا آخر من التكريم يختص به الرسول والذين ثبتوا على الإيمان معه، هو أن الله يعطيهم من فضله نورا واضحا يشع أمامهم وعن أيمانهم، فترى مواكبهم وهي سائرة إلى منازلهم ينبعث أمامها نور وعن أيمانهم نور. هل هذا النور هو النور الذي يسعف به الصالحين على الصراط، أو هو نور يسعفهم به في الموقف. على الحالتين يصحب النور والضياء الشعور بالأمن، والسير على هدى. ولذلك يعبرون عن غبطتهم بوضعه الذي هم عليه بالابتهال إلى الله أن يواصل عليهم نعمة النور هذه باتساعها ومضاعفتها. كما يسألون أن يديم عليهم ما أكرمهم به أيضا من غفران ذنوبهم ومحو آثارها محوا لا رجوع بعده. وهو من أدبهم مع الله، باعترافهم أن محو جميع ذنوبهم هو من فضله، فهم يدعونه أن يواصل فضله عليهم، على أنه أمارة عن الرضوان، ورضوان من

الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم. ويختمون ابتهالاتهم باعترافهم بأن غفران ذنوبهم وتجاوزه عن تقصيرهم أمر عظيم، والله قادر على كل شيء لا يعظم لديه شيء.

9-يا أيها النبي جاهد...وبئس المصير.

النداء الرابع : موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره رئيس الدولة، والقائم على حمايتها. يتضمن أمرا من الله بأن لا يلين مع الكافرين والمنافقين الذين تساندوا لإذاية المسلمين، وتألبوا على المكر بالمسلمين. الكافرون بما يعدون له من غارات على المدينة، ومن فتنة المؤمنين الباقين في مكة، والمنافقون بالتجسس على المسلمين وهم يعيشون بين أظهرهم مُخفين عداءهم، وينقلون إلى الكفار ما يعينهم على تنفيذ مخططاتهم. فألقى هذا الأمر الرعب في قلوب الكافرين، وعلموا أن الله أذن لرسوله بقتالهم قتالا يُغلظ عليهم فيه، وعلم المنافقون أن الله سيكشفهم لرسوله، فيقلعوا عن الدس والتجسس، ويوفوا بالعقود التي عقدها معهم النبي صلى الله عليه وسلم. وأضاف إلى الوعيد الدنيوي الوعيد الأخروي، وأن جهنم هي الدار التي سينقلبون إليها يوم القيامة. وما أسوأه من مصير، وما أخزاها عاقبة.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

خانتاهما : بإسرار الكفر. وهو النفاق.

تحت : في عصمة.

القنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع.

بيان المعنى الإجمالي :

ضرب القرآن مثلا أولا :عرض فيه امرأة الرسول الكريم نوح ﷺ ، وامرأة لوط عليه السلام، كل واحدة منهما انطوت على نفاق وفرغت من الإخلاص لزوجها

وللدين الذي يدعو إليه. رغم أنهما عليهما السلام كانا يحسنان عشرتهما، لوصفهما بالصلاح زيادة على النبوة. فاستحقت كل واحدة منهما الجزاء الذي يناسب الخيانة الحاصلة منها، ولم تفدهما صلة الزوجية شيئا. وتحقق خسرانهما يوم القيامة ويقول لهما الملائكة الموكلون بعذاب الكفرة: ادخلا النار مع الداخلين ليست لكما أي مزية تفرق بينكما وبين بقية الكفرة المهانين المعذبين. وفي هذا المثل ما يقطع أمال الكافرين من قريش أنهم مكرمون عند الله لانتسابهم لإبراهيم ﷺ ولقيامهم على البيت الحرام. وما يقطع آمال اليهود في النجاة لكونهم من ذرية يعقوب إسرائيل. فعداوتهم لدين الإسلام، وتكذيبهم لمحمد عليه الصلاة والسلام يسويهم بالكفرة الآخرين.

قرب الله للمخاطبين ما يزيد صورة الإيمان والكفر وعاقبتهما تألقا وجلاء. فضرب الله مثلا للمشركين الذين صورت لهم خيالاتهم الباطلة أنهم ناجون لانتسابهم إلى إبراهيم، ولكونهم سدنة البيت. ولليهود الذين صور لهم ربانيوهم وأحبارهم أنهم ناجون لأنهم من نسل يعقوب إسرائيل. ضرب لهم مثلا بامرأتين كانت صلة كل منهما أمتن الصلات، الأولى بالرسول الصالح نوح ﷺ وهي امرأته، والثانية بلوط الرسول الصالح وهي زوجه. ولم تخلصا لدين الله وانطوتا على نفاق. فأكبهما الله في النار ولم ينتفعا بالصلة الحميمة. وأعلن على الملأ ما يخزيهما: ادخلا النار مع الكفرة والعصاة، ليس لكما أي فضل عليهم.

وضرب الله مثلا للمؤمنين ليستحثهم على الصبر على الإيمان وعلى ملازمة الطهر، امرأتين صالحتين. الأولى آسية امرأة فرعون التي رفضت إغراءات النعيم والسلطة وفضلت عليه الإيمان برسالة موسى ﷺ، وصبرت متحدية تعذيب فرعون مبتهلة إلى الله أن يبني لها بيتا في الجنة مع قربها من عزته، وأن ينجيها من فرعون ومن تصرفاته الفاسدة، ومن زبانيته الظلمة المستبدين. وهو مثل للصبر على الإيمان وتغليب ما عند الله على مغريات الحياة الدنيا.

والمثل الثاني مريم ابنة عمران، التي كانت مثالا عاليا في الطهر، وفي لزوم العبادة مع الإخلاص التام. ولم يصل إليها أي ذكر. وأن الله جازاها على ذلك فجعلها أما لرسول كريم مظهرا للمعجزة، إذ تكون جنينها " عيسى" بدون حيوان منوي، وبعث الله لها جبريل لينفخ في فرجها من روح الله ما كون فيها مستودعا لحمل نبوي وإرث تشريع موسى، ومخففا لبعض ما فيه من الشدة المناسبة لإصلاح بني إسرائيل في عهد موسى. وكان يقينها على مستوى رفيع جدا، إذ آمنت بكل ما أنزله الله من الهدى لإصلاح البشرية من الوحي، والصحف، والكتب.

بيان المعنى العام :

10-ضرب الله مثلا...مع الداخلين.

ضَرْبُ المثل طريقة في تقريب المعاني البعيدة، بوصلها بصورة قريبة تشبهها فيقتنع السامع بناء على ذلك التشابه من التعرض لمثل ما وقع التعرض له في المثل. والمثل هنا هو أن امرأة نوح، وامرأة لوط كانتا في عصمة رسولين كريمين مقربين من الله، وقدمتا الوفاء للكافرين على الوفاء لزوجيهما نوح ولوط. فاستحقتا العقاب على وزان ما فعلا. ولم يصرف عنهما العذابَ الصلةُ الوثيقة التي كانت بين كل واحدة منهما وبين زوجها. وهذا المثل ينفي خيالات كان قادة الكفر يروجون لها، فيُؤثِّرون بها على الدهماء، أنهم لانتسابهم لإبراهيم، ولكونهم سدنة بيت الله والقائمين على المناسك التي أراها الله لإبراهيم سيكونون يوم القيامة، الذي يخوفهم به القرآن، سيكونون من الفائزين. كما يتوجه المثل إلى اليهود الذين يزعمون أن انتسابهم لإبراهيم ويعقوب يحقق لهم منازل الكرامة في الآخرة. فهذا المثل الذي يكشف أن الرسولين الكريمين لم تفد صلة الزوجية لزوجتيهما أي فائدة ولو كانت قليلة، هو مما يقمع آمال الكافرين في النجاة.

وقيل ادخلا النار مع الداخلين : يتوجه خطاب الخزي لهما يوم القيامة، وتتبخر آمالهما في الانتفاع بصلتهما بنوح وبلوط. فيقال لهما : إذلالا، وتنفيذا للمآل الذي كتب لهما: **ادخلا النار مع الداخلين** لها، مجللتين بالصغار والذل.

11 -12، وضرب الله مثلا...وكانت من القانتين.

أتبع القرآن المثل المضروب للكفرة الباعث في قلوبهم اليأس من النجاة، والمحقق أن مآلهم جهنم، أتبعه بمثل يلقي بظلاله الندية في قلوب المؤمنين، ويُرَغِّبُ بعد أن أرْهب.

المثل الأول تذكير بالمرأة الصالحة، زوج فرعون الذي طلب منه موسى أن يمكنه من بني إسرائيل ليخرجهم من مصر. وهو مثل للصبر على البلاء صبر التحدي لا صبر الاستسلام. وهو الصبر الذي يهدف القرآن إلى غرسه في قلوب المؤمنين، فهذه امرأة فرعون تعيش في قصوره مخدومة موقرة من الكبراء ومن رجال الدولة، لا ينقصها شيء من الرفاه والنعيم، تسمع بدعوة موسى فينشرح قلبها للإيمان انشراحا جعلها تؤمن بأن العيش مع فرعون الكافر هو نكد العيش، وأعلنت لفرعون رغبتها عنه، وتحدته مما أهاجه، وسلط عليها بطشه. ولم يفصل القرآن صنوف العذاب من فرعون المستبد، ولكن دعاءها يوحي بأنها وصلت إلى مستوى

قطعت فيه آمالها من الدنيا فتوجهت إلى ربها داعية : أن يبني لها بيتا في الجنة تجد فيه رضاه، وتكون قريبة منه، هي حريصة أن يكون مقامُها عند ربها غير بعيدة عنه. وأن ينجيها من صحبة فرعون الذي ضاقت بها لكفره وجبروته. وأن ينجيها من فتنة القوم الظالمين القساة الذين لا يعرفون حدا يقفون عنده. فعلى المؤمنين أن يستهينوا بما يلقونه في سبيل ثباتهم على الإيمان. وأن لا يكونوا أضعف من هذه المرأة الصالحة التي نجّاها ربها، وأكرمها في الدنيا بالثناء عليها في كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، قرآنا يتلى إلى أبد الآبدين.

المثل الثاني : مريم ابنة عمران أم عيسى ﷺ .كانت عفيفة أبلغ ما تكون العفة، مقبلة على عبادة ربها إقبالا أسقط من تفكيرها الزواج والأسرة والإنجاب. كانت بشهادة الله الذي يعلم السر ، وما تنطوي عليه النفوس من الحركات الباطنية الخفية، أنها كانت من المخلصين لله في العبادة، المستغرقة فيها إلى حد أن العبادة استحوذت على كل مشاعرها، وظفرت فيها باللذة الكبرى. وجعلت فرجها، وهي الشابة في مقتبل العمر وعرامة داعية الغريزة، جعلت فرجها حصينا لا يسلك إليه ولا يطمع طامع فيه لما هي عليه من الإخلاص في العبادة والجدية. بلغها هذا الحرص على الطهر والتقرب إلى ربها، أن الله بعث لها جبريل، فنفخ في فرجها من روح الله بدون سبب مادي. فالأرواح كلها من الله، وسنة الله في خلقه أن يربط سريان الروح بالأسباب التي هي السنن الكونية لإيجاد الحياة في المخلوق. أما مريم فقد أكرمها الله بأن جعلها أما لرسول كريم، دون أن يتوسط في الإنجاب ذكر. بأمر خارق للعادة. وعبر عن سريان الروح في بطنها بالنفخ الذي هو أقرب لفظ يصور تكوين الجنين في البطن. اللغة تقصر عن التصوير الدقيق لسريان الروح التي هي في ذاتها، ومعرفةُ كنهها فوق طاقة البشر.

ومع عفتها البالغة وإخلاصها في العبادة، كانت مصدقة بجميع ما أنزله الله على رسله هداية للناس، الوحي، ومن الصحف، ومن الكتب.

يوم الأربعاء 22رجب 1435–2014/5/21

ســـورة الملك

هذا هو الاسم الأكثر شيوعا في كتب السنة والتفسير، والمصاحف. و في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (أن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك) فقد سماها النبي ﷺ بأول آية منها. وتسمى المانعة والمنجية. وهي سورة مكية باتفاق. رتبتها السابعة والستون حسب ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون حسب ترتيب النزول ؛ نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

تبارك : يقول الراغب: كل موضع ذكر فيه تبارك فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة فيه. وفي هذه الآية اختصاصه بالملك.

المُلك : الملك الكامل الحق.

ليبلوكم : ليختبركم فيظهر ما هو معلوم عنده.

من تفاوت : من انخرام للتناسق.

أرجع البصر : أعد النظر وكرره.

فطور: تصدع وشقوق.

ارجع البصر : كرره.

كرتين : مرتين على إرادة معاودة النظر بغير تحديد بعدد.

ينقلب : يرجع.

الخاسئ : الخائب.
حسير: كليل، تعب، دون أن يظفر بمطلوبه.
الدنيا: القريبة منكم.
السعير : النار الشديدة الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي،

عظمت خيرات ربّنا عظمة لا يدانيها شيء في كمالها، المنزه عن كل نقص. فالملك الكامل بيده وحده، وفي قبضته يصرفه كيف يشاء حسب علمه وحكمته. وكما تفرد بالملك الكامل تفرد بالقدرة النافذة في كل شيء.
تفرد ربنا بخلق الموت والحياة، يجريهما على الإنسان ليختبر البشر أيهم ارتقى في العمل الصالح إلى المرتبة الأحسن إخلاصا وتطبيقا لما شرعه الله. فيظهر ما حصل في علمه سبحانه. وهو العزيز النافذة قدرته فلا يعطلها شيء. الغفور، يتعلق المؤمنون بفضله ليستر عليهم ما سبق من تقصيرهم.
كثرت خيرات ربنا وتقدس فهو الذي خلق سبع سماوات متطابقة في إحكامها. أجرى بناءها على قوانين ثابتة.لا تجد في خلق الرحمن الذي رعى برحمته تحصينها من أي خلل، وركبها بكيفية تحقق استمرارها وقيامها بوظائفها. تأمل وأعد النظر فلن تجد في هذا الخلق العظيم أي نشاز، أو خروج عن النظام الكامل في كل صغيرة وكبيرة. كما أنه أحكم التناسب بين أوضاع كل كوكب وأوضاع بقية الكواكب، فكانت الجاذبية بينها بناء قويا متماسكا لا خلل فيه. تأمل وأعد تأملاتك باحثا عن أي خلل، فلن تظفر بشيء من ذلك، وتجني الخيبة من بحثك، ويرجع إليك بصرك متعبا كليلا دون أن يظفر بما يبحث عنه من اختلال لعدم وجوده.
ومن كمال صنعنا ما تلاحظونه في السماء القريبة منكم، فقد بنيناها بناء محكما وراعينا أن تكون ظاهرة الجمال واضحة فيها. فقبة السماء في الجو الصافي البعيد عن التلوث من أجمل ما يسرح فيه الإنسان نظره. وجعلنا في نجومها خاصية هي رجم الشياطين الذين يحاولون استراق السمع من الملأ الأعلى، فتقذفهم مصابيح السماء بالشهب فتفسد كيانهم. ومع هذه الحراسة والقذف، فقد هيأنا للشياطين نار السعير يذوقون بها سوء العذاب.

بيان المعنى العام :

1-تبارك...على كل شيء قدير.

تبارك، صيغة يقصد منها أن الموصوف بها قد كثرت خيراته، وأنه الكامل الكمال المطلق، لا تتصور ذاته إلا مع الكمال والتنزيه، ولا يفهم تصرفه إلا على ذلك النحو، فكل خير عنه صدر، وبه يقوم ويستمر.

الذي بيده الملك... كثرت خيراته، منزها، المُلْك الكامل لـه وحـده، لا يخـرج عـن نفـاذ قدرته وتصرفه فيه شيء. فاليد يقصد منهـا القـدرة والتصـرف الـدائم. والملـك الكامـل له وحده، لا يشاركه أحد فيه. إبطالا لمـا اعتقـده المشـركون مـن أن لآلهـتهم مشـاركة في التصرف. وما يعتقده الناس من أنهم مالكون لمـا تحـت أيـديهم. هـو ملـك محـدود وقاصر، فكل ذلك مهيأ في كـل لحظـة للخـروج مـن قبضـتهم، وكـل مالـك يلحقـه الموت فيخرج من الدنيا وقد انفصل ملكه عنه وتركه وراء ظهره.

وهو على كل شيء قدير... كل ما يتصوره العقل مـن الحـوادث داخـل تحـت قدرتـه، إيجادا وإعداما. تتعلق القدرة تبعا للإرادة بإعدام شيء مـن الوجـود فـلا يبقـى لـه أثـر، وتتعلق القدرة بإخراج شيء من العدم، فيوجد.

2-الذي خلق الموت والحياة...العزيز الغفور.

تصريح بما يُثْبِتُ ما أفادته الآية السابقة من أنه سـبحانه كثـرت خيراتـه وقدرتـه نافـذة في كل شيء، وأنه المختص بذلك لا يشـاركه أحـد فـي الملـك الحـق. فـأبرزت هـذه الآية أن السر المحجوب عن البشر، والذي يقفون حيـارى أمامـه هـو المـوت والحيـاة. يعترفون بأنهم لا يمكنهم أن ينهوا حياة الأحيـاء، ولا أن ينفخـوا الحيـاة فيمـا هـو غيـر حي، ولا أن يطيلوا حيـاة الأحيـاء ولا أن يختصـروها. والإنسـان والحيـوان، الكمـال الذاتي لكل منهما بالحياة، والفساد بالموت. إذ النمـو والتفكيـر والفعـل بالنسـبة للبشـر، والشعور والنمو والحركة بالنسبة للحيوان، كل ذلك مـرتبط بالحيـاة. وتوقـف كـل تلكـم القوى بالموت لتؤول إلى التحلل والذوبان. وكـذلك الأمـر بالنسـبة للنبـات ومـا يتـوالى عليه من عرضيْ الموت والحياة. فتفرد الله بخلـق المـوت والحيـاة مـن أعظـم الأدلـة الظاهرة على أنه سبحانه المتفرد بالملك، والقدرة الكاملة.

ليبلوكم أيكم أحسـن عمـلا... خلـق المـوت والحيـاة لحكمـة، وهـي ابـتلاؤكم...أي اختباركم ليظهر في الوجود ما سبق فـي علمـه، وهـو مـن يقـال فـيهم: أيهـم أحسـن عملا، وأيهم أسوأ عملا. فالله خلق الموت بعد الحيـاة ليسـأل الأحيـاء عمـا قـدموه مـن الأعمال فيظهر الأعمال الأحسن التي تستحق مقامـات الرفعـة فـي الجـزاء، ومـا هـو دونها فلا يستوي المحسنون يوم القيامة، بل يتفاوتون على مقـدار مـا بـين أعمـالهم مـن حسن وكمال. ويفهم من الآية قطعا سؤال المسيئين عـن أعمـالهم السـيئة، التـي أخسـها وأقبحها الشرك، وما دون ذلك من المعاصي التي لها الآثـار السـيئة علـى فسـاد الـنفس البشرية، وعلى اختلال نظام الحياة الاجتماعية.

وهو العزيز الغفور...ختام الآية يحقق أيضا ما يفهـم مـن قولـه تعـالى: **تبـارك الـذي بيده الملك**. فخلق الموت والحياة للابتلاء يشهد له أن الله هـو العزيـز الـذي لا تـرد لـه

إرادة، ولا يعطل قدرته معوق. بل ينصاع كل شيء لعزته. ومع كونه عزيزا تنفذ إرادته وقدرته نفاذا لا يقف أمامهما شيء، هو الغفور الذي يعفو عن السيئات إذا لم تصل إلى الشرك، ويقبل التوبة عن عباده، ولا يجب عليه أن يعاقب العاصي.

3-الذي خلق سبع سماوات طباقا...من فطور.

من مظاهر كثرة خيرات ربنا، أنه خلق سبع سموات، متطابقة. ذهب كثيرون إلى أن السماوات السبع هي الكواكب الدائرة في فلك الشمس المجموعة التي ترتبط بها الأرض التي نحيا فوقها.

والذي أرجحه أن السماوات السبع تتحدث عن العالم العلوي، الذي الله أودع فيه سبع مجموعات، كل مجموعة هي سماء. والأبعاد بينها تقدر بالسنوات الضوئية. وعلى ما بينها من الأبعاد، ورغم اختلاف ما في كل سماء من الكائنات، فإنها تخضع لقوانين واحدة، قوانين الخلق الإلهي المحكم الذي راعى كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون. الأمر الذي حفظ له استمراره في الوجود إلى الأجل الذي قدره لبقائه. وبتلكم القوانين والقيام على استمرارها واصل الكون مساره.

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت...حقيقة يقينية أن الناظر في خلق السماوات، مهما واصل النظر، وتتبع الجزئيات الدقيقة، وتتبع الأجرام السماوية العظيمة، في حركتها وفي مداراتها، وفي جاذبية كل كوكب لغيره من الكواكب، وفي القوانين التي جرى عليها الخلق، يزيده نظره اقتناعا بأن قوانين الإحكام تجري عليها جميعا. هي من خلق الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فلم يخلقها لتتصادم، ولتتناقض فيما بينها، وليسحق القوي منها الضعيف، والكبير التافه؛ ولكن لتسير في نظام وتكامل وتناغم. وليكون في خلقها على ذلكم النظام ما ييسر للناس حياتهم في الأرض على أفضل الوجوه. فهم ينتفعون من نظام السماء ما يجعل حياتهم على كوكب الأرض متلائما مع نظام عيشهم.

فارجع البصر هل ترى من فطور...عوالم السماء مسرح للنظر، ليكتشف الإنسان أسرارها، وهي لا تبيح إلا بالشيء القليل، الذي يقتضي أن يعاود المتأمل النظر، ويواصل جمع ما اكتشفه، ويرتبه ترتيبا يمكنه، من مواصلة كشف المجاهيل في عالم السماء الفسيح . ولا يقنع في أي وقت بأن ما بلغه هو كمال المعرفة، بل هو يترقى في العلم شيئا فشيئا، وكلما وصل إلى مستوى كان ما وصل إليه يفتح له أبواب المعرفة لما وراءه. هذا قانون التعلم كما تشير إليه الآية. فلا تجد في بناء السماء انخراما. ولا تضعف جاذبية أي كوكب عن المستوى الذي خلقت عليه، فيترتب عنه بعد الكوكب عن مساره، وفي ذلك فناء الكون كله.

4-ثم ارجع البصر كرتين...خاسئا وهو حسير.

كشْفُ عالم السماء لا يكون بإدخالها للمخبر وإجراء التجارب عليها، فلا اليد تطول ما تركبت منه، وهي أعظم وأوسع من الأرض. ولكن التعرف عليها يكون برصدها المرة تلو المرة، سواء أكان ذلك بالعين المجردة أو بالمناظير المقربة، الصغيرة منها والعملاقة؛ ثم تسليط العقل على ما تنقله المشاهدة التي تدعو إلى تكرارها حتى تبيح للناظر العالم ببعض الأسرار. وتدعوه إلى العودة ثم العودة. وكن واثقا أن طاقاتك أضعف من أن تستوعب عالم السماء، فملاحظاتك تؤكد لك عجز تلك الطاقات عن اكتشاف كل شيء في تلك العوالم، فالخيبة من الاستيعاب أمر لا شك فيه. وإن طاقاتك من ناحية أخرى تكلُّ عن بلوغ ما تطمح إليه، فليكن ذلك من مهمة الأجيال المتعاقبة على المعرفة. **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.**

5-ولقد زينا السماء الدنيا...عذاب السعير.

كما أثبتت الآيات السابقة إحكام بناء السماء، أضافت هذه الآية لفت الأنظار إلى كمال التصرف الإلهي في السماء القريبة منا. إنك إذا نظرت إلى قبة السماء القريبة منا بعيدا عن تلوث المدن، وفي وقت يكون فيه الطقس صافيا، ينكشف لك منظر رائع من الجمال وإتقان الصنع، كما بيناه في سورة الصافات. فهي تتلألأ منتشرة في السماء كالمصابيح بضوئها اللامع، وتهدي السائرين في ظلمة الليل. وترجم الشياطين فتفسد تركيبهم. وليس كل النجوم ترجم الشياطين، ولكن ينطلق منها شهب تقضي على كل من يصعد من الشياطين إلى السماء لاستراق السمع. ومع أننا حصنّا السماء الدنيا بالنجوم التي تنطلق منها الشهب الراجمة للشياطين، فتهلكهم قبل أن يكتشفوا أي شيء من الغيب. فكذلك هيَّأنا لهم عذاب السعير، والسعير نار حامية كأشد ما يكون تعذب بها الشياطين وإن كانوا مخلوقين من نار إلا أن نار السعير أشد من طباعهم، فيعذبون بها.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝

بيان معاني الألفاظ :

الشهيق : صوت تردد الأنفاس في الصدر.

تفور : تغلي وترتفع ألسنة لهيبها.

الغيظ : أشد الغضب.

الفوج : الجماعة.

خزنتها : خزنة النار، الملائكة الموكلون بحفظها.

نذير : رسول منذر .

سحقا : بُعْدًا.

بيان المعنى الإجمالي :

استحق الذين كفروا بنعم ربهم ورفضوا هدايته عذاب جهنم، وما أسوأه من مصير. فقد خسروا عاقبتهم أعظم خسارة، مع الشياطين المرجومين. هو المصير الأسوأ، يبينه أن أفواجهم تتلاحق فيلقى بها في جهنم، فيسمعون شهيق جهنم الذي يرعب قلوبهم ويحيطها بالخوف والكمد، ويشاهدون لهيبها يتصاعد. كلما دخل فوج تلقاه ملائكة العذاب بسؤال فيه توبيخ وتقريع: ألم يأتكم رسل ينذرونكم هذه العاقبة السيئة؟ كما يتحد السؤال يتحد الجواب. يعترف كل فوج داخل: بلى ! كل فوج يقول: قد جاءنا نذير فقابلناه بالتكذيب، وأحلنا أن يكون الله قد أنزل وحيا عليه. ثم واصلنا متحدين ما أنتم إلا قوم استولى عليهم الضلال الكبير، فأنتم تكذبون على الله. ثم يرجعون باللائمة على أنفسهم معترفين بذنوبهم قائلين : لوكان لنا سمع يتابع ما يصل إليه ولا يقابله بالرفض السريع، ولو كانت لنا عقول تتأمل لتميز الحق من الباطل، ماكنا اليوم ممن لزموا عذاب السعير.

اعترفوا بذنبهم يوم لا ينفع ندم، أبعد الله أصحاب السعير من كل خير وكرامة.

بيان المعنى العام :

6-وللذين كفروا...وبئس المصير.

لا يختص عذاب السعير بالشياطين المسترقين للسمع، بل يتعداهم إلى الذين كفروا بربهم. فهم أيضا قد أعددنا لهم عذاب جهنم جزاء كفرهم، وما أسوأه من مصير. إذ من شأن العقلاء أن يعدوا ما أمكن لهم الإعداد ليجدوا في مستقبلهم ما هو أفضل من حاضرهم. فالذين كفروا يكونون قد أعدوا لمستقبلهم العذاب والمهانة.

7-إذا ألقوا فيها...وهي تفور.

استأنفت الآية مبينة ما أجمل في قوله تعالى : **وبئس المصير** . فبمجرد ما يلقون كما تلقى القاذورات، يرهبهم أشد الرهبة، صوت اضطرام نارها شهيقا يزمجر مرعبا، وهي تغلي، فترتفع ألسنة لهيبها.

8- تكاد تميز من الغيظ...ألم يأتكم نذير.

تتلقاهم عندما يقذفون فيها، بغيظ شديد. خلقت لتعذيبهم، وانتظرتهم المدة التي قدرها الله حتى إذا ألقوا فيها، أظهرت لهم ما خلقها الله عليه من بغضهم، فوجدوا في جهنم قرارهم الحقد عليهم منها، ورغبتها في الانتقام منهم، بلغ بها الغيظ حدا كادت تتمزق منه. وهو تعبير عن بلوغ الغيظ أقصى حده.

كلما ألقي فيها فوج....هذا قانون كشفته الآية مقاده: أن المغضوب عليهم يلقون في جهنم جماعات مشدودة إلى بعضها؛ شأن الأشياء التافهة؛ أفرادها همل لا ينظر إليها وليس لها أي حظ من التقدير.

زيادة عما ذكر قبلُ من تغيظ جهنم عليهم، يتلقاهم الملائكة الموكلون بحفظ جهنم، وتنفيذ ما قرره الله في أهلها، يتلقونهم بسؤال توبيخ يضاعف عذابهم الحسي بعذاب مثل: ألم يأتكم رسل ينذرونكم هذا المصير، ويبينون لكم عاقبة أمركم ؟

9- قالوا بلى قد جاءنا نذير...في ضلال كبير.

أسرعوا بالاعتراف فقولهم : بلى يثبت أنه قد جاءهم نذير، ثم أضافوا إلى ما يفهم من كلمة بلى التصريح به : بكل تأكيد قد جاءنا نذير، فقابلنا إنذاره بالتكذيب، وقلنا لهم : نرفض ما تقولون وما به تنذرون من عند الله؛ فإن الله لم ينزل أي شيء، وإنما ما تدعونه اختلاق منكم.

إن أنتم إلا في ضلال كبير....يمكن فهم هذه الجملة على أنها من قول خزنة جهنم، قالوا لهم: إن موقفكم من رسل الله المنذرين يكشف عن عمق ضلالكم. استولى عليكم الضلال فحجب عنكم كل شعاع من أنوار الحق. وهكذا شأن من يتمسك بالباطل ويكرره في نفسه ينتهي به الأمر إلى موقف رافض متصلب في الرفض.

كما يمكن أن نفهم الجملة على أنها من قول الكفرة لرسلهم، اعترفوا أنهم قابلوا دعوة رسلهم، بمواجهتهم بقولهم لهم: إنكم مغرقون في الضلال، استولى عليكم الضلال، وليس لكم من هدى الله شيء.

10- وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل...في أصحاب السعير.

أثارت أسئلة الملائكة الموكلين بجهنم للأفواج المتتابعة ندما يأكلهم، ويضاعف تمزقهم الباطني. عبروا عنه بقولهم : وا أسفاه ؛ لو كنا نرهف أسماعنا لما أتانا به

الرسل، ونقوّمه بما فيه من حق، ولا ننكره من أول الأمر فنطرحه بعيدا عنا. ولوكان لنا عقل يميز بين الحق والباطل، ويرفض ما يدعو إليه الإلف والعادة، وينظر في الأمور بميزان التأمل البصير ؛ لو أحسنا الاستماع لما جاء به المرسلون، وأحسنا التفكير فيما عرضوه علينا، ما كنا اليوم من الملازمين للسعير.

11-فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير.

سجل القرآن عليهم اعترافهم بذنوبهم نادمين على ما فات يوم لا ينفع الندم، ليرتب عليه ما يستحقون على ما فرط منهم في الدنيا ومواقفهم الوقحة من رسل الله. فسحقا لهم. أبعدهم الله من كل خير ومن أي منزل من منازل التكريم، إقصاءً مذلا. ليلزموا السعير المتوقد في جهنم، فتنعقد بينهم وبينه صلة مستمرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللطيف : العالم بدقائق الأمور.

الخبير :المحيط علمه بما يخفى.

الخسف : الزلزال الشديد الذي يتبعه قلب الظاهر باطنا والعكس.

تمور :ترتج مضطربة.

نكيري : أثر نكيري عليهم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذين يخشون ربهم في خلواتهم وهم غائبون عن أعين الناس، تبعا لاستحضار صلتهم به، استحقوا غفران الله لذنوبهم، وجزاءهم بالأجر الكبير على ما قدموا من الصالحات.

ظن المشركون أن الله لا يعلم ما يتحدثون به سرا، فتواصوا أن لا يطعنوا في الرسول ولا في الدين إلا بصوت منخفض حتى لا يسمع الله ما يقولون فيخبر به

محمدا. فأيقظهم القرآن من غفلتهم بتحقيق أن السر والجهر بالنسبة لله سواء، فهو يعلم جميع الخواطر الباطنية، التي لم تنطق بها ألسنتهم.

كيف لا يكون الله عالما بما تنطوي عليه صدوركم، وهو الذي خلقكم من عدم، ثم طوّركم إلى أن بلغتم المستوى الذي أنتم عليه، ورعا كم في كل طور من أطواركم بألطافه، فهو اللطيف، الذي يعلم الخفايا.

خلقكم واستخلفكم في الأرض، ويسّر لكم الحياة على ظهرها. وطوّعها لكم، فلا تجدون في نشاطكم عليها صعوبة. فامشوا في أرجائها الفسيحة. ومن مننتا عليكم أن أبحنا لكم الأكل من رزقه مما تخرجه الأرض من زروع وثمار، وما يرعى أديمها من أنعام وطير. وإلى الله وحده تنشرون من الأرض بعد الموت فيسألكم عما عملتم فيما استخلفكم فيه.

ثم سأل المشركين سؤال إنكار وتوبيخ عن عدم رعايتهم لما تقتضيه الخالقية من طاعة، فسألهم مُوبّخا لهم هل بلغت بكم الغفلة أن أمنتم غضب الله عليكم، الذي يجري سلطانه في السماء وينزل عليكم منها ما لا تستطيعون له ردا. فيقلب بكم الأرض ظهرا لبطن، ويجعلها مضطربة بعد أن كانت ذلولا ساكنة. أم أمنتم أن يرسل الله عليكم من السماء حاصبا من الحصى أو البرد فيتتابع عليكم ويضربكم بعنف فيمزقكم ويبيدكم من الأرض. وهددهم بأنهم سوف لا يفلتون من عقابه، ويعلمون عندها كيف تكون عاقبة إنذاري الذي لم يرعوه.

إن هذه هي سنة الله مع المكذبين المستكبرين عن الحق، فقد كذب الذين من قبلهم، فسحقتهم سحقا فلينظروا كيف كان نكيري على المتمردين المكذبين.

بيان المعنى العام :

12-إن الذين يخشون ربهم... وأجر كبير.

بعد أن استوفى القرآن تفصيل مآل الذين كفروا، وما أعد لهم من العذاب والنكال، استأنف الحديث عن المؤمنين معرّفا لهم بأنهم هم الذين يخشون ربهم، يستحضرون صلتهم به، في كل ظرف وخاصة عندما يغيبون عن أعين الناس في خلواتهم. ويمكن فهم الآية أنهم يخشونه بالغيب الذي أخبرهم به من الجنة والنار، والبعث والصراط والميزان والسؤال والحشر. هؤلاء الذين استحضروا صلتهم بربهم فامتلأت قلوبهم من خشيته، جزاؤهم عند ربهم مغفرة عظيمة تأتي على كل ما صدر منهم من تقصير فتزول آثار التجاوزات، وتنقّى صحائفهم منها بالمغفرة، وتنفرد بالطاعات فيكون جزاؤهم جزاء كبيرا لا ينْقصه لوث المعصية.

13-وأسروا قولكم... عليم بذات الصدور.

واجه الرسول ﷺ المشركين بما كانوا يتحدثون به في خلواتهم من طعن في الرسول، ومن افتراءات على الدين ليُقَوُّوا ما في بعضهم من ضعف وتردد. فانزعجوا وقال بعضهم لبعض ليكن حديثنا في المستقبل حديثا بخفض الصوت حتى لا يسمع إله محمد ما نقول. فعرفهم الله بفساد تصورهم هذا، وأن إسرارهم وجهرهم بالنسبة لله سواء فهو العليم بما يتردد في النفس من خواطر، وما يجري في العقول من مخططات وتدبير للأعمال. فعلمه بما يجري على ألسنتهم أخفوه، أم أظهروه أحق باطلاعه عليه.

14-ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

من غباء المشركين ظنهم أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم. فسألهم سؤال إنكار عليهم في ظنهم أن الله لا يعلم سرهم، والحال أنه خلقهم وأوجدهم من عدم، ولطف بهم إلى أن وصلوا إلى المستوى الذي هم عليه. إنه هو اللطيف الذي يجري تقديره في الكائنات فتتطور حسب القانون الذي أودعه في الخلق بدون هزات ولا عنف. وهو الذي ينكشف لعلمه خفايا الأمور لاستواء علمه بالظاهر والباطن.

15-هو الذي جعل لكم الأرض...وإليه النشور.

يواصل القرآن الاستدلال على كمال التصرف الإلهي، مع مراعاة اللطف. انظروا في الأرض، فتجدون من طبيعتها أنها صلبة قوية. وأنها سهول وجبال، وأودية وبحار. ومع ذلك فإن الله يسر لكم العيش فيها وجعلها طيِّعةً لكم. فأول ما تلحظون: أن بين جاذبية الأرض وبين كتلة الإنسان، بينهما توافق، يسير الإنسان على سطحها ويعلو جبالها، وينزل أوديتها، فلا يجد الأرض تعاكسه، بل يتقلب بين أرجائها تثبّته ولا تثقله، فلو كانت الجاذبية أقوى لثقل ثقلا يقتضيه المجهود المضاعف والعسر، ولو كانت الجاذبية أخف لما ثبت في سيره.

فامشوا في أرجائها تصحبكم ألطافه، وتدركون عونه وحسن تقديره. وكلوا من رزقه الميسر لكم مما تخرجه الأرض من النبات والزروع والثمار،ومما عمرت به من الأنعام والطير. فتدبروا في نعم ربكم.

وإليه وحده النشور بخروجكم من الأرض بعد الموت. قال تعالى : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى)[1].فيسألكم عما عملتم فيما استخلفكم فيه،

---

[1] سورة طه آية 55

فليس خلقكم على الأرض وتسخيرها لكم ضربا من العبث، ولكنه لغاية، هي حسابكم بما كنتم تعملون.

16-آمنتم من في السماء... تمور.

افتتحت الآية باستفهام إنكاري يوبخهم بسبب عدم رعايتهم لخالقهم الرعاية التي تنبثق من العقيدة، و تتبعها الطاعة. يسألهم سؤال إنكار لموقفهم من آيات الله وشريعته المنزلة من عنده، وعدم تقدير ما يترتب على موقفهم ذاك. فهل أمنوا من في السماء أن يعجّل عليهم العقوبة، فيخسف بهم الأرض ويقلب ظاهرها إلى باطنها، وباطنها إلى ظاهرها. خسفا يصحبه اضطرابها.

وإذا كان الفاعل لهذا الخسف هو الله، فكيف يعرف بأنه في السماء؟ والجواب عن هذا إما أن الله يوكل بهم ملكا في السماء يخسف بهم الأرض. ويحولها إلى كتلة مضطربة بعد استقرارها وتذليلها.

وإما أن يكون المقصود: منْ في السماء سلطانه، أو قدرته، وهو الله. وهذا التعبير ينفي أن يكون لأصنامهم شيء من ذلك التأثير.

وإما أن يكون التعبير جاريا على ما استقر في الأذهان، أن التأثيرات العظمى إنما تأتي من السماء، إما على التنزيه على معنى أنهم يتلقون أوامر الله ونزول قدره من السماء، وهذا التصور هو الذي جعل الناس يرفعون أيديهم عند الدعاء والابتهال.

وإما أن القرآن خاطبهم حسب معتقداتهم.

17-أم أمنتم...فستعلمون كيف كان نذير.

سؤال إنكاري آخر فيه توبيخ وتعجيب من موقف عناد المشركين، وعدم انصياعهم للحق. والإمكان الثاني الذي يتهددهم أن يرسل عليهم من السماء حاصبا، ريحا شديدة تقتلع الحصباء، فترجمهم بها رجما يمزقهم شر ممزق، أو يرسل عليهم وابلا متداركا من البرد فيقضي على ذواتهم ومزارعهم وممتلكاتهم، وتتركها قاعا صفصفا.

وكلا الأمرين المنذر بهما قد وقع شيء قليل منه أمام ناظركم، إذ تخرب الزلازل العنيفة المكان الذي تتحرك فيه، ويتواصل اضطراب الأرض أياما فتنقلب تلك الأماكن إلى خراب. والمنذَرُ به أشد قوة من ذلك، فإن الأرض تبتلع ما فوقها. وكذلك العواصف التي يصحبها البرد تهشم ما تأتي عليه، فلا يبقى شيء قائم لا من البشر ولامن الحيوان ولا من النبات. ولكن عذاب الله شديد. فسوف تعلمون عند

تحقق ما أوعدتكم بـه كيف تكون عاقبة إنذاري لمن لا يتعظون، ويقلعون عن تمردهم.

18-ولقد كذب الذين..فكيف كان نكير.

التهديد الوارد في الآيتين السابقتين، تهديد يُذكّرُ القرآن أنه سلط على الذين كذبوا من قبلهم. وما تزال آثاره ناطقة بالتدمير الذي نفذ فيهم. ولم يبق منهم إلا الأخبار التي يتناقلها الناس. فهي أمر محقق كما يدل عليه " ولقد" في مفتتح الآية. ولقد رأيتم كيف كان نكيري عليهم، أي فظاعته العظيمة. وإنكم ستلقون نفس مصيرهم إن لم تقلعوا وتتوبوا وتؤمنوا بمحمد.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ

الغرور : أوهام يتعلق بها الإنسان فيتبين له بعد ذلك أنه مخدوع.

الرزق : ما ينتفع به الناس من الأمطار و القوت ونحو ذلك.

لجوا : تمادوا.

العتو والنفور : البعد عن الحق.

بيان المعنى الاجمالي :

ما للرتابة أخفت على بصيرة البشر عجائب الخلق الإلهي؟ ألم يروا إلى الطير كيف تسبح في الهواء متحركة في خفة دون أن تسقط. من الذي أمسكها في الفضاء تمد أجنحتها وتقبضها في يسر؟ إن الذي أمسكها ويسر لها الانتقال إلى مسافات بعيدة تخترق فضاءات البحار والصحاري، هو الرحمن. رحمها في تركيبها مراعيا ما مكنها به من خصائص جنسها. إن الله عليم بكل شيء والطير شاهد من شواهد عموم علمه.

انتقال إلى أمر آخر: أن المشركين تعلقوا بأصنامهم على أنها جند تدفع عنهم بأس الله. من هو هذا الجند العاجز الحقير الذي يستطيع حمايتكم من دون الله ؟ هو عاجز ولكن الكافرين متعلقون بأوهام غرتهم ولا تأثير لها.

وسؤال آخر يحركهم لو كانوا يسمعون؛ من هذا العاجز الحقير الذي يستطيع إنزال الأمطار عليكم التي ارتبطت بها حياتكم وحياة أنعامكم، إن تعلقت إرادة الله بمسك القطر عنكم.

إنهم لا يعقلون ولا يتحركون لهذه الأسئلة المثيرة، لأن الكبر حجب عقولهم عن النظر، فاستمروا على الرفض وواصلوا كبرياءهم، وفرارهم من الحق واشمئزازهم منه، فهم إلى الضياع والخسران.

ثم ضرب الله مثلا للمشركين والمؤمنين لعله يفتح البصائر. مثل المشرك وهو يعبد آلهة متعددة، ويطيع هواه، ويتبع ما حصل في ذهنه من سيرة السابقين من آبائه. مثله كمسافر اختار من أول أمره طريقا كلها منعرجات ونتوءات. يمشي وهو منكب لا يتجاوز نظره موقع قدميه. كلما سقط في حفرة قام منها لتتلقفه حفرة أخرى، وكلما ابعد في مسيره زادت حيرته، فهو في النهاية منهوك القوى طريح الإعياء أطبق عليه الضلال. وفي المقابل مثل المسلم الناظر في الهدى الذي جاءه من ربه، الفاتح عقله على كتاب الكون، مثله مثل السائر في الطريق رافع الرأس يتابع معالم الطريق الهادية إلى الغاية فيصلها وقد ضمن السلامة والنجاح.

بيان المعنى العام :

19-أولم يروا إلى الطير..بكل شيء بصير.

عجائب الكون كتاب وثق فيه الباري سبحانه أدلة قدرته وحكمته، وتفرده بالتصرف. قد تقع الغفلة عن دقائق الصنع بعامل الرتابة، وتكرار المشهد على البصر، فينبّر القرآن التالين له، ليتأملوا كأنهم لم يلحظوا المشهد إلا بعد الإثارة القرآنية. المشهد هو الطيور على مختلف أشكالها وضخامتها، وما جمع الله فيها من عجائب الصنع ودقته:

أولا: هي فوقهم. كل الحيوانات مشدودة إلى الأرض تمشي بأرجلها فوق أديمها لتنتقل من مكان إلى آخر، أو ترحف. وتتميز الطير بأنها تتنقل في الهواء غير مشدودة إلى سطح الأرض.

ثانيا: أن بقاءها في الجو يصحبه صف أجنحتها، وامتداد ريشها، ثم قبضها قليلا لتعاود التمديد. ولما كان الطيران يتم بتمدد الأجنحة عبر عنه بالاسم المفيد للثبات والدوام، ولما كان القبض لمدة قصيرة يتجدد عبر عنه بالفعل، ويقبضن.

ما يمسكهن إلا الرحمن... من الذي خلق الطير على طريقة تتمكن بها من التنقل في الجو مرتفعة على الأرض دون أن تسقط بجاذبيتها؟ إنها الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء، فرحمته سبحانه بالطير قدر خفة في عظامها، وإنباتا لريشها على مقادير مختلفة تناسب الطيران والحركة في الهواء. وقدّر مرونة في أجنحتها للمد، والبسط، والانضمام.

تركيب عجيب الصنعة والتقدير مستند إلى العالم الواسع الذي لا يغيب عنه كبيرة ولا صغيرة في الطير و في الكون كله. يأكل الإنسان الحبوب وتأكلها الحيوانات، ويأكلها الطير، فيتحول جزء من مكوناتها إلى عظام صلبة ثقيلة في الإنسان والحيوان، وإلى عظام خفيفة هشة في الطير. مما يقوم دليلا على أن علمه سبحانه وقدرته وإرادته تتحقق آثارها في كل جزئية من جزئيات الكون.

20-أمن هذا الذي...إلا في غرور.

ثبت أن الله يلفتكم أخذ عزيز مقتدر، فمن يستطيع أن يحسبكم، وأي جند ينتصر لكم فيدفع ما قرره الرحمن فيكم. وأشير إلى الجند بكامل الاحتقار، أي جند حقير من غير الله، من هؤلاء الأصنام التي تلوذون بها، وتعتقدون فيها أنها قادرة على نصركم عند احتياجكم للنصر يدفع عنكم السوء. إنك إذا أردت أن تعرف وضع الكافرين، وهم متعلقون بأصنامهم راجون نفعها ودفاعها، إن وضعهم هو وضع المغرور المتعلق بالأوهام التي لا حقيقة لها وليس لها أي تأثير في الدفاع عنهم.

21- أمن هذا الذي يرزقكم...ونفور.

سؤال آخر يوقظهم إلى ما هم عليه من غفلة، هو هذا الرزق الذي ترتبط به حياتهم، من المطر الذي ينبت الزروع والفواكه، والمراعي للأنعام، من هذا التافه العاجز الذي يستطيع أن يضمن لكم ماء الأمطار ويرزقكم من السماء إن أراد الله أن يمسك رزقه عنكم.

أسئلة تتابعت محركة للعقول، لتدفع عن نفسها متاهات الخيال، وتنظر إلى الواقع بكل حقائقه، فهل أثرت فيهم ؟ يأتي الجواب. إنهم لجّوا فاستمروا على العناد، وأصروا على الرفض. ينفخ فيهم الكبر ويقوم حاجبا لعقولهم وضمائرهم من نفاذ أي خيط من أنوار الهداية. بل هم هاربون من سماع الآيات، مشمئزون منها حذرا من أن تذهب عنهم نوافل الرئاسة، وطاعة الدهماء من الأتباع.

22-أفمن يمشي مكبا...على صراط مستقيم.

تتابعت الأسئلة المحركة للعقول لتستيقظ من التقليد المعطل لها عن تدبر ما حوته الأسئلة من مشاهد. من تذليل الأرض، وتسخيرها للإنسان. ومن خصائص الطير

التي تسير في الفضاء دون أن تسقط على الأرض. ومن ضعف معبوداتهم أن يكون لها أي قدرة على حمايتهم من بأس الله. ومن رزق الله الذي لو أمسكه فلا يستطيع أحد من آلهتهم أن يتولى إرساله.

ولكن هذه الإثارات مرت عليهم دون أن يلتفتوا إليها فيقبلوا على الإيمان. فضرب لهم مثلا، وشأن الأمثال لقربها وتسجيمها أن تؤثر في سامعيها. مثّل المشركين وهم يعبدون الأصنام، ويعتمدون ما كان عليه آباؤهم، ويغمضون أعينهم عن كتاب الكون، ويعطلون عقولهم عن النظر في آيات الله، مثل ذلك بالسائر في الطريق غير المستقيم الذي تكتنفه علامات هادية، تعرّف السالك بالوجهة التي عليه أن يسلكها ليصل سالما إلى غايته، ولكنه اختار أن يمشي ويواصل السير مكبا على وجهه، لا يتجاوز بصره موقع قدميه، فهو في تردد دائم.لا يسلم من تكرر العثار والحيرة. هذا وضع المشركين : آلهة عديدة نسج حولها الخيال ما جعل كل مشرك يراعي أن لا يُغضِب أحدا منها تتنازعه، وإن كان له مزيد اتصال ببعضها. أخذ من أول أمره طريق شهواته وتقليد الماضين المختلفين فهو سائر في طريق معوجة لا استواء فيها. يسير دون أن يرفع رأسه ليرى معالم الطريق التي يمكن أن ترسم له الغاية واضحة. فواصل طريقه تائها سائرا إلى غير غاية. تصوّرْهُ وهو مخدوش، متحير، منهوك القوى، ونهايته لا تعدو أن تكون نهاية الضال، طريح الإعياء غير آمن من سبع يفترسه، أو هامة من هوام الأرض تنهشه أو تلسعه.

وفي المقابل مثل المؤمن بالسائر في طريق سوي لا نتوء فيه ولا منعرجات، يسير رافعا رأسه، تقوم معالم الطريق أمام ناظره هادية له إلى الغاية المقصودة. تصحبه الطمأنينة وهو على يقين أنه يبلغ غايته.

أهدى...من هو المهتدي منهما ؟ سؤال جوابه بدهي. ولذا اختار كثير من حذاق المفسرين أن اسم التفضيل في هذه الآية لا يقصد منه التفضيل.

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإنشاء : الإيجاد.

الأفئدة: العقول.

ذرأ : كثر.

الوعد : الموعود.

مبين : موضح لما أمرت بإنذاركم منه.

زلفة : قريبا جدا.

سيئت : ظهرت علامات السوء والكرب على وجوههم.

تدعون : تدعون أنه لا يكون.

يجير : يحمي ويمنع.

أرأيتم : أخبروني.

غورا : لم يبق في البئر أثر من ماء.

معين : معن الماء إذا كثر.

بيان المعنى الإجمالي:

قل لهم يا محمد حركهم ليتأملوا ويتعمقوا: إن الله وحده هو الذي أنشاكم من عدم على غير مثال، وركب فيكم من قوى الإحساس ما يدل على بديع الصنع. انظروا في حاسة السمع وقوانين عملها، وما خلقه لتقوم بوظائفها، وإلى الأبصار وما فيها أيضا من النعم التي توجب الشكر لخالقها. وإلى ما ركب فيكم من عقول تدرك المحسوس وتسمو إلى ما وراءه. به كان لكم شرف التكليف. ولكنكم أيها المشركون لا تقومون بالشكر لمّا حجب الكفر عقولكم عن الاستبصار.

قل لهم إنه هو الذي لاءم بينكم وبين الأرض، فتكاثرت أعدادكم. واستعماركم في الأرض واقتداركم على تطويع خيراتها لأنفسكم، ليس عبثا، ولكن ليبعثكم بعد الموت ويحشركم للحساب على وفائكم بالمسؤولية التي هي شرفكم.

انزعجوا من تذكيرهم بأنهم يحيون بعد الموت ويُنشَرُون للحساب والجزاء، فسألوا مستبعدين: متى سيكون هذا الحشر إن فرضنا أنكم صادقون ؟أجيبوا جوابا حاسما

من عند الله: إن علم وقته محجوب عنكم، اختص الله بمعرفته. إني مقصور على إنذاركم ما يترصدكم من شر، بيانا واضحا. هذه مهمتي لا أتجاوزها.

إنهم لما يرون الحشر قريبا منهم وهم مبعوثون من قبورهم، ينزعجون أشد الانزعاج وتظلم وجوههم مفصحة بالخوف والكآبة، وتناديهم ملائكة العذاب قائلة: هذا الذي تشاهدونه هو الذي كنتم تدعون استحالته.

قل لهم يا محمد إن خُبث سرائركم التي جعلتكم تخططون للقضاء علينا، لا يضرنا ذلك وأنتم الخاسرون. إنه إن قدر الله أن أموت ويموت معي الموافقون لي فإن الإسلام لا يتوقف مده، وإن قدر بقاءنا أحياء فالإسلام منتصر أيضا، ونحن إلى رحمة الله وسعة عفوه وكرمه. وأنتم على الاحتمالين خاسرون، فستلقون العاقبة السيئة، ولا يجد الكافرون من يحميهم من العذاب الأليم. فكفركم هو موجب عذابكم.

قل لهم يا محمد هو الله الرحمن الذي آمنا به إلها متصفا بصفات الكمال والجلال. وتوكلنا عليه وحده. فهو الذي يهدينا إلى طريق الخير في الدنيا ويسعدنا بفضله وعفوه يوم الحشر. فستتبيّنون من هو المغرق في الضلال، عندما لا تجدون من أصنامكم أي عون.

قل لهم : حياتكم في مكة مرتبطة بماء الآبار العذبة. فلو أذهب الله ماءها. فمن يقدر على تمكينكم من الماء الكثير العذب ؟ لا أحد سواه.

بيان المعنى العام :

23-قل هو الذي أنشأكم...قليلا ما تشكرون.

تتابعت الحجج، وختمت بضرب المثل الذي أعطى صورة مجسمة لوضع المؤمن والكافر. فأعقبها القرآن بأمر رسول الله أن يقول لهم، ويقويه على مواجهتهم. وقد تكرر الأمر بقل ست مرات من هذه الآية إلى نهاية السورة.

والمتأمل في المقول المأمور بإبلاغه في المواقع الست يتبين له حرص القرآن على هزهم إلى الإقبال على المضمون التابع لكلمة " قل" للذين غفلوا عنه فتاهوا في الضلال.

أولا: قل لهم : إن إيجادكم من عدم وعلى غير مثال، وما في تركيبكم من بدائع الصنع الذي لا يتأتى إلا ممن وسع علمه كل شيء. جعل لكم السمع الذي يختلف عن سمع الحيوانات. انظروا إلى جهاز السمع وكم فيه من ترتيب عجيب ؟ يتموج الهواء فيحرك الجهاز ليتقبله، ويحيله إلى الأعصاب التي ترفعه إلى الدماغ، فيعطي لكل هزة مدلولها، ويتم التواصل بين الإنسان وغيره. تلكم الأجهزة من بدايتها إلى أن تبلغ بالصوت الغاية المفهمة، أجهزة على غاية من الدقة والتعقيد، والنظام. والسمع ميدان من ميادين الاختصاص الطبي، ويعترف مهرة الأطباء أن الجانب

المجهول لحد الآن ما يزال كبيرا. ومع ذلك فإن تلك الأصوات المنقولة تؤثر في أعصاب الدماغ انشراحا أو اكتئابا، أو اندفاعا أو خوفا وفرارا إلى ما لا يحد من الأرجاع المتنوعة والمتناقضة، ويبلغ من دقة السمع ربط النبرات بصاحبها، فلا تجد شخصين تتحد نبرات أصواتهما. فسبحان الخلاق العليم.

وجعل لكم الأبصار. فإذا كتاب الكون في دقائقه، وفي مساحاته الكبرى مثبت في دماغكم. تعمل حاسة العين في نقل الأحجام والألوان والخصائص، وتنقل لكم ما يسرّكم كما تنقل لكم ما يؤلمكم. وتثبت في العقل ما تنقله فتتصرفون في شؤونكم الحياتية حسبما ثبّته الأبصار، وتكون مساعدة لكم على تجاوز الصور الحاضرة إلى مبدعها فيفتح لكم ما يحرك العقل للإيمان، ولمعرفة أدق للمبصرات. فتكون ركيزة للمعرفة وللتقدم العلمي.

وترتقي الآية في عرض سلم المنن، فتلفت الآية إلى المنة العظمى، منة العقل الذي به كان الإنسان إنسانا، يتقبل ما تنقله إليه الحواس، ثم يسمو فوق ذلك إلى تحليلها ويربط بين أسبابها ومسبباتها، ويعمل على التجريد فيصل إلى المدركات المجردة وينظم بينها في سلسلة يتفاوت فيها البشر تفاوتا يبدو في القمة المرسلون، ثم العلماء وقادة الفكر، الذين ينظرون بتلكم الملكات إلى المجهول فيفتحون فيه مسالك للمعرفة، وإلى المستقبل فيخططون له ما يساعد على النجاح والتحصين.

ولكن الكفر يطمس على عقولكم، فلا تقومون بشكر المنعم على ما أنعم. فالمقصود بكلمة قليلا نفي الشكر أصلا. كقوله تعالى **فقليلا ما يؤمنون**.

24- قل هو الذي ذرأكم...وإليه تحشرون.

هذا الأمر الثاني من مواطن الاهتمام الكبير. هو تذكيرهم بأن الله هو الذي كثّرهم في الأرض، فأنعم عليكم بالملاءمة بين خصائصكم الذاتية وبين الأرض التي بثكم فيها، فتوالدتم وتكاثرتم دون صعوبة. وهذا التكاثر على وجه الأرض ليس عبثا، ولكنه ينتهي لغاية أنه يسألكم عن أعمالكم تبعا لما مكنكم منه من قوى الإدراك ورسالات المرسلين، فيحشركم بعد الموت والبعث للحساب.

25- ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

لم يستطيعوا أن يجادلوا في أن الله أنشأهم، وجعل لهم السمع والبصر والعقل. ولا أن الله قدر أن يتكاثروا في الأرض فتكاثروا. ولكن لما حقق لهم أنهم سيبعثون بعد الموت، ويحشرون إليه للحساب، كان هذا مما يزعجهم أشد الإزعاج، وأنكروه أشد الإنكار. وقد ذكر القرآن في مواقع كثيرة استبعادهم للحياة بعد الموت من ذلك قوله

تعالى:(هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد)[1] فلما ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: وإليه تحشرون -جادلوا بسؤالهم: متى يكون هذا الحشر الموعود به استبعادا له، واستهزاء. ولا يسألون عنه مستيقنين به، ولكن إن احتمل أن تكونوا صادقين. فهم ينفون صدقه فيما أوعدهم به. ويجعلونه احتمالا بعيدا.

26- قل إنما العلم عند الله... مبين.

وهذا هو الأمر الثالث بالقول، ليكون جوابهم جوابا حاسما من عند الله. سألتم عما أخفى الله عليكم موعده، فلا سبيل لكم إلى معرفة وقته. وهو واقع لا محالة فإن علمه عند الله وحده.

إن مهمتي التي أوكلت إلي وشرفني الله بها لا تتجاوز: أني مقصور على إنذاركم ما يترصدكم من سوء المصير، وأبيّن لكم بما يدفع كل غموض ما أوحي إلي.

27-فلما رأوه زلفة...به تدعون.

تواصل هذه الآية ما يتعلق بالحشر الذي أنكروه واستهزأوا به طالبين أن يعين لهم موعده. فكشفت هذه الآية عن وضعهم في هذا الموعد المحقق. فلما رأوه قريبا منهم أشد القرب لا محل للشك في أنهم بعثوا وسيقوا إلى المحشر. ظهر الجزع والخوف على وجوه الذين كفروا فإذا هي كالحةً كئيبة كاسفة. وما تخفي صدورهم أكبر. وتنطق ملائكة العذاب موبخة لهم بقولهم: هذا الذي أحاط بكم من كل جانب هذا الذي كانت النذر تنذركم به، وكنتم تكذبون به، تدعون أنه من المستحيلات التي لا يمكن أن تقبل.

28- قل أرأيتم...من عذاب أليم.

هذا الأمر الرابع بكلمة : قل. وحاصله: أن المشركين في مكة كانوا يبغضون المسلمين أشد البغض، ويدبرون ما يقضي عليهم ويوقف المد الإسلامي، وكانوا يدعون عليهم جهرة أن يهلكوا. أوقفهم الله على أنهم هم الخاسرون على جميع التقادير. قل لهم يا محمد: ما هو ظنكم بعاقبة ما يحدث إن قدّر الله أن يميتني ومن وافقني على الإسلام، أو قدّر أن يبقينا مواصلين نشر دينه ؟ إنه على الاحتمالين نحن رابحون، إن واصل بنا القدر الحياة، فسنرى وترون انتصار الإسلام وانكسار دينكم وأصنامكم. وإن قدر سبحانه أن يميتنا فإلى كرمه وجنته نحن صائرون.

---

[1] سورة سبأ آية 7

فحياتنا أو موتنا لا يدفع شيئا مما كتبه الله عليكم من العذاب والمهانة. إنكم لا تجدون من يحميكم من عذاب قدّره الله أن يكون مؤلما لكم أشد الإيلام.

29- قل هو الرحمن آمنا به... من هو في ضلال مبين.

ختمت الآية السابقة بالتأكيد على أن المشركين لا يجدون من ينجيهم من العذاب. ولم يصرح بما هو مفهوم، من علاقة المؤمنين بربهم. فجاءت هذه الآية معلنة تلك الرابطة العزيزة، الجامعة بين المؤمنين وبين الرحمن ربهم. قل لهم: هو الله الرحمن يربطنا به:

أولا: رابطة الإيمان الواضح النقي الواضح، بأنه ربنا نُنزّهه ونتيقن أنه واحد لا شريك له.

ثانيا: أنا توكلنا عليه حق التوكل. فهو الذي يسعدنا بعون هدايته إلى الطريق المستقيم، وهو الذي ينشر علينا رحمته التي بها تطمئن قلوبنا. وأنه هو الذي يرحمنا فيغفر لنا ذنوبنا فتنسحب علينا رحماته في جميع المواقف.

فستعلمون من...سوف تنقشع عنكم الأوهام، وتواجهون الحقيقة عارية، وتدركون من هو الذي سار في طريق الضلالة، يوم تحشرون، ولا تجدون لأصنامكم إلا ما يضاعف عذابكم وندامتكم.

30-قل أرأيتم...فمن يأتيكم بما معين.

هذا هو الأمر السادس بكلمة : قل.

يسكن أهل مكة بواد غير ذي زرع، يرتبط بقاؤهم بماء زمزم، وببعض الآبار العذبة كبئر ميمون، وبئر جفر، والجم. قل لهم: ما أعظم خسارتكم إن لم تتوكلوا على الرحمن الذي عليه توكلنا. إنه بيده الأمر فهو القادر على أن يجعل مياه آباركم ناضبة لا تبض بقطرة ماء، وعندها فمن يستطيع أن يأتيكم بماء كثير يقيم حياتكم.

يوم الثلاثاء 28 رجب 1435 -2014/5/27

سورة القلم

سميت بهذا الاسم في معظم المصاحف: و سميت في صحيح البخاري [سورة نون والقلم] وعند الترمذي وعند بعض المفسرين سورة [ن] وهي سورة مكية على الأشهر. هي السورة الثامنة والستون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول هي الثانية عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك، وقبل سورة المدثر. وحسبما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن الوحي فتر بعد نزول سورة اقرأ باسم ربك ثم نزلت سورة المدثر. وعلى جميع الأحوال فهي من أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما يسطرون : ما يكتبونه سطورا متتالية.

غير ممنون : لا تتبعه منة عليك به.

المفتون: المضطرب المتحير.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بحرف واحد وهي طريقة ظهرت أول مرة في هذه السورة من القرآن، ثم أتبعها بقسمين:

القسم الأول: القلم. والراجح أنه الآلة التي يقصد بها أولا تدوين ما هو مهتم بإثباته لرفعة مقامه.

والقسم الثاني: ما تم تثبيته سطورا متتابعة من القرآن أو من الوحي المعلم به الملائكة مع أمرهم بتسجيله. إن الفاتحة الفريدة والقسمان تتساندان لنفي ما اتهمه به المشركون من أنه مجنون. فنفى عنه الجنون بأكمل ما يدل على ذلك.

وبكل تأكيد فستنال من ربك أجرا لا ينقطع، ولا تصحبه منة. وإن ربك قد اعتنى بك فحلاك ساميا بك إلى أن كنت المثل الأعلى في الأخلاق، وتكون أمتك على خطاك. سيتبين لك وللمشركين من هو المضطرب في تفكيره. بأدنى تأمل يظهر أن المشركين مضطربون في قيمهم وفي أخلاقهم وفي تصوراتهم.

إن الذي عنده العلم الحق الذي لا تخدعه الظواهر ولا يؤثر فيه التهريج هو الله سبحانه، فهو العليم بمن هو على حق، ومن هو على باطل. وسيتبع علمه الحقيقي جزاء كلٌ جزاء عادلا.

بيان المعنى العام:

1- ن والقلم وما يسطرون.

افتتحت السورة بحرف نون مرسوم بالمصحف [ن] وعلى سنة هذه السورة سار القرآن في افتتاح السور بالحروف المقطعة، لما كانت هذه السورة هي ثاني سورة نزلت أو قريبا من ذلك. جرى ذلك فيما كان مفتتحا بحرف واحد. نحو [ص- ق]أو بأكثر نحو[كهيعص – حمعسق]

والقلم وما يسطرون - ظاهر الآية أن الله أقسم بقسمين متتاليين. أقسم بالقلم، وأقسم بما يسطرون.

أما القسم بالقلم:

فحمله بعضهم على أنه كناية عما وثقه الله بعلمه المتعلق بكل ما وقع وبما سيقع. أي العلم الأزلي الثابت ثبوت ما هو مدون بالكتابة غير القابلة للتغيير. كما يقال سبق القلم بما هو كائن.

وحمله بعضهم على أنه كائن غيبي عظيم نؤمن به، ولا ندرك كنهه.

وحمله آخرون على أنه آلة الكتابة التي يوثق بها البشر ما يرغبون في توثيقه، ويقرب هذا المحمل قرب السورة من سورة العلق ، علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم. ولقوله بعد ذلك : **وما يسطرون**. كما يرجحه أنه بتدوين المعاني الحاصلة في الضمير تم توثيق القرآن ليسند هذا التوثيق الحفظ الثابت في الصدور. وكذلك أصول الديانات و الشرائع، وتاريخ الحوادث والأمم، والمعارف الإنسانية ليبني اللاحق على ما وصل إليه السابق فيتحقق التواصل المعرفي بين أجيال الإنسانية. وهو ركن في الاقتصاد بما ييسره من الاتصالات في الغرض، وبتوثيقه لما تم عليه التعامل. وبه يتم التعليم للصغار فتنمو بواسطته المعرفة.

ولما كانت الشريعة الإسلامية هي الشريعة الخاتمة، انفرد القرآن من بين الكتب السابقة بأنه الكتاب المكتوب كتابة متتابعة، فكلما نزل وحي أمر صلى الله عليه

وسلم كتبة الوحي بتسجيله. ولهذا لا يوجد فيما بقي محفوظا من الكتب السابقة أي تنويه بالقلم والكتابة. ثم إن في التنويه بالقلم والكتابة ما يقوم دليلا مقنعا: أن هذا الكتاب من عند الله. إذ أن المبلغ له كان أميا بعيدا عن القلم والكتابة، فالتنويه بالقلم في أول سورة وتشريفه بأن الله جعله وسيلة العلم، والقسم به في هذه السورة، كل ذلك ينادي بأن الرسول ﷺ لا يتجاوز دوره دور التبليغ والبيان والتطبيق العملي لما ينزل عليه. خاصة وتقسيم الحضارة البشرية إلى ما قبل الكتابة وما بعدها، وأن الإنسانية ما استطاعت أن تتقدم علميا وفكريا إلا بعد استعمال القلم، كل ذلك ما دخل في الحقائق العلمية إلا بعد قرون من نزول القرآن.

وأما القسم بما يسطرون- فيسطرون مأخوذة من السطر الدال على تسجيل كلمات متتابعة مصفوفة. وهو يشير إلى ما تم توثيقه من القرآن بالكتابة. وحمله بعضهم على التعميم بكل ما كتب.

والضمير في " يسطرون" كتبة الوحي، أو الملائكة لما يتلقونه من رب العزة ليثبتوه، أو العلماء: العلم المدون النافع للبشرية دينيا أو دنيويا.

2-ماأنت بنعمة ربك بمجنون.

كانت صدمة المشركين لما سمعوا من رسول الله ﷺ ما يهدم كل القيم الدينية التي أخذوا بها أنفسهم ,وأخذ بها آباؤهم من قبلهم. وكانت عندهم بمحل اليقين الأيقن الذي لا يقبل النفي. فأسرعوا تبعا لذلك إلى رميه بالجنون، لأنه في تصورهم لا يسخر من الآلهة إلا من فقد عقله. وأكدوا وصفه بالجنون بزعمهم، فقالوا: إنه لمجنون. فكان نفي ما قالوه بتأكيد أبلغ، فافتتح نفي الجنون عنه بطريقة ما لهم بها من عهد في مخاطباتهم [ن] ثم أتبع ذلك بقسمين [والقلم] [ومايسطرون] وتأكيد ذلك بإدخال الباء [ما أنت...بمجنون]ثم وجه نفي الجنون عنه بأن ذلك تم بنعمة ربك.واختيار ربك عن التعبير بإلهك أو الله للإشارة إلى أن عنايته به موصولة. وهو ما يحقق أن كلامهم كلام باطل وسخيف.

3-وإن لك لأجرا غير ممنون.

صيغت هذه الجملة صياغة مبالغ في إفادتها للتأكيد. محقّقٌ أنك مأجور على صبرك على مقاومة الشرك، وإبلاغ هدايتي، وبيان ما أنزل عليك. وهذا يفيد من ناحية أخرى نفي الجنون عنه، إذا المجنون غير مؤهل للأجر. ثم وصف الأجر بأنه غير ممنون، نوفيك أجرك دون أن تمن عليك بما توليك من كرامات، وقد جسم النابغة أذى المنة بقوله شاكرا الأشدق قائلا:

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة *** لوالده ليست بذات عقـــارب

إذ صور مجسما المن بالعطاء، بالعقارب المؤذية بسمومها.

4- وإنك لعلى خلق عظيم.

تأتي هذه الآية في بواكير الدعوة الإسلامية منوهة برسوله ﷺ، معرفة بأن من مميزات القائم بالدعوة، أنه ملتزم بشريف الأخلاق، ومطبق لعالي القيم. وهما مسلكان في الحياة : مسلك الأخلاق بصرامته، ومسلك اتباع الهوى والشهوات بما يصحبه من تبرير لتنطلق النفس تتبع ميولها بدون ميزان.

تفيد الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متمكّنٌ من الخلق العظيم، كأن الخُلُق دابة علا ظهرها وثبت، فهي طائعة له. فحيث سار فإنما هو الخلق. والخلق وصفه رب العزة الخالق للكون كله أنه خلق عظيم، يتجاوز ما ملكه البشر أفرادا وجماعات. في ذاته وفي علاقته الأسرية، وفي علاقته بالبشر المؤمنين، وحتى الكافرين لما آذوه (الله اهد قومي فإنهم لا يعلمون) وفي علاقته بالكون، الحيوان والنبات والجماد. تتبع ذلك القاضي عياض رحمه الله في كتابه الشفاء بحقوق المصطفى. ورغم ما بسطه وما أكمل به شراحه خُلُق رسول الله، فإن رسول الله ﷺ فوق ذلك. إنه ﷺ يمثل المنهج الرفيع الذي يقتبس منه الطامحون لنيل المراتب العليا في زكاء النفس، والسمو المتجه إلى الله.

6/5- فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون.

فسترى وسيرى المشركون بعد أن أعرضوا عنك، ورموك بالجنون (بأيكم المفتون) الباء مزيدة لتأكيد ربطت الفعل ستبصر ويبصرون بما وقع عليه البصر. والفتنة هي الاضطراب الواقع فيه المفتون المتحير في عقله. والمعنى ستشاهدون بأبصاركم بأي الفريقين، فريق محمد والمؤمنين معه، وفريق المكذبين، حصل الاضطراب والحيرة، التي منها الجنون. فأنتم إذا تأملتم وحللتم مواقف الفريقين، فسيتبين لكم من هو المختل في تفكيره المتخبط في آرائه. فمحمد يدعو إلى التوحيد، وإلى عبادة الله الخالق، ونبذ الأصنام التي ليس لها من الأمر شيء، وهو المتصف بكمال الأخلاق. فلا تناقض بين سلوكه وبين القيم العليا الضابطة لاستقامة حياة الناس .والمتعرضون له من رؤوس الكفر يرفضون الوحدانية الفطرية، ويعبدون الأصنام التي صنعوها بأيديهم مع ظهور عجزها، ويتناقضون في فعالهم وتقويمهم، بين الحق النابع أحقيته من خصائصه الذاتية، وبين سلوكهم المتناقض الذي لا ميزان معه. الخير ما يلائمهم، والشر ما لا يلائمهم. فالحكم عندهم على الشيء

الواحد مختلف بين وجود النفع الخاص فيه أو الضر. وكل خير عند أحدهم هو شر عند الآخر. فيظهر لكم من هو المضطرب المختل.

7-إن ربك.....أعلم بالمهتدين.

الميزان الحق بيد الخالق وحده، وهو المتصف بالعلم الكامل الذي لا يدخله أي غموض ولا لبس. إنه ربك الذي تولاك بعنايته حتى تخيرك لرسالته، وحماك في جميع مراحل حياتك. وفضّلك على جميع البشر تبعا لعلمه وعنايته. هو العليم بالفريق الضال المنحرف عن طريق الهدى الطريق المبلغ لرضاه. وهو العليم بالمهتدين الصادقين. فكلام رؤوس الشرك وتهريجهم هُرَاءٌ لا قيمة له.

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

فلا تطع : فلا تقبل ما يريدون منك عمله موافقا لقيمهم.

تدهن : تلين وتصانع.

فيدهنون : فيصانعونك.

حلاف : كثير الأيمان.

مهين : حقير.

هماز : همه إذاية غيره.

مشاء بنميم : يتحرك ليوقع العداوة بين الناس.

مناع للخير : عظيم الشح.

معتد : شأنه الاعتداء على غيره.

أثيم : كثرت آثامه وأعماله السيئة.

عتل : ثقيل.

زنيم : في نسبه غضاضة.

سنسمه على الخرطوم : سنذله.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تطع الذين صمموا على تكذيبك فيما يدعونك إليه، هؤلاء الذين صار التكذيب الصفة المعرفة بهم. إنهم يعملون على أن تلاينهم فلا تسخر من أصنامهم، ولا تذكرهم بتناقضاتهم، و على أن يعاملوك بالمثل فيكفوا عن إذايتك وإذاية المؤمنين معك. لا تطع فيما يدعونك إليه كل فرد تلوث بصفة من الصفات التالية : كثرة الحلف ، ضعف الرأي، التعود على قبول الإهانة والذل، ولا الهماز الذي مرد على الإذاية، ولا الذي يتحرك، فينتقل من شخص إلى آخر ليفسد العلاقة التي بينهم، وكذلك البخيل الذي ينغصه أن يصل الخير إلى غيره. الذي تعود على الاعتداء على غيره، وفوق ذلك هو ثقيل، صورته تدعو إلى النفرة منه. في نسبه مغمز، فنسبه غير صريح، وفي سلسلته النسبية من هو بعيد عن الشرف.

استكبر فقسد تركيبه النفسي والخلقي لماله الوفير، وكثرة بنيه الذين يلوذون به. فتجرأ على القرآن، فإذا سمع آياته تتلى عليه قال هذا من نوع الأساطير التي نعلمها وهي تحكي عن الأزمنة السابقة. سنذله وتجعل له سمة على أنفه كما يوسم القطيع ليعرف مالكه.

بيان المعنى العام:

8-فلا تطع المكذبين.

لما كان ربك هو الأعلم بالمهتدين، وأنك على الهدى، وأن الذين قالوا لك إنك لمجنون هم الضالون الحائدون عن طريق الله ،فعاكسْهُم فيما يطلبون منك، وخذ طريقا غير ما يعرضونه عليك. هذا ما ينبغي أن تكون علاقتك بهم، لأنهم صمموا على تكذيبك، حتى كان وصف التكذيب وصفا ملازما لهم، معرفا بهم.

9-ودوا لوتدهن فيدهنون.

صرحت الآية بالطاعة التي يرغبون فيها. وتعلقوا بأن تعقد صلحا بينك وبينهم. تلين لهم وتصانعهم ولا تتعرض لمقدساتهم، ولا تفضح تناقضاتهم. فيقابلون خطوتك من إظهار مصانعتهم بالمثل فيصانعونك ويكفون عن إيذائك وإيذاء من اتبعك. ولا يتم ذلك إلا إذا أخفيت شيئا مما نزل عليك. وهذا لا يكون. فبهذا كانت الآية مؤكدة لقوله تعالى: فلا تطع المكذبين.

وحمله بعضهم على معنى أن تقدس آلهتهم، ويقدسون إلهك. وهذا بعيد في نظري.

10 ←13، ولا تطع كل حلاف مهين...زنيم.

كرر النهي عن الطاعة ليعلقها بما يوجه هذا النهي من ناحية، ولتكون أصرح في النهي عن طاعة أي فرد يحمل صفة من الصفات التالية. فتتابعت الصفات المعرفة بهؤلاء المنهي عن طاعتهم بصفة خاصة.

أ-الحلاف : كثير الأيمان يدخل الحلف في كلامه بدون موجب، وينبئ ذلك عن عدم ثقته بنفسه، إذ الغالب أنه كذاب، فيعتمد كثرة الأيمان ليقنع مخاطبيه بصدقه. ولما كانت أيمانه مُنْبِئَةً بعدم صدقه، فعدم طاعته تكون الموقف الراشد منه.

ب – مهين: ذليل حقير. ضعيف الرأي والتمييز. فمع فُجوره وسيل الأيمان الكاذبة التي تزعج من يسمعه. وجدير بمن كان بعيدا عن مراتب العزة، معروفا عند الناس بحقارته وذله، أن لا يطاع فيما يدعو إليه.

جـ – همّاز...أصل الهمز الطعن بعود ونحوه، والفارس يهمز حصانه بالمهماز ليستحثه على الجري تبعا للألم الذي يحس به. واستعمل بكثرة للدلالة على الإذاية باللسان في الغيبة. والهماز منحط خلقيا فلا يطاع.

د– مشاء بنميم...النميمة :نقل الحديث قصد إيقاع الفتنة بين الناس.وقد جسمه القرآن بما يوجب الاشمئزاز منه، صوره وهو يتنقل من مكان إلى مكان ويبث سموم فتنته بين الناس، كلما أفرغ ما في نفسه من شر، انتقل إلى مكان آخر. شأنه شأن الحشرات السامة.

هـ مناع للخير...بخيل بالمال، وبمساعدة المحاويج كأشد ما يكون المنع والبخل. وخاصة ذووه و أقاربه الذين أسلموا، ممن كانوا ينالون من رفده قبل ذلك. هو على البخل كلما كان العطاء بعيدا عن مواطن الفخر والرياء والسمعة. قيل كان الوليد ابن المغيرة ينفق في الحج كل سنة عشرين ألفا يطعم أهل منى. ولا يعطي المسكين درهما واحدا.

و– ز– معتد أثيم...معتد مبالغة في العدوان والتسلط على حقوق الآخرين. وأثيم كثير الإثم. بارتكاب المرفوض دينا وعند أهل المروءة.

ح –عتل... هذه الكلمة تجمع صفات تجعل صاحبها مُبْغضا يُشْمأزُ منه. فُسرت بمن يأكل كثيرا، وهو أناني يعمل على الاستحواذ على كل شيء، وعلى منع الآخرين منه. القوي البنية الغليظ الأعضاء، القاسي القلب، البعيد الفهم.

ط –بعد ذلك زنيم... الزنيم هو الملصق في قومه، ونسبه ليس صريحا فيهم. مأخوذ من الزنمة. قطعة تتدلى من أذن البعير ملصقة بها. ومثلها قطعتان في رقاب المعز. وممن يلمز بالزنامة : الوليد بن المغيرة لأن أباه ألحقه بنسبه بعد ثماني عشرة سنة من عمره. وكذلك الأسود بن شريق لأنه كان من ثقيف فحالف قريشا وانتسب إليهم. كما يطلق الزنيم على من كان في نسب أمه غضاضة، كأبي سفيان لأن أمه مولاة وهجاه حسان بن ثابت رضي الله عنه بقوله :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم **** كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وإن سنام المجد من آل هاشم ***** بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

على أنه لا يبلغ شرف رسول الله ﷺ ، الذي أمه من بني مخزوم. وأن جد أبي سفيان أبو أمه سمية، هو موهب كان عبدا لعبد مناف.

14- أن كان ذا مال وبنين.

كذّب وبدّل الحقيقة قائلا إذا تتلى عليه آياتنا: إنها أساطير الأولين، أغراه بذلك أن كان صاحب مال كثير، وعديد من الأبناء. وسّع الله له في مكاسبه، ووفّر له في ذريته، فتملكه الكبر والأنفة من الحق، وعوض أن يجعل ما أنعم الله به عليه موجبا للشكر، والاعتراف بالفضل، حوّله إلى سبب للرفض والطعن في آيات الله بأنها حديث مسبوق، أخبر به الناس من قبل في حكاياتهم.

سنسمه على الخرطوم – لن يفلت الحاملون للصفات الذميمة التي تتابعت من قوله حلاف مهين، من عقابنا، وسيكون قريبا. والوسم علامة تميز الحيوان، يعرفه به مالكه. فهي تدل على إذلال الموسوم كأنه واحد من القطيع.

وكون السمة على الخرطوم، الأنف إهانة ثانية. لأن الأنف مظهر الأنفة والعزة، وانكساره بوسمه عبارة عن الذلة والصغار. وفي التعبير عن الأنف بالخرطوم ذلة ثالثة. إذ أن أصل الخرطوم أن يطلق على الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير. وكانوا يرون في صاحب الأنف المستطيل شمما وعزة، فإطلاق لفظ الخرطوم عليه إذلال وإهانة.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (21) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (22) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (23) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (30) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (31) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (32) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (33)

بيان معاني الألفاظ:

بلوناهم :اختبرناهم.

الصرم : قطع الثمرة.

مصبحين : في أوائل الفجر، وقت دخول الصباح.

لا يستثنون : لا يتركون من الثمر شيئا للمساكين.

طاف عليها: أتاها من جميع جوانبها.

من ربك: جائيا من ربك لا يمكن رده.

كالصريم : كالليل الأسود، أو كالرماد.

تنادوا : نادى بعضهم بعضا.

اغدوا: اخرجوا باكرا في أول النهار.

التخافت: الإسرار بالكلام وخفض الصوت.

الحرد : يطلق على الغضب، وعلى المنع.

اللوم : إنكار، فوق العتاب، ودون التوبيخ.

الطغيان : تجاوز الحد في الكبر والتعاظم.

بيان المعنى الإجمالي :

إنا اختبرنا المشركين بالنعمة كما اختبرنا أصحاب الجنة. وقصتهم أنه ورث أولاد الرجل الصالح جنته. وقد كان الأب يحضر المساكين يوم جني المحاصيل ليسهمهم مما رزقه الله. فاجتمعوا قبل يوم القطاف، وتدبروا الأمر فيما بينهم، وقرروا أن العادة التي كان يسير عليها والدهم تحرمهم من جزء غير قليل من ثمارهم، يذهب به المساكين الذين ما ملكوا ولا عملوا. دبروا الأمر: أنهم يخرجون إلى جنتهم في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ المساكين ويجتهدون للانتهاء من جني المحصول قبل حضورهم. أقسموا على تنفيذ ما دبروا وأن لا يمكنوا المساكين من أي شيء من رزقهم. ناموا مطمئنين إلى أنهم سيقطعون العادة التي جرى عليها والدهم. وسلط الله على جنتهم ما أحرقها وهم نيام. فأصبحت كالرماد سوداء. وقاموا في الصباح الباكر يستحث بعضهم بعضا للإسراع نحو الجنة ليقطفوا الثمار. تراهم وهم يسيرون في حذر يتهامسون فيما بينهم مكررين ما عزموا عليه من حرمان المساكين. وأنهم لا يمكنون أي واحد منهم من دخول الجنة. وبذلك كانوا واثقين أنهم قادرون على حرمان المساكين بلا شك. فلما وصلوا إلى جنتهم ورأوها مسودّة قالوا لقد ضللنا الطريق فما هذه جنتنا.ثم رجعوا إلى أنفسهم فتبين لهم بما لا يدع مجالا للشك أن الجنة المحترقة هي جنتهم، وأنهم في النهاية هم المحرومون لا

المساكين. فقال أرجحهم عقلا وأثبتهم إيمانا، ألم أقل لكم محذرا من تدبيركم وأن الأولى بكم أن تسبحوا الله وأن تنزهوه أن يكون قد ظلمكم إذ جعل في أموالكم حقا للمساكين. وبالجمع بين الواقع وصدق لهجة أخيهم الرجل الصالح، استفاقوا وقالوا تنزه ربنا، إنا كنا ظالمين لأنفسنا وللمساكين. ثم أخذ بعضهم يلوم بعضا عما شجع به يوم تدبروا أمر الحرمان. صدرت منهم الحسرة في وقت واحد قائلين : إنا كنا طاغين متجاوزين للحدود. إنا تبنا مما قدمنا، ونحن نطمع أن يعفو الله عنا ويبدلنا جنة خيرا من الجنة التي فقدناها بطغياننا. إنا راغبون فيما عند الله من فضل.

على نحو هذا العذاب الذي أصاب أصحاب القرية في جنتهم، سنحرم مشركي مكة من متنوع فضلنا الذي توالى عليهم، و سيتسلط عليهم عذاب الآخرة بما هو أشد إذاية وأعظم نكالا لو كانوا يعلمون.

بيان المعنى العام :

17←18- إنا بلوناهم...ولا يستثنون.

من هم هؤلاء المبتلون ؟وابتلاؤهم بالنعمة. ذلك أن الابتلاء يكون بالنعمة ويكون بالنقمة، وفي كليهما ينكشف المبتلى عن حسن إيمان، أو عن إصرار على الكفر والعناد. قال تعالى: (**ونبلو كم بالخير والشر فتنة وإلينا ترجعون.**)[1] وقال تعالى ليبلوني:(**أ أشكر أم أكفر**)[2] يستحضر ما جمع الله لهم من النعم: نعمة الأمن، ونعمة تيسير الرزق الذي يأتيهم من كل مكان، فلم يقعوا في مجاعة مُهلكة. ونعمة توقير العرب لهم فتجارتهم تسلك جميع الطرق الصحراوية دون أن يعترض طريقها أحد. وأتم النعم بأن بعث فيهم ومنهم خاتم الرسل وسيد البشر محمدا ﷺ.

ذكَرت الآية قريشا بحدث كان معروفا عندهم يتناقلونه؛ فجمع بين وضعهم في النعيم، ورفاه العيش بوضع أصحاب الجنة. عرضت هذه القصة مشاهد:

المشهد الأول :أن رجلا صالحا أنشأ جنة تدر عليه الرزق الوفير، وكان لا يستأثر بثمارها، بل يمكن منها مساكين القرية الذين يأتونه، فينقلبون من عنده بقسطهم من الناتج. تُوفّي الأب وترك أولادا ورثوا جنته. ولما حان أوان قطاف الثمار تدبروا أمرهم. ووجدوا أن ما جرى عليهم والدهم من التفريط في نصيب غير قليل من الغلات إلى المساكين، طريقة فيها حرمانهم من قسط وافر من رزقهم. وانتهى تدبيرهم إلى أن المال مالهم، وأن الفقراء ما قاسموهم الملك ولا الأتعاب حتى

---

[1] سورة الأنبياء اية 35

[2] سورة النمل اية 40

يقاسموهم الثمار. وتحقيقا لما دبروه، وتأكيدا لعزمهم على الاستئثار بالمحصول، أقسموا أن يتوجهوا إلى الجنة في الصباح الباكر ويجتهدوا في إنهاء القطاف قبل أن يستيقظ المساكين، ويلتحقوا بهم. وإثر ذلك ذهب كل واحد منهم لينام باكرا ويستيقظ باكرا عاقدا العزم على الوفاء بما التزم به.

19←20 -فطاف عليها...كالصريم.

المشهد الثاني:

في تلك الليلة التي ظنوا فيها أنهم سينفذون تدبيرهم، وباتوا يحلمون بما سيتوفر لهم من حرمان المساكين. في تلك الليلة. ينزل الله على جنتهم ساحقا يطوف على كل شجرة، وعلى كل نبتة فيتركها أثرا بعد عين. لم يعين القرآن نوع الساحق، وتعيينه لا يهم، فاكتفى بالتصريح بأثره. تحولت الجنة التي كانت تكسوها الخضرة، وتزينها الثمار في أوان القطاف، إلى قطع مسودة متناثرة. كالصريم :فهي كالليل في سواده، أو كالرماد، مما يشير إلى أنها احترقت ولم يبق منها إلا الرماد. تم هذا وهم غافلون عنه نيام.

21←22-فتنادواصبحين...صارمين.

المشهد الثالث: وهم في القرية قد استيقظوا من نومهم، والأشد حرصا ينادي من لم يحضر، ويحرض بعضهم بعضا، هذا اليوم الذي تتغير فيه العادات، فتوَجَّهُوا إلى حرثكم في جنتكم، بناء على أنكم عقدتم العزم على الجذاذ والفوز بالمحصول وحدكم. فلا تتوانوا، ولا تغفلوا عما نحن في حاجة إليه ليتم القطاف.

23←25-فانطلقوا...على حرد قادرين.

المشهد الرابع: تراهم وهم يسيرون بخفة نحو جنتهم، يتهامسون فيما بينهم، حتى لا تحرك أصواتهم المساكين فيستيقظوا ويتبعوهم. حديثهم حديث من يعيد على نفسه وعلى إخوانه ما عزموا عليه: أنهم سيفوزون وحدهم بالمحصول الزراعي. ثم أضافوا وهم سائرون: لو أن المساكين التحقوا بهم فسيمنعونهم من دخول جنتهم. وهيج هذا التكرار غضبهم على المساكين فأسرعوا الخطى، عازمين عزما مؤكدا على منعهم. ظانين أنهم قادرون على ذلك. فالجنة ملكهم، وهو أقوياء أشداء، ولا يخشون أحدا.

26-فلما راوها...إنا لضالون.

المشهد الخامس: بلغوا جنتهم، فدهشوا. وأخذوا يتساءلون: هل إننا ضللنا الطريق. هذا هو مكان جنتنا، ولكن أين الجنة التي كانت تزهو بخضرتها وانتظام غراسها.

27- بل نحن محرومون.

رجعوا إلى أنفسهم وتبددت آثار الدهشة وعرفوا أنهم واقفون على جنتهم. وأحسوا جميعهم بالحسرة على ما بيّتوا. وانقلب التصور الذي كان يستحثهم للبكور، وللإسراع في السير، إلى إدراك الحقيقة المرة، أنهم هم المحرومون من ثمرات جنتهم ونتاجها، لا المساكين.

28←-32- قال أوسطهم...إلى ربنا راغبون.

المشهد السادس: تراهم منكسرين. يدور بينهم كلام معبر عما يحس به كل واحد على طريقته من الحسرة والأسى، بعد أن شاهدوا ذهاب أموالهم، وتحولهم من مالكين مقتدرين على المنع، إلى ضعاف لا يملكون شيئا. قام أحدهم وكان الأرجح عقلا، والأفضل نفسا مذكرا بما كان منه عندما تآمروا على حرمان المساكين، ألم أقل لكم ؟استفهام إنكاري تقريري: أي قد قلت لكم وأنتم تقلبون الرأي، محرضا لكم على تسبيح الله وتنزيهه، ولا تعترضوا على ما أمركم به، وتطهروا أنفسكم من خبث نيتكم بعصيانه فيما دعاكم إليه، وأمركم به. ظهرت حجته وبان سداد رأيه. ورأوا عاقبة تمردهم على الواجب عليهم.

كان جوابهم يتضمن إقرارا بصدقه، واعترافا بسداد نصحه، وأنه أراد بهم الخير، فركبوا رؤوسهم وعصوه، فحل بهم ما حل. خسران لمحاصيلهم، واقتنعوا أن ما حل بهم هو أثر غضب الله عليهم. وإذ كانوا لا يقدرون على رد ما ذهب عنهم فلا يخسرون مع ذلك رضا ربهم. فلهجوا جميعا: سبحان ربنا تنزه عن الخطأ، والتسلط الباطل، إذ أمرنا أن نسهم الفقراء من غلاتنا. واعترفوا بذنبهم فتوجهوا إلى ربهم مقرين بالذنب، نادمين على ما فرط منهم قائلين: بكل تأكيد إنا كنا ظالمين فيما عزمنا عليه.

وإذ انكسرت تلك السوْرة التي كانوا عليها، وتحرك التقريع الداخلي يؤنب كل واحد منهم، لانت نفوسهم، وأخذ كل منهم يحاول التخفيف عن نفسه في القرار المشؤوم الذي اتخذوه بلوم غيره، يذكر كل واحد منهم أخاه بما هيّج به عند التشاور حتى تم القرار. يتلقى كل واحد تقريع الآخر ولومه.

مع هذه الحالة النفسية المنكسرة، ومع يقظة ضميرهم باعترافهم أن ما سلط عليهم كان بسبب ذنوبهم، وأنه قد استولى عليهم حب المال واعتزازهم بقوتهم الجسدية. فأضافوا معترفين أنهم كانوا متجاوزين لحدود الله، طاغين، تبعا للكبْر الذي طمس الحقيقة عن عقولهم.

إننا لا نقطع الرجاء في فضل ربنا، فيمن علينا بما يحول حالنا في الدنيا والآخرة إلى الوضع الذي يكون راضيا عنا ؛ فيبدلنا من جنتنا التي احترقت جنة خيرا منها، وأن يغفر لنا ما وقعنا فيه من حديث أنفسنا بالمنع، وأننا نحكم في أموالنا كما نشاء. فيغفر ويذهب ذلك الشريط من صحائفنا. إننا راغبون في فضله، عازمون على القيام بطاعته والتقرب إليه.

33- كذلك العذاب... لو كانوا يعلمون.

انتهت القصة كما تمت في الوجود، فانتقل القرآن إلى التصريح بالعبرة. فيخاطب المشركين بأن العذاب الذي يترصدهم، هو كذلك العذاب الذي طاف بجنة أصحاب القرية. دمرت تدميرا سريعا في وقت غفلة من أصحابها، ولم يبق فيها أثر من حياة. تتهددهم هذه الخاتمة بأن الله الذي أتم عليهم صنوف النعم وقابلوها بالكفران وعبادة الأصنام، وتكذيب رسوله وصد الناس عن الإيمان، سيرفع عنهم الرخاء الذي كانوا يتقلبون فيه. وعذاب الآخرة سيكون أشد نكالا وأعظم إيذاء. لو كان المشركون يعلمون ما سينالهم يوم القيامة من العذاب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

تخيرون : تأخذون خيره.

بالغة : مغلظة لا تحتمل النقض.

زعيم : كفيل.

يكشف عن ساق : مثل يضرب لشدة الحال وعظم الكرب.

خشوع الأبصار : انكسارها بذلة.

ترهقهم : تلحقهم ذلة تتمكن منهم أشد التمكن.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد يستحق المتقون عند ربهم جنات كلها نعيم. اعترض المشركون زاعمين أن حظهم يوم القيامة سيكون كحظهم في الدنيا، أنهم أوفرحظا من المسلمين. كذبوا فالله لا يسوي بين المجرمين والمسلمين. ما هذه الأحكام الباطلة التي تحكمون بها؟ فهل لكم كتاب منزل من عند الله وجدتم فيه وأنتم تدرسونه: إن لكم يوم القيامة ما تتخيرونه من الجزاء ؟ أم أنتم تعتمدون في مقالتكم هذه على عهد منا موثق لا يحتمل النقض والإبطال إلى أبد الآبدين، فتحكمون بما عهدناه إليكم. وهل لكم ضامن ضمن لكم هذا العهد مما يدل على نفيه أصلا. وبقي أن يكون مستندهم تقليد أناس آخرين يقولون بمثل مقالتهم، ولا يوجد من يقول بهذا، فيتحداهم القرآن أن يظهروهم ويأتوا بهم.

اذكر لهم هول يوم القيامة، هو الهول الشديد، هو اليوم الذي يبلغ فيه الفزع حدا كبيرا، فقوله يكشف عن ساق تمثيل لصعوبة الخطب، والفزع الشديد. وهو اليوم الذي يدعى فيه الناس إلى السجود، فيسجد المؤمنون ليجدوا في ذلك الفعل القرب الأشد من ربهم. ولكن الكافرين تتصلب فقرات ظهورهم فلا يستطيعون الانحناء، فيفضحون. منعوا من السجود جزاء امتناعهم منه يوم كان ميسّرا في استطاعتهم، عندما دعاهم الرسول إلى عبادة الله والسجود له.

بيان المعنى العام :

34- إن للمتقين....النعيم.

ختمت قصة أصحاب القرية بتهديد مشركي مكة، وأنه على نحو عذابهم سيعذبون في الدنيا وعذاب الآخرة أشد. ومن شأن القرآن أن يقرن الوعيد بالوعد، والنذارة بالبشارة. فصرح مبشرا المتقين الذين ربطوا فكرهم وعملهم بالله، مؤكدا أنهم مستحقون بذلك عند ربهم جنات النعيم. فهي جنات متنوعة، كلها نعيم خالص لا يخالطها أي مكدّر مما عرف في الدنيا.

35- أفنجعل المسلمين كالمجرمين.

كما قال تعالى في المشركين من قريش : (بل هم قوم خصمون)[1] فإنه لما تتالت الآيات في القرآن تهددهم بالنكال والعذاب يوم القيامة، وتبشر المؤمنين بالنعيم والكرامة. طمأنوا أنفسهم وأتباعهم من الدهماء : أن مآلهم في الآخرة سيكون حسب أوضاعهم في الدنيا، وأن ما سينال التابعين لمحمد من الفضل سينالون مثله وأفضل

[1] سورة الزخرف آية 58

منه، كما هو حالهم في الدنيا على فرض صدق محمد في وقوع البعث. فردّ القرآن عليهم مسفها أحلامهم. من غير المعقول أن نجعل المجرمين بالشرك المتمردين على القيم والأخلاق، كالمسلين الموحدين الملتزمين بالعدل والقيم الأخلاقية في حياتهم.

36- مالكم كيف تحكمون.

تتابع في الأيات التالية، ما يسقط دعواهم أنهم سيكونون يوم القيامة أسعد عاقبة من المؤمنين.

أولا: خرجتم بكلامكم هذا عن المنطق والمعقول، فسألهم القرآن سوال إنكار، ما الذي أفسد عقولكم إلى هذا الحد حتى لم يبق لكم ميزان تزنون به أقوالكم، ولا عقل تحكمون به بما يقتضيه العدل.

كيف تحكمون... كيف تحكمون هذا الحكم الفاقد لكل مبنى: أنكم تساوون المسلمين في الآخرة مع أنكم اتخذتم طريقا في الدنيا يسير في اتجاه معاكس تماما لمنهجهم. تكفرون بما يؤمنون به، وترتكبون الشرور التي يتحاشونها.

37←38- أم لكم كتاب فيه...إن لكم فيه لما تخيرون.

ثانيا :يلجئ القرآن المشركين إلى إبطال ما ادعوه من أن حظهم في الآخرة،إن وجدت، سيكون خيرا من حظ المسلمين. فأبطل دعواهم أولا بأنها لا سند لها من العقل. ثم أبطلها في هاتين الأيتين بافتراض أن يكون مستندهم نصا منزلا في كتاب صادق، فأنتم تدرسون في هذا الكتاب: أن الله خولكم ما تتخيرون. وأنتم تخيرتم أن تكونوا على مستوى أفضل من المؤمنين يوم القيامة. ولا يخلو التعبير من أن فيه إشارة مبطنة تستهزئ بهم إذ هم أميون، ليس بينهم وبين الكتب والدراسة أي صلة.ولا متمسك لهم بهذا الدليل لأنهم لا يدعون أن بين أيديهم كتابا يرجعون إليه.

39- أم لكم علينا أيمان....لما تحكمون.

الفرض الثالث :هل أخذتم علينا أيمانا وعهودا موثقة ومؤكدة، أقسمنا لكم أن حظكم يوم القيامة سيكون حظا متميزا أفضل من حظوظ المسلمين، وهذه الأيمان لا مثنوية فيها مؤبدة إلى يوم القيامة. أي ثابتة إلى أبد الآبدين. فيكون لكم بهذه الأيمان ما تحكمون به من إكرامكم يوم القيامة.

40- سلهم أيهم بذلك زعيم.

إلجاء ليقروا بنفي ما يدعون. كان مضمون الآية السابقة نفي أن يكون لهم على الله أيمان شديدة مستمرة إلى أبد الآبدين، فأكدت هذه الآية نفي زعمهم بأن الشأن فيما

يؤخذ عليه اليمين المغلظة أن يطلب المحلوف له بكفيل يضمن وفاء المعاهد. فسلهم هل لهم كفيل بالعهد المزعوم ؟ وانتفاؤه يتبعه انتفاء العهد. وفي سؤالهم عن الكفيل تهكم واضح بهم.

41- أم لهم شركاء...إن كانوا صادقين.

هذا الفرض الأخير الناقض لتصورهم أن يكونوا يوم القيامة خيرا من المؤمنين، فلم يبق لهم إلا أن قوتهم جاءت من أن هناك من يعتقد مثل اعتقادهم، ويشاركونهم في ذلك التصور. فيتحداهم القرآن أن يظهروا هؤلاء الشركاء الذين تأيدوا بهم ويقلدونهم، إن كانوا صادقين فيما يدعون من أنه يوجد من يقول بمثل مقالهم. فهم قد انفردوا من بين العقلاء بهذه الدعوى، التي لا يؤيدها عقل، ولا نقل، ولا وعد مؤكد، ولا تقليد.

42- يوم يكشف عن ساق....وهم سالمون.

واذكر لهم يا محمد هول يوم القيامة، يوم يشتد الهول ويتفاقم. وجسم ذلك الهول بأنه اليوم الذي يكشف عن ساق. وليس المراد أن يكشف الناس عن سوقهم، ولكن هذا مثل لشدة الأمر، وهول الخطب. ذلك أن شأن الساعي إذا اشتد عليه الأمر يكشف عن ساقه ويشمر ثيابه. فهو يوم تبلغ فيه الشدة أقصاها، والفزع أبلغ صوره. ويُدْعى المشركون للسجود مع الناس، فأما المؤمنون الذين أخلصوا لله في حياتهم الدنيا، وألفوا السجود لله، فإنهم يسرعون لذلك ليجدوا في السجود الأنس الذي كانوا يجدونه في الدنيا، بإحساسهم ببالغ القرب من ربهم (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) وأما المشركون فتتصلب ظهورهم ولا يستطيعون السجود. فيظهرون بمظهر العصيان في يوم لا عصيان فيه.

ثم شهّر بحالهم، إنك تراهم وقد جللهم الذل، وتملكهم الخوف، فأبصارهم منكسرة تملكها الذل من شدة الهول ومن تيقنهم بسوء المآل.

وقد كانوا يدعون...ثم قرعهم بأنهم كانوا في الدنيا والرسول يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وتخصيصه بالسجود والطاعة، وهم في ذلك الوقت قادرون على الاندماج في زمرة المسلمين الساجدين لا علة تمنعهم من ذلك. فلم يستجيبوا فحق عليه الجزاء المذكور يوم القيامة.

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (46) أَمْ عِندَهُمُ

ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

ذرني : صيغة وعيد.

الحديث : القرآن.

سنستدرجهم : نحولهم من رتبة إلى رتبة حتى يصيروا إلى شر لا مفر منه.

أملي : أؤخرهم.

الكيد : العقوبة.

متين: قوي.

المغرم : الإتاوة الظالمة.

المثقل : الذي حمل عليه شيء ثقيل.

صاحب الحوت : يونس عليه السلام.

مكظوم : محبوس.

تداركه : لحقه.

النبذ : الطرح.

العراء : الفضاء من الأرض.

مذموم : مذنب، أو معيب.

الزلق : زلل الرجل.

الذكر: التذكير بالله والجزاء.

بيان المعنى الإجمالي :

لا تهتم بهذا الذي يُكذّبُ بالقرآن ويجهد نفسه للتأثير على أتباعه من الدهماء. اتركه لي فإني سأجعل كل نعمة تصله مني تقربه من نقمتي حتى يحل عليه عذابي. إني أُمهلُهُم ولا أُهملُهم. إن كيدي الذي بواسطته يُدمّرُون كيد قوي.

أيعتذرون عن إعراضهم بأنك حملتهم إتاوة ظالمة، ففروا من الإيمان لثقل ما طالبتهم به. بل أيعتذرون بأنهم اطلعوا على اللوح المحفوظ، ونقلوا منه ما جعلهم يرفضون هدايتك. إنهم لا يتعللون بأي علة ولا يتصور أي سبب يبرر إعراضهم

عن الدين. وإذا كان العناد هو السبب الوحيد لمواصلتهم التمسك بالكفر، فاصبر لما حكم به ربك الذي أمهلهم ولا تضجر. وكن من الرسل ذوي العزم، ولا تكن كيونس بن متى الذي ضجر من عناد قومه وتركهم بدون استئذان من ربه. وكان ما كان مما قصه الله علينا في سورة الصافات، ولولا أنه تاب توبة نصوحا جمعت بين الندم وحسن الالتجاء إلى ساحة العفو، وقوة الأمل في أشد الحالات. لولا ذلك لكانت نهايته أن يُلقى في العراء مذموما. ولكن الله قبل توبته ويسر له اليقطين يغذّيه ويستره وتاب عليه، بل إنه لم ينزل عن مكانته التي كان عليها، فجعله من الرسل الصالحين.

أسقطت كل تعلاتهم فامتلأت صدورهم غيظا، حتى إن ما تكنه صدورهم من البغض يرتسم على نظراتهم الحاقدة فيكادون يسقطونك بها على الأرض، وما يضرونك، وإذ تجردوا من كل حجة، لم يجدوا إلا أن يقولوا: بكل تأكيد إنك مجنون. وكذبوا فلا يوجد كلام لا تناقض فيه، يشبع العقول ويقوم اعوجاجها ويجيب عما يعترضها من إشكال في فهم الوجود، وفي علاقة الانسان به، كالقرآن فهو ذكر للعالمين، وأنت المذكر. صلوات الله وسلامه عليك.

بيان المعنى العام :

44- فذرني ومن يكذب...من حيث لا يعلمون.

هذه صيغة تفيد الوعيد المحقق كأن المتكلم يقول للمخاطب، لا حاجة لي بعونك فإني سأتولى بنفسي هذا المتمرد فلا يستطيع الانفلات من قبضتي. ونظيره ذرني ومن خلقت وحيدا، وذرني والمكذبين.

لا تهتم يا محمد بمن يكذب بالقرآن، ويطعن فيه، ويعمل على صد الناس عنه. اتركه لي فإنه لا يخرج عن قبضتي، وسترى ما أصنع به. سنوالي عليهم من نعمنا ما ننقلهم به من درجة كفران النعم إلى درجة أحط منها، إلى أن يبلغوا المستوى الذي يحل عليهم فيه غضبنا ونقمتنا. وهو وقت يفّجأهم، إذ ينزل عليهم العذاب في وقت يكونون فيه مطمئنين إلى ما جمعوا من خيرات، يبغتهم ويتحيرون فلا يدرون من حيث جاءهم عذابنا. إن مواصلة إحساني لمن يكفر نعمتي، لينزل عليهم من العذاب أشده وأقساه، هو من كيدي القويّ الذي لا يرد.

46- أم تسألهم أجرا...مثقلون.

إضراب عن الكلام الأول ليتسنى الانتقال إلى غرض جديد. فإذا كانت المعاذير السابقة باطلة، فلعلهم يعتذرون عن عدم الاستجابة لدعوتك على نصاعة بيانك،

وقوة حجتك، ومنطقية منهجك، أنك فرضت عليهم أداء جائرا، لا مبرر له. فهم يجدون أنك أثقلت عليهم بالمطالب واستنزفت أموالهم. وما طلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قال تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى)[1]

47-أم عندهم الغيب فهم يكتبون.

وينتقل القرآن من الفرض السابق المنافي للواقع، إلى فرض آخر لعلهم يتمسكون به لينقضه ويبطله. حاصل هذا الفرض: أنه أحصل لهم علم الغيب مما هو مكتوب في اللوح المحفوظ، فاتصلوا به ونقلوا منه ما يلزمهم اتباعه الذي منه عدم الإيمان بمحمد.

48←50- فاصبر لحكم ربك....فجعله من الصالحين.

توجيه من الله لرسوله، ليتحلى بالصبر على عناد قومه، وأن يوطد نفسه على عدم العجلة، واستعجال النتائج الحسنة المرغوب في حصولها. وحكم الله، هوما حكم به وقدّره، الذي منهُ أنه جعل لكل شيء أجلا، فانتصار الدين على الكفر المستعلي يتحقق عند بلوغ الأجل الذي أحكمه رب العزة. فلا تتعجّلْ الأمور قبل أوانها تعجلا يقترن به الضجر.

ولتأكيد الأمر بالصبر عرض عليه صورة رسول من المرسلين، امتلأ قلبه أسى وحزنا وضجرا من عناد قومه، وهو صاحب الحوت يونس بن متى، وعبر عنه بصاحب الحوت لأنه لزمه لزوما ما كاد ينفصل عنه إلا بفضل من ربه. وقد فصلت قصته في سورة الصافات.

إذ نادى ربه... أبرز القرآن الظرف الذي انتهى إليه بعد أن نفد صبره. في حالة وقت نداء ربه في الوضع الشديد، وهو محبوس في بطن الحوت حبسا يقطع الأمل من النجاة. مملوء غيظا وضجرا. دعا ربه دعاء المستغيث الذي لم يفقد الرجاء في العفو والمدد، تائبا من تسرعه، وعدم انتظار أمر ربه. فقبل توبته، وتداركه الله بحسن عفوه. ولولا ذلك الفضل لكان منبوذا ملقى بالعراء الذي لا نبات فيه ولا مأوى، مذموما بذنب الاستعجال. فمن فضل الله عليه أنه تاب عليه فارتفع الذم، وأنبت عليه شجرة من يقطين كانت له ساترا وغذاء فلم يكن في العراء. انظر ما شرحنا به الآيات 148/139 من سورة الصافات. فستره ورفع عنه المذمة. بل إن الله اجتباه، وقربه من ساحة رحمته ورضوانه، ومع العفو ومحو آثار التقصير،

---

[1] سورة الشورى آية 23

أسبغ عليه نعمة جليلة أخرى، إذ لم ينزل بمقامه عما كان عليه قبل المغاضبة لقومه وخروجه إلى البحر، فجعله مواصلا لمقامه الذي كان عليه : أنه من الصالحين.

51- وإن يكاد الذين كفروا...إنه لمجنون.

جسمت الآية ما تغلي به صدور المشركين من حقد، وما يكنونه من بغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم. تلحظ من أعينهم وهي تنظر إليه أنها تكاد تسقطه على الأرض، وتهوي به وتصرعه. ويتفاعل غيظهم، ويزداد شرا حينما يسمعون القرآن، يهزهم هزا، ويحطم كل ما بنوه من خيالات عن آلهتهم، ويبطل مستنداتهم وما يروّجونه على الدهماء ليُعْرِضوا عن الإسلام.

ويضيفون إلى الحقد والبغضاء قولهم : إن محمدا مجنون. وهو الملقب عندهم بالأمين قبل أن يوحى إليه. يقولون هذا وما استطاعوا أن يكشفوا عن تناقض أو خبال في كلامه المنزل عليه من عند الله.

52- وما هو إلا ذكر للعالمين.

يحقق افتراءهم وكذبهم ؛ أن القرآن الذي يطعنون فيه، إن حلّلتَه وتتبّعْت كل فكرة من مضامينه، وكل جملة من بيانه، لا تجد فيه إلا ما يذكر البشر جميعا بحقائق الوجود، ويكشف لهم عن المبدأ والمصير، وعن المنهج الذي به يسعدون في الدنيا والآخرة. فما محمد إلا مذكر. وكذبوا في قولهم إنه لمجنون. فهو صلى الله عليه القمة الإنسانية في الذكاء والهدى.

يوم الثلاثاء 3رجب 1435-14/6/3

سورة الحاقة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة. أخذ اسمها من الآية الأولى فيها. وهي سورة مكية باتفاق. رتبتها حسب ترتيب المصحف التاسعة والستون، وحسب ترتيب النزول السابعة والسبعون. نزلت بعد سورة الملك، وقبل سورة المعارج.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحاقة: الثابت وقوعه.
القارعة : اسم فاعل من قرعه إذا ضربه ضربا عنيفا.
الصرصر : الريح الباردة وتندفع بقوة هائلة تفزع بصوتها.
عاتية : بالغة من الشدة أقصاها.
سخرها : طوعها لتنفيذ ما أراده منها.
حسوما : أي يطلق هذا اللفظ ويراد منه التتابع، أو القطع.
صرعى : جمع صريع وهو الملقى ميتا على الأرض.
أعجاز نخل : أصول نخل.
خاوية : منخورة

بيان المعنى الإجمالي :

الحاقة التي لا شك في أحقيتها، وما الذي يعرفك بها، فهي لأهوالها أعظم من أن تُحدَّد معالمُها. ولتقريبها ذكر القرآن ما حل بالذين كذبوا بها.فعرض ما وقع لثمود ولعاد القبيلتين اللتين تصلبتا في الكفر والعناد والتكذيب بيوم القيامة.

أما ثمود فقد أهلكناها بالواقعة التي تجاوزت جميع الحدود المعروفة فدمرتهم تدميرا. وأما عاد فقد طوعنا الريح لتنفيذ أمرنا فيهم، فأهلكتهم. كانت ريحا باردة جدا تيبس كل شيء فيسهل تهشيمه. وتجري بسرعة فائقة عنيفة غير معهودة تُصفِّر فترعد سامعيها قبل أن تسحقهم. توالت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسمت أمرهم، ونقلتهم عما كانوا فيه من القوة إلى الضعف الشديد. فمشهدهم بعد ذلك أنهم جثث مصروعة فوق الأرض، نثرتهم الريح كما ترى أصول نخل مقطوعة منخورة ؛ أخرج ما كان بداخلها. فلا ترى لهم أي بقاء، هلكوا جميعا.

بيان المعنى العام :

1→3-الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة.

تفتح السورة بما يروع المخاطبين، ويزعزع باطل عقائدهم، وتثبت ما أنكروه. تتكرر الحاقة ثلاث مرات.ويمكن أن يكون مدلول الحاقة يوم القيامة، أي الساعة الواجبة الوقوع التي لا شك في إتيانها. أو أطلقت على يوم القيامة باعتبار ما يتم فيه الأمور الحق من الحساب والثواب والعقاب.أو بالنظر إلى أنه اليوم الذي تعرف فيه الأمور على حقيقتها، فبعد أن كان الحشر وما يتبعه من الحساب والمآل من الجنة والنار، من الغيب الذي نؤمن به إيمانا روحيا، يتحول هذا الغيب إلى أمر مُشاهَد محقق، يرتفع فيه ريب المرتابين. أو إن الحاقة الوقعة التي يحق فيها الحق ويزهق الباطل كيوم بدر .

وهذه الطريقة في التعبير : الحاقة ما الحاقة، القارعة ما القارعة، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، أسلوب يراد به التهويل. فيذكر الاسم الأول وهو غير معلوم عند السامع، مما يوجب أن يثيره للسؤال عنه، فيأتي السؤال بعد ذلك ليكون هو الجواب عما ارتسم في نفس السامع، وهو الخبر عنه أيضا. ولا يزيد الجواب عن السؤال ولا يتولى تبيينه قصد التهويل.وأن ما افتتح به الكلام و ما سئل عنه هو أمر مهول تذهب النفس في تصوره كل مذهب. الحاقة أي شيء الحاقة تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها. ثم يتضاعف التهويل بإلحاق السؤال التالي: وما أدراك ما الحاقة. أي شيء أعلمك ما الحاقة، أي إنك لا تعلم حقيقة كنهها وعظمتها، وإنها من الهول والعظمة والهول في مرتبة بحيث لا يبلغ تصوُّر مداها أحدٌ. والخطاب لغير معين، لكل من يمكن أن يتوجه له الخطاب، سواء أكان حاضرا أم لم يكن. ونظير السؤال بما أدراك السؤال بما يدريك، كقوله تعالى : **وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا**[1]

---

[1] سورة الأحزاب آية 63

وما يدريك لعل الساعة قريب [1] **وما يدريك لعله يزكى** [2]) ويقول ابن عباس: كل شيء في القرآن من قوله: وما أدراك ؛أدراه ربه به، وكل شيء من قوله :وما يدريك ؛طُوي عنه.

4- كذبت ثمود وعاد بالقارعة.

وقبل أن يبين المراد بالحاقة، عرض عاقبة ثمود وعاد اللذين كذبا بها ليقترن بالتهويل السابق الأثر الواقعي لمن كذب بها. وفي ذلك تعريض بالمشركين الذين سيلقون من الأهوال ما لقيت ثمود وعاد. وذكْرُ عاد وثمود من بين المكذبين، لأن مشركي مكة يتناقلون قصتهما ويمرون على ديارهما في رحلتي الشتاء والصيف. والقارعة مأخوذة من القرع الضرب القوي ويراد بها القيامة وإن كانت مرادفة للحاقة، إلا أن جذرها يدل على تجسيم ما يحْدُثُ عنها من الأفزاع والأهوال،تتشق السماء،وتفتت الجبال، وتنسف الأرض،و تطمس النجوم. ثم أخذ القرآن يشير إلى شيء مما حل بكل منهما على انفراد.

5- أما ثمود...بالطاغية.

أما ثمود فهي أمة من العرب العاربة سموا باسم جدهم ثمود.(وقد فصل القرآن الحديث عنهم وما امتحنوا به، وعاقبتهم في سورة الأعراف الآيات 79/73) وأشار هنا إلى أنهم أهلكوا بالطاغية؛ وهي ما جعل فيه الله القوة التي تتجاوز حد طاقة الأشياء فتفسد تماسكها وتدمر بذلك. الصيحة التي يرتجف لها كل شيء، فتهلكه لشدتها الخارقة للعادة.

7/6- وأما عاد فأهلكوا.. نخل خاوية.

قبيلة عاد التي بينها وبين قبيلة ثمود نسب وصلة، ذكرهم القرآن عشرين مرة. عصوا هودا رسولهم، واستكبروا. وبلغ إصرارهم على الكفر والرفض أبلغ مدى. فسخر الله الريح لتقوم بدور تدميرهم، فكانت ريحا باردة تجمد كل شيء ثم تفتته، تجري سريعة كأقوى ما تكون السرعة فتقتلع كل شيء من مكانه ومن مكمنه، تتابعت سبع ليال وثمانية أيام تحسمهم حسما وتستأصلهم. وأبرز نهايتهم بصورة أمر مشاهد لا خفاء فيه، فكل من تصح منه الرؤية يرى القوم كلهم مصروعين جثثا هامدة فوق سطح الأرض ؛ كما ترى أصول النخل وقد نخرت وتناثرت، ولم يبق منها إلا الجزء الخارجي مسوّدا ملقيا على الأرض لا قيمة له.

---

[1] سورة الشورى آية 17

[2] سورة عبس آية3

8-فهل ترى لهم من باقية.

جمع الفريقان من ثمود وعاد، وقد أتى عليهم العذاب المدمر ؛ فعقب وضعهم هذا بالسؤال المؤكد لزوالهم : هل ترى لهم من بقاء لا في ذواتهم ولا في آثارهم. ولم تبق إلا مساكنهم خاوية من أهلها. قال تعالى : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم* تدمر كل شيء بأمر بها فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم[1])

وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

المؤتفكات: قرى قوم لوط.

بالخاطئة : بالذنب المستحق للعقاب.

الأخذ : الإهلاك.

رابية : شديدة.

طغا الماء : تجاوز الحدود بقوة بالغة.

الجارية : السفينة الجارية.

واعية : أذن من شأنها أن تعي وتحفظ ما تسمعه.

الدك : دق يذهب بتماسك الشيء المدقوق.

الواقعة : مساوية في مدلولها للحاقة والقارعة.

واهية : ضعيفة، ذهب بناؤها المحكم.

الأرجاء : النواحي.

---

[1] سورة الأحقاف آية 25/24

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق من فرعون وقومه، ومن قوم لوط الذين كانوا يسكنون القرى التي انقلب عاليها إلى سافلها، التلبس بالخاطئة الإثم الكبير من الشرك ومن التصميم على الفساد. فعصوا أوامر رسلهم فأهلكهم إهلاكا قويا.

إنا لمّا قوي سلطان الماء، وتغلب على كل شيء مما تشمله الأرض فعلا عليه، أنقذناكم من طغيانه، وحملناكم في السفينة التي تمخر المياه وتجري على سطحها. فأبقينا على حياة آبائكم، ومنهم تناسلتم، ولولا نعمتنا وألطافنا لهلكتم غرقى. لتقوم تلك النعم والألطاف مذكرة لكم، ولترسخ في عقول السامعين لها.

وانتقل التذكير القرآني، من التذكير بعاقبة بعض الأمم المكذبة، وبالمنن التي توالت في الحياة الدنيا على الناجين من قوم نوح الذين عمروا الدنيا بعد الطوفان. انتقل إلى تهديد المشركين المكذبين بما يترصدهم يوم القيامة. فافتتحه بنفخ الصور المعبر عن استجابة عامة و شاملة لا يستثني منها أحداً. يتحقق ما أراده الرحمن تحققا لا تردد فيه، ولا تتبع بثانية ليتم وعيها. يتبع هذه النفخة أن ضخامة الأرض والجبال تُحْملُ كشيء تافه فترتطم ارتطاما تتحول به إلى فتات. في هذا اليوم يتحقق في الوجود قيام الساعة.وكما تتفتت الأرض والجبال، فكذلك تركيب السماء،وقوة بنائها، يختل اختلالا يذهب بتماسكها، وهي وضعُف ما كان يربط بين أجرامها. ويكلف الله نوعا من الملائكة يرقبون ما أذن الله في تحقيقه في الكون المنهار الممزق.ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية. وهو من الغيب الذي يتجاوز تصورنا المادي المحدود. فالعرش منسوب إلى الله نؤمن به، ولا نستطيع أن نتصوره، وليس هو شيء ثقيل تعالى الله عن ذلك، والثمانية عدد بدون معدود الله أعلم بمراده. يتبع هذا الخراب للكون وتحوله إلى شيء آخر، أنكم جميعا تعرضون للحساب، وقد انكشف انكشافا كاملا كل ما قدمتم في دنياكم فيحاسبكم عليه.

بيان المعنى العام :

9-وجاء فرعون ومن قبله... بالخاطئة.

يوالي القرآن تهديد مشركي قريش بعرض مآلات الأمم السابقة، وأنها جرت على نسق واحد.يستكبرون عن قبول هداية المرسلين، ويبذل المرسلون كل طاقاتهم ليرشدوهم إلى الحق فيرفضون، إلى أن ييأس المرسلون من هدايتهم فيستأصلهم الله بعذابه.

ذكر في هذه الآية فرعون الذي بعث الله له موسى عليه السلام، وعطف عليه الأمم السابقة التي كانت على شاكلته في التمسك بالكفر، وذكر المؤتفكات، وهي قرى قوم لوط عليه السلام الذي بعثه الله إلى سكانها الذين فسدوا فسادا كبيرا. وجميعهم قد

ارتكبوا الخطأ الجسيم من الشرك ومن تحكيم شهواتهم وغرائزهم في الحياة. وقام الرسل بواجبهم من تبيين الهدى والعمل على الإقناع به.

10- قابلوا مجهود الرسل ونصَحهم بالعصيان والرفض. فأهلكهم، مجسما نفاذ القدرة فيهم، بأنهم كشيء تافه تم إمساكه بسرعة، ونفذ فيه الإهلاك. وكان تدميرهم تدميرا قويا شديدا، لم يستطع فرعون ولا جنده، ولا أي فرد من قوم لوط، أن ينجو من العذاب.

11-12، إنا لما طغا الماء حملناكم...أذن واعية.

تذكير بنعمة مقلّدة في عنق البشر جميعا. إذ ما كان لهم أن يكونوا أحياء يعمرون الأرض، لولا تلكم الألطاف التي مكن الله منها نوحا عليه السلام.

إنا بعظمتنا وبمنتنا عليكم، تداركناكم بألطافنا، لما ارتفع الماء وكان أقوى من كل شيء على الأرض وبسط سلطانه عليها، فحملناكم في السفينة التي ألهمنا نوحا صنعها، بحيث كانت تجري بكل سهولة على الماء الطاغي.

لنجعلها لكم...كل ما يصدر عن الله هو لحكمة، فتلكم الترتيبات التي بواسطتها نجينا أسلافكم وكنتم أخلافا من بعدهم،كان ذلك تذكرة وعبرة سائرة توقظكم لتنتبهوا إلى ما فيها من فضل وحسن تدبير للأمور. ولتعيها أسماعكم فتنتقش في ذاكرتكم.فالأذن الواعية هي حاسة السمع التي لا تُضيِّعُ ما يرد عليها.

13- فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة.

توالى التهويل على المشركين من مفتتح السورة بما سلطه الله من تدمير للمعاندين. وانتقل التهويل من الدنيا إلى التهويل بما يحدث في الآخرة.وافتتحه بأول المراحل: بانتهاء النظام الذي كان يحفظ الكون. وربطه بالنفخ في الصور، الذي يطلق على قرن ينفخ فيه النافخ فيبلغ صوته الشديد أسماع الجيش المخلّد إلى الراحة، المتفرق في الأرجاء، فينبعثون سراعا إلى مكان الاجتماع المعلوم عندهم.فهو صوت عنيف بدون حروف، وتأثيره في السامعين التأثير الذي ينفرون به سراعا إلى مكان الاجتماع بدون تريث ولا مهل. ومُنطلقة مع قوة تأثيره شيء لطيف جدا: نفخة. فهل يتم النفخ في الصور يوم يقضي الله بفناء العالم، فيحدث عن ذلك النفخ ما يحدث مما سيفصل القرآن لاحقا شيئا منه ؟ بهذا أخذ جمهور المفسرين. كما يمكن، وهو ما أرجحه، أن يفهم الحدث على أنه تقريب لما اعتاده الجيش في الدنيا، من الاستجابة لصوت البوق. والآية تعبر عن شيء من الغيب فتقربه للأذهان بصورة من صور الدنيا دون أن يراد من ذلك الحقيقة، وإنما المراد والله أعلم :أنه عندما

تتعلق الإرادة بفناء الكون يتم ذلك بـدون معالجـة، ولكـن تنفـذ القـدرة بسـرعة فائقـة وبخلق استجابة في الكون لإرادة الفناء كأنهـا نفخـة واحـدة، فـإذا الكـون كلـه هبـاء. فالتعبير عن السبب المؤثر بكلمة: نفخة، بمفهومها اللطيـف اللغـوي، وبلحـاق التـاء بهـا الدالة على الوحدة، وبتأكيد الوحدة بقوله نفخة واحدة. وفـي ذلـك مـا يشـير أيضـا إلـى أن الوحدة ليس المراد منهـا التعـداد، ولكـن الحصـول لمـا يـراد منهـا،يتحقق بـدون تكرار. كل ذلك يشير في نظري إلى نفاذ القـدرة حسـبما رجحتـه الإرادة، مـع ربطـه بقوله تعالى: (بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنمـا يقـول لـه كـن فيكـون[1]) وقد تكرر هذا المفهوم ثماني مرات في القرآن ليكون مرجعـا فـي فهـم القـدرة الإلهيـة، وتأثيرها في تحقيق مراد الله تعالى.

14- وحملت الأرض والجبال...

تصور الآية الكتلة الضخمة للأرض بما عليها مـن جبـال شـيئا خفيـف الـوزن، يحمـل لترتطم الأرض والجبال ببعضها ارتطاما عنيفا، يذهب بصلابتها فتتفتت.

15- فيومئذ وقعت الواقعة.

يوم نفخ في الصور... وحملت الأرض...وقعـت الواقعـة، وتحقـق فـي الخـارج مـا كان متوقعا، مما أوعدهم به الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم.والواقعـة كلمـة مرادفـة للحاقة التي افتتحت بها السورة، وللقارعة أيضا التي كذبت بها ثمود وعاد الآية 4.

16-وانشقت السماء....واهية.

السماء بناء محكم جاذبية كل كوكب لغيره، وجاذبيـة كـل مجموعـة لغيرهـا تبلـغ مـن القوة في التماسك ما هو أشد تماسكا من أصلب المعـادن. قـال تعـالى: (والسـماء ومـا بناها[2]) وتكرر التصريح بقوة بناء السـماء سـبع مـرات فـي القـران. هـذا التماسـك القوي الذي يحفظ كل كوكب في مسـاره، وكـل مجموعـة أيضـا، التـي تبلـغ أبعادهـا السنوات الضوئية، مما لا يحيط بعلم تفاصـيله إلا الخـلاق العظـيم. يختـل ذلكـم النظـام وينخرم التماسك، فإذا بها ضعيفة ذهب التحامهـا، فأصـبحت كبيـت العنكبـوت. فسـدت الجاذبية التي بنى الله عليها الكون وقدره إلى أجل مسمى. هـو هـذا الـذي أشـارت إليـه الآية. فهي يومئذ، في هذا اليوم واهية غيـر متماسـكة ذهبـت صـلابتها. جـرى عليهـا ما جرى على الأرض.

---

[1] سورة البقرة آية 117

[2] سورة الشمس آية 5

17-والملك على أرجائها...ثمانية.

هذه الآية تتحدث عن أمور غيبية تقصر اللغة عن الوفاء بما يراد منها، كما تقصر العقول التي استمدت قدراتها من تجاربها وتمثلها للكون من عملها فيه تصورا واستنباطا، وبناء، عن الإدراك الدقيق الذي يجيب عن جميع التساؤلات. فالذي أفهمه أن فساد الكون وزواله من الوضع الذي هو عليه وتحوله إلى وضع آخر، الله أعلم به، يوكل به الملائكة الذين ينفذون ما يأمرهم به خالقهم. فهم منبثون في جميع النواحي،وهم محملون بمهمات تتناسب مع الوضع الجديد. مما يحقق الصفة الأبدية الأزلية لربنا من الحكمة والعلم.

ويحمل عرش ربك... كل ما أضيف للذات العلية في القرآن يجب أن يفهم

أولا: على أنه حق لا شك فيه.

ثانيا: أن كل تصور يجري على مقارنة الله سبحانه بما عليه العالم المحدث، هو تصور بعيد كل البعد عن الصواب، خطأ لا شك فيه.

ثالثا: أن العقول عاجزة عن تحديد المفهوم المدلول عليه بالتعبير اللفظي، وكل ما ارتسم في العقل من تلك الكلمات والتراكيب، غير مراد قطعا.

رابعا: أن هذا من الغيب الذي جعله القرآن أحد عناصر الإيمان، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب.سورة البقرة آية3/2– فمن حاول تفسيره بما يقربه للتصور البشري فقد أخرجه عن كونه غيبا.

فالذي نعتقده أن عرش الرحمن لا يقبل بحال من الأحوال أن يفهم على الجسمية، وأن له أبعادا، وأنه لثقله يحمله ثمانية من الملائكة على صورة الوعول أو الأسود أو البشر، أو لهم وجوه عدة، فهذا كله من الخيالات التي يجب أن ننزه ربنا عنها. ولا يفهم من الفوقية فوقية مكانية، هي كقوله تعالى:(وفوق كل ذي علم عليم)[1]. وقوله تعالى يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون[2]) وقد وردت مادة فوق واحدا وأربعين مرة معظمها لا يمكن حمله على البعد المكاني. ولا من الحمل أنه معالجة ثقل.كقوله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها[3]) (وقد خاب من حمل ظلما[4]) (مثل الذين حملوا التوراة)[5]

[1] سورة يوسف آية 76

[2] سورة النحل اية 50

[3] سورة الأحزاب 73 آية

[4] سورة طـه اية111

[5] سورة الجمعة اية 5

والثمانية عدد بدون معدود، فماهي الثمانية ثماني ملائكة، وثمانية صفوف،ثمانية قوى. فهو أمر مغيب أيضا.

فعرش ربنا مضاف إلى ربنا إضافة تشريف، و الله أعلم بمراده. والتعبير يدخل في النفس مهابة تلتئم مع ما ذكره عن يوم القيامة.

18-يومئذ تعرضون...خافية.

في اليوم الذي تقع فيه الواقعة تعرضون على ربكم، لا يهمل أحد، ولا يختفي. وعرض البشر في ذلك اليوم هو لحسابهم عما قدموا. ويصحبه العرض بمعنى إمرار البشر على من يتولى حسابهم.

لا تخفى منكم خافية... تتكشف أعمالكم فلا يخفى منها شيء على الله، لا ما أظهرتموه في حياتكم ولا ما أخفيتموه، وجعلتموه من أسراركم الخاصة. ويتبع ذلك أنه لا يلتبس مؤمن بكافر، ولا بمنافق، ولا من اتقى ربه حق التقوى، بمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

هاؤم : خذوا. أو تعالوا.

عيشة : هيئة العيش وطريقته.

راضية : يبلغ صاحبها رتبة الرضا عما هو فيه فلا يطمح إلى أمر آخر.

قطوفها : ما يقطف من ثمرها.

دانية : قريبة يتناولها بدون جهد ولا كلفة.

هنيئا: ثبت لكم الهناء فيما تتناولون.

أسلفتم : بما قدمتم سابقا.

الخالية : الماضية البعيدة.

بيان المعنى الإجمالي :

الناس في يوم القيامة نوعان : نوع مكرم، هو من أوتي كتابه بيمينه. ونوع معذب مهان،وهو من أوتي كتابه بشماله

فأما من أوتي كتابه بيمينه، فإنه يشعر بعظيم الفرح وبالغ الطمأنينة بمجرد ما يتلقى كتابه باليمين.فيقول : تعالوا انظروا إلى ما أكرمني به ربي في كتابي، إني ظننت أن ما سألقاه من النعيم محقق لا شك فيه. وفعلا يكون منغمسا في عيشة كلها رضا، يسكنه ربه جنة عالية المقدار، يطوع لها شجرها فتدنو منه لقطاف ثمارها. ويقال لأصحاب اليمين :قد أذنت لكم أن تتنعموا في الجنة بكل ما ترغبون فيه.هنيئا لكم ما تأكلون، وما تشربون. هو جزاء لما قدمتم في حياتكم الدنيا من فعل الصالحات، ونقاء العقيدة والرجاء فيما عند الله.

بيان المعنى العام :

هذا المقطع يبشر القرآن فيه الفائزين يوم القيامة، وتنقسم البشارة إلى قسمين:

أولهما: يسجل القران ما عليه أصحاب اليمين من البشر والسرور، وما يصدر عنهم وقد وثقوا بفوزهم.

والثاني: يسجل عطاء الله وفضله عليهم.

19←20-فأما من أوتي...ملاق حسابيه.

الأول : فأما من أوتي كتابه بيمينه... الذي أخذ كتاب أعماله باليمين، وهو تجسيم لكونه من أهل الكرامة وأنه معتز بكتابه، ويأنس به.كقوله تعالى: (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين)[1] تستولي عليه الطمأنينة بحسن العاقبة، وتلك الفوز العظيم. وتمتلئ نفسه بمشاعر الغبطة والفرح، فيشرك في مشاعره إخوانه المؤمنين. ويقول لهم تعالوا ! خذوا كتابي فاقرأوا ما فيه. ليس تلك افتخارا، ولكنه حديث بنعمة الله عليه، بما غفر له من ذنوبه، وضاعف من حسناته، فجعل صفحات أعماله مشرقة بالقبول من ربه الكريم. تعالوا: اقرأوا كتابيه، والهاء في كتابيه، هاء يُلْحِقُها العرب بآخر الكلمة لمراعاة كون المتكلم يقصد الوقوف على الكلمة ولا يلصق بها غيرها تسمى هاء السّكْت. وهي لا تدل على معنى زائد على ذلك.

ويواصل بقوله: إني موقن بأني سألقى حسابي على ما سجل في كتابي، أي هو حساب ينتهي بي إلى الكرامة وحسن الثواب، فهو يعبر بكلامه هذا عن تأصل البهجة والفرح بمآله. واستعمال كلمة [ظننت] مقصود به اليقين، باعتبار أن الجزاء الذي يرقبه، لم يوجد بعد. فاستعمال الظن في اليقين استعمال حقيقي، كأنه يقول إن ما أتيقنه: أني ملاق حسابيه الذي لم يوجد بعد.

---

[1] سورة الواقعة آية 27

21←24- فهو في عيشة راضية...الأيام الخالية.

الثاني : يصرح القرآن بجزاء من أوتي كتابه بيمينه.

أ–هو بصفة عامة منغمس في عيشة راضية. والعيشة هي الهيئة والطريقة الشاملة لكل ناحية من نواحي حياة الإنسان المادية والمعنوية وراضية: الرضا يتعلق بصاحب العيشة، فكأنه لقوة رضاه عن عيشته، أصبحت العيشة ذاتها موصوفة فاعلة للرضا.

ب –يتقلب في عيشته في أرجاء جنة عالية.وهل علوها علو مكاني بمعنى الإشراف، أوهو علو معنوي إشارة إلى سمُوّ ما يناله في الجنة ؟ لا تناقض بينهما، ولا مانع من الجمع.

جـ- من عناية الله بإكرام المرضيّ عنهم أنهم يتناولون ما يشاؤون من ثمار الجنة بدون أي جهد ولا كلفة، كأن الله يحدث في شجر الجنة إحساسا يجعلها تقرب ثمارها من أصحاب الجنة بمجرد رغبتهم في النيل منها.

كلوا واشربوا...أذنا لكم في التنعم بكل ما تلقونه في الجنة من طعام وشراب،هنيئا لكم تَوَكُّلكم، تجدون رفيع لذته، ولا يتبعه أي مغص أو ألم أوثقل شبع.

تلكم العناية التي تتجاوز ما تتصورونه، وإن كان قد قُرِّبَتْ لكم على حسب مقاييسكم في الدنيا،هي ما قدّرته جزاء لكم بما سبق لكم أن أنجزتموه من صالح الأعمال، ونقاء العقيدة، وحب ما عند الله، في الأيام السابقة التي قضّيتموها في حياتكم الدنيا الماضية البعيدة في التاريخ.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

هلك عني : غاب عني، لانعدامه.

غلوه : ضعوا الغل في عنقه.

صلوه : أحرقوه بالنار.

فاسلكوه : اجعلوه مكبلا في سلسلة.

السلسلة : مجموعة من حلق حديدية متداخلة لقوة شد من تحيط به.

حميم : قريب ناصر.

غسلين : طعام كأشد ما يكون استقذارا مما يعذب به الكفرة في النار.

الخاطئون : المرتكبون لأشنع الخطايا متعمدين، وعلى رأسها الشرك بالله.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل القرآن ليبين مآل الشق الثاني الذي أوتي كتابه بشماله، ممن كتب له الشقاء يوم القيامة.وبمجرد ما يتلقى كتابه بشماله، يحصل له اليقين بسوء مآله، فتتابع حسراته : يا ليتني لم أعط هذا الكتاب الذي يحمل لي التعاسة، ولم أدر ما سيكون عليه حسابي الذي لا خير فيه، يا ليت نهايتي حصلت مع ورود هذا الكتاب.أين مالي الذي كنت أعتزُّ به ، ذهب كله، أين سلطاني الذي كنت أخضع به الناس، ذهب المال والسلطان، وتجرّدْتُ من كل قوة.

ويأذن الله ملائكة بتسليط العذاب الذي كتبه عليه. يأمرهم أن يأخذوه أخذا لا يستطيع انفكاكا منه بقوة وإذلال.ثم أن يحرقوه بجحيم جهنم.وأن يوثقوه بسلسلة من حديد طولها سبعون ذراعا، تلتف على كل جزء من أجزائه فيفقد القدرة على الحركة.إنه جزاء عدل، لمّا كان لا يؤمن بوجود الله العظيم.ولا يرى من واجبه أن يلفت الواجدين إلى إطعام الجياع من المساكين. هو لا يتألم لألمهم ولا يجود لهم بشيء. في هذا المآل فقد الصديق الحميم الذي يدفع عنه.وفي هذا الموقف لا يقدم له إلا طعام من غسلين أقذر ما يتصور من طعام.لا يقدّم إلا للذين استولت عليهم خطاياهم وغرقوا في آثامهم.

بيان المعنى العام :

هذا المقطع ينقسم أيضا إلى قسمين، في خمس آيات يندب حظه، ويأكله الندم على ما فرط، ويتمنى كل شيء إلا الموقف الذي هو فيه وما ينتظره.

والقسم الثاني : يصرح القرآن بما يأذن الله في تنفيذه عليه من أنواع عذابه.

25—29، وأما من أوتي.....عني سلطانيه.

بمجرد ما يتلقى المعذَّب المهان كتابه، الجامع لما قدم في الدنيا من فساد وشر، ومن ظلم وتجبر وكفر، يتمنى أمنيتين.

الأولى: يتمنى أن لا يكون أجبر على تناول كتابه، وأن يكون محفوظا عند الملائكة لا يعلم ما فيه، فإن في كل مفسدة من أعماله ما يضاعف حزنه وأساه على ما فرط

منه. ومن انحرف عن الصراط المستقيم، وكفر بالله تكثر سيئاته، وينساها، فإذا اطلع عليها في كتابه تذكرها، وحضره الوعيد على ارتكابها. ويتمنى أن لم يعلم كنه حسابه، فإنه كلما اطلع في صفحات كتابه على أعماله مقرونا كل عمل بعقابه تعاظمت حسرته، واختنق بما ينتظره من العذاب والمهانة.

الثانية : يا ليت الموتة التي متها في الدنيا وتجرعت ألمها كانت القاضية التي لا قيام بعدها.أو يا ليت ما كتب في صحائفي والتزعاجي الأكبر يقضي علي فأموت.ثم يحضره ما أوتيه من عز في الدنيا بكثرة أمواله التي كان يتجبر بها، ويتمنى الناس أن لو كانوا مثله في سعة الرزق، وهو يأمر فيطاع، ويتقربُ له من حوله فيقضون له ما يريد، فيتحسر على وضعه اليوم ويقول : ما أفادني مالي شيئا. وحسرة الفقراء الذين كانوا لهم تبعا أشد. إذ حرموا المال في الدنيا، وتعلقوا به وحده على أن السعادة كلها في سعة المال، فيشاهدون في هذا الموقف الذل، إذلال أنفسهم في الدنيا لأصحاب المال، وذل جزاء التعلق به والكفر بالله.

هلك عني سلطانيه...تبخر السلطان الذي كنت به في الدنيا لا ترد لي كلمة، آمر فأطاع، ويذعن الناس لي. فأنا اليوم ذليل، والشعور بالذل بعد ما كان عليه من مظاهر العز أشد إيلاما لنفس المتجبرين.

القسم الثاني : تفصيل العذاب والمهانة التي يأذن الله بتسليطها عليه.

30←33-خذوه...طعام المسكين.

يأمر الله الملائكة الموكلين، أن يأخذوه بعنف ليضعوا الغل في عنقه، شأن المجرمين إثر صدور الحكم عليهم. ثم اجعلوه يحترق بالنار، وفوق ذلك لفوا عليه سلسلة طولها سبعون ذراعا لا تبقي جزءا من بدنه إلا لُفّتْ عليه فلا يستطيع حراكا.

إن هذا العذاب عذاب لا ظلم فيه، ولا قسوة. لأنه كان ينفي الألوهية عن الله المتصف بالعظمة، فهو قد تجرأ على العظيم الأعظم، وأنكر وجوده. وكما فسدت رابطته بالله، فإنه كان كذلك لشرِّه لا يحث غيره على الرأفة بالمسكين وإطعامه عندما يشتد به ألم الجوع، فهو لا يرضى لغيره أن يجود على المسكين، مما يدل على أنه بماله أشد بخلا.

33←37- إنه كان لا يؤمن...إلا الخاطئون.

عددت مناكره، وعظائم آثامه، وعظمت قسوته، وفقد الرابطة بالله، وبعباد الله المحتاجين البائسين، فلا يجد في هذا اليوم صديقا حميما ولا قريبا يدافع عنه، تُرك لنفسه. يزيده انفراط الناس عنه حزنا وعذابا.وكما أنه لم يتحرك لألم جوع الجياع،

فإنه لا يُطْعَمْ في هذا اليوم إلا طعاما واحدا كأشد ما يكون قذارة ونتنا. قال تعالى: (يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان[1]).هو الغسلين الذي يقدم لمن كانت خطاياهم عظيمة تنبع من نفس شريرة وقاسية.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

كريم : الأنفس والأفضل في صنفه.

التقول : نسبة قول لمن لم يقله.

أخذناه باليمين : لعجلنا إهلاكه.

الوتين : عرق معلق به القلب.

حاجزين : دافعين.

بيان المعنى الإجمالي :

ما سيأتي مؤكد بالغ التأكيد، لا يستحق أن أقسم عليه،بهذا القسم العظيم : أما القسم فهو بكل ما يدخل تحت أبصاركم من المحسوسات،وما لا يدخل تحتها من المعقولات والمغيبات ؛إن هذا القرآن قول رسول مني، متميّز بين الرسل كريم.لا صلة بينه وبين خيالات الشعراء. والذي لبّس عليكم رميه بالشعر هو عدم إيمانكم، وهو بعيد كل البعد عن الكهانة، ورميكم الباطل له بالكهانة هو لعدم تأملكم في مضامين ما أتى به، فتكلمتم بما لا يستند إلى تذكر وتبصر. وهو تنزيل منا بلغه جبريل عليه السلام لمحمد عليه الصلاة والسلام.

ثم أضاف القرآن حجة عقلية تنفي ما يزعمونه من أن القرآن من عنده حاصلها : أن الله العظيم لا يهمل من يتجرأ عليه فينسب له أقوالا لم يقلها، فلو أضاف محمد إلينا شيئا ولو كان قليلا، إذن لعطلنا قواه، ثم قضينا عليه بقطع عرق القلب الذي يروي الجسم بالدم فيموت حالا. ولا يستطيع أحد منكم أن يرد عنه حكمنا.

[1] سورة إبراهيم آية17

بيان المعنى العام :

38←39: فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون.

هذه طريقة في التأكيد بالقسم، يصرح فيها المتكلم، وهو رب العزة، أن المقسم عليه بلغ من الثبوت والتأكد درجة فوق أن تحتاج لتأكيدها بقسم. فهذا تأكيد أول في الآية.

وتأكيد ثان: أن الله جمع في المقسم به ما تدركه أبصار البشر، وما لاتدركه أبصارهم فجمع بين المحسوس والمعقول والمغيبات. ما تدركه الأبصار من المحسوسات، وما في كل صنف منها من عجائب الخلق، وكمال التقدير، مما يظهر لأول نظرة، وما هو وراء ذلك. من الصور الظاهرة، وما تركّبت منه من الأجزاء الكبيرة كالرأس مثلا، وما تركب منه من الأجزاء الدقيقة كالخلايا، المتنوعة والتي جرى تقديرها على نظام محكم عجيب.

ومن المعقول ما يجري في عقولنا من المفاهيم، والعقائد،والميول،ومن الإرادات، ومن الأرجاع الحاصلة تبعا لما لا يمكن استقصاؤه من الاستجابات.

ومن المُغيّبات، مما يتعلق بالذات الإلهية، ومما نؤمن به من الملائكة والقدر والبعث، والحساب، والجنة والنار.

هذه كلها جمعها القسم، مما يلقي في النفس ضخامة ما أراد الله إثباته، وطرد كل ما يعمل الشيطان والمشككون للنيل من أحقيته.

40-إنه لقول رسول كريم.

المقسم عليه : إنه، أي القرآن، لقول رسول كريم.ونسب القرآن إلى رسول الله باعتبار أنه على لسانه ﷺ بلغنا، وأنه من ناحية ثانية هو الأقدر على بيانه، وتقريب مفاهيمه العميقة للناس، وإعطاء صورة تطبق مضامينه.

مميزات مبلغه: رسول كريم، هو رسول من عندي فالقرآن الذي بلغه هو كلامي وقد اخترته من بين العالمين، وفضلته على بقية المرسلين، فوصفه بالكريم، يفيد أنه الأفضل.

41←42-وما هو بقول شاعر..قليلا ما تذكرون.

صُدم رؤساء الشرك بقوة القرآن وبلاغته، وقوة تأثيره، وخشوا أن يؤثر في الدهماء أتباعهم، فأخذوا يلفقون التهم التي تحطّ منه. فقالوا هو شاعر: فالصور التي يتحدث عنها، ويبشر بها وينذر، هي صور لا أحقية لها، ولا تعدو أن تكون من تصورت الشعراء الذين أوتوا قوة خيالية مبدعة. فنفى القرآن بالقسم الغليظ أن يكون

شاعرا.ولكن الذي سوّل لهم رميه صلى الله عليه وسلم بالشعر، هو عدم إيمانهم، فقليلا تفيد نفي الإيمان عنهم، لا قلته. وهو أسلوب عربي يرمي إلى التهكم منهم لمّا لم يتدبروا فيؤمنوا.

كما رموْهُ بأنه كاهن، جمعوا بين إخباره عن المغيبات التي سيلقونها يوم القيامة، وبين الكهانة التي يخبر بها الكاهن عن المغيبات في كلام يحتمل أكثر من معنى، ويعتمد في ترويج كهانته بالتقصير في الجمل، وبالسجع. فنفى الله عن رسوله أن يكون كاهنا لا يوجد أي وجه يُقرّب بين القرآن الذي يدعو الناس إليه وبين الكهانة، فهو لا يتنبأ بمشاكل قريبة في الحياة الدنيا، ولا يعطي لكلامه صورة تحتمل عدة وجوه قابلة للتأويل، ولا يعتمد على الجمل القصيرة المسجعة. وما رميهم له صلى الله عليه وسلم بالكهانة إلا لأنه عميت بصائرهم ففقدوا تبعا لذلك القدرة على التفكر، واختلط عليهم الأمر، تبعا لعنادهم.

43-تنزيل من رب العالمين.

وإذ بطل ما رموه به من الشعر والكهانة،وأبعد القرآن عن رسوله ما لا يليق به، صرح بكنهه وحقيقته : أنه تنزيل من رب العالمين، ليس لمحمد فيه دخل، تولى الله بواسطة جبريل تنزيله على أشرف الرسل محمد ﷺ، نزله لأنه رب العالمين جميعا. كما خلقهم هو يهديهم للتي هي أقوم في حياتهم الدنيا ويوم يبعثون إليه.

44—46- ولو تقول علينا بعض الأقاويل...منه الوتين.

في هذا المقطع إبطال لما رمى به الكافرون محمدا صلى الله عليه وسلم، أنه أتى بهذا القرآن من عنده، ونسبة إلى الله،بالحجة العقلية التي لا تحتمل النقض. لو أضاف محمد إلينا بعض الأقاويل شيئا قليلا لم يصله منا، فإنا لا نمهله بتابع نسبة مالم ننزله عليه إلينا. وجسّم هذه الحيلولة بأنه يسلبه قوته التي بها يتحدث، ويتكلم، ويدعو الناس. فأطلق الأخذ باليمين على ما يفيد سلب القوة عنه التي بها ينشر ويخاطب الناس، لأن اليمين هي الجهة التي تظهر فيها قوة الإنسان بصفة أفضل. بل إننا نقضي عليه قضاء معجلا، فنقطع وتينه وهو العرق المعلق به القلب الذي يضخ الدم في الجسم بما يبقي على حياة الإنسان، فإذا قطع الوتين حرم الجسم من الدم وأسرع الموت.

47- فما منكم من أحد عنه حاجزين.

ننفذ فيه عقابنا ونقضي عليه،دون أن يستطيع أحد منكم أن يحول بين قضائنا المبرم وبينه.ولمّا كانوا لا يحبون الرسول وكل ما يتمنونه أن يقضى عليه، فإن في الآية

إشارة إلى تيئيسهم من أن يقول على الله ما يوافق هواهم. مما أشار إليه قوله تعالى: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا* إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا*)[1]

وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

التذكير : التنبيه إلى ما غفل عنه.

الحسرة : الندم الشّديد على شّيء فاتَ.

بيان المعنى الإجمالي :

القرآن كما يعرفه منزله تعالى: إنه يذكر المتقين بصلتهم بربهم فيحيي في نفوسهم دواعي الخير والاستقامة. أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يعلم سبحانه أن فريقا من المخاطبين به مصممون على تكذيبه.وإنه بذلك سيكونون مستغرقين في الحسرة والندامة على تفريطهم الانتفاع به. وإن القرآن لهو الحق اليقيني. أنزلناه عليك وهديناك لاتباعه، وكلفناك بإبلاغه. وإنها لنعم جلّى، فسبح باسم ربك الموصوف بالعظمة على ما أنعم به عليك.

بيان المعنى العام :

48-وإنه لتذكرة للمتقين.

لما أبطل كل ما رموا به القرآن المنزّل عليه من أكاذيبهم، صرح بحقيقته التي تميزه،وهو أنه يذكر المتقين فيجعل صلتهم بالله صلة حية متجددة.فكلما نزلت آية زادتهم إيمانا، وكلما تلوه أو سمعوه تأثروا به،وربطهم بربهم فيزدادون إقبالا على فعل الطاعات، والتّوقّي مما لا يرضيه. كما أن القرآن يحرك القلوب، ويبعث في الأرواح البواعث التي تقربهم من الخير.

49←50- وإنا لنعلم...على الكافرين.

وفي المقابل فإنا نعلم أن من المبعوث إليهم من صمموا على الكفر به. وإن أثر القرآن على الكفرة المكذبين بحقائقه، حسرةٌ وندم شديد على عدم الأخذ به والالتزام

---

[1] سورة الإسراء آية76/73

بهداه. هو حسرة عليهم يوم يلقون ما ترتب على عدم الأخذ به، ويواجهون سوء المصير، فيتحسرون على تفريطهم في الوقت الذي لا تفيدهم الحسرة إلا عذابا نفسيا.

51- وإنه لحق اليقين.

ثم أكد بلوغ القرآن أعلى درجات الحق الموصوف بكونه يقينيا. فهو الحق الموصوف بكونه يقينيا. ووصف القرآن (بأنه لحق اليقين)[1] أيضا.

52-فسبح باسم ربك العظيم.

رتّب سبحانه على ما أوحاه لنبيه من الهدى القرآني، المنزه عن كل نقص، النافي لجميع المطاعن التي حاول بها المشركون التشكيك فيه أو استنقاصه، رتب أمره لرسوله :أن يلهج لسانه بالتسبيح لله تسبيح ثناء وتعظيم شكرا على أنعم به عليه.فالتسبيح ملائم لما أمر به، إذ التسبيح هو تنزيه الله عن كل نقص اعتقادا وقولا وعبادة. وهو غاية ما يدخل في طوق الإنسان من الثناء على ما أنعم به رب العباد. قال ابن عطية: روي أن رسول الله ﷺ قال لما نزل عليه، فسبح باسم ربك العظيم: اجعلوها في ركوعكم) وكره مالك التزامها خشية اعتقاد وجوبها، تحرّيا منه رضي الله عنه من أن يظن ما ليس واجبا واجبا.

يوم الاثنين12 شعبان 1435-2014/6/09

[1] سورة الواقعة آية 95

سورة المعارج

عرفت بهذا الاسم في معظم المصاحف وكتب التفسير. وورد اسمها بـ(سورة سال سائل) في صحيح البخاري وجامع الترمذي وتفسير الطبري وابن عطية وابن كثير. واستمدت تسميتها من الكلمات الواردة في الآيات الثلاث الأولى منها.

هي سورة مكية باتفاق. رتبتها السبعون حسب ترتيب المصحف، وحسب ترتيب النزول الثامنة والسبعون. نزلت بعد سورة الحاقة،وقبل سورة النبأ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ (2) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا (6) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ (11) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ (13) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (14) كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (15) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (16) تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (18)

بيان معاني الألفاظ:

المعارج : ج معْرَج، وهو ما يصعد بواسطته.

الصبر الجميل : هو الصبر النقي الذي لا يخالطه ما ينافيه.

بعيد : ممتنع الوقوع.

قريب: محقق الوقوع.

المهل : دردي الزيت.

العهن : الصوف.

الحميم : الخليل الودود.

يود : يحب، ويتمنى.

المجرم : الكافر المرتكب للذنب العظيم.

يفتدي : يحمي نفسه بما يقدم عنها من عوض.

صاحبته : زوجه.

فصيلته : الأقرباء الأدنون من القبيلة كالأم والأب.

يأويه : يضمه وينحاز إليه.

نزاعة : قالعة.

الشوى : جلدة الرأس.

تدعو : تنادي نداء يستجيب له قسرا من قُصد به.

أدبر : ترك الإقبال على الاستجابة لدعوة النبي ﷺ .

تولى: آثر الإعراض عما دعي إليه غيره.

بيان المعنى الإجمالي :

تصور السورة ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من عناد المشركين، وتلوُّنهم في إدخال الشك على الناس ليصرفوهم عن الإيمان.فسأل سائل منهم عن موعد العذاب استبعادا له. ودعا بعضهم أن يعجل بالعذاب. والعذاب محقّقٌ وقوعه. لا تستطيع أي قوة أن تدفعه. آتٍ من الله العظيم المتعالي في عظمته. تعرج لعليّ مقامه الرفيع عروجا معنويا لا حسيا الملائكة وجبريل تأخذ عنه ما يأمرهم به وما يأذن لهم فيه، وتنزل من مقامات القرب إلى مواقع التنفيذ.وتقريبا للأفهام بما عهدته في الدنيا ذكر أن مقدار ذلك اليوم خمسون ألف سنة. والله أعلم بحقيقة ذلك. ولكنه يفضح غلظ عقول المشركين وبُعْدَهم عن السمو الذي يفتحه القرآن للمؤمنين به.

قابلْ تصلبهم في الكفر بالصبر الجميل الذي لا يصحبه ضجر، ولا استبطاء. إن المشركين يرون تنفيذ الوعيد فيهم يوم القيامة مستحيلا، ونحن و الأمر بيدنا نراه واقعا غير بعيد و لا شك فيه.

تعرج الملائكة والروح لرب العالمين يوم تتحلل السماء والجبال، فتتحول إلى شيء شبيه بدردي الزيت، وتتفتت الجبال فإذا هي كالصوف المنفوش متفرق الوحدات مشكل الألوان. ويصاب الناس بالذهول فيرى الصاحب صاحبه الحميم في أشد الكرب فلا يسأل عنه لأنه مشغول عنه بما تراكم عليه من الأهوال والهموم.

كل همه وكل ما يتمناه، ويحبه أن يجد ما يقدِّمُه فداء لنفسه من الأهوال والكروب. يتمنى لو يدفع ببنيه الذين كانوا أعز شيء لديه في الدنيا،أن يدفعهم فداء لنفسه، أو

يدفع زوجه التي كانت مستودع سره لتكون عوضا عن عذابه، أو يقدم أخاه أو قبيلته التي كانت العصبية بها في الدنيا تحميه، بل يود أن يقدم كل ما يملك من عزيز وغال لينجيه من العذاب.

تلكم الأماني لا تحقق له شيئا، أمان باطلة. إن ما يواجهه حتما لظى محرقة من لهب جهنم. بمجرد ما يلقون فيها تسقط جلدة رؤوسهم. يسمعون نداءها تناديهم، وهم يعلمون أنها أشد العذاب، ومع ذلك لا يستطيعون إلا الاستجابة لندائها. تنادي كل ما سمع الهدي المحمدي فولّى ظهره له، ولم يصغ لما جاء به، وتقوّى بمن كان معاكسا لتلكم الهداية. وكان همه كل همه أن يجمع أكثر ما يكون من المال، وأن يخزنه، ولا يواسي به محتاجا.

بيان المعنى العام :

1-سال سائل بعذاب واقع.

الظاهر أن كلمة "سال" أصلها "سأل" فخففت الهمزة. أي سأل سائل. والجملة حسب صيغتها لا تعين السائل، كقولك فهم فاهم، وعلم عالم، وسمع سامع. ولغرابة السؤال صرفت العناية عن تعيين السائل، وأبرز السؤال لتصوير التعجب من وروده. إذ مضمون السؤال هو الاستفهام عن تاريخ العذاب الواقع قطعا. والسؤال مقصود به الاستهزاء تبعا لإنكارهم ما توعدهم به رسول الله بوحي من ربه، أنه سينزل عليهم عذابه إن صمموا على العناد، والوقوف في وجه الدعوة. ويكون قوله تعالى: **بعذاب واقع** أي عن عذاب واقع متى سيحل؟

وحمل بعض المفسرين أن معنى سأل: دعا. بناء على ما روي أن هذا السائل هو النضر بن الحارث الذي قال : (**إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.**)[1] فيكون معنى سال سائل: دعا داع. وإطلاق السؤال بمعنى الدعاء كثير. ومنه قول القائل سألت ربي المغفرة، أي دعوته أن يغفر لي. ودعاء الكافرين النضر أوغيره، كقوله تعالى أيضا : (**وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب**)[2] يجعل الباء في قوله بعذاب على معناها الأصلي. والمشركون قد أظهروا التحدي بالدعاء إمعانا في الجهر بالتكذيب، وإظهارا أنهم واثقون من رفض الإسلام.

---

[1] سورة الأنفال آية 32

[2] سورة ص اية 16

2-للكافرين ليس له دافع.

2-هذا العذاب مختص بالكافرين. حصوله محقق لا شك فيه. واقع من الله الذي لا رادّ لما قضاه. و من سفه عقولهم أن يسألوا عذابا واقعا لاشك فيه، عوض أن يحصنوا أنفسهم منه بالتأمل فيما جاءهم من عند الله من الحق.

3-من الله ذي المعارج.

المختص بالمعارج. والمعارج جمع معرج، وهو ما يصعد عليه إلى فوق.وكل ما يفهم منه التجسيم يجب أن ينفى عن الذات الإلهية، فليست المعارج رتبا مادية محسوسة صاعدة إلى منازل بعضها فوق بعض، كما يصعد بالسلم، ولكن المعارج هي سمو إلهي تعالى الله في عظمته وجلاله.فالمتقرّبون إلى الله من مخلوقاته من الملائكة والبشر، ليسوا في القرب المعنوي منه تعالى على مرتبة واحدة، فهي مراتب بعضها أكمل من بعض.وأقربهم من الله من كان له عنده سبحانه حظوة ورضوان. والرضا الإلهي هو أكبر نعمة يطمح إليها المخلوق الصالح. قال تعالى: (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم[1])

4-تعرج الملائكة...ألف سنة.

عقب قوله ذي المعارج ببيان نوع من ذلك العروج. وهو عروج الملائكة، فهم في المعارج من منازل الرفعة الاعتبارية. وهم على طهرهم وكمالهم ليسوا على مرتبة سواء، فخص بالذكر منهم الروح الذي هو جبريل عليه السلام. ويمكن فهم الروح على أن المراد به أرواح المرضيّ عنهم يوم القيامة. والتقدير بخمسين ألف سنة، تقريب بما يترك في تصور التالي العظمة اللامتناهية لله العظيم الأعظم. دون أن يكون هناك بعد زماني مقدر بخمسين ألف سنة ضوئية أو غير ضوئية. ودون أن يكون الله في مكان يوصف بالفوقية.

5-فاصبر صبرا جميلا.

سؤال السائلين من المشركين على معنييه مبطنٌ فيه الاستهزاء والاستبعاد لصدق الرسول فيما أوعد به. وذلك مما يؤثر في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم.فلذلك أمره ربه أن يصبر على أذاهم واستهزائهم صبرا جميلا، حسنا،لا يخالطه ضجر ولا استبطاء لوعيد الله.

[1] سورة التوبة آية 72

6←7-إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا.

تدرع يا محمد بالصبر، فإنك تصبر صبر الواثق من تحقق ما أوعدتهم به، فهو في عقيدتك وعيد إلهي لا يخلف.وهم لعنادهم يعتقدون استحالته. وما قدروا الله حق قدره.

8←9- يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن.

تعرج الملائكة والروح إليه يوم تتحلل السماء فتكون كدردي الزيت، تذهب تلك الصفحة الجميلة المتماسكة، وتكون الجبال الصلدة كالصوف المصبوغ شعرات متفرقه مختلفة الألوان. كما قال تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش)[1] ذهب التركيب، وذهب التماسك.و تصور الأيتان الوضع المادي المتحلل للكون.

10←14، ولا يسأل حميم...ثم ينجيه.

بعد أن صورت الأيتان انحلال السماء والجبال وجسّمت ذلك بالتشبيه المقرب للمراد. انتقل القرآن لبيان وضع البشر في يوم القيامة. كل فرد مشغول بنفسه. يذهب الاهتمام الشديد الذي كان يجمع بين المتحابين، الذين تأكدت العلاقة الحميمة بينهم، يرى الحميم حميمه غارقا في الكرب فلا يسأل عنه ولا يشتغل به. ليس ذلك لأن بصره لم يلحظه وهو في عنائه، ولكن يراه ويبصره، ولكن شدة كربه تشغله عن أحبّ الناس إليه. هذا هو الهول المحيط بالمشاعر.

بينت الآية السبب الذي من أجله شُغل كل حميم عن حميمه.فجسمت ذلك في الصورة التالية : يود الكافر المجرم بكفره، وقد شاهد منزلته من العذاب الفائق لكل تصور، في ذلك اليوم الذي ينحل فيه الكون سماؤه وجباله، يتمنى بكل قلبه أن ينجو من العذاب ويقدم في سبيل ذلك كل عزيز عليه ليكون فداء لنفسه من عذاب يوم القيامة ببنيه، فيتغلب الإحساس بشدة العذاب على عاطفة الأبوة الراحمة،أو يفتدي من عذاب ذلك اليوم بزوجه (صاحبته) التي بنى معها علائق الأسرة،وكانت مستودع سره. وكذلك لو يعوّض عن عذابه تقديم فصيلته، وهم الأهل الأقربون الأباء والأمهات، وكذلك بقية أفراد العشيرة الذين كان يجد فيهم ملجأ يحمونه وينصرونه بعامل العصبية.

وتتابع الأماني دون أن يجد فرجا مما هو فيه، أو استجابة لأمانيه. فيقدم في النهاية كل ما يعز عليه من خلان ومن أموال ومن نفائس كان شديد الضن بها في حياته "ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه" كل ما يتصور من شيء رفيع المقام عنده يقدمه لينجو من عذاب يومئذ.

---

[1] سورة القارعة آية 5

15←16- كلا إنها لظى نزاعة للشوى.

شأن إيراد "كلا" أن يقصد بها إبطال الكلام السابق قطعا. وما سبق هو ودهم النجاة من العذاب بالافتداء، بما عددوه. فبكلمة واحدة ينفي ماعددوه وما جرى في نفوسهم من النجاء من العذاب. لا نجاء ولا فداء. ثم يثبت ما هو معد لهم، إن ما يشاهده المجرم، وما يستقبله بوجهه: لظى، اسم للهب، جعل علما على جهنم باعتبار أن اللهب المحرق أخص خصائصها. وحتى يتبين اللظى أتم تبين، ألحق به من الميزات والصفات الذاتية ما يجعله متفردا لا يشتبه بغيره. إنه بمجرد ما يلفح لظاها وجوه المجرمين تسقط جلدة رؤوسهم. ولما كانت جلدة الرأس تجمع الحواس يتألم بذلك المنزوع منه أشد الإيلام.

17←18-تدعو من أدبر...فأوعى.

ينادي ملائكة العذاب الموكلين بجهنم المجرمين، دعاء يقسرهم على الاستجابة له، والإقبال على منزلهم المقرر لهم، يدعون من كان موقفه من دعوة محمد صلى الله الله عليه وسلم تولية ظهره إليها، ثم أصم أذنيه عن سماعها، وعقله عن التأمل فيها. وجمع إلى الإعراض عنها إيثار ما عليه المجرمون أمثاله من رؤوس الكفر.
ومع إدباره وتوليه، كان همه الوحيد وحرصه الشديد في جمع أكثر ما يمكن من المال، وكنزه، والبخل به عما يدعو إليه التضامن الاجتماعي من بذل وحسن عون. وأوعى فكان حرصه على ما جمع حرصا شديدا جعله لا يفكر في شيء وراء الجمع.

• إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

هلوعا: لا يتحكم في أرجاعه في الشر أو في الخير.
الشر : كل ما يؤذي الإنسان من مرض وفقر وفقد عزيز...
الخير: ما ينفع الإنسان ويتعلق به من مال وصحة وجمال...
جزوعا : لا يصبر على المكروه.
منوعا : شديد المنع لما عنده، فلا يبذله.
دائمون : لا يتركون أداء الصلاة.
حق : يفيد أنهم يعتبرون المحرومين شركاء.
السائل : الذي يتقدم بطلب النوال.
المحروم : المحتاج الذي له من عزة نفسه ما يمنعه من السؤال.
المشفق : الحذر المتوقع حصول المكروه.
العادي : المتجاوز بالفساد.
راعون : حافظون حارسون.
الإكرام : التعظيم، وحسن القبول.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا ترك الإنسان لنفسه، ولم يتهذب بالوحي، فإنه يكون هلوعا. يضعف عن قبول المؤثرات القوية مع الاحتفاظ بتوازنه. إذا أصيب بشر جزع له وأسرع إليه اليأس، وإذا أصابته نعمة منعها و لا يشارك غيره فيها،ظانا أنها باقية غير واثق من رحمة ربه القادر على إخلافها.

وتداركت الآية الذين تأثروا بهداية الله، فعددت ثمانية أصناف ربّاهم الوحي فحصنهم بذلك من الهلع.

1-الذين يؤدون صلاتهم، ولا ينقطعون عن القيام بها.

2- والذين يجعلون في أموالهم نصيبًا يقدمونه للسائلين، وللمحرومين الذين لا يسألون لعزة نفوسهم، معتبرين ما تصدقوا به حقا للمتصدَّق عليهم.

3- والذين يجزمون بأن يوم القيامة حق لا شك فيه يُجزى فيه كل إنسان بما قدم.

4- والذين هم وجلون أن ينالهم العذاب بما فرطوا. فهم بين الخوف من العدل والرجاء في الفضل. فالمؤمن لا يكون في وقت من الأوقات امنا من أن يناله عذاب الله، فالإنسان قاصر ومقصّر في جنب الله.

5- والذين تمسكوا بالعفة، فلا يقضون شهواتهم الجنسية إلا فيما أحله الله لهم بالزواج الجامع لأركانه وشروطه، أو بما اتخذوه من سُريّات ملكْتهنّ. وقضاء الشهوة الجنسية في الحلال لا لوم فيه ولا نقيصة.

6- والذين يؤدون الأمانة لمن ائتمنهم ولا يخونون، ويوفون بما التزموه من عهود، فيكون المتعامل معهم آمنا على الاتصال بحقوقه عندما يطلبها.

7-والذين يؤدون الشهادة كما تحملوها لا يحرفونها تبعا لصداقة أو عداوة.

8- والذين يؤدون صلاتهم على أكمل الوجوه جامعة للأركان والشرائط، مصحوبة بالإخلاص، والشعور بشرف المناجاة.

لكل من جمع تلكم الخصال جميعها، أو بعضا منها مع عفو الله، حسن المآل في الجنات، مع التكريم والشعور بالسعادة.

بيان المعنى العام :

19—21- إن الإنسان خلق...منوعا.

هذه آية من الآيات التي تكشف للإنسان عن تركيبه النفسي، حتى يتحكم في أرجاعه. ولا تجرفه المؤثرات إلى اتخاذ مواقف تكون وبالا عليه في المستقبل. والنفس محجوبة بمظاهر مضللة. وتبعا لذلك الحجاب ينساق حسب طبيعته التي خلق عليها مع ما تبعثه نفسه وميوله لمتابعته، دون أن يُخضع ذلك لتفكيره، فيقدره تقديرا غير مخدوع بالمظاهر الأولى. من شأن الإنسان أنه إذا مسه الشر من مرض أو فقر، أو خيبة،يجزع مما أصابه،و يفقد ثقته في رحمة الله، ويفقد ثقته فيما آتاه الله من قوى، ويسرع إليه أحد الشرين الأعظم مما أصابه، وهما اليأس، أو الكفر. فتظلم الدنيا في عينيه، وينسى أنه مرتبط بربه القادر على أن يبدل ما أصابه من يأس إلى رحمة،ويفتح له من المغالق الموصدة أبواب الفرج. فالهلع أثر ضعف نفسي عند المصيبة يكون به الهالع شاعرا بالهزيمة، تظلم عنده كل الطرق التي يمكن أن تحوله من وضعه الذي هو فيه. فيصحبه الاستسلام أو الكفر.

وكذلك عندما يصيبه الخير من غنى وقوة، ومركز اجتماعي مرموق ونحو ذلك، يكون هلوعا. فيظن أن ما حصل عليه هو بسبب ما له من مزايا،ومن ذكاء، ومن حسن تدبير للأمور، ويستولي تصوره ذاك على أرجاعه، فتجده شحيحا بما تحصل عليه، لا يبذل جاهه لنصر مظلوم، أو إظهار حق مهضوم.

فالهلع عبارة عن قوة تأثر نفس الإنسان بالأحداث إلى درجة أنها إن أصيبت بشر تنهار، ولا ترى من البؤس الحال مخرجا. وإذا أصيبت بالخير تشامخت واعتقدت أن ما حصل لها هو ملك لها بما لها من مزايا، فلا تشرك فيه أحدا، ولا تتهيأ لإمكان أن يسلب منها في يوم من الأيام. وبطرت النعمة.

22—23- إلا المصلين...دائمون.

استدراك بمعنى لكن عناية بما يرد بعد " إلا". ما فطر عليه الإنسان من الهلع، الذي هو ظاهرة منتشرة لا يسلم منها معظم الناس. لكن ما سيرد إلى الآية34 أمنوا أنفسهم من الهلع بكل خصلة من الخصال الآتية، وبجميعها من باب أولى وأحرى. الذين روّضوا مشاعرهم بالصلاة، وأصبحت رابطة متجددة تصلهم بالله مباشرة، تتفتح قلوبهم ومشاعرهم، وأرواحهم لما عند الله من خير وحسن تقدير، فلا ينزعجون الانزعاج الهالع للشر، ولا يبطرون النعمة فيستأثرون بها. ولا تؤدي الصلاة دورها هذا الحامي للإنسان من الهلع، إلا إذا حافظ عليها، واستجاب لندائها راغبا.

24←25- و الذين في أموالهم حق معلوم...والمحروم.

الصفة الثانية التي بها يتطهّرُ الإنسان من الهلع،أن ينظر لما آتاه الله من مال نظرة معترف بأن ما حصل عليه من رزق هو من فضل الله، وأن الله استأمنه على نسبة من تلك الأموال ليبلغها للمحاويج، يمكن منها السائل الذي يمد يده طالبا للمال، ويبحث عن المحرومين الذين لهم من عزة النفس ما يمنعهم من مد يدهم للسؤال، والتعرض للأغنياء.

26- والذين يصدقون بيوم الدين...

الذين يعمر قلوبهم يقين بأن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وأنه سيتم جزاء الخلائق في ذلك اليوم عما قدموه.

27←28- والذين هم من عذاب ربهم مشفقون....غير مأمون.

والذين تيقنوا أن الله مطلع على كل ما عمله الإنسان، لا يخفى عليه شيء، فهم لذلك حذرون أشد الحذر مما فرط منهم من تقصير،خائفون أن تكشف سيئاتهم وأن يحاسبوا عليها. هم موقنون أنه لا يأمن عذاب الله فيستهين بالوعيد إلا القوم الخاسرون، وشعورهم هذا يدفعهم إلى الندم عما فات والتوبة، وإصلاح النفس بالاستقامة. ولا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة أن يكون واثقا من نفسه أنه قام بما يجب للخالق من حقوق. فكل فرد لا يخلو من تقصير في جنب الله. و يجب أن يكون الإنسان مشدودا بين قطبي الخوف والرجاء.

29←31-إلا على أزواجهم...هم العادون.

والذين يلازمون العفة، ويتحكمون في غريزتهم الجنسية. فيتعففون من الزنا ومن اللواط. وليس معنى هذا الرهبانية التي ذهب إليها النصارى، ولكن يبنون حياتهم الاجتماعية وقضاء شهوتهم الجنسية على الزواج الجامع لأركانه وشروطه، وعلى

ما أحله الله من العلاقة بين المالك وبين السُرِّيّة. وهذا ما كان عليه الأمر عند نزول الوحي وما تبعه من القرون: أن ما يحصل عليه المجاهدون من أسيرات الحرب، يباح لمالكهن الاستمتاع بهن كما يستمتع بزوجاته. وليس المقصود به المخطوفات من بلدانهن اعتداء ويبعهن في الأسواق، فهؤلاء حرائر، الاستمتاع بهن بالشراء حرام كبير. وهذا داخل في قوله تعالى **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون.** المتجاوزون لحدود الله.

32- والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

خلق الله الإنسان ليربط علاقاته مع غيره بصفة يأمن فيها كل فرد لعلاقته بالآخر، وهو ما يساعد على حسن الخلافة في الأرض التي من أجلها خلق الإنسان. والمرتبة الرفيعة التي تخرج الإنسان من الهلع، أن يكون أمينا يوفي بما اؤتمن عليه، من مال أو أسرار. وكذلك يوفي بما عاهد به، والتزمه، والمراعاة تتم بأداء الأمانة لصاحبها،وحفظ أسراره، ولا يخلف عهده الذي لطمأن الطرف الآخر أنه سيحصل على العهد الموثق من المعاهد.

33-والذين هم بشهادتهم قائمون.

بالعدل قامت السماوات والأرض، وكل إنسان مسؤول عن العدل.ومما يحققه أن يظهر كل فرد الحق إذا أتيحت له الفرصة لذلك. فإذا تحمل الإنسان شهادة فالواجب عليه أن لا يكتمها مما يسبب ضياع الحق، ولا يبدلها بنقص أو زيادة فيضلل الحاكم، ويكون بذلك مسؤولا عن القضاء بغير الحق الذي تسبب فيه. فالقيام بالشهادة يقتضي الاهتمام بأدائها على وجهها دون تأثر بعلاقة بين الشاهد والمشهود له أو عليه.

34- والذين هم على صلاتهم يحافظون.

أعيد لفت الأنظار إلى الصلاة، فأضاف إلى المداومة على الصلاة، العناية بالمحافظة عليها، مما يفهم منه القيام بأركانها وشرائطها على أتم وجه، وحسن الاستحضار للمصلي بموقفه بين يدي الله، والأنس بتلكم اللحظات التي يكون فيها مناجيا لربه.

35-أولئك في جنات مكرمون.

أولئك، تميزوا بما أجري عليهم من الصفات الصالحة تميُّزا اكتسبوا منه تفردا، واستحقوا هذا الجزاء التالي: هم في جنات يوم القيامة، جزاء من عند ربهم. ومع

النعيم المتوفر في الجنات، كتب الله لهم الإكرام فيسعدون بحسن القبول قال تعالى: (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[1]

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

مهطعين : الإهطاع مد العنق عند السير.

عن اليمين وعن الشمال : من كل الجهات.

عزين : جماعات.

المسبوق : المغلوب على أمره، العاجز.

الخوض : الكلام الكثير.

اللعب : الهزل.

الأجداث : القبور.

النصب : ما ينصب للعبادة من الأصنام.

يوفضون : من أوفض إذا أسرع.

خاشعة أبصارهم : أذلاء.

ترهقهم : تعلوهم، وتغطيهم.

بيان المعنى الإجمالي:

يدرك المشركون جمال القرآن وبلاغته، ولذلك إذا سمعوا صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو آياته في صلاته، أقبلوا عليه مسرعين مادين أعناقهم. ثم يتحلقون بعد ذلك جماعات تحاول كل جماعة أن تصرف الناس عنه بالطعن في مضامينه. ما لهم يقبلون عليك من كل ناحية، ثم يطعنون في القرآن ؟ ويزعمون أن حظهم في

---

[1] سورة الرعد آية 24/23

الآخرة سيكون كحظهم في الدنيا أفضل مما عليه محمد وأصحابه، وإذا كانت الجنة حقا فهم أولى بها. ويرد عليهم القرآن بكلمة كالسيف القاطع لأمانيهم كلا * ثم يستهزئ بهم في إنكارهم البعث مستبعدين أن يعودوا إلى الحياة من جديد، يستهزئ بهم لأن دليل البعث كامن فيهم، فهم يعلمون أن الله خلقهم من نطفة ثم رعاها حتى وصلت إلى الوضع السوي الإنساني.

قسم غليظ برب الكون كله مشارقه ومغاربه، ما اشتمل عليه، وتصرف الله فيه. إن قدرة الله لا يعجزها شيء. إننا قادرون على أن نحول خلقتهم يوم القيامة إلى خلقة من نوع آخر، تتناسب مع عالم الخلد، ولا تفنى. وإنه لا يعجزنا شيء.

لا تهتم بهم يا محمد ولا تبتئس من عنادهم وسخريتهم،واتركهم يواصلون عبثهم ولهوهم ،حتى يبلغوا اليوم الذي قدرت فيه تحقيق الوعيد فيهم.اليوم الذي يخرجون فيه أحياء من قبورهم مسرعين مدفوعين دفعا عنيفا إلى أرض المحشر.يسرعون كما كانوا يسرعون إلى أصنامهم.انكسرت أبصارهم فلا يرفعونها. مجللين بالذل والخوف. كل ما وصفوا به حل عليهم في اليوم الذي أوعدناهم به.

بيان المعنى العام :

36-37-فمال الذين...عزين.

تفتح الآية باستفهام إنكاري، تعجيبا من حالة الكافرين الذين يتناقضون تناقضا فاضحا،هم من ناحية يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وينكرون أنه موحى إليه، ومن ناحية أخرى إذا سمعوه يتلو كتاب الله، أقبلوا نحوه وأعناقهم ممدودة، يرغبون في سماع القرآن.وفي نظري أن رغبتهم تلك يتقاسمها غرضان : الغرض الأول تذوقهم لبلاغة القرآن وجماله. والعربي متعلق جد التعلق بالكلام الفصيح المسبوك العالي في البيان. وما تحداهم القرآن بالإتيان بسورة من مثله إلا لأنهم على مستوى رفيع من ذلك، فهم بالرغم من إنكارهم لمضامينه يستمتعون بالاستماع إليه. ومن ناحية ثانية هم يتصيدون مما يسمعونه ما يحرفونه عن مواضعه، ويتخذون من وعيده ووصف يوم القيامة ونحو ذلك سخرية واستهزاء، يتندرون بها في مجامعهم ويصرفون الدهماء عن التأثر به.

يثير القرآن التعجب من تناقضهم، وصرفهم الخير الذي جاء به القرآن إلى ما يوجب الإعراض عنه. مالهم يقبلون عليك إذا سمعوا القرآن من كل جانب، وهم يمدون أعناقهم حتى لا يفلت عن أسماعهم شيء من قراءتك، ثم يتوزعون جماعات صغيرة يعملون على الاستهزاء بما سمعوه منك. ومن الباطل الذي روجوه على الأتباع: أن ما جمعوه من الثروة، والأولاد، والعزة الظاهرية، يقتضي أن يكونوا

يوم القيامة، إن تحقق، أن يكونوا خيرا من محمد وأتباعه المحرومين الذين ليس لهم حظ مثل حظوظهم في الدنيا. أيطمع كل واحد منهم أن تكون عاقبته جنة النعيم. فعقب هذا الطمع الكاذب بتيئيسهم من أي كرامة في الآخرة. ثم ذلك بكلمة واحدة "كلا" التي نفت كل تصوراتهم عن تنعمهم بدخول الجنة يوم القيامة.

39- إنا خلقناهم مما يعلمون.

ما يزال البعث يصدم المشركين، ويدفعهم إلى سياسة النعامة التي تدس رأسها في التراب فتتعطل الرؤية عندها، فتظن أن الصيادين قد عُدموا من حولها لأنها لا تراهم. وكذلك المشركون يعملون على نفي البعث بإنكار إمكانه.فرد عليهم القرآن بأنهم لو نظروا في ذواتهم لأدركوا أنهم تطوروا من النطفة إلى الوضع السوي الذي هم عليه، وتابعت القدرة الإلهية كل تلكم التطورات. فإعادتهم إلى الوجود بعد الفناء يوم القيامة لا يختلف عن خلقهم الأول. وفي التعبير بقوله: مما يعلمون، تهكم بهم إذ الدليل قائم في أنفسهم ويعلمونه. فليس قوله: مما يعلمون تنويه بهم، ولكنه استهزاء بهم.

40←41- فلا أقسم برب المشارق والمغارب...بمسبوقين.

أثبت القرآن البعث بخلقهم مما يعلمون كما بينته الآية السابقة. ثم زاد تأكيدا لثبوته بالقسم عليه.وأتى بالقسم على أبلغ وجه كما تقدم لنا في قوله تعالى:(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)[1] والمقسم به هو رب المشارق والمغارب. وهو يفيد رب الكون كله لشمول مشارق الأرض ومغاربها للتحولات التي تطرأ على مطالع الشمس وعلى مغاربها. وهو ينبه أيضا لقدرة الله ودقة صنعه في تلكم الإحداثات المتتابعة المنظمة.

إنا لقادرون على أن نبدل خيرا....التبديل الداخل في القدرة التي لا يعجزها شيء، يفهم منه، إما تأكيد أن الله قادر على أن يبدل البشر المعاندين بخلقهم خلقا خيرا منهم في خصائصه واستعداداته.وهو الخلق المناسب لعالم الخلود الذي لا يلحقه فناء. وإما أن يذهبهم ويبدل مكانهم أمة أخرى خيرا منهم، يقبلون على الهدى طائعين مطبقين.

وما نحن بمسبوقين...وبكل تأكيد إن قدرتنا لا يعجزها شيء، ولا يفلت من قبضتها. والمسبوق أصله في المغلوب في السَّير، الذي يتخلف ويسبقه غيره، فأطلق غير مسبوقين على معنى غير عاجزين عن تبديل خير منكم.

---

[1] سورة الحاقة آية 39/38

42←44- فذرهم يخوضوا ويلعبوا...كانوا يوعدون.

اتركهم ولا تهتم بهم يا محمد. إنهم ليسوا أهل جد، وإقبال بإعمال عقولهم، وفتح بصائرهم على ما يعرض عليهم. بل هم مولعون بكثرة الكلام، وهم أبعد ما يكون عن الجد متعلقون باللعب واللهو. فلا تكترث بما يصدر منهم. فهم لم يبلغوا المستوى الذي يكون فيه لكلامهم وزن. وارتقب اليوم الذي أوعدهم الله به، يوم القيامة الفاضح لكفرهم المجازى عليه بأشد العذاب.

يوم يخرجون من الأجداث... اليوم الذي أوعدهم الله به، هو اليوم الذي يخرجون فيه من قبورهم أحياء، مسرعين مدفوعين إلى أرض المحشر.كما كانوا يسرعون في دنياهم إلى أصنامهم المنصوبة للعبادة، وأكد إسراعهم بقوله يوفضون، وهو بمعنى يسرعون.

خاشعة أبصارهم... وصفهم القرآن وصفا يشهر بحالتهم ويكشف عما هم عليه من خزي. أبصارهم تنظر إلى أسفل.إنهم وإن كانوا مسرعين إلا أن سرعتهم سرعة الخائف الوجل المصروف عن النظر إلى الأمام.تكسوهم وتغشاهم ذلة عظيمة.

ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون... كل ما ذكر من خزيهم، وذلهم، وإسراعهم بعد خروجهم مسرعين وجلين خائفين، هو جزاؤهم في يوم القيامة اليوم الذي يحق عليهم الوعيد الذي حذروا منه.

يوم الاثنين 18شعبان 2014/6/16

سورة نـوح

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير.أخذ اسمها من موضوع الآية الأولى فيها. وهي سورة مكية باتفاق.ورتبتها حسب ترتيب المصحف الحادية والسبعون. وحسب ترتيب النزول الثالثة والسبعون.نزلت بعد أربعين آية من سورة النحل. وقبل سورة الطور.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

القوم : الجماعة المترابطون بجامعة الموطن أو النسب.

اتقوا الله : اتقوا غضب الله.

بيان المعنى الإجمالي:

إنا أرسلنا نوحا محملا برسالتنا إلى قومه لينذرهم المآل الذي هم صائرون إليه، كي ينقذوا أنفسهم من العذاب الأليم. فنفذ ما أمره به ربه، وقال لقومه متوددا إليهم مقربا لهم: يا قومي ! إني مبعوث لكم من عند الله لأنذركم ولأبين لكم الحقيقة. هذه الحقيقة المتمثلة في أنكم مأمورون بعبادة الله وحده، وأن تطيعوني فيما أبلغكم عن الله.

إنه إذا تحقق منكم إفراد الله بالعبادة، ورضيَ الطاعة يجزكم عن ذلك بمغفرة ذنوبكم، فيمحوها من صحائفكم، ولا يستأصلكم جميعا بعذابه. فيبقى كل فرد منكم إلى أجله المقدر له والمعين عنده سبحانه.واعلموا أن أجل الله الذي حدده لاستئصال

المعاندين لا يقبل التأخير. يسحقهم في لحظة.لو كنتم تعلمون سلطان الله وقدرته لأسرعتم لإنقاذ أنفسكم من العذاب. إني مبعوث لكم

بيان المعنى العام :

1- إنا أرسلنا نوحا...أليم.

في الآية تعبير عن الاهتمام بمضمونها. كيف لا وما تدل عليه يمثل أول توجيه من الله للبشر بواسطة رسول منهم. فنوح عليه السلام أول رسول بعثه الله محملا بهداية للناس. ولما كان البشر في عهد نوح لم يتكاثروا تكاثرا يعمرون به الأرض، فإن نوحا كان مبعوثا في قومه الذين يجتمع معهم في الموطن، و يرتبط بهم في النسب القريب أو غير البعيد جدا.

أن أنذر قومك...هذا بيان لمضمون قوله أرسلنا. هو مكلف بإنذار قومه، وكشف ما يترصدهم من عذاب إن هم لم يتأملوا في هدايته، ويعتقدوا فيما جاءهم به، ويعملوا على تطبيقه في حياتهم. ادعهم ليتخلوا عما هم عليه، ويصلحوا عقائدهم، وينبذوا عبادة الأصنام قبل أن يحل عليهم العذاب الأليم الذي هو الجزاء المناسب لهم.

2- قال يا قوم إني لكم نذير مبين.

استجاب نوح لأمر ربه، وكان له من الشجاعة ما واجه به قومه وأنذرهم بما أوحي إليه. وقال لهم: إني لكم منذر، موقظ لكم مما أنتم عنه غافلون. وأنا على استعداد لأوضح لكم ما ترغبون في توضيحه.

3-أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون.

وضحت الآية المراد من قوله **إني لكم نذير مبين**. فهو يطلب منهم أن يعبدوا الله وحده وأن ينبذوا عبادة الأصنام، وأن يعملوا على أن يجعلوا لأنفسهم وقاية من غضب الله، وأن يطيعوه فيما يأمرهم به مما تلقاه من ربه. وذكر بعض المفسرين أن نوحا لم يأمر قومه بتشريع خاص، واقتصرت رسالته على توحيد الله و رفع الشرك من عقولهم. وفي هذا نظر. فمما لا شك فيه أن حفظ الدين والنفس، والعقل، والنسب، والمال. من الأصول المرعية في جميع الشرائع، لأنها ركائز الخلافة التي أراد الله أن يكلف بها الإنسان.

4-يغفر لكم من ذنوبكم... لو كنتم تعلمون.

هذه الآية جواب كاشف عما يترتب عن طاعته والأخذ بما دعاهم إليه. يقول لهم: إنكم إن أطعتموني فيما دعوتكم إليه، **يغفر لكم ربكم من ذنوبكم**. و لفظ" من" ذنوبكم، يؤكد ربط المغفرة بالذنوب، فذكر " **من**" وعدم ذكرها سواء.أي يغفر لكم

ذنوبكم.وذهب فريق إلى أن "من" للتبعيض، في قوة بعض ذنوبكم.وللمفسرين في تعين البعض مذاهب. فقدره فريق يغفر لكم ذنوب الشرك لا غير ذلك، وقدره آخرون الذنوب السابقة عن الإيمان.والذي يترجح عندي هو الرأي الأول.أن "من" لا تدل على التبعيض. وذلك لأنه جاء في القرآن ثلاث آيات مع من في سورة إبراهيم آية 10، وفي سورة الأحقاف آية 31، وفي هذه السورة. ووردت ثلاث آيات بدون "من" سورة آل عمران آية 31 و سورة الأحزاب آية71، و سورة الصف آية 12. ورجحت كفة الإطلاق وعدم التبعيض بقوله تعالى: إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم [1]

ويؤخركم إلى أجل مسمى... مع ما وعدهم به إن آمنوا من مغفرة ذنوبهم الذي هو فضل يتعلق بالآخرة، وعدهم بفضل دنيوي أن الله يمد في آجالهم فلا يستأصلهم، بعذاب يتسلط عليهم جميعا في لحظة من اللحظات التي قدرها الله لعذابهم.ويبقي كل واحد منهم حتى يبلغ الأجل الذي قدره الله له في الأزل، فلا يأتي الموت عليهم جميعا.

إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر... الظاهر أن المراد بالنص تأكيد أمر عذابهم في الوقت الذي حدده الله في سابق علمه، والذي لا يقبل التغيير. فقوله يؤخركم إلى أجل مسمى، هو الأجل المحدد لكل شخص.وقوله إن أجل الله، هو أجل الاستئصال الذي يأتي على جميع المعاندين. فيكون نوح عليه السلام رغّب قومه في عبادة الله وحده وتقواه بغفران ذنوبهم، وأن الله يؤخر كل فرد منهم إلى الأجل الذي كتبه له في سابق علمه، وينذرهم أنهم إن عصوا وعاندوا؛ فإن الأجل الذي حدده لاستئصالهم يتحقق دون أن يقبل التغيير.لو كنتم تعلمون بهذه الحقيقة لما استربتم ولقبلتم ما جاءكم على لسان رسولكم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

---

[1] سورة الزمر آية 53

بيان معاني الألفاظ:

فرارا : بعدا وإعراضا.

استغشوا : غطوا أعينهم.

أصروا : أظهروا قوة عزمهم بدون تردد.

استكبروا : بالغوا في التكبر.

السماء : المطر.

مدرارا : كثيرا.

أموال : ضروبا من الرزق.

بيان المعنى الإجمالي:

واصل نوح دعوة قومه سنين متطاولة، صابرا على عنادهم، لم ييأس من النجاح. وإذ كان رفضهم شديدا وما قام به من جهد لم يثمر. توجه إلى ربه مستغيثا عارضا على جلاله ما قام به، فقال: رب إني واصلت دعاء قومي إلى الإيمان والطاعة في جميع الأوقات لا أفتر عن الدعوة ليلا ولا نهارا. ولكن موقفهم لم يتزحزح فكلما زدت اجتهادا في هدايتهم زادوا بعدا مني. كلما دعوتهم لتغفر لهم ذنوبهم التي لوثوا بها صحائفهم بالشرك والاعتداء. أصمُّوا آذانهم عن سماعي وسدوا منافذها بأناملهم، وغطوا عيونهم حتى لا تراني، وظهر منهم الإصرار على الكفر، والكبر أن يتبعوا ما جاءهم من الحق.

حاولت جميع الطرق المؤثرة. دعوت كل فرد منهم سرا، ودعوتهم في مجامعهم جهارا، وجمعت بين الطريقتين السر والجهر. وكان كلامي واضحا قلت لهم، اطلبوا المغفرة من ربكم :يغفر لكم ما سلف منكم، إن الله عظيم المغفرة، فتسعدوا في آخرتكم. وباستغفاركم يوسع عليكم من خيرات الدنيا، فيرسل عليكم الأمطار متتابعة يحميكم من القحط والجفاف، ويمكنكم من متنوع الأموال، ويبارك لكم في ذرياتكم، ويملككم جنات تتخللها الأنهار .

بيان المعنى العام :

5—6- قال رب إني دعوت قومي...إلا فرارا.

قام نوح عليه السلام بتبليغ ما أمره به ربه، والله لا تخفى عليه خافية، فهو يعلم نصح نوح واجتهاده لينجح في مهمته. وواصل نوح عليه السلام الاتصال بالناس ليلا ونهارا، وعرض بوضوح ما جاء به. وأقام الحجة تلو الحجة.وما كان يترك فرصة للتذكير تمر دون أن يغتنمها لإصلاح قومه. فكان موقفهم منه موقف الرفض

والإعراض. عوض أن يقبلوا عليــه ويهتمــوا بمــا يعــرض، اختــاروا أن يبتعــدوا عنــه فرارا منه. ضاق ذرعا بهم وقد مرت السنون المتوالية، وهو لــم يحقــق مــا كــان يأمــل في تركيزه من التوحيد، وطاعة الله. فتوجه بعــرض حالتــه علــى ربــه يشــكو تصــلبهم في الكفر، وتصميمهم على العناد.

7-وإني كلما دعوتهم...استكبارا.

ثم واصل شارحا موقفهم الرافض الــذي لــم يتبــدل. رب إنــي كلمــا جــددت دعــوتهم ليؤمنوا فيسعدوا بغفرانك لذنوبهم،زادوا تصلبا. وعبــروا تعبيــرا مجســما عــن كــراهيتهم سماع الدعوة للتوحيد والخير. فجعلوا أناملهم فــي آذانهــم حتــى لا يصــل إلــيهم صــوت الحق. يبالغون في سد آذانهم حتى تكاد أصابعهم تنفذ كلهــا إلــى الــداخل. وجمعــوا إلــى سد آذانهم أنهم يغطون أعينهم حتى لا يتأثروا بالإشــارة المبينــة، وظهــر مــنهم أمــارات الإصرار على ما هم عليه من الشرك. وكانــت هيئــاتهم منبئــة عــن انتفــاخهم بــالكبر، يدل مظهرهم على أنهم لا يقبلون أن يكــون نــوح هاديــا لهــم، يعــرفهم الطريــق الــذي يجب سلوكه، والعقيدة التي يعزمون أمرهم عليها.

8—9- ثم إني دعوتهم...إسرارا.

رب إني لم أدخر طريقة من طــرق التــأثير والإقنــاع إلا ســلكتها، دعــوتهم ســرا أقبــل على كل واحد منهم منفــردا، وأقبــل علــيهم فــي مجــامعهم فــأعرض علــيهم جهــارا التوحيد والطاعة والتقوى، وأجمع بين الســر والجهــر فــي الــدعوة. كنــت أراعــي مــع الأفراد والجماعات ما أظن أنه أقرب للتأثير فيهم.

10—12-فقلت استغفروا ربكم...أنهارا.

عرضت عليهم ربي ما أمرتني بــه.قلت لهــم اطلبــوا المغفــرة مــن ربكــم، معتــرفين بربوبيته، اسألوه أن يتقبلكم بفضله فيغفر ذنــوبكم. إنــه شــديد المغفــرة، يمحــو ســيئات المؤمنين الملتجئين إليه. وبذلك تحققوا لأنفسكم السعادة الأخروية.

ومع ذلك يسعدكم بفضــله الواســع فــي الــدنيا، فينــزل علــيكم مــن الســماء الأمطــار المتداركة التي تخصب مزارعكم وتكثــر الثمــار، ولا يبتلــيكم بــالقحط وحــبس الغيــث. ويمكنكم من متنوع الأموال فتنتفي عنكم الحاجة والفقــر، ويبــارك لكــم فــي نســلكم فــلا يحرمكم من التكاثر الذي تعمــرون بــه الأرض.ويجعــل لكــم جنــات فتخصــب الأرض ويكثر عطاؤها. ويفجر لكم خلالها الأنهار. قلت لهــم: ذلكــم مــا يــوفره لكــم الاســتغفار النابع من قلب مؤمن خاشع لله مدرك لسامي معنى الاســتغفار. شــكا رجــل إلــى الحســن البصري رحمه الله الجدب، فقال له : استغفر الله.وشــكا آخــر إليــه الفقــر، فقــال لــه :

استغفر الله سبحانه. وقال له آخر ادع الله تعالى أن يرزقني ولدا، فقال له: استغفر الله تعالى. فقيل له في ذلك، فاستند إلى هذه الآية. يقول ابن عطية: والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو عندي لفظة الاستغفار فقط، بل الإخلاص والصدق في الأقوال والأعمال.

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوقار: العظمة والجلال.

أطورا : تحولات متتابعة.

طباقا : متطابقة بعضها فوق بعض.

السراج : المصباح المضيء

البساط : ما يفرش للنوم أو للجلوس، بمعنى ممهدة.

السبل : الطرق.

فجاجا : واسعة

بيان المعنى الإجمالي :

خاطبهم نوح عليه السلام بقوله : عجب لكم ما لكم لا تأملون أن يكرمكم الله بتوقيره! وهذا لا تنالونه إلا بتوحيده وعبادته، أو ما لكم لا تخافون عظمة الله وقدرته عليكم بتعجيل عقابكم ! وفي أنفسكم من الشواهد ما يقتضي قبولكم لدعوتي، فقد خلقكم أطوارا متلاحقة تتحولون من طور إلى طور، تنفذ فيكم حكمته وقدرته مع ألطافه.تنمو أجسامكم دون ألم.

تأملوا في النظام الذي أبدع الله عليه الكون. فوقكم سبع سماوات متطابقة. وجعل بحكمته في السماء الدنيا القمر ينير الفضاء الرحب إضاءة هادئة. وجعل من ناحية أخرى الشمس تتوقد كالسراج.وارتبطت بهذين الكوكبين حياتكم وتقديركم للزمن.

وربطكم بالأرض أنشأكم منها كما يخرج النبات، ثم ينتهي بكم إلى أن تعودوا إلى الأرض التي نبتم منها. ثم يخرجكم للبعث منها أيضا. فتأملوا في حكمة الله والترابط العجيب الذي أنتم عنه ذاهلون.

والله وحده هو الذي بسط لكم وجه الأرض، فيسر لكـم الانتقـال فـي أرجائهـا، والحيـاة على وجهها. ومكّنكم من أن تشرعوا فيها مسـالك واسـعة. فكـل الـنعم منـه، ويفـرض ذلك عليكم أن توحدوه وتفردوه بالعبادة والطاعة.

بيان المعنى العام:

13-ما لكم لا ترجون لله وقارا.

خاطبهم نوح ﷺ بما ترجمـت عنـه هـذه الآيـة. عجـب لكـم ! كيـف لا تـأملون أن يصلكم من ربكم ما يثيبكم بـه يـوم القيامـة ثوابـا تكونـون بـه مُـوقّرين لا محتقـرين أذلاء.وذلك بتوحيده وعبادته.

وفهمها بعضهم على معنـى : مـا لكـم لا ترجـون ثوابـا مـن الله ولا تخـافون عقابـا، فتوحدوه وتطيعوه رجاء أن يثيبكم على عبادتكم وتوقيركم لجلاله.

وفهمها بعضهم: مالكم لا تثبتون وحدانيـة الله التـي هـي الوقـار الواجـب لله. علـى أن معنى ترجون تثبتون.

14- وقد خلقكم أطوارا.

وقد خلقكم منتقلين من طور إلى طـور، تنفـذ فـيكم إرادتـه دون اختيـار مـنكم. فهـذه الحال تهدي من تأملها أن التصرف الحكيم فـي ذات الإنسـان مـن خالقـه العلـيم، مـن التلقيح الأول إلى وضعه، ثم نموه شيئا فشيئا، ثم بلوغـه كمـال قوتـه، ثـم تراجعـه إلـى المشيب، ثم الموت والفناء، كل ذلك يشهد بـأن المُؤثـر فـي الإنسـان هـو الله وحـده، مما يفرض على الإنسان أن يوحده،وأن يعلم أنـه فـي قبضـته فيـوقره التـوقير الواجـب من التوحيد والطاعـة.وأن التطـورات التـي تجـري علـى الإنسـان قـد رافقهـا مـن الألطاف ما يفرض الاعتراف بفضله. خذ لذلك مـثلا التمـدد الـذي يحصـل فـي الجسـم عند نموه، أو الانكماش الذي يحصل فـي الهـرم. أطـوار تمـر علـى الإنسـان دون أن يشعر بها أو يتألم.

15←16-ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات...سراجا.

بعد أن لفت أنظارهم في سبيل الاحتجـاج علـيهم إلـى التأمـل فـي ذواتهـم، حرضـهم على النظر في كتاب الكون المشاهد. فافتتح خطـابهم بسـؤال يثيـر الـذهن: ألـم تـروا، ألم تنظروا، أو ألم تعلموا الكيفية التي خلـق الله عليهـا الكـون ؟ ابتـدأ بالسـماء محققـا أنها سبع سماوات متطابقة، تحيط كل سـماء بالسـماء التـي تحتهـا. وفـي كـل سـماء أسرار، وحكمة في الخلق. وخصص مـن السـماء الكـوكبين اللامعـين اللـذين ارتبطـت بهما حياة الإنسان القمر المنير الذي ينبعث منـه ضـوء هـادئ وهـو أقـرب الكواكـب

للأرض ويختص بأن نوره يضيء الأرض بخلاف غيره من الكواكب. والشمس المتوقدة كالسراج.

17- والله أنبتكم من الأرض نباتا.

واصل نوح لفت أنظار قومه إلى الحكمة الإلهية المنبثة في الخلق، فبعد أن ذكرهم بما في خلقهم من دلائل عجيبة، وما في كتاب الكون من أسرار.ربط في هذه الآية بين الإنسان وبين الأرض، فنبّههم إلى أن خلقهم ابتدأ من عناصر الأرض، تحولت تلكم العناصر بتقدير عجيب إلى إنسان، ثم بعد إبراز الإنسان إلى الوجود من عناصر الأرض، يعيده الخالق بقدرته إلى الأرض التي نبت منها.وكما تصرف فيه بخلقه منها ثم إعادته إليها فسيخرجه منها تارة أخرى، فإذا هو البعث والجزاء.

19 ← 20- والله جعل لكم الأرض بساطا...سبلا فجاجا.

الرتابة تغطي على النعمة، فذكرهم نوح ﷺ في هذه الآية، بأن الله يسر لكم الحياة على وجه الأرض، فبسطها بسطا لا يتعب السائر فيها، ولا تقوم أمامه عوائق تعوقه عن التنقل في أرجائها، ويسر له ببسطها أن يحبلها بالزروع والأشجار.وينمي رزقه من خيراتها.وبهذا البسط تيسّر لكم أن تتخذوا منها طرقا واسعة.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

خسارا : شرا من وسائل يظن منها الخير.

المكر : التدبير للضر، مع إخفائه.

كبارا : كبيرا جدا.

ديار : أي إنسان.
فاجرا : العامل بالفجور والفساد.
الكفار : شديد الكفر.
التبار : الهلاك والخسران.

بيان المعنى الإجمالي :

توجه نوح عليه السلام إلى ربه شاكيا موقف قومه منه. رب إنهم صمموا على معاكستي في كل ما أدعوهم إليه. واتبعوا ما يدعوهم إليه الأثرياء وأصحاب العصبية، هؤلاء الذين لا يرضون إلا بإغراقهم في الضلال والكفر بما ينفقونه من أموالهم، وما يتقوّوْن به من عصبيتهم. وعكفوا على تدبير المخططات الخبيثة العظيمة لإيذائي. مكرهم شديد كأبلغ ما تكون الشدة.وألهبوا حماس الدهماء بتذكيرهم بأسماء الأصنام الكبرى التي كانوا يتقربون إليها بالعبادة والقرابين.ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. الذين أضلوا كثيرا من الناس وصرفوهم عن التوحيد إلى الشرك. رب لا تمنحهم ألطافك ليتابعوا ما هم عليه إلى النهاية.

إنه بسبب خطيئاتهم الكبيرة والمتتابعة تم إغراقهم، وأدخلوا نار جهنم الموعودة إثر ذلك، ولم يجدوا من ينصرهم فيكشف عنهم العذاب من دون الله.

قال نوح مبتهلا إلى الله: رب لا تبقي من الكافرين أحدا على وجه الأرض، استأصلهم جميعا. إنك إن تبقهم يعم الضلال عبادك المعترفين بربوبيتك من أهل الأرض جميعا.وسيكون نسلهم مثلهم في الفساد والكفر والفجور.

رب مُنّ علي بغفرانك وطهرني من الآثام، واغفر لوالدي، واغفر لمن يتصل بي ويدخل بيتي من المؤمنين والمؤمنات. وأهلكْ الكافرين ولا تزدهم إلا خسرانا.

بيان المعنى العام :

22/21- قال نوح رب إنهم عصوني...كبارا.

واصل نوح عليه السلام الاجتهاد في دعوة قومه إلى الإيمان بالله، رغم ما لاقاه منهم من الصدود الذي شكاه إلى ربه في الآيات السابقة. وبعد ما عرض عليهم من الأدلة اليقينية القريبة المقنعة. ولكن قومه لم يتحولوا قيد أنملة عن عنادهم، مصرين على الكفر وعبادة الأصنام. وبلغ به الضجر أن عاود الالتجاء إلى ربه يعرض عليه ما لا قاه، وأنه بلغ درجة اليأس من اهتدائهم.وبكلمة واحدة كشف ما انتهى إليه معهم.إنهم عصوني.صمموا على عصياني، وكلما فتحت لهم سبيلا إلى التوحيد والصلاح، صدوا عنه وسلكوا طريقا معاكسا. وأجمعوا أمرهم على اتباع رؤسائهم وقادتهم، الذين توفرت عندهم الأموال التي ينفقونها لنصر الكفر.وما يزال أصحاب

المال المفسدون ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وكذلك الذين قويت عصبيتهم بأولادهم. فاستعملوا قوة المال والأولاد فيما أدى بهم إلى الخسارة. شأنهم شأن التاجر الذي يجهد نفسه ليحرك ماله، وتكون العاقبة ضياع الجهد وذهاب المال. كانوا يارب يخططون في الخفاء ليتمكنوا من الإضرار بالدعوة.ومن ذلك تدبيرهم قتل نوح وترويج الشائعات المنفرة منه.إن مكرهم بلغ الغاية من الخبث والفساد.

23- وقالوا لا تذرن آلهتكم...ونسرا.

هذا تفصيل للعصيان الذي صمموا عليه. نوح عليه السلام يدعوهم للتوحيد ونبذ الشرك، فكان ردهم أن حرضوا أتباعهم على التمسك بآلهتهم، وأن يلتزموها ولا يتركوها. ثم أخذوا يعرضون أسماء كبراء آلهتهم ليلهبوا حماس عُبّادها. لا تتركوا

1- ودا ولا.

2 -سواعا ولا.

3 -يغوث ولا.

4- يعوق ولا.

5- نسرا.

وللعرب أصنام بهذه الأسماء تتقاسمها قبائل، عمل المفسرون على تعيينها، وربط كل واحد منها بالقبيلة التي تعتقد فيه الألوهية. وإن القرون المتطاولة الفاصلة بين قوم نوح والعرب في جاهليتهم، وكذلك هلاك العابدين والمعبودين بالطوفان دفع بالمفسرين إلى افتراضات، سِمَةُ التكلف فيها واضحة. والذي اطمأننت إليه أن الشيطان يوسوس للبشر بما يدفعهم إلى الإشراك وعبادة الأصنام، فيكون من تأثيراته أنه جدد في عقول عبدة الأصنام بعد عمرو بن لحي إطلاق تلك الأسماء على أصنامهم، وما كانوا يظنون أنها معبودات لقوم نوح حتى كشف القرآن عن ذلك.

24- وقد أضلوا كثيرا.

كان قولهم هذا مؤثرا في قومهم، وفعلا ألهب حماس الدهماء وكان عددهم كثيرا، على التمسك بتلكم الأصنام، فواصلوا ضلالهم.

ولا تزد الظالمين إلا ضلالا.. الظاهر أن هذا من كلام نوح عليه السلام. فلشدة معاناته ويأسه من اهتدائهم قال نوح رب لا تزد الظالمين شيئا إلا إمعانا في الضلال بحجبك عنهم كل لطف يأخذ بهم إلى طريق الرشاد. والتعبير عنهم بالظالمين ليكون الوصف مظهرا لعلة دعائه عليهم، وليشمل معهم كل الظالمين المتعصبين.

وتوقف كثير من الحذاق في دعاء الرسول الذي تتمثل مهمته أولا في هداية البشر، كيف يدعو بالدوام على الضلال. فأول الدعاء، على معنى أن يضلهم الله عن التفطن في مكرهم إلى ما يضر. فيكون مكرهم لا يصل بهم إلى غرضهم. أو أن الضلال لما كان سببا للعذاب، أطلق اسم السبب الضلال على المسبب العذاب، أي لا تزد الظالمين إلا عذابا.

25- مما خطيئاتهم أغرقوا...أنصارا.

بسبب ما ارتكبوه من الخطايا، من الشرك بالله، ومكرهم برسوله، ورفضهم للحق بعد ما تبين، وإصرارهم على الكفر، كانت عاقبتهم الغرق بالطوفان. ووجدوا النار التي أنذروا بها عقب إغراقهم. ولم يجدوا من ينصرهم فيرد عنهم عذاب الله. وما مؤكدة للتعليل المفهوم من كلمة "من "ولما كان هذا الكلام صادرا من الله مخاطبا به محمدا ﷺ ، فإنه يتضمن وعيد كفار قريش أنهم لا ناصر لهم وأنهم مهزومون وسيلقون ما أوعدهم من العذاب الأليم، وأنهم مخذولون فلا تغني عنهم الأصنام شيئا.

27/26- وقال نوح رب لا تذر...فاجرا كفارا.

أيس نوح من صلاح قومه، بعد أن جرب معهم كل الطرق التي يمكن أن تحولهم عن الشرك إلى الإيمان، وما وجد منهم إلا إصرارا على المضي فيما هم عليه، وزيادة تصلب في الكفر. فدعا ربه أن يستأصلهم جميعا، ويفنيهم، ولا يبقى لهم نسلا. فقوله: ديارا : أي إنسان له رابطة بقومه المتمردين. ثم تقدم بما يرجى معه قبول دعائه ببيان أن الحامل له على الدعاء عليهم هو أنه في الإبقاء عليهم تعريض البشر إلى الضلال. بما جمعوه من مال ينفقونه في سخاء على كل ما ينشر الإلحاد، ويعوق الإيمان. وبضروب المكر التي تدربوا عليها. ومن ناحية أخرى حرصهم على أن ينشّئوا أولادهم على الخطيئة والشرك والفجور. فهم قوم فسدوا فسادا كان به بينهم وبين الشر والخطيئة أقوى رابطة.

28رب اغفر لي ولوالدي...تبارا.

دعا نوح ربه وقد أحس بمخايل القبول لدعائه ، وأن الله سيجيب دعاءه في قومه، فاغتنم هذا القرب ليدعو بما عمرت به نفسه من الخير والصلاح. فدعا ربه أولا: رب اغفر لي، أن يلطف به فيرفعه إلى المقام الذي تكون صحائفه نقية من كل ذنب،وعطف على نفسه والديه برًّا بهما، واعترافا بفضلهما عليه لما نشّأه على التوحيد.وثلث بأقربائه وخلانه الذين يدخلون بيته يستمعون الذكر، ويشدون أزره،

وختم بمن تجمعه بهم صلة الإيمان من الموجودين ومن الذين سيوجدون إلى يوم القيامة، يدعو لهم جميعا بالمغفرة.

ويقطع صلته بمن كفر فيدعو عليهم أن لا يزيدهم إلا هلاكا وخسرانا. حتى ينقطع الشر بذهاب أهله.

يوم الأربعاء 20شعبان 1435 - 2014/6/18

سورة الجن

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة. أخذ اسمها من الموضوع الذي بسط فيها.وهي سورة مكية باتفاق. رتبتها حسب ترتيب المصحف الثانية والسبعون، وحسب ترتيب النزول السورة الأربعون.نزلت بعد سورة الأعراف وقبل سورة يس. وتفيد كثير من الظواهر أنها نزلت في حدود السنة العاشرة من البعثة، قبل ثلاث سنوات من الهجرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

النفر : الجماعة إلى العشرة.

عجبا : فائق بديع.

الرشد : الخير والصواب.

تعالى : بلغ من العلو أسمى غاية لا يصل إليها غيره.

جد : العظمة والجلال.

سفيهنا : إبليس.

الشطط : قولا مفرطا في الباطل.

يعوذون : العوذ الالتجاء إلى ما ينجي من شيء ضار.

الرهق : الذل.كما يطلق على الضلال والإثم.

بيان المعنى الاجمالي :

أمر الله رسوله أن يبلغ الوحي الذي جاءه مسجلا استماع الجن للقرآن.جماعة من الجن بين الثلاثة والعشرة سمعوا رسول الله يتلو القرآن ففهموه، وتأثروا به التأثر التام. فشهدوا بأنه كلام بلغ الغاية في السمو. حقيق بأن يتملك سامعه العجب.وأنه يهدي من تأمل في مضامينه إلى طرق الهدى والصواب. وأنه قد حصل لهم اليقين بأنه من عند الله فآمنوا به.وقد ارتفعت كل الشبهات، فمن هذا اليوم لا نعبد أحدا سوى الله.وأن جلال ربنا قد سما، وعظمته قد انكشفت رفعتها. فلا يتصور أن يكون له زوج أو ولد. فما يروجه الكافرون من أن الملائكة بنات الله باطل. وكذلك أن له ولدا مناف لعظمته وجلاله. وثبت لدينا الآن أن ما كان يوسوس به الشيطان من صور مضللة عن الله هو من الخروج البين عن الحق. وبهذا البيان الواضح الذي سمعناه فإننا نعتقد أن الإنس والجن لا يستطيعون بعد اليوم أن يوهموا بصدق مفترياتهم على الله إذ كشفها القرآن. ومن أوهام البشر أنهم كانوا يحتمون بالجن، وينادونهم ليدخلوا تحت رعايتهم، فسخر منهم الجن وأذلوا أنفسهم بذلك، وانغمسوا في الإثم باستنادهم في حمايتهم لغير الله القادر .

بيان المعنى العام :

1 ← 2 - قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن...أحدا.

مضمون هذه الآية مؤكد أنه وحي من الله لرسوله. صاغه الله قرآنا. وافتتحه بكلمة " قل " الدالة على الاهتمام بذلك المضمون. أوحى الله إلي قرآنا يثبت:

أ-أنه استمع إليّ نفر جماعة بين ثلاثة وعشرة، من جنس الجن.

ب-أنه لم يشعر بهم صلى الله عليه وسلم إلا بواسطة وحي الله له هذه الآية. فهو لم يرهم، ولم يتحدث إليهم. أوحي إلي أنه استمع نفر.

جـ- أنهم فهموا ما سمعوا وأنهم تأثروا بما سمعوا من القرآن، ووصفوه أولا بأنه عجب بديع فائق يعلو على غيره من الكلام عُلوًا يملك إعجاب السامع له في مضامينه، وفي نسجه.

د-ووصفوه ثانيا بأنه ينفذ إلى القلوب فيهديها إلى الخير، ويفرغ فيها الطمأنينة، ويشحنها ببرد اليقين. ويهدي إلى الرشد.

هـ - أن هداه يستقر في القلوب فلا يزول منها. به ثبت التوحيد في نفوسنا ثباتا لا يقبل الشك ولا الزوال. فأصبحنا به موحدين، نرفض أي شائبة من الشرك في المستقبل.فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا.

تثبت الآيتان أن الجن مخلوقات لله، تستطيع أن تدرك الأصوات وما تدل عليه، وأن تتأثر بها. وتعددت الآيات التي تتحدث عن الجن في القرآن.فكل من ينفي وجود الجن ينفي ما دل عليه القرآن يقينا. ومكذب القرآن جملة أو تفصيلا كافر. لأنه مكذب للحق القرآني، إلا إذا تأول ولو كان تأوله بعيدا.

تحدث القرآن عن الأصل الذي خلق الله الجن منه : من نار السموم سورة الحجر آية 27) من مارج من نار(سورة الرحمن آية 15). وكيفية ذلك من الغيب.

وأن هذا الخلق "الجن" مأمور بعبادة الله (سورة الذاريات آية 56) وينقسم إلى قسمين صالحين، وإلى مردة خبثاء شريرين سورة الجن آية 15/14.

وأن الجن مسؤولون يوم القيامة عما قدموا في الحياة الدنيا مجزيون بأعمالهم،سورة الأنعام130/128 وأن الخبثاء منهم سيعاقبون في جهنم سورة الأعراف آية78 وآية 179- سورة هود آية19-

وأن للجن قدرات تفوق القدرات البشرية كما جاء ذلك في سورة النمل آية 17وآية 29 وفي سبأ آية14/12-

وأنهم قادرون على التمييز بين الخير والشر كما سيأتي تفصيله في آيات عديدة من هذه السورة.

وأثير حول الجن أسئلة كثيرة، منها:

اولا: الطبيعة التي تحول إليها الجن بعد خلقهم من مارج من نار،ومن نار السموم. نظير خلق آدم من تراب ومن طين. وقد تحولت صورته بعد ذلك إلى الإنسان بخصائصه الجسمية والعقلية والشعورية والروحية. فما هي الصورة التي تحول إليها الجن ؟ الذي نجزم به أن صورة الجن، وكذلك صورة الملائكة، يمكن إدراك كل منهما، ولا يوجد مانع عقلي يجعل إدراكهما مستحيلا. ولكن قدراتنا الإدراكية غير مؤهلة لإدراك الملائكة أو الجن بما يُعيِّنُهما،إدراكا يحصل به في الذهن صورة متميزة لا تختلط بغيرها. وقد يُطلِع الله رسوله على ذلك تكريما له، وخاصية من خاصياته صلى الله عليه وسلم، أو يحدث ذلك كرامة لأحد أوليائه. وذلك بإحداث <u>قدرة خاصة ظرفية</u> تمكن من الإدراك الكامل للجن.

ومن ناحية أخرى فإن بعض الاختلالات النفسية قد تصور للمختل صورا ربما تصل إلى أنه يصبح يتصور و يخاطب ويسمع ويبصر، ويتفاعل مع ما تولد من ذاته، وأن إحساسه بذلك يبلغ درجة اليقين،وينسب تلك الخيالات إلى الجن.وإذا عرض نفسه على طبيب نفسي مقتدر، واستطاع بأسئلته أن ينفذ إلى عقدة الاختلال، تذهب كل المرئيات والأحاسيس ويعود إلى حالته السوية. وإن كل ما يتعلق بالجن

وراء ما قدمناه لا يمثل عنصرا من عناصر الإسلام. وكل ما يتناقله الناس عن أخبار الجن،لا تجد له حقيقة ملموسة، ولا نسبة إلى موثوق بعلمه وديانته وذكائه. ومما ينبغي ذكره أن ابن عرفة لما عرف النكاح قال فيه : هو عقد على مجرد متعة التلذذ بآدمية.وعلق الرصاع عليه بقوله :أخرج بآدمية التلذذ بالطعام والشراب.قال: وزعم بعض المشائخ أنه أخرج به العقد على الجنية، وفيه بعد. حدود ابن عرفة ص 154) وتعقبه البناني أن ابن العربي ذكر أن نكاح الجن مع الإنس جائز عقلا فإن صح نقلا فبها ونعمت وإلا بقينا على أصل الجواز العقلي. ج3ص161 – وكلام ابن العربي على جلالة قدره، وعمق نظره، ومقامه العلمي الرفيع في مذهب مالك، كلام لا يحل منا محل القبول. وذلك لأن الله يقول : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا)[1] وتكرر في القرآن ثلاث مرات خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها. بهذه النصوص الواضحة لا يقبل أن يقال: فإن صح نقلا. إذ كل نقل يخالف ما ثبت يقينا مرفوض، ولا يمكن أن يكون صحيحا.

3- وإنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا.

تعالى جد ربنا : تعالى جلاله، وسمت عظمته سموا لا يُدانى. اعترفوا بصفة عامة أن جلال الله وكماله فوق ما تضيفه للآخرين من كمالات ورفعة.فهو كمال فائق يتناسب مع ذاته العلية.ثم عطفوا على هذا التمجيد العام، أن ما يلصقه به الكفرة، من أنه اتخذ صاحبة، كما يزعمه المشركون أن الملائكة بنات الله من سروات الجن،هذا الذي ينسبه إليه الكافرون هو مناف لكماله يرفضه العقل.وكذلك ما يعتقده من نسب إلى الله ولدا هو عقيدة تنافي كماله وجلاله.

لقد أشرق في نفوسهم مفهوم الألوهية نقيا من كل شرك، منزها عن كل نقص. فأثبته القرآن تعريضا بالمشركين الذين لم يبلغوا مبلغهم مع أن الرسول يعيش بين أظهرهم، ويتلو عليهم آيات الله بكرة وعشيا.

4- وإنه كان يقول سفيهنا...شططا.

اعترفوا بأن ما سمعوه من القرآن طرد كل ما علق بتصورهم، من المجازفات والأباطيل البالغة حدا كبيرا، التي كان ينسبها إبليس إلى الله، ويقنعهم بها.

5-وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا.

هذا اعتراف منهم بقوة حجة القرآن ونصاعة بيانه، وأنه يهدم كل الأكاذيب المنسوبة إلى الله، والتصورات المنافية لحقيقته سبحانه. تعلق المروجون للباطل

---

[1] سورة النحل آية 189

بشبهات، وغشوا بها المخاطبين. والقرآن ببيانه، وصارم حجته، يعصف بكل ما روجوه، ولن يستطيعوا حسب ما يعتقد النفر من الجن، أن يتمكنوا في المستقبل من الكذب على الله، إذ ينكشف كذبهم ببيان القرآن وواضح حججه.

وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن... تقرير يعرض وهنا من أوهام المشركين، وعلاقتهم بالجن. فكانوا إذا لف الليل أحدهم في الصحراء أو الوادي، استوحش وخشي أن يتعرض له الجن وأن يعبثوا به في الليل، فكان يصيح بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك. ويطمئن بهذه الاستغاثة أن سيد الوادي يحميه من أن يتعرض له أحد من الجن بسوء. حصن نفسه من الوهم، بوهم. جعل حمايته بيد من لا يراه ومن لم يقم دليل على وجوده،بمجرد استغاثته به. وجعل نفسه في مرتبة أقل من الجن الموهوم الساكن بالمكان فأذلوا أنفسهم. وأغرقوا في الضلال والإثم بدعائهم غير الله.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۝

بيان معاني الألفاظ:

لمسنا : اختبرنا السماء.

ملئت : كثر فيها كثرة بالغة.

حرس شديد : حراس ينفذون ما كلفوا به بدون تسامح.

شهبا : وهو ما ينفصل عن النجم انفصالا يصحبه ضوء شديد.

نقعد : نلتزم البقاء في مكان أمدا يطول.

رصدا : حافظا.

طرائق: ج طريقة الطريق الواسع.

قددا : ج قدة.سير الجلد. والمراد مذاهب مختلفة ومتفرقة.

لن نعجز : لن نستطيع الإفلات من قبضته.

بيان المعنى الإجمالي :

كما تقرب المشركون من بني آدم لسيد الجن في الأودية والفلاة ليحصنهم، فما اكتسبوا من فعلهم ذلك إلا ضلالا، فإنهم على نفس المستوى من الضلال،لما ظنوا أن لا بعث بعد الحياة الدنيا،واستووا معكم في هذه العقيدة الخاسرة. ثم أخبروا إخوانهم من الجن : أنهم اختبروا السماء فوجدوها قد تحولت عما كانت عليه.قالوا إنا كنا نجد فيها أمكنة نستقر فيها لمعرفة ما يجري بين الملائكة، ونكتشف الغيب. تبدل الوضع فكل من يحاول استراق السمع للتعرف على ما يجري بين الملائكة، يجد حراسة شديدة من الملائكة الموكلين بذلك فلا يفلت من رقابتهم أحد. كما أن شهب السماء أصبحت تنطلق بسرعة شديدة،وبقوة مدمرة، فأي جني يحاول الاقتراب من الملأ الأعلى يتبعه شها ب يبيده، كان يترصده.إننا آمنا بما أنزل على محمد، ولكنا نجهل هل إن الله اراد بما أنزله من الهدى أن يهلك البشر ويستأصلهم لإعراضهم عن الحق، أو إن الله أراد بهم الخير بما يسره لهم من الإيمان. وأما نحن معشر الجن فقسم منا صلح أمره، واستقر الإيمان الواضح عنده حقيق أن يوصف بالصلاح.وقسم هو دون الصلاح، وفيه مذاهب عديدة مختلفة. وإنا تيقنا أن قدرة الله لا تغالب، فلن نستطيع أن نفلت من نفاذها فينا أينما كنا في الأرض، ولن نستطيع أن نهرب منها لا في أقطار الأرض ولا في أقطار السماء.

بيان المعنى العام :

7-وإنهم ظنوا كما ظننتم...أحدا.

يواصل الجن تشهيرهم بالضالين من المشركين، ويتحدثون به لبعضهم.فبعد أن سخروا منهم بدعائهم الجن لحمايتهم، شهروا بظنهم الرافض للبعث، وقرنوا بين المشركين من الإنس وبين المشركين من الجن. أي وإن المشركين من الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن المشركون أن لن يبعث الله أحدا إلى الحشر بعد موته. أو أن لن يبعث الله رسولا يعلن الحقيقة ويدعو للتمسك بها، ويقيم الأدلة عليها.

8-وإنا لمسنا السماء فوجدناها...وشهبا.

عرف النفر من الجن إخوانهم بالسر الذي ظهر بعد البعثة المحمدية، وأنهم اكتشفوا السبب الخفي في التحول الذي حصل في الكون، فقالوا لهم : إنا اختبرنا السماء فوجدناها قد تبدلت علينا، إذ أصبح حراسها منتشرين أكثر مما كانوا،وهم حراص على تنفيذ ما أمروا به لا تجد منهم تهاونا، ولا يتسامحون أي تسامح مع من

يتجاوز الحدود الذين هم مكلفون بحراستها. وكما ملئت بالحرّاس الأشداء، ملئت بالشهب التي تنطلق بكل قوة لا تبقي واحدا منا في طريقها، تنقض عليه فتبيده.

9-وإنا كنا نقعد منها...رصدا.

فرق كبير بين ما كان يمكننا أن نحققه في السماء، وبين وضعنا اليوم. إنا كنا نقعد آمنين مطمئنين، ونطيل الجلوس في أماكننا في السماء نسترق السمع، ونحاول أن نصل إلى ما يجري في العالم العلوي بين الملائكة. أما اليوم فإن كل من يحاول المكث أمدا يقترب به مما يجري في السماء بين الملائكة، ينقض عليه شهاب، كان يرصده بمجرد ما قدم، فيحرقه ويذيبه. فقد حيل بين الجن وبين الغيب الجاري بين عالم الملائكة. وكل من يدعي العلم بالغيب، كلامه مردود عليه، ولا يقوم على أي أساس.

10-وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا.

بعد أن سجل الجن الواقع الجديد، ومنه حرمانهم من المقاعد التي يستمعون فيها، ذكروا لإخوانهم بعد حرمانهم من الاطلاع على الغيب أنهم لا يعرفون مستقبل أهل الأرض بعد هذا التحول أهو الشر أو الخير؟ إنهم لا يدرون ما ذا أراد الله بالبشر من أهل الأرض، هل أراد بهذا التحول الشر الماحق أو أراد به أن يسلك بهم طريق الرشاد والهدى والخير. والأولى أن تفهم الآية على أنهم بعد أن آمنوا وصرحوا بذلك، وعطفوا عليه ما يؤكد إيمانهم وملاحظاتهم التي منها تغير أمر السماء وحراستها الحراسة المشددة. صرحوا بأنهم يجهلون الغيب، فهل إن ما أنزل من القرآن سيكون حامل شر للبشرية، يرفضونه فيُستحقون، أو إنهم سيؤمنون ويتحولون من ظلام الشرك إلى وضّاء الإيمان.

11-وإنا منا الصالحون...قددا.

وتبعا لكون ما سيصير إليه أمر الإنس مجهولا عندهم. وأنهم وثقوا من أنهم على الهدى وأن الصلاح قد تمكن منهم،وأن بعض الذين عرفوهم بما تحقق عندهم من الهدى اتبعوهم، وبعضهم استجاب إجابة منقوصة، وبعضهم رفض. فانبنى على ذلك أن من لم يتبع مسلكهم قد تفرقوا فرقا عديدة، إذ الإيمان بما أنزل على محمد مسلك واحد لا خلاف فيه.

12-وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض...هربا.

وإنا تيقنا بما سمعناه من القرآن أن قدرة الله تأخذنا حيثما كنا فلا نستطيع أن نغالبه، أو أن نحد من قدرته فنجعلها عاجزة عنا في أي مكان من الأرض كنا.ولن نستطيع

أن نهرب منه فيعجز عن اللحاق بنا وتسليطه أمره فينا، فحيثما كنا في الأرض أو في السماء فإننا في قبضته، نافذ فينا حكمه.

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الهدى : القرآن.

البخس : الإنقاص من الأجر.

التحري : طلب الشيء الذي ينبغي أن يفعل.

الرشد : الهدى والصواب.

القاسط : الظالم.

الماء الغدق : الماء الكثير.

لنفتنهم فيه : لنختبرهم.

يسلكه : يدخله.

صعدا : شاقا.

بيان المعنى الإجمالي :

صرح الجن بالنتيجة التي استقرت عندهم استقرار اليقين، أن قوة تأثير القرآن قوة خارقة للعادة، فإنهم بمجرد ما استمعوا القرآن ووعوا معاني آياته ثبتوا على الإيمان بالله وبما ورد فيه. وأيقنوا أن من آمن بربه الذي رعاه في جميع أطوراه، وتتابعت رحماته وعنايته، أنه حصن بذلك نفسه،من أن ينقص من أجره شيء أو أن يلحقه ذل وهوان. وبذلك اعترفوا بأن الجن على قسمين: قسم مؤمن صالح، وقسم ظالم طالح. ثم عقب الوحي من الله على ما صرحوا به: أن من آمن إيمانا أسلم به وجهه لله، فأولئك الذين اجتهدوا فوّقوا لطريق الهدى،وحسن الثواب.وأما الذين اختاروا الظلم على العدل والكفر على الإيمان فإن مصيرهم محقق أنهم يكونون حطبا لجهنم. وإن البشر لو استقاموا فسلكوا طريق الهدى الواضح، ولم ينحرفوا عنه، فإن الله سيواصل عليهم فيوض خيراته، يسقيهم ويسقي أراضيهم المياه الكثيرة

المتتابعة. والمياه إذا تتابعت تولدت منها الثـروات.والمـال فتنـة للنـاس، هـل يعرفـون حق المنعم فيبارك لهم فيما آتاهم ويرضى عـنهم.أو إنهـم سـيكفرون بالنعمـة وينسـبونها إلى أنفسهم، فيعرضون عن ذكر الله، فيكونـون تبعـا لـذلك بصـدد الـدخول فـي بوتقـة العذاب الشاق الغالب الذي لا مخرج منه.

بيان المعنى العام :

13- وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به...بخسا ولا رهقا.

عطفوا على أنهم تيقنوا أنهم لايخرجـون عـن نفـاذ السـلطان الإلهـي فـيهم. فـأعربوا عن كونهم تفتحوا للإيمان بمجرد ما سـمعوا القـرآن. إنهـم بمـا صـرحوا بـه يثبتـون للقرآن قوة خارقة للعادة، تهدي المستمع له والمتدبر لمضـامينه إلـى الإيمـان بـه. وأنـه حبب لهم الإيمان، ووثقوا أن مـن آمـن فإنـه يفـوز بالطمأنينـة، ولا يخـاف بخسـا أن ينقص من أجره شـيء، ولا يخـاف رهقـا ظلمـا، ولا مهانـة.أمنـوا بـأنهم سـيعاملون معاملة عادلة كأبلغ ما يكون العدل.

14←15- وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون...حطبا.

تؤكد الآيات الجن المؤمنين تبرأوا ممـن لـم يـؤمن.حققـوا ذلـك بقـولهم : وإنـا منـا الصالحون ومـن دون ذلـك.وبقـولهم فـي هـذه الآيـة وإنـا منـا المسـلمون ومنـا القاسطون. والقاسطون هم الكفرة الجائرون الظـالمون. ومـن طريـف مـا اقتـبس مـن الآية ما ذكره الزمخشري أن الحجاج لما أراد قتـل سـعيد بـن جبيـر ﷺ قـال لـه :مـا تقول في ؟ فقال : قاسط عادل. فقال القـوم مـا أحسـن مـا قـال ! حسـبوا أنـه يصـفه بالقسط والعدل. فقال الحجاج : يا جهلة،إنـه سـماني ظالمـا مشـركا. وتـلا لهـم قولـه تعالى: وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبـا. وقولـه تعـالى: ثـم الـذين كفـروا بـربهم يعدلون [1]- والذي عليه حذاق المفسرين: أن هذا تمام كـلام الجـن الـذي أوحـى الله بـه لرسوله ﷺ. وأن ما يأتي بعده هو من كلام الله تعالى يعـظ بـه المشـركين، فهـو بمثابـة العبرة مما سجله القرآن من كلام الجن وأوحى الله به إلى محمد ﷺ.

فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا... يستخلص مما تقدم فـي الآيـات، وهومـا اسـتقر عنـد الجن الذين استمعوا للقـرآن، وأعلـم الله بـه رسـوله والمـؤمنين :أن مـن آمـن بـالله واجتهد في طلب الحق فأولئك الذين توخّوا سبيل الهـدى ومـا يترتـب عليـه مـن الفـوز بالأجر والثواب.وأما الذين رجحـوا الظلـم علـى العـدل، فإنـه قـد تحقـق فـيهم أنهـم لهوانهم كالحطب للنار لا قيمة له إلا في تـأجيج لهبهـا واشـتداد حرهـا. والظلـم يشـمل

[1] سورة الأنعام آية1

كل تجاوز للحق والعدل، ومنه الشرك الذي هو أشد أنواع الظلم قال تعالى : إن الشرك لظلم عظيم[1] .

16←17- وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم....عذابا صعدا.

يتابع القرآن ما أوحى الله به لنبيه بعد أن استوفى تسجيل كلام الجن. فحرض القاسطين الظالمين، على ترك ما هم عليه من الشرك؛ ووعدهم بأنهم لو استقاموا على طريق الهدى واتبعوا المنهج الواضح الذي شرعه الله بوحيه، وأقامه محمد ﷺ ببيانه قولا وفعلا، فإنهم سيجنون من ذلك الخير الكثير،فيديم الله عليهم الخيرات، ويكون ما قدم من خيرات الدنيا إيذانا برضا الله عنهم في الآخرة.سيديم سقيهم ماء كثيرا متتابعا.هذا الماء الذي ينبت لهم الزرع، ويثمر لهم الجنات. فتكثر أموالهم، والمال هو اختبار للناس؛ هل يشكرون ربهم على نعمه، أو ينسون فضله وينأون عن طاعته ؟ وفي ذلك إنذار لهم بأنهم إن لم يستقيموا على الطريقة، فسيبدل خصب أراضيهم قحالة، وتحبس عنهم المياه فيعم الجدب.ويذيقهم العذاب الشاق.
وتلك قاعدة عامة،سنة من سنن الله في الكون: أن من يعرض عن استحضار تفرد الله بالتصرف، وعن ذكره بقلبه ولسانه، فإن الله يدخله في العذاب الشاق الغالب الذي يحيط به ولا يستطيع منه مخرجا.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

قام : اجتهد في الدعوة بإعلانها.
عبد الله : محمد صلى الله عليه وسلم.
لبدا : جمع لبدة. ما تراكم بعضه على بعض، ومنه لبدة الأسد للشعر المتراكم حول رقبته.
لا أملك لكم : ليست لي قدرة تؤثر فيكم.

[1] سورة لقمان آية 13

ضرا: تعجيل ما تو عدهم به.
رشدا : قبول الهداية.
ملتحدا : مكانا يعصمني.
بلاغا : ما أمرني بإبلاغه.

بيان المعنى الإجمالي :

مما أوحي إليّ وأمرت تبليغكم إياه: أن المساجد ملك لله وحده ليس لأحد فيها حق، فأفردوها لعبادة الله وحده بالصلاة والدعاء والذكر، وكل ما هو خالص لله. ونزهوها عن الأصنام، وعن الاشتغال فيها بعقد صفقات البيع والشراء وما يتعلق بأمور الدنيا. و لا تتخذوا مع الله أحدا تعبدونه وتتقربون إليه فيها.
وأوحي إليّ أنه لما قام عبد الله بتبليغ الرسالة، وتحدى المشركين في عبادتهم وتصورهم للكون ومُسَيره، تألبوا عليه وكادوا بتراكمهم على عداوته يكونون لبدا.
قل لهم لا أدعو إلا ربي الذي خلقني وهداني، فأنا موحد لا أشرك بربي أحدا.
قل لهم معرفا الواقع الذي أنت عليه: إنك لا تستطيع أن تجلب لهم النفع أو أن تدفع عنهم الضر، ولا أن تحملهم على الهدى. وقل لهم إني لن أجد من يمنعني من عذاب الله إن تجاوزت ما أمرني به، ولن أجد مكانا خارج ملكه أعتصم فيه، إذ الكون كله ملكه. ولكني مبلغ عنه ما يصلني منه من قرآن ومن متنوع الهدايات التي ترشدكم إلى الخير
إن من يتجاوز حدوده فيتجرأ على عصيان الله، وعصيان ما يأتيه عن رسوله فإن مآله جهنم خالدا فيها أبدا. سيمهلهم حتى إذا شاهدوا ما يوعدون من العذاب والانهزام، فستطير كل أوهامهم في السلامة والانتصار. ويعلمون علم اليقين النابع من الإحساس بالواقع من هو الفريق المعتمد على الناصر الضعيف غير المؤثر، وسيعلمون قلة عددهم وتضاعف عدد المسلمين.

بيان المعنى العام :

18- وأن المساجد لله...أحدا.

مما أوحي إليّ وأمرت أن أقوله: أن المساجد ملك لله مختصة به لا يشاركه فيها أحد. ولما كانت المساجد ملكا لله وحده، مختصة به، إذ هو الذي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فيجب تبعا لذلك أن تفرد للصلاة والدعاء وقراءة القرآن والذكر والتدبر .وأن تتنزه عن الشرك وعن الأصنام، وفي هذا تعريض بمشركي مكة الذين جعلوا من المسجد الحرام مجمعا لآلهتهم ولأصنامهم. وكذلك ينبغي أن تتنزه المساجد عن الكلام في أمور الدنيا والبيع والشراء، والصفقات. يقول عبد الحق بن عطية رحمه الله :ولقد قعدت للقضاء بين المسلمين بالمسجد الجامع بالمرية (من بلاد

الأندلس) ثم رأيت فيه من سوء خلق المتخاصمين، وصياحهم، وأيمانهم وفجور الخصام وغائلته ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيت عنه، فقطعت القعود للأحكام فيه.

19-وإنه لما قام عبد الله يدعوه...لبدا.

قلْ لهم مما أوحي إلي: ما يفيد أن الله يرعى نبيه، وهو معه في كل لحظة. إنه لما قمت، وعوض أن يأتي بياء المتكلم" إني لما قمت" أو يأتي بلفظ النبي أو الرسول، أو يقول لما قمت؛ اختار القرآن أن يأتي بكلمة " عبد الله "وذلك تشريفا لرسوله وتقريبا له، فقال: وإنه لما قام عبد الله. كما جاء في سورة الإسراء : سبحان الذي أسرى بعبده.
كادوا يكونون عليه لبدا...لما أقبل على الدعوة بكل قوة وتحد للشرك، تألب عليه المشركون، وتناصروا فيما بينهم،وتعاونوا على عداوته، متراكمين ليطفئوا النور الذي جاء به، فأبى الله إلا أن ينصره.

20-قل إنما أدعو ربي...أحدا.

قل لهم: إني لا أدعو إلا ربي، ولا أطلب العون إلا منه..إني ما غصبت لكم حقا، ولا آذيتكم، وإنما أدعو ربي الذي تولاني بعنايته وهدايته، ولا أشرك به أحدا.فهو وحده الذي حباني بما حباني به من الوجود، والهداية، وكشف لي الحقيقة التي قام عليها الكون.لذا فإنه لا يتصور مني أن أشرك به أحدا في الألوهية.

21 -قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا.

قل لهم معرّفا بمهمتك، والحدود التي تعمل في دائرتها، وعرفهم بما هو خارج عن ذلك. قل لهم: إني لا أقدر أن أنفعكم ولا أن أضركم. فالله هو الذي بيده النفع والضر، كذلك لا أقدر على قسركم على معرفة الرشد واتباعه، أو أمنعكم من الاستمرار على الضلال.

22-قل إني لن يجيرني من الله أحد...ملتحدا.

قل لهم، أعلن لهم ما يزيد توضيحا لمهمتك وحدود مهمتك التي أنت ملتزم بها. إني أدرك تمام الإدراك، موقن أكمل اليقين، أني إن تجاوزت ما كلفت به، فلن أجد قوة تمنعني من عقاب ربي وغضبه. ولن أجد مكانا خارج ملكوت الله يعصمني، والملك كله له، لا يخرج عن ملكه شيء ولا يشاركه فيه أحد.

23-إلا بلاغا من الله ورسالاته...أبدا.

يمكن فهم الآية على أن هذا استثناء منقطع بمعنى لكن. لن أجد من دون الله ملتحدا، لكن إن بلغت ما أمرني بإبلاغه رحمني. ويمكن فهم الآية على أن استثناء

متصل والمعنى : لن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا،أي شيئا أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ ما أمرني بإبلاغه, وأطيعه فيجيرني.

ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم...هذا تصريح بما يفهم من الكلام السابق، وفيه وعيد للمشركين الذين يريدون أن يكف الرسول صلى الله عليه وسلم عن استنقاص آلهتهم وتوهين أمرها. إن من يعص الله ورسوله فيخالف ما بلغه من ربه ويواصل عناده، فإن مآله أنه يلقى في نار جهنم، فتعقد الصلة بينه وبينها، ويخلد في عذابها خلودا أبديا لا ينقطع.

24- حتى إذا رأوا ما يوعدون...وأقل عددا.

حتى حرف يدل على الغاية. والأمر المُغيَّا مقدر، معلوم من مواقف المشركين مع رسول الله. حاصله أنهم كلما سمعوا وعيدا بالعذاب، أو بانهزامهم وانتصار المسلمين عليهم يقابلون ذلك بالاستهزاء والسخرية، (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين)[1] (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين)[2] سيتواصل استهزاؤهم، واغترارهم بإمهالهم، إلى الغاية التي تتبخر فيها تصوراتهم الضالة. ويفيقون على الحقيقة المؤلمة التي ما كانوا يتوقعونها، ويعلمون علم اليقين يوم يصدمهم الواقع من هو الفريق المعتمد على الناصر الواهن الضعيف. كانوا يعتزون بقوة آلهتهم وأنها ستمنعهم وتقوي شوكتهم إلى الأبد، فلا يجدون لها أثرا يوم يحل عليهم الوعيد. وسيعلمون أيضا من هو الفريق الضعيف القليل العدد عندما ينهزمون الانهزام الماحق أمام جيوش الإسلام فينكشف لهم أن عددهم في تناقص وأن عدد المسلمين يتضاعف.

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

[1] سورة الملك آية25

[2] سورة سبأ آية 35

بيان معاني الألفاظ:

الأمد : الغاية.

الغيب : ما استتر عن عامة الناس.

لا يظهر : لا يطلع، ولا ينبئ به.

السلك : الإدخال.

بيان المعنى الإجمالي:

قل لهم وهم يسألون سؤال إنكار عن موعد تحقق الوعيد، قل لهم إني لا ازيد عما أطلعني عليه ربي، فأنا لا أعرف أيتحقق الوعيد قريبا، أم يتحقق بعد زمن محدد عند الله تبعا لحكمته. إن ربي هو وحده المحيط بعلم الغيب، ولا ينبئ بما حواه الغيب أي أحد، إلا المرتضى عنهم من المرسلين، فإنه يطلعهم على ما أراد من الوحي المغيب، ويحفظهم عند تلقيهم له حفظا يكون به الرسول عند تلقيه للغيب الموحى به محاطا من جميع جوانبه بالملائكة الحافظين له، يرصدون كل خبيث من الشياطين فيطردونه طردا يقصيه عن الوسوسة. ويتم إبلاغ الرسول فعلا ما أمر الله بإبلاغه ، وينكشف لله انكشاف التحقق أن المكلفين بإبلاغ الوحي، قد نفذوا مهمتهم على الوجه الأكمل. وبلغوا رسالة ربهم الموكلة إليهم، وعلم الله محيط بما هو لدى الرسل من وحي وغيره،هو يرعاهم ويؤيدهم. وإن علم الله يشمل كل جزئية من جزئيات هذا الكون.سبحانه وسع علمه كل شيء.

بيان المعنى العام :

25- قل إن أدري أقريب ما توعدون...أمدا.

تكرر من المشركين السؤال عن الوقت الذي سيتحقق فيه ما يوعدهم به النبي ﷺ، استبعادا له، وإنكارا أن يتحقق في الوجود ما يؤذيهم بسبب تكذيبهم للوحي.وقد حققت الآية السابقة : أنهم سيرون ما يوعدون وسيعلمون عندها **من أضعف ناصرا وأقل عددا**. وهذا ما يثيرهم قطعا للسؤال عن وقته. فقطع القرآن عليهم حبل السؤال، وبادرهم بأمر رسوله أن يقول لهم: إني لا أعلم هل سيكون حلول الوعيد قريبا، أو ان الله سيؤجله إلى زمن هو معين عنده لحكمة يعلمها.أما الوعيد فلا شك في حلوله.

26-عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا.

هو عالم الغيب، تفرد بذلك، شمل علمه ما يعلمه الناس وما لا يصلون إلى علمه. كخصائص الذات الإلهية، وحقيقة الملائكة، وحقيقة الجن وتفاصيل البعث والنشور والحساب، ومآل كل فرد في الآخرة.وما سيحدث في المستقبل مما سيجري على

الأفراد أو التقلبات العامة في المجتمعات وفي الكون.كل ذلك معلوم عنده علم انكشاف كامل. ولا يمكن أي كائن من الاطلاع على الغيب كله، إذ تضعف طاقة المخلوقات مهما سما مستواهم في الفضل أن يحيطوا بعلم الله.

27-إلا من ارتضى من رسول... رصدا.

استثنى سبحانه من عدم الاطلاع على الغيب، من ارتضاه من رسول، من الغيب الذي أراد أن يطلعه عليه.وهو يشمل أمرين :

أولهما: ما كان من متعلقات الرسالة من الوحي، فوحي الله مغيب لا سبيل لأحد أن يطلع عليه إلا الرسل الذين جعل ذلك من مهمتهم الموكلة إليهم ليبلغوه إلى البشر من حقائق العقيدة ومضامين الإيمان، والتشريع الهادي لإقامة العدل.

ثانيهما : ما كان من الغيب مما يكشفه للرسول ليكون ذلك العلم الحاصل آية على صدق الرسول، ومعجزة مؤيدة له. كقوله تعالى: (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين)[1].

فإنه يسلك من بين يديه.. فإن الله تعالى يحيطه إحاطة من يدخل في الشيء "يسلك" أي إن الله يحيط رسوله من أمامه ومن خلفه ومن جميع جهاته، بالملائكة الذين يحفظونه حفظا كاملا ، ويحيطون به إحاطة تامة مانعة من كل دخيل، يرصدون كل شيطان خبيث من الاقتراب من الرسول، حتى يتلقى الوحي كما هو دون زيادة ولا نقصان ولا تحريف، مطابقا تمام المطابقة للأصل المثبت عند الله.

28-ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم...عددا.

إنه بعد أن يتم إبلاغ الرسول ما أراد الله أن يصله من الوحي بتلكم الحماية التي لا تدع مدخلا للعبث، يتحقق أن الرسول قد وصل إليه ما أراده الله، فيتعلق العلم الإلهي بالحقيقة الواقعة المنكشفة للرسول كما سبق أن تعلق بالحقيقة التي ستقع وهي في علم الغيب، وهما متطابقان كمال التطابق.

وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا... والحال أن الله يسع علمه كل شيء، فهو يعلم ما عند الرسل من الوحي وغيره. فالآية عممت شمول علم الله لكل ما تعلق بالرسل، بعد أن أثبتت الآية السابقة تعلق علمه بما تم من الوحي المحصّن بالملائكة من تسلط الشياطين.

وأحصى كل شيء عددا. شأن الكون أنه مُركَّبٌ تمثل الكثرة عنصرا مقوما له. فالماء أصله قطرات ولكن العلم البشري لا يستطيع أن يعلم عدد القطرات للماء

---

[1] سورة الروم آية 4/2

الجاري أو النازل من السحب. وكل الأجسام ذرات والإنسان عاجز أن يحيط علما بالذرات وما تتميز به كل ذرة من الذرات، وهكذا دواليك، فالإحاطة بالعدد التي يلزم منها العلم بالمعدود، والكثرة واحد منها، هي لله وحده.

سورة المزمل

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير والسنة. والقسم الأول منها مكي باتفاق. وأن قوله تعالى: إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل إلى آخر السورة مختلف فيه روي أنه مما نزل بمكة، كما روي أنه نزل بالمدينة. ويؤيد هذا القول أن الآيات الأخيرة اشتملت على قوله تعالى وآخرون يقاتلون في سبيل الله. والقتال لم يفرض في مكة. وحمله على الإنباء بالغيب تمحل.وهي السورة الثالثة والسبعون حسب ترتيب المصحف. وأما حسب ترتيب النزول فاختلف فيه هل هي التالية لسورة العلق، أوهي الثالثة نزلت بعد سورة المدثر، وقيل هي الرابعة باعتبار أن سورة ن والقلم هي التالية للعلق.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

المزمل: المتلفف بثيابه. وأصله المتزمل ادغمت التاء في الزاي.

الترتيل : التمهل في النطق به، حتى تتبين حروفه ولا تختلط من العجلة.

سنلقي : سنبلغك القرآن فينفذ ما ينزل منه إلى قلبك دفعة واحدة.

إن ناشئة الليل : صلاة الليل بعد النوم.

أشد وطئا : أكمل تأثيرا في النفس.

أقوم قيلا : تساعد بصفة أفضل على تذكر القرآن وعدم نسيانه.

بيان المعنى الإجمالي:

ينادي القرآن محمدا بـ"يا أيها المزمل" تذكيرا له باللحظة التي سعد فيها بقبول الوحي أول مرة، وطلب من زوجه رضي الله عنها أن تلفه بثيابه لشدة ما عانى، ويفهم من ذلك تقريبه والتلطف معه. أنت مأمور بأن تقوم الليل لتزكي نفسك بصفة

أبلغ حتى تتقوى على تحمل الوحي، قبولا، ثم إبلاغا للناس. قم نصف الليل للعبادة أو أقل من النصف قليلا، أو اكثر من النصف حسب طاقتك.واعتن بقراءة القرآن فرتله بما يُظهر كل حرف من حروفه ولا يختلط بما يسبقه ولا بما يأتي بعده. واستعدّ لتلقي القرآن، فإنه **قول ثقيل** بما يحمله من عميق المعاني، وما يشمله لما يصلح الإنسان في الدنيا والآخرة، ولتقويم النظام الاجتماعي، والحياة الفردية فكرا وسلوكا. ومما يساعدك على تزكية نفسك ومواصلة السمو بها قيام الليل. إن العبادة بالليل تمكن العابد من التأثر بصفة أفضل من أسرار العبادة. ويكون بها العابد أقوم على تذكر القرآن متغلبا على عادية النسيان.

بيان المعنى العام :

1-يا أيها المزمل.

افتتحت السورة بالنداء، والمنادى هو محمد رسول الله ﷺ .والأصل أن ينادى البعيد أو الغافل. وقد ينادى القريب للدلالة على عناية المخاطب بالمخاطَب، وتقريبه. والأصل في النداء أن يكون باسم المنادى، وقد يعدل المتكلم عن الاسم العلم إلى صفة من صفاته لتكريم المنادى. والصفة التي تودي بها الدالة على الذات مع الوصف المقصود " **المزمل** " والمزمل هو الملتف في ثيابه.واختير هذا الوصف لاقترانه بحدث فريد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.يوضحه الحديث الطويل الذي رواه البخاري في كتاب بدء الوحي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عندما وصفت بدء اتصاله ﷺ بالوحي، أنه غطه ملك الوحي ثلاثا، ثم أرسله فقال : **اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم**. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال : زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع[1]. إنها لحظة فريدة في تاريخ حياته ﷺ، هي اللحظة التي تلقّى فيها من رب العزة بواسطة الملك جبريل الآيات الأولى من القرآن وهو وحيد في غار حراء هي تجربته الأولى مع الوحي. وقد رجع إلى زوجه ليجد في حزمها ورأيها، وإخلاصها ما يسعده بالعون بعد أن فزع أشد الفزع، وكان أول ما طلب منها أن تزمله بثياب فتحيطه بالدفء المادي، مع الدفء المعنوي.فهي لحظة تمثل قوة الرسول ﷺ على التحمل، لم تخنه قواه، ولم ينهر نفسيا، ولم يرتعش، ولكنه استعان على وضعه بالتدثر. ثم انطلق مع زوجه إلى ورقة بن نوفل. على ما فصل في كتب السنة والسيرة. فهي اللحظة التي تمثل

---

[1] انظر تمام الحديث فتح الباري ج1 ص30/24

قوة عزيمته ﷺ على تحمل المهمة التي اختاره الله إليها، فناداه بما يسجل تلكم اللحظة قرآنا يتلى، فتتجدد الصورة الوضيئة في قلوب المؤمنين، وأي شرف وأي تلطف، وأي تقريب يوحي به هذا النداء الرفيق ! واختلف هل إن من اسمائه ﷺ " المزمل " والمحققون على أنه ليس من أسمائه.

2←3-قم الليل إلا قليلا نصفه...أو انقص منه قليلا.

تأمر الآية النبي ﷺ أن يقوم الليل معمرا له بالصلاة. وهو أمرعلى الوجوب حسب الظاهر من الأمر. وقد كان قيام الليل واجبا عليه ﷺ . قيل كامل حياته الشريفة وقيل تواصل ذلك إلى أن فرضت الصلاة. وأما بالنسبة للمؤمنين به فقيل إنهم كانوا مأمورين باتباعه ففرض عليهم قيام الليل إلى أن نسخ بفريضة الصلاة، أو دام ذلك ثمانية أشهر أو سنة أو عشر سنين إلى أن خفف الله عنهم.وهذا خلاف لا ينبني عليه حكم،إذ أن ذلك قد مضى وقت العمل به

و الراجح أن قيام الليل كان واجبا على النبي ﷺ. وأن ذلك يساعده على أداء شريف مهمته، إذ في التفرغ للصلاة في هدأة الليل، والإقبال على الله بالطاعة الخالصة التي ينقطع فيها المصلي عن شواغل الحياة ما ينمي الخير، ويضاعف تزكية النفس، فيكون بذلك أقدر على تحمل عبء الرسالة، وعلى زيادة القرب من ربه.قال تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا)[1]

قم الليل إلا قليلا نصفه....المأمور به قيام الليل. والليل ما بين غروب الشمس، وطلوع الفجر. وإن صلاتي المغرب والعشاء، والنوافل المرتبطة بهما ليست من قيام الليل. ولم يؤمر بقيام الليل كله، بل أخرج منه ما لم يقصده، وهو القليل من الليل الذي يخصص لراحة الجسم. ثم بين القليل بقوله نصفه، أو انقص منه قليلا، أو زد عليه.فأفادت الآية التخيير، بين أن يقوم:

[1] نصف الليل.

[2] أن ينقص من النصف قليلا.

[3] أن يقوم أكثر من النصف ولم يوصف بالقلة، وقد قام النبي ﷺ متهجدا إلى أن تورمت قدماه، فلما سئل عن ذلك وذكر السائل أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال :أفلا أكون عبدا شكورا.

4- ورتل القرآن ترتيلا.

[1] سورة الإسراء آية 79

كما أمر بقيام الليل أمر ﷺ أن يقرأ القرآن بتمهل ولا يعجل بقراءته. حتى يأخذ كل حرف من حروفه حقه من الأداء، ويأخذ المد صفته من القصر أو الطول. وهو ما يساعد السامع على استيعاب معاني الكتاب. والترتيل أصله وصف للأسنان، فإذا كانت منتظمة بينها فلج قليل وليست متراصة، قيل: ثغر مرتل.وسيأتينا مزيد بيان عند قوله تعالى: لا تحرك به لسانك لتعجل به.[1] قال أحدهم لسيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قرأت المفصل في ليلة، فقال عبد الله، هذا كهَذِّ الشعر.ذلك أن منشد الشعر يعجل قراءته ليظهر الروي والميزان أكمل ظهور.

5- إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا.

ينبئ الله رسوله ليكون على أتم الاستعداد لمواصلة تقبل الوحي المنزل من القرآن. ووصف القرآن بأنه قول ثقيل، وذلك لأن ما تحمله كل كلمة منه،وكل جملة، وكل تركيب، من عميق المعاني، ومن أسرار الهداية، ومن مرونة الفهم مرونة تجعلها تكشف عن صدقها في كل عصر حسب المستوى المعرفي في ذلك الزمن.ولأنها تخاطب الروح والعقل والمشاعر كما قال تعالى:(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء)[2] – وقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عندما ينزل عليه الوحي. روى البخاري بسنده قالت : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا " كثرة العرق")[3] فهو ثقل معنوي يؤثر ماديا في طاقاته بما وصفته.

تذكير: تتابعت الآيات من أول السورة تعد النبي ﷺ ليقوم بما شرفه الله به من أمانة تبليغ الوحي، فيفرض عليه قيام الليل لتزداد نفسه الكريمة شفافية، وأنسا بمناجاة ربه. وأمره أن يرتل القرآن ترتيلا دون عجلة ليتعمق أبعاد كنوز ما احتوى عليه. وأعلمه تبعا لذلك بطبيعة القرآن، أنه كلام ثقيل ليس كبقية الكلام.

6- إن ناشئة الليل هي أشد وطئا....قيلا.

تقوّي هذه الآية العزائم على قيام الليل لما يختص به من المزايا. فبقيام الليل تزكو النفس، و يصفو السر، وترتقي المشاعر، وتكون المناجاة أشد قربا. وقد سأل عبيد بن عمير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قال : قلت لعائشة : رجل قام من أول

---

[1] سورة القيامة آية6

[2] سورة الزمر آية23

[3] فتح الباري ج1ص 24

الليل أتقولين له قام ناشئة، قالت : لا، إنما الناشئة القيام بعد النوم. إنه عندما يستيقظ المرء من نومه أثناء الليل بعد أن يكون قد أخذ نصيبا من الراحة ثم يتوضأ، فإنه يجد من النشاط، ومن هدوء البال، ومن السكون الملائم لتكون أشواقه أكثر صفاء، و تتفتح روحه على الفيوض الإلهية بصفة أسمى وأرقى، ما لا يجده في أول الليل ولا في بقية ساعات اليوم. فناشئة الليل ألصق بتلكم المعاني. وذهب بعض العلماء إلى أن ناشئة الليل لا تختص بالقيام بعد النوم. فهي بمعنى ما ينشئه المرء من العبادة في الليل.

أشد وطئا... تفهم الجملة على أن المصلي في الليل متمكن من المناجاة في صلاته بصفة أكمل، شأن تمكن رجلٍ من يطأ الأرض. كما يمكن أن تفهم على أن ناشئة الليل أشد تمكنا في الخير وتأثيرا في الروح والعقل.

وأقوم قيلا... إن ناشئة الليل، أعون على تدبر القرآن والنفاذ إلى هداه، وتفهم خصب معانيه. وناشئة الليل بما يصحبها من السكون المخيم على الكون يكون بها التالي أقدر على تذكر ما يتلوه، ويتغلب على عادية النسيان.

إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (7) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (8) رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً (9) وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (10) وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (11) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً (14)

بيان معاني الألفاظ:

السبح : العوم، والمراد به التصرف السهل.

التبتل : الانقطاع، بتفرغ البال إلى ما يرضي الله.

الوكيل : الذي يفوض له التصرف في الأمور.

الهجر الجميل : هو الهجر الذي يقتصر فيه صاحبه على الهجر دون تعد أو جفاء.

النعمة : الترفه.

مهلهم : الإمهال الشديد.

الأنكال : القيود.

الجحيم : نار جهنم.

ذا غصة : لا يستسيغه ويقف في حلقه.

الرجف : التزلزل والاضطراب.

الكثيب : الرمل العالي كالربوة.

المهيل: اللين الرخو الذي يذهب بالريح.

بيان المعنى الإجمالي :

إنك تجد في النهار متسعا من الوقت لتهتم بما أنت موكل به من تصريف أمور المسلمين، والعبادة. وإبلاغ ما ينزل عليك، وشؤون بيتك. وليكن لسانك رطبا بذكر اسم ربك و كن منقطعا إليه انقطاعا يجعلك تستحضر في كل أمورك أنك تتقرّبُ إليه وحده. هو رب الكون كله، والزمان كله، لا إله إلا هو. كل ما دعي من دونه باطل. فاعتمد عليه وحده، وفوض جميع أمورك إليه فإنه يكفيك ما أهمك. ولا تحزن من سوء أقوال المشركين، واصبر على ما تسمعه من بذيء أقوالهم. واهجرهم فلا تخالطهم، ولا تتبع أقوالهم بما هو من نوعها، فخلقك أرفع من ذلك. وليكن هجرك لهم هجرا جميلا لا تخالطه إذاية.فذلك أنكى لهم.

لا تهتم بالمكذبين، واتركهم لي، فإني سأكفيكهم.هؤلاء الفارغين من كل القيم الإنسانية، والذين لا حظ لهم سوى الجري اللاهث وراء النعيم المادي. انتظرهم وقتا قليلا في عمر الكون. **إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا**. لقد أعددنا لهم القيود الحديدية التي تضغط عليهم فتفقدهم الحركة ويعانون من شدتها،وسعّرنا لهم جهنم لتحرقهم بلظاها، ونبعث فيهم شهية الأكل فيقبلون على طعام لا يستسيغونه، ويقف في حلوقهم يعانون منه أشد العناء، وأنواعا من العذاب فوق ما يتصوره الخيال. سيتم ذلك في يوم عظيم، يوم تهتز فيه الأرض من أقصاها إلى أقصاها، وتضطرب الجبال الراسيات، وتنقلب الجبال الصلدة إلى كثبان رخوة تتحرك بحركة الريح.

بيان المعنى العام :

7- إن لك في النهار سبحا طويلا.

يتوالى في هذه السورة عناية الله برسوله. فبعد أن أمره بتعمير ليله بالصلاة والقيام، وحثه على ذلك بما في قيام الليل من مزايا. ثنى بالنهار. فسجل أنه مُمكّن من التصرف في النهار، تصرفا متنوعا سهلا، فيه كثير من الحرية كما يسبح الإنسان في الماء. تتصرف في مهماتك وشواغلك، بين القيام على شؤون المسلمين، وتقوية الأصرة الجامعة بينهم، وبين القيام على أهلك، وبين الدعوة إلى الله ومجادلة من يصدون عن سبيله، وبين تعليم أمتك ما شرعه الله لهم.

وقد يفهم منه أنه إذا فاتك شيء من قيام الليل فإنك تجد في النهار متسعا تقضي فيه ما فاتك. وفي هذا توسعة عليه، وعلى المؤمنين الذين يتأسون به.

8- واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا.

ومن عنايته برسوله أيضا ما جاء في هذه الآية من أمره بمواصلة ذكر الله بلسانه، الذكر المعبر عما امتلأت به نفسه الكريمة من الصلة الدائمة بالله. فالذكر الذي يقرب الذاكر من ربه هو ما تآلف فيه اللسان والقلب، فلا القلب لاه عما ينطق به اللسان، ولا اللسان صامت عن فيض الإحساس الباطني بتمجيد الله وتسبيحه وتحميده.

وتبتل. أصل التبتل الانقطاع، وهو انقطاع خاص، انقطاع عما يشغل عن الذكر وعن قيام الليل، وعن القيام بأمر الدعوة قياما يحقق نشرها، ورد هجمات الشرك الباغي عليها. والانقطاع لله في الإسلام يختلف عن الانقطاع الذي روج له النصارى من الرهبانية التي تعتبر الدنيا رجسا. فإن التزوج والتطيب، والتأنس بالأهل والصحابة،في كل ذلك تقوية للنفس على العبادة، ومناسبات للحمد على النعم، وشكر له سبحانه بصفة أوضح وأتم باقتران الشكر بلذة النعمة.فالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن اتبعه بإحسان تجد صلته بالله وتبتله إليه، متواصلا.وهو في جميع أحواله ذاكر لربه.

9-رب المشرق والمغرب...وكيلا.

هو **رب المشرق والمغرب**، هو رب الكون كله من المشرق إلى المغرب،وهو رب الكون في جميع الأزمان ما بين زمان الشروق وزمان الغروب.فعم الليل والنهار، ثم صرحت الآية بمضمون رب المشرق والمغرب : أنه المتفرد بالألوهية.الواحد الأحد. وإذ انتفت الألوهية والتأثير عن غيره سبحانه.فاعتمدْه وتوكلْ عليه، وفوّضْ التصرف في جميع الأمور إليه.إنه الناصر العزيز لا يُخْذلُ من كان الله متوليه وناصره.يكفيك همك ويُفْرِغُ في قلبك الأمن والثقة، ويبعد عنك القلق والخوف والاضطراب.

10-واصبر على ما يقولون...هجرا جميلا.

تتوالى في السورة عناية الله برسوله كما أشرنا إليه سابقا. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلقى من سفهاء قريش، وحتى من ذوي المكانة الاجتماعية صنوفا من الإذاية القولية. فأرشده ربه إلى أن يتدرع بالصبر، وأن لا يبلغ به التأثر من قبيح كلامهم ما يغتم به.تقول له الآية إن ما تتأيد به من توكلك على الله وحده يسكب في

قلبك قوة تعلو بها على ما يحاولون به إيذاءك من سفيه أقوالهم. فاصبرْ ولا تحزن، ولا تخاطبهم في مستوى أخلاقهم الهابطة، ولا تعاملهم بما هم أهل له من قبيح أقوالهم،ولا تسبُّهُمْ ولا تؤذهم ولا تجارهم في الرد عليهم بما يبكتهم،فإن سكوتك عنهم هو الهجر الجميل الخليق بك وبسمو أخلاقك.

11-وذرني والمكذبين...قليلا.

في الآية تهديد شديد، ووعيد مرعب. يستعمل مثل هذا الخطاب في المواطن التي يكون فيها المتكلم متمكنا من التنكيل ممن دخل عليه كلمة " ذرني" يريد أن يقول وقد اشتد غضبه : لا تهتم به واتركه لي فإني سأنتقم منه انتقاما لا أقبل فيه شفاعة شافع. سبب النقمة الشديدة عليهم تمسكهم بالتكذيب حتى أصبح وصف التكذيب علَمَا عليهم. ثم وصفهم بأنهم انغمسوا في النعمة،وقصارى حظهم في الدنيا هو التسابق إلى خفض العيش، والترفه دون أن تسمو مداركهم إلى معرفة الحقيقة، وإلى التحلي بالكمالات الخلقية.هم كما قال الله فيهم :(ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)[1] وكقوله تعالى : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)[2]

12—13- إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما...وعذابا أليما.

بيان لقوله تعالى: فذرني والمكذبين. لا تهتم بهم واتركهم لي فإن لدينا في ملكنا ما أعددناه لنسلطه على من تعلقت مشيئتنا بعذابه. لدينا قيود من حديد تضغط على المعذَّب فلا يستطيع حراكا، ونبعث فيه شهية الأكل، فيُقَدَّمْ له طعام يقف في حلقه يعاني منه أشد العناء، وأنواع من العذاب فوق ما يتصوره الخيال تؤلمه أشد الإيلام.وقد أتى بها منكرة غير معرفة [أنكالا وجحيما وطعاما وعذابا، ولم تعرف الأنكال والجحيم والطعام والعذاب، وذلك قصد التعظيم والتهويل ليست محددة بحدود التعريف]

14- يوم ترجف الأرض والجبال...مهيلا.

ذلكم النكال المعد للكافرين الذين لا يجدون شافعا ولا نصيرا، يسلط عليهم يوم القيامة. وصف هذا اليوم بأنه يحدث فيه ما لا عهد للبشرية به. تزلزل الأرض، وإن كان الناس عهدوا قبل ذلك الزلازل في أماكن محدودة، إلا أن زلزال ذلك اليوم

---

[1] سورة الأعراف آية179

[2] سورة الفرقان اية 45

يعم الأرض فلا يبقى جزء منها لا يضطرب وينفجر،وكذلك الجبال الشامخة الصلبة الصلدة،تضطرب كأنها قصبة جوفاء. فتنقلب بعد صلابتها وشموخها إلى كثبان من الرمل رخوة لا تصمد حتى لحركة الهواء.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ۝ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ۝ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ۝

بيان معاني الألفاظ :

الأخذ : الإهلاك.

وبيلا : ثقيلا غليظا.

الانفطار : التشقق.

مفعولا : محقق الوقوع.

التذكرة : الموعظة.

بيان المعنى الاجمالي :

من رحمتنا بالبشرية أنا أرسلنا إليكم رسولا يوقظكم من غفلاتكم ويقيم التوحيد ، ويصلح أوضاعكم الفردية والاجتماعية، ويكون شاهدا عليكم،ولا مرد لشهادته. وهذه سنتنا فقد أرسلنا قبلكم إلى فرعون لما انحرف عن الهدى رسولنا.فما كان منه إلا أن رفض الاستجابة لما جاءه من الحق على لسان الرسول، فسلطنا عليه عذابنا العذاب الثقيل الغليظ. كيف تستطيعون إن لم تستجيبوا لما جاءكم به الرسول أن تحصنوا أنفسكم إن واصلتم الإقامة على الكفر من عذاب يوم شديد تشيب لهوله الولدان في بواكير سنهم. وتتشقق السماء ويذهب تماسكها. إنه يوم واقع لا محالة فلا تشكوا في وقوعه. إن ما قدمته لكم موعظة تساعد من أراد الاهتداء ليتخذ الطريق السالك لرضوان ربه.

بيان المعنى العام :

15-إنا أرسلنا إليكم رسولا...إلى فرعون رسولا.

خطاب من رب العزة موجه أولا لقريش، وموجه بعد ذلك للعالم كله. إنا، نحن الله بعظمتنا وعزتنا، أرسلنا إليكم أيها الناس، من كان حاضرا عند نزول الآية، ومن يأتي بعد ذلك في جميع الأزمنة والأمكنة، أرسلنا إليكم رسولا. إن الواجب والحالة

تلك، أن تعلموا حق هذا الرسول، وتدركوا أن ما جاءكم به فيه خيركم. ثم إنه يشهد عليكم وشهادته لا مطعن فيها. ويترتب عليها جزاؤكم. وهذه سنتي في تدارك الناس بتوجيه من يتولى إصلاح شؤونهم العامة والخاصة، ويعمل على إنقاذهم من الضلال في العقيدة والسلوك. فمن قبلكم أرسلنا إلى فرعون رسولا. فتبين بإرسال محمد ﷺ ، وإرسال موسى قبله إلى فرعون أن رحمة الله توقظ الناس قبل فوات الأوان ليتداركوا أنفسهم.

16- فعصى فرعون الرسول...وبيلا.

تحذير ووعيد لمن لم يطع الرسول المبعوث من عند الله. كان موقف فرعون مناقضا لما تقضي به الحكمة، عصى فرعونُ موسى، فلم يقبل منه توحيد الله ونبذ الشرك، والاستقامة في الحياة والإقلاع عن الظلم. فعاجلنا فرعون العاصي المستكبر بسحقه. وأهلكناه هلاكا ثقيلا مدمرا. أغرقناه فابتلعه البحر مع جنده.

17- فكيف تتقون إن كفرتم...شيبا.

تستحضر الآية لهم عذاب الآخرة مجسّما، وتسألهم سؤال تعجيز فتقول للكافرين الرافضين، كيف تقدرون على جعل وقاية لأنفسكم من عذاب يوم القيامة وأهواله إن واصلتم تمسككم بالكفر والعصيان. ثم يجسم القرآن أهوال هذا اليوم الذي لا مرد لما يقضى فيه. يوم يبلغ فيه الخوف والهلع من الشدائد الماثلة فيه، إلى أن يسرع الشيب فيه إلى رؤوس الصبيان. وهو غاية ما يتصور أن يبلغ إليه الهم من التأثير .يقول أبو الطيب المتنبي :

والهم يخترم الجسيم نحافة *** ويشيب ناصية الصبي ويهرم.

18-السماء منفطر به كان وعده مفعولا.

بناء السماء المتماسك القوي، الذي تبلغ فيه جاذبية كل كوكب قوة فوق التقدير المعروف للبشر. إذ لا يخرج بذلك أي كوكب عن مساره. هذا البناء المحكم سينشق في ذلك اليوم، ويختل التوازن الكوني اختلالا مخربا. وما مشيب الأطفال بالنسبة لانخرام نظام الكون، وخروج الكواكب عن مساراتها وتعرضها للاصطدام والانحلال إلا أمر يسير. وقع الترقي في الآية من مشيب الولدان إلى الدمار الشامل المرعب.ولما كان الهول عظيما والخراب الذي سيحدث فوق ما يمكن للإنسان تصوره، أكدته الآية بأنه مفعول وواقع لا ريب فيه.

19- إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا.

ما عرضته الآيات السابقة هو كاشف لكم عن الحقيقة ؛ القصد منه الموعظة، فمن كان كافرا فليقلع عن الكفر ويؤمن بالله ورسوله، ومن كان مؤمنا متبعا لشهواته ليفق من غفلاته، ويسارع بالتوبة والاستقامة. لقد أدى التحذير والتنبيه دوره في إيقاظكم إلى المنهج المنجي، وهو لا يقسركم على الإيمان والخير، أبان لكم بطريقة جلية أن الهلاك تابع لمشيئة الإنسان، ولم يبق لأحد عذر.فحرضت الآية أفضل تحريض على اتباع السبيل الموصل إلى رضوان الله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢٠)

بيان معاني الألفاظ :

أدنى: أقل.

تحصوه : تطيقوه.

يضربون : يسيرون مسافرين.

الابتغاء من فضل الله : طلب الرزق.

بيان المعنى الإجمالي :

ختمت السورة المكية بهذه الآية المدنية.يتوجه فيها القرآن إلى رسول الله ﷺ م يخاطبه، بأن الله يعلم ما تتقرب به من قيام الليل، ما يقارب ثلثيه، أو النصف أو الثلث، وعلْمُهُ يشير إلى قبول قيامه ورضاه عنه. وكذلك رضاه عن المؤمنين الذين تأسّوا به.إن التحديد الدقيق لثلثي الليل ونصفه وثلثه مرتبط بالنظام الذي بنى الله عليه الكون.وضبطه على وجه الدقة عسير عليكم، فالله بفضله لم يؤاخذكم بما لا تقدرون عليه. علم الله أعذاركم فرخّص لكم، علم أن بعضكم ينتابه المرض فيضعفه عن القيام في الليل، وبعضكم يواصل الأسفار لجلب أقوات الناس وحاجاتهم وترويج خيرات الكون مبتغين أن يمن الله عليهم من فضله. وأن آخرين منكم منصرفون إلى الجهاد في سبيل الله. علم الله ذلك منكم فخفّف عليكم، فقوموا من

الليل ما تيسر، واقرأوا من القرآن ما تيسر. والمهم هو أن تحافظوا محافظة كاملة على أداء الصلاة وإيتاء الزكاة. ولتكن نفوسكم سمحة بعون ذوي الحاجة، فإن مساعدتكم لهم تعتبر قرضا مؤمّنا عند الله. ومن عظيم فضل الله عليكم أنه يعدكم وعدا مؤكدا أن كل خير تقدمونه في الدنيا من الصلاة والزكاة وقراءة القرآن والصدقة، وغير ذلك لا يضيع منه شيء وتجدون ثوابه خيرا وأحسن مما قدمتم، وتجدون الأجر العظيم. ولتبلغوا دجة الكُمّل من الصالحين، داوموا على طلب المغفرة من الله، فإنه غفور رحيم.

بيان المعنى العام :

20-إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل...إن الله غفور رحيم.

هذه الآية نزلت على رسول ﷺ بالمدينة. افتتحت بالتأكيد الدال على الاهتمام. إذ الجمل الأولى متعلقة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك يوحي بمقامه عند ربه. فإخباره تعالى أنه يعلم ما تحمل نفسه ﷺ في مرضاة ربه من القيام بالليل يرمي إلى أن ما تقرّب به حل محل الرضا والقبول. وإخباره بذلك قرآنا يتلى مما يضاعف التنويه بمقامه ﷺ. وقوله : **أدنى من ثلثي الليل**، يفيد أقل من الثلثين. وعطف عليه: [**نصفه، وثلثه**] على قراءة الكسر أي أقل من الثلثين، وأقل من النصف، وأقل من الثلث. وأما على قراءة النصب فيفيد أنه يقوم تارة ثلث الليل وتارة نصف الليل وتارة ما يقارب الثلثين. والتخيير لا يعود إلى طول الليل وقصره، إذ لو ارتبط التحول من واحد إلى أخر بذلك لما كان هناك تخيير. بل التخيير تابع لمهمات الرسول وإمكاناته. فقيام الليل فرض عليه وأما أن يستغرق قيام الليل ما يقارب الثلثين أو النصف أو الثلث. فذلك راجع إلى ما يتيسر له مراعاة لمهامه الدينية ومهامه الدنيوية.

وطائفة من الذين معك. ويعلم الله علْمَ الرضى قيام طائفة من المؤمنين معك، فشملهم الثناء كما توجه به أولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والله يقدر الليل والنهار. إن ضبط المواقيت وساعات الليل والنهار، هو مستند إلى علم الله وإلى تصرفه الحكيم في نظام الكون.فهو وحده الذي يوالي عنايته بانتظام سيرها، وما يتبعه من اختلاف الليل والنهار ظهورا وخفاء، وطولا وقصرا.

علم أن لن تحصوه فتاب عليكم. إن الله الذي ضبط اختلاف الليل والنهار ضبطا دقيقا، يعلم أن المستوى المعرفي الذي أنتم عليه وقت نزول الآية لا يمكنكم، من معرفة ذلك التقدير الإلهي بكامل الدقة. وقد اجتهدتم في قيام الليل بنسبة، فهو راض عنكم لأن ذلك منتهى طوقكم، ولم يسجل عليكم أي تقصير تؤاخذون به. على معنى

أن الملائكة الموكلين بكم قد سجلوا قيامكم الليل حسب الواقع.وأنه سبحانه لفضله لا يحاسبكم عن القصور في معرفة أجزاء الليل بكامل الدقة.

فاقرأوا ما تيسر من القرآن. هذه الآية مكملة لقوله تعالى: فتاب عليكم. مهد الله للتخفيف عن المؤمنين قيام الليل أنه رفع عنهم المؤاخذة لمن لم يحص النسبة المحددة من النسب الثلاث في القيام، وأتبعه بنسخ وجوب قيام الليل في تلكم الفترات الثلاث. بأنهم مدعوون إلى القيام بالصلاة حسبما يتيسر لهم. وعبر عن الصلاة بالأمر بقراءة القرآن، باعتبار أن قراءة القرآن في الصلاة تمثل الركن الأهم فيها. وكما يشمل النص صلاة الليل، فكذلك يدل على الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن وخاصة في الليل.

علم أن سيكون منكم مرضى..تصريح بالأعذار التي راعاها الله بفضله فرتب عليها التخفيف. وهذه الأعذار قسمتها الآية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأعذار المترتبة عن المرض، وعن الوهن الذي يجده الإنسان في قواه البدنية مما يقعد به عن النشاط لأداء العبادة المرغب فيها.

القسم الثاني : وضع المسافرين الذين يسيرون في أرض الله يتاجرون، وينقلون الخيرات من أماكن إلى أماكن أخرى، مما ييسر رواجها، ويمكن منها المحتاجين إليها.يطلبون من الله أن يوفقهم في كسب رزقهم. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما خلق الله موتة بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحلي [أي راكبا ظهر بعيري]أبتغي من فضل الله ضاربا في الأرض.

القسم الثالث: المجاهدون في سبيل الله بما يقتضيه الجهاد من حزم وسد للثغور ليلا ونهارا، ونشاط موصول في المعارك أو الاستعداد لها بمتنوع ضروب الاستعداد.

إذ تبينت الأعذار التي راعاها الله بفضله فخفف على المؤمنين قيام الليل، وقد كثرت شواغلهم بعد أن واجهوا الكفر بالجهاد، واتسع عدد الداخلين في الإسلام بما يوجب توفير أقواتهم وحاجاتهم من الضاربين في الأرض. نبههم إلى أن التخفيف يطلبون معه عدم نسيان القرآن وليقرأوا منه ما تيسر لهم ولا يغفلوا عنه تركا متواصلا. ومن ناحية أخرى هو يُبقي على الأصول التي بها صلاح النفس البشرية وقيام الجماعة الإسلامية. فعليهم أن يقوموا بها على أكمل وجه. وهي الصلاة المدعوون لإقامتها بتمام أركانها وشرائطها، والإخلاص عند أدائها إلى الله سبحانه. وقرن بالصلاة الزكاة أختها المرتبطة بها في غالب الأوامر القرآنية. وثلث بالسماحة والتصدق على المحاويج، دون من ولا أذى ولا رياء ولا استكبار يعتبر المتصدق أن ما قدمه من مال لسد خلة الفقراء من إخوانه المؤمنين، هو بمثابة

قرض لله، ينتظر ثوابه من عنده مضاعفا قال تعالى : (إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم)[1]

وما تقدموا لأنفسكم...هذا الجزء من الآية فيه تحريض على عمل الخير مما ورد في الآية،من قراءة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصدقة المقصود بها وجه الله، وغير ذلك مما يعتبر خيرا، إن ما تقدمونه من ذلك في حياتكم الدنيا، ترجون ثوابه، تقوا أنكم تجدون ثوابه وأجره عند الله يوم القيامة أحسن مما قدمتموه بالغا من الكمال درجة أفضل من عملكم، وتجدون أجره أعظم، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

واستغفروا الله إن الله غفور رحيم...هو أمر يشمل جميع المؤمنين، فيه إرشاد لما يقرب المؤمن من درجة الكمال، ويغطي تقصيره وقصوره.إذ أن العصمة من خصائص المرسلين، وأما بقية البشر فهم على درجات من الصلاح والخير، فتولى القرآن هداية المقصر،حتى يبلغ درجة أصحاب المقامات العليا من الصلاح، هداه للاستغفار، وفتح له باب الأمل في قبول استغفاره بالتأكيد على أن الله عظيم المغفرة، مغفرته مرتبطة برحمته التي وسعت كل شيء.وأفضل الاستغفار ما رواه شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :سيد الاستغفار أن يقول :اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت[2].

يوم السبت 30 شعبان 1435 الموافق لـ 28 جوان 2014

---

[1] سورة التغابن آية 17

[2] فتح الباري ج13 ص 244/242

سورة المدثر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وهي من السور الأولى التي نزلت على رسول الله ﷺ ، واختلف هل هي الثالثة بعد المزمل والعلق، أو هي سابقة للمزمل، أو إن سورة القلم تالية للعلق.وهي مكية في جميع آياتها.وهي السورة الرابعة والسبعون حسب ترتيب المصحف.



يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

المدثر : الذي لبس ثوبا فوق الثوب المباشر للجسد.

الرجز :أصله العذاب، ويراد به ما يؤدي إليه.

والهجر : البعد.

ولا تمنن: المنة تذكير المعطي بعطيته.

تستكثر : تعُد ما أعطيته كثيرا.

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للنبي ﷺ ، بوصفه: المدثر. أخذا من طلبه من أهله أن يدثروه بثياب فوق ثيابه لما لاقاه من الفزع عند اتصاله بملك الوحي. يطلب منه أن يتحفز للمهمة العظمى التي أوكلت إليه، بإنذار كل من يتأتى إنذاره، وتعريفه العاقبة السيئة لمن لم يتبع الهدى الذي جئت به. واقرن تحذيرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بتكبير الله وتعظيمه وتقديسه، مع التأكيد على أنه سبحانه هو المختص بالكمال. وكن يقظا لتبتعد عن النجاسات، ولتعتن بنظافة ثيابك وبدنك. وطهر نفسك من كل مراتب الدون.وابتعد عما يوجب العذاب. وحُدْ ربك واستقم. وابتعد عن كل ما يتبعه العقاب أو اللوم. وإذا تكرمت فلا تؤذ المنعم عليه بتذكيره بفضلك عليه،ولا تعد ما أعطيته

كثيرا فتتبعه نفسك،وتدرع بالصبر على القيام بما أمرت به على أكمل الوجوه،واصبر على ما يؤذيك به الكفرة الفسقة فإن العاقبة للمتقين.

بيان المعنى العام :

1--3- يا أيها المدثر قم فأنذر...فكبر.

هذا الخطاب الذي افتتحت به السورة هو أخو الخطاب الوارد في سورة "المزمل" والمدثر هو اللابس ثيابا "دثارا" فوق ثيابه المباشرة لجسمه التي تسمى "شعارا" وهذا النداء بهذا الوصف مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم لزوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بعد أن رأى الملك جبريل، فعاد إليها وقد تفاعل مع الحدث الخارق للعادة، وطلب منها :دثروني، دثروني. و هذا الخطاب يشرح بما شرح به، يا أيها المزمل.

2- قم فأنذر.

كلمة قم المفتتح بها، لا يقصد منها القيام الذي هو مقابل القعود،ولكن المراد اجمع قواك، وثبت عزيمتك،فالأمر جد يقتضي تدبير ما يتطلبه، وعدم التهاون بأي متعلق من متعلقاته والتحفز لتحقيقه. وباشر الإنذار لكل من يمكن أن يفهم مقالك، بإعلان التحذير من عواقب رفض ما وُكلت بإبلاغهم إياه.

3-وربك فكبر.

واقرن الإنذار بتعظيم الله وتقديسه. إذ هي المهمة الأولى للرسول ﷺ، في تلك الظروف التي عم فيها الشرك، وعمت الناس غفلةٌ عما يجب لله من التعظيم والتقديس، والتنزيه عن كل نقص، وتصور أنه سبحانه جامع للكمال كله. صف ربك بصفات التعظيم حتى تكون العقيدة التي تدعو الناس إليها بينة من أول الأمر، ويصحبك في فترات الدعوة كلها، تخصيصه بالكمال المطلق. وقل: "الله أكبر" معبرا عن تلكم المعاني التي استقرت في نفسك. والتكبير تفتتح به الصلاة، ويصحب معظم الحركات فيها. ويبعث في النفس اعتزازا مستمدا من عظمة الله وقوته. وفيه سر زعزع عروش الظلم والاستبداد، ومهد للنصر في المعارك بين الحق والباطل.

4- وثيابك فطهر.

على جميع الأحوال، فلتكن عنايتك بطهارة ثيابك عناية تامة. وطهارة الثياب تشمل البعد عن النجاسات، وعدم لباس ما كان ملوثا، يتضمن أمرا بنظافة الثياب وطهارة البدن أيضا. ويطلق التطهير على تزكية النفس، والسمو بها لتبتعد عن منازل الدون

والحطة. يقال فلان نقي الثياب، إذا وصف بالنقاء من المعايب،ومن دنس الأخلاق. والغالب أن من طهر باطنه ونقاه، عني بتطهير الظاهر وتنقيته.

5- والرجز فاهجر.

أمر بالابتعاد عن الرجز بأبلغ طريقة. والرجز وإن كان أصله العذاب، فالمراد هجران كل ما يؤدي إلى العذاب.و يشمل عبادة الأوثان، واقتراف المعاصي، والتهاون بالواجبات، ففيه أمر بالتوحيد والاستقامة.

6-ولا تمنن تستكثر.

تواصل هذه الآية التوجيهات الإلهية لرسوله عناية به أولا، وللمؤمنين ثانية باعتباره الأسوة الحسنة لهم. وفي ذلك مساعدة له على النجاح في مهمته العظمى: إصلاح البشرية عقديا وسلوكيا. فنهاه أن يمن على من شمله عونه. وخلق المن كان منتشرا في الجاهلية. كان من يعطي المحتاج يذكره بنعمته عليه، ويكرر التذكير، وفي ذلك إيذاء لنفسية المحتاج يتبعها الحقد والحسد. والمنان يعد ما أعطاه كثيرا، فدعت الآية إلى عدم المن، وإلى تهوين ما خرج من يد المعطي فلا يعده عظيما كثيرا تتبعه نفسه. قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى[1] .

7- ولربك فاصبر.

الصبر قوة في النفس يتبعها الثبات على المبدأ، وقوتها على تحمل المشاق العارضة.وهومن توابع العزيمة الماضية التي تواصل حتى النجاح. أمر صلى الله عليه وسلم أن يصبر على الدعوة، فيواصل التذكير والبشارة والإنذار. وأن يصبر على القيام بما فرض الله عليه، وأن يصبر على إذاية المشركين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝﴾

---

[1] سورة البقرة آية 264

إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)

بيان معاني الألفاظ :

نُقر : انطلق الصوت.

الناقور : الصور الذي ينفخ فيه، فيجتمع الجيش عند سماعه.

العنيد : شديد العناد والمخالفة.

أرهقه : حمله ما لا طاقة له به.

صعودا : تتحداه صعوبات عسيرة جدا. وأصله العقبة الشاقة.

عبس : قطب وجهه.

بسر : تغير لون وجهه كمدا.

أدبر : تراجع.

سأصليه : سأحرقه.

سقر : علم على جهنم أو على طبقة من طبقاتها.

لواحة : مغيرة لذات البشر.

بيان المعنى الإجمالي:

اشتد الأمر وبلغ من العسر مبلغا عظيما يوم ينقر في الناقور، أي يوم ينفخ في الصور فتقوم الأموات من قبورهم.لا يطمع الكافرون في الفرج.

لا تهتم يا محمد بهذا الكافر الغليظ، واتركه لي فإني سأكفيك أمره. إني خلقته وحيدا لا مال له ولا قوة. ثم واليت عليه فضلي حتى أصبح يُدّعى بالوحيد، باعتبار أن ما جمعه من حظوظ الدنيا لا يدانيه فيه أحد. فقد نميت ثروته حتى كان أكثر قريش مالا، ورزقته الأولاد الذين كانوا يشهدون مجالسه، مما يزيده في أعين الناس عزا. ورزقته حظا يسعده في حياته، مما جعله يجد الأمور ممهدة تحقق آماله. ولم تقف شراهته عند حد فهو يطمع أن أزيده. كلا ! قررت أن أقطع عنه كل مدد، لأنه قابل نعمتي بكفرانها، وانتصب خصما عنيدا للآيات التي أيدت بها رسولي. إن الحياة التي كان ينعم فيها باليسر فجعلتها طريقا ممهدا لنجاحه، قد طُويت، وسأكلفه ما يشق عليه ويذهب راحته، كالمتسلق الجبل الوعر. إن الوليد أعمل فكره، وتأمل كيف يطعن في القرآن مطعنا يبعد عنه الناس. تأمل في جميع المحامل إلى أن قاده مكره وبغضه للإسلام إلى رمي محمد بالسحر. قتله الله ما

أسوأ تفكيره، وما أعظم خبثه. وصوره القرآن في صورة تستدعي السخرية منه.فبعد أن فكر وأطال التفكير، وقدر التقادير التي ظن أنها توقع فراغا حول الرسول ﷺ ، ثم عاود النظر، وظهرت ملامح الحيرة عليه، قطب وجهه، وتغير لونه.ثم عاد على ما فكر فيه من المطاعن فلم يرتضها.ثم انتفخ كبرا وقال في النهاية : ما القرآن إلا سحر موروث من القدماء.وما هو بكلام الله ولكنه من إنشاء البشر.

صرح القرآن بالعاقبة التي هيأها الله للوليد. إنه سيحرقه بنار سقر الطبقة السادسة من طبقات جهنم.من شدتها أنها تفني من لفحته ولا تترك منه شيئا، ثم يعود كما كان ثم تلفحه ثانية وهكذا.ومن الضربة الأولى يسود جلده سواد الاحتراق.كلف الله بجهنم تسعة عشر من الملائكة، ينفذون في كل فرد من أهلها ما قدره الله له من العذاب. وهم أمناء على ذلك لا تأخذهم فيهم رحمة.

بيان المعنى العام:

8←10-فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير...غير يسير.

عسر الأمر واشتد إذا نقر في الناقور، فنفخ النافخ فيه. وهو تمثيل بما يتم في الدنيا: أن الجيش إذا تفرق لأخذ حظه من الراحة، فإن قائد الجيش إذا أراد جمعهم، يأمر الموكل بالصور، القرن الذي له صوت يصل إلى مسافات بعيدة، أن ينفخ فيه. فيسرع كل فرد يبلغه نداؤه إلى مكان الاجتماع، مستعدا لتلقي الأوامر، وتنفيذها. فهي صورة تقرب ما سيحدث عندما يأذن المولى سبحانه ببعث الأموات من قبورهم فيسرعون إلى المحشر. إنه يوم عسير يشتد فيه الأمر على الكافرين، ويلاقون من الأحداث ما لا قبل لهم به ويستقر في مداركهم أنهم هالكون.ويتضاعف خوفهم بالمشاهد التي تقذف في قلوبهم الرعب، ويدركون معها، أن أمامهم ضروبا من الشدة لا يصحبها أي يسر، ولا ينتظر معها أي فرج.

11←16- ذرني ومن خلقت وحيدا....لآياتنا عنيدا.

تقدم لنا تفسير هذه الصيغة في الآية 44 من سورة القلم.

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم مغتما من تصلب مشركي مكة لرفضهم للإسلام، ذلكم التصلب الذي دفعهم إلى رميه بالجنون، وبالكهانة،و بكونه شاعرا. وبما أن بداية نزول القرآن كانت في شهر رمضان، وفتر الوحي مدة، ثم تتابع مما زاد في حنقهم، وتآمرهم. وتعاظم خوفهم من انتشار دعوته، بين الوافدين على مكة في موسم الحج، الذي تمتلئ فيه مكة وشعابها بالوافدين للحج.فاجتمعوا للنظر في

المشكلة التي أصبحت تؤرقهم. وقالوا: لا بد لنا من تنفير الوافدين من محمد، وأن لا نختلف في وصفه الوصف المنفر منه. وقلبوا النظر وتبينوا أن كثيرا مما رموه به لا يسهل تصديقه. وانصرف الوليد بن المغيرة سيد قريش، وصاحب الرأي في قومه وفكر طويلا، كما سيأتينا تصويره في القرآن. فرأى أن تجتمع كلمتهم على وصفه بأنه ساحر. وكل من سأل عنه يقولون له: إنه ساحر. وقال لهم: ألم تروا أن كلامه يفرق بين المرء وأبيه، والزوج وزوجه، والأخ وأخيه. ورميه بالسحر يحدث في الناس حذرا منه فلا يجلسون إليه. ونكون بهذا قد كوّنا فراغا حوله، فلا تنفذ كلمته في القبائل.

علم الرسول ﷺ بكيدهم،واغتم لذلك إذ حالوا بينه وبين نشر الدعوة المهمة الموكولة إليه،والوليد بن المغيرة صاحب التأثير القوي في قريش تولى كبّر هذه المكيدة،فسلاه ربه بقوله : اترك هذا المستبد الجبار لي، ولا تهتم به فسأكفيكه. اترك لي أمر هذا الذي خلقته وحيدا كبقية المخلوقات، ولد عريانا فقيرا ضعيفا، ثم واليت عليه من عطائي ما واليت. أصبح المغيرة يدعى بالوحيد، لأنه الفرد في كثرة المال وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم، والعبيد والجواري والجنان. وكانت غلةُ ماله مائة ألف دينار في السنة. والفرد لكثرة أولاده، فقد رزق من الولد ما بين عشرة وثلاثة عشر، كانوا يلوذون به في المجامع، ويلازمونه حاضرين معه شهودا، يقومون على طاعته وعلى تنمية الثروة. وجمع إلى ذلك مجد سلفه المجد الذي آل إليه. وكان أسنّ من أبي جهل وأبي سفيان. وصاحب الرأي في المهمات يصدرون عن رأيه ويحترمونه. فكانت فرية أنه ساحر أحزنت النبي ﷺ، وأهمته.

ومهدت له تمهيدا... أي يسرت له الأسباب التي بلغته المستوى الذي هو عليه، حتى أصبح نافذ الكلمة في قومه، المطاع فيهم. استوقفت الآية المنن الإلهية التي رزقها. وبرزت شخصيته الجاهلية، ومن بلاغة القرآن، أن ذكره بقوله : خلقت وحيدا، التي تتضمن أنه مخلوق كبقية البشر وحيدا لم يصحبه عند ولادته لا مال ولا أولاد، كل ما عنده اكتسبه بفضل مني ؛ فأصبح المعروف بالوحيد لما جمعه بتيسير مني من متاع الدنيا. و في ذلك إشارة إلى توهينه وإلى توبيخه،فاعتبار وصفه وحيدا مخلوقا لله أولى من وصفه وحيدا لغير ذلك مما كان محل تقدير للجاهليين.

ثم يطمع أن أزيد... من ملامح شخصية الوليد أيضا، أنه جشع،شراهته لجمع متاع الدنيا لا تقف عند حد. فهو يطمع أن أزيده، وكيف يطمع مع كفره بي!

كلا إنه كان لآياتنا عنيدا... جاء الرد على أطماعه قاطعا لها، كلا! لا يتحقق له شيء من أمانيه بسبب تصلبه في رفض ديننا، وكفره مع أنه ليس غبيا ولكنه كفر ناشئ عن عناد. فكان كفره موجبا لقطع المدد عنه. مصداق قوله تعالى : **(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)**[1]

17- سأرهقه صعودا.

لقد يسرت له أمور حياته، فوصل إلى ما وصل إليه، واليوم وقد استكبر وقاوم الإسلام، سأحوّل حياته إلى صعوبات متتالية، وأتعاب متتابعة. وأبدله من الحياة الممهدة حياة ضنكا ينتقل فيها من عسر إلى مشقة. والإرهاق يطلق على كل تعب شاق جدا، والصَّعُود أصله العقبة التي يشق على المتنقل تسلقها. مثّل القرآن حالته التي سيؤول إليها بحالة المتكلف الصعود في الجبال الوعرة. بعد أن بسطت له الدنيا وجرى فيها طريقا ممهدا. سيلاقي المعاكسات والمنغصات. وروى أحمد والحاكم عن أبي سعيد الخدري مرفوعا : الصعود جبل في جهنم يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي فيه كذلك أبدا.

إنه فكر وقدر فقتل...صورت الآية تصويرا دقيقا الخطوات التي تابعها الوليد ليطعن في الإسلام.

18- إنه فكر وقدر.

لم يسارع بالطعن في الإسلام، ولكنه اختلى بنفسه، وأخذ يقلب الرأي، ويتابع الاحتمالات ما يمكن منها أن يقبل، وما يصعب قبوله من الناس. وقدّر ما في كل تهمة يتهم بها الوحي من ضعف يحكم عليها بالرفض، وما فيها من قوة ومن موافقة للرأي العام، تسرع بتبنيها. رأى أن اتهامه بالجنون تهمة لا يصدقها من عرف محمدا وحصافة رأيه، وهو بعيد عن أعراض المجانين. وكذلك اتهامه بأنه شاعر، تهمة مرفوضة لأن القرآن لا يجامع الشعر في شيء لا في أوزانه، ولا في قوافيه.وكذلك اتهامه بأنه كاهن، لا يمكن تصديقه لأن الكهان في سجعهم، ومُعَمَّيات أقوالهم، لا تتفق مع القرآن الصريح الواضح المحكم النسج البالغ من الفصاحة حدا أبهر الناس. بعد هذا خطر له أن يقال عنه :إنه ساحر. وبرر رأيه هذا بأن من اتبعه يترك أقرب الناس إليه ويتعلق بمحمد تعلقا يفديه بأمه وأبيه وزوجه وولده. وروّج رأيه هذا بما هو مشاهد من قوة تأثير الإسلام والقرآن إلى درجة أن المؤمن يقدم ما يدعوه إليه على كل ما تعلق به قبل الإسلام.

---

[1] سورة ابراهيم آية 7

19←20- فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر.

ظاهر هذا التعبير أن القرآن يدعو عليه بأن يقتل قريبا، ويقضي عليه رفعا لشره بهذا التقدير أنه ساحر. ولكن في الاستعمال العربي قد يأتي هذا الأسلوب للتعجب، فتقول قاتله الله ما أفصحه، أو ما أشجعه. فيكون المعنى أنه تعجب من مكره ومن قدرته على تلفيق تهمة يقبلها الرأي العام المشرك، وتُنفّس عن قريش كربتها في بحثها عن مطعن يروج في الوحي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا وجه تحتمله الآية. ويحتمل أن القرآن أتبع تقديره بقوله: فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، استهزاء بتفكيره وما وصل إليه بعد إعمال النظر، على أنه رأي سخيف لا قيمة له.لأن شأن السحر أن يتناول الساحر التأثير في فرد، لا أن يكون قائما بدعوة عامة شاملة للبشرية، فما أبعد القرآن عن السحر ! وتكرار فقتل كيف قدر، يفيد أنه بلغ أعلى درجة في التقدير السيء.

21←23- ثم نظر ثم عبس...واستكبر.

كأنه جهاز تصوير يتابع الوليد في اهتمامه للظفر بمطعن،وفي حيرته،وهو يحاول أن يقنع نفسه بما يرفضه المعقول والمنطق. ويجهدها لاستنباط ما يهدم به تأثير القرآن القوي.

الصورة الأولى: وهو يفكر ويقدر.

الصورة الثانية :ثم واصل النظر وقد أعياه الأمر.

الصورة الثالثة: قطب وجهه مما ينبئ عن انكساره لما لم يظفر بمراده ، ثم ظهرت ملامح الحيرة أكثر في وجهه الذي تغير لونه خوفا وحزنا .

الصورة الرابعة: أنه عاد على كثير من تقديراته فأبطلها ورجع عنها.وقد انتفخت أوداجه كِبْرًا وتعاظما. فأعلن أنه لا يمكن أن يوصف القرآن إلا بشيء واحد وهو أنه سحر من السحر المأثور عن الأقدمين، تمويها بأن بُعْد القرآن عن التفطن لكونه سحرا، سببه أنه ليس من السحر الشائع المعروف.ثم جزم أن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من أقوال البشر، وبهذا التلفيق استراح ففرغ شحنة بغضه وكراهيته للإسلام.

26←30-سأصليه سقر وما أدراك ما سقر...تسعة عشر.

تصريح بالجزاء الذي أعده الله له : أنه سيحرقه في سقر. وسقر تطلق ويراد منها جهنم، وتطلق على الطبقة السادسة منها. وسقر تتجاوز التصور في قوة لهيبها وشدة عذابها، فلذلك أتبعت بسؤال : وما أدراك ما سقر . لا شيء يعلمك ما هي

سقر، إنه شيء يفوق الوصف ويتجاوز الخيال. تلتهم من يدخلها فلا تبقي منه شيئا، ولا يفلت منها أحد من أهلها غير محترق بلظاها. ثم تتجدد الأجسام كما قال تعالى: (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب)[1]

لواحة للبشر – تغير لون الجلود إلى سواد مقيت.فالبشر جمع بشرة وهي جلد الإنسان.

عليها تسعة عشر – حفظ الله جهنم لتؤدي دورها المنوط بها من كونها دار عذاب للكافرين والمسرفين، وحفظها بتسعة عشر من الملائكة، أومن صفوف الملائكة، أو من صنوف الملائكة.احتمالات لا يرفضها النص.ينفذون في كل فرد من داخليها ما كتبه الله عليه من العذاب.

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (31)

بيان معاني الألفاظ :

فتنة : اختبارا

يرتاب : يشك

يضل : يصرف عن الهدى

بيان المعنى الاجمالي:

لما ذكر في الآية السابقة أن الموكلين بسقر تسعة عشر، بين نوع التسعة عشر أنهم ليسوا من البشر ولا من الجن، ولكنهم ملائكة قدراتهم على تنفيذ ما يوكل إليهم مغروسة في فطرهم، ولا تقاس قدراته بالمستوى الذي عليه غيرهم.وتوقف بعض المعاندين في جعل العدد تسعة عشر، لما ذا لم يكونوا عددا يتناسب مع ضخامة المعذبين في جهنم.فذكر القرآن أن عدتهم هذه جعلتها سببا لأمرين متضادين.يفتتن بها الذين كفروا من ناحية، وتكون سببا من ناحية أخرى ليزيد أولو الكتاب يقينا بأن

---

[1] سورة النساء آية 56

القرآن منزل من عند الله، لتوافق ما أخبر به مع ما قرره موسى في التوراة. وكونهم تسعة عشر يضيف أمرا غيبيا،يؤمن به المؤمنون ويعتقدون صدقه، فيزداد عدد ما يؤمنون به من الغيب، وعلى كل إيمان أجر.وبهذا العدد الذي أدرك أهل الكتاب صدقه ينتفي أي مبرر للشك في القرآن.وكذلك يزداد يقين المؤمنين بما ورد عليهم من ربهم. إلا أن الفارق بين أهل الكتاب والمؤمنين، أن أهل الكتاب زادهم ذلك عنادا، وأن المؤمنين زادهم انشراحا.ومن ناحية أخرى فإن هذا العدد كان سببا لقول المنافقين الذين في قلوبهم مرض البغض والالتواء، هذا كلام غير واضح ما ذا أراد الله به مثلا.

على هذا النحو من وجود مؤثر واحد وسبب واحد، تكون النتائج المترتبة عنه جدُّ مختلفة، بما يسعد به الله البعض من ألطاف فيهتدوا، ويسلبه عن آخرين فيغرقوا في الضلال. فيكون ضلال البعض وهداية الآخرين.

وجملة القول : إن الله يتصرف في الكون تصرف الحكمة، وما يعلم جنود ربك المسخرة لتنفيذ ما يعلمه ويريده ، لا يعلم حقيقتها وعددها وطبيعة عملها إلا هو سبحانه.فاسألوا ربكم أن يهيء لكم ألطافه.

بيان المعنى العام :

31- وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة... للبشر.

ذكرت الآية السابقة أن القائمين على سقر تسعة عشر. فكان هذا الإعلان مثار أسئلة استهزاء، واستبعاد من الكافرين.

الاستبعاد الأول: ما يستطيع مثل هذا العدد أن يفعل فيما لا يحصر عدا من الداخلين لجهنم كما يثبته محمد. واستبعدوا صدق هذه الآية بأن القائمين سيشاركون المعذبين في نيل قسط من العذاب. فرد القرآن هذه الشبهة بأنهم ليسوا بشرا ولكنهم ملائكة. وقدرات الملائكة لا تقاس بقدرات البشر. كما أن لفح النار تؤثر في طبيعة خلقة المقدر تعذيبهم بالنار، والملائكة يقومون على النار دون أن يكون لحرها أي أثر عليهم.فرد القرآن على شغبهم بقوله : **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة**

الاستبعاد الثاني: لماذا كانوا تسعة عشر ؟ فهلا كانوا آلافا مؤلفة حتى يستطيعوا ضبط أهل سقر. روي أن أبا الأشد بن كلدة الجمحي قال مستهزئا : لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر تسعة ثم تمرون إلى الجنة. ورويت أخبار أخرى تصور استهزاءهم واستخفافهم بالوعيد. فرد القرآن عليهم: إن هذا هو الواقع ولكن جعلنا هذا العدد فتنة يفتتن بها الذين كفروا، فيخوضون في العدد، ويذهلون عن إصلاح عقيدتهم، والتأمل فيما جاءهم من الله.

وجعلنا هذا العدد ليستيقن الذين أوتوا الكتاب[اليهود] أن هذا القرآن منزل من عند الله. فكان العدد المصرح به يثبت للذين أوتوا الكتاب أنه منزل من عند الله، لأنه يتفق مع ما ذكر في التوراة.

ومن حكمة ذكر عدد الملائكة الموكلين بالنار أيضا، أن المؤمنين بك يزدادون إيمانا بازدياد عدد ما أعلمتهم من المغيبات. فالزيادة ليست في ذات الإيمان، ولكن في الحقائق التي يؤمنون بها. فهي زيادة في كمّ المعلومات المؤمن بها من الغيب. وأيضا لينتفي الريب والشك عن الذين آتاهم الله الكتاب على لسان موسى عليه السلام، فيكون كفرهم بعد ذلك بك كفر عناد لا كفر رفض. وكذلك ينتفع المؤمنون بتوالي تصديقهم لكل ما تخبرهم به فيسمو حظهم من الإيمان.

والحكمة التالية في تحديد هذا العدد والإعلان عنه، إظهار ما كان يخفيه الكافرون والمنافقون [الذين في قلوبهم مرض] فيصرحون بما تنطوي عليه نفوسهم من تكذيب محمد في أن القرآن الذي يتلوه من عند الله، ويقولون: ما ذا أراد الله بهذا مثلا؟ ما الأمر الذي أراده الله بهذا الكلام مع أنه مثل فلماذا لا يكون عشرين؟ يقصدون أن العدد المذكور لا حقيقة له، وبالتالي هو كلام مختلق من محمد. وقد سجل القرآن كلام الذين في قلوبهم مرض على الصفة التي جروا عليها في محاجتهم من الالتواء وعدم الوضوح.

كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء....إن ما تحقق في الخارج بناء على ذكر عدد الملائكة الموكلين بسقر من تصلب الكافرين في كفرهم واستهزائهم ليزدادوا إثما، وعناد الذين أوتوا الكتاب بعد أن استيقنوا أن ما ذكر في الآية حق،واتخاذ الذين في قلوبهم مرض ذريعة للتشكيك والتساؤل، وما سكب في قلوب المؤمنين من زيادة للإيمان بصدق الرسول. على هذا النحو من اختلاف الآثار على سبب واحد، يعطيكم أيها المؤمنون صورة من اختلاف تلقي العقول للحقائق، فينتفع بها البعض، وتزيد البعض الآخر ضلالا. وما ذلك إلا باختلاف كسب الإنسان، فيكون الأمر الواحد منطلقا لضلال من استكبر عن قبول الهدى وآثر العناد، ومنطلقا لاهتداء من وثق فيما يأتيه من ربه.فمن شاء الهدى أسعفه ربه بالعون، ومن شاء الضلالة حرمه الله الألطاف فأدلج في الانحراف والكفر.

وما يعلم جنود ربك إلا هو...الجنود هي القوة التي يحقق بها ولاة الأمور ضبط أحوال ما هو لنظرهم. وأضيف الجنود إلى ربك، فهي جنود الرب المالك لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، وأضيف الرب للمخاطب "محمد" ربك" تشريفا له ﷺ. وجنود الرب هي ما رتبه بعلمه وقدرته لتنفيذ مراده. ومن تلكم الجنود ما خلقه

للقيام على المعذبين في سقر، وما خلقه لتحقيق النعيم لأهل الجنة، هذا في الآخرة، وفي الدنيا ما يؤيد الله به من يريد نصره فيقذف في قلوبهم القوة ويسلّ منهم الخوف، وبالعكس يقذف الوهن والخوف فيمن يريد انهزامه. ويصل ألطافه بمن يشاء ويحجبها عمن يشاء، وفي كل التصرفات جنود مسخرة لتنفيذ المراد المستجيب للعلم الممثل للحكمة التامة.ولا يستطيع أحد أن يضبط جنود ربك السائرة في الكون لا عددا، ولا ماهية، وفي طبيعة عملها.هو وحده سبحانه يعلمها العلم التفصيلي والعلم الإجمالي.

وبعد ما تتبعت هذه الآية مسترشدا بكلام المفسرين، أريد أن أبسط توقفي في عد هذه الآية مما نزل بمكة. وأكبر الظن أنها نزلت بالمدينة، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعها في مكانها هذا. وذلك

أولا: أن ما قبلها من الآيات وما بعدها جاء على نسق واحد من القصر شأن الآيات المكية في أول الوحي.وطالت هذه الآية طولا لا يناسب ما قبلها ولا ما بعدها.

ثانيا: وقعت العناية فيها بأهل الكتاب ذكروا مرتين فيها، والإسلام ما يزال في أول عهده يقارع المشركين، ويدك حصون عنادهم. وأهل الكتاب لا يمثلون في المجتمع المكي قوة يتوجه إليها القرآن بمثل هذا الإلحاح.

ثالثا: توجهت الآية للذين في قلوبهم مرض، الذين ينطوون على بغض الإسلام والكيد له، وهم المنافقون الذين تغلي قلوبهم غليان المرجل حقدا، ولكن لا يصرحون بما انطووا عليه. والنفاق لم ينشأ في بداية الدعوة، وإنما نشأ واستغلظ في المدينة بعد الهجرة.

رابعا : الحديث الذي رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله، قال : قال أناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ : هل يعلم نبيكم كم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا: لا ندري حتى نسأله. فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إغُلِب أصحابك اليوم.قال وبم غلبوا ؟ قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيك عدد خزنة جهنم ؟ قال: فما قالوا؟ قال: قالوا:لا ندري حتى نسأل نبينا. قال: أفَغُلِبَ قوم سئلوا عما لا يعلمون ؟قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا.ثم شوّه بموقف يهود من رسولهم. فلما جاؤوا قالوا يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة. قالوا: نعم. الجامع الكبير للترمذي ج5ح3327ص354 وهو حديث ضعيف علق عليه الترمذي: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد. يعني أن مجالدا ضعيف لا يحتج به. وهذا الحديث وإن كان في سنده مقال إلا أن معناه يتأيد بما ذكرناه من النواحي الثلاثة قبله التي ترجح أن الآية مدنية

وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

أدبر : تولى.

أسفر الصبح : أضاء وانتشر ضياؤه، قبل بزوغ الشمس.

الكبر : الدواهي العظيمة.

رهينة : محبوسة أو ملازمة ومقارنة لما كسبت.

ما سلككم : ما الذي أدخلكم وزج بكم ؟

الخوض :اشتهر إطلاقه في القرآن على الجدال بالباطل واللجاج.

يوم الدين: يوم الجزاء.

بيان المعنى الإجمالي :

ما قصدنا بما ورد في الآية السابقة إلا أن يتذكر البشر بمضامينها ويعتبروا بها. فيُقْدِمُون على الإيمان وفعل الخير ويبتعدون عن الكفر والشر. كلا !ردع لمن لم يتذكر. ثم أقسم بالقمر والليل في حالة توليه، والصبح إذا وضح ضياؤه. إن التذكرة أو النار هي الكبيرة العظمى التي ذكرناكم بها لنوقظكم لأهوالها. ولا نلزم أحدا ولا نقسره على شيء.فمن شاء أن يتقدم إلى الإيمان و طريق الخير فعل ونجا، ومن أعرض واختار الكفر تحمل عاقبة كفره في سقر.

كل نفس محبوسة بعملها كان خيرا أوشرا يصحبها ولا يفارقها. لكن أصحاب اليمين أهل السعادة في الآخرة يحتلون الجنات الموصوفة في القرآن، وهم يكثرون السؤال عن المجرمين، ألهموا البحث لمعرفة وضعهم. تصل اسئلتهم إلى المجرمين ويجبرون على إجابة سؤال الأتقياء لهم: ما الذي أدخلكم في سقر ؟ فيجيبون والحسرة تقطع قلوبهم : الذي جعلنا داخلين في سلك أهل سقر أربعة أمور:

الأول: أنا قطعنا صلة العبادة لله، فما كنا نتجه له بالصلاة أصلا. وما كنا نرأف بالجائع المسكين. غلظت عواطفنا فقطعنا الصلة بهم. وكنا نهتم أشد الاهتمام في الجدل الباطل، والعمل على تشكيك الناس في الإسلام. وكنا ننفي نفيا قاطعا يوم الجزاء، وأن نبعث من قبورنا بعد الموت. واصلنا حياتنا ملتزمين بهذه الضلالات الأربع حتى فوجئنا بأن ما كنا نكذب به قد أتانا، فأصبح يقينا لا شك فيه.ما أعظم خسرانهم، إنهم لا أمل لهم فأعمالهم سيئة، وعقيدتهم ضالة،ولا تنفعهم شفاعة ملك ولا رسول. قد تركوا لسيء أعمالهم وعقائدهم يعذبون بها.

بيان المعنى العام :

31-وما هي إلا ذكرى للبشر..

افتتحت خاتمة الآية بضمير "هي" فما هو معاده ؟فهم المفسرون الآية على أوجه عديدة، كلها تحتملها الآية.

أ-وما "هي" النذارة التي وردت فيما سبق من الآية بمجموعها وتفاصيلها، إلا ذكرى للبشر توقظهم، باستحضار الغيب الذي سيتحقق في الآخرة، وتنبيه لهم حتى يقبلوا ما جاء فيها للاعتبار، والتهيؤ ليوم القيامة.لا على ما اتخذه الضالون مثارا للسخرية والمراء.

ب- الضمير يعود على سقر. باعتبار أن الحديث عنها من شأنه أن يكون ذكرى للبشر ليستعدوا.

جـ - الضمير يعود على الجنود. وهو نظير ما جاء في "ب"

د- الضمير يعود إلى نار الدنيا. أي إن نار الدنيا تذكر البشر بآلام جهنم ليحذروا ما يؤدي إليها. وكلها احتمالات متقاربة.

32--34- كلا والقمر والليل إذ أدبر....إذا أسفر.

تنحل الآية الأولى إلى عنصرين :

العنصر الأول: كلا - وهي أداة تفيد ردع المخاطب، إما عن كلام سابق، أو تعجيل للردع عن مضمون كلام لاحق. فإذا حملناها على الكلام السابق دلت على الردع وإنكار موقفهم من الذكرى لأنهم لا يتذكرون، وإن حملناها على الكلام اللاحق ففيها ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر.

العنصر الثاني: القسم الشامل، للقمر، والليل إذا أدبر. والصبح إذا أسفر .أقسم القرآن بثلاثة مظاهر عجيبة في مسار الكون. الجامع بينها النور الذي يهتك الظلمة. فالقمر بنوره يبدد شيئا من ظلام الليل، والليل عند توليه وقرب سطوع

الفجر والصبح عندما يأخذ ضياؤه في الظهور فهي أحوال من مشاهد الكون تهيء لما يناظرها من ظهور الإسلام في ظلام الشرك الدامس.

35←36- إنها لإحدى الكبر..

إن النذارة وأمر الآخرة لهي بكل تأكيد، المتوحدة في العظم لا نظير لها. فليس المراد أنها واحدة من الأمور الكبيرة العظيمة، بل المراد أنها أعظمها. كما تقول إنه هو أحد الرجال؛ يفيد أنه متوحد من بينهم لا يدانيه غيره.

نذيرا للبشر.... هي إحدى الكبر، حالة كونها منذرة للبشر سوء العذاب في جهنم.

37- لمن شاء منكم أن يتقدم..

نذيرا للبشر، تفصيل النذارة للبشر: أن من تعلقت مشيئته بعد سماعها أن يتقدم للأخذ بالحقائق التي نبهت إليها، ويستقيم على الطريقة التي دعت إليها، يسعد. وإن من شاء أن يتأخر عن التذكر بما جاءت به معرضا عن الإيمان، يشقى. وإن قدرنا أن من شاء أن يتقدم أو يتأخر عائد إلى سقر، يكون على العكس من التقدير الأول: يتقدم لسقر بالرفض وسيء الأعمال، ويتأخر عنها بقبول ما جاءت به النذارة من تحذير.

38- كل نفس بما كسبت رهينة.

كل نفس محبوسة بعملها من خير أو شر، أوهي مقارنة لما عملته من خير أوشر لا تنفك عنه. فالكلام يمثل قاعدة يكشف عنها القرآن ليعلمها كل إنسان فيأخذ لنفسه الحيطة من مدلولها.

39←42- إلا أصحاب اليمين في جنات.... ما سلككم في سقر

الاستثناء بمعنى لكن. فالمعنى لكن أصحاب اليمين. وأصحاب اليمين وصف للناجين الخيرين، بينهم وبين اليمين صلة قوية : كتناول صحفهم باليمين. وهم في مقابل أهل الشر الذين هم أصحاب الشمال. فيطلق القرآن أصحاب اليمين على السعداء يوم القيامة، وأصحاب الشمال على الأشقياء. ثم اهتم بتفصيل أخبار أصحاب اليمين، فذكر أولا منازل النعيم التي يكرمون فيها، إنهم في جنات على ما اختصت به جنات يوم القيامة من واسع الفضل وكريم المثوبة. وأن من اهتماماتهم: أنهم يكثرون السؤال عن شأن المجرمين، ويمكنهم ربهم من توجيه السؤال إليهم ويسمعونهم، يقولون لهم ما الذي أدخلكم سقر، فانتظمتم في زمرة المستقرين بها؟ وهذا السؤال الذي يلهمه الله لأصحاب اليمين، والجواب الحاصل منهم مما يكونون مضطرين للإجابة به، تنكيلا بالمجرمين لمضاعفة عذابهم في سقر برؤية أصحاب اليمين الذين

كانوا يعرفونهم، وقد كانوا يسخرون من بعضهم ويستكبرون عليهم، رؤيتهم في النعيم، وأنهم مسؤولون لديهم ومرغمون على إجابتهم. ويزداد أصحاب اليمين سعادة بما هم فيه فيحصل لهم من شكر الله على فضله عليهم مضاعفةً فيما يستلذونه.

43—47- قالوا لم نك من المصلين...بيوم الدين.

سجل القرآن أربعة من عظائم ذنوبهم التي يقرون بها فيزدادون حسرة بإقرارهم بها، و ندما عما فرطوا في الدنيا.

كانت خطيئتهم الكبرى التي قدموها والتي شعروا أنها الموبقة لهم أصلا: أنهم قطعوا صلتهم بالله، ففسدت قلوبهم، وفسدت فعالهم تبعا لذلك.

وثانيا: أن صلتهم بالمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه منقطعة تسودها القسوة لا الرحمة. فما كانوا يرحمون الجياع المساكين الذين يستدرون العطف، بلقمة عيش.

وثالثا: أن همهم في الحياة الذي محضوا له نشاطهم هوالخوض في وحل الاتهامات التي يرمون بها النبي صلى الله عليه وسلم ويؤذون بها المؤمنين، فبمقدار انفصالهم عن المجتمع وعن أهل الخصاصة،يذكرون أنهم كانوا متعاونين مع الخائضين في المكر بالإسلام وأهله.

ورابعا : تكذيبهم بيوم الجزاء.إنهم كذبوا ما أنذرهم محمد من أنهم موقوفون عند ربهم مجزيون بأعمالهم. وعدم إيمانهم بأنهم مجزيون عن أعمالهم أفقدهم المعيار الذي يقوّمون به أعمالهم الباطنة والظاهرة، فانطلقوا مع شهواتهم ومع غرائزهم.

47- حتى أتانا اليقين.

واصلنا حياتنا على ذلك النسق، إلى اليوم الذي باغتنا يوم الجزاء، بعد أن كنا نظن أنه لا يأتينا. فحصل لنا العلم اليقيني بما كنا ندعي استحالته وذهب كل تردد ونفي.

48- فما تنفعهم شفاعة الشافعين.

هذه هي الخاتمة التي تفيد اليأس النافي لكل أمل في الخروج من وضعهم. كانت أعمالهم سيئة وعقيدتهم خبيثة ضالة، فما بقي لهم من رجاء إلا أن يتقدم شافع عند رب العزة فيشفع فيهم، ويخرجهم من سقر.فنفى القرآن نفيا قاطعا أن ينتفعوا بأي شفاعة كانت.

فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾

كَلَّا إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

حمر مستنفرة : حمر وحشية هاربة.

قسورة : يطلق على الأسد وعلى الصيادين المهرة.

المنشرة : المفتوحة و المقروءة .

أهل التقوى : مستحق التقوى.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب أمر هؤلاء المشركين، ما لهم ينفرون من المواعظ والتذكير بالقرآن ؟ ما هذه النفرة الشديدة التي تمكنت منهم فأصبحوا كلما سمعوا الموعظة أو الآيات المحركة للقلوب يفرون،كأنهم حمر وحش أحست بالخطر من أسد أو قناص، فرفعت أذنابها وفرت لا تلوي على شيء.بل أعظم من ذلك أن كل فرد من كبرائهم يقترح أن ينزل الله عليه كتابا باسمه فيه دعوته إلى الإيمان بمحمد، وإلا فإنه لا يؤمن.كلا ! ردع لهم عن مثل هذه المقترحات، ثم إن السر في إعراضهم أنهم كذبوا بيوم القيامة وبالجزاء في الآخرة، ففسدت بذلك عقيدتهم، وأعمالهم.

كلا.ردع آخر لهم، مقترن بالتصريح بحقيقة القرآن: إنه مذكر لهم يحرك قلوبهم وفكرهم ويبسط عليهم الحق بسطا جليا واضحا. ولا يقسرهم على اتباعه، بل يترك لهم الخيار، ليكون جزاؤهم حسب اختيارهم. والله من رواء ذلك هو الماسك بتدبير ما يقع في الكون، وما ترجحه العقول وتأنس له الضمائر. فمشيئته عامة وهي الفاصلة فيمكن من أراد من ألطافه، ويخذل من يشاء فيحجب عنه ألطافه. هو وحده الحقيق بأن يتقى عذابه، ويتقرب إليه.وهو وحده الغفار من الكفر لمن أقر بالإسلام، الغفار للمعاصي لمن تاب واتقى.

بيان المعنى العام :

49--51- فما لهم عن التذكرة معرضين...قسورة.

تعجب من حال إعراض مشركي مكة عن القرآن الذي يذكرهم، ويهديهم للحق المعقول في العقيدة،ويفتح لهم آفاقا في فهم الكون، وفي العلاقات الاجتماعية. إن نفرتهم من التذكير بالقرآن وبالبيان النبوي أمر مستغرب. يُسألون عنه سؤالا يقصد منه التعجيب من غرابة حالهم. وقد كان نفارهم شديدا.جسّمه القرآن بتشبيهه بفرار

الحمر الوحشية، وقد أحست بأسد يترصدها، أو بالقناصة من حولها لاصطيادها.ولما كانت ليس لها قوة تدافع بها عن نفسها وليست ملهمة للمراوغة والاحتماء من الأخطار، فإن بقاءها مرتبط بشدة حذرها، وقدرتها على نفراها بالجري والابتعاد مما تتوقع منه الخطر.

52- بل يريد كل امرئ منهم...منشرة.

انتقال من حالة إعراضهم التي لا مبرر لها، إلى صورة من صور عنادهم، ذلك أن كبراءهم لقوة صدودهم عن الهدى، اقترحوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتي لكل واحد منهم بكتاب فيه: من الله، إلى فلان ابن فلان. فكل واحد من المعاندين طلب أن تأتيه صحيفة باسمه فيها ما هو مأمور به وما هو منهي عنه. وأن تكون تلك الصحف مفتوحة مكشوف مضمونها غير مطوية.

53- كلا بل لا يخافون الآخرة.

افتتحت الآية بقوله "كلا" إبطال لما اقترحوه وردع لهم عن ظنهم أن الله تعالى يكتب رسالة خاصة لكل واحد منهم. فهذا لا يقترحه إلا متجرئ على مقام الألوهية. كيف وهم يعبدون أصناما جامدة ويقدسونها. ثم أضرب عن كلامهم بإثبات سر فساد عقيدتهم، وجراءتهم، أنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا يخافون أن يوقفوا فيها موقف الحساب.

54—56- كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره...وأهل المغفرة.

ردع لهم عن تلكم المقترحات المنبثقة عن عناد، وتصميم على التكذيب. رُدِعُوا لأن القرآن في ذاته يمثل تذكرة عظيمة، في نسجه، وفيما يتضمنه من هداية، وأنه مفتوح لكل من تعلقت همته بالتعمق في محتواه. ما على الإنسان إلا أن يعزم على الانتفاع به، ويعود إليه متأملا فيستفيد منه الذكرى. إن هذا هو المقدار الذي يؤاخذ عليه العبد. القرآن قد تم تبليغه للناس، فهو حاضر لديهم، وإن الله قد مكنهم من أدوات الفهم لنصوصه، ومن التأمل في آياته. وإنهم إذا وجّهوا عنايتهم تحصل في أذهانهم الحقائق التي تضمنها. فمن شاء أن يتأمل فيه هو ممكن، ومن شاء الإعراض عنه هو مُمكنٌ أيضا.وإلى هذا الحد تثبت مسؤولية كل فرد عن قصده بفتح عقله له، أو بصدوده عنه.

ثم إن وراء ذلك أسبابا خفية لا نقدر على الاطلاع عليها يجريها رب الكون حسبما ضبطه في سابق علمه. يلطف بمن شاء فيجعل ما حصل في ذهنه يسوقه إلى الإيمان، والاستقامة ،أو يخذل الشخص فتقوم في ذهنه معوقات عن الاستجابة لما

حصل في ذهنه من القرآن.والألطاف أو الخذلان بيد الله وحده. ولا يمكننا في حدود الطاقة العقلية لنا،أن ننفّذ إلى السر الذي ينتهي به الحاصل الذهني إلى الخير، أو أن ينتهي إلى الكفر والشر. وهو معنى **وما تذكرون إلا أن يشاء الله**.

هو أهل التقوى وأهل المغفرة..تبين لنا من الكلام السابق أن المشيئة التي عليها يدور ما ينفذ في الكون والأفراد هي المشيئة الإلهية. وأكمل هذا الجزء من الآية المفهوم الإلهي بما يفيد أنه سبحانه أهل التقوى، مستحق أن يرعى الفرد حقوقه تعالى من الإيمان به وتطبيق ما شرعه، والحذر من مخالفته. وأنه مختص بذلك فلا يُرْهبُ أحد على أنه العالم بضمائر البشر القادر على مجازاتهم بما أضمروا وبما فعلوا إلا الله سبحانه.

وأهل المغفرة: أنه وحده الذي بيده محو الذنوب أو تثبيتها والجزاء عليها. وذلك تبعا لعظيم رحمته، وواسع كرمه. وفي التذكير بهذا الاختصاص الإلهي دعوة للمشركين كي يقلعوا عن الشرك، ويؤمنوا بمحمد وبما أنزل عليه، ليمحو كل التجاوزات الصادرة منهم قبل ذلك. ودعوة أيضا للمذنبين من المؤمنين ليسرعوا بالتوبة من انحرافاتهم رجاء أن يغفر الله لهم ما اقترفوا.

9 رمضان 1435 - 2014/7/7

سورة القيامة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. أخذ اسمها من الآية الأولى فيها [لا أقسم بيوم القيامة] وهي مكية باتفاق. ورتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والسبعون. وحسب ترتيب النزول عدت الحادية والثلاثين. نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهمزة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (15)

بيان معاني الألفاظ :

بنانه : طرف الإصبع.
ليفجر: السوء الشديد، ويطلق على الكذب.
أمامه : أصله ضد خلْف، والمراد منه المستقبل.
أيان : متى، بما يحدد الأمد.
برق : لمع بصره، دهش وتحير فلم يطرف.
الوزر : الملجأ.
المستقر : مكان القرار الثابت.
بصيرة : بصير قوي العلم بنفسه.
ألقى : أخبر بصراحة.
المعاذير : اسم جمع لمعذرة بمعنى العذر.

بيان المعنى الإجمالي :

قسم مؤكد بيوم القيامة، وقسم مؤكد بالنفس الخيرة التي تراقب سلوك صاحبها وتلاحقه إما بالتأنيب عن تجاوزاته، أو لومه عن تقصيره في الخير لم لمْ يدخر أكثر منه لآخرته. والمقسم عليه مقدر إن يوم القيامة حق. أيظن الإنسان الكافر أنا لن نجمع عظامه بعد أن يلحقها البلى؟ بكل تأكيد قدرتنا تحقّقُ عودة الأجسام على الوضع الذي كانت عليه، فنحن قادرون على إعادة هيكله وعلى إعادة كل جزء ولو صغيرا إلى ما كان عليه، حتى أطراف أصابعه بخصائصها.

بل يريد الإنسان الكافر أن يواصل فجوره فلا يؤمن بالله، ولا يلتزم الخير، ويستسيغ الشر والفسق سائرا في طريقه الضال إلى النهاية. ومع فجوره وفسقه، يتهكم بالبعث ويسأل متى يقع يوم القيامة. يوم القيامة فيه أهوال شديدة : تشخص الأبصار وتبقى مفتوحة من شدة الدهش والحيرة.ويظلم القمر بخروجه من مساره ظلاما لا ضوء بعده، ويقترن القمر بالشمس. وييأس الكافر فيتمنى أن يجد مكانا آخر يفر إليه.ويعاجله الجواب الذي يدخل عليه اليأس من الفرج.لا مخلص ولا مكان تفر إليه. فأنت تستقر مع غيرك استقرارا لا محيد عنه في الموضع الذي حدده لك ربك، وقد تفرد بالملك والتصرف.وفي هذا اليوم ينبأ الكافر بما قدم من جرائم وآثام، كما ينبأ بما سن من ضلالات اتبعه فيها الذين أضلهم فيتحمل قسطه من الوزر على ذلك.

ووسيلة الإثبات لا تقتصر على ما ينبأ به.بل إن الإنسان ذاته لا يخفى عليه شيء مما فعله في دنياه. أودع الله في نفسه ما يجعل كل ما قام به حاضرا في ذهنه كأنه مشاهد. ولو تخبط بتقديم الأعذار، فإنه يكذب أعذاره.

بيان المعنى العام :

1-لا أقسم بيوم القيامة.

هذا قسم بيوم القيامة. والقسم طريقة قوية للتأكيد. ولكنه جاء في الآية مسبوقا بحرف النفي. وهذا الأسلوب في إرادة التأكيد بالقسم، ثم نفي القسم، هو أسلوب يدل على المبالغة في التأكيد،كأن المتكلم يقول إن ما سأذكره بلغ أقصى غايات التحقق، وليس في حاجة إلى التأكيد. ونظير هذا قوله تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم)[1] ويوم القيامة هو يوم الجزاء الذي يحرج الكافرين الإنباء به، وإنه اليوم الذي ينتفي أن يكون لأحد قدرة أو تأثير ولو ظاهريا وينفرد رب العزة بالملك يومئذ. والمقسم

[1] سورة الواقعة آية 75

عليه مقدر مفهوم من الكلام التالي في قوله: أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه. فيكون التقدير لأقسم بيوم القيامة لنجمعن عظام الإنسان.

2- ولا أقسم بالنفس اللوامة.

عطف على القسم بيوم القيامة، القسم بالنفس اللوامة على نفس الأسلوب. والنفس اللوامة الشديدة اللوم والتأنيب لصاحبها. وهي نفس المؤمن في دنياه الذي تعلق بمولاه، وأحبه حبا يجعله يستعظم كل تقصير. فإذا فعل الخير لام نفسه إذ لم يزدد منه، وإذا عصى أخذت نفسه تؤنبه وتقرّعه كيف يقتحم المعصية وربه مطلع عليه، ونعمه تحيطه من كل جانب.هي النفس اليقظة التي تعود إلى ما كسبت فتقومه، وتعترف بما فيه من نقص، وتسرع إلى جبر التقصير راغبة أن تسعد برضا ربها.فهذه النفس الخيّرة أكرمها ربها بالقسم بها، وجعلها معادلة لليوم العظيم يوم القيامة.

3- أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه.

كما قلنا هذا دليل المقسم عليه [لنجمعن عظامكم ونبعثكم للحساب] والآية تسجل عناد الكافرين، فالإنسان هو الكافر المصمم على أن عودة الإنسان بعد موته إلى الحياة بعد أن تكون عظامه قد بليت وتفتت، أمر مستبعد جدا لا تصدقه عقولهم. ولذا عبروا عن النفي ب "لن" لإمكان البعث وإعادة العظام وما عليها إلى ما كانت عليه.

4- بلى قادرين على أن نسوي بنانه.

إبطال لما استبعدوه، من جمع العظام بعد أن بليت. بل نجمع عظامه، إما بخلقها خلقا جديدا على النحو الذي كانت عليه في الدنيا، وإما بجمع ما تفرق من الأجزاء فتعود كل ذرة إلى بقية الذرات وتلتئم معها. ويؤكد القرآن أن الله قادر على أن يعيد على أكمل هيئة أطرافه التي ينتهي إليها الجسم. فأطراف الرجلين هي أطراف أصابعها، وأطراف اليدين هي أطراف أصابعها، وإذا كانت القدرة توجد أصغر الأعضاء، وتسويها على أتم صورة،فإنجاز القدرة لبقية الأعضاء من باب أولى وأحرى. ومن ناحية أخرى فإن أطراف أنامل اليد فيها تخطيط هو بصمة ذلك الإنسان، ولا تجد إنسانا تتحد بصمته مع غيره من البشر. فالآية تشير إلى أن البعث سيكون به كل إنسان صورة دقيقة لما كان عليه في الدنيا.

5- بل يريد الإنسان ليفجر أمامه.

انتقال إلى حالة أسوأ من حالات الإنسان الكافر. تتعلق إرادته بمواصلة الفجور، من التكذيب بالبعث، ونفي الخالق، والاسترسال في ارتكاب الآثام.فلا هو مقرٌ بالبعث، ولا يجد من نفسه رادعا عن الفساد فهو يمضي فيه ثابتٌ عليه فيما يستقبله من الأزمان.

6-يسأل أيان يوم القيامة.

من تصلبه في تكذيبه بيوم البعث، أنه يسأل سؤال المستبعد، والمستهزئ، طالبا الوقت المحدد الذي يأتي فيه يوم القيامة. فسؤاله ليس سؤال رغبة في المعرفة، ولكنه تعريض بأنه غير واقع أصلا. فهذا الإنسان الكافر مقيم على فجوره في العقيدة والسلوك مكذّب ومستهزئ بيوم القيامة.

7←10- فإذا برق البصر وخسف القمر...أين المفر.

سألوا سؤال تهكم عن موعد يوم القيامة، فكان الجواب تفصيل أهواله التي كان عليهم أن يتحصّنوا منها بالإيمان والعمل الصالح. إن يوم القيامة هو اليوم الذي تشخص فيه الأبصار من الحيرة في مقابلة الأهوال العظيمة. وإذا شخص البصر ولم تطرف العين كان لمعان العين أكمل. وما ذلك إلا من شدة الرعب الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت. هذا وضع الإنسان يوم القيامة عندما يبعث. وفي هذا اليوم يزول بناء الكون فالقمر يخرج من مداره حول الشمس فينطمس نوره. وبعد أن رتب نظام الكون لكل كوكب مداره، وبعده الدقيق عن غيره، يلتصق القمر بالشمس فيفسد كل منهما بهذا الجمع. هي مشاهد تبعث الرعب الشديد والحيرة فأصوات الانفجارات التي تصم الآذان، والاختلال بعد النظام،يبعث في نفس الإنسان الكافر اليأس، والقنوط، والخوف، فيتمنى في ذلك اليوم الذي برق فيه البصر وجُمع الشمس والقمر، أن يجد مخلصا من ذلك الوضع يفر إليه، ويبتعد عن هذا المشهد الذي لا يطاق.

11←13- كلا لا وزر إلى ربك يومئذ....قدم وأخر.

ردع لما جال في نفسه من أماني.لا ملجأ لك أيها الكافر، تنفذ فيك اليوم الأحكام الإلهية، لا تجد منها مخلصا. إلى الله وحده سيكون قرارك الذي تثبت فيه ثبوتا لا تتحول عنه، فلا الأصنام التي كنت تعبدها بمغنية عنك، ولا أموالك وأتباعك وأهلك بدافعة عنك شيئا من الجزاء الذي أنت مستحقه. يُنبّأ الكافر بكل عمل سيء قدمه في الدنيا، ويقرن بجزائه، بما يظهر العدل الإلهي. ويقترن الجزاء بالتقريع والخزي مما قدم. ينبأ بما قدم في حياته من فساد وشر، وينبأ بما سنه من ضلالات بقيت بعده، ويتحمل أوزارها.

14←15-بل الانسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره.

أثبتت الآية السابقة أن الإنسان الكافر يُعرّف بكل إثم من آثامه. بل الأمر أشد من هذا فإن كل إنسان يعرف أوضح معرفةً ما فعله من شر. فهو بصير بنفسه لا يستتر

عنه شيء مما فعله. ولا تفارقه معرفته للحقيقة، وإن حاول أن يخفي الشر الذي صنعه بمختلف المعاذير. فإنه حتى في هذه الحال التي يقدم فيها سيل الأعذار. اقتناعه الداخلي بما قدم واضح.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝﴾

بيان معاني الألفاظ :

فاتبع قرآنه: أنصت قراءتنا

علينا : نتكفل ونتعهد.

ناضرة : من النضرة؛ مشرقة حسنة ناعمة فرحة.

باسرة : يعلوها الكمد،عابسة.

فاقرة : داهية عظيمة.

بيان المعنى الإجمالي :

شملت العناية الإلهية محمدا صلى الله عليه وسلم. فكما خصّه بالرسالة الخاتمة وبإنزال القرآن عليه،دعاه أن لا يجهد نفسه عندما ينزل عليه جبريل بالقرآن لما كان يسرع بتحريك لسانه بما يسمعه بمجرد سماعه، وقبل أن يكمل جبريل الوحي مخافة أن يتفلت منه شيء، فنهاه أن يحرك بالوحي لسانه قبل تمامه وأن يستمع ساكتا إلى أن يتم جبريل القراءة، وضمن له أنه يجمعه في صدره وقراءته.وفوق ذلك فنحن متكفلون بأن نبينه للناس بلسانك.

ثم عاد القرآن لردع الكفرة فقرعهم بسبب ترجيحهم للملاذ العاجلة ملاذ الدنيا، التي يسرع لها الفناء ولا تبقى، على النعيم الحق الباقي الذي لا يفنى نعيم الآخرة. وبذكر الآخرة ميز بين ما يلاقيه البشر في ذلك اليوم يوم القيامة.ففريق وجوههم نيرة ضاحكة مستبشرة تنظر ربها نظرا لا يحده مكان ولا يجري على قوانين البصر المعروفة في الدنيا، ولكنه تكريم لهم.الله أعلم بكيفيته.وفريق آخر علت الكآبة وجوهم عابسون متيقنون أن الدواهي ستنزل عليهم، عذابها وأذاها يفوق التصور.

بيان المعنى العام :

17/16 - لا تحرك به لسانك لتعجل به. وقرآنه.

صلة هذه الآية بما سبقها يتخرج على أن نزولها قارن نزول الآيات السابقة، فوضعت في هذا الموضع بوحي من الله. ويزيد معناها وضوحا الحديث الذي أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله الآية التي في لا أقسم بيوم القيامة – لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه. قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه، **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**. فإذا أنزلناه فاستمع، **ثم إن علينا بيانه**. علينا أن نبينه بلسانك. قال: فكان إذا أتاه جبريل بالوحي أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله.[1]) فالمخاطب بالآية هو النبي ﷺ. يقول له رب العزة لا تجهد نفسك، ولا تنهك قواك عندما يأتيك الوحي فالقرآن بطبيعته كما وصفه منزله: قول ثقيل. (**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**)[2] والاتصال بين الملك وبين الإنسان يؤثر في المتلقّي تأثيرا وصفه الصحابة بالشدة حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في الليلة الشاتية. ومع ذلك كان حرصه القوي على تبليغ الأمانة التي وُكِل بها على الوجه الذي تلقاها به، جعله يحمل نفسه في تلكم الظروف، أن يكرر بلسانه ما يتلقاه عن جبريل فينازعه القراءة مسارعة للحفظ ومخافة أن يتفلّت منه شيء فيأخذه على عجلة.فأمر أن يستنصت لجبريل عندما يقرأ عليه النص.

18- فإذا قرأناه فاتبع قرآنه.

أسند القراءة لذاته العلية وإن كان القارئ المباشر جبريل ليقوي ثقته، أنه على قرب شديد من ربه يؤيده ويرفع الضعف الذي من شأنه أن يلحق بالإنسان.فهذا الضعف لا تخش منه يا محمد فإنا نثبت ما تسمع في ضميرك ولا تنسى منه شيئا. فاستمع منصتا لجبريل وكن مطمئنا إلى أنه لا يتفلت منك شيء. نجمعه في صدرك متكفّلين بقراءتك له كما أنزل عليك.

19- ثم إن علينا بيانه.

وفوق تثبيت القرآن في صدرك نتكفل لك أيضا بأنا نُقْدِرك على بيان ما نزل عليك بلسانك. أي أن تقرأه قراءة واضحة بينة، وترتله ترتيلا

---

[1] فتح الباري ج10ص11/308

[2] سورة المزمل آية5

20-21- كلا بل تحبون العاجلة...الآخرة.

لما كان وضع الآيات السابقة16/17/18/19 في هذه السورة منشؤه نزولها في أثناء السورة. عاد الكلام إلى نظم هذه الآية مع الآيات كلا لاوزر11 إلى ولو ألقى معاذيره 15 -فتكرر [كلا] للربط ولتأكيد الردع، ولإبطال ما سجل على الإنسان الكافر، أنه يحسب أن لن نجمع عظامه الآيات... ليس في جعبتهم ما يصلح أن يكون عذرا، ولكن سرُّ خذلانهم وكفرهم أنهم أحبوا الدنيا، رجحوا دواعي الشهوة فأطاعوها. وحسبوا أن لا وراء نعيم الدنيا نعيم آخر فعبوا من ملاذها، وأغفلوا رقابة الله عليهم.فقرعهم مواجها لهم بقبيح صنيعهم : إنكم لقصر نظركم تحبون العاجلة حبا تجعلونها هي الكل وأن لا شيء وراء نعيمها وعبر عنها بالعاجلة تنبيها لأنهم اغتروا بما أحسوا به إحساسا سريعا، ومن طبيعته أنه لا يدوم، ورجحوه على ما هو دائم باق من النعيم الذي هو نعيم الحياة الآخرة.

22/23- وجوه يومئذ ناضرة...ناظرة.

كان من ضلال الكافرين حبهم للعاجلة وتركهم للآخرة.ثنى القرآن بذكر وضع البشر يوم الآخرة.وقسمهم إلى قسمين :

قسم: وجوههم مشرقة ناعمة، استقر في نفوسهم البشر والرضا فبدت آثار ذلك على وجوههم، كقوله تعالى: (تعرف في وجوههم نضرة النعيم)[1] وهم ينظرون إلى ربهم. هذه الآية من المتشابهات، لأن مقاييس تحقق الإدراك البصري تقتضي انعكاس الشعاع على المرئي المحدود في المكان. وهذا ما يتفق المؤمنون جميعا على نفيه، ولا يقبل أن تحمل عليه الآية، تعالى الله أن يكون محدودا في مكان، أو أن ينعكس عليه شعاع. وبعد هذا كان للسلف موقف يتمثل في أن اهتمامهم الأول أن يقيموا الدين وينشروا شرائعه. وكل نص اعترضهم لا يمكن حمله على ظاهره يؤمنون به ولا يبحثون عن شيء وراء ذلك. وكانت هذه قاعدة لهم مضوا عليها رحمهم الله وأكرم مثواهم. وأخذ مذهبهم هذا السلفية التي ترى أن كل نص مجمل متشابه يقولون إنا نؤمن به، وتصرفه عن ظاهره، ولا نفصل في الوجه الذي يصرف إليه. وفرقة تمسكت بإجراء النصوص على ما تقتضيه القواعد اليقينية فنفوا نفيا قاطعا ظاهرها، وسعوا في تأويلها تأويلا يستجيب لتلك القواعد دون أن يجدوا حرجا من ذلك. على معنى: إلى ثواب ربها منتظرة. وذهب أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية إلى التأويل مع محاولة الجمع بين النصوص فأثبتوا رؤية الله، وأنها ليست على الصفة التي تتم بها الرؤية في الدنيا.والذي نطمئن إليه في كل ما

---

[1] سورة المطففين آية 24

يتعلق بالخالق أن نؤمن بأن ما ذكره الله عن نفسه حق، وأن تصوره بالدقة التي انتظم بها الإدراك في الدنيا تصور غير صادق فكل ما تعلق ببالك فالله مخالف لذلك. فلا ننفي الرؤية، ولا نكيفها، ونفوض المراد من ذلك إلى الله سبحانه. وقسم بدا على وجوههم الكآبة والظلمة والأسى، تبعا لما استقر في نفوسهم وتيقنوه أن يفعل بهم فعلا يهلكهم، بداهية عظيمة تفوق في أذاها وعذابها تصوراتهم.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (28) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (29) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (31) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (33) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (34) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (35) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (38) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (39) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ (40)﴾

بيان معاني الألفاظ:

بلغت : بلغت الروح.

التراقي : جمع ترقوة وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمينه وشماله.

المساق : مقابل القود. فالقود أخذ المقود إلى حيث يريد القائد من الأمام، والسائق توجيهه من خلف.

فلا صدق : لم يؤمن بما جاء به الرسول، ولم يصدق بالبعث.

يتمطى : مشى مشية المتبختر المعجب بنفسه.

يترك : لا يعتنى به.

سدى : مهملا لا يؤمر ولا ينهى.

بيان المعنى الإجمالي:

كلمة زجر للكافر الذي محض همه لمتع الحياة العاجلة.إن حياته تلك ستبلغ اللحظة الرهيبة، اللحظة التي تستل فيها الروح من البدن إلى أن تبلغ أعالي الصدر عند الحنجرة. ويبحث عن أي راق يرقيه فيؤخر أجله، ولا راقي. فيتأكد عنده أنه مفارق لأهله وماله وتنقطع علاقاته بالدنيا كلها. وتلتف ساقه بأختها وهو يعاني سكرات الموت.إنه يساق في هذا الظرف سوقا لا خيرة له فيه إلى الجزاء المقدر له عند ربك يا محمد. ما ذا سيجد ؟ يجد ما قدمه.كذب بالبعث، وما صدق رسوله في كل

ما بلغه من شرع الله وما توجه إلى ربه متقربا بالصلاة بل أمضى حياته غافلا عن مولاه. وكل ما تحقق منه هو التكذيب بالحق ورفضه، وأدار ظهره لنداء الرسول، ثم ذهب مستكبرا يتبختر في مشيته افتخارا بما جمعه من العاجلة. أولاه الله من العذاب والخزي ما هو أهل له. أيظن الإنسان الكافر أن الله خلقه ليتركه يسير في الكون على هواه دون ضابط، ودون أن يكلفه بتطبيق شرعه الذي تكون به الحياة جارية على النظام بعيدة عن الفوضى.ما له ألم ينظر في نفسه ؟ إنه لو نظر لوجد أن الله خلقه من خلية رعاها الباري وطورها إلى أن أصبحت علقة ثم مرت بأطوار متتابعة كل طور يُسْلِمُهَا إلى الطور الذي فوقه حتى تم خلقه في جسمه وفي قواه العقلية والشعورية وفي ميوله وغرائزه. وبعنايته سبحانه لم يجعل الخلايا كلها ذكورا أو إناثا بل زاوج بينهما فخلق من تلك الخلية الأولى الذكر والأنثى. إن هذا التقدير العجيب والقدرة المنفذة للعلم والحكمة تنادي بأن الله قادر على إحياء الموتى كما قدر على الإيجاد أولا.

بيان المعنى العام:

26- كلا إذا بلغت التراقي.

افتتحت الآية بـ"كلا" الدالة على الردع والزجر. المنبهة للمغرقين في غفلاتهم السائرين في طريق الضلال. المؤثرين للحياة الدنيا اللاهين عن الآخرة. ليستحضروا هذا الظرف الذي تبلغ فيه الروح الجزء الأخير من المحتضر، بعد أن تكون قد أسلت شيئا فشيئا من الجسم إلى أن بلغت نهاية أعلى الصدر وهما الترقوتان العظام المكتنفة لثغرة النحر عن الجانبين الأيمن والأيسر. أي إذا بلغت الروح الحنجرة، ومنها تخرج الأنفاس الأخيرة.

27- وقيل من راق.

لم يسند القول إلى المحتضر لأنه بلغ درجة ذهب معها وعيه، فالقائلون هم من حوله من المخلصين له، وقد تبين لهم أنها اللحظات الأخيرة من حياة عزيزهم . تساءلوا هل يوجد من يرقيه ليكون له من دعائه ونفثه وقراءته ما ينفعه.هي لحظات اليأس من شفائه بمختلف أنواع العلاج، ولم تبق إلا الرقية لعلها تنقذه.

28- وظن أنه الفراق.

الظان هو المحتضر، ذهب آخر خيط من آماله في البقاء. والظن هو العلم المقارب لليقين أن الأمر النازل هو فراق الحياة لا محالة وفراق الأهل والأعزة والأموال. وعبر عنه بالظن لأنه لم يقع بعد.

29- والتفت الساق بالساق...

تذكر العرب الساق في المحن والشدائد العظام.قامت الحرب على ساق. فيكون معنى التفت الساق بالساق: اتصلت الدواهي والشدائد. من شدة آخر الدنيا إلى شدة أول الآخرة. ويمكن حمل المعنى على أنه في سكرات الموت يضرب ساقا بساق.

إلى هنا انتهى التسجيل الدقيق لوضع الإنسان في آخر حياته، تسجيل جسم ضعفه، و وهَن ما كان متعلقا به من العاجلة. وخطأه فيما كان يحبه كلا بل تحبون العاجلة.

30- إلى ربك يومئذ المساق.

تفرد الله بأنه المالك للنهاية. يساق الإنسان مدفوعا من قوى لا يدركها ولا يستطيع دفعها عنه، تسوقه إلى حكم الله لينفذ فيه الجزاء المقرر. يومئذ : في يوم الآخرة الذي كان غافلا عنه تاركا له من حسابه. وتذرون الآخرة.وفي ذلك ما يشير إلى أن الكافر ينكشف له مصيره عند الاحتضار.أخرج البخاري ومسلم،واللفظ للبخاري بسنده إلى عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ قال : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.قالت عائشة أو بعض أزواجه :إنا لنكره الموت. قال :ليس ذلك.ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا حُضر بُشر بعذاب الله،فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه.)[1]

31←33- فلا صدق ولا صلى ولكن...يتمطى.

ذلك الإنسان الذي حسب أن لن نجمع عظامه، ملامحه أنه ما صدق محمدا فيما يدعو إليه من الإقبال على ما يفيد الإنسان في أخراه، ولا دخل الإيمان قلبه. وانقطع عن الاتصال بالله فلا هو يقوم بالصلاة صلة العبد بربه.فانتفى عنه الرشد والخير، وتلبّس بالتكذيب والرفض لكل الحقائق التي بينها ويدعو إلى الإيمان بها محمد ﷺ . فهو ناف ليوم القيامة، منكر للقيم السلوكية التي تسمو بالمجتمع وتؤلف بين أعضائه. وإذ قطع ما بينه وبين الهدى المحمدي استولى الكبر عليه. فتلاحظه وهو يمشي يتمطط في خطوه، ويتبختر خيلاء ذاهبا إلى أهله في زهو.يقول المفسرون : إن هذه الأوصاف تكاد تُعيِّن أن المقصود بها أبو جهل بن هشام المخزومي.فقد كانت هذه صفاته.

34/35- أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى.

صيغة تفيد الدعاء على المخاطب بأن يكون المكروه والشر أقرب إليه. وقد تكرر الدعاء أربع مرات بأن يحل به الهلاك إيماء لتحققه. وكل كافر معاند مؤهل ليتحقق

---

[1] فتح الباري ج 14 ص144

فيه الدعاء. وذكر القرطبي: أن النموذج الكافر المذكور في الآية قد سجل عليه مناكر أربعة:

(1)لا صدق بما جاءه من الحق.

(2) ولا صلى متقربا لي.

(3) ولكن كذب رسولي.

(4) وتولى عن هدايتي. فقوبلت المناكر الأربعة بتكرير الدعاء عليه أربع مرات.

36- أيحسب الإنسان أن يترك سدى.

ظن كاذب، وتصور ساذج.هذا الذي يزعمه الكافر بالله الرافض لهدايته. أن يبقى الإنسان مهملا لا يسعفه الخالق بما يهديه إلى الطريق الأقوم والأرشد، وما يبعده عن الفساد والانحراف.إن الله الذي خلق الإنسان، وأودع فيه من قوى العقل، والروح والضمير، واستخلفه في الأرض ليُطوّر ما أودع فيها إلى ما تكون به الحياة أفضل وأسمى،لا يهمل الإنسان إلى غرائزه وشهواته،بل يساعده على النجاح في ما كلّف به بما يبلغه من هداياته على لسان رسله ويحمله مسؤولية أعماله. يقال إبل سدى إذا كانت بدون راع.

37←39- ألم يك نطفة...الذكر والأنثى.

ما بال الإنسان يغفل عن ذاته التي لو تأمل فيها لتبين أنه واقع تحت الرعاية الإلهية والتقدير المحكم من أول وجوده.كيف بدأ خلقه ؟ انطلقت رحلة وجوده من خلية واحدة شطرها من المني الذي تدفق من الذكر وشطرها الثاني من البييضة التي تدفقت من الأنثى وهي النطفة الأولى، ثم أخذت تمر بمراحل فانقسمت تلكم الخلية انقسامات عديدة فتكون منها شيء كالعلقة تعلق في جدار الرحم. ثم جرت عليه أطوار كل مرحلة تفضي به إلى المرحلة التي فوقها حتى تم خلقُه، وسواه ربه في أحسن صورة.ونوعه إلى ذكر وأنثى ليتم بذلك التكامل بينهما ويتواصل الوجود البشري على ظهر الأرض. فإذا كانت بداية خلق الإنسان تمت بفضل الرعاية الإلهية حتى تم وضعه بشرا سويا، فكيف يهمله بعد أن يولد ولا يوالي عنايته به ليقوم بدوره في الحياة على أكمل وجه.

40-أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى.

إن الخلية الأولى التي رعاها رب العزة فنماها وطورها حتى أصبحت إنسانا سويا في جسمه وعقله وروحه ومشاعره، ألا يقوم ذلك دليلا على أنه قادر على إحياء الموتى بلى هو القادر على إعادة الحياة كما كان القادر على إنشائها أول مرة.

سورة الإنسان

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف.ويروى أنه تسمى سورة الدهر أيضا. وذكر أنها تسمى سورة الأمشاج لتفردها بوقوع لفظ الأمشاج فيها.واختلف في عدها من السور المكية الخالصة، أو أن بعض آياتها نزل في المدينة.والراجح أنها مكية.رتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والسبعون.وتبع اختلافهم في كونها مكية أو مدنية اختلاف في رتبتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧

بيان معاني الألفاظ:

الدهر : الزمان الطويل.

أمشاج : مشتق من المشج بمعنى الخلط.

نبتليه : نكلفه بأمر عظيم يكشف عن مستوى وفائه.

أعتدنا : أعددنا.

السلاسل : القيود المصنوعة من حلق الحديد.

الأغلال : جمع غل وهو حلقة يشد بها الأسير من عنقه وتربط بالسلاسل.

السعير : النار التي ضوعف ضرامها.

الأبرار : جمع بر المكثر من فعل الخير.

الكأس : الإناء المجعول لشرب الخمر.

مزاجها : ما تخلط به.

كافور: طيب أبيض ذكي الرائحة.
يفجرونها : التفجير استنباط الماء.
يوفون : يؤدون ما وجب عليهم أداؤه
مستطيرا : منتشرا ممتدا.

بيان المعنى الإجمالي :

مضى زمن على الإنسان لم يكن فيه شيئا له خطره ولا يتحدث عنه، وهو لم يخرج إلى الوجودثم إن الباري لما تعلقت إرادته بإيجاده جعل قانون خلقه وتكاثره من النطفة الجامعة للحيوان المنوي وبيضة الأنثى ،أمشاج مكونة من أخلاط، وجعلنا الغاية من خلقه تكليفه وتحميله المسؤولية، وأعنّاه بجعله سميعا يعي ما يأتيه من رسلنا، وبجعله بصيرا ينظر في كتاب الكون فيفيده يقينا بحكمة الخلاق العظيم. عرّفناه طريق الخير وطريق الشر ولم نقْسره على أحدهما بل جعلناه مختارا إما أن يذهب في طريق الهدى شاكرا لربه على هدايته أو يتبع طريق الضلال كافرا. ثم أخذ القرآن يفصل عاقبة الكافرين، وجزاء الشاكرين.

أما الكافرون فقد هيأ الله لهم سلاسل تلتف عليهم، ويشدون من أعناقهم في الأغلال، فلا يستطيعون مفرا، ويقادون إلى جهنم التي تتوقد ويشتد لهيبها.

وأما الشاكرون وسماهم الأبرار لكثرة ما يصدر عنهم من خير،فقد تحدث القرآن عنهم حديثا أوسع من حديثه عن الكفار. فذكر أنهم ينعمون فيشربون من خمر ممزوجة بالكافور كأطيب وألذ ما يكون.وملكهم الله في الجنة عينا بمجرد ما يحركون أرض الجنة يتفجر لكل واحد عين تجري بالماء الطيب.

بيان المعنى العام :

1-هل أتى على الإنسان حين...مذكورا.

افتتحت الآية بكلمة "هل" وهي مزيج من الاستفهام والتقرير. فالآية تحرك كل من يمكن أن يتوجه إليه الخطاب على أنه محل سؤال، وتحقق مضمونها لكونها مُشْربةً معنى قد: هل يقر كل إنسان موجود بأنه مضى عليه ردح من الزمن لم يكن فيه موجودا. وأنه لم يكن محل العناية للحديث عنه وذكره إذ لا خطر له. وهي تسجل وضع الإنسان قبل أن يأخذ دوره في الوجود وتسند إليه الخلافة في الأرض.

2- إنا خلقنا الإنسان من نطفة...بصيرا.

بعد السؤال المبطن في الآية السابقة،يستأنف الكلام للإجابة عنه. فيثبت : إن الله العلي الأعلى العظيم خلق نوع الإنسان من نطفة اختلط فيها الحيوان المنوي

بالبييضة.ودخل في تركيب كل منهما عناصر كثيرة استخلصت فامتزجت وكونت الخلية العجيبة في تركيبها واستعداداتها. وما كان الخلق عبثا.ولكنه خلق لغاية أن يكون هذا الكائن مكلفا بعظائم الأمور التي تكشف عن وفاء المكلفين بما كلفوا به.ويأتيه هذا التكليف من كون الله جعله سميعا، يسمع الإنسان الوحي عن طريق الرسل فيُعْمِلُ عقله فيما سمع ليفهمه ويطبقه. ومنْ جعله بصيرا يدرك مشاهد الكون العجيبة فيهديه التأمل في بديع الصنع إلى اليقين بأن ما يقع تحت بصره مستند إلى الخلاق العليم.

3- إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا.

فتح الله للإنسان أبواب المعرفة المؤثرة في مداركه. حواسه تنقل له العالم الخارجي، فترتسم في ذهنه الصور المنقولة، ويبني على مدركاته الحسية تلك أحكاما تجريدية، من التعميم والسببية. كما بعث له رسله يرشدونه إلى معرفة الغيب، وتقويم نظرته للوجود. ويتفاعل كل ذلك في عقله مما ينتهي به إما إلى الإيمان بالمبدع الخلاق العليم،وربط الوجود كله به، وبالتالي يعبر عما امتلأ به بالشكر لجلاله، وإما إلى الكفر وفصل الكون عن خالقه فتنقطع صلاته به سبحانه، ويتيه في الظلام والعمى،و لا يجد جوابا عن تساؤلاته.

4- إنا أعتدنا للكافرين...وسعيرا.

تخلص القرآن من تقسيم الناس إلى شاكر، وإلى كفور، تخلص لعرض جزاء كل فريق.فعرف أنه سبحانه قد هيأ للكافرين سلاسل يوثقون فيها ويقادون بها إلى مصيرهم في جهنم.وكذلك أغلالا وهو جمع غل حلقة حديدية توضع في رقبة الأسير وتربط بالسلاسل، لا يستطيع من وضعت في رقبته الفرار.

5-إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا.

بعد أن ذكر القرآن ما أعد للكافرين، ثنى بذكر ما أعد للشاكرين. وسماهم أبرارا تنويها بكمالاتهم؛ إذ البر هو المكثر من فعل الخير. وتابع بعرض أنواع من النعيم التي اختصوا بها. فهم يشربون من كأس. والكأس الوعاء الذي يشرب فيه الخمر، وذكر كثير من المحققين أنه لا يطلق عليه لفظ الكأس إلا إذا كان فيه خمر. ولشدة لصوقها بالخمر أصبحت الكأس تطلق ويراد منها الخمر.وحدد أن الخمر ممزوجة بالكافور. وهو نوع من الطيب أبيض اللون، ذكي الرائحة،منعش،يستخرج من شجر خاص في الشرق الأقصى [الصين وجاوة وبعض جبال الهند] وهو تقريب لما كان يشتاق له العرب، ولا يحصل عليه إلا الملوك والأثرياء لغلاء ثمنه.

6- عينا يشرب بها عباد الله...تفجيرا.

ذلك الكافور تجري به عين في الجنة يشرب من مائها عباد الله، وهم الأبرار الذين تطهروا فاختارهم ونسبهم لنفسه، تكريما لهم وتشريفا. وهي عين من خصائصها أن كل مُنعَم يفجرها،فبمجرد ما يحرك أرض الجنة ينبع هذا الماء الخاص.يقول ابن عطية : يشقونها بعود قصب ونحوه حيث شاؤوا، فهي تجري عند كل أحد منهم.

يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

مستطيرا: منتشرا.

الجزاء : عوض.

شكورا : ثناء.

عبوسا : أصل العبوس الوجه المقطب.

قمطريرا : شديد صعب.

وقاهم : حصنهم ودفع عنهم.

شر ذلك اليوم : بأسه وشدته.

لقاهم نضرة : أعطاهم حُسْنًا.

الأرائك : جمع أريكة وهي السرير الذي عليه وسادة، ويتدلى على جوانبه ستائر.

ذللت : يُسرتْ.

قطوفها : جني ثمارها.

بيان المعنى الإجمالي :

صرحت الآية ببعض مزايا الأبرار في الدنيا، أنهم يكثرون من التزاماتهم بمختلف أنواع الطاعات، وأنهم ينجزون ما التزموه. ومن باب أولى أداؤهم لما يُطلَبُ منهم. ويخافون عذاب يوم القيامة الذي ينتشر شره المؤذي للمغضوب عليهم. ويبذلون الطعام للمحاويج من المساكين والأيتام، والعبيد المؤمنين الذين يبالغ مالكوهم الكفار

في حرمانهم.ويخاطبون من ينال رفدهم بما يزيل عنهم خفض الحرمان، فيقولون لهم : إنما نطعمكم تقربا من الله الذي أمرنا بذلك، فهو صاحب الفضل عليكم. ويجري في نفوسهم وبينهم ما يعبرون به عن شدة حذرهم وخوفهم من يوم القيامة، اليوم الشديد الصعب الطويل الذي تكون فيه الوجوه كالحة مقطبة مظلمة.

نالهم بسبب ما فعلوه من خير وتبعا لإخلاصهم، أعظم ما يطمح أن يناله المؤمن: الجنة، التي من أنواع نعيمها أن لباسهم منسوجات الحرير، لا تكليف ولا تعب، تغمرهم مشاعر الطمأنينة. فهم متكئون على سرر لا يحسون بحر الشمس ولا ببرد شديد. تظللهم أفنان الأشجار القريبة منهم، بما تحمله من منوع الثمار، يتناولون منها ما يريدون قريبا منهم لا يكلفهم أي عناء.

بيان المعنى العام :

7- يوفون بالنذر....مستطيرا.

شرّف الأبرار فنسبهم إلى ذاته العلية، وصرح في هذه الآية ببعض مزاياهم التي أوجبت لهم هذه الحُظوة. فذكر أنهم يكثرون من التزامهم لفعل الخير، وينفذون ما التزموا به. وإذا كانوا يوفون بما التزموه على أنفسهم فوفاؤهم بما ألزمهم به ربهم أعظم. ومع ذلك كانوا مستعدين حذرين من اليوم، يوم القيامة، يخافون العذاب والخزي الذي ينتشر في ذلك اليوم انتشارا كبيرا.

8-ويطعمون الطعام على حبه...وأسيرا.

يتابع القرآن التنويه بالأبرار، بسرد خصالهم النبيلة فذكر أنهم يؤثرون على أنفسهم في الأساسيات فضلا عن الكماليات. يطعمون الطعام[على حبه] مع اشتهائه والشعور بالحاجة إليه، مسكينا ويتيما وأسيرا. فأكد هذا وصفهم بالأبرار. قال تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)[1] تبرز الآية أن شعورهم بالتضامن الإنساني أعمق من داعية الجوع. والمسكين هو الفقير، واليتيم هو فاقد الأب العائل فهو مظنة الخصاصة والاحتياج. والأسير هو العبد المسلم الذي يجيعه ويقسو عليه مالكه المشرك.

9- إنما نطعمكم لوجه الله...ولا شكورا.

الظاهر أن الآية متعلقة بكلام مقدر، أي يقولون: إنما نطعمكم. يقرنون تمكينهم من الطعام المحبوب لهم بقولهم : إنما نطعمكم، مما يرفع انكسار نفس المُطعَم، على أن إطعامهم امتثال لأمر الله، وأن الله هو الذي أطعمكم. ويؤكدون ذلك بأنهم لا يرغبون أن يحصلوا منهم على ثواب مقابل ما أكرموهم به، ولا يتعلقون بحسن ثناء

[1] سورة آل عمران آية 92

يشيعونه في الناس، ولا بأن يقدموا لهم آيات الشكر على صنيعهم. وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل الرسول ما قالوا؟ فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله.

10-إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا.

الظاهر أن مضمون الآية مما يجري في نفوسهم، أو مما يتحدثون به فيما بينهم. ولا يباشرون به المتصدق عليهم. وهو قول يعبر عن حذرهم من سوء العاقبة، وأنهم يحصنون أنفسهم بصالح الأعمال التي منها الصدقة، وأنهم يتصورون يوم القيامة، حسبما أخبرهم به الرسول، أنه يوم شديد جدا.هو كالوجه العابس المقطب الذي لا تدل قسماته إلا على الشدة. والقمطرير هو تأكيد لمعنى العبوس، إذ أصله الشديد الصعب من كل شيء.وعن ابن عباس رضي الله عنهما يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه مثل القطران وأن القمطرير الطويل.

11-فوقاهم الله شر ذلك اليوم... وسرورا.

تقبل الله منهم خالص عملهم، وحصنهم مما كانوا يحذرونه من شر ذلك اليوم.ووصلهم بما أكسبهم حسنا وجمالا، وملأ صدورهم رضا وسرورا بما نالوه من عظيم الفضل وحسن الأمن.

وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا.

أخذ القرآن يعرض ثواب الأبرار الذين أوفوا بنذرهم، وكان حذرهم شديدا من يوم القيامة، وبصفة عامة صبروا على القيام بما كلفوا به، وصبروا على عدم الالتفات للمغريات وما تدعوهم إليه شهواتهم. كان جزاؤهم الجنة، والجنة هي الفوز الذي يعمل له المؤمنون ويسألونه من فضل الله. قال تعالى :(فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز)[1] مظهر من مظاهر رفاهية العيش في الجنة أن لباس أهلها منسوجات الحرير.

13-متكئين فيها على الأرائك...زمهريرا.

ذهب عنهم النصب.هم في الجنة ينعمون بما عملوا في دنياهم.ذهب ما كان عليه أمرهم في الدنيا من السعي والجد، فجلستهم هي جلسة المرفهين، متكئون على الأرائك والأريكة في الدنيا السرير الذي عليه وسادة يرتفق بها الجالس، ويتدلى على جوانبه ستائر المعبر عنها بـ(الحجلة) تزيد في فخامته وتقي الجالس من الحر والقر. ولما كانت الحجلة تقي صاحبها حر الشمس ولفحات البرد،ألحق بها أنها

---

[1] سورة آل عمران 185

للفخامة والجمال فقط، فإن سكان الجنة لا يرون شمسا ولا بردا. بناء على أن الزمهرير البرد القارس. وقيل الزمهرير : القمر. لا يرون في الجنة أشعة الشمس ولا يستضيئون بالقمر، وإنما هو نور يتناسب مع دار الكرامة.

14- ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا.

من صفات الجنة أن تقترب أفنان أشجارها من المنعمين.ومن أبهج المناظر، أن يجد الجالس أفنان الأشجار التي تعطي الظل،قريبة منه ومحملة بأنواع الثمار، يستطيع أن يتناول منها ما شاء في يسر.فلا عراجين النخل عالية، ولا الثمار بعيدة عن التناول.كل ما في الجنة مسخرٌ تسخيرا ينفي المشقة عمن فاز بدخولها.

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

يطاف : يدور.

الآنية : جمع إناء وهوما يوضع ما يشرب.

الأكواب : جمع كوب مالا عروة ولا أذن من الأواني.

قوارير : جمع قارورة وهي إناء غالبا ما يكون من زجاج.

زنجبيل : اسم لجذور لها رائحة عطرية وطعمها حريف يطيب به الأثرياء الخمر.

سلسبيل : الماء السهل المساغ.

ولدان : صبيان.

مخلدون : باقون في مستواهم العمري.

السندس : الديباج الرقيق.

الإستبرق : الديباج الغليظ.

أساور : ما يتحلى به في المعصم.

بيان المعنى الإجمالي :

هم مخدومون في الجنة يدار عليهم في مجالسهم خمر الجنة، الأواني التي تحويه مصنوعة من فضة، ويوزع عليهم السقاة في أكواب عجيبة الصنع والمادة، فهي في صفاء الزجاج، وبياض وجمال الفضة، قد أحكم صنعها في مقاديرها وفيما زخرفت به.ويسقون فيها نوع آخر من الخمر اختلط طعمها ونكهتها بالزنجبيل.يتم مزجها من عين، بمجرد ما تثار، تنبع بالماء الفواح، و تسمى: سلسبيل.

أوكل الله لخدمتهم أولادا يتسابقون بين أيديهم في خفة ونشاط وبراءة، لا يتحولون عن صفاتهم تلك مع الزمن، إن هؤلاء الولدان إذا رأيتهم وهم منتشرون بين أهل النعيم تستطيع أن تشبههم لصفاء بشرتهم ولجمالهم باللؤلؤ الذي نثر في مكان فأدخل فيه البهجة. وبصفة عامة فإنك إذا رأيت ما هم فيه من مباهج ترى النعيم في كل جزئية، وترى جلال العطاء.فكل منهم ملك في جنته. يلبسون ثيابا خضرا من الحرير الرقيق، ومن الحرير الغليظ. تزين معاصمهم أساورة من فضة.وما يشربونه من خمر الجنة، طهره ربهم من رجس خمر الدنيا، فلا يصحبه دوار ولا هذيان .ويضيف ربهم إلى ما أغدق عليهم من أنواع النعيم المادي، تكريمهم بخطابه فيقول لهم : إن كل النعيم الذي أنتم فيه هو جزاء لكم على صالح أعمالكم، وإن سعيكم في الدنيا زيادة على ما نلتم عنه من الجزاء هو سعي حقيق بالشكر والثناء.

وبيان المعنى العام :

16/15، ويطاف عليهم بآنية...تقديرا.

تقدم في الآية السابقة أن الله جزاهم بسبب صبرهم. فهم قد صبروا على مغريات الدنيا. فوصف نعيمهم في الجنة بما كانوا يُلجمُون أنفسهم عنه من لذائذها. فذكر في هذه الآية أن شأنهم في الجنة كشأن أصحاب الثراء في الدنيا، يملكون غلمانا يقومون على الخدمة. هُذّبوا بكيفية،أنهم يطوفون عليهم في مجالس أنسهم في الجنة، يحملون أواني شراب خمرها.وصفت هذه الأواني بأنها من الفضة في لونها وفي جانبيتها ، وبأيديهم أكواب يصبون فيها من تلكم الأواني، جمعت الأكواب من العجائب قدرا كبيرا، فهي في لون الفضة، وصفاء الزجاج. وصنعت على مثال مقدر تقديرا في زخارفه وفي شكله.روعي في كل جزئية من جزئياته الجمال والتناسق، وملاءمة الشارب.

17- ويسقون فيها كأسا...زنجبيلا.

يواصل القرآن وصف مجالسهم الرائعة، فذكر أيضا أنه يقدم لهم شراب من كأس تداخل فيها طعم الزنجبيل.يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله : اسم لجذور مثل جذور السُعد تكون في الأرض كالجزر الدقيق، لونها إلى البياض لها نبات له زهر، وهي ذات رائحة عطرية طيبة، وطعمها شبيه بطعم الفلفل، ينبت ببلاد الصين والسند وعمان.يدخل في الأدوية والطبخ كالأفاويه، ورائحته بهارية وطعمه حريف.وهو منبه.يستعمل منقوعا.

التعبير بقوله :كان مزاجها زنجبيلا،أي إن اختلاط الزنجبيل بها أصبح خلقة لها.

18-عينا فيها تسمى سلسبيلا.

امتزاج الزنجبيل بشرابهم، من عين تثار بأدنى تحريك فينبع منها الماء ذو الرائحة والطعم الخاص بالزنجبيل.تسمى سلسبيلا. ويمكن فهم الآية على أن اسمها سلسبيل. كما يمكن فهم الآية على أن صفتها سلسبيل بما يدل عليه جرس الكلمة وما اقترب منها/ سل/ سبيل / من السلاسة والسهولة. وعلى كل فهي من خصائص الجنة التي لا نظير لها في الدنيا.

19- ويطوف عليهم ولدان مخلدون...لؤلؤا منثورا.

هذا تتميم للحديث عن الخدمة التي وفرها رب العزة للأبرار. فإذا كان نوع من الخدمة التي مضى توصيفها في قوله ويطاف عليهم بآنية مما يختص بالقائمين على خمر الجنة. فإن هذه الآية تصرح بأن الله خلق لهم ولدانا فيهم نشاط الشباب الباكر، و عليهم مسحة من الجمال والرقة، لا يؤثر فيهم الزمن، هم باقون ولدانا إلى أبد الآبدين.وتدعوك الآية لتتخيل وسامة هؤلاء الولدان فتشبههم لنضارتهم، وبريق محياهم، وكثرتهم باللؤلؤ المنثور. يأخذك بديع منظرهم حيثما التفت.

20-وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا.

تخاطب الآية كل من يتصور منه الرؤية للإعراب عن ملامح ذلك النعيم، هو نعيم لا يحتاج إدراكه إلا أن يطلق الرائي بصره فما ذا يرى؟ يرى في كل جزئية وفي كل ناحية من نواحي دار الكرامة من الجمال والتناسق أعلى مظهر من النعيم.يرى أن كل فرد قد جازاه ربه بملك مترامي الأطراف لا يحد مداه.مما يقتضي أن الخيال لا يستطيع أن يتصور ذلك النعيم بصورة محدودة بما عليه أمر الدنيا.

21-عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق...شرابا طهورا.

هذا تفصيل لقوله "وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا"،آية 12 . تعلو أجسامهم ثياب سندس وإستبرق، أي إن ثياب أهل الجنة من الحرير المنسوج على طريقتين. منه

السندس وهو رقيق، وإستبرق وهو غليظ. يكون الرقيق عادة مما يلي البدن، ويكون الإستبرق اللباس الظاهر إذ هو أكثر بهجة. وصرح بأن لون ثيابهم اللون الأخضر .والخضرة مراتب تمزج بألوان أخرى لتقر عليها الأعين، وتنشرح بها النفس. وكان هذا هو اللباس الذي يتخذه الملوك، وأصحاب الثراء العريض ويطمح أن يلبسه الناس. فلا بد من استحضار أن ما يذكر من توصيف الحياة الأخروية هو للتقريب.مع التأكيد أن ما يحظى به المنعمون، هو فوق ما يتصوره المتصورون.

وسقاهم ربهم شرابا طهورا. لما فصل القرآن ما يتعلق بما يدار عليهم من الخمر: السقاة، والآنية الحاملة له، والأكواب التي يشربون منها،وما يمزج بها، احترس ليفيد أن شرابهم على أبلغ ما يكون من الطهر فلا يعقب تناوله صداع ولا هذيان. نزه ربهم شرابهم من جميع الخبائث.

22-إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا.

بعد أن تم عرض ما قصد عرضه من أنواع النعيم الذي يثير أشواق المؤمنين ليزدادوا من فعل الخير، والتوقي من الإثم ؛ أعقبه بما يختم به التكريم من الجانب المعنوي، إذ يتفضل عليهم الرب الكريم فيتوجه لهم بقوله : إن هذا الذي أنتم فيه من النعيم لا منة عليكم فيه، هو جزاؤكم، هو ثمن ما دفعتموه مقدما في الدنيا.كما قال تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)[1] ومع ذلك فأنتم أهل ليشكر سعيكم وينوه به.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

بكرة : أول النهار.

أصيل : العشي.

يوم ثقيل : يوم تشتد فيه الكرب وتثقل على حامليها.

الشد : الإحكام.

---

[1] سورة التوبة آية111

الأسر : الربط بين أجزاء الجسم.

بيان المعنى الإجمالي :

إنه بعظمتنا نزلنا عليك يا محمد القران وشرفناك بتحميلك إبلاغه للناس. هو تنزيل منا. فاستعن على أداء مهمتك بالصبر وقوة العزيمة لتنفيذ ما قرره ربك وحكم به من أنك رسوله الخاتم لرسالاته. فامض في سبيلك،ولا تطع أيا منهم فيما يُعْرضُ عليك من حلول هي حسب ظنهم مغرية لك بمهادنتهم، ذلك أنه قد ألفوا الإثم والفجور، أو التصلب في الكفر. وكن ذاكرا لربك في جميع الأوقات من الصباح إلى المساء، و خصص الليل للتهجد والتسبيح في معظم أوقاته.

تعلق هؤلاء المشركون بالدنيا العاجلة، ولم يفكروا أصلا في اليوم الشديد فجعلوه وراءهم منسيا، فلم يستعدوا له لا بقليل ولا بكثير. نحن بقدرتنا وحكمتنا خلقنا البشر وقدرنا أن يكون بناؤهم البدني متماسكا، فمن النطفة الرخوة، كونا الهيكل الإنساني القوي.وإنه إذا تعلقت إرادتنا بإعادة أجسامهم بعد بلاها فنحن قادرون.

بيان المعنى العام :

23- إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا.

تتابعت الأيات من أول السورة مفيدة أن الله مكن البشر من معرفة طريق الخير وطريق الشر. وذكر ما أعده للكافرين، ثم فصل تفصيلا ضافيا ما أعده للمتقين. وكان النبي ﷺ يتلو ما أنزله الله عليه. وفي تعرضه لأحوال القيامة ما يثير شغب الكافرين، فيتناولون ما أنزل عليه بالسخرية والاستهزاء، ويتخذون ذلك وسيلة لصد الناس عن الدخول في الإسلام. فجاء القرآن في هذا المقطع بما يثبّت النبي ﷺ، فيقول له ربه مؤكدا بضمير العظمة ثلاث مرات "إنا" نحن "نزلنا" ليثبت أن القرآن الذي تتلقاه هو منزل عليك من عند الله مباشرة. وبالتالي فلتثق في قوة العناية الإلهية بك.

24- فاصبر لحكم ربك...أوكفورا.

لتكن عزيمتك صلبة قوية لا تتأثر بالمعوقات التي يحاول الكفار بها صرفك عن المهمة التي حكم ربك أن تكون أنت الذي تتولى شرف نشرها في الناس، وإقناعهم بها. هو الصبر الإيجابي الذي يكون معه الصابر مواصلا طريقه في الإصلاح، ماضيا في تنفيذ ما يأتيه عن ربه غير عابئ بما يلقاه من أذى جسمي ومعنوي.ولما كان الصبر مُضمَّنا معنى الخضوع والطاعة عدي باللام.

ثم أكد أمره بالصبر بالتنصيص على نهيه عن طاعتهم فيما يحاولون به أن يجلبوه لصفهم بما توفر لديهم من المغريات.عرضوا على رسول الله أن يأتيهم بقرآن غير هذا، أو أن يبدله،وأن لا يتعرض لمعبوداتهم بالتحقير ولا يجهر بصلاته، وأن يطرد ضعفاء المؤمنين.كما عرض عليه عتبة أن يزوجه ابنته، وكانت أجمل نساء قريش، وعرض عليه الوليد أن يرضيه بما يشاء من المال. إن ما هم عليه من الانغماس في الإثم والمعاصي والحياة الهابطة، وما هم عليه من الكفر يقطع كل صلة بينك وبينهم.هم ألفوا الفساد والضلال وشتان ما بين منهجك في الحياة ومنهجهم.

25/26- واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل...طويلا.

لما أمر بالصبر أرشده ربه إلى ما يساعده على الثبات ومقاومة مغريات الكفر وضروب مكره.فأمر صلى الله عليه بذكر ربه في كل وقت.إن ذكره سبحانه يجدد صلة الذاكر به، فيكون قريبا من جلاله، مستحضرا كماله ووجوب طاعته في نفسه، مستهينا بما يلقاه في سبيل ما ينعم به من القرب. ويشمل الذكر الصلاة المفروضة والنوافل، ويشمل التكبير والتسبيح والتحميد والتهليل، ويشمل الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر. ثم أمره بالسجود له، وهو يشير إلى قيام الليل بالتهجد. وسبحه بالتفكر في على ذاته وتنزيهه عن كل نقص، والتعبير عما يحصل في النفس بالقول.عمّر معظم أوقاتك بالتسبيح وصلاة النوافل.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه الآية تشير إلى الصلوات الخمس، فالبكرة صلاة الصبح، والأصيل الظهر والعصر، ومن الليل المغرب والعشاء.

27- إن هؤلاء يحبون العاجلة.... ثقيلا.

بكل تأكيد إن هؤلاء المشركين يحبون الحياة الدنيا حبا شديدا، تعلقوا بها وحدها. إنهم لقصر نظرهم تعلقوا بما كان حصوله قريبا، معرضين عما وراء ذلك من نعيم لا يقاس به نعيم العاجلة التي لا يصفو.ما أغروا به لا يخلومن كدر مصاحب أو لاحق. إنهم بموقفهم هذا أظهروا محدودية تفكيرهم، وفقدهم التبصر والنظر البعيد.وبحصر سعيهم للعاجلة وحدها، وإغفال الحياة الآخرة التي سيلقون فيها يوما ثقيلا بالكروب والمتاعب، وجعلهم هذا اليوم وراءهم لا يلتفتون إليه، سيخسرون الخسارة الكبرى. ومما تفيده الآية أن سوء تدبيرهم الذي قادهم إلى سوء مصيرهم ليس حب الدنيا،ولكن حب الدنيا مع الإعراض عن الآخرة.إن حب الدنيا مع مراعاة المصير هو ما جاء الإسلام ليكشف أنه المنهج السوي في الحياة الدنيا.قال تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)[1].

---

[1] سورة القصص آية 77

28- نحن خلقناهم وشددنا أسرهم...تبديلا.

تركوا وراءهم اليوم الثقيل، ولم يحسبوا لـه حسابا لأنهم أحالوا أن يبعثهم الله بعد موتهم.فقوله تعالى : نحن خلقناهم. يوقظهم إلى أنهم لو تأملوا في أنفسهم ما أنكروا البعث.فإن أطوار خلقهم التي ابتدأت من نطفة ثم أفضت إلى الإنسان السوي هي من خلق الله وحده، وظاهرة أخرى غفلوا عنها، أن خلقهم هو خلق متماسك مشدود بعضه إلى بعض بالهيكل العظمي، والغضاريف، والعضلات، وذلك يشهد بقدرة الخلاق العليم خاصة إذا قارنت بين النطفة وبين ما آلت إليه. ونحن بعظمتنا قادرون على أن نبدل خلقتهم بعد تحللها إلى مثل ما كانت عليه. كما يمكن فهم الآية على أنا إذا شئنا أن نهلكهم ونوجد أمما مثلهم مطيعة لأوامرنا فعلنا.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ:

التذكرة : الموعظة التي يرتب عنها الإقلاع عن الشر وفعل الخير.

بيان المعنى الإجمالي :

ما تقدم في هذه السورة الذي يجب أن يكون حاضرا في نفوسكم كأنه مشاهد، أردنا منه تذكيركم حتى لا تغفلوا عن تلك الحقائق، وتستحضروها دائما. ثم إنكم بعد ذلك مسؤولون عن سلوك طريق الهدى أو طريق الضلالة.وكل ما يجري في الكون هو بيد الله، فيهيئ من الأسباب ما يميل به الملطوف به إلى الخير، ويحجب ما يترك به الصاد لما اختار لنفسه ولا يسعفه بألطافه. والتدبير للكون وأسرار ذلك هو صادر عن العلم القديم الذي لا يغيب عنه شيء، والحكمة التي تجري الأمور كلها على الحق.والله يدخل من يشاء في سعة رحمته فيسعدُ في دنياه وأخراه. المشركون الظالمون قد أعدَّ وهيَّأ لهم عذابا يقاسون آلامه.

بيان المعنى العام:

29- إن هذه تذكرة فمن شاء...سبيلا.

ما تقرر في هذه السورة، وما جاء فيها من الحقائق، هو تذكرة تلفت أنظاركم، وتعظكم لتلتزموا طريق الخير والهدى، وتبتعدوا عن الشر والضلالة،حتى يكون مضمونها حاضرا في أذهانكم.كشفنا لكم عن طريق الهدى، وحذرناكم طريق

الغواية، وذكرناكم.ثم إن كل فرد مخير في اتباعه الطريق وسلوك السبيل المقرب له من ربه، أو اتباع الطريق الذي يبعده عن الحق ويبلغ به الشقاء الأبدي.متحمل مسؤوليته في اختياره.

30-وما تشاؤون إلا أن يشاء الله...عليما حكيما.

تدل هذه الآية على أن هناك مشيئتين :

الأولى مشيئة الله الذي يملك الأسباب المؤثرة في كل فرد من أفراد البشر.فهو سبحانه يشاء الهداية، فينشئ من الألطاف في الزمان، والمكان، والعلاقات البشرية، ما يتأثر به المهتدي فيسلك سبيل الهداية، ويُؤْثِرُ الآجل على العاجل، وتنطبع نفسه بحب الإيمان وفعل الخير. وكراهة الكفر والفسوق والعصيان قال تعالى: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفروالفسوق والعصيان)[1] وقد يشاء حرمان المرء من ألطافه فلا يسعده بعون ويتركه لنفسه، فينغمس في الضلال. فإذا رأينا الفرد توجه نحو الشر علمنا أنه حرم الألطاف، ولم يشأ الله هدايته. وإذا رأيناه توجه نحو الخير علمنا أن الله شاء له الخير.ووراء ذلك سر القدر الذي تقصر قدراتنا العقلية على بلوغ كنهه، أشارت إليه الآية: إن تصرف الله يستند إلى العلم الذي لا يغيب عنه قليل ولا كثير، وإلى الحكمة التي بها يضع كل شيء في موضعه.

31- يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما.

تصريح بما فهم من قوله : وما تشاؤون إلا أن يشاء الله. فبناء على مشيئته تلك ييسر السبيل لمن يشاء لتشمله رحمته.وأنه سبحانه قد أعد للظالمين بالشرك والمعاصي عذابا أليما جزاء ما اختاروه لأنفسهم.

يوم الأحد 22 رمضان 1435 الموافق لـ 2014/7/20

---

[1] سور الحجرات آية7

سورة المرسلات

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب السنة والتفسير. استمدت تسميتها من فاتحتها.وهي سورة مكية على الأرجح. وهي السورة السابعة والسبعون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول هي الثالثة والثلاثون حسب ترتيب البقاعي وابن النديم. نزلت بعد الهمزة متقدمة على ق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤

بيان معاني الألفاظ:

عرفا : متتابعا كالشعر الذي على رقبة الفرس.

العصف : قوة هبوب الريح.

النشر : ضد الطي.ويقصد به الإظهار والإيضاح

الفرق : التمييز بين الأشياء.

لواقع : ثابت.

طمست : ذهب نورها.

فرجت : تفرق ما كان ملتحما.

نسفت : قلعها من أساسها مع دكها وتفتيتها.

يوم الفصل : زوال الاشتباه وتميز الحق من الباطل.

بيان المعنى الاجمالي:

أقسم الله بخمسة أقسام كلها أوصاف تحتمل الأربعة الأولى منها أن يكون الموصوف المقدر الملائكة.فأقسم سبحانه بالملائكة التي يرسلها بمهمات كالوحي أو

عذاب المتمردين وهي تأتي متتابعة تتابع شعر عرف رقبة الخيل.فهي تنطلق بسرعة لتنفيذ ما أمرت به كالريح الشديدة الهبوب. وهي تنشر الشرائع و متنوع الوحي. فتُفرِّقُ بين الحق والباطل والإيمان والكفر.وعطف عليها الخامس والموصوف الملائكة فقط التي تُبلِّغ الذكر الذي يتنوع إلى إعذار بالتجاوز عما كان قبل الاهتداء، وإلى إنذار بالعذاب للمتصلبين في كفرهم.

كما تحتمل الأربعة منها دون الخامس أن يكون الموصوف الرياح يرسلها الله متتابعة فتعصف قوية في جريها، فتنشر السحب في السماء، ثم تقطعها وتفرق بين أجزائها.

والمقسم عليه : إن ما توعدون من البعث والجزاء ثابت لا شك فيه. يزيدكم تأكيدا له عرض مقدماته.قبل البعث ينطمس نور النجوم.ويختل تماسك بناء السماء فإذا هي فروج وشقوق.والجبال الرواسي تنسف نسفا وتصبح بعد صلابتها ككثبان الرمال. هو اليوم الذي يبلغ فيه مهمة المرسلين الغاية، فيشهدون على موقف كل فرد من أممهم من الشريعة التي عرضوها على الناس.أي يوم أجل فيه القضاء بين البشر ؟هو يوم الفصل الذي تتميز فيه الحقيقة عن الباطل، ويأخذ كل مظلوم حقه من ظالمه.

بيان المعنى العام :

1-والمرسلات عرفا.

المرسلات جمع مرسلة، وهي صفة لموصوف أقسم بها الله، فحملها بعضهم على أن الموصوف بها الملائكة التي أرسلها الله إلى الرسل والأنبياء بالوحي كجبريل، أو لمهمات أخرى كقوله تعالى : (ونادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب)[1] وكذلك الملائكة الذين أوكل الله لهم القيام بمهمات عقاب،كالملائكة الذين دمروا من أذن الله لهم في تدميرهم. أي كان إرسالهم متتابعا كالشعر الذي على رقبة الفرس.وعن ابن عباس أن الموصوف المقدر : الرياح التي يرسلها الله بالخصب والخير. تتابع على الكون فيعقبها الغيث ولقاح الثمار.

2- فالعاصفات عصفا.

يحتمل أن يكون المقسم به الموصوف المقدر: الملائكة. ويفيد عصفها عصفا، أنها تسرع مبادرة في تنفيذ ما أمرت به. ويحتمل أن يكون الموصوف المقدر، الرياح. والتقدير بالرياح أقرب في هذه الآية منه في الآية السابقة.

---

[1] سورة آل عمران آية 39

3-فالناشرات نشرا.

وهي أيضا وصف إما للملائكة باعتبار أنها تنشر الوحي والحق فتجليه للمرسل إليهم.وإما وصف للرياح باعتبار أن الرياح تنشر السحب وتبسطها.

4-فالفارقات فرقا.

هي أيضا وصف إما للملائكة بتمييزهم بين أهل الجنة وأهل النار، وتمييز من كتب له النجاة عن الذين كتب عليهم الدمار، كنوح وقومه، وعاد ومن أرسل إليهم، وقوم لوط ولوط.كما أن الملائكة تأتي بالوحي المفرق بين الإيمان والكفر والحق والباطل. وإما وصف للرياح قالوا باعتبار أنها تفرق بين السحاب وتبدده. وحملها على الملائكة أولى.

5—6- فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا.

هو وصف للملائكة المبلغات للوحي تبليغا يصل إلى المخاطب به، فيكون ما يلقونه بالنسبة إعلانا للمؤمنين بقبول إيمانهم ويعذرهم عما كان منهم قبل أن يهتدوا، ويقبل توبتهم عما فرطوا. ويكون بالنسبة للكافرين تهديدا وإنذارا بالعذاب .

7- إن ما توعدون لواقع.

هذا هو جواب القسم الذي تكرر خمس مرات، وزاده تأكيدا وتحقيقا.فأثبت بالقسم والتأكيد أن ما وعدهم الله من بعثهم ليوم الحساب، ومجازاتهم عما قدموا أمر ثابت مؤكد لا شك فيه.

8—14-فإذا النجوم طمست وإذا السماء...يوم الفصل.

لما حقق القرآن وقوع البعث كما تبين لنا في الآية السابقة فرّع عليه ما يزيده تحققا بذكر ما يحصل قبله ووصفه كأنه مشاهد. فذكر أربعة مظاهر لاختلال نظام الكون يعقبها البعث.

أ-فإذا النجوم طمست. النجوم التي كانت تتلألأ ليلا وتزين قبة السماء، يذهب نورها. فإذا هي سوداء مظلمة.وذلك كناية عن اختلال نظام الكون.

ب –وإذا السماء فرجت. السماء بما تحويه من كواكب ومجرات مشدود بعضها إلى بعض بقانون الجاذبية، تمثل بناء متلاحما مترابطا كأشد ما يكون الترابط. تختل تلك الروابط المستندة إلى الجاذبية قال تعالى : (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)[1]

---

[1] سورة الرحمن اية37

جـ - **وإذا الجبال نسفت**.الجبال الشامخة الصلبة الصلدة.تنسف نسفا تقلع من أماكنها، وتتفتت أجزاء صغيرة تتحرك حركة كثبان الرمال الرخوة.انقلاب في الكون لا يقاس بما يعرفه البشر من الزلازل والحرائق والكوارث العظمى.

د - **وإذا الرسل أقتت**. أقتت من الوقت أصلها وقتت.أي بلغت الوقت الذي كان غاية لمهماتهم، فمبدأ أمرهم تبليغ ما أمروا به.وغايته الشهادة يوم القيامة على موقف أممهم منهم، قال تعالى: **(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)**[1] فالمظاهر الثلاثة الأولى هي لخراب الكون وذهاب نظامه الذي خلقه عليه باريه إلى الأجل المحدد لبقائه. وأما الرابع فيمثل ظهور موقف البشر من رسلهم يوم ينكشف ما قابلوا به دعوة رسلهم، انكشافا لا يستطيعون معه مراوغة ولا كتمانا.

لأي يوم أجلت...أجلت الخلائق ليوم عظيم، تتجاوز حقيقة ما يقع فيه كل تصور، فيسأل عنه لأي يوم أجلت تلك النفوس؟ أجلت ليوم فيه من الهول على قدر مقدماته التي نسفت فيها الجبال، واختل بناء الكون كله، وطمست النجوم. وإذا كانت مقدماته يبلغ فيها الهول والرعب ما هو أعظم من الخيال، فإن أهواله تفوق مقدماته بكثير.إنه يوم الفصل الذي يختلف كل الاختلاف عما عهده البشر في الدنيا. إن الحياة الدنيا مبنية على اختلاط الحق بالباطل، وانفصال العمل عن الجزاء.أما في هذا اليوم فهو يوم الفصل يذهب الباطل فلا أثر له، وجزاءً ولا عمل.ويكرم التقي ويعذب العاصي، ويأخذ كل مظلوم ظلامته من ظالمه. وما أدراك ما يوم الفصل؟ ما الذي أعلمك حقيقة يوم الفصل، إنه فوق أن يدرك كُنْهُهُ وتعلم حقيقته.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الويل : أشد السوء والشر.

---

[1] سورة النساء آية 41

مهين : ضعيف.

القرار: محل الاستقرار والمكث.

مكين : متمكن.

قدر معلوم : زمان مقدر مضبوط.

كفاتا : اسم لما يكفت أي يجمع.

رواسي : جبالا ثابتة.

شامخات : مرتفعات.

فراتا: عذبا.

بيان المعنى الإجمالي :

الخسارة والهلاك في يوم القيامة للمكذبين بالبعث.كيف تنكرون البعث وقد علمتم أنا أهلكنا الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون. ثم إنا سنهلك الاخرين ويتجه الخطاب إلى تهديد قريش.إن سنتنا واحدة مع المتلبسين بالإجرام. فليحذر المكذبون من سوء مصيرهم فالويل يصحبهم. اعتبروا فانظروا إلى أصل تكوينكم. ألم نخلقكم من ماء ضعيف رخو هي الخلية الأولى.فهديناها إلى التشبث بقرار تمكنت فيه، هو جدار الرحم.لتستقر فيه وتنمو إلى الأجل المحدد لنزول الإنسان إلى الأرض. كل مرحلة مقدرة تقديرا دقيقا، فحقيق بنا الثناء على حسن تقديرنا. ويل يوم القيامة للمكذبين بالبعث.ألم نجعل الأرض الواحدة جامعة بين مقومات حياة الإنسان مما تخرجه ومن الأنعام التي ترعى ما تنبته، ومستقرا تجمع أجداث الموتى فتنفنت فيها. جامعة بين ما يتعلق بالحياة وما يتعلق بالموت.وأقمنا في الأرض الجبال المرتفعة الشاهقة، وأجرينا منها منابع الماء الصافي العذب فأسقيناكموه. ويل يوم القيامة للمكذبين بالبعث.

بيان المعنى العام :

15- ويل يومئذ للمكذبين.

تواصل من قوله تعالى **إنما توعدون لواقع** الكشف عن القدر الذي قدره سبحانه لفناء الكون ووقوف البشر للحساب، وشهادة رسلهم عليهم. وأشد الناس خسارة في يوم القيامة هم المكذبون بالبعث. فتم التصريح بذلك بقوله تعالى: ويل : الخسارة العظمى وأسوأ ما يتوقع والشر البالغ المتجاوز للحدود في هذا اليوم للمكذبين بيوم الدين يوم الجزاء.وحمله بعض المفسرين على أن المراد بالويل واد في جهنم.وروي عن النبي ﷺ أنه قال : عرضت علي جهنم فلم أر فيها واديا أعظم من

الويل الجامع لأحكام القرآن ج ص158- وعلى جميع التقادير فإن فيه التهديد والوعيد للمكذبين.

16←19- ألم نهلك الأولين....ويل يومئذ للمكذبين.

يقرر المخاطبين المشركين ليعترفوا بمظاهر قدرته وتصرفه، مما يتضمن تهديدهم إن هم أنكروا البعث وأعرضوا ولم يؤمنوا. وعرضت الآيات التالية ثلاثة مظاهر من ذلكم التصرف المشوب بالتقريع والتهديد.

المظهر الأول : (ألم نهلك الأولين)..يلجئهم ليقروا بأن الله نفّذ إرادته في المكذبين السابقين المعبر عنهم بالأولين بالنسبة للمخاطبين، فأهلكهم بصنوف من العذاب، كما وقع لقوم نوح ولوط وعاد وثمود.وتصرفه سبحانه في المكذبين الأولين سيتبعه تسليط نقمته على من يأتي بعدهم.ثم نتبعهم الآخرين. وفي هذا تهديد للمشركين المتصلبين في كفرهم ورفضهم.الذين اتبعوا المهلكين في إنكارهم للبعث.إن إهلاكنا لهم وإبادتهم كان جزاء وفاقا لما تلبسوا به من الإجرام في العقيدة والسلوك.وعلى ذلك النحو تجري سنتنا في أمثالهم، والمشركون يساوونهم في إجرامهم.ويل يومئذ للمكذبين تأكيد للتهديد السابق وتحقيق لوقوعه.

20←23-ألم نخلقكم من ماء مهين...فنعم القادرون.

المظهر الثاني: (ألم نخلقكم من ماء مهين). سؤال فيه تحريك ليُقرُّوا بمضمونه، ويرتب عليه توبيخهم لعدم إقرارهم بالبعث. لفت أنظارهم إلى القانون الذي رتب عليه سبحانه خلق البشر جميعا.خلق كل فرد منهم من ماء مهين، ومعنى مهين أنه ضعيف وهو الحيوان المنوي بعد اندماجه ببييضة الأنثى وتكونت منهما الخلية الأولى ستة وأربعون كروموزوما.الممثلة للانتقال من مرحلة التخصيب إلى مرحلة بداية الحياة. إذا قارنت هذه الخلية بالإنسان المكتمل الذي تطورت إليه بهيكله العظمي، وعضلاته،وقواه العقلية والشعورية تبين لك ضعفها الشديد لصغر حجمها ولرخاوتها، وهي لا ترى إلا بالمجهر،.وهذى الخلية لتسير نحو قرار مكين تعلق بجدار الرحم الذي يحتضنها ويغذيها، ويحفظها من الاهتزازات الخارجية لتواصل طريقها إلى الأمد الذي قدره الله لها في الرحم. فتنزل منه عند الأجل إنسانا مكتملا بخصائصه. كل مرحلة من مراحل النمو مقدرة ومضبوطة، تفضي كل واحدة منها إلى ما يليها،إلى المستوى الذي يستطيع به أن ينمو خارج الرحم.فنعم المقدرون نحن. بعد أن مرت المراحل على المخاطبين وعرفهم بها، فإنه في كل مرحلة من عجائب الصنع، ودقة التقدير، ما يوجب أن ينوه بهذا التقدير العجيب، وأن يثني

على المؤثر فيه الله رب العالمين. فنعم المقدرون. و هذا التأثير المُدركُ هو دليل على إمكان البعث الذي هو إعادة للخلق الأول.

25←28- ألم نجعل الأرض كفاتا...للمكذبين.

المظهر الثالث : الدال على أن الله لا يعجزه شيء. يقررهم للتأمل في الأرض التي على ظهرها يعيشون، وفي بطنها يدفنون. فيها لحياتهم موارد مما تنبته، ومما تأكله أنعامهم.وهي تأوي أجسامهم بعد الموت.فالمتأمل يدرك أنها أرض واحدة كانت للحياة مددا، وللموت مستقرا. فكما أحيا الإنسان من الأرض، وأرجعه إليها ليتحلل فيها، فهو قادر على أن يخرجه منها يوم القيامة للبعث.وكفاتا أي جامعة، يقال كفت شعره، إذا جمعه وضمه.

ومظهر آخر في الأرض، هي منبسطة متكونة من سهول وصحار.وتقسم بين أجزائها جبال شاهقة. ومن تلكم الجبال الصلدة الشاهقة تجري منابع المياه العذبة التي يسرنا لكم الشرب منها. مما يدل على أن اختلاف مكونات الأرض من السهل إلى الجبل الشامخ العالي،ومن الحجر الصلد إلى الأنهار الجارية، وكل في مكانه وفي محيطه وأثره في حياة الناس ليس وليد الطبيعة، إذ لوكان متولدا عنها لاتحد في صورة واحدة لا اختلاف فيها، فهذا النظام ووضع كل شيء في موضعه يقوم دليلا بينا على القدرة التي لا يعجزها شيء. ويل يومئذ للمكذبين يقال ما قيل في نظيره الآية15-

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

انطلقوا : أمر زاجر لهم بالتحرك السريع.

لا ظليل : ليس فيه أي خاصية من خاصيات الظل.

لا يغني : لا يدفع.

جمالات : جمع جمالة، اسم جمع طائفة من الجمال.

بيان المعنى الاجمالي :

بعد أن يبعثوا من قبورهم يدفعون إلى مصيرهم دفعا، يصحبه إذلال ويقال لهم : واصلوا سيركم إلى المآل الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، واصلوا سيركم نحو ذلك الظل الذي يستقبلكم بحر أشد مما أنتم فيه،ولا يمنعكم من لهب جهنم. جهنم التي تتوقد مغيظة ويتطاير شررها، كل شرارة كأنها لعظمها قصر ولحركتها وتدافعها كمجموعات الإبل الصفر. فالخسران والعذاب في هذا اليوم للمكذبين به في الدنيا. تخرس ألسنتهم في هذا اليوم وتجف حناجرهم فلا يستطيعون صياحا ولا استغاثة. وتسلب منهم القدرة على تقديم أي عذر. ويل في هذا اليوم للمكذبين. هذا يوم يقع فيه الفصل بين المكذبين وبين المؤمنين الصادقين، هذا هو اليوم التي كنتم تكذبون به.جمعناكم بمن سبق من آبائكم الذين اقتديتم بهم، في العذاب والمهانة.لقد تواصلت مؤامراتكم وكيدكم للدين في الدنيا. وها أنتم بلغتمْ الغاية، فإذا كان لكم قدرة على الكيد فلا تتراجعوا.وهو طلب يظهر عجزهم وخسرانهم. ويل في هذا اليوم للمكذبين.

بيان المعنى العام :

29—31-انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون...من اللهب.

يبعث المجرمون يوم القيامة، وتتوالى عليهم الكروب.فبمجرد ما يجمعهم المحشر يؤمرون بالسير ويدفعون دفعا ويقال لهم : سيروا إلى العذاب الذي كذبتم به في الدنيا، لتروه رأي العين. ثم يكرر عليهم الأمر الزاجر انطلقوا، شأن من يحاول التراخي، فيكرر عليه الأمر والدفع مع الإذلال.ويكشف في الأمر الثاني عن هذا الذي كانوا يكذبون به، فقد كانوا يكذبون بعذاب يوم القيامة. يعلمون علما يقينيا أنه ظل يتشعب إلى شعب ثلاث،وأخذت الصورة تتضح فهو ليس ظلا، ولكنه دخان كثيف يدفع بعضه بعضا،وسط ويمين وشمال. وأطلق عليه لفظ الظل استهزاء بهم وسخرية منهم.لا يوجد فيه أي خاصية من خاصيات الظل، لا ظليل.قال تعالى:(**في سموم وحميم * وظل من يحموم *لا بارد ولا كريم***)[1].يدفعون إليها فتخيب آمالهم، كانوا ينتظرون أن يجدوا في الظل الذي دفعوا إليه جوا ألطف مما هم فيه، فإذا هو أشد حرا ولا يبعدهم عن اللهب الذي تبدو ألسنته من خلال الدخان.

---

[1] سورة الواقعة 44/42

32←33- إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر.

كما سجل القرآن ما يلقاه أصحاب جهنم من العذاب والهوان،عني بوصف ما يرعبهم قبل أن يدخلوها.قال تعالى واصفا ما يقرع أسماعهم من بعيد : (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا)[1] وتسجل هذه الآية ما يشاهدونه وهم سائرون إلى مصيرهم وبئس المصير: يرون شررها يتطاير كل شرارة كأنها قصر عظيم، تتحرك في حركة مخيفة حركة مجموعات من الجمال الصفر العطشى تتزاحم على مورد الماء.ويل يومئذ للمكذبين.يقال فيه ما قيل في نظيره الآية 15-

35←37- هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون... للمكذبين.

من أهوال يوم القيامة أنه رغم المشاهد التي تضغط على المكذبين،وتزعزعهم وترعجهم أشد الإزعاج، لا يجدون حناجر ترفع أصواتهم منفسة عنهم، بل تضغط عليهم تلك المشاهد، يسمعون وينظرون، ولا يستطيعون أن يتنفسوا بنداء استغاثة، ولا بصيحة.ولا يؤذن لهم في الكلام فتخرس حناجرهم، ولا ينطلق منها أي اعتذار. ويل يومئذ للمكذبين يقال فيه ما قيل في نظيره الآية 15-

38- هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين.

يوم الفصل الذي تقدم الإنذار به في أول السورة [لأي يوم أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل] والذي كشفت الآيات المتتالية ما يلقاه فيه المكذبون استحضر بكل ما وصف فيه من أهوال، ليخاطبوا بالتذكير به إمعانا في توبيخهم وتقريعهم، يقال لهم هذا اليوم الذي تشاهدون مرعباته، هو يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون، هم مطبق عليكم اليوم. جمعناكم ومن سبقكم، من آبائكم الذين كنتم تتحدَّوْن رسلي بإحيائهم، والذين اتخذتموهم قدوة لكم. نوقفكم اليوم على ما كنتم تسترون به من الوفاء لهم، فأنتم جميعا في صعيد واحد، لا تملكون شيئا.

39←40- فإن كان لكم كيد فكيدون- للمكذبين.

يخاطبون يوم القيامة خطابا يوقفهم ويذكرهم بما دبروه وما أعدوه من خطط لتوقيف المد الإسلامي، والكيد لرسوله وللمؤمنين. فيقال لهم على وجه التعجيز، وإظهار أنهم خسروا كل شيء، وفيه من التنديم وإدخال الأسى والحزن في نفوسهم ما لا يخفى.إن كانت لكم خطط تستطيعون بها توقيف ما قدرته لكم،فافعلوا. وهم لا

---

[1] سورة الفرقان آية 12

يستطيعون أن يتقدموا خطوة ولا أن يتأخروا عنها،هم في قبضة العزيز الجبار، وقد أحيط بهم ونزع منهم كل قوة وتدبير. ويتكرر التصريح بخسرانهم كما سبق.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

كلوا وتمتعوا : يقصد به إنذارهم وإهمالهم، وأن عذابهم قريب.

مجرمون : في العقيدة والسلوك.

اركعوا : يجمع بين ركوع الصلاة، والخضوع لله وعدم الاستكبار.

بيان المعنى الاجمالي :

يهددهم القرآن أن ما أقبلوا عليه في شراهة من الشهوات سيزول سريعا. إن أعمالهم السيئة و عقيدتهم الفاسدة لا يدوم معها شيء. ويل لهم في هذا اليوم. ومن تصلبهم في الكفر. إنهم إذا دعوا لترك الاستكبار والخضوع لله والصلاة، أبوا من قبول ذلك. ويل لهم يوم القيامة. إنهم جعلوا على عقولهم حجابا، فلا يمكن أن يستقيموا على الحق، بعد رفضهم للقرآن الذي هو أسمى ما يمكن أن يكون عليه حديث من الهداية.

بيان المعنى العام :

41—44- إن المتقين في ظلال وعيون...نجزي المحسنين.

أعقب القرآن وصف ما يلقاه المكذبون بتفصيل ما أعده سبحانه للمتقين من ضروب النعيم والتكريم.أعد لهم ربهم جنات ظلالها وارفة، وهو يقابل ما أعد للمجرمين في الآية السابقة : **انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب**. وليس ظل الجنة للتخفيف من حر الشمس، ولكنه الظل الممتع بجمال الأفنان المتداخلة التي تكونه، دون حرٍّ فوقه. وعيون تجري بماء صاف يمد بالخصب، ويعدل الهواء حسبما يبتغيه سكان الجنة. تحمل تلكم الأفنان فواكه تستجيب لما يشتهيه المتقون، في مذاقها ومنظرها واستساغتها ويُسر تناولها.ثم يقال لهم كلوا مما أنعمنا به عليكم، واهنأوا به. لا يتبعه مغص ولا ثقل، ولا أي شيء من الأعراض التي يتعرض لها

الآكلون في الدنيا.ذلك جزاء لكم بما كنتم ملتزمين به من الخير والبعد عن الشر. إن على هذا النحو من التفضل والعناية نجزي المحسنين في عقيدتهم وأعمالهم.

وفي هذه الآيات وعد للمتقين وبشارة بأنهم بمحل الكرامة والعناية من ربهم، وأن أعمالهم الصالحة مرعية عنده.يتضاعف سرورهم إذ يرفع سبحانه عنهم المنة، بإعلامهم أن ما يلقونه هو جزاء عما قدموا . وهي من ناحية أخرى جلب للمكذبين ليقلعوا عما هم عليه، وأنه ليس بينهم وبين حسن الثواب إلا أن يسلكوا مسلك المتقين.

45-ويل يومئذ للمكذبين...

هذه الخاتمة تزيد المتقين اطمئنانا، أن الخسران والعذاب هو للمكذبين، وأنهم لما سبق منهم في الدنيا آمنون يوم القيامة. كما أنها تفيد ما ذكرناه في الآية 15-

46- كلوا وتمتعوا قليلا....مجرمون

يخاطب القرآن المكذبين الذين حصروا اهتمامهم في المآكل والمشارب، والإخلاد إلى الشهوات. ينذرهم إنذارا فيه إمهال يدل على أن ما اختاروه لأنفسهم أسوأ اختيار فليواصلوا ما هم فيه فنعيمهم إلى أمد قليل يعقبه زوال، إنكم ثبتم على الإجرام في العقدية والسلوك، التي لا يعقبها إلا ما يتأهل له المجرمون من العذاب والنكال.

47- ويل يومئذ للمكذبين.

يقال في ما قيل في نظائره في السورة.

48/49- وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون...للمكذبين.

هم متصلبون في كفرهم وعنادهم، فإذا دعوا إلى الخير، والالتحاق بصف المؤمنين، وأمروا بأن يقوموا بذلك عمليا بالصلاة والركوع والخضوع لله، يعاندون ولا يصدر منهم أي خير.والخسران والهلاك يوم القيامة للمكذبين.

50- فبأي حديث بعده يؤمنون.

سؤال فيه إنكار، وتعجيب من إصرار المكذبين على الكفر وعدم التأمل في القرآن.إن مواصلتهم للتكذيب بالقرآن والبعث، رغم ما ضمه من بيان، وما بنيت عليه هدايته من وضوح، ودعوة إلى ما يقتضيه العقل والفطرة؛ إن إصرارهم على الكفر رغم ذلك ينادي بأنه لا يمكن أن يؤمنوا بعد القرآن بكلام هاد آخر، لأنه لا يوجد حديث هو أبلغ منه هداية ودعوة إلى الخير وانسجاما مع الفطرة.

يوم الجمعة 5 شوال 1425 الموافق لـ 2014/8/01

سورة النبأ

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة.وهو مأخوذ من الآية الأولى فيها. كما سميت بسورة عم يتساءلون، وبسورة عم، وبسورة التساؤل، وبسورة المعصرات. وهي سورة مكية باتفاق.وهي السورة الثامنة والسبعون حسب ترتيب المصحف.وعدت السورة الثمانين في ترتيب النزول نزلت بعد سورة المعارج، وقبل سورة النازعات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (3) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (4) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (5) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)

بيان معاني الألفاظ :

عم : عن أي شيء.

يتساءلون : يسأل بعضهم بعضا.

النبأ : الخبر ذو الفائدة العظيمة.

العظيم : المهم جدا.

الوتد : عود مذبب طرفه الأسفل يغرس في الأرض تشد إليه الخيمة.

سباتا : قطعا.

معاشا : اسم لما به عيش الإنسان.

شدادا : قوية البنية.

السراج : أصله المصباح.

الوهاج : القوي ضوؤه.

المعصرات : السحب عندما تتهيأ لنزول الماء منها.

الثجاج : المنصب بقوة.

الحب : الذي يؤكل حبه كالقمح والشعير والأرز والقطاني..

النبات : ما لا يؤكل حبه، وهو معظم ما تقتات به الأنعام.

بيان المعنى الاجمالي :

عن أي شيء يسأل المشركون بعضهم بعضا.فتراهم في مجالسهم متحيرين يفرضون الفروض والحلول الضالّة.هم يتساءلون عن الخبر المهم الذي عصف بتصوراتهم السابقة عن الخالق المعبود، وعن علاقة الإنسان به وبالكون. هم مختلفون في الإجابة عما أثاره فيهم هذا النبأ العظيم.ليراجعوا موقفهم هذا فإنهم سيعلمون علم اليقين صدق ما أنبأهم به. بكل تأكيد ستنكشف لهم الحقيقة.إن من الدلائل التي أمام أعينهم ما يساعدهم على معرفة ما هم يتساءلون عنه.يقررهم ليعترفوا أن الأرض التي يعيشون على ظهرها بنيت على الحكمة .فهي ممهدة لهم ثقلهم وجاذبيتها متوازنة، فهم يسيرون فيها ويعملون ويستريحون دون عناء.وأقمنا التوازن في الأرض فكانت الجبال كالأوتاد تجعل الأرض سائرة في دورتها حول نفسها وحول الشمس دون اضطراب.وفي ذاتكم من حكم كثيرة فقد خلقناكم أزواجا ذكورا وإناثا لتتواصل الحياة وتعميركم للأرض.التعمير الذي يستنزف طاقاتكم، فجعلنا النوم يقطعكم قسرا عن النشاط لتستجم قواكم العضلية والفكرية. وجعلنا دورة الكون بين الليل والنهار، فالليل يغشيكم كما يغشيكم اللباس في لطف وتنتفعون من ظلمته حياة أسرية هادئة،وسترا وخاصة وقت النوم.والنهار يبعث فيكم النشاط لتحصّلوا معاشكم وتحققوا خلافتكم في الأرض. وأحكمنا بناء السماوات فكانت لقوة تماسكها لا يحدث فيها اصطدام ولا زلزال يخرب ذلكم التماسك. جعلنا في السماء سراجا يتلألأ ضياؤه الشمس و ربطنا بقاء الحياة بها.وأنزلنا من السحب الماء بعد أن هيأناها لتدفعه بقوة نحو الأرض.فننشر الحياة بما ينبت من الحبوب التي منها قوت الإنسان، ومن النباتات التي ترعاها الأنعام والحيوانات . وتكوّن جنات تجمع بين متنوع الفواكه والثمار، وفيها جمال عجيب بالتفاف أغصانها المختلفة الألوان بعضها على بعض، والمتنوعة الثمار .أفلا يدلكم هذا التقدير على أن الله خلق كل شيء بحكمته ولغاية لا عبثا، فكذلك شأنكم أيها الناس خلقناكم لتعودوا إلينا فنحاسبكم عما قدمتم ولا يستوي الطيب والخبيث.

بيان المعنى العام :

1-عم يتساءلون.

عم مركبة من كلمتين : عن وهي حرف جر ، وما الاستفهامية وأدغمت النون في الميم وصارتا كلمة متصلة [عم] وحذف ألف ما على الفصيح من الاستعمال العربي، أن ما الاستفهامية تحذف ألفها إذا جرت.

جاء القرآن ينقض كل ما ألفه المشركون، ينقض عقيدتهم، وينقض علاقاتهم الاجتماعية، وقيمهم السلوكية. ويدعوهم إلى نبذ ما أحاطوا به معبوداتهم من تقديس، ويحقق لهم أنهم سيبعثون بعد موتهم ليحاسبوا عن عقائدهم وعن أعمالهم حسب ميزان الخير والشر الذي قرره. هزهم ذلك هزا شديدا وفاجأهم في الوقت الذي كانوا فيه مطمئنين إلى أوضاعهم العقدية والسلوكية.وانبعثت في المجتمع المكي حركية من النقاش عميقة.وإذا الرافضون لما جاءهم به محمد ﷺ في حيرة من أمرهم يسأل بعضهم بعضا: ما هذا الذي جاء به ؟ فقالوا هو سحر، وعند بعضهم كهانة، وعند آخرين هو شعر، وجعله فريق آخر ترددا لأساطير الأولين،أو إن صاحبه مجنون.كما صدموا بأنهم سيبعثون بعد الموت، وهو ما ينغص عليهم شهواتهم، فأخذوا يتساءلون أيضا عن يوم البعث منكرين له، محيلين أن تعود الحياة للأجسام بعد أن تفتتت العظام وتناثرت، طالبين أن يحيي لهم آباءهم إن كان صادقا. وأخذ التساؤل طريقتين: طريقة رافضة لشكها فيما يريد أن يؤسسه الدين الجديد من يقينيات. وطريقة هازئة بما جاء به محمد ﷺ. فالآية تصور مع اختصارها صورة كاملة لما كان يجري بين المشركين الرافضين من مناقشات، وما عمرت به مجالسهم من حديث عن الدين الجديد.

3/2- عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون.

لما كان تسجيل التساؤل من العليم بكل ما دق وجل، عجل بالكشف عما يقصدون من تساؤلهم.إنهم يتساءلون بحثا أو استهزاء عن النبأ، وهو كما يقول الراغب:

1 الخبر.

2 ذو الفائدة العظيمة.

3 الذي يحصل به علم أو غلبة ظن.فلا يطلق النبأ على كل خبر ويختص بالخبر الجامع للأركان الثلاثة.

وهو نبأ عظيم بما اشتمل عليه من وحي معجز، ومن تحديد لموقف الإنسان مع خالقه ومع الكون ومع بقية افراد الجنس من مؤمنين وكافرين.

الذي هم فيه مختلفون : تشنيع بموقفهم من الحق الواضح.إذا قابلوا ما يدعوهم إليه من الخير والصلاح والعزة، تبعا لعمق الاختلاف وتمكنه فيهم وعدم الانصياع إلى الحق الأبلج، بأنهم في أمر هذا الدين المعروض عليهم مختلفون حسبما قدمناه.

4←5، كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون.

كلا أداة تفيد ردع المختلفين عن اختلافهم، وإبطالا لكل ما جرى ويجري بينهم من التساؤلات الحقيقية او التهكمية.وتحقق الآية زيادة على ما تفيده كلا، تهديدا بأنه سيعلمون علما يقينيا لا شك فيه. ولم يذكر مفعولا ليعلمون.بما يفيد أنهم يعلمون كل ما أنكروه واستهزأوا به حقا من صدق الرسول والبعث والحساب والجزاء. وأكد الردع والتهديد بالعطف إيماء إلى أن ما سيرونه يتجاوز كل تصوراتهم.

6←7، ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا.

سؤال تقريري يقصد منه إثارة الذهن ليتأمل فيما هو حاضر عنده، ولكن الرتابة تحجبه بحجاب الغفلة عنه.فيسألهم ألم تلاحظوا دقة الصنع، ومراعاة ما تعلمونه وما لا تعلمونه، حتى كانت الأرض التي تدركون قساوة أديمها، وسوف تدركون سرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس، ومع ذلك لاءمنا بين أجسامكم وجاذبيتها، فأصبحت لشدة الملاءمة كالفراش للصبي يجد فيه راحته.إنكم لا تجدون ثقلا في التنقل فوق سطحها، ولا خفة زائدة تفقدكم التوازن، ولا تنزعجون عند جلوسكم عليها فتتسمرون، ولا دفعا فلا تستقرون. أفلا يدلكم حسن التقدير والحكمة، على أن خلق الإنسان لا يقبل أن يستوي عند الحكيم في المآل بين من ينغمس في الشر، وبين من يرعى الخير والحق.

وفي المقابل جعل الجبال التي تنتشر على سطح الأرض كأنها أوتاد تشد التوازن الأرضي فلا يختل، إنك تجد بين الأغوار السحيقة في المحيطات، والجبال الشاهقة ما يحفظ توازن الكوكب الأرضي من الزلازل ومن قوة اندفاع الرياح ومن الأعاصير .فالتقدير الحكيم منبئ عن القدرة التي لا يعجزها شيء ومن ذلك البعث.

8←11، وخلقناكم أزواجا....النهار معاشا

بعد أن لفت الأنظار، على طريقة السؤال التقريري الموقظ، لطبيعة خلق الأرض، عطف على ذلك آيات قدرته سبحانه في ذات الإنسان. فقررهم على ما لا يستطيعون نكرانه، وإن كانوا لسطحية تفكيرهم لم يتأملوا فيه ولم يتعظوا به.حاصل هذا التقرير أن بداية الخلق كانت خلق آدم.ثم خلق من آدم زوجه حواء، ثم استمر الخلق من اتصال الذكر بالأنثى خلق الذكور والإناث، ليتحقق ما أراد الله من عمارة

الكون ببقاء النوع إلى الأجل المقدر له.فلو كان النسل ذكورا كما يرغب فيه كثير من الجاهلين، ولو كان إناثا وذلك ما يتشاءمون منه ولا يريدونه، لتوقف بقاء الإنسان على وجه الأرض. ومعنى ذلك أن الحياة إنما استمرت بهذا التقدير العجيب الذي لا مدخل للإنسان فيه، أفلا يدل ذلك على أن بعث البشر لحياة جديدة في دائرة الإمكان بالنظر الأول، وبدائرة الوجوب بعد التأمل المتعمق.

9-وجعلنا نومكم سباتا..

تابع لما قصد القرآن تقريرهم عليه ليرتب على إقرارهم إلجاءهم إلى الإقرار بالبعث. ظاهرة النوم بالنسبة للإنسان، في لحظة ينقطع شعوره بما حوله، ويتوقف نشاطه العضلي، وكذلك نشاطه الفكري في الحدود التي قدرها رب العزة، ليستجم الإنسان بعد المجهود الذي بذله ويستعيد قواه. فليس هو توقفا كاملا، فذلك يحدث عند الموت، ولكنه توقف من نوع خاص يتبعه نشاط فكري وعضلي وكذلك حياة.وهو قطع جعله رب العزة لا يستطيع أي فرد أن يتمرد عليه. فلو تعلقت إرادة الإنسان بالتوقف عن الأكل استطاع تحقيق ما أراد، ولكنه إذا أراد أن يواصل حياته بدون نوم غلبته عيناه ونام، ولا بد أن ينقطع دماغه عن نشاطه في الحدود التي قدرها رب العزة. فإذا كانت الحياة الواعية تنقطع عن الإنسان ثم تعود، أفلا يقوم ذلك دليلا على أن انقطاعها بالموت ستعقبه حياة. قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[1].

10/11- وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا.

ظاهرتان يعقبان النوم عندما ينطلق الإنسان في نشاطه المعهود.هو بين الليل الذي يستره في لطف كأنه لباس يحويه دون أن يضغط عليه. يستره من العيون التي لا يود أن تكشف سره، وهو أمن يستره من غارات الأعداء.وفيه إيماء للعلاقة الزوجية كما وردت في قوله تعالى : هن لباس لكم وأنتم لباس لهن[2] – فإنها تكون أتم في الليل. وهو لباس يتعمق فيه المؤمن في مناجاة ربه بقيام الليل،قال تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير)[3] وإذا كان الليل يلفه في هدوء ليتنعم بساعاته في غير النوم، فإنه على العكس من ذلك جعل النهار دافعا للإنسان للجد والعمل ولتحصيل

[1] سورة الزمر آية 42
[2] سورة البقرة آية 87
[3] سورة الأعراف اية 26

معاشه. كما أن ضوء الشمس يؤثر في نمو الزروع والثمار، فما يغرسه من الأشجار،وما يحرثه ويزرعه يتطور في ضوء الشمس. والأرض واحدة وتأثير كل فترة من الليل والنهار في حياة الإنسان تنادي بأن الله أجرى بحكمته ترتيبهما. وقدر بحكمته بعث الإنسان بعد موته.

12-13، وبنينا فوقكم سبعا شدادا... وهاجا.

بعد أن أثبت قدرته وحكمته في خلق الأرض انتقل إلى السماء. فلفت الأنظار إلى أمرين : أحدهما أن الله جعل وضعها مرتفعا فوقنا، أينما حللت في الأرض في القطب الشمالي أو القطب الجنوب، تشاهد أن السماء فوقك.أمسكها بتدبيره فلا تقع على الأرض.وتحقيق المراد بالسبع القوية البنية، المتماسكة في بنائها كأشد ما يكون التماسك هو من الحقائق التي نشاهد آثارها باستمرارها في مواقعها.ويبعد أن يكون المراد بها الكواكب السيارة. لأن الكواكب السيارة المرتبطة بالنظام الشمسي هي أكثر من سبع. التي هي حسب المستوى العلمي للبشر عند نزول الآية زحل، والمشتري، والمريخ،والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر. لأن الكواكب الدائرة في المجموعة الشمسية هي تلك مع (ستورن) و(نبتون) و(أورانوس) و(الأرض) فالظاهر أنها المجرات التي لا يعلم تركيبها وحدودها وقوانينها إلا خالقها الذي أبدعها. فقد ضبط من قوانين الجاذبية بينها ما جعلها متماسكة أشد ما يكون من التماسك إلى الأمد الذي قدره لانحلال روابطها واختلال بنائها. وخص الشمس من بين كواكب السماء بالذكر لارتباط الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية بها.

14-16- وأنزلنا من المعصرات ... ألفافا.

هذا هو التصرف الرابع من التصرفات الحكيمة لله. لفت أنظارهم أولا إلى كمال التقدير في خلق الأرض ، وانتقل ثانيا إلى خلق البشر والأعراض التي تتصل به،ثم انتقل لعرض ما في خلق السماوات من مظاهر القدرة العجيبة.وهذا الرابع أبرز فيه تصرفه سبحانه جامعا بين السماء والأرض والإنسان والحيوان. يبدأ العرض من السحب المحملة بالماء وقد هيأها لتدر ماءها على الأرض، فسمّاها معصرات مهيأة لأن يعتصر ماؤها. فأكمل بحسن تقديره إنزال الماء منها على الأرض مندفعا بقوة. إن تصرفه هذا هو كشأنه في جميع تصرفاته أنها ليست عبثا، ولكن لتحقيق غاية، وهي:

أولا : إخراج الحب من الأرض بانفلاق الحبة وإرسال عروقها إلى الأرض ورأسها إلى السماء لتتم الدورة وتمتلئ السنابل بالحب، من مختلف الأنواع كالقمح والشعير والحمص والفول واللوبيا والأرز فيقتات منها الإنسان ما يقيم به بنيته .

ثانيا : إخراج النبات الذي لا يقصد حبه وإنما ينتفع بذاته،وهو غالب قوت الأنعام إما أخضر وإما بعد تجفيفه وخزنه.

ثالثا: جنات تجمع أنواعا من الأشجار المثمرة كالنخيل، والكروم، والتين والرمان. ونحو ذلك، تلتف أغصانها بعضها على بعض من الرواء.فتكون بذلك مسرحا لنظر البشر يستمتعون به، ويأكلون من ثمره.

فأنت ترى في هذا التصرف كيف قدر الله بحكمته أن يربط بين السحب وما تحمله من المياه، وبين الأرض التي تحيا بما ينزل عليها من ماء، والإنسان وتحول ما تنتجه الأرض إلى قوت يواصل به حياته، والحيوانات وارتباط بقائها بما ينزل من السماء من أمطار.وفي ذلك دليل يقرب ما تحير فيه المشركون من أمر البعث.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يوم الفصل : يوم القيامة.

ميقاتا : الوقت المحدد لحساب الناس عن أعمالهم.

الصور : ما جعله الله باعثا للأموات ليقوموا للحشر والحساب.

أفواجا : طوائف وجماعات.

جهنم : اسم لدار العذاب يوم القيامة.

مرصادا : رقيب شديد لا تفلت أحدا من أهلها.

الطاغون : الذين هم بسبب استكبارهم لا يكترثون بأمر ولا نهي .

مآب : مستقر.

اللابث : المقيم.

أحقابا : أزمنة طويلة، كلما مضى زمان خلفه غيره إلى أبد الآبدين.

لا يذوقون : لا يحسون.

الحميم : الماء الشديد الحرارة.

الغساق : الصديد الذي يسيل من الجرح المتعفن.

وفاقا : جزاؤهم مساو لما قدموه.

أحصيناه : ضبطناه ضبطا كاملا.

كتابا : مكتوبا موثقا لا يضيع منه شيء.

بيان المعنى الإجمالي:

ستنتهي الحياة الدنيا يوم الفصل يوم القيامة،الذي يفصل فيه بين الحق والباطل، وبين وضع المجرمين المكذبين،ووضع الصالحين المؤمنين.هو وقت محدد في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر عن أجله. يوم القيامة ينفخ في الصور فتعود الأرواح إلى أجسادها، وتنبعث إلى الحشر فالحساب.يأتي المبعوثون أفواجا، أفواجا،المؤمنون مع بعضهم، والمنافقون معا، وكل من عبد إلها غير الله يأتون مع معبودهم. وهكذا.في هذا اليوم يتحلل ما كان يمسك السماوات فتتشقق وينتهي التحامها. و تسير الجبال فتخرج عن مكانها وتتفتت فتتحول إلى هباء، ثم تنعدم فلا يبقى لها أثر إلا أثر خادع للبصر كالسراب. ثم انتقل القرآن لتفصيل ما سيلقاه المشركون فحدد أن دار جزائهم هي جهنم تترصد كل واحد من أهلها فتجلبه إليها.هي مآل الطغاة المستكبرين الذين يتعالون عن الحق ويظلمون من هم دونهم.ستكون دار بقائهم لا يخرجون منها، كلما مضى زمن خلفه زمن آخر.لا يحسون فيها ببرد يخفف عنهم شدة الحر المحيط بهم، ولا يجدون شرابا يطفئ حر أكبادهم. لا يجدون إلا الحميم البالغ الحرارة الذي يقطع أمعاءهم، وإلا ما تفرزه الجراح المتعفنة المستقذر طعما ورائحة. ما سلط عليهم من العذاب روعي فيه العدل الكامل فما سلط عليهم هو جزاء وفاق لسيء أعمالهم وفاسد عقائدهم. يوضح لكم ذلك أنهم أهملوا يوم الحساب من تفكيرهم نافين له،وتصلبوا في التكذيب بآياتنا البينة الواضحة. وقد أحصينا عليهم كل ما يصدر عنهم من باطل العقيدة وسيء العمل.يقال لهم تنكيلا وتقريعا : ليكن إحساسكم بالعذاب على أشده. وكلما واصلتم إقامتكم في جهنم فقد قدرنا أن كل مرحلة تفضي بكم إلى مرحلة أخرى أشد عذابا.

بيان المعنى العام:

17- إن يوم الفصل كان ميقاتا.

أعدت الآيات السابقة لهذه النتيجة التي هي مضمون هذه الآية.فما لفت إليه الأنظار من مشاهد الحكمة والتقدير والتصرف بالنسبة لله الخالق أعدّ لهذه الغاية : أن الله

جعل يوم الفصل بين الحق والباطل، وبين جزاء المجرمين والصالحين، جعله في علمه القديم الثابت الميقات الذي ينتهي إليه البشر للحساب والجزاء. لا يتقدم لحظة ولا يتأخر عنها.وأن تأخيره تحقيق لعلم الله الأزلي، لا دلالة في ذلك على انتفاء حصوله.

18- يوم ينفخ في الصور...أفواجا.

تكرر في القرآن النفخ في الصور عشر مرات في القرآن.وكلها دالة على الشأن الأول من شؤون يوم القيامة. وحمله بعض المفسرين على أن قرنا يأخذه إسرافيل، فينفخ فيه فينبعث لصوته بتقدير إلهي كل من عاش من البشر على وجه الأرض.ويمكن حمله على أنه تمثيل، فكما أن الجند يتفرقون للراحة في منازلهم، وأنه إذا أرادت القيادة جمعهم، ينفخ في الصور القرن الذي له صوت معروف عند كل فرد من أفراد الجيش، فيسرعون إلى مكان الاجتماع، لتلقي الأوامر. فكذلك يحدث الله استجابة بين مؤثر، الذي جسم بأنه نفخ في الصور لتقريبه من عادات البشر في دنياهم، وبين أرواح البشر فتكسى في أجسامها وتنبعث سائرة إلى أرض المحشر، على صورة نثبتها ولا نكيفها. وقد صرح القرآن بأنهم يأتون إلى المحشر جماعات جماعات : الصالحون من كل أمة مع بعضهم، والمنافقون مع بعضهم، والمشركون كذلك مقترنين بما يعبدون .

19-وفتحت السماء فكانت أبوابا.

هذا عرض لوضع الكون يوم القيامة. فإن السماء التي لفت الأنظار إلى قوة بنائها وإحكامه في الآية 12 يختل بناؤها وتتشقق، ويفنى التئامها. يمثلها بالبناء الذي كان مصمتا لا منفذ فيه، فيتحول إلى مداخل كثيرة. وكانت بمعنى صارت،وعبر عن انتشار التشقق فيها وذهاب كل تماسك بين أجزائها بالتعبير عن وضعها الجديد أنها تحولت إلى أبواب، لم يبق شيء مما كان من الارتباط بين مكوناتها.وفي هذا إيماء إلى أن الفناء قانون يجري على كل مخلوق أيا كانت قوته وعظمته.

20-وسيرت الجبال فكانت سرابا.

الجبال الشاهقة التي كانت تمثل الاستقرار والثبات.وتبدو من بعيد للناظر فيعلم موقعه من الأرض. وتفنى الأجيال وهي راسية في مكانها، في هذا اليوم تنقلت من موقعها وتتفتت؛ فحجارتها الصلبة تتحول إلى هباء وتذوب، كالسراب الذي لا حقيقة له إلا في خداع النظر.

21←23-إن جهنم كانت مرصادا....أحقابا.

بعد أن صرح القرآن بفساد وضع الكون يوم القيامة فصل ما سيلقاه المجرمون أولا فقال :

إن جهنم دار العذاب كانت مرصادا، خلقت على وضع، أنها تتبع كل من مؤهل بفساد عقيدته وسوء عمله ليكون من أهلها، فتجلبه إليها قسرا، ولا يستطيع الانفلات من رقابتها. هؤلاء الطغاة المستكبرون عن قبول الحق، الذين لا يكترثون بأمر ولا نهي، ولا يرعون حق غيرهم لاعتزازهم بقوتهم، يظلمون الناس ويتكبرون، ويفسدون في الأرض دون أن تتحرك ضمائرهم، ودون أن تشعر بالإثم لما اقترفوه من ظلم، خلق الله في جهنم قدرة على تتبعهم فتجلبهم إليها لينالوا جزاءهم الموعود فيها. وتكون بالنسبة إليهم دار استقرار دائم لابثين فيها، كلما مضى زمن خلفه زمن آخر إلى أبد الآبدين، لا يجدون عنها حولا.

24–26- لا يذوقون فيها بردا...وفاقا.

جهنم معروفة بشدة حرها أعاننا الله منها برحمته وفضله.وعندما تطبق على أهلها فإن الله يحدث فيهم شوقا لينالهم شيء من البرد يخفف عنهم ولو لأمد قليل ما يعانونه من العذاب، فيكون إحساسهم بالحرمان من ذلك يضاعف ألمهم ويمعن في عذابهم.وتلتهب أكبادهم من حرها فيتشوقون إلى أي شراب يطفئ عطشهم فلا ينالون إلا الماء الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم ويزيد لهبهم وحاجتهم إلى الشراب.وإلا غساقا، وهو ما يفرزه الجرح المتعفن من الصديد الكريه الرائحة المستقذر أشد الاستقذار.

إن ما عوملوا به روعي فيه العدل الكامل بين عقائدهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة وبين جزائهم. ومن العدل أنهم أنكروا البعث فكان جزاؤهم عليه حرمانهم من البرد والشراب. كذبوا الرسول وآذوه وآذوا المؤمنين فكان جزاؤهم الحميم والغساق.

27–28، إنهم كانوا لا يرجون حسابا...كذابا.

تعليل آخر لجزائهم يوم القيامة مبني على تكذيبهم بالحساب تكذيبا جعلهم لا يرجون حصوله.إذ لا يتوقعون خيرا لهم في يوم البعث، فلا يَرْجُونَهُ إذ الرجاء لا يكون إلا لأمر محبوب. وكلما توالت عليهم الآيات البينات والدلائل الواضحة كذبوا بمضامينها كأشد ما يكون التكذيب.

29–30، وكل شيء أحصيناه...عذابا.

حققت الآية السابقة 26أن جزاء الطاغين جزاء عدل لا ظلم فيه، وشنعت الآيتان 27و 28 ببعض ما يصدر عنهم، وأكملت هذه الآية أن كل صغيرة وكبيرة من

آثامهم، وتجاوزاتهم وكّلنا بها من يحصيها ويسجلها في كتاب لا يضيع منه شيء، ينشر لهم ويحيي الله ذاكرتهم فيتذكرون كل صغيرة وكبيرة من سيّء ما اقترفوه.ويقال لهم : يوم القيامة : ليكن إحساسكم بالعذاب على أشده.ولا تتوقعوا أن يخف عنكم العذاب بإلفكم له، بل قد رتبنا أنه كلما تقدمتم في منازل جهنم لقيتم عذابا أشد من سابقه وهكذا إلى أبد الأبدين.ولذا كانت هذه الآية من أشد ما نزل في أهل النار .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مفازا : فوزا وظفرا، ومكان فوز.

الحدائق : البساتين المشجرة المحفوظة بحائط ونحوه.

كواعب : الكاعب الفتاة في سن الخامسة عشرة ونحوها وقد ارتفع ثديها واستدار.

أترابا : جمع ترب على مستوى واحد في الجمال والوسامة.

كأسا دهاقا : كأسا مملوءة.

اللغو : الكلام الباطل والهذيان.

عطاء : ما يتفضل به دون عوض.

لا يملكون : لا يقدرون ولا يستطيعون.

القيام : الاستعداد للجد في العمل.

الروح : يحتمل أن يكون المراد به جبريل، أو جنس الروح الذي به الحياة.

الإنذار : الإعلام بحصول ما يسوء في مستقبل قريب.

بيان المعنى الإجمالي :

حقق القرآن أن المتقين سيحظون بالفوز العظيم في الآخرة.يفوزون بالحدائق المشجرة المحاطة بسياج وقد تنوعت أشجارها من النخيل والأعناب وغيرها من

مختلف الأصناف.كما يتم أنسهم بجوار في بواكير النضج ارتفعت نهودهن مستديرة وهن في سن متقاربة.ويتحرك إحساسهم بنشوة النعيم بما يدار عليهم من كؤوس مملوءة من خمر الجنة لا تلعب بعقولهم فلا يصدر عنهم الكلام الوقح والعربدة.وهم على رفيع مستواهم الخلقي والعقلي. كل ما ينالهم يقابل ما قاموا به من صالح الأعمال، لا يضيع منها أي شيء، ويتجاوز الجزاء قيمة العمل، لأنه عطاء الكريم، ربك يا محمد الذي يكرمك بإكرامهم. هو عطاء لا يرقب معه المُكْرَمُ أي جزاء اخر. يشعرون أنهم نالوا كل ما يأملون. إن ربك هو رب السماوات والأرض وما بينهما بما تشمله من كائنات معروفة لنا وكائنات لا يعلمها إلا خالقها. هو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو المتفرد بالتصرف والجلال، فلا يمكن أي أحد من عرض شيء عليه، ومخاطبته بدافع ذاتي. يوم الفصل هو اليوم الذي يكون فيه الروح والملائكة منتظمين على أتم الاستعداد صامتين لا ينبسون بكلمة في جو مهيب كأبلغ ما تكون المهابة. لا يتكلم إلا من صدر له الإذن من الرحمن، وكان قوله صوابا حقا فلا يشفع إلا لمن ارتضى الرحمن أن يشفع فيه. ذلك اليوم هو اليوم الحقيق بأن يسمى يوما، الفائق عن الأيام التي تعدونها أياما. يظهر فيه الحق، ويقضى على الباطل.إنه يوم يستطيع أن ينجح فيه كل من سلك ما يوصله ليقبله الرحمن ويعطيه منزلة الكرامة. انتبهوا واحذروا فقد أنذرناكم عذابا ليس بعيدا بمقاييس خالق الأزمان. إنه اليوم الذي ينظر كل إنسان في كتابه الموثق فيشاهد كل ما قدم من خير أو شر مسطورا مثبتا.وفيه يعبر الكافر عن أعظم أمانيه: أن يكون ترابا مهينا خير له من الجزاء الذي يعلم أنه صائر إليه.

بيان المعنى العام

31 ~34: إن للمتقين مفازا...دهاقا.

بعد أن أنذر المجرمين بما سيلقونه من العذاب في الدار الآخرة، انتقل إلى عرض ما أعده للمتقين الذين يصحبهم في حياتهم الدنيا، استحضار صلتهم بالله،فتؤثر على سلوكهم صلاحا.بكلمة عامة شاملة سيتحقق لهم الفوز والنجاح.فهم في منزل مخصوص بالفائزين. وكتب لهم ربهم نيل ما يرغبون فيه. هم في جنات النعيم التي احتوت على حدائق يصطف فيها متنوع الأشجار من النخيل والكروم وغيرها،يحيط بها ما يميزها عن غيرها. ومع المنظر الخلاب يأنسون بفتيات كواعب نواهد في سن النضج الباكر، ارتفعت نهودهن واستدارت، على نفس السن ، وعلى مستوى من الوسامة متقارب. ومن تمام العناية بهم أن الله أعد لهم خمر الجنة يدار عليهم يحصل لهم منه نشوة، فيشربون في كؤوس تقدم لهم مملوءة بلا تقتير عليهم.

35←36، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا....حسابا.

مع ما ينعم به على المتقين من تكريم مادي، فإنه قدّر أن يكون كل ما يجري في الجنة بعيدا عن السفاسف والنذالة لا يخدش حسهم العالي، ومداركهم النقية.فلا يوجد في الجنة لغط وصخب وتداخل أصوات وسفه الكلام كما يقع في المجالس الخمرية في الدنيا. ولا يؤثر شرب خمر الجنة في شاربها، فلا يهذي ولا ينطق بالكلام الباطل،فلا تبلغ به النشوة مقدارا زائدا على السرور.

ثم حقق تكريمهم بأنه جزاء على صالح أعمالهم ونقي عقيدتهم. وتتميما لتصور كمال الجزاء، أضاف إليه أولا: أنه جزاء من ربك يا محمد، والكامل الرحيم إذا جزى فجزاؤه فوق ما يتصور، وأن هذا الجزاء من ربك الذي يكرمك بهذا الفضل الواصل لمن اتبعك.وبذلك هو عطاء عن الجانب الذي لا مقابل له من الأعمال وهو الجانب الغالب.وحسابا يفهم على أنه من مادة حسْبك أي كافيك، عطاء يشعر معه المعطى أنه لا يطلب شيئا وراء ما حصل له. كما يمكن أن يفهم أن كل عمل صالح وإن قل فإن الله يجزي عنه على المستوى الذي أومأت إليه الآية، وحسب قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها[1]، وقوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) [2]

37- رب السماوات والأرض وما بينهما...خطابا.

ربك هو رب السماوات والأرض وما بينهما. فجميع الألطاف التي تحققت، والتي لا يستغني عنها أي كائن في السماوات والأرض، هي فيض الرحمة الإلهية التي هي صفة ذاتية له سبحانه، هو الرحمن. ومع رحمته فإن جلاله هو المهيمن على الكون فلا يمكن لأي كائن ولا يستطيع أن يتقدم لخطابه تغييرا لما قضاه وقدّره لا بالتشديد ولا بالتخفيف.

38- يوم يقوم الروح والملائكة....صوابا.

لما ذكر في الآية السابقة أنه لا يملك أحد أن يتقدم بخطاب لرب العزة يطلب فيها زيادة أو نقصا مما قدره.واصل تفصيل مهابة يوم القيامة الذي تخرس فيه الألسنة عن أي طلب.فعرض صورة تعطي للخيال تصورا عما يكون عليه ذلك اليوم من

---

[1] سورة الأنعام آية 160

[2] سورة الأنعام آية261

تضاؤل الكائنات جميعها بين يدي الله. هو اليوم الذي يقوم فيه الروح الملك جبريل، او ملك آخر هو أعظم ما خلق الله، أو جنس الروح الذي به الحياة. هذا أو ذاك يستعد الجميع في ذلك اليوم على أتم هيئة من الخضوع والانتظار منتظمين.يخيم السكوت فلا تسمع همسا. موقف رهيب الكل منتظر لتنفيذ ما يطلب منه. في هذا الموقف الخاشع لا يتكلم أحد إلا من أذن له الرحمن برحمته في الكلام، يخلق فيه إحساسا باطنيا: أن الله أذن له في الكلام بين يديه، ولا يمكن من ذلك إلا من علم الله أنه لا يقول إلا كلاما صوابا لا باطل فيه يرضاه رب العزة.

39- ذلك اليوم الحق...مآبا.

ذلك اليوم، يوم الفصل الذي ينتظم فيه الروح والملائكة عاجزين عن النطق قبل إذن ربهم، وهو الحقيق بأن يسمى يوما، وهو اليوم الذي يظهر فيه الحق و يتم الجزاء العدل. أعلمناكم به، وفصلنا لكم ما ستتعرضون إليه. فبعد ذلك أنتم مسؤولون عما تختارون، فمن شاء أن يكتسب ما يجد به مرجعا حسنا عند ربه فليفعل وليقبل على التقوى وفعل الخير والابتعاد عن الشر. وبذلك يجد مكان التكريم عندما يعود إلى ربه. وفيه إشارة إلى أن من اختار خلاف ذلك يكون جزاؤه على حسب ما قدم.

40- إنا أنذرناكم عذابا قريبا...ترابا.

تصريح بالغاية مما تم عرضه، ليكون رفعا لكل عذر ممن لم يستجب، وواصل السير في ضلاله.إننا بعزتنا وتحقق ما نعلم به قد أنذرناكم ونبهناكم إلى ما يترصدكم في المستقبل من العذاب الذي سيحل قريبا، فتوبوا إلى رشدكم، واحفظوا أنفسكم من سوء المآل، وذلك بالإيمان والعمل الصالح يوم ينظر المرء ما قدمت يداه من خير ومن شر، عبر عن كل أعماله بما قدمت يداه. في هذا اليوم ينظر الإنسان إلى ما قدمه من عمل في الدنيا حسنا أو قبيحا.يراه موثقا في كتابه، ويتمثل له بالصورة التي تم عليها في الدنيا. قال تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)[1] ويحس بما يرتبط بعمله من ثواب أو عقاب.

ولما كان الإنذار قوام خاتمة السورة ناسب أن يصرح بما يقوله المُنْذَرُون الذين واصلوا كفرهم ولم يتعظوا بالإنذار تعبيرا عن أساهم ويأسهم. يقول الكافر الذي سمتُهُ الغالبة عليه، الكفر، يقول متمنيا أن لو كان ترابا: يا ليتني كنت ترابا. باقيا على أصله الذي خلق منه ولم يتحول إلى المسؤولية والتكليف. أو أن لوكان ترابا

---

[1] سورة الكهف آية 49

تدوسه الأقدام فذلك خير من المآل الذي هو فيه.وحمله بعضهم على أن الكافر هو إبليس يقول يوم يبدو له مآله يا ليتني كنت ترابا ولم أكن من مارج من نار ولم أستكبر عن السجود.

يوم الاثنين 8 شوال الموافق 2014/08/04

سورة النازعات

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير والحديث. أخذ اسمها من الآية الأولى فيها وأضاف بعضهم الواو [والنازعات] كما سماها بعضهم سورة الساهرة، والطامة. وهي سورة مكية باتفاق.رتبتها حسب ترتيب المصحف التاسعة والسبعون. وحسب ترتيب النزول الحادية والثمانون.نزلت بعد سورة النبأ، وقبل سورة الانفطار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

النازعات : جمع نازعة ولما كان النزع بمعنى الإخراج يتحقق في الخارج حسب النازع ومكانه، فتكون النازعات دالة على معان كثيرة الجامع بينها الإخراج.

الناشطات : الملائكة النازعة للأرواح بسهولة.

السابحات : السائرات بسرعة وهدوء.

فالسابقات : الواصلات سريعا إلى الغاية.

فالمدبرات : المفكرات بعمق يترتب عنه حسن التصور وإبعاد المعوقات.

ترجف : تهتز، وتضطرب.

الراجفة : القوة التي سببت اضطرابها.

الرادفة : التالية والتابعة لها.

الواجفة : المضطربة من الخوف.

الخشوع : الخضوع والتذلل. متكسرة من شدة الهلع.
الحافرة : الدنيا.مأخوذة من الحفر أثر سير رجل الإنسان في الحياة.
نخرة : ذهب التحامها.
الكرة : الرجعة.
الزجرة : المرة الواحدة من الزجر: الأمر الإلهي بعودة الأرواح إلى أجسادها.
الساهرة : الأرض البيضاء الواسعة. أرض المحشر.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بملائكته التي أوكل إليها نزع الأرواح من أجسادها نزعا تبلغ فيه الغاية فلا تبقي للحياة أثرا. والتي تنشط إلى تنفيذ ما تؤمر به فتحققه بدون تراخ، وأودع الله فيها من القدرات ما تستطيع معه تنفيذ أوامر ربها فتجري في يسر كالسابح في البحر. ثم إنها تسبق إلى تنفيذ ما تكلف به من دون تراخ يستوي في كل ذلك مهامها في الدنيا ومهامها في الآخرة. ومما تميزت به الملائكة أنها تنجز ما كلفت به أفضل إنجاز وعلى أكمل الوجوه.

الملائكة التي تابع التنزيل مزاياها العظيمة، أقسم بها والمقسم عليه تحقق البعث يوم القيامة.ولتهويل هذا اليوم عدل عن التصريح به، فذكر من خصائص ما يرعد القلوب، ويبعثها على الاحتياط منه.فذكر أنه اليوم الذي تهتز فيه الأرض هزة عظمى تنفذ إلى أعماقها، وتعقب الهزة الأولى هزة ثانية.

لا تسأل عن المكذبين فقلوبهم مضطربة كأشد ما يكون الاضطراب إذ يستحضرون ما أنذروا به في الدنيا، وتتكسر أبصارهم من الفزع والذل. إنهم كانوا يقولون في الحياة ما يعبرون به عن قوة إنكارهم أن يعودوا إلى الحياة الدنيا كما كانوا بعد أن تبلى عظامهم. ويضيفون إلى الإنكار استهزاءهم بعقيدة البعث، فيقولون لمن يدعوهم للإيمان به : إنه رجوع فيه الخسران والخيبة.

ليس بعثهم مما يستدعي ترتيب تحولات ومراحل، ولكنها زجرة واحدة من أمر التكوين.يوم يأذن رب العزة للأجساد أن تلبس أرواحها، فإذا هي حية كما كانت في الدنيا، وإذا هم مجموعون في أرض فضاء مترامية الأطراف لا شجر بها ولا آكام.

بيان المعنى العام :

1-والنازعات غرقا.

افتتحت الآية بأقسام خمسة : **النازعات. الناشطات. السابحات. السابقات. المدبرات.** ولما كان أربعة منها معطوفة بالواو فإن الأرجح أن يكون كل واحد من الأقسام

مرادا به ما هو خاص به.وهي كلها صفات لموصوفات يقدرها السامع حسب ما يترجح لديه من القرائن.

النازعات : جمع نازعة، والنزع ترجع تصريفاته إلى ما يفيد الإخراج والجذب. فهو صفة لموصوف مقدر. ولذا اختلف المفسرون في تقدير هذا الموصوف فذهب كثير منهم إلى أن الموصوف المقدر [الملائكة] والملائكة مُوكّلة بنزع الأرواح من أجسادها. قال تعالى : (**قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون**)[1] وهي تُغْرِق في نزعها فتخرج الأرواح من أطراف الجسم حتى لا يبقى شيء من الحياة فيه. وهذا المحمل أوفق بالمقصود الأساس من السورة الذي هو إثبات البعث.

وذهب فريق آخر إلى أن الموصوف المقدر [النجوم] وهي تنزع وتسير من أفق إلى أفق آخر في مجاريها فتنحط غارقة لا يبقى من نورها شيء كما يغرق الجسم في الماء فلا يبقى منه شيء ظاهرا. والنجوم في سيرها المقدر، وحركتها على عظم أجرامها مظهر من مظاهر القدرة الإلهية التي لا يعجزها بعث الأجساد يوم القيامة.

وذهب فريق ثالث إلى أن الموصوف المقدر [جماعات الرماة بالسهام] ينزعون الأقواس فيمدونها إلى أقصى غاياتها عند وضع السهام لتندفع بقوة عند توجيهها إلى الهدف. وهو تشريف للمجاهدين المجتهدين في نشر الإسلام.عندما يقسم بهم القرآن.

وذهب فريق رابع إلى أن الموصوف المقدر [الخيل]وخيل المجاهدين هي الخيل العراب التي تنزع في أعنتها لطول أعناقها. وأقسم بها باعتبار أنها الوسيلة الكبرى لنشر الإسلام، ولما فيها من الخصال حتى إنها تدرك ما يريده راكبها منها فتحققه.

وأولى الوجوه هو الوجه الأول. لقرب مأخذه ووضوحه.ولأن المسلمين في وقت نزول الآية ما كانوا مأمورين بالجهاد.ولقوة انسجامه مع قوله **فالمدبرات أمرا**. ولولا أني وجدت معظم المفسرين تتبعوا تلكم الاحتمالات ووثقوها لما سجلتها.

2 - والناشطات نشطا..

النشاط مقابل الكسل، فهو يدل على قوة الانطلاق للعمل. ولما رجحنا في المعطوف عليه النازعات أن يكون المقصود بها الملائكة، فيكون قوله **والناشطات نشطا** : الملائكة التي تسرع لتنفيذ ما تكلف به. ومن ذهب إلى أن النازعات النجوم حمل الناشطات أيضا على الكواكب وهي تسرع في سيرها.

---

[1] سورة السجدة آية 11

3-والسابحات سبحا.

وأصل السبح العوم في الماء.ويوصف سير الخيل المريح مع السرعة بالسبح. وحملها على أن الموصوف الملائكة يفيد وصف الملائكة بسرعة تنفيذها لما كلفت به في سهولة ويسر.

4-فالسابقات سبقا.

بعطفه بالفاء على السابحات يحمل على ما يرتبط مفرعا على السابحات. ولما كان السابقات يفيد بأصل معناه سرعة الوصول إلى القصد، وحملنا النازعات وما عطف عليها على أن المقصود الملائكة، كان المقسم به الملائكة التي تسبق إلى تنفيذ ما أوكل إليها.

5-فالمدبرات أمرا.

التدبير عمق التفكير لتحقيق أفضل النتائج.والأمر الغرض المهم. وحملها على الملائكة يعطينا مفهوما مفاده أن الملائكة تنجز ما تؤمر به على أفضل الوجوه.

6-يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة..

كملت الأقسام بالأوصاف التي رجحنا أنها أوصاف للملائكة وهي تقوم بمهامها.فأين المقسم عليه ؟ المقسم عليه يفهم من الكلام تقديره لتبعثن يوم القيامة للحساب.وليكون التأثير أبلغ لم يعجل القرآن بالتصريح به، وأخذ يفصل الأهوال التي تقع في هذا اليوم مما يهز قلوب الكافرين، ويكشف لهم عما يقع فيه من ينكره، فيحملهم ذلك على مراجعة رفضهم الإيمان به، ويكون الإنذار قد تم وقامت عليهم الحجة. إنه اليوم الذي يهتز فيه الكون زلزالا شديدا، ويستحضر الذهن ما يصحب الزلزال الشديد من قرع وأصوات مرعبة.تندك الأرض والجبال فتتفتت قال تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة)[1] بلغت الرجفة أقصى ما يتصور لها من قوة حتى أصبحت الأرض المرجوفة هي الراجفة وليس شيئا وراءها. وما إن تنتهي الرجفة الأولى بأهوالها حتى تتبعها وتتلوها رجفة أخرى على نفس درجتها من القوة والعنف. فتتخلع قلوب المشركين الجاحدين للبعث. إذ يتبينون ما كان الرسل أوعدوهم، وما صمموا على تكذيبه، فيبدو لهم تكذيبهم مهينا ليقعوا تحت أهوال أشد وعذاب أكبر فتضطرب قلوبهم أشد الاضطراب، قلوب يومئذ واجفة. في الوقت الذي يشعر فيه المؤمنون بالطمأنينة لما وعدهم به ربهم من الفوز برضوانه في هذا اليوم.

---

[1] سورة الحاقة آية 14

أبصارها خاشعة. يبدو الذل على سحنهم، ويجللهم الهوان،وتتكسر الأبصار فلا يرتفع لها جفن من شدة الهلع والخوف،مما يترصدهم من العذاب الذي رأوا بوادره.

11/10: يقولون أئنا لمردودون..نخرة.

استحضرت الآية ما كانوا يقابلون به في الدنيا إنذارهم من يوم البعث.فكانوا كلما تكررت عليهم المواعظ قابلوها بإنكار، وتعجيب من القابلين لعقيدة البعث.يكذبون الرجوع إلى الحياة، والعودة لما كانوا عليه، والحافرة أصلها أن السائر يترك آثار قدميه في الطريق الذي سار فيه، فإذا أراد أن يعود لمنطلقه تتبع تلك الحفر حتى ينتهي إليه. فهم ينكرون العودة إلى وضعهم الأول في الحياة، بعد أن بليت العظام ونخرت فأصبح الهواء يتخللها ويصوت عندما يدخل بين أجزائها.

12-قالوا تلك إذن كرة خاسرة.

تسجيل لقول آخر صدر عنهم في الدنيا سجله الملائكة في صحائفهم، ينضاف إلى القول الأول، فبالقول الأول أنكروا البعث، محيلين أن تعود الأجسام إلى الحياة الأولى بعد بلاء الجهاز العظمي.ومقالتهم هذه أطلقوها قاصدين بها الاستهزاء من الذين يؤمنون بالبعث، وممن يدعوهم إليه. يقولون أي رجوع تدعونا إلى الإيمان به؟ إنها عودة يصحبنا فيها الخسران. يقولون ذلك استهزاء بالمؤمنين بالبعث.

14/13-فإنما هي زجرة واحدة...الساهرة.

البعث الذي ينكرونه، ويستهزئون به سيتحقق لا محالة وبسرعة عجيبة. يتم بزجرة واحدة لا تتبعها أخرى.والزجر أصله الصيحة بطريقة فيها ما يحتم على المزجور أن ينبعث لما يراد منه. والمراد بها هنا الأمر التكويني ألذي يتبعه عودة الأرواح إلى أجسادها فتنبعث أحياء وتنطلق إلى المحشر.فهو أمر هين على الخلاق العظيم لا يتجاوز حسب تقدير البشر أكثر من نفخ موقظ في الصور.قال تعالى : (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون)[1] فإذا هم بالساهرة بأرض المحشر الأرض التي لا عوج فيها منبسطة لا شجر فيها ولا روابي تجمع الخلائق كلهم.يحدث هذا بسرعة كأنه أمر يفجأ الناس لسرعة حصوله.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾

[1] سورة الزمر آية 68

فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

حديث موسى : خبر موسى وتفصيل ما حدث له عند أدائه لمهمته.

الواد : المكان المنخفض بين الجبال.

المقدس : المطهر.

طوى : اسم مكان في جانب جبل الطور من سيناء.

طغى : أفرط في تكبره.

الزكاة : الزيادة في الخير النفساني. بتخليص نفسه من العقيدة الضالة.

الهداية : الدلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب.

تخشى : تخاف الله.

الآية الكبرى : المعجزة الكبرى.

أدبر : أعرض.

يسعى : يجتهد في حمل الناس على رفض دعوة موسى.

الحشر : جمع الناس.

نادى: أعلن رافعا صوته.

أخذه الله : اخضعه لقدرته مغلوبا.

نكال : إذاية عظيمة، يترتب عنها خوف من علم بها من تعرضه لمثلها.

عبرة : موعظة.

بيان المعنى الاجمالي :

الظاهر أن حديث موسى في هذه السورة هو أول ما قصه الله في القرآن من خبر موسى وفرعون. يثير القرآن بأسلوبه هذا : **هل أتاك حديث...** رسوله محمدا ﷺ وكل من يبلغه القرآن بالخطوط الكبرى لهذه القصة التي تحذر من عاقبة الرفض والعناد للحق. يتضمن حديث موسى وفرعون ما يلي :

1) أن الله كلف موسى وحمله رسالته بالوادي المطهر (طوى)

2) مضمون الرسالة : توجه إلى فرعون لأنه قد تجبر وبالغ في الاستكبار.

3) ادعه بلين وقل له :أعرض عليك الهدى لأني حريص جدا على ما ينفعك، أفتح لك الطريق الذي ينمي الخير في نفسك، وأساعدك على معرفة ربك الذي والى عليك من نعمه ما بلغت به المستوى الذي أنت عليه. إنه باستحضارك للحقيقة الإلهية في نفسك تتساق إلى الخير وتبعد عن الشر والإثم وتخشى الله.

لم يلن، وظهرت عليه أمارات الرفض.ألقى موسى عصاه فانقلبت حية نشيطة، وهي المعجزة العظمى التي أيد الله بها رسوله.فصمم فرعون على التكذيب.ثم أعلن أنه يخالف موسى، وأنه يعاكسه في كل ما جاء به.وشعر أن الأمر جد، فقطع الطريق على موسى خشية أن يؤثر في رعيته، فجمعهم وأمر المنادين أن يعلنوا فيهم: أنا فرعون ربكم الوحيد،ابن آمون رع الإله الأعلى. تصميمه على رفض الحق ومكابرته وتكذيبه للمعجزات، هيأه كل ذلك لتسليط نقمة الله عليه وتعذيبه مع جنده،عذابا كان تصوره يصرف أصحاب العقول المستقيمة عن الوقوع في مثل ما وقع فيه فرعون. أغرقه الله في الدنيا فهلك وهلك كل من كان معه، وفي الآخرة يُسَيّرْ إلى عذاب عظيم في جهنم.

إن في حديث فرعون موعظة تنفع المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم.وفيه تعريض بما سيناله المشركون من سوء العاقبة نظير ما نال فرعون.

بيان المعنى العام :

15- هل أتاك حديث موسى.

طريقة في الكلام العربي يقصد منها تشويق السامع إلى الخبر الذي يعرضه المتكلم. لا يقصد منه سؤال المخاطب هل أتاه حديث موسى، ولا ينتظر منه جوابا هل علمه من قبل أو لم يعلمه. ولكن المقصود إثارته للانتباه إلى ما في الخبر من أمر هام، و يطلب منه تتبعه بكامل العناية. والغاية من ذلك تسلية النبي ﷺ بسبب تصلب المشركين في رفضهم، فيعرض عليه من وقائع التاريخ، ومواقف العتاة من الهدى،ما يجد فيه ﷺ السلْوى ليمضي واثقا من النصر.

هل بلغك خبر موسى، الذي كان من آثاره أنه أصبح حديثا يذكر و ينقل. فتوالى التشويق لما أراد الله أن يذكر به الناس.والمخاطب في الآية رسول الله ﷺ كما يصلح أن يتوجه الخطاب لكل من يصلح له. وخاصة المتعصبون من مشركي مكة، ليكون فيما حصل لموسى وموقف فرعون منه عبرة لهم ليرتدعوا عن كفرهم، ويستمعوا إلى الحق الذي جاءهم على لسان رسول الله ﷺ بقلوب متفتحة للحق حذرة من سوء العاقبة التي صار إليها فرعون وقومه.

16-إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى.

حديث موسى ينطلق من نداء ربه له في ذلكم المكان المعين الذي يحدده القرآن، بأنه واد بين الجبال، قدسه الله مطهرا له عن منازل الدون،ومشرفا ومباركا فيه، وذلك باختيار موسى للرسالة فيه، وكلام رب العزة له مباشرة بدون واسطة ملك. وطوى اسم للبقعة التي تم فيها تكليم موسى. وهو واد في صحراء سيناء في جانب جبل الطور.

17- ذلكم النداء الذي وعاه موسى وشرّف به، مضمونه :أمر لموسى أن يذهب إلى فرعون ملك مصر بسبب طغيانه، واستهانته بالحق تكبرا وعتوا.والظاهر أن ما جاء في هذه السورة أول ما نزل في القرآن تسجيلا لحديث موسى وفرعون.

18-←19، فقل له هل لك إلى أن..فتخشى.

أرشده ربه إلى أن يلين لفرعون في القول، فيفاتحه بقوله : هل لك رغبة وميل في أن تزكي نفسك ؟ وهو ما وقع التصريح به في قوله تعالى :(فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)[1] فأنا أعرض عليك الطريق الذي به تزداد نفسك من الخير، وتطرد كل ما يبعدها عن الطهر. فمن البداية يقربه بإعلامه أنه حريص على نفعه الذي هو قصده الأساس.

وأهديك إلى ربك فتخشى... وأدلك على الطريق الذي يقربك من ربك الذي تولاك بعنايته وألطافه حتى بلغت ما بلغت. إنه بقربك منه تتعمق معرفتك له وتحل خشيته في قلبك ومشاعرك.إذا عرفت عظمته وجلاله وأنه الكمال المطلق،فإن نفسك تشمئز من الشر وتلين للخير وتكون أقرب للحق، إن الله هو الحق المبين. ويقوم من ذلك ما يجعلك تخاف عقابه، وتخشاه فتحصّن نفسك من الشر والفساد. ويكون فيها دافع من ذاتها إلى الخير والصلاح.

21/20- فأراه الآية الكبرى...وعصى.

يدل الكلام على أن موسى عليه السلام تلطف في دعوته لفرعون، وأن ذلك ما زاده إلا عتوا واستكبارا ورفضا. وعندها عرض عليه موسى أن يكشف له المعجزة الكبرى التي تظهر بما لا يدع مجالا للشك أنه مرسل من عند الله.ولتصلبه في الرفض، ولقوة عناده،أسرع بالتكذيب وعصيانه لما جاء به موسى من توحيد الله، ومن الإفراج على بني إسرائيل ليسيروا مع رسولهم.

---

[1] سورة طه اية 44

22-←24، ثم أدبر يسعى فحشر...الأعلى.

وفوق ما قابل به من الإسراع بالتكذيب والعصيان، أدبر مصمما على اتخاذ طريق معاكس تماما لما يأمره به موسى. وأخذ يدبر المكائد، وينفذها ليحول بين الناس وبين تصديقه .كان من اجتهاده لتوقيف أثر دعوته أن أرسل في مدائن مصر من يجمع الناس ليواجهوا فتنة موسى، وأن يقدموا خيرة من عندهم من مهرة السحرة.كما جاء في قوله تعالى (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين)[1] وكذلك في الآية 111 من سورة الأعراف. وبمجرد ما التأمت جموعهم أذن زبانيته بأن يرفعوا أصواتهم بما تلقوه من فرعون : أنا ربكم الأعلى. يذكرهم بعقيدتهم التي تمثل الوحدة التي عليها يجتمعون.إنه ابن [امون رع] الإله الذي يتجلى مظهره في الشمس حسبما تصوره الكهنة.وهو كبير الآلهة ورث ابنه منه هذا التميز المقبول من الكهنة ومن وجوه القوم ومن عامة الشعب.

25-←26، فأخذه الله نكال... يخشى.

تصلب فرعون في إنكاره، وكابر بعد أن أراه موسى المعجزات التي لا يأتي بها إلا رسول مؤيد بها من مرسله رب العالمين. فأخذه الله بأن سلط الله عليه عقابه، وما استطاع الإفلات منه. كان هذا العقاب شديدا جدا، فكل من يراه أو يسمع به يخشى أن يصيبه مثل ما أصاب فرعون وقومه.شمل هذا العذاب المفزع مآل فرعون في الآخرة وما جرى عليه في الدنيا. أما الآخرة فإنه سيعذب في جهنم عذابا من أشد أنواع العذاب، يُلقي في قلوب الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه ذلك المصير، فيبعثهم على تحصين أنفسهم منه، وأما في الدنيا، فقد أغرقه الله مع جنده في البحر .فقطع دابرهم ولم يبق لهم أثر، إلا أثر واحد، وهو أن ما سلط عليهم كان عبرة وموعظة لمن خشي ربه مستحضرا جلاله وقدرته وأنه لا نجاة للإنسان إلا بفضله ورحمته.

نعم هي موعظة استفاد منها المؤمنون، فقويتْ إيمانهم، وأيقظت نفوسهم يقظة زائدة للثبات على الاستقامة، والتمسك بالهدى، وفي ذلك تعريض بالمشركين الذين اتبعوا سبيل فرعون المستكبر عن الحق الطاغي.إنهم سينالون مثل ما ناله من النكال في الدنيا والآخرة.

---

[1] سورة الشعراء آية 53

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أشد خلقا : أصعب خلقا.

السمك :الرفع في الفضاء.وهو يمثل المسافة بين الطبقة الدنيا والطبقة العليا.

التسوية : التعديل وعدم التفاوت.

أغطش : أظلم.

إخراج الضحى: إبراز نوره.

الضحى : وقت وضوح نور الشمس بعد شروقها.

دحاها : بسطها.

بيان المعنى الإجمالي :

أقام القرآن الدليل القريب البين والواضح على أن بعث الأجساد بعد موتها أمر ميسور. ما بالكم تعدون ذلك أمرا صعبا وغير مقبول ؟ فهل إن بعثكم بعد الموت أصعب من خلق السماوات التي خلقها الله خلقا أحكم فيه ترابطها، ورفعها علوا إلى مسافات لا يعلم مقدراها إلا هو ؟ ووضع كل جزء في موضعه الذي يتلاءم فيه مع بقية الأجزاء.ترى أثر ذلك في تعاقب الظلمة الشديدة كل ليلة،والنور الساطع ضحى كل يوم. لا يستطيع عاقل أن ينكر أن خلق الإنسان من جديد أهون وأيسر من خلق السماوات وما قدر فيها من إحكام،آثاره المباركة واضحة.

ولتتأملوا في الأرض التي تعيشون على ظهرها،فالله سبحانه هو الذي بسطها وهيأها فجعل طبيعتها ميسرة ليعمرها الإنسان.ورغم أن طبيعتها يابسة، فقد قدر أن يختزن الماء في باطنها ويخرج منها الأنهار، وأحيل تربتها بمتنوع الأقوات للإنسان والمراعي للحيوان. ما تخرجه تنتفعون به مع الحيوانات انتفاعا غير أبدي. وثبت الأرض بالجبال الراسيات.

بيان المعنى العام:

27—29: ءأنتم اشد خلقا أم السماء بناها...وأخرج ضحاها.

كذّبوا بالبعث واستهزأوا به كما جاء في الآيات 12/11/10 يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة. وبعد أن عرض عليهم

عاقبة فرعون الطاغية ليحذرهم مصيره،انتقل القرآن ليقيم لهم الدليل على معقولية البعث، وأن شواهد قدرة الله في خلق الكون دليل حاضر مشاهد على أن بعث الأجساد يوم القيامة أهون من إنجاز النظام الذي خلق الله عليه السماء والأرض.وابتدأ بخلق السماء، ثم ثنى بخلق الأرض.

ابتدأهم بسؤال تقريري يلجئهم إلى الاعتراف بإمكان البعث وعدم استحالته فيقول لهم : أأنتم أشد خلقا،هل إن خلقكم من جديد بعد موتكم أصعب من خلق السماء الذي لا تدعون أن قدرة غير قدرة الله خلقتها. وفصل في هذا الخلق شيئا ما ليتأملوا في ذلك. أحكم التحام أجزائها بما أودع فيها من عجيب الأسرار، التي منها الجاذبية القوية والمتوازنة بين أجرامها.فهي مترابطة أشد الارتباط [بناها] ورفعها في الفضاء ارتفاعا بليغا. وراعى إحكام الصنع في كل مكون من مكوناتها فكان على مقدار ينسجم مع بقية الأجزاء،فلا تجد فيها نشازا. كان من إحكام وضع كل مكون أن جعل ليلها مظلما شديد الظلام، ثم أخرج النور الساطع الكاشف للكون وما يحويه. فلا الليل هازم للإشراق بصفة دائمة، ولا النور الساطع هازم لظلمة الليل، ولكن التقدير الحكيم جعلهما يتعاقبان في نظام لا خلل فيه.

30—33، والأرض بعد ذلك دحاها....متاعا لكم ولأنعامكم.

ثنى بما يلفت أنظارهم للتأمل في كوكب الأرض فذكر :

أولا: أنه بسط الأرض بعد إحكامه لخلق السماوات، والظاهر من الآية تأخر بسط الأرض في الزمان على بناء السماء.

ثانيا : دحاها، أي أجرى نظامها على كيفية تكون الحياة فيها ميسرة، وبالتالي مسخرة ليعمرها الإنسان. وتفسير الدحي بالبسط هو ما عليه معظم المفسرين، وقدمه في معنى الدحو القاموس وشرحه.وفسره الراغب بالإزالة، فقال : أي أزالها عن مقرها، وأيده بتصرفات في علاقة الدحو بالمطر والفرس وربطه بأدحي النعام مبيضه. وفي تاج العروس أيضا، دحا الحجر بيده رمى به ودفعه[1] فيكون المعنى حسب تفسير الراغب وما ذكره الزبيدي تحقيقا لكلمة [بعد] أي انفصلت الأرض عن خلق السماء واستقلت بقوانينها في زمن متراخ عن بنائها. وهذا من الإعجاز القرآني الذي يعبر عن المعنى بطريقة لا يقف عندها الناظر متحيرا في مدلولهابل يفهمها على المستوى المعرفي الذي بلغته البشرية، ثم إذا تقدمت المعرفة وكشفت عما كان مجهولا من قبل، وجد في التعبير القرآني ما ينسجم مع الحقيقة. وأقرب

[1] تاج العروس ج38 ص38

الفرضيات اليوم أن كوكب الأرض انفصل عن السماء، وأجرى الله عليه من التطورات ما مهده لإيواء البشر والحيوان.

ثالثا: أنه سبحانه قدر فأحسن التقدير، إذ أخرج من الأرض اليابسة بطبيعتها الماء الذي جعل منه كل شيء حي، وأحيلها بما يقتاته الإنسان منها مباشرة كالحبوب والثمار، وبما ترعاه الحيوانات والأنعام التي تساعده على عمارتها من ناحية، والتي يجد منها الغذاء المكمل للحبوب من ناحية أخرى.

وخلق فيها الجبال تحفظ توازنها، و تؤثر في مجاري السحب والرياح.مراعيا سبحانه في قوانين خلق الأرض، وفي الجبال الراسية ما يحقق نفعكم الضامن لحياتكم الفانية لا الأبدية.

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطامة : الداهية التي تعلو على جميع الدواهي.

ما سعى : ما عمله.

برزت : أظهرت فانكشفت.

الإيثار : تفضيل شيء على أخر عندما لا يتيسر الجمع.

الحياة الدنيا :ملاذها المنافية لحظوظ الآخرة.

مقام ربه : جلاله ومهابته.

بيان المعنى الإجمالي:

إنه عندما تحل الداهية التي تفوق في هولها جميع الدواهي، عندما تقوم الساعة ويبعث البشر إلى المحشر.في ذلكم اليوم يعيد الله للإنسان ذاكرته فيستحضر كل عمل قام به.ويعظم الهول عندما تنكشف جهنم لكل من يتصور منه الرؤية.

إنه في هذا اليوم يفترق البشر إلى فرقتين :

الفرقة الأولى التي كانت سمتها الغالبة هي الطغيان وتجاوز حدود الله والاستكبار عن طاعته. وتفضيل شهوات النفس ومتاع الحياة الدنيا المحدود والزائل على ما

وعد الله به عباده المتقين. الذين قطعوا تعلقهم بما عند الله فحق عليهم العذاب في جهنم لتكون هي منزلهم الذي لا يبرحونه.

والفرقة الثانية التي كانت سمتها الغالبة الخوف من الله واستحضار جلاله، فربطت ميولها بما يرضيه، وقمعت شهوات النفس وعاكست الهوى.إن مآلهم سكنى الجنة السكنى الأبدية.

بيان المعنى العام :

34←36، فإذا جاءت الطامة..... الجحيم لمن يرى.

تقدمت الإشارة في الآية السابقة إلى أن ما تخرجه الأرض للناس والأنعام متاع فان محدود أجله. ذلكم الأجل هو يوم تجيء الطامة. الواقعة الداهية التي تعلو على كل الدواهي، وهي وصف ليوم القيامة. وجسم حصولها بالتعبير عن ذلك بالمجيء، كأنه سائر واصل مسيره إلى أن بلغ الغاية المضبوطة مقدما.ومن بلاغة القرآن التعبير "بالطامة" التي يتساوق فيه الجرس اللفظي و المعنى ليطبع في النفس الهول الكبير.

إنه اليوم الذي يعيد فيه المولى سبحانه إلى الإنسان ما سجلته ذاكرته في حياته من الأعمال التي قام بها.فإذا هي حاضرة تتمثل له كأنها واقعة اليوم. قال تعالى :(يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه)[1]

وبرزت الجحيم – كانت جهنم محجوبة عن الأنظار نوقن بها تبعا للوحي الصادق. أما في يوم القيامة فإنه بإثر ما ينكشف لكل إنسان عمله، ويجده حاضرا مشاهدا، فإنه يرفع الحجاب الساتر لها وتبدو ظاهرة منكشفة لكل من تتأتى من الرؤية.

37←39، فأما من طغى وآثر....المأوى.

وصل القرآن في بيانه إلى مجيء القيامة.والآخرة هي الموعد الذي ينقسم فيه الناس إلى شقي وسعيد.ففصل ذلك بتسجيل الجزاء وأسبابه الكبرى :

أولا : من طغى فتجاوز حده مستكبرا عن قبول الحق، لفساد اختياره بين دواعي طاعة شهواته وملاذه العاجلة وبين الحق والطاعة لله، هذا الاختيار الذي جعله يفضل ما تزينه له نفسه وتحثه عليه من تعجيل المتعة،على ما يدعوه إليه الدين من تقديم مراعاة الآخرة على الحظوظ العاجلة، والاستقامة على نهجه الصالح فيما يقبل عليه أو يدعه. هؤلاء الذين تعلقوا بمتاع الحياة الدنيا وحدها هم الذين يقال لهم، يوم القيامة: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب

---

[1] سورة المجادلة آية 6

الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)[1] فإن الجحيم:جهنم هي مأواهم الذي ينتهون إليه ولا يبرحونه، كما ينتهي كل ساع إلى منزله الذي يقيم فيه.

39←41، وأما من خاف مقام ربه...فإن الجنة هي المأوى.

ثانيا : القسم الثاني من البشر يوم القيامة هم المؤمنون عرفهم القرآن، بميزتهم التي تصحبهم في الدنيا، فتطبع سلوكهم وتؤثر في اختياراتهم، فيما يقدمون عليه أو فيما يتركونه ويبتعدون عنه. تلكم الميزة هي الخوف من جلال الله وعظمته، يخشون أن يراهم حيث نهاهم أو يفقدهم حيث طلب منهم أن يحضروا. كلما قام داعي الهوى والشهوة قمعه حذرهم من المعصية.استحق هؤلاء أن تكون الجنة سكناهم الدائمة.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الساعة : يوم القيامة : الطامة الكبرى.

أيان مرساها: متى يكون حلولها ؟

الذكرى : الذكر اللساني.

منتهاها : علم وقت حصولها.

بيان المعنى الإجمالي :

لما ذكر القرآن أهوال الطامة الكبرى ثار سؤال في نفس المشركين، و تكرر ذلك منهم، متى تقوم الساعة استبعادا لها تبعا لتأخر حصولها. فكان الجواب على غير ما يترقبون. إن محمدا كلف من قبلنا بحمل الرسالة فهو يبلغكم ما يصلح شأنكم مما يصله من وحينا، ووقت الساعة ليس مما أعلم به، فهو ليس في شيء من ذكر وقتها. فإن علم وقت حلولها عند ربك وحده.وما كلفت إلا بإنذار البشر أهوالها لينتفع من نذارتك من يخشاها ويمضي غيرهم على عماهم.إن إحساسهم عند حلول يوم القيامة هو أنهم يظنون أنهم ما لبثوا في الحياة الدنيا وفي قبورهم إلا وقت قصير لا يبلغ يوما كاملا عشية أوضحاها.

بيان المعنى العام :

[1] سورة الأحقاف آية 20

42-يسألونك عن الساعة أيان مرساها.

ما ذكر في الآيات السابقة أثار المشركين فسألوا مستهزئين مستبعدين أن يأتي يوم القيامة. وكان سؤالهم :هذا التي تصفه يا محمد من الطامة الكبرى وما تبعه متى يحل؟مثلوه بسفينة قادمة في عرض البحر متى ترسو بجانب البر وتستكمل رحلتها. وقد تكرر منهم السؤال عن موعد الساعة موهمين أنفسهم، وأشياعهم بأن تأخر حلولها أمارة نفيها.

43- فيم أنت من ذكراها.

إنك مرسل من قبلنا لا تصل إلا إلى علم ما أردنا أن تعلمه وما لم تتعلق إرادتنا بتعريفك إياه فأنت بعيد عن ضبطه وتحديده. والساعة من المغيبات التي يجب الإيمان بها في الحدود التي كشف عنها القرآن، والوقوف عما وراء ذلك. فأنت يا محمد لست في شيء من معرفتها. فسؤالهم لك عن ميقاتها هو من تلددهم ومحاولاتهم صرف أفكارهم وأفكار أتباعهم عن التهيؤ لها بإصلاح عقيدتهم وسلوكهم. فما أنت من ذكر وقتها لهم في شيء.

44- إلى ربك منتهاها.

علم وقت حصولها [منتهاها] مما اختص بعلمه ربك الذي تولاك بعنايته، ومن ذلك أنه يطلعك على ما يفتح لك سبيل الهداية والخير .وعلم وقت مجيئها لا يترتب عليه صلاح فردي ولا اجتماعي.لأن التكليف لا يتحقق إلا مع جهل تاريخ حلولها.

45- إنما أنت منذر من يخشاها.

مسؤوليتك منحصرة في إيقاظ الناس من غفلاتهم بإنذارهم أن الساعة حق، وأن كل فرد يلقى جزاءه يوم القيامة.فأنت تنذر قدومها ليستجيب لإنذارك من يخشى العاقبة، ويُعدُّ نفسه لذلك اليوم العظيم.

46- كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها.

استبطأ المشركون قدوم يوم البعث واتخذوا ذلك مبررا لإنكاره. فشبه لهم قرب حلول يوم القيامة بما يحسونه في ذلك اليوم من أنفسهم.أن الزمن الذي قضوه في الحياة وبعد الموت إلى البعث يختصر في نظرهم، فيظنون أنهم ما لبثوا في الحياة وفي الموت، إلا أقل من يوم: عشية يوم أو ضحى تلك العشية.

وهذه السورة آخر سورة من طوال المفصل التي مبدؤها سورة الحجرات.

20شوال 1435 الموافق لـ 2014/8/17-

سورة عبس

بهذا الاسم[سورة عبس] عرفت في المصاحف وفي كتب التفسير وفي كتب السنة. أخذ اسمها من الآية الأولى. هي سورة مكية.رتبتها حسب ترتيب المصحف الثمانون وحسب ترتيب النزول الرابعة والعشرون نزلت بعد سورة النجم وقبل سورة القدر. ولما كانت سورة النازعات آخر سورة من طوال المفصل، فإن هذه السورة هي أول سورة من أواسط المفصل.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

عبس : قطب وجهه معبرا عن إنكار لما يحدث.

تولى : أعرض عن السائل.

يزكى : يتطهر من الجهل.

الأعمى : ابن أم مكتوم.

استغنى : حسب نفسه غنيا عن هديك.

تصدى : أصله تتصدى تقبل عليه إقبالا مبالغا فيه.

تلهى: تتشاغل.

مرفوعة : رفيعة المقدار.

سفرة : جمع سفير المرسل في أمر مهم : الملائكة.

بررة : جمع بر، وهو الجامع للخير والصلاح.

بيان المعنى الاجمالي :

تفتح السورة تسجيل فعلين متواليين : عبس وتولى. وبالتعجيل بذكر سبب ذلك، وهو مجيء الأعمى الذي كان الأولى أن يكون عماه مرجحا للإقبال عليه لا التعبيس والتولي.وفاعل ذلك هو النبي ﷺ فعتب عليه ربه وقال له : أعرضت عنه. وما يدريك، إنك لا تعلم ما سيترتب على عنايتك به، المرجو منه أن يحقق نجاحك في مهمتك. سيتأثر بعنايتك ويزداد طهرا، ويتمكن بهداك تمكنا قويا في الذين ينتقش في نفسه ولا ينساه.

أما من كان مستغنيا عنك وعما جئت به، مصمما على الكفر، فأنت مقبل على وعظه راغبا أشد الرغبة في التأثير عليه، مع قوة إعراضه. مع أنك لم تكلف بحمله قسرا على الاهتداء وتطهير نفسه من الشرك ومن العقائد الضالة التي رسخت في نفسه وتمكنت من روحه.وأما من أقبل عليك تاركا وراءه الدنيا متعلقا أشد التعلق بمعرفة ما أنزله الله عليك من الهدى، وقد رزق قلبا متعلقا بالله يستحضر جلاله في كل آن ويخاف عذابه وسخطه، فإنك تتشاغل عنه ولا توليه ما يستحقه من الاهتمام. كانت هذه الآيات فيها عتب على رسول الله لما أعرض عن ابن أم مكتوم الرجل الصالح الأعمى لما جاءه يطلب منه أن يستنير من الهدى الذي تعلق به قلبه، واعتنى بصناديد قريش العناية الكبرى مع أنهم ما كانوا مستعدين لقبول وعظه. وما كلفه ربه أن يبالغ إلى ذلك الحد في العناية بهم. يتحتم أن لا تتكرر مثل هذه الحادثة.وهي تذكرة ترشد الرسول والمؤمنين إلى أن العناية بالمفقود لا يقبل بحال من الأحوال أن تُهمل الموجود. وليس هذا الإرشاد والتذكير يحمل أحدا قسرا على رعايته.بل من تعلقت إرادته بالخير والكمال فليتبعه، ومن أبى تحمل نتيجة اختياره. وهذه التذكرة مثبتة أزلا في كتاب الله.موثقة في صحف، حقيقتها من الغيب. أثنى الله عليها بأنها بالغة غاية الكمال والسمو، منزهة عن كل نقص.يحمل منها الملائكة الموكلون بإبلاغ ما يؤمرون بتبليغه منها. فهم سفرة بين ما هو مثبت في اللوح المحفوظ وبين المقصود إبلاغهم من البشر المرسلين للهداية. أولئك الملائكة الذين هم على أعلى مستوى من الطاعة لله.

بيان المعنى العام :

1←2، عبس وتولى أن جاءه الأعمى.

افتتحت السورة بذكر فعلين متواليين، ولم يذكر معاد الضمير المقدر المعين للفاعل.أما العبوس فهو تقطيب الوجه الذي يلاحظ على وجه من يضيق بالوضع

الذي هو فيه. وأما التولي فهو الإعراض عن المخاطب ويتعين الفاعل في الآية (6) فأنت له تصدى. أنه رسول الله ﷺ. فيكون الكلام في قوة عبست وأعرضت.لأن جاءك الأعمى.فمن هو الأعمى ؟ الأعمى اسمه عمرو، وقيل كان اسمه الحصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله وهو قرشي عامري من السابقين للإسلام، وأمه عاتكة كنيت بولدها هذا لأن ابنها ولد أعمى ويطلق على من ولد أعمى " مكتوم" وربط اسمه بها لأنها كانت مخزومية، ومكانة أسرتها في قريش مكانة رفيعة.

يوضح سبب نزول الآية ما رواه مالك ﷺ في الموطأ مرسلا بسنده إلى هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه ﷺ أنه قال: (نزلت (عبس وتولى) في عبد الله بن أم مكتوم.جاء إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا محمد استدنني،وعند النبيء ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول : (يا أبا فلان هل ترى فيما أقول بأسا) فيقول: لا والدماء ما أرى بما تقول بأسا، فأنزلت عبس وتولى.[1]

وذكر الواحدي: (أن النبي ﷺ كان يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل، والعباس بن عبد المطلب،وأبي بن خلف، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، والنبي ﷺ مقبل على الوليد، يعرض عليهم الإسلام).

والذي يستخلص مما نقل : أن النبي ﷺ كان مشغولا بعرض الإسلام على صناديد قريش المُؤثرين فيهم لرفيع مكانتهم الاجتماعية، وهو صلى الله عليه وسلم يرجو أن يشرح الله صدورهم للإيمان فيتأثر بهم أتباعهم، وينتشر الإسلام بقوة في مكة لكثرة أتباعهم. وبينما كان مقبلا أشد الإقبال على مهمته تلك قدم رجل أعمى هو عبد الله بن أم مكتوم، أحد صالحي المؤمنين.وكان حريصا على معرفة أحكام الدين الذي شرح له صدره فطلب من رسول الله أن يدني مجلسه منه وأن يسمع لما يريد أن يعرضه عليه، وأن يتولى إرشاده.ولما كان أعمى فإنه لم يعلم تشاغل النبي ﷺ بمن كان بحضرته. وكان النبي ﷺ أشد حرصا على إقناعهم، ومقاطعة ابن أم مكتوم، وإلحاحه ليُعنى به في ذلك الظرف أحرج النبي ﷺ ، فظهرت آثار عدم رضاه عن تلكم المقاطعة وتقطب وجهه الشريف، وأعرض عن ابن أم مكتوم وواصل الاشتغال بقادة قريش الكفرة. وفي ذكر ابن أم مكتوم بصفته من العمى، مؤكد للعتب الذي توجه به القرآن للرسول ﷺ.فعمى الرجل داع آخر للعناية به.

[1] الموطأ ح543 ج1ص280/279

4/3- وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى.

أعرضت عنه مع أنك لا تعلم ما يترتب على عنايتك به من الصلاح." أي شيء يعلمك ما يتحقق من عنايتك به" إنه يرجى أن ينتفع بإرشادك فتزداد نفسه طهرا وحبا في الخير، وبعدا عن الشر والرذيلة" لعله يزكى" أو يتحرك ما علمه سابقا وخفت شعاعه في نفسه، فيرتفع إلى مستوى الوضوح والتأثير فيكون حاضرا في نفسه متجددا يقوم سلوكه، ويوضح تصوراته.ويمكن للهدى في روحه أكمل تمكين.

6/5- وأما من استغنى فأنت له تصدى..

عاتب الله نبيه أولا لإعراضه عن المؤمن الأعمى المقبل عليه بإخلاص حرصا منه على تعميق معرفته بالإسلام.كما عاتبه ثانيا لإقباله إقبالا شديدا على الذي كان يحاوره[فأنت له تصدى]، والحال أنه كان مصمما على أنه مستغن عن الإسلام وعن بيان رسول الله ﷺ. فالمراد استغنى "حسب نفسه غير محتاج لما معك من الهدى" وليس المراد عد نفسه غنيا بالمال.فثروة المخاطب ما كان لها وزن مؤثر في شدة إقبال النبي ﷺعلى الوليد بن المغيرة. ونذكرك بأنك لا تتحمل أي مؤاخذة عن تقصير، إذا كان هذا الذي أقبلت عليه شديد الإقبال واعتنيت به عظيم العناية، مصمما على الكفر لا تسمو نفسه لتتطهر من الشرك والإثم.

9/8- وأما من جاءك يسعى وهو يخشى.

هذا هو النموذج الرفيع عبد الله بن أم مكتوم، المقابل للوليد بن المغيرة الذي بالغ النبي ﷺ في الإقبال عليه، والاعتناء به، بالرغم من أن الله ما كلف رسوله أن يبالغ في العناية به إلى ذلك الحد الذي تشاغل به عن ابن أم مكتوم، الذي فصل ملامحه فيما يأتي :

أولا: إنه أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مشوقا للقياه حريصا على الإفادة من معين الوحي، فليس السعي في قوله تعالى: "يسعى" حركة الرجلين.ولكنه تسجيم لعظيم اهتمام ابن أم مكتوم بتلقي تفاصيل الدين التي رغب في معرفتها.

ثانيا: شهد الله فيه أنه يخشى الله، بما تنبني عليه الخشية من معرفة بمقام الرب سبحانه، واستحضار الذات الإلهية مصاحبة له مطلعة عليه، محصية لكل عمل يأتي به. وهو ما يدل على عمق علمه بالله قال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء[1]) وهو ما يفسر استخلاف النبي ﷺ له أكثر من مرة على المدينة عند

---

[1] سورة فاطر آية 28

خروجه للغزو. وقال سفيان الثوري :(فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم قال : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي عز وجل، وبسط له رداءه)[1] .

10-فأنت عنه تلهى.

فأنت يا محمد تتشاغل عنه، ولا تسارع بإرواء لهفته للهدى. وإنك لتجد في تسجيل هذا العتب قرآنا متلوا أبد الدهر صورة من الصور التي تؤكد اليقين أن النبي صلى الله عليه وسلم أمين على الوحي لا يزيد فيه ولا ينقص منه. يبلغ ما جاءه وإن كان تضمن عتبا عليه.كما جاء في قوله تعالى : (عفا الله عنك لم أذنت لهم)[2] وقوله تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) [3]

11←12، كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره.

افتتحت الآية بكلمة "كلا" الدالة على إبطال ما تقدمها.وهو الموقف من ابن أم مكتوم،ومن المصممين على الكفر. فينبغي أن لا تتكرر تلكم الصورة، ليكون الاهتمام بمن صدقوا في إيمانهم أعظم ممن لم يؤمنوا وظهر تصلبهم في الكفر.

إنها تذكرة فمن شاء ذكره- ما سجله القرآن في هذه الحادثة، وما وجه إليه نبيه وكل من يؤمن بالقرآن، ويلتزم بهداه،هي تذكرة للبشر ليتعظوا بها. وليكون موقفهم دائما تقديم الحاصل المحقق على المشكوك فيه أو البعيد الحصول. وأنها ليست ملاما ولا تعدو أن تكون عتبا رفيقا يفيد المؤمنين.وهي تجامع ما عمر به القرآن من الوعظ والأحكام والإرشاد، لا تقسر أحدا على اتباعها، ولا تهين الإنسان فتجعله مجبرا حتى على الخير،إذ أن قيمة الإنسان تكمن في كونه مختارا مسؤولا عن اختياره. فمن شاء أن يستفيد من هذا الذكر الذي جاء به الوحي فليذكره، ويتبعه، ومن أبى ذلك فهو غير مجبر ويتحمل مسؤولية اختياره. فالذكر بضم الذال هو ذكر القلب الذي مفاده تطبيق الأوامر والابتعاد عن المناهي.

13←16، في صحف مكرمة....بررة.

الذي فهمته من هذه الآية وإن لم أجد من سبقني إليه لأستأنس برأيه، أن القرآن الذي سجل هذه القضية وعالجها، وأبقى الإرشاد الوارد فيها قرآنا يتلى، لم يكن ذلك حادثا إثر العبوس والتولي، ولكنه كان مثبتا في علم الله، ومثبتا في القرآن منذ الأزل "إنها تذكرة في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة "

---

[1] المحرر الوجيز ج15ص315

[2] سورة التوبة آية 33

[3] سورة الأنفال آية67

فالصحف التي وردت في الآية لا تعني قراطيس ولا ما سجل فيه القرآن من الجلود وغيرها، ولكنها صحف غيبية تليق بالتصور الأزلي لما ثبت الله فيه القرآن.وهي التي يتلقى منها الملك الموكل بالوحي جبريل ﷺ الوحي الذي يتلقاه ويبلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم.ثم واصل الثناء على هذه الصحف بأن الله كرمها، إذ هي كلامه الأزلي، وهل يبلغ أي شيء من الكرامة ما يقارب ما يتعلق بالذات الإلهية.إنه الفرق بين الكامل وبين الناقص.فكل ما يتعلق بالله من أخص مميزاته الكمال المطلق. وكل ما سواه يلحقه النقص الذي يقعد به عن الكمال على نسب متفاوتة. [مرفوعة] هو الرفع المعنوي في العالم العلوي[مطهرة] شأن هذه التذكرة كشأن بقية الكلام الإلهي أنه مطهر مقدس ومبارك.لا يصل إليه الإنس ولا الجن وإنما أوكل الله من شاء من ملائكته بالاطلاع على ما شاء أن يطلعهم عليه، ليكونوا سفرة مرسلين في ما هو مهم من الأمور ليتولّوا إبلاغه .وأثنى عليهم بأنهم كرام اختصوا بمزايا سمت بهم إلى المستوى الأرفع والأكمل بالنسبة للمخلوقات جميعا. وشهد الله فيهم أخيرا بأنهم بررة جمع "بر" أي المطيعون لله طاعة موصولة دائمة. إن الله لم يمكن من الاطلاع المباشر على شيء من كلامه القديم إلا بعض الملائكة الذين فصل مزاياهم وخصائصهم في الطهر والطاعة،حسبما هو مذكور في الآية.

قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۞ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۞ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۞

بيان معاني الألفاظ :

نطفة : الماء القليل : الخلية الأولى التي هي مبدأ حياة الإنسان.

قدره : أحكم خلقه.

السبيل : الطريق أي ما ينجزه الإنسان من الأعمال.

أقبره : جعله مقبورا.

أنشره : أصله أخرج الثوب وأزال طيه. والمعنى بعثه من الأرض بعد موته.

القضاء : فعل ما يجب على الإنسان كاملا.

بيان المعنى الإجمالي

دعاء على الإنسان الكافر يقصد منه هوانه واحتقاره وأنه جدير بأن يعدم من الوجود. عجب له ما أشد كفره !كفر بالله الخالق وكفر برسوله وكفر بالبعث مدعيا استحالته.ما له لم ينظر

في أصل خلقته؟ فقد خلقه الله من نطفة رطبة وصغيرة جدا لا ترى بالعين المجردة. وقدر فيها جميع الخصائص التي ستظهر حتما،ظاهرة التكامل بينها واضحة، ثم والى ألطافه به فيسر له العيش مستقلا على سطح الأرض ورزقه المواهب التي بها يؤثر في الكون.كما قدر أن ينتهي المسار إلى الموت، وجعل نهايته القبر الذي يضم جسمه.إلى الوقت المحدد الذي تتعلق فيه الإرادة الإلهية ببعثه للنشور والحساب والجزاء.

ويردع القرآن الكافر المتصلب في كفره عن إعراضه عن التدبر في آيات الكون وعن شكر الله على ألطافه به. ومنشأ ذلك أنه واصل عدم الاستجابة لما أمره به ربه من التدبر في كتاب الكون، وفي كتابه المنزل.

بيان المعنى العام :

17- قتل الإنسان ما أكفره.

قتل، دعاء عليه بأن يقتل وينتهي من الوجود. وهذا الكلام صادر من الله. والله بيده الأمر، فهو يُدْعى ولا يَدْعُو.فيكون الدعاء خارجا عن معناه الأصلي، يقصد منه التعبير عن تفاهة الإنسان المتصلب في الكفر وتحقيره وتهديده ، وأن ما هو جدير به أن يمحى من الوجود. والإنسان وإن كان اسم جنس يعم كل فرد من أفراد الإنسان، إلا أن السياق يقتضي أنه يستغرق أفراد جنس الإنسان العنيد المتمرد. قال مجاهد كل ما كان في القرآن "قتل الإنسان" فإنما عني به الكافر. وهؤلاء هم أكثر الناس قال تعالى: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[1]. وقوله تعالى : ما أكفره. تحتمل أن يراد بها التعجب من كفره مع ما مكنه الله منه من الأدلة الهادية للعقيدة السليمة. وإنه لكفر شديد: كفر بالله الخالق، وكفر برسوله، وكفر بيوم البعث. كُفْرٌ أدى بأصحابه إلى اتخاذ آلهة بدائل عن الحق سبحانه.كما يمكن أن تفهم على أنها استفهام إنكاري.أي شيء برر للإنسان الكفر حتى يتصلب فيه ؟ بمعنى لا يوجد أي شيء.

18- من أي شيء خلقه.

هذا سؤال لا يقصد منه انتظار الجواب عنه. ولكنه إثارة للذهن الغافل حتى يستيقظ فيرفع عن عقله غشاوة إنكار البعث بدون موجب.

19←22- من نطفة خلقه....أنشره.

يعرض القرآن في هذه الآيات تصرف الله في الإنسان ومراحل ذلك. ولا يستطيع أي عاقل إنكار فعل الله فيه.

---

[1] سورة يوسف آية 103

- بدايته كانت من نطفة ضعيفة صغيرة رطبة. وهي على صغرها،كشف العلم أنها تحتوي على الخصائص الذاتية لكل فرد. مما يدل على الحكمة البالغة والقدرة النافذة. وما كان للإنسان اختيار في تكونه الأول. وإنما هي إرادة الخلاق الواحد.
- وقدره تقديرا دقيقا. فمن أول يوم أودع في النطفة "الجينوم" الذي سجل فيه الصفة التي تكون عليها كل جزئية من جزئيات الكائن البشري، والتكامل بينها.
- وبعد ذلك أحاطه بألطافه شيئا فشيئا. فيسر له الحياة على وجه الأرض، وغرس فيه العقل والعواطف والمشاعر التي تهديه لإنجاز الأعمال التي يرغب في إنجازها، ويسأل عنها. وتستمر حياته فاعلا في الكون إلى الأجل الذي حدد له مقدما.
- فإذا جاء أجله، عطل سبحانه جميع القوى الفاعلة، وحل الموت.فمن مات قبل نزول الآية تشمله الآية، ومن سيموت في المستقبل تشمله الآية أيضا، إذ كل نفس ذائقة الموت.
- فأقبره. فأكرمه بأن هدى الناس وأوجب عليهم أن يدفنوا موتاهم في قبور، فلا يرمون بها كما تلقى الفضلات، ولا يحرقونها بالنار، ولا يخزنونها في صناديق. من الصور التي انحرف فيها بعض الشعوب عن هدي الله.
- ثم إذا شاء أنشره. كل تلكم المراحل تنتهي إلى أنه تحت سلطان خالقه، فهو ينشره ويخرجه حيا في الوقت الذي تتعلق بذلك مشيئته. فاستبطاء المشركين ليوم البعث، هو من قصورهم الفكري.إذ ليس البعث موكولا لاختيارهم، وإنما هو بيد الذي خلقهم وتصرف فيهم.وما كان لهم أي دخل في مراحل وجودهم، فلا يكون لهم أي دخل في وقت بعثهم.

23- كلا لما يقض ما أمره.

الآيات السابقة 17-18-19-20-21-22-تضمنت تعجيبا من تصلب الكافر رغم ما يقوم قريبا منه من الأدلة الجامعة بين مظاهر القدرة العظيمة، والحكمة البالغة، وبين الألطاف في إقباره.والنتيجة الحتمية أنه ينشئه متى شاء.ولكن الإنسان أعرض عن كل ذلك واستولى عليه التقليد، فافتتحت الآية بكلمة " كلا" الدالة على زجره عن منهجه الذي سار عليه فانغلق فكره على الموروث عن الآباء وإن كانوا لا يعقلون.إنه لم يفتح له شعاع النور الذي يبصره. لأنه لم يقم بما أمره الله من النظر في الكون وتقلباته التي تنبئه كل يوم أن وراء التصرفات في الكون إله واحد عالم قادر حكيم.وكلمة " لما " تفيد تواصل النفي إلى ما بعدها. فتم اختيارها هنا لإفادة تواصل عدم التدبر في الكون الذي كل مظهر من مظاهر تقلباته يهدي المتأمل إلى الإيمان بالله وبالبعث والنشور.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

صببنا : أنزلنا الماء من السماء.

الشق : فصل الملتحم.

القضب : النبات الذي يحصد لعلف الدواب، ثم يخلف إذا توالى سقيه.

غلبا : غليظة.

فاكهة : الثمار التي تؤكل للتفكه كالفستق واللوز والرمان.

الأب : الكلأ الذي ترعاه الأنعام.

متاع : ما ينتفع به زمنا ثم ينقطع.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقظ القرآن الإنسان المتصلب في كفره ليتأمل في الطعام الذي هو في حاجة إليه كل يوم. ليتابع الأطوار التي مر بها. تبدأ أطواره بصب الماء من السماء بمقدار يكفي البشر، فتختزنه الأرض في أديمها الظاهر وفي باطنها. ثم في جعل طبيعة الأرض قابلة ليشقها الماء، وليحرثها الإنسان بما ألهمه من آلات الحرث. وليزرعها بالحبوب ويغرس فيها فسائل الأشجار .فأنبت في الأرض متنوع الحبوب والعنب والنبات الرطب الذي يحصد فيخلف مما يأكله الناس والأنعام، والزيتون والنخل وكلاهما مبارك كثيرة منافعه. ونمّى الحدائق المتنوعة الأشجار والثمار. فمنها ما هو قوت ومنها ما هو فاكهة يتلذذ الإنسان بمذاقها وحسن طعمها. وأنبت الكلأ الذي ترعاه الأنعام فيتحول بتقديره سبحانه إلى اللحوم والألبان.

كل ما ذكرنا هو متاع تنتفعون به إلى أجل أنتم وأنعامكم.فتأملوا فيما رزقناكم تجدوا فيه حجة قوية على إمكان البعث، وميدانا لتتعظوا وتشكروا.

بيان المعنى العام :

24-فلينظر الإنسان إلى طعامه.

قُرّع الإنسان الكافر في الآية السابقة وردع، لأنه لم يطبق ما أمر به من العمل بما هداه إليه في كتابه.ووجهه في هذه الآية إلى التأمل في أمر تتجدد حاجته إليه كل يوم، وعامل الرتابة يغطي على ما فيه من عبر، وإن مجال النظر فيه لفسيح.وهو

الطعام الذي يشعر بالحاجة إليه احتياجا متكررا في فترات من كل يوم.ويقبل عليه بدافع فطري قوي.

24—31- إنا صببنا الماء صبا...وفاكهة وأبا.

التأمل في الطعام، هو تأمل في المراحل التي مر بها حتى أصبح ملبيا لحاجات الإنسان في التغذي، ليعوض ما احترق من طاقاته بالعمل الفكري، أو العضلي، أو نشاط أجهزته المختلفة.

يبدأ التقدير الإلهي المحكم من إنزال الماء من السماء الذي تختزنه الأرض في تربتها أو في باطنها.صبه صبا كافيا لتلبية حاجات الإنسان لتكوين قوته. وقدر أن تكون الأرض رخوة غير صلبة، قابلة لاختزانه فيشقها نافذا في مسالكها.وألهم الإنسان صنع الآلات الفلاحية التي يشق بها الأرض ليطوّعها لقبول الماء من ناحية، وليزرع فيها الحب والفسائل.

ثم قدرنا بحكمتنا أن نلائم بين الماء والتراب ملاءمة أنبتنا به الزروع المنتجة لمتنوع الحبوب من قمح وشعير وقطاني ونحوها. وأنبتنا به العنب يؤكل ويدخر زبيبا.وتبانا يقطع أعلاه ثم يسقى فيخلف مما يدخل في طعام الإنسان أو تتغذى به الأنعام، و لحومها وألبانها تدخل في طعام الإنسان. ويفصل الكلام في معرض الامتنان فيضيف لما ينبته سبحانه من إرواء الأرض المشقوقة بالماء، فيذكر الزيتون الشجرة المباركة التي يدخل زيتها في الأطعمة مغذيا ومصلحا.والنخل الذي تنوع ما ينتجه من البلح والرطب والتمر، والجمار، ويشربون نسغها الحلو اللذيذ الذي يحتلب من أعاليها.كما أنبت متنوع الأشجار المثمرة في حدائق قوية أشجارها غليظة أصولها. في ثمارها قدر غير قليل من الرواء ومن اللذة.وأنبتنا في الأرض وفي تلك الحدائق متنوع الفواكه الخارجة عن القوت الأصلي،التي يتنعم الإنسان بلذيذ طعمها وحسن مذاقها،مثل اللوز والفستق والكمثرى والتين والرمان.

وكذلك الأب. وهو ما تقصده الأنعام لرعيه، فتدخل في تكوينها ويعطي للإنسان لبنا سائغا شرابه، ولحوما تُصلح بنيته.روي أن أبابكر الصديق ﷺ سئل عن الأب ما هو؟ فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به. وروي قريب منه عن عمر بن الخطاب ﷺ . وأرشد عمر المؤمنين إلى أن الاهتمام بما يدخل في العمل هو الأجدر بهم، وأن يتوقفوا عن التنقير عما لا يترتب عنه عمل.على معنى أنه ما ورد في الآية يستفيد منه التالي التيقظ لما مكن الله منه الإنسان من نعم ليشكره، ولا يزيد الغرض المقصود معرفة الأب على التدقيق أو جهله.

32- متاعا لكم ولأنعامكم.

كل ما ذكر تجدون بالتأمل فيه ظاهرة فضل الله عليكم، وعلى أنعامكم. ويرجع كل نوع من أنواع ما ذكر إما إلى الإنسان أو إلى الحيوان حسب ما يناسب كل نوع.
وفي تتبع التحولات التي انبثقت من إحياء الأرض بالماء، ثم إنبات ما يغذي الإنسان والحيوان، وما يدخل في كيانهما تعويضا عن الطاقات المحترقة الذاهبة لتتواصل الحياة، في ذلك دليل على إمكان البعث، الذي هو عودة الناس إلى الحياة بعد الموت،كما تحول الماء والتراب إلى عناصر حية في الإنسان والحيوان بعد أن احترقت تلكم الطاقات.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الصاخة : الصيحة العظيمة التي ترتج لها الأسماع، يوم القيامة.
الفرار : الهروب من مخيف.
الإغناء : جعل الغير غنيا غير محتاج.
مسفرة : متهللة فرحة.
غبرة : غبار.
ترهقها : تعلوها.
ترهقها : تغشيها
قترة : ظلمة وسواد.

بيان المعنى الإجمالي :

الكون كله بما يحويه سينتهي أمد وجوده، ثم يبعث الله الخلق يوم تنفجر السماوات والأرض ويحدث عن الانفجار أصوات عنيفة مرعبة. عبر عنها بالصاخة، وهي يوم القيامة. وعرف يوم القيامة بخصائصه التي تجعل الإنسان على حذر مما يلقاه فيه. إن طبيعة الإنسان التي بنيت على الترابط بين الفرد وأعضاء أسرته أولا، تذوب ولا يبقى لها أثر فهو يفر من أخيه وأمه وأبيه وزوجه الحبيبة وحتى من أبنائه خوف أن يلحقه من العذاب المسلط عليهم ما يزيده عذابا. كل فرد من الكفرة مشغول بما يعانيه في ذلك اليوم.

ينقسم المبعوثون إلى فريقين : الفريق الأول يبدو على وجوههم البشر والفرح والطمأنينة، يعمهم السرور، ويضحكون فرحا بما هم فيه.
والفريق الثاني : يطمس وجوههم غبار كثيف ، ويعلوها ظلمة وسواد تنبئ عما هم فيه من خزي وعذاب. إنهم حقا الكفرة بالله وبالبعث، الذين ساءت أعمالهم.

بيان المعنى العام:

33-فإذا جاءت الصاخة.

تتابع لفت الأنظار في الآيات السابقة إلى تصرف الخالق سبحانه من تطور خلق الإنسان إلى إقباره، ومن الألطاف والنعم في غذائه الذي نبه في نهايته إلى أنه متاع موقوت. فكانت الإشارات منادية بنهاية الكون. فصرح به في قوله تعالى : **فإذا جاءت الصاخة**، التي جسم حلولها معبرا عنه بأنها "جاءت" كأنها تمشي، فوصلت الصيحة العظيمة، والأصوات القوية المزعجة التي تصك الأسماع، يوم تتفجر الأرض والسماوات وتتصادم الكواكب فتتفتت تلكم الكتل الضخمة ويحدث عن تصادمها دوي مرعب يفوق التصور. عبر عنه القرآن بكلمة "الصاخة".

34←36- يوم يفر المرء من أخيه....وبنيه.

ثم صرح بأثر ذلك الصوت المهول في الإنسان.تذوب عواطفه فلا يبقى لها أثر عليه، تلك العواطف التي كانت تمثل العمود الفقري لبنائه الاجتماعي.هو مفطور على التعلق بأسرته، إنه بمقدار ما تكون صلاته بهم متينة قوية نشيطة، بمقدار ما يشعر بالأنس والاستقرار.فكشفت الآية عن تحول تلكم الصلات عارضة من الأضعف إلى الأقوى.يوم الصاخة تذوب العواطف بين الأخ وأخيه، فإذا رآه واقعا في العذاب فر منه توهما منه أن الفرار ينجيه، بل بين الإنسان وأمه وأبيه، بل بينه وبين زوجه الذي كان الإلف بينهما على مستوى رفيع يمثل قوله تعالى: (**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**)[1] وكذلك مع نسله الذين كان يرى فيهم امتداده في الحياة وزينتها. تذوب كل تلك العواطف كأن لم تكن وكأنه ما جمعته بهم قرابة ولا ود. والظاهر أن تلك المواقف تكون بين الكفرة المعذبين و أمثالهم، وكذلك بين المؤمنين والكفرة المعذبين. وهو المعنى الذي جاء في قوله تعالى : (**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**)[2].

[1] سورة الروم آية 21
[2] سورة النور آية 101

37- لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

يستولي على كل إنسان ما هو فيه من النعيم أومن العذاب الذي يبلغ من القوة درجة تجعل ما عليه المؤمن من الكرامة وحسن الجزاء لا يلتفت إلى من كانت تربطه بهم صلة القرابة من الكفرة، فهو في شغل عنهم بما أعده الله له من النعيم. وكذلك الكافر لا يهتم بما عليه أقاربه وخلصاؤه فما سلط عليه من الهموم والكروب لا يترك في نفسه مكانا للعطف عليهم.

39←42- وجوه يومئذ مسفرة...الفجرة.

ثم صرح القرآن بأن الناس في هذا اليوم يكونون على فريقين :

الفريق الأول :جسّم ما هم عليه من النعيم والرضا بما قسم لهم، بما تفصح عنه وجوههم.ترى وجوههم متهللة يبدو منها ما انطوت عليه النفوس من الشعور بأنها نالت كل ما تتصوره، وفوق ما تتصوره من فضل الله الذي لا يحد. لا يخالطها أي حزن ولا خوف، فهي آمنة ضاحكة.بلغت الفرحة منهم أقصاها.

الفريق الثاني: جسّم ما عليه هذا الفريق، بما يفيد أنك تعرف تعاستهم وما هم عليه من الخزي والعذاب، إذا نظرت إلى وجوههم، فقد تراكم عليها الغبار ،والتصق ببشرتهم فلا تكاد تتبين منها إلا عيونا فزعة. يعلوها ما يدل على أن الكرب الذي تعانيه بلغ أقصى حد ه.

أولئك هم الكفرة الفجرة.تميزوا أكمل تميز، وأشير لهم بما يفيد التشهير بهم، والتصق بهم وصفان كل منهما يوجب الخزي والهوان : الكفر بالله وبالبعث الذي يعانون أهواله[الكفرة]. والخروج عن حدود الله وفعل القبائح والمنكرات[الفجرة].

27 شعبان 1435 الموافق لـ 2014/8/23.

سورة التكوير

بهذا الاسم عرفت في المصاحف، ومعظم كتب التفسير والسنة.وهي سورة مكية باتفاق.وهي الحادية والثمانون حسب ترتيب المصحف وعدت السابعة حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

انكدرت : ذهب صفاؤها ونورها، أو تساقطت.

العشار : جمع عشراء، الناقة الحامل في شهرها العاشر.

حشرت : جمعت.

سجرت : يراد منها امتلاؤها،كما يمكن أن يراد تحولها إلى نار.

زوجت : يطلق التزويج على اقتران الشيء بغيره فيكون زوجا. وعلى جمع المتماثلات.

الموءودة : الطفلة التي تقتل بإهالة التراب عليها وهي حية.

نشرت : انكشف ما تحويه بدقة كاملة.

كشطت : أزيلت بكيفية يبدو ما كانت تخفيه من الغيب.

الجحيم : جهنم.

سعرت : أوقدت نيرانها.

أزلفت : قربت.

بيان المعنى الإجمالي :

اثنا عشرا ظرفا مشربة بمعنى الشرط توالت في فاتحة السورة، ترتبط في النهاية بقوله تعالى علمت نفس ما أحضرت. تنقسم إلى شطرين: ست منها عند إفناء الكون. وست منها تعقب البعث. أما الأولى فهي : إذا انطفأت الشمس وانقلبت كرة ميتة لا ضوء لها. وإذا ذهب توقد النجوم وتساقطت. وإذا تفتت الجبال فلم يبق لها ثبات في أماكنها. وإذا ماتت غريزة حب التملك فزهد الإنسان في أعز ما كان يتعلق به كالنوق التي كانت حوامل في شهرها العاشر.وإذا ذهبت غرائز التوحش من الوحوش فجمعت مذهولة بما حل في الكون.وإذا البحار فاضت فاختلطت مياهها وعلت فغمرت، أو انقلبت نارا.

وست منها عندما يبعث الموتى في حياة جديدة، إذا التصقت كل روح ببدنها فيحيا صاحبها من جديد. وإذا سئل الآباء الذين بلغوا من القسوة أن قتلوا بناتهم أحياء بدون ذنب. وإذا الصحف المدونة فيها أعمال البشر كشفت فظهر ما قدمه الإنسان في الدنيا من صالح الأعمال أو قبيحها تافهها أو عظيمها. وإذا السماء التي كانت تحول بين البشر والاطلاع على غيب الآخرة ذابت فانكشف ما كان مغيبا. وإذا الجحيم بان توقدها وعظيم لهيبها، وإذا الجنة قربت من المؤمنين فهم يرون مآلهم الأبدي فيها. إذا كملت هذه الظروف، وتحققت تلكم الشرائط ؛ تعلم كل نفس علم اليقين ما أعدت لهذا اليوم من الخير أو الشر. فينكشف لكل إنسان عمله وما ينتظره من ثواب أو عقاب.

بيان المعنى العام :

1-إذا الشمس كورت.

السورة من أول ما نزل من القرآن وقد روي أنها السورة السابعة. وهي تقرر حقيقة عظيمة من حقائق الدين الإسلامي التي تؤثر في صلاح البشر،بما تثبته من عقيدة البعث.فصلت السورة بعض ما يتم عندما تتعلق الإرادة الإلهية ببعث الناس في مرحلتيه : مرحلة الإفناء ومرحلة الإحياء. فأفصحت أن كل ما ألفه الإنسان في حياته، وكل الأنظمة المادية والاجتماعية التي التصقت بالحياة الدنيا التصاقا، خُيل بها للإنسان أنها بلغت من الثبات حدا لا يتصور ذهابه.ذلك التصور الذي جعل المشركين في عهد الرسالة وما قبله وما بعده ينكرون البعث. تكرر في السورة اثنتي عشرة مرة كلمة " إذا" التي تفيد أن ظرفا يرتبط بحدث يقع فيه. فإذا قلت إذا طلع الفجر الصادق دخل وقت صلاة الصبح،يفهم من الكلام أنه يرتبط دخول وقت صلاة الصبح بالظرف المذكور: طلوع الفجر الصادق. فلما تكررت كلمة "إذا" اثنتي عشرة مرة أفاد النظم القرآني تحقق البعث باثني عشر حدثا لا عهد للبشرية بها، وأن ما عهدوا عليه ترتيب ما يحيط بالإنسان سينهار ويفنى. تعلق بعض هذه الظروف بالإعداد للفناء، وبعضها بالإحياء.

1-أول ظاهرة : إذا الشمس كورت. هذا الكوكب الذي ارتبطت به حياة الإنسان وهو أعظم الأجرام التي نشاهدها، وهو كوكب نشيط جدا تنبعث ألسنة اللهب منه آلاف الأميال، تبلغ درجة الحرارة إلى اثني عشر ألف درجة 12... التي تحول مكوناتها إلى غازات منطلقة ملتهبة. والتي تبعث بأشعتها إلى الأرض لتنيرها وتعين على انبثاق الحياة في النبات والإنسان والحيوان.وتعطي من الطاقة النظيفة ما فتح للإنسان تحديا ليتحكم في شيء من ذلك بحول إمكاناته في الحياة.أمر يحدث في الشمس عبرت عنه الآية بالتكوير، يمكن أن يفهم على أن الغازات الملتهبة ينتهي أمد التفاعل الذاتي فيها فتنطفئ، وتتحجر وتصبح كرة لا نشاط لها ولا إشعاع. وذكر بعض المفسرين أنها تلتف كما تلتف العمامة.وأفهم من قولهم هذا أن ألسنة اللهب التي كانت تذهب في دائرتها إلى آلاف الأميال تخمد إلى غير رجعة. وقد يكون المقصود غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله. حسب الحقيقة التي أشارت إليها الآية الكريمة: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات)[1] هذه الآية التي تصحح تصور الإنسان المرتبط أشد الارتباط بما عرفه في حياته. فمنها نقرر أن الصورة التي ترتسم في ذهننا من تتبع التعبير تكون صورة مضللة إذا اعتقدنا أنها هي الحقيقة التي سيكون عليها الأمر.
وهذه الظاهرة تكون مقدمة لفناء الكون، وليست مبرزة لقيام الناس من قبورهم.

2-وإذا النجوم انكدرت.

النجوم التي تزين قبة السماء قال تعالى : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)[2] تتكدر بمعنى أنها تفقد ضياءها وتنقلب مظلمة لا شعاع لها.كما يمكن أن يكون المعنى : أنها تفقد قوة الجاذبية التي كانت تشدها إلى غيرها وتثبتها في موقعها، فتسقط وترتطم بغيرها من النجوم.

3-وإذا الجبال سيرت.

الجبال الراسيات الصامدة في أماكنها التي تمثل القوة والثبات. فلا تؤثر فيها الزوابع ولا الرياح ولا الأمطار ولا الزلازل، تتفتت وتنقلب ككثبان الرمل تسفوها الرياح. قال تعالى : (وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا)[3]

4- وإذا العشار عطلت.

العشار جمع عشراء، وهي الناقة الحامل إذا بلغت شهرها العاشر، ولم يبق لها من مدة الحمل إلا شهران. والإبل من أنفس ما يملكه العرب، ويتنافسون في جمع أكبر عدد منها،

---

[1] سورة ابراهيم آية 48
[2] سورة الصافات آية 6
[3] سورة الواقعة آية 5

وإذا كانت عشراء في الشهر العاشر فهي أكثر نفاسة عندهم، إذ بعد أمد قليل سيتضاعف ما يملكونه منها مائة في المائة. وحب التملك غريزة فطرية في الإنسان، فإذا أذن الله بفناء الكون وحصلت المقدمات الأولى لذلك،لم تبق للإنسان رغبة في تملك أي شيء بعد أن تبين له أن الفناء يلف الكون وما يحويه. كما فسرت العشار بالسحب، أي إن السحب لا تحمل ماء ولا تمطر الأرض فيعم الجدب والقحط، ويأخذ الهلاك بيبد الناس والأنعام شيئا فشيئا. وذلك من أشراط يوم القيامة.

5-وإذا الوحوش حشرت.

حشرت أي جمعت.من طبيعة الوحوش أنها تنفر من بعضها لما بينها من التعادي ولتسلط القوي على الضعيف. من أشراط الساعة أن الوحوش يستل من طبيعتها الاعتداء، ويمحي خوف بعضها من بعض، وتجتمع كلها في صعيد واحد يتملكها الرعب والذهول،من مظاهر التغير الشديد في الكون.

6- وإذا البحار سجرت.

كل بحر على سطح الأرض يحوي مياهه،و ذلك تبعا لتوازن طبع الله عليه الكون.فإذا اختل التوازن فاضت المياه، وعلا سطحها واختلطت البحار. كما يمكن أن تفهم الآية على أن الله يقلب مياه البحار والمحيطات إلى نار مشتعلة،قد يكون ذلك بانشطار يحدث في ذراتها بين الأوكسجين والهيدروجين، وقد يكون بغير ذلك مما علمه عند الله.

المذكورات الستة أحوال تقع في الدنيا عند إرادة الله إفناء الكون.ومن إعجاز القران أن تعبيره عن ذلك جاء بكلمات تحتمل وجوها،تتفق في مضامينها للدلالة على الهول العظيم، دون أن تحصره في حدود.لأن ما سيحدث ليس مما عرفه الإنسان في حياته الدنيا. فكانت تلكم الاحتمالات فاتحة لتصورات تُقرِبُ ما سيحدث وتؤكد في آن واحد صدق القرآن في الوصف، وأنه من عند الله.

7- وإذا النفوس زوجت.

النفوس جمع نفس، وأطلقت في القرآن بمعنى الروح قال تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي)[1] وتطلق النفس على الذات قال تعالى:(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)[2] والتزويج يطلق ويراد منه جعل الشيء زوجا لغيره. ويطلق ويراد منه جمع الأشياء المتماثلة. وبناء على ذلك فإنه يمكن أن تفهم الآية على أن

---

[1] سورة الفجر آية 27

[2] سورة الأنعام آية151

الأرواح التي كانت في البرزخ، تقترن كل روح بالجسم الذي تم تصويره فيحيى ويبعث. كما يمكن أن تفهم الآية على أن كل فريق من المبعوثين ينضم إلى مماثله حسب درجاتهم من الصلاح أو من الضلال كما يشير إليه قوله تعالى: (**وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون**)[1]

9/8- وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت.

للشرك فظائع خلقية، ومظاهر قسوة تشمئز منها النفوس.فقد كان بعض العرب يحفر لابنته إذا بلغت السادسة بتراثم يأتي بها ويطلب منها أن تنظر في قاع ما حفره، حتى إذا فعلت دفعها من خلفها وأهال عليها التراب.وكان يفعل ذلك خوف أن تكبر وتسبى فيلحقه العار.قال تعالى : (**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب**)[2] وقد كانت بعض النساء تحفر حفرة تحتها إذا جاءها المخاض، فإذا عرفت أنها أنثى رمت بالمولودة في تلك الحفرة وأهالت عليها التراب، خشية أن يهجرها زوجها أو يفارقها.

إن هذه القسوة مرتبطة بانحراف العقيدة، وكلما فسدت العقيدة ذهبت الرحمة.وفي هذه الأيام من شهر شعبان 1435 -8/7-2014 يقتل اليهود البرابرة في غزة كل يوم من الأبرياء تحت ردم منازلهم العشرات من الأطفال والنساء والشيوخ،من الذين لا شأن لهم بالحرب، والولايات المتحدة تزكي، والقوى العظمى في الغرب والشرق صامتة أو مساندة للوحشية القاسية. رغم المواثيق التي كتبوها بأيديهم، وعقدوا لها مؤتمرات مواثيق حقوق الإنسان.إنها صورة لها سابقتها قريبا في تاريخ الحضارة المادية القاسية. تابعنا في الحرب العالمية الثانية من أخبار الحرب مثل هذه القسوة في ألمانيا التي هدمت مدنها وقراها وسويت بالأرض على رؤوس ساكنيها، وفي اليابان ألقت الجيوش الأمريكية على هوريشيما القنبلة النووية الأولى ورغم استسلام اليابانيين أبت تلك القيادة إلا أن تردف القنبلة الأولى بثانية على رؤوس سكان نكازاكي. فقضت على عشرات الآلاف من البشر في لحظة واحدة بطريقة فظيعة تسلخت الجلود واحترقت الأجساد، وفسدت البيئة ملوثة بالإشعاع المخرب والقتل.ومع ذلك قد تجد قائد الطائرة بعد أن سحق الحياة وترك أشلاء

---

[1] سورة الواقعة 9/8/7

[2] سورة النحل 59/58

الأبرياء وأنينهم تحت الأنقاض، يعود إلى بيته يلاعب أطفاله أو يمرح في مرقص، كأن شيئا لم يكن. إنها الديمقراطية الكاذبة التي تزن بميزانين، والله يقول: (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا)[1] إن الديمقراطية مبادئ حسب التصور الصحيح لها تقتلع الغطرسة والاستبداد، ولكن التطبيق السيء لها هو الذي جعل العالم مهتزا غير آمن. مختل القيم : قتل شخص واحد يحمل جنسية دولة قوية مستبدة يتسبب عنه قتل مئات الأبرياء بدعوى الدفاع عن النفس. وقتل عشرات الآلاف من دولة ضعيفة، أو من جنس مبغوض لا يحرك ساكنا. وقوله تعالى (بأي ذنب قتلت) .صاغ السؤال موجها إلى المعتدى عليها، وكان الظاهر أن يوجه السؤال إلى الأب القاسي الذي وأدها. ولكن السؤال أخذ صيغة عامة تشمل كل سامع وحاضر، تشويها للفعلة، وتشنيعا للوأد، وإعدادا لتصور الجزاء عن الفعل الذي لا يقره بفطرته أي إنسان سوي.

10-وإذا الصحف نشرت.

هذا هو الحدث الثالث الذي يقع بعد البعث.فالناس يبعثون ليحاسبوا عما قدموا وينال كل فرد جزاءه العادل الذي يشعر معه أنه ما ظلم. وذلك أن الله سجل عليهم أعمالهم تسجيلا لا يغيب شيء منه، ويفهمه كل فرد فهما لا غموض فيه، وبلغة بينة، وهذا التسجيل هو من أمور الآخرة عبر عنه بالصحف، والله أعلم بطريقته وكيفيته، وليست هي قراطيس ولا مدادا ولا حبرا. ونشرت بمعنى انكشف ما تحويه.

11-وإذا السماء كشطت.

هذا هو الحدث الرابع. بعد أن تنكشف للناس أعمالهم دقيقها وكبيرها، كما صدرت عنهم في الدنيا. وما تكشف إلا ليربط بينها وبين جزائها.تأتي هذه الآية [11] لتثبت أن السماء تكشط تسلخ كما يسلخ جلد الناقة فيظهر ما تحته من اللحم والشحم مما كان مستورا بالجلد. فهل إن هذه الآية تتحدث عن انخرام الكون إثر النفخة الأولى، أو هي تتحدث عن بعض المظاهر إثر النفخة الثانية وبعث النفوس للمحشر؟ ويثور سؤال إذا ربطت بما قبل البعث فلماذا ذكرت متأخرة فاصلة بين حوادث البعث والحساب ؟ المفسرون الذين ذكروا أنها متعلقة بالحوادث التي يفسد الكون معها قبل النفخة الثانية لم يوجهوا تأخيرها إلى هذا الموقع. كما أن الذين راعوا ارتباط النظم بالترتيب الواقعي لم يذكروا لمفهومها وجه ارتباط ينثلج له الصدر. والذي فهمته أن

---

[1] سورة المائدة آية 2

الحوادث المتتابعة ذكرت ما يحدث في الكون عند إنهاء الحياة أولا، وأتبعته بما يحدث عند قيام الناس من قبورهم ووصلت إلى المرحلة التي ينكشف للناس أعمالهم فتبدو لهم كما صدرت عنهم في الدنيا. والمرحلة التالية معرفة الجزاء، وكان الإنسان محجوبا عن العالم العلوي بما رتبه الله في السماء على أنها حائل بين الإنسان ومعرفة ما تحويه.فبمجرد ما يتلقى كل فرد كتابه، تذوب السماء وتنكشف عوالم الغيب. كما يكشط الجلد عما تحته من اللحم المغيب. ويبدو بهذا الفهم ارتباطه بالآية التالية.

13/12- وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت.

هذا هو الحدث الخامس والحدث السادس. دار الجزاء وقد تهيأت لقبول كل فريق من الأشقياء أو من السعداء.

أما الأشقياء فإن جهنم توقد لهم نارها لتكون على أشد ما يكون عذابا و إيلاما.مع ما يصحب حرها من صنوف النكال. وتكون حاضرة أمامهم يوقنون بأنها هي مآلهم.

وأما السعداء، فتعد لهم الجنة لتكون لهم مستقرا أبديا.ينظرون إليها وقد قربت منهم ويطمئنون إلى أن مصيرهم الكرامة والنعيم في جنباتها.

14-علمت نفس ما أحضرت.

ترتبط الظروف الاثنى عشر المكررة مع إذا بقوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت). عندما تجتمع تلك الظرف والشروط المفتتحة بـ [إذا] يحصل لكل نفس حقيقة ما عملت في الدنيا، فما كان يظن أنه تافه لا شأن له يشاهد مثبتا كغيره من الأعمال، وما كان يقدر تقديرا منافيا لحقيقته يبدو على وجهه من الصلاح أو الفساد،وما طواه النسيان يحضر مشاهدا.وكل ذلك في مظهر اليقين الأيقن الذي لا يخالطه شك ولا ارتياب. وحضور الأعمال يوم القيامة لكل نفس حقيقة نؤمن بها، وأما كيفيتها فهي من علم الغيب، ولا يبعد أن يكون العمل مصورا على النحو الذي أنجز به.

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا

ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخنس : جمع خانسة، المختفية.

الجواري : جمع جارية، التي تحت سيرها.

الكنس : جمع كانسة.والكناس البيت الذي يتخذه الظبي للمبيت.

عسعس الليل : يطلق على إقبال الليل كما يطلق على إدباره.

كريم : النفيس في نوعه.

ذو قوة: صاحب قوة،قدرة على إنجاز الأعمال العظيمة، وتطلق على ثبات النفس.

الأفق : أقصى النظر عندما يتصور الرائي التماس بين الأرض والسماء.

المبين : الواضح.

رجيم : مرجوم ومبعد.

ذكر :متنوع مما يهدي الإنسان إلى الخير.

بيان المعنى الاجمالي:

أقسم الله بالنجوم التي تختفي في النهار وتظهر بالليل في مواقع متباعدة على نظام دقيق لا يختل. وهي تجري في مسارتها المقدرة لها ثم تختفي كما تختفي الظباء في بيوتها (الكناس). وأقسم بالليل في حالتيه حالة إقباله وحالة إدباره، وبالصبح إذا ظهرت بوادر ضيائه يصاحبها نسمات رقيقة كأنها أنفاس هادئة. وكلها مظاهر تنادي بقدرة الله وحكمته وتفتح للناظرين بابا للتدبر الهادي إلى الخير.

والمقسم عليه أن القرآن قول رسول من أنبل الرسل، بلغه جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد مكنه الله من قدرات يقوى بها على ما يعجز عليه غيره، مختص بمنزلة رفيعة عند ربه. منزلته الرفيعة معلومة بين الملائكة، فهم يطيعونه فيما يحدد لهم. معروف بأنه أمين لا يتزيد ولا يغير من أمر ربه شيئا.

كما أقسم على أن ما اتهموا به محمدا كذب وباطل، وأنه أشد ذكاء وأمتن عقلا، وأصفى قريحة منهم، وأنه بما يتلوه عليهم لا يتصور أن يكون به جنون. وتكذيبكم له عندما أعلمكم أنه رأى جبريل بين السماء والأرض غير صحيح، وهو صادق فيه ليس فيه شيء من الخيال. ومحمد بعيد عن الكهانة التي يعيش من حلوانها الكهان، فهو لم يطلب منكم مالا ولا جزاء. وهو أرفع من أن يتهم بتغيير ما تلقاه من ربه. والقرآن أبعد ما يكون عن كلام الشياطين الذين ألفوا الشر والفساد، بينما القرآن يهديكم إلى الرشد والخير. أي مسلك

تسلكون؟ لقد انسدت كل الطرق الموصلة أمامكم .أقروا بالحق فالقرآن ذكر يسلك بكم جميع طرق الرشد والخير، لمن كانت له إرادة وعزيمة على الاهتداء. والهداية في النهاية بيد الله يلطف بمن شاء فيُيسِّرُها له حسب اختياره، ويحرم من تلكم الألطاف حسب مشيئته سبحانه من يشاء فيخسر دنيا وأخرى.

بيان المعنى العام :

16/15- فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس.

افتتحت السورة بقسم تتقدمه كلمة [لا] نظير ما جاء في قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم)[1] والمقسم به فيهما واحد أمر مرتبط بالنجوم.ذلك أن القسم جاء بأوصاف فهم منها المفسرون أنها أوصاف لأحوال النجوم، والكواكب في السماء. أقسم بالنجوم في أحوالها التي تتقلب فيها للناظرين، فهي تخنس تختفي في النهار، كما تختفي الشمس في الليل. والقوانين التي تم بها هذا التداول بين الكواكب في منازلها، وفي ظهورها واختفائها يشهد بالقدرة العظيمة والحكمة البالغة لله رب العالمين الذي رتب ذلك على نظام لا يلحقه اختلال. أقسم بها حال اختفائها "الخنس". وهي في تنقلها في منازلها تسير سيرا حثيثا "الجواري" "الكنس" التي تشبه الظباء عندما تختفي في كناسها،وهو البيت التي تعده لمبيتها. شبهت النجوم بالظباء السريعة الحركة تبدو ثم تختفي عن أنظار الصيادين المراقبين لها وتدخل بيوتها المعدة لإيوائها في الليل.فأدخل هذا التشبيه حركية وجمالا في العرض،يدعو إلى الاستمتاع به والتأمل فيه.

17- والليل إذا عسعس.

"عسعس" من الكلمات التي تفيد الشيء وضده، فتطلق ويراد منها إقبال الليل كما تطلق ويراد منها إدباره، وفي كل واحد من الحدثين تظهر القدرة والحكمة الإلهية في تسيير الكون بنظام. ويرتبط هذا القسم بسابقه (القسم بالنجوم) باعتبار أن ظهور النجوم واختفاءها مرتبط بالليل.

18- والصبح إذا تنفس.

حقيقة التنفس خروج النفس من الحي.ولتجسيم ظهور الضياء في بقايا الظلام عبر عنه بالتنفس. ومما زاد هذا التعبير جمالا، أن مع الصبح يتحرك نسيم رقيق شبيه بالأنفاس. وهذه الظاهرة التي يمتزج فيها الليل بالنهار تدل على الحكمة والتنظيم في الكون الممتد في كل جزئية من تطوراته إلى القدرة المبدعة الخلاقة لله رب العالمين.

---

[1] سورة الواقعة آية 75

19←21-إنه لقول رسول كريم...أمين.

هذا هو المقسم عليه.إنه، الضمير يعود على القرآن المفهوم من المقام. وأسند القول إلى الرسول الكريم الذي هو جبريل باعتبار أنه تلقاه مباشرة من عند الله وبلغه إلى محمد ﷺ كما تلقاه. ونظرا لمنزلة القرآن وأنه كلام الله الهادي إلى الخير، فإنه سبحانه وكل بتبليغه ملكا يتميز بأوصاف أهلته لهذه المهمة، فأثنى عليه بخمسة أوصاف :

أ)أنه رسول كـريم. والكرم يلصق بصاحبه للدلالة علـى أنـه متميـز فـي نوعـه نفـيس بين أمثاله. كما تقول تلميذ كريم، وخاتم كريم. وطعام كريم.

ب - جـ) ذي قوة عنـد ذي العـرش مكـين. الوصـف الثـاني ذي قـوة، الوصـف الثالث مكين، وتوسط بينهما عند ذي العـرش ليتنـاول كـل واحـد منهمـا مـا يناسـبه. ويراد من القوة أنه قادر على الأعمال العظيمة التـي لا تتـأتى لكـل أحـد، كمـا تطلـق القوة على رباطة الجأش ومضاء العزيمة. فجبريـل موصـوف بـالقوة الماديـة ينفـذ مـا يؤمر به من المهمات المادية الصعبة، وهو ذو قوة معنويـة فهـو يحمـل القـران "القـول الثقيل"

والمكين، يطلق ويراد منه علي الرتبة، كما قال تعالى في سورة يوسف :(إنك اليوم لدينا مكين أمين)[1] ومما زاد الوصفين تشريفا أنهما تم وصفه بهما عند الله العلي العظيم. وأضاف إلى هذا المعنى المقصود أن عبر عن الذات الإلهية بقوله "ذي العرش" المفيد للعظمة والجلال.

د) مطاع يفيد أن رتبته هي رتبة القيادة فالملائكة يطيعونه لما يعلمون من أن تلك إرادة الله، وهم يفعلون ما يؤمرون.

هـ) أمين. يؤدي ما عهد إليه به أداء كاملا، ثم في الملأ الأعلى، معروف بينهم بقوة أمانته. وحمله بعض المفسرين على أن الثناء بتلك الأوصاف على أنها جارية على رسول الله محمد ﷺ. وهو أنفس الرسل وأعلاهم منزلة. وهو القوي إرادة وعزيمة، واجه البشرية كلها ولم يضعف حتى ثبت دين الله في آفاق الدنيا. أكرمه ربه وعرج به إلى سدرة المنتهى وخاطبه بخطاب التقريب في غير ما آية. وكل البشر مأمورون بطاعته قال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله)[2] وهو المثل الأعلى في الأمانة. بها عرف قبل أن يوحى إليه.

22-وما صاحبكم بمجنون.

من تمام المقسم عليه. أكد القرآن بالقسم أن محمدا الذي صحبوه من صباه الباكر إلى أن أكرمه الله بالرسالة، وما سجلوا عليه في يوم من الأيام وسوسة ولا خروجا عن مستوى العقل الراجح الواضح. فقد بلغت مكانته في حسن التدبير، وانكشاف المبحوث فيه، بلغت

---

[1] سورة يوسف آية64

[2] سورة النساء آية 80

مرتبةً فاقت مراتبهم، فهو الذي لم يقبل أن تكون الأصنام لها دور في حياة الناس، ولا أن ما قبلوه في تصور الكون مقبول، فتحنثه ﷺ للتأمل والتعمق في مشاهد الكون وما تدل عليه، مؤذن بأنه ما رضي التقليد لنفسه الذكية، وأنه أصفى عقلا وأنجح تفكيرا منهم جميعا.فمن سفههم أن نسبوه إلى الجنون الذي نفاه العليم بأحوال البشر رب العالمين، نفاه عنه بأبلغ طريق في النفي.وما صاحبكم بمجنون.

23- ولقد رآه بالأفق المبين.

بعد أن نفى الجنون عن النبي ﷺ أبلــغ نفــي بالقســم،والتنبيه علــى تنكــرهم لمــا كــانوا يعترفون به من كمال عقله،وبريق تفكيــره، ثنــى بإثبــات أنــه كــان يــرى جبريــل رأي العين بالأفق البين الصافي بين السماء والأرض.ذلــك أن المشــركين اتخــذوا مــن إخبــار النبي ﷺ أنه تلقى الوحي من جبريل، اتخذوا ذلك مطعنــا فــي صــدقه، فأكــد ســبحانه أن رؤيته لجبريل هي رؤية واضحة، لم يداخلها الخيال.

24- وما هو على الغيب بضنين.

شغب المشركون على رسول الله ﷺ، وطعنــوا بأنــه مــن كــلام الكهــان الــذين يتلقــون أخبارهم من الجــن علــى مــا يزعمون،والكهانــة مــورد رزق للكــاهن لا يحــدثهم بمــا حصل عنده إلا بمقابل، وما طلب منهم محمد في يوم مــن الأيــام شــيئا علــى مــا يقدمــه لهم من الذكر الحكيم. فمحمد لــيس بخــيلا همــه جمــع المــال.قــال تعــالى : (قــل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكــرى للعــالمين)[1] ونوعــوا مقترحــاتهم فمــن جملــة مــا عرضوه أن يأتي بقرآن غيــر القــرآن الــذي يتلــوه علــيهم. قــال تعــالى :(وإذا تتلــى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقــرآن غيــر هــذا أو بدلــه)[2] فنفــى عــن نبيه أن يتهم بتغيير ما تلقاه من ربه، وهو أطهر وأبعد مــا يكــون عــن ظنــونهم الفاســدة وعن أي تهمة يلصقونها به. فظنين بمعنــى مــتهم. وقــد قــرئ فــي الســبع المتــواترة بالضاد ضنين :بخيل، وبالظــاء ظنــين : مــتهم. ومخــرج الضــاد حافــة اللســان مــع الأضراس اليمنى أو اليسرى.ومخرج الظاء طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا.

35- وما هو بقول شيطان رجيم.

بعد أن نفى أي تهمة تتعلق به صلى الله عليه وسلم في نقلــه للــوحي، نفــى تهمــة ثانيــة طعن بها المشركون فــي القــرآن.إذ زعمــوا أن القــرآن تنزلــت بــه الشــياطين ولــيس صادرا عن الله بواسطة جبريل.قال تعالى : (ومــا تنزلــت بــه الشــياطين ومــا ينبغــي

---

[1] سورة الأنعام آية 90

[2] سورة يونس آية 15

لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون)[1] وكيف يسترق الشيطان السمع، وهو مبعد غير مقبول في أي مجتمع نظيف فكيف يتصل بعالم الغيب المطهر!

26- فأين تذهبون.

أين اسم استفهام انكاري عن المكان الذي يتجهون نحوه.لم يبق أمامكم أي سبيل موصل مطبوع بالحق، أبطلنا ما اعترضتم به من افتراءات، ومن فروض كاذبة من نسج خيالكم وتعصبكم ضد الحق المنزل.ولم يبق لكم طريق تذهبون إليه، فثوبوا إلى الاعتراف بصدق الرسول وأن ما أتى به هو الحق الناصع الذي تلقاه من ربه.

28/27-إن هو إلا ذكر...أن يستقيم.

ثم أكد القرآن ما جاء في الآية السابقة، وما نفاه عنه من افتراءات المضللين،بقوله: إن هو إلا ذكر للعالمين. كل ما روجتموه عن محمد وعن القرآن باطل ليس فيه أي خيط من الحق، إذ أن القرآن محصور في كونه ذكرا للبشرية جمعاء. يجدون فيه ما يصل بينهم وبين العقيدة الحق فيثبت التوحيد في أرواحهم، ويضبط أقوالهم وأعمالهم بما يعود عليهم بالخير والوفاق، ويشرع لهم ما ينمي قدراتهم في كل ما يترتب عليه تطورهم إلى ما هو أفضل وأسمى، ويهذب أخلاقهم فيربط بينهم وبين الفضيلة، ويفصل بينهم وبين الرذيلة. يستفيد منه المؤمنون كما يستفيد منه الذين أعرضوا، يستفيدون من الصورة التي يتحول إليها المجتمع المؤمن من رقي وتماسك. ولكن الاهتداء الكامل لا يحصل إلا لمن تعلقت إرادته، وكان له من ماضي العزم ما يعدل به سلوكه واختياراته، حسب ميزان القرآن المرشد إلى الطراق المستقيم.

29- وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

تختم السورة بهذا التفويض الذي يحقق تفرد الخلاق العليم بتمكين البشر من هدايته ليعملوا عقولهم فيها، وترك لهم الاختيار في اتباع طريق الخير، أو اتباع طرق الضلالة والشر.ولم يجبر أحدا من خلقه على ما يعاكس اختياره، والإنسان مسؤول عن اختياره وعمله. والله يلطف بمن يشاء من عباده فيحبب له الصلاح، ويحيط به من دواعيه ما ييسر له اتباعه. ويحرم من لم يشأ أن يسعفه بذلك العون. قال تعالى : (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)[2] وأن النهاية تكون سعادة الملطوف بهم وشقاء الذين حرموا التوفيق. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

02 ذو القعدة 1435-2014/8/28

---

[1] سورة الشعراء آية 210

[2] سورة الأنعام آية 111

سورة الانفطار

بهذا الاسم عرفت في المصاحف،وفي معظم كتب السنة والتفسير. وهي سورة مكية باتفاق.أخذت تسميتها من الآية الأولى فيها : إذا السماء انفطرت. وهي الثانية والثمانون حسب ترتيب المصحف.وعدت الثانية والثمانين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة النازعات. وقبل سورة الانشقاق.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

انفطرت : تشققت وزال تماسكها.

انتثارها : تفرقها لا على نظام بل باضطراب.

فجرت: فيضان البحار وتجاوزها حدودها.

غرك : الغرور، إيهام المغرور أن ما يدعوه إليه الغار فيه نفع والحق خلافه.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه أربعة ظروف يتحقق عند حصولها ما يعقبها.الظرف الأول عندما تتشقق السماء فتتخرب صفحتها الجميلة الزرقاء،والظرف الثاني أن يذهب انتظام الكواكب فتخرج عن مساراتها المنظمة إلى الفوضى والتصادم، والظرف الثالث أن تتفجر مياه البحار فتهجم على الأرض وتفسد ما علاها، والظرف الرابع أن ينقلب ظاهر الأرض فينزل إلى الأسفل ويصعد ما كان كامنا فيها إلى الأعلى فتدفع الأموات من قبورها إلى ظاهرها. عندها ينكشف لكل إنسان حقيقة عمله الذي قام به في حياته إن كان شرا أو خيرا ما فعله من الحلال والحرام وما تركه من الممنوعات أو الواجبات

ويحرك القرآن كل إنسان للنظر فيناديه ليوقظه من غفلته التي قادته إلى البعد عن ربه والكفر به وبالبعث.مع أن نعمه وألطافه توالت عليه، فهو الذي خلقه وأخرجه إلى الحياة، وهو الذي جعل خلقه خلقا سويا راعى بألطافه كل جزء من أجزائه وجعله متناسقا مع بقية الأجزاء. وجعل خلقة الإنسان أجمل خلقة يسير قائما على رجليه ويشاهد الكون من جميع جهاته بحركة بسيطة من أعضائه. ركبك في أجمل صورة وأعونها على الحياة، فكيف تنسى فضله عليك، وتفرض له شركاء تعبدهم من دونه.ولو سلبك ما تفضل به عليك ما استطعت إرجاعه.

بيان المعنى العام :

4/3/2/1- إذا السماء انفطرت...بعثرت.

افتتحت السورة بفاتحة قريبة مما افتتحت السورة التي سبقتها في ترتيب المصحف "سورة التكوير. وتقدمت " إذا" كل جملة من الجمل الأربع ، لتدل على أن الجواب مرتبط بهذه الظروف جميعها.

الظرف الأول : **إذا السماء انفطرت** ، أي تشققها، فبعد أن كانت تبدو للرائي صفحة زرقاء تزينها النجوم في الليل، والشمس في النهار. تتخرم تلكم الصورة وتبدو منفرجة بعضها عن بعض، بزوال التماسك الذي كان يجمع بين ما تركبت منه. وهو ما أشارت إليه الآية الأولى في سورة الانشقاق : إذا السماء انشقت.

الظرف الثاني : **إذا الكواكب انتثرت.** الكواكب التي تزين السماء لها مواقعها ومساراتها التي تسير فيها، وهي منتظمة بطريقة تجعل جاذبية كل كوكب لغيره تبلغ من القوة ما يبقي على المسافة بينهما ثابتة. فإذا أراد الله الإعداد للبعث، تخرج الكواكب عن منازلها، وتحل الفوضى في مواقعها.

الظرف الثالث: **وإذا البحار فجرت** :وتفجيرها، صعود مائها عن مستواه فتختلط البحار، وتغمر الأرض، فيفسد ما عليها.

الظرف الرابع: **وإذا القبور بعثرت.** وبعثرة القبور انقلاب ما تحت الأرض إلى عاليها، فبعد أن كانت القبور حاوية لرفات من دفن فيها، ساترة لهم، تقذف بما في داخلها إلى ظاهرها. وختمت الآيات باستحضار بعثرة القبور لأنه المظهر المقصود أصلا الذي يعقبه تذكر كل فرد من أفراد البشر ما فعله في الدنيا.

5-علمت نفس ما قدمت وأخرت.

إنه إذا اجتمعت الظروف الأربعة المذكورة في السورة، فإنه يعقبها أن ذاكرة الإنسان تعيد إليه كل صور أعماله من خير أو من شر. ما فعله من مراحل تكليفه الأولى وما فعله حتى

أخر لحظة من حياته.يكون علم كل مبعوث بذلك بالغا من الوضوح والتيقن حدا عبر عنه بالمضي "علمت" وهو تهديد للمشركين بتحقق الوعيد، وبشارة للمؤمنين بتحقق الوعد، وإيقاظ للمخلطين بين الصالح والقبيح ليتوبوا.

6←8- يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم...ركبك.

تفتح الآية بالتنبيه بواسطة النداء لكل من يطلق عليه لفظ إنسان لإيقاظه إلى الخطر الذي تسرب إليه وهو على وشك أن يهلكه.ويقصد به المشركون المنكرون للبعث الذين هم الكثرة الكاثرة عند نزول الآية في أول الإسلام. يوقظه بجملة استفهامية " ما غرك بربك الكريم " وهو استفهام يقصد منه التعجيب المُشْربُ بالإنكار. عجب وإنكار وتوبيخ للإنسان الذي انطمست عليه الحقيقة فراغت عن فكره، ظانا أن ما هو عليه فيه خيره، مع أن المآل هو عكس ذلك فيه خسارته وهلاكه. قد اغتر في علاقته بربه فأشرك به، ونفى أن يبعثه يوم القيامة إلى الحساب.وكانت صياغة التعجيب والتوبيخ مصاحبة للطريقة التي تم بها التعبير لمزيد من الإيقاظ.فجعل العلاقة بينه وبين الله وعبر عنه بـ"ربه" بما تفيده كلمة الرب من الرفق والعناية التي تقتضي ممن نال من فضله أن يكون شاكرا له لا كافرا به.ووصف ربه بأنه الكريم الذي توالى عليه فضله وعطاؤه وعنايته إلى أن بلغ المستوى الذي هو عليه من القوة الجسمية ومن التفكير. أفلا يجب عليه أن يكون ذاكرا لكرمه شاكرا لأنعمه!

وأخطأ بعض الذين يعملون على تنويم المسيئين ليواصلوا انحرافاتهم قائلين إن الله لقن المذنب أن يقول له عندما يسأله ما غرك بربك الكريم، أن يقول له : غرني كرمك.ذلك أن السؤال هنا هو سؤال تقريع وتوبيخ للمغرور بحب الشهوات وعصيان مسدي الخيرات، والكفر به.كما تُوقفُ من أحسنت إليه وأعنته، ومع ذلك أنكر كل معروفك وعمل على إذايتك،فتقول له : ما هو عذرك مع ما واليت عليك من فضلي؟ فهو كلام موجب لتشديد العقاب لا للعفو ولا للاعتذار.

كما جمع أضربا من العناية وحسن التقدير التي تقتضي من الإنسان أن يلتفت إليها، ولا تستر رتابة الأنس بها ما فيها من فضل.فهو الذي خلقك فأخرجك من العدم إلى الوجود، وهذا الخلق كان يمكن أن يتحقق على صور عديدة،صور متناسقة، وصور لا تناسق بينها.وأنت أيها الإنسان إذا نظرت إلى كل جزئية من جزئيات تركيبك البدني والنفسي وجدت أن العناية الإلهية حفت بك،فكانت صفة خلقك مساعدة على القيام بوظائفك المتنوعة.فكون اليدين في مكانهما، والرجلين من أسفل والرأس يعلو الجسم، والقلب والرئتان يحويهما قفص الصدر المكون من العظام الحافظ من

ناحية، والمستجيب لحركة التنفس من ناحية أخرى. كما راعى في الخلق عدالة بين الأجزاء، لا يتضخم جزء فيشل الحركة ولا يضمر فيتعطل عن أداء ما خلق له.فلو طالت إحدى اليدين أو ضمرت إحدى الرجلين، أو كانت إحدى العينين في موضع آخر، وهكذا، لكان الإنسان تعيسا في حياته.وإذا نظرت إلى الصورة التي تخيرها لك ربك تجد أنه أعطاك من الوسامة بقيامك على رجليك واقفا،ومن جمال الوجه وأجزائه ما لم يعطه أحدا من المخلوقات الأخرى.ولا أجمل من الإنسان.

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝

بيان معاني الألفاظ :

بالدين : بالجزاء، البعث.

حافظين : مسجلين لكل عمل يصدر منكم.

كراما: جامعين للكمالات.

الأبرار : جمع بر، وهو التقي الصالح.

الفجار : جمع فاجر الذي يفعل القبيح بدون اكتراث. وأعظم الفجور الشرك.

الجحيم : جهنم.

يصلونها : يحترقون بحرها.

لا تملك نفس لنفس: لا تقدر نفس مساعدة غيرها.

الأمر : التصرف الكامل.

بيان المعنى الإجمالي:

زجرت الآية في فاتحتها المغرورين بما بين أيديهم من نعيم الدنيا،وأشركوا بالله. وكذبوا بيوم القيامة ظانين أنه ليس وراء الحياة الدنيا حياة أخرى.والله قد أوكل بهم ملائكة يراقبونهم، ملائكة كرام على أعلى ما يمكن أن يتصور من الصدق،يكتبون ويسجلون كل ما يصدر عن الإنسان من فعل حسن أو قبيح، لا يمكن التمويه عليهم إذ هم يعلمون حقيقة أفعالهم ولا يلتبس عليهم الحسن بالسيء.

بعد أن وثقت الملائكة ما صدر عن كل إنسان في حياته ليتم الجزاء العادل، عبر عنه القرآن بأن الخيرين المؤمنين الأتقياء منغمسون في النعيم. وأن الفسقة المشركين في جهنم يحسون بآلام حرق نارها أشد ما يكون الإحساس. يحترقون بها في يوم الجزاء، لا يخرجون منها أبدا.

إن هول يوم الجزاء يفوق التصور ولا يلاحقه الخيال.هو اليوم الذي لا تستطيع أي نفس أن تساعد غيرها، أو أن تخفف عنه ولو أقل ما يكون من العذاب والنكال.إنه في هذا اليوم ينفرد سبحانه بالتصرف في جميع الأمور، ولا يشاركه غيره.

بيان المعنى العام:

9- كلا بل تكذبون بالدين.

تفتح الآية بكلمة " كلا" المفيدة ردع وزجر الذين شحنوا بالغرور فأشركوا، ولم يعترفوا بإرسال الفضل التي توالت عليهم من ربهم.مما يقرر أن الشرك باطل مغرور من اتبع طريقه. ثم انتقل من ذلك المعنى إلى تأنيبهم على التكذيب بالبعث "الدين" الذي هو سر فساد عقيدتهم، وفساد أفعالهم.لما تصلبوا في رفض الإيمان به ففقدوا بسبب تكذيبهم بالبعث ما يحبب لنفوسهم الخير ويكفها عن الشر. وحسبوا أنهم في مأمن من جزاء تجاوز الحق والعدل في دنياهم.

10←12- وإن عليكم لحافظين....تفعلون.

تفيد الآيات فساد تصور المشركين أنهم في مأمن من الجزاء على ما قدموه. ذلك أن الله وكل بهم ملائكة يسجلون كل ما يصدر عنهم.ولولا أن ذلك من أجل محاسبتهم لما كان لهذا التقدير من معنى سوى العبث. وتعالى الله عنه.فثبت بنص الآية أن مع كل إنسان من الملائكة من يحصون عليه أقواله، وأفعاله، ونواياه.ووصف هؤلاء الملائكة بأربعة أوصاف:

الوصف الأول : أنهم حافظون لا يضيعون شيئا مما يصدر عن الإنسان من الفعال الحسنة أو القبيحة، ليلقوا جزاءهم جزاء وفاقا، وبذلك يتحقق العدل الإلهي. قال تعالى : (ووجدوا ما عملوا حاضرا وما يظلم ربك أحدا)[1]

الوصف الثاني : هم جامعون للكمالات التي سمت بهم ليقوموا بهذه الوظيفة التي أوكلت على أتم ما يكون مع الأمانة التامة. "كراما"

---

[1] سورة الكهف آية 49

الوصف الثالث: موثقون لما يراقبونه من أعمال وأقوال ونوايا، توثيقا عبر عنه بالكتابة. ولا تفهم الكتابة على أنها بمداد وورق، ولكنه تسجيل يتناسب مع خصائصهم الخلقية، توثيق لا يضيع منه شيء، الله أعلم بكيفيته وطريقته.
الوصف الرابع : يعلمون الفعال على حقيقتها، ولا يلتبس عليهم الظاهر بما خلفه من نوايا، ولا يتصور أن يموه عليهم أحد.

13←16- إن الأبرار لفي نعيم...عنها بغائبين.

يفترق المبعوثون إلى فرقتين :
الفرقة الأولى: هم الأتقياء الأخيار، الذين امنوا وصلحت أعمالهم فراقبوا رضوان الله فيما يقبلون عليه وفيما يتركونه. جزاؤهم أنهم منغمسون في النعيم الذي لا يخالطه غبن ولا نقص.
الفرقة الثانية : المشركون الأشرار الذين لا يراعون قيم الخير والشر، فهو يقدمون على الشر دون أن يتحرك في ضمائرهم رادع، ويعرضون عن الخير دون شعور بداع إليه.جزاؤهم الجحيم يوم القيامة يوم الجزاء : النار التي يذوقون آلام حرها اللاهب،وهم مقيمون فيها لا يبرحونها خالدين مخلدين.

18/17-وما أدراك ما يوم الدين.... والأمر يومئذ لله.

هولتَ الآية يوم الجزاء. بأنه فوق ما يتصور. وأكدت هذا التهويل بتكريره التكرار الذي يفيد تأكيده، وأن رُتبةً رُتبٌ تذهب صعدا مما لا يستطيع الخيال متابعته. يوم الجزاء يوم يلقى فيه كل فرد جزاءه، ولا يقدر أحد أن يغني عن غيره، أو أن يساعده بما يبعد عنه الضر، أو يضاعف له النفع.فالعجز هي الظاهرة العامة الشاملة.ذهب ما يقوم عليه المجتمع الإنساني في الدنيا من التعاون والتآزر.وبدا كل فرد واضح الفردية يلاقي جزاء ما قدم من خير أو شر.

19- والأمر يومئذ لله.

أكدت الآية المفهوم من الآية السابقة، معللة له وموضحة أن ذلك تم تبعا لانفراد الله بالتصرف في ذلك اليوم. هو وحده سبحانه يأمر وينفذ ولا كلمة لأحد سواه.

يوم السبت 4ذو القعدة 1435-2014/8/30

سورة المطففين

عرفت بسورة المطففين في المصاحف وفي كثير من كتب التفسير.و بسورة " ويل للمطففين" في بعض كتب السنة وفي بعض كتب التفسير.

واختلف في كونها مكية أو مدنية، أو مشتركة بعضها مكي وبعضها مدني. ونقل أنه نزل بعضها في مكة وبعضها في المدينة. فهي من آخر ما نزل في مكة، وأول ما نزل في المدينة.وظاهرة الظلم في المكاييل والموازين كانت فاشية في المجتمع المكي والمدني.وذلك من أكل أموال الناس بالباطل، الرافع للثقة في التعامل بين أعضاء المجتمع. ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : وما أنسب بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخلها النبي ﷺلئلا يشهد فيها منكرا عاما.

وهي السورة الثالثة والثمانون حسب ترتيب المصحف. وعدت السادسة والثمانين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة العنكبوت، وقبل سورة البقرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

ويل: الهلاك والحزن والشقاء الأدوم.

التطفيف : نقص ما يستحقه الطرف المقابل من الكيل أو الوزن.

اكتالوا : اشتروا ما عند الناس كيلا.

كالوهم : باعوهم كيلا.

يستوفون : يأخذون حقهم كاملا.

يخسرون : ينقصون.

عظيم : تقع فيه الأهوال العظيمة.

بيان المعنى الاجمالي :

الخسران ثابت وكذلك الهلاك مقرر للمطففين الذين يحتالون على الناس فإذا أخذوا منهم وزنا أو كيلا استوفوا حقوقهم كاملة، وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم سلعة باعوها لهم ينقصون منها ولا يعطونهم حقهم كاملا. هل غاب عنهم مصيرهم فظنوا أنهم غير مبعوثين من قبورهم للحساب، في الوقت المحدد المضبوط الذي لا يتأخر ولا يتقدم، في ذلك اليوم العظيم أهواله.اليوم الذي يبعث الناس كلهم قياما خاضعين لرب العالمين.الذي يظهر ملكه وتصرفه في جميع الخلائق.

بيان المعنى العام :

1←3، ويل للمطففين..يخسرون.

الهلاك ثابت وكذلك الخسران. وعيد للذين يتعمدون أكل أموال المتعاملين معهم بالباطل، الذين يحرصون عندما يشترون من عارضي السلع على أخذ كيل ما يأخذونه منهم وافيا غير منقوص.ومن ناحية ثانية لا يؤدون للطالب كمال حقه من السلعة التي يشتريها منهم، وينقصون له من الكيل الذي يستحقه، فإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم من أموالهم ينقصون الكيل والميزان ولا يعطونهم بمقدار الثمن الذي أخذوه منهم. روي أنه كان بالمدينة المنورة رجل يكنى أبا جهينة، له صاعان :يأخذ بالأوفى، ويعطي بالأنقص.وأن ذلك كان فاشيا يتابع التجار بعضهم بعضا.فلما نزلت الآية أقلعوا.واستقامت سوق المدينة على العدل. واستمر المنافقون واليهود على عادتهم من التطفيف، والاحتيال.

4←6، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون....العالمين.

أمر هؤلاء الذين يطففون عجب. ما لهم يواصلون الاستيلاء على أموال الناس أخذا وعطاء في المكاييل والموازين ؟ مالهم يقدمون على ذلك؟ ألا يظنون أن الله سيبعثهم أحياء، يحملون أوزارهم في يوم عظيم أهواله فيجازيهم.ومعنى ليوم عظيم في تاريخ محدد ووقت مضبوط هو يوم يقوم الناس أحياء وقوفا خائفين وجلين مسؤولين لدى رب العالمين، رب العالمين المالك لجميع المخلوقات،الخاضعة لحكمه، والتي تنال جزاءها منه في ذلك اليوم. وهذا النص قد صيغ صياغة كاشفة عن عظم ذنب المطففين، الذين يهدمون البناء الاجتماعي، بالطعن في اللحمة الرابطة بين أعضاء المجتمع، التي هي اطمئنان كل فرد لأخيه، وبالتالي طرد كل ما يوجب الخصام والفرقة.فعلاقة المغبون في الكيل أو الوزن بمن غبنه علاقة تربص للانتقام منه وأخذ حقه منه. وعوض أن يكون التعامل التجاري يمتن صلة

المتعاملين ينقلب هادما لتلكم الصلات. وإن كانت له نتائج قريبة مغرية بالربح العاجل، فإن مآلها على الاقتصاد خراب وضعف. ولذا فإن الآية دليل على تقبيح كل اعتداء على الحقوق في التعامل سواء أكان بالتطفيف أو بالغش، أو بالاحتيال، أو بالكذب والتلبيس. وقد اعتنى الفلاحون في بلدي في الأربعينات بزرع الخزامى. وكانت لها سوق رابحة في أواخر فصل الربيع يحصدونه ويجففونه، ويتولى التجار بيعه لألمانيا، التي وجدت فيه من الخصائص ما يفضل به على مثله في بقية أنحاء العالم.وقد كانت الإيرادات منه تبلغ مستوى رفيعا يعود بالخير على الدخل الفردي والاقتصاد الجماعي.ولكن بعض الفجرة استعجلوا الربح الحرام، وخلطوا الخزامى الجافة بالتراب، وبأنواع أخرى تفسد الخصائص العطرية، فقطع التجار الألمان الاستيراد منه بصفة باتة، وآلت المزارع إلى الزوال.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

كتاب الفجار: سجل أعمال المشركين والمطففين.

سجين : مكان ضيق يناسب هوان أصحابه.

المعتدي : الظالم.

الأثيم : كثير الآثام والذنوب.

أساطير : الأسطورة القصة المخترعة.

الأولين : الأمم السابقة.

الرين : الصدأ الذي يغشى الحديد، والمرآة.

القلوب : العقول.

بيان المعنى الإجمالي:

زجر للفجار عن تكذيبهم بيوم القيامة.وإثبات أن كل ما عملوه مسجل في كتاب في سجين، وهو وضع مهين في ضيق شديد يتناسب مع ماهم صائرون إليه.وسجين

هذا يتجاوز تصوره كل حد في الفظاعة.وكتابهم كتاب مثبت فيه ما عملوه ثباتا لا يمحي كرقم الثوب.الخسران والهلاك للمكذبين.الذين فسد تفكيرهم وخبثت أرواحهم لتكذيبهم بيوم القيامة. يوم الجزاء اليوم الحق الذي لا شك فيه، لا يكذب به إلا من جمع ثلاثة أوصاف خسيسة.

الأول: ظلم الحق والشرك وتكذيب الرسل ورفض الأدلة قبل النظر فيها.

والثاني : إلف المعصية والإثم.

والثالث : افتراؤهم على القرآن،إذ تحدثوا عنه بأنه أساطير الأمم الماضية، ولا شيء فيه وراء ذلك

زجر لهم وتوبيخ على قولهم : إن القرآن أساطير الأولين. ويؤكد ذلك أن عقولهم وأرواحهم قد حجبوها بحجاب صفيق هو ما كانوا يكسبون في حياتهم الدنيا من كفر وعصيان. وزجر آخر يؤكد الأول ويثبت أنهم يوم القيامة محجوبون عن رحمة الله، فلا مطمع لهم فيها.وفوق ذلك أنه يتحقق لهم ما أوعدوا به فيحترقون في جهنم. ويتضاعف النكال بهم بتذكيرهم أنهم كانوا أنذروا على لسان رسولهم ما يترصدهم من عذاب فاختاروا تكذيب رسلهم ومواصلة الشرك والعصيان

بيان المعنى العام :

7-كلا إن كتاب الفجار لفي سجين.

افتتحت الآية بكلمة " كلا" الدالة على الزجر، وعلى إبراز بطلان ما تقدمها، من التطفيف، ومن الإعراض عن تذكر يوم البعث وما يتحقق فيه من جزاء كل فرد عما قدم.

إن كتاب الفجار .ما يسجل من أعمال الفجار الذين يكسرون الحدود، ويتجاوزن إلى الشر دون تردد ولا تقدير لما يترتب على سوء فعالهم، في سجين.كلمة سجين كلمة من مبتكرات القرآن، صيغت من السجن الدال على الضيق، وعلى فساد ما حل فيه.وقد فرض المفسرون لها محامل أخذوها من المعنى العام الذي ذكرناه أوصلها القرطبي إلى ثمانية عشر قولا متداخلة ومكررة مع بعض الفوارق البسيطة. والذي تلخص عندي بعد تتبع الأقوال إذا خلصناها من الجانب المادي التي هي إضافات للتشنيع، كقول بعضهم تحت خد إبليس وفي الأرض السابعة، وتحتها، ونحو ذلك ؛ فالظاهر أن ما يسجل من أعمال الفجار، وإن سجله الملائكة المقربون، إلا أن تلكم السجلات تكون لتعلقها بالفجار في وضع مهين ضيق يتناسب مع مآلات أصحابها يوم القيامة. وهو ما ينسجم مع الفريق المقابل في قوله تعالى كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين على ما سنزيده بيانا.

9/8- وما أدراك ما سجين...مرقوم.

ما الذي يعلمك علما كاشفا عن " سجين " أي إنه بلغ من الفظاعة والهول ما يتجاوز تصورك عن المهانة والخزي لسجين. وكتاب الفجار المهين في سجين، هو كتاب مرقوم موثق ومكتوب كتابة بينة واضحة كالرقم المنسوج في الثوب يلازم الثوب ولا ينفصل عنه.

11/10 -ويل يومئذ للمكذبين.

العذاب والوعيد في ذلك اليوم العظيم أهواله، خاص بالذين تلبسوا بالتكذيب حتى صار المعرف بهم. هم مذمومون لأنهم يكذبون بما هو حق مؤكد وقوعه، لا مرية في حصوله: يوم الجزاء.

13/12 - وما يكذب به...الأولين.

إن عدم الإقرار بيوم البعث والجزاء، وإنكار ذلك،هو الذي فتح للفجرة أبواب الفجور.فلا يكذب بيوم البعث إلا من وطن نفسه على الظلم والاعتداء بالشرك ورفض الشرائع.اعتدوا على الحق سبحانه فنفوا وجوده، واعتدوا على الرسل فكذبوهم وحاربوهم وعملوا على تعطيل بلوغ هدايتهم للناس. واعتدوا على الحق فأصموا آذانهم عنه، فلم يعملوا في الدلائل ما رزقهم الله من مواهب. ومن إلف الإثم والمعصية. ومن تصلبهم في الكفر، وتعطيل عقولهم، أن موقفهم من آيات القرآن التي تفتح للعقول منافذ التفكير الصحيح، وتتجاوز بهم الظواهر إلى الحقائق التي وراءها.وتدعو فطرتهم لتنطلق مع ما ينسجم معها، وتؤكد الروابط الاجتماعية التي بها تتقدم الحضارة في جميع الميادين ؛ أن نفوا عنها تلك الخصائص، وقصروا تقديرهم للقرآن على ما جاء فيه من قصص، ولم يتعمقوا في تلك القصص التي ما وردت إلا من أجل العبرة، والإفادة منها ما يقوم العقيدة ويرشد إلى السلوك الصالح ؛ فجعلوها قصصا تلهي الناس وترفه عنهم كقصص الأمم السابقة، التي يتحلق فيها الناس حول القصاصين ليرفهوا عن أنفسهم، و ليصرفوا وقتهم الضائع في الاستماع إلى غرائبها.

14←15- كلا بل ران على قلوبهم... تكذبون.

تكذيب لهم وردع لهم وزجر عن قولهم أساطير الأولين لكونه كذبا ومنافيا للحقيقة. وعطف عليه بكلمة "بل" الدالة على الإبطال أيضا مؤكدة لمضمون " كلا" وكاشفة عن السبب الذي حملهم على مقالتهم الكاذبة.

قالوا في القرآن ما قالوا، لأن عقولهم قد غشاها الصدأ، فلم يبق فيها أثر من النور الكاشف للحق.ران على قلوبهم، غشى عقولهم سوء أعمالهم التي تعودوا على ارتكابها في حياتهم الدنيا، وإلفهم للباطل،حتى أصبح حجابا يحول بينهم وبين إدراك الهدى. وهكذا يكون وضع الإنسان، فإذا رجع إلى ربه وتذكر ما تقتضيه العبودية من الطاعة وفعل الخير رُفع الغبش الذي خالطه من الإثم بمجرد ما يصدر عنه ، فيُبقي على صفاء روحه ولمعان فكره.وإذا فعل المعصية ولم يستيقظ لما فيها من بعد عن ربه، وطاعة له، بقيت آثار ذلك، وما يزال يعاود فعل الأثام حتى يتراكم شيئا فشيئا على روحه وعقله صدأ المعصية، وهو الران، فيستوي عنده الخير والشر، ويفقد ما تعمر به قلوب الصالحين من التقوى. فإذا هي مظلمة.

15←17-كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون... تكذبون.

تكرر الزجر بكلمة "كلا" في آيات هذه السورة مبطلا أوهامهم وكذبهم التي منها أن القرآن أساطير الأولين. وأثبتت الآية أنهم مهانون، لا يلمسون أي وجه من أوجه التكريم يوم القيامة يعاملون معاملة المنبوذين المحتقرين. ذلك أن الأطماع تسمو راجية أن ترى ربها الذي عودها فضله، وأنزل عليها من رحماته ما لا يحصر له عدا. وتطمع أن يسمع استغاثتها من الكروب التي هي فيها ليرفع عنها شيئا منها. ولكن الفجار يحال بينهم وبين قبول استغاثاتهم وآمالهم بحجاب، مهانون فلا يصل شيء من ذلك إلى ربهم. وإذ حجبوا عن رحمة الله وتركوا لأنفسهم وما قدموه من أعمال، فإنهم سيحترقون في جهنم، ولا منقذ لهم من مصيرهم ذاك.ويزيدهم نكالا تذكيرهم أن ما هم فيه هو الذي أنذروا به على لسان الرسل فكذبوا مصممين على رفضه.

كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝

بيان معاني الألفاظ:

كتاب الأبرار: سجل الأتقياء الخيرة

عليون : مفهوم فيه رفعة وسمو.

مرقوم : مثبت بكيفية لا تمحي ولا يلحقها تغير.

المقربون : أصحاب المكانة الرفيعة من الملائكة

الأرائك : الأريكة سرير ووسادة وحجلة: قبة يتدلى من جانبيها ستائر تعطي للسرير فخامة وبهجة.

نضرة النعيم : بهجة النعيم ورونقه.

الرحيق : الشراب الخالص النقي .

مختوم : مسدود بسداد من المسك.

المسك : مادة طيبة الرائحة جدا.

فليتنافس : فليتبارى في التحصيل عليه المتبارون.

مزاجه : الممزوج به.

تسنيم : علم لعين في الجنة

بيان المعنى الإجمالي :

إبطال لتكذيب المشركين والكفرة، ولاستبعادهم البعث، ثم إثبات لوضع الأبرار الأتقياء.فكتابهم المسجل فيه ما قدموه في منزلة رفيعة. وما الذي يعرفك بهذه المنزلة ؟ هو كتاب مثبت فيه برقم لا يمحي ولا يتبدل، يشهده لعلو منزلته المقربون من الملائكة. إن الأبرار المتقين الخيرة منغمسون يوم الجزاء في النعيم البالغ بهم أقصى ما يتصور. مطمئنون جالسون على الأرائك. كل ما يحيط بهم يدعو إلى الإقبال عليه والاستمتاع بجماله.ظهرت آثار النعيم والرضا على وجوههم، تنبئ قسماتهم عما هم فيه من خير ورغد عيش. يسقيهم غلمانهم المخلدون من خالص الخمر. ختم عليها بسداد من مسك يفوح منه أطيب الرائحة.وفي هذا النعيم فليتسابق المتسابقون الراغبون في الكرامة وذلك بالطاعة وسلامة العقيدة. ويمزجون خمر الجنة من ماء التسنيم، وهي عين يشرب منها المقربون الأتقياء تنزل عليهم من الأعلى، كأشد ما يكون صفاء وألطف مذاقا.

بيان المعنى العام :

18—21-كلا إن كتاب الأبرار..يشهده المقربون.

كما صرح القرآن بوعيد الفجار، وأن كتابهم في سجين، قابل الوعيد بالوعد للمتقين الصالحين " **الأبرار** " وهما على نفس الأسلوب. وهذا شأن القرآن أنه يقرن بين الوعيد والتحذير، بالوعد والتبشير. لتنفذ هدايته بالترغيب والترهيب. وكتاب

الأبرار هو الكتاب الذي يسجل فيه الملائكة الموكلون بمراقبة الأعمال ما يقوم به الأبرار من صالح الأعمال، وضروب الخير قولا وتأثيرا في محيطهم.وتبعا لما سجل فيه من خير وفضل، يتم إيداعه في عليين.وعليون من مبتكرات القرآن، على وزن فِعيل بكسر الفاء وتشديد العين المكسورة أيضا. مأخوذ من العلو والسمو والرفعة. وقد تأثر المفسرون بأصل الاشتقاق،فحملوا الكلمة معاني أبلغها القرطبي رحمه الله إلى ما يقارب خمسة عشر، مع فارق طفيف بينها في معظم التخريجات. والذي نطمئن إليه أن كتاب الأبرار في مستوى من الرفعة والعلو يتناسب مع ما سجل فيه.ولذلك عقب بقوله تعالى: وما أدراك ما عليون. ما الذي أعلمك بحقيقة ذلك؟ وفي هذه الصياغة إثارة معبرة عن التنويه بهذا المقام، ورفعته في مراتب الشرف. ومن شأن "ما أدراك" أن تلحق بما يكشف عنها. فهو كتاب مرقوم رقما واضحا لا يمحي ولا يلحقه تغيير، هو كرقم الثوب داخل في نسيجه.ومع ثباته هو بمحل التنويه من الملائكة المقربين الذين يشهدون لصاحبه بما نال من التقدم في مراتب القبول والخير.

22/23- إن الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرون.

تنويها بالأبرار أعيد ذكرهم بهذا الوصف دون الضمير "هم" منغمسون في النعيم، النفسي والروحي والجسمي.رزقهم الله من فضله ما مكنهم به من جميع رغباتهم،فلا يحرمون من قليل ولا من كثير. وأسمى ما يصل إليه النعيم أن يكون المنعم شاعرا بالطمأنينة التامة، لا يصحبه قلق ولا سؤال. عبر عن ذلك بقوله: على الأرائك ينظرون. والأرائك جمع أريكة، والأريكة تطلق إذا اجتمع ثلاثة أشياء : سرير، ووسادة يرتفق بها، وقبة يتدلى من جانبيها ستائر تعطي المجلس فخامة.تمتد أبصارهم إلى ما حولهم فيجدون في جميع المشاهد ما يزيدهم راحة وسرورا.

24←26- تعرف في وجوههم نضرة النعيم... المتنافسون.

ذكر القرآن أنهم انغمسوا في النعيم، مبتهجين بالوضع الذي هم عليه. ففصل ذلكم النعيم في مظاهر اختص بها الأبرار في الجنة. يخبرك أيها المتطلع لمعرفة أحوالهم، البشر البادي على وجوههم، والرواء الجاري في أبشارهم، والبهجة والحسن، يخبرك ذلك بما تفاعل في بواطنهم من الرضا عما هم فيه. يسعى المرفهون المقبلون على متاع الحياة الدنيا في مضاعفة شعورهم باللذة، فيحققون رغبتهم تلك بشرب الخمر الذي ينشط إحساسهم باللذة ، وينوم شيئا من صرامة العقل المرتبط بالواقع. وهذه اللذة التي تسري في عقولهم ومفاصلهم تنتهي بتخدير

عقولهم وعرامة الشهوة.و في الشعر العربي من وصف مجالس الخمر، وتأثيرها، والتعلق بها ما لا أظن أن لغة من اللغات بلغت مثل ذلك. فداعية شرب الخمر لا يقمعها إلا التقوى، وصارم التحريم القرآني.والأبرار لا يحرمون في الآخرة ما رغبوا عنه في الدنيا امتثالا لأمر ربهم، فهم يسقون، يطوف عليهم غلمان لهم بأكواب الخمر التي تحقق النشوة وتنشط الإحساس باللذة، وتفارقها في أمور:

أولا : خمر الجنة صافية كأشد ما يكون الصفاء رحيق وخمر الدنيا بعيدة عن ذلك المستوى من الخلوص والصفاء.

ثانيا: أنها تأتيهم في أكواب مختومة مسدود عليها بسداد هو المسك الخالص الذي ينشر رائحته الذكية،بينما سداد خمر الدنيا هو من طين ونحوه.أفضل حالاته أنه لا يغير رائحتها ويمنع تسرب الهواء إليها.

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. وفي مثل هذا المستوى من النعيم الفائق فليتسابق إلى التحصيل عليه المتعلقون بهذا النوع الكريم من الشراب الذي لا نظير له في الدنيا. ويكون تسابقهم بطاعة الله، وفعل الخير والبعد عن الشر. إن ذلك هو مهر هذا النعيم الخالد.

28/27- ومزاجه من تسنيم...المقربون.

هذا الشراب الموصوف بالصفاء والخلوص المختوم بالمسك، والذي لا ينفذ إليه الهواء المغير لقيمته، يشربه الأبرار بعد أن يكسروا حدته بالماء، وهذا شأن الشرّب في الدنيا، أنهم يقصدون إلى أن تطول مجالسهم الخمرية ليحسوا بالنشوة واللذة ويطول بهم ذلك الإحساس، فلا يشربون الخمر صرفا فيغتال عقولهم في ضربة واحدة. فالأبرار يمزجون بماء التسنيم.وهي كلمة من مبتكرات القرآن مأخوذة من السنام أعلى ظهر البعير، فهو ماء نازل من علو، عرفه القرآن مادحا له بقوله : عينا يشرب منها المقربون. ولما سئل عنه ابن عباس قال : هذا مما قال الله فيه : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يكسبون)[1] فهي عين يشرب من مائها المقربون الأبرار الفائزون بأعلى درجات القرب من الله،ويمزجون بها الخمر. وهذا أقصى ما تستطيع به اللغة أن تقرب مغيبات يوم القيامة إلى تصور البشر.

---

[1] سورة السجدة آية 17

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أجرموا: صناديد المشركين.

يتغامزون : يشيرون إشارة استهزاء بأعينهم.

انقلبوا إلى أهلهم : رجعوا إلى بيوتهم.

فاكهين: يتحدثون عنهم حديث الفكاهة والاستهزاء لا الجد.

ضالون : رأيهم فاسد.

ثوّب: جوزي.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن موقف المشركين الفجرة من ضعفة المؤمنين،فزيادة على إذايتهم المادية، كانوا يعتدون عليهم بحرب نفسية، يضحكون منهم ساخرين من هيآتهم ومن الخصاصة التي هم عليها.ويتغامزون فيما بينهم ليشهروا بطريقة هي شأن السفلة المنحطين خلقيا.وفي بيوتهم يتخذون منهم موضوع تفكه بينهم وبين سمارهم وأعضاء أسرهم.ويضيفون إلى ذلك تصريحاتهم الوقحة : إن المؤمنين قد ضلوا الطريق وفسد تفكيرهم لما أعرضوا عن مباهج الدنيا القريبة وتعلقوا بجزاء الآخرة البعيد. ويعلق القرآن على حكمهم بضلال المؤمنين أنه أقحموا أنوفهم مع جهل فيما لا شأن لهم به.وليس لهم فيه قول.ولا هم في مستوى أن يكونوا حفظة على غيرهم

فاليوم يوم القيامة يجمع الله للمؤمنين ما يجعلهم يضحكون من المجرمين الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا. يطلعهم على أوضاعهم في النار وهم يستغيثون ولا يغاثون، وتتوالى عليهم الإهانات وضروب الذل، ويذكرهم ربهم بما كان من المجرمين في الدنيا ويأذن لهم في جزائهم بما كانوا يؤذونهم به من الضحك والسخرية. يتم لهم ذلك وهم على أتم ما يكون من النعيم والطمأنينة على الأرائك يبلغ نظرهم إلى المعذبين دون أن يجدوا من ذلك أي نقص في نعيمهم. لقد جوزي الكافرون بما كانوا يفعلون في الدنيا جزاء لا ظلم فيه.

بيان المعنى العام :

30/29- إن الذين أجرموا كانوا من الذين...يتغامزون.

.تشوه الآية موقف المشركين الذين كان الإجرام مقومـا لهـم.وذلـك أن الإنسـان إذا مـا انحط مستواه الخلقي،وألف الظلم وعمل السـوء، تتطبـع نفسـه بالشـر، ويجعـل للحيـاة قيما لا تتصـل بـالخير والفضـيلة.فيهـون عليـه ارتكـاب الموبقـات، والتعـدي علـى الآخرين وهضم حقوقهم. ويخيل إليه أن من لـم يكـن علـى شـاكلته حقيـق بالإهانـة.إن هذه النفسية المنحرفة ظهرت آثارها فـي معاملـة المشـركين لضـعفاء المسـلمين الـذين لم يكن لهم من وفرة المال ما يكسوهم مهابـة عنـد المجـرمين.كـانوا يضـحكون مـنهم استهزاء بهم واحتقارا. وإن حربهم النفسية هذه، يرمـون مـن ورائهـا هـدم العـزة التـي طبع بها الإيمان أصحاب محمـد صـلى الله عليـه وسـلم. وتصـور عمـار بـن ياسـر وبلال وصهيب وخباب بـن الأرت وغيـرهم مـن فقـراء المسـلمين رضـي الله عـنهم، وكانوا كثيرين لأن السورة نزلـت مـع آخـر العهـد المكـي ،وهـم يسـمعون قهقهـة المشركين عندما يمرون، تصور عنـف إذايـة المجـرمين، ولـولا مـا أفرغـه الله فـي نفوسهم من عزة الإيمان به لشككوهم في ذواتهـم.ويتبعـون ضـحكهم السـاخر بإشـارات يتقنها السفلة بغمز عيـونهم تنبيهـا لأمثـالهم إلـى مـا يظنونـه مجـالا للسـخرية فـي المستضعفين.

31- وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين.

هؤلاء المجرمون الذين امـتلأت نفوسـهم سـخرية واسـتهزاء مـن ضـعفة المـؤمنين، وعبروا عن ذلك بضحكهم وتغامزهم، يصـحبهم ذلـك الشـعور حتـى عنـدما يعـودون إلى بيوتهم ، فيتخذون من المستضعفين مـادة للتفكـه بهـم والاسـتهزاء مـنهم فيشـركون أزواجهم وذرياتهم في ذلك، وقد يكونون يقصدون إلى تنفير أهليهم من الإسلام.

33/32- وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون...حافظين.

جمع المجرمون بين إشـارات الاسـتهزاء بالضـحك والتغـامز، والحـديث المسـتهزئ بالمؤمنين مع أهليهم أضافوا إلى ذلـك وقاحـة أخـرى حاصـلها : أنهـم لا يسـتحيون من مباشرة ضعفة المؤمنين بـالقول الجـارح، فعنـدما يـرونهم جالسـين أو عـاملين أو مجتمعين على الخير من الصـلاة والـذكر يعلنـون : إن هـؤلاء ضـالون.تركـوا متـاع الحياة الدنيا الحاضر، وتعلقوا بنعـيم مـا بعـد المـوت.وعنتـوا أنفسـهم بـالالتزام بقـيم تضيق عليهم الحياة.

وما أرسلوا عليهم حافظين : ما كان للمشركين توكيل علـى المـؤمنين يتـابعون بـه مـا يصدر عنهم، ويحفظـونهم مـن الأخطـاء التـي ربمـا يقعـون فيهـا. فتعلـيقهم بـأنهم

ضالون، إقحام لأنفسهم في أمر هم أهون من يكون لهم فيه نظر وتعقب. وفي الكلام إشارة إلى أن مستوى المشركين من الفساد الفكري والعقدي يبعدهم عن أن يكون لهم على المؤمنين رقابة ومتابعة فتعليقهم هذا يقابل بالاستهزاء بهم في تصورهم أنهم على شيء من الحكمة، إذ هم فارغون من كل مؤهل يؤهلهم لتقويم عمل المؤمنين. صورتهم صورة الأمي الذي لا يحسن الكتابة، ومع ذلك يريد أن يصوب كلام أديب كبير. فنقول له لم تكلف بهذا.

35/34- فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون..ينظرون.

فاليوم : يوم القيامة الذي فصلت الآيات السابقة ما يلقاه فيه الفجرة من عذاب وهوان، وما يلقاه المؤمنون البررة من تكريم. وهو يوم الجزاء.صرحت الآية بجزائهم أنه سيكون من جنس ما أجرموا به، فقد كانوا يضحكون من المؤمنين ويستهزئون بهم، ففي يوم القيامة يمكن الله المؤمنين الذين عانوا من استهزاء الفجرة، أن يكشفوا مواقع الفجرة في العذاب، ويعاينون تقلبهم في جهنم ملعونين، ويتذكرون سخريتهم وضحكهم منهم في الدنيا، فيؤذن لهم أن يضحكوا منهم وهم يستغيثون ولا يغاثون. يشاهدونهم في دركات النار مقموعين، وقد من عليهم ربهم فوفاهم أجورهم، وهم على أتم ما يكون من الراحة والطمأنينة ينظرون وهم جالسون على الأرائك.

36- هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون.

سؤال تقريري مثبت أنه قد أطبق عليهم جزاء ما كانوا يفعلونه في الدنيا. والخطاب موجه بهذا الاستفهام إلى كل من يصلح أن يتوجه له الخطاب. وثوب أصله جوزي بالخير على فعل محمود، واستعمل هنا للجزاء الشر تهكما بالمجرمين.

يوم الثلاثاء07 ذو القعدة 1435-2014/9/02

سورة الانشقاق

سميت في كثيرمن كتب السنة " سورة إذا السماء انشقت" بأول آية فيها. وسميت في المصاحف وكتب التفسير "سورة الانشقاق " وهي سورة مكية باتفاق رتبتها حسب ترتيب المصحف الرابعة والثمانون، وحسب ترتيب النزول الثالثة والثمانون نزلت بعد سورة الانفطار، وقبل سورة الروم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ

انشقت : اختل تركيبها فلم تبق أجزاؤها متماسكة.

أذنت:أصغت واستمعت منقادة.

حقت : حق لها أن تنقاد وتستمع.

مدت : انبسطت فذهبت الجبال والروابي.

تخلت : أخرجت ما في باطنها فلم يبق منه شيء.

الكدح : إتعاب النفس في العمل والكد.

الكتاب : الصحيفة الموثق فيها الأعمال.

الحساب اليسير : العرض بدون مناقشة.

ينقلب : يرجع.

أهله : الزوج والأولاد والأقارب.

ثبور : الهلاك.

يحور : يرجع إلى الحياة.

بصير : العالم العلم الكامل.

بيان المعنى الإجمالي:

إذا فسد الكون الدنيوي، وبرز ذلك خاصة في ظاهرتين :تشقق السماء عندما يأمرها ربها بالانشقاق فتستمع لأمره وتطيع، ولا يتصور منها غير الانقياد. وتمدد الأرض عندما يأمرها ربها بذلك، وبإخراج ما كان يحويه بطنها لتقذفه إلى الظاهر ولا تبقي منه أي شيء. فتفعل ذلك مستجيبة مطيعة لما سمعته من ربها. عندما تتحقق الظاهرتان يلاقي الإنسان ربه محملا بما قدم في حياته وما والى سعيه وبذل فيه جهده، من خير أوشر. وبذلك ينقسم الناس إلى فريقين : فريق سعيد، وهو من يتلقى صحائف أعماله بيمينه، ويمن عليه ربه فييسر حسابه ولا يناقشه عن كل صغيرة وكبيرة،بل يسحب عليه رداء العفو والفضل ويعجل به إلى الجنة. وفريق شقي تعيس وهو من يتلقى كتاب أعماله من وراء ظهره بشماله. إنه يتيقن أنه هالك، أمامه الشقاء والعذاب والمهانة، فيندب حظه، وينادي : واخسارتاه! واهلاكاه ! ويعجل به إلى مقاساة حر عذاب السعير .كيف كان في حياته منعما مسرورا، وكيف هو اليوم شقيا تعسا. جوزي بذلك لأنه رجح أنه لا حياة بعد الحياة الدنيا ولن يرجع إلى حساب ربه.ظنه هذا ظن كاذب.إن ربه الذي أنشأه ووالى عليه فضله هو العليم بما قدم وبما أساء في استخلافه في الكون، فحكمته تقضي أن لا يعامل المحسن معاملة المسيء.

بيان المعنى العام :

1-5- إذا السماء انشقت...وحقت.

يلفت القرآن نظر كل إنسان يصح أن يتوجه له الخطاب إلى حقيقة قد يغفل عنها بتواصل مشاهدته للكون على أوضاعه دون تغيير، فينبئه بتحولات تحدث في السماء، وتحدث في الأرض.

أما ما سيحدث في السماء، فهو أن تماسكها ينخرم، وبعد أن كانت الجاذبية بين مكوناتها رابطة لها ربطا محكما كأشد ما يكون الالتحام والربط، تتحلل تلك اللحمة، وتظهر أخاديد وشقوق. ولا يتم ذلك إلا لأن الأمر التكويني صدر إليها فاستمعت إليه وأطاعته.صدر بأن تتصدع وتتشقق فتشققت وتصدعت، و استجابتها لأمر

ربها، واستماعها لما يأذن به، هو ما هي ملزمة به ومحقوقة.حق عليها أن تطيعه وتنقاد لما يأمر به.

وأما ما سيحدث في الأرض، فإن الأرض ستتمدد، وتتهار الجبال والروابي فتتفتت، ويتغير شكلها العام، ويصحب ذلك أنها تقذف بما في باطنها إلى ظاهرها، تقذفه بصورة تأتي على جميعه ولا يبقى منه شيء مخزون كما قال تعالى:(وأخرجت الأرض أثقالها)[1] ثم هذا لأنها استجابت لأمر ربها أيضا، ومحتم عليها أن تنقاد لمالك أمرها ومالك كل شيء الله الواحد القهار كما حصل في السماء.

6- يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه.

كما لفت الأنظار وشوقها إلى ما سيحدث.نادى الإنسان بوصف كونه إنسانا نداء يصلح ليتوجه إلى المؤمن والكافر وإلى من كان موجودا عند نزول الآية، وإلى من سيولد.ليوقظه بهذا النداء إلى أنه يكد ويجد ويتعب نفسه بصفة متواصلة، ويوالي سيره الحثيث ويبذل جهده إلى الموت، حيث تعود نفسه إلى تفرد الله بالتصرف فيها، لا مفر لك من لقاء ربك. فقوله تعالى : إنك كادح إلى ربك كدحا وعظ وتذكير، وإبراز لنهاية سعي الإنسان في الحياة.إنه في كل لحظة من لحظات حياته يصدر عنه من الأعمال ما يفني به جزءا من عمره، ويسير سيرا متواصلا إلى اليوم الذي يلقى فيه حسابه وجزاءه عند ربه، إما خيرا وإما شرا، جزاء عادلا. وذلك عندما تتحقق الظروف التي افتتحت بها السورة.فيكون تقدير الكلام هكذا : يا أيها الإنسان إنك تواصل جهودك وتتعب نفسك بما تقوم به من أعمال لتلاقي ربك محملا بما قدمت، وذلك عند حصول الظاهرتين : انشقاق السماء وما عطف عليه، وامتداد الأرض وما عطف عليه. وقدم الظرفان المفتتحان بـ إذا لأن معظم المخاطبين هم من الكافرين الذين ينكرون البعث، اعتمادا على ما يشاهدونه في عمرهم القصير من استمرار حركة الكون على نظام.فظنوا أنه نظام ثابت لا يختل، فلذلك كان القصد الأول إثبات أن نظام الكون يختل ويفسد وعنده تقوم الساعة.

7←15- فأما من أوتي كتابه... كان به بصيرا.

فصلت الآيات الإجمال الواقع في الآية السابقة" إنك كادح إلى ربك كدحا" كل فرد سعى واجتهد وأجهد، ليلقى ربه بما قدم. والناس فريقان : فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، والنهاية متعاكسة كما هي في الحياة الدنيا بينهما الاختلاف الكامل في التصور والعمل.

---

[1] سورة الزلزلة آية 2

الفريق الأول :الأتقياء، عبر عنهم بأنهم تناولوا كتاب أعمالهم بأيمانهم.وتناول صحائف أعمالهم بأيمانهم إشارة إلى أنهم بمحل الرضا.ذلك أن الله فطر الإنسان على قوة الجانب الأيمن، وتبعا لذلك يتناول به الطيبات المحبوبة.فتناولهم للكتاب باليمين مشعر بأن الله ألهمهم ذلك لما قدر لهم من خير وتكريم.ثم أعلنت الآية عن هذا المفهوم : أن من أوتي كتابه بيمينه فالعاقبة أنه سوف يحاسبه الله حسابا يسيرا، لا يناقشه عن كل صغير وكبيرة، ولا يدقق معه التدقيق الذي لا بد أن يكشف عن تقصير أو عن قصور.بل غطى النقص بما في صحائفه من الكمالات، كما قال تعالى : (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)[1] فينتهي من الحساب سريعا ويعجل به إلى الجنة. ويتعمق إحساسه بالبشر والسرور كالمسافر الذي نجح في تجارته، وغنم منها الخير الكثير،وعاد إلى أهله بعد طول اشتياق، مفوزا بالسلامة والخير الوافر.

الفريق الثاني : من أوتي كتابه وراء ظهره. يلقى إليه كتاب أعماله مصحوبا بالإهانة يأتيه من خلفه، ولا يكرم بمواجهة الملك الموكل بذلك. وبالمقابل فإن يمناه تتعطل فلا تأخذه، وتنطلق شماله لتناوله. قال تعالى : (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه)[2].

إن تسلمه لكتابه من وراء ظهره بشماله، يحقق له أنه خاسر الخسران المبين، وأن ما يرقبه هو أسوأ ولا يشك أنه هالك.فيندب حظه، وينادي يا ثبوري ! يا هلاكي ! يا خسارتي! ولن ينفعه ذلك.فيعجل به إلى النار التي يصلى بسعيرها المتوقد. فيا عجبا كيف تحول وضعه من السرور الذي كان غارقا فيه في دنياه إلى الأنقان، إلى المهانة والعذاب والآلام التي تفوق الوصف.

عاقبته التي يقاسي أهوالها هي جزاء ما رجحه فبنى عليه حياته واختياراته وأفعاله: أنه لن يرجع إلى الحياة بعد الموت، ونفى البعث نفيا مؤكدا مستمرا كما تفيده كلمة "لن". وسارع القرآن لإبطال هذا الحساب بكلمة بلى ظنه باطل وغير صحيح.إن ربه الذي تولاه بفضله حتى تطور إلى المستوى الذي هو عليه، عليم به في الحال والمآل، وقد أعلمه بأنه سيبعث، وأما الكافر فإنه جاهل معاند.

والعليم بما تم في الوجود، من وجود صالحين يسعون إلى الخير ويعملون به، ويؤدون رسالتهم في الاستخلاف في الأرض حسب التوجيه الإلهي، ومن وجود

---

[1] سورة هود آية 114

[2] سورة الحاقة آية25

أشرار لا يهمهم إلا ما يوفرون به لأنفسهم أكبر حظ من المتعة والنعيم،ولا يهمهم ما يتسببون فيه من فساد لغيرهم وللكون.العليم تقتضي حكمته أن يتم البعث حتى يجزى كل فرد بما صنع ولا يستوي الخبيث والطيب.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الشفق : الحمرة التي تظهر في أفق غروب الشمس.

الوسق : الجمع.

اتساق القمر : اجتماع ضيائه.

السجود : الخضوع.

يوعون : يجمعون من الكفر والمكر.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بـ"الشفق"، وبـ"الليل" عندما يجمع الكائنات في مأويها، وبـ"القمر" إذا كمل ضياؤه. كلها تقلبات في الكون تدل على القدرة البالغة والحكمة الشاملة.أقسم بها على أن الناس يتحولون من طبق وحال ووضع في الدنيا إلى وضع آخر يجانسه ويطابقه في الآخرة، فمن كان صالحا تحول إلى خير وسعادة، ومن كان كافرا فاسقا تحول إلى وضع مطابق لوضعه في الدنيا شر وشقاء.

ولما كان هذا ما ينتهي إليه كل إنسان فعجب من الكافرين لماذا يصرون على كفرهم ولا يؤمنون بك ولا بما أنزل عليك. ومع ذلك إذا تليت عليهم آيات القرآن لا يشعرون بالاستكانة والخضوع. إن جرثومة فسادهم أنهم مصرون على التكذيب، والمكر، ليوقفوا المد الإسلامي، والله عليم بما تحويه صدورهم . فبشرهم بشارة هي هلاكهم وخسارتهم بما قدر لهم من العذاب الذين يذوقون آلامه.ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وفعلوا الخير لهم أجر ثابت استحقوه لا تلحقهم عليه منة، ولا ينقطع، فهم مخلدون في النعيم.

بيان المعنى العام :

16←19-فلاأقسم بالشفق..لتركبن طبقا عن طبق.

رتب على التفصيل السابق من جزاء أصحاب اليمين ومن أوتي كتابه وراء ظهره مضمون هذه الآيات التي افتتحها بالقسم.وأن قوله لا أقسم، قسم مؤكد كما تبين لنا ذلك في مواقع متعددة من القرآن. لا أقسم بيوم القيامة -فلا أقسم بالخنس -أقسم القران بثلاثة ظواهر لفت إليها الأنظار لما فيها من عجيب الصنعة. أقسم بالشفق الحمرة التي تقارن كل يوم مغيب الشمس. فيه يبقى للضوء أثر يكشف الكائنات، وتأخذ الظلمة في تعتيمها شيئا فشيئا. ومشهد تداخل الألوان مشهد جميل بالغ غاية الجمال، ثم لا يدوم ويمحي. فهو قسم بمشهد من مشاهد الكون، وفيه تحولات متعاقبة، تخلف كل حالة الحالة السابقة.والقسم الثاني جاء بالليل وما وسق، ومعنى وما وسق: أي ما جمع. وهو يشير إلى أثر الليل، الظاهرة الكونية في جميع الكائنات، إذ تراها تتجمع بعد تفرقها نشيطة في الحياة. فتأوي إلى منازلها التي انطلقت منها في الصباح، وتتجمع طلبا للسكن والراحة والاستجمام لتجديد النشاط ويتم هذا على فترات متلاحقة ومتجانسة. والقسم الثالث بالقمر إذا اجتمع ضياؤه فاكتمل بدرا. وقد مر بمراحل قبل بلوغه ذلكم المستوى من التمام والضياء.

والمقسم عليه : لتركبن طبقا عن طبق.الطريقة التي صيغت بها الآية طريقة مبتكرة غير معهودة، وكان هذا مما حرك عقول المتأملين في كتاب الله ليكشفوا عن المقصود الأقرب منها. وكثرت تبعا لذلك تخريجاتهم وترجيحاتهم.والآية تتكون من ركيزتين. الركيزة الأولى "لتركبن" الركيزة الثانية " طبقا عن طبق "ولما كان الركوب أصله أن يستعمل في كون الإنسان على ظهر حيوان. وهذا المعنى لا يتلاءم مع النص القرآني. ولما تعلق بـ" طبقا" فيكون ضبط المقصود من " طبقا عن طبق " مقربا للمعنى. فلنعتن بكلمة " طبقا" أولا.

الطبق : يقول الراغب : (يستعمل الطباق في الشيء الذي يكون فوق الآخر تارة، وفيما يوافق غيره تارة كسائر الأشياء الموضوعة لمعنيين.ص516) فعلى ما يقوله الراغب يستعمل في علو شيء على آخر، وفي التوافق بين الشيئين.وأكد في القاموس وشرحه ما ذكره الراغب فقال : (الطبق محركة غطاء كل شيء لازم عليه...والطبق أيضا من كل شيء ما ساواه)[1] . فيكون معنى لتركبن لتتمكنن تمكن من يركب الشيء ويعلو عليه. وطبقا عن طبق وضعا وأحوالا، تتجاوزون كل حال إلى حال آخر مساو له.

ولنقترب أكثر من المقصود من الآية نعود إلى سباق هذه الآية وسياقها. فقد تقدم في السورة تحول السماء وما تبعه، وتحول الأرض وما تبعه.وكدح الإنسان كدحا

[1] تاج العروس ج26 ص62/49

متواصلا ليقف كدحه ويلقى حسابه طبق ما قدم.والتنصيص على أن الكافر خدع نفسه لما ظن أنه لن يعود إلى الحياة مع أن ربه أحصى عليه كل شيء ويجازيه طبق ما قدمت يداه..فهي كلها تحولات تنفي الثبات والدوام والأبدية.ثم أقسم بأحوال هي مظاهر للكون فيها تحولات الشفق والليل والقمر كما بيناه في تفسيرنا للقسم.ثم جاء المقسم عليه : لتركبن طبقا عن طبق، ليسير في النهج العام لما سبق. فيكون التقدير : لينفذن القدر فيكم وتتحولون من وضع إلى وضع آخر يتناسب مع الوضع الأول الذي أمضيتم عليه حياتكم. يغطيه ويتطابق معه. فمن آمن واتقى فإنه يتحول من الحياة الدنيا إلى حياة الآخرة قريبا من ربه، كما كان يسعى في رضاه في الدنيا. يفوز برضوانه في الآخرة. وأما من طغى واثر الحياة الدنيا وابتعد عن السلوك الذي يرضاه ربه، فإنه يوم القيامة يكون أبعد ما يكون عن منازل رضوانه ينطبق وضعه الدنيوي عليه في الآخرة. فجميع البشر يلقون أوضاعا تتطابق مع أوضاعهم في الدنيا من السعادة أو الشقاء الحقيقيين.

21/20-فمالهم لا يؤمنون..لا يسجدون.

سؤال يفيد الإنكار والتعجيب من تصلب الكافرين في كفرهم، رغم الأدلة التي عرضها عليهم القرآن،وأوضحها رسول الله ﷺ بأجلى بيان. ومن ذلك ما حذرهم به مما جاء في الآية السابقة بأنهم يصيرون يوم القيامة إلى حال مطابق لحال كفرهم في الدنيا. "لا يؤمنون" لا يوجد ما يحول بينهم وبين الإيمان بالبعث، ولا بينهم وبين الإيمان مطلقا.

وما لهم إذا تلي عليهم القران لا يسجدون. لا يخضعون لمنزله، ولا يخشعون لما يحرك القلوب فيوصلها بالله من بيناته.إن مواقفهم المتباعدة من استماع القرآن، وجمود أحاسيسهم أمام تأثيره هو أمر عجب، فعدم السجود الوارد مورد العجب، هو الاستكانة والخضوع لا السجود على الأرض. ولذا لم ير مالك هذه الآية موضع سجود، ولا في أي سورة من سور المفصل. وهو ما روي عن ابن عباس. وعند أبي حنيفة والشافعي سجدات القرآن أربع عشرة سجدة بزيادة سجدة سورة النجم،وسجدة سورة الانشقاق هذه، وسجدة سورة العلق. وعند الإمام أحمد خمس عشرة سجدة، السجدة الأخرة في سورة الحج.

23/22-بل الذين كفروا يكذبون.. يوعون.

إضراب مبطل لتصلبهم في الكفر والإعراض عن القران، وتصريح بالإنكار عليهم لتصميمهم على مواصلة الكفر والتكذيب بما نزل على محمد، عنادا وكبرياء.

ويحذرهم القرآن من عاقبة تصميمهم هذا، بأنه عليم بما يجري في بواطنهم،وما جمعوه في تفكيرهم، من العداء للحق، ومن العمل على توقيف مده، ومن إغراء أتباعهم بالكفر.

25/24- فبشرهم بعذاب أليم.. غير ممنون.

بشرهم على طريقة التهكم بهم، لأن المبشر به هو العذاب الأليم، وأصل البشارة أن تكون بما يسر به الإنسان. فهو يتضمن احتقارهم بالسخرية منهم.

لكن الذين جمعوا بين الإيمان وبين السلوك الصالح المطبق لما جاءهم من عند الله، استحقوا بسبب إيمانهم وصلاحهم أجرا لا يكدره مَنٌ.إذ المن على الإنسان بالنعمة يكدر سرورها، وينغص صاحبها. قال تعالى : (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم* يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)[1].

يوم الخميس 9 ذو القعدة 1435-4 سبتمبر 2014

---

[1] سورة البقرة آية 264/263

سورة البروج

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة. وروى الإمام أحمد :أن النبي ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج. وهي من السور المكية باتفاق. وهي السورة الخامسة والثمانون حسب ترتيب المصحف. وعدت السابعة والعشرين حسب تاريخ النزول.نزلت بعد سورة الشمس وقبل سورة التين.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

البروج : جمع برج. وهي منازل للشمس قدرها المراقبون للسماء.

اليوم الموعود : يوم القيامة.

الأخدود : حفائر طويلة كالخنادق.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم القرآن بثلاثة أقسام :

أ) **السماء** التي نظمت على ظهور بروج فيها عرّفت البشر بحساب الأشهر الشمسية، وآثرها على النبات والحيوان والتوقيت.

ب) **اليوم الموعود** يوم القيامة.

ج) **شاهد ومشهود**،وهو وصف يوصف به من يصلح له من الملائكة الشاهدين، البشر المشهود عليهم، وكذلك الرسول ﷺ ، وجميع الأمم. ونحو ذلك. والمقسم عليه مقدر لتبعثن مثلا، ولتُجْزَوُنَّ بما قدمتم. اللعن منصب على الذين حفروا الأخاديد

وأشعلوا فيها النيران، وألقوا فيها المؤمنين أحياء.إنهم يمثلون القسوة البالغة تحجرت عواطفهم، إذا كانوا قعودا على عذاب المؤمنين يشاهدونهم دون أن تهتز لهم عاطفة، أو يتحرك فيهم حنان.ما الذي ملأ قلوبهم غيضا، فاشتدت نقمتهم لهذا الحد؟ نقموا على المعذبين لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد المالك للدنيا وما فيها. والله شهيد على ما صنعوا. فسيجزيهم عنه.

بيان المعنى العام :

1-←3- والسماء ذات البروج....وشاهد مشهود.

افتتحت السورة بالقسم فأقسم القرآن بثلاثة أشياء "السماء ذات البروج"-"اليوم الموعود "- "شاهد ومشهود"

القسم الأول: السماء ذات البروج. فقيد السماء بأنها صاحبة البروج. والبروج جمع برج : وأصله القصر.فالقسم يلفت أنظارنا إلى السماء لنتأمل في بروجها وما تدل عليه من الحكمة والقدرة والتنظيم.تلكم البروج التي توصل الإنسان لإدراكها بعد تأمل في قبة السماء، وملاحظة مجموعات من النجوم ثابتة في أماكن متقاربة، تكون الشمس في سمت تلك النجوم في كل شهر من أشهر السنة الشمسية ، ثم تنتقل إلى مجموعة أخرى وهكذا، حتى تعود إلى المبدأ الأول وهكذا في دورة متواصلة متجددة كل سنة اثني عشر شهرا. وعرفتهم منازل الشمس هذه على ضبط الفصول، واعتمدوا ذلك في فلاحتهم ، وضبط أوقاتهم. فإذا هو مثلث: السماء ببروجها، وأثر ذلك في النبات والحيوان، وربط الإنسان خلاقته في الأرض من الناحية المادية على تلكم الأوضاع.

واليوم الموعود. هو يوم القيامة الذي يختل فيه ذلك النظام العجيب. فلا الشمس تتنقل في بروجها، وترتفع الآثار، ويتداخل الزمان.وتعقيب القسم بالسماء ذات البروج بالقسم باليوم الموعود، تنبيه للإنسان أن هذا النظام متواصل ما دام التقدير الإلهي يثبته. قال تعالى : (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعد إنه كان حليما غفورا)[1].

وشاهد ومشهود : هذا هو القسم الثالث وهو منبئ عما يشير إليه اليوم الموعود من الحساب.وهذا القسم يختلف عن القسمين قبله.إذ أن القسمين السابقين كانا بذات السماء، وبذات اليوم الموعود.أما القسم الثالث فجاء وصفا صالحا ليوصف به كل ذات تقبل ذلك الوصف.وتتبع ابن عطية اختلاف المفسرين وأوصلها إلى ستة

---

[1] سورة فاطر اية 41

وعشرين احتمالا. حمله بعضهم على أن الشاهد الملائكة.ويؤيده قوله تعالى : (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد)[1] وحمله بعضهم على أن الشاهد هو الله تعالى، ويؤيد هذا المحمل قوله تعالى:(والله على كل شيء شهيد)[2] وحمله آخرون على أن الشاهد الرسل و محمد صلى الله عليه وسلم هو المزكي،كما جاء في قوله تعالى : (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم و جئنا بك على هؤلاء شهيدا)[3] و أن الشاهد من يشهد يوم القيامة من الخلائق، والمشهود ما في ذلك اليوم من العجائب، وقيل: المشهود هو المشهود عليه، المتجاوز للحق الموقوف بين يدي رب العزة للجزاء. وقيل شاهد يوم التروية و مشهود يوم عرفة.وقيل الشاهد يوم الأضحى والمشهود يوم عرفة.والراجح عندي هو الوجه الأول، لأنه يتناسق مع اليوم الموعود. بما يشير إليه من الحساب الذي هو الغاية من يوم القيامة.

4←7- قتل اصحاب الأخدود...على ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

أعقبت الأقسام الثلاثة، بقوله تعالى : قتل أصحاب الأخدود. وحسب الظاهر لا يصلح هذا ليكون مقسما عليه. ولذا حمله بعضهم على أن المقسم عليه محذوف يفهم من قوله : قتل أصحاب الأخدود، مقدرا أن جزاء الأعمال حق لا شك فيه، أو أن البعث ثابت. أو أن المشركين ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود. وجعله الزجاج: إن بطش ربك لشديد. وأصحاب الأخدود، حادثة معروفة وقت نزول الوحي لدى القرشيين. وحاصلها على بعض الروايات: أن ذا نواس الملك اليمني اليهودي علم أن راهبا مسيحيا ظهرت له كرامات،وتأثر الناس به وتنصروا، فقتله،وفتن كل الذين امنوا لينخلعوا من الدين المسيحي،فثبتوا على الإيمان فحفر لهم أخاديد وأشعلها نارا وقذف فيها كل من ثبت على المسيحية. والتعذيب بالتحريق وقع في أماكن مختلفة، ومن طغاة متجبرين عبر التاريخ. ولنعد إلى الآية:

4-قتل أصحاب الأخدود : دعاء عليهم، والله ينفذ ولا يدعو. فيفهم النص على أنه دعاء باللعن وتعبير عن سخط الله عليهم. وأصحاب الأخدود على هذا هم القائمون على تعذيب المؤمنين.

5-النار ذات الوقود : الأخدود، النار التي تجمع فيها من الحطب، ومن أجسام الناس المحروقين فيها، ما ألهب نارها وضاعف ضرامها.

---

[1] سورة ق اية 21

[2] سورة الحج آية17

[3] سورة النحل آية 89

6-إذ هم عليها قعود: هم الموكلون بالتعذيب، قعود يراقبون تأجج النار، ويقمعون كل من يحاول الخروج منها. فليس معنى قعود: الجلوس على الأرض ولكن المعنى أنهم يراقبون التنفيذ مراقبة حازمة، لا يتحولون عن متابعة أخاديد النار المشتعلة. ليضمنوا تواصل اشتعالها بقوة، وفعلها بمن فيها.

ويحتمل أن يكون معنى أصحاب الأخدود : المؤمنين المعذبين في الأخدود.فتفيد الآية أنهم ربطوا قبل قذفهم في النار، على هيئة قعود،حتى يمنعوا من الحركة وهم يحترقون بالنار، فيكون المقصود عرض قساوة التنكيل.

7-وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. هؤلاء الموكلون بالتعذيب جمدت أحاسيسهم، يشهدون ببرودة دم،أو بسادية تلتذ بالعذاب، يشهدون وينظرون إلى المؤمنين يحرقون فيتحولون من بشر أحياء إلى هياكل متفحمة، ثم إلى رماد. ثم يرفعون تقاريرهم إلى منْ أمرهُم معلنة عن كمال التنفيذ. وفي الآية إيماء إلى أنهم يشهدون على أنفسهم يوم القيامة بما باشروه من قسوة في الظلم.

9/8- وما نقموا منهم...شهيد.

تشنع الآية بأصحاب الأخدود.الذين امتلأوا من الغيض والبغض، وتضاعفت نقمتهم على المؤمنين حتى تعطل كل إحساس إنساني فيهم، ولم يبق في قلوبهم أي نبض من الرحمة واللين. فما الذي فعله المؤمنون حتى يكونوا عرضة لمثل هذا المستوى في المعاملة من معذبيهم، ما الذي أوجب مثل هذه النقمة عليهم ؟ إن الأمر لعجب ! ويأتي الجواب مقررا للعجب وكاشفا عن فساد باطن أصحاب الأخدود.إن نقمتهم كانت بسبب أن المعذبين آمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض. لأنهم اقتنعوا بأن العزة لله يحرمها كل من لم يعترف بعزته فاعترفوا بعزته، ووثقوا أنها هي الحبل المتين المنقذ من المهانة. ولأنهم اقتنعوا بأن كل خير هو من الله فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه فحمدوا الله قولا وعملا. ولأنهم تيقنوا أن الله هو المالك لكل شيء في السماء وفي الأرض فهو الحقيق بأن يعبد ويتقرب إليه. وأن يراعي الإنسان في علاقاته بالكون وبالناس ما يرضيه لأنه تصرف في ملكه، فراقبوا ما جاءهم من تشريع على لسان الرسل، وكل أملهم أن يفوزوا برضوانه.

والله على كل شيء شهيد، فما فعله أصحاب الأخدود، وما استقر في عقيدة المؤمنين و طريقتهم في الحياة، كل ذلك لا يضيع منه شيء عن الرقابة الإلاهية ويتحقق تبعا لذلك ما يترتب عنه من جزاء.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفتنة : المعاملة بالشدة المؤذية.

البطش : الأخذ بالعنف والشدة.

الودود : الود المحبة وهو مستعمل في لازم المحبة راحمهم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذين عرفوا بصفتهم الغالبة عليهم: أنهم فتنوا المؤمنين والمؤمنات،وواصلوا إثمهم ولم يتوبوا،هؤلاء القساة الغلاظ، جزاؤهم جهنم بما يلقاه داخلوها من المهانة والعذاب، يعذبون بنار تحرقهم هي أشد إيلاما من غيرها،جزاء ما صنعوه بالمؤمنين والمؤمنات. وأما الذين آمنوا بالله فصفت عقيدتهم من الشرك والباطل، وقرنوا الإيمان بالعمل الصالح يجزيهم ربهم بدخولهم جنات تتخللها الأنهار وينتشر فيها الخصب والنعيم. ودخول الجنة هو النجاح الكبير الذي يسمو على كل ما يؤمله الإنسان. إن الله قوي يبطش بالكفرة بطشا في الدنيا يذلهم به، ويبطش بهم يوم القيامة بطشا هو كفاء كفرهم وفسادهم.هو الذي يبدئ الخلق ثم يعيدهم يوم القيامة. وهو وحده الذي يستر ذنوب عباده الصالحين ويمحوها. وهو سبحانه الذي يرجو من كرمه المؤمنون أن يعاملهم بما يعامل المحب حبيبه. وهو سبحانه الملك صاحب العرش الذي يدخل تحته كل الكائنات.المتصف بالمجد الذاتي بما يتضمنه من الجلال والمهابة. المتصرف في الكون تصرفا لا ترد له إرادة، فكل ما يريده ينفذ بدون ممانعة ولا تردد.

بيان المعنى العام :

10-إن الذين فتنوا المؤمنين... الحريق.

تصرح الآية بعد ما سجلت فظائع أصحاب الأخدود، بأن جزاءهم عذاب جهنم. وشوه القرآن بهم إذ ذكرهم بالوصف المبرز لفسادهم وظلمهم،" **الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** " وأنهم فعلوا ذلك راضين به لا يتحرك ضميرهم لحسابهم

على ما فعلوا،مضوا في التسلط على المؤمنين، دون أن يتوبوا من ظلمهم، فقد كان ظلمهم تعذيب المؤمنين في الأخاديد التي أضرموها نارا.و من العدل الإلهي أن هيأ لهم جزاءهم في جهنم، وجهنم هي دار الذل والهوان، وجهنم أيضا دار عذاب يحرق بلظاها الذين يدخلونها. وقد يكون الإيلام بحر النار لأصحاب الأخدود أشد من عذاب غيرهم. وسار على نهج أصحاب الأخدود مشركو مكة. ففي الآية إيماء إلى تهديد المشركين الذين يعذبون ضعفة المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم. وقد اشتهر من هؤلاء القساة الغلاظ، أبو جهل، وأمية بن خلف، والأسود بن عبد يغوث،والوليد بن المغيرة، وأم أنمار. سلطوا أنواع التعذيب على من كان لهم عليهم سلطة من ضعفة المؤمنين.كما فعل أمية بن خلف بسيدنا بلال، وصفوان بن أمية بعبده أبو فكيهة، وما صنعته أم أنمار بخباب بن الأرت، وأبو حذيفة بن المغيرة بعبيده من آل ياسر :عمار بن ياسر، وأبيه ياسر، وأخيه عبد الله .ولغلظ عواطفهم، وبالغ قسوتهم، لم يرأفوا بالنساء فَفُتِنَتْ حمامة أم بلال أمةُ أمية بن خلف. وأم عنيس التي كانت أمة للأسود بن عبد يغوث، والنهدية وابنتها كانتا للوليد بن المغيرة.وسمية أم عمار بن ياسر التي كانت أمة لعم أبي جهل الذي تولى تعذيبها،وهو الذي كان من أشد المشركين حقدا وبغضا للإسلام.

11-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...ذلك الفوز الكبير.

طريقة القرآن أنه ينذر الكافرين ويهددهم، ثم يتبع ذلك بالبشارة وجميل الوعد للمؤمنين.وإذ أوعد المعذبين الفاتنين للمؤمنين والمؤمنات،بعذاب جهنم بمتنوع إذاياته وبالحرق المؤلم، تابع ذلك بتبشير المؤمنين الذين سلمت عقيدتهم واستقرت على نهج الحق، وقرنوا إيمانهم بالتزامهم بالعمل الصالح الذي يرضي ربهم، أنهم يستحقون يوم القيامة جنات، ظاهرة الخصب متوفرة، والرونق واضح،بفضل ما يتدفق خلالها من الأنهار الجارية.ولا تسل عن نعيمهم، فإنهم قد نالوا أعظم ما يتصور من النجاح الذي لا مطمع وراءه، ولا يطمح أصحابه إلى التحصيل على أي شيء وراء ما هم فيه، لأن كل ما يبتغون بين أيديهم.

إن بطش ربك لشديد.

تُثَبِّتُ الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم،مخاطبة له بلطف يتناسب مع ما عوده الله به من التكريم.مما يشير إليه التعبير بكلمة "ربك" التي تذكره بأرسال عنايته به مما يومئ إلى أنه سينتقم ممن قاومه.

وشدة عذابه سبحانه لمن واصل الشرك، والتعدي على المؤمنين تتضح بجمعه لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.فقد بطش بهم يوم بدر.قال تعالى : (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون)[1] وسيلقون يوم القيامة ما فصل بعضه في الآيات السابقة

إنه هو يبدئ ويعيد.

لم تذكر الآية لفعلي يبدئ - ويعيد - مفعولا تكثيرا للمعنى، إذ أن الكلام يكون واضحا سواء أقدرت : إنه يبدئ الخلق ثم يعيدهم يوم القيامة، المتصرف فيهم فيجزي الشاكرين ويبطش بالكافرين بنعمه التي منها نعمة الإيجاد.أو يبدئ البطش ويعيده.يبطش بهم في الدنيا ويبطش بهم في الأخرة جزاء تمردهم. أو أنه يبدئ الأجيال ويهلكها ثم يعيد مكانها أخلافها.

14-16، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد.

تحقق الآية مضمون : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات - فذكرت الآية صفتين من صفات الفعل الإلهي، فـ"هو غفور يستر على عباده الصالحين ذنوبهم، ويبدل سيئاتهم حسنات. وهو الودود مشتق من الود، أي إنه يفعل بعباده الصالحين من اللطف والإحسان ما يفعله المحب بمن أحبه فيرحمهم ويثبت الطمأنينة في قلوبهم. صاحب العرش، العلي العظيم، المتعالي الذي لا يدرك كنهه البشر.ويرتسم في تصور السامع أنه من معاني الملك والجلال، حسبما يشير إليه اللفظ في اللغة والاستعمال عندما ينسب العرش إلى الملوك.

المجيد : سمو معنوي يجمع بين الجليل والوهاب. فهو المجيد بحق، وما ينسب لغيره من المجد بمعنى رفعة النسب فهو سمو لا دخل للماجد فيه.

فعال لما يريد.من الصفات الواجبة له سبحانه، أنه يتصرف في الكون تصرفا لا معقب له فيما يريد. فكلما تعلقت الإرادة بإنجاز صغير أو كبير تحقق مايريده بدون ممانعة ولا تردد.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجنود : جمع جند، العسكر المتجمع للقتال.

[1] سورة الدخان آية 16

المجيد : العظيم في نوعه.

محفوظ : مصون عن كل ما ينقصه وعما لا يليق به.

بيان المعنى الإجمالي:

هل بلغك حديث الجنود المتقوين بعددهم وقوتهم، وما وقع لهم ؟ الجنود هم الجنود تحت إمرة فرعون الطاغية، وثمود العتاة البغاة الذين تجرأوا على الناقة فقتلوها، بعد أن أنذروا.فإن مشركي مكة معرضون أن يلحقهم ما لحق فرعون وثمود من دمار وهلاك. إن الذين انغمسوا في الكفر، تمسكوا بالتكذيب لما كانت دلائله الناطقة بصدقه كثيرة. والله محيط بهم لا مفر لهم من عقابه ولا يفلتون منه.

إن القرآن كتاب بلغ غاية المجد تميز بين الكتب السماوية بإعجازه، وأنه هو الباقي الذي لا يناله التحريف ولا التبديل.جمع للبشرية خيري الدنيا والآخرة. مثبت عند الله في اللوح المحفوظ الذي لا يصل إليه أي أحد بدون إذن خاص من رب العزة.

بيان المعنى العام :

18/17 - هل أتاك حديث الجنود...وثمود.

هذا من الأسلوب القرآني الهادف إلى إثارة انتباه كل من يمكن أن يتوجه له الخطاب، هل بلغته الأخبار الموثقة عن الجنود، الذين تجمعوا، واستعدوا فظنوا أنهم قوة غالبة. فكانت عاقبتهم ما سجل في التاريخ عبرة، وما كانت آثاره في الدنيا موعظة وتذكرة. ويقول ابن عطية :هذا توقيف للنبي صلى الله عليه وسلم وتقرير، بمعنى :فاجعل هؤلاء الكفرة وراء ظهرك ولا تهتم، فقد انتقم الله تعالى من أولئك الأقوياء الأشداء فكيف بهؤلاء.

فرعون وثمود – هو بدل مساو للجنود.وفي التعبير القرآني تجسيم لقوله فعال لما يريد . ففرعون وثمود تقووا بجنودهم، الذين أطاعوهم وكذبوا الرسل. و خبر إهلاكهم وإبادتهم معلوم يغني عن التصريح به، واختصاص فرعون وثمود بالذكر باعتبار أنهما رأس الكفر، وأنهما كانا سبب تدمير قومهما، فرعون كما سجلت دوره الآية الكريمة : (فاستخف قومه فأطاعوه)[1] وثمود (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر سورة)[2] فكان كل واحد منهما سبب الانتقام من قومه. وفي هذا تهديد لقريش التي يتقدم فيها رؤوس الكفر حاجزين للناس عن الإيمان. فيكون ما وقع من التذكير

---

[1] الزخرف 54

[2] القمر آية 29

بفرعون وثمود تهديدا وتحذيرا حتى لا تكون عاقبتهم كعاقبة فرعون وثمود اللذين هلكا وهلك أتباعهما.

20/19- بل الذين كفروا في تكذيب محيط..

انتقل القرآن من التذكير بمآل فرعون وثمود فأضرب عنه بكلمة " بل " وأثبت أن المشركين من قريش، منغمسون في التكذيب انغماسا لم يبق لهم رأيا ولا فكرا. فكلما ورد عليهم من هداية الرسول شيئا أسرعوا إلى التكذيب.ظانين أن الرفض يحميهم.وما علموا أن الله يمسك بأحوالهم الحاضرة والمستقبلة، لا ينفلتون من عقابه، شأنهم شأن الغافل الذي أحاط به العدو من ورائه، فإذا رام الفرار وجد نفسه محاصرا لا مخلص له مما هو فيه.

22/21- بل هو قرآن مجيد* في لوح محفوظ.

بل تفيد أن تكذيبهم بما نزل على محمد باطل لا أساس له كقولهم : إن هو إلا إفك افتراه، وقولهم أساطير الاولين ونحو ذلك من أباطيلهم.وأثبت أنه كتاب مقروء بلغهُ الملك الموكل بالوحي بلفظه إلى رسول الله ﷺ الذي تلقاه منه وبلغهُ كما سمعه وقرأه عليه. وأنه كتاب شريف عالي الطبقة بين الكتب المنزلة، فهو الكتاب المعجز المرجع الهادي إلى الحق إلى أبد الأبدين لا يلحقه نسخ.

وقوله تعالى : في لوح محفوظ :يفيد أن نصه ثابت عند الله في لوح محفوظ من التغيير والتبديل، محفوظ عن تناول أي كائن له إذا لم يأذن له الله بذلك.وهو ما يفيد كمال عزته.ولا يفهم اللوح على أنه قطعة خشبية يكتب عليها، ولكن اللوح مفهوم قدسي لا مادة فيه لا يعلم حقيقته إلا الله.

يوم الأحد12ذو القعدة 1435- 2014/9/7

سورة الطارق

عرفت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير والسنة لوقوع هذا اللفظ" الطارق" في أولها. وأضاف بعض المفسرين: والسماء. فسماها "سورة والسماء والطارق" وهي سورة مكية.رتبتها السادسة والثمانون حسب ترتيب المصحف.وعدت السادسة والثلاثين حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة البلد وقبل سورة القمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

النظر : نظر العقل، التأمل والتفكير.

الدفق: الخروج بقوة.

الصلب : فقرات العمود العظمي.

الترائب : عظام الصدر التي بين الترقوتين والثديين.

رجعه : إعادة تكوينه.

تبلى السرائر : اختبارها ليظهر الصالح من الفاسد.

السرائر : ما يسره الإنسان ويخفيه.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بقسمين: **بالسماء وبالطارق**.والسماء اسم مدلوله معروف،وما فيها من الإتقان والتنظيم والسعة يشهد بعظمة خالقها. والطارق، أتبعه القرآن ببيان المراد منه فقال هو **النجم الثاقب**، الذي يتميز بكون نوره يثقب الظلام الذي يلف الكون. وحمله بعضهم على أنه كوكب زحل، أو الثريا. والمقسم عليه : إن كل نفس من البشر وكل الله بها حافظا يسجل ما يعتقده صاحبها وما يعمله.ليبعثه ثم يحاسبه

ويجزيه.على الإنسان أن ينظر بعقله في مراحل خلقه، من الماء الدافق إلى أن بلغ المستوى الذي هو عليه من القوة البدنية والقوة العقلية وتنوع مشاعره. إن الذي قدر على تحويل الخلية الأولى إلى إنسان كامل قادر طبعا أن يعيد خلقه بعد إفنائه في اليوم الذي تختبر فيه السرائر، فينكشف ما كانت تنطوي عليه من فاسد العقيدة ومن الأفعال الرذيلة الفاجرة. سيكون في ذلك اليوم ضعيفا لا يجد قوة يحمي بها نفسه من عقاب الله، ولا يجد من يتولى نصرته. فينطبق عليه الجزاء.

بيان المعنى العام :

1-3: والسماء والطارق...لما عليها حافظ.

قسمان متتابعان افتتحت بهما السورة: "السماء" "الطارق" أما السماء فقد تكرر القسم بها مطلقة وفي حالات كثيرة من أحوالها.مما يدعو الإنسان لمواصلة التأمل في قدرة الخلاق العظيم، وحكمته، وتنظيمه لما خلق، وما أودع فيه من جمال وترابط. وأما الطارق فأصله للقادم ليلا يطرق بما ينبه به رب البيت إلى أن نزيلا نزل به.

ثم فخم أمر هذا الطارق بواسطة سؤال تقدم لنا نظائره " ما أدراك" أي شيء عرفك بالطارق إيماء إلى ما يحيط به من الفخامة والعجب بحيث أنك لا تعلم حقيقته.ثم أعقب السؤال بما يبينه بقوله : النجم الثاقب. فهو نجم من نجوم السماء يتميز بوصف أنه ثاقب. له من القوة ما يخترق به ما يمانعه.ولما كانت النجوم لا تظهر إلا ليلا ولما كانت قوة النجم في سطوع ضوئه واختراقه للظلام الدامس الذي يلف الكون، فالراجح أنه النجم الذي يكون أكثر لمعانا وإضاءة، فهو يخترق الظلام وينعكس ضوؤه على الأبصار متميزا. حمله كثير من العلماء على أنه كوكب زحل، وحمله آخرون على أنه كوكب الثريا نظرا إلى كثرة إطلاق النجم على الثريا حتى أصبح المعنى السابق علما بالغلبة عليها، وحمله بعضهم على النجم الشاهد الذي هو أول ما يبدو من النجوم إثر غروب الشمس. وقيل إن الطارق نوع من الشهب التي يشاهد سرعة انقضاضها.

4-إن كل نفس لما عليها حافظ.

هذا هو المقسم عليه، وتقديم الكلام بالقسم يفيد الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه محل العناية. وأحيطت جملة القسم بما يفيد عموم إرادة العموم لمدخولها، دون أن يستثنى منها شيء، بلفظ " كل" فشملت كل حي من البشر في الدنيا. وشملت الإنسان قبل التكليف ليكون الحافظ قائما على تنفيذ ما قدره الله للكائن من يوم وجوده في رحم

أمه، إلى خروجه وما يجري عليه إلى أن يبلغ سن التكليف أو يموت قبل ذلك. فإذا بلغ سن التكليف كان الحافظ هو المسجل لكل عمل يقوم به المكلف، ولما يجري في نفسه من صالح القصد أو خبيثه. وليس حفظه لما يصدر عن المكلف لمجرد الحفظ، ولكن ليحصي عليه ما فعل ويحاسب بعد ذلك، فآل الأمر إلى أن القسم يثبت توثيق الأعمال، والبعث والحساب عليها يوم القيامة. وقرئ: "لمَا" "ولمّا".فعلى قراءة لمَا المخففة تكون "إنْ" مؤكدة، و"ما" زائدة، واللام للتأكيد على معنى : إن كل نفس لعليها حافظ. وأما على قراءة تشديد الميم تكون إن نافية، ولمّا بمعنى إلا.على معنى إن كل نفس إلا عليها حافظ. والمآل واحد في كليهما : تثبت الآية بالقسم المكرر أن كل عمل يقوم به الإنسان في حياته موثق، ثم يحاسب عليه. وهو إنذار للمشركين.

5—7 - فلينظر الإنسان مم خلق..من بين الصلب والترائب.

يواصل القرآن لفت الأنظار إلى ما هو مشاهد من الأدلة التي تقرب الاعتقاد بالبعث وتقربه.تأمر الإنسان ليحرك عقله، ويبني على المقدمات نتائجها حسب ما يقتضيه قانون العقل الذي كان به الإنسان إنسانا.ليتأمل من الأصل الذي خلق منه، وما جرى عليه من تحولات صاحبتها الألطاف إلى أن بلغ ما هو عليه عندما اشتد عوده.ولما كان أصل الخلق خفيا قدمه بإثارة السؤال، مم خلق، ثم أجاب عنه بالكشف عن الحقيقة الخفية على كثير من الناس. صرحت الآية أن الخلق تم ابتداء من ماء دافق يدفقه الذكر بقوة وسرعة ليساعد ما يحويه من حيوانات منوية لتتصل إلى بييضة الأنثى التي أفرزتها في الأيام التالية للحيض. ثم أضاف أنه يخرج من بين الصلب والترائب. والصلب هو الظهر، والترائب عظام الصدر ، موضع القلادة من الصدر. والذين وصلت يدي إلى كتبهم من المفسرين يجعلون الضمير في قوله يخرج راجعا إلى الماء الدافق. والماء الدافق يخرج من الذكر، والمعمل الأخير الذي يتم فيه الخصيتان.وليس من شأن القرآن أن يخاطب الناس بما هو مخالف لما يشاهدونه. ولذلك لم أرتض أن يعود الضمير إلى الماء الدافق، ورجحت أن معاده: الإنسان. ويتكون الإنسان مما تتظافر عليه الأجهزة من بين الصلب،الظهر الذي يحوي العمود الفقري الذي تجري فيه الأوامر المنظمة من الدماغ إلى جميع الأجهزة، ومن الجهاز التنفسي والجهاز الدموي والجهاز الهضمي الذي هو بين الصلب والترائب.فيتحول الغذاء الذي يتناوله الإنسان بفضل التدبير الواصل عن طريق النخاع الشوكي، وبفضل ما تقوم به الأجهزة التنفسية والهضمية والدموية في تنظيم عجيب، ودقة بالغة فتفرز من المبيض البييضة التي يلقحها الحيوان المنوي،

وتفرز الخصيتان المني الدافق المخصب. فيتكون الإنسان على الطريقة التي قدرها فأحسن تقديرها رب العالمين بعد أن خلق الإنسان الأول من طين.

إن القوانين التي يتم بها خلق الإنسان في رحم أمه تبلغ من التعقيد، ومن الدقة، ومن الإحكام ما يثبت أنه من المستحيل أن يتم ذلك بطريق المصادفة أو الطبيعة. ولكنه الخلق الإلهي. الله الذي أحسن كل شيء خلقه بعد أن قدره تقديرا.

8—10-إنه على رجعه لقادر...فما له من قوة ولا ناصر.

بكل تأكيد إن الذي أجرى قوانين الخلق بحكمة وحسن تقدير، وتم الخلق فعلا، إنه سبحانه قادر على إرجاع ذلك المخلوق للحياة بعد موته.وسيتم إرجاعه في الموعد الذي تختبر فيه السرائر، وما كانت تنطوي عليه الضمائر وتختزنه ولا تصرح به. إنه الموعد الذي ينكشف فيه ما كان يخفيه الإنسان ولا يصرح به، ويتبين الصالح من الفاسق، والتقي من الفاجر. ويحاسب كل فرد عن عقيدته أولا، ثم عن أعماله. فيؤاخذ بما تضمنته عقيدته من نكران للوحدانية وما ارتبطت به من المغيبات التي بسطها الرسل كالبعث والحساب والجنة والنار...كما يتقرر عقابه عما فعله من منكرات وظلم للناس، ورذائل. وسيكون في ذلك اليوم عاجزا ذليلا، لا يجد قوة يدافع بها عن نفسه لوضوح الفساد والجزاء الذي على وزانه يعاقب. كما لا يجد ناصرا ينصره. وهو تيئيس مؤكد لذلك أن شأن الإنسان في الحياة الدنيا أنه يصون نفسه من المكاره بأحد أمرين، إما بقوة ذاتية، وإما بناصر خارج عن ذاته. وليس له يوم القيامة شيء منهما ولا أي دافع يدفع عنه العقاب.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكيد :العمل على إضرار الغير بكيفية لا يتفطن إليها.

مهل : أنظر ولا تستعجل.

رويدا : عدم العجلة.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم القرآن بقسمين :أقسم بالسماء التي تجري فيها السحب فتمطر الأرض مرة بعد مرة، وأقسم بالأرض التي تطاوع البذور فتتشقق لتساعدها على الخروج فوق

أديمها. والمقسم عليه أن القرآن قول يفصل بين الحق والباطل، يحيي القلوب كما تحيي السماء الأرض. كل ما حاول المشركون إلصاقه به هو باطل مردود عليهم، إنه جد لا هزل فيه. يكيد الكفرة ويدبرون في الخفاء ما يقاومون به القرآن، ولكن كيدهم مهزوم لا يصلون به إلى ما دبروا. والله يرقبهم فيبطل ما دبروا ثم يخزيهم يوم القيامة. فلا تستعجل لهم وانتظر نصر الله الذي هو ات لا محالة، هذا النصر الذي لا يبطئ.

بيان المعنى العام :

12/11- والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع.

أقسم القرآن بقسمين: بالسماء ذات الرجع، وحمله معظم المفسرين على السحاب الذي يروي الأرض، ويعود عليها كرّةً بعد كرة فينشر فيها الرواء والخصب. والأرض ذات الصدع، أي الأرض التي تطاوع البذور لتشق الطبقة التي تعلوها وتخرج فوق أديمها. هو تفاعل بين السماء والأرض، وتحول الأرض الجرداء الميتة إلى صورة من الحياة والخصب والحركة. وفي ذلك إيماء إلى إمكانية البعث.

14/13- إنه لقول فصل وما هو بالهزل.

إن القرآن الذي طعنوا فيه بما لفقوه من تهم سخيفة، هو قول فصل يفصل بين الحق والباطل، وبين المناهج المنحرفة التي لا تؤدي إلا إلى الضياع، وبين المنهج الذي يساعد الإنسان على بلوغ برد اليقين والمعرفة الواضحة، والجمع بين الدنيا والأخرة.وبين ما يلهي البشر بالخيالات والصور المخترعة، إلى ما يدعو الإنسان للتأمل والحذر من مهاوي هلاكه في الدنيا والآخرة. حاول بعض مشركي مكة أن يحول الدهماء عن سماع القرآن إلى الإقبال على ما يقصه عليهم من قصص الفرس.فهذه الآية ترد عليه وعلى أمثاله كاشفة عن الفرق بين ما يلهي الناس وبين القرآن الذي يأخذ بأيديهم إلى حياة الجد.

إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا.

إن المشركين المظهرين للطعن في القرآن، إنما يفعلون ذلك ليوقعوا أتباعهم في الخطأ ويحملوهم على رفض هدايته، مع أنهم مقتنعون بصدق القرآن.قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)[1] فهذا كيدهم الذي يدبرونه ويقومون به حفاظا على امتيازاتهم الاجتماعية، وإبقاء الأتباع خاضعين لسلطتهم.

---

[1] سورة النمل آية 14

وأكيد كيدا : إن كيد الجبار للمشركين يفيد أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء من مكرهم، وأنه يملي لهم ليزدادوا إثما. فهم يظنون أن ما تجمع لديهم من أموال وبنين مسارعة لهم في الخيرات، والتقدير الإلهي خلاف ذلك وهم لا يعلمون، إذ جعل ذلك الذي يفرحون به مضاعفة لعذابهم في الآخرة.

17- فمهل الكافرين..رويدا-

للكفر صولات، يواصل الكفرة معاكسة الرسول، وتدبير ما يقصي البشر عنه باختلاق الأكاذيب، وترويج الأباطيل. أرشده ربه إلى الصبر وعدم استعجال الانتقام منهم.أمهلهم وانتظر النصر القريب من عند الله، النصر الذي يعلي كلمة الدين. ورويدا معناه إمهالا لا يطول أمده، فالقرآن يبشر الرسول ﷺ أنه سينتقم من الكافرين بعد أمد لا يطول، فلينتظر الفرج من ربه الذي يرعاه ويؤيده.

يوم الثلاثاء14 ذو القعدة 2014/9/14359

سورة الأعلى

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. وقد اختلف في عدها من المكي أو من المدني.فذهب بعض العلماء إلى أنها مكية كلها.وروي أنها مكية إلا قوله تعالى :(قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) نزل في صلاة العيد وصدقة الفطر وعن الضحاك أن السورة كلها مدنية.ويبعده قوله تعالى فيها : (سنقرئك فلا تنسى)

رتبتها حسب ترتيب المصحف السابعة والثمانون. وعدت الثامنة حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة التكوير وقبل سورة الليل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝

بيان معاني الألفاظ

سوى: أحكم صنع كل مخلوق بما يمكنه من القيام بما يختص به.

غثاء : يبسا يسرع إليه التفتت.

أحوى : سُمْرة تقرب من السواد.

التيسير : تسهيل بإزالة الصعوبة.

اليسرى : الأبلغ يسرا.

ذكر: تبليغ الذكر : القرآن.

الخشية : الخوف.

التجنب : التباعد.

الأشقى : الكافر المصمم على كفره إلى الموت.

تزكى: عمل على تطهير نفسه.

ذكر : إما من الذكر اللساني، وإما من الـذُكر بضـم الـذال لحضـور معـاني الألوهيـة في النفس.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر لرسول الله ﷺ ولكل إنسان أن ينزه اسم الله عما لا يليق به وذلك بتقديسه معتقدا كماله بعيدا عن الشرك والتشبيه والتعطيل. والله هو الأعلى في سموه المعنوي فكل ما تثبته لله يجب أن يكون على ما يليق بجلاله وتفرده. هو الخالق للإنسان ولكل ما يحويه الكون. تلحظ في كل ما خلقه أنه مكن الكائن مما ييسر له أداء دوره في الحياة، كما تلحظ الحكمة والإتقان. هدى كل كائن إلى القيام بوظيفته وما يحقق مصلحته، وإلى المضي في مراحل تطوره إلى الغاية التي قدرها له. وهدى الإنسان بالوحي، وبما أودع فيه من قوى العقل التي تصل به إلى الحقيقة. وبفضله سبحانه أخرج من الأرض النبات الذي ترعاه السوائم، فتنتج للإنسان اللحوم والألبان والصوف والوبر والشعر.ثم لا يلبث النبات أن تذهب خضرته ونضارته وييبس شيئا فشيئا، فيتحول إلى سمرة تضرب إلى السواد ثم يأخذ في التفتت ليعود إلى باطن الأرض،أو يجرفه السيل. سنُوالي إنزال الوحي عليك أحب شيء إلى نفسك، ونثبته فلا يضيع شيء منه من ذاكرتك إلا ما شاء الله. إن ربك يعلم ظواهر الأمور، وما يخفى منها . ونيسرك للتي هي أيسر وأرفق، فلا يرهق من يتبع دين الإسلام. فقم بما أنت مكلف به من تذكير الناس، وإن كان بعض المذكرين لا يستجيبون ويرفضون معاندين. إن الذي ينتفع بتذكيرك هو الذي رُزق قلبا يخشى الله ويخاف من سخطه، وعذابه.وسيبتعد عن تذكيرك ولا يلتفت إليه المنحرف المغرق في الشقاء،الذي لا يفلت من جزائه المناسب لكفره، فسيحرق بالنار إحراقا لا يميته فيستريح من العذاب، ولا هو يتركه حيا يتمتع بالسلامة، يتواصل عذابه إلى أبد الآبدين.

بيان المعنى العام :

1←5- سبح اسم ربك الأعلى.....غثاء أحوى.

تفتح السورة بأمر موجه أولا إلى النبـي ﷺ ، ثـم إلـى كـل مـن يمكـن أن يتوجـه لـه الخطاب. والمأمور به هو تسبيح الله. والتسـبيح هـو التقـديس والتنزيـه.فالتقـديس فـي العقيدة اعتقاد الكمال المطلق لله فـي ذاتـه وفـي صـفاته. والتقـديس باللسـان استشـعار عظمة الله استشعارا يوجب على الذاكر كل تمجيـد ويوقظـه إلـى أن لا يـذكر اسـمه إلا مصحوبا بالتعظيم الذي هو واجب له. فهو من الناحيـة السـلبية تنزيهـه عـن أن تلصـق

باسمه أي نقص من الشريك، ومن التجسيم،ومن التشبيه. ومن أي صفة لا تليق بكماله المطلق.ومن الناحية الإيجابية أن يستحضر عند ذكر اسم الجلالة بلسانه عظمته فيقرنه بما هو أهل له. ومن ذلك أنه يوفي بقسمه إذا حلف به قال تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم)[1] وقال تعالى:(ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون)[2] وإذا كان تعظيم اسمه تعالى،وتنزيه اسمه عن إلصاق ما لا يتناسب مع عظمته مؤدى هذه الفاتحة، فإن تسبيح ذاته تصورا وعقيدة وتعريفا به هو المقصود الأعظم. وتسبيح اسمه يساعد على ذلك ويزيده تمكنا في الروح والمشاعر. وإضافة التسبيح إلى" ربك" دون كلمة "الله" تذكير للنفس بأنه سبحانه هو الخالق المدبر الراعي لتطور الإنسان حتى بلغ إلى ما هو عليه، وإضافته إلى كاف الخطاب "ربك" مع أنه سبحانه رب الكون جميعا، لما فيه من التشريف لرسوله صلى الله عليه وسلم. فأول صفة من صفات الحق سبحانه نطقت بها هذه الآية هي الربوبية للإنسان، وهي قاعدة الإيمان.ثم ألحق بهذه الصفة ست صفات أخرى :

أ-الصفة الأولى :الأعلى، الأسمى.والعلو مادي يتنزه الله عنه.ومعنوي يقصد منه الكمال المطلق الذي يفهم على أن كل تصور تصورته في الذات العلية يجب أن يكون على أنه الكامل الذي لا يلحقه نقص. يقول الإمام الغزالي: والعلو في الرتبة العقلية هو كالعلو في تدرجات الرتب الحسية.كالتفاوت بين السبب والمسبب، والعلة والمعلول، والفاعل والقابل، والكامل والناقص.فالأول منهما أعلى والثاني أنقص. والوصف بالأعلى يعد قانون فهم كل ما جرى من الأوصاف على الذات الإلهية.ويجري عليه تأويل المتشابهات. وأخرج أبو داود بسنده إلى عقبة بن عامر قال : (لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم. فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال :اجعلوها في سجودكم [3])

ب- الصفة الثانية :أنه سبحانه هو الذي خلق، فحول ما كان معدوما إلى الوجود. وتفهم الآية على أنه المتفرد بالخلق، أو الذي خلق الكائنات، أو الذي خلق الإنسان. فهو العلي الخالق.

جـ - الصفة الثالثة أنه الذي سوى ما خلق.يفهم منها أن الله لما خلق لم يصدر خلقه كما اتفق، دون نظر إلى كل نوع وما ييسر له في خلقه القيام بوظيفته في الحياة. وقد تمكن العلم من اكتشاف كثير مما أودع الله في كل نوع من الخصائص

[1] سورة البقرة آية 224

[2] سورة النحل اية 91

[3] مختصر المنذري ج1 ص418 ح 833

العجيبة.في النمل والنحل والزواحف، والسباع والطيور. بل كل نوع من الأنواع له خصائصه المساعدة له.

د-الصفة الرابعة : حسن التقدير المراعى فيه الحكمة والإتقان في الصنع.فكل كائن جمع فيه من المقادير المختلفة الأنواع ما حصل به التمازج الذي أفضى إلى اكتمال الذات. ففي الإنسان مثلا كمية من الحديد، وكمية من الماء،وكمية من المنغازيوم، وكمية من الكبريت، وغير ذلك بمقادير مضبوطة، نقصانها كزيادتها عما قدره يتبعه الاختلال. وقدر وضع كل جزء من الأجزاء في مكانه الذي يكون أوفق للنشاط في الحياة كاليدين والرجلين والقلب والدماغ .

هـ -الصفة الخامسة.هو المتفرد بالهداية العامة والخاصة. وأنواع الهداية تشمل كل شيء، ليحقق الموجود ما قد أعد خلقه له لينسجم مع الكون العام.

والهداية والألطاف التي رزقها الإنسان لا تكاد تحصى. فالحيوان المنوي هدي إلى الظفر بالاندماج في البييضة ليلقحها، والخلية الأولى هديت للانقسام ثم السير نحو جدار الرحم لتنغرس فيه وتقتات من دم الأم، إلى أن يُهدى الجنين للخروج من رحم أمه، ثم التقامه الثدي، إلى أن تأتي الهداية العظمى في روحه وعقله وما بلغه الرسل ليسعد بالإيمان إذا لم يصمم على الرفض.قال تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)[1]

و-الصفة السادسة: أنه المتفرد بتخصيب الأرض فأخرج منها النبات الذي ترعاه الأنعام،التي تساعد الإنسان على فلح الأرض، والسير في الأرض، والانتفاع بلحومها وألبانها وأصوافها وأشعارها. وما كان للإنسان أن يقوم بخلافته في الأرض لولا الأنعام.وهو الذي جعل من طبيعة المرعى أن ينتهي إلى اليبس، فيتحول إلى غثاء آخذ في التفتت يعود إلى الأرض أو يحمله السيل ، وبعد الخضرة اليانعة النضرة، يصير لونه إلى سمرة قريبة من السواد.ثم ينبت من البذور المختلطة بالغثاء مرعى خضرا جديدا.وفي ذلك إيماء للبعث.

7/6- سنقرئك فلا تنسى....وما يخفى.

تظهر العناية الكبيرة برسول ﷺ، من مفتتح السورة بدعوته إلى تسبيح الله وذكره ذكرا موصولا على ما ينبغي أن يكون من التعظيم والتنزيه. وفي هذه الآية يبشره أنه سيوالي عليه أحب شيء لنفسه الشريفة : اتصاله بالوحي. هذا الوحي الذي هو قراءة يرددها حسبما يلقنه جبريل أمين الوحي ﷺ ، سنوالي إقراءك،وننعم عليك

---

[1] سورة فصلت آية 17

نعمة أخرى أنا نمد حافظتك بقوة خارقة للعادة فلا تنسى شيئا من الوحي.وعقبه بقوله إلا ما شاء الله.وفهم بعض المفسرين هذا الاستثناء: أن الله يمحو من ذاكرته ما أراد رفعه لفظا ومعنى من القرآن أو لفظا فقط بواسطة النسخ. وفهمه آخرون على أن هذا محقق لتفرد الله بالتصرف.فبقاء ذاكرته ﷺ حافظة لما ينزل عليه مرتبطة بمشيئة الله. وليس من المحتم أن يشاء الله أن ينسى رسوله شيئا مما أنزل عليه. فالاستثناء تأكيد لمفهوم عقدي لا لتنفيذ شيء في الواقع كقوله تعالى: (ولو شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك)[1]. أو على أنه من استعمال القلة في مقام النفي.

وتختم الآية بقوله: إنه يعلم الجهر وما يخفى.معظم ما رأيته من كلام المفسرين أن الآية متصلة بقوله " سنقرئك فلا تنسى" على أن المعنى أن الله يعلم ما تجهر به من القراءة،وما يخفى مما تسقطه لأن الله أراد إخفاءه من حافظتك.وهو حمل لا تناقض فيه، ولكنه لا يخلو من التمحل. والذي ترجح عندي : أن قطب الآيات السابقة يتحقق في قوله "فهدى" وهذه الهداية تتم بأمور ظاهرة، وبأمور خفية، ولا يجمع بين علم ما ظهر منها وما خفي إلا الله.سجل العالم (ا.كريسي موريسون) في كتابه الإنسان لا يقوم وحده كثيرا من الظواهر في عالم الأحياء، تفسر لنا قوله تعالى : إنه يعلم الجهر وما يخفى ومما سجله : أن للحشرات الدقيقة عيونا مكروسكوبية "مكبرة " لا ندري مبلغها من الاحكام. وأن للصقور بصرا تلكسكوبيا " مكبرا ومقربا" وتحدث عن ممالك النحل وما تحويه من الأسرار التي لا يعلمها إلا خالقها. وتحدث عن حاسة الشم عند الكلب الذي يستطيع أن يحس بالحيوان الذي مر قبل وقت من ذلك المكان. وكلها تدل على أن المتفرد بما ظهر وما خفي هو الله. وفي الآية جعل القرآن مقابل الجهر ما يخفى، ولم يقل و السر. فالجهر ليس الجهر بالصوت ولكن المراد منه الظاهر الواضح، ويقابله: وما يخفى.

8- ونيسرك لليسرى.

إن تمكن محمد ﷺ من تلقي الوحي عن ربه " القول الثقيل " وتكليفه بمواجهة البشرية قاطبة أمر ضخم كلما حللته بدت لك أبعاد شاقة جدا. فتشير الآية إن لطف الله بنبيه، وقدرته على تيسير العسير، وتذليل الصعاب، يسر له ما كان صعبا، ضاعف قوة تحمله فقبل الوحي عن جبريل، وضاعف عزيمته فواجه البشرية بالحقيقة دون أن يهاب.وهو تيسير من الله. ثم إنه جعل مضامين الرسالة التي كلف بإبلاغها سهلة المأخذ، منسجمة مع الفطرة. من آمن بها يجد في نفسه كأنه خرج

---

[1] سورة الإسراء آية 86

من الضيق إلى السعة، ومن القلق إلى الطمأنينـة، ومـن الشـعور بالوحـدة إلـى تغلغـل الأنس في مشاعره.وعن عائشة قالـت : (مـا خيـر رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما فإن كان إثمـا كـان أبعـد النـاس عنـه اللؤلـؤ والمرجان ص613 ح1502)

9←13، فذكر إن نفعت الذكرى....ولا يحيى.

أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يواصل مـا كلـف بـه مـن نشـر الهدايـة ودعوة الناس، وإقناعهم بالحجـة والدليل،والصـبر علـيهم وعـدم الاسـتعجال.وقولـه: " **إن نفعت الذكرى** : توبيخ للمشركين لإعراضهم عـن القـرآن وعـن الاسـتماع لرسـول الله ﷺ .وفيه إيماء إلى أن من بين من يتوجـه لهـم بالتـذكير مـن لا ينتفـع بـه. وهـذا كقول الشاعر : لقد أسمعت لو ناديت حيا *** ولكن لا حياة لمن تنادي

سيذكر من يخشى. حسـبما أفادتـه الآيـة السـابقة أن الـذين يتوجـه لهـم الرسـول ﷺ بالتـذكير، ويحـركهم للإيمـان، بعضـهم يقبـل وينتفـع، والـبعض الآخـر يعـرض ويعاند.ففصلت هذه الآية الموقفين :

أ–موقف من يصغي لما تذكره به فينتفع به، ويـذكر، ويكـون تـذكيرك تثبيتـا لـه علـى الإيمان، وزيادة إشراق في قلبـه وروحـه.وهـو الـذي حـل الخـوف مـن عقـاب الله وغضبه في نفسه.وبمقدار ما تكـون الخشـية مـن الله أبلـغ حضـورا، وأكثـر تـأثيرا، يتفاوت البشر في الصلاح.

ب – ويبتعد عن سماعك، و ينفر من تذكيرك من تلـبس بالشـقاء.الكـافر الشـديد الكفـر، الذي صمم على الكفر إلى موته، الذي لا يخشـى الله ولا العاقبـة.ويعجـل القـرآن ببيـان عاقبته التي تكون كفاء لتصليه فـي العنـاد.**أنـه سيصـلى النـار الكبـرى**.جهـنم التـي يكون العذاب فيها على غير ما عهد في الدنيا، فالمُعذَّب بنـار جهـنم يطـول أمـد عذابـه إلى أبد الآبدين مخلدا، تحرقه النار وتؤلمه كأشد مـا يكـون الإيـلام، ثـم هـو لا يمـوت من الحرق بل يبقى حيا لا يفقد شيئا مـن إحساسـه.ولا يبقـى حيـا حيـاة السـلامة مـن الإحساس بالعذاب.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أفلح : ظفر بالخير الذي يطمح إليه.

تزكى: بذل جهده لتطهير نفسه.

تؤثرون: الإيثار الاختيار بتفضيل شيء على غيره.

أبقى : بقاء لا ينتهي.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد : إن من اعتنى بنفسه فطهرها من الشرك والإثم حقق لنفسه السعادة التي يطمح إليها والخير في الدنيا بالحياة المطمئنة الراضية، وفي الآخرة بالفوزبما أعده الله للمتقين من جميل الثواب، وحسن الجزاء.وأتبع تطهير نفسه بدوام الذكر لربه بلسانه وفي نفسه، فعبر عن ذلك بالإقبال على الصلاة التي هي عمود الدين.

انتبهوا إلى أن سبب الخسران هو إيثاركم لما تدعو إليه الشهوات، وتفضيلكم متاع الدنيا العاجلة على ثواب الأخرة التي هي خير، وهي الباقية التي لا ينقطع نعيمها إلى أبد الأبدين. تنبهوا فإن ما ذكر في الأيات السابقة هو الحق السرمدي، الذي أوحى الله بمثله وثبته في صحف إبراهيم الذي تدّعون أنكم على شريعته، وفي صحف موسى الذي تتصلون باليهود بين الفترة والأخرى لتسألوهم عما أنزل عليه.

بيان المعنى العام :

15/14- قد أفلح من تزكى...فصلى.

بعد أن عرف القرآن بعاقبة الأشقى مهددا بالعذاب السرمدي. فوفى الترهيب حقه، ثم انتقل إلى الترغيب فأثبت النجاح المحقق لكل ما يمكن أن يطمح إليه من الخير، للذي أعتنى بنفسه فزكاها، وطهرها من العقائد الضالة، ومن الأثام والرذيلة. فأصبحت تألف الفضيلة والطاعة.أخرج البزار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(قد افلح من تزكى) قال: (من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله) وذكر اسم ربه – يتناول الذكر اللساني بالتسبيح، والتهليل، والتمجيد، والاستغفار، ونحو ذلك، كما يتناول الذكر القلبي "بضم الذال" باستحضار صلته بربه، والتأنس بقربه وجريان صفات كماله على قلبه.

والذكر اللساني والقلبي يجعل الذاكر مشوقا إلى عبادة ربه، مما يبعثه على التقرب إليه.والصلاة هي أسمى أنواع العبادة.روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: (حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة.) [1]حديث حسن.

---

[1] فيض القدير ج3ص370ح3669

17/16- بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى.

انتقال من ذكر موقف الأشقياء وعاقبتهم، وموقف الأتقياء وعاقبتهم إلى التحذير من أسباب الشقاء، فافتتحه بكلمة" بل " التي تفيد الإضراب وتنبه السامع إلى أن الكلام انتقل إلى أمر جديد فليقبل عليه بكل انتباه.ومضمون هذا : أن سبب فساد الطوية والبعد عن منهج الله،هو إيثار الحياة الدنيا على ما وعد الله به من الخير في الأخرة. أي إن الإنسان وهو مبتلى بالتكليف الذي أوجب عليه صفاء العقيدة، وحب الخير والعمل به، والبعد عن الآثام والمعاصي. ينحرف به عن ذلكم المنهج حبه لملاذ الحياة الدنيا، التي منها تفضيل حظه من الرئاسة الدنيوية على الإيمان كما هو شأن المشركين، وتقديم ما تثيره فيه الشهوة من النساء والمال وحب الغلبة، والظلم والمنكرات الشرعية التي تميل إليها النفس ويحرض الشيطان على اقتحامها. والتي يشترك فيها الكفرة والفسقة. فنجاح الإنسان في عاقبته مرتبط بإدراكه وتطبيقه أن عليه في مقام الاختيار أن يقدم ما يسعده في الحياة الأخرة التي هي كلها خير، والتي هي الحياة الدائمة الأبدية، حياة الخلود، على الحياة الدنيا وما تدعو إليه الشهوات.

19/18-إن هذا لفي الصحف...إبراهيم وموسى.

تؤكد هذه الآية ما قررته الآيات من قوله : قد أفلح من تزكى إلى قوله : والآخرة خير وأبقى يثبت القرآن أن مضامين تلكم الآيات، هي من الحق الذي أوحى الله به وثبته في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام. بلغا ذلك لأقوامهما وحثاهم على الاتعاظ به. فهو مثبت في الصحف المنزلة من عند الله على الرسولين الكريمين إبراهيم الذي يدعي العرب أنهم على شريعته، وموسى الذي يعودون لليهود ويسألونهم عما في التوراة من أحكام وتشريع.وذلك مما يفرض عليهم أن يتأثروا بمضامين تلكم الآيات.

يوم الخميس 16 ذو القعدة1435- 2014/9/11.

سورة الغاشية

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي معظم كتب التفسير والسنة. أخذت تسميتها من لفظ الغاشية الوارد في الآية الأولى. وهي سورة مكية باتفاق.وهي السورة الثامنة والثمانون حسب ترتيب المصحف. وعدت السابعة والستين حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة الذاريات، وقبل سورة الكهف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)

بيان معاني الألفاظ:

الحديث : الخبر المتحدث به.

الغاشية :يوم القيامة، وأصلها تغطية متمكنة شاملة.

آن :شديدة الحرارة.

يغني : يدفع عنهم الحاجة.

لاغية: من اللغو الكلام الذي لا فائدة فيه.

أكواب : جمع كوب إناء للخمر بدون عروة له ساق.

بيان المعنى الإجمالي :

هل بلغك خبر الغاشية ؟ سؤال يقصد منه إثارة الذهن ليقبل على ما يليه بشوق ليكون أثبت في الذهن.والغاشية يوم القيامة الذي يعم الكائنات جميعها.والمقصود بصفة خاصة المشركون المكذبون. إنه في هذا اليوم تظهر على وجوه الكفرة الذلة والخشوع والكرب. تنبئك بالكرب التي هي فيه من العمل المضني، وتحدثك سماتهم

بما وصل إليه أصحابها من بالغ الإعياء. تشوى من جميع الجهات بنار جهنم التي تفوق حرارتها ما عرف من حرارة النار. تحترق أكبادهم طلبا للسقيا، ولكن ليس لهم إلا شراب من عين حامية.وليس لهم إلا طعام واحد من شوك سام يقطع أمعاءهم. لا يدفع عنهم غائلة الجوع، ولا تترفه به أبدانهم.

وفي المقابل فإن الله يتفضل على عباده الصالحين، تعبر وجوههم عما هم فيه من نعيم. أصحابها راضون عما قاموا به من أعمال، واجتهدوا لمرضاة ربهم في الدنيا.يسكنهم ربهم في جنات عالية مشرفة. لا مكان فيها للغو الحديث وسقط الكلام.فلا يطرق السمع إلا المعاني السامية الرفيعة. تتخلل أراضيها العيون الجارية بماء ينشر الخصب، ويلطف الجو. أعد الله لهم من رفيع الأثاث ما يزيدهم نعيما، من ذلك السرر المرفوعة المشرفة على المناظر الخلابة في الجنة. وتنتشر الأكواب التي جمعت بين جمال الصنع ورفيع المادة مما يعطي متعة إضافية لمن يشرب منها. وتُصف فيها النمارق الوسائد في نظام لا يختل. وتنتشر فوق أرضها الزرابي المتقنة الصنع البديعة الألوان والأشكال .

بيان المعنى العام :

1-هل أتاك حديث الغاشية.

سؤال يقصد منه إثارة الانتباه للخبر الهام الوارد بعد ذلك. هل بلغك الحديث الفاشي.خبر الغاشية الحادثة التي تضم تحت جناحها جميع المنذرين، فلا يجد أحد منهم مفرا من أهوالها. سؤال مثير يكتنفه الإبهام ليكون وقعه في النفس أبلغ.

4/3/2- وجوه يومئذ خاشعة....حامية.

أتبع القرآن التهويل المضاعف، بتفصيل موجبات ذلكم التهويل.فذكر وضع الوجوه في ذلك اليوم، المعبرة عما أحاط بالنفس من هم وغم وعذاب.لأن الوجوه تنطق بما تحمله النفس من شقاء وكروب. ترى الوجوه في ذلكم اليوم يوم تغشى الغاشية، تراها خاشعة جللت بالذل والأسى. استولى عليها آثار الإرهاق مما حملته من مشاق العمل في النار، يصحب عذاب النار سوق الملائكة للمعذبين سوقا عنيفا بزجر متتابع، لا يبلغون منزلة حتى يزجرون إلى اقتحام منازل هي اشد وأصعب. كان جزاؤهم لما آثروا الراحة في الدنيا، والإعراض عن التكاليف الشرعية المهذبة للنفس، ولم يخشعوا في الدنيا لله خشوعا يصفي أرواحهم، كان جزاؤهم أعمالا شاقة في النار ومرهقة.

تصلى نارا حامية: تحيط النار بكل جزء من أجزائهم: (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل)[1] ولا تكون النار إلا حامية، فوصفها بحامية يومئ إلى أن حرها يتجاوز الحر المعروف، فهو مضاعف في ذاته وفي إيلامه.

5←7- تسقى من عين آنية....من جوع.

إن حر جهنم الذي يصليهم، يوقع في النفس لهفة المعذبين إلى ما يبرد أكبادهم. فكان شرابهم ماء بالغا من الحرارة أشدها يضاعف لهفتهم. ويتصل بالشراب الطعام، فيكشف القرآن عما يقدم لهم من الطعام الذي يزيد في عذابهم، هو طعام من ضريع. قالوا إن أصله الشبرق الذي ترعاه الإبل وحمر الوحش إذا كان رطبا ، فإذا يبس تحامته.وهو الضريع لتحوله إلى شوك سمي يقاسي آكله آثار السم المنتشر في كيانه. وهو طعام مسلوب منه جميع خصائص الطعام، إذ يتناول الإنسان الطعام، ليعوض ما فقده بالعمل المضني، وليدفع ألم الإحساس بالجوع. وهذا الطعام المهيأ لأهل جهنم لا يعوض لهم ما فقدوه من أجسامهم، ولا يشبعهم. وقد يكون الضريع صورة مقدمة للغسلين المذكور في قوله تعالى : (فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين)[2]

8←10- وجوه يومئذ ناعمة... في جنة عالية.

أتبع القرآن مصير الكفرة والمشركين بذكر مصير المؤمنين الصالحين. فكما كانت وجوه المسخوط عليهم تنبئ عن تعاستهم وما هم فيه من الكرب، فإنه بالمقابل تكون وجه المرضي عنهم منبئة عما هم فيه سعادة. تنظر إلى وجوهم فتجدها مفصحة عما عليه أصحابها من نعيم، ترى وجوها مستبشرة تجري فيها نضارة الهناء.

لسعيها راضية : يتمثل لها عملها الذي وفقت إليه في الدنيا، واجتهادها لمرضاة ربها، فتمتلئ النفوس رضى بما قدمته.

في جنة عالية : مستقرها في جنة رفيعة المقام عالية المنزلة. يزيد ارتفاعها وإشرافها حسنا وروتقا.

11-لا تسمع فيه لا غية.

هذا هو الوصف الرابع لنعيم الجنة.أنك لا تسمع فيها كلاما لا فائدة من ورائه إلا قتل الوقت. ذلك أن اللغو مستوى ينزل إليه أحد رجلين: رجل ضعيف مستوى الذهن،لا يستطيع التواصل مع المعاني العقلية الخالصة فلذا تجده يميل إلى ما لا

---

[1] سورة الزمر آية 16

[2] سورة الحاقة آية36/35

قيمة له ولا وزن، الذي هو معبر عن مستواه الفكري. والله يخلص المنعم عليهم من النقائص ويسمو بها إلى ما يناسب ما هم فيه من التكريم.

ورجل يعييه مواصلة التأمل والتفكير، فيشعر بالحاجة للترويح عن نفسه ليستجم نشاطه، إلى شيء من اللغو البريء.

والمنعمون في الجنة يسمو الفضل الإلهي بمواهبهم، فيهيئهم إلى الحياة الخالدة الباقية. وقواهم الفكرية من الكمال ما يجعل تأملاتهم تضاعف رغبتهم في مواصلة التعمق، الذي يزيدهم نشاطا ومتعة.

12-فيها عين جارية.

إنه مع تنزيه الجنة عن النقائص، أثبت لها من المحاسن ما يؤثر في خضرتها ونضارتها، وطيب هوائها.تجري فيها العيون التي يتدفق منها الماء يروي نباتاتها، ويؤنس برقرقته وخريره.

13←16- فيها سرر مرفوعة...مبثوثة.

أضاف القرآن إلى ما سبق من الخيرات التي ينعم بها المفوزون بالجنة، عرض ما تعمر به قصورهم من فاخر الأثاث. فعدد منها السرر جمع سرير.والسرير المرتفع أرفق بالجالس والنائم من الحشايا إذا كانت على الأرض. ويمكنه ارتفاعها من الاستمتاع مع الراحة بالمشاهد البديعة في الجنة. وثنى بالأكواب.والأكواب جمع كوب، وقد تقدم وصفها في سورة الإنسان في الآية 15:[ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديرا) وأضاف في هذه الآية أن الأكواب موضوعة في تناسق كلما مد المنعم يده وجدها قريبة منه.ثم ذكر النمارق المصفوفة. والنمارق جمع نمرقة، وهي الوسادة التي تتخذ متكأ. وتحدث عنها بأنها مصفوفة، مما يشير إلى العناية المتواصلة بكل خير من الخيرات، فكلما حولت عن ترتيبها أيقظ الله من يرعى النظام دائما، فيعيدها إلى الوضع المرتب البعيد عن التشويش.وأنهى التعداد بالزرابي المنتشرة في جميع الأرجاء، وهي البسط المنسوجة بفن عال في إحكام عقده، وفي تمازج ألوانه، وفي الأشكال الزخرفية التي تدخل على الناظر إليه البهجة، وتعطي للمكان المبسوطة فيه جمالا. والزرابي أصلها ذرابي نسبة إلى أذربيجان، فهي أذربية وعربت إلى زربية لأن اللغة الفارسية ليس فيها حرف الذال، وإنما هو الزاي أزربيجان. و تفوقت أذربيجان في صنع البسط الفاخرة من الصوف الناعم والمطعم بالحرير. وما تزال صناعة الزرابي الرفيعة المتقنة من تقاليد الفرس وأقطار ما وراء النهر.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

نصبت : ثبتها قائمة في الهواء راسخة لا تزول.

سطحت : سويت.

المصيطر : المجبر والمكره.

الإياب : الرجوع إلى حكم الله فريدا.

بيان المعنى الإجمالي:

داوم يا محمد على التذكير، ولا تيأس ولا تهتم إن هم لم يؤمنوا،فإن مهمتك محصورة في التذكير، وكفاك بذلك شرفا. ولست بمجبر لهم ولا بمُتسلّط تسلط القهر ليذعنوا. ولكن من أعرض عن هدايتك وكفر بما أنزلته عليك، فإني سأتولى عذابه في الآخرة العذاب الأكبر. ذلك أنهم سيعودون إلى حكمي أذلاء لا حول لهم ولا قوة.وفوق ذلك سنتولى حسابهم على كل ما اقترفوا.

بيان المعنى العام:

17—20-أفلا ينظرون إلى الإبل...كيف سطحت.

بعد أن توالت الآيات في أول السورة ترهب المشركين والجاحدين للبعث بما يلقونه من العذاب والمهانة،كر عليهم التوجيه القرآني ليقلعوا عما هم فيه من الشرك والرفض، بدعوتهم إلى التأمل في عجائب الكون المثبتة أن حسن التقدير . والنظام يهدي المتأمل إلى الإقرار بخالق الكون. إذ لا يتأتى أن يصدر هذا النظام مصادفة.

دعاهم إلى النظر الباحث عن الظواهر الكونية من ناحية وعما وراء الظواهر من ناحية أخرى. ولما كان المقصود الأول من هذه الإثارة المشركون بمكة الذين تعصبوا ضد القرآن مكذبين مستبعدين البعث والحساب، طلب القران منهم أن يتأملوا في البيئة العربية، وما تزخر به من دلائل تثبت أن الكون المشاهد تم بتقدير العزيز الحكيم.

لفت أنظارهم أولا إلى الإبل التي هي ثروتهم التـي مـا كـان لهـم أن ينشـئوا حضـارة أو أن يصلوا إلى البلدان المجاورة في تجاراتهم التي بهـا نمـت ثـرواتهم لـولا الجمـال. فالجمل خلق عجيب قوي البنية عظيم الهيكـل، رفيـع القـوائم، ومـع هـذا هـو يبـرك لييسر على الإنسان حمل أثقاله، ثم ينهض بهـا واقفـا. يطيـع قائـده ولـو كـان صـبيا. وهو أشد الحيوانات صبرا على الماء فيسير فـي الصـحراء الأيـام دون أن يحتـاج إلـى الشراب أو الطعام.إذ يختزن في باطنه ما يكفيـه لمـدة تبلـغ العشـرة أيـام.ومـن وبـره ينسج العرب ما يحميهم من القر، كما يصـنعون بيـوتهم المتنقلـة. فالآيـة تـدعوهم إلـى التأمل في خصائص الخلقية للإبل ليدركوا أن وراء ذلك مقدر حكيم.

ثم لفت نظرهم إلى السماء التي يشاهدونها فـي الليـل والنهـار، مناديـة بـأن أسـرارها عجيبة، أنها رفعت فوق الرؤوس بغير عمـد.ومـا تحويـه مـن كواكـب ونجـوم، ومـا تحمله من سحب تروي الأرض وتنشر الخصب.

ثم لفت أنظارهم إلى الجبال. ليعملـوا فكـرهم فـي كيفيـة نصـب هـذا الثقـل الهائـل، والكتلة الضخمة، فثبتها في مكانها رافعة قمتها إلى الاف الأمتار دون أن تتصدع.

وختم بإثارة التأمل فـي الأرض التـي يعيشـون علـى ظهرهـا، كيـف تـم تسـطيحها فمهدت تمهيدا، برفع كل عناء عـن الإنسـان ليسـير فيهـا أو يضـطجع أو ينـام.جبـال شاهقة لا يتسلقها إلا بجهد، وأرض مسـتوية يفلحهـا ويحبلهـا بمختلـف أنـواع الـزروع والأشجار.

21←24- فذكر إنما أنت مذكر... العذاب الأكبر.

الخطاب للنبي ﷺ، يأمره ربه أن يواصـل التـذكير، ومخاطبـة النـاس بتحريـك عقـولهم إلى ما قام عليه هذا الدين من التوافق التام بـين عقيدتـه وأحكامـه، وبـين مـا يقتضـيه العقل الراشد. ويحصر شرف مهمتـه فـي التـذكير، وذلـك بتوضـيح مضـامين الـدين وبإقامة الحجة على أنه من عند الله، مما يوجـب علـى الإنسـان المخلـوق أن يسـتجيب لما يطلب منه خالقه.وحـدد مهمتـه ومهمـة الناشـرين للإسـلام بـأن الهدايـة لا تكـون بالإكراه والجبر، ولكن بالإقناع والرضـا.فأنـت محمـل برسـالتي لا تكـره أحـدا علـى الإسلام. لكن الذي تبلغه هدايتك، ثم يصر مستكبرا عن الحـق كـأن لـم يسـمعها، موليـا ظهره لما تقول وتدعو إليه مصـمما علـى الكفـر، فأنـا الـذي أتـولى عقابـه، فأعذبـه العذاب الأكبر، الذي هو فوق ما يتصور.

26/25- إن إلينا إيابهم* ثم إن علينا حسابهم.

الآيتان تؤكدان مفهوم فيعذبه الله العذاب الأكبر، وتزيدانه بيانا.فالعذاب الأكبر ليس عذاب الدنيا، وإن كان قد سلط عليهم القتل والجوع، والمهانة في الدنيا بكفرهم ؛ ولكنه عذاب الآخرة الذي يتحقق قطعا لأنهم سيعودون جميعا إلى حكمه.ذلك أنهم قد صدروا عن الإرادة الإلهية والقدرة التي أخرجتهم من العدم إلى الوجود وسيعودون للذي أخرجهم: الله رب العالمين. وفوق ذلك إنا قد قررنا قرارا لا مثنوية فيه، أننا ستحاسبهم عن كل ما صدر منهم، عن مقابلة نعمي بالكفر عوض الشكر، ورسولي بالتكذيب عوض الإقبال على هديه بما رزقتهم من عقل وفهم.

يوم الأحد 19 ذو القعدة -2014/9/14

سورة الفجر

بهذا الاسم عرفت في المصاحف، وفي كتب التفسير، والسنة.وهي سورة مكية رتبتها حسب ترتيب المصحف التاسعة والثمانون.وعدت العاشرة حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة الليل، وقبل سورة الضحى.



وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝

بيان معاني الألفاظ :

لذي حجر : لصاحب عقل.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بخمسة أقسام في فاتحة هذه السورة :

1) **بالفجر** الظاهرة التي تتابع في كل لحظة على كوكب الأرض فيبدو به الخيط الأول من ضوء الشمس في الأفق.
2) **وليال عشر** هي العشر الأول من شهر ذي الحجة التي شرع الله فيها مناسك الحج لإبراهيم، ثم بعد التخليط الذي داخلها بعاملي طول الزمن، والشرك، أحياها الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.
3) **الشفع** يوم العاشر من ذي الحجة.
4) **الوتر** يوم عرفة.وهما يومان خصهما الله بمزايا تقرب الطائعين فيهما من رضوان الله.
5) **الليل** عندما يمضي منه زمن غير قليل.لينهض المتهجدون والذاكرون الله إلى العبادة. هذه أقسام هي بحق كافية لتأكيد وتثبيت المقسم عليه لمن كان له عقل صحيح.

بيان المعنى العام :

1←4- والفجر..يسر.

أقسم الله سبحانه بخمسة أقسام في فاتحة هذه السورة- الفجر - ليال عشر- الشفع- الوتر - الليل إذا يسر- وكل ما يقسم به الخلاق العليم يلفت أنظارنا إلى ما يتضمنه من الأسرار والحكم التي قد يغفل عنها الإنسان فهو يستحثه للتأمل في مضامين أقسامه. وهي من ناحية أخرى تدل على تأكيد المقسم عليه ليوليه السامع الاهتمام وأنه حق لا شك فيه. فلنتابع هذه الأقسام:

أ-والفجر . يقسم القرآن بهذه الظاهرة التي تتكرر كل يوم في كل بلد، وبصفة متلاحقة على الكرة الأرضية في كل لحظة من اللحظات. إذ في كل لحظة ينبثق الفجر على خط من الكرة الأرضية. وهكذا على مدار الساعات الأربع والعشرين. وهو الخيط الأول من ضوء الشمس الذي يصل إلى الأفق، ثم يعقبه تبدد الظلام شيئا فشيئا إلى أن تسطع الشمس.

وحمله بعضهم على أنه ليس قسما بالظاهرة، ولكنه قسم بفجر يوم معين.فجر يوم النحر، أو فجر يوم المحرم، فجر ذي الحجة. وحمله على الظاهرة أولى. وفيه إيماء إلى البعث في صورة بعث الأحياء إثر الفجر بعد النوم الموتة الصغرى.

ب-ليال عشر - الراجح أنها الليالي العشر من ذي الحجة.وهي ليال عظيمة المقدار ظاهرة البركات،يتجمع فيها المحرمون من سائر أقطار العالم، مقبلين على أداء مناسكهم ابتغاء رضوان الله، بأعداد ما تزال تتضاعف مع الزمن.مظهر فريد في العالم وفي أيام السنة. ترى الآلاف المؤلفة وهم يلبسون لباسا واحدا، ويدعون ربا واحدا، وأشواقهم واحدة أن يطهر ربهم أرواحهم من درن الآثام ، وأن يسمو بهم لمراتب القبول، فتتجاوب أرجاء الحرم بصدى التلبية والتهليل والتكبير والذكر. وفي هذه الليالي العشر يعمر البيت الحرام بالطائفين والقائمين والركع السجود .

وفيها ليلة عرفة التي اختصت من بين سائر الليالي بإطلاقها على ليلة التاسع وليلة العاشر، وبطلوع فجر يوم العاشر ينتهي وقت الوقوف بعرفة، ومن فاتته تلك اللحظة فاته الحج في تلك العام. وهذه الليالي العشر قد أطلع الله سبحانه رسوله إبراهيم على ما اختصت به من المناسك لما دعاه أن يؤذن في الناس بالحج. وبتعاقب الأجيال وقع التخليط في الزمن ودخل النسيء الذي ما كان مضبوطا بضابط.فلما أراد الله أن يقيم بواسطة محمد ﷺ مناسك الحج على ما شرعه لإبراهيم، يسر أن تكون حجة الرسول ﷺ بعد أن استدار الزمن. فصادفت أيام حجه ﷺ أيام حج إبراهيم قال ﷺ في خطبته في حجة الوداع : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.متفق عليه) فهذه الأيام وإن كانت غير

معينة يوم نزول الآية، ولكنها معلومة عند الله ثم عرف بها على لسان رسول الله ﷺ.

وذهب بعضهم إلى أنها الليالي العشر في قصة موسى : (وأتممناها بعشر)[1] وروي عن ابن عباس : أنها العشر الأواخر من رمضان. وقيل هي العشر الأوائل من المحرم. والقول الأول أرجح.

ج – د ﴿والشفع والوتر﴾ :الشفع ما يكون ثانيا لغيره. والوتر المفرد. وبذلك هما صفتان صالحتان للانطباق على كل ما يتحقق فيه الوصف.روى جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أن الشفع يوم النحر لما كان اليوم العاشر من ذي الحجة ، وأن الوتر يوم عرفة،إذ هو التاسع.وذكروا له محامل عديدة،لا تقوم أمام ما روي عن النبي ﷺ.

هـ ـ والليل إذا يسر : القسم الخامس الليل عند سريانه وتقضي أجزاء منه. كقوله تعالى: (والليل إذا أدبر)[2] فأقسم به تنويها وإشارة إلى قيمة العبادة الليلية. يا أيها المزمل قم الليل.إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا[3] .

5- هل في ذلك قسم لذي حجر.

السؤال تقريري.يقرر المخاطبين ليعترفوا بأن ما أقسم به القرآن قسم كاف للإثبات والتأكيد. فهو سؤال لا يتطلب الجواب، لأن الموجه إليه لا يستطيع إلا الإقرار بما تضمنه السؤال: هذه الأقسام فيها شحنة من التغليظ و التأكيد تنفي إنكار المقسم عليه بأبلغ طريقة ممن له عقل.فيوقن أن العزيز وقد أقسم بأقسام خمسة أن ما يقسم عليه حق لا شك فيه.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

[1] سورة الأعراف آية 142

[2] سورة المدثر آية 33

[3] الأيات 6/2/1 من سورة المزمل

إرم : جد عاد.

ذات العماد : صاحبة القوة.

الأوتاد : جمع وتد : ما تشد إليه الخيمة.

الطغيان : مجاوزة الحدود مع الظلم

السوط : جلد مضفور يستعمل للضرب.

المرصاد : مكان اتخذ للرصد فلا يمكن أن يغيب أو يغفل الراصد أي شيء.

بيان المعنى الاجمالي:

ألم تعلم ما فعل ربك بعاد المنتسبة إلى إرم. نعم قد علمت بذلك وتناقلت الناس أخبارهم.عاد هذه التي تفردت عن معاصريها بكونها أشد منها قوة في الجسم وفي التجارب.وكذلك قبيلة ثمود الذين نحتوا من الرخام والحجارة ما بنوا به بيوتهم في الحجْر الوادي الذي كانوا يسكنونه، وفرعون صاحب الأوتاد الأهرامات القوية التي هي إحدى عجائب الدنيا كما يقولون. يتفق هؤلاء وإن اختلفت آثارهم وتنوعت قوتهم فإنهم اتفقوا فيما بينهم على ما يزلزل كل حضارة وقوة، هو البغي والظلم، وما يتبعه من فساد خلقي واجتماعي، فلم يمهلهم ربك طويلا، بل صب على كل منهم عذابا متواصلا مهينا ساحقا. هذا هو جواب الأقسام الثلاثة : إن ربك يا محمد يرصد ما يصدر عن المعاندين المكذبين، ويسلط عليهم عذابه الساحق. وهو تهديد مؤكد للقرشيين، وتأييد لرسوله.

بيان المعنى العام:

6-8- ألم تر كيف فعل...في البلاد.

افتتحت الآيات باستفهام تقريري، لا يطلب له جواب، ولكن المقصود منه الإثارة وأن المخاطب متيقن لمضمونه. والرؤية تحتمل أن تكون علمية باعتبار أن أخبار عاد منتشرة معلومة.ويحتمل أن تكون الرؤية بصرية، باعتبار الآثار الباقية التي تقوم دليلا على ما فعل الله بهم من الإبادة. وهذه الآية لا تصلح أن تكون جوابا للقسم.وجوابه إما أن يكون قوله تعالى الآتي : إن ربك لبالمرصاد . على ما سنبينه.وإما أن يكون الجواب مقدرا يدل عليه ما عقب به القسم :ليستأصلن المعاندين، كما تدل عليه الأخبار عن الأمم الثلاث عاد وثمود وفرعون.

فالأمة الأولى التي ضرب بها المثل هي أمة.عاد الأولى المنتسبة إلى إرم.عاد بن عوص بن إرم.وقبيلة عاد قبيلة قوية، قاماتهم طويلة، وبنيتهم شديدة، وُهبوا قدرات عقلية، وفنية فائقة. "ذات العماد" شبهت قوتهم بالبيت الذي يقام على عماد يركز في

وسطه به تثبت الخيمة وتقوى على الصمود أمام الرياح. ساعدهم ذلك على بناء حضارتهم.وفاقوا بقية القبائل التي كانت تسكن تلك الأصقاع." التي لم يخلق مثلها في البلاد"

7- وثمود..بالواد.

وثمود قبيلة كانت ديارها بالحجر، وهو وادي القرى كان بين جبلين، في طريق الماشي بين المدينة والشام.نزله من قبائل العرب بعد هلاك ثمود قضاعة، وجهينة، وبلي. أقام قوم ثمود حضارتهم على تشييد المباني بالصخور وبالرخام، مما ينحتونه من الجبال.

8 ←14- وفرعون ذي الأوتاد...لبالمرصاد.

الظاهر أن الآية تشير إلى الأهرامات التي كانت منتشرة في أرض مصر إبان الحضارة الفرعونية. فهي في شكلها كالوتد المقلوب. وهي في هندستها وطريقة بنائها وما يحويه داخلها من مصاعد وتقسيمات تعرف بالمكانة التي وصل إليها الفراعنة في العلم والمعرفة والفن.

هذه الأمثال الثلاثة عاد، وثمود، وفرعون.تعطينا صورا من التقدم الحضاري وخاصة العمراني.وإن اختلفت في جزئيات وخصائص كل حضارة، إلا أنها تتفق على أن أصحابها بلغوا من القوة مبلغا كبيرا.

والثلاثة انحرفوا انحرافا كبيرا يهدم كل حضارة مهما بلغت من القوة.أجهزة الحكم فيها اعتمدت القوة والعنف،طغوا طغيانا لا يعترف بحق مشروع، ولا بما جرى عليه الناس في عقودهم الاجتماعية. ولا بشرع إلهي. هزأوا من كل ذلك،فساد الظلم والقهر في علاقة الحاكم بالمحكوم.أبغض الشعب حكامه، وقسا الحكام على الشعب. وما يسلبونه من أموال الناس يفتح لهم العبَّ من الشهوات، فتراخت أخلاقهم" فأكثروا فيها الفساد" وتهيأوا تبعا لذلك للزوال والاستئصال. فصب عليهم ربك يا محمد عذابا نازلا من السماء لا يفلت منه أحد، عذابا مؤلما مهينا. شأن السياط التي يضرب بها ضربا مؤلما متواصلا مهينا إلى الموت. وإن كان ما ذكرته يمثل قانون العدالة الإلهية في المجتمع إلا أن عادا وثمود وفرعون كان فاشيا فيهم الكفر وما يتبعه من الانحرافات، فبعث لكل منهم رسولا فعصوه، فسلط على كل منهم عذابا استأصله.

إن ربك يا محمد لبالمرصاد، يرقب كل عمل يقوم به البشر. لا يفلت من رقابته شيء، فيجزي كل عامل بما عمل ويسحق المعاندين الطغاة.وبه أراد القرآن أن يهدد

المشركين بما حققه من القسم.وتكون الأمثلة الثلاثة مؤيدة لهذا المفهوم، بما تم في الوجود عبر الأحقاب.وفي صياغة الخطاب : ربك بالإتيان بلفظ الرب وإسناده إسناد التشريف لرسوله صلى الله عليه وسلم مرتين ما يدل على تأنيسه وتثبيته، ووعده بأن الله ناصره.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ابتلاه : اختبره بالخير أو الشر.

الإكرام : إيصال نفع لا يقارنه غضاضة.وكذلك جعل الشيء نفيسا.

نعمه : جعل عيشه طيبا.

فقدر : قلله،وضيق عليه موارد الرزق.

أهانني : أذلني.

التراث : المال الموروث.

اللم : الجمع.جمع أموال الميت كلها إلى أموالهم.

الجم : الكثير.

بيان المعنى الإجمالي:

تكشف الآيات عن نفسية الكافر، وعن تعلقه التعلق كله بالمادة. تجده إذا اختبره الله بالتوسعة عليه في الرزق اعتقد أن نعيم الدنيا يتبعه نعيم الآخرة حتما.وأما إذا ضيق عليه في الرزق أيس واعتبر ذلك دليلا على إهانة الله له.وكذلك تكون نظرتهم للموسعين عليهم، وللفقراء المحرومين.فالأولون عندهم هم المفوزون يوم القيامة، والآخرون هم المهانون يوم القيامة كوضعهم في الدنيا. إن ما استقر في أذهانهم وبنوا عليه علاقاتهم الاجتماعية خطأ وضلال .فالرزق في الدنيا، أو الحرمان كل منهما اختبار للإنسان ليظهر موقفه من خالقه ومن تصرفه.وليست النعمة كرامة مطلقة، ولا التضييق إهانة مطلقة. بل القيمة في موقف الإنسان من النعيم ومن الخصاصة، هل يزيده ذلك استقامة وقربا من الله وتمسكا بالقيم الخلقية المبثوثة في

القرآن والسنة، أو يعتبر ما ناله في الدنيا هو الغاية وليس وراء ذلك إلا استمرار ما في الدنيا يوم القيامة.فهو في الأول ناجح في الاختبار سعيد في دنياه وفي أخراه.وأما في الثاني فهو خاسر فيهما.

ثم توجهت الآية موبخة الكفرة لتناقضهم.فهم قد اعتبروا أن ما نالهم من حظوظ الدنيا تكريم لهم، ثم إنهم لغلظ طباعهم لا يكرمون اليتيم العنصر الضعيف فيهم، ولا يتحرك شعورهم الإنساني لجوع المساكين، فلا يقومون حتى بدعوة غيرهم لإطعامهم. شراهتهم للمال شراهة تعميهم عن كل شيء آخر، فهم يتسابقون للاستيلاء على ما يخلفه الميت فيحرمون اليتامى من مال آبائهم، ويحرمون النساء من حظوظهم في التركة.فيلتهمون الميراث التهاما لا يبقي لصاحب حق حقه.

بيان المعنى العام :

16/15-فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه...أهانني.

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: إن ربك لبالمرصاد يرصد سبحانه أعمالنا ثم يحاسبنا عليها ويجزينا.وإذا استحضر الإنسان هذا المفهوم : أنه مراقب رقابة من لا يغيب عنه أي عمل يصدر عن الإنسان، وأنه يجزيه عن أعماله، وأن عدله سبحانه العدل الكامل لا جور فيه ولا ظلم.فإنه بناء على ذلك يكون أول ما يحتاج إليه الإنسان أن يتحقق من أن ميزانه ميزان صحيح لا يضلله؛ يعرفه بالخير الذي يرضى الله عنه، كما يعرفه تعريفا كاشفا عن الشر الذي يتبعه سخط الله . وأن تكون أيضا بوصلته لا خلل فيها تبين له الاتجاه الصحيح ولا تضلله. وهذا لا يُوفره إلا التمسك بالتوجيه الديني والقيم المعتبرة عند الله. ولكن الذي ضلل الناس هو خلط منفصل عن القيم الحق.وميزان مختل أقامه أصحابه على ما يصل إليهم من متاع الحياة الدنيا.فإن نالوا من خيراتها من المال والجاه والأولاد والصحة تصور بعضهم أن ذلك عنوان رضا الله عنهم،وأن ما جنوه من آثام معفو عنه لا يحاسبون عليه، لأن الله ما وسع عليهم إلا لأنه راض عنهم. وتوهم البعض منهم أنه ليس وراء نعيمهم الدنيوي نعيم آخر، فكفروا بأنعم الله. وبالمقابل يظن من ضاقت موارد رزقه، وعجز عن تلبية حاجاته وحاجات أسرته، يظن أن الله أهانه.

إن ربط التوسعة في الرزق، والنيل من حظوظ الدنيا برضا الله، وأنه أمارة قرب الموسع عليه من ربه ، وبالتالي من حسن العاقبة،وربط التضييق في الرزق والحرمان من حظوظها، بسخط الله والخسران في العاقبة.إن هذا التصور وهم باطل.ذلك أن التفضل الإلهي أو الحرمان هو في حقيقته ابتلاء واختبار من الله لعبده لينكشف صلاحه أو فساده.إن المنعم عليه مختبر، هل إن النعمة زادته خشية

من ربه وحياء من أن يصرف فضله في عصيانه وخوفا من أن تفتنه مباهج الحياة عن القيام بحق العبادة على أكمل وجه،ولا ينسب ما حصل عليه لنفسه وذكائه ومواهبه بل يربطه بتوفيق الله وحسن عونه. وينطلق لسانه وقلبه بالشكر فيكون بذلك قد نجح في الامتحان .قال تعالى مسجلا لموقف سليمان : (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم)[1] وبالعكس إذا زادته النعمة بطرا، وبعدا عن ربه، واستغراقا في اللذة،واعتبار الحظوظ الدنيوية الغاية التي ليس وراءها غاية،وأنه بمكانة القرب من ربه بسبب ما توفر له من النعمة، فإنه يكون قد خاب في الامتحان. وكذلك المضيق عليه هو في معرض الاختبار .هل قابل وضعه بالصبر، والرضا بالمقدور، وعدم السخط على ما ناله من مباهج الدنيا، وأمل فيما عند الله بالتوسعة وبالأجر على الصبر، فيكون بذلك قد نجح في الابتلاء، أو قابل ذلك بالسخط والتبرم، والاحتجاج على القدر، واعتبار التضييق عليه إهانة له من ربه. فيكون بذلك قد خاب في الامتحان وخسر الدنيا والآخرة.

إن ما يجري على البشر من سعة أو ضيق حسب ما سبق في تقدير الله، مبني كله على الحكمة البالغة، وهو الحق الذي به يجري الكون على استقامة. ولكن سر ذلك محجوب عنا، يعلمه مبدع الكون سبحانه.

17—20- كلا بل لا تكرمون اليتيم...حبا جما.

[كلا] ردع وزجر لما استقر في أذهان المشركين وأشاعوه من أن ما ييسره الله في إجراء الأرزاق على الناس في الدنيا والتوسعة عليهم، إكرام للموسع عليهم ينبئ على ما لهم من مكانة وحظوة عند الله،وأن ما يضيقه من أرزاق ومن حظوظ الدنيا، إهانة للمضيق عليه، ودليل على أنه مهان عند الله في الدنيا والآخرة. فأبطل القرآن بكلمة [كلا] كل تلكم الأوهام.وردعهم عن التعلق بجعل التوسعة أمارة على إكرام الله للمنعم عليه في الدنيا والآخرة، وجعل التضييق أمارة على الإهانة فيهما.

وانتقل بكلمة [بل] من الغرض السابق إلى غرض جديد فيه توبيخ لهم، وإبراز لتناقض أقوالهم وفعالهم.فالمشركون اعتبروا أن وفرة المال تكريم، ولكن أعمالهم على خلاف ذلك.فموقفهم من اليتامى الذين فقدوا العائل المدافع عنهم أنهم لا يكرمونهم، ولا يعاملونهم معاملة تحترم شخصياتهم، ولا تكسرها بالإهمال وعدم الاعتبار. وبلغ بهم الشح بالأموال أنهم يشاهدون المساكين الذين يتضورون جوعا

---

[1] سورة النمل اية 40

فلا يرحمونهم بلقمة عيش، بل هم لعدم إحساسهم بالمحتاجين يبخلون حتى بدعوة غيرهم للمساعدة " **ولا يحضون على طعام المسكين** استولى حب المال على أنفسهم، وبلغت شراهتهم للجمع حدا كبيرا.فإذا مات الميت استولى القادرون على مخلفه يحرمون البنات، ويسقطون الأيتام من الميراث ويلتهمون كل تركته التهاما لا يبقي على حق لمن كان له. وجمدت عواطفهم على حب المال فتباعدوا عن جميع المكرمات.وسوغ لهم ذلك أكل الأموال بالباطل. أمام جمع أكثر نصيب من المال لا تتحرك لهم عاطفة، ولا ضمير، ولا شعور بالعدالة.

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ (23) يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى (24) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ (26) يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (27) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (29) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (30)

بيان معاني الألفاظ:

الدك: الحطم والكسر.

الوثاق: ربط الأسير، ومن يتحرى فيه ما يمنعه من الهرب.

مطمئنة: هادئة لا يستفزها خوف، ولا هي منزعجة.

راضية: نالت من الكرامة كل ما تطمح إليه.

مرضية: توضح علاقتها بربها أنه راض عنها.

بيان المعنى الإجمالي:

كلا، زجر لهم عما اعتقدوه من أن مقاييس الفضل والفوز فيما يناله الإنسان من سعة في الرزق.وإبطال لذلك، لإثبات أن النجح مرتبط بالاستقامة وصفاء العقيدة. ثم وبخهم على استيلاء المادة عليهم، فهم لا يكرمون اليتيم، ولا يلتفتون إلى المساكين المحتاجين للقوت حتى يحث الواجد على عونهم.وعلى تعلقهم بالمال فهم يلتهمون تركة الميت التهاما يحرمون البنات، ويستولون على مال اليتيم.

كلا، زجر آخر لهم على سلوكهم هذا المشين. وتهديد لهم بما سيلقونه عندما تتهد الأرض والجبال.وعندما يخضع الكون كله للأمر الوحيد الصادر عن العزيز الجبار.يوم تصطف الملائكة في نظام تنتظر ما يؤذن لها به. في اليوم الذي

تنكشف جهنم بحقيقتها وسعيرها فيواجهها المجرمون يشاهدون لظاها وتميزها من الغيض. في هذا اليوم تعود للإنسان ذاكرته كأصفى ما يكون فيتذكر كل موبقاته التي أفسد بها في الدنيا، ولكنه تذكر لا يفيد، ومعرفة لا أثر لها في صلاح أمره. ويأكل ضميره الأسى فيقول بلسانه أو بلسان حاله آسفا مكروبا مهموما : يا ليتني قدمت ما ينفعني لحياتي الباقية. في هذا اليوم يسلط الله عليه عذابا يفوق التصور، ما سلط مثله أحد.ويوثقه وثاقا شديدا لا يمكنه من أي حركة، ويشعر باليأس من الفرار. وإذ قد اكتملت صورة المعذبين، بشر المؤمنين الصالحين بما سيلقونه يوم القيامة. يسمعون صوتا يبشرهم بالفوز، ويثني عليهم، تسمع كل نفس هذا النداء الكريم : يا أيتها النفس المطمئنة الآملة غير الخائفة ارجعي إلى الموعد الذي كان وعدك ربك، فقد هيأت كل ما يرضيك فلا تتعلقين بأي شيء وراء ما تجدينه من ضروب التكريم والنعيم.وفوق ذلك يحل عليك رضاي. ادخلي مع عبادي الصالحين أمثالك، وادخلي جنتي التي أعددتها لك.

بيان المعنى العام :

22/21- كلا إذا دكت الأرض دكا.

[كلا] زجر لهم وردع لإهانتهم لليتيم، وإهمالهم لحق المساكين في الحياة الكريمة.واستحواذهم على التركات.وتعلقهم بالمال تعلقا أنساهم كل شيء. فليرتقبوا.فإن عذاب الآخرة لا محيص عنه الذي من أماراته.

إذا دكت الأرض دكا دكا : تهديد لهم بعذاب الآخرة بعد أن هددهم بأنه سيجري عليهم في الدنيا ما جرى على عاد وما عطف عليه. سيكون ذلك يوم يحطم الجبار الأرض حطما فتفتت الجبال والوهاد، وأكد تحطيمها بتكرار دكا.وإذا كانت هذه الكتلة الضخمة : الأرض بجبالها ووهادها ومحيطاتها وأنهارها وصحاريها ستندك دكا، وتفتت.فكيف يكون وضع الإنسان الضئيل بالنسبة لهذا الحطم القوي الشديد ؟

وجاء ربك.إسناد المجيء إلى الله لا يقصد منه قطعا تنقل من مكان إلى مكان، تعالى الله أن يكون في مكان.وقد يؤول على أن المعنى جاء أمر ربك وقضاؤه الذي لا مثنوية فيه. أو على حضور حسابه الموعود به. فهو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه. و هذا التعبير يدخل المهابة والجد في تصور المخاطبين بصفة كبيرة.

والملك صفا صفا . ويقف كل ملك في موضعه المعين له في نظام مهيب صفوفا متتابعة.وهو تقريب للصورة المهيبة في الدنيا عندما يصطف الجنود كلهم في مواقعهم، لا يرتد لهم طرف، ولا تصدر عنهم أي حركة،في انتظار الأمر الحاسم لصاحب الأمر. **وعنت الوجوه للحي القيوم.**

23-وجيء يومئذ بجهنم.

هذا كمال المشهد العظيم الرهيب.جيء بجهنم أحضرت جهنم. ومعنى حضورها أن الحجاب الذي كان يحول بين المحشورين وبين رؤيتها يرفعه الله، فإذا لهيبها وتوقدها مشهود حاضر، يغطي مسافات لاحد لها.

ولما كان المقصود من العرض تهديد الكافرين المكذبين ووعيدهم بما سيلقونه، لم تتحدث الآية عن حضور الجنة. ولا شك أنه ينكشف ما فيها من نعيم لقوله تعالى: (وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين)[1]

يومئذ يتذكر الإنسان، وأنى له الذكرى. إنه في هذا اليوم الذي تدك فيه الأرض دكا وما عطف عليه.يأذن رب العزة أن تعود لكل إنسان من الكفرة ذاكرته فتبرز فيها بصفة واضحة ما عرض عليه في الدنيا من الهداية، ومواقفه منها، وعمله على رفضها، ومخططاته التي حاول بها توقيف مد التوحيد، وإعراضه عن عبادة ربه ومراقبة أحكامه في علاقاته.وأنى له الذكرى.على تقدير مضاف : وأنى له أن تنفعه الذكرى.فاليوم يوم حساب لا تكليف.

24-يقول يا ليتني قدمت لحياتي.

مما تضمنه الذكرى أن يعود الميزان الصحيح لتقويم ما صنع في الدنيا.ويعبر عن ذلك بلسان المقال، أو بلسان الحال.يا ليتني قدمت لحياتي. يعبر عن بالغ أساه وعظيم أسفه لتضييعه العمل الصالح في الوقت الذي يفيده" قدمت لحياتي" الحياة الحقيقية الدائمة التي تبدأ من هذا اليوم. بلغ الأسف حد جلد الذات، وبدا منهزما تأكله الحسرة التي لا تنفعه.ينادي نفسه الضائعة في خضم الأهوال التي بدت له من صحيفة عمله وقد عادت واضحة بالذكرى كأبين ما يكون.

26/25- فيومئذ لا يعذب عذابه أحد "ولا يوثق وثاقه أحد.

في هذا اليوم الذي تدك فيه الأرض دكا، وما عطف عليه.ينفذ الله عذابه في الذين كفروا بربهم وكانوا واقعين تحت رصده لجميع أعمالهم.ولما كانت كلمة العذاب تطلق على مستويات من العذاب تذهب صعدا من القليل إلى العظيم، حدد القرآن عذاب ذلك اليوم بأنه عذاب بالغ من الشدة، والإيلام، والمهانة، حدا يفوق كل تصور، لا يستطيع أحد أن يعذب بمثله.يوثق المعذب وثاقا يشل كل حركاته فلا ينفس عن ألمه بأي حركة فضلا أن يجد منه مخلصا.أعاذنا الله من عذابه بفضله ورحمته.

---

[1] سورة الشعراء آية 91

27—30- يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك...وادخلي جنتي.

هذا خطاب من رب العزة موجه إلى الصالحين من عباده،الذين أيقنوا بالعقيدة السليمة المنزهة لله عن كل نقص، وآمنوا بما أنزل على رسوله، واجتهدوا لتكون أعمالهم موافقة لما جاء في شرع الله. فكان بشارة عقب إنذار وتهديد، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة والعكس.

وحمله على أنه خطاب من رب العزة تكريما لعباده الصالحين أولى في نظري من حمله على أنه خطاب من الملائكة الموكلين بذلك، لأنه أكثر انسجاما مع قوله التالي " فادخلي في عبادي وادخلي جنتي "

والظاهر أن هذا الخطاب يتم بعد البعث فهو حديث عن يوم القيامة.وروي أنه يخاطب به المؤمن عند الموت.فقد روي عن سعيد بن جبير : (قرأ رجل عند رسول الله :ﷺ (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) فقال أبو بكر :ما أحسن هذا !فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إن الملك سيقولها لك عند الموت. أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم. وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية). ولا مانع من تخريجها على المحملين عند الموت، ويوم القيامة. وتكون من خطاب ملك الموت في الدنيا، ومن خطاب رب العزة يوم القيامة.

والنفس المطمئنة هي النفس الهادئة الآمنة.يسكب الله فيها يوم القيامة شعورا يجعلها آملة غير خائفة.على عكس نفوس الكافرين من الانزعاج والخوف وترقب الشر. وهي راضية بما أعطاها الله من كرامة في الجنة.فإنه وإن كانت درجات المتعمين في الجنة متفاوتة.إلا أن كل من يُفَوِّزُهُ الله بنعيمها يغمره الشعور بأنه قد نال كل ما يطمح إليه، ولا تتوق نفسه إلى أي شيء آخر.

وهي مرضية، مرضي عنها.وإحساس النفس المطمئنة بأنها بمحل الرضا من ربها أرفع نعيم تجزى به، قال تعالى : (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)[1].

30/29- فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

خطاب، فيه تكريم وتشريف، وإيناس، للمفوزين بالجنة. يقال لهم وهم داخلون، بالأمر الأول هذا الكلام، إيناسا لهم وزيادة في تكريمهم . كما توجه عبارات الترحيب للزائر في الدنيا عند استضافته بالبيت.

يوم الأربعاء 22 ذو القعدة 1435–2014/9/17

---

[1] سورة التوبة آية 72

سورة البلد

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة. وترجمها البخاري: (سورة لا أقسم) وكلاهما مأخوذ من الآية الأولى المفتتحة بها. وهي مكية على الراجح. رتبتها التسعون حسب ترتيب المصحف.وعدت الخامسة والثلاثين حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة ق، وقبل سورة الطارق.

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

البلد : مكة.

الكبد : التعب والشدة.

لبدا: جمع لبدة ما تلبد من صوف أوشعر. يعني كثيرا.

الهداية : الدلالة على ما يبلغ المقصود ويحمي من الضياع. والمقصود بها الإلهام.

النجدين : الطريقين المرتفعين دون ارتفاع الجبل.الخير والشر.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم القرآن في فاتحة هذه السورة بثلاثة أقسام :

1-أولا : بمكة مراعيا أن النبي ﷺ حال فيها فزاد حلوله بها شرفا وتعظيما لها.

2-و ثانيا بالوالد، والأقرب أن يكون المقصود به إبراهيم عليه السلام.

3-وثالثا بما ولد،وما تناسل منه من الأنبياء والمرسلين والصالحين من أمم التوحيد، وواسطة عقدهم محمد ﷺ.

والمقسم عليه الإنسان حسب طبيعة خلقه الذي أراد الله أن يكون عليها، خلقه ليسير في حياته سير المعاناة للمشاكل التي تعترضه باستمرار ليتغلب عليها. فحياته ليست حياة هنيئة سهلة. وإذا كان الخالق قد جعل طبيعة خلق الإنسان تجري على هذه

المعاناة،فمن غرور الإنسان وضيق تفكيره، أن يدعي أنه قوي لا يقدر أحد عليه، عندما يجمع من أسباب القوة ما يغطي على معاناته المستمرة ونواحي نقصه الكثيرة الأخرى. والذي أفسد عليه تفكيره،وأوقعه في الضلال ما جمع بين يديه من الأموال وتسلطه عليها بالإنفاق المتواصل والكثير.فهو يتبجح بذلك ويعلنه. وتبعا لهيامه بالمال كفر بالبعث ظانا أن ماله سيكون على ما هو عليه في الدنيا. ولما كان مرفها ماليا ولا يرى قيمة إلا ذلك اختلط عليه الأمر، وغرق في الكفر والضلال.

لوكا ن عاقلا ما تبجح بماله معلنا لنفقاته الكثيرة ظانا أنه لم يراقبه أحد في تصرفاته، إن الله يعلم تصرفه في أمواله وما فتح من أبواب الفساد والتحلل. ألم يتأمل في ذاته كيف أن الله مكنه من حاسة البصر وجعل له عينين بهما يدرك الوجود،ومكنه من النطق المعبر بلسان وشفتين،عما يحصل له من المدارك،وبذلك استطاع أن يبني حضارته ويتفاعل مع البشرية.وهداه بما ركب فيه من قوى الإدراك العقلي، وبما بلغه من المعرفة على لسان رسله، ليعرف الخير والشر.ويجاهد لينقاد إلى أحدهما يجاهد نفسه وشهواته ليتبع طريق الخير، أو يجاهد فطرته والاحتياط لماله فيتبع طريق الشر. وهو مسؤول .

بيان المعنى العام :

(1-3)، لا أقسم بهذا البلد.. ووالد وما ولد.

افتتحت السورة بقسم دخلت عليه كلمة [لا] وهو يجري على نظائره السبعة التي تقدمت في الواقعة،وفي الحاقة، وفي المعارج، وفي القيامة، وفي التكوير،وفي الانشقاق. والمعنى تأكيد الكلام على أبلغ صورة. والمقسم به :هذا البلد،ووالد، وما ولد.

القسم بهذا البلد، يعني به مكة، والإشارة إليه للتنويه به باعتبار أنه حاضر في أذهان المخاطبين فتميز بحضوره وبالإشارة إليه أكمل تميز.والحق بهذا البلد قوله: [وأنت حل بهذا البلد] يمكن فهم هذا الملحق على أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا البلد الحرام، قد تجرأ عليه المشركون، فجعلوا الاعتداء عليه حلالا، مع أن الحيوانات محرم إيذاؤها أو التعدي عليها في عرفهم العام.أي وأنت حلال عندهم يحلون منك ما حرم من ساكن هذا البلد.وفي هذا تعريض بقساوة المشركين وغلظ أكبادهم وتنكرهم لما التزموا به من احترام من يحل بهذا البلد، وبهذا تكون الإشارة [هذا البلد] إمعانا في تشويه مواقفهم. كما يمكن فهمه على أنك يا محمد حل من كل تبعة، وغير ممنوع من اتخاذ المواقف التي تقتضيها مقابلة تعدياتهم بمثلها، ليرتدعوا.فأنت حل في المستقبل تصنع فيه ما تقتضيه المصلحة من القتل والأسر،

وعد له بفتح مكة وحلها له ساعة من نهار يقيم فيها التوحيد، ويذل الأصنام.وهو نظير قوله تعالى: إنك ميت وإنهم ميتون.أي في المستقبل.

ووالد: هذا هو القسم الثاني، والأظهر أن الوالد المنكر تنكير تعظيم، هو إبراهيم عليه السلام الذي بنى الكعبة وأسكن فيها ذريته قال تعالى: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم)[1]

وما ولد: هذا هو القسم الثالث، الذين ولدهم إبراهيم وتناسلوا منه، واقتفوا هديه في التوحيد، وواسطة عقدهم محمد ﷺ. وفي القسم بما ولد، إيماء إلى أن المشركين من قريش المعتزين ببنوتهم لإبراهيم ﷺ، قد انحرفوا عن طريقته في الحياة ومسلكه في العقيدة،فهم غير مؤهلين لبنوته. قال تعالى: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا)[2]

4- لقد خلقنا الإنسان في كبد.

هذا هو المقسم عليه.حقق في جملة القسم أن خلق الإنسان بمعنى تسويته، في أجهزته، وفي تفكيره، وفي عواطفه، وبصفة عامة في جانبه المادي، وفي جانبه الروحي والفكري،مغرق في التعب والشدة. فالإنسان على هذا هو الجنس البشري، وأفصحت الآية عن قانون الخلق الذي لا يستطيع أي فرد من أفراد البشر أن يخرج عنه. ليست الحياة الدنيا حياة منزوعة من التعب، ومن المعاكسات.ولكن قانون الخلق أن كل فرد معرض، وعلى نسب مختلفة،إلى كبد: تعب وشدة:

في جسمه، بما يتعرض له في حالتي الاستقامة، والمرض. هو النقص المكتوب والملازم للإنسان وإن غفل عنه.خذ لذلك مثلا كل فرد يلحقه الإعياء،ويحتاج إلى النوم ليستجم، وهو بين الشعور بالحر أو بالبرد، والعمل على التكيف مع وضعه بما يستطيع. وكل إنسان قد يحصل له عقب الأكل في حالتي الهضم والبراز، مشاكل تقوى أو تخف. وكل إنسان يتحول من ضعف إلى قوة ثم من قوة إلى ضعف وشيبة. وسر على هذا المنوال تتبين أن خلق الإنسان مرتبط بقانون الكبد.

وفي جانبه الفكري، لا يصقل فكره إلاّ بمعاناة التعلم، والخطأ و الصواب، والنقد الذاتي.ويعاني من النسيان على نسب مختلفة. ويترتب على النسيان مشاكل ذاتية ومشاكل اجتماعية قد تخف آثارها ، أو تعظم ويتبعها ما يتبع من خسارة.

---

[1] سورة إبراهيم آية 37

[2] سورة آل عمران آية 68

وهو يكابد ويعاني بالرياضات الروحية ليبقى على صفائه الروحي، وقد يغفل عنه فيشعر بعدم الاستقرار ويمسه طائف من الشيطان، وقد ينسى ربه فتظلم روحه ويعاني من القلق والحيرة والانبتات عن الواقع ما يعاني. ويمد الشيطان في غفلته حتى يرين على قلبه قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.)[1]

ليست الحياة الدنيا ولن تكون سعادة خالصة من كل كرب، ولا هي آلام متواصلة وعذاب شديد.والإنسان يكابد ما يعترضه بفضل ما رزقه من عزم، وجهاد، وصبر.فهذه الحقيقة قد يغفل عنها الإنسان بما يواتيه من الحظ المساعد في فترة من فترات حياته.فأقسم القرآن عليها لينزع من كثير من البشر هذا الوهم، وبالتالي ما يترتب عليه من إنكار البعث على ما سنبينه.

وذهب بعض المفسرين إلى حمل الإنسان على فرد خاص من رؤوس الكفر الذين تعرضوا للدعوة وحاولوا أن يحولوا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين نشرها في الناس. والسياق يأبى هذا التخصيص.

5-أيحسب أن لن يقدر عليه أحد.

تستولي على الإنسان العافية، وما يجمع من متاع الدنيا ولو لمدة محدودة، فيخيل إليه أنه من القدرة والقوة، أن نعيمه الذي بين يديه نعيم سرمدي، لا يحول ولا يزول.وهو تصور ساذج يدعو إلى السخرية من صاحبه المغرور، أو الإشفاق عليه. سمعت عن أحد الذين ساعدهم الحظ فجمعوا ثروة كبيرة، فصرح لبعض خلصائه قائلا : إن الفقر لو ركب صاروخا فلن يستطيع أن يلحق بي. وبعد مدة لم تظل فلس المسكين وركبه الفقر بكلكله.

6- يقول أهلكت مالا لبدا.

يفتخر بما ينفقه من أموال كثيرة، إنفاقا متتابعا متراكما. وهو تسجيل يعلن سلم قيمهم: المرتبط بالمال جمعا وإنفاقا والافتخار بذلك يقول عنترة :

وإذا سكرت فإنني مستهلك *** مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى*** وكما علمت شمائلي وتكرمي

المال هو همهم الأول، ومناط الاعتزاز، ومتعلق الفخر. قال تعالى : (وتحبون المال حبا جما)[2] وتأصل هذا الوهم المردي في نفوسهم، وتبعه إنكارهم للبعث.

---

[1] سورة المطففين آية 14

[2] سورة الفجر الآية 20

فقوله تعالى : يقول أهلكت مالا لبدا. يعطي السبب الذي من أجله ظن الإنسان الكافر أن لن يقدر عليه أحد. وأنه تبعا لذلك أنكر البعث والحساب

وتنسجم الآيات مع أول السورة فبعد القسم المغلظ على أن الله خلق الإنسان في كبد بحيث أنه لا يستطيع أن يجعل حياته الدنيا سعادة لا يخالطها مشاق.وهو أمر واقع لا يمكن إنكاره حسبما بيناه ؛ يبرز القرآن أن الإنسان يحاول أن يغطي ضعفه بالإنكار والادعاء الفارغ.فيحسب أنه لا يقدر عليه أحد،وذلك تابع لتقديره أن المال هو القوة الحق، والسعادة. وبتوفره يسمو الإنسان ويكون مآله منسجما مع واقعه. وخوله هذا التصور الفاسد إنكاره للبعث والسؤال، وحتى على فرض وقوعه فإن مركزه المالي سيحقق له المركز العالي عند ربه. كما جاء في قوله تعالى: (ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منهما منقلبا)[1] وقوله تعالى: (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى)[2]

7- أيحسب أن لم يره أحد.

يعلن إنفاقه الواسع العريض. ويظن أنه اكتسب بذلك القوة والمجد.ويقمعه القرآن بأن الله الرقيب عليه يعلم إنفاقه، ويعلم الوجوه التي أنفق فيها،وما دفعه للإنفاق من مقاصد خبيثة، وما في ذلك من فساد.وأنه كان من الخير له أن لا يعلن ما يزيده إثما ويحط من قيمته الإنسانية.فالله عالم بنواياه وبكل ما أنفقه لا يغيب عن علم ربه شيء.

8-10: ألم نجعل له عينين.. وهديناه النجدين.

سؤال تقريري. يذكر المخاطب بما لا يستطيع إنكاره. تبجح الإنسان الجاهلي بكثرة نفقاته، وقمع بأن الله عليم بكل نفقة صدرت عنه، وتبجحه وإعلانه يدل على ضيق تفكيره وسطحيته، ألا يعلم أن الله منحه عينين يرى بهما المبصرات، فلولا أن الله مكنه من قوة البصر لتعطل تصوره للعالم الخارجي. وبهذا يكون تبجحه بنفقاته وحديثه بذلك دليلا على غبائه لأن الميسر له آلة العلم بما يجري في الخارج هو الله العليم.

ولسانا وشفتين. جمع القرآن في التذكير بالسؤال بين اللسان والشفتين، لأن نعمة النطق لا تحصل إلا بهما معا.ومع ذلك فيه إيماء إلى توبيخ المتبجح بأن الله لما خلق له شفتين فقد جعل له بابا يستطيع به أن يطبق به على لسانه ولا يتكلم بهذا النحو من الهراء.

---

[1] سورة الكهف آية 36

[2] سورة فصلت آية 50

وهديناه النجدين.تتابع التذكير بالنعم التي مكن الله الإنسان منها.مكنه أولا من وسائل المعرفة بما رمز إليه من قوة البصر .ومن التعبير عما يحس به فيبلغه إلى غيره، وهو أساس التمدن والحياة الجماعية.وفوق هاتين المرتبتين أن هداه بالعقل الذي يميز بين الخير والشر، وبين الحسن والقبيح، وبالتشريع المبلغ على لسان رسله لئلا تضلله شهواته. بهذين السبيلين يتم التمييز الذي يحصن الإنسان من الاغترار بالحاصل القريب.فينفذ إلى ما وراء العاجل إلى النتائج البعيدة.وشبه الخير والشر بالنجدين، أي بالطريقين التي تقتضي طبيعتهما بما فيهما من ارتفاع وانخفاض إلى التأمل في كل خطوة واتخاذ الحيطة في المسير .وسماهما بالنجدين أيضا، لما في اتباع كل منهما من مشقة، فطريق الخير يقتضي التغلب على منازع الشهوة، وعلى مغريات النتائج السهلة القريبة. وطريق الشر في اتباعه قمع للفطرة، واستخفاف بالعواقب، والتعرض للمسؤولية في الآجل، وقد تكون أيضا في العاجل.فيكون الميزان بين الخير والشر هو سر التكليف. وهو شرف الإنسان إذ لم يكن كالبهائم منقادا بالفطرة دون نظر في العواقب.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاقتحام : الاجتهاد للدخول في أمر فيه عسر.

العقبة : أصله ما في تجاوزه عسر من الجبل.

الفك : اصله انتزاع الشيء ممن استولى عليه.

الرقبة : الإنسان الفاقد للحرية، برق أو أسر.

المسغبة : زمن المجاعة.

ذو متربة : ليس له ما يفترشه على التراب.

بيان المعنى الإجمالي :

التفاخر بسعة الإنفاق وتتابعه.تبجح بما لا قيمة له. وهذا المتفاخر لم يحمل نفسه على بلوغ المراتب السامية ولم يقم باجتياز العقبة. والعقبة منزلة رفيعة تتطلب لاجتيازها التغلب على حب المال، وبذله في الخير، بتحرير العبيد، والتنفيس عن المكروب المحتاج، وبذل الطعام لليتيم القريب الفاقد لوليه الذي كان الراعي له

والمكافح لتأمين قوته، وإطعام الفقير الجائع الذي ألحقت به الخصاصة حتى لم يبق له من وطاء إلا التراب. وفوق هذا لم يكن من الذين آمنوا وتعلقوا بالكمالات الذين تخلقوا بالصبر، وحث بعضهم بعضا عليه. وتراحموا فيما بينهم وتواصوا بخلق الرحمة لتسود العلاقات الاجتماعية. هؤلاء المؤمنون الذين كتب الله أن يكونوا في محل الكرامة،هم أصحاب اليمين. وفي المقابل فإن الذين كفروا بما جاءهم من الآيات البينة المنزلة على رسولنا، انفردوا بأنهم عقدوا عقد إلف بينهم وبين المشأمة، الشؤم والخسران. تطبق عليهم نار جهنم فلا يجدون مخرجا ينفلتون منه.

بيان المعنى العام :

11←17- فلا اقتحم العقبة...بالمرحمة.

تضمنت الآيات السابقة الإنكار على المتبجح بنفقاته الكثيرة.كما تضمن أن الله سبحانه قد رحم البشر بهدايتهم إلى التمييز بين طريق الخير وطريق الشر. ومن مجموع ذلك نفهم هذه الآية على أنها تصريح بالواقع. فتفيد أن المتبجح المتفاخر بنفقاته المتراكمة، والمهدي بما كشف له من طريق الخير، لم يقتحم العقبة،ففضل السهولة على ما فيها من نقص وانحراف،على مغالبة الصعاب التي تسمو بنفسه وبفعاله إلى المستوى الرفيع وتجعل له مركزا عاليا في المجتمع. فلا اقتحم العقبة : نفي أن يكون قد بذل جهده ليصعد ويتجاوز المعوق الذي يرده إلى أسفل.

12- وما أدراك ما العقبة.

أي شيء يعرفك أي شيء العقبة .فهي لعزتها مما تتطلق النفس للتعرف عليها وإلى من يعرفه بها. والخطاب لكل من يصح أن يتوجه له الخطاب. والمقصود من العقبة الأعمال الصالحة الشاقة على النفس التي تزكي الإنسان و تعود على المجتمع بالخير و ترفع عنه الحاجة والضيق. وفي ذلك إيماء لما في اقتحام العقبة من ثواب عند الله.

13- فك رقبة.

العقبة فك رقبة.والمراد به العمل على رفع الضغط الذي أحاط بالإنسان فجعله في أشد الضيق كأن رقبته التي تنطلق من سبيلها كل أنواع الإحساس تحت ضغط المتمكن منها، مالكها. وذلك بإعتاق الرقيق، والعمل على استرجاع العبد حريته.

14←16- أو إطعام في يوم ذي مسغبة... ذا متربة.

ومن اقتحام العقبة. أن يطعم الفرد زمان انتشار الخصاصة والجوع، وشدة الحاجة إلى الطعام، وعزته من ناحية أخرى. فيندفع بدافع الإحساس بمشاركته ذوي الخصاصة الام خصاصتهم، ويطعم يتيما، تربطه به صلة القرابة، لفقده لأبيه الراعي، الذي كان يقوم عليه

ويكد ليوفر لها احتياجاته، فيرق لحاله ويطعمه لصلة الرحم وصلة التأثر بالأخوة الإنسانية. أو يطعم مسكينا عضه الفقر ،لا يملك ما يفترشه إلا جلده.

وأين من هذا المستوى الإنساني الرفيع من يقول : أهلكت مالا لبدا .فالجاهليون كانوا يتفاخرون بالنفقات الكبيرة المتراكمة التي كانوا ينفقونها على المآدب التي يدعون إليها أهل الثراء أمثالهم ويقصون عنها المحاويج وإن كانت تربطهم به أمتن صلات القرابة. او المجالس الخمرية التي تنتهك فيها الفضيلة.ويطلقون فيها العنان لغرائزهم، ويحكمون شهواتهم الهابطة.

17- ثم كان من الذين...بالمرحمة.

وفوق ذلك مما ذكر من اقتحام العقبة والإطعام يوجه لهم التوبيخ والذم لأنهم لم يندمجوا في صف المؤمنين.إذ لو كانوا من المؤمنين بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لطاعت نفوسهم بفعل الخير، ولوجدوا من المجتمع الاسلامي الذي لو اندمجوا فيه ما يؤثر فيهم الإقبال على عمل الخير. وأدمج التنويه بالمؤمنين بالتصريح بنبيل صفاتهم، التي منها تواصيهم بالصبر الدال على قوة عزائمهم فهم يثبتون عند الشدائد، ولا يتراخون أمام دواعي الشهوة، ويكبحون جماح الغضب فلا يتركون له زمام قيادتهم في رد الفعل. وتواصيهم بالمرحمة.مفاده أنهم يوصي بعضهم بعضا بالثبات على خلق الرحمة. ذلك أن القسوة لا تفضي إلا إلى علاقات مشحونة بالبغضاء والنقمة والتربص الماكر.والمؤمنون بعضهم أولياء بعض.وقال تعالى : والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

18-أولئك أصحاب الميمنة.

تنويه بالذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. فأشير إليهم ليتميزوا أكمل تميز.وأنهم مكرمون، ذلك أن من العادات المتقررة في العرف الاجتماعي أن المكرمين يحلون من الجهة اليمنى، تبعا لتصرفات الإنسان في تناوله للأشياء المكرمة بيمينه. ويتضمن هذا التنويه ترغيبا في الإيمان والتحلي بأخلاق المؤمنين. وناسب أن يحذر من الانحراف عن سبيل المؤمنين فنص على أنهم أصحاب المشأمة، منزلة الإهانة تألفهم ويألفونها.عليهم نار جهنم مغلقة، لا يجدون منفذا للخروج منها.

يوم الأحد26 ذو القعدة 2014/9/21

سورة الشمس

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي معظم كتب التفسير وفي كتب السنة. وعنونها البخاري [سورة والشمس] وهي سورة مكية بالاتفاق.

وهي السورة الحادية والتسعون حسب ترتيب المصحف.وعدت السادسة والعشرين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة القدر، وقبل سورة البروج.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝

بيان معاني الألفاظ :

الضحى: ارتفاع الشمس عن أفق مشرقها بمقدار عشرين دقيقة.

تلاها : تبعها.

يغشاها : يغطيها بظلمته.

بناها : ربط بين مكوناتها ربطا محكما كأنه بناء.

طحاها : بسطها ووطأها للعيش والسير.

زكاها : اختار لها ما يزيدها خيرا.

دساها : حال بينها وبين فعل الخير.

الفلاح : النجاح والفوز بحصول المطلوب.

خاب : عكس أفلح.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم القرآن في فاتحة السورة بأحد عشر قسما، تتابعت ليؤكد الحقيقة التالية في المقسم عليه، وليثير بالأقسام الذهن للتأمل فيما أقسم به سبحانه، مما يدل على أنه الله الموصوف بصفات الكمال والعزة والقدرة والحكمة. أقسم بالشمس، وبكونها في وقت الضحى الذي يزداد ضوءها إشراقا عن و قت طلوعها.وبالقمر حالة كونه

تاليا للشمس غير مستقل عنها الا استقلالا ظاهريا.وأقسم **بالنهار** عندما يجلي الشمس أكمل جلاء. وأقسم **بالليل** عندما يغطي الشمس بظلامه. وأقسم **بالسماء** وبالخلاق العظيم الذي أحكم بناءها. وأقسم **بالأرض** وبالمتصرف فيها التصرف الذي جعلها به مساعدة للإنسان ليقوم بوظائفه عليها. وأقسم **بالكيان الإنساني** الذي ميزه من بين سائر الكائنات على وجه الأرض بتطويع خلقه ليكون خليفة فيها. وبتسويتها فجعلها مطوعة للتطور الجسمي والنفسي.ولتسير في طريق الخير أو في طريق الشر حسبما ما أودع فيها من القدرة على التمييز بينهما. هذه الأقسام تثبت وتؤكد أن من سار في طريق الخير، وطهر نفسه من الشرك، ومن الرذائل أنه قد نجح النجاح الكامل في الدنيا برضاه عن نفسه، وبحسن الثناء عليه. وفي الآخرة برضوان الله والجنة. وأن من لم يعتن بنفسه فأبقاها في ظلام الشرك،وتحت سجوف الشهوة والجري وراء اللذة العاجلة، واقتحام الشرور والموبقات ، أنه خسر وخاب في الدارين.

بيان المعنى العام :

1←8- والشمس و ضحاها...فجورها وتقواها.

افتتحت السورة بأحد عشر قسما. وهي بذلك أكثر السور تتابعا للأقسام، مما يشير لقوة الاهتمام بالمقسم عليه، ولتحريك المخاطبين للتعمق فيما تدل عليه.**1-والشمس - و2 ضحاها-3 والقمر إذا تلاها - 4 والنهار إذا جلاها -5 والليل إذا يغشاها -6 والسماء -7وما بناها - 8 والأرض -9 وما طحاها-10 ونفس-11وما سواها.**

1-**والشمس**- كان المقسم به أولا : **الشمس**.وحسب المجموعة التي يعيش فيها الإنسان نلحظ أن كوكب الشمس يمثل محور الحياة الأرضية.من الدفء إلى نمو النبات والحيوان. إلى حركة الرياح، إلى نزول المطر، إلى نشوء مصادر الطاقة النظيفة وغير النظيفة.هذا الكوكب المتوهج عندما ينطفىء يتجمد كل شيء، ويَعُمُّ الموت الكائنات الحية في كل مكان.

وضحاها - يشير القسم الثاني إلى تحول الشمس مرتفعة في مواجهة الأرض بتقدير محكم لحركة الأرض حول نفسها،فيتضح نورها وتبلغ أشعتها كل جزء بعد طلوعها بحوالي عشرين دقيقة. والقسم بالشمس وضحاها فيه إشارة إلى أن الإسلام يظهر نوره فيغزو بإشعاعه ظلام الكفر الذي عم العالم قبل البعثة المحمدية، وأنه سينتشر حتى يعم الكون.

2-والقمر إذا تلاها - يشير القسم الثالث إلى كوكب القمر إذا بدا في السماء، تاليا للشمس، ينبه قوله تعالى [إذا تلاها] إلى تبعية القمر للشمس، وأنه غير مستقل بذاته، فنوره حاصل مما يتلقاه من ضوء الشمس على سطحه. وهذا من الدقة القرآنية في التعبير التي توافق الحقيقة، قبل اكتشافها.وهو من الإعجاز العلمي.

3- والنهار إذا جلاها - يشير القسم الرابع إلى اكتمال إشراق الشمس بعد أن ارتفعت عن الأفق شيئا فشيئا، حتى تم جلاؤها على أكمل صورة. وهذا هو القانون الذي يتم به حدوث الأشياء.إن الأمور لها بدايات تكون مهيئة لما بعدها، ثم تتواصل حتى تستكمل جميع مقوماتها.فلا يهجم الإنسان على الغاية ليستولي عليها دفعة واحدة فذلك ينتهي به إلى الخيبة، ولكن يتابع التطور الذي يفضي به في النهاية إلى الصورة الكاملة. وهي قاعدة في التربية، وفي البحث، وفي السياسة، وفي المعرفة. وإلى هنا تمت الأقسام الأربعة بالشمس وحالات ضوئها المباشر والمنعكس، لتعتبر بهذا النظام المحكم الذي بنى عليه الخلاق أمر الكون، والذي يقوم شاهدا على التوحيد والكمال المطلق لله.

4-والليل إذا يغشاها- يشير القسم الخامس إلى ظاهرة تعاقب الليل والنهار. وأن قوة ضياء الشمس وكشفها للكون تنتهي إلى قوة أخرى أبدع عليها الخلاق النظام العام، فالليل يأتي ليستر ذلكم الضوء ويحجبه بصفة متتابعة ودقيقة عن نصف الأرض.

5-والسماء - يجمع هذا القسم السادس كل الأقسام السابقة ويضيف إليها ما تحويه السماء من النجوم والكواكب والمجرات. ففي السماء مجالات للتدبر والبحث، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

وما بناها- هذا هو القسم السابع.وهو قسم بالذات الإلهية المتصفة بالقدرة وبالحكمة.فعالم السماء على تعدد مكوناته التي لا يستطيع الإنسان أن يحصي عددها، يدعو الإنسان ليواصل تأملاته فيه، والتي تمتد إلى ما وراء عمر الإنسانية كلها، كيف ارتبطت تلكم الكواكب ببعضها، وكيف تسير في مساراتها دون أن تتصادم، وسر ثبات كل واحد منها في مكانه الذي تجده مضبوطا بحساب دقيق يدلك على ما هو مرتبط به الارتباط الذي ثبته في موقعه. الذي بناها فأحكم بناءها هو الله رب العالمين.

6-والأرض- هذا هو القسم الثامن. إنه وإن كانت كتلة الأرض صغيرة بالنسبة للشمس مثلا، وبالنسبة للمجرات. إلا أن ما جرى فيها من دقيق الصنع، من ملاءمتها لحياة الإنسان والحيوان والنبات. وانقسامها إلى بحر ويابسة، وإلى جبال

وسهول، وإلى ما على ظهرها، وإلى ما يحويه باطنها من معادن وطاقات،وأثر ذلك في حياة الإنسان. الأرض حقيقة بأن يقسم بها وأن تلفت الأنظار إلى الحكمة في تركيبها ومقوماتها وموقعها في الكون.

وما طحاها. هذا هو القسم التاسع،يسرها ووطأها ليعيش الإنسان على ظهرها ويشتغل، وينجز حضارته،تلائمه وقت نشاطه، ووقت راحته،بين جاذبيتها وما خلق فوقها ملاءمة عجيبة. شاهدنا في سير المكتشفين للقمر وحياة الساكنين في الكبسولات الفضائية عندما انفلتوا من جاذبية الأرض، أن حياتهم كانت صعبة جدا. وأنه لولا المران وما يحملونه من أجهزة لاختل سيرهم ولم يثبتوا. فالذي بنى الأرض في جزئياتها وحسب قوانين مضبوطة، هو رب العالمين الحقيق بأن يعبد وأن ينسب الخلق إليه والتدبير.

7-ونفس - هذا هو القسم العاشر. أقسم الله بالنفس، الكيان الإنساني الشامل للجانب المادي والجانب الروحي والعقلي. الإنسان الذي استخلفه في الأرض،وهو خلق عجيب يدل على التقدير المحكم لخالقه.

وما سواها.هذا هو القسم الحادي عشر.والذي سواها هو الله العزيز الحكيم. ففي أي ناحية من نواحي الخلق الإنساني تعمقت وجدت أن في كل جزئية وإن ضؤلت تقديرا عجيبا، يحقق به الإنسان مهمته في الأرض.

فإن نظرت إلى الجانب المادي من الصورة العامة، إلى كل جهاز من الأجهزة التي تتفاعل فيما بينها ليؤدي الجهاز وظيفته، وليؤدي المجموع ما خلق له الإنسان، تجد تركيبه قد تم بكيفية مساعدة على أن يقوم بنشاطه في كون الله.في الخلية الأولى أسرار عجيبة، وفي انقسام الخلايا حسب وظائفها بعد ذلك لتقوم مع التكاثر والانسجام بينها في تطوير الجسم الإنساني، هي معامل بلغت من الدقة ومن الضبط أعلى مستوى يدل على كمال الإبداع الالهي،الذي أراد أن تكون قوى الإنسان المادية مساعدة على البناء الحضاري.

والجانب الروحي والعقلي أعجب من الجانب المادي،فإذا كانت البشرية استطاعت أن تخضع الجانب المادي للتشريح والكشف، واستطاعت أن تجيب عن كثير من التساؤلات حول خلق الإنسان المادي، فإنها ما تزال بعيدة عن إدراك أسرار الجانب الروحي والعقلي. وهذا هو الجانب الأهم الذي ميز الإنسان عن الحيوان، وبه استحق الخلافة في الكون. وقد تقدم في الآية السابعة من سورة الانفطار ما يزيد توضيحا لما عرض هنا.

8-فألهمها فجورها وتقواها. الإلهام كما يقول الراغب : إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى، ومن الملأ الأعلى. فالإنسان مؤهل بالفطرة التي فطره الله عليها إلى إدراك الخير وإدراك الشر، والتمييز بينهما. وتسوية النفس بخلق الاستعداد فيها لتبلغ بالتربية والمران متطورة من إدراك الضروريات إلى وزن الأعمال والنوايا بميزان الخير والشر، والحسن والقبيح. وهذا الإلهام بعضه من الخلقة، وبعضه من التعليم الإلهي بواسطة الرسل عليهم السلام. فالله قد عرفها طرق الخير والشر، وجعل للنفس قوة يصح معها اكتساب الفجور أو التقوى

10/9- قد أفلح من زكاها ... وقد خاب من دساها.

هذا هو المقسم عليه.توالت الأقسام لتثبت على أكمل وجه هذه الحقيقة : أن الإنسان مكلف وهو بين أمرين إما أن يغلب عليه عمل الخير، وإما أن يغلب عليه عمل الشر، وهو محاسب عما قدم مجزي عنه بالعدل. فهو إما أن يجتهد في تزكية نفسه، بتطهيرها من دواعي الشهوة، والأنانية، وتغليب العاجل، و يجاهد الواردات التي تأتيه من الباطن أو من الخارج لتميل به عن الصراط المستقيم، فيحمل نفسه دوما على التزام طريق الخير، وما يرضي ربه.وجميع المؤكدات السابقة تثبت أنه قد نجح وفاز بحسن العاقبة وبالجنة مثواه عند ربه، كما فاز في دنياه بشعوره بالرضا النفسي عن سلوكه، وأنه محصن من التأنيب الداخلي والخارجي .أخرج النسائي ومسلم في الذكر عن ابن عباس : أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: (اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها.أنت وليها ومولاها).

وفي المقابل بكل تلكم الأيمان المغلظة فإن من اختار الشرك و أن يبقي نفسه سائرة في حمأة الرذيلة، ورضي لها أن تكون تحت ركام الشهوة،وحب اللذة العاجلة، ولم يعط للكمال النفسي حظا من سعيه، لقد خاب بكل تلكم الأيمان خيبة في العاقبة بدخوله جهنم، وخيبة في الدنيا بكونه من السفلة الفسقة).

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يطغواها : بفرط كبرها وعتوها.

انبعث أشقاها : أغروه فانبعث لعقرها بنشاط وحرص.

أشقاها : اشدها شقاء.

ناقة الله : احذروا إذاية ناقة الله.

وسقياها : احذروا غصب نوبتها في السقي.

فعقروها : فنحروها.

دمدم : أطبق عليهم العذاب فأهلكهم.

عقباها : ما يحصل عقب فعل.

بيان المعنى الإجمالي :

واجهت قبيلة ثمود رسولها صالحا بالتكذيب، وذلك لما تأصل في نفوسهم من الكبر والطغيان. وطلبوا من رسولهم آية فبعث الله لهم ناقة لم تولد حسب الطرق المعهودة، وأمروا أن يقاسموها الماء، وأن عليهم أن لا يمسوها بسوء، كما بسط في سورة هود.فكذبوه أن تكون الناقة معجزة، وأغروا أشقاهم ليتولى عقرها فتقدم بكل حرص فعقرها.فأرسل الله عليهم صيحة بعد ثلاثة أيام أهلكتهم ولم ينج منهم أحد. والله إذا نفذ عقابه فلا يتصور من المعاقب أن يقوم بالثأر .

بيان المعنى العام:

11- كذبت ثمود بطغواها.

جاء في الآية السابقة: أنه قد خاب من دساها، جوابا للقسم داخلا في التأكيد، ثم أضاف ما يحقق ذلك بما عاقب الله به ثمود.والسورة تهدف إلى تهديد مشركي مكة بأنهم سيلقون جزاء تكذيبهم لرسول الله ﷺ ولصدودهم عن الإسلام.وإن في كتاب التاريخ ما انتهى إليه أمر أمثالهم المكذبين المتحدين للرسل، كما تم لثمود فما الذي وقع لثمود ؟

قابلت دعوة رسولهم صالح عليه السلام بتكذيبه، أن يكون مرسلا من ربه.كذبوه لا لأنهم وجدوا في هدايته ما لا يقبله العقل، أو أنه خالف اليقينيات ؛ ولكن كذبوه بسبب طغيانهم وكبريائهم. كما كذبت قريش محمدا ﷺ لنفس السبب فقالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)[1]

12-إذ انبعث أشقاها.

فصلت الآية شدة كبريائهم، وعظيم طغيانهم، إذ بعثوا أشقى القبيلة،أبلغها شقاء، قالوا: إنه قدار بن سالف. أثروا عليه وأغروه بمختلف المغريات ليريحهم من الناقة

[1] سورة الزخرف آية 31

المعجزة التي كانت تنفرد بشرب يومها.رغم تحذير رسولهم عن أن يمسوها بسوء. وغسلوا دماغه من تحذير صالح حتى اندفع بكل جرأة لتنفيذ ما انتدبوه إليه من عقر الناقة.

13-فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها.

تفصيل لقوله تعالى: كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها. حذرهم رسولهم أن يؤذوا الناقة فيمسوها بسوء، أو أن يحولوا بينها وبين يوم شربها ويستولوا عليه لشرب أنعامهم. إذ هي ناقة الله، باعتبار أنه جعلها معجزة لصالح على أنه مرسل من ربه. فيكون التكذيب قد صدر منهم مرتين : في المرة الأولى عندما بلغهم ما أرسل به، فكذبوه.فأخبرهم أن الله قد بعث لهم الناقة معجزة ، تنفرد بشرب يوم معلوم فكذبوه، ونفوا أن تكون معجزة وآية له، وتجرأوا بالتأثير على العاقر. فعقرت الناقة ونسب الفعل إلى جميعهم وإن كان قد صدر من أشقاهم لأنهم شاركوا في الجريمة.

14-فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم...فسواها.

عاجلهم العذاب إثر قتلهم للناقة، وكان عذابا مطبقا لم ينج منه أحد.وقد فصلت سورة هود ما لحقهم قال تعالى: (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود 68/67) فمن راعى النتيجة قال : إن معنى دمدم أطبق عليهم العذاب فاستأصلهم. ومن راعى أن العذاب كان بالصيحة قال : إن معنى دمدم هزهم بصيحة تتجاوز قدرات احتمالهم فاستأصلتهم.وكان هذا العقاب بسبب ذنوبهم، تكذيب الرسول، والجراءة على المعجزة.وأن المعذبين استووا في العقاب من عقر الناقة، ومن أغراه بذلك، ومن كذب صالحا. وفي ذلك تهديد لقريش أن تصلبهم في الكفر وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن في القرآن المعجزة سيفضي بهم إلى عذاب ساحق.

15-فلا يخاف عقباها.

هزموا واستؤصلوا وأطبق عليهم العذاب، ولا مرد له. وربك لما سلط عليهم عقابه استأصلهم لم يبق منهم أحدا، يتصور منه أن يأخذ بثأرهم. فالتعبير تمثيل لما كان عليه العرب في عاداتهم : أنهم إذا هزموا يتفاعل الغيض في صدورهم وتغلي به فلا يهدأ لهم بال حتى يأخذوا بالثأر.ولكن أخذ ربك لم يبق منهم أحدا فجسم الاستئصال الشامل بأنه لا يخاف عاقبة استئصالهم.

يوم الثلاثاء 28 ذو القعدة 1435 2014/9/23

سورة الليل

سميت هذه السورة بسورة الليل في معظم المصاحف، وبعض كتب التفسير، وسميت في معظم كتب التفسير "سورة والليل" وعنونها البخاري والترمذي " سورة والليل إذا يغشى" ويرى الجمهور أنها مكية،وروي أنها مدنية، أو بعضها مدني وبعضها مكي.

وهي السورة الثانية والتسعون حسب ترتيب المصحف،وعدت التاسعة حسب ترتيب النزول،نزلت بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

يغشى : يغطي بظلمته.

السعي : العمل الجاد.

شتى : متنوع ومختلف بالنظر إلى ما يصحبه من نية،وإلى مآلاته.

التيسير : نطوعه بكل سهولة.

اليسرى : ما هو ملائم بدون مشقة ولا تعب.

ما يغني : ما يفيده.

تردى : سقط في حفرة القبر، أو في قاع جهنم.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت الآية بثلاثة أقسام : **بالليل** عند اشتداد ظلامه،**وبالنهار** عندما يجلي الكون فيظهر ما كان مستورا بظلام الليل.و **بالله** الخالق للجنسين الذكر والأنثى. والمقسم عليه تأكيد إثبات ان سعي البشر مختلف في واقعه وفي عاقبته.

ثم فصل هذا الاختلاف إلى نوعين :

النوع الأول :من جمع أوصافا ثلاثة تميز بها :

1- أنه يجود بالخير من ماله ومن بدنه ومن منطقه.

2-أن تقوى الله قد تمكنت منه. فصلته به حية مشعة في باطنه وظاهره.يربط نواياه بما يرضي الله، ويربط سلوكه بما يرضيه أيضا.

3- أنه مصدق بما بلغه من وعد الله للمحسنين.

ثم صرح القرآن بعاقبة اتصافه بهذه الثلاثة: أن الله سيجعل بينه وبين الخير سببا موصولا،وسيعينه بألطافه، فتكون الطاعة محبوبة عنده، راجحة في اختياراته. وتصدر عنه الطاعات دون أن يجد من نفسه مقاومة.

النوع الثاني : من جمع أوصافا ثلاثة أيضا :

البخل : شحيح بالمال، راغب عن عون الناس، طاغية أنانيته.

استغناؤه عن مدد الله : قطع تعلقه بما عند الله، ظانا أن ما جمعه بين يديه من مال وجاه وبنين، يكفيه لتحقيق سعادته.

تكذيبه بالجزاء يوم القيامة. متعلق بالدنيا وحدها، يعتقد أنه منقطع عما بعد ذلك، لا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار.

ثم صرح القرآن بعاقبته : يحرمه الله من ألطافه،فتفسد نفسه ويعسر عليه فعل الخير، ولا تطاوعه للطاعة وعمل الصالحات.

وسوف لا ينفعه ماله ولا ما تقوى به يوم يموت ويرمى في حفرة قبره، ولا يوم يرمى به في جهنم.

بيان المعنى العام :

1←3 -والليل إذا يغشى...والأنثى.

هذه السورة هي السورة الرابعة من السور المتوالية، المفتتحة بالقسم.أقسم أولا بالليل إذا يغشى ، وثانيا بالنهار إذا تجلى، وثالثا بالذي خلق الذكر والأنثى.

1-أقسم بالليل في وقت شدة ظلامه عندما يلف الكائنات جميعها ويسترها عن الأبصار. وأطلق الغشيان ولم يقيده بمفعول خاص ليفيد عموم آثارظلامه في الكون.فيشمل الشمس والنهار وكل شيء يواريه.

وافتتحت بالشمس وضحاها السورة السابقة، وهذه بالليل إذا يغشى مراعاة لوضع العالم وقت نزول السورة، فهذه هي التاسعة، والمؤمنون بدين الإسلام قلة.والكفر الذي هو ظلام في العقيدة وفي التصور، منتشر ظاهر.وسورة الشمس هي السادسة

والعشرون. بينهما من الزمن ما حول عددا غير قليل من المشركين إلى اعتناق الإسلام.فأشرق نوره كما تطلع الشمس في الأفق.

2- والنهار إذا تجلى. والقسم الثاني بالنهار في الوقت الذي يجلي الكائنات، ويمكن الأبصار من مشاهدتها. وفي القسم بهما وهما مظهران، ما يلفت الأنظار إلى نظامهما، ويحث الفكر على التعمق لإدراك أسرارهما، وقوانينهما.فينتهي بذلك إلى اليقين الأيقن بحكمة الباري وقدرته.

3- وما خلق الذكر والأنثى. تفهم الآية على أن الله أقسم بذاته الفاعلة في خلق الجنسين في عالم الحياة.أي والله الذي خلق الذكر وخلق الأنثى.كما يمكن فهم الآية على أن القسم هو بظاهرة خلق الذكر والأنثى قاعدة للتكاثر في الحياة. وعلى الوجهين هو ظاهرة لكمال التقدير والحكمة بها يتواصل وجود الإنسان والحيوان وحتى النبات .كشف العلم عن بعض تلكم القوانين، وما زالت جوانب غير قليلة خفية، يقوم ما ظهر وما خفي منها على قاعدة أن كل شيء في هذا الكون مراعى فيه الدقة البالغة، وأنه لا أثر للمصادفة.وكل ذلك مستند إلى الخلاق العليم يشهد بأن الكل من خلقه وتقديره.

4-إن سعيكم لشتى. هذا هو المقسم عليه. ما تبذلون فيه جهودكم، وتقصدون إلى إنجازه متنوع، على حسب ما تبينه الأيات التالية.فليست القيمة في العمل، ولكن في نوعيته وما يصحبه من قصد.وبهذا تميز العمل الإنساني عما يصدر عن الحيوان أو عن الآلة. و لا تظهر قيمة ذلك إلاّ بالإيمان بالبعث.

5←11- فأما من أعطى واتقى...إذا تردى.

بينت هذه الأيات وفصلت ما ألمع إليه قوله تعالى : إن سعيكم لشتى.وانقسم العاملون إلى نوعين أساسيين:

الفريق الأول : من أعطى واتقى وصدق بالحسنى. هذه ثلاث صفات تميز بها هذا الفريق.

5- قوله : أعطى لم يذكر له مفعول، وحمله كثير على أن المقصود به المال الواجب إنفاقه كالزكاة. والأولى حمله على إعطاء ما هو قربة لله مرغب فيه. كالكلمة الحسنة، وبث العلم، وعون العاجز .ونحو ذلك مما هو من سعي الإنسان في الخير، وبذلك يرتبط الكلام بمنطلقه : إن سعيكم لشتى.

وكذلك : واتقى لم يذكر له مفعول، وينصرف إلى الله " اتقى الله : وهو عبارة عن استحضار الرقابة الإلهية على قصوده وأفعاله،استحضارا يتبعه الخشية من ربه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره. وأنه يعلم حقيقة ما يجري في باطنه من النوايا.

6- والصفة الثالثة : أنه صدق بالحسنى.أنه تلقى الوعد الذي فصله القرآن عن عاقبة فاعل الخير عقيدة وعملا، تلقاه مصدقا له جازما بأنه وعد لا يخلف، فهو يعيش آملا في الكرامة التي سيتفضل بها عليه رب العزة يوم القيامة.

7- فسنيسره لليسرى.هذا جزاء من جمع الأوصاف الثلاثة : أن الله يسعفه بألطافه، فيكون فعله للخير وما يرضي الله محبوبا له، وينعقد بينه وبين الصلاح إلف به يندفع نحوه بكل يسر. يطوع الله نفسه ليقبل على الطاعة، ويجعلها تشمئز من المعصية.فكلما حضره الاختيار يجد نفسه أقرب إلى الخير. وبالتالي يكون جزاؤه الجنة، وقد فسر مجاهد وزيد بن أسلم اليسرى بالجنة. وهو بيان للعاقبة النهائية.

الفريق الثاني :جمع أوصافا ثلاثة مناقضة لأوصاف الفريق الأول. بخل-استغنى كذب بالحسنى-

8- الوصف الأول :"البخل" لشدة تعلقهم بالمال. وهذا شأن الكفرة يستولي حب المال عليهم فتضيق آفاقهم في حدوده.ويتحجرون فلا تسمو هممهم إلى الفضائل. وحتى إن اكتسبوا ما ظاهره خير،فإن دوافعهم النفسية هابطة.

الوصف الثاني "الاستغناء" ومعنى الاستغناء فقدانه للرابطة التي تربطه بالله.فيظن نفسه مكتفيا بما أوتيه من مال وبنين ومن متاع الحياة الدنيا.فهو لا يأمل في ثواب، ولا يخاف من عقاب.

9-الوصف الثالث:" التكذيب بالحسنى"ينفي نفيا قاطعا نعيم الآخرة،والجزاء يوم الحساب. و بذلك فقد الدوافع نحو عمل الخير،وضاقت حياته في الأيام القليلة التي يعيش فيها ما بين ولادته وموته.

10- فسنيسره للعسرى. نحرمه ألطافنا، ونتركه لنفسه لا نسعفه بالتأييد والهداية.إن النفس تألف ما تعود عليه الإنسان في أعماله واختياراته.فمن تعلق بالفضيلة وعمل بها، وتكررت منه هذه الطريقة، وجد فعل ما هو خير متفقا مع ذاته، سهلا عليه إتيانه، منسجما مع ميوله.فييسر له الله ما هو خير، ويجد ما يخالف منهجه السابق صعبا عليه عسيرا تنفر منه نفسه، فلو أراد الشر لحمّل نفسه عكس ما تعودت عليه، وبالتالي تجده شاقا عليها، يحتاج إلى جهد ومعاناة.

وبالعكس فإن من تعود القيام بما هو شر،فإنه يجد في الشر والإثم راحة نفسية، وميلا موافقا لهوى نفسه.ويقبل على الإثم والمعصية دون أن يجد اشمئزازا أو انحرافا عن ذلك. فيكون ارتكاب الخطيئة والفساد موافقا لهوى نفسه، ميسرا عليه. خذ لذلك مثلا : من تعود أداء صلاته في أوقاتها،فإن نفسه تنشرح بمجرد ما يسمع

داعي الله إلى الصلاة، ويسرع إليها طيبة نفسه يجد في أدائها لذة ومتعة. وبالعكس من كان مهملا لأدائها، ولا يذكر الله إلا قليلا، فإنك تجده يشمئز من سماع الأذان يتثاقل، ولا تطاوعه نفسه المنيتة عن التقرب إلى الله للقيام بها بنشاط، وإن أداها قام بها متثاقلا.قال تعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس)[1] وقال تعالى: (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون)[2]

11- وما يغني عنه ماله إذا تردى .افتتحت الآية بكلمة [ما] ويمكن فهمها على أنها نافية. فيكون المعنى : إنه تعلق بالمال وحسب أن الخير مرتبط به.سيتبين فساد وهمه يوم يموت فلا يجد من ماله إلا الكفن الذي يواري جسمه، وينفصل عن ماله انفصالا بدون عودة. أو يوم يسقط في جهنم وتأخذه كلاليبها فلا ينفعه ماله.

ويمكن فهم الآية على أن ما استفهامية إنكارية. والمعنى :أي شيء يفيده ماله يوم يموت أو يوم يتردى ساقطا في جهنم؟

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

بيان معاني الألفاظ:

تلظى : تلتهب.

يجنبها : يبعد عنها.

المال : ما يختص به الفرد من الأشياء التي ينتفع بذاتها أو بما تدره من الغلة.

ابتغاء : طلب مع جد.

وجه : ذات.

بيان المعنى الإجمالي :

تكفلنا بمساعدة البشر على اتباع طريق الهدى بما غرسنا فيهم من قوى الإدراك المميزة بين الخير والشر، وبما بعثنا لهم من رسلنا المحملين بوحينا. وملك ثواب الدنيا والأخرة لا يشاركنا فيهما أحد، فمن تفتح عقله للخير وحمل نفسه على ما

---

[1] سورة النساء آية 142

[2] سورة التوبة آية 54

يرضينا أحطناه بألطافنا وأسعفناه بتأييدنا في الدنيا وبالثواب في الآخرة. وقد أنذرتكم عذاب نار لاهبة لتتوقوها. هذه النار التي لا يصلاها فتحرق كل جزء من أجزائه إلا الأشقى الذي جمع إلى تكذيب رسولنا، إعراضه عن كتابنا.وقررنا أن يكون بعيدا عنها الأتقى الذي من صفاته أنه ينفق ماله فلا يشح به ويسهم به في النفع العام رغبة في أن تسمو نفسه عن الشح، وأن تقترب من رضا ربها.ينفق ماله لا وفاء بدين في ذمته لمن قدم له إحسانا، ولكن رغبة صادقة وطلبا لنيل رضوان الله العلي الأعلى.ونبشره بأنه سينال ما يرضيه فلا تتوق نفسه إلى شيء وراء جزائنا.

بيان المعنى العام :

11- إن علينا للهدى...والأولى.

ورد في ختام قصة ادم في سورة البقرة قوله تعالى، لما أمرهم بالخروج من الجنة، وأن ينزلوا إلى الأرض: (قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1] فهو وعد من فضل ربنا سبحانه أنه سينزل هداه ويبلغه إلى البشر، ليتبعوا ما أنزل إليهم، ووعد الله محقق لا يخلف.فقوله تعالى : إن علينا للهدى تصريح بما أوجبه الله على نفسه تفضلا منه من عون البشر على إدراك الهدى. وذلك بما أودعه فيهم من عقل يدرك الصلاح والفساد على وجه يتم به انتظام أمر الحياة، ثم ما عزز به ذلك من بعثة المرسلين يكشفون عما يمكن أن يخفى على العقول كأمر الثواب والعقاب،ويدفعون الضلالات والأوهام التي تلقيها الشهوات.وبهذا تكون الآية متصلة بالآيات التي تقدمت من تصنيف الناس إلى صنفين.فكل صنف نال عاقبته باتباعه لهدي الله المنزل أو بتكذيبه والانحراف عنه.

13- وما مكن الله منه البشر لما استخلفهم بما أودع في فطرهم، وما رزقهم من عقل يساعدهم على حسن القيام فيما استخلفوا فيه ليس واجبا على الله بموجب خارجي.ذلك أنه سبحانه هو المالك للحياة الدنيا يفعل فيها ما يشاء لا راد لحكمه، ولا معطل لقضائه . وكذلك الآخرة هي ملك له.فالهداية فضل الله على عبيده يمكن منها من عرض نفسه لنولها.

فأنذرتكم نارا تلظى.. وتولى.

تضمنت الآية السابقة أن الله تفضل بتمكين البشر من الهداية المنجية.وأضاف إلى ما تفضل به من عقل مرشد إلى طريق الهدى، ومن وحي على طريق رسله يتم

---

[1] سورة البقرة آية 38

المنهج وينفي عنه ما ليس منه. أضاف هذا الإنذار ليتيقنوا أنهم إن أعرضوا عن هدايته فإن مآلهم النار التي تلتهب من شدة الاشتعال.

16/15-لايصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

من صفة هذه النار أنها لا تطبق على أحد فيصلى لهبها، ويقاسي حرها كل جزء منه، إلا الأشقى. فهي نار خاصة أعدت له. ومن هو الأشقى؟ الأشقى أولا هو الذي كذب محمدا في أنه رسول الله إليه، وأن ما أنزل عليه هو من عند الله.وثانيا أعرض عن القرآن وتولى مبتعدا عن التأمل فيه.وإذا تأملت تجد الآية لا تنطبق وقت نزول الوحي إلا على الكفرة في مكة الذين اجتمع فيهم التكذيب والتولي.وصمموا على عدم سماعه قال تعالى: (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)[1]

18/17- وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى.

ترعد الآية السابقة القلوب بما وصفته من عنفوان النار.نقل القرطبي عن مالك قال: صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ: والليل إذا يغشى، فلما بلغ فأنذرتكم نارا تلظى وقع عليه البكاء، فلم يقدر يتعداها من البكاء، فتركها وقرأ سورة أخرى.ج20ص87/86 كان لوقع هذه الآية من الشدة ما نقله مالك رضي الله عنه.ولذا أعقبها القرآن ببشارة المؤمنين الأتقياء.أن الأتقى المتصف بكمال التقوى بعيد عنها كل البعد، كما جاء في قوله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون* لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون)[2]
ووصف الأتقى وصفا يحدد بعض ملامحه فقال: إنه الذي يهون عليه الإنفاق مما آتاه الله من المال كل همه أن يكون مقامه ساميا عند ربه، وأن يتزكى فيتطهر بما ينفقه من الشح، ومن الخوف من الفقر. وأن ينمو فيه جانب الخير والإيثار. فهو ينفق ماله رغبة في رضوان الله، لا يصحبه رياء ولا فجور.

19-»21« وما لأحد عنده...ولسوف يرضى.

ومن ملامحه أيضا أنه يؤتي ماله،لا في مقابل نعمة سابقة هو مدين بها راغبا في قضائها، و جزاء صاحبها، ولكن يقوم بذلك طلبا في رضوان الله. فقوله: وجه ربه الأعلى، أي رضوان ذات ربه الأعلى.

---

[1] سورة فصلت آية 26

[2] سورة الأنبياء اية102/101

وذهب معظم المفسرين إلى أن هذا الـنمط الرفيـع مـن البشـر مقصـود بـه أبـو بكـر الصديق رضـي الله عنـه، لمـا أعتـق بـلالا ﷺ بعـد أن اشـتراه مـن مالكـه. فقـال المشركون : إن لبلال يدا عند أبي بكر فـأراد أن يجزيـه بشـرائه ثـم عتقـه، فـأنزل الله ما يكذب ادعاءهم. والآية عامة وإن شملت أبابكر رضي الله عنه شمولا أوليا.

وقوله تعالى : **ولسوف يرضى** تحقيـق أن سـيجزى الثـواب بكيفيـة ترضـيه، حتـى لا يكون له وراء ما يناله أي مطمح.

*وهذه السورة آخر سورة من سور وسط المفصل.

يوم الأحد4 ذو الحجة 28 سبتمبر 2014

سورة الضحى

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي كثير من كتب التفسير، وسميت في صحيح البخاري وفي بعض كتب التفسير (سورة والضحى) بإثبات العاطف. وهي سورة مكية باتفاق.

وهي السورة الثالثة والتسعون حسب ترتيب المصحف.وعدت الحادية عشرة حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة الفجر،وقبل سورة الانشراح.

وهي أول سورة في قصار المفصل.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝

بيان معاني الألفاظ:

سجا : امتد وجمع ظلامه.

ودعك : فارقك بقطع الوحي عنك.

القلى : البغض الشديد

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم الله بقسمين، بالضحى وقت ارتفاع الشمس عن مشرقها بما يظهر نورها. وبالليل عندما يمضي منه زمن يشتد فيه ظلامه وتهدأ الحركة.والمقسم عليه أن منزلة رسول الله ﷺ من ربه هي منزلة القرب، قربه لا يتصور معه أن يتركه ولا أن يبغضه.وفي هذا رد وتسفيه لما قالته امرأة أبي لهب أن الله ترك رسوله وأبغضه، لما لم يقم ليلتين أو ثلاثا لمرض أصابه. ويؤكد الله لرسوله أن ما سيناله في المستقبل خير مما تحقق له من قبل. وأن الله سيوالي تكريمه لرسوله، والتفضل عليه، فيعطيه عطاء لا محدودا من كل خير، فينتهي به الأمر إلى الرضا عما يؤتيه ربه، ولا تتعلق نفسه الكريمة بشيء وراء ما أعطاه ربه.

بيان المعنى العام :

3/2/1-والضحى والليل...وما قلى.

افتتحت السورة كسابقاتها بالقسم.فأقسم أولا بالضحى، وثانيا بالليل إذا سجى.

1-وقد تقدم القسم بالضحى الذي هو الوقت الذي تعلو فيه الشمس عن أفق شروقها، وينتشر ضوءها في الكون المقابل لها. وبين الضحى والظرف الذي نزلت فيه الآية تناسب.إذ كان نزولها في الفترة الأولى من تلقي النبي صلى الله عليه وسلم لمشارق الأنوار من الوحي.

2-وكذلك القسم بالليل الذي أكد القرآن خاصيته بشدة ظلامه وامتداده. فهو لا يقسم به عند قدومه ولكن بعد مرور زمن تتحقق فيه آثاره من سكون الناس والأصوات. ومنا سبته للظرف أنه الظرف الذي فتر فيه الوحي لحكمة.ففتور الوحي مثل الليل الذي تسكن فيه الكائنات فيقل نشاطها.

3 -**ما ودعك ربك وما قلى**: هذا جواب القسمين، ما تركك ربك قاطعا عنك أرسال وحيه، فهو ربك الذي اختارك لإبلاغ هدايته للعالمين، وهو سبحانه حكيم،فإذا كان قد اعتنى بك حتى بلغت المستوى الرفيع الذي أنت عليه ؛ فإن كونه ربك ليؤكد أنه : لا يتركك. تعالى ربك أن ينقض ما صنعه معك من تأييد وحسن رعاية.

وما قلى: ويكل تأكيد بالقسم أيضا ، ما قلى.أي ما كان من ربك نحوك بغض شديد بل أنت حبيبه ومجتباه. ومما يزيد المعنى وضوحا، ما رواه البخاري بسنده إلى جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال :(اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا. فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ! إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا، فأنزل الله عز وجل : **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى**فتح الباري ج10ص339) والمرأة هي أم جميل امرأة ابي لهب.ومن فصاحة القرآن أنه لم يذكر ضمير قلى فلم يقل: قلاك. تلطفا مع رسوله فلا يظهر ضميره الكاف المعبر عن ذاته صلى الله عليه وسلم إثر فعل يفيد البغض.

4- وللآخرة خير لك من الأولى.

أضاف إلى ما أقسم عليه أن قطع الوحي عنه، وكذا البغض مما لا يتصور وهو منفي كل النفي عن الرسول ﷺ ، فثنى بوعد كريم من مستتبعات ما نفي بالقسم، ومؤكد للتكريم والعناية الخاصة حاصله : أن التقدير الإلهي قد تم على أن العناية

الإلهية بك يا محمد والألطاف المتتابعة عليك سيكون من آثارها : أنك تنتقل من وضع إلى وضع أرفع منه وأفضل، وأبلغ تكريما وثوابا.فإذا قارنت وضعك اليوم بيوم اتصالك بأول وحي تجد نفسك قد ارتقيت في معارج الكمال، وأن ذلك سيتواصل معك في الدنيا بالنصر على أعدائك يوم بدر وما تلاه وبفتح مكة،وبانتشار الدين ودخول الناس فيه أفواجا، وبفتح الممالك والأقطار، وأن خاتمتك وجزاءك سيكون يوم القيامة أعظم.

5- ولسوف يعطيك ربك فترضى.

تصريح بما أفادته الآية قبلها، وللآخرة خير لك من الأولى. فبكل تأكيد أن الله قدر لك من العطاء الشامل غير المحدود ما ستناله من ربك الذي تولاك برعايته المتواصلة، ما تبلغ به درجة الرضى الذي لا مطمح وراءه، ولا مطلب يتصور زائدا على ما نلته من فضله وتكريمه.وفي هذه الآية حذف مفعول يعطيك، ليعم العطاء كل ما يمكن أن يتعلق به مما يخطر على البال وما لا يخطر.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

آوى: كفلك وكفاك الحاجة.

ضالا: متحيرا فيما عليه قومك.

عائلا: فقيرا.

فحدث: فأخبر ولا تكتم.

بيان المعنى الإجمالي :

يتأكد الوعد الكريم : أن الآخرة خير من الأولى، وأن ما يستقبله أفضل مما مضى، بتذكيره بما أجراه عليه من النعم والرعاية، من يوم خلقه. قدر أن يعيش يتيما فاقدا للأب الحامي والأم الحانية، فتولاه سبحانه برعايته وأحاطه بسحائب ألطافه فكان تحت رعايته، ويسر له من قلوب الذين ربي في حجرهم من العطف والتقدير ما نشأ به عزيزا.ووجدك في حيرة من أمر قومك، تشمئز من قيمهم التي هم عليها، وتتساءل ما هو الطريق للخروج من هذا الانحراف، فهداك ربك بما أنزل عليك من وحيه، وما حماك به من الشرك.ووجدك فقيرا فأغناك،غمر قلبك بعدم الالتفات إلى مطالب الدنيا، فكنت لا تشعر بالخصاصة لترفعك عن المطالب المادية، وأغناك

بما لاعم به بينك وبين خديجة رضي الله عنها فكنت شريكها في سعة مالها، تستفيد هي من نباهتك وتوفيقك، وتستفيد أنت من رأس المال الذي تعمل فيه.

تخلق مقتبسا من صفات ربك العلي، وقابل تلكم النعم بالجري على منوالها.فأما اليتيم فأكرمه ولا تقهره بالاستيلاء على ماله أو التقطيب في وجهه أو احتقاره.وأما من جاء سائلا ما رزقك الله من فضل فكن به رفيقا، أعنه إن وجدت ولا تزجره بما يجرح كرامته. لا تكتم ما تفضل الله به عليك، واذكره متحدثا به شاكرا لربك على ما أنعم.وليكن هذا شأن أمتك يشكرون نعم ربهم عليهم مع الحذر من الرياء.

بيان المعنى العام :

6- ألم يجدك يتيما فآوى.

أفادت الآية السابقة رعاية الله لنبيه في الحاضر والمستقبل، وأنه بمنزلة رفيعة عند ربه ينقله من مقام شريف إلى مقام أرفع منه حتى يختصه بالفوز الأكبر والمنزلة السامية سموا لا يبلغه غيره يوم القيامة.وأكد هذه العناية بتذكيره بمتواصل الإمداد الذي صاحبه من أول مراحل حياته الشريفة.وأن ما وعدتك به يؤكده ما سبق من رعايتي لك أفضل رعاية، مما يدل على أن تقلبه في أطوار حياته تنبئ بأن ذلك لم يكن مصادفة، ولكن كان منهجا مقصودا من رب العزة. وفي هذا ما يكبت المشركين الذين يضيقون بتنويه القرآن برسول الله ﷺ. يقول الله لنبيه معلنا عن طريق السؤال التقريري الذي ليس له إلا جواب واحد، وهو الإقرار بصدق مضمون السؤال. ألم ألفك يتيما، مات أبوك قبل أن تلدك أمك، ثم ماتت أمك وأنت ما تزال في طور الطفولة الباكرة، ثم كفلك جدك الذي كان يرى فيك من مخايل النبل والكمال ما جعل عطفه عليك يبلغ من الحنو والعطف والرحمة والحب ما عوضك ما فقدت من عواطف الأبوين، وما إن مات حتى أسرع عمك بضمك إلى أسرته، وكان معتزا بك حاميا لك.فهذه رعاية إنسانية طوع الله لها قلوب أسرتك لتنشأ عزيزا عالي الهمة غير منكسر النفس بفقد اليتم، وكذلك كنت فقد ألقيت في روحك أنك تستند في حياتك إلى ساحة عنايتي، وأويتك إلي، وإن كان هذا الإحساس لا يتمثل في وحي، ولكن في وجدان داخلي سما بك منذ صغرك إلى الكمال الإنساني.

7-ووجدك ضالا فهدى.

إياك أن تفهم أن النبي ﷺ كان ضالا عن الحق متبعا للباطل، فقد عصم الله أنبياءه ورسله من الشرك، فما ارتابوا يوما أن مبدع الكون ومُسيّره هو الله رب العالمين.وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في حيرة مما عليه قومه، تجد روحك الطاهرة تنفر مما هم عليه، ولا تدري كيف تقومهم وتدلهم على الصراط المستقيم.

وقد كان يتحنث في غار حراء في هدأة الليل والنهار، يتطلع إلى الحق الذي غشاه قومه بخيالاتهم وضلالاتهم. كيف يخرجهم من ذلك الركام. وكما كان رافضا للأصنام، فكذلك كان في سلوكه طاهرا تنفر نفسه الزكية من الفواحش. وما عرف عنه زلة في حياته قبل النبوة، بدليل أن قريشا وهي حريصة كل الحرص على أن تجد منه زلة تقارعه بها فقمعها صفاء سلوكه.بل إنه ﷺ تحداهم قال تعالى : (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون)[1]

8- ووجدك عائلا فأغنى.

لم يترك له أبوه ولا أمه فضلا من المال. وشأن الفقر أن يعض على المحتاج ويسلك به مسالك ما كان ليرضاها لولا الفقر. ولكن عناية الله برسوله أغنت قلبه أولا فليس لمباهج الحياة وزن عنده، ولا حظ من الاعتبار. وثانيا فبعد رعاية جده وعمه، هدى الله خديجة لتشاركه في تجارتها ثم تتزوجه فما عضه الفقر بنابه ولا أخضعه.

9- فأما اليتيم فلا تقهر.

بعد التصريح بالنعم التي أنعم بها على رسوله ﷺ ، أضاف لذلك ما يرشده إلى أن يتخلق بأخلاق الكمال التي هي من صفات رب العزة.فكل ما تقدم هو من عند ربه. تولاه يتيما وأكرمه ويسر له ما يسره ليحفظه من ذل اليتم، فكن يا محمد ولتكن أمتك متخلقة بخلقك : أن اليتيم الذي لا سند له، يجد سنده في رفيع خلقك وخلق المسلم فلا يقهر، لا بالاستيلاء على ماله، ولا بإذلاله. ولا بمخاطبته بما يجرح كرامته، ولا بالتقطيب في وجهه نفرة منه.وذلك في مقابلة قوله تعالى : ألم يجدك يتيما فآوى.

10- وأما السائل فلا تنهر.

السائل هم المتحير في وضعه الذي يطلب العون ليتجاوز أزمة حيرته.فقد يكون السائل سائل رفد مادي يخرجه من الحاجة للطعام أو الكساء.وقد يكون متحيرا من تشابه المسالك عليه فهو لا يهتدي إلى الطريق الذي يصل به إلى مقصوده ضال للطريق، وقد يكون السائل من تحير في معرفة وجه الصواب في الحكم الشرعي أو عرضت له شبهة في مجال العقيدة، كل هؤلاء وأمثالهم يتوجهون إلى من عنده ما يساعدهم على الخروج من أزمتهم، وأنت قد من الله عليك فأعطاك ما تسعد به السائل، فقم بواجب المساعدة، وأول مراتبها أن لا تنهر السائل وتزجره ليبتعد

---

[1] سورة يونس آية16

عنك.قد يكون السائل مضطرا فيلحف في السؤال ويعيد الكرة بعد اعتذارك، فلا تتبرم به وإن أزعجك إلحاحه، وكذلك طالب العلم افتح له عقله وبصيرته، ووضح له ما أشكل عليه، ولا تنهره ولا تغلظ له القول إن كان بطيء الفهم. ذلك أن احتقار المكروب تحدث الغلظة في نفسه شرخا يجد فيه الشيطان مرتعا لتضخيم العداوة وتمزيق وحدة الأمة. وليس من النهر تأديب السائل المتجاوز لحدود الأدب فقد علمنا الله أدب الخطاب مع رسوله، ويجري ذلك في مخاطبة العلماء وذوي الأقدار، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض...إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون)[1] وهذا في مقابلة قوله تعالى : ووجدك ضالا فهدى.

11- وأما بنعمة ربك فحدث.

خطاب للنبي ﷺ يوجب عليه الحديث بما خصه الله به من النعم التي منها أنه رسول مصطفى من الله اتاه الله الشفاعة والمنزلة الرفيعة والتقدم على الرسل يوم القيامة، وأن شريعته هي الشريعة الباقية، وأن القران المنزل عليه محفوظ. ومن يطع الرسول فقد أطاع الله.

ويتوجه الخطاب لأمته في الحديث بنعمة ربها شكرا له على فضله.وهو خيط رقيق بين الشكر والرياء فمتى أمن الرياء وغلب في حديثه مظهر الشكر ففي حديثه بالنعمة استجابة لأمر الله يتبعها الجزاء الأسنى. ومتى كان في الحديث ما يحرك الرياء والتفاخر فليصمت ولا يتحدث. ولأضرب لذلك مثلا.قد يفتح الله على المرء فيصل إلى حل إشكال أو فهم لما استغلق عليه في نص من نصوص القرآن أو السنة، فإذا لقي إخوانه من العلماء فحدثهم بما فتح الله عليه شاكرا لنعمته كان مثابا. وقد يسألك صديق عن صحتك فتجيبه، بحمد الله على خير ما يكون.أو عن أولادك فتحدثه عن نجاحاتهم وتفوقهم وصلاحهم مستحضرا في كل ذلك فضل الله عليك، فهذا من شكر النعمة والتطبيق العملي لأمره تعالى : وأما بنعمة ربك فحدث.

ويناقض الشكر خلط الحديث بنعمة الله بإرادة التفاخر، وإظهار ما للمخاطب من خيرات تبطن وراءها قصد الترفع والتبجح، ولو كان في الخير.إن الرياء يستأصل الثواب، ويعرض صاحبه للعقاب. كيف لا وهو يعاكس قاعدة من قواعد العقيدة في الإسلام الواردة في قوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله)[2]

---

[1] سورة الحجرات آية 4/2

[2] سورة النساء آية79

سورة الشــرح

سميت بهذا الاسم في بعض المصاحف وفي بعض كتـب التفسـير والسـنة بهـذا الاسـم، وسميت في البعض الآخر [سورة ألم نشرح] أخذ اسمها من الآية الأولى فيها.
وهي سورة مكية باتفاق.وهي السـورة الرابعـة والتسـعون حسـب ترتيـب المصـحف. وعدت الثانية عشرة حسب ترتيب النـزول.نزلـت بعـد سـورة الضـحى وقبـل سـورة العصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

نشرح: نفسح لك في صدرك.
صدرك : العقل والإدراك.
الوضع : حط الحمل.
وزرك : حملك الثقيل.
أنقـض : أصله الصوت الذي يسمع مـن المفاصـل مـع الحمـل الثقيـل ومنـه صـوت فرقعة الأصابع.
العسر : الشدة والمشقة في الحصول على المرغوب.
اليسر: ضد العسر.
فرغت : أتممت ما أنت بصدده.
النصب: بذل الجهد والتعب.
ارغب : اصرف رغباتك إلى ربك

بيان المعنى الإجمالي :

يُثبتُ القرآن على طريقة السؤال التقريري : أن الله شرح صدر محمد صلى الله عليه وسلم فجعله يسع ما ألقي إليه من وحي، ويسع البشر جميعا على ما بينهم من اختلاف، وأفاض فيه من المعارف ما مكنه من التعمق فيما أنزل إليه، وطبعه على الحكمة.وأنه قد من عليه بالاهتداء إلى حل ما كان يشغله شغلا عظيما من مشاكل البشرية المنصرفة عن الحق في العقيدة وفي العلاقات الاجتماعية.وأنه رفع له ذكره بين الناس قبل النبوة وبعدها فنوه به الرسل السابقون،وقرن اسمه باسمه تعالى في شهادة الإسلام.فأتبعنا ما كنت فيه من ضيق وعسر بيسر وسهولة، وهكذا فسنولي عليك وعلى أمتك من عنا يتنا ما نتبع كل عسر ومشقة بيسر عظيم. فتابع طريقتك في الجد والمثابرة.وكلما أنهيت عملا استأنف عملا آخر فيه نفع لك ولأمتك.واجعل عملك خالصا لوجه الله لا ترقب ثوابا إلا من عنده سبحانه.

بيان المعنى العام :

1-ألم نشرح لك صدرك.

استفهام تقريري يفيد ثبوت ما دخل عليه الاستفهام. فالمعنى قد شرحنا لك صدرك. و في صياغته على طريقة الاستفهام هز للمستمع ليتذكر مضمون ما أريد إثباته ليكون مستحضرا له دائما ومتذكرا.

والمضمون :تذكير الله رسوله بنعمة من النعم التي اختصه بها.قوى ربُك عقلك ومداركك.تلقيت الوحي الثقيل من جبريل.وهو أمر يفوق القدرة البشرية العادية من ناحيتين :

الأولى : أنه لقاء بينه وبين ملك، طبيعة خلق كل منهما مختلف عن طبيعة خلق الآخر.فمحمد صلى الله عليه وسلم من ولد آدم عليه السلام جمع الله في خلقه بين الروح والعقل والمادة.وأما جبريل فهومن جنس الملائكة ليس بينه وبين المادة أي سبب، تضعف الطاقة البشرية عن التخاطب معه. ففسح الله له في قواه حتى أصبح يأنس بالوحي ويشتاق إليه، بينما رجع إثر اللقاء الأول إلى خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ترجف بوادره. بعد أن غطه حتى بلغ منه الجهد كما سيأتينا في سورة العلق

الثاني : أنه تلقى وحي الله وتحمله، و كلف بإبلاغه للبشر جميعا، وهم مختلفون اختلافا بينا، بين مهتد ينظر في الوحي بعقله وقلبه، وبين معاند مصمم على الكفر وعلى رفض الدعوة الإسلامية.بين مسالم أمين،وبين معتد أثيم لا يرعوي عن

الإيذاء بيده ولسانه وتدبيره. وسع قلبه الجميع، وكانت دائرة محبيه لكمالاته تتسع كل يوم إلى أن فتح الإسلام قلوب العرب جميعا، وانطلق إلى آفاق العالم.

وروي أن شرح الصدر هو شرح مادي. وكل الله ملائكة فتحت صدره وألقت فيه من الحكمة والهداية والكمالات ما أودعت.وهل كان ذلك مرة واحدة أو أكثر، هل تم ذلك في صباه الباكر أو بعد ذلك ؟ وهل كان ذلك يقظة أومناما ؟ الروايات تعددت بما لا نستطيع الجزم بأي منها.

3/2- ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك.

هذه هي المنة الثانية التي ذكر بها الله رسوله.أثبتت الآية أن الله حط عنه الأثقال التي كان يعاني حملها. وجسم شدة الثقل أن فقرات الظهر سمع لها صرير . فما هي هذه الأثقال التي كان يحملها فوضعها الله عنه؟ لا يراد بالأثقال الثقل المادي قطعا، ولكن هو الثقل المعنوي الذي كان يضغط عليه قبل الرسالة عندما تأمل ما عليه قومه من عبادة الأصنام، ومن فساد العلاقات الاجتماعية، الأمر الذي ألجأه إلى التحنث في غار حراء، عله يجد طريقا ومنهجا يحول به الناس عن الفساد إلى الصلاح، وعن الشر إلى الخير.وما أسعفه تفكيره بالحل المبتغى، إلى أن جاءه الوحي وكان شديدا عليه في أول الأمر كما بيناه سابقا.ضغوط تنوعت فأسعفه ربه بالتأييد إذ خط له الوحي المنهج المنقذ للبشرية من الضلال والفساد، وقواه على ثقيل الوحي.وهو معنى : **ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك.**

4-ورفعنا لك ذكرك ،

هذه هي المنة الثالثة في السورة التي ذكر الله بها نبيه.هو سر ألقاه رب العباد في مشاعر الناس الذين عرفوه وخالطوه تبعا لما هداه إليه من مكارم الأخلاق وسمو النفس منذ نشأته.ولقب عندهم بالأمين.ثم واصل هذه المنة بعد أن شرفه الله بالرسالة فجعل كلمة التوحيد ذات شقين : شهادة أن لاإله إلا اللهوشهادة أن محمدا رسول الله، ومن ذكره والثناء عليه في الكتب السابقة وفي تسميته رسول الله ونبي الله، وفي توجه القرآن بالخطاب له مع أول ما أنزل ثم تتابع. وما قيل من أن ذكره في إقامة الصلاة والأذان والخطب فهو وإن كان ملحظا لطيفا إلا أنه لا ينطبق على الآية إذ السورة كما قدمنا من السور المتقدمة نزولا. فيحمل على تواصل هذه المنة

6/5-فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا.

كأن هذه الآية المكررة مظهرة لجريان تلكم النعم الثلاث على القاعدة التي تضمنتها الآيتان هنا. أي إن اليسر مصاحب للعسر، أبشر فإن ما تلقاه من المشقة في نشر

الإسلام، من عناد الكفرة، ووقوفهم لصد الناس عن الدخول في الدين، وإيذاء من آمن منهم.إن الحرج الذي أنت فيه من ذلك، قدرت أنه سيحصل بعده عن قرب اليسر العظيم الذي تقر به عينك.كما شرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك. فهذا الوعد يبشر النبي صلى الله عليه وسلم أنه كلما حل العسر وصله الله باليسر الرافع له. وفيه أيضا وعد لأمته من أن الله سيكشف كربهم ويحول ما ينتابهم من عسر إلى فرج ويسر .وقوله تعالى[مع] يفيد قرب حصول اليسر وليس معناه حصولهما معا،لأن ذلك تناقض. والجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى مقررة لمعناها.

8/7- فإذا فرغت فانصب...فارغب.

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم حياة جد بين تبليغ ما أنزل إليه ودعوة الناس إلى الإسلام، ومحاجة المعاندين، والقيام على شؤون المسلمين وحل مشاكلهم، وعبادة ربه،فكان نشاطه صلى الله عليه وسلم نشاطا متواصلا، ليلا ونهارا، فخوطب بهذا الأمر ليواصل ما هو عليه، وليكون بهذا الأمر مستجيبا لما طلبه الله منه مأجورا عليه.وكما كانت حياته صلى الله عليه وسلم حياة جد تغتنم ما يرضي الله،وما ينفع الإنسان في نفسه،وينفع به من هو إلى نظره، وينفع مجتمعه، فإن على المسلمين أن يقتدوا برسولهم، فالإسلام دين الجد والعمل لا اللهو والكسل.

وقرن القرآن الجد في العمل بحسن القصد فيه.وذلك بأن يجعل العامل عمله خالصا لوجه الله، لا يرغب إلا فيما عند الله من فضل.وللعمل مستويان: أحدهما : أن يأتي بالعمل كاملا غير منقوص فيستحق أجره إن كان يعمل لغيره ويكون ما يقبضه من أجر حلالا.

وثانيهما :مرتبة أخرى أعلى أن يراعي في عمله أن الله رقيب عليه، فيجتهد في التجويد ،وفي حفظ الوقت، وفي النصح لرب العمل كأنه يعمل لنفسه. فيكون مأجورا ومطبقا لهذه الآية.وكذلك الإخلاص في أداء العبادة لا يرغب إلا في ثواب الله.

سورة التين

بهذا الإسم عرفت في معظم المصاحف وفي كتب التّفسير والسّنة. وسميت في بعضها بسورة "والتين" وأخذ إسمها من الآية الأولى فيها.
و هي سورة مكية رتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والتّسعون. وحسب ترتيب النّزول عدت الثامنة والعشرين نزلت بعد سورة البروج وقبل سورة الإيلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

طور سينين: جبل سيناء.
أمين: يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما اؤتمن عليه.
أحسن تقويم: أفضل تسوية، بتناسب بين جانبه المادي، وجانبه الرّوحي والعقلي.
رددناه: صيرناه إلى حالة مخالفة لما كان عليه.
أسفل سافلين: أشد خسة في الرّأي، وما يترتب عليه من العمل.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بأربعة أقسام ليبطل ما ترسخ في عقول الفكرة من نفي يوم القامة، وزعمهم أن الإنسان غير مسؤول عند الله على أعماله.
الأقسام الأربعة هي:
1-التين : الجبل الذي نزل عليه نوح عليه السلام.
2-الزيتون :الجبل الذي أقام عليه إبراهيم عليه السلام مسجد بيت القدس.
3-الطّور : الجبل الذي كلم الله بجانبه موسى، وشرفه بتحمل رسالته. وتلقى الألواح.

4- البلد الأمين: مكة عمرها الله، التي جعلها حرما امنا، ونزل فيه القرآن على قلب محمد ﷺ.

فالأقسام تشير إلى الشرائع التي هدى بها الإنسانية في عصور متلاحقة.

والمقسم عليه: أن الله تفرد بخلق الإنسان، وأبدع تركيبه بحكمته، فجعله قابلا للخير، وللتطور إلى ما هو أفضل وأجدى عائدة على ذاته والمحيط الذي يعيش فيه، وعلى المجتمع الإنساني، متى ربط فكره وروحه بربه، وقدر أنه محاسب على جميع أعماله. وقدر سبحانه أنه محاسب على عقيدته، وعلى جميع ما صنع في حياته.كما قدر أنه إذا قطع باختياره الحبل الذي يربطه بربه، فإنه ينحدر إلى أسفل سافلين، إلى أحط منزلة تتصور في دنياه وفي آخرته. ولا يأمن من الهوة السّحيقة التي تبتلعه إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصّالح النّافع لنفسه وللمجموعة البشرية.

بيان المعنى العام:

1-4: والتين والزيتون......الأمين.

افتتحت السّورة بأربعة أقسام: 1-التين،2 -الزيتون، 3-طور سينين، 4-البلد الأمين.

القسمان الأولان: التين والزيتون. المتبادر أنهما النّوعان المعروفان من الثمار. أقسم الله بهما لما اختصا به من مظاهر التّقدير العجيب. إشارة إلى أن ما أودع فيهما من الخصائص. يقوم شاهدا على الحكمة، وحسن التّقدير في الخلق. وامتنانا على البشرية بما يسره لها على سطح الأرض من خيرات. واختير التين للقسم به لجودة مذاقه، وقابليته للخزن، ونمائه وإثماره دون حاجة إلى كبير عناية، أو علاج. وزيته يدخر السّنين محتفظا بخصائصه وجودته. وكون المراد بهما هاتين الثمرتين هو رأي معظم المفسرين.

و رأى بعضهم أن المناسبة بين القسم بالثمار، والقسم بالأماكن المباركة، لا تبدو واضحة على ذلكم المحمل. فقالوا: أن المراد بالتين: مسجد نوح الذي أقيم على الجودي. ووجه تسميته كثرة غراس التين حوله. وأن المراد بالزيتون: الجبل الذي أقيم عليه المسجد الأقصى. وتخريجات كثيرة أخرى، تدور كلها حول أماكن مباركة أكرم الله فيها بوحيه بعض من اختارهم لتحمل للرسالة. والتّخريجان المذكوران أكثر قربا.

و طور سينين: هذا هو القسم الثالث. والطّور الجبل المعروف في شبه جزيرة سيناء من أرض مصر.

و هذا البلد الأمين. المشار إليه مكة عمرها الله، بلد المسجد الحرام، ومولد رسول الله ﷺ. وهو بلد أمين كما قال تعالى:(و من دخله كان آمنا)[1] استجابة لدعوة إبراهيم ﷺ. قال تعالى: وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا)[2]. في استحضاره بالإشارة إليه(هذا) تعظيم له بإبراز أنه حاضر مشاهد، لا يغيب عن الفكر.

وبحمل القسمين الأولين على جبل التين، وجبل الزيتون، تنسجم الأقسام الأربعة. قسم بالتين: مهبط نوح بعد الطوفان إيماء لشريعته، وقسم بالزيتون إيماء إلى شريعة إبراهيم الذي بنى المسجد الأقصى. وطور سينين الذي كلف الله موسى بالرّسالة من جانبه. والبلد الأمين الذي ولد فيه محمد ﷺ والذي فيه بعث. وأضاف بعضهم إلى أنّ القسم بالزيتون يشير أيضا إلى شريعة عيسى باعتبار أنه ولد في بيت المقدس.

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.

نعم تفرد الله بخلق الإنسان، فركبه تركيبا عجيبا يتجاوز كل تصور، ويسعى العلماء في مختلف الاختصاصات لإدراك أسرار هذا الخلق الإلهي المحكم، ولم يصلوا إلا إلى التّعرف على جوانب محدودة، وما تزال جوانب أخرى عصية عن الإدراك تتحدى البشرية لتبذل مجهودا متواصلا للكشف عن بعضها. ولكن ما اكتشف وما هو مجهول، الكل يثبت أنه قد قام الخلق على الحكمة، وحسن التّقدير، والتّكامل، وعدم التّناقض. وأنه مؤهل لعمارة الأرض، والاستخلاف فيها. فهو خلق متناسق لا عوج فيه، يذهب منطلقا إلى التّطور الإيجابي بحسب فطرته. وأثبتت هذه الحقائق بالقسم عليها مراعاة لسلوك الجنس البشري الذي انحرف إنحرافا كبيرا حتى يُخيّل للناظر أنه بني على الشر والفساد، وأنه لم يخلق على أحسن تقويم.

5-ثم رددناه أسفل سافلين.

عطف التّحول الذي آل إلى أمره الإنسان بكلمة (ثم) الدّالة على الانتقال بعد تراخ من الزمن. فتفيد الآية أن الإنسان بعد خلقه قابلا للصلاح في نفسه، وفي محيطه، وفي المجتمع الذي يؤثر فيه، ويتأثر به، فيسمو بكل ذلك إلى مراتب ينتقل فيها من حسن إلى أحسن،إنه بعد ذلك انقلب وضعه إلى أدنى مستوى من

---

[1] سورة آل عمران آية97

[2] سورة البقرة آية 126

الحطة ومن الفساد. سار الإنسان على فطرته ردحا من الزمن، مؤمنا بالله، يراعي الحق والجمال والخير فيما يصدر عنه، ثم أخذت شهواته وغرائزه تفتك القيادة، وتتحكم فيه، وتضرب على عقله حجابا عطل إشعاعه، وبلده، وربطه ربطا محكما بالمادة. فنزل إلى أسفل سافلين.

تقدم العلم أشواطا في الكشف عن أسرار الخلق. وعرف بقدر غير قليل من قوانين الكون والمادة. فتمكن من تطويع متنوع القوى إلى ما يجلب له الرّفاهية والإشباع المادي. وظن أن ذلك هو السّعادة، وأنه هو الرّقي الإنساني. تقوّمُ الحضارة بمستوى الدّخل الفردي والقوة الحربية للدولة، ومعاهد البحث العلمي في فروع المعرفة. وهي لا شك بعض مقومات الاستخلاف الذي وكل إلى الإنسان القيام به. ولا نوهّنُ من قيمة امتلاك المعرفة والتّطبيق في تلك الأمور كلها. بل إن الإسلام يدعو المؤمن أن يرتقي في المعرفة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه جهده. ولكن الإنسان لما قصر نظره على الجانب المادي نزل إلى أسفل سافلين، وهو يظن أنه ساد الكون وأخضعه لصالحه.

كان الوفر في السّلع والمنتجات المساعدة على عون الإنسان في حياته كبيرا. في بيته وفي تنقله، وفي كشف أسقامه وعلاجه. وفي يسر وسرعة الاتصال مع أطراف العالم. ولكن بجانب هذا محيط تلوث يختنق أنفاس البشر، ومخزون من السّلاح يدمر الكرة الأرضية مرات، واستبداد مقنع لقوى المال يفسد القيم ويحطم سلم الأخلاق. استخدموا الجنس، وتفننوا في تضليل النّاس عن الحق، والخير، والجمال، وجعلوهم ملهوفين للشراء والاستهلاك، وكلما زادت مشترياتهم أغرقوهم في الدّيون، وامتصّوا مكاسبهم قبل أن توجد.و قامت مصانع أحكمت صناعة الكذب والتّضليل. استغفلوا النّاس حتى جعلوا معظمهم يعتقد الخير شرا، والعكس، والصّلاح فسادا والعكس، والظلم عدلا والعكس.

إن الحيوانات المفترسة إذا تمكنت في الفريسة بما يشبع داعي الجوع كفت عن التّسلط، أما الحضارة المادية فتجد لذتها في التّخريب والقتل. وانظر التّسلط الإسرائيلي على قطاع غزة، دمّرَ من أجل التّدمير، وخرب من أجل التّخريب. في أحسن ظروفه أن ينبه سكان العمارة ليغادروا بيوتهم ليهدمها بزلزال القصف. والحرب العالمية الثانية قتلت ومزقت ستين مليونا من البشر. والحرب العراقية ردمت الدّبابات أرتالا من الجنود وهم أحياء. وما يزال العابثون بالسّلام يشعلون نار الحروب بين الفينة والأخرى ليبيعوا سلاح الموت.

أصبح العدل غطاء للظلم، والعلم سبيلا للتسلط والقهر، ومخزون الكون الذي لا يعوض ذاهبا إلى الإهلاك والتّبذير. والعفة والاستقامة مجلبة للسخرية

والاستهزاء. فصدق الله ثم رددناه أسفل سافلين، لما أوكل الإنسان تقويمه للحياة إلى شهواته وغرائزه.

و قد حمل بعضهم الآية لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، على الخلقة المادية، وأن الإنسان أجمل المخلوقات يسير قائما على رجليه. ثم رددناه أسفل سافلين تذهب وسماته ويلحقها الزوال، ويتّجعد جلده، ويتقوس ظهره، ويخمد أو يزول لمعان فكره. وهو محمل بعيد عن فاتحة السّورة وخاتمتها.

6- إلاّ الذين آمنوا وعملوا... غير ممنون.

استثنى القرآن من جنس البشر الذين هبطوا في قيمتهم إلى أسفل سافلين، استثنى الذين تمسكوا بحبل الإيمان القوي. فشع الإيمان في عقولهم وأرواحهم، وأثّر في تصوراتهم، واختياراتهم، وعزائمهم، فشكلها حسب ما يفرضه التّعلق بالخالق العظيم، وحسبما يقتضيه الصّلاح الفردي والاجتماعي. ولم يكونوا في حياتهم نظريين يقولون ما لا يفعلون، ويفكرون فيما لا يطيقون. بل ساروا في حياتهم العلمية حسب القيم التي آمنوا بها، وروّضوا أنفسهم على فعل الخير والصّلاح، فانعقدت إلف علمي بينهم وبين مختلف أنواع نشاطهم. وإذا ميزهم القرآن بأنهم هم الذين سموْا في بشريتهم ولم يُردّوا إلى أسفل سافلين، عطف على ذلك أنه قد أعد لهم ثوابا من عنده وأجرا عظيما كفاء صلاحهم. لا يُكدّرُ تمتعهم به منٌّ. إن المن بالعطاء والتكريم والتّذكير به ينغّص على المنعم عليه تمتّعه بما هو فيه من سعادة.

7- فما يكذّبك بعد بالدّين.

بعد ما بين القرآن وأكّد من خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأنّه لكفره بربه انحدر إلى أسفل سافلين. وأن الذين نجوا من الانحدار هم المؤمنون الذين عملوا الصّالحات، التفت الخطاب إلى الكافر الذي قطع صلته بالله يسأله سؤال إنكار: ما الذي أظلك فجعلك تكذب بالجزاء في الآخرة، تعتقد أنّك غير مسؤول في النّهاية عما أفسدت؟ إنه لا عذر لك بعد أن بعثت لك رسولي، فعرّفك بالعقيدة التي تنقذك من الضّلال، وبشرعي الذي يجعلك عضوا صالحا في المجتمع.

8- أليس الله بأحكم الحاكمين.

دعوتك إلى الإيمان أيّها الكافر وإلى تحكيم شرعي في علاقتك الاجتماعية، وفي نشاطك، إنّي لا أنتفع بصلاحك، ولا يضرّني توليك وعنادك. والخسارة كل الخسارة تقع عليك. إنّي أنا الله أحكم الحاكمين، فضلي عليك وعلى الجنس البشري عامّة. أعطيت لكل شيء حقّه، فسبحت لي الكائنات بلسان حالها، وعقلك يكشف لك عن حكمتي المنبثّة في كل صغيرة وكبيرة. ومن ناحية أخرى فإنّي أعدل الحاكمين لا يُظلم لديّ أحد. فاقلع عن التّكذيب والبعد من دائرة هدايتي.

ســورة العلق

اشتهرت بهذا الاسم في المصاحف، ومعظم التّفاسير. وسماها ابن عطية وابن العربي "سورة القلم" وأطلق عليها في بعض المرويات عن الصّحابة والتّابعين اسم "سورة إقرا باسم ربك".

و هي سورة مكية باتفاق. رتبتها حسب ترتيب المصحف: السّادسة والتّسعون، وحسب ترتيب النّزول: عدت السّورة الأولى. نزل القسم الأول منها في غار حراء ليلة السابع عشر من شهر رمضان.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ

الأكرم: العظيم كرامه عظما لا حدله.

بيان المعنى الاجمالي :

في غار حراء، ليلة السّابع عشر على قول الأكثر من رمضان، انبثق نور الوحي، فألقى ملك الوحي جبريل عليه السلام هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العلق في قلب محمد ﷺ. أمر جدٌ، يحتّم عليه أن يقرأ مفتتحا قراءته باسم ربّه. قل بسم الله. قالها النّبي بعد أن غطه ثلاثا، وهو يخاطب الملك بقوله: ما أنا بقارئ. حتّى اطمأن قليلا، وقرأ اقرأ باسم ربك الذي خلق.

إنّ ما أتاك هو من ربك الذي تفرّد بالخلق. خلق كل شيء، و خلق الإنسان من لقيحة علقت في جدار الرّحم حتى بلغت إنسانا سويا. فأثبتت الآية أنّه على باب العلم، وقد فتح له أول منفذ إليه، وأنه سيتواصل إلى أن يحيط بعلم ما لم يكن يعلمه من قبل. إن كرم ربك لا يحد، يعلّمك ما لم تكن تعلم. وهو الذي جعل القلم وسيلة لتطور العلم، و هتك حجب الجهل. فإذا كان الإنسان قد وصل بالقلم الذي خلقه الله إلى علوم الدّنيا والآخرة، فإن كرم الله يفيض عليك من العلوم والحكمة ما شاء أن يفيضه.

بيان المعنى العام:

1←2)اقرا باسم ربك.....مالم يعلم.

أخرج البخاري بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصّالحة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح، ثم حبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه: وهو التعبّد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع لأهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: إقرأ: قال ما أنا بقارئ قال: . فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثمّ أرسلني فقال: إقرأ: قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية ثمّ أرسلني فقال: إقرأ: قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. قالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرّحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة بن نوفل: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال ورقة: هذا النّاموس الذي نزل على موسى. يا ليتني كنت فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ : أو مُخْرِجيّ هم ؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يُدركْني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.[1]

افتتح الوحي بكلمة "اقرأ" وبها افتتحت السّورة، مما يشير إلى أن رسول الله ﷺ سيكون قارئا لكتاب يتلوه. وفي ذلك أيضا حجة على أن هذا الوحي لم يكن من حديث نفسه، وإنما كان من عند الله. لأن الأمي لا يتصور منه أن يبدأ دعوته

[1] فتح الباري ج1ص25/30

بالأمر بالقراءة، لأن تفكيره يمكن أن يجري فيه، ما يجري إلا الأمر بالقراءة التي ما حدث له مرة في عمره أن فكر فيها.

باسم ربك.

يحتمل أن يكون الخطاب توجه لرسول الله ﷺ : بأن يفتتح القراءة باسم الله. قل : باسم الله، ثم اقرأ. مستشعرا أنك مستعين به. ولا شك أن النبي ﷺ عمل بما أمر به فقال: باسم الله. ويحتمل أن النبي ﷺ أمر أن يقرأ مصاحبا اسم الله في قراءته، مستشعرا جلاله وأحقيته بأن يكون مستحضرا في جميع الأعمال الصالحة. إبطالا لما كان عليه أمر الجاهلية من استصحاب أسماء آلهتهم.فهي تشير إلى الركن العظيم في هذا الدين: مبدأ الوحدانية لله. وأضيف الاسم إلى "ربك" ليفيد أمرين معا. ما ترمز إليه كلمة" الرّب" من العناية والالطّاف. وما في إضافة "رب" إلى الضمير المعبر عن رسول الله ﷺ، من التّشريف والتّقريب.

الذي خلق.

هي الصفة التي لا يمكن لأي أحد أن يدعي فيها الشركة، أو أن ينسبها لغير الله. وهي الصفة التي قد يغفل عنها المشركون، فيثبتون الألوهية لمن ليس له أي تدخل في الخلق. وهو سبحانه الخالق لكل شيء كما يدل عليه التّعميم المفهوم من عدم حصر الخلق في نوع.

2- خلق الإنسان من علق.

خصّ القرآن خلق الإنسان من بين عموم خلقه سبحانه، لأنه أودع فيه من الدّقة في التّركيب، ومن القوى الكامنة التي تتفاعل فيما بينها لتسمو به عن جميع الكائنات، وتمكنه من التّسلط عليها وترويضها لصالحه. ونص على أن بداية الخلق كانت من علق. والعلق حسب ما اكتشفه العلم هي اللقيحة (البييضة الملقحة بالحيوان المنوي) التي علقت في جدار الرّحم، وانغرست فيه لتنمو وتتطور إلى الإنسان الذي يقذفه الرّحم عند الأمد الذي يستطيع فيه أن يتفاعل مع المحيط الأرضي، وينمو إلى أن يشتد عوده.

و تكون هذه الآية قد قررت مبدأين بهما رقي الإنسان وسعادته.

المبدأ الأول: هو القراءة والتّعلّم. المنطلق لجميع الحضارات، والأساس الذي يبني عليه اللاحق ما يضيفه لمن سبق في طريق صاعد يحقق للإنسان كل خير مادي وفكري.

المبدأ الثاني: يمثل الإجابة عن التساؤلات التي مازالت تحرك العقل للإجابة عنها، دون أن تجد لها جوابا قريبا تتفق البشرية كلها على إدراكه لوضوحه. أن الخلق تم بقدرة الله وإرادته. ويستوي في ذلك كل الكائنات مع الإنسان الذي هو أشرفها.

3-5:اقرأ وربك الأكرم الذي.....مالم يعلم.

تأكيد للأمر بالقراءة مما يشير إلى ما وقع في لقائه بجبريل لما كرر عليه الأمر بالقراءة.

ثم استأنف الكلام ليلفت نظر رسوله، ونظر من يتلو قرآنه إلى الصفة التي بها بلغ الرسول ﷺ الوحي. فهو ربك بما تشير إليه كلمة الرب حسبما كررناه مرارا. وهو المتصف بالكرم الذي لا يُحدُّ، فاختياره لتحمل الوحي كرم كبير. ومضمون الرسالة فضل عظيم، وكرم هدى به الإنسانية. وكرم ثالث نصت عليه الآية، أنه خلق في الإنسان القدرة على التعلّم، وأنه علمه سبحانه ما لم يكن يعلم ففتح العقل البشري ليتعلم ما يرد من الوحي على لسان رسله، وفتح عقله ليستنبط من المعلومات الأولى نتائج كاشفة عن مجاهيل، ثم تتحول تلكم المعلومات إلى مقدمات إلى ما بعدها. وبهذا التراكم تكونت العلوم واستلقت. فنقل البشر من ظلام الجهل إلى نور العلم، زاد الإنسان به شرفا. قال:(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب)[1] وكرم رابع أن ألهم الإنسان الخط، والكتابة، وتسجيل معارفه وتقييدها، تأمينا لها من عادية النسيان، وليثبت ما وصل إليه الإنسان فيرثه من يأتي بعده ويضيف إليه .و بالقلم دونت الرسالات وحفظت إلى الأمد الذي قدر لها. وبالقلم حفظ القرآن مع حفظه في الصدور. وبه تم ما أراده الله من خلود الإسلام إلى يوم القيامة. وبالقلم توثّق العقود بما يرفع الخصام، ويؤمن كل فرد على حقوقه. وبصفة عامة لا تستقيم أمور الدنيا والآخرة إلا بالخط. وليس القلم ما بُري من قصب، فذلك يمثل مرحلة من مراحل تطور آلة الكتابة. واعتمدت اليوم آلة الكتابة اليدوية والكهربائية، والتي ستتطور حتما إلى طرق أخرى، كلها داخلة تحت كلمة القلم.

كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ

[1] سورة الزمر اية9

﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

بيان معاني الالفاظ:

الطّغيان: التّعاظم و التّكبير.

الإستغناء: شدة الغنى و عدم الشعور بالحاجة.

الرّجعى: المرجع.

أرأيت: صيغة تعجيب من حال مستغرب.

بيان المعنى الإجمالي :

يفتتح هذا المقطع بكلمة (كلا) الرّادعة والمبطلة لما سيأتي. أن من شأن الإنسان أن يتملكه الكبر والطّغيان إذا قطع صلته بالله، وتوفر له المال العريض، والخدم، والتّابعون. يوقظ القرآن هذا الصّنف من النّاس بأنهم لا يذهبون بعيدا، فسيعودون إلى الله ويرجعون إليه عراة من مظاهر القوة التي اعتزوا بها.

ويشهر القرآن بهذا الصّنف من النّاس ثلاث مرات.

الأولى: بموقفه وهو ينهى محمدا عن صلاته، ويتوعده بالاعتداء عليه لو رآه يسجد لربه، معرضا عن الأصنام.

الثانية: بموقفه وهو يتصلب في الضلال، فهو ينهى محمدا وقد تمكن من الهدى، يطلب منه أن يعود إلى الضلال. فانقلب سلم القيم عند هذا المتكبر، ويطلب منه أن يقلع عن الأمر بالاستقامة وتقوى الله.

الثالثة: بتصميمه على تكذيب محمد وإعراضه عنه. فالله عالم لا يخفى عليه شيء مما صنع هذا المتكبر وسيجزيه شر الجزاء.

بيان المعنى العام:

6-7: كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

افتتحت الآية بكلمة(كلا) الموضوعة للردع والإبطال. ولا يوجد فيما سبقها ما يمكن أن يتوجه له الرّدع والإبطال. فتعين أنه منصرف لما بعدها: أقوال ومواقف المتجبر الكافر بنعمة الله أبو جهل بن هشام.

قد يقترب معنى الآيةَ ما رواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو جهل: هل يعفر[1] محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن

---

[1] يلصق وجهه بالتّراب عند سجوده

رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتى النبي ﷺ وهو يصلي. زعم ليطأ على رقبته، قال : فما فجئهُمْ منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه. فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندق من نار، وهولاً، وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا قال: فأنزل الله عز وجل، لا ندري من حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه (كلا إن الإنسان ليطغى أن راه إستغنى إن إلى ربك الرّجعى أرايت الذي ينهى عبدا إذا صلى أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتّقوى أرأيت ان كذب وتولى (يعني أبا جهل) ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعن بالنّاصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع نادية سندع الزبانية كلا، لا تطعه)[1] ذكر المفسرون وأصحاب السّير أن الوحي فتر مدة بعد نزول الآيات الخمس الأولى، وأن النبي ﷺ كان يلقى جبريل ويبلغه الوحي المخاطب به من غير القرآن. وإن التّقرب لله بالصّلاة ثابت قبل الإسراء، ولكن ليست هي الصّلوات الخمس في كيفياتها، وفي أوقاتها. وأن السّجود كان أحد أركانها كما يفيده الأمر بالسّجود في خاتمة السّورة كلا لا تطعه واسجد واقترب[2] .

فقوله تعالى: كلا إن الإنسان ليطغى مقدمة مفسرة لوقاحة أبي جهل وتطاوله. والإنسان هنا هو أبو جهل أولا. وينطبق هذا الحال على كل متعاظم متكبر بما أوتيه من مال وقوة.

أن رآه استغنى. طغيان الإنسان بسبب رؤية نفسه مالكا لكثير من المال. فتحدثه نفسه أنه بالوفر المالي بين يديه في مركز قوة يتقرب إليه المحتاجون وحتى غيرهم من الذين يعظمون المال أكثر من كل شيء. فينتهي إلى جنون العظمة التي تبرر له تجاوزاته وفساده. وعلى هذا النّحو تختل النّفوس إذا قطعت النّعمة عن مسديها المتفضل بها رب العالمين. ومثل الاستغناء بالمال الاستغناء بالسّلطة التي أصابت البشرية بالجبابرة المستبدين الطّغاة.

8- إنّ إلى ربّك الرّجعى.

هذه صفعة للطغاة بقوتهم المادية. إنهم واهمون فقدراتهم التي انتفخوا بها زائلة. وسيعودون إلى ربك، يا محمد، فارغين من المال، والجاه، والسّلطة، والخدم، والأتباع. فالآية تهديد وتحذير من عاقبة الطّغيان، وأنهم لا يفلتون من العودة

---

[1] اكمال الاكمال ج 7 ص 197

[2] آية 19

والرّجوع إلى الحكم الإلهي الذي ينفذ فيهم بالموت في الدّنيا، والعذاب في الآخرة.

9-10: أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى.

صيغة تفيد التّعجب من وقاحة وتطاول أبي جهل. وأنه تطاول منتفخ بكبريائه، أحط قدرا من أن ينهى رسول الله ﷺ عن أداء الصّلاة في المسجد الحرام. ذلك أنه تحدث بتهديده للنبي ﷺ إذا رآه يقيم الصّلاة بمرأى من المجتمع المشرك. قاصدا أن يبلغ تهديده المصطفى ليقلع عن التّحدي للمشركين بإظهار الخضوع لله وحده. والعبد في الآية هو محمد الرّسول.

11-12: أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى.

التّعجب في الآية من موقف المتكبر الطّاغية الغليظ. كيف فقد الميزان والبوصلة، وانكشفت مواقفه وهو يتخبط في التّناقض. كيف يجرؤ على نهي من كان متمكنا من الهدى ليقلع عن مساره الصّالح، وكيف يعادي ويقف حجر عثرة أمام من يأمر بتقوى الله والاستقامة في الحياة. إنه الكفر، والطّغيان، والتّكبر، والتّجبر هي التي قلبت عنده الحقائق، فسوغت له مواقفه تلك.

13- أرأيت إن كذب وتولى.

تعجيب ثالث للتّشهير بهذا المتكبر الطّاغي. أرأيت موقفه المعاند المصمم على الرّفض، كيف عطل قواه العقلية، وتصلب في الإعراض. فكل ما يطرق سمعه من الرّسول المتمكن من الهدى والمقيم للصلاة يكذب به، ويولي ظهره لندائه. فيجعل نفسه في شق مقابل لشق رسول الله ﷺ.

14- ألم يعلم بأنّ الله يرى.

سؤال إنكار وتهديد. يدل على جواب إن كذب وتولى تقديره: فالله عالم به. لا يتصور أن يخفى على الله شيء من كفره، وعناده، وضلاله. إنّه سبحانه يرى كل ما يحدث في الكون، فلا يغيب عن علمه شيء. فالآية تتضمن تهديدا بأن مواقفه معلومة عند الله سيجازيه عنها عذابا وإهانة يوم القيامة.

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

السّفع: القبض الشديد مع جذب.

الناصية: مقدم الرأس.

خاطئة: مذنبة.

النادي: اسم المكان الذي يجمع فيه القوم.

الزبانية: ملائكة العذاب. ويطلق على أعوان الشرطة.

بيان المعنى الإجمالي :

كلاّ: ليرتدع هذا الطّاغية فإن ما عمر به نفسه كله باطل ولا أثـر لـه. إنـه إن لـم ينتـه عن مقاومة الدّين والتّهديد فسنمسك بناصـيته مسـكا لا يسـتطيع الانفكـاك منـه ونجـره ذليلا. هي النّاصية التي جمعت بين الـرّذيلتين: الكـذب والتّلـوث بـالإثم. ومـن وقاحـة الطّاغية أنه هدد النّبي ﷺ بأنه سيتقوى بأهل ناديه الـذين يجتمعـون عنـده ليوقفـه عـن مواصلة التّبشير بالهدى. وتحداه القرآن بـأن الله سـيدعو ملائكـة العـذاب ليسـحقوه مـع أهل ناديه لو حاول النّيل من رسول الله ﷺ. لينزجـر عـن التّعـرض للرسـول ودعوتـه. ولا تكترث به. واصل عبادة ربك، واسجد له، وتقترب إليه.

بيان المعنى العام:

15-كلاّ لئن لم ينته لنسفعن بالناصية.

افتتحت الآية بكلمة(كلا) المفيدة للإبطال والرّدع. وهي مؤكـدة لــ(كـلا) الأولـى. كـلا إن الانسان ليطغى. فجاء الكلام مفتتحا بكلا ومختتمـا بهـا. ممـا يشـير إلـى التّأكيـد القوي المبطل لتصورات الطّاغيـة، ولردعـه عـن طغيانـه. وأعقـب الإبطـال والـرّدع بالكشف عن مآله. إنه سيؤخذ أخذا مذلا لا ينفلت منه. جسّـم ذلـك بأنـا سـنقبض علـى مقدم رأسـه، ونجـره جـر الأذلاء مـن الجنـاة المـدفوعين لتنفيـذ العقوبـة علـيهم، إذ يؤخذون من مقـدم رؤوسـهم بعنـف وشـدة، فيركعـون وهـم مجـرورون أذلاء. هـذه العاقبة الحتمية إن لم يقلع عن طغيانه وعن مقاومة الدّين.

16- ناصية كاذبة خاطئة.

هذه النّاصية يحملها من تأصلت فيـه الرّذيلتـان: الكـذب، والتّلـوث بالـذنب. فصـح أن توصف النّاصية بالكذب والإثم.

17-،18، فليدع ناديه سندع الزبانية.

كان من جراءة أبي جهل : أنه هدد النّبـي ﷺ بأنـه سيسـتعين عليـه، لمنعـه مـن مواصلة القيام بشريف مهمته، بدعوته أهـل ناديـه، وهـم الـذين يحضـرون مجلسـه، ويوقرونه. لا تكترث بتهديده. فإنّما سـنحميك بمـا لا طاقـة لـه بـه، لا هـو ولا أهـل ناديه. سنسلط عليهم الزبانية الملائكـة الـذين يسـحقونه قبـل أن يصـلوا إليـك. وهـذا

التّهديد المعلنَ من القرآن لأبي جهل، قمعه فتراجع عن تهديده من شأنه أن يلهب الحمية، مما يدل على أن المشركين عارضوا الإسلام خوفا على مصالحهم المادية وحظوظهم الرّئاسية، وهم في باطنهم يدركون أنه حق. قال تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)[1].

19- كلاّ لا تطعه واسجد واقترب.

(كلا) ردع للطاغي المهدّد بدعوة ناديه، وإبطال له. فهو عاجز عن تحقيق تهديده.

واصل القيام بالصّلاة، ولا تهتم بتهديده، ولا تلق له بالا. واستمتع بالسّجود لربك، وكن متطلبا لنيل القرب منه، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

وهذه السّورة فيها سجدة عند جماعة، ومنهم ابن وهب. ولا يرى مالك ﷺ عنه فيها سجودا ولا في المُفصّل.

[1]سورة النمل اية 14

ســورة القدر

هذا هو الاسم المشتهرة به في المصاحف، وفي معظم كتب التّفسير، وفي كتب السّنة. وسماها بعض المفسرين سورة ليلة القدر.

وهي سورة مكية في قول الجمهور. وبناء على ذلك عدت السّورة: الخامسة والعشرين في تَرتيب النّزول، على أنها نزلت بعد سورة عبس، وقبل سورة الشمس. وذهب بعضهم إلى أنها مدنية. ويرجح الشيخ محمد الطّاهر ابن عاشور هذا بأنها تتضمن إحياء ليلة القدر، كان ذلك بعد فرض الصّيام في شهر رمضان بعد الهجرة. وبنوا على ذلك جعل رتبتها بعد سورة المطففين، وقبل سورة البقرة. ورتبتها حسب ترتيب المصحف: السّابعة والتّسعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝

بيان معاني الألفاظ:

ليلة القدر: ليلة الشرف. أو ليلة تقدير الأمور وقضائها.

تنزل الملائكة: نزولهم بالبركات.

الرّوح: جبريل عليه السلام.

بيان المعنى الإجمالي :

نزول القرآن على قلب محمد أمر عظيم جدا تأثرت به البشرية من ذلك اليوم تأثرا متواصلا إلى يوم الدّين. ونظرا لخطر نزوله، ولتفرد ذلك بالقيمة العليا، عبر القرآن بنون العظمة والجلال عن إنزاله، وأن إنزاله كان لليلة القدر، والشرف. تميزت من بين ليالي الدّهر بإنزال القرآن فيها. وما الذي يعرفك بمقامها السّامي وخصائصها؟ فهي ليلة خير من ألف شهر. لا توجد في الألف ليلة القدر، يتعرض

فيها العباد إلى ثواب مضاعف، بحيث يكون قيامها أعظم ثوابا من قيام أكثر من أربع وثمانين سنة، وذلك فضل الله الكريم. هي موكب الخير والفضل: تتنزل الملائكة وجبريل بسبب إذن إلهي لهم بالتّنزل إلى أهل الأرض مصحوبين بالأوامر التي قدرها الله وقضاها من ذلك الظرف إلى مثله من العام القابل. هي سلام وبركة ومضاعفة لثواب القائمين فيها، يتواصل فضلها من غروب الشمس حتى طلوع الفجر، والفجر داخل فيها.

بيان المعنى العام:

1-إنا أنزلناه في ليلة القدر.

الضمير في قوله تعالى: أنزلناه، يعود على القرآن. وهو لم يتقدم له ذكر، شهادة له بالنباهة على أن كل ما ذكر ما يليق به يرتبط به لأنه حاضر في الذهن دائما. فهذا أول تنويه بالقرآن في مفتتح هذه السّورة. والتّنويه الثاني إسناد إنزاله إلى الله بنون العظمة إنا-أنزلناه. فاختص بالذات العلية وهو شرف آخر. وشرف ثالث أن الله تخير لإنزاله أفضل الأوقات، والأمكنة، والبشر، في ليلة لها من المزايا التي علمها الله وحده.

و إنزال القرآن يحتمل أوجها:

الأول: أنه أنزله من اللوح المحفوظ إلى الملك الموكل بتبليغ آياته في كل مناسبة في فترة تواصلت نيفا وعشرين سنة.

الثاني: أن إنزال أول آية منه مؤذنة بإنزال باقيه حسب التّحديد المسطر في علم الله.

الثالث : أنه لما كان كل جزء من القرآن يسمى قرآنا، وقد أنزلت هذه الآيات الخمس في ليلة القدر، فصح القول إنا أنزلناه أي القران المتمثل في الآيات الخمس.

في ليلة القدر: أفاد النّص أن أول اتصال بين الرّسول ﷺ وبين ملك الوحي كان ليلا. وعرف هذه الليلة باسم علم (ليلة القدر) عالية القيمة لها شرف وفضل على بقية الليالي. وهي ليلة من ليالي شهر رمضان.

2- وما أدراك ما ليلة القدر.

هذه الصّيغة تفيد التّفخيم والتّعظيم. وتقدمت لها نظائر في القران تكررت ثلاث عشرة مرة في القرآن. لتفيد أنه لا يبلغ إدراك مدخولها إلا بكشف من الله.

3- ليلة القدر خير من ألف شهر.

كما هو شأن القرآن أنه إذا عبر بقولـه "وما أدراك" يتبع بما يكشف عن المسؤول عنه. فأول ما كشفه أنها ليلة يتجاوز فضلها، ونفع العباد منها ألف شهر. والكثرة واضحة في النّص من ناحيتين:

أ-أن الألف لا يقصد منه الحصر في عدده، ولكن يقصد منه العدد الكثير، كقوله تعالى:(و إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)[1] وكقوله: (ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة)[2]

ب-قوله خير من ألف شهر فيه زيادة على الألف. ويفهم منه أن الألف شهر ليس فيها شهر ليلة القدر. وتفضيلها بسبب ما ينالـه العابدون فيها من وافر الأجر، وعظيم المثوبة. فإن الخيرية في الآية ليست بقوة الضياء، ولا بما يحدث فيها من أمور مادية، ولكن بقيمة ما يحصل فيها من فعل صالح نافع للفرد والجماعة الإسلامية، وما قدر من مضاعفة الجزاء عليه. فمن هذه النّاحية تتفاضل الأزمان والأمكنة. كما قدر سبحانه من فضل لشهر رمضان، وليوم عرفة، وللمسجد الحرام بمكة، ولمسجده ﷺ بالمدينة، وللمسجد الأقصى. وللثلث الأخير من الليل. والله ذو الفضل العظيم. فمن فضله جعل الأوقات الخاصة والأمكنة يتضاعف فيها ثواب العمل بما لا يحد.

4-تنزل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربهم من كل أمر.

كشف ثان لبعض خصائص ليلة القدر المنوه بها "و ما أدراك ما ليلة القدر" أي أن الملائكة، وجبريل عليه السلام، تتنزل في مثل تلكم الليلة كل عام يوافق ليلة نزول القرآن، أول ما أنزل على رسول الله ﷺ. وهذا من المغيبات التي تقصر مدارك البشر عن الإحساس به. وتنزل الملائكة والرّوح في هذا المقام يشير إلى ما يحملونه من خير للصالحين القائمين من هذه الأمة.

و لما كان ابتداء نزول القرآن قد تم في شهر رمضان لقوله تعالى:(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس)[3] فإن ليلة القدر الأولى كانت قطعا فيه. ثم اختلف أهل العلم في تحديدها. فذهب أبو حنيفة إلى أنها ليلة واحدة في عمر الزمن مضت، ولا تعاد. والمشهور الذي تضافرت عليه الأدلة أنها تتجدد. واختلفوا بين ليلة الرّابع عشر من رمضان، وليلة السّابع عشر، والليلة الفرد من العشر

---

[1]سورة الحج آية 47

[2] سورة البقرة اية 96

[3] سورة البقرة اية185

الأواخر. وأنها ليست في ليلة معينة مطـردة فـي كـل السّنين بـل هـي متنقلـة فـي الأعوام. ومن وقف على كلمة(سلام) يقول إن في ذلك إشـارة إلـى أنهـا ليلـة سـبع وعشرين، إذ هذه الكلمة هي السّابعة والعشـرون مـن كلمـات السّـورة. ونسـب هـذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما. ويـذكر الشـيخ محمـد الطّـاهر بـن عاشـور أنه حفظ من بعض معلميه ان محيي الدّين بن العربـي عينهـا ليلـة الجمعـة الفـرد فـي النّصف الثاني من شهر رمضان، ونسب إليه في ذلك قوله:

وضابطها بالقول ليلة جمعة *** توافيك بعد النّصف في ليلة وتر.

تنزّل الملائكة: هي ليلة مهرجان تتنزّل الملائكة بالبركات، والفضل، والخيرات.

بإذن ربهم.

يتنزل الملائكة بسبب الإذن الصّادر لهم بالتّنزّل. مصاحبين بمـا أذن لهـم بـه ربهـم مـن الفضل، والخير، والبركات.

من كل أمر.

يحتمل أن يكون المعنى تتنزل الملائكة من أجـل كـل أمـر قضـاه، وتعلـق بـه التّقـدير من تلك الليلة إلى مثلها في السّنة القادمة. ويحتمل أنهـا متعلقـة بسـلام أي سـلام مـن كل أمر مخوف.

5-سلام هي حتى مطلع الفجر.

إن نزول الملائكة في ليلـة القـدر هـو نـزول للسـلامة والخيـر، لا للعـذاب والشـر، فيشمل السّلام الغفران واسـتجابة الـدّعاء، ومضـاعفة الثـواب. ويطلـق السّـلام علـى التّحية، فيحي الملائكة العباد الطّـائعين تحيـة إكبـار لهـم، وتقـدير علـى مـا وفقـوا إليه فيها.و تستمر ليلة القدر حتى مطلع الفجـر. فـلا تنقضـي بركتهـا بطلـوع الفجـر. لأن الغاية بعد العطف بحتى داخلة، فهي تمتد بعد طلوع الفجر.

سـورة البينة

ذكروا لهذه السّورة سبعة أسماء-1- سورة البينة -2-سورة القيمة-3- سورة لم يكن الذين كفروا-4- سورة لم يكن 5- سورة البرية-6-سورة الانفكاك-7- سورة أهل الكتاب. وقد اختلف في كونها مكية أو مدنية. والظاهر أنها مدنية باعتبار أن العناية بمناقضة أهل الكتاب كان بالمدينة. رتبتها: الثامنة والتّسعون حسب ترتيب المصحف. وعدت:الحادية بعد المائة في ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة الطّلاق، وقبل سورة الحشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

منفكين: مقلعين عن منهجهم في العقيدة والعمل.

البيّنة: الحجة الواضحة.

يتلو: يقرأ قراءة مطابقة لأصل الكلام. لا تبديل فيه عما أوحي به.

الصّحف: ما يثبت عليه المتلو بالكتابة.

مطهرة: لا تضليل فيها ولا تحريف.

فيها: مثبت في الصّحف كتب، وهي ما أثبته القرآن من الكتب السّابقة.

قيّمة: على أبلغ ما يكون من الكمال.

الإخلاص: التّنقية مما لا يلائم.

الدّين: الطّاعة.

حنفاء: موحدين منحرفين عن جميع التّصورات المناقضة للتوحيد.

بيان المعنى الإجمالي :

صرح الكافرون بمحمد ﷺ، من أهل الكتاب وكذلك المشركون، صرحوا قبل إرساله أنهم متشبثون بما هم عليه من العقيدة والنّظام الاجتماعي، وأنهم لا يقلعون عنه: إلى أن تأتيهم الحجة البينة الواضحة المقنعة. تلكم الحجة البينة هي رسول من الله يتلو عليهم وحيا مأمور بإثباته في صحف مطهرة من الضلال والتّناقض، تتضمن تلكم الصّحف كتبا لها أرفع قيمة، تقوم على صلاح الفرد والمجتمع. وتصحح ما ورد في الكتب السّابقة. فهي مهيمنة عليها.

و لكن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا بعد أن جاءتهم البينة التي كانوا ينتظرونها. فمنهم من آمن بمحمد، ومنهم من كفر به، فكفر بالبينة بعد أن جاءته. ولا عذر لمن كفر. ذلك أن الإسلام ما أمرهم إلا بالإخلاص في العبادة لله، وأن يتمسكوا بالتّوحيد الذي جاء به إبراهيم الذي يدّعون أنهم على هداه، وأن يقيموا الصّلاة ويؤتوا الزكاة. وهذه الأركان الثلاثة هي دين الأمة القيمة التي كانوا ينتظرون ظهورها (**حتى تأتيهم البينة**).

بيان المعنى العام:

1←3: لم يكن الذين كفروا.... قيمة.

الآيات الثلاث تسجل ما كان المشركون، وأهل الكتاب، يعلنون أنهم مستمسكون به، ليبنى على ذلك توبيخهم على عدم الوفاء بما كانوا يجزمون به في الرّد على من يطلب منهم التّخلي عن معتقداتهم.

كان المشركون إذا دعاهم النّصارى للتنصر، أو اليهود للتهود، يرفضون الدّعوة محتجين: أنهم ما جاءهم من بشير ولا نذير يخاطبهم بشريعة، يتبعونه ويعملون بما يأمرهم به، وأنهم سيتركون شركهم يوم يأتيهم رسول منهم. قال تعالى:(**وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه لعلكم ترحمون* أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين* أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم**)[1].

و كان أهل الكتاب يذكرون أنهم سيؤمنون بالرّسول الذي سيظهر وسينتصرون به. قال تعالى:(**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرّسل أن**

[1] سورة المائدة الآيات 155←157

تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير)[1].

فالآية تسجل ما كان يصدر عن الفريقين قبل أن يكرم الله محمدا ﷺ بالرّسالة. أعلنوا تصميمهم القوي على المضي على ما هم عليه إلى أن تأتيهم البينة. يدل على قوة تصميمهم كلمة (منفكين) أي إن ما هم عليه قد تقرر في بواطنهم، واختلط بعقولهم ومشاعرهم يجلبهم إليه، وهم منجذبون إليه. فالتّخلص منه هو انفكاك يبلغ الأعماق ويتابع الفروع.

و **البينة**: يقصد منها الآية البينة، والدليل الذي ينفذ إلى العقول فيحمي كل ما يخالفه. هو من القوة والوضوح بدرجة أنه لا يخالطه تردد ولا احتمال. ولا يقصد بها في نظري الآية التي يرددها أحبارهم ورهبناهم، لأنهم قد بدلوا وغيروا وأضافوا إلى نصوص كتبهم ما اخترعوه، مما يبقي على مقامهم وتأثيرهم. كما سجل القرآن على يهود في قوله تعالى: (الذين قالو إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى لا يأتينا بقربان تأكله النار)[2] وما عهد الله لهم بذلك. وما أتى أنبياء بني اسرائيل بهذا الذي زعموا. والبينة إذن قد جاءتهم، فإن ما تحلى به محمد من الكمالات التي لا يمكن أن تجمع في شخص إلا أن يكون ذلك دلالة على أنه منتخب من رب العباد ليبلغ رسالته، خاصة مع الظروف التي نشأ فيها في وسط جاهلي، يتيما، وأميا. وما صحبه من القرآن المعجز، وما تحقق لرسالته من قوة الانتشار في زمن وجيز. هذه كلها تتساند فيما بينها لتكون بينة واضحة على صدقه.

رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة.

البينة هي رسول عظيم مبعوث من الله. يقرأ عليهم كلاما وحيا منزلا عليه من الله، بما تفيده كلمة التّلاوة من إعادة للكلام بدون زيادة ولا نقصان.

والصّحف المطهرة. الصّحف لا تتلى، وإنما يتلى ما تضمنته وما سطر فيها. وفي ذلك إشارة إلى عزة القرآن وشدة الاهتمام به، وأن الرّسول ﷺ مأمور بأن يعمل على تثبيته في الصّحف المواد التي تتخذ لتسجيل النّصوص. وهي مطهرة بينة لا تضليل فيها ولا اختلاف. وفي ذلك تعريض بصحف التّوراة والإنجيل التي كانت

---

[1] سورة المائدة اية19

[2] سورة ال عمران اية 183

رائجة بين أيدي اليهود والنّصارى، هي مغايرة لصحفهم المنزلة التي لم تحتفظ بصورتها الأصلية.

فيها كتب قيمة

تتضمن هذه الصّحف كتبا لها أرفع قيمة تنطق بالحق، والعدل، والصّلاح الفردي والاجتماعي، كما تتضمن كتبا من التّوراة والإنجيل هي قيمة عليها مصلحة لما فيهما من تحريف وتزيد.

4-وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البيّنة

يقول الشيخ محمد الطّاهر ابن عاشور: وقد أطبقت كلمات المفسرين على أن معنى قوله تعالى: وما تفرق الذين أوتوا الكتاب... أنهم ما تفرقوا عن اتباع الإسلام أي تباعدوا عنه إلا من بعد ما جاء محمد ﷺ. وتأويل التّفرق بالتّباعد صرف عن ظاهرة أشكل به عليهم وجه تخصيص أهل الكتاب. إذ التّباعد حاصل منهم ومن المشركين.

واستثنى الفخر الرّازي الذي ألمع إلى تفسير آخر لا يلتئم مع ما ذكره أولا. ورأى الشيخ ابن عاشور: أن المقصود بأهل الكتاب اليهود فقط، وأن البينة في الآية هي بينة عيسى عليه السلام، الذي تفرق اليهود في موقفهم من رسالته. وأن الآية تشير إلى مواقف اليهود الواحدة من جميع المرسلين، فقبل تكذيبهم لك كذبوا عيسى عليه السلام. والذي يترجح عندي أن المراد بأهل الكتاب اليهود والنّصارى، إذ لا وجه لتخصيص أهل الكتاب باليهود، لأن شأن القرآن عندما يقصد اليهود يعبر عنهم باليهود وبالذين هادوا. ويفهم من الآية أن أهل الكتاب اليهود والنّصارى معا، تفرقوا بعد ما جاءتهم رسالة محمد ﷺ، فمنهم من طرح التّعصب، ونظر في البينة فآمن، ومنهم من واصل التّعصب الذي كان عليه قبل البينة فواصل تمسكه بالكفر. وهذه هي الصّورة الحقيقية التي انتهى إليها أمر أهل الكتاب بعد ما بينه لهم رسول الله ﷺ. وتكون هذه الآية توبيخا لمن واصل كفره، خاصة وأن بعضهم قد آمن. وهذا ما يشير له قوله تعالى: (و لو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر)[1] ويتأكد هذا المفهوم في الآية التّالية.

[1] سورة البقرة اية 253

5-و ما أمروا إلا ليعبدوا الله... القيمة:

عجب للمتصلبين في الكفر من أهل الكتاب!

ذلك أن ما أنزل عليهم، وأمروا به، وطبقوه مع رسلهم، يقوم على دعائهم:

أ-عبادة الله وحده، عبادة منقاة من كل شائبة شرك، متجهة إليه وحده، يستحضر العابد صلته بمعبوده. معبرين عن الطّاعة الخالصة، والخضوع الكامل لله.

ب- **حنفاء** مؤكد لقوله **مخلصين له الدّين**. لأن الحنيفية هي الدّين الذي يرفض كل الأديان المخالفة له، وينفرد بمنهجه في العقيدة. وهو دين إبراهيم. تكرر التّنصيص عليه سبع مرات في القرآن. قال تعالى: **(بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)**[1].

ج- التّقرب إلى الله **بالصّلاة والزكاة**. وهما مفروضان في التّوراة، وعلى أتباع عيسى، لأن ما جاء به عيسى مواصلة لما جاء في التّوراة في الأصول.

وذلك دين القيمة. ذلك المجموع من عبادة الله بإخلاص حنفاء يؤدون الصّلاة والزكاة، هو دين الأمة القيمة المستقيمة على الحق أكمل استقامة. فمن تعصبهم ضد الحق، ومن اعتمادهم على ما تدفعه إليه عواطفهم، وغلق عقولهم، واصل من واصل منهم كفرهم بما أنزل إليك. صرحوا بأنهم ينتظرون البينة، ولكن الفريق الغالب فيهم تنكروا للبينة بعد أن جاءتهم. وإيمان من آمن منهم يقوم دليلا على أن شريعتك هي البينة، والمنهج المستقيم المتفق في أصوله مع شرائعهم، ومكمل لها. ومنقّ لها مما شابها من التّحريف والتّبديل.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

البرية: البشر.

---

[1] سورة البقرة آية 135

بيان المعنى الإجمالي :

أشارت الآية السابقة إلى تفرق الذين أوتـوا الكتـاب، بعـد أن جـاءتهم البينـة، إلـى فرقة كافرة، وأخرى مؤمنة حسبما يفهم من الـنّص. اهـتم هـذا المقطـع ببيـان جـزاء كل فريق.

فأما الذين كفروا من أهل الكتاب، ومعهم المشـركون الصّـامدون علـى عبـادة الأوثـان والشرك بالله، فهم عند الله وفي الواقع شر البشـر. وأن مـآلهم نـار جهـنم لا يخرجـون منها في العذاب الأبدي. وأما الذين آمنوا بمحمـد وصـدقوا بمـا جـاء بـه مـن العقيـدة والتّشريع، وعملوا العمل الصّالح بـذواتهم، وبالجماعـة، وبـالكون، فـإنهم خيـر البشـر وأسماهم. وسيلقون جزاءهم عنـد ربهـم الإقامـة الدّائمـة فـي جنـات تتخللهـا الأنهـار الجارية. وفوق ذلك يفـوزون بشـعورهم أن الله راض عـنهم. وبهـذا يكونـون علـى أتم الرّضا بما نالهم، ولا يطمحون إلى شيء آخـر. ذلـك التّكـريم يملكـه الـذي خـاف مقام ربه. وقد كانوا في حياتهم الدّنيا حذرين من الوقوع فيما لا يرضى مولاهم.

بيان المعنى العام:

6- إن الذين كفروا من أهل الكتاب....شر البرية:

يواصل القرآن بيان النّهاية للفريقين.

الفريق الأول: **الذين كفروا** بمحمد مـن أهـل الكتـاب، وأمثـالهم مـن المشـركين، بكـل تأكيد نهايتهم واحدة يلقون جزاءهم يوم القيامة فـي نـار جهـنم، جـزاء يتواصـل إلـى أبد الأبدين ولا ينقطع. ونتيجة لكفرهم، ورفضهم الإذعان للحـق بعـد مـا تبـين، فـإنهم يقوّمون على أنهم أشد النّاس شـرا، فـارغون مـن الخيـر. فأهـل الكتـاب قـد جـاء كتابهم يبشرهم بدين الإسلام، ويحثُّهم على اتباعه فهيـأهم للخيـر، فتنكـروا لمـا جـاءهم به دينهم وتنكروا للبينة الواضحة في رسـول الله ﷺ. وأمـا مشـركو مكـة فـإنهم كـانوا يعتزون بأنهم على ملة أبيهم إبراهيم، التـي حرفوهـا ونقضـوها بعبـادة الأصـنام. فلمـا جاءتهم البينة التي توقظهم إلى الخلـل الـذي فـي عقيـدتهم، وتمكـن انتسـابهم إلـى إبراهيم، وتدعوهم إلى التّأمل في الكتـاب الـذي تحـداهم للإتيـان بسـورة مـن مثلـه فعجزوا، واصلوا كفرهم وعبادة الأصنام، فهم بذلك شر النّاس.

7- إن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات.....ذلك لمن خشي ربه.

الفريق الثاني: **الذين آمنوا** بما جاءتهم بـه رسـلهم فـآمنوا بمحمـد وصـدقوا بالبينـة، وتحقق إيمانهم عمليـا بمراقبـة الله فيمـا يفعلـون ويتركـون. فكانـت أعمـالهم أعمـالا

صالحة لأنفسهم، وللبشرية، وللكون. إنهم في الجهة المعاكسة لجهة الكافرين، ومقامهم على نقيض مقامهم. هم بشهادة الله خير النّاس.

ثم صرحت الآية بما أعد له ربهم من الجزاء، فأثبت:

أولا أنه جزاء عزيز، هو عند ربهم الذي يواصل رعايتهم، وتيسير الخير لهم.

و ثانيا في جنات ينتشر فيها الخصب، نضرة كأشد ما يكون الجمال والرّونق. تتخللها. الأنهار. فلا مكان للجدب فيها. يقيمون فيها إقامة أبدية لا يلحقها انقطاع، خالدين فيها.

و ثالثا: أن آمالهم تحققت بصفة لا يحسون معها بنقص، ولا تتعلق نفوسهم بمفقود، حلت الطّمأنينة الرّاضية، نالوا أعز مرغوب فيه: أن الله راض عنهم. وهي مرتبة مبينة على محو كل ما وقعوا فيه عن تقصير أو قصور، فكانوا بهذا الرّضا بمستوى الكمال المطلق الذي لا يُنال بالعمل، وإنّما بفضل الله الذي يؤتيه من يشاء. ولا شك أن جزاءهم الذي تجاوز قيمة أعمالهم، من فضله، يملأ نفوسهم رضا. روى البخاري بسنده إلى أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة يقولون لبيك ربنا وسعديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحد من خلقك ! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا[1].

ذلك الفوز العظيم، والأجر الكبير، والنّعيم المقيم. هو جزاء من حلت خشية الله ربه في مشاعره. فهو على وجل من التّقصير والوقوع فيما لا يرضاه مولاه.

[1] اللؤلؤ والمرجان ج 1702

سورة الزلزلة

هذا هو أحد أسمائها. كما سميت[إذا زلزلت]. أخرج التّرمذي بسنده إلى أنس بن مالك ﷺ مرفوعا: إذا زلزلت تعدل نصف القرآن. وسميت في كثير من المصاحف وكتب التّفسير: سورة الزلزال. ورتبتها حسب المصحف: التّاسعة والتّسعون.

و اختلف في كونها مكية أو مدنية. ورتبتها على أنها مدنية: الرّابعة والتّسعون. نزلت بعد سورة النّساء وقبل سورة الحديد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۞

بيان معاني الألفاظ:

زلزلت: حركت تحريكا شديدا هز كل جزء منها.

أثقالها: جمع ثقل، ما حواه بطنها مما هو معروف وغير معروف.

يومئذ: في الوقت الذي تحدث فيه الزلازل.

أوحى لها: أمرها فأطاعت.

يصدر النّاس: يخرجون من مكان اجتماعهم.

أشتاتا: متفرقين.

مثقال: ما يقدر به الوزن، زنة.

الذّرة: النّملة الصّغيرة في أول وجودها. والذرة أيضا ما يرى يتطاير في الحزام الضوئي الدّاخل في الغرفة.

بيان المعنى الإجمالي :

يحشر البشر للجزاء في هذا الظرف المفزع المهول. عندما تزلزل الأرض الزلزال العنيف المنبعث من قلبها، فيرمي بكل ما حوته من أثقال المعادن،

والصخور، إلى ظاهرها. ويضطرب الإنسان فزعا من هول ما يرى. وتأخذه الحيرة، ويسال ما للأرض قد حدث فيها مالم يحدث من قبل؟ في هذا اليوم تحدث الأرض عما عمل الإنسان على ظهرها، فينطقها ربها بما لا يجد الإنسان سبيلا معه إلى النكران. وذلك بسبب أن الله أوحى لها ما تنفذ به ما أراده منها. في هذا اليوم يصدر البشر جميعا من أول يوم خلق فيه البشر إلى يوم الانفجار. يخرجون مشتتين، مسرعين، إلى الداعي الذي دعاهم للخروج من قبورهم. ليرى كل فرد جزاء عمله. وماذا يرى؟

من عمل عملا حسنا يجد ثواب عمله، وإن كان عملا صغيرا، ما كان يعطي له بالا يوم قام به.

و كذلك من عمل سوءا يجد جزاء عمله، ولو كان تافها لم يقدر عاقبته لتفاهته.

بيان المعنى العام،

1-إذا زلزلت الأرض زلزالها،

يحشر النّاس فيجازون، في هذا الظرف المفزع. هذا الظرف الذي يحدث فيه ما قدره الله ونفذه:

أ-تهتز فيه الأرض اهتزازا عنيفا كأشد ما يكون العنف والقوة. وعبر عن قوة الزلزال بقوله: زلزالها. الزلزال الذي يؤثر في كل جزء من أجزائها فيبلغ غاية قوته. كما تقول: أكرم محمد إكرامه، أي الإكرام الذي يناسب مقامه، فلا تغفل عن أي جزئية من جزئيات الإكرام الذي هو أهل له. وأما لو قلت: أكرم محمد إكراما فإنه لا يدل إلا على التّأكيد على الإكرام. فالأول أبلغ.

2-و أخرجت الأرض أثقالها،

(ب) تنفجر الأرض فتتشقق، كالرّمانة التي وقعت على الصّخرة من أعلى شجرتها. ويخرج ما في باطنها، فيبرز على سطحها. قوة عظيمة هائلة انفجرت من القلب فدفعت الأثقال التي كانت في الباطن من المعادن، والصّخور، والمياه، وما لا يعلمه إلا الله، دفعتها إلى السّطح فتناثرت.

3-و قال الإنسان مالها،

(ج) هذه الآية تكشف تأثير الزلزلة العظمى في الإنسان، والسّائل هو الإنسان الكافر، لأن المؤمن بما علمه من الوحي يعرف أن السّاعة ستأتي، وتحدث هذه الأحداث فهو لا يتساءل: مالها. وفهم بعضهم أن التّساؤل يصدر من جميع النّاس لشدة الذهول من الفزع عند ذلك. فيتساءل كل إنسان مالها زلزلت، وأخرجت

أثقالها التي كان لا يُخرج الإنسان شيئا قليلا منها إلا بعد جهد ، واستعانة بالآلات التي أحكم صنعها.

4- يومئذ تحدث أخبارها،

العجيبة التّالية: أن الأرض تنطق بما وقع عليها من خير أو شر. أخرج التّرمذي بسنده إلى أبي هريرة قال: (قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذ تحدث أخبارها) قال: أتدرون ما أخبارها؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها. تقول: عمل يوم كذا كذا. فهذه أخبارها)[1].

5- بأن ربك أوحى لها...

هذا التّحديث تم بسبب أن الله أوحى إلى الأرض أن تحدث بأخبارها. ووَحْيُ الله إلى الأرض أمر التّكوين أي أوجد فيها من المقدمات والأسباب ما أخرجت به أثقالها. فيعلم النّاظر في الأحداث أن الله هو الآذن بما تم. أو إن الله أذن لها أن تخبر عما وقع عليها. نظير قوله تعال: (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء)[2].

6- يومئذ يصدر النّاس أشتاتا ليروا أعمالهم،

في ذلك اليوم يصدر النّاس من موقفهم إلى مآلهم المقدر لهم حسب أعمالهم وما قدموه في الدّنيا. يصدرون متفرقين بعضهم يسير إلى الكرامة وحسن الجزاء، وبعضهم إلى جهنم وسوء المصير. لتبرز النّهاية فيرى كل فرد عمله وجزاءه. ويصح أن تفهم الآية على أن الرّؤية بصرية، ليروا منازل جزائهم. وأن تكون بمعنى العلم ليعلموا جزاء أعمالهم.

7-8- فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره.... يره،

ختمت الآية السّابقة بقوله تعالى:[ليروا أعمالهم] فصرحت الآيتان عما يراه كل فريق من هذه الأشتات المنبعثة من قبورها إلى المحشر من يوم خلق الله البشر إلى يوم القيامة.

المرجع هو العدل الإلهي، كما قال تعالى: (لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)[3] أحصى الله لكل إنسان ما عمل من خير، وما عمل من شر، وأعطى لكل عمل

---

[1] ج3ح2429

[2] سورة فصلت اية21

[3] سورة غافر اية17

قيمته. فلا يهمل التافه الصغير من الأعمال الطيبة، ولا من الأعمال الخبيثة. الكل مدون تدوينا دقيقا. والآية الأولى ترغب في الإقبال على العمل الصالح، وتربي المؤمن على فعل الخير ولو كان بسيطا في نظره، أو لا خطر له. سواء أكان بالكلمة، أو بالفعل المادي، أو الأدبي. فالمؤمن أليف الصلاح يقدر الخير ويعمل به، ويحث عليه، ويعين عليه.

والآية الثانية ترهب من الشر ولو كان حقيرا. فقد يخسر الإنسان عاقبته لعمل شر استهان به. إذ الشر شر يتعين الابتعاد عنه، واستئصال جذوره ولو كانت صغيرة تافهة. وهو كالسم الذي يهدم الجثة العظيمة القوية. والشيطان لا يجابه من يوسوس له بعظائم الأمور، ولكنه يدخل جرثومة الإثم والفساد بمحقرات الأمور لتتكاثر وتنحرف بالمفتون عن الصراط المستقيم.

و قد نص على هذا المفهوم قوله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[1]

و في الخاتمة الآيتين (يره) تجسيم بالمعنى وبالجرس للجزاء.

[1] سورة الانبياء أي 47

سورة العاديات

بهذا سميت في كثير من المصاحف، وكتب التفسير. وسميت في بعضها (سورة والعاديات) بإثبات الواو. على الحكاية لنص الآية.
واختلف في كونها مكية أو مدنية. ورتبها حسب ترتيب المصحف: المائة. وحسب ترتيب النّزول: الرّابعة عشرة، على اعتبار أنها مكية. نزلت بعد سورة العصر، وقبل سورة الكوثر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

العاديات: الخيل الجارية.
ضبحا: صوت أنفاس الخيل المكتومة عند عدوها.
قدحا: الشرر البادي عند احتكاك جسم بآخر.
أثرن: أصعدن.
نقعا: غبارا.
كنود: عظيم الكفران للنعمة.
لشهيد: لمقر.
الخير: المال.
شديد: بخيل.
بعثر: قلبت القبور فخرج الذين فيها أحياء.
حصل: جمع وأحصى.
لخبير: عالم العلم الدقيق ليقع جزاؤهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بخيل الغزاة وهي تعدو نشيطة، فنسمع أنفاسها المكظومة في باطنها لقوتها، وسرعة جريها. وأقسم بها والشرر يتطاير من سنابكها، وأقسم بها وهي قد أسعدت الفرسان ببلوغهم وسط الأعداء مع الصّباح الباكر فتمت مباغتتهم. وزاد الوصف وضوحا بأنها أثارت الغبار لسرعة حركتها فعلا القوم. وقد بلغوا قلب الأعداء وتوسطوا في منازلهم. أقسم بذلك مثبتا أن من طبع الإنسان الكفر بالنعم، وأنه بأفعاله وما يصدر عنه يشهد على نفسه بذلك. وأنه بخيل بماله أشد البخل لا يسهم للمحاويج ما يرفع عنهم الحاجة والخصاصة.

ما هذه الغفلة التي تمكنت منه، أفلا يعلم أن الجزاء ثابت لا شك فيه، يوم تبعثر القبور فيخرج أصحابها منها أحياء للحساب. وإن ربهم الذي تولاهم في حياتهم عليم العلم الكامل بما صدر عنهم، عليم بظواهرهم وبواطنهم، ليجزيهم عنها الجزاء العادل.

بيان المعنى العام:

1 -3: و العاديات ضبحا.. صبحا:

افتتحت الآية بأقسام ثلاثة، كلها أوصاف. ولذا اختلف المتأولون في تقدير الموصوف.

الرّأي الأول: الله أقسم بالعاديات ضبحا، أي الخيل في حال عدوها الشديد حاملة للغزاة. فهي تعدو وتسمع أنفاسها المكتومة في صدورها. وحسب تجربتي فإن الضبح لا يتحقق إلا إذا كانت الخيل قوية.

فالموريات قدحا. عطفت على الصّفة الأولى صفة ثانية، وهو الشرر المتطاير عند احتكاك الحجر بسنابك الخيل. إذا كانت مندفعة بسرعة.

فالمغيرات صبحا. عطف على الوصفين هذا الوصف الثالث مفيد أن راكبيها مهاجمون لا مدافعون، فهم يغيرون عند الصّباح على منازل العدو ليأخذوهم على غرة، وضوء الصّباح يهديهم في غزوهم ويسعدهم بالوضوح.

الرّأي الثاني: أن القسم كان بالإبل التي يركبها الحجيج وهي تعدو بهم من عرفة إلى المزدلفة، فتوري الحجارة الصّوان المتطايرة من مناسمها شرارات الاحتكاك السّريع. ومعنى المغيرات صبحا على هذا، سرعة الإبل في اندفاعها من مزدلفة إلى منى. وينسب هذا التّخريج إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

4- فأثرن به نقعا،

يتتابع الخيل مع سرعة عدوها تطاير الغبار الكثيف، وصعد إلى الجو. فالباء هي باء السّببية، أي بسبب عدو الخيل ثار الغبار عاليا. والمعنى لا يختلف سواء حملنا العاديات على الخيل الغازية، أو على الإبل في الحج.

5-فوسطن به جمعا،

فبلغن براكبيها وسط القوم المغْزُوِّين. أي إن الخيل لفراهتها وسرعتها، باغتت الأعداء، وبلغت قلب مجمعهم. وإن حملنا على الإبل يكون المعنى أنها بلغت جمعا: المزدلفة قبل أن تغير على منى.

و قوله: فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا، ليس مقسما بهما. بل هما من التّفصيلات التّابعة للإغارة. أو لإتمام مشهد الإبل يوم التّاسع والعاشر من ذي الحجة.

6- إن الانسان لربه لكنود،

تدور كلمة كنود حول معان باختلاف اللغات، تدل على نذالة صاحبها، فهي في لغة مضر وربيعة بمعنى الكفر بالنّعمة. وفي لغة كنانة بمعنى البخيل، وفي لغة كندة وحضر موت: العاصي.

هذا هو المقسم عليه، تتابعت الأقسام، وأكد المقسم عليه ليدل ذلك على تأصل هذا الخلق في بني الإنسان، حتى يتيقظ لمقاومة دواعيه. ذلك أن الإنسان كثيرا ما يغفل عن شكر النّعمة، أو يستعملها في غير ما خلقت له، كالقوة الجسمية، والحواس، وتدبير الشر لغيره. أو ينسب النّعمة كذبا لنفسه، او يكفرها. واللام في لنعمة ربه مقومة لربط كنود بكلمة ربه. وفي التّعبير بربه إيماء لتوبيخه على مقابلة الرّعاية المتواصلة بكفران النّعمة.

7-وأنه على ذلك لشهيد،

الضمير يعود إلى الإنسان، أي إنه رغم كفره بالنّعم المتكرر، هو يشهد على نفسه بأنه غير قائم بما يجب عليه نحو ربه. يعني أن فطرة الإنسان تجعله مدركا لانحرافه هذا، فأخلاقه وأفعاله تشهد عليه. ويحتمل أن يكون لفظ شهيد معناه عليم، وهو قريب من المعنى الأول، أي هو عالم بأنه غير قائم بما يجب لربه من الاعتراف بالنّعم. وإذا أعدنا الضمير في كلمة[إنه] على الله تكون الآية تتضمن أيضا توبيخا للإنسان لأن الله عليم بتقصيره، وتحذيرا من الجزاء.

8- وإنه لحب الخير لشديد،

و إن الإنسان لأجل حبه للمال ليبخل بما رزق، ولا يواسي به المحاويج والمستضعفين. وخلق الشح لا يجتمع مع الشهامة والعزة. فلذلك ترى البخيل بماله فاقدا للأنفة من أجل التحصيل عليه، ولا يثور للذل يصيبه.

9- أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور،

استفهام إنكاري مشوب بالتوبيخ على مواقفه من كونه جاحدا لنعم ربه عليه، وشدة حبه للمال حبا يحرمه من نبل العطاء وفضل الجود. أهو جاهل انتفى العلم عنه بما ينتظره. ومتعلق العلم هو ما أعد للمنفصلين عن الله من سوء العذاب والمهانة يوم القيامة.

ألا يعلم ما ينتظره من العذاب يوم تبعثر القبور، فتقذف ما فيها أحياء للبعث والحساب.

وحصل ما في الصدور. جمع، وأحصى، و ظهر، ما كان كامنا في الصدور. استعدادا للحساب الذي يجازي عن مثقال الذرة.

11-إن ربهم بهم يومئذ لخبير.

بكل تأكيد إن ربهم الذي توالت تربيته لهم، وإمداداهم بما أبقى عليهم حياتهم من الولادة إلى الموت، عالم العلم الدقيق بما صدر عنهم، في ظاهره وفي باطنه، العلم الذي يترتب عنه الجزاء.

سورة القارعة

هذا هو الاسم الوحيد الذي عرفت به في المصاحف وكتب التّفسير، والسّنة. وهي سورة مكية باتفاق. وهي السّورة الحادية بعد المائة حسب ترتيب المصحف. وعدت الثلاثين حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة قريش، وقبل سورة القيامة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

القارعة: أصل القرع ضرب جسم لآخر بشدة يحدث صوتا عنيفا.

الفراش: صغار الجراد عند خروجها من بيضتها.

العهن: الصّوف الملون.

المنفوش: المفرق شعراته إعداد لغزله.

عيشة: حياة.

راضية: يرضى عنها صاحبها

هاوية: الحفرة البعيدة القاع، لا ينجوا السّاقط فيها.

بيان المعنى الإجمالي :

القارعة حدث عظيم جُسّم كأنه صوت اصطدام عنيف. وهوله بالسّؤال عنه، وأنه لا يتأتى للإنسان تحديده بدقة لأنه من عالم الغيب. ثم كشفت السّورة عن بعض ما يحصل فيه. ترى في هذا اليوم ما لا يكاد يحصى من البشر من أول يوم خلقوا فيه، إلى يوم البعث، كأنهم لكثرتهم أرجال الجراد المنبثة في كل مكان. وترى الجبال وقد تفتت كأنها صوف ملون فرقت شعراته إعدادا لنسجه. وينقسم النّاس يومها إلى قسمين:

قسم سعيد، وهو الذي وزنت أعماله فكانت ثقيلة راجحة لما مثلته من خير. ينعم بالرّضا الكامل عن الوضع الذي هو فيه.

وقسم شقي، وهو الذي خفت موازينه فلا يوجد له من الخير ما له قيمة. وهذا القسم مآله الهلاك في الهاوية، والهاوية شيء غريب يتجاوز الوصف، هي نار بالغة حرارتها أشد ما يكون.

بيان المعنى العام،

1←3- القارعة ما القارعة و ما أدراك ما القارعة.

فاتحة تُحدِثُ في النّفس خوفا ورهبة، مشعرة أن الحدث أمر عظيم. فالقرع أصله الصّوت الذي يحدثه اصطدام عنيف بين جسمين. وتُوُسِّعَ في هذا المفهوم ليصبح دالا على الحدث وإن لم يكن له صوت كالدّاهية. وتضاعف التّخويف والتّهويل بتعقيب كلمة القارعة الأولى بالسّؤال عنها مما يشير إلى أنها أمر غير معروف، يتجاوز كل ما مر على التّجربة الإنسانية. وجمهور المفسرين حملوها على الحشر عندما يقوم النّاس من قبورهم إثر النّفخة الثانية. ثم زاد التّهويل حدة بقوله: وما أدراك ما القارعة. ويحقق بقوله: وما أدراك ما القارعة، ما أعلمك حقيقة القارعة أيها السّامع. لا أحد يعلمك بها لأنها ليست داخلة في علم الإنسان، بل هي من الغيب. وكلما بلغ الغموض حدا يتجاوز المعرفة الإنسانية، كلما زاد الخوف والتّهويل.

4-5-يوم يكون النّاس كالفراش...كالعهن المنفوش.

حسب التّرتيب الكلامي، يكون قوله هذا إجابة عن سؤال: وما أدراك ما القارعة. ولكن نظم الكلام جاء بذكر وقتها، ولكن لم يعين الوقت وإنما تحدث فقط عما يحصل فيه مما يضاعف تهويل هذا اليوم. وأبرز فيه ظاهرتين:

الظاهرة الأولى: أن النّاس يكونون من الكثرة والتّفاهة كفراخ الجراد عندما تخرج من البيض. وتفسير الفراش بصغار الجراد أحكم من تفسيرها بالفراش الذي يتطاير حول النّار ويسقط فيها. وذلك لأن النّاس يكونون كثرة كاثرة يوم القيامة يزحفون نحو المحشر اقدامهم على الأرض، غير متطايرين في الهواء. فتشبيههم بأرجال الجراد الزاحف أدق في التّصوير. وقد رأيت أرجال الجراد الزاحف وهي تغطي وجه الأرض يركب بعضها بعضا، وتسحق عجلات السّيارة ما تمر عليه منها، وفي لحظة يلتئم ويعود متداخلا بساطا واحدا.

الظاهرة الثانية: أن الجبال تفجر تفجيرا يفتت أجزاءها فتراها كالصوف الملون، والمفرق شعراته إعدادا لغزله.

6←7، فأما من ثقلت موازينه.

فصلت السورة أحوال هذه الكثرة الكاثرة من البشر التي هي كأرجال الجراد المبثوث المتفرق على وجه الأرض. وقسمتهم إلى قسمين:

القسم الأول : من ثقلت موازينه. وتوزن الأعمال يوم القيامة بما فيها من خير أو شر، بميزان لا يعلم كنهه إلا الله، وهو بالغ الدقة يعبر عن قيمة كل عمل، وعن قيمة مجموع الأعمال. عبر عمن كانت أعماله صالحة بأنها ثقيلة في الميزان، لأن الذي يوزن هو ماله قيمة وشرف. ثم حقق أنه سيكون في حياة سعيدة يشعر فيها بالرضا الكامل.

القسم الثاني : من كانت أعماله لا قيمة لها إما لسوئها، وإما لكونها صاحبها خالي القلب من الإيمان، فتكون أعماله حتى ما ظاهره الخير لا قيمة لها، قال تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)[1]. وعبر عن جزائه الخاسر بقوله: فأمه هاوية. هالك لا محالة. لأن الأسلوب العربي يعبر عن حال الفرد بحال أمه لشدة تعلقها به هي أشد سرورا منه بسروره، وأعمق حزنا بما يحزنه. كما يمكن أن تفهم الآية أن مقره ومآله الهاوية، على أنه يأوي إلى الهلاك كما يأوي الطفل إلى أمه.

10←11، وما أدراك ماهية نار حامية.

بني أسلوب هذه السورة على الترهيب والتخويف ليتخذ المخاطبون وقاية مما ينتظرهم إذا هم تراخوا إلى النعيم ونسوا صلتهم بالخالق. ما الذي أعلمك بحقيقة الهاوية، فهي مما لا يصل الإنسان إلى معرفته لكونه من الغيب. هي نار جهنم الحامية، شديدة الحرارة. ومراتب حرارة النار متفاوتة، كلما كانت أشد حرا كانت أشد إيلاما. أعاذنا الله وإياكم منها.

---

[1] سورة الفرقان آية 23

سورة التّكاثر

هذا هو الاسم الغالب عليها في المصاحف، وكتب التّفسير، والسّنة. وسميت في بعض المصاحف، وعند البخاري، سورة الهاكم.

وهي من السّور المكية على الرّاجح. وحسب ترتيب المصحف هي: الثانية بعد المائة. وحسب ترتيب النّزول عدت السّادسة عشرة، نزلت بعد سورة الكوثر، وقبل سورة الماعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

ألهاكم: شغلكم عما كان من حقّكم أن تشتغلوا به.

كلا : إبطال لما سبق وتهديد عليه.

النّعيم: هو ما يتلذذ به في الدّنيا مما ليس ملازما له.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السّورة بتوبيخ للكافرين الذين انحصر همهم في الجمع والاستكثار. وصحبهم ذلك إلى آخر لحظة من حياتهم عندما يوارون في قبورهم مواراة يعقبها الخروج للحساب. ثم زجرهم عن مواقفهم هذه التي لم تجعل في حسابها إلا الجمع والاستكثار، بأنهم سيعلمون عاقبة نهمهم هذا وما سيلقونه من عذاب. وأكد تحقق علمهم بتكريره. إنكم جاهلون بما يترصدكم، ولو كنتم تعلمون العلم اليقيني أنكم سترون الجحيم وتصلون نارها، لما واصلتم حياتكم على ما أنتم عليه. وفوق هذا ستحاسبون عن كل نعيم تنعمتم به. فتكاثركم لا يعطيكم الا مزيدا من العذاب إذ لم تشكروا المنعم، وأغفلتم الاعتراف بفضله.

بيان المعنى العام:

1←4: ألهاكم التكاثر... ثم كلا سوف تعلمون

شغلكم حب التّكاثر وتحصيل أكثر ما يمكن تحصيله مما تعلقت به رغباتكم المستجيبة لشهواتكم: كالأموال، والأولاد، والأتباع، لتفاخروا بها. إن النّهم لجمع أكثر قدْرٍ من متاع الحياة الدّنيا يُغشي القلب ويشغله، بحفظه وتنميته، عن العمل الصالح. ويترك الجماع وراءه ما زاد على حاجاته. أخرج مسلم بسنده إلى مطرف عن أبيه رضي الله عنهما قال: أتيت النّبي ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التّكاثر. قال: يقول ابن آدم مالى مالي. وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟)[1]

2- حتى زرتم المقابر.

صحبكم حب التّكاثر والجمع إلى آخر لحظة من حياتكم الدّنيا عندما توضعون في قبوركم. وعبر عنه بلفظ الزيارة إشارة إلى أن وضعهم في قبورهم هو إلى أجل يعقبه الخروج يوم البعث. هذا هو الظاهر من النّص.

و يحتمل أن يكون المراد حتى تفاخرتم بالأموات، وذهبتم إلى المقابر تعدون المدفونين فيها الذين كانت لهم منزلة رفيعة قبل الموت. والآية تسجل على هذا ما روى أن بني عبد مناف، وبني سهم، وهما فرعان من قريش، تفاخروا بكثرة السّادة والأشراف، أيهم كان أكثر عددا. فكثر بنو عبد مناف بني سهم. ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوا قبور السّادة. فكثر بنو سهم بثلاثة أبيات.

3- كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون.

زجر لهم عن التّكاثر، وإبطال لجعل الكثرة أمارة الفضل. وأعقب الزجر بلفظ [كلا] بتهديدهم على تعلقهم بالكثرة، أنكم ستعلمون العذاب الذي يحل بكم عندما تحلون في قبوركم، ثم كلا سوف تعلمون عند البعث أن ما أوعدكم به محمد حق وصدق.

5-كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم.

افتتحت الآية بكلمة [كلا] مرة ثالثة، مما يفيد أن القسوة قد طغت على قلوب المخاطبين، فهو يزجرهم للمرة الثالثة ليرتدعوا. وأعقب الزجر بكلمة[لو] دون أن يذكر لها جوابا إمعانا في التّخويف والتّهويل. فيكون مما يقدر ليتضح المقصود: لو تعلمون علم اليقين العلم الذي لا يدخله غموض، ولا يتبعه تساؤل، ولا يلحقه

[1] اكمال الاكمال ج 7 ص 285

تردد. عظيم وأهوال ما يترصدكم، لاستبان لكم شـنيع مـا أنـتم عليـه، ولبـادرتم لإنقـاذ أنفسكم من سوء المصير.

6-7- لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين.

استأنف الكلام بعد ما تتابع مـن التّهويـل والتّخويـف بأسـاليب تفعـل فـي الـنّفس مـن الرّدع ما تنزجر به عن مواصلة ماهي عليـه. فأكـد بـأبلغ تأكيـد أنهـم لتصـلبهم فـي الكفر سيعرضون على جهنم، ويرونها رؤيـة حقـا ، لا تصـورا، ولا تـتم الحقيقـة إلا بالوقوع فيها. فأكد نهايتهم إلى الجحـيم بقولـه: ثـم لترونهـا عـين اليقـين. الرّؤيـة التي هي اليقين الخالص. وأبلغ أنـواع اليقـين هـو مـا اجتمـع فيـه الإدراك الحسـي، والإدراك التّصوري.

7- ثم لتسألنّ يومئذ عن النّعيم.

و فوق ما تقدم من التّهويلات في السّورة على التّكـاثر والاشـتغال بـالجمع عـن النّظـر فيما جاءهم به الرّسول من الحق، فوق ذلك أنكـم تسـألون عمـا نلـتم مـن النّعـيم مـن الأطعمـة، والأزواج والسّـراري، والفخـر والرّيـاء، والتّغلـب، ومـا رأيتمـوه مـن المحاسن. يوم ترون الجحيم بكل تأكيد تسألون عـن النّعـيم الـذي لـم تقومـوا بواجـب شكره، الذي أول مراتبه الاعتراف بفضل الله الذي يسـره وخلقـه. فالنّـاس يسـألون عـن حظوظهم من النّعيم، من أين اكتسبوها، وما هو مـوقفهم مـن مسـديها بعـد أن حصـلوا عليها. ويكون السّـؤال بالنّسـبة للمـؤمنين الشـاكرين المـراعين للحـلال سـؤالا يعقبـه زيادة في الأجر، وتكون عاقبته لمن كفر واستكبر، مزيدا من العذاب في سقر.

سورة العصر

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التّفسير، والسّنة. وفي بعض كتب التّفسير، وفي صحيح البخاري [سورة والعصر] بإثبات العاطف.
وهي مكية عند الجمهور، وذكر قتادة، ومجاهد، ومقاتل، أنها مدنية.
و هي السّورة: الثالثة بعد المائة حسب ترتيب المصحف. وعدت: الثالثة عشرة حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد الانشراح وقبل سورة العاديات.
و هي إحدى سور ثلاث، هن أقصر سور القرآن: العصر، والكوثر، والنّصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣

بيان معاني الألفاظ:

خسر: الخسران وسوء الحال.

بيان المعنى الإجمالي :

يقسم القرآن بعصر الإسلام الذي تمت فيه هداية العالمين، أو بالزمن الذي يشمل الكون من بدايته إلى نهايته. على أن الخسران أحاط بالإنسان. خاسر لدنياه بالنّذالة، والخوف، وفساد الأخلاق، خاسر لآخرته بالعذاب الأليم في جهنم.
و استثنى القرآن من جنس البشر الهالك من جمع أربع صفات خيرة:
أولا: الإيمان بالله، وبمحمد، وبكل ما أنزله على محمد رسوله ﷺ، فطرد الشك عنه كما طرد التّعلق بغير الله. أخلص لربه في سره وعلانيته.
ثانيا: الحرص على أن يكون ما يفعله أو يتركه مستجيبا للمواصفات التي ضبطها الشرع الإسلامي صورة، وقصدا.
ثالثا: أن يكون مؤتلفا مع إخوانه على إظهار الحق، بالدّعوة إلى المعروف وتبيينه، والنّهي عن المنكر وتقبيحه.

رابعا: أن يأتلف مع إخوانه أيضا فيقوي بعضهم بعضهم عزائم بعض، على الصّبر بكسر شهوات النّفس، ومعاكسة ما يزينه الشيطان. وأن يصبروا على ملازمة طريق الهدى مستهينين بما يعترض طريقهم من الصّعاب.

بيان المعنى العام:

1-و العصر.

افتتحت السّورة بقسم هو العصر. والقسم به من أكثر الأقسام احتمالات في المراد منه. فيطلق العصر على الوقت المنحصر بين بلوغ ظل كل شيء مثله، وبين بلوغه مثليه. وبعد ذلك تصفر الشمس، وهو وقت العشي الذي يتلوه الغروب. ويطلق العصر على الصّلاة التي عين وقت إيقاعها وقت العصر. وهذه الصّلاة حث الشارع على المحافظة عليها. وهي الصّلاة الوسطى عند بعض العلماء كما جاء ذلك في قوله تعالى(حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى)[1]. و يطلق العصر على وقتي الغداة والعشي. قال الشاعر:

و امطله العصرين حتى يملني***و يرضى بنصف الدّين والأنف راغم

والعصر عن قتادة آخر ساعة من النّهار.

و يطلق العصر على مدة معلومة مرتبطة بجيل، أو ملك، أو نبي، أو دين، أو اختراع عجيب كعصر الذرة. ويكون المراد هنا عصر النّبي ﷺ، وهو أشرف العصور. وبهذا يكون القرآن قد أقسم بحياته ﷺ في قوله: (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون)[2] وأقسم بزمانه في هذه الآية. وأقسم بمكانه في قوله تعالى: (وأنت حل بهذا البلد)[3]

و يجوز أن يكون القسم بعصر الإسلام الذي ختم الله به هدايته للبشرية. من يوم تلقى النّبي ﷺ الوحي الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

و تتفق تلكم المحامل على أنها دلائل على حكمة الله وقدرته وتفرده بالتّصريف. وأقربها إلى المقسم عليه الاحتمال الأخير، إذا الإسلام هو الدّين الباقي الذي صحح العقيدة، وربط الإنسان بخالقه مع كمال التّنزيه، وأقام العلاقات البشرية على ما يمكن النّاس من بناء حضارة صالحة لا تسلط فيها بالقهر ولا إفساد للكون.

2-إن الإنسان لفي خسر.

---

[1] سورة البقرة، آية 237

[2] سورة الحجر اية72

[3] البلد، اية2

هذا هو المقسم عليه، وهو تعريف كاشف عن طبيعة الإنسان، وما تؤديه إليه هذه الطّبيعة. وهي التي راعاها الملائكة لما أعلمهم ربهم بأنه جاعل في الأرض خليفة، فالشهوة العارمة الكامنة فيه هي من القوة بدرجة أنها تغطي على عقله وروحه. وكلما أخذت القيادة خسر الإنسان آخرته، وخسر دنياه. لأنه بمقدار ما ينغمس في اتباع الشهوات بمقدار ما يتمكن منه القلق والخوف، وينفصل عن الرّضا النفسي والقناعة المطمئنة.

3- إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصّبر.

كما تبين في الآية أنه إذا فقد الإنسان التّوازن، فحكّمَ شهواته، وقمع دواعي الخير فيه أحاط به الخسران العاجل والآجل.

و لكن الإنسان يحصن نفسه من الخسران، ويتوجه بها إلى الرّبح والسّعادة إذا وفر أركان الاستقامة:

التي أولها الإيمان بتخليص نفسه من كل علاقات الشرك الظاهر والخفي. يربط نفسه بخالقه، ويوطن نفسه على التزام السّبيل الذي يرضيه. تهون في نفسه الدّنيا ومغرياتها، إذا بإيمانه يحصل له الاقتناع بأن متاعها إلى أجل محدود، في الإقبال عليه، ونسيان الرّب الكريم الضياع والخسران.

و التي ثانيها: العمل الصّالح في منطلقه، في النّيّة التي بها اندفع إلى الفعل، وفي الطّريقة التي أنجز بها ما عمل. العمل الذي لا يحدث ضررا لا لإخوانه في الإنسانية، ولا للكون في حيواناته وجماداته. بل يكون قصده وسعيه للخير وللنفع.

والتي ثالثها: أن يأتلف مع إخوانه في حب الحق الذي آمن به والخير الذي اعتقده، همه الذي تعلق به أشد التّعلق نشر الحق بالدّعوة إليه، وتبيينه بما يرسخه في النّفوس، وترويض من يحيط به على الكمالات.

و التي رابعها: تقوية عزيمة وعزائم إخوانه على المضي في سبيل الحق والهدى مستهينين بما يلقونه من إذاية أو مقاومة حتى ينتصر الحق، و يعلو. وليس الصّبر تهورا ولا عنفا، ولكن الصّبر قوة في النّفس تجعلها تستهين بما تلقاه من صعوبات ومن مكروه، ولا تتجاوز ذلك إلى إلحاق المكروه بالطّرف الآخر. والصّبر يقوي أنفة الإنسان، فلا يذل إذا قدر عليه رزقه. ولا يرتمي على إشباع هواه من المحرمات، بل يلجم نفسه عن الإثم وإن كانت الإثارة قوية.

روى الطّبراني بسنده إلى عبد الله بن الحصين الأنصاري (التّابعي)أنه قال: كان الرّجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر. أي تسليم الوداع.

سورة الهمزة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، ومعظم التّفاسير، وكتب السّنة. وفي بعض التّفاسير، وفي صحيح البخاري(سورة ويل لكل همزة) كما ذكر لها اسم ثالث(سورة الحطمة) رتبتها حسب ترتيب المصحف الرّابعة بعد المائة وحسب ترتيب النّزول عدت الثانية والثلاثين نزلت بعد سورة القيامة وقبل سورة المرسلات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

همزة: العياب لغيره بالإشارة،أو بالعين، أو بالشدق.

لمزة: كثير المواجهة بالعيب.

المال: مكاسب الإنسان المادية.

أخلده: طول أمله في البقاء فيحسب أن المال يبقيه حيا أبدا.

لينبذن: ليطرحن طرح التّوافه التي لا قيمة لها.

الحطمة: كما عرفها القرآن هي نار الله الموقدة.

الموقدة: التي يتجدد لهبها في كل لحظة.

تطلع: لها معرفة بما في القلوب.

موصدة: مغلقة لا يجدون منفذا يخرجون منه.

عمد: اسم جمع عمود.

ممددة: طويلة جدا.

بيان المعنى الإجمالي :

دعاء بالعذاب في نار جهنم لكل همزة، مـن خبثـت نفسـه فكـان همـه السّـخرية مـن المؤمنين، بلمـزهم بالإشـارة المؤذيـة، والغـض مـنهم، واغتيـابهم، يقـوم بـذلك فـي حضرتهم كما يواصله عند مغيبهم. الـذي همـه جمـع المـال والعكـوف عليـه، يحسُـبه ويعيد حسابه.

صورته صورة من يظن أن المال سـيطيل بقـاءه ويجعلـه خالـدا لا يمـوت. ليَنْزجـرْ عما وطن نفسه له، وليعلم أنه سيلقي ذليلا فـي الحطمـة، النّـار التـي يتجـدد توقـدها ولا تخمد. قدر الله فيها أنها تتعرف على قوة فساد قلـب مـن يلقـى فيهـا فتعذبـه عـذابا يتناسب مع فساده. إن هذه النّار لا منافذ فيها فيطمـع مـن أطبقـت عليـه فـي الخـروج منها. هم موثوقون بالسّلاسل إلى أعمدة طويلة، فلا مفر.

بيان المعنى العام:

1-<2: ويل لكل همزة لمزة.

افتتحت السّورة بالـدّعاء أو التّهديـد، المقصـود بـه المحاسـبة علـى تعـدي الهمـزة اللمزة، وعقابه بما يستحقه. والهمزة هـو الـذي يواجـه غيـره بالسّـخرية منـه، واتخـذ ذلـك عـادة لـه، بتضـخيم العيـوب، وتجسـيمها بالإشـارة بـالعين، أو بالشـدق، أو بالرّأس. واللمزة قريـب مـن الهمـزة. وفـرق بينهمـا الحسـن البصـري بـأن الهمـز بالحضور، واللمز بالمغيب. وذهب مقاتل إلى العكـس، وقـال ابـن أبـي نجـيح الهمـز باليد والعين، واللمز باللسان.

وذكروا أن السّورة نزلت فـي جماعـة مـن المشـركين، وطنـوا أنفسـهم علـى إذايـة المسلمين بسبهم ولمـزهم، واخـتلاق الأكاذيـب التـي تنـال مـن صـدقهم واسـتقامتهم. ومنهم الوليد بن المغيرة المخزومي، وأمية بـن خلـف، وأبـي بـن خلـف، وجميـل بـن معمر، والعاص بن وائل السّـهمي، وهـؤلاء مـن سـادة قـريش. والأسـود بـن عبـد يغوث، والأخنس بن شريق من سادة ثقيف. وكلهـم مـن أهـل الثـراء. وبمـا أن العبـرة بعموم اللفظ لا بخصـوص السّـبب، فـإن الويـل ينسـحب علـى كـل الـذين تخلقـوا بأخلاقهم وآذوا النّاس.

2-<3: الذي جمع مالا وعدده...أخلده.

تشنع هذه الآية بالذين عنوا بالهمز واللمز، إنهـم مـع ذلـك فـارغون مـن كـل معـاني النّبل، انحصر همهم في جمع الأموال، والعناية بحسـابها وعـدها، وذلـك مـن هيـامهم وبخلهم بهـا، ممـا يـدل علـى أنهـم لا يعرفـون معنـى لا للمواسـاة، ولا للبـذل، ولا

للشهامة. يصورهم القرآن في صورة من انكب على ما جمعه من مال يحسبه، ويعاود حسابه. حتى يظن به من شدة حرصه أنه يعتقد أن ماله سيضمن له الخلود والبقاء، ويقيه من الموت. وهي صورة تهكمية ساخرة.

4-7،كلا لينبذن في الحطمة...الأفئدة.

زجر لهذا اللئيم الهمزة اللمزة ليرتدع عن المضي في إذاية المؤمنين، وإبطال لما تضمنه موقفه من المال، هو مخطئ في تصوره، فالآجال محدودة لا يرخيها جمع المال مهما كثر. وبكل تأكيد ليطرحن ويلقى في الحطمة ذليلا، كما تطرح الأشياء التافهة التي لا قيمة لها.

و ما أدراك ما الحطمة؟

هذا مصطلح قرآني جديد، يترك في النفس أثرا غير واضح فيسأل القرآن كل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب: ما الذي أعلمك ما هي الحطمة؟ أنا أعلمك بحقيقتها، هي نار الله، التي رتب الله في طبيعتها من الإيلام والقوة ما لا يوجد في غيرها. إنها نار موقدة يتجدد لهيبها في كل لحظة، ولا تخمد أبدا. من عجائب أمرها: أنها خبيرة بما استقر في كل قلب من الكفر والفساد، مطلعة عليه، فتؤلمه على حسب ما قدم.

8-9، إنها عليهم موصدة.... ممددة.

تلكم النار الموقدة من خصائصها أيضا، أنها مغلقة عليهم، مسدودة لا منافذ لها. اليأس يضاعف عذابهم إذ لا يتوقعون مخرجا منها. وهم مع ذلك مشدودون إلى أعمدة طويلة جدا ثابتة، موثوقون فيها بالسلاسل.

سورة الفيل

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير، والسنة. ووقع تسميتها بسورة [ألم تر] عند بعضهم، وعند البخاري.

وهي سورة مكية باتفاق. وهي السورة الخامسة بعد المائة حسب ترتيب المصحف.

و عدت التاسعة عشرة حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة: قل يا أيها الكافرون، وقبل سورة: الفلق. وقيل قبل سورة قريش.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۞

بيان معاني الألفاظ:

تضليل: الخسار والهلاك.

أبابيل: جماعات متلاحقة.

الكيد: الاحتيال لإلحاق الضرر بالغير.

في تضليل: باطل التأثير، غير محقق لما قصد منه.

الكيد: الاحتيال لإلحاق الضرر بالطرف الآخر.

سجيل: من طين مطبوخ.

عصف: ورق الزرع.

بيان المعنى الإجمالي :

ألم تعلم بمعنى قد علمت قطعا ما صنعه ربك يا محمد بجيش أبرهة الذي قصد مكة لهدم البيت، وقد جهز جيشه العظيم بالفيلة التي لا عهد للعرب بها في القتال. والتي ترعب لضخامتها. لقد جعل ما احتالوا به من اتخاذ تلويث الفقيمي لكنيستهم ذريعة مبررة لهدم الكعبة. فعاد كيدهم هذا نكالا عليهم، ولم يؤثر شيئا مما قصدوا إليه. فهلك الجيش، وأرسل الله عليه في صباح اليوم الذي استعدوا فيه لاقتحام الحرم، سلط عليهم طيرا تتابع جماعات، وترميهم بحجارة من طين مطبوخ يحمل

ما مزق أجسادهم وعجل بموتهم. تـراهم صـرعى أذلاء كـورق الـزرع الـذي أكلتـه الأنعام وما تساقط منه داسته بأرجلها. يمثل المهانة والخسة والتلف.

بيان المعنى العام:

1-ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.

سؤال تقريري يقصد منه إثبات علمك **بفعل ربـك بأصـحاب الفيـل**. والمخاطـب النبـي ﷺ. وقد علمت يا محمد علما يقينيا كأنه مشـاهد تـراه رأي العـين، كيـف فعـل ربـك، الكيفية التي فعلها ربك في أصحاب الفيل. وذلـك لتـواتر الحـديث عـن تلكـم الواقعـة، وبقاء بعض آثارها الناطقة بما تم فيها. ومن بـديع التّعبيـر القرآنـي تعـريفهم **بأصـحاب الفيل**، لأنه لم يكن للعرب قبل هذه الواقعة تصور الاعتمـاد علـى الفيلـة فـي الحـرب. فكانت واقعة فريدة بآلة الحرب التي استخدمت فيهـا، وبالمـآل الـذي آل إليـه أصـحاب الفيل.

وملخص هذه الواقعة كما جاءت في كتـب السّيرة: أن أبرهـة أميـر الـيمن مـن قبـل النّجاشي ملك الحبشة بنى كنيسـة عظيمـة بـاليمن سـماها[القلـيس] أو [القُلّـيْس] وفـي رواية بتشديد اللام مفتوحة وسكون اليـاء، وأراد أن يحمـل العـرب علـى الحـج إليهـا بدل بيت الله الحرام. وروي أن رجلا كنانيا من بني فقـيم دخلهـا وأحـدث فيهـا: قضـى الحاجة البشرية، لينتشر خبر فعلته بـين العـرب فيحتقرونهـا. أبلغـوا الخبـر للنجاشـي، فعزم على هدم الكعبة، وسار إليها على فيل، واختلـف هـل كـان معـه فيلـة أخـرى أو كان الفيل الوحيد. ووصـل إلـى المُغَمّـس فنـزل فيـه (و هـو مكـان بـين مكـة والطّائف) و أرسل رسوله لأهـل مكـة يطلـب مـنهم أن يخاطـب رئيسـهم ليحـذرهم عاقبة القتال، إذ هم لا يقدرون في ظنه علـى المقاومـة. فجـاءه جـد النّبـي ﷺ عبـد المطلب، وكان رجلا مهيبا وسيما. فلم يُقصّـرْ أبرهـة فـي احترامـه. وعـرض عليـه أن يقدم له مطالبه. طلب عبـد المطلـب أن يـأذن أبرهـة بـرد مـائتي بعيـر كـان استولى عليها جنده. فقال أبرهة لترجمانـه: قـل لـه : لقـد أعجبتنـي حـين رأيتـك، ثم قد زهدت فيك لما كلمتني. تكلمني في مـائتي بعيـر أصـبتها لـك، وتتـرك بيتـا هـو دينك، ودين آبائك، وقد جئت لهدمه؟ ولا تكلمني فيه. قال لـه عبـد المطلـب: إنـي أنـا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنـع منـي ! قـال: أنـت وذاك. فـرد عليه إبله ورجع.

فلما أصبح أبرهة عبأ جيشه وركب فيلـه(محمـود) وفـي ذلـك الوقـت غطـى جيشـه أسراب من الطّير، أخذت ترجمهم بحجارة مـن سـجيل. وتفشّـى المـرض فـي الجـيش بسرعة عجيبة. وهلك معظمه، وأسرع المـرض أيضـا إلـى أبرهـة فقفـل راجعـا

إلى صنعاء، وهلك بها. وكفى الله أهل مكة أمر عدوهم. وكان ذلك في شهر فبراير سنة 670 من ميلاد المسيح ﷺ. وبعد خمسين يوما ولد المصطفى ﷺ بمكة. فعد ذلك إرهاصا، عام مولده أنقذ الله مكة من عدو كاشح وبعد أربعين سنة أنقذ الله مكة من الشرك ببعثته.

2- ألم يجعل كيدهم في تضليل.

بينت هذه الآية، الآية السابقة. فالفعل العجيب في جيش أبرهة صاحب الفيل (كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)، أنه أبطل كيده وانتهى إلى فشل ذريع: انتشر الموت في جيشه، وأجبر على الرّجوع إلى صنعاء مريضا، حيث قضى نحبه. عبر عن الهجوم بالكيد، والكيد هو التّدبير في خفاء بما يضر الطّرف الآخر. وهذا ما حصل من أبرهة. كان هدفه هدم الكعبة حتى يُحوّل العرب عنها إلى كنيسته التي أتقن صنعها. وفي ذلك غرض اقتصادي لما يرتبط بالحج من حركة تبادل، وسياحة. وغرض سياسي لتكون صنعاء مركز اللقاءات، ولينغرس في نفوس العرب تقديسها، والطّاعة تبعا لملكها. واتخذ تلويث الفقيمي لها تعلة لهدم الكعبة. فهو لم يبحث عن الجاني ليؤدبه، ويحمله نتائج ما صنع، ولكن أراد الاعتداء على مكة بهدم البيت وتخويف أهلها، وتفريغ عقيدة العرب من تقديسها. ليجني ما رتبه من الكيد. فانقلب كيده عليه وبالا مات جنده، ورجع خاسرا مريضا. فكان كيده أحاط به الضلال والضياع من جميع جوانبه.

3-4- وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

كيف جعل كيدهم في ضياع، وكيف أرسل عليهم طيرا تتابع جماعات جماعات. وفي ذلك إيقاظ لمتتبع القصة بأن قدرة الله غالبة. فجيش أبرهة اتخذ من الحيوانات أضخمها جثة، وأقواها على التّحمل لينفذ كيده، ولما تعلقت الإرادة الإلهية بحماية البيت وسحق الجيش، سلط عليه أخفّ الحيوانات وزنا، طيورا كما تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : إنها أشبه شيء بالخطاف. فأخذت ترميهم بطين مطبوخ من نوع الأجر، مشكل بكيفية، ومركب فيه نوع من الجراثيم التي تنفذ إلى الجسم فتهلكه. قالو إنها الجدري، وهو أول ظهوره في جزيرة العرب. والله أعلم.

5- فجعلهم كعصف مأكول.

هكذا تحول الجيش الجرار إلى صورة زرع دخلته النّعام فأكلته، وكسرت قصباته وداستها، فاختلط هشيما بالأرض جمع المهانة والخسة والتّلف.

سورة قريش

هذا هو الاسم المعروف به في المصاحف، وكتب التّفسير، والسّنة. وهي سورة مكية. وهي السّورة السّادسة بعد المائة حسب ترتيب المصحف. وعدت التّاسعة والعشرين حسب ترتيب النّزول نزلت بعد سورة التّين، وقبل سورة القارعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤

بيان معاني الالفاظ:

لإيلاف: لجعل قريش تألف الرّحلتين.

رحلة: سفرهم للتجارة إلى الشام وإلى اليمن.

بيان المعنى الإجمالي :

على أهل مكة أن يخلصوا في العبادة لرب البيت، وأن لا يشركوا به شيئا، وأن يقلعوا عن عبادة الأصنام. إنه حقيق بذلك فهو الذي يسر لهم رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصّيف إلى الشام، فكانوا بذلك واسطة التّجارة، نفقت أسواقهم، وظهر فيهم الثراء. تمكنوا من الاكتفاء الغذائي بما يجلب إليهم من القوت من اليمن، ومن الشام، ومن الحبشة. وتحقق لهم الأمن في الوقت الذي ما كانت تجد فيه أي قبيلة عربية ما يحميها في أنفسها، وفي أرزاقها.

بيان المعنى العام:

1←2: لإيلاف قريش... والصّيف.

تقدمت هذه الجملة في أول السّورة لتثير شوق السّامع لمعرفة بماذا تتعلق. وذكر الزبيدي: (والإيلاف في التّنزيل العزيز العهد والذمام. وشبه الإجازة بالخفارة، وأول من أخذها هاشم بن عبد مناف من ملك الشام. وتأويله أن قريشا كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع، ولا ضرع. آمنين في امتيارهم وتنقلاتهم شتاء وصيفا، والنّاس يتخطفون من حولهم. فإذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله،

فلا يتعرض لهم أحد)[1] ونظم السّورة من حيث المعنى: لتبعد قريش رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وذلك لإيلافهم رحلة الشتاء والصّيف.
فجعل قريش تألف رحلتي الشتاء والصّيف، وتأكد في ثاياها الرّبط بينهم وبين هاتين الرّحلتين. بتكرير إيلاف مرتين، وقريش كذلك باسمها ثم بالضمير[هم] المساوي لقريش. وما إيلافُهُم رحلتي الشتاء والصّيف، إلا لما تدران عليهم من الأرباح التّجارية، وللأمن على أنفسهم وأموالهم وهم يضربون في الصّحراء لا يعتدي عليهم أحد كما ذكره الزبيدي أعلاه.

وقريش هو فهر بن مالك، لقب بقريش تصغير قرش، يطلق على نوع من السّمك عنيف وقوي. وتناسلت من قريش بطون سكنت مكة. فسكان مكة هم القرشيون. وتميزوا بين العرب بأنهم القائمون على مناسك الحج وعلى الحرم، لهم مكانة رفيعة بين القبائل. كانوا يرحلون إلى اليمن في فصل الشتاء فيجلبون إلى مكةَ أنواعا من الحبوب، والثياب، والسّيوف اليمانية. ويرحلون في الصيف إلى الشام فيجلبون الحبوب، والتّمر، والزبيب، والثياب والسّيوف المشرفية. وشيء من التّحف. نفقت تجاربهم وأصبحت مختلف أنواع السّلع من الشمال والجنوب تعرض في أسواق مكة. واتم الله منته فأكرمهم ببعثة **رسول منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.**

3- فليعبدوا رب هذا البيت.

هذا الرّخاء الذي يسره لهم، والأمن الذي خصهم به سبب وجيه ليفردوا رب هذا البيت بالعبادة، ولا يشركوا به شيئا. إنه حقيق بالعبادة لأنه ربهم تولاهم بنعمه التي منها الإيلاف. وكذلك الكعبة البيت الحرام المقدس من جميع العرب. والذي اكتسبوا منه تقديرا خاصا.

4- الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

أردفت الآية التّذكير بنعم أخرى جليلة يسرها لهم رب البيت. نعمة الأمن الغذائي، ونعمة الأمن على الأنفس والأرزاق. ويتضاعف تقدير المنتين بالنظر إلى المعطيات التي تقتضي عكس ما هم عليه. فكونهم بواد غير ذي زرع يعرضهم للجوع، فأرضهم لا تنبت، وليس فيها ما يجلب إليها البشر ليتاجروا فيها، فليست هي على طريق القوافل، ولا يوجد فيها من المغريات ما يدعو النّاس للانتصاب بسلعهم في سوقها.

[1] تاج العروس ج 23 ص 31

و كونهم حضريين ليسوا من ذوي البأس، مع قلة عددهم بالنسبة لغيرهم، الأمر الذي يعرضهم لغارات القبائل التي شأنها في الجاهلية السطو والغارات على الغير.
ولكن نعمة الله عليهم وفضله أبدل جوعهم وقحالة أرضهم إلى وفر من الغداء يأتيهم من الرحلتين، ومن سفن الحبشة التي ترسو بميناء جدة محملة بالبر ومختلف منتوجات الطعام. وأبدل خوفهم أمنا بما ركز في نفوس العرب من احترام مكة وسكانها.

سورة الماعون

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التفسير، والسنة. ورويت لها خمسة أسماء أخرى. سورة (سورة أرأيت) وسورة (أرأيت الذي) وسورة (الدين) وسورة (التكذيب) وسورة(اليتيم).

و هي سورة مكية في قول الأكثر، وروي أنها مدنية، كما ذهب بعضهم إلى أن أولها مكي إلى قوله تعالى: المسكين. والباقي نزل بالمدينة.

و رتبتها حسب ترتيب المصحف: السابعة عشرة، وعلى القول بأنها مكية كلها أو بعضها. نزلت بعد سورة التكاثر، وقبل سورة الكافرون.

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

يدع: يدفع بعنف وقهر.

الحض: الحث بدعوتك غيرك إلى فعل ما.

المسكين: الفقير.

الماعون: تطلق على كل ما يساعد المحتاج كالمال، وأواني البيت، ونحو ذلك.

ساهون: تاركون عن عمد.

بيان المعنى الإجمالي :

هل عرفت الذي يكذب بيوم القيامة، بماذا يتميز من صفات الخسة؟ ذكر القرآن له ست صفات:

أولها: التكذيب بيوم القيامة الوصف الذي أفسد عقله وعلاقته بالمجتمع.

و ثانيها: أنه قاسي القلب فظ غليظ، فإذا اتصل به اليتيم نهره، وأغلظ معاملته.

و ثالثها: أنه لا يفكر في أمـر الجيـاع المحـاويج فهـو لا يحـض غيـره علـى البـذل إليهم فضلا أن يقوم هو بالعطاء.

و رابعها: أنه لا يقوم في باطنـه داعـي الاسـتجابة لإقامـة الصّـلاة، فهـو لاه عنهـا لا يتذكرها.

و خامسها: أنه إن قام بأدائها استحضـر نظـر النّـاس إليـه، دون أن يخشـع قلبـه ولا تسكن جوارحه.

و سادسها: أنه لئيم يمنع العون فيما تعارف النّاس علـى مسـاعدة بعضـهم لـبعض فيـه: كالخميره، والماء، والنّار، والمقص، والإبرة، وآلات الحفر والطّرق، ونحو ذلك.

بيان المعنى العام:

1-أرأيت الذ ي يكذب بالدّين.

تشهير بالجاحد للحق، المكذب بيوم الجزاء، النّـافي أن تكـون للبشـر حيـاة بعـد حيـاتهم الدّنيا فيها يحاسبون، ويجزون حسبما قدموا. إن الإنكـار مـن غيـر بينـة يـدل علـى أن صاحبه قد عطل فكره، واختـار سياسـة النّعامـة التـي تغمـس رأسـها فـي الرّمـل إذا طاردها الصّيادون وضـيقوا عليهـا. تحسـب أن ملاحقيهـا غيـر موجـودين لمـا كـان بصرها لا يقع عليهم. ومن العجب ادعاء هذا الصّـنف أنهـم حـرروا عقـولهم، والواقـع أنهم ضيقوا عليها. إذ الأدلة العقلية ثم النّقليـة تثبـت الحيـاة الآخـرة، ولكـنهم أهملوهـا. والآية تنطبق على كل مكذب بالحياة الآخـرة فـي عهـد الرّسـالة، وفيمـا يتلوهـا مـن العهود إلى يوم القيامة. وقيل : إن الآية نزلت في العـاص بـن وائـل السّـهمي، وقيـل في الوليد بن المغيرة، وقيل في أبي جهل. وهـؤلاء كـانوا مـن أشـد المشـركين كفـرا، وتكذيبا بالبعث، ومقاومة للإسلام. ومن المعلـوم أن العبـرة بعمـوم اللفـظ لا بخصـوص السّبب.

2-+3: فذلك الذي يدعُ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين.

إذا فرّغ الإنسان عقله من عقيدة البعث، كان الفساد والنّذالـة، والشـر، أقـرب إليـه مـن الصّلاح، والشهامة والخير. تطغى أنانيته، وتذوى إنسـانيته. ومـن ذلـك أنـه إذا قصـده اليتيم الفاقد للراعي الـذي يقـوم بشـؤونه ويـذود عنـه، والـذي مـن شـأن النّفـوس الكريمة أن تحن عليه أكثر من أترابه غير اليتامى. فإنـه لمـا كـان المكـذب بـالجزاء يقدر أعماله بميزان واحد هو منافعه العاجلة، فإنـك تـراه غلـيظ الطّبـع، يـدفع اليتـيم وينهره، فيضاعف انكسار نفسيته، وقـد يجعـل منـه ناقمـا علـى المجتمـع، معرضـا لمتنوع الانحرافات.

وموقف المنكر للبعث من الجياع المساكين نفس الموقف من اليتيم، فهو لا يلتفت إليهم، ولا يدعو أحدا لسد مسغبتهم. وإذا بخل بالدعوة إلى الخير، فإن حرمانهم من رفدة أعظم. وبهذه المواقف يتحلل المجتمع، وتشتد الكراهية بين طبقاته.

4←7، فويل للمصلين....و يمنعون الماعون.

إظهار لنقائص المكذب بالدين بصفة أوضح، بالعطف وبتغيير الأسلوب، وزجره بالإتيان بلفظ [الويل] والتنصيص على صفات ثلاثة خسيسة تضم للصفات الثلاثة الأولى.

الصفة الأولى بعد الفصل والرابعة في التعداد: المكذب بيوم الدين لا يؤدي الصلاة، ومن البديهي أنه لا يصلي، ولكن صدر الكلام في صورة التهكم به "للمصلين". الصفة الثانية والخامسة: أنه لا يحس بالنداء في باطنه للوقوف بين يدي ربه، فهو لاه عن ذلك، لا يتذكر الصلاة، ولا يرقب وقتها دخولا وخروجا. وإن صلى تجده غير حاضر القلب لمناجاة ربه، ينقرها نقر الديكة للحب، لا خشوع في قلبه، ولا سكينة في جوارحه. وإنما يقوم بها رياء حتى يقال إنه محافظ على أداء واجباته الدينية. قطع صلته بالله الرقيب على سره وعلانيته، وخشي الناس أن يذكروه بنقائصه، فعمل على غشهم.

الصفة الثالثة، والسادسة. يمنع الماعون. ويمكن تأويلها بصور كثيرة من الشح، والنذالة، وفقدان المروءة. تفهم على أنه يمنع الزكاة التي هي عون مستحقيها على الحياة الكريمة، ويمكن أن تفهم على أنه يمنع ما العادة أن الناس يتعاونون به فيما بينهم في العادة دون حرج من استعارته، ودون رد من مالكه، ومثلوا له بالخمير، وبالقدر، والدلو، والسكين، والمقص، والإبرة، والفأس، وذكرت عائشة رضي الله عنها أيضا: الماء، ، والنار، والملح. ونحو ذلك.

سورة الكوثر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير، والسّنة. وروي لها اسم اخر" سورة النّحر" واختلف في كونها مكية أو مدنية. فبالنّظر إلى ما روي أنها في العاصي بن وائل الذي أراد أن يغمص من سمو رسول الله ﷺ، على أنه أبتر، مقطوع النّسل لكونه لم يولد له ولد ذكر يبقى اسمه بعده. وبالنّظر إلى أن النّحر المأمور به هو في الحج أو في عيد الاضحى، تكون السّورة مدنية. وعلى كونها مكية. عدوها الخامسة عشر، نزلت بعد سورة العاديات، وقبل سورة التكاثر. وهي السّورة الثامنة حسب ترتيب المصحف.

وهي أقصر السّور حسب تعداد الحروف، وإن ساوت في عدّ الآيات سورة العصر، وسورة النّصر.



إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

بيان معاني الالفاظ:

الكوثر: الخير الكثير.

الشانئ: المبغض.

الأبتر: المقطوع الامتداد.

بيان المعنى الإجمالي:

إنّا بعظمتنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير. في الدّنيا والأخرة على مستو لا يبلغه أحد لعنايتنا بك، وحبّنا لك. فكن شاكرا لتلكم النّعم التي تفوق كل تصور. وأقبل على الصّلاة التي هي أرقى صورة للشكر، والقرب، والاعتراف بالفضل الإلهي. وتقرب لنا بالأضحية وبالهدى. ولا تهتم بالذي أراد إذايتك، فقد قدرت أن يستمر ذكرك، ويتضاعف مع الزمن، وينتشر في آفاق الأرض. وأن مبغضك مقطوع الأثر.

بيان المعنى العام:

1-إنّا أعطيناك الكوثر.

خطاب من الله لنبيّه ومصطفاه يقول له: إنّــا بعظمتنــا، وســعة ملكنــا، أعطينــاك يــا محمد الخير الكثير في الدّنيا والآخرة: النّبــوءة، والكتــاب، وشــريعة الإســلام، وجعلنــا أمّتك يتوسع عددها، ويكثر أفرادها وجماعاتهــا. ورفعنــا لــك ذكــرك رفعــا لا يشــاركك فيه أحد. ونوّرنا قلبك بأنوار الإيمان، وقربناك قربا، خولنــاك بــه الشــفاعة يــوم الــدّين. وخصصناك بالكوثر: نهر في الجنّة. أخرج مسلم بسنده إلــى أنــس بــن مالــك ﷺ قــال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفــى إغفــاءة، ثــم رفــع رأســه متبســما قلنا له : ما أضحكك يا رسول الله؟ قــال: أنزلــت علــى آنفــا ســورة. فقــرأ باســم الله الرّحمان الرّحيم (إنّا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربّك وانحــر، إنّ شــانئك هــو الأبتــر) ثــم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم. قــال : فإنّــه نهــر وعدنيــة ربــي عــز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمّتــي يــوم القيامــة. آنيتــه عــدد النّجــوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنّه من أمّتــي. فيقــال: مــا تــدري مــا أحــدثت بعــدك[1] فهي بشارة من الله لنبيه ترفع ما كان عســاه ان يقــع فــي خــاطره مــن قــول بعضــهم: أبتر. فقوبل الأبتر، بإعطائه الكوثر.

2-فصلّ لربّك وانحر.

هذه البشارة بما خصّه به ربّه من الخير الكثير الــذي لا يحــد. وإغاضــة الــذين حــاولوا إيذاءه، بأنه ﷺ بالمنزلة التــي لا يــدانيها أحــد فــي الــدّنيا والآخــرة، وأن عنايــة ربــه متواصلة. كلّ هذه النّعم توجب الشكر، وأبلغ ما يكــون الشّــكر بالصّــلاة، العبــادة التــي يترك فيها العابد كل شواغل الــدّنيا خلفــه، ويتوجــه بقلبــه، وروحــه، ومشــاعره إلــى ربّه، راكعا ساجدا، فــأمره أن يصــلي لربــه شــاكرا نعمتــه عليــه، وأن ينحــر هديــه، ويذبح أضحيته، تقرّبًا له بــذلك. ويســتروح مــن الآيتــين أداء صــلاة العيــد، والتّقــرب بالأضحية بعد الصّلاة.

3-إنّ شانئك هو الأبتر.

بكلّ تأكيد إنّ مبغضك الذي يؤذيك هو الأبتــر المقطــوع ذكــره. ذلــك أن النّبــي ﷺ ولــد له ابنه الاول: القاسم رحمه الله الذي كان يكنى بــه. ثــم ولــد لــه مــن ســرّيته ماريــة القبطية ابنه: إبراهيم، وتوفي أيضا في بواكير صباه. فكــان مــن أبغــض النّبــي ﷺ لمــزه بأنه أبتر، أي مقطوع الامتداد في الدّنيا، لأنــه لــم يعقــب ولــدا ذكــرا يحمــل إســمه.

---

[1] اكمال الاكمال ج 2 ص 157

فرد القرآن على هذا المجترئ، وعلى الذين فرحوا بموت ابنه، وتوهموا أن الإسلام سينقطع بموت رسول الله ﷺ. ردّ عليهم أن ذكر الرّسول ﷺ سيمتد في الزمن، وسيتسع في آفاق الأرض. وسيدخل النّاس في دين الله أفواجا. وكلّ مسلم يتقرب لمولاه بذكر رسوله والصّلاة عليه، والتّعمق فيما أوحى الله به إليه. بينما لا ينال المبغض له الا اللعنة والازدراء. وكل يوم تضيق دائرة المتقربين منه، فيبقى وحيدا ينكره ولده، وأقرب النّاس إليه، ويتبرؤون منه. وتصوُّرُ أن الذي لا يعقب ولدا ذكرا ناقص، من الأوهام التي ما تزال آثارها منقوشة لدى عدد غير قليل من النّاس. أن الذكر الطّيب للإنسان يمتد بما يتركه وراءه من عمل صالح ينتفع النّاس به، من علم، أو مؤسّسات عمرانية، أو إصلاح اجتماعي، ونحو ذلك. وهو ينتفع ذريته الصّالحة الذكور والإناث على حد سواء. فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرّجال، وولد صالح يدعو له. والولد يشمل الذكر والأنثى.

سورة الكافرون

هذا هو الإسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وكتب التفسير، والسّنة. وروي أنها تشترك مع سورة الإخلاص في تسميتها بالمقشقشة، لانهما تقشقشان من الشرك، وتزيلان أي أثر له. كما روي اشتراكها مع سورة: قل هو الله أحد في اسم" الاخلاص" كما روي تسميتها بسورة " العبادة"، وبسورة" الدّين". والقول المشهور أنّها مكية. ورتبتها حسب ترتيب المصحف: التاسعة بعد المائة. وعدت: الثامنة عشرة حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة الماعون، وقبل سورة الفيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

بيان معاني الالفاظ:

الدّين: العقيدة. وما شرعه الله لعباده على لسان رسله.

بيان المعنى الإجمالي:

قل لهم، وأعلن من غير موارية ولا خوف: يا أيها الكافرون. أنتم أيها الكافرون بالحق! لا رابطة تجمعني بكم. إن الذي أتوجه إليه بالعبادة هو الله وحده، ولا أشرك به أحدا من الأصنام التي تقدسونها باطلا. وأنتم لا تعبدون الله الحق الذي أعبده. إنّكم تخضعون وتتقربون للأصنام العاجزة التي لا يتصور العاقل التّقرب إليها واسترضاءها. وإني كما لا أعبد آلهتكم في المستقبل، كذلك فإني لا أعبدها الآن. ولا أنتم عابدون إلهي، فإن عبادة الله تتناقض مع الشرك. فلا تكون العبادة لله إلاّ خالصة. ولا شيء يجمع بيننا، فأنتم متمسكون بدين كله باطل وأوهام، وأنا متمسك التمسك الكامل بالدّين هداني إليه ربي، عقيدة وشريعة.

بيان المعنى العام:

1←3: قل يا أيّها الكافرون...ما أعبد.

ما روى في سبب نزول السّورة يساعد على توضيحها. كان الرّسول ﷺ يطوف بالكعبة، فاعترضه أربعة من رؤوس الكفر، وعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة،

ويعبدون إلهه سنة. فمن كان على حقّ يسعد الآخر بعبادة إلهه. أسرع النبي ﷺ بالرّد عليهم قائلا: معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله هذه السّورة. فغدا النّبي ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش. فقرأها، فيئسوا منه عند ذلك، وآذوه وآذوا أصحابه. وربما حملهم على ذلك العرض القبيح، أنّهم ظنوا أن حرص النّبي ﷺ على إيمانهم ربّما يستدرجونه به لعبادة أصنامهم.

تفتتح السّورة بكلمة [قل] وهي السّورة الثانية من السّور الخمس المفتتحة بكلمة [قل] وبعدها ثلاثة. هي على ترتيب المصحف." سورة الجن"." هذه". "سورة الاخلاص"."سورة الفلق". "سورة النّاس".

أمر الرّسول ﷺ : أن يواجههم متحدّيا. وأن يناديهم بوصف الكفر الذي كانوا يشمئزون من دعوتهم به، و ﷺ لا يراعي عواطفهم في تقرير ما أمر بتبليغه، فأعلن لهم بذلك لاستناده إلى ربه. فهو لا يخشى بطشهم. وأنّه مطمئنّ إلى انّهم مغلوبون، وأنّ مكرهم يعود عليهم. وأن يرد عليهم بما أنزل عليه:(يا أيّها الكافرون) : لا يتصور مني أن أعبد الأصنام التي تعبدونها. فما عرضتموه عليّ: أن أعبد آلهتكم لمدة سنة مرفوض. وإني واثق من ناحية أخرى بأنكم، وقد تمكن الكفر من قلوبكم، لا تعبدون الله إلهي. فقد أنبأه الله بان تصلبهم بالكفر بلغ بهم درجة اليأس من أن يذعنوا للحق. كما أخبر نوحا بقوله تعالى: (وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن)[1].

4- ولا أنا عابد ما عبدتم.

تصريح بما فهم من الكلام السّابق أنه لا يعبد آلهتهم في الحاضر. فهذه الآية تدل على ثباته، وأنه لا يتصوّر منه أن يعبد آلهتهم أو أن يعترف بها لا في الحال كما تدل عليه هذه الآية، ولا في الاستقبال كما دلت عليه الآية السّابقة.

5- لكم دينكم ولي دين.

مفاصلة كاملة بين عقيدته، وطريقته في الحياة، وغاياته وأهدافه، وبين ما هم عليه. أنا راض ومؤمن بربي، وبما حدده لي في التصور العام، لعلاقتي به، وبالبشر، وبالكون عامة. ومتشبث بما شرّعه لي من أحكام فيما أعمله، وفيما أتركه وأبتعد عنه. وأني واثق من أن الدّنيا طريق للآخرة. وأن رضا ربي هو هدفي الذي أسعى لنيله، وهو جماع سعادتي. وأنتم أيها الكفرة على عكس ما أنا عليه. إني لا ألتقي معكم في شيء، أنتم على طريق ضال، وأنا على طريق الهداية.

[1] سورة هود اية 32

سورة النّصر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، ومعظم كتب التفسير والسّنة. وعنونها الترمذي(سورة الفتح) فتشترك مع سورة : إنّا فتحنا لك فتحا مبينا. وسماها ابن مسعود ﷺ سورة [التوديع] وهي مدنية باتفاق. وبعد ذلك اختلفوا هل نزلت في سنة سبع: فتح خيبر، أو منصرفه من غزوة حنين، في السّنة التاسعة. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ عاش بعدها نحو ثلاثة اشهر. ولذلك اختلف في رتبتها حسب النّزول. ورتبتها حسب ترتيب المصحف العاشرة بعد المائة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝

بيان معاني الالفاظ:

إذا: إذا تحقق.

النّصر: العون الالاهي الذي يعقبه الفوز بالمطلوب.

الفتح: امتلاك بلد العدو.

رأيت: تفهم بمعنى علمت، وبمعنى أبصرت.

دين الله: الإسلام.

أفواجا: جمع فوج: جماعات كثيرة.

تواب: مبالغة في وصفه تعالى بقبول توبة التائبين.

بيان المعنى الإجمالي:

وعد كريم من الله لرسوله أنه سيحقق له ما بذل فيه كل جهده، وما أهمه فشغل به من دخول النّاس في دين الله. وإن كان تطوّر تطوّرا بطيئا بإيمان أفراد معدودين، ثم بإيمان معظم أهل المدينة المنوّرة، إلا أن العرب لم يرفضوا الشرك، ويوحدوا ربهم على نطاق واسع بعد: فوعده بأنه سيحقق له النّصر على الكفر الباغي، نصرا يهزمه هزيمة لا عودة له بعدها في جزيرة العرب. وأنه يحقق له فتح مكة، وأنه بفتح مكة سيدخل النّاس في الإسلام دين الله

الحق، جماعات متتالية، وسيرى هذا في حياته، فينشرح صدره لنصر الله وتوفيقه في أداء شريف همته. وعندما يحقق له ربه من فضله ذلك كله، فليقبل على شكر ربه لأنعمه تلك، بالتسبيح والتنزيه، ويقرن ذلك بالاستغفار. ان الله كان توابا. التواب صفة أزلية، تشمل كل التائبين الذين أخلصوا في توبتهم، وأتبعوا التوبة بالعزم على الاستقامة، والثبات على الخير.

وقد فهم بعض اهل الفطنة من الصّحابة أن هذه السّورة آذنت الرّسول ﷺ بدنو أجله. لأن مهمته في الدنيا قد بلغت كمالها.

بيان المعنى العام:

1-2- إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا.

يخاطب الله نبيه ﷺ، فيعده ويهديه إلى ما يتحتم عليه عند تحقق الوعد. فما هو الوعد؟ وما الذي يجب عليه عند تحققه؟

اولا: الوعد، يتركب من ثلاثة أشياء:

أ- يتحقق لك نصر الله. النّصر العجيب الذي لا يمكن تخريجه على قوانين الأسباب الظاهرة، ولذلك أسند إلى الله الذي بيده الأمر، فهو نصر عظيم. ويشير هذا الوعد إلى تغلبه ﷺ على عناد الشرك، وخضوع العقول والأرواح لدين التوحيد وشريعة الإسلام.

ب: الفتح، وهو فتح مكة. مكة التي أجبره المشركين على الخروج منها، قال تعالى: {و اذ يمكر بك الذين كفرو ليثبتوك. او يقتلوك. أو يخرجوك. ويمكرون ويمكر الله، وهو خير الماكرين }[1] فتح مكة كان له تأثير عظيم في نفوس العرب، فقد كانوا يترقبون معرفة من تكون له الكلمة العليا، بما وقر في نفوسهم من تعظيم البيت، وأن الله منع منه أبرهة، فاقتنعوا: أن من يظفر بها هو مستند إلى الحق، ومؤيد، وجدير بان يتبع في دينه.

ج: رؤيتك دخول النّاس افواجا. ورأيت يصح بمعنى علمت. أي علمت أن النّاس الذي يحضرون ببالك دخلوا في الإسلام. إما بمبايعتك وهم الوفود التي حضرت ممثلة لجميع القبائل العربية، فبايعوك على الإسلام، والتزموا عقيدته وشريعته. وإما بما حصل عندك من الأخبار من جميع الجهات في الجزيرة العربية أنهم آمنوا. وقد تتابع دخولهم في دين الله جماعات جماعات، على خلاف ما كان في أول الأمر من دخول الواحد يتبعه الواحد. ونقل ابن عبد البر أن النّبي ﷺ لم يمت وفي العرب رجل كافر. بل دخل الجميع في الإسلام بعد حنين، والطّائف. منهم من قدم، ومنهم

[1] سورة الانفال اية30

من قدم وافده. ولا يقصد من الآية العرب الذين كانوا على حدود فارس، والروم، موالين لهم، إذ أن هؤلاء لم يدخلوا في الإسلام إلا في عهد سيدنا عمر ﷺ لما فتح العراق والشام. ويحتمل أن تكون رأيت بمعنى أبصرت. وقد رأى النّبي ﷺ أفواج الوفود تتابع على المدينة مبايعة على الإسلام بالنّسبة لهم، ولمن وراءهم.

أما الذي يجب عليه عند تحقق الوعد فهو قوله تعالى: فسبح بحمد ربك واستغفره. فهو مأمور أولا: أن يسبح بحمد الله، وثانيا بأن يستغفره.

أما التّسبيح بحمد الله، فمعناه أن يقرن بين التسبيح والحمد. ليعبر عما امتلأت به نفسه الكريمة من آثار نوافل الفضل الإلهي المتتابع عليه، وما جمعه له من النّصر والفتح ودخول النّاس أفواجا. أمره أن يكثر من التسبيح الدّال على الكمال المطلق، والتنزيه من النّقائص، وأن يقرن ذلك بالحمد والثّناء على ما يسره من الفتح العظيم وانتشار الإسلام بالسّرعة التي تمت.

وأما الاستغفار المقرون بالحمد، فإنه استغفار خاص، لأنّه مأمور أن يقرنه بحمد الله، على ما يسره ومكن منه، وهو استغفار بالنّظر إلى أنه ﷺ يرتقي في كل لحظة من منزلة إلى منزلة أعلى في الصّلاح والقرب من الله، فإذا نظر إلى سابقتها ألفى نفسه كان في منزلة أدون، فيستغفر الله. أخرج الامام مسلم بسنده إلى الأغر المزني، أن النّبي ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي. إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة.)[1].

3- فسبح... إنه كان توابا.

توجه الخاتمة الأمر بالتسبيح والاستغفار، لأن الله موصوف بكثرة توبته عن الرّاغبين في تفضله عليهم بالتوبة والمغفرة. كما قال تعالى: (وإني لغفار لمن تاب، وآمن وعمل صالحا، ثم اهتدى)[2] وبهذا يكون التائب راجيا قبول توبته تبعا لما اتصف به رب العزة، بكونه توابا.

وقد فهم ابن عباس، وابو بكر، وعمر رضي الله عنهم، ان السّورة تنبئ الرّسول ﷺ بدنو اجله. اذ قد اكمل المهمة التي اوكلت إليه، انجزها على خير الوجوه، وما وقع من الفتوحات بعد انتقاله للفريق الاعلى، انما هو استمرار للمشروع الذي فتحه. هو ايذان بتحويله ﷺ من الجهاد لتثبيت اركان الدّين، إلى الحياة السّرمدية الباقية في جوار به ﷺ.

---

[1] فيض القدير ج ص 11

[2] سورة طه اية82

سورة المسد

بهذا الإسم سميت في بعض المصاحف، وكتب التفسير، والسّنة، وسميت في بعض آخر سورة "تبت". وهي سورة مكية باتفاق. رتبتها حسب ترتيب المصحف: الحادية عشرة بعد المائة. وحسب ترتيب النّزول عدت السّادسة. نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة التكوير.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝

بيان معاني الالفاظ:

تبت: خسرت وهلكت.

أبو لهب: عبد العزى عم رسول الله ﷺ.

اللّهب: النار عندما تصفو من الدّخان ويشتد حرّها.

ما أغنى عنه: لا يفيده.

ماله: غالب ما يطلق عليه كلمة المال عند اهل مكة، هو الابل.

ما كسب: ما جمعه من غير الابل.

سيصلى نارا: سيشوى بنار شديدة الحر.

حبل من مسد: حبل مفتول من ليف شديد.

بيان المعنى الاجمالي:

تفتتح السّورة بالدّعاء على يدي أبي لهب بالهلاك والخسران، وأن يشمله جملة وتفصيلا. وهو حقيق بذلك لتجرئه على النّبي ﷺ، لما دعا قومه لينذرهم ما أمره الله بتبليغه، حتى ينقذوا أنفسهم من عذاب يوم القيامة، ولتستقيم حياتهم الدّنيا على أفضل الوجوه. كان متغطرسا لكثرة ما عنده من الإبل، ومن الرّباع، والنّقود، والمتاع، وما رزقه من أولاد. إن كل ذلك لا يفيده شيئا. وسيصلى ويشوى في جهنم نارا كأشد ما تكون النّار حرارة.

وتصحبه في عذاب جهنم إمرأته أروى بنت حرب. سيكون وضعها في جهنم أن حبلا من ليف شديد يحيط بعنقها، وهي تحمل الحطب فتلقيه حول زوجها لتزداد به نار جهنم تأججا واشتعالا. جزاء ما كانت تؤذي به النبّي ﷺ، بطرح الحطب والشوك في طريقه.

بيان المعنى العام:

1-تبّت يدا أبي لهب.

روى الإمام البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت **وأنذر عشيرتك الأقربين**، ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتّى صعد الصّفا. فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا، فاجتمعوا إليه، فقال : أرأيتم إن أخبرتكم خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالو: ما جربنا عليك كذبا. قال : فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب عظيم. فقال أبو لهب: تبا لك، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام، فنزلت: **تبت يدا أبي لهب وتب**[1].

يكشف هذا الحديث عن الظرف الذي نزلت فيه السّورة، وما أحاط بها. أبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم النّبي ﷺ. وكنيته أبو لهب. لم يعرّف باسمه حتى لا يذكر في القران [عبد العزى] الصنم. وقيل في سبب تكنيته أنه كان محمرّ الخدين جميلا كأن وجهه لنضارته ينبعث منه اللّهب. وقيل ذكر بكنيته لأنه اشتهر بكنيته حتى ينصرف الاحتقار له. وقيل : إن كلمة أبي كذا تدل على الملازمة. فأبو لهب يدل على ملازمته للهب السنة النّار المشتعلة. فكانت هذه الكنية فيها اشارة لعاقبته. وتفتح السّورة بالدّعاء عليه، وتوبيخه، ووعيده. بأن تلزمه الخسارة والهلاك، لأن الإنسان يحصل على رزقه ومنافعه بيده، فالدّعاء عليه بالخسران بفقدان الآلة. ولأنه حاول قذف النّبي ﷺ بحجر لما سمع مقاله.

وتب- تفهم على أنها للدعاء عليه جملة بالخسران والهلاك، بعد الدّعاء عليه بهلاك بعضه "يديه"، كما يمكن أن تفهم على تحقّق الدّعاء. أي وتحقق الدّعاء. أي وتحقق فعلا تبابه وهلاكه.

2-ما أغنى عنه ماله وما كسب.

تفهم الآية على أنّه لا ينتفع بما عنده في الآخرة، فهو صائر إلى جهنم، لا ما يملكه من عديد الإبل، ولا ما عنده وجمعه من النّقود، والمتاع، والسّلاح، والرّباع. فيكون مدلول المال الإبل حسب إطلاق أهل مكة. ويمكن أن يكون كلمة المال

---

[1] فتح الباري ج 10 ص 118/120-327/329

الأولى عامة في جميع ممتلكاته التي ورثها، وما كسب المعطوفة ما ضمه إليها مما اكتسبه بنفسه. كما يمكن حمل ما كسب على أولاده.

3-سيصلى نارا ذات لهب.

عاقبته محققة لا شك فيها: إنّه سيشوى في جهنم، تحيط به النّار اللاهبة من جميع جوانبه. النّار التي توقدت فبلغت أقصى قوتها بذهاب دخانها وصفاء شعلتها.

4-و امرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد.

إمرأة أبي لهب أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان بن حرب. وكنيتها أم جميل، كانت تمالئ زوجها في بغض النّبي ﷺ. ومن إذايتها أنها كانت تنشر في طريق رسول الله ﷺ الحطب، والشوك، والحسك. فصورها القران وهي تعذب مع زوجها في جهنم، يحيط بعنقها حبل مفتول من ليف اليمين شديد. تحمل عليه الحطب ليقوى لهب النّار على زوجها في جهنم، كما كانت ترمي في طريق النّبي ﷺ الحطب وما يؤذيه.

سورة الاخلاص

ذكر العلماء لهذه السّورة واحدا وعشرين اسما. ومن أشهرها هذا الاسم، وسورة قل هو الله احد. وأُخذتْ أسماؤها من المضامين الثرية التي وردت فيها. وهي سورة مكية على الصّحيح. رتبتها حسب ترتيب المصحف: الثانية عشرة بعد المائة. وعدت الثانية والعشرين حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة النّاس، وقيل سورة النّجم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝

بيان معاني الالفاظ:

الصّمد: المقصود وحده لنيل المرغوب. السّيد المطاع الذي لا تنجز المهمات إلا بإرادته وبقدرته.

كفؤا: مساويا، مماثلا.

أحد: موجود.

بيان المعنى الاجمالي:

مضمون هذه السّورة مختص ببيان الوحدانية لله في كل شيء. فهي بذلك قاعدة الإسلام فكان الابتداء بكلمة [قل] تعبيرا عن الاهتمام بمضمونها، وأنه ما يتحتم نشره بالقول. إذ هو ما محض له ﷺ نشاطه الإنذاري والبياني.

أمر أن يقول: الله أحد في ذاته وصفاته، وفي فعله. ثبتت له الأحدية ثباتا ذاتيا لا تنفك عنه، ولا يمكن تصور إله غير واحد. وأن يقول أيضا: إن كل راغب في أمر لا يحصل على مرغوبه إلا بفضل من الله، فهو الذي يقصد بتحقيق الرّغائب. وأن كل الأوهام التي اتبعها الضالون من أن الله أنجب ولدا وهو عيسى، أو أن الله أنجب الملائكة بناته من تزوجه ببنات الأسر الشريفة من الجن، أو أن إله الخير فكر فكرة سوء فتولد إلها آخر هو إله الشر. كل هذه الأوهام باطلة مناقضة لقضايا

العقل. وقل إن الله ليس له مماثل. فليعطل الإنسان ما تحاول الشياطين جره إليه من محاولة تصور الذات الإلهية وإعطائها صورة كلية أو جزئية قريبة مما هو معهود للناس في الدنيا. ليس كمثله شيء وهو السميع العليم.

بيان المعنى العام:

1-قل هو الله أحد.

افتتحت السّورة بكلمة [قل] فهي بذلك إحدى السّور الخمس المبتدأة بها. وهي: قل أوحى إليّ انه استمع نفر من الجن. قل يا ايها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. قل هو الله أحد. قل اعوذ برب الفلق. قل أعوذ برب النّاس. وتكررت 332 مرة في القران في أثناء السّور. وهي تدل على قوة الاهتمام بمدخول القول، وأنه أمر خاص يؤكد الأمر العام بالتبليغ فيما تضمنه القران والوحي. أمر النّبي ﷺ، كما أمر كل تال للقران بأن يتلو [قل هو الله احد] فيفيض شعوره بالعزة وقد وجد نفسه مأمورا أمرا خاصا من ربه. فماذا يقول؟

يقول هو الله أحد هذه الجملة المتكونة من ثلاث كلمات[هو][الله][أحد] أما الكلمة الأولى–هو– فاصلها ضمير يعود على معلوم. وعند كبار العارفين من المتصوفة لا يرون شيئا موجودا وجودا حقيقيا كاملا إلاّ الله. فهي مساوية لكلمة الله. وهذا المبتدأ كاف عندهم في تعريف الذات الإلهية واستحضار جلالها. وعند من لم يبلغ هذه الدرجة من أهل الإيمان حصل في إدراكهم وجود الله، ووجود الكائنات الأخرى فكان تعريف الذات الإلهية المقدّسة لا تتمّ إلا بإضافة كلمة الله، فحصل من المبتدأ والخبر التعريف بذات الله تعريفا كاملا. ولما كان كثير من النّاس تصوروا الله وتصوروا في هذا المفهوم كثرة أكملت الآية التعريف بالذات الإلهية، بأنه أحد.

وكلمة أحد قوة تمكن هذا الوصف في تعبيره عن الذات الإلهية بصفة أبلغ من كلمة واحد. لأن قولنا الله أحد يفيد أن التفرد في الألوهية بجميع حقائقها من صفات الكمال والتنزه عن النّقصان ثابت له. بينما قولنا الله واحد هو لنفي التعدد أي لا هو إثنان ولا ثلاثة... فأفادت الآية أن النّبي ﷺ مأمور أن يصرح بهذه الحقيقة في الكون: أن الله أحد لا يقبل القسمة ولا الامتزاج ولا المشابهة ولا المكان ولا الزمان، فبطل كل ما يشكله الخيال عن الذات الإلهية وتعالى أن يكون مشبها بشيء في الوجود.

2-الله الصّمد.

الصّمد كلمة ثرية بما تدل عليه من معان متقاربة ترجع كلها إلى أنه وحده المقصود بتحقيق الرّغبات، والعون على المهمات، لا يقصد بحق لقضاء الحوائج إلا هو. فقوله تعالى: الله الصّمد، يثير في نفس التالي أنه لا يسعده بالعون في حياته إلا الله. ويدل على فقر كل الكائنات لرعايته، وإمداده. إذ هو المالك لكل صغيرة وكبيرة، ولكل خير تتعلق بنيله الأماني. المتصرف بالحكمة في وجودها وفي تمكين من يشاء منها أو حرمانه.

3-لم يلد ولم يولد

هذا هو التعريف الثالث بما اختص به الله سبحانه مما لا يشاركه فيه أحد. هو أنه لم يلد فنفت الآية عن الله أن يكون له ولد. وهذا ناظر لإبطال ما الصّقه الشيطان بعقائد كثيرة من النّاس. كالنّصارى الذين اعتقدوا أن المسيح ابن الله وبعض اليهود أن عزيرا ابن الله وبعض العرب الذين نسبوا له بناتا تولدن من زواجه ببنات البيوت الماجدة من الجن. والعقل يقضي بنفي أن يكون لله نسل. لأنه لوكان له ولد لكان ولد الولد يحمل خصائص أبيه وأهمها[الألوهية] والإله لا يكون مسبوقا بعدم فاعتقاد ابن الله مناقض للعقل. ولأنّ الرّغبة في الولد تكون بدافع تأمين الوالدّ عند العجز بالاعتماد على نسله، وليرث ما جمعه أبوه. وكل ذلك مناف للأحدية، والصّمدية، وما وجب لله من كمال، منذ الأزل.

وكما نفي القرآن عن الله أن يكون له ولد من نسله فكذلك تكرر نفيه أن يقرب أحدا من خلقه حتى يكون بمثابة الولد له. قال تعالى: (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه)[1] وقوله تعالى: (قالو اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني)[2] وأصرح منه في النّفي قوله تعالى:(وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك)[3] فأبطل القران قول الفريقين من النّصارى الزاعمين بأن عيسى ابن الله، والزاعمين أنه بمثابة ابنه. وكذلك ما اعتقده بعض العرب أن الملائكة منزلتهم من الله منزلة بناته.

و لم يولد - لم يلده احد. وهذا التصور الشنيع، وإن كان لم يقل به أحد بالنّسبة لله، إلا أنه يشير إلى إبطال عقيدة النّصارى في ألوهية المسيح. بالتنصيص على أن الإله لا يكون مولودا. لأن المولود مسبوق بعدم. فهو ناقص محتاج من مبدئه إلى

---

[1] سورة البقرة اية 112

[2] سورة الاعراف اية 27

[3] سورة الاسراء اية 111

من يوجده. ونقضت الآية عقيدة الزراد شتيين الذين زعموا أن إله الخير فكر فكرة سوء تولد منها إله الشر.

تنظف هذه الآية العقل البشري من الأوهام التي انحرف بها الضالون عن التوحيد الحق.

4-و لم يكن له كفؤا احد.

إذا كانت الآيات الثلاث الأولى أفردت الله بالألوهية، وأثبتت له بالمنطوق والمفهوم صفات الكمال التي تقتضيها الألوهية الفاعلة ، ونفت عنه كل نقص، فإن هذه الآية جمعت ما تدل عليه الآيات الثلاث. فكما أنه سبحانه ليس له شريك في الألوهية، فإنه ليس له مساو ولا مماثل. فليقف الخيال عند حدوده ولا يتجاوزها، فلينصرف عن تصور الذات الإلهية، التصورات التي لا يستطيع أن يعزلها عن الزمان والمكان. إن جميع الفروض الخيالية في هذا الميدان فروض باطلة وسخيفة. ولْيستَعنْ في قمع وساوس الشيطان بتلاوة هذه السّورة، والتأمل العميق في معانيها.

إنّ الله قد خص تالي هذه السّورة بثواب عظيم. فقد ورد أنها تعدل ثلث القران. وذلك من سعة الفضل الإلهي بترتيب الأجر العظيم على الفعل القليل. ولا يفهم منه أن المؤمن يقتصر على تلاوة سورة الإخلاص لينال هذا الثواب :[أجر من قرأ القران كله] إذا لم يرد عن رسول الله ﷺ :ان من كررها ثلاث مرات أغنته عن تلاوة القران.

سورة الفلق

هذا هو الاسم التي اشتهرت بـه فـي المصـاحف، وكتـب التفسـير. وسـماها بعضـهم سورة المعوذة الأولى، نظرا لتسميتها مع سـورة النّـاس بـالمعوذتين. كمـا ورد تسـميتها مع سورة النّاس بالمشقشقتين. كما روي تسميتهما بالمقشقشتين.

و الأصح أنهـا مكيـة، وهـي السّـورة : الثالثـة عشـر بعـد المائـة حسـب ترتيـب المصحف. وعدت حسب ترتيب النّـزول: العشـرين نزلـت بعـد سـورة الفيـل، وقبـل سورة النّاس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

أعوذ: ألتجئ إلى ربي ليحميني مما أخافه.

الفلق: الصّبح.

غاسق: الليل عند اشتداد ظلامه.

وقب: دخل ظلامه في كل شيء

النّفث: نفخ مع تحريك اللسان دون إخراج ريق.

العقد: جمع عقدة وهي ربط في خيط

بيان المعنى الإجمالي:

أمر إرشاد لنبيه ولكل مؤمن، أن يطلـب مـن ربـه الـذي أخـرج الصّبح مـن ظـلام الليل، أن يحميه من شر ما خلقه الله من المكلفين الـذين يسـعون بالشـر والفسـاد، ومـن الحيوانات، كالأفاعي، والعقارب، والوحـوش المفترسـة، ومـن مركبـات الكـون وقـواه المؤذية للإنسان: كالزلازل، والنّيران. وأن يحميـه مـن شـر الليـل إذا اشـتد ظلامـه، فانطلقـت اللصـوص والأعـداء متخفـين بظلامـه، وكـذلك الحيوانـات المؤذيـة. وأن يحميه من شر السّاحرات اللاتـي يعملـن علـى الإضـرار بمـن يـردن إيـذاءه بمـا جمعن من الذكاء والخبث، وينفثن في العقد إيهاما بإبقـاء عملهـن مـا دامـت العقـد لـم

تحل. فيجد المؤمن من قوة اعتماده على ربه، ولجئه إليه، ما يعطل تأثيرهن. وأن يحميه من شر الحاسد الذي امتلأ بغضا وكراهية للمحسود، ولا يرعوي عن تدبير ما يؤذيه.

بيان المعنى العام:

قل أعوذ برب الفلق.

أمر خوطب به النبي ﷺ أولا، وهو صالح لأن يتجه إلى كل مؤمن بالله، ذلك أن مضمونه ليس من الأمور الخاصة به. ومعنى ذلك: أنت مأمور بأن تقول: **قل أعوذ برب الفلق.** فكلمة [قل]جزء من الصيغة التي أمر بها. فلا يترتب تحقق خصائصها إلا بالحفاظ على الصيغة كما أنزلت.

أعوذ: إني أشعر بعدم قدرتي على دفع ما أخافه، ولذا فإني ألتجئ إلى القادر الذي بيده وحده حمايتي مما أحذره. وقد أمرنا جميعا إذا أردنا أن نقرأ القرآن أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. قال تعالى:(**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)**[1].فإن الشيطان يعمل على إشغال التالي عن التدبر في القرآن بتذكيره ما يسرح معه تفكيره، فيحرمه من التأثر بالهدى، والقادر على منعه وتركيز ذهنه هو الله وحده. فالتالي يلتجئ إلى الله ليبعد عنه ما يلهيه عن تدبر آياته. والطفل إذا شعر بخطر يعوذ بأبويه وهكذا.

برب الفلق. الفلق هو الصبح الذي يفلق ظلام الليل الدامس. والليل مسرح لنشاط اللصوص والسباع، والحشرات السامة، وكيد الأعداء. وتكون قدرة الإنسان على التوقي أضعف من النهار. فشدة الليل لا يخرقها إلا القادر الذي نظم الكون تنظيما يبرز فيه الصباح فالقا لظلمة الليل. فلذلك اختير من صفات الفعل الإلهي أنه رب الفلق.

2-من شر ما خلق.

الاستعاذة واللجأ إلى الله للحماية **من شر ما خلق** الله. مما كان في نفسه شرا بالنسبة للإنسان. كالحيات والحشرات السامة. والصواعق والزلازل. ومن شر ما خلقه الله قابلا للخير والشر، ولكنه انحرف فمحض نفسه لإلحاق الشر بغيره، بيده أو بلسانه، أو بترويج الشبهات وتضليل الناس، أو بما يحبكه من مؤامرات. ومنه الاستبداد في الحكم، الشر المسلط على المظلوم، والشر المسلط على المجتمع، المفكك لترابطه، المهدم لقوته.

---

[1] سورة النحل اية 98

3-و من شر غاسق إذا وقب.

وقل أعوذ من شر غاسق. والأقرب أن الغاسق هو الليل عند اشتداد ظلامه. وفسر بمحامل أخرى، منها القمر إذا خسف وأظلم سطحه للناظرين. إذا وقب إذا دخل ظلامه وتغلغل في كل شيء فعتمة. وهذا داخل في قوله من شر ما خلق، ولكن قصد تخصيصه بالذكر لكثرة ما يتعرض له النّاس من البلاء في الليل كما تبين لنا في تفسير الفلق.

4-و من شر النفاثات في العقد.

شر آخر خص بالإستعادة منه. وهو شر السّاحرات الشريرات. والرّجال الذين يتعاطون السّحر مثلهن. ولكن أنث لفظ [السّاحرات] مراعاة لما هو المتعارف عند العرب أن معظم المتعاطيات للسحر هن من النّساء. وقد بيّنا في سورة البقرة آية 102 بعض ما يتعلق بالسّحر. ومعظم المتعاطيات للسحر يتمتعن بذكاء حاد وخباثة حتى يصبح الشر أليفا لهن. ولشدة ذكائهن وشرهن وخبثهن تعملن على الإضرار، وكثيرا ما يكون بتوسيط من يثق فيه المسحور. فالإستعاذة بالله منهن درءا لشرهن، لا لأن لهن قدرة على الإيذاء. فكل شيء يحدث في الكون هو بقدرة الله وحده.

5-و من شر حاسد إذا حسد.

قسم الله الخير بين عباده فنال كل منهم ما قدر له، من المال، والجمال، والعلم، والمهابة، وصلاح الأولاد. وإذا رزق الله الانسان القناعة بما أتاه الله ورضيت نفسه بالمقسوم، دون أن يعطله ذلك عن السّعي لما هو خير، تفتحت نفسه لحب الآخرين. ويرى فيما رزقهم الله من نعيم آثار فضل الله التي خصّ بها من يشاء في الدّنيا، ويدخر لمن يشاء ما هو أبقى وأنفس في الآخرة. وأنه سبحانه هو وحده محول الأحوال فهو يرقب فضل ربه باستقامته وبالدّعاء.

وقد تنحرف نفس بعض النّاس، فإذا هو يبغض من يكون في خير، ويكره أن تدوم عليه النّعم التي أتاه الله. وتتفاعل في باطنه تكلم الكراهية والبغض فيستولي عليه الحزن والبغض حتى تزول تلكم النّعم، وقد يعمد إلى الأضرار لينفس شيئا من الحقد. وهذا مرض نفسي من أصيب به يخسر سعادته، ويكون ضرره عائدا عليه أكثر من المحسود، ودواؤه أن يزكي نفسه بالرّضا بما قسمه الله. ولما كان الحاسدون يسعون في الإضرار بالمحسود وخاصة في الخفاء، وبالمؤامرات، تم إرشادالمنعم عليه إلى الاستعاذة بالله من تلكم الشرور. والله غالب على أمره

سورة النّاس

هذا هو أشهر أسمائها. كما تسمى مع سورة الفلق بـ[المعوذتين] و[المقشقشتين] و[المشقشقتين]. والرّاجح أنها مكية. وتكون رتبتها على هذا القول الحادية والعشرين. نزلت بعد سورة الفلق. وهي السّورة الرّابعة عشرة بعد المائة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

أعوذ: أعتصم وأحتمي.

النّاس: البشر.

إله النّاس: المتفرد بكونه معبود النّاس لا معبود غيره.

الوسواس: من يلقي ما يريد إبلاغه من الشرّ بطريقة خفية.

الخنّاس :الذي يتكرر منه الاختفاء.

الجنّة: الشياطين.

بيان المعنى العام:

هذا هو الإنسان في دار التكليف مبتلى، **ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيي عن بيّنة** [1]-رزق العقل وسلامة الفطرة، وبعث الله إليه رسله ليساعدوه على اتباع الصّراط المستقيم. وليتحقّق ما في الحياة الدّنيا من تكليف ويتميّز الخبيث من الطّيب، كان الإنسان معرضا لوسوسة الشياطين من الجن والانس. ولطفا به من ربه أرشده إلى ما يحمي به نفسه من الغزو الماكر بهذه السّورة. علمه أن يقول بلسانه ويحيي ما يقوله في عقله وروحه: إني أحتمي برب النّاس الذي تولاهم بعناية والطافه، ملكهم المتصرف فيهم، إلههم المعبود وحده. أحتمي به من الشر القطيع

[1] سورة الانفال آية 42

النّاشئ من الحديث الخفي الذي يصل إلى القلب وتنفذ سهامه إلى العقل والرّوح فتنومهما، وإلى العواطف والشهوات فتلهبها. الذي يتولى الشيطان، والمفسدون من النّاس ذلك بمكر وخبث. فلا حماية لي منهما إلا بحولك وقوتك ربي لتحصنني من إضلالهما.

بيان المعنى العام.

1-قل أعوذ برب النّاس.

هذه آخر سورة من سور القرآن المجيد، وآخر سورة من السّور الثلاث المتوالية المفتتحة بكلمة[قل]. افتتحت كل واحدة منها بكلمة [قل] بينت الأولى منها سورة الإخلاص: القاعدة التي يقوم عليها الدّين الإسلامي: توحيد الله في ذاته وصفاته. وفي حاجة كل محدث ليفيض عليه الوجود، ويمكنه من أسباب البقاء. مع تنزيهه عن كل ما يرسمه الخيال.

وبينت الثانية سورة الفلق. أن كل فرد من أفراد الجنس البشري لا تكتب له السّلامة إلا إذا احتمى برب الفلق. إذ المتحكم في الكون كله هو الله، والإنسان ضعيف وقواه محدودة. فلا يقوى على إبعاد الشر والأذى عن نفسه إلا إذا حماه ربه.

و بينت الثالثة سورة النّاس: أنه لا يحمي الإنسان من اتباع طريق الضلال، الذي يخسر به دنياه وآخرته، إلا رب المكلفين جميعا.

تأمر الآية محمدا ﷺ، و هو الأسوة الحسنة لكل إنسان، أن يقول بلسانه مصرحا بما استقر في عقيدته، وآمن به إيمانا واضحا: قل أعوذ برب النّاس. أسأل الله رب النّاس جميعا، الذي هو موجدهم، والذي أحاطهم بالطاقة فمكنهم من بلوغ المستوى الذي عليه كل فرد منهم. وأن كل ما جمعه أحدهم من قوة وتأثير، ما تمكّن منه إلاّ بإرادته وقدرته تعالى. ليقل: إني أحتمي وأتحصن، و ألجأ إلى ربّ النّاس فلا أمن لي من الخطر العظيم الذي يهلكني إلا بما يتنزّل على من مدَده. فأحيت الآية الأولى في النفس: أن كل ما أحاط بالإنسان من الالطاف هو بفضل الله سبحانه. ولا يكفي في التحصن إعادة : قل أعوذ برب النّاس، بل لابد أن يقترن به كون عقله وروحه ومشاعره مستحضرة لتعلقه بذلكم المدد، واعية بالحاجة إليه.

2-ملك النّاس.

أضافت الآية الثانية: ملك النّاس معنى نفسيا، يقرر المعنى الأول ويزيد عليه. ذلك أن علاقة البشر بالله تنطلق من خلقهم، وتيسير الحياة عليهم ليتطوروا رقيا من

الخلية الاولى إلى الانسان المكتمل الخلق الفاعل، المنجب لمن يخلفه. فأضافت هذه الآية أنهم مملوكون له يتصرف فيهم تصرّف المالك في ملكه. وهو ما يقوي في نفس المستعيذ المتحصن، أنه تحصّن واستعاذ بالذي يملك النّاس جميعا، القادر على صرف الأذى النّفسي، والانحراف الخلقي والعقدي.

3-إلاه الناس.

و ارتقت العلاقة ليصرح المستعيذ المحتمي بما وقر في نفسه بأن علاقة الإنسان بربه هي علاقة العبودية. بتخصيصه أن الإنسان لا يسمو من الطّين والمادة اللذين خلق منهما، إلا عندما تسمو أشواقه، ويخضع متقربا للمتفرد بالكمال المطلق. الذي يُفيض على الإنسان صفاء العقيدة، ونور العقل المهتدي.

4-من شر الوسواس الخنّاس.

كشفت هذه الآية عن الخطر الذي يلتجئ منه الإنسان إلى المتفرد بما وضحته الآيات الثلاث ليحميه منه. وبيان ذلك:

الإنسان غير محصن من الآفات التي تفسد عليه هناءه وراحته، في صحته وبنيه وزوجه وأسرته، وماله. وقد أرشد القرآن للتحصن من ذلك بما في سورة الفلق. وما ذهب من ذلك يؤلمه ولا شك، ولكن لا يهدم إنسانيته، ولا يعزله عن الكون. ومن المقرر أن كل ما كسبه من النّاحية المادية، غير دائم منذ البداية، وأن تنعم الإنسان به هو إلى أجل مقدر في علم الله.

و لكن الخطر الأعظم، هو في تلكم القوة الخفية التي تُسوّم مناعته، ولا تزال تستميله حتى يألف الشر، ويهون عليه ارتكابه. فتنطلق إرادته وقدرته إلى الفعل الخبيث، والعقيدة الفاسدة، والسّوء من القول. ويقطع صلته بربه وخالقه فينسدل حجاب يغشّي بصيرته. فالوسواس يغزو إرادة الإنسان وما هو مقتنع به من الخير، وما هو عليه من الدّين أو الحياء أو الخوف. فيطرد تلكم الصّور من المقاومة لوسوسته، حتى يحوله إلى الشر شيئا فشيئا. يأتيه بالخواطر الفاسدة ثم يعاود تحديثه بها وتحبيبه لها، وكلما وجد منه مقاومة للشر خنس واختفى، ليعيد الكرة بصور أقرب للشهوة، وأكثر إغراء، حتى يندفع الإنسان إلى السّوء والإثم، وقد خارت عزيمته، وذهبت مقاومته. ثم ما يزال يغريه وينتقل به من فساد إلى فساد، ومن إثم إلى إثم، حتى يطبع على قلبه. ويكون من الخاسرين في دنياه وآخرته.

5-الذي يوسوس في صدور الناس ،

كشفت الآية عن دهاء الشيطان ومكره، ومثل ذلك من كان من حزبه من الفسقة الخبثاء من النّاس. إن منهجهم في الإغواء هو أن يحدثوا المغرورين من البشر ما يصل إلى قلوبهم، ويرتسم في عقولهم، بتضخيم الجانب المناسب لشهوة الانسان كتحصيل المال بالتحايل، أو بالظلم، أو بالسّرقة والخداع، والكذب والزور. وتعطيل الخوف من الفضيحة، أو القانون، أو الدّين، أو ما في ذلك من معاكسة الفطرة، وما يزال يعاوده ويدفعه دفعا رفيقا يتقدم به شيئا فشيئا إلى الفساد والإثم، حتى يطيعه. ثم يعاود الكرة للعودة والتعود. وكذلك الأمر في قضاء الشهوة الجنسية. أو الظلم والإستبداد. أو الكذب وتغرير النّاس. وكل ضروب الشر.

6-من الجنّة والنّاس.

تبين الآية الخاتمة انقسام الموسوسين إلى صنفين:

اولا: الجنة وهم الشياطين الذين هم نسل إبليس الخبيث الوقح، الذي صرح بأنه سيمحض كل ما انطوى عليه من الخبث والمكر والدّهاء لغواية الإنسان. قال تعالى: (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين*إلا عبادك منهم المخلصين)[1].

ثانيا: الخبثاء المفسدين من البشر الذي استولى عليهم الشيطان فأضلهم فأطاعوه، الذين ينشرحون لانتشار الرّذيلة، تجدهم يسيرون في إغوائهم على طريقة الشيطان، يتقربون من الشخص، ويظهرون له الود، ويختارون الوقت الذي يختلون به فيحدثونه حديث السّر، حديث الودود المخلص في الظاهر. وييسرون له ما صعب حتى يقع في الرّذيلة ويقوي حزبهم. برع هؤلاء بما يتجاوز وسوسة الشيطان في إضلال النّاس وإفساد المجتمعات. أوتي كثير منهم حظا من الفصاحة، وخلابة المنطق، والقدرة على تطويع من يستمع إليهم. وتجد فريقا منهم يترصدون أصحاب السّلطان ليتقربوا إليهم بمكر عجيب، حتى يكونوا هم البطانة المقربين، فيحولون ما كان في صاحب السّلطة عند توليه من الخير إلى البطش والفساد. وبذلك فسدت تصرفات عدد غير قليل من الحكام. واختلّت الرّوابط الاجتماعية بما يقترن بالفساد من انحلال. وضعفت الدّول التي ليس لها من المؤسسات القوية ما تطرد به هؤلاء الجراثيم الخبيثة.

---

[1] سورة الحجر آية39/40

فعم قوله مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ الموسوسين الّذين اختلفت اجناسهم بين جن اختفوا عن الانظار، فلا تشهدهم الأبصار. وبين بشر اضلهم الله على علم، سعادتهم في نشر الفساد وتحبيب الإثم. يعملون بطرق خفية ماكرة، ليطمسوا الطّريق المنجي في الدّنيا والآخرة. وإنهم أشد من الجنّة، وأعمق ضررا وأشدّ خطرا، فلنستعذ بالله من الفريقين. والله ولي المؤمنين.

فسبحان من سما كتابه فأحاط بالإنسان من جميع نواحيه، ليرشده سواء السّبيل ويسمو بمواهبه ويعليه. يعليه ليحصن نفسه من جوانب الدّركات، وليـنعم برضوانه في الدّنيا وفي فسيح الجنات. فقد افتتح كتابه الكريم بتعلمينا حمده والثناء عليه بما هو أهله في سورة الفاتحة، وختمه بإرشادنا إلى ما يحصننا من الغواية حتّى تكون مسيرتنا ناجحة وتجارتنا في هذه الدّنيا زكية رابحة.

اللهمّ لك الحمد حمدا يسموا بتوجهه لعلي ذاتك، ولك الشكر الصّادق على ما أوليتني من فيوض عنايتك ورحماتك. هديتني بفضلك ربي فقرنت بيني وبين كتابك العزيز أكثر من ستة أعوام، مضت كلمح البصر حتّى بلغت في هذا اليوم مسك الختام. بعد عصر يوم الجمعة السّابع من شهر محرم الحرام.عام1436 من هجرة سيد الأنام.

اللهم صلّ وسلّم عليه صلاة متقبلة تتضاعف مع الدّقائق، والسّاعات، والأيام، والأعوام. نجدها ذخرا لذيك تدخلنا في شفاعته مع المرضى عنهم في دار السّلام. الله ثبتنا بالقول الثابت في الدّنيا والآخرة. واجعل وجوهنا ناضرة إلى على ذاتك ناظرة. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.31-10-2014-

نمـــاذج من اختيـــاراتي فـــي فـــهم بعـض الأيـــات

الجـــزء الأول

الجـــزء الثانـــي

سـورة النبأ

614	9	وجعلنا نومكم سباتا

سـورة النازعات

626	1	والنازعات غرقا
635	31/30	والأرض بعد ذلك دحاها

سـورة عبس

644	12/11	كلا إنها تذكرة ...ذكره

سـورة التكوير

657	9/8	وإذا الموءودة .....قتلت
658	11	وإذا السماء كشطت

سـورة الانفطار

667	8/6	يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم

سـورة الانشقاق

687	19/16	فلا أقسم بالشفق .....طبقا عن طبق

سـورة الطارق

702	7/5	فلينظر الإنسان ....والترائب

سـورة الأعلى

709	7/6	سنقرئك .....وما يخفى

سـورة الفجر

721	4/1	والفجر وليال عشر.... إذا يسر
725	14/10	وفرعون ذي الأوتاد

سـورة البلد

735	4	لقد خلقنا الإنسان في كبد

سـورة الليل

753	11	إن علينا للهدى

سـورة الضحى

759	7	ووجدك ضالا فهدى

سـورة التين

768	5	ثم رددناه أسفل سافلين

سـورة البينة

787	4	وما تفرق الذين أوتوا الكتاب

سـورة الإخلاص

832	1	قل هو الله أحد

الفهـــرس

